توفيق يوسف عوّاد



المؤلفات الكاملة

بعد أن وضعت «مكتبة لبنان» في متناول جماهير القرّاء كتب توفيق يوسف عوّاد، كلًّا منها على انفراد في طبعاتها المتوالية، يطيب لها أن تتوّج عملها بنشر «المؤلّفات الكاملة» مجموعة بين دفّتي مجلّد واحد. وهذا المجلّد النفيس هو الحلقة الأولى من سلسلة المؤلّفات الكاملة التي تعتزم الدار إصدارها لكبار الكتّاب والشعراء منذ عصر النهضة حتّى اليوم. وهي تتوجّه به إلى عشّاق أدب عوّاد وإلى هواة الكتب – التحف التي يزيّنون بها مكتباتهم. وهو مصدّر بخلاصة عن سيرة المؤلّف ومذيّل بملحق بعنوان «منسيّات» يضمّ بعض ما لم يُنشر حتّى اليوم من كتابات عوّاد.

ومكتبة لبنان في عملها هذا تهدف إلى خدمة القرّاء، من مختلف الأعمار، الذين يتعاظم إقبالهم على أدب عوّاد يومًا بعد يوم، في لبنان وفي سائر البلاد العربيّة. لما يجدون في هذا الأدب من متعة الفنّ، ومن تصوير للإنسان في صراعه مع القدَر وفي ثورته وتساميه.

إنّ «مكتبة لبنان» يسعدها أن تقدّم الكاتب الكبير في «المؤلّفات الكاملة» – بعد أن قدّمته في سلسلة كتبه – في حلّة رفيعة المستوى، ممتازة الطباعة، فائقة الإخراج.

المؤلفاتُ الكامِلةِ

توفيق يوسف عوّاد

المؤلفات الكاملة

الصبيّ الأعرج
قميص الصوف
العذارى
مطار الصقيع
الرغيف
طواحين بيروت
السائح والترجمان
قوافل الزمان
غبار الأيّام
فرسان الكلام
حصاد العمر
منسيّات

مكتبة لبنان

مكتبة لبنان

ساحة رياض الصلح - بيروت
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

تنضيد الحروف : حسيب درغام وأولاده . المكلّس
الطباعة : تيبوبرس ، ملكي/قرباني . سنّ الفيل

الطبعة الأولى - ١٩٨٧



نموذج من كتابة المؤلِّف ، مأخوذ من مسوّدة «حصاد العمر» .
ويلاحظ القارئ كثرة التشطيب والتصحيح .

توفيق يوسف عوّاد

١٩١١ * وُلد في ٢٨ تشرين الثاني من السنة المذكورة ، في بحرصاف ، وهي قرية عريقة من قضاء المتن في جبل لبنان ، انتقل إليها أجداده في أواسط القرن السابع عشر من حصرون ، شماليّ لبنان ، حيث أصل العائلة. وآل عوّاد من المشايخ في عهد الإقطاعيّة ، وهم موزّعون في كثير من أنحاء البلاد.

* أبوه يوسف ضاهر عوّاد ، معلّم عمار ، مقاول ، خبير محلّف لدى القضاء في الشؤون العقاريّة. ومهنة البناء وراثيّة في العائلة. ولأفرادها آثار تدلّ عليهم في كنائس المنطقة وبيوتها الكبيرة.

* أمّه مريم سمعان الحاجّ بطرس ، من ساقية المسك ، القرية المجاورة لبحرصاف. كان أهلها يشتغلون في صناعة النسيج المعروف بـ «الديما» ، عهد ازدهار هذه الصناعة بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

* هو ثاني أولادها السبعة : ثلاثة صبيان – منهم إميل كاتب أقصوصة – وأربع بنات.

١٩١٤ * عرف في طفولته قسوة الاحتلال التركيّ الذي رزح لبنان تحت كابوسه خلال الحرب العالميّة الأولى ، وذاق أهوال المجاعة التي أطاحت بالألوف ، بينهم جيران له ورفاق من سنّه. وقد وسمت هذه الحقبة العصيبة شخصيّته وأدبه بطابع مأساويّ ، ثوريّ ، عنيف. وهي حقبة صوّرها أصدق تصوير في كتابه «الرغيف».

١٩٢٠ * بدأ دراسته تحت سنديانة دير مار يوسف بحرصاف ، ثمّ في مدرسة سيّدة المعونات في ساقية المسك فمدرسة سيّدة النجاة في بكفيّا حيث نال الشهادة الابتدائيّة ، «أوّل سرتيفيكا في الضيعة». واستبدّ به ميله إلى الأدب مذ ذاك ، فكان يقضي الليالي في قراءة الكتب ، عربيّة وفرنسيّة ، ولا يحلم إلّا بأن يكون في مستقبله كاتبًا وشاعرًا.

١٩٢٣ * أرسله أبوه إلى بيروت وأدخله كلّيّة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين. وأثناء دراسته الثانويّة فيها برزت مواهبه بروزًا لفت إليه الأنظار ، فشمله مدير القسم العربيّ في

الكلّيّة   العلّامة الأب روفائيل نخله ، برعايته وتولّى تنشئته الأدبيّة ، وكان تأثيره عليه كبيرًا .

* عهدت إليه المطبعة الكاثوليكيّة ، وهو تلميذ في الصفّ الثاني ، أي قبل البكالوريا بسنة ، بترجمة روايتين من الفرنسيّة إلى العربيّة . ولكنّه اشترط الاكتفاء لدى نشرهما بذكر الحرفين الأوّلين من اسمه – ت. ع. – «لأنّه أبى أن يكون أوّل ما يظهر له في الناس من غير إبداعه» .

١٩٢٧ * كان أبوه يعدّه للمحاماة . ولكنّه أعرض عن هذه الرغبة وراح يكتب في الصحف ، نثرًا وشعرًا ، محاولاً – عبثًا – أن يكسب عيشه من القلم . وتعرّف في تلك الفترة إلى حياة بيروت في جدّها ولهوها ، ممّا شحذ طبعه وأغنى خبرته بالناس والمجتمع .

* على أثر ذلك استدعاه أبوه إلى الجبل ، وفتح له في ساقية المسك متجرًا للترابة والحديد والخشب وسائر موادّ البناء . ولكنّ المتجر لم يلبث أن أفلس – بعد ستّة أشهر – لانصراف صاحبه إلى كتابة المقالات ونظم القصائد ...

* عاد إلى بيروت حاملاً قلمه وحرد أبيه ، واشتغل سنة وبعض السنة معلّمًا للّغة العربيّة في مدرسة مار مارون الخيريّة ومدرسة الإخوة المريميّين (الفرير) ، إلى جانب مواصلته الكتابة .

* نشر في مجلّة «العرائس» ، لصاحبها عبد الله حشيمه ، سلسلة مقالات نقديّة حمل فيها على أدب التقليد ، وألقى محاضرات في ذلك ، داعيًا إلى التجديد في أساليب التفكير والتعبير .

١٩٢٨ * ألقى محاضرة عن الشعر العامّيّ – الزجل – عرض فيها لتاريخه وتقاليده ومزاياه ، وقد نُشرت هذه المحاضرة في مجلّة «المشرق» وأصبحت مذ ذاك مرجعًا لدارسي هذا الفنّ .

* بدأ ممارسته للصحافة في جريدة «البرق» لصاحبها بشارة الخوري ، الأخطل الصغير ، ونسخ له بخطّ يده قصائده المبعثرة . وفي دارها تعرّف إلى خليل مطران شاعر القطرين ، والياس أبو شبكة ، وإبراهيم طوقان وغيرهم .

* انتقل إلى جريدة «النداء» لمنشئها كاظم الصلح حيث بدأت محاولاته في القصّة . وفيها اتّخذ اسمه المستعار «حمّاد» .

١٩٣١ * التحق بجريدة «البيرق» لصاحبها أسعد عقل ، حيث كتب سلسلة مقالات عن العادات والتقاليد اللبنانيّة وقدّم نماذج من أبناء الضيعة .

* أوفدته «البيرق» إلى دمشق في مهمّة صحفيّة . ولمّا انتهت هذه المهمّة دعاه نجيب الريّس إلى تولّي سكرتيريّة التحرير في جريدته «القبس» ، لسان حال الكتلة الوطنيّة لذلك العهد . فانتهز فرصة إقامته في العاصمة السوريّة وسجّل اسمه طالبًا في معهد الحقوق فيها ، ومنه نال الإجازة .

١٩٣٢ * كتب في «البرق» سلسلة مقالات عن ميخائيل نعيمه العائد من نيويورك بعنوان

«ناسك الشخروب» . وقد غلب هذا اللقب على نعيمه مذ ذاك ، وتوثّقت بين الرجلين صداقة حميمة .

١٩٣٣ * عقد زواجه في دمشق على أورطنس بشارة خديج ، ابنة تاجر لبنانيّ أقام ردحًا من الزمن في العاصمة السوريّة ، وانتقل بعد الزواج إلى بيروت .

* اشتغل لمدّة قصيرة رئيسًا لتحرير جريدة «الراصد» بعد وفاة صاحبها وديع عقل .

* دعاه جبران تويني ، بعد أن عقد العزم على إنشاء جريدته «النهار» ، إلى تولّي سكرتيريّة التحرير فيها . فلازم هذا العمل نيّفًا وثماني سنين وأسهم إلى جانب صاحبها في تطوير الصحافة اللبنانيّة ورفع مستواها . وكان ينشر يوميًّا بعنوان «نهاريّات» وإمضاء «حمّاد» خواطر شتّى بأسلوب لمّاح ، لذّاع ، عُرف به واتّبعه فيه الكثيرون .

١٩٣٤ * رُزق بكر أولاده : ربيع

* أسهم في الحركة الأدبيّة التي قامت بها مجلّة «المكشوف» في الثلاثينات بمقالات دوريّة وقصائد وقصص . وكان من أركان هذه الحركة البارزين تأليفًا وتوجيهًا .

١٩٣٦ * نشر «الصبيّ الأعرج» حلقة أولى من سلسلة منشورات «المكشوف» . فحيّاه ميخائيل نعيمه في رسالة نقديّة بقوله : «يُخيّل إليّ أنّك ما تعلّمت الكتابة إلّا لتكتب القصّة» . وأتبعها في ١٩٣٧ بـ«قميص الصوف» وفي ١٩٣٩ برائعته «الرغيف» . فلاقت كلّها رواجًا منقطع النظير ، وكرّسه النقّاد العرب والمستشرقون على أثر ذلك رائدًا لهذا النوع الأدبيّ . ودخلت كتبه هذه ، وما تلاها ، في برامج الدراسة وأصبحت مادّة تثقيفيّة للناشئة جيلاً بعد جيل .

١٩٣٩ * رُزق ابنته سامية . وهي شاعرة باللغة الفرنسيّة ومن راعيات الفنون في لبنان .

١٩٤١ * أثناء الحرب بين الديغوليّين والفيشيّين على حدود لبنان الجنوبيّة ألقت سلطات الانتداب القبض عليه مع بعض زملائه الصحافيّين الذين كانوا يؤيّدون الحلفاء . وظلّ في الأسر لمدّة شهر في دير عشقوت – كسروان – الذي حوّلته السلطات المذكورة إلى معتقل .

* استقال من «النهار» وأنشأ «الجديد» – مجلّة أسبوعيّة ، أدبيّة ، اجتماعيّة ، سياسيّة – وجنّد لها نخبة من أصحاب الأقلام ، وعُرفت بخطّها الوطنيّ في معارضة الانتداب الفرنسيّ والمطالبة بالاستقلال .

١٩٤٤ * أصدر «العذارى» ، مجموعته القصصيّة الثالثة .

* قام في «الجديد» ، بالاشتراك مع ميشال بشارة خديج ، بحملة في سبيل العدالة الاجتماعيّة ، بعنوان «في سبيل بيفردج لبنانيّ» –منطلقًا من المشروع البريطانيّ الذي يحمل اسم صاحبه – درس فيها ، مع أصحاب الرأي في البلاد ، أوضاع العمّال والفلّاحين والمستخدمين ، مطالبًا بحقوقهم ورفع مستوى معيشتهم ، وظهرت الحملة في كتاب بالعنوان نفسه . وقد نفدت نسخ هذا الكتاب في حينه ، ولم يشأ المؤلّف أن يضمّه إلى هذه المجموعة ، باعتبار أنّ أهمّيّته سياسيّة أكثر منها أدبيّة .

١٩٤٥ * تحوّلت «الجديد» إلى شركة قوامها: توفيق يوسف عوّاد، ميشال شيحا، هنري فرعون، وموسى دي فريج، أصحاب جريدة «لوجور» الصادرة بالفرنسيّة على أن يبقى هو رئيسًا لتحريرها. ولكنّه فسخ الشركة بعد ستّة أشهر.
* رُزق ثالث أولاده: هاني.
* حوّل «الجديد» من مجلّة أسبوعيّة إلى جريدة يوميّة.
* زار بريطانيا العظمى لمدّة شهر بدعوة من حكومتها، في وفد صحفيّ لبنانيّ – سوريّ ضمّ، فيمن ضمّ، زميليه وصديقيه جبران تويني ونجيب الريّس.
١٩٤٦ * دُعي إلى دخول السلك الديبلوماسيّ، فباع امتياز «الجديد» للمحامي محسن سليم، وعُيّن قنصلاً للبنان في الأرجنتين.
١٩٤٩ * نُقل إلى رئاسة الدائرة العربيّة في وزارة الخارجيّة والمغتربين.
١٩٥١ * عُيّن مستشارًا للمفوّضيّة اللبنانيّة في إيران.
* رُزق ابنته جمانة.
١٩٥٣ * نُقل قائمًا بالأعمال أصيلاً إلى إسبانيا، رئيسًا لأوّل بعثة ديبلوماسيّة فيها.
١٩٥٦ * أُلحق بسفارة لبنان في القاهرة برتبة وزير–مستشار، ثمّ رئس البعثة قائمًا بالأعمال بالوكالة.
١٩٥٩ * عُيّن وزيرًا مفوّضًا في المكسيك.
١٩٦٠ * استُدعي إلى الإدارة المركزيّة وأُسندت إليه مديريّة الشؤون الثقافيّة والاجتماعيّة.
١٩٦٢ * عاد فجأة إلى التأليف بعد انقطاع سنين وأصدر حواريّة «السائح والترجمان». فنالت جائزة «أصدقاء الكتاب» لأحسن مسرحيّة. وفي الكلمة التي توّج بها هذا الكتاب بعنوان «إلى التي أجهلها وتعرفني» يتوجّه إلى ذاته الأدبيّة بمناسبة عودتها إليه، أو عودته إليها، بأرقّ ما يتوجّه به الحبيب إلى الحبيبة بعد هجر طويل. مُقسمًا أنّه «سيحملها بين ذراعيه إلى ما وراء القبر».
* كتب سلسلة خواطر يوميّة في جريدة «الحياة» بعنوان «فنجان قهوة» وإمضاء «عبده»، نحا فيها النحو الذي اتّبعه من قبل في «نهاريّات».
١٩٦٣ * نشر «فرسان الكلام»، وهو نظرات في الأدب والأدباء.
* نشر أيضًا «غبار الأيّام»، وهو مجموعة خواطر مستوحاة من الحياة اليوميّة.
١٩٦٦ * عُيّن سفيرًا في اليابان، واعتُمد في الوقت نفسه سفيرًا غير مقيم لدى الصين الوطنيّة والفيليبّين وأستراليا.
١٩٦٩ * كتب، وهو في طوكيو، روايته «طواحين بيروت» ومجموعة قصصه الرابعة «مطار الصقيع». ولكنّ الرواية لم تُنشر إلّا في ١٩٧٣، ولم تُنشر المجموعة القصصيّة إلّا في ١٩٨٢.
١٩٧٢ * عُيّن سفيرًا في إيطاليا. وفي أثناء قيامه بهذه المهمّة تعرّض لاعتداء قام به اليهود على السفارة احتجاجًا على سياسة لبنان في تأييدها للفلسطينيّين، ونجا من الموت في آخر لحظة.

١٩٧٣ * أصدر ديوان «قوافل الزمان» أو قصائد البيتين.

١٩٧٤ * اختارته منظّمة الأونيسكو في لائحة «الكتّاب العالميّين الأكثر تمثيلاً لعصرهم»، وأوصت بترجمة آثاره إلى سائر اللغات.

١٩٧٥ * أُحيل على التقاعد، فعاد إلى لبنان وأقام في بيته الجبليّ في بحرصاف هربًا من الحرب في العاصمة.

١٩٧٦ * أُصيب منزله في بيروت (حيّ القنطاري) في أثناء الحوادث، وضاعت له فيه مخطوطات، ومجموعة من الرسائل بينه وبين أصدقائه من الكتّاب والشعراء.

١٩٧٧ * كتب في «الأنوار» سلسلة خواطر يوميّة بعنوان «صباح النور». على غرار «نهاريّات» و«فنجان قهوة».

١٩٧٩ * تُوفّيت زوجته في بحرصاف.

١٩٨٣ * نشر «حصاد العمر»، سيرته. واتّبع فيها أسلوبًا فريدًا بناه على الحوار الداخليّ.

* * *

* هذه المعلومات الخاطفة عن توفيق يوسف عوّاد يجدها القارئ مفصّلة في مواضع عدّة من مؤلّفاته. وبخاصّة في «حصاد العمر». وهو في هذا الكتاب بالذات لا يكتفي بوصف مراحل سيرته، بل يتعدّى ذلك إلى اعترافات حميمة تكشف عن كلّ شيء في حياته الخاصّة والعامّة... حياة مليئة وقفها على الحبّ بمعناه الإنسانيّ الرحيب، وتغنّى بهذا الحبّ –نثرًا وشعرًا– بكلّ جوارحه.

* في كلا النثر والشعر يمتاز أدب عوّاد بالعمق والشمول، وحرارة التعبير وصدقه. وأسلوبه في السرد هو السهل الممتنع، مع قوّة في الإيحاء تضفي على كتاباته جوًّا أخّاذًا بعيد المرامي. وهو في وصفه لإنسان القرية وإنسان المدينة، في قصصه ورواياته، يصوّر الإنسان في كلّ مكان. نرى أبطاله في وجوه الناس من حولنا، نعايشهم في أفراحهم وأتراحهم، ونشاطرهم صراعهم مع القدر. ومن هنا كان له تأثيره البالغ وقيمته الباقية.

* من البديهيّ أنّنا لا نطمح هنا إلى تحليل أدب عوّاد، وإنّما غرضنا أن نقدّمه إلى الناس مجموعًا بين دفّتين. أمّا التقييم الذي يحلّل أدبه ويبرز خصائصه فمتروك إلى الدراسات العديدة التي كتبها النقّاد –في الشرق والغرب– وما يزالون يكتبونها عن مؤلّفاته، خصوصًا بعد أن تُرجم منها ما تُرجم إلى اللغات الفرنسيّة والإنكليزيّة والألمانيّة والروسيّة وغيرها، فضلاً عن الأطروحات التي ينحني عليها طلّاب الماجستير والدكتوراه في جامعات لبنان وأوروبّا وأميركا، متناولين فيها هذا الأدب من مختلف جوانبه.

* تلك الدراسات والأبحاث تشكّل حقلاً واسعًا، غنيًّا ومنوّعًا معًا، لا بدّ يومًا من جمع حصيلته وتنسيقها، والإفادة منها في إعداد كتاب أو أكثر يُكتب عن توفيق يوسف عوّاد، وعن الأثر الذي أحدثه في مسيرة الأدب العربيّ خلال نصف قرن.

الناشرون

الصبيّ الأعرج

وقصص أخرى

مقدّمة الطبعة الأولى

إلى القارئ

أنا لم أكتب هذه القصص وأدفعها إليك عبثًا. بل هي الحياة التي عشتها – وهي قليلة حتّى اليوم بعدد سنيّها. ولكنّها كثيرة بالتجارب التي تمرّست بها – فتحت عينيّ على أشياء جميلة هنا وقبيحة هناك. فأردت وصف هذه الأشياء فلم أجد وسيلة إلى ذلك خيرًا من القصّة.

الواقع أنّ القصّة تتّسع لمرادي كلّ الاتّساع. ولعلّك تلاحظ معي أنّ القصّة في الأدب العالميّ تكاد تكون اليوم أعظم أنواعه وأكثرها انتشارًا. وقد انتهى الأدب العالميّ إلى القصّة في كيانها الحاضر بعد تطوّرات استمرّت عصورًا، فلبست مع كلّ عصر زيًّا، حتّى كان هذا العصر فإذا هي تحاول أن تضمّ ألوان الحياة كلّها وتكون ترجمانًا لجيل بما في رأسه من أفكار، وفي قلبه من أشواق وآلام، وفي محيطه من أخلاق وتقاليد.

فالقصّة إذن هي اليوم – ونستطيع أن نقول ذلك بلا حرج – المظهر الأكمل للأدب، لأنّها وإن كانت نوعًا من أنواعه فهي تستوعب غرض كلّ الأنواع. تضمّ التمثيل، وتضمّ الملحمة، وتضمّ الترسّل، وتضمّ الشعر إلى حدّ. بل هي تمدّ ذراعيها فتتناول بهما موضوعات هي في الأصل من غير الأدب كالتاريخ والفلسفة والاجتماع والعلوم. هي، بعبارة واحدة، مرآة الحياة بكلّ ما في الحياة.

والقصّة هي أقرب أنواع الأدب إلى الطبيعة. جرت بها ألسنة البشر قبل أن يعرفوا الكتابة. ومن السهل جدًّا أن نتصوّر أنّها كانت المظهر الأوّل للأدب يوم كانت خبرًا ينقله شاهد إلى سامع. ومن السهل أن نتصوّر الشاهد اللبق في نقل الخبر، الحاذق في التقديم والتأخير، الماهر في إبراز هذا الجانب وإخفاء الآخر، من السهل أن نتصوّره قصّاصًا. وكثيرًا ما استمعنا إليه على جلسة في المقهى أو سهرة في البيت.

إنّ تاريخ الجنس البشريّ سلسلة قصص. والله خلق الإنسان في قصّة. هل رأيت أروع من قصّة الخليقة؟ ربّ يسأم الوحدة فيمدّ كفّه ويبذر الأكوان، ثمّ يجدها موحشة

فيبرأ النسمة فيها من آدم ، إلى حوّاء من ضلعه ، إلى التفّاحة ، إلى الحيّة ، إلى طرد أبوينا الأوّلين من الفردوس... إلى أن رأينا النور أنا وأنت ، فنشأنا وتعذّبنا ، وأحببنا وكرهنا ، وضحكنا وبكينا ، ثمّ نموت بعد عمر طويل !

عجبًا لأدبنا العربيّ كيف لم يعرف القصّة حتّى اتّصل بالآداب الغربيّة الحديثة ! ليس هنا مجال البحث في أسباب ذلك ، وليس القصد من هذه الإشارة العيب في تراثنا الضخم . فأدب أمّة من الأمم لا يُقاس بأنواعه ، بل بجودة ما فيه منها . ولكنّ أدبنا الحاضر لا بدّ له من المساهمة في نشاط الآداب الغربيّة ، بل الآداب العالميّة . فنحن ، مع المحافظة على طابعنا الخاصّ ، لا يسعنا إلّا أن نتأثّر بها وأن نجاريها . فقد قربت الأبعاد ، واتّصلت الثقافات ، وتشابكت المصالح من أقصى الأرض إلى أقصاها . حتّى لأرجو منك ، أيّها القارئ ، أن تعترف معي بأنّ السيّارة مثلًا ، ومن بعدها الطائرة ، بدّلت كثيرًا من سلوكنا وأساليب تفكيرنا وشعورنا .

فأنا إذن إن عالجت القصّة على ما يفهمها الأدب العالميّ اليوم ، فلا يعني ذلك أنّني أقلّد ، بل أمدّ يدي إلى مائدة أنا مدعوّ إليها ، وكلّ أديب عربيّ مدعوّ معي إلى طيّباتها .

وبعد ، فهل أنا في حاجة إلى الكلام على قصص هذا الكتاب ؟ هل أنا في حاجة إلى القول إنّها مستمدّة من المحيط الذي أعيش فيه ؟ قد يكون أشخاصها حقيقيّين ولا يكونون ، وقد تكون حوادثها واقعيّة ولا تكون ، ولكنّها ، في الحالين ، نماذج مأخوذة من حياتنا اليوميّة البسيطة ، المملوءة على بساطتها بالأسرار . أجل . إنّ ألوان هذه القصص تختلف باختلافها ، فنها ما يغلب عليه التوجيه ، ومنها ما يغلب عليه التحليل ، ومنها ما يغلب عليه وصف الأخلاق والتقاليد ، ومنها ما لا يحتوي إلّا على العبث ولذّة الفنّ المجرّدة . على أنّها كلّها ترمي إلى غاية أولى ، هي أيضًا غاية الأدب الأولى في نظري منذ كان في الدنيا أدب ، وأعني بها المعرفة . وهل من غاية للأدب أسمى من مدّ يديه إلى هذه العلاقات السحريّة التي تربط الإنسان بنفسه ، وبما حواليه من حيّ وغير حيّ ، وإبرازها ، وضفرها ، وجعلها كالحبال حتّى لتُجسّ باليد وتُمسك ؟

حسبي من محاولتي هذه نبل مقصد ، وحسبي في أدبنا العربيّ الحديث الجرأة على هذه المحاولات .

بيروت – ١ تشرين الأوّل ١٩٣٦ ت . ي . ع .

ملاحظة : يرى القارئ خلال بعض القصص أسماء لأشخاص وأحيانًا لقرى ليست موجودة في الواقع . وقد فعلت ذلك تجنّبًا للتأويل .

الصبيّ الأعرج

«كلّ ذي عاهة جبّار»
حديث شريف

كان اسمه خليل. ولكنّ الناس لا يعرفونه بهذا الاسم. هم يسمّونه الأعرج، حتّى كاد ينسى هو نفسه اسمه الحقيقيّ.

ولا أحد يعرف من أبوه وأمّه وأين مسكنه. نكرة من النكرات. شحّاد من ملاعين الدنيا. قذفته الحياة قذفًا. كالمارّ على رصيف يبصق بصقة ثمّ يدوسها ويتابع الطريق.

في الثالثة عشرة من عمره. على وجهه بقع من الغبار المزمن. وأخاديد من الذلّ. يجرّ، طول النهار وقسمًا كبيرًا من الليل، رجله العوجاء من مكان إلى مكان. الرجل اليمين مفتولة عند الركبة إلى الوراء يدوس بها الأرض على إبهامه، والإبهام ضخمة شقّقها المشي على الحصى، وعشّش بين شقوقها وحل الشتاء الماضي.

كلّما خطا خطوة اندفع رأسه إلى الأمام وراء العرجة اندفاعة تكاد تخلع رأسه من بين كتفيه. وهو مضطرّ إلى الدوران في الشوارع، من شارع إلى شارع، ومن دكّان إلى دكّان، من رجل إلى رجل، ومن امرأة إلى امرأة، ويمدّ كفّه ويبتسم ابتسامته الباكية.

رفاقه الشحّادون، صغارًا وكبارًا، لكلّ واحد منهم أغنية يردّدها على المحسنين. يطلبون من الله أن يطوّل لهم عمرهم، أن يخلّي لهم عافيتهم، أن يعوّض عليهم، أن يرزق المرأة ولدًا والفتاة عريسًا، وأن يكافئهم خيرًا في الآخرة. يثرثرون دائمًا، ويلصقون بالمحسنين لصقًا، فلا ينزعهم إلّا القرش.

أمّا هو فلا يجيد الثرثرة بل يبقى صامتًا كالأخرس. لولا ابتسامته الحزينة، ولولا عيناه الناطقتان بألف لغز ولغز من ألغاز الطفولة المقهورة، ولولا يده الممتدّة، الراجفة، الممصوصة كورقة الخريف. لولا ذلك لظنّه الناس صنمًا.

والبشر يحبّون الثرثرة، يحبّون الدعاء، لا يعطون الصدقة إلّا بثمنها عدًّا ونقدًا. ولكنّ الأعرج لا تتحرّك له شفتان بدعاء ولا رجاء، كأنّما في قلبه إيمان بأنّ له على هؤلاء البشر ضريبة. يمدّ كفّه إلى واحد، ثمّ يجوز إلى غيره جارًّا رجله العوجاء. وإذا ظفر بقرش أو نصف قرش حدّق إليه وقلّبه ثمّ وضعه في جيب قمبازه القذر المرقّع، ومشى.

* * *

في حيّ فرن الشبّاك، على مسافة ربع ساعة من مشية خليل العرجاء، كوخ حقير جدرانه من أخشاب صناديق الكاز، وماركات الشركات ما تزال محفورة عليها بالأحمر والأزرق والأسود، بعضها محفوظ سالم، والبعض الآخر أكلت ثلاثة أرباعه السنون. وللكوخ سقف من تلك الكاز أيضًا، وللتنكات قهقهة ساخرة

عندما تهبّ الرياح ، وبينها ثقوب ينزل فيها المطر فيحوّل الكوخ في الشتاء إلى مستنقع.

هذه القطرات من المطر هي كلّ ما تذكر به السماء ساكنَي الكوخ !

لأنّ الأعرج ليس وحده فيه ، بل هو تحت حماية العمّ إبراهيم. شحّاد متقاعد ، بين الخمسين والخامسة والخمسين من عمره ، كسيح ، مقصوف الظهر ، ملتوي الذقن إلى الشمال ، بارز الأسنان – كتلة من الخرق والعظام المحطّمة ملقاة في زاوية الكوخ.

كان الليل قد أظلم ، وأقفرت طريق فرن الشبّاك إلّا من بعض الترامووايات ينعس فيها ركّابها القليلون ، وعمّ على الخطّ مسرعة ، محدثة عليه شررًا متطايرًا وأزيزًا موجعًا. وكان الأعرج يمشي على حافّة الطريق مسرورًا ببساط الغبار لا يؤذي رجله العوجاء التي تتلقّى وطأة جسمه دون الأخرى. كلّما تقدّم ضاعف قلبه دقّاته ، لأنّ العمّ إبراهيم رجل قاسٍ لا يعرف الرحمة. يجب أن ترجع يده من يد الأعرج بخمسين قرشًا كلّ مساء. وكان الصبيّ يحسب القروش التي جمعها طول نهاره فلا تبلغ إلّا سبعة وعشرين قرشًا ، فيزيد خوفه وترتعد فرائصه.

وأبى الأعرج أن يصدّق حساب النهار الذي كان قد قام به أكثر من عشر مرّات. فلمّا وصل تحت المصباح الكهربائيّ المعلّق على المحطّة الأخيرة من محطّات الترامواي أخرج القروش من جيبه وأخذ يعدّها مرّة أخرى ، فإذا هي سبعة وعشرون قرشًا ، لم تزد شيئًا قطّ ! فأعادها إلى مكانها وهو يرفّ بعينيه وقد همّتا بالبكاء ، وواصل مشيته ببطء كأنّه يقدّم رجلًا ويؤخّر الثانية.

كان عليه أن يصل. استقبله العمّ إبراهيم ، حسب العادة ، وراء قنديل الزيت الضئيل المتماوجة أظلاله على جدران الكوخ ، قائلًا :

– تعالَ هنا . هاتِ الحساب !

كان العمّ إبراهيم على طرّاحته في الزاوية ، مسمّرًا عليها ، لا يستطيع حراكًا إلّا بيديه فهما له رجلان أيضًا. فحمل الأعرج القنديل وجاء به فركع أمام الطرّاحة ، وأخذ يعدّ القروش واحدًا وراء واحد ، ويفتّش في قعر جيبه وينفضها ليؤخّر غضب العمّ إبراهيم. ولكنّ العمّ إبراهيم كان واقفًا على كلّ حركة وسكنة من الصبيّ. فأرسل إليه نظرة من عينيه الحمراوين الملتهبتين وصاح به :

– سبعة وعشرون قرشًا من أوّل النهار إلى آخره ! أنت تلعب كلّ الوقت يا أعرج الملعون. لك ثلاث وعشرون عصًا. حساب مضبوط.

وكشّر ، ولوى ذقنه إلى الشمال فوق ما لواه الله ، ولبث منتظرًا الأعرج. كان الأعرج يعرف ما يجب عمله في مثل هذه الحال : كلّ قرش ينقص عن الخمسين بعصًا. والعصا معلّقة في الحائط. فنهض من ركعته ودنا من الحائط ، وجاء بالعصا فسلّمها إلى العمّ إبراهيم ووقف أمامه مكتوف اليدين. فرفع الجلّاد عصاه السوداء السمينة. وطفق يضرب بها الأعرج ضربًا له نظام : ضربة على الكتف اليمنى. وثانية على اليسرى. وأخرى على القفا ، ورابعة وخامسة على الرجل العوجاء. والأعرج يعدّ العصيّ بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ... خمسة ... تسعة ، وهو يخنق الصراخ خنقًا. فإذا صرخ ضوعف له العقاب. والدموع تسيل على خدّيه ، وخدّاه يتجعّدان ، وعيناه تتواريان وراء صور الألم المرتسمة على وجهه ، وفمه يندلق ، ودمه يفور في أوداجه ويوشك أن يفتّقها تفتيقًا.

وهو ما يزال في الضربة العاشرة من الحساب !

وعبثًا كان يحاول إقناع عمّه بأنّ الناس لا يدفعون. عبثًا كان يقول له إنّهم يعطونه كسر الخبز... إنّ العمّ إبراهيم كان يجيبه :

– اضرب بالرغيف من يعطيك إيّاه على وجهه !

* * *

ذات يوم رجع الأعرج إلى الكوخ مطرودًا من الشوارع بمفاجأة عظيمة : كانت الحكومة قد سنّت

قانونًا يمنع التسوّل ! فلقيه شرطيّ وصفقه بالسوط على قفاه . فلم توجعه الضربة لأنّه معتاد أشدّ منها من عصا العمّ إبراهيم ، ولكنّ الوجع كان في نفسه.

ممنوع ! ممنوع مدّ الأيدي من الآن وصاعدًا ! ممنوع طرق الأبواب ، وإيقاف المارّة ، والدعاء بطول الأعمار. لماذا؟

سؤال هائل ارتسم على وجه الأعرج الصغير ، لا يعرف له جوابًا . كلّ ما كان يعرف من هذه الحياة أنّ عليه الرجوع كلّ مساء بخمسين قرشًا يسلّمها إلى العمّ إبراهيم. أفاق على نفسه على هذا الشكل من الحياة. وعلى الرغم من العذاب الذي يلاقيه فهو يتمنّى أن تدوم الحال على ما هي . وها هي لا تريد أن تدوم. ها هو يرجع إلى الكوخ بقرشين اثنين. ها هو ذاهب لثمانٍ وأربعين عصًا تسلخ جلده... وغدًا ، وبعد غد خمسون عصًا ! كلّ يوم خمسون عصًا ! يا الله ، هذا شيء كثير!

هذه المرّة قعد الأعرج على حافّة الطريق يبكي ويشهق . والناس يمرّون مشاة ، وفي السيّارات والترامويات ، لا أحد يلتفت إليه أو يسمع نحيبه... جثّة قطّ أو قشرة ليمون !

على أنّ العمّ إبراهيم كان مطّلعًا على كلّ شيء. ولمّا عاد الصبيّ إلى الكوخ سامحه بالثماني والأربعين عصًا. وشدّ ما كانت دهشته عندما أدناه إليه وأمسك برأسه ومسح جبينه بشاربيه... ولم يكتفِ بذلك بل قدّم إليه عشاءه بيده : علبة سردين –كلّها له– ورغيفًا. ثمّ ربّت على كتفه وقال له :

– ستكون بعد اليوم تاجرًا ، كما تريد الحكومة.

وقهقه عاليًا. أمّا هو فلم يفهم وظلّ مشدوهًا ، مسرورًا لأنّ العصا باقية في مكانها معلّقة. وكان لا يجسر على النظر إليها ، بل يحوّل وجهه عنها لئلّا يذكّر العمّ إبراهيم أنّها هنا !

وأصبح الأعرج تاجرًا. لقّنه العمّ إبراهيم كلّ شيء. اشترى له صندوقة ودلّه على دكّان حلويات في حيّ الناصرة ، وأوصاه أن يملأ من الدكّان كلّ صباح صندوقته هذه بقطع الكاتو ، ويدور في المدينة تاجرًا.

وكانت الصندوقة تستوعب أربع دزّينات : ثماني وأربعين قطعة. يشتري الواحدة بقرش ونصف ، ويبيعها بقرشين ونصف.

ارتاح الأعرج إلى شكل حياته الجديد بادئ ذي بدء ، وحمل الصندوقة على خصره مربوطة إلى عنقه بحزام من جلد لمّاع ، وأخذ يدور في الشوارع مناديًا بصوته الضعيف : كاتو! كاتو!

ولكنّ العمّ إبراهيم أوصاه بوجوب بيع الثماني والأربعين قطعة كلّها. ولمّا انقضى نصف النهار ورأى الأعرج أنّه لم يبع إلّا سبع قطع حطّ صندوقته على رصيف شارع المعرض وأحسّ بحاجة جديدة إلى البكاء. ماذا يقول له العمّ إبراهيم إذا بقي شيء من الكاتو؟ أتكون كلّ قطعة باقية بعصًا؟ يا ليت ! إنّ القرش من زمان ، إذا نقص ، كان بعصًا. وثمن كلّ قطعة قرش ونصف... هذا إذا حاسبه العمّ إبراهيم على سعر الشراء ، أمّا سعر البيع؟!

على أنّ القدر كان يخبّئ للأعرج – لبصقة الحياة على الرصيف – أشدّ ممّا كان يتوقّع. فلمّا أظلم الليل وهمّ بالرجوع إلى الكوخ ، دنا منه وراء المدرسة اللعازاريّة ، في ذلك الطريق الموحش ، ثلاثة صبيان ، الكبير فيهم من سنّه. وما كاد يراهم مقبلين نحوه حتّى ارتعد ، كأنّ إلهامًا نزل عليه بأنّهم يريدون به شرًّا. وكانوا يغنّون ويلوّحون بأيديهم في الفضاء ، وزعيمهم ذو القمباز الطويل ينفخ بأنفه كالحيوان.

وقف الأعرج على رجله الصحيحة ، وأدار وجه صندوقته إلى حائط المدرسة ، وانتظر. فتقدّم الزعيم ونظر يمينًا وشمالًا ، ولمّا تيقّن من أنّ أحدًا لا يراه صفع التاجر الصغير على وجهه صفعة طاش لها دماغه في رأسه ، وهجم الثلاثة على الصندوقة ، فنهبوا أكثر ما فيها وأطلقوا سيقانهم للريح ، يزدردون الحلويات ويقهقهون.

وحينما عاد الأعرج في المساء إلى الكوخ نال نصيبه أربعًا وثلاثين عصًا : حسابًا مضبوطًا على سعر البيع ... كما حدّثه قلبه في الطريق.

اسودّت الدنيا في عينيه. لأنّ الرواية كانت تتكرّر كلّ يوم ، وصبيان الشوارع المشرّدون في بيروت كثيرون ينازعون الكلب على عظمته ، فكيف بقطع الكاتو اللذيذة !... ما يكاد يراهم عن بعد حتّى يأخذ في الركض. ويا لها من ركضة على رجله العوجاء ! رأسه ينخلع على صدره ، وصندوقته ترقص على خصره ، والحلويات يختلط بعضها ببعض وتتحطّم وتسيل ، وتصير أشبه ما يكون بالوحل.

ذات يوم أطبق الغلمان الأشرار عليه في حيّ الكراويا وأخذوا يشدّون بشعره ، وأمسكه أحدهم برجله – إيّاها – يدقّها بحجر ويسخر منه :

– يا أعرج ! يا أعرج !

وإذا بصائح يصيح بهم مهدّدًا فيهربون كلّ واحد إلى صوب. فرفع الأعرج وجهه عن التراب متفقّدًا صندوقته ، فإذا به أمام كريم الحلوانيّ صاحب الدكّان الذي يتبضّع من عنده كلّ صباح. أحسّ بقلبه يكبر ، ومسح دموعه ، ونفض ثيابه من الغبار وقال :

– كلّ يوم يلحقون بي ويضربونني ويأكلون الحلويات.

وقام إلى الصندوقة يتناولها ، ويلتقط الحلويات عن الأرض وقد تبعثرت هنا وهناك ولبست ثوبًا من الأقذار. فقال له كريم عاقدًا أجفانه :

– أُتركها ، سأعطيك غيرها.

فرفع إليه الأعرج عينين كأنّهما تسألان : ولكن ثمنها؟ فقال له كريم :

– قم. ما عليك. أعطيك أربع دزّينات كاملة ولا آخذ منك قرشًا. وسأعلّمك كيف تتغلّب على هؤلاء الزعران.

كان كريم من القبضايات المشهورين في الحيّ – يُقال إنّ في عنقه ثلاثة قتلى – وأبناء الحيّ يتناقلون أخباره ، ويهابون جانبه ، ويشدّون أنفسهم بظهره في الملمّات.

وبالرغم من تقدّمه في السنّ – خمسون سنة وأكثر – كان لا يزال محمرّ الوجه بالعافية ، لامع العينين بالبطولة ، معقوف الشاربين بأناقة وإباء. إلّا أنّه كان قد ترك منذ زمان كار المراجل وانقطع إلى تجارته.

سار الأعرج وراء كريم إلى محطّة اليسوعيّة ، إلى الترامواي. كانت تلك المرّة الأولى التي يركب فيها الأعرج الترامواي. لذلك كاد ينسى مصيبته في التفرّج على مقاعد الحافلة ، وعلى قاطع التذاكر يدور بينها ، وعلى التذكرة التي قطعها له. وكان يحسّ أنّ هٰذه الدرجة التي صعدها من الأرض إلى الترامواي قد نقلته من دنيا إلى دنيا.

ولمّا ترجّل كريم على محطّة الناصرة قاد الأعرج بيده إلى الدكّان ، وأدخله إلى القسم الخلفيّ منه وقال له :

– ألا تعرف البوكس؟

– لا !

– إجمع كفّك اليمنى.

– ها !

فتناول كريم كفّه وسوّاها له وقال :

– إذا جاء إليك الأولاد مرّة أخرى فاجمع كفّك هكذا واضربهم. وصوّب الضربة إلى الذقن أو الأنف أو الخصر. إضربني لأرى !

فصعّد الأعرج إلى كريم نظرة حييّة كأنّه يقول : كيف أضربك؟

– إضرب ، إضرب ولا تخف !

فجمع الأعرج كفّه وهمّ ، ولكنّ كريم تلقّى الضربة بيده وقال له :

– عليك أن تتمرّن. إذهب إلى هذا الكيس واعمل فيه البوكس !

وكان هناك كيس مملوء بالفحم ، فأخذ الأعرج يوسعه ضربًا بيديه حتّى اسودّتا وكلّتا. حينئذ قام كريم

إليه وربّت على كتفه قائلاً :

– تأتي كلّ يوم إلى هنا وتتمرّن. وبعد أسبوع ستغلب أكبر أزعر في السوق.

شعر الأعرج بأنّ أعجوبة من السماء أرسلت إليه هذا المنقذ ، فشرع يتردّد عليه. وفي الصباح ، حين يأتي ليملأ صندوقته ، يمكث عنده ساعة ويذهب إلى كيس الفحم ويتمرّن على البوكس بفرح يغمر قلبه ، فتلمع عيناه ، خلال غبار الفحم المتطاير ، لمعانًا بسّامًا.

وقد يحدث أن تتخدّش كفّاه ويسيل منها الدم. فلا يحفل ويستمرّ في اللكم ، وكريم أمامه يدخّن سيكارته مزهوًّا :

– لمّا كنت في عمرك كنت أكسر أكبر رأس في رفاقي ، وكانت الناصرة من أوّلها إلى آخرها تقول : فلان !

فينظر إليه الأعرج ويبلع بريقه متسائلاً : متى أصير هكذا ؟

وتوثّقت العلاقة بين الصديقين على تباعد السنّ. ولكنّ الصبيّ لم يبح لكريم بالسرّ الذي يؤلّف مأساة حياته. لم يقل له إنّ عمّه يضربه كلّ يوم بلا شفقة. بل كان يقول ، تحت سحر العبوديّة ، وحسب ما أوصاه عمّه ، إنّه يحنو عليه حنوّ الوالد على ولده.

ولمّا سأله كريم عن أبيه وأمّه قال :

– لا أعرفها. يقول لي عمّي إنّهما تركاني طفلاً. أتعرفها أنت ؟

ابتسم كريم وأجاب هازًّا رأسه :

– كلّا ، يا ابني ، لا أعرفها.

* * *

ذات مساء تأخّر الأعرج في سوق المعرض. كان لا يزال في صندوقته ثلاث قطع. فأخذ يطوف بها من رصيف إلى رصيف ، بين أخلاط الناس المزدحمين في السوق ، مناديًا : كاتو ! كاتو !

وإذا بثلاثة غلمان حفاة ، مبعثري الشعور ، بارزي الصدور من شقوق قمصانهم المهلهلة ، يهجمون عليه وقد عرفوه. فتراجع إلى جدار وأسند ظهره إليه ووضع الصندوقة إلى جانبه ، وشمّر عن ساعديه ، ونفخ بمنخريه وصاح بهم :

– تعالوا ! اقتربوا من هنا !

فقهقه الصبيان هزءًا. أما هو الأعرج نفسه ؟ أما هو الذي يسلبونه كلّ يوم ويشبعونه ضربًا بعد أن يشبعوا من كاتوياته ؟ ها ! ها ! ها ! ها !... ودنا زعيمهم ذو القنباز المشقوق بين الفخذين. دنا ببطء ، برباطة جأش. وهمّ بإدخال يده في الصندوقة. فما كان من الأعرج إلّا أن جمع كفّه اليمنى وأمسك باليسرى ناصية خصمه ثمّ ضربه بوكسًا على يافوخه فانطرح تحته على الأرض. وقد سبق رأسه رجليه. فهجم الآخران. فأثبت الأعرج رجله الصحيحة على بلاط الرصيف وانهال عليهما. لهذا ضربة على أنفه ، ولذاك ضربة على خصيتيه – كما علّمه كريم – وأعاد الكرّة. فلم يلبثوا أن تفرّقوا وهو ينظر إليهم ولا يصدّق !

حينئذ رفع أنفه في الفضاء. ولبث دقيقة طويلة سكران بالظفر. جامدًا. إلّا دمه يفور في أعصابه ويتمشّى في جسمه من أمّ رأسه إلى أخمص قدميه. دم جديد قويّ. كأنّ الله خلق الأعرج خلقة ثانية.

ثمّ انحنى على الصندوقة فتناول قطعة كاتو. ثمّ تناول الثانية والثالثة. والتهمها واحدة وراء واحدة ، يكافئ نفسه. ومشى يبحث عن الغلمان يمينًا وشمالاً ، وخلفًا وقدّامًا ، ليريهم كيف تؤخذ الثارات !

* * *

الله من شتاء بيروت ! تنصبّ الأمطار ساعات دون انقطاع ، كأنّ الله يفتح أبواب السماء ثمّ ينسى إقفالها !

وقد مضى موعد الرجوع إلى الكوخ ، والأعرج ينتظر على ساحة البرج قابعًا تحت رفرف دكّان. والسيّارات تمرّ براكبيها ملفّعين بالثياب الصوفيّة الدافئة ، وترسل إليه رشاش الوحول – شتائم الغنى إلى الفقر ! – فتصبغ وجهه وتنفذ إلى قطع الحلوى الباقية في صندوقته.

أخيرًا ملّ الانتظار وحدّثته نفسه ، سرًّا ، بالصعود إلى الترامواي الذي جاء فوقف على المحطّة بالقرب منه . وكان لم يركبه إلّا مرّة واحدة حينما أنقذه كريم من الصبيان المتآمرين عليه .

نهض ، وحمل صندوقته ، وقدّم رجله العوجاء . ولكنه عاد ففكّر بعمّه إبراهيم . يجب أن يعطيه الحساب مضبوطًا . وإذا نقص ماذا يقول له؟ أيقول له إنّه ركب الترامواي؟ وأوشك الأعرج أن يضحك من نفسه . وسار الترامواي مسرعًا ، وهو يرافقه بعينيه حتّى توارى عنه في المنعطف . ثمّ اقشعرّ بدنه من البرد ، ووصلت القشعريرة إلى رجليه الحافيتين ، فأخذ ينظر إليهما ، فقد غسل المطر منهما جانبًا ، وأحدث في الجانب الآخر سواقي صغيرة .

وجاء الترامواي الثاني ، فتمتم الأعرج بشتيمة متحدّيًا الكون ! وصعد شادًّا صندوقته تحت إبطه . ولكنّ قاطع التذاكر ما كاد يراه في قذارته حتّى دفعه دفعة ، فوقع في الشارع ، وجاء رأسه في بركة وسخة ، ودخل الماء إلى فمه وأذنيه ، ومرّت سيّارة مستعجلة على صندوقته فحطّمتها شرّ تحطيم .

ومرّ الترامواي بأزيزه ، ومرّت السيّارة بهديرها ، وقام الأعرج كتلة من الأسمال والأوحال ... ولكنّه لم يبكِ . لم يحسّ بالألم . مسح وجهه بطرف قبازه ، ورفس أشلاء الصندوقة برجله العوجاء ، ومشى .

هذه المرّة ، رأى العمّ إبراهيم من الأعرج ما لم يكن له به عهد . فجُنّ جنونه وانكبّ عليه بالعصا يضربه دون نظام أينما جاءت الضربة ، ودون حساب على قروش ولا قطع كاتو . ولم يعدّ الأعرج العصيّ وقد تجاوزت العدّ . وظلّ تحت الضرب لا يتجعّد له وجه ، ولا تنزل له دمعة . مع أنّ العصا جاءت على عينه اليسرى وأورمتها فثقلت كقطعة من رصاص .

واعترف الصبيّ بكلّ شيء : بأنّه ركب الترامواي ، وحطّمت السيّارة صندوقته ، وأكل ثلاث قطع كاتو . وسيأكل كلّ يوم مثلها وأكثر! حتّى مزّق العمّ إبراهيم ثيابه ، وودّ لو يستطيع نهش هذا الأعرج الملعون بأسنانه .

وكان العمّ إبراهيم يسبّ الخالق لأنّه بلاه بالمرض ، وهو يزحف في الكوخ على قفاه ، غارزًا يديه في الأرض ، لاحقًا بالأعرج من جانب إلى جانب ، كالقطّة وراء فأرة صغيرة . حتّى تعب أخيرًا واستلقى في زاويته ...

* * *

مرّت ساعة ، ساعتان ، والأعرج لا يُغمض له جفن . وأبى تلك الليلة أن يطفئ القنديل . كان ينظر على ضوئه الشاحب إلى أقسام الكوخ كأنّه يتعرّف إليه لأوّل مرّة . ثمّ سمع غطيطًا فرفع رأسه ... كان العمّ إبراهيم غارقًا في النوم ، والضوء يتماوج على حاجبيه الكثيفين ، ولحيته الكثّة ، وأنفه الطويل ، وشاربيه المسترخيين ، وذقنه الملتوي . ورأى فمه مفتوحًا ، منفرج الشفتين .

وكأنّ انفراجهما حفّز الأعرج ، فأزاح الغطاء وركع على فراشه يريد الوقوف ... يريد الهرب ... بل يريد الانقضاض على هذا العمّ الوحش بالبوكس – كما علّمه كريم – وبالعصا المعلّقة هنا . العصا التي مضى عليها سنون وهي تأكل من جلده ولا تشبع ! هذه العصا نفسها يجب أن ترتدّ على الذي تعوّد حملها عليه : على قفاه ، وذراعيه ، وكتفيه ، ويافوخه .

وإنّ الأعرج ليهمّ ، إذا بالعمّ إبراهيم يوقف غطيطه فجأة وينقلب على جنبه . فصُعق الصبيّ في مكانه ، وخُيّل إليه أنّ عمّه مطّلع على ما يجول في دماغه ، وأنّه يفتح عينيه ، وأنّ العصا تترك الحائط من تلقاء نفسها وتمشي إليه في فراشه ...

– يا أعرج الملعون !

يا أعرج الملعون ! سمع الأعرج الصرخة تطنّ في أذنيه فانحلّت عزيمته – عاد إلى ثيابه العبد – وأرخى نفسه .

حينئذ دخل من شقوق الكوخ برق هائل ملأه ،

ثمّ قصف الرعد قصفات متتابعة ، مزمجرة . بعثت في جسمه رعشة مثلّجة ، فوطّن نفسه على النوم. ولكنّ عينيه وقعتا فجأة على صورة رأس الهنديّ – ماركة إحدى شركات الكاز– فوق رأس العمّ إبراهيم. صورة ما تزال على إحدى خشبات الكوخ جديدة ، بارزة ، كأنّها محفورة منذ يومين. والريش النافر يحيط بذلك الرأس هالة مخيفة. فلبث الأعرج محدّقًا إليها على ضوء القنديل المتمايل فوق أمتعة الكوخ العتيقة وعلى حيطانه . ثمّ قال في نفسه : «كم هو قويّ هذا الهنديّ !»

وقام على الأثر من فراشه كالآلة ، لا يخاف ولا يفكّر بشيء. ذهب توًّا إلى العصا المعلّقة فوق رأس عمّه وتناولها بيده ، وقبضها جيّدًا ، ثمّ أخذ ينظر إلى شاربَي العمّ إبراهيم يصعدان ويهبطان ، ويصغي إلى غطيطه يشتدّ ويخفت. ثمّ كشّر عن أسنانه كابن السمر. ورفع العصا إلى فوق ، بكلتا يديه ، وانهال على وجه العمّ إبراهيم : على شاربيه ضربة ، وأتبعها بالثانية والثالثة على الجبين والذقن ، قبل أن يستطيع عمّه صياحًا.

ولمّا أفاق العمّ إبراهيم عاجله الأعرج بضربة رابعة وخامسة وسادسة... دون حساب أيضًا.

وكان العمّ إبراهيم يعوي تحت العصيّ المتراكمة عليه عواء الكلب أصابه الصيّاد خطأ ، ويتململ ، ويجدّف ، ويحاول النهوض ، ولكن عبثًا. إنّه كسيح.

وكان يلحق زاحفًا بالأعرج من زاوية إلى زاوية لعلّه ينتزع العصا منه ، فيناوله حاملها الضربة على يده ، وعلى رأسه ، وعلى بطنه ، فيشتدّ عواؤه ، ويختلط بقصفات الرعد في الخارج وقهقهات تنكات الكاز على سطح الكوخ في تلك الليلة الليلاء.

وحدث أنّ العصا لطمت القنديل بينما كان الأعرج يرفعها على العمّ إبراهيم متراجعًا من أمامه ، فتحطّمت بقايا زجاجته ، وانقلب القنديل على الفراش فاندلق زيته ، فهبّت النار دفعة واحدة ، ونشرت في الكوخ المظلم ضوءًا كبيرًا. فكان الأعرج أسرع من بروق تلك الليلة. ركض إلى الباب وفتحه وخرج . ثمّ حاول إغلاقه . فإذا بالعمّ إبراهيم يهرب من الحريق ويهجم على الباب فيمسكه من حافّته . وهو يصرخ مستغيثًا ، لأنّ الكوخ كان قد تحوّل إلى أتون. وأخذ الصبيّ يشدّ من جهة ، وعمّه يشدّ من جهة ، ثمّ انحنى الأعرج على اليدين الضخمتين الممسكتين بحافّة الباب ، وعضّها عضّة ذاق بها طعم الدم . فارتختا . فأقفل الباب بالمفتاح جيّدًا ، وابتعد عن النار وكان لهيبها قد وصل إليه . ودخانها في أنفه.

وكان بالقرب من الكوخ شجرة من الأزدرخت قديمة العهد . فوقف تحتها يتّقي المطر المتساقط ، وينظر إلى الكوخ تتداعى جدرانه ، وتندلع منه ألسنة النيران ، وتنقضّ تنكات الكاز بعضها فوق بعض بقرقعة شديدة.

وأرهف الأعرج أذنيه ليسمع صوت العمّ إبراهيم . فإذا صوت مثل خوار البقر بدأ قويًّا... قويًّا... ثمّ أخذ يضعف شيئًا فشيئًا ، ثمّ عاد إلى الخوار أقوى منه قبلاً ، ثمّ هوى الكوخ هويًّا واحدًا ، محدثًا ضجّة ارتعدت لها فرائص الأعرج بالرغم من شجاعته وهول ما كان يحسّ به من نشوة الانتقام.

حينئذ مشى إلى الشارع ، وهو يرسل بين الخطوة والخطوة نظرة إلى الوراء ونظرة إلى الأمام.

أمّا الكوخ فقد صار رمادًا بمن فيه... إلّا بعض جمرات تطفئها الأمطار على مهل.

وأمّا الشارع فمقفر ، ليس فيه إلّا ظلّ الأعرج يلقيه المصباح الكهربائيّ المعلّق على محطّة الترامواي. ظلّ طويل ، مستقيم ، كلّما تقدّم الأعرج في المشي زاد في طوله واستقامته ، واختفت منه العرجة... حتّى خيّل إليه أنّ أوّله عند رجله العوجاء ، وآخره معلّق بتلك النجمة المرتجفة التي انقشعت عنها الغيوم في أفق السماء !

المقبرة المدنَّسة

«من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر !»

يسوع

كانت قرية فوران ، تلك الليلة ، سهادًا على كلِّ مخدّة . دقّت الساعة الثانية عشرة ولم يعرف النوم إلّا الأطفال . مع أنّ القرويّين يلجأون عادة إلى فراشهم بُعَيد الغروب ، فتسود فوران سكينة خاملة ، ولولا خوار البقرات من حين إلى حين في أحشاء الظلام لكانت أشبه بالمقبرة .

كان قد حدث في تلك الليلة حادث فريد : ماتت سلمى قتلًا في بيروت قبل يوم ، فحملها أخوها على سيّارة إلى مسقط رأسها ، ودفنها في المقبرة سرًّا ليخفي عاره وعارها . سرًّا دون صلاة ولا تشييع . ومن أين للعاهرة الصلاة والتشييع !

كان الغضب مستوليًا على الأهالي . هذه المخلوقة التي هجرت فوران قبل عشر سنين لوّثت سمعة فوران حيّة ، وتدنّسها ميتة . وكأنّ دفنها في المقبرة دون استشارة المختار لم يكفِ ، حتّى جاءت إحدى «أخواتها» – عاهرة مثلها – رافقت التابوت من بيروت ، مع أكاليل من الزهر وصليب كبير من الزهر أيضًا ووضعتها على المقبرة . وقبل أن ترجع ، بصحبة شقيق سلمى ، أبت إلّا أن تفتح التابوت وتنبش شعرها وتقبّل «أختها» قبلة الوداع ، وتبكي بكاء عظيمًا .

اِجتمع الأهالي في دكّان الشيخ سليمان – الدكّان الوحيد عندهم – يعلّقون على الحادث ويصغون إلى أخبار صاحبه وآرائه . وكان الرجل مختار القرية ، ورث الوظيفة عن أبيه كما يرث ابن الملك العرش ! ولذلك كانوا ينادونه بالشيخ سليمان ، ويخضعون لأوامره ونواهيه .

جلسوا في الدكّان الحقير . بعضهم على بنك خشبيّ محطّم ، والبعض الآخر على أكياس الفول والعدس والصناديق الفارغة ، على ضوء قنديل من الزيت يلعب به الهواء ، فيصعد دخانه مشحات مشحات على زجاجة له مكسورة الرأس ، ويلقي على الحيطان ظلالًا مضطربة كأنّها الأشباح .

الشيخ سليمان وحده كان مطّلعًا على الحادث كيف وقع ، فقد نزل في ذلك اليوم إلى بيروت – وهي تبعد عن فوران ساعة بالسيّارة – لمشترى البضاعة لدكّانه ، وقُتلت سلمى في ذلك اليوم .

كانت مئات الأسئلة تنهال عليه ، وهو متربّع على مقعد ذي غطاء مبقّع ، مرقّع ، حتّى نسي أصله . وكان ينظر إلى المستمعين بعينين كبيرتين حمراوين ، ويفتل شاربيه المعقوفين المشوبين بالشعر الأبيض ، ويرفع حاجبه الأيسر ويقول :

– هذه آخرة العاطلة ! اخترقت الرصاصة ثديها الأيمن وخرجت من كتفها . لم تمت حالًا ، الملعونة ! صاحت صيحة هائلة ووقع بدنها كالصخرة على رصيف

الشارع. لو ترونها لما كنتم تعرفونها. سلمى التي تركت فوران قبل عشر سنوات غير روزيت - اسمها صار روزيت - *التي كانت قبل أربع وعشرين ساعة تستقبل* شبّان بيروت في حضنها، ويملأ اسمها «السوق». سمينة، مملوءة بالشحم واللحم، لها عينان تذبحان ذبحًا، وعليها من الحلى ما يساوي ثمنه أرزاق دير مار بطرس. مع أملاك في بيروت في أفخم الأحياء: أربع بنايات، إيجار كلّ واحدة لا يقلّ عن مئتي ليرة عثمانيّة في السنة. عدا النقود المحفوظة في صندوقها الحديديّ... تركة خمسة آلاف ليرة عثمانيّة، كلّها لهذا الأبله أخيها.

- مال حرام! (اعترض أحد السامعين باصقًا) أتعتقدون أنّ اللقمة تنزل في الحلق مشتراة بهذا المال؟

فقهقه الشيخ سليمان حتّى برزت تجاعيد وجهه الأجرد كالأخاديد وقال:

- ولماذا لا تنزل اللقمة في حلقك، يا حمار؟ كلّه مال. المال في يدك كما هو في يدي وفي يد كلّ الناس. هل ترفض إذا أعطوك ثروة سلمى؟

فرفع الفلّاح كفّه ساترًا بها وجهه من الشيطان!

واستأنف الشيخ سليمان:

- لو ترون الخاتم الذي أهداه إليها عشيقها، وهو لا يزال في إصبعها هنا في المقبرة، ماذا كنتم تقولون؟ يساوي ثلاثمائة ليرة عثمانيّة. جلبه لها من باريس. ثمّ بعد ذلك العشق قتلها بيده... ولكنّ كلّ هذا الحديث لا يهمّنا. إنّ دفن العواطل في مقبرتنا شيء لا أستطيع أن أسكت عنه. وأكاليل وصليب أيضًا!

وأطرق الشيخ سليمان يهزّ برأسه، ويرفع حاجبه الأيسر، ويمعس سيكارته بحذائه، والمستمعون يتهامسون ويتشاورون، غاضبين لغضبة المختار.

أمّا النساء فقد كان حديثهنّ على الزانية أيضًا. البعض بقي في المنازل خوفًا من الرجال، والبعض خرج إلى العين في تلك الساعة المتأخّرة من الليل - والعين ملتقى النساء ومكان مؤتمراتهنّ - وأخريات تسلّلن حافيات الأقدام، ووقفن كاللصّات خلف دكّان الشيخ سليمان يصغين إلى أخباره ويعلّقن عليها:

- *يا أختي، قتلها الذي كان ينام في فراشها كلّ* يوم. يظهر أنّه طمع بمالها، أو رآها تعشق غيره.

- وماذا تعتقدين أنت؟ هؤلاء النساء مثل هذه

- نجّانا الله! - كلّ يوم ينام في فراشهنّ أكثر من عشرة. ويدفعون عن كلّ مرّة ليرتين.

فتصنع الأخرى إشارة الصليب على صدرها وتقول:

- عشرة! مسكين أبو حنّا! حلالي، ولا أسمح له أن يدنو منّي إلّا مرّتين في الشهر.

- وأنا أنحس منك، يا مريم. باطلة الأباطيل! كما يقول بونا طانيوس. ماذا نفعها المال والجمال، وبيروت وطنطنتها؟ كلّ الناس يبصقون عليها الآن. وستنزل إلى جهنّم. دفنوها مثل الكلبة، لم يمشِ وراءها خوري ولا بكى عليها مخلوق.

- يقولون إنّ شبّان بيروت كانوا يموتون عليها.

- يموتون عليها! ولماذا؟ أنا أذكر سلمى جيّدًا. ليست جميلة، كما يزعمون. كلّه، يا أختي، بودرة وحمرة وملعنة. أذكرها جيّدًا. كان عمرها ثماني عشرة سنة. ضعيفة، كبيرة الرأس، متدلّية الشفتين، وسوداء مثل عود الفحم.

- وهؤلاء اللواتي يقضين حياتهنّ في «السوق» ويعاشرن ألف رجل ورجل، أين يضعن أولادهنّ؟

فانبرت لها واحدة:

- يا بسيطة القلب! ألا تعلمين أنهنّ لا يحبلن؟ أم أنت تظنّين أنّ عند كلّ واحدة دزّينة أولاد مثلك؟

- الله يحفظهم بصحّتهم! أنت محروق قلبك على ولد، وستموتين بهذه الحرقة!

وكادت الاثنتان، لولا رفيقاتهما، تتماسكان بالشعور.

وكان كلّ واحد من الأهالي، رجالًا ونساءً، يستعيد ذكريات الحادثة التي شغلت فوران قبل عشر

سنين ، ويسألون عن مصير إلياهو ، البائع اليهوديّ الدوّار الذي كان يسوق حماره إلى فوران كلّ أسبوع . لأنّهم ما يزالون يعتقدون أنّ إلياهو هو الذي أغرى سلمى ، فسلّمت إليه بكارتها وحبلت منه لقاء مشط وخاتم زجاج وأربع أذرع من العَنْبَرْكيس ...

قالت امرأة لجارتها :

– أين خاتم الألماس الذي تلبسه سلمى اليوم من خاتم الزجاج الذي أهداه إليها إلياهو ؟ يقول المختار ، يا أختي ، إنّ هذا الخاتم ثمنه ثلاثمائة ليرة عثمانيّة ... أخوها حاول أن ينتزعه من إصبعها فلم يقدر . ثلاثمائة ليرة عثمانيّة ، هنا ، في المقبرة ، تحت التراب !

وجعلت المرأة تجسّ خاتمها وتحدّج إليه في الظلام ، كأنّها تشمت به أمام ذلك الخاتم النفيس .

فقالت الأخرى :

– لماذا لم يقطع أخوها الإصبع وينزع الخاتم ؟ ما دامت أخته قد ماتت والميت لا يحسّ بشيء .

– لا أعلم . قلبه لا يطيعه . أخته ! ولو كانت عاطلة ... شرف النفس يساوي مال الأرض كلّه .

– تريدين الحقيقة ، يا أختي ، بعد إلياهو لم يأتِ إلى فوران بائع مثله . كان يجلب أشياء لا يجلبها هؤلاء البائعون الجدد . المشط اليوم ينكسر على شعرات ابن يومين . وعندي مشط اشتريته من إلياهو قبل عشرين سنة ما تزال بناتي يستعملنه حتّى اليوم وهو على لمعانه . اشتريت من بعده لا أعرف كم مشطًا فانكسرت كلّها . مسكين إلياهو ! لم يرجع منذ ذلك الوقت ولا أحد يعلم ماذا حلّ به . كان قصيرًا ، له عينان مثل بزرتَي الزيتون ، ولم يكن يظهر عليه أنّه شيطان لهذه الدرجة .

– أنت تعرفينه يا أختي . أمّا أنا فلا أذكره . كنت صغيرة .

– اسم الله عليك ! كم هو عمرك الآن ؟

وفتحت لها عينين كبيرتين تلتهمان .

* * *

لم يكن البائع اليهوديّ الدوّار عاشق سلمى . أمّا العصيّ التي انهالت عليه – المسكين ! – قبل عشرين سنة ، هنا ، على باب دكّان الشيخ سليمان ، والبصقات التي لوّثت وجهه ، والأحذية التي دقّت رأسه ، أمّا كلّ ذلك فزور وبهتان .

إنّ الذي كان سببًا في نزول سلمى إلى « السوق » في بيروت لم يعرفه إلّا ثلاثة في فوران . كانوا ثلاثة . اليوم ، بعد موت سلمى ، لم يبقَ إلّا المختار وبونا طانيوس . وبونا طانيوس لن يبوح بالسرّ . إنّه مدفون في أعماق صدره ، ميت أكثر من سلمى . سرّ تلقّاه على كرسيّ الاعتراف بالأذن التي يدخل إليها كلّ شيء ويخرج من الأذن الأخرى . أمّا المختار ...

تقدّم الليل وجفّ زيت القنديل ، فأمر المختار الجماعة أن يذهبوا إلى النوم ، ثمّ أقفل دكّانه ومشى إلى بيت الكاهن .

كان بونا طانيوس ساكنًا في طرف القرية في بيت ذي طبقتين . الطبقة الأولى له ، والسفلى لامرأة تخدمه ، يناديها الأهالي بالخوريّة ، لأنّهم كانوا يسيئون الظنّ بها ويقولون إنّ بونا طانيوس يحبّها .

الطريق وعرة بين التوت والحجارة وأوساخ البقر . ولكنّ الشيخ سليمان كان ممسكًا بيديه قنديلًا كهربائيًّا ذا زرّ – قنديل يحسده عليه الأهالي وينظرون إليه معجبين – فلم يعثر في الطريق ، ولم يشعر كذلك بطولها ، لأنّ أفكاره كانت مشغولة . وكان يقول مصرًّا بأسنانه : أنا مجنون ! كان عليّ أن لا أفتح سيرة الخاتم الذي لا يزال في إصبعها . ثلاثمائة ليرة عثمانيّة ! وفكّر بأخيها وكاد يضحك من بلاهته .

استقبلته خادمة بونا طانيوس وهي تفرك عينيها . فوضع الشيخ سليمان فوّهة القنديل في وجهها فكادت تصيح من أذى النور وأدارت له ظهرها ، فبان فسطانها عالقًا بقفاها الرجراج ...

– أين بونا طانيوس يا خوريّة ؟ قولي له لا يتظاهر بالشخير !

فعادت الخادمة إلى المختار بوجهها المربّع ، المترهّل ، النازل عليه الشعر وقالت :

– دائمًا تحبّ المزح يا شيخنا . خير إن شاء الله في هذا الليل ! بونا طانيوس نائم ... هل قبرها أخوها ونزل إلى بيروت ؟ ... قل لي . أين كنت سهران ؟

– قومي من دربي ! هذا شيء لا يعنيك .

جلس الشيخ سليمان على طرّاحة بجانب فراش الخوري الممدود على الأرض . ورفض بونا طانيوس أن يصغي إلى شيء قبل أن يقوم بواجب المختار :

– عجّلي بفنجان القهوة للشيخ ، يا بنتي .

فضربت الخوريّة الهواء بذراعها ولبطت الأرض ، ونفخت ، وبربرت ، وذهبت إلى الموقد .

كان بونا طانيوس في قميص النوم : أبيض كلحيته . تربّع على الفراش وتناول نظّارتيه المربوطتين بخيط ، ووضعها على رأس أنف عليه آثار الجدريّ ، وجعل يحدّق من فوقها إلى الشيخ سليمان وعيناه مفتوحتان فتحة كبيرة ، بلهاء .

قال المختار :

– يجب أن نحرق الأكاليل والصليب . هذا شيء لا يجوز أبدًا . عاهرة على قبرها أكاليل وصليب !

– تفضّل يا شيخ سليمان ، جاءت القهوة .

تناول الشيخ سليمان فنجان القهوة من الخادمة العاقدة حاجبيها ، المدلّية شفتورتيها ، وأدناه إلى فمه بيد مرتجفة . وكان يحاول إيقاف هذا الارتجاف فلا يستطيع :

– لم تقل لي رأيك ، يا بونا طانيوس . يجب أن نحرق الأكاليل والصليب . سأحرقها أنا بيدي . سأذهب في الليل وأحسر على هذه العاطلة قنّينة كاز من جيبي ، وأضرم النار بالأكاليل والصليب . أنا مسؤول عن سمعة فوران . أنا المختار ، وعليّ واجبات . ماذا يقول عنّا الغرباء ؟ ماذا يقول عنّا أهالي القرى المجاورة ؟ بعد ثلاثة أيّام عيد مار مخايل . وأنت تعرف الجماهير التي تتقاطر علينا في هذا العيد من كلّ جهة . سيرون الأكاليل والصليب على القبر ويقفون على الفضيحة من أوّلها إلى آخرها . هل ترى أنّ ذلك يشرّفنا كثيرًا ؟

وكان فنجان القهوة يرقص رقصًا بين أصابع الشيخ سليمان وهو يتلفّظ بهذا الخطاب . وكانت الرجفة من قلبه ، وهو يغضب على نفسه من أجلها ويجمّد أعصابه فلا تجمد . أخيرًا وضع فنجان القهوة على الحصيرة دون أن يكمله ونهض ، فقال له الكاهن :

– يا ابني ، كلّنا خاطئون . ألا تسمع ما يقول مار بولس في رسائله لأهل كورنثيا ؟

– لا أريد أن أسمع شيئًا . أنا ما جئت لآخذ رأيك ، بل لأخبرك بما سيقع . غدًا في الليل سأذهب إلى المقبرة وأحرق الأكاليل والصليب . بيدي أنا . أفهمت ؟

وضغط زرّ قنديله الكهربائيّ وصوّبه إلى الباب ، وخرج . فهبّ بونا طانيوس من فراشه حتّى وقعت نظّارتاه على الأرض ، وشيّع المختار إلى الباب :

– شرّفت ، يا شيخنا .

وعاد بخطًى بطيئة وهو يعبث بلحيته الكثّة بحركات قويّة ، عصبيّة ، تكاد تجرح .

* * *

في الصباح – وكان اليوم الأحد – جاء الأهالي إلى القدّاس . ورأى القدّاس منهم في ذلك الأحد ، رجالًا ونساء ، تقوى لم يرَها منذ زمان .

كان المختار جالسًا على الكرسيّ المخصّص له في مقدّمة الصفوف ، في تلك الكنيسة العتيقة التي شهدت الآباء والأجداد ، والتي تشقّقت جدرانها من كرّ السنين وصلوات المؤمنين ، بينما كان الآخرون موزّعين على بنوك خشبيّة محطّمة ، عشّش فيها الشمع والوسخ والزيت . وكان عاقد الجبين ، فاسحًا ما بين ساقيه ، ممسكًا بطرف شرواله على ركبته ، يفتل شاربيه من حين إلى حين ، ويلقي أوامره بصوت عالٍ على خادم القدّاس وينتهره ، فيرتجف الولد خوفًا ، حتّى وقعت المبخرة منه

وهو يقدّمها إلى بونا طانيوس ، فانحنى يلتقط الجمر عن درج المذبح وأحرق أصابعه .

بعد الإنجيل ، نهض المختار من مكانه إلى بونا طانيوس وطلب منه أن يلقي عظة عن سلمى ، وعن عاقبتها وعاقبة الخاطئات ، وأن يشدّد في الكلام .

لم يكن بونا طانيوس خطيبًا ، ولكنّه كان معتادًا مخاطبة أبناء رعيّته باللغة التي يفهمونها . وكان يطيع الشيخ سليمان طاعة عمياء . وكيف لا يطيعه وهو الذي عيّنه خوري الرعيّة وهو الذي يعزله متى شاء؟ ... رفع كمّه ، وبسط بطنه قدّامه ، ثمّ مشط لحيته ولفظ خطبة نعت فيها العاطلة – وكان يرفض أن يلفظ اسمها بشفتيه – بالجيفة المنتنة . وبالكلبة الميتة ، مؤكّدًا أنّها ذهبت إلى جهنّم حيث البكاء وصرير الأسنان ، تنهشها الأفاعي وتأكلها الديدان ، ويضرم الشيطان حواليها النار التي لا تنطفئ ، لا يشفع بها المال ولا الجمال ، ولا خواتم الألماس .

وكانت قصّة الإنجيل ، التي تلاها على المؤمنين قبل يوم ، قصّة الزانية التي لاذت بالناصريّ من غضب اليهود طالبي رجمها . فقال لها ابن الله كلمته : «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر ! » .

ولبط الكاهن الأرض بحذائه ، وعاد إلى المذبح يكمل قدّاسه ، بينما كان صدى حذائه يتردّد في جوانب الكنيسة ، وإشارات الصليب ترتسم على وجوه المصلّين . إشارات صنعوها في وقت واحد ، فامتدّت أخيلتها على الجدران أشباحًا كبيرة هائلة .

بعد القدّاس ، عاد الحديث في القرية يحوم حول سلمى . وذهب البعض إلى التلّة المطلّة على المقبرة . والمقبرة في شبه وادٍ : حائطان اثنان نبت العشب بين حجارتها العتيقة وفتّق الطين . وهي واطئة لها بابان مصفّحان أزرقان ، وسطح علوّه يتساوى والأرض ، وبجانبها شجرة باسقة من السرو تتغذّى من لحوم الموتى .

وقفوا بقنابيزهم المزركشة وشراويلهم الضيّقة ، كتلًا كتلًا ، يتفرّجون ويشيرون بأيديهم . أكثر من عشرة أكاليل ، وصليب كبير مشكوك بينها على الباب . زينة لم يرَ ميت في فوران مثلها منذ كانت فوران . وأراد أحدهم أن يقرأ الكتابات المذهّبة على الشرائط التي تزنّر الأكاليل فدنا مرتعشًا ، سادًّا منخرَيْه بيده ، بينما كان الآخرون ينتظرونه مادّين بأعناقهم . وبعد أن أصعد رأسه وأنزله بين الأكاليل ، لا يجسر أن يمسك الشرائط بأطراف أصابعه ، ركض عائدًا يقول :

– رائحة زهر تشقّ القلب . والكتابة بالفرنجي لم أفهم منها شيئًا .

ذهبوا بعد ذلك إلى البيت الذي نشأت فيه سلمى . كان الفضول يدفعهم إلى تلمّس كلّ أثر من آثارها . بيت متهدّم ، مسروقة أبوابه ، لم يبق قائمًا فيه إلّا حائط واحد . وعن جانبَي هذا الحائط كُوَم من الحجارة . وقفوا يهزّون الرؤوس ، لم يستطيعوا إلّا الترحّم على والد سلمى . كان رجلًا طيّبًا ، سكوتًا ، مات بعد سنة من فضيحة ابنته . مات قهرًا عليها . أمّا ابنه فقد نزل وراء شقيقته إلى بيروت هربًا من العار الذي لحقه في فوران . وهو الذي جاء بجثّتها في الليل إلى المقبرة مع إحدى بنات «السوق» .

وثرثر الفلّاحون حول شفيق – وهو اسمه – كثيرًا ، وبصقوا عليه لأنّه لم يقتل سلمى ... جبان ! فضّل أن يبقى إلى جانبها ويعيش من المال الذي تكسبه بالفجور .

وأراد الأهالي أن يصغوا إلى أخبار أخرى عن سلمى من فم الشيخ سليمان . ولكنّهم لقوه جالسًا في دكّانه عابسًا ، مسندًا ذقنه بيده ، يدخّن سيكارة بظهر سيكارة ، فتركوه . حتّى إنّ صاحب الحاجة لم يجسر في ذلك النهار على الدخول إلى الدكّان للشراء .

* * *

لفّ الليل بجلبابه قرية فوران . ليل أسود ، مبغوت ، نجومه غائرات . وزاده رهبة عواء الكلاب من

حين إلى حين ، يتردّد صداه في الأودية البعيدة ، وهنا في صدر سليمان ، فيرتعش ارتعاشًا ، كأنّه يسمع هذا الصوت المزعج لأوّل مرّة في حياته ، وتمتدّ الارتعاشات في عروقه ، تذهب وتجيء كمن أُصيب بالبرداء.

تفقّد عدّته جيّدًا : السكّين في جيبه ، وقنديل الكهرباء في يده ، وفي اليد الأخرى قنّينة الكاز. وتذكّر أنّه يحتاج خصوصًا إلى علبة كبريت ، فنزل إلى الدكّان – والدكّان في الطبقة السفلى من بيته – وتناول علبة وجرّب عودًا منها خشية أن يكون الكبريت فاسدًا من الرطوبة. ثمّ وضع العلبة في جيبه ، وأقفل الباب والتفت يمينًا وشمالًا. ثمّ شمالًا ويمينًا... لا أحد. لا حسّ. من يكون ساهرًا في هذه الساعة!

وتوجّه إلى المقبرة... لم تكن بعيدة. مئتا متر. كأنّه ذاهب إلى سهرة في بيت عمّه. ولكنّ قدميه تضطربان ولا تطيعانه في المشي. خطوتان وهو على باب المقبرة. ما هذه الأفكار الغريبة المتزاحمة في ذهنه. المتصارعة فيه ، المترافسة ، المتطاحنة؟ زانية ميتة... جيفة! علامَ الخوف؟ وهل للمقبرة شيخ –كما تقصّ العجائز– يحرسها في الليل وفي يده منجل طويل يقف به على الباب ويسأل القادمين:

– ماذا تريدون؟ دعوا الأموات يستريحون!

خرافات! كلّها خرافات لا وجود لها إلّا في مخيّلة العجائز.

الظلام كثيف ، والقمر لم يطلع بعد ، والشيخ سليمان لا يريد أن يضيء قنديله. يسير متعثّرًا هنا ومبطئًا هنا ، رأسه بين كتفيه جامد كالخشبة ، وهو يشدّ بعينيه ليرى ، فلا يرى إلّا السروة شبحًا أسود ، والأكاليل حول الصليب أشباحًا سودًا تتعانق.

أين شيخ المقابر؟ أيكون قد اختفى وراء الحائط؟ أم بين الأكاليل؟ أم خلف الصليب؟ أم قفز إلى السروة يراقب بعينيه اللمّاعتين؟

ودنا الشيخ سليمان على مشط قدميه ، ومدّ يديه يستدلّ بهما ويخطو حابسًا أنفاسه. ولمّا اصطدم بالأكاليل انحنى فوضع القنّينة بجانبها وبقي منحنيًا. ونظر من تحت إبطه يمينًا وشمالًا ، فبرقت عيناه الحمراوان في الليل كعيني قطّة. ثمّ ضغط القنديل ضغطة واحدة ، قويّة ، لأنّ يده كانت ترتجف وكأنّه كان يخاف أن تخونه ، فرأى باب المقبرة مقفلًا بحجر كبير قد أُلقي عليه وجرحه. فبادر إلى إطفاء القنديل ودسّه في جيب شرواله وأزاح الحجر على مهل. وجده ثقيلًا وأحسّ بأعصابه ضعيفة ، رخوة.

وانتظر هنيهة يستسلم إلى الارتعاشة الباردة الجارية في مفاصله... هذه سلمى في قبو البقرات. لا أحد في البيت. أبوها في الحقل وأخوها. هذه هي بفسطانها الأزرق المقلّم ، ووجهها المحمرّ بالعافية يكاد الدم ينفر منه ، وعينيها السوداوين الحيّتين ، وقدميها الحافيتين. ها هي تستقبله وترتمي على صدره وتلهب عنقه بأنفاسها...

– لا تخافي من أبيك يا سلمى. ألا تحبّينني؟

ما هذه الهواجس؟ ضرب الشيخ سليمان بكفّه على جبينه ومسح العرق البارد المتصبّب عليه. أشياء قديمة مضى عليها أكثر من عشر سنوات ، لماذا تعود إلى مخيّلته في هذه الساعة وفي هذا المكان ، وكان قد نسيها كأنّها لم تكن؟

وعاد إلى الباب يعالجه ، فيصرّ تحت الضغط صريرًا موجعًا ، حتّى فتحه وزحف على بطنه... الباب واطئ – باب توابيت – ودخل وجلس على قفاه في المقبرة ، ونظر إلى الخارج من الباب ، ثمّ أجال القنديل حواليه بالرغم منه. خلفه ، وعن يمينه ، وشماله ، وفجأة أطفأه. يا للمناظر الهائلة! توابيت بالية ، في واحد منها هيكل أضلاعه بارزة ، وفي الآخر طربوش وثياب مهترئة ، وفي الثالث جمجمة مكشّرة تضحك ، وفي الرابع كفّ ذات أصابع منفرجة ، متقلّصة ، ممصوصة ، لم يبقَ عليها إلّا الجلد اليابس ، تمتدّ من التابوت كأنّها تمتدّ إليه ، كأنّها تحاول قبضه من عنقه.

أخذ الشيخ سليمان يبلع بريقه وقد أحسّ

بالاختناق. وحدّثته نفسه بالخروج، بالهرب. فأخرسها وعاد إلى قنديله، وعزم هذه المرّة أن يصوّبه إلى الأمام، بالقرب من الباب، إلى الموضع الذي يجب أن يكونوا قد ركّزوا تابوتها فيه. وإذا هو يقع مباشرة عليه! فزحف مغمضًا عينيه، لا يريد أن يرى، وألقى كلتا يديه على التابوت المفضّض اللمّاع، وحفّ صدره بصدره.

هذه سلمى ترتمي في حضنه وتقول له:

– أنا خائفة يا سليمان. والدي قاسٍ يضربني كما يضرب البقرات، وأخي يبصق بوجهي. ماذا تريد أن أعمل؟ أما قلت لي إنّك تنقذني من كلّ شيء؟ بطني يكبر، وثيابي ضاقت عليّ. يا ذلّي بين الناس وأمام بونا طانيوس!

– لا تبكي! لا تبكي يا سلمى. يا حبيبتي! أنا أحبّك. ألا تثقين بحبيبك سليمان؟ لا تبكي، لا تبكي! هاتي وجهك لألتقط هذه الدموع الحلوة بفمي!...

كانت هذه الذكريات تضجّ في رأسه، فطردها ورجع قليلًا إلى الوراء، ومدّ أصابعه إلى أقفال التابوت ففتحها بتؤدة. فأحدث فتحها صريرًا كان يتجاوب في كيانه كما يتجاوب صوت الخوري في الكنيسة، وملأت أنفه رائحة النتن. وتناول القنديل مرّة أخرى بيده، وباليد الثانية أمسك السكّين وأدار فوّهة الضوء إلى داخل التابوت. هنيهة. ثمّ أطفأه كالمجنون. رأى رأسها... رأسها هي! رأى الدم يتدفّق من شفتيها الصفراوين ويتحلّب على الجانبين ويصبغ عنقها. رأى عينيها مفتوحتين نصف فتحة، رآهما تريدان أن تنفتحا تمامًا، وكاد يحسّ بجهدهما في سبيل ذلك. ورأى أنفها، ورأى شعرها مسبلاً على الجبين، ورأى خدّيها وقد علاهما اغبرار الموت.

استراح على قفاه وأطبق أجفانه، يريد الانتقال بالفكر إلى بيته الهادئ، ولكنّه لم يستطع. وأراد إقفال التابوت والهرب، ولكنّه لم يستطع. كبر رأسه وأخذت ركبتاه تضطربان. وفجأة تحوّلت المقبرة الضيّقة، الواطئة، إلى بيت دعارة. وسمع سلمى، سمع روزيت تقهقه وتمسك ذقنه بيدها... ثمّ رآها عارية – عارية من كلّ شيء، كما لم يرَها قطّ في زمانه – وهي ترتمي على سرير عريض تلمع حرائره، ورأى الشبّان يتهافتون عليها، كلّ واحد ينال منها بغيته ثمّ يذهب. وهي تقهقه وراء كلّ واحد منهم. ثمّ تدعو الآخر فالآخر فالآخر، في سلسلة لا نهاية لها...

وأفاق الشيخ سليمان من هذيانه وصدره يعلو ويهبط. وقال في نفسه: أولد صغير أنا؟

ثمّ تناول سكّينه، وتلمّس بيده اليسرى اليد الجافّة الباردة، وجسّ موضع الخاتم. وأخذ يحزّ الإصبع بالسكّين، يحزّ ويشدّ بكلّ ما أوتي من قوّة، والإصبع لا تنقطع كأنّها من حديد – مع أنّ السكّين حادّة، قضى نهاره في شحذها – أخيرًا انقطعت، فانقلب، أو كاد، على ظهره من فرط ما كان يشدّ بها. ثمّ دسّها في جيبه، ودبّ على ركبتيه يريد الخروج، مسرورًا لأنّه انتهى. ولكنّه كان يحسّ. وهو يضرب أرض المقبرة بيديه، بأنّ سائلًا نتنًا لوّثهما، سائلًا ليس من دم، بل من شهوات ألوف الذين اضطجعوا في فراش سلمى طول عشرة أعوام!

ورفع الشيخ سليمان رأسه فارتطم بباب المقبرة، وإذا هو يقع على ظهره وقد أصيب بدوار. ثمّ أحسّ بالدم يتساقط من جبينه على عينيه فيكاد يعميها. فسحه وأضاء قنديله، وزحف إلى قنّينة الكاز فصبّها على الأكاليل والصليب، وأشعل عود كبريت، وانسلّ إلى جانب الحائط يمشي القرفصاء. وحانت منه التفاتة فإذا النيران تلتهم المقبرة وإذا الأموات يطلّون منها، فخرج هيكل العظام من الباب، ثمّ خرجت الجمجمة تنطّ نطًّا وهي تضحك مكشّرة، ثمّ رأى الطربوش البالي يأتي إليه، شرّابته ترقص في الفضاء، ويحاول أن يحطّ على رأسه، فرفع كفّه يريد أن يصدّه، فإذا اليد المتقلّصة، المنفرجة الأصابع،

الخارجة من شقّ التابوت ، تهجم عليه وتمسك بعنقه تريد خنقه. فجاءته الصيحة فزعًا ، ولكنّها تلاشت لهاثًا ، فأخذ يركض صوب البيت ، وشيخ المقابر يلحق به ممسكًا بدل المنجل جرسًا يقرعه ، والأموات تستيقظ وتنفض توابيتها عنها ، وتركض وراءه مئات من الهياكل العظميّة الجوفاء ، مجيّشة بطبولها وزمورها ، تريد أن تقبضه وترجع الإصبع المسروقة.

ولم يتوارَ الشيخ سليمان إلّا بعد أن وقع على الطريق مرّات !

حينئذ ظهر القمر من وراء الرابية منشطر الوجه ، وبعد أن استراح هنية على القمّة تابع صعوده في الجلَد الأزرق بانحراف إلى الجنوب ، كأنّه يدور حول فوران ليتفرّج على محرقة المقبرة من كلّ جهاتها.

* * *

طلع الصباح على فوران أجمل ما يطلع عليها ، وألقت الشمس أشعّتها الضاحكة على بيت المختار قبل غيره ، على ذلك البيت العالي ذي القرميد الأحمر المخروط ، والحربة الذاهبة في السماء. ثمّ ألقت أشعّتها على القرية كلّها فشملت تلك البيوت الصغيرة المبعثرة بين التوت ، المسودّة حجارتها ، المنبسطة سطوحها بذلّ ، يدخل من كلّ نافذة شعاع ويوقظ أصحاب البيت إلى أعمالهم.

في تلك الساعة المملوءة بالسكينة ، كان راعٍ ابن عشر سنين يسوق عنزاته الثلاث إلى الحقل. وكانت طريقه بجانب المقبرة بين الصنوبر والبطم والسنديان ، يسير حافي القدمين ، وبين يديه شبّابته يصلح خللًا طرأ عليها ، والعصافير تنتفض من ندى الليل على أغصانها وتمدّ مناقيرها وتغرّد أفرادًا وجماعات ، كأنّها تقول له :

— لقد سبقناك !

وبينما كان الراعي يجدّ في إصلاح شبّابته وقعت من يده على الأرض ، فانحنى لالتقاطها ، فإذا بالقرب منها إصبع مقطوعة وخاتم ما يزال فيها ، فأجفل متراجعًا وهو ينظر ويتعجّب. ثمّ دار حواليه فضرب كفّه بالأرض وجاء بحفنة من التراب وطمر بها الإصبع وداسها ثلاثًا ، ثمّ مشى لاحقًا بعنزاته وهو يقول عاليًا :

— صدقت جدّتي ، الله يرحمها ! كانت تقول لي : المغارة القريبة من المقبرة مسكونة بالجنّ. ترى ، أيّ جنّيّة ضيّعت إصبعها؟

وصنع إشارة الصليب ، ونفخ في شبّابته لحنًا طويلًا ، شجيًّا.

الجرذون الشتويّ

من مآسي الحرب الكبرى

كنّا ثلاثة في السيّارة ، أنا وصديقي جميل وأحد المصطافين في برمّانا . في الطريق ما انقطع جميل عن التحدّث إليّ في شتّى الشؤون ، وهو ذو حديث جذّاب ، ولكنّنا ما كدنا نصل إلى برمّانا ويتركنا رفيقنا المصطاف ، حتّى سكت فجأة وقال :

– هاتِ سيكارة ! وانزل معي .

– إلى أين تريد أن نذهب ؟

– ننزل ، هيّا ننزل .

ترجّلنا ومشينا . مشيت وراءه لأنّني ما كنت أعلم إلى أين يذهب بي . على الدرب بضعة مصطافين يتنزّهون في مساء هادئ . لكنّ الحرّ ، حتّى في برمّانا ، كان شديدًا في ذلك النهار ، وكانت إحدى المتنزّهات ممسكة بمروحة .

كان الضجر قد بدأ يقطّب جبيني ويثقل قدميّ حينما وصلنا إلى مدرسة الفرندز . تقدّم جميل ودخل من الباب ، فوقفت وصحت به :

– اتّفقنا على جلسة في مقهى ، فإلى أين تقودني ؟

فلم يجب بل استمرّ ماشيًا . ثمّ جلس في ساحة المدخل على صخر وطفق يسرّح بصره في ما حواليه . والواقع أنّي ما كرهت مجالسته في ذلك المكان الظليل الذي تمتدّ فوقه شجرات الكينا الباسقة وتلقي عليه ، مع ورقاتها المتناثرة المتمايلة في الفضاء ، بعض الرطوبة .

التفتّ إلى صديقي ، فإذا على وجهه اصفرار ونحول ، كأنّ جميل الساعة غيره قبل ساعة . فلم أستطع أن أخفي دهشتي وجزعي ، فهزّ برأسه هزّة ابن الثمانين ، وهو بعد في نضرة العشرين ، ثمّ تنهّد وحاول الكلام ، ثمّ بلع بريقه ورمى السيكارة وداسها .

بعد أن ألقيت عليه عشرات الأسئلة عن تغيّر حاله ، فتح فاه وقصّ عليّ هذه القصّة الفاجعة ، قال :

– أُنظر إلى هذا المكان ، إلى هذه الساحات ، إلى هذه الأدراج ، إلى هذه الأبنية ، إلى هذه الأشجار . لقد سلخت فيها شطرًا من حياتي لن أنساه . وكيف ينسى الإنسان أيّامه الصعبة وآلامه ؟ إنّ السعادة تمرّ وكأنّها تداعب الجلد ، وتتوارى ولا تنفذ إلى القلب . أمّا الشقاء فإنّه يشقّ هذا القلب شقًّا ، ويحفر فيه سطورًا لا تُمحى ، سطورًا من نار .

إنّني لا أزور هذه القرية إلّا ويطلع لي البكاء ، وتأخذني ذكريات الماضي الذي لا يزال يعيش في نفسي كهذه الشجرة ، شجرة الكينا التي تنعم علينا بظلّها وأوراقها . شجرة ماضيّ لها أصول في صدري وتتغذّى من دمي . أمّا طعمها فكطعم هذه الشجرة : كينا ! وأكاد أحسّ بالمرّ يفيض في حلقي وأنا أحدّثك هذا الحديث .

تعذرني يا صديقي. جئت بك لسهرة لهو. أجل. ولكنّي ما أدري سبب الحاجة الملحّة بي هذا المساء إلى البكاء. أريد أن تسمع إليّ. أريد أن تسمع إلى قصّة الجرذون الشتويّ. أنت صديقي. أنت تفهمني. أنت لا تضحك كسواك ممّن أخبرتهم. أنت تنظر إلى الحياة من الوجه الذي أنظر إليه أنا. أتريد أن تسمع قصّة الجرذون الشتويّ؟

هممت بالضحك. ولكنّ وجه صديقي لم يلبث أن ردّني إلى الوقار ولا سيّما حينما رأيت دمعة كبيرة تنحدر على خدّه. فاقتربت منه ووضعت يدي على كتفه أشجّعه. وقد نما فيّ الفضول إلى معرفة ما به والجرذون الشتويّ! ففتح صدره إلى نسمة باردة صعدت من الوادي وقال:

– الجرذون الشتويّ؟ أختي! هي قريبة من هنا. سأريك إيّاها. سأريك إيّاها بعد قليل. أمّا الآن فهاتِ سيكارة أخرى. إنّني أدخّن كثيرًا. كان علينا أن نمرّ بدكّان وأشتري علبة.

ثمّ استوى في جلسته وقال:

– في أواخر سنة ١٩١٧ اشتدّت المجاعة في جبل لبنان. سُدّت أبواب الرزق في القرى وفُتحت أبواب المقابر! ومات الألوف على الطرقات وهم يشتهون لقمة الخبز. أمّا نحن، فلن أقول لك –كما يدّعي الآخرون– إنّنا عشنا ملوكًا في الحرب. كلّا. لقد كنّا نأكل من لحم والدنا. رحمه الله، كان أبًا لم ينكر امرأته ولا أولاده. كان يشقى لكي يأتينا بما يسدّ جوعنا.

جلس ذات يوم حزينًا يقول لأمّي:

– مريم. سمعت من بعض الناس أنّ في برمّانا – وهي قريبة منّا – رجلاً يسمّونه الدكتور ذْره. وسمعت أنّه يطلب بنّائين لأنّه يشيّد في القرية قصرًا كبيرًا. فما رأيك أن نذهب جميعًا إلى برمّانا. فأعمل أنا عنده ونضع الأولاد في المأوى الذي يديره؟

كان أبي بنّاء ماهرًا في البناء. فأصغت إليه أمّي ثمّ قالت:

– كما تشاء. إذا بقينا هنا متنا بعد أسبوع. ليس في المعجن إلّا بضعة أرغفة.

فلمّا كنّا من غد أفقنا مبكّرين. وكان أبي قد جمع أمتعتنا في صندوقين، فوضعها على حمار هزيل استأجره، ثمّ دفع الحمار أمامه، وسرنا نحن وأمّنا وراءه.

كنت أنا في ذلك الوقت ابن عشر ولي أخ وأخت، وكلاهما أصغر منّي. وقد خدمنا الحظّ، فأخذ أبي يعمل في البناء عند الدكتور ذْره. وما مضى شهر حتّى ارتاح إلى مهارته في العمل، فأدخلنا في المأوى مع من كان فيه من الأولاد، يتامى وغير يتامى. وكان المأوى هنا، هذه المدرسة. وكان ذا قسمين: الأوّل للذكور والثاني للإناث. ما أزال أذكر دخولنا من هذا الباب عن جانبَي والدي، وهو ممسك واحدًا منّا بيد والآخر بيد. وكان على جبهة هذه البناية ساعة ضخمة هي هذه. ما أزال أذكر أيضًا أنّها دقّت، فالتفتّ إليها متعجّبًا من ضخامتها. وسألني والدي ممتحنًا مهارتي: كم الساعة؟ فأجبته جوابًا قبّلني من بعده. ولا أدري أكانت هذه القبلة على الجواب أم على حسرة ضغطت قلبه لفراقنا.

أدخلوني وأخي قسم الذكور. وأدخلوا أختي قسم الإناث. سُررنا في البداية مأخوذين بمشهد الأولاد يلعبون في الساحة راكضين، هاتفين. لكنّ أبي ما كاد يعانقنا مودّعًا ويتوارى حتّى شعرنا بوحشة ولوعة. فانتحينا ناحية من الساحة وأخذنا في البكاء:

«أمّي! أبي! يا أمّي! يا أبي!»

فلمّا رآنا الأولاد في هذه الحالة تألّبوا حولنا، فمن طاب له الهزء هزأ بنا، ومن أدركته الشفقة من عقلائهم دنا منا يهوّن علينا ويسلّينا.

ولكنّ هذه الوحشة وهذه اللوعة زادتا، وأصبحتا هائلتين عندما جاء المساء وأمرنا الناظر أن يلجأ كلّ واحد منّا إلى فراشه. كان فراشي بعيدًا عن فراش أخي. وكانت تلك الليلة الأولى التي نبيتها على غير ذراعَي

أمّنا ، وفي منزل غير منزلنا. وعبثًا حاولت أن أجد سبيلًا إلى النوم ، فكنت أتقلّب من جنب إلى جنب وأنا أفكّر بهذه الحياة الجديدة القاسية. أخيرًا أطبقت أجفاني. وما هي إلّا ساعة حتّى شعرت أنّ شيئًا يدبّ إليّ في الظلام ويحرّك اللحاف ، فاستيقظت مذعورًا ، فإذا بأخي يتلمّسني بيديه وهو يقول :

– أخي ، أخي أأنت هنا ؟

وكان ينتحب عاليًا ، ولو لم أضجعه بجانبي وأطوّقه بذراعيّ لقفز من إحدى النوافذ وفرّ.

مرّت أسابيع ... وألفنا الحياة مع رفقائنا..

وكنّا نذهب مرّة في الأسبوع لمشاهدة أختنا – وهو النظام الذي كان مفروضًا على الإخوة والأخوات – فلا نراها إلّا وحدها ، ملتوية الرأس بذلّ ، وحول عينَيها السوداوين النجلاوين كآبة خرساء. كانت ضعيفة البنية ، هزيلة ، تقول أمّي إنّ عينًا أصابتها وهي صغيرة ، وإنّ صاحبة تلك العين الشرّيرة مات أولادها جميعًا ، عقابًا لها من الله.

ذات يوم ، قدّموا لنا على المائدة طعامًا قليلًا مؤلّفًا من صحن حساء لكلّ واحد وكسرة خبز. وزعموا أنّ الأهراء فارغة وأنّ المؤن ستصل في اليوم التالي. لكنّهم ، في اليوم التالي ، لم يقدّموا لنا إلّا الحساء أيضًا ، وهكذا في اليوم الثالث والرابع. فنال الجوع من الأولاد فشكوا وبكوا. وكان لي صديق يلقّبه الأولاد بالعفريت لفرط طيشه ، فلمّا جاءت الفرصة وخرجنا إلى الساحة لنلعب ، افتقدته فلم أجده. ثمّ افتقدته في المساء أيضًا فلم أجده. فسألت الأولاد عنه فلم يستطع أحد منهم أن يُفيدني بشيء. حينئذ قلت في نفسي : «لقد فرّ من المأوى ولن يرجع». ولكنّني فوجئت في الصباح بالعفريت مقبلاً نحوي يضحك فهتفت به :

– أين كنت يا عفريت؟

– أُسكت ! أُسكت ! أنا آتٍ من البيت.

ثمّ مدّ يده إلى ثقب واسع في قبائه الممزّق ، وأعطاني رغيفًا وحفنة من التين اليابس ، وقال :

– كُلْ هذا من بيت أهلي. هربت أمس في الليل ورجعت قبل الفجر.

وكنّا في الخميس ، فأطعمت أخي نصيبًا من الهبة وأبقيت النصيب الآخر في جيبي. ولمّا جاء موعد زيارة الإخوة لأخواتهم ، وجدت أختي قابعة في إحدى زوايا الساحة ، جالسة على حجر وهي ترتجف. فدنوت منها ، فأنكرتها لما رأيت من نحولها واصفرار وجهها. ولمّا ناديتها : عفيفة ! رفعت إليّ عينيها وقد اغرورقتا بالدموع ثمّ قالت بصوت مخنوق :

– أنا جائعة !

فضربت بيدي إلى جيبي وأعطيتها ما كان معي من خبز وتين ، فالتهمته عيناها قبل فمها ، ثمّ قالت لي :

– اِصبر يا أخي ، فأنا أريد أن أعطيك شيئًا.

ومدّت يدها إلى صدرها ، وتناولت علبة صغيرة من التنك. ثمّ فتحت العلبة – وهي ذات دائرة أضيق من دائرة السبّابة والإبهام – وأدنتها منّي وقالت :

– كُلْ !

تُرى ، ما عساها تضع في هذه العلبة؟ ونظرت ، فإذا وريقات خضراء ، بعضها فوق بعض ، فقلت :

– ما هذا يا عفيفة؟

– هذه هندباء. طيّبة. كُلْ ! أجمعها في الفرص من جوانب الساحة وأضعها في هذه العلبة لآكلها في الليل إذا جعت.

ألحّت الأخت عليّ ، فلم يسعني إلّا أن أقبل ضيافتها. وكانت ، كلّما أتيت لزيارتها بعد ذلك ، تمدّ يدها إلى صدرها وتفتح لي العلبة الملأى دائمًا بالهندباء. ملأى ! ولكنّها ما كانت تستوعب إلّا بضع وريقات لا تغني من جوع.

وحدث أنّي أُصبت بالرمد الذي كان متفشّيًا في تلك الأيّام تفشّيًا كبيرًا بين الأولاد ، فحيل دوني ودون زيارة أختي شهرًا كاملًا. ولمّا شفيت كان أوّل عمل أتيته أن ذهبت لأرى عفيفة. بحثت عنها في ساحة اللعب فلم أجدها. فسألت عنها إحدى البنات فقالت لي :

– عفيفة ، من هذه؟ أتعني الجرذون الشتويّ ؟ تعالَ .

لم أفهم ماذا تريد بقولها الجرذون الشتويّ . غير أنّني ، لمّا وصلت إلى خلف شجرة الكينا الكبيرة ورأيت أختي ، قلت لها :

– أتدعوك البنات هنا بالجرذون الشتويّ ؟

فغطّت وجهها بيديها ، وقالت لي وهي تجهش بالبكاء وعظام صدرها ناتئة :

– يعيّرنني بالجرذون الشتويّ لأنّني لا ألعب ولا أضحك . أنا جائعة يا أخي . أريد أن أذهب إلى البيت .

وحانت منّي التفاتة فرأيت في عنقها جرحًا وقطرات من الدم في شعرها المسبل . فسألتها عن ذلك فأخبرتني أنّها علقت مع البنات في خناقة من أجل هذا التعبير ، وأنّ هذا الجرح لا شيء ، فقد غرّزت هي أظافرها في وجوه ثلاث منهنّ . وقالت :

– الرابعة عضضتها في أذنها . ولولا الناظرة...

وضحكت لأوّل مرّة منذ دخولها المأوى .

في الخميس التالي اشتدّ الجوع على أولاد المأوى ، واتّصل بأمّي الخبر . وبينما كنّا في الفرصة نلعب إذا بامرأة لابسة أسود تناديني باسمي من وراء درابزون الساحة ، فالتفتّ فإذا هي أمّي . فركضت إليها ، فإذا هي تمدّ يديها من خلال الدرابزون وتدفع إليّ صحن طبخ ورغيفًا .

– خُذ يا ابني ، كُل أنت وأخوك ، ولا تنسَ أختك .

ما كاد رفاقي يرون صحن الطبخ والرغيف حتّى هجموا كالذئاب وهم يحملقون بعيونهم ، ولكنّي لم أكن أقلّ شراسة منهم ، فجعلت أرفسهم وأنطحهم برأسي . ووقع بضع حبّات من الصحن ، فأكبّوا على التراب يلتقطونها بأيديهم وألسنتهم .

أمّا أنا فأيقنت أنّ أمّي حرمت نفسها الأكل ذلك اليوم لتطعمنا . وكنت أراها قد هزلت واتّسعت عليها ثيابها .

آه ! ما أصعب تلك الأيّام ! أتعلم يا صديقي ماذا صنعت؟ أتعلم ماذا صنعت أنا الرقيق القلب الذي تراني أبكي أمامك؟ أخذت الطعام وهربت من أخي الجائع ، ولم أذهب لزيارة أختي الجائعة . انفردت بصحن الطبخ والرغيف في زاوية والتهمتها وعيناي تنظران يمنة ويسرة ، خشية أن يعود إليّ أحد الرفاق . ولا أدري من قال لأخي وأختي إنّ أمّنا أرسلت إليهما معي طعامًا ، فقد سألاني وبكيا ، لكنّني أنكرت كلّ شيء .

كرّ الزمن ، وقتّر علينا المأوى ، فعدنا أنا وأخي إلى البيت ، هاربين من الجوع . فلمّا كان الخميس بعد ذلك ، انتظرتنا أختنا فلم نذهب لزيارتها فعلمت أنّنا خرجنا من المأوى . حينئذ يئست يأسًا عظيمًا ، وأصبحت تقضي الساعات الطوال في البكاء ، والفتيات حائمات حولها يعيّرنها هازئات :

– الجرذون الشتويّ ! الجرذون الشتويّ !

لأنّها كانت دائمًا مخفوضة الرأس ، مكتوفة اليدين ، ترتجف...

مات الأولاد ذكورًا وإناثًا بالعشرات . وكانت أمّي تقول لأبي :

– عفيفة ستموت في المأوى . يجب أن تأتي إلى البيت ، تأكل حينما نأكل ، وتجوع حينما نجوع .

فيعقد حاجبيه ويجيبها :

– خير لها ولنا أن تبقى في المأوى .

فتصيح به :

– أنت لا تحبّها منذ صغرها . ما ذنبها إذا كانت ضعيفة؟

ثمّ تحرد وتبكي .

ذات صباح أفقت من النوم مبكرًا ، وأردت الخروج ، فعالجت الباب فلم ينفتح . فناديت أخي وتعاونّا عليه فلم ينفتح . حينئذ نهض أبي وقال لي ، يريد أن يشجّعني ويمتحن قوّتي :

– اُبطه برجلك !

فتراجعت ، ثمّ هجمت ورفست الباب رفسة صببت فيها كلّ قوّتي. فانفتح وهو يجرّ بمصراعيه شيئًا ثقيلًا. فانحنيت لأرى ، فإذا فسطان ممزّق ، فيه جسم ضئيل ، وشعر على الأرض. فأجفلت. وأقبل أبي ، فمدّ يده إلى الشعر الأسود الطويل ، وشدّه وقلب الوجه. فإذا هي عفيفة ، أختي...

اِسمح لي ، يا صديقي ، أن أبكي ما دمت أنت تبكي. لأنّني في ذلك الوقت لم أبكِ. أخي بكى ، يا لسعادته ! ويا لتعاسة أمّي ! أُصيبت بالخبل. نبشت شعرها فوق عفيفة – وقد مددناها على خشبة وسط البيت – تناديها وتقول لها أشياء كأنّها ما تزال حيّة تُرزق. وجاءت لها برغيف يابس كانت تخبّئه تحت مخدّتها ووضعته في فمها. وكانت تقول لها :

– كلي ! كلي ! أما أنت جائعة يا ابنتي؟ !

أمّا كيف ماتت عفيفة : أجوعًا ، أم بردًا ، أم مرضًا ، أم انتظارًا ، أم من صدمة الباب التي جاءتها على جبينها ، فهذا ما لست أعلمه. ولكنّني لا أستطيع أن أمحو من ذهني هذه الصورة : أنا ألبط الباب وعفيفة ميتة على العتبة !

كان عندنا في البيت بعض أخشاب ، فجمع أبي أجزاءها وصنع منها صندوقًا حقيرًا – مثل الجرذون الشتويّ – وسمّره على أختي ، ثمّ دفنّاها بالقرب من هنا. حمل والدي الصندوق على كتفه بعد أن أقفل باب المنزل على والدتي وأخي الصغير ، ومشيت أنا وراءه حاملًا المعول.

تعالَ ! قُم لأريك أين يستريح الجرذون الشتويّ !

كانت الشمس قد غابت وبدأ الظلام يخيّم على برمّانا ويجعل من أشجار الكينا المتعالية أشباحًا كبيرة لها أذرع ممتدّة ورؤوس تنطح السماء.

قادني جميل إلى المقبرة ، وهي قريبة ، ثمّ وقف على بابها الحديديّ وأمسك به وقال :

– لم تدخل عفيفة من هذا الباب. لم يكن للغرباء حقّ في دفن موتاهم في مقبرة الضيعة. فلمّا وصلنا وضع أبي الصندوق ، وناولته المعول مرفعه وشقّ حفرة هنا... هنا. أجل. إنّني لن أنسى هذا الموضع. وتناولت المعول أنا أيضًا – وكان أطول منّي – وأذكر جيّدًا أنّني وقعت به فوق الحفرة وأنا أحاول مساعدة أبي...

وأخذ جميل بيدي مرّة ثانية وعدنا إلى الطريق ثمّ قال :

– لم تنتهِ القصّة يا صديقي. بعد يومين التقيت في الطريق. في هذه الطريق ، رفيقة أختي عفيفة ، تلك التي دلّتني عليها حينما نزلتُ لزيارتها ، فقالت لي :

– هربت أنا وأختك يوم الأربعاء من المأوى ، هربنا في الليل من النافذة ، من بين حديدها. قُل لها أن لا ترجع إلى المأوى. الناظرة قاسية جدًّا ، وستضربها.

ثمّ التفت إليّ جميل وسألني ، ولقد لمعت عيناه في الليل :

– إنّها لن ترجع ، أليس كذلك؟ !...

الشاعر

إلى صديقي ق. ف. د.

كان يذهب إلى المدرسة في الصباح ويعود في المساء كسائر التلامذة، ولكنّهم كانوا يحملون حقيبة الكتب على أكتافهم ويأبى هو إلّا أن يمسكها بيده ويلوّح بها في الفضاء.

وكان ملقّبًا بينهم بالشاعر. ينادونه بهذا اللقب ساخرين، لأنّ نعيم – وهو اسمه – لم يكن ينظم الشعر، ولكنّ هيئته كانت هيئة شاعر: عينان حالمتان، وأنف طويل كأنف سيرانو. وبنطلون عريض يجرجره على الأرض. مع شرود أثناء الدرس أعيا المعلّم، فهو لا ينظر إلى أستاذه مرّة إلّا ونظر إلى السقف مرّتين أو لحق بالغيوم من خلال النافذة.

دخل الأستاذ ذات يوم إلى صفّه ونادى التلامذة بأسمائهم، فإذا هم حاضرون كلّهم إلّا نعيم.

لم يكن الكسل هو الذي دفعه إلى التغيّب عن المدرسة في ذلك اليوم بل شيء مختلف جدًّا. كان نعيم يريد أن يودّع جارته إيلينا، وهي أرملة حسناء، في الخامسة والعشرين من عمرها، أقبلت من إيطاليا لسياحة في الشرق، وشاء القدر أن تنزل في الفندق الذي يديره أبوه.

مضى شهر وهي في هذا الفندق. وكان نعيم يسكن الغرفة المجاورة لغرفتها، لا يفصل بينهما إلّا جدار، ولكنّه سميك! وكان يخرج كلّ صباح إلى الشرفة ليرى إيلينا تتناول قهوتها. وذات يوم أَلمّت بإيلينا وعكة فلازمت فراشها وطلبت قهوتها إلى الغرفة. دقّت الجرس مرّة ومرّتين وثلاث مرّات فلم يأت الخادم. وكان نعيم في المشى، فنظر فإذا الرقم ١٤، فركض ودقّ بابها، فدقّ قلبه... وحرص أن يجلب لها القهوة بيده. كانت ما تزال في السرير. ينشقّ قيصها عن وادٍ صغير. وصدرها يلوح وراء الحرير الأزرق الشفّاف، فيختلس النظر إليه اختلاسًا، ثمّ يحوّل وجهه المحمرّ حتّى أقصى الأذنين.

وكلّما جلس نعيم على الشرفة لتناول قهوة الصباح تذكّر الصباح الذي حمل فيه القهوة لضيفة الفندق الحسناء، وأخذ يعيد في مخيّلته – وهي مخيّلة شاعر – ما رآه في ذلك الصباح عن كثب، فيصعد الدم إلى وجهه، ويتمنّى في زاوية قلبه لو تُصاب إيلينا كلّ يوم بوعكة، وكان الخادم أصمّ لا يسمع دقّات الجرس.

لأنّ نعيم كان يحبّ إيلينا. يحبّها، أجل. ولِمَ لا؟ ولو كانت هي أرملة، وهو ما يزال تلميذًا! ولكنّه لم يبح لها بحبّه. كان يخشى أن تهزأ به، بل كان موقنًا أنّها ستفعل إذا فعل. وقد أحبّها منذ دخلت الفندق بمشيتها الرشيقة وعينيها الضاحكتين، وظلّ طول شهر مقفلًا على حبّه ككنز في صندوق من حديد.

ومرّ الشهر، بل ركض ركضًا مشمّرًا عن ساقيه.

ومن العجيب أنّ هذا الشهر كان طويلًا جدًّا وقصيرًا جدًّا معًا. ما أطوله إذا أحصاه أيّامًا مدرسيّة، وما أقصره من الجهة الأخرى!

وجاءت الحقيقة قاسية، كالقدر المحتوم: غدًا تسافر إيلينا إلى بلادها إيطاليا. تسافر بعد أن جمعت من بيروت – من الشرق كما تقول هي – صورًا كثيرة وبعض آثار فينيقيّة. أليس من حقّه أن يترك المدرسة بضع ساعات ليودّع التي يحبّها الوداع الأخير؟

بلى. بلى. وليقل الأستاذ إنّه كسلان! وليُنزل به ما شاء من قصاص! لا بدّ للحبّ من تضحية!

وكان نعيم قد اتّفق وإيلينا على نزهة في ذلك الصباح. وضع المؤامرة على كتبه بمعرفتها. كانت تلهو به وتشفق عليه إشفاقًا حلوًا. وما كاد الصباح يطلع حتّى لبس نعيم ثياب الأحد، زاعمًا لأبيه أنّ المدرسة فرضته على الأولاد اليوم لحفلة تقيمها. وذهب إلى غرفة إيلينا وطرق الباب ففتحت، وكانت تسوّي زينتها على المرآة، وقالت له بإفرنسيّتها المعوجّة اعوجاجًا ظريفًا:

– غدًا، غدًا! يا نعيم، تأتي إلى غرفة جارتك فلا تراها.

وابتسمت، فلم يبتسم بل غمر وجهه حزن أصفر وأجاب:

– إلبسي ثيابك. أنا منتظرك على الطريق.

– إلى أين؟ والمدرسة، ماذا تصنع بالمدرسة؟

فوضع إصبعه على شفتيه، يشير عليها بخفض صوتها لئلّا يسمع أبوه، وهمس:

– إنّني أهزأ بستّة وثلاثين ألف مدرسة! أنا منتظرك. لا تتأخّري.

وأغلق الباب برفق، وحمل حقيبة كتبه كما لو كان قاصدًا إلى المدرسة، وخرج إلى الشارع فأودعها دكّانًا يعرف صاحبه وقال له:

– ضع لي هذه الكتب عندك. سأرجع بعد قليل وآخذها.

ثمّ أدار ظهره يريد الانصراف. ثمّ تردّد هنيهة، ثمّ تجرّأ، ودنا من صاحب الدكّان وقال له:

– هل تقرضني ليرتين؟ أردّهما لك غدًا أو بعد غد.

وكان الرجل صديقًا لوالد نعيم، فأعطاه الليرتين، فتناولهما الفتى شاكرًا، ثمّ خرج إلى الطريق وفتح محفظته وتناول ما كان فيها وأقام حسابًا شاملًا، فإذا معه خمس ليرات، فقال في نفسه جذِلًا: تكفيني! ووضع يديه في جيبَي بنطلونه وانتظر.

لم تبطئ إيلينا. فما هي إلّا بضع دقائق حتّى أطلّت وقد اعتمرت قبّعة زرقاء، تقفز في مشيتها قفزًا وتضحك عيناها تحت القبّعة ضحكة خبيثة.

– تاكسي! تاكسي!

– إلى أين؟

– أما وعدتني بأنّك تذهبين معي في نزهة حيث أشاء؟ إلى شاطئ البحر.

وصعدا معًا إلى السيّارة.

كان الشاطئ ذلك الصباح خاليًا ليس فيه إلّا رجل ضخم، مندلق البطن، يروّض جسمه في سبيل النحافة، يقاتل الأمواج ويلهث، ثمّ يفتح فاه ويمسح الماء عن وجه سعدان!

طلب نعيم لرفيقته قنّينة بيرا، وجلس يشرب معها ويدخّن سيكارة؛ وكان يدخّن خفية عن أهله.

– وغدًا تسافرين؟

قال نعيم ذلك وأخذ ينظر إلى البحر، إلى القارب الصغير، المتمايل على الشاطئ، وإلى السفينة البعيدة، الخارجة من المرفأ تشقّ وراءها ثلمًا طويلًا أبيض، وترسل في الفضاء دخانها المتعاقد.

كان له في تلك الدقيقة هيئة شاعر تمامًا.

وكان يريد أن يقول لإيلينا أشياء كثيرة. لماذا نسيها كلّها؟ لماذا لصق لسانه بحلقه؟ لماذا يضجّ رأسه ويغلي كالقدور في مطبخ الفندق؟

كان يحدّق إلى طرف أذنها البيضاء المدوّرة، المغطّى نصفها بخصلة شعر. وصعد قلبه إلى فمه، وهمّ

بقول شيء كبير. ولكنّ قلبه عاد وسقط في صدره سقطة واحدة ، وقال ، كلّ ما قال :

– ألا تستطعين أن تبقي؟ بضعة أيّام بعد.

وكان في عينَيه الزرقاوين الواسعتين ، وهو يتلفّظ بهذه الكلمات ، ذلّ شحّاذ. فجعلت إيلينا تهزّ رأسها يمينًا وشمالًا ، وهي تبتسم وترفع حاجبيها :

– مستحيل ! مستحيل !

وتتحدّث عن الشرق طويلًا ، طويلًا ، وأنّها ستحفظ عن رحلتها هذه ذكريات لا تُنسى...

وعاد نعيم بوجهه إلى البحر ثمّ قال :

– أتعرفين السباحة؟

واضطرب من أمّ رأسه إلى أخمص قدميه ، كأنّه قال شتيمة عظمى. كان يودّ أن يسبح معها على هذا الشاطئ. أن يرى إيلينا عارية على الرمال ، هنا ! أن يرى مفاتنها الخفيّة. أن يشبع نظره من كلّ عضو فيها. أن ينزل وراءها إلى البحر ويقذفها بالماء على وجهها بكلّ قوّته ، أن ينسلّ تحتها ويعضّ فخذها بأسنانه حتّى يدميها ، حتّى يُبقي في جسمها – في موضع لا تراه إلّا وحدها من ذلك الجسم – أثرًا لا تتذكّر به الشرق بل تتذكّره هو... الشرق ! الشرق ! هذا شيء لا حدّ له. ماذا يفيده إذا نسيته وتذكّرت الفينيقيّين؟ !

* * *

رجع نعيم وإيلينا بعد قليل في التاكسي ، حردان وضاحكة. رفضت أن تسبح معه بالرغم من توسّلاته. وبعقدة حاجبين ربّتت على كتفه وقامت.

أوقف نعيم السيّارة على منعطف وراء الفندق ونزل منها خشية أن يراه أبوه ، ومدّ يده بفخر إلى جيبه ، وبعقدة حاجبين – تحدّيًا لعقدتها – نقد السائق الأجرة ، ثمّ أوصاه أن يوصل السيّدة إلى الفندق الفلانيّ.

ولم تشأ هي أن تتركه على حرده فابتسمت له وقالت :

– سأراك في السهرة.

فهزّ برأسه مقلّدًا حركاتها ، ووضع يديه في جيبَي بنطلونه ، ومشى لا يعرف إلى أين...

قضى ذلك النهار كما لم يقضِ نهارًا في حياته قطّ. فكّر بألف شيء ولم يفكّر بشيء. فكّر بالهرب على الباخرة مع إيلينا ، فكّر برمي نفسه في البحر على الروشة... وما صدّق أن جاء وقت الانصراف من المدرسة حتّى ذهب إلى الدكّان الذي أودع فيه حقيبة كتبه ، فحملها ورجع إلى الفندق.

فلمّا رآه والده عبّس في وجهه صائحًا :

– اِذهب إلى غرفتك. إلى فروضك وأمثولاتك. بلغتني أخبار كسلك. فإلى متى هذا الطيش؟

فلم يسع الولد إلّا الإذعان ، فانفرد في الغرفة وأخذ يقلّب كتبه متضجّرًا ، لا يريد التعرّف إلى فرض ولا إلى أمثولة. يريد أن يسهر مع إيلينا ، إيلينا التي ستسافر غدًا. سيتجاسر ويبوح لها بحبّه ، وسيطلب منها قبلة... قبلة فقط. أتراها ترفض؟ قبلته الأولى والأخيرة. ولن يدعها ترفض ، سيهجم عليها هجومًا ، ويأخذ رأسها بين يديه ويعصره ، ويخطف قبلة وأكثر من قبلة. ولتفعل ما تشاء !

قعد نعيم بين كتبه يشتمها. وكلّما سمع حسًّا في الممشى خُيّل إليه أنّ والده آتٍ ليفاجئه ، فيرفع صوته منغّمًا بأيّ شيء كأنّه يستظهر. وما إن يطمئنّ حتّى يعود إلى الشتم ورفس الأرض.

ثمّ يدنو من الجدار ، ويضع أذنه ليصغي إلى ما تفعله إيلينا في غرفتها المجاورة. فيعود وقع الأقدام في الممشى إلى بابه ، فينقلب على رؤوس أصابعه ويرمي نفسه على المكتب رميًا ، حتّى لقد عثر مرّة وصدم ركبته بزاوية المكتب وسال منها الدم.

في الساعة الحادية عشرة نام كلّ من في الفندق وأُطفئت الأنوار ، فقام نعيم بالبيجاما ، حافيًا لئلّا يحدث ضجّة ، وخرج من غرفته حابسًا أنفاسه ، ومشى لصق الحائط رويدًا ، رويدًا ، إلى غرفة إيلينا ،

فإذا الباب مشقوق ، فنظر من الشقّ فإذا هي ما تزال سهرانة تطوي ثيابها وترصفها في الحقائب.

ما كادت تراه حتّى جُنّ جنونها . ماذا يقولون عنها في الفندق إذا رأى أحد نعيم يدخل عليها في تلك الساعة وهذه القيافة؟ تركت ثيابها على الأرض. وأسرعت إليه وأمسكت بكتفيه :

– أنت مجنون ! مجنون ! ماذا تريد؟ ولماذا تأتي في هذا الليل؟

لكنّه لم يجب ، بل دار إلى الباب وأقفله جيّدًا . برباطة جأش... ووضع المفتاح في جيبه وجلس على السرير بجانب ثيابها ، وكانت تفوح منها رائحة عَبِقة مسكرة ، فمدّ كفّه إلى طرف منها يلامسه ، فيما عادت هي إلى حقائبها كأنّ شيئًا لم يكن . وكان الليل هادئًا ، إلّا أزيز تراموای في الشارع وهدير سيّارة مسرعة .

– أأنت حزين لسفري ، يا نعيم؟

ونظرت إليه فإذا وجهه فائر بالدم ، لونه كلون السجادة . وكان القنديل الكهربائيّ يلقي عليه نورًا يزيده لمعانًا ، ويزيد أنفه الطويل المنسجم طولًا وانسجامًا . ابتسم ابتسامة صفراء وقال :

– أريد أن أسافر معك .

– إلى أين؟ إلى إيطاليا ! وماذا تفعل في إيطاليا؟

– أنظر إليك . أكون خادمًا عندك . أجلب لك القهوة مثل بطرس في الصباح ، وأسوّي سريرك .

كان في لهجته كثير من قلبه . وكانت إيلينا قد همّت بالهزء به ، فعدلت عن ذلك ، وتغلّب عليها الحنان على هذا الفتى الهزيل ، على هذا الشاعر الصغير ، تودّ لو تبقى في الفندق – في الشرق كما تقول – عشرة أيّام كما طلب هو ، وعشرين يومًا . ولكنّها كانت قد أزمعت الرحيل ودفعت أجرة الباخرة وتسلّمت تذكرتها .

– خُذ . أترى؟

فجمد محدّقًا إلى التذكرة ، يقرأ اسم الباخرة ، ماريبيت باشا ، واسم إيلينا ، ويعيد القراءة .

– كن عاقلًا يا نعيم . سأعطيك صورتي لتتذكّرني بها . ولكن بشرط ألّا تريها أحدًا من الناس . وإيّاك أن يراها أبوك ! وغدًا تأتي إلى المرفأ الساعة الثانية عشرة والنصف وتودّعني على الباخرة .

فمدّ يده لتناول الصورة ، فوقع شيء ضخم من تحت إبطه ، فانحنت إيلينا تلتقطه .

– ما هذا ، يا نعيم؟

فاحمرّ وجهه وأجاب :

– ألبوم فيه مناظر لبنان وآثار فينيقيا . لتتذكّريني به في إيطاليا .

– آثار من فينيقيا !

وأخذت إيلينا تقلّب المجموعة فرحة ، ثمّ جلست على السرير . وقرّبت القنديل الكهربائيّ النقّال إليها . وألقت ساقًا فوق ساق . وفتحت عينيها كبيرتين إعجابًا بما ترى . كانت هديّة نعيم عظيمة حقًّا . فقد اشترى لها هذه المجموعة النفيسة بعد أن فتّش كثيرًا في الأسواق ودفع ثمنها من ماء وجهه ودم قلبه : عشر ليرات استقرضها بالقروش من رفقائه وضمّ إليها كلّ ما كان يحفظه في أجّة توفيره .

وبقي نعيم متابعًا بعينيه الجازعتين عينَي إيلينا . لكنّها لم تهتدِ إلى مراده . كانت غارقة في الصور ، تفتح فاها هنا ، وتصيح هنا ، وتهزّ رأسها هناك أمام صور النواويس القديمة ، والمراكب الفينيقيّة ، ومناظر الشلّالات في لبنان ، والجبال والأودية والغابات . إلى أن فرغت من التقليب فتناول نعيم المجموعة منها وقال :

– أنظري !

وأخذ يقلّبها هو بدوره . وكان قد كتب بخطّه الجميل – الخطّ الجميل فنّ الحمير يقول الأستاذ – كان قد كتب على الصورة الأولى الحرف الأوّل من اسمه ، وعلى الخامسة الثاني ، وعلى العاشرة الثالث ، وعلى الخامسة عشْرة الرابع . وهكذا دواليك : ن.ع.ي.م. ثمّ حروف اسم العائلة. ثمّ الحروف : ل – ب – ن – ا – ن. ثمّ الأرقام ٥ – ٢ – ٩ – ١ .

– كلّما قلّبت صور هذه المجموعة في بلادك تقرأين

اسمي واسم بلادي والسنة التي عرفتك فيها. واجمدي دقيقة، ربّما التقى فكرانا من وراء البحار!

تقدّم الليل ونعيم يدور في الغرفة. يقوم ويقعد ويعاون إيلينا على إقفال حقائبها محاولًا أن يحكّ بساق لها أو كتف فتتهرّب منه عابثة. وفجأة عراها سكوت وقطّبت جبينها. أتكون قد غضبت عليه من شيء؟ أجل. وها هي تفتح الباب وتدعوه إلى الانصراف. فوقف نعيم بالباب خافضًا رأسه. ثمّ رفعه إليها وقد انحدرت على خدَّيه دمعتان كبيرتان. وأدار وجهه موطّنًا النفس على الذهاب إلى غرفته. فإذا بذراعين تطوّقانه من الوراء بكلّ ما فيهما من قوّة – ذراعاها هي – وبنترة واحدة قلبت إيلينا رأس نعيم على صدرها وأهوت عليه بقبلة عظيمة...

* * *

ما الذي حمله على الذهاب إلى المدرسة في الصباح؟ كان قد تغيّب أمس، أفما يجدر به أن يتغيّب اليوم أيضًا؟

في فرصة الساعة العاشرة، طفر الأولاد في الساحة يلعبون بكرة القدم. وكانوا يتدافعون ويتصايحون، والناظر، حكَمهم، يعلّق الصفّارة بخيط في عنقه كالأيقونة، ويدفع برجله الكرة حينًا، وأقفية الغلمان أحيانًا، حتّى وقع بصره على نعيم، نعيم الشاعر. يتمشّى في زاوية الساحة وبين يديه شيء يحدّق إليه. وكان الناظر يلاحق نعيم ويعظه عظات قاسية، فارضًا عليه اللعب والقفز كسائر التلاميذ، فيرفض نعيم ويصرّ على الوحدة والتفكير.

وكان دم الناظر مهتاجًا هذه المرّة. فصوّب الكرة إلى وجه نعيم عن قصد، فجاءت على عينيه فكادت تعميهما فوقع على الأرض، ووقعت من بين يديه صورة إيلينا. ولحظ الناظر الصورة فهجم عليها والتقطها فانفتحت عيناه لدى رؤيتها انفتاحة مرعبة: امرأة! امرأة تنظر بعينين شيطانيّتين، في قميص ينشقّ عن صدر عامر... امرأة!... امرأة!...

وشدّ الناظر الصورة بين أصابعه، وصفر صفرة أنهى بها اللعبة. اكتسى وجهه الفاجعة. وتألّب التلاميذ متزاحمين لمعرفة الخبر، فأمرهم الناظر بالتفرّق. وأمسك بيد نعيم – وكان قد نهض عن الأرض مجلببًا بالغبار – وقاده توًّا إلى المدير.

كانت المحاكمة فظيعة. أخذ المدير استنطاق نعيم كما يأخذون استنطاق سفّاكي الدماء. تارة بالدهاء، وتارة أخرى بالتعذيب ضربًا بالمسطرة على اليدين والساقين والقفا. ولكنّ العاشق الصغير أنكر كلّ شيء وأصرّ على القول إنّها صورة لخالته المهاجرة إلى أميركا. فأبى المدير أن يصدّق شيئًا من ذلك وأمر أن يُساق الخاطئ إلى كرسيّ الاعتراف.

كانت الكنيسة خالية تلك الساعة، رهيبة في العتمة المستولية عليها. وفي التماثيل الجامدة المنتصبة على الحيطان. فعرت الصبيّ قشعريرة باردة. ولكنّه ما كاد يجثو على ركبتيه – على البلاط. وسط الكنيسة، عقابًا له – ويرفع رأسه حتّى التقت عيناه المصلوب المعلّق عن يمينه، فردّهما إلى الأرض وغمره خشوع حقيقيّ.

بعد الاعتراف قال له المدير إنّ قصاصه ألف سطر، وأسبوع دون غداء، والركوع في المدرسة طول أسبوع أيضًا، على أن يكون ذلك تنبيهًا أخيرًا، وفي المرّة التالية تطرده المدرسة طردًا أبديًّا.

وعند الظهر قاده المدير إلى قاعة الدرس ووضع أمامه أوراقًا وقلمًا وحبرًا، وقال له:

– أُكتب!

ثمّ تناول المدير كتاب «التاريخ العامّ» وجعل يتمشّى ذهابًا وإيابًا، ممشّطًا الشعرات الباقية في لحيته، وماضغًا بعضها بين أسنانه. وفتح الكتاب وأخذ يملي على نعيم فصلًا منه بسرعة في القراءة، ونعيم مجبر على اللحاق به:

«كان الفينيقيّون شعبًا نشيطًا افتتحوا البحار بتجارتهم وبنوا لهم مستعمرات في قرطاجنّة وغيرها من

شواطئ البحر الأبيض المتوسّط ، وإليهم يرجع الفضل في اكتشاف الحروف الهجائيّة . ومن مدنهم المشهورة صيدا التي كانوا يسمّونها صيدون ، وجبيل بيبلوس . ولكنّ ديانتهم – ويا للأسف ! – كانت أشنع الديانات الوثنيّة ، لأنّهم لم يعرفوا الله الواحد الذي نعبده نحن ... وكان الفينيقيّون ... » .

فأخذ نعيم يقضم شفتيه ويحكّ إحدى ركبتيه بالأخرى . أتلحقه فينيقيا إلى هنا ؟ ... والباخرة ؟ إنّ ماريبت باشا تسافر الساعة الثانية عشرة والنصف ، وقد دقّت الساعة الظهر قبل أكثر من خمس دقائق .

كان يريد أن يضرب هذا المدير الملعون بالدواة التي أمامه ، أن يفقأ عينيه الخبيثتين بهذه الريشة . ولكنّ المدير تعب أخيرًا من القراءة ، فدنا من نعيم وشدّه من أذنه وجرّه بها جرًّا وأركعه ثانية على البلاط ، على فتات الحصى التي يجيء بها التلاميذ بأحذيتهم من الساحات والشوارع ، حتّى أحسّ نعيم بالدم ينزف من ركبتيه . ثمّ أغلق عليه باب القاعة وأخذ مفتاحها وذهب .

ما كاد نعيم يطمئنّ إلى ابتعاد المدير حتّى نهض إلى الشبّاك وألقى نفسه منه على علوّ خمسة أمتار وأكثر ، فكاد ظهره ينخلع لجفاف الأرض التي وقعت عليها قدماه .

ولكنّه جمع قواه ونهض ، ثمّ قفز من فوق الدرابزون إلى الشارع . قفزة قفزها بسهولة ، وألقى نظرة خاطفة على ساعة المدرسة الضخمة على المدخل ، فإذا هي الأولى إلّا تسع دقائق . كاد اليأس يستولي عليه . ولكنّه لم يتردّد . ربّما لحق بالباخرة ، ربّما تكون تأخّرت لأمر من الأمور ؟ أتسافر الساعة الثانية عشرة والنصف بالضبط ؟ يكفي أن يضع يده في يد إيلينا ، أن يقول لها : الوداع ! أن يلوّح لها بقبّعته من رصيف المرفأ .

وأطلق ساقيه للريح رافعًا بكلتا يديه بنطلونه عن الأرض ، يدفع هذا بكتفه ، والآخر برأسه ، حتّى كاد الترامواي على ساحة البرج يجتاحه تحت عجلاته استشهادًا .

وأخيرًا وصل إلى رصيف المرفأ لاهثًا غارقًا في عرقه.. وأراد ولوج الباب فإذا موظّف على صدره قطعة نحاس محفور عليها رقم ١٤ – كرقم غرفة إيلينا في الفندق – يدفعه بجمع كفّه صائحًا به :

– إلى أين ؟

– هل سافرت ماريبت باشا ؟

– من زمان !

وكان نعيم لا يعرف شيئًا عن نظام المرفأ . كان لا يعرف أنّ عليه أن يقطع تذكرة مرور من الدائرة المختصّة . كان يظنّ أنّ الحبّ ليس بحاجة إلى تذكرة .

ابتعد ماشيًا إلى يمينه على الرصيف ، ورفع أنفه في الفضاء ، فوق البحر ، فإذا الباخرة ترسل دخانها في السماء كتلًا وأشباحًا ، وإذا بها تصفر صفرة قويّة كأنّها مقلوعة من قلبه ، وهي تبتعد شاقّة ثلمًا طويلاً وراءها ... تبتعد ببطء ، ولكن تبتعد دائمًا ، وتصغر شيئًا فشيئًا ، حتّى صارت نقطة سوداء في الأفق الوهّاج .

إلى إيطاليا ... إلى بلادها ... إلى الأبد .

وحوّل نعيم وجهه عن البحر ، وعاد أدراجه خافضًا رأسه ، وواضعًا يديه في جيبي بنطلونه يحلم بالقبلة اليتيمة ....

«أمّنا الأرض ...»
أغنية إيطاليّة

كان أهالي سهامه مجتمعين كلّهم في بيت خليل صابر. يكتظّون في الدار، بعضهم قعود على الديوان، يبسطون الأيدي على الركب ويخفضون الرؤوس. وبعضهم يحومون حول صاحب البيت ويلحقون به، وهو يتمشّى ذهابًا وإيابًا ويصرّ بأسنانه قاضمًا شفته السفلى كمن يريد الانتقام من نفسه. وكان آخرون واقفين أمام البيت يتهامسون بأشياء وأشياء، ويلعنون البنك.

وقليلًا ما يتّفق لأهالي تلك القرية الصغيرة، القائمة على سفح تلّة في الشوف، أن يجتمعوا مثل هذا الاجتماع الكبير. وفطن خليل إلى ذلك فوقف بقامته الفارعة، وأخذ يجيل أنظاره بين الديوان والزوايا والسطيحة، وقد لمعت عيناه بشعاع غريب مشبوه. تذكّر أنّ مثل هذا الاجتماع لم يحصل إلّا مرّتين: الأولى يوم عرسه قبل عشرين سنة، والثانية يوم وفاة والده في آخر موسم الحصاد قبل تسع سنين.

ولم تقف أفكار خليل عند ذكرى عرسه، بل شدّت به إلى ذكرى والده وكرّت معها مشاهد موته المؤلمة: كيف ذهب في الصباح إلى الحقل ليحتطب... شكّل منجله الطويل – هذا المنجل نفسه المعلّق على وتده في حائط السطيحة إلى جانب غيره من آلات الزراعة الخفيفة – شكّله تحت زنّاره العريض، الملفوف على شرواله تحت العباءة، وتناول حبله ومشى بقامته المحنيّة، الصلبة على انحناءتها، وكيف لحق به بعد ساعة، وأخذ يبحث عنه من مكان إلى مكان، من التلّة، إلى الوادي، إلى الهاوية – والهاوية عبارة عن منقطع بين صخرين في الكرم، لا يتيسّر اجتيازه إلّا قفزًا – فظنّ بعد طول التفتيش أنّ أباه خانته قدمه فوقع فيها... وكيف لم يتحقّق ظنّه هذا إلّا ليتحقّق ما هو أفظع منه. حينما وقف على الصخرة وأخذ ينادي: أبو خليل! أبو خليل! فإذا أنّات تتردّد على مقربة منه، فالتفت فإذا أبو خليل كالخرقة مطويّ رأسه إلى رجليه. فتمثّلت له المأساة. رحمه الله رجلًا عنيدًا لم يصغ يومًا إلى نصيحة. شيخ في السبعين يصرّ على تسلّق الأشجار، كأنّه في عمر حفيده أنيس، حتّى لاقى حتفه في تقليم صنوبرة... وكيف حمله على ظهره إلى البيت، وطرح الصوت على القرية فاجتمعت كاجتماعها الساعة. وكيف لم ينفع لإنقاذ أبو خليل جبار ولا علاج، فأسلم الروح وهو يقول له:

– لا تلعن، يا ابني. هذا نصيبي من الله. إنّ هذه الأرض ربّتني وربّت أبي وأجدادي، فلا تلعنها، بل باركها، وأنا أباركك.

وكان خليل لا يزال واقفًا مكانه يتمتم مخاطبًا نفسه. فظنّ الحاضرون الساكتون، المعلّقون أنظارهم به، أنّه

إنّما يلعن البنك وهذا الموظّف الغليظ الذي جاء ينذره بترك البيت بعد خمسة عشر يومًا ، وإلّا طرده الدرك منه بقوّة السلاح ليسلّمه مع الأرض إلى البنك.

وأخيرًا سئم القرويّون ، فانصرفوا واحدًا وراء واحد ، وجماعة بعد جماعة ، يلقون السلام على خليل بلهجة مكظومة ، مبغوتة ، باردة. ومنهم من آثر أن لا يضايقه ولا يضايق نفسه ، فانسحب من الدار إلى السطيحة ومن السطيحة إلى بيته ؛ حتّى بقي خليل وحده ، فرفع كفّه وضرب بها رأسه ضربة شديدة ، ومشى إلى السطيحة ينظر إلى الطريق ، كأنّه يبحث عن سيّارة موظّف البنك ، مع أنّها كانت قد توارت منذ أكثر من ساعتين.

ثمّ دخل إلى غرفة زوجته فإذا هي تبكي في فراشها ، وابنها الصغير أنيس يعانقها ويبكي لبكائها وهو لا يدري لماذا تبكي. فحاولت أن تخفّف عن زوجها فمسحت دموعها بطرف اللحاف وقالت له :

– الله يعوّض يا أبو جابر ! الله يخلّيك فوق رأسنا ويخلّي لنا أولادنا !

– ليتني متّ أنا وأولادي قبل أن أتعرّف إلى البنك ! الناس ! ها ! ها ! أتظنّينهم يتأثّرون لما يحلّ بنا؟ مجنونة ! وقد زادك المرض جنونًا على جنون. إنّهم يشمتون بنا. أنا ! خليل صابر ! يأتون إلى بيتي بعد خمسة عشر يومًا ويرمون أثاثي في الطريق ويطرحونني كالكلب؟! عشت طول حياتي ملكًا في بيتي وأرضي. وكان هؤلاء الذين جاؤوا ليعزّوني ، كانوا كلّهم ينظرون إليّ ويحسدونني. بيتي أحسن بيت ، وكرمي ، وبستاني ، وبقراتي وأولادي... خمسة عشر يومًا أعطوني مهلة لأنّك مريضة. ولولا مرضك لأخرجوني اليوم.

– أما كنت أقول لك ، يا خليل ، إنّ لله حكمة نجهلها نحن؟ عندما مرضت أخذت أنت تكفر وتقول إنّ الله بلا شفقة ، وإنّه لو كان لديه شفقة لما بعث إلى بيتنا بالمرض مصيبة فوق ما عندنا من مصائب. وأنت ترى الآن أنّ المرض قد نفع ، فها هو يؤخّرنا خمسة عشر يومًا.

قالت الزوجة ذلك ثم ابتلّت عيناها بالدموع مرّة أخرى ، فابتهلت ناظرة إلى السماء :

– يا الله ، إنّني لا أطلب منك الشفاء بعد اليوم. اجعلني مريضة طول حياتي ! لماذا لم تُدخلوا موظّف البنك إلى غرفتي؟ كنت أكلّمه أنا ، كنت أقول له : أما عندكم رحمة في البنك؟ أملاكنا كلّها – كلّها ! – تأخذونها بأربعماية ليرة؟ الكرم وحده يساوي أكثر من ذلك؟ الحقّ عليك يا خليل. لماذا أصغيت من أوّل الأمر إلى أخيك؟ صالح يريد أن ينزل إلى بيروت ، أن يعلّم أولاده في بيروت. أولاده أحسن من أولادك؟! قُل لي. لماذا لم تفهم هذه الأشياء من قبل؟ صالح تجرّه زوجته إلى بيروت... لا يليق بها أن تعيش هنا كما نعيش نحن! هو حرّ. لماذا لم تتركه يتاجر ويخسر وحده ، حتّى جئت وسلّمت إليه كلّ شيء. وهل أنت مضطرّ أن تسدّد ديونه؟ هذه تجارة. ونحن جماعة خلقنا الله فلّاحين ونموت فلّاحين.

– سلّمت إليه كلّ شيء إكرامًا لجابر ، لا إكرامًا له ولا لأولاده. لعن الله الأولاد ! لماذا نزل جابر إلى بيروت أمس؟ وكيف نزل دون أن يستشيرني؟

– رهنت أملاكك في البنك مقابل أربعماية ليرة. ويا ليت لحقنا منها شيء. لحقنا منها كمبيالة من صالح. ورقة ! انتظر حتّى يفيك أخوك هذه الورقة ! ضحك عليك ، وقال لك إنّه يريد أن يسوّي تجارته ليعلّم أولاده في المدارس ويعلّم ابنك. أنت مسرور أنّ ابنك موجود في بيت عمّه ، وأنّه يأكل عندهم وينام.

– كنت أقول في نفسي ، يا حنّة ، إنّ جابر يتعلّم في بيروت مع أولاد عمّه في المدارس العالية ، ويصير في المستقبل طبيبًا أو محاميًا أو موظّفًا في الحكومة. كنت أقول إنّه سيعينني ويخلّصني في آخرتي من التعب. وكان صالح يقول لي أشياء أصدّقها. ليتني لم أسمع منه ! ليتني أبقيت جابر في سهامه ، يعيش مثلما نعيش ومثلما عاش آباؤنا وأجدادنا.

كان يردّد هذه الكلمات غارسًا أنظاره في الأرض ، وقد كسا الاصفرار وجهه العريض القاسي ، وانحنى ظهره. وكأنّ أنيس اشتاق إلى ملاعبة والده ، فلمّا وجده قد سكن اقترب منه وهو يرفع إليه عينيه البريئتين ، ثمّ قفز إلى حضنه وتناول شاربيه وقال :

– أتعرف يا أبي ماذا فعلت اليوم؟ ذهبت إلى الكرم ، وركضت أمام أختي وقفزت فوق الهاوية وحدي.

ورفع أنفه فخورًا. فتكلّف الوالد الابتسام ثمّ عبس وقال :

– ألم أقل لك ألف مرّة : لا تقفز ! لا تقفز ! لا تقطع الهاوية ! بل تنتظر أختك حتّى تقطع ، لأنّها أكبر منك ، وتمدّ يدها إليك؟

– ولكنّي أنا أيضًا صرت كبيرًا.

فخفض خليل رأسه وقبّل رأس ابنه ، معجبًا به يقفز هذه القفزة وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره. ولكنّه كان يخاف عليه أن يقع فقال له :

– هذه المرّة الأولى والأخيرة. إيّاك أن تعيدها !

وكانت الوالدة لم تعلم بالمغامرة إلّا الساعة ، ففتحت عينيها وصاحت :

– هاتِ لي القضيب من وراء الخزانة ! ألم أقل لك يا خليل أن تصنع للهاوية جسرًا؟ الله حمى الصبيّ اليوم. من يضمن لنا ، كلّنا ، أنّ رجلنا لا تزلّ مرّة ، لا سمح الله؟

فرفع خليل رأسه كمن يستفيق من حلم ودفع أنيس عنه وقال :

– لمن أصنع الجسر؟ أريد أن أشقّ هاوية أكبر منها ليقع فيها من سيأتي ويأخذ بيتي وأرضي... أربعمائة ليرة ! بعد خمس سنوات تنقلب فوائدها عليّ وتبتلعني؟! أربعمائة ليرة يقرضني إيّاها البنك ، وبعد خمس سنوات يطرحون من أجلها أملاكي بالمزاد العلنيّ ، فلا يرسو البيع إلّا على البنك بأربعمائة ليرة؟ إنّني لا أفهم ! لا أفهم !

فضحكت المرأة ضحكة صفراء وقالت :

– كم حاولت إفهامك فما كنت تفهم. ما الفائدة الآن من الندب؟ عندما جاءت امرأة أخيك – هل تذكر؟ – عندما جاءت روزا إلى بيتنا واختلت معك في هذه الغرفة ، ماذا قالت لك؟ سألتُك : ماذا قالت لك؟ فرفضت أن تخبرني. هذه الملعونة هي التي أوقعتك في الفخّ ، ولولاها لما كنت رضيت برهن أملاكك. قبلها بساعة كنت تقول لي : لا ، لا يا امرأة ، أنا لست مجنونًا لأقتنع من أخي وأرهن أملاكي في البنك. تعلّم ولدي في بيروت أم لم يتعلّم فبيتي وأرضي مقدّسان. ولكنّ امرأة أخيك فيها شيطان. بكلمة واحدة أقنعتك وقلبتك. أطلب من الله أن لا يُريها يومًا حلوًا ، وأن ينغّص حياتها كما نغّصت حياتنا.

– أُسكتي ! أُسكتي. هل عدنا إلى الثرثرة؟ قلت لك لا أريد أن تذكري أخي ولا امرأته بخير ولا بشرّ.

– لا أسكت. كيف أسكت؟ أنا مريضة ، أشرفت على الموت وأنت لا تملك أجرة طبيب ، وامرأة أخيك في بيروت تشتري بمالنا فساطين وحمرة وبودرة وتذهب إلى السينما وتركب السيّارات وتضحك عليك وتقول إنّ ابنك يكلّف غاليًا في مدرسته. كيف تريد أن أسكت؟ هذه امرأة فاجرة ! وأخوك حمار لا ينقصه إلّا ذنَب. مسكين جابر ! يقول لي : يا أمّي ، هل تعرفين ماذا تطعمني امرأة عمّي؟ إنّها لا تترك لي إلّا فضلات أولادها ، وتطعمهم خفية عنّي كلّ شيء طيّب. ما لك ساكتًا؟ ما لك لا تقول شيئًا؟

– قلت لك أُسكتي ! أُسكتي !

ورفع يده عليها. فانتابتها ثورة من القهر والحسد واليأس معًا ، فانتصبت قاعدة في فراشها ، وجحظت عيناها الكبيرتان في وجهها الهزيل المصفرّ بأربعين يومًا من الحمّى ، ونبشت شعرها وهي تصيح :

– أريد أن أنزل إلى بيروت هذه الساعة ! أن أقف وسط الشارع أمام بيتها وأنادي : يا ناس ! ...

– أُسكتي ! أُسكتي ! قلت لك. عقلي اليوم ليس

معي ، فالأفضل لك أن تسكتي.

– ... وأتناولها بيديّ الاثنتين ، وأمزّق فساطينها عنها وأقول لها : هذا مالنا نحن !

– أُسكتي ! أُسكتي ، قلت لك .

– لا أريد أن أسكت. أنت تحبّها ، تحبّها !

فلم يعد خليل يتحمّل فصفقها بلا وعي ، فجاءت كفّه على فكّها فالتوى ونزف منه الدم ، فارتمت على فراشها تولول ، وهبّ هو خارجًا من الباب بعنف ، حتّى داس ابنه في طريقه فوقع ، وعلا البكاء ، هو من جهة وأمّه من جهة . وجاءت أخته هيلانة من المطبخ على صوتها ، تتنقّل بينهما وتعانقها مؤاسية ، وأمّها تصيح وتضرب اللحاف بيديها :

– أريد أن أعرف هل أنا زوجتك أم روزا؟ إنزل إلى بيروت واتركني! أتركني أموت! سأتخلّص من هذا العمر! سأرمي نفسي في البئر!...

* * *

كان الليل قد تقدّم كثيرًا وخليل ما يزال يتقلّب في فراشه ، يصنع من علبة التبغ لفافة وراء لفافة ، دون شعور باللفافة التي يصنعها وبالتي يرميها ، حتّى أحرق اللحاف في موضعين... وكان يستعيد في ذهنه تاريخ حياته من أوّلها إلى آخرها ، ثمّ يصل إلى جداله مع زوجته وإلى ضربه إيّاها ، ويهمّ بالقيام إلى غرفتها ، فتأبى عليه كبرياؤه.

حنّة مخطئة . قهرها هو الذي جعلها تنطق بما لا تؤمن . إنّ خليل لم يكن يقصد من رهن أملاكه إلّا أن يتعلّم جابر . وجابر ولد نابه . خسارة أن لا يُفسَح أمامه المجال . وكيف السبيل إلى ذلك وجابر لا يستطيع أن ينزل إلى بيروت وأن يأكل وأن ينام إلّا عند عمّه؟

العلم! العلم! ما نفع الحياة بلا علم؟ يا حسرتاه على أيّام خليل! لا علم ولا من يحزنون! ويا للفرحة بجابر عندما سمعه أبوه يقرأ له لأوّل مرّة في الجريدة! بل يا عزّه عندما وقف في الكنيسة يتلو «الرسائل» ، بعد أن كان ابن المختار وحده يتلوها . وقد قرأها أحسن منه!

فكّر خليل بوضع ابنه داخليًّا في المدرسة. ولكنّ الداخليّ يكلّف غاليًا ، كما قال له صالح. فكانت النتيجة أن ابتعد عن الغالي ليصل إلى ما وصل إليه.

كان خليل يهجس محدّثًا نفسه ، رافعًا يدَيه حينًا ، وضامًّا قبضتَيه حينًا . ثمّ التفت من النافذة فخُيّل إليه أنّ الضوء يتململ وراء الجبل ، وأنّ الليل همّ بالزوال. فتنفّس الصعداء وقام لوقته فلبس شرواله ، وأشعل كبريتة اهتدى بها إلى سلّ كبير مشكوك في الحائط ، فحمله وخرج من البيت قاصدًا إلى الكرم. ولكنّه ما كاد يتخطّى العتبة وينظر حتّى عرف أنّ بينه وبين الفجر طويلًا ، فأراد الرجوع إلى فراشه. ولكن ما الفائدة من الفراش وهو يهرب منه؟ إنّ النوم لم يذق له طعمًا منذ أسبوع ، إلّا أن يكون ساعة أو ساعتين كلّ ليلة.

كانت الدنيا في أوائل أيلول ، وكانت تهبّ من الوادي نسمة باردة وتلفح وجهه فيحسّ لها في بدنه قشعريرة. وكان الظلام ما يزال كثيفًا ، والقمر قد سقط وراء الجبل ، وسكون رهيب يهيمن على سهامه فلا يُسمع فيها إلّا صياح بعض الديوك ووقع قدمَي خليل وهو يمشي بين الشوك والبلّان والقصعين ، يكاد لا يتميّز الطريق بنظره ، بل يسلكه على العادة غيبًا. فإذا واجهته أغصان الأشجار المتشابكة أزاحها بيديه ، ثمّ اجتاز وأفلتها فتنضمّ وراءه على السلّ الذي يحمله وتذهب لها خشخشة في الليل. وكانت أفكاره تنتقل به من شيء إلى شيء حتّى وصلت به إلى شيء هائل فوقف دون أن يشعر ، وأخذ يقول في نفسه :

– كيف أعيش بعد أن يطردوني من هنا؟ شريكًا عند الناس؟! أنا خليل صابر الذي يشتغل في بيتي أربعة شركاء. هل أكون مضطرًّا أن أحطّ عائلتي في مراح بعد بيتي؟ كيف تطاوعني يدي على حرث أرض غير أرضي؟ بأيّ عين أعرض نفسي على الملّاكين؟ أذهب إلى مَن من أهالي سهامه؟ أإلى يوسف أسد وهو خصمي منذ اختلافنا على حدود أملاكنا؟ أم إلى

طانيوس ماهر الذي لا يلبث الشريك عنده أكثر من موسم لبخله؟ أم إلى شاكر درويش الذي تضاربت زوجته مع امرأتي على العين قبل يومين؟ إلى من؟ إلى من؟ ليتني أسافر إلى أميركا! أهاجر! أتوارى بين قوم لا أعرفهم ولا يعرفونني، فلا أراني أجيرًا في أرض غيري، ولا أرى غيري يستولي على أرضي.

كان لا يستطيع أن يتصوّر أنّه سيمرّ غدًا على هذه الطريق أو يمرّ أولاده فيرون عنقودًا من العنب، أو خيارة ناضجة، أو سنبلة، فلا يجسرون أن يمدّوا إليها يدًا. يكونون سارقين! لأنّ المال ليس مالهم، بل مال غيرهم. من هو هذا الغير، وما له في هذه الأرض؟ إنّ لخليل فيها عرق جبينه طول ثلاثين سنة، وعرق جباه أبيه وأعمامه وجدّه، عرق مجبول بكلّ ذرّة من ذرّاتها التي قلّبتها أيدي العائلة مئات المرّات. في كلّ شجرة، في كلّ حجر، أثر من يده وقطرة من دمه. كيف يفصلونه عن هذه الأرض وروحه فيها وحياته متعلّقة بها! هل يحيا الإنسان بلا روح؟ وروح خليل لم تكن في صدره فقط، بل كانت في هذا الجوّ كلّه الذي رأى النور فيه. إذا عصفت الريح فقصفت غصنًا من شجرة، أو هطل السيل فدحرج حجرًا من حافّة، كان يحسّ بأنّ قطعة منه تنسلخ عنه. فكيف بسلخ كلّ ذلك دفعة واحدة؟

وكأنّ خليل أراد أن يرى أملاكه مرّة أخرى ويُشبع عينيه منها، فأخذ يفتحها ويحدّد النظر في الليل لعلّه يرى. فلمح من خلال الظلام الشفّاف الجوزة الكبيرة كالشبح له عدّة أذرع، وأرهف سمعه فإذا هي ترسل بين أوراقها أنّات متقطّعة موجعة، فصعدت الدمعة إلى عينيه. تذكّر أنّه دفن تحت هذه الجوزة جدّه في أيّام الحرب – بعد أن هدم الأتراك المقبرة – دفنه بيده، ثمّ ردّ عليه التراب... وكان جدّه يقول له:

– في عهدنا نحن لم يكن في سهامه مقبرة. بل كان كلّ واحد يقبر موتاه في أرضه، تحت السنابل والدوالي.

كم جدّ وجدّ اختلطت عظامهم بهذا التراب؟ وغدًا ستأتي رِجل غريبة وتدوس. لا، لا! هذا لا يمكن أن يكون قبل أن يقع هو جثّة هامدة فوق هذا التراب، ويختلط دمه به، حتّى يصل إلى عظام جدوده.

هو لن يدع بيته وأرضه يفلتان منه! لن يدع هذا البنك الملعون يبتلعه كما تبتلع القطّة فأرة ضعيفة! البنك جماعة من اللصوص يأكلون أموال الناس بالفوائد، بالحرام. من ذا الذي يجسر أن يأتي إلى هنا، ويقعد في هذا البيت ويتسلّم هذه الأرض؟ طلع في العالم أشقياء كثيرون، فلماذا لا يكون هو أيضًا شقيًّا لأجل قضيّة مثل هذه. هي قضيّة رزقه وشرفه وحياته، ورزق أولاده وشرفهم وحياتهم؟ غدًا، بعد خمسة عشر يومًا، إذا جاء موظّفو البنك إلى سهامه، سيلقاهم من على السطح بالبندقيّة، بهذه البندقيّة التركيّة التي انتزعها من أحد الجنود في آخر الحرب وأخفاها تحت الأرض حتّى اليوم... يقتلهم بها، يصطادهم اصطيادًا. وإذا بقي أحد هجم عليه بالفرّاعة! ولتفعل به الحكومة ما تشاء إذا استطاعت أن تصل إليه!

* * *

كان خليل يحدّث نفسه بذلك كلّه وهو يمشي. وكان الليل ما يزال أسود، إلّا قليلًا من الضوء أشبه شيء بالغلالة. وكأنّ تفكيره منع عليه الحسّ، فأخذ يواصل طريقه وأغصان الأشجار تضرب وجهه فلا يحفل بها ولا يشعر، وقد طلع من صدره إلى عينيه ظلام آخر فلم يعد يرى من الطريق شيئًا، بل أصبح مثل الثور يفلح ثلمًا. ولم يتنبّه أنّه وصل إلى الكرم، وأنّ عليه أن يقفز عن الهاوية. ومضت رجلاه، تتقدّم رجل أمام رجل بخطوات عمياء، فلم يجد نفسه إلّا وقد وضع إحداهما في الفراغ واندفع رأسه وراءها، فضرب بكفّه على الصخرة ليتمسّك، ولكنّ السقطة كانت أسرع منه، فابتلعته الهاوية...

وراح السلّ عن ظهره متدحرجًا إلى قعر الوادي.

جدّي وحكايته

«قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر»

مثل لبنانيّ

للشتاء في قرى الجبل مسرّات لا يعرفها سكّان المدن. وإذا كان البرد من شرور الجبل فربّ شرّ أورث خيرًا، لأنّ البرد في الجبل يجمع الناس على سهرات وألعاب لولاه لما ذاقوا شيئًا من طيبها.

حملني أحد أصدقائي في الأسبوع الماضي على القيام من بيروت في قلب كانون الثاني إلى قريته بيت شباب. فاجتمعنا في السهرة حول موقد في الزاوية، واضطُررنا أن نجاري أهل البيت فخلعنا أحذيتنا وقعدنا على المساند. نقفقف ونوحوح ونفرك أيدينا ونشوي الكستناء، إلى أن تقدّم الليل فأوى إخوة الصديق إلى فرشهم، وآنستنا زوجته بعض الوقت ثمّ تركتنا وحدنا.

تنقّلنا في الحديث من موضوع إلى موضوع، وكان أكثرها على الحياة في القرية والمقارنة بينها وبين حياة المدينة. فأخذنا نتندّر بأخبار السهرات التي كنّا نحييها حول الموقد في الزمان. يجتمع الكبار على لعبة ورق أو سواها من الألعاب البريئة، وينتحي الجدّ ناحية الصغار ويقصّ عليهم حكاياته.

وإنّنا لماضيان في التلذّذ بهذه الذكريات – وكلانا يحمل منها الكثير لأنّنا قرويّان معًا – إذا بصديقي يسكت فجأة ويقول لي مشيرًا إلى مكاني:

– هنا، حيث تجلس أنت، كان جدّي لأمّي يجلس ويقصّ علينا حكاياته. أتريد أن تعرف شيئًا عن حياة جدّي؟ بل أتريد أن تعرف المأساة التي أودت بحياته قبل عشر سنين؟ سأخبرك بها وأردّد عليك حكاية من حكاياته سمعناها منه أنا وإخوتي مرارًا عديدة. وكان يحبّ أن يحكي هذه الحكاية كأنّما هو يحكي لنا عن نفسه.

ثمّ اعتدل الصديق في جلسته وبدأ الكلام:

– ما أزال أذكره حتّى اليوم. كانت على وجهه في آخر أيّامه حلاوة سحريّة تتجلّى في ابتسامة كابتسامة الأطفال. وفي دمعة كدمعة الأطفال. لأنّ جدّي، في الخامسة والسبعين من عمره، كان يعرض له البكاء كما يعرض للطفل سواء بسواء، مرّات في اليوم الواحد. وكان ابنه سبب بكائه. فلقد رُزق جدّي سمعان أولادًا كثيرين، تسع إناث منهنّ أمّي، وذكرين: الأوّل شاهين، وقد مات ابن ستّ سنين فحزن عليه حزنًا كبيرًا وظلّ إلى آخر عهده يحدّثنا عنه كأنّه نفض يديه من ترابه قبل ساعة، والثاني أمين وهو بين شاهين وأمّي في السنّ. فلمّا كانت السنة ١٨٨٩ همّ عدّة شبّان من القرية بالسفر إلى نيويورك – وبيت شباب مشهورة بكثرة مهاجريها – فتهوّس أمين للسفر معهم، وكان دون العشرين من عمره. وعبثًا حاول جدّي إقناعه، وعبثًا نذرت جدّتي النذور لسيّدة الغابة أن يُلهم ابنها البقاء، فقد أبى إلّا السفر. وكان جدّي يحبّه ويكره

أن يعارضه في أمر، فأذعن في النهاية وسافر أمين، فظلّ البيت بعده طول شهر في مناحة.

وعد أمين والده بأن يكتب له كلّ أسبوع بعد أن يصل إلى أميركا، وأنّه لن يغيب أكثر من عامين.

أتعلم يا صديقي؟ إنّ أمين ما يزال حتّى اليوم في نيويورك. وبعد مرور سنة واحدة انقطع عن الكتابة انقطاعًا تامًّا. وإذا أفضيت إليك بسبب نفوره فإنّك ستضحك له. ذلك أنّه علم أنّ أباه تزوّج مرّة ثانية، فرأى أمين من واجبه، كما قيل، أن يغضب لأمّه المتوفّاة. فأبلغ بعض المهاجرين من مواطنيه أن يقولوا لوالده إنّه ليس والده ولا هو ولده، وإنّه لا يريد أن يتعرّف إليه بعد اليوم، فلا حاجة أن يكتب له لأنّ كلّ كتاب يصل إليه من سمعان الفلانيّ يمزّقه قبل الاطّلاع عليه.

هل رأيت في حياتك ابنًا يحاسب أباه هذا الحساب؟ مسكين جدّي! إذا كان قد تزوّج مرّة ثانية فلاضطراره إلى من يُعنى بشؤونه، فيطبخ له ويغسل ويرتّب البيت، بعد زواج بناته جميعًا. مع أنّ الأب هو الذي كان يجب أن يحاسب ابنه، لاسيّما بعد أن اتّصل به أنّ خالي في أميركا يعيش عيشة استهتار. فقد أرسل بعد سنة لابنة عمّه في بيت شباب يقول لها إنّها حرّة في أن تتزوّج من تشاء، وكانت الساذجة تنتظره وتصلّي له وتهيّئ قلبها لاستقباله عريسًا. ولكنّه ضرب بآمالها عرض الحائط واتّخذ له عشيقات من الأميركيّات، وأصبح يساكن إحداهنّ كالحليلة.

جُنّ جنون جدّي عندما اطّلع على ما صنع ابنه. فأخذ يبعث إليه بالكتاب تلو الكتاب وينصحه بترك تلك المرأة والإقلاع عن هذا السلوك الذي لا يرضى عنه الله ولا الناس، وخالي لا يجاوب. ثمّ اتّصل بجدّي بعد خمس سنين أنّ ابنه ساءت صحّته، وأنّه ربّما كان مسلولًا.

كنت أنا في ذلك الوقت طالعًا على العلم، أجيد الخطّ، فأخذ جدّي يستدعيني كلّ أسبوع ويقول لي:

– هاتِ ورقًا وقلمًا وتعالَ إلى هنا، أُكتب لي كتابًا إلى خالك. قُل له إنّي أبكي كلّ يوم. وإذا أحبّ أن لا يرجع فليرسل إليّ صورته على الأقلّ، فليرسل إليّ كلمة من خطّه! كلمة واحدة. أُكتب له! أُكتب!

ثمّ يعانقني ويقول لي:

– أنت تشبه خالك، ولكن إيّاك أن تكون في المستقبل مثله!

يشهد الله، يا صديقي، أنّني كتبت لخالي أكثر من خمسين كتابًا، كلّ واحد منها بل كلّ جملة فيها تُبكي الصخر! فكانت النتيجة السكوت دائمًا. وكان جدّي ينتظر موزّع البريد طول الأسبوع، حتّى إذا جاء في يومه ولم يصل إليه من أمين – حسب العادة – شيء، عاد يعدّ الأيّام إلى الأسبوع التالي.

وقبل أن أروي لك كيف مات جدّي، أرجو أن تصغي إلى الحكاية التي وعدتك بها. فلن تفهم المأساة كما هي، ولن تفهم قلب جدّي وأحلامه إلّا إذا سمعت حكايته التي كان يفضّلها على كلّ حكاية. إنّني ما أزال أحفظها، ولكن مَن لي بلسان جدّي يخرجها لك! إنّها على لساني تفقد كلّ سحرها.

ثمّ تنهّد صديقي وهمّ بالابتسام، ولكنّ هول المغزى لم يلبث أن ردّه إلى التقطيب:

– يجب أن أبدأ كما كان جدّي يبدأ كلّ حكاياته: كان – يا ما كان في قديم الزمان! – ملك عظيم الشان. وكان لهذا الملك ولد بهيّ الطلعة، إذا أطلّ البدر استحيا منه. وكان اسمه حسن. فلمّا صار شابًّا قال لأبيه: يا أبي إنّني أريد أن أسوح في الأرض. فقال له أبوه: يا ابني أخشى عليك المخاطر. فقال: أريد أن أسوح في الأرض وأفتّش عن عروس لي. فقال الملك: يا ابني هذه ابنة عمّك، وهي من دمنا، وهي جميلة كالشمس. فقال: لا أريدها يا أبي، إنّني أريد أن أسوح في الأرض. فلمّا رأى الملك عناد ابنه أمر الخدم والحشم فنزلوا إلى الإسطبل وانتقوا بين المئة فرس أجملها، فأسرجوها وقدّموها لابن الملك. وأمر الملك بخُرج فمُلئ بالذهب ووُضع على

ظهر الفرس ، فاعتلاها حسن وأخذ يسوح في الأرض.

وظلّ ابن الملك يجتاز الجبال والأودية والسهول أربعين يومًا وأربعين ليلة. فلمّا كان صباح الواحد والأربعين وجد نفسه في برّيّة ليس فيها إلّا الله. فجعل كفّه فوق عينيه ونظر ، فإذا شيء يلمع. فهمز فرسه فركضت ساعة ، فإذا هو أمام قصر شاهق ، لا هو بالأرض عالق ولا للسماء لاحق ، وهو يضيء من كلّ جانب من جوانبه بالجواهر التي تبهر العيون وتأخذ بالعقول. وكان أمام القصر بركة ماء ، فدنا ، فإذا على حافّتها اثنتا عشرة حمامة ، ستّ منها بيض كالثلج ، وستّ سود كالليل. وإذا بالحمامات السود ينظرن إليه ثمّ يغطسن في الماء ، ثمّ تلحق بهنّ الحمامات البيض ، ثمّ يخرجن من الماء اثنتي عشرة صبيّة تحار العين على أيّ واحدة تقف لجمالهنّ. وإذا بواحدة منهنّ تتقدّم إلى ابن الملك وتأخذ بيده وتقول :

– ألست أنت حسن ابن ملك الزمان؟

فدُهش حسن للحمامات تتبدّل صبايا ، وللصبيّة بينهنّ تعرف اسمه. ثمّ قالت :

– أترى هذا القصر؟ إنّه لك. تعالَ معي.

وأنزلته عن فرسه ، ونادت : ميمون! فأقبل مارد طوله عشرون ذراعًا ، أسود اللون ، له أذن يجعل منها فراشًا وأذن يلقيها لحافًا ، وعينان تقدحان الشرر ، ثمّ قاد الفرس وتوارى بها كأنّ الأرض انشقّت بهما وبلعتهما.

وجاءت الصبايا الأخريات فوقفت خمس عن يمين حسن هنّ اللابسات الأسود ، وخمس عن شماله هنّ اللابسات الأبيض ، ومشت واحدة أمامهنّ إلى القصر ، وأخرى بجانب حسن وهو ينظر ولا يصدّق ما يرى وما يسمع. حتّى وصل الجميع إلى باب القصر ، فظهر المارد مرّة أخرى وتناول باب الحديد وفتحه بأسنانه. ثمّ صاح صيحة ارتجّت لها الأرض ، فجاءت حمامتان ، واحدة بيضاء وواحدة سوداء ، فحطّت السوداء على رأس حسن ، وحطّت البيضاء على رأس صاحبته هنيهة ، ثمّ طارتا أمامها ترفرفان. والمارد يتقدّم ويفتح بابًا بعد باب ، حتّى وصل إلى غرفة كبيرة مفروشة بالحرير ومضاءة بأنوار غريبة لم يرَ ابن الملك مثلها في قصر أبيه ولا في قصور أعمامه. والتفت فإذا المارد قد اختفى ، وإذا الصبايا الإحدى عشر قد توارَين معه ، ولم يبقَ إلّا صاحبته فقالت له :

– أنا الستّ بدور. أنا عروسك التي تبحث عنها في الأرض. سنعيش هنا بسعادة إلى آخر الأيّام. إنّ قلبي يناديك باسمك منذ ولدتني أمي. تعالَ ، نبيت ليلتنا في هذه الغرفة ، وغدًا نبيت في الغرفة الثانية ، وبعد غد في الثالثة ، إلى أن تتعرّف على القصر كلّه ، مئة غرفة وغرفة.

وعاش حسن والستّ بدور مئة يوم مرّت كما تمرّ المئة دقيقة. وفي صباح اليوم الواحد بعد المئة استيقظ حسن على سريره المرصّع بالذهب والماس ونادى الستّ بدور ، فلم يجبه أحد. فالتفت إلى سريرها فإذا على المخدّة حمامة سوداء. فقالت له الحمامة :

– أنا هي الستّ بدور. انزل معي إلى البركة لنستحمّ.

فنزل معها ، فإذا على حافّة البركة ستّ حمامات بيض وخمس سود ، هي نفسها التي رآها من قبل. فغطست صاحبته في الماء وغطست الأخريات بعدها ، ثمّ طلعن على حافّة البركة اثنتي عشرة حيّة ، نصفها أسود كالليل ، ونصفها أبيض كالثلج.

فوقف شعر حسن على رأسه من الفزع ، وأراد أن يصيح وأن يهرب ، ولكنّ واحدة منهنّ قفزت إلى عنقه وطوّقته وشدّت عليه حتّى كاد يختنق. وفجأة ، ظهر المارد ميمون ومدّ يده فحمل حسن ، والحيّة في عنقه ، على ظفر إبهامه ومشى إلى باب القصر ففتحه بأسنانه ، ودخل من دهليز إلى دهليز تحت الأرض... حتّى وصل إلى غرفة مظلمة ، مدهونة جدرانها بالزفت ، في سقفها شعور نساء تتدلّى ، ومن جوانبها تفوح رائحة كريهة ، فحطّه فيها. حينئذ نزلت الحيّة عن عنق حسن

وانتصبت واقفة على ذنبها وقالت له :

– هذه الغرفة هي الأولى ، وهنالك مئة غرفة مثلها ، ستقضي في كلّ واحدة نهارًا وليلة . أيّامك المئة السود بعد أن أريتك المئة البيض. ثمّ أهجم عليك في صباح اليوم الواحد بعد المئة ، وألتفّ حول عنقك وألسعك . وموتًا تموت !

وانسلّت من كوّة تحت الباب وتوارت .

وجعلت تأتي إليه كلّ صباح من هذه الكوّة فتلتفّ حول عنقه ، ويأتي المارد فيحمله معها إلى غرفة ثانية ، فثالثة ، فرابعة ، فعاشرة ، وهي تنزل كلّ مرّة عن عنقه وتنتصب أمامه على الأرض وتعدّ له الأيّام الباقية من حياته .

* * *

يرجع بنا الحديث إلى الملك . لمّا طال الغياب بحسن قلق عليه الملك قلقًا عظيمًا ولم يعد يذوق طعمًا للنوم . فقرّ رأيه أخيرًا على السياحة في الأرض لعلّه يجده . فأسرج فرسًا وملأ خُرجًا بالذهب وودّع الملكة ، وانطلق في الجبال والأودية والسهول أربعين يومًا وأربعين ليلة . فلمّا كان صباح الواحد والأربعين طلعت له في الطريق عجوز ، فسلّم عليها الملك فقالت له :

– لو لم يسبق سلامك كلامك لأكلتك بلحمك وعظامك . أنا جائعة ، أعطني لآكل وأقضي لك كلّ حاجة . أنا أعرف ما مرادك . تسوح في الأرض لتجد حسن ، ولا أحد يعرف أين هو غيري . أطعمني ، أنا جائعة .

فقال لها الملك :

– زادي نفد كلّه .

فقالت له :

– أنا جائعة ، وما دمت لم آكل فلا أدلّك على ابنك .

فتناول الملك سيفه وكشف عن فخذه وقطع لها قطعة ، فأكلتها ، ثمّ قالت له :

– يا ملك الزمان ، ولدك لا يزال حيًّا هذه الساعة . ولكنّه بين أيدي نساء من الجنّ ، تريد إحداهنّ قتله ، فعجّل إليه . وخذ ، هذا خاتم سليمان (وأعطته خاتمًا) إذا وقعت في شدّة ، ناديته فأجابك : «لبيّك عبدك بين يديك ! » .

ونادت العجوز ، فجاوب الخاتم ، فأمرته أن يردّ فخذ الملك صحيحة ، فالتفت الملك فإذا هي كأنّه لم يقطع منها شيئًا !

وتوارت العجوز. فلم يتقدّم الملك إلّا قليلًا حتّى لاح له قصر ، فاقترب ، فإذا صبايا اثنتا عشرة ينحنين أمامه ، وإذا إحداهنّ تقول :

– يا ملك الزمان ، قد عرفنا أنّك تبحث عن ولدك فجئنا ندلّك عليه . أترى هذا القصر الشاهق ؟ إنّ حسن فيه ، ولكنّنا لا نتجاسر أن ندخل ونخلّصه ، فعلى الباب حمامتان تقولان إنّ ابن الملك لا يخلّصه إلّا أبوه الذي يجب أن يمرّ من هنا وتفقأ كلّ واحدة منّا عينًا من عينيه . وحارس القصر مارد اسمه ميمون ، أسود كعمود الليل ، وله حيّة تعذّب ابنك منذ مئة يوم ، وهذا هو اليوم الأخير من حياته ، إذ تلتفّ حول عنقه وتلسعه ليموت .

فقال الملك :

– أنا ملك الزمان ، أعطيه ما شاء من المال ، أعطيه قصري ونصف ملكي ، أجلسه على عرشي ، فليردّ لي ولدي .

فقالت الصبايا الاثنتا عشرة معًا :

– لا يعطيه ! لا يعطيه إلّا بعينيك .

فنزل الملك عن فرسه ، فإذا المارد يقبل ويتناولها من لجامها . وإذا الصبايا يغطسن في الماء ثمّ يخرجن اثنتي عشرة حمامة مفرفرات ، ستّ منها سود وستّ بيض . وتوجّه الملك إلى باب القصر فتقدّم المارد وفتحه بأسنانه . ثمّ قال للملك بصوت كالرعد :

– اسمع يا ملك الزمان ! هل ترضى بأن تفقأ الحمامتان عينيك لأردّ إليك ولدك؟

فقال الملك :

– ردّ إليّ حسن وافعل بي ما تشاء.

فزجر ميمون زجرة ، فأطلّت حمامتان واحدة بيضاء

وواحدة سوداء ، وجاءت البيضاء فنقدت بمنقارها عين الملك اليمنى ، ثمّ جاءت السوداء فنقدت العين اليسرى ، وأصبح الملك أعمى. فمدّ يديه أمامه ليتلمّس الطريق ، فإذا بالمارد يحمله على ظفر إبهامه وينزل به دركات دركات. ثمّ حطّه فجأة ، فإذا صوت يصيح : أبي! أبي! فعرف الملك صوت ابنه ووثب ، وهو لا يرى ، وأخذ يعانق حسن ويبكي ، من شدّة فرحه ، دماء من عينيه المفقوءتين.

ورجع الملك بابنه إلى القصر... وبينما هما في الطريق يقصّ كلّ واحد منهما على الآخر ما حصل له ، تأثّر حسن لما أصاب أباه من فقد عينيه في سبيل تخليصه ، ثمّ تذكّر الخاتم ، فصاح :

– يا أبي ، أين خاتم سليمان؟

فتناوله الملك من جيبه وناداه فأجاب :

– لبّيك عبدك بين يديك!

فقال :

– أعد إلى ملك الزمان عينيه صحيحتين.

فتحرّك الخاتم من نفسه وقفز إلى العين اليمنى فأعادها ، ثمّ إلى العين اليسرى فأعادها. فنظر الملك فإذا هو يرى كما كان من قبل. فانحنى على ابنه وعانقه من جديد طويلًا. ثمّ تفقّد الخاتم فإذا هو قد اختفى بين الأرض والسماء.

ولمّا وصلا إلى القصر أُقيم عيد كبير. وزوّج الملك ابنه بابنة عمّه في اليوم التالي ، وطلع المنادي على السطوح فنادى أنّ الناس كلّهم لا يأكلون ولا يشربون طول مئة يوم ويوم إلّا على حساب الملك ، لفرحه بابنه. وعاشوا باللذّة والنعيم...

وصل صديقي إلى هنا ، ثمّ استأنف وقال :

– هذه هي الحكاية التي كان جدّي يحبّ أن يردّدها على مسامعنا ونحن صغار. ولم أكن أفهم في ذلك الوقت أيّ شيء يحبّ فيها ، أمّا الآن ، وبعد موته ، فقد أصبحت أفهم كلّ شيء. كان يرى فيها ، رحمه الله ، صورة لحياته التي قضاها بعيدًا عن ابنه ، ولحياة ابنه المملوءة بالنساء الشرّيرات. وكان يحبّ أن تنتهي به إلى مثل ما انتهى إليه أمر الملك بلقائه مع ابنه.

وظلّ جدّي يبكي حتّى عميت عيناه ، فلزم زاوية من بيته يناجي أمين ليل نهار ولا يخرج إلّا من الشهر إلى الشهر في زيارة لأمّي أو إحدى خالاتي ، فتأتي هي وتقوده بيدها. وإنّني لأذكر حتّى الساعة آخر مرّة حكى لإخوتي هذه الحكاية. فلمّا وصل إلى فقء الحمامتين لعيني الملك شهق بالبكاء ، وتوقّف عن إكمالها بالرغم من إلحاح الصغار ، كأنّه يقول في نفسه : أنا أيضًا فقدت عينيّ في سبيل ولدي ، فلماذا لا يردّه الله إليّ؟

وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأوّل من سنة ١٩٠٥ كان في بيتنا خبران عظيمان : أمّا الأوّل فكتاب من خالي أمين إلى والده بعد خمس وعشرين سنة انقطاع. وعندما قلنا لجدّي إنّ أمين أرسل إليه كتابًا لم يصدّق. فقلنا له : وصورة أمين أيضًا! فكاد يقع على الأرض. فقرأنا عليه الكتاب ، فاستعاده عشر مرّات وهو يبكي ويلثم الأرض. ثمّ مدّ يده وطلب الصورة ، فدفعناها إليه ، فجعل يتحسّس بأصابعه وجهها وظهرها وأطرافها ، ويضمّها إلى صدره ويناجي أمين ، ثمّ ينادي أمّي ويقول :

– تعالي يا ابنتي ، أنت لا تزالين تذكرين أخاك ، وعيناك مفتوحتان.

فجعلت أمّي تبكي هي أيضًا ، وتنظر إلى والدها يتحسّس الصورة بيديه ، ويفرك عينيه المطفأتين بكلّ قوّته كأنّه يحاول أن يرى بهما ، أن يضع فيهما نورًا جديدًا. ثمّ يقبّل الصورة ويبلّلها بدموعه ويشهق ، فيرقص شارباه من وقع شهقاته ، ويرقص طربوشه المغربيّ على رأسه ، وترقص أعضاؤه رقصة السعادة الهائلة.

قلت لك ، يا صديقي ، إنّ خبرين عظيمين كانا في بيتنا ذلك اليوم. أمّا الأوّل فقد عرفته ، وأمّا الثاني فقد تولّت إذاعته من غد ورقة ذات إطار أسود حاملة إلى الناس ، وإلى أمين في أميركا ، نعيّ جدّي.

الرسائل المحروقة

«... والعذارى قلوبهنّ هواء»

شوقي

كان ذلك في المساء.

دمشق تلتفع بالظلام شيئًا فشيئًا ، وتنام محروسة بجبل حرمون وبالمآذن المتعالية بإباء فوق الجامع الأمويّ.

والمساء في الخريف كآبة على كآبة. وحول المنزل ، في باب توما ، حدائق ذات أشجار ملتفّة ، موحشة ، حطّ غراب على غصن يابس فيها وأخفى منقاره بين جناحيه.

وعلى الأرض تتساقط الأوراق متهادية في الفضاء ، تتعانق هنا وتفترق هناك في وسوسة موجعة...

في تلك الساعة ، خرجت إلى السطح فتاة المنزل الشقراء ، لابسة قميص الليل ، فاستقبلتها النسمات تلعب بشعرها ، وتتسلّل إلى صدرها ، وتدور حول ساقيها العاريتين. فأحسّت بقشعريرة باردة من أمّ رأسها إلى أخمص قدميها ، ولكنّها مشت إلى زاوية السطح مأخوذة ، وانحنت هنالك ومدّت يدها تتلمّس شيئًا.

وكانت تفتح عينيها وتجهدهما ما استطاعت ، لعلّها تجد ما تبحث عنه. ثمّ رفعت يدها ، فإذا بقايا أوراق محروقة ، بعضها لم يتفتّت ، وبعضها الآخر يهرب من بين أصابعها مع الهواء.

خُيّل إليها أنّها تقرأ آثار الحروف والكلمات على هذه الأوراق المحروقة... وخُيّل إليها أنّها تقرأ اسمه هو في الإمضاء ، واسمها في أوائل الرسائل مشفوعًا بالنعوت العذبة.

حينئذ أخذ قلبها في الخفقان ، وفرّت الدمعة إلى عينيها متلألئة كتلك النجمة المرتعشة فوق ، في أعالي الجلد.

واتّكأت على حافّة السطح في الزاوية ، وأخذت تستعيد حياتها الماضية وأدوار المأساة التي حدثت هنا ، في هذا المكان ، قبل ساعة.

أوّل ما تذكّرته كلام أمّها :

– يا ابنتي ، نصيبك من الدنيا لا تعرفين متى يأتي ولا من أين.

كانت تقول لها ذلك كلّما جاءها عريس وعلى أثر كلّ زيارة كان يقوم بها بونا جبرايل. كان هذا الكاهن لا يخدم النفوس فقط بل يرى من واجبه أيضًا ، ومن ملذّاته الخاصّة ، أن يدلّ العريس على العرائس والعروس على العرسان ، مسمسرًا بين الفريقين ؛ وحسبه أجرًا أن يتفرّج على القلوب المتحابّة ، وأن يبارك الإكليل بيد ، ويتسلّم باليد الأخرى رسومه.

... لا تعرفين متى يأتي ولا من أين؟

كانت ليلى تهزّ رأسها ولا تصدّق والدتها. كانت تقول في سرّها : لماذا لا أعرف نصيبي متى يأتي ولا من أين؟ وهل أتزوّج غير بسيم؟

بسيم جارها ورفيق صباها. هي تسكن الطبقة العليا من البيت وهو يسكن السفلى. وهي تحبّه منذ أربع سنوات. أمّا هو فيحبّها منذ ثمانٍ وأكثر دون أن يخبرها. كانت تنزل الدرج كلّ يوم وتصعده ذاهبة إلى المدرسة وعائدة منها، فينتظرها وراء نافذته المطلّة على الدرج ويعرف وقع قدميها، ويراها من وراء الستار ولا تراه.

ما أبعد ذلك العهد! كانت ما تزال تلبس الإزار الأسود، لباس المدرسة الإجباريّ، وكانت شفتاها لا تعرفان الحمرة.

الذكريات تضجّ في رأسها وتتسابق كأنّها في ميدان: بسيم يتمشّى على الطريق الذي تسلكه إلى المدرسة ذهابًا وإيابًا، فإذا أطلّت بين صياح رفيقاتها رفع عينيه إليها ويده إلى شعره يمسحه بها. وما يكاد حتى يستولي عليها شبه دوار، ثمّ تسرع في خطواتها، رشيقة بفسطانها القصير، وحذائها الواطئ، وحقيبة كتبها المعانقة صدرها... وكانت تقول له:

– لا تنتظرني أمام المدرسة، لأنّ الأمّ كاترين لها عينان تطلّان دائمًا من فوق سطح المدرسة وتراقبان البنات.

ولكنّه كان يجيء بالرغم من ذلك ويقول لها: «إذا قالت لك الرئيسة شيئًا فلا تخافي منها، بل ارفعي رأسك وقولي لها بكلّ قوّتك: هذا عريسي!».

كيف تتجرّأ ليلى على ذلك، وبالأمس طردت الأمّ كاترين إحدى التلميذات من المدرسة لأنّها ردّت السلام على فتى في الشارع؟ إنّها مخيفة هذه الراهبة بسبّابتها الملوّحة في الفضاء، وببرنيطتها المتراقصة على رأسها، كلّما وقفت تصيح بالبنات مؤدّبة، واعظة.

ولم يرتدع بسيم، حتّى طلعت الأمّ كاترين ذات مساء وأمطرته وابلًا من التأنيب ورقصت بوجهه برنيطتها وسبّابتها. وكانت لها سبّابة طويلة تضرب بها التلميذات على أيديهنّ، فتوجع كالقضيب الأخضر.

كان حظّ ليلى كبيرًا، فلم تحزر الأمّ كاترين أنّ بسيم يجيء من أجلها هي، بل ظنّته يتمتّع بالمناظر المختلفة التي تخرج كلّ مساء من باب المدرسة. وظلّت ليلى طول شهر ترتعد، ويكاد شعرها يشب واقفًا كلّما دنت منها الرئيسة، أو حوّلت عينيها إليها.

يا للفرحة حينما نالت ليلى شهادتها! كانت الشهادة خطوة واسعة إلى العرس. وفي السهرة، عندما صعد بسيم إلى منزل الجيران المحتشد بالمهنّئين والمهنّئات طلبها إلى دورة رقص. وكان الجميع يأكلون الحلوى ويرقصون. ولمّا تناول يدها بيده ضغطها بشدّة ووشوش في أذنها: «لا أدري لماذا أنا أحبّك هذه الليلة أكثر من أيّ وقت». ما أحذقه في الرقص! يدور بها بين إعجاب الناظرين، ويدسّ بين شعراتها الشقر كلمات الحبّ وآمال المستقبل.

وكانت الرقصة هي التي تفضّلها ليلى: «تانغو عواطف»، والأسطوانة هديّة من بسيم إلى أخيها، مداورة منه لأنّه لا يستطيع أن يهديها إليها مباشرة.

تُرى، متى يكون العرس؟ متى تلبس ثوبه الأبيض وتضع على رأسها إكليله؟

– يا ابنتي، نصيبك من الدنيا لا تعرفين متى يأتي ولا من أين.

كانت والدتها على صواب، فها إنّ نبوءتها تتحقّق. ما الذي جاء بهذا الشابّ الجديد؟ ما الذي جاء بسمير يخطب يدها؟ رفضته في اليوم الأوّل وأبت أن تستقبله. كانت لديها فظاعة وأيّ فظاعة أن تفكّر يومًا من الأيّام أو أن يقول أحد على مسمعها إنّها ستتزوّج غير بسيم. تظاهرت لدى أمّها بأنّها نسيت كتابًا عند أخت بسيم ونزلت إليه وقصّت عليه كلّ شيء، وأقسمت له أغلظ الأيمان: أنت أو الموت! وأقسم لها الأيمان نفسها وشدّ على يدها وداعب بأصابعه المرتجفة شعرها الأشقر، المسترخي على صدغها. وحاول أن يقبّلها قبلة بريئة، على خصلة من شعرها، على كتفها...

لم تسمح له بهذه القبلة... وكيف سمحت لسمير في اليوم الثالث أن ينقضّ عليها، ويأخذ ذقنها بجمع كفّه

ويقبّلها على فمها؟ كيف لم تنفر منه؟ لمَ لم تستطع حراكًا؟ كيف استسلمت إلى قبلته ضعيفة كالعصفور بين براثن البازيّ! أيّ دافع حملها هذا الصباح إلى أبيها ترتمي بين ذراعيه على حافّة السرير وتقول:

– أريد سمير زوجًا لي. لا أريد الآخر.

هي لا تعرف سمير إلّا منذ أسبوع وتحبّ بسيم منذ سنين. كيف سيطر عليها هذا الساحر؟ أيّ شيء في عينيه يأمرها فتطيع، هي العنيدة، التي كانت تفرض ما تشاء على بسيم فينصاع، واجدًا كلّ اللذّة في تنفيذ مشيئتها! كيف انقلب أمرها فصارت إلى لعبة بين يدي سمير، يديرها على ما طاب له؟

وكان بسيم يبثّها غرامه برسائل يوميّة، ويرفق هذه الرسائل بأبيات من الشعر ينظمها على قدر معرفته بالأوزان والقوافي – وهي قليلة – وعلى قدر ما يجيش في صدره من عواطف – وهي كثيرة جدًّا وصادقة جدًّا – يقصّ عليها ما يعمله في يومه، وما يفكّر به، وما تقع عليه عيناه وتسمعه أذناه، ليجعلها تشارك حياته منذ الآن. وكانت له حيلة في إيصال الرسائل إلى محبوبته: يأتي إلى أسفل الدرج ويتلصّص بعينيه من هنا ومن هنا، ثمّ يرفع الممسحة ويضعها تحتها، فتأتي ليلى وتدسّها في صدرها وتصعد لقراءتها والتهام حروفها.

والقراءة مهمّة صعبة. يجب أن لا يراها أحد. أمّا أبوها فمنهمك بشغله في سوق الحميديّة. ولكن هنا أمّها الدائرة حولها كلّ الوقت، وإخوتها وأخواتها. لذلك كانت تنتهز خلوتها في الحمّام وتفضّ الرسائل وقلبها يخفق خفقات متدافعة.

إنّ هذه الخفقات بل أشدّ منها تعود في هذه الساعة إليها. أين هي الآن تلك الرسائل والقصائد؟

لم تستطع كتمها عن سمير. جاءت من نفسها وباحت له بكلّ شيء: بأنّ جارها كان يهواها، ويراقصها، ويلتقيها على طريق المدرسة منذ زمان، ويكتب إليها. ثمّ ذهبت كالآلة إلى غرفتها، إلى صندوقة ثيابها، وأخرجت من إحدى زواياها كنزها المخبوء: مجموعة الرسائل والقصائد مربوطة بشريط من الحرير الأحمر. جاءت بها وقدّمتها إلى سمير، هنا، على السطح، قبل ساعة.

طلبت منه أن يفضّها ويقرأ كلّ ما فيها. وكانت فخورة لأنّ بسيم لم يتجرّأ، خلال سنتين كان يكاتبها فيهما، على قول تستحي أن تقوله أمام الناس. أمّا سمير فقد ازدراها، أبى أن يفضّها أو أن يرى حرفًا واحدًا منها، بل وضعها في الزاوية وأشعلها بعود كبريت. ثمّ التفت إلى ليلى وقال بكلّ برودة:

– أتتألّمين؟ إنّني أعرف ألمك.

فأجابت بصوت متقطّع:

– كلّا، لا أتألّم... ولكن... مسكين! مسكين هو!

أجل، مسكين بسيم!

أعادت ليلى هذه الزفرة وهي متّكئة على حافّة السطح. ثمّ دنت من الزاوية وأدخلت يدها تتلمّس بقايا الرسائل المحروقة.

البقايا تتفتّت وتتحوّل رمادًا يعلق بأصابعها. وفتحت عينيها لترى، فخُيِّل إليها أنّ النار ما تزال تشتعل وأنّ اللهيب يحرق أصابعها، وأنّ حروف اسمها في أوّل الرسائل وحروف اسمه في آخرها تتحرّك وتتململ خلال الجمر، تصعد وتهبط، تدنو وتبعد، ثمّ تهجم وتضرب عينيها، فتحجبها بكفّيها من الأذى.

حينئذ دار رأسها فانحنت وأسندت جبينها على حافّة السطح. وكانت الحروف ما تزال تتطاير حولها جمرات لمّاعة، فلو فتحت عينيها لدخلت فيهما جمرتان كبيرتان وفقأتهما. وطنّت أذناها وعادت صورة الحريق إلى ذهنها، وأخذت تتعالى من الرسائل المتلوّية تحت النار صيحات موجعة، صيحات تخيب حينًا وغضب أحيانًا، صيحات بعثت في جسمها ارتعاشًا وأوقفت شعرها هلعًا. فكادت تصيح هي أيضًا، ولكنّ صياحها اختنق في حلقها.

ورفعت رأسها لتتنفّس، فإذا نسمة باردة من وراء

الغوطة ، فجعلت تتنشّق هذه النسمة المحسنة بملء رئتيها .

وفجأة حانت منها التفاتة إلى جدار البيت المحاذي ، فإذا عليه خيال رأس تعرفه . أما هو رأسه ؟ أما هو رأس بسيم ؟ هذا أنفه الدقيق الأقنى ! هذه شعراته المسترسلة إلى الوراء ! هذا ذقنه القصير المدوّر ! هذا جبينه العالي ! هذا عنقه ! هذا هو !

كان بسيم جالسًا في منزله في الطبقة السفلى ، والقنديل وراءه . وكان القنديل يلقي على جدار البيت المقابل خيال رأسه مكبّرًا . فلبثت في مكانها جامدة جموده ، معلّقة بصرها به . ووقع في روعها أنّ هذا الخيال يراها ، ويرى الزاوية التي شهدت المأساة ، ويرى بقايا الأوراق المحروقة بين أصابعها ، فارتعدت وأدنت أصابعها من صدرها وضغطت لتخبّئ هذه الأشياء عنه... كما كانت تخبّئها في الماضي عن الناس عندما تتناولها من تحت ممسحة الدرج .

وأعادت عينيها مفتوحتين إلى الخيال ، وكان لا يزال جامدًا على الحائط الأبيض العريض . ثمّ صعد الخيال فجأة على الحائط وقفز عليه إلى فوق ، فرفعت عينيها لترافقه ، لتلحق به إلى السماء ، فإذا السماء فارغة إلّا من النجوم في اللانهاية الزرقاء .

ثمّ أطلّت موق حافّة السطح ضاغطة صدرها على الحافّة ، مفتّشة عن الخيال . فإذا به يعود أكبر منه في المرّة الأولى ، ولكنّ الرأس هذه المرّة انحنى إلى اليمين وغاب الأنف وبدت اليدان تستندان إلى شيء وبدت الكتفان والظهر . ثمّ رأت الرأس ينحني انحناءة كبرى على الكتف ، ويكاد ينقصف .

فحنت رأسها هي أيضًا دون أن تشعر بأنّها تقلّد الخيال . ثمّ انفرجت شفتاها وطافت على وجهها ابتسامة غريبة ، ونقلتها أفكارها إلى الساعة التي التقت فيها بسيم ، على حين غرّة ، على درج البيت ، فأوقفها وأعطاها رسالة بيدها وأدناها منه وألقى رأسها على كتفه – وكان رأسه منحنيًا هذه الانحناءة نفسها على الكتف الأخرى – وقال لها كلمته « أحبّك » !

وكانت عينا ليلى ما تزالان مسمّرتين بالخيال . بقيت دقيقة طويلة تنظر إليه وهو جامد لا يتحرّك . ثمّ أخذ الرأس يهتزّ اهتزازات بطيئة ترتسم على الحائط مضخّمة ، مخيفة – كما ترتسم الأشباح في السينما – ثمّ استدار على نفسه ، وتزحلق عن الجدار واختفى ...

كان الليل قد تقدّم وسرت في جوّ باب توما برودة قارسة . فردّت ليلى قميصها على عنقها وغادرت زاويتها تريد الدخول إلى غرفتها لتنام . فواجهها القمر طالعًا من وراء الغوطة في وهج ممزوج بالفضّة والذهب . فوقفت ترافقه يصعد على رأي العين بكبرياء ، يصعد فرحًا بهيًّا ، وينشر أضواءه على الدنيا .

وإذا بالغراب يفرّ من غصنه على الشجرة الباسقة المجاورة للسطح ويطوي جناحيه فوق رأسها محدثًا بهما رفيفًا مزعجًا . ولمّا ابتعد متواريًا في الفضاء رسمت ليلى إشارة الصليب على وجهها لأنّها كانت تعتقد بالغراب نحسًا . ثمّ مشت على رؤوس أصابعها خشية أن توقظ أحدًا . ولكنّ احتياطاتها لم تجدِ . فإنّ الأمّ استفاقت على صرير الباب ، وضغطت الزرّ فوق مخدّتها فألقى القنديل الكهربائيّ أضواءه على وجه ليلى وصدرها ويديها وثيابها المصبوغة بالأسود ، كأنّها خارجة من مستودع فحم .

– أين كنت يا ابنتي ؟ أتظلّين دائمًا طائشة ، وغدًا تتزوّجين؟

فابتسمت ليلى من كلّ قلبها ، وهجمت على والدتها وعانقتها عناقًا طويلًا وبكت لا تدري لماذا ، قائلة :

– لا شيء ، لا شيء ، هذا رماد !

وباتت ليلى في فراش أمّها تلك الليلة ، وخبّأت رأسها في صدرها كما كانت تنام وهي طفلة صغيرة.

أحد الشعانين

«المال والبنون زينة الحياة الدنيا»

قرآن كريم

استيقظت القرية على قرع جرس الكنيسة في فجر بديع، هو فجر أحد الشعانين. ولأحد الشعانين في القرية شأن. فانتفض بونا غسطين من النوم وهتف صوب السرير الآخر:

– يلّلا يا خوريّة!

فتمطّت الخوريّة ثمّ تدحرجت عن السرير كالكرة في سمنتها المترهّلة، وأخذت تفرك عينيها. بينما كان بونا غسطين يمشّط لحيته تمشيطًا سريعًا أمام قطعة مرآة صغيرة معلّقة على الجدار تحت صورة لمار يوسف، شفيع القرية وصاحب كنيستها. ثمّ مشى إلى الخزانة فتناول منها جبّته المقصّبة التي يحتفظ بها لأيّام الأعياد الكبرى. وجاءت الخوريّة فساعدته على لبسها وهي تمرّ عليها بكفّها معجبة، ثمّ ابتسمت له وقالت:

– هذه الجبّة تليق بمطران! وأنت تستحقّ أن تكون مطرانًا، يا بو حسّون.

وبو حسّون كنية يطلقها القرويّون على كلّ رجل اسمه يوسف. وقد كان بونا غسطين – قبل أن يصير بونا غسطين– يحمل اسم يوسف. فأحبّ بعد أن سيم كاهنًا أن يختار لنفسه اسم القدّيس أغوسطينوس تمثّلًا به، لأنّ القدّيس أغوسطينوس كان خاطئًا من أكبر الخطأة، وكان يوسف خاطئًا كذلك.

أمّا لماذا ترك يوسف صناعة البناء ولبس ثوب الكهنوت فلأمرين اثنين: أوّلها طبعًا أنّه مدعوّ من الله إلى الانقطاع عن الدنيا، وإلى التكفير عن خطاياه. ولم تكن خطاياه كثيرة في الواقع؛ ولكن، ألم يقل القدّيسون أنفسهم إنّهم، بالرغم من قداستهم، يخطئون سبع مرّات في اليوم الواحد؟ وثانيهما أنّه كان يرجو من الله أن يمنّ عليه بولد وهو خادم في بيته، بعد أن أبى أن يرزقه ولدًا وهو بنّاء يعالج الحجارة ويسبّ الدين...

ثمّ إنّ هنالك سببًا آخر كان بونا غسطين والخوريّة لا يعلنانه: البناء! البناء! صناعة متعبة، قذرة، لا تدرّ شيئًا. إنّ الخوريّة ما تزال تذكر كيف كان بو حسّون يأتي كلّ مساء متأفّفًا، بشاربَيه المشعّثين، وثيابه المملوءة بالغبار، وبكفّه التي ضخّمها الإزميل وشقّقها حتّى ليسيل منها الدم أحيانًا. هي ما تزال تذكر ذلك، وتقابل بين بو حسّون الأمس وبونا غسطين اليوم؛ وتقابل بين كفّه هذه بالأمس وبينها اليوم، وقد نعمت وانصقلت وأصبحت محطًّا لشفاه نساء القرية ورجالها وأطفالها جميعًا، يقبّلونها ويتبرّكون بها.

أيّ سعادة وأيّ فخر حينما يناديها أهل القرية «يا ستّي الخوريّة»! وحينما يسألونها عن المحترم، ويرجون منها أن تبوس عنهم يده! أيّ سعادة وأيّ فخر حينما تراهم يركعون في كرسيّ الاعتراف وتسمع صوته يؤنّبهم على خطاياهم.

وكانت الخوريّة تودّ أن تعرف ما خطايا هذه أو

تلك من نساء القرية ، فلا تتجاسر على طرح مثل هذا السؤال على زوجها . وكيف تطرحه وهي تعرف أنّ سرّ الاعتراف مقدّس ، وأنّ الكاهن لأسهل عليه أن تخرج روحه من أن يخرج هذا السرّ من فمه ! أجل كانت الخوريّة تعرف ذلك ، ولكنّها كانت تودّ أن تعرف خطايا امرأة واحدة . كانت تودّ أن تعرف خطايا أمّ إبراهيم بل أمّ الاثني عشر ولدًا ! هذه التي تعيّرها دائمًا أمام جاراتها ، تعيّر الخوريّة ! فتقول عنها وهي تقلب شفتها :

– وأمّ حسّون . والخوريّة الملعونة !...

وكانت الجارات ينقلن إلى الخوريّة هذا الكلام وكثيرًا غيره أقبح منه . ثمّ لا تستحي أمّ ابراهيم أن تتقدّم كلّ أحد وكلّ عيد إلى المذبح ، فتتناول القربان المقدّس من يد بونا غسطين ؛ ولا تعرف أنّها إنّما تأكل نارًا !

أهذا عدل من الله ؟ أمّ ابراهيم النمّامة ، صاحبة لسان الحيّة ، وصاحبة السمعة الزفت – أبو ابراهيم كان شيخًا متهدّمًا ، فمن أين جاءه الولدان الأخيران ؟ – أهذا عدل من الله أن تُرزق هذه الفاجرة اثني عشر ولدًا ، ولا تُرزق الخوريّة ولدًا واحدًا يبلّ قلبها وقلب بو حسّون ويملأ وحشة البيت ؟

كانت الخوريّة تفكّر في كلّ هذه الأشياء وهي تمسح جبّة بو حسّون . وقد استرسلت في أفكارها حتّى نسيت نفسها وذهلت عمّا تفعل ، فأوشك بونا غسطين أن يخرج من جبّته غضبًا ، وكادت خطيئة تخرج من فمه :

– أنسيت أنّ اليوم أحد الشعانين ؟ يجب أن أذهب إلى الكنيسة وأهيّئ كلّ شيء . البذلة يلزمها تنظيف . والمذبح ... والمقاعد ...

قال بونا غسطين ذلك وعصر لحيته الكثّة المرشوشة بالأبيض ، ثمّ مشى صانعًا شبه إشارة الصليب على وجهه . كان يركض ركضًا ، وأطراف جبّته تخشخش وتذهب يمينًا وشمالًا ، حتّى كاد يتعثّر بها على الدرجات التي تصل بين مصطبة المنزل والطريق .

الساعة الثامنة والنصف . بدأ القدّاس . ولكنّ الخوريّة التي كانت تجثو كلّ صباح على المقعد الأماميّ ، وتقضي الوقت في التحديق إلى بو حسّون في بذلته الساطعة ، وفي انضمام يديه بالصلاة حينًا وامتدادهما حينًا إلى العلاء ، وفي ركوعه وقيامه ؛ إنّ الخوريّة التي كانت تصغي بكلّ أذنيها في مثل هذه الساعة إلى صوت بونا غسطين يلحّن بالسريانيّة ، وينتهر بالعربيّة – المخلوطة بشيء من الصلاة عند غضبه – الولد حامل المبخرة لأنّه تأخّر في تقديمها إليه ؛ إنّ الخوريّة الآن لا تنظر إلى الخوري ولا تصغي إليه ، بل هي لا تراه ولا تسمعه .

وكان الناس في الكنيسة ينحني بعضهم على بعض ويتهامسون : ماذا حلّ بالخوريّة ؟ لم تأخذ مقعدها بل تركته خاليًا . ولم يجسر أحد أن يشغله . ومن تراه يجسر ؟ هذا مقعد الخوريّة ! كانوا ، رجالًا ونساء ، ينظرون إليها واقفة على باب الكنيسة وقفة جامدة ، تستعرض الأولاد المتوافدين مع أهلهم بثيابهم الجديدة وشمعاتهم المزيّنة ، ثمّ يتوقّعون كلّ دقيقة أن تدخل ، لأنّ القدّاس قد «حمي» ، وأصبح زيّاح الشعانين على وشك أن يبدأ وهي ما تزال بالباب . كانوا ينظرون إليها في فسطانها الأبيض المقلّم بالأزرق ، وفي طرحتها السوداء التي تغطّي قسمًا من ضفائر شعرها ، وفي هذا الوجه الذي يطفر منه الدم رغم الخامسة والأربعين من العمر ، فتقطع أمّ إبراهيم «السلام عليك يا مريم ...» وتدسّ لجارتها : أترين الخوريّة ؟ يا ملعونة ! مثل بنت الأربعة عشر !

وكانت الكنيسة تمتلئ شيئًا فشيئًا بالرجال والنساء ، وخصوصًا بالأولاد . وقد بكّر الآباء والأمّهات هذا اليوم في المجيء إلّا القليل . ولولا أنّه عيد الشعانين لأدار بونا غسطين وجهه من المذبح إلى المتأخّرين ووبّخهم على تأخّرهم علنًا . ولكنّه عيد الشعانين . عيد الأولاد ! الآباء والأمّهات مشغولون بزينة أولادهم : يُلبسون البنت فسطانها الجديد الذي قضت الأمّ أسبوعًا

في خياطته وتطريزه ، والصبيّ قمبازه الديما أو جبّته البنّيّة. جبّة راهب يلبسونه إيّاها نذرًا من نذورهم ، بقلنسوة وزنّار كالرهبان تمامًا. ويركّزون أغصان الزيتون على الشمعات التي يحملها هؤلاء الأولاد متباهين بطولها وضخامتها ، وبالشرائط الحريريّة التي تربط الأغصان في القسم الأعلى منها. إنّ الآباء والأمّهات والأولاد كانوا منهمكين هذا الصباح بكلّ هذه الأشياء ، فلا بأس إذا عذر بونا غسطين أولئك المتأخّرين...

ووصل القدّاس إلى ما قبل التقدمة ، إلى المرحلة التي يجب أن يبدأ فيها زيّاح الشعانين. فأدار بونا غسطين وجهه إلى الحاضرين وفي يده الصليب ، فبارك به أغصانًا من الزيتون وُضعت على طاولة أمام المذبح. وأجال بصره في الكنيسة فإذا الخوريّة تشقّ لنفسها طريقًا بين الأكتاف والخصور والأرجل المتراصّة ، وذهبت فأخذت مقعدها.

وبدأ الطواف...

تحوّلت الكنيسة إلى مهرجان وماجت كالبحر: أولاد من الجنسين من كلّ سنّ ، يلبسون ثيابًا من كلّ لون ، بعضهم محمول على كتفَي أبيه أو أخيه أو نسيب له ، وبعضهم يمشي على الأرض مزهوًّا لأنّه قادر على رفع شمعته ، وبعضهم مشدود إلى صدر أمّه... بعضهم يناغي ، وبعضهم يبكي ، وبعضهم يتهلّل فرحًا. أولاد... أولاد... خدودهم محمرّة ، وشعورهم الشقراء ، السوداء ، المجعّدة ، المسدولة ، مبعثرة على وجوههم. كتل من الحياة ، وفلذات من الأكباد تتزاحم في عيدها الأكبر بين ضياء الشموع ، ورائحة البخور ، وعطر أغصان الزيتون ، وترسل أنفاسها في جوّ الكنيسة العابق ، وتختلط صيحاتها بألحان بونا غسطين ، وتصعد هذه المجموعة من الروائح والأصوات والأنوار كأنّها تشقّ سقف الكنيسة ، تتسلّق قبّتها المتشقّقة ، ثمّ تتابع صعودها إلى السماء...

كانت الخوريّة قد وقفت على كرسيّها دون أن تشعر ، ترافق طواف الموكب في الكنيسة ذهابًا وإيابًا ، تنقّل عينيها الصغيرتين اللمّاعتين من طفل إلى طفل ، وتستعرض حياة كلّ واحد وحياة أبيه وأمّه... ثمّ تستعرض حياتها هي منذ أن تزوّجت حتّى هذه الساعة.

«اسم الله حوله!» قالت الخوريّة ذلك وهي تخاطب نفسها ، وطفت على شفتيها ابتسامة. إنّها تتذكّر عمادة هذا الصبيّ قبل ثماني سنوات ، العمادة الأولى التي قام بها بونا غسطين بعد أن سيم كاهنًا وأصبح راعيًا للقرية. تتذكّر أيّ فرح شعرت به في ذلك اليوم وأيّ غصّة معًا. الفرح لأنّ بونا غسطين يقوم بأوّل سرّ من الأسرار المقدّسة في حياته الكهنوتيّة. والغصّة لأنّها قالت في نفسها: لماذا لم يرزقني الله ولدًا مثل هذا الولد ليدشّن بونا غسطين كهنوته به؟ لماذا رزق امرأة طنّوس الجابي ولم يرزقني أنا؟

والخوريّة تتذكّر أنّها في ذلك المساء – عندما عاد خوريّها إلى المنزل وأخبرها أنّ طنّوس الجابي أعطاه ليرتين ليصلّي بهما إلى مار يوسف ليطيل عمر طفله الجديد الوحيد – تتذكّر أنّها تسلّمت الليرتين من يد بونا غسطين ونظرت إليهما طويلًا ، طويلًا. ثمّ مالت بوجهها فإذا عيناها تترقرقان بدمعتين كبيرتين. ففهم بونا غسطين ما يجول في نفسها فاحتضنها وقبّلها على جبينها وقال:

– لا تيأسي يا أمّ حسّون. صلّي إلى الله. إنّ الله سيسمع صلاتك ويرزقنا ولدًا.

ومرّت الشهور ، ومرّت السنون... تُرى ، لماذا لم يستجب الله صلاة الخوريّة؟ مع أنّها تصلّي بحرارة وإيمان. وكثيرًا ما تخرج إلى ساحة الكنيسة فتلتقط منها حفنة من الحصى وتضعه تحت ركبتيها على البلاط وتجثو عليه حتّى يسيل منهما الدم. تفعل كلّ ذلك تقشّفًا وإماتة ، رجاء أن يأتي شهر من الشهور فتلتفت فإذا أحشاؤها مقفلة على ولد.

وكانت تتابع استعراض الأولاد في الموكب الدائر أمامها في الكنيسة: هذا فيكتور بن مارون الفوّاز – والخوريّة تقول بكتور – يركب على كتفَي عمّه ،

ويرفع رجله ليدوس بها رأسه ، والعمّ يضحك له .

بكتور! قالت الخوريّة ذلك بصوت عالٍ ، ثمّ ظهرت على وجهها نصف ضحكة استهزاء بهذه الأسماء التي ظهرت بعد الحرب في القرية ، وليس أحد من القدّيسين يحمل اسمًا منها . بكتور أصبح في الخامسة من عمره ؛ وهو يلبس طقمًا إفرنجيًا مقلّمًا بالأحمر ، والآخرون يلبسون كلّهم القنابيز . والأولاد ينظرون إليه ، يحسدونه على طقمه ، ويسألون أهلهم لماذا لا يكون لهم ، هم أيضًا ، طقم إفرنجيّ مثله؟ ... بكتور! كم هو جميل في طقمه ، وكم هي فخورة أمّه وهي تمشي خلفه ، وكم هو فخور أبوه وهو يمسك بيده وبالشمعة! هو ابن أغنى أغنياء القرية . أبوه مارون سافر إلى أميركا وجمع ثروة طائلة وعاد إلى القرية فتزوّج وبنى له بيتًا من القرميد – البيت الثاني من القرميد بعد بيت الشيخ .

«أغنى أغنياء القرية!» تتمتم الخوريّة وتهزّ كتفيها . أما يقول المسيح حقًّا حينما يقول في إنجيله الذي يتلوه بونا غسطين كلّ صباح في الكنيسة : «أسهل للجمل أن يدخل في سمّ الإبرة من أن يدخل غنيّ ملكوت السموات؟» إنّ الخوريّة تتذكّر عمادة بكتور ، هنا ، أمامها ، في هذه الكنيسة ، وعلى هذا الجرن . لقد تفضّل مارون الفوّاز ، أغنى أغنياء القرية ، لابس الطقم الإفرنجيّ ، وصاحب البيت القرميد ، ففتح محفظته الملأى وأعطى بونا غسطين ليرة واحدة! وطنّوس الجابي ، النجّار الفقير ، أعطى ليرتين!

وهذه هيلانة ابنة جرجس الكلّاس . يا لها من طفلة كالملاك! كهذه الملائكة الصغيرة ، الشقراء ، السمينة ، التي تنزل من السماء بين الغيوم في صورة مريم العذراء – عليها السلام – المعلّقة على جدار الكنيسة الشرقيّ . مثل الملاك في فسطانها الأبيض الناصع ، وفي عينيها الزرقاوين ، وفي عنقها العاجيّ ، وفي ذراعيها العاريتين . على شرط أن لا تبقى هاتان الذراعان عاريتين عندما تكبر هيلانة! إنّ بونا غسطين يعقد حاجبيه ، ويرفع سبّابته ، ويخفض عينيه إلى الأرض ، آمرًا كلّ فتاة لا تخاف الله أن تخرج حالًا من الكنيسة . ألم يفعل هكذا بابنة ذلك المصطاف في السنة الماضية؟ مع أنّ والدها رجل عظيم وله كلمة في الحكومة . ولكنّ الخوريّة قالت له : عافاك يا بونا غسطين! عافاك!

«لماذا لم يتركني بونا غسطين أذهب لزيارة مار عبدا؟» ونظرت الخوريّة إلى أمّ هيلانة . أمّ هيلانة لم تحبل في السنتين الأوليين لزواجها . فذهبت وزارت مار عبدا المشمّر حافية القدمين . ورجعت إلى القرية وقد أحسّت في أحشائها شيئًا بحجم الليمونة! لأنّ مار عبدا المشمّر – عليه السلام – قدّيس اختصاصيّ بمعالجة العقم . ولكلّ قدّيس اختصاصه ، كاختصاص مار مطانيوس البادواني بالعثور على المفاتيح الضائعة . ولكنّ بونا غسطين لا يزال حافظًا في قرارة نفسه شيئًا ، ليس من الكفر ، بل من قلّة الإيمان التي كانت ترافقه قبل أن يصير كاهنًا ، فمنع الخوريّة من زيارة مار عبدا . ويُقال إنّه منعها لسبب آخر أيضًا ، هو أنّ في مار عبدا رهبانًا يستقبلون العواقر ، وهو يغار ...

وقد جرّبت الخوريّة أن تستعين بالبدويّات وبحشائشهنّ . فانتهزت فرصة ذهاب بونا غسطين ذات يوم إلى كرسيّ المطرانيّة وتناولت من بدويّة حشائش وبخورًا ، فغلت الحشائش وشربت ماءها ، وأحرقت البخور وقفزت فوقه ثلاث مرّات في الصباح ، وثلاث مرّات عند الظهر ، وبقيت عليها الثلاث عند المساء . ولكنّ بونا غسطين جاء على بغتة فاضطُرّت أن تخفي كلّ شيء ، وأن تدوس البخور بقدميها الحافيتين وتحرقهما خشية أن يدري فيغضب ؛ لأنّه بهذه الأشياء أيضًا لا يؤمن .

وهذا فؤاد بن ضاهر الرميلي ، يحمله جدّه بين ذراعيه سعيدًا به . وفؤاد يرسل يديه الصغيرتين إلى شاربَي جدّه ويشدّ بهذا الشارب ثمّ بذاك ويضحك ، وجدّه يضحك له . إنّ الخوريّة تتذكّر عرس ضاهر والد هذا الطفل ، قبل أربع سنوات ، وكيف لا تتذكّر

وقد كانت إشبينة العروس؟ وكانت العروس فخورة بهذه الإشبينة ، لأنّ الخوريّة لا تمنح هذا الامتياز لأيّ فتاة.

مسكين فؤاد! إنّه جميل! جميل جدًّا وهو بين ذراعي جدّه يضحك ويعبث... لو لم يكن أعرج. لا أحد يعلم لماذا يعرج هذا الصبيّ؟ ولم تنفع في عرجه رباطات العمّ ولا أدهنته. والعمّ هو طبيب القرية الخاصّ: رجل أشرف على الستّين من العمر، يجبر الكسر كلّما وقع قرويّ عن صنوبرة ، ويضمّد الجرح كلّما نطحت بقرة فلّاحًا ، ويشفي الأمراض والأوجاع مهما كانت ، وهو لم يتعلّم في مدرسة حرفًا ، وليس عنده شيء من آلات الطبّ ولا من وصفات الأطبّاء. ولكنّ الأهالي يؤمنون به... وقد نصح بعضهم ضاهر أن يأخذ ابنه إلى بيروت فأبى ، لأنّ كلّ من في القرية يعتقد أنّ من ينزل إلى بيروت من مرضاهم لا يرجع إلّا محمولًا إلى القبر!

ولم تنفع في عرج فؤاد النذور أيضًا.

والخوريّة تحبّ فؤاد ولو كان أعرج. تنظر إليه وتحني رأسها على كتفها إشفاقًا.

«أعرج! ولكنّه ولد». قالت الخوريّة ذلك وتمنّت في قرارة نفسها لو يرزقها الله ولدًا ، ولو أعرج!

وهذه نجلا امرأة حنّا غراز ، تطوف مع الموكب وليس لها ولد. هي حامل الآن. بطنها - اسم الله! - قدّامها. تمشي بخطى بطيئة وتبكي ، لأنّ نجلا رزقها الله ولدًا كان مثل التفّاحة ، وكان في الشهر السادس - كما لا تزال أمّه تخبر عنه بلوعة وفخر مجتمعين - كان في الشهر السادس يمدّ يديه إلى رباط السرير في الليل ويفكّه وحده ويزحف إليها متلمّسًا صدرها ليرضع!

إلى أن كان ذات يوم ، فتبدّل هذا الصبيّ تبدّلًا فجائيًّا. كان في الصباح مثل الفرفور يقفز ويلعب ويناغي ، فلمّا كان المساء امتقع لونه وهبط هبوطًا بين يدَي والدته... هي أمّ إبراهيم أصابته بعينها! لها عين مثل المخرز ، «عين بلقاء». مرّت عند الظهر ، ورمت على الصبيّ نظرة - الله ينجّينا! - وأيقنت نجلا ، عندما رأت أمّ إبراهيم تمرّ من أمام بابها وتسألها «أهذا ابنك؟ صار شابًّا!» ولم تذكر اسم الله ، أيقنت نجلا أنّ شرًّا سيحلّ بالصبيّ لا محالة. وتحقّق ظنّها. ولمّا خلعت نعليها وحملت الصبيّ مثل المجنونة إلى الكنيسة ، ووضعته عند المذبح وصاحت: يا مار يوسف ، أنذر هذا الصبيّ كاهنًا للربّ شرط أن تشفيه ، كان قد فارق...

تتذكّر الخوريّة الجنازة أيضًا. وضعوه في صندوقة خشبيّة وحملوه إلى الكنيسة ليصلّي عليه بونا غسطين. كانت الخوريّة تودّ أن تفتح هذه الصندوقة لترى الطفل ميتًا ، ولكنّ بونا غسطين منعها.

«لماذا لم يرزقني الله ولدًا؟» قالت الخوريّة ذلك مخاطبة نفسها وهي تنظر إلى نجلا الحامل تمشي في الموكب وقد جفّ دمعها. «لماذا لم يرزقني الله ولدًا؟.. ولدًا يموت بعد ستّة أشهر»! إنّ الخوريّة ، لو تمّ لها ذلك ، لأنقذت نفسها من عار العقم على الأقلّ.

«لماذا لم يرزقني الله ولدًا مثلما رزق نجلا؟ ولكنّه لن يموت! لا. لا! لن يموت! أصدّ عنه عين أمّ إبراهيم الشرّيرة. أضعه في غرفتي ، في فراشي ، أنام معه ، أطعمه بيدي ، أحرسه بسياج من نفسي. أقول لبونا غسطين أن يذهب بنفسه إلى الكرسيّ ويقصّ على المطران الحكاية كيت وكيت ويقول له: هذه المرأة ، أمّ ابراهيم ، فيها شيطان ، تقتل الأولاد بعينها البلقاء ، وتجعل البقرة يجفّ حليبها بنظرة واحدة ، كما فعلت ببقرة كريم لاتي وكانت تحلب كلّ يوم أربعة أرطال. والمطران يحرمها ويبعدها من القرية... لا. لا. لن يموت! كم هو جميل! هو في سريره يناغي ، ينظر إلى أمّه - يا حبيب أمّك! - يبتسم لها ، يشدّ بيده من تحت الرباط ، يريد أن يفلت منه. ماسور منذ المساء... إنّه يبكي. لا تبكِ يا حبيبي. ما حلّ بك؟ أتريد أن تأكل؟ لا تبكِ. لا تبكِ... أأنت موجوع؟ أين الوجع؟ قل لي ، قل... يا بو حسّون ، تعالَ إلى

الصبيّ ، يا بونا غسطين ، اجلب صورة العذراء... ها ها ، هكذا ، هكذا. اِبتسم ، اِبتسم يا حبيبي. هاتِ يا بو حسّون ماء مصلّى عليه ، ورُشّ على هذا الصبيّ. أنا أخاف عليه. يا حبيبي ، أنت جائع. خُذ ثديي. اِرضع ، اِرضع ، اِرضع أيضًا...».

وصلت الخوريّة إلى هذا الحدّ من الاسترسال في حلمها ، وكانت قد تراخت على كرسيّها ، وانحنى صدرها على حافّته كأنّه منحنٍ على مهد ، وسقطت طرحتها عن وجهها فأصبح طرفٌ تحت قفاها ، وطرف تدوسه على البلاط ، ونزلت شعرات سود ، بينها بعض شعرات بيض ، على جبينها وغطّت حاجبها... وجمدت عيناها تنظران ولا تريان.

وإذا بصوت وراء ظهرها :

– إحم ! إحم ! أمّ حسّون !

فرفعت الخوريّة رأسها المثقل ، وحوّلت عينيها إلى صاحبة الصوت فإذا بها أمّ إبراهيم ! وإذا بأمّ إبراهيم تضع كفّها على فمها وتخنق قهقهة عريضة : قـ. قـ. قـ.

فلم تنبس الخوريّة ببنت شفة ، بل قامت عن مقعدها واخترقت الحاضرين ، تدفعهم بيديها بعنف ، وتدوس الأطفال بقدميها وهي لا تحسّ ، وركضت إلى السكرستيّا. ورآها بونا غسطين فوقف مشدوهًا ، ووقف الجميع وقفته ينتظرون... كما وقفت الشمعات المزيّنة بالحرير وأغصان الزيتون عن الدوران – وعجب الأطفال لماذا وقف بهم أهلهم هذه الوقفة – وقد همّ بونا غسطين أن يلحق بالخوريّة إلى السكرستيّا ليعلم ما بها ، ولكنّ الخوريّة سبقته. وها هي تعود ، لا طرحة على وجهها ، منبوشة الشعر ، في يدها شمعدان كبير ترفعه إلى العلاء ، ثمّ تنزل إلى ساحة الكنيسة فتدفع هذا وتدوس ذاك –كما فعلت عندما خرجت– وتدور ممسكة الشمعدان المنطفئ... تدور ، تدور ، رافعة إلى الشمعدان عينيها الجاحظتين ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة هائلة...

حنّـــون

من مآسي الحرب الكبرى

الذين يرتادون حيّ الزيتونة في بيروت يعرفون جيّدًا ذلك الرجل الذي يملأ المقاهي جيئة وذهابًا ، يتنقّل من مائدة إلى مائدة ، ويُدخل يده في الطعام بلا كلفة ولا استئذان.

هو حنّون.

كلّما ناداه أحد باسمه أغرق في الضحك ، وأقبل برأس كثير الشعر ، منبوشه ، محدّد كريش القنافذ ، يظلّل وجهًا محمرًّا ، وعينين مصابتين بالرمد المزمن ، وفمًّا يتلمّظ بالهواء.

يغطّي رأسه بقبّعة مثقوبة حينًا ، ويتركه مكشوفًا أحيانًا. ويطيب له أن يغيّر قيافته ، فبينما تراه في البنطلون الإفرنجيّ إذا به يأتيك بعد قليل بالشروال مع زنّار له أحمر أو أصفر.

أمّا لسانه فتعدّد اللغات : الفرنسيّة والإنكليزيّة والإيطاليّة. كلّ لغة يعرف منها كلمة أو كلمتين ، ويخلط بعضها ببعضها ، ويدور على المتنزّهين والمتنزّهات سلوى لهم وقتل ضجر.

على أنّ اسمه الحقيقيّ ليس حنّون بل حنّا. وإذا أردت أن تعرف كيف صار حنّا حنّون فاسمع إلى هذه القصّة.

* * *

نسي الناس أهوال الحرب الكبرى بسرعة مدهشة. قفزوا فوق قناة صغيرة من الموت جوعًا على الطرقات إلى بسطة من الحياة وبحر من الملذّات ، ولم يبقَ واحد منهم يلتفت إلى الوراء إلّا حنّون ، فما يزال ماضيه حاضرًا ، وبدلًا من أن يبكي ، يكثر من الضحك كأنّما هو يهزأ بالدنيا التي هزأت به كثيرًا.

لاقت بيروت في خريف ١٩١٧ ضيقًا عظيمًا. جاءها ذلك من جماهير الجائعين الملتجئين إليها من أنحاء البلاد فتحوّلت إلى بؤرة من الأمراض والأقذار. وكان الموت يرفّ عليها بجناحيه ، له يدان ملوّثتان دائمًا بالفرائس ، فائحتان برائحة النتن.

وكان حنّا إسكافيًّا ، وله عائلة صغيرة مؤلّفة من أب شيخ ، وزوجة ، وولد صغير. كسدت صناعة الأحذية. هل يفتّش عن الحذاء الجائعُ الذي يزحف على قدميه ويديه وكبريائه إلى كسرة خبز؟

لم يستطع الوالد المسنّ الاحتمال كثيرًا. كان حنّا يحبّه وكان يريد أن يطعمه ، ولكن ماذا يفعل؟ ماذا يفعل والبيت لا يدخله في اليوم أكثر من رغيفين أو ثلاثة أرغفة ، لا من القمح – لأنّ القمح كان عزيزًا جدًّا – بل من ذرة وشعير. مسكين ذلك الوالد إذا أعطوه شيئًا أكله ، وإذا لم يعطوه بقي في الزاوية ملتويًا على نفسه ، صامتًا ينتظر الموت. وكان ذا قلب رقيق ، وهذه الرقّة

هي التي قتلته ، لأنّه في اليوم الذي مات فيه كان قد أعطى حفيده الياس حصّته من الطعام قائلاً :

– كُلْ يا ابني فأنت في حاجة إلى الحياة.

وكان الياس في الثامنة من عمره.

باع حنّا كلّ ما يُباع من أثاث بيته بأبخس الأثمان : باع السجّاد ، باع الكراسيّ ، باع الأسرّة ، باع كلّ شيء. نوافذ البيت خلعها وباعها ليردّ غائلة الجوع. حتّى البيت نفسه باعه من جاره الغنيّ يوسف بك. وكان هذا الغنيّ معروفًا بـ «البيك» فيقولون جاء البيك ، وراح البيك. وكان يشتري البيوت الواحد تلو الآخر ببضعة أرطال من الطحين.

وكان للغنيّ ولد في العاشرة من عمره ، مدلّل ، مرفّه ، يلبس الملابس الجميلة ويأكل الطيّبات ، وينزل إلى الشارع فيسبّ الأولاد ويضربهم ، فما يجرؤ أحد على التعرّض له – ابن البيك !

وكان الأولاد يتجمّعون حول ابن البيك بالعشرات ويتحمّلون منه كلّ شيء لقاء ما يرميه إليهم من فضلات مأكله ، كالكلاب يحومون حول عظمة.

ذات يوم جاع الياس جوعًا شديدًا ، فوقفت أمّه أسماء تبكي حائرة من أين تأتيه بما يسدّ جوعه. وكان أبوه قد خرج إلى السوق لعلّه يجد شيئًا. فوقفت الأمّ تهزّ برأسها وتنظر إلى فلذة كبدها يرتمي على الأرض ويصيح :

– أريد أن آكل ! أنا جوعان ! أريد أن آكل !

وكانت عظام وجهه بارزة ، ورجلاه كالقصبتين الفارغتين. فدنت منه وعانقته وأرشدته إلى ابن البيك أن يذهب إليه لعلّه يطعمه شيئًا. فقام الياس وجرجر نفسه متّجهًا إلى قصر الغنيّ القريب ، وبقيت أسماء على الباب ترافقه بعينيها الدامعتين وهي تعضّ إصبعها.

وكان ابن البيك يلعب حسب عادته في حديقة قصر أبيه بين غزالين يقفزان من حوله ، وطاووس يبسط ذنبه المزركش ، وديك حبشيّ يزهو بعنقه الطويل وريشه المنفوخ ، ودجاجات سمينة تلتقط الحبوب عن الأرض.

الدجاجات تشبع ، وابن آدم يموت جوعًا !

الدجاجات تشبع في ذلك القصر ، والغزلان والطواويس وديوك الحبش والكلاب والقطط تملأ أجوافها وتترهّل بالشحم واللحم. وهنا ، حوالى القصر ، من أمامه وورائه ، وعن شماله ويمينه ، مئات من البشر يتكدّسون على حافّات الطرق في أسمال بالية ، والقمل يسرح عليهم قوافل ويزحف على الأرض جيوشًا. بعضهم ينبطح على طوله ، والبعض الآخر يقعد القرفصاء. يتكدّسون في مستنقعات أقذارهم ، أجسامًا هزيلة وأمعاء فارغة تصفر ، شيوخًا وشبّانًا ، نساء وأطفالًا ، مورّمي الأرجل ، بارزي العظام ، أحياء ينتظرون الموت ، وجثثًا هامدة لا تنتظرها جنازة ولا تابوت.

الجوع يفتح عيونهم فتحات عميقة كالآبار ، ولكنّها عيون تنفتح ولا ترى. عيون لا تصلح إلّا للبكاء. القصر يبتلع بيوتهم ، وربّ القصر يستبيح أعراضهم لقاء كسرة من الخبز. وهم يتكدّسون حوالى القصر وتحت قدمَي ربّ القصر ويموتون ذلًّا.

ميتة لم تمتها حشرة في الأرض !

... حينما مدّ الياس يده الناحلة المرتجفة إلى ابن البيك وخفض رأسه على كتفه جاء ابن البيك إلى درابزون الحديقة وقال له :

– أتريد أن تأكل؟ إنتظرني.

ثمّ ركض صاعدًا على الدرج الرخاميّ ، فجاء برغيف أبيض أحمر ما كاد الياس يراه حتّى سال لعابه وفتح عينيه عليه وأشرق وجهه استبشارًا ، ودنا من الدرابزون باسطًا كفّه من بين حديده وباسطًا روحه على هذه الكفّ. فأقبل ابن البيك نحوه وقال بابتسامة لها معنى :

– هذا الرغيف لك.

فلم يصدّق الياس ما يرى ويسمع ، وأخذ قلبه يدقّ دقّات متدافعة ، وكانت كفّه ما تزال مبسوطة ، فقرّب ابن البيك الرغيف إليه ، وما كاد حتّى أبعده

صاحكًا وقال :

– أعطيك الرغيف بشرط ...

ثمّ مزّق الرغيف قطعًا صغيرة وأخذ يدور في الحديقة. فتعجّب الياس من حركاته ولم يفهم ماذا يريد ، حتّى عثر ابن البيك على براز دجاجة ، فأخذ كسرة خبز وجعلها كالملقط كيلا يوسّخ أصابعه ، وحشاها بالبراز ، وقرّبها وقال :

– خُذ وكُلْ. أعطيك اللقمة محشوّة. أتريد؟

فتناول الياس اللقمة فالتهمها وتلمّظ كأنّها محشوّة بالحلوى !

– أتريد أيضًا؟

– ماذا تربح إذا حشوتها؟ أعطني إيّاها هكذا كما هي.

فحملق ابن البيك وسبّ الياس وأباه وأمّه وقال له :

– لن أعطيك شيئًا !

ورمى قطع الخبز للكلب الذي كان في الحديقة مربوطًا إلى جانب كوخه ، والياس يرافقها بعينين متوسّلتين ، ولمّا مدّ الكلب فمه إليها أحسّ بأنّه يمدّه إلى قلبه ليفترسه.

ولكنّ الكلب كان متخمًا باللحوم ، فما لبث أن حوّل وجهه. فعاد ابن البيك إلى الياس وقال له :

– أتريد أن تأكلها محشوّة؟

فأجابه بالقبول. فالتقطها من الأرض وأخذ يفتّش عن براز الدجاج في الحديقة ويحشو اللقمة بعد اللقمة ويدفعها إلى الياس ، حتّى أتى على الرغيف. وتمنّى الفقير الصغير لو كان هنالك عشرة أرغفة أيضًا ، إذن لأكلها كلّها محشوّة. ولكنّ ابن البيك قال له :

– اليوم أخذت نصيبك. تأتي غدًا فأطعمك رغيفًا آخر.

* * *

كان الياس يأتي كلّ يوم عند الظهر ، فيقف على درابزون الحديقة ويتناول من ابن البيك اللقمات المحشوّة ببراز الدجاج سعيدًا. حتّى رآه يوسف بيك مرّة فعرفه فناداه باسمه. وكان يوسف بيك يدخّن نارجيلته أمام الفسقيّة ، واضعًا رجلًا فوق رجل ، فدخل الياس من باب الحديقة خائفًا من الكلب الرابض عليه. وكان خوفه صادقًا ، فإنّ الكلب أخذ ينبح محاولًا نهشه. فقطّب يوسف بيك جبينه وأمر ابنه أن يقود الكلب ويربطه بالكوخ.

حينئذ تابع الياس خطواته الحذرة ، مسترقًا النظر إلى الحيوانات السارحة حواليه. ولمّا أصبح على مقربة من يوسف بيك وقف خافضًا رأسه ، فقال له الغنيّ :

– اِذهب إلى أمّك وقل لها : البيك يريد أن تأتي إليه ليعطيك خبزًا.

ما كاد الصبيّ يسمع لفظة الخبز حتّى طار طيرانًا إلى البيت وأوصل الرسالة إلى أمّه.

كانت امرأة حنّا من النساء الجميلات ، وكانوا يلقّبونها وهي عازبة بالسمراء ، فلمّا سمعت ما نقله إليها ابنها عن لسان البيك قفز قلبها ...

ولكنّها قالت في نفسها : من يدري؟ ربّما حنّ قلبه على هذا الطفل !

وكانت أسماء متعبّدة لمريم العذراء تصلّي لها في كلّ صباح ومساء ؛ وكانت صورتها المقدّسة فوق مخدّتها ، فذهبت وجثت أمامها وأخذت تصلّي مرّتين «السلام» ومرّة «أبانا». ولمّا وصلت إلى هذه العبارة «نجّنا من الشرّير» ردّدتها ثلاث مرّات : «نجّنا من الشرّير ! نجّنا من الشرّير ! نجّنا من الشرّير ! آمين».

وصنعت إشارة الصليب ، وأرخت طرحتها على وجهها وأمسكت ابنها بيدها وذهبت قاصدة إلى قصر يوسف بيك. وما هي حتّى انقلبت غاضبة ، تجرّ ابنها وراءها جرًّا ، وهو يبكي ويسأل أمّه :

– قال لي البيك إنّه سيعطيك خبزًا. فلماذا لم تأخذي؟

وكان يصرخ صراخًا عاليًا. ثمّ ارتمى على الطريق يفحص الأرض برجليه ويديه ويمرّغ بها وجهه.

فانهالت عليه أمّه بالصفع دون رحمة فآلمته. ثمّ جرجرته حتّى وصلت إلى البيت – وكان حنّا لا يزال غائبًا – فألقت نفسها على كرسيّ يائسة، محطّمة.

بدأ الغنيّ انتقامه بأن منع ابنه من التصدّق على ابن أسماء حتّى باللقمات المحشوّة ببراز الدجاج. وأرسل إلى أسماء – لا إلى زوجها – إنذارًا بوجوب إخلاء البيت خلال خمسة أيّام بحجّة أنّه ملكه اشتراه بخمسين ليرة تركيّة. وإذا كان قد تركهم فيه ثلاثة أشهر فرحمة منه، وللرحمة – كما لكلّ شيء – حدّ.

تورّم الياس من الجوع وانطرح في البيت يئنّ. وأحسّت أمّه بأنّ الورم يهدّدها هي أيضًا من ساقيها. من أين الطعام؟ لقد أكلوا حشيش الأرض الذي تأكله الحيوانات، أكلوا ورق التوت، أكلوا قشر الليمون وعجو الإيكي دنيا... وأمسكوا هرّة في الطريق فذبحوها وطبخوها. والجوع ما يزال يهجم بأظافره السوداء.

– أريد أن آكل. إنّني أموت يا أمّي! لماذا لا تقبلين الخبز من جارنا البيك؟ أنت تريدين أن تميتيني. تريدين أن تميتيني!

فانطرحت الأمّ فوق ولدها تحتضنه وتبكي، وهو يئنّ بلا انقطاع. وكأنّ هذا الأنين المتواصل بنغمة واحدة خدّر إحساسها فجفّت دموعها على الخدّين واستسلمت للهواجس. رأت الياس جثّة منتفخة، هامدة، ورأت نفسها نابشة شعرها فوقه تناديه فلا يجيب، ورأت الجنود يأتون بالمحمل ويهجمون عليها وينتزعون وحيدها من بين ذراعيها، هي تشدّ به وهم يشدّون، حتّى تغلّبوا عليها ووضعوه في المحمل وذهبوا به يدفنونه... يرمونه في حفرة على رمال الشاطئ، شأنه شأن عشرات الأطفال والرجال والنساء الذين ينقلون جثثهم كلّ يوم.

ثمّ رأت نفسها أمام المرآة تسوّي شعرها وتركّز طرحتها على جبينها الأسمر. ما تزال جميلة بالرغم من هزالها وبالرغم من طلائع الورم. إنّ صدرها قد جفّ وارتخى ثدياها. لا بأس، العينان ما تزالان كحلاوين والفخذان ما يزال فيهما لحم. ها هي تترك ولدها في البيت، تخرج من الباب وتغلقه عليه برفق. لن تطيل الغياب. ربع ساعة. اِنتظر يا الياس! اِنتظر قليلًا! لا تبكِ. لا تئنّ من الجوع. ستأكل وتشبع. أنت صغير. أنت لن تموت. أنت للحياة. ستحيا. أنت مصيب فيما قلت. لماذا ترفض أمّك الخبز من يوسف بيك؟ لقد أخذ يوسف بيك البيت من أبيك وسيأخذ ما يريد من أمّك. ولكن لن يأخذك الموت. انتظر ربع ساعة فقط!... ما هذا الجسد الذي ستأكله الديدان. فلتأكله ديدان وجه الأرض قبل أن تأكله ديدان بطنها! ما الفرق بين هذه وتلك؟ أمّك تبذل ربع ساعة من حياتها – ربّما أقلّ! – تستطيع أن تنجّيك بها من الموت وتنجّي أباك أيضًا. أمّا هي فلا فرق لديها بين الموت والحياة. بل الموت خير لها من الحياة. لا تبكِ. لا تئنّ... أنت جائع! اِنتظر قليلًا. الخبز سيأتيك هذه المرّة لا من ذرة وشعير، ولا محشوًّا ببراز الدجاج. سيأتيك خبز البيك الخاصّ، الخبز الأبيض الأحمر. ستأكل، كما يأكل ابن البيك، الحلو تحت ضرسك والرطب والشهيّ. لا. أمّك لا تريد لك أن تموت. لا تريد! لا تريد!... أليس أمر حياتك في يدها؟ أمّا الشرف، أمّا العفاف، أمّا الأمانة الزوجيّة. أمّا الله! ها! ها! ها! – غفرانك يا الله! – أتراه يمسك دفتره في أعالي السماء يدوّن فيه ما يجري على الأرض؟ أيحصي خطوات أمّك أيّها الطفل؟ أيأخذ قلمه ويكتب أنّها ذهبت إلى قصر الغنيّ وأنّه هشّ لها وبشّ، وفتل شاربيه وتناولها بين ذراعيه؟ إنّه يكتب في دفتره أنّ يوسف بيك خلا بأسماء امرأة حنّا ربع ساعة. بل اثنتي عشرة دقيقة بالضبط. أصحيح؟ أصحيح أنّه يكتب في دفتره اسم أسماء ثمّ يغلقه لكي يفتحه يوم النشر ويقول لها: إلى جهنّم! ويرجمها بالحجر الأوّل؟... إنّه إذن يخلق النسمة للخنق لكي يلهو بما يخلق، كالطفل بدمية من طين...

خرجت أسماء من قصر الغنيّ وقد شيّعها إلى الباب كما استقبلها بابتسامة وفتلة شارب ، وقال لها :

–كلي واشبعي أنت ، قبل زوجك وابنك ، لكي يمتلئ صدرك !

فلم تجبه ولم تلتفت. مشت تشدّ تحت إبطها ستّة أرغفة ، تسرع في المشي ما استطاعت لتصل إلى وحيدها ، لتتداركه قبل أن يموت. كان رأسها يغنّي كأنّها أُصيبت بدوار ، وقدماها ترتجفان حتّى كادت تقع على باب القصر. ونبح كلب القصر عليها فاستيقظت بعض الشيء وعاد إليها بعض قواها ، فتحدّت الكلب بنظرة وحشيّة وتابعت طريقها.

وكان حنّا قد رجع إلى البيت في غيابها وسأل الياس عن أمّه فقال :

– أمّي ذهبت عند يوسف بيك تجلب خبزًا.

واعترف الصغير بكلّ شيء لوالده. اعترف له بأنّ ابن البيك قطع عنه اللقمات المحشوّة ببراز الدجاج لأنّ أمّه لا تذهب إلى القصر ، وبأنّ ربّ القصر قال لها في المرّة الأخيرة إنّه سيطردهم من البيت إذا لم تزره ، وإنّها إذا أطاعت أعطاها خبزًا كثيرًا.

وكان الياس يدلي بهذه التصريحات البريئة فرحًا لأنّ أمّه ستعود إليه – كما وعدته – بالمآكل اللذيذة ، ولم يكن يلحظ على والده شيئًا من آثار هذه التصريحات ، بل لم يكن عارفًا من الحياة – من مشاكلها وأسرارها وأقذارها – إلّا أنّه جائع وأنّ أمّه ستأتيه بما يسدّ جوعه.

أمّا حنّا فقد أصغى إلى كلام ابنه إصغاء فتح له أذنيه وعينيه وكلّ جوارحه ، فانتابته هزّة هائلة ، وصعد الدم إلى رأسه يغلي فيه ويفور.

ولمّا وصلت زوجته إلى الباب رأته مفتوحًا ، فدخلت تنادي :

– الياس ! الياس !

فإذا بحنّا ينتصب أمامها كالعمود ، يحدّق إليها ويحاول أن يقرأ على وجهها. ثمّ أمسك بذقنها ورفعه على إبهامه ، وكشّر عن أسنانه ، وصاح :

– من أين هذا ؟

وضرب الأرغفة المحزومة تحت إبطها ضربة ، فوقعت الأرغفة على الأرض. ضربة اشمئزاز واستهزاء ، ويأس وهول... وما كادت أسماء ترفع عينيها إليه وتتحرّك شفتاها حتّى انقضّ عليها كالوحش الضاري ، وطرحها أرضًا فجاءت على ظهرها وأحدثت السقطة رجّة عظيمة على الأرض. فأخذ الياس يصيح باكيًا وزحف لنجدة أمّه أو لالتهام الأرغفة المنثورة حولها ، من يدري ؟ ولكنّ حنّا كان قد رفع السكّين الذي هيّأه قبل دخولها وطعنها في صدرها الرخو طعنة واحدة ، فصاحت صيحة عظيمة وضربت بيدها على السكّين ، ثمّ تململت غارقة في الدماء ، وانفتحت لها عينان كبيرتان ، مخيفتان ، تلمعان كالزجاج على الشمس.

ظلّت الجثّة ستّة أيّام في مكانها حتّى أنتنت فدلّت عليها رائحتها ، فجاء أصحاب المحمل ونقلوها إلى حفرة بين الحفر على شاطئ البحر. ونقلوا معها جثّة الياس الذي كان مستلقيًا على حضن أمّه مصبوغًا وجهه بالدم الجافّ ، وعاضًا بأسنانه البارزة طرف الرغيف الأخير.

وأمّا حنّا فقد توارى عن العيون حتّى وضعت الحرب أوزارها ، فعاد إلى الزيتونة مجنونًا. ورأى الناس جنونه فأصبحوا ينادونه : حنّون.

وحنّون كلّما سمع اسمه أخذ في القهقهة. فإذا لم يجد من يناديه نادى نفسه :

– حنّون ! يا حنّون !

ثمّ يقهقه... حتّى البكاء.

الأرملـــــة

«... وامرأتي تحبّني لأنّني قويّ»
أغنية ألمانيّة

كانت العاصفة تدور حول المنزل الأبيض الفخم ، القائم وسط حديقة جميلة في رأس بيروت ، دورات مخيفة ، وتصفر صفيرًا أشبه بحزّ الحديد على الحديد. وكان المطر يهطل دفعات كبيرة ، ثمّ ينقطع فجأة ، فيكتسي زجاج النافذة الغربيّة في الغرفة غلالة من الضباب ، ثمّ ينزلق الماء عنه ويتحلّب ، تاركًا هنا وهناك قطرات صغيرة ما تلبث هي الأخرى أن تذوب ، فيدخل النور إلى الغرفة. حتّى إذا عاد المطر اكتسى الزجاج غلالته وسادت العتمة.

ليلة قاسية من ليالي كانون الثاني لم يعرف البيروتيّون مثلها في السنين السابقة. لذلك كانت هيلانة قد أشعلت الموقد وجلست تصطلي ، تنظر إلى النافذة حينًا ، وتتعهّد النار حينًا ، وتتذكّر المرحوم زوجها حينًا آخر. فإذا مرّ خياله في خاطرها أوقفته وجعلت تحملق في الجمرات الملتمعة أمامها في الموقد ، وجمدت دقائق طويلة...

وهيلانة أرملة منذ خمسة أيّام.

جاءت أختها من صيدا على أثر وفاة المرحوم ولبثت عندها أربعة أيّام تقول لها الأشياء التي تعوّد الناس أن يقولوها في التعزية ، وتعانقها ، وترتّب عنها البيت ، وتبكي معها. ثمّ سافرت في مساء اليوم الرابع بعد أن أوصتها أن تنسى ، وذكّرتها أنّنا كلّنا غلّة الموت ، وأنّ البكاء لا يقيم أحدًا من قبر.

وها هي هيلانة تحاول النسيان فلا تستطيع. بل هي في الواقع تحاول أن تتذكّر كميل ، فتستعيد في ذهنها ملامح وجهه ، وحركاته ، وكلماته. ومع أنّها عاشت معه خمس سنين ، فضلًا عن سنة تقضّت في الخطبة ، فهي تكاد لا تذكر من كلّ ذلك إلّا أشياء مبهمة ، كأنّه مات منذ خمس سنين ، وهي خمسة أيّام!

وعنّ للأرملة في ذلك المساء الصاخب ، الحزين في الخارج وفي نفسها ، أن تقوم إلى الخزانة فتبحث عن مجموعة الرسائل التي كان كميل يكتبها إليها في عهد الخطبة. فقامت إلى الغرفة المجاورة – الغرفة التي كانا ينامان فيها معًا – وما كاد بصرها يقع على سريره فارغًا حتّى عرتها قشعريرة انخلع لها قلبها من الذعر ، وزاد هذه القشعريرة البرد الذي كان منتشرًا في الجوّ ، فخُيّل إليها أنّ كميل هنا وراءها ، وأنه سينزع ثيابه ويرتمي على السرير... ثمّ خُيّل إليها أنّه ما يزال ملقى عليه جثّة هامدة ، بوجهه المصفرّ وشاربيه المرتخيين... ومدّت يدها إلى الخزانة لا تعرف كيف تفتحها لارتجاف أناملها ، وأخذت من الدُرج علبة صغيرة وعادت بها مسرعة إلى مقعدها بجانب الموقد وهي لا تجسر أن تلتفت إلى الوراء.

عشرات من الرسائل مكتوبة بخطّه الجميل على ورقات صقيلة ، متشابهة ، وعلى طرف كلّ ورقة صورة

وردة. ورق غراميّ خاصّ كان كميل ولوعًا به، وولوعًا بـالغلافات الزرقاء الفاخرة التي يضع فيها هذه الرسائل، وهي غلافات غراميّة خاصّة أيضًا. هذه رسالة يصف فيها حياتهما المشتركة بعد الزواج. وهذه يستعطفها فيها ويقبّل يدها. وهذه يصف لها فيها حلمًا مزعجًا رآه ورأى نفسه فيه يموت... وهو لا يريد أن يموت لأنّه يريد أن يكون سعيدًا، وأن يجعلها هي سعيدة. وهذه رسالة مملوءة بالشوق كتبها من الخارج عندما سافر في تجارته. وهذه رسالته الأولى! رسالته الأولى التي تحمل بوحه الحافل بالدمع وخفقان القلب. إنّ هيلانة تأخذها وتقرأ... ثمّ تتذكّر قبلته الأولى لها.

– أتسمحين لي أن أقبّل عنقك؟

ثمّ قبّل عنقها واحمرّ وجهه. تتذكّر الخطبة. تتذكّر العرس! وترى خلال السطور حياتها الماضية تفيق مشهدًا مشهدًا وتمرّ هنا، فوق الموقد، قافزة إلى هاوية الأبد...

وفجأة لمعت عيناها إذ وقعت يدها على ورقة مختلفة عن الورقات الأخرى. ورقة صفراء، مهلهلة، آثار ضغطها بين الأصابع ما تزال محفوظة، فتناولتها من العلبة وأهملت الرسائل الأخرى. وما كادت تفتحها حتّى عرفتها.

إنّها الرسالة التي لم تصل...

ولهذه الرسالة حكاية أخذت هيلانة تستعيدها في ذهنها وهي تقرأها، مرّة ومرّتين وثلاث مرّات.

كان ذلك قبل الزواج. وكانت هيلانة في الواحدة والعشرين من عمرها، وكان سعيد حطّام يحبّها. تزوّج سعيد بعد ذلك، بعد زواجها هي من كميل بسنتين. ولكنّه لم يستطع احتمال زوجته هنرييت، وهما اليوم منفصلان. أجل كان سعيد يحبّ هيلانة، وكانت هي تحبّه. كان بيته مجاورًا لبيتها. هي لا تتذكّر كيف تعرّفت إليه، ولعلّها كانت تراه كلّ يوم فلا تعيره اهتمامًا. حتّى كان ذات مساء فالتقاها في سهرة، وجرى حديث بينه وبينها على حدة، تجرّأ فيه كثيرًا وقال أشياء لم تسمعها هيلانة من شابّ قبله. تذكر أنّه قال لها بالحرف:

– إسمعي، يا هيلانة. ربّما كنت جميلة، ولكنّي لا أحبّك. فاعملي شيئًا لكي أحبّك!

إنّ هيلانة تتذكّر في هذه الساعة كلماته الغريبة، وتتذكّر هيئة وجهه عندما تلفّظ بها. كان وقحًا إلى درجة الإغضاب. كان يقول هذه الكلمات كما لو كان يقول، مثلًا، إنّ الطقس رديء وإنّه يتمنّى لو كان صحوًا ليقوم بنزهة. ثمّ ابتسم ابتسامة الواثق من أنّ المسألة مسألة وحيدة الطرف، فإذا أراد أحبّها واستسلمت هي إلى حبّه، وإذا أبى لم يكن بينهما شيء.

أحسّت هيلانة آنذاك نفورًا منه وغضبًا عليه، مع شيء – هل هو الخوف؟ – قبضها من قلبها. فلم تتجاسر أن تردّ عليه. وتناول الناس الذين كانوا في السهرة حديثًا عامًّا اضطرّ الاثنان أن يساهما فيه وينصرفا عن حديث الخلوة.

وكان لسعيد ما أراد. تغلّبت نظراته الملتهبة على هيلانة، فوقعت مرّة بين يديه فافترس قبلة من شفتيها بلا أيّ استئذان. وكان في ودّ هيلانة أن تقاوم فلم تقدر وسالت في عروقها عذوبة الاستسلام.

ذات يوم دعت صاحباتها إلى أكلة تبّولة، وكان لتبّولة هيلانة صيت في الحيّ. وحرصت على دعوة جارها سعيد. وجاء بعض إخوة الفتيات معهنّ، ومع الإخوة بعض أصدقائهم. فاجتمع في باحة الدار تحت شجرات الليمون أكثر من عشرين شخصًا بين ذكر وأنثى. وانفصلت الأخت عن أخيها، والأخ عن أخته، وذهب كلّ رفيق يفتّش عن رفيقة ينشل منها لقمة التبّولة. إلّا سعيد، لم يختصّ واحدة من الفتيات دون أخرى، بل أخذ يتنقّل بينهنّ، ينشل من هذه ومن تلك برشاقة له، ويلتهم اللقمة التهامًا حتّى سال ذقنه بالزيت والبقدونس والبرغل.

وعندما انتهت المأدبة دنت من هيلانة إحدى صاحباتها، ماري، وقالت لها:

– من هو هذا؟

وأشارت ماري بطرف عينها إلى سعيد. ولمّا انصرف المدعوّون تأخّر سعيد على الباب وقال لهيلانة :

– من هي هذه؟

وأشار بطرف عينه إلى ماري الماشية أمامه بقامتها الطويلة الهيفاء. فأحسّت هيلانة بخفقة كبيرة في صدرها ، ولكنّها لم تكن تستطيع معارضة سعيد فقالت :

– هي فلانة ، صاحبتي منذ عهد المدرسة .

فأجابها سعيد بأنّه يريد أن يتعرّف إليها لأنّها أعجبته .

وتمّ لسعيد وماري ما أحبّا معًا . واستجابت هيلانة لرغبة سعيد على الرغم من غيرتها ، فجمعتهما بعد يومين عندها ، في بيتها ، وأبت أن تبوح لماري بأنّها تحبّ سعيد قبلها وأنّ سعيد يحبّها . وجلس الثلاثة على مقعد واحد ، وانصرف سعيد بكلّيته إلى ماري وجعل يتدفّق بالكلام . من أين يأتي بالكلام إذا جلس إلى أنثى ؟ يطرق كلّ موضوع يخطر له ، يضحك ، يدمع ، يثور ، يقوم ويقعد ، ويجذب السامعة جذبًا فتنسى نفسها وما حولها ، فكأنّ القلب ينفتح لا الأذن وحدها لكلّ كلمة منه وكلّ حركة ، وكلّ ضياء أو ظلام يكسو وجهه .

وكانت هيلانة تتذكّر أمام موقدها تلك الجلسة ، فيعلو صدرها وتطفر على وجهها ابتسامة غريبة دون أن تدري أو تشعر ، بل دون أن يرى هذه الابتسامة إلّا البرق الذي يشقّ النافذة بين الفينة والفينة...

وفي اليوم التالي دفع سعيد إلى هيلانة برسالة وقال لها :

– خذي هذه ، وتوصلينها إلى ماري !

عرفت هيلانة كلّ شيء . أحسّت من فورها أنّ حبّها قد انهار ، وأنّ سعيد علق بحبّ ماري . فتناولت الرسالة ونظرت إليه نظرة حزينة ، نظرة حداد ! ولكنّه لم يفهم ، أو تظاهر بأنّه لم يفهم . بل إنّه فهم ولم يكن يعبأ . ماذا يهمّه من غيرة هيلانة ؟ كان يحبّها وهو الآن يحبّ ماري . سيحبّهما معًا ! ألم يقل ذلك بصراحة . بل بأيّ جرأة قال لهيلانة :

– سأظلّ أحبّك . ولكن أوصلي لي هذه الرسالة إلى صاحبتك !

ثمّ انحنى عليها وقبّلها . يا لها قبلة ! قبلة الأب لولده إذا أراد أن يعزّيه عن لعبة تحطّمت بين يديه . هذه اللعبة كانت قلب هيلانة . قلب تحطّم وذهب أشلاء ؛ وكانت تحسّه موزّعًا في صدرها داميًا ينتظر من يلمّه في تابوت ويقيم له جنازة . ولكنّها لم تنبس ببنت شفة ، بل اكتفت بالبكاء . فلمّا رآها سعيد تبكي ضحك وقبّلها قبلة ثانية على جبينها . ثمّ توارى بعد أن أعاد عليها التوصية بإيصال الرسالة إلى ماري في أقرب وقت مع التعهّد بأخذ الجواب .

وتناولت هيلانة الرسالة المصفرّة ، المهلهلة ، الموضوعة على حضنها – وكانت النار قد دفّأتها – فأخذت تقرأها للمرّة العاشرة :

« أنت جميلة يا ماري . وقد دُهشت كثيرًا كيف لم أتعرّف إليك قبل اليوم . أحبّ أن أضع قبلة مكان لقمة التبّولة التي نشلتها من فمك أمس » .

سعيد

خطّ كبير معوجّ . بضع كلمات استغرقت صفحة كاملة على ورقة مقطوعة من دفتر ليس فيها أقلّ مظهر من مظاهر الأناقة .

أين ورقات رسائل كميل الجميلة من هذه الورقة ؟

ولكنّ هيلانة لم توصل الرسالة إلى ماري . لمّا توارى سعيد فتحتها وقرأتها مرّات وجعلت تبكي . ثمّ ضغطتها بين أصابعها وهمّت بتمزيقها ورميها ، ثمّ قالت في نفسها : كلّا ، سأحتفظ بها . وذهبت فوضعتها في خزانتها ، في العلبة التي استقبلت فيما بعد رسائل كميل... وأحسّت منذ ذلك الوقت بكره شديد لصاحبتها ماري ؛ مع إنّها – المسكينة ! – لا تستحقّ كرهًا لأنّها كانت تجهل علاقة هيلانة بسعيد . وسعيد ،

الذي كان من الواجب أن تكرهه ، لم تكرهه قطّ . هي لا تعلم أيّ شيء أحسّت به نحوه ، ولكنّ الذي تعلمه أنّ ماري جاءت لزيارتها في السهرة واختلت بها وعلى وجهها احمرار وقالت لها :

– أتعلمين يا هيلانة ؟ سعيد يحبّني .

– وهل باح لك بحبّه ؟

– كلّا . وهل يجب أن أنتظر بوحه ؟ إنّني ألحظ ذلك عليه . ألا ترين حبّه لي يطفر من عينيه ومن حركاته وسكناته ؟ نحن البنات – أنت تعلمين – عندنا في قلوبنا دليل خفيّ لكلّ حادث قبل حلوله . وقلبي يقول لي : سعيد يحبّك ، يحبّك ، يحبّك !

– وأنت تحبّينه ، أليس كذلك ؟

– أنا سعيدة ! سعيدة ! سعيدة !

وكان بودّ هيلانة أن تهبّ عند ذاك منتصبة في وجه ماري وتصيح بها :

– يا سارقة ! سعيدة ؟ هذه سعادتي أنا ، سرقتها منّي !

كان بودّها أن ترفع كفّها وتصفع تلك السارقة على خدّها الطافح بالفرح صفعة مدوّية ، كان بودّها أن تتناولها من شعرها وتشدّها إلى الباب وتدحرجها منه على السلّم إلى الخارج ، فلا ترى لها وجهًا بعد ذلك أبد الدهر . أجل كان بودّها أن تفعل ، ولكنّها لم تفعل شيئًا بل ابتسمت وقالت لها :

– حسن ، حسن جدًّا . سعيد شابّ ممتاز ، وهو صديق لأخي ، وبإمكانك أن تجتمعي به هنا في بيتنا .

هل فعلت هيلانة ذلك فضولًا منها ورغبة في الاطّلاع على تتمّة الرواية بين ماري وسعيد ، أم فعلته منساقة بمثل رسن ، بالأمر الذي أصدره إليها سعيد ؟

سواء كان هذا أم ذاك ، أم كانا معًا ، فقد ضربت هيلانة لماري ولسعيد موعدًا عندها في الصباح . فجاءت ماري أوّلًا ثمّ جاء سعيد . وكان البيت خاليًا لأنّ أمّ هيلانة وأختها خرجتا في زيارة ، وخرج أخوها إلى عمله .

دخل سعيد حسب عادته ، الابتسامة على وجهه والحديث على شفتيه . فسلّم على هيلانة سلامًا لطيفًا تضايقت منه وأيقنت أنّها أصبحت وسيطًا بينه وبين ماري لا أكثر ولا أقلّ . وقبل أن يسألها هو عنها قالت له :

– هي هنا . دعوتها لك .

وذهبت إلى المطبخ متظاهرة بأنّها مشغولة فيه . فوقع بصرها على سكّين كبير للحم ، فتناولته وجعلت تحدّق إليه وتقلّبه وقد همّت بالبكاء . ولكنّها صرّت بأسنانها وأوقفت الدمعة في جفنها . وفكّرت في نفسها وهي تنظر إلى السكّين : ما ألذّ الموت ! أليس الانتحار خيرًا من هذه الحياة ! لقد أحبّت قبل سعيد شابّين بل ثلاثة . أمّا هذا فحبّه غير حبّ الآخرين . إنّه لا يملك شيئًا من الرقّة ولا حتّى من التهذيب . ومع ذلك أخذ كلّ قلبها فهي ملك له منذ الدقيقة الأولى ، وكانت ترجو أن تظلّ ملكه إلى الدقيقة الأخيرة من حياتها . وها هو يخونها بواسطتها هي ، وفي بيتها هي ، وعلى المقعد الذي قبّلها عليه القبلة الأولى . يخونها بقسوة الوحش الضاري وتحت سمعها وبصرها . طعنة من هذا السكّين في قلبها ، وتنتهي الرواية بفصل فاجع ... تُرى ، ماذا يفعل سعيد إذ يفيق ويجدها جثّة هامدة ؟ !

وبينما هي غارقة في هذه الهواجس إذا بضحكة عالية يرسلها سعيد من الصالون . قهقهة متواصلة ، جريئة ، وقحة ككلّ شيء فيه . وإذا بهيلانة تحبس أنفاسها من الغيظ وتخرج من المطبخ وتركض قاصدة إلى الصالون ، كلّا ، إنّها لا تريد أن تموت ! إنّها تريد أن تنتقم من سعيد ومن ماري . وسيريان !

ولم تكد تشرف على الصالون حتّى وقفت بها قدماها فجأة ، وجمدت عيناها على سعيد وماري متعانقين ، رأسه غارق في صدرها ، وفمها يعبث بشعراته ... فتنبّها وما كادا يرفعان وجهيهما إليها – وعلى وجه ماري ابتسامة بلهاء – حتّى وقعت دفعة واحدة على عتبة الباب مغشيًّا عليها .

ولم تستفق إلّا وهي في سريرها وحول جبينها رباط يشدّ على جرح يؤلمها. فتذكّرت ما حدث لها، ونظرت فإذا سعيد بجانب السرير فابتسم وقال لها:

– أهكذا كذبت عليّ ولم توصلي رسالتي إلى ماري؟ أم قلت لها إنّني أحبّك أنت حتّى رفضت أن تبقى ويقع عليها بصرك عندما تستفيقين؟

ولكنّ هيلانة لم تجب إلّا بأنّ ميعاد رجوع أهلها إلى البيت قد حان، فعليه أن يخرج.

* * *

وصلت هيلانة إلى هذا الحدّ من استعادة تلك الحادثة التي مضى عليها أكثر من ستّ سنين، والرسالة ما تزال على حضنها. وكانت مستغرقة في أفكارها فرفعت يدها إلى جبينها تتلمّس الجرح الذي أصابها لدى وقوعها على العتبة. حينئذٍ ثاب إليها رشدها فتنفّست الصعداء، وأمسكت بالملقط تنكت به النار، فاذا بها قد انطفأت ولم يبقَ إلّا بصيص ضئيل. فانحنت تنفخ الفحم بفمها، تنفخ، وتنفخ، وتنفخ والرماد يتطاير في الغرفة ويسقط على شعرها ويصبغ وجهها. ثمّ رفعت رأسها عن الموقد فإذا بدوار يصيبها، وإذا بأفكار منهوكة، أفكار مثل الحيّات المجروحة، تتلوّى وتدخل إلى رأسها وتمرّ منه. فخُيّل إليها أنّها تزوّجت سعيد حطّام وأنّ سعيد ضربها، ورماها بالإبريق على وجهها –كما فعل بامرأته– وأنّها تركع على قدميه وتبلّلها بدموعها، فيعود إليها ويعود الحبّ إلى عينيه الواسعتين السوداوين فتلمعان، وإلى ذراعيه القويّتين المفتولتين فيتناولها بهما من خصرها ويشدّها إليه، وإلى فمه ذي الشفة السفلى المندلقة فيأخذ شفتيها في قبلة عريضة... ثمّ يبعدها عنه، ويهجرها إلى نساء أخريات. ولكنّه سيعود. سيعود... آه كم هي سعيدة!

أمّا زوجها – المرحوم – فهي لا تفكّر فيه، هي لا تريد أن تفكّر فيه. إنّها تكره استسلامه لمشيئتها ولأقلّ هوى من أهوائها. قضت خمس سنين إلى جانبه، فضلًا عن سنة الخطبة، لم يدوّر عينيه مرّة في وجهها، ولم يرفع صوته يومًا عليها، ولم يعاندها في أمر. قضى حياته خادمًا من الخدم لا سيّدًا من الأسياد. كانت هي تتأمّر عليه، تقوده إلى الزيارات، تدفع عنه أجور السينما –ألم يسلّم إليها نفقات المنزل كلّها؟– تقول له: يجب أن نفعل كذا. فيقول: نعم. وتقول: لا. فيحني رأسه بالموافقة:

– مثلما تريدين، يا حبيبتي. كوني سعيدة وأفعل ما تشائين.

«... مسكين! كان يريد سعادتي! كان يطيعني ولا يردّ لي طلبًا! ما أرقّ قلبه! وما أشدّ عنايته بي ودورانه من حولي! حاضر لقضاء كلّ حاجة، راكض لأقلّ همسة أو غمزة أو حركة».

وعادت هيلانة إلى رسائل زوجها متحنّنة، تحاول أن تقرأ أيضًا. ثمّ جمعتها بتأنٍّ وأقفلت عليها العلبة، ونهضت إلى غرفة النوم وفتحت الخزانة ووضعت العلبة في مكانها – في قبر كقبر زوجها – ثمّ أقفلت الخزانة جيّدًا بعد أن احتفظت بالرسالة المصفرّة، المهلهلة، المكتوبة على ورقة دفتر، وجلست مكانها على الموقد.

كانت العاصفة في الخارج لا تزال على أشدّها، تدور حول البيت وتضرب نوافذه وأبوابه، فقرّبت الأرملة كفّها اليمنى من النار وفرّجت أصابعها لتدفّئها... وجعلت تصغي إلى العاصفة تنوح نوحاتها الطويلة العميقة، كأنّها تشاركها الحزن، لا على زوجها الذي لم ينشف ترابه بعد، بل على حبّها الذي لم يبقَ منه إلّا هذه الورقة الحقيرة التي تشدّ عليها بأصابع يدها اليسرى حتّى التشنّج.

شهوة الدم

من ذكريات طفولتي

وقفت هذا المساء أنظر إلى ولدي وكلب البيت يلعبان على السجّادة. يتصارعان مزاحًا حينًا، وجدًّا أحيانًا، ولكنّه جدّ ما يلبث أن يغلبه المزاح، فيتماسكان ويتصايحان. ثمّ يتمرّغ أحدهما على الآخر، وتختلط شعرات ولدي الشقراء المجعّدة بشعرات الكلب البيضاء المسدولة. فأثب إليهما وأودّ لو كنت طفلًا لأشاطرهما هذه اللعبة.

* * *

أيّها الكلب، لي حديث أفضي به إليك. والحديث ذو شجون.

هي ذكرى عالقة بزاوية من زوايا قلبي لم يصل إليها عنكبوت النسيان، ولا أخاله واصلًا يومًا مهما كرّت الأيّام. هل لك أن تسمع؟

يرجع ذلك إلى عهد بعيد. كنت ابن ستّ أو سبع سنين، صبيًّا مبعثر الشعر، محمرّ الخدّين، مشقوق القميص، في يده عصا، وفي نفسه مثلها، يطوف طرق القرية يهشّ بالعصوين على رفاقه، يلجأ إلى عصا السنديان إذا عجزت عصا النفس. لأنّه كان لطيفًا يلجأ إلى الأمر بالكلام أوّلًا، فإذا لم يلقَ أمر الكلام – وهو عصا النفس – الطاعة المطلوبة، ألهبت عصا اليد الأقفية المدوّرة الصغيرة، فاصطفّ الرفاق ذكورًا وإناثًا خاضعين مطأطئين، وسار أمامهم قائدًا يدقّ على صفيحة من تنك، وساروا فرقة من جيش!

تصل الفرقة إلى ساحة من ساحات القرية وتطوّقها من أطرافها على كلب من الكلاب ساقه القدر إلى تلك الساحة. ثمّ يحلّ الصبيّ حبلًا مشدودًا على وسطه، ويهجم على الكلب فيربطه بالحبل من عنقه، ويجرّه وراءه.

إلى أين؟

كانت الفرقة معتادة هذا الضرب من الخطف، ودارية بما يليه. لأنّ قائدها كثيرًا ما حملها على أمثال هذه المغامرة في الماضي، وربّما كانت هذه العاشرة!

الصبيّ يجرّ الكلب، والفرقة وراءه، إلى غابة قريبة اسمها غابة الشمشم. وكان يقصد إليها الأولاد في عيد العنصرة وينصبون بين أشجارها العالية الأراجيح. يحبّ الذكور منهم أن تركبها الإناث غاديات رائحات، وأن يقوموا هم بدفعهنّ وجذبهنّ، لعلّ أكفّهم تخطئ خشبة الأرجوحة، فتلمس ردفًا ناعمًا منهنّ، أو ساقًا أو أيّ شيء...

يصل الصبيّ إلى الغابة ويدور ببصره على الأشجار، فيختار جذع صنوبرة عجوز ويربط الكلب به. ثمّ يطوف برفاقه في أنحاء الغابة ساحبًا سكّينه من وسطه، ويقصّ لكلّ واحد منهم ثلاثة أو أربعة

قضبان ، ويقصّ لنفسه مثلها عددًا ولكن أسمن وأطول .

ويكون الكلب المحكوم عليه بالإعدام منتظرًا . لأنّ القضيّة قضيّة تنفيذ حكم صدر عليه بالإعدام لا لذنب اقترفه ، بل لهوى طلع في نفس ذلك الصبيّ المملوءة نفسه بالأهواء .

ويعود الجميع حاملين القضبان . ويرفع الصبيّ خصلة من شعراته نزلت على عينه . ويتناول قضيبًا ويطويه ليمتحن متانته ، ثمّ يضرب الضربة الأولى . يظنّها الكلب مداعبة خشنة فيكشّر عن أنيابه ثمّ يحاول الزحف على بطنه إلى الصبيّ مسترحمًا ، فيتلقّاه الصبيّ بالضربة الثانية . وتكون حلقة الجلّادين قد أحاطت بالكلب ، والضربات كالمطر على رأسه ، على رجليه ، على ظهره ، على فكّيه ؛ كيفما انقلب أصابته ضربة ، وإذا اتّقى ضربة من هنا نال من هناك اثنتين .

وهو يعوي عواءه . إنّ للكلب تحت الضرب عواء فظيعًا . سمعت أناسًا يقولون إنّ كلابًا تعوي بالمقلوب . أنا أفهم كيف تعوي الكلاب بالمقلوب . أفهم ويكاد رأسي ينفلق ويقع هنا على السجّادة فلقتين بين ولدي والكلب . أمّا ذلك الصبيّ فكان لا يفهم ، ربّما كان لا يسمع أيضًا . أمّا أنّه لا يرحم فأمر لا يختلف فيه رجل اليوم وصبيّ الأمس .

بدأ الكلب بالمقاومة ، يكشّر عن أنيابه ويهجم على ضاربه عن اليمين والشمال ، من الأمام والوراء ، فاتحًا عينين كبيرتين هائلتين ، متخبّطًا ، صاعدًا هابطًا . والقضبان تنهال عليه ، إذا تكسّر واحد فها هي الحزمة . ضربة على هذين الفكّين ، وثانية وثالثة وعاشرة ! إنّ الدم يسيل من الفكّين ، إنّ نابًا من الأنياب قد وقعت على الأرض ... إنّ الدم يسيل من كلّ جزء من أجزاء الحيوان ، ومن هذه الأثلام العريضة الحمراء التي يلتقي بعضها ببعض ، ويقطع بعضها بعضًا بالطول والعرض ، فيرسم التقاؤها وافتراقها واعوجاجها أشكالًا على ظهر الضحيّة وعلى بطنها وعلى رأسها لا عهد بها لمهندس !

الدم يسيل ، والعواء يتضاعف ويتردّد صداه في الأودية من وادٍ إلى وادٍ ... ولكنّ الضربات تخفّ . تعب الرفاق . والصبيّ غضبان عليهم يهدّدهم بقضيبه ، يسلخ به جلدهم إذا لم يسلخوا بقضبانهم جلد هذا الكلب الملعون ! فيعودون والعرق يتصبّب من جباههم ، وأرجلهم تكاد لا تحملهم ، وأيديهم ترتفع وراء رؤوسهم وتكاد تنوء بالقضيب ، فلا ينال الكلب من وقعه إلّا ثقله !

الكلب يسبح الآن في بركة من الدم والوحل . يتمطّى ولا يقاوم الضربات ، بل يتلقّاها من أين جاءت ساكتًا . إلّا أنّات خافتة تتردّد بين فكّيه ، وتتزحلق على لسانه الممدود .

ما هذا اللسان الممدود؟ يتناول الصبيّ سكّينه ويمشي باطمئنان ويحزّ اللسان بها فيقطعه — والكلب ساكت دائمًا — ثمّ يفتل يده وراء ظهره ويرميه إلى الوادي حيث يلحق به صاحبه بعد الجنّاز ! لأنّ الصبيّ كان عارفًا بأصول الدين ، ينقل عن رهبان القرية حركاتهم وشيئًا من صلواتهم ، فيحني رأسه أمام الجثّة بكلّ احترام ، يصنع فوقها إشارة الصليب ، ثمّ يرفسها إلى قعر الوادي !

عمر أفندي

أقصر طريق إلى الغنى

كان ساكنًا بالقرب من منزلي ، في غرفة من فندق صغير. في العقد الرابع ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، له وجه كبير تنيره عينان سوداوان وديعتان ، يتدلّى بينهما أنف أقنى كالمنقار.

كنت أراه كلّ صباح جالسًا على الشرفة يدخّن لفافته ، وقد وضع رأسه على كفّه كأنّه يعالج مشكلًا. تارة يجمد مبهوتًا ، وتارة يشير بيديه في الفضاء ويحرّك شفتيه مخاطبًا نفسه. وكنت لا أعرف عنه شيئًا إلّا اسمه ، فإذا حيّاني رددت التحيّة وانصرف كلّ منّا في سبيله.

ذات مساء رأيته يرجع إلى غرفته من المدينة قبل غروب الشمس ، وكانت تلك المرّة الأولى التي يرجع فيها في مثل هذه الساعة. ولمحت على جبينه غضونًا وفي عينيه كآبة ، فقلت له :

– مرحبًا ، عمر أفندي. كيف الحال؟

– والله يا صديقي ، أسوأ الأحوال.

– وما تشكو يا عمر أفندي؟

– وهل يشكو إنسان على وجه الأرض إلّا الإفلاس؟

– أليس لديك عمل؟

فتردّد هنيهة :

– عندي دكّان في المدينة. ولكنّ السوق كاسدة.

– هي الأزمة. فأنت تعلم أنّ أزمة شديدة تنزل بالتجّار جميعًا ، لا بك وحدك.

– أريد أن أهجر التجارة من حيث هي. أفكّر بمشروع. مشروع كبير ستتعاون على تنفيذه أنا وبعض أصحابي. ولكنّي لن أطلعك عليه الآن. لم يأتِ وقته.

– خير إن شاء الله !

وتركته عائدًا إلى منزلي بعد أن عرفت سبب تفكيره كلّ صباح. ولكنّي ما تمالكت من الضحك بيني وبين نفسي. ما تُراه يكون مشروعه السرّيّ؟ أتراه اتّفق مع أصحابه على فتح تجارة كبيرة يدخلون فيها شركاء؟ أتراه سيبيعهم دكّانه ويسافر معهم إلى بلد غير هذا البلد؟

وإذا بعمر أفندي يضرب ذات مساء على عوده ، ويغنّي يا ليل بصوته الخافت العذب. فأطللت من نافذتي فهتف بي :

– أتريد أن أسمعك بعض ألحاني؟

– هاتِ. إنّي أحبّ العود.

فطفق يضرب أوتاره ويترنّح كالنشوان. ثمّ أمسك فجأة وقال :

– الأصحاب آتون بعد قليل للمفاوضة.

– موفّق إن شاء الله يا عمر أفندي.

كنت أشعر نحو الرجل بعطف. وانقضى أسبوع كان الأصحاب خلاله يأتون كلّ مساء ويجلسون على

الشرفة ، يشربون الخمر ويتسامرون. وكثيرًا ما أزعجوا منامي وأقلقوا راحتي.

واتّفق يومًا أن كنت عائدًا إلى منزلي بعد الظهر فمررت في طريقي بساحة الشهداء ، فإذا أنا بعمر أفندي يحمل على كتفه صندوقًا ويطوف به مناديًا :

– معنا كلسات ، معنا مناشف !

فحانت منه التفاتة إليّ فحوّل عنّي وجهه متظاهرًا بأنّه لم يرَني. مسكين عمر أفندي ! خجل أن يعترف لي بأنّه بائع دوّار فقال إنّ عنده دكّانًا. فاستأنفت مسيري لا أريد أن أجرح عزّة نفسه.

* * *

– إلى أين وصل مشروعك يا عمر أفندي ؟

– والله ، يا صديقي... ماذا تريد أن أقول لك ؟ إنّ أبناء هذه المدينة جبناء ، جبناء ! زرت فلسطين وإستانبول ومصر والدنيا ، فلم أجد بلدًا كهذا البلد مكهربًا جوّه بالخوف.

– هل أحجم أصحابك عن تنفيذ المشروع ؟

– لا يتجاسرون. كلّما بسطت لهم رأيًا قالوا : والحكومة؟ والحكومة؟! أفّ لهم ! أليس عند الناس حكومات ؟

– وهل تتصدّى الحكومة لما أنتم عازمون عليه ، يا عمر أفندي ؟

– مكثت في إستانبول بعد الحرب ثلاث سنوات متوالية ، وتعرّفت بأكبر ذوات البلاد ، وهم عائشون في قصور فخمة ، يزورهم كبار رجال الدولة ويحترمهم الناس ، ولكن لو تعلم ماذا يعملون في الليل؟

قلت :

– ينامون ، ما يعملون ، يا عمر أفندي ؟!

فهزّ رأسه بسخرية :

– إذا كانوا ينامون كما تظنّ ، فمن أين يأتون بثرواتهم ؟ إنّهم يتستّرون ويسرقون بشرف !

– مشروعك إذن من هذا النوع؟! لا ، لا ، يا عمر أفندي ! أنت لا تعمل مثل هذه الأعمال. أحبّ أن أعتقد أنّك تمزح.

– والله يا صديقي ، أقسم لك بالله العظيم ! كن على ثقة أنّني لا أمزح وأنّ الأغنياء جميعًا لم يُؤتوا الغنى إلّا من هذا السبيل.

وضرب بيده على فخذي وقال :

– أصغِ إليّ قليلًا... كان في إستانبول رجل وجيه معروف ، اسمه عبد الهادي الحشّاش...

وسرد لي قصّة طويلة عريضة ، ملخّصها أنّ عبد الهادي هذا كان فقيرًا معدمًا ، وأنّه لبس ذات يوم لباسًا أنيقًا وذهب إلى أحد التجّار وأقنعه أن يسلّم إليه بضاعة بألف ليرة عثمانيّة. وكان عبد الهادي قد استدان من أحدهم مبلغًا زهيدًا فقدّمه إلى التاجر عربونًا ليوليه ثقته. فلمّا صارت البضاعة في يده باعها في أقلّ من شهر وفرّ بثمنها إلى جهة بعيدة ، ولم يرجع إلّا بعد سنتين وقد غيّر هيئته وغيّر اسمه وصار من الذوات !

وأخذ عمر أفندي يحكي لي أمثال هذه الحكايات فقلت له :

– أصحيح ما تقوله ، يا عمر أفندي؟ أنا لا أصدّق هذه الأشياء.

– أنا رأيتها بأمّ عيني.

– لا !

فضحك بسذاجة وسألني :

– ماذا تشتغل أنت؟ وكم هو معاشك ؟ أكثر من مئة ليرة ، من مئة وخمسين؟ مهما بلغت قيمته فهي محدودة. ثمّ ماذا تفيدك هذه الورقات التافهة ؟ إنّك لو أردت أن تعيش كما تشتهي ، فتذهب إلى أيّ مكان تريد ، وتشير بطرف إصبعك إلى أيّ امرأة تحبّ...

– ماذا تقول ، يا عمر أفندي؟ أأنت تستدرجني إلى العمل بمشروعك؟!

– ما قلت هذا. ولكنّي على ثقة أنّك غير راضٍ عن حالك.

– ومن يرضى عن حال ، يا عمر أفندي؟

– والله ، يا صديقي ، أنا عرفت في حياتي نساء لا يُحصى لهنّ عدد. إنّ المرأة لا تطلب من الرجل غير الفلس ، ولا يغريها غير الفلس شيء. لا جاه ، لا شباب ، لا جمال.

وأخذ يحدّثني عن غراميّاته مفيضًا في وصف نظريّته في المرأة فقلت له :

– أليس لك اليوم من تحبّ ، يا عمر أفندي؟

– أحبّ كلّ النساء. ولكن ليس لي واحدة تحبّني ؛ فما الفائدة؟

فقهقهت ، ثمّ قمت للانصراف وقلت له :

– أنصح لك ، يا عمر أفندي ، أن تعدل عن مشروعك ولا تفكّر فيه أبدًا. أنت أعقل من أن تنفّذه.

فابتسم هازئًا بكلامي ...

وانقضت أيّام كان عمر أفندي في أثنائها منهمكًا في غرفته ، يقفل الباب والنوافذ لئلّا يقف أحد على ما يفعل. غير أنّه باح لي وحدي بالأمر ، فإذا هو يحيك سلّمًا قاشيًّا ويشحذ مفاتيح مختلفة الحجم. فقلت له مذعورًا :

– ما هذا ، يا عمر أفندي؟

قال :

– سأنفّذ المشروع هذه الليلة مع أحد الأصحاب.

وعبثًا حاولت إقناعه بالعدول ...

في المساء جاء إلى غرفته رجل رثّ الثياب ، محمرّ العينين ، عرفت فيه أحد حاملي صناديق اليانصيب الجوّالين ، فقضى السهرة عنده على الشرفة في حديث طويل لم أعلم موضوعه. ولكنّ الذي أعلمه أنّ عمر أفندي نام ليلته التالية في السجن ، وأنّه لا يزال فيه حتّى اليوم.

سقّاء القهوة

صورة من الشارع

– يا بو أمين ، هات فنجان قهوة !

هكذا يناديه الناس على منعطفات الشوارع في بيروت ، أو عندما يرونه مارًّا أمام أحد الملاهي المنزوية في الأحياء الهادئة التي يطيب فيها الجلوس بعد غياب الشمس. وبو أمين رجل في الأربعين أو الخامسة والأربعين ، لا تطأ قدماه المدينة إلّا في الليل ، يخرج رابطًا حول وسطه زنّارًا يعلّق به فناجينه ، وممسكًا بيده اليسرى إبريق القهوة ، وباليد اليمنى فنجانين فارغين يضرب أحدهما بالآخر محدثًا أنغامًا يعرفها له زبائنه.

كنّا يومًا ، أنا وبعض الأصحاب ، على جلسة عرق في حيّ الصيفي إذ أقبل علينا بو أمين ، فطلبنا أن يسقينا من قهوته المرّة. فأخذ يصبّ لنا ويقدّم الفنجان تلو الفنجان على أطراف أصابعه ، بأناقة لا يجيدها أحد مثله.

ولمّا فرغ من ذلك مدّ يده إلى إحدى الكؤوس – وكانت كأسي – والتفت إليّ كأنّه يستأذنني ، ورفعها إلى شفتيه المغطّاتين بشاربيه المهملين وشرب ، فقلت له :

– على صحّة من تشرب ؟

فهزّ كتفه ، ثمّ خلع طربوشه وأخذ يحكّ في رأس له كثيف الشعر ، والشعر يغطّي الصدغين ملاقيًا لحية لم تعرف الموسى منذ أكثر من أسبوعين. وإنّني لأنتظر جوابه إذا بصبيّ حافٍ حاسر ، يأتي ويتغلغل في ثوب بو أمين كأنّه يريد إخفاء نفسه. وكان بو أمين قد رفع ذراعيه وأحاط رأس الصغير بهما ، فقلنا جميعًا :

– من هذا؟ ابنك ؟

فتناول الكأس مرّة ثانية وكرع وقال :

– ابني.

– وأين أمّه ؟

– تركتني. هكذا تعمل النساء مع الرجال إذا كانوا مثلي. أنا مجنون.

– حاشاك يا بو أمين ، حاشاك ! ماذا حدث؟ أهذا هو أمين؟

فانحنى ومسح جبين الصغير بشاربيه وقال :

– هذا هو أمين.

ثمّ دفع إليه الكأس فسقاه جرعة منها ، فقلنا :

– أتعوّده السكر ؟

– يجب أن ينسى همومه كما أنسى أنا همومي. ألا تشربون العرق لتنسوا همومكم أنتم جميعًا؟ تركته أمّه. وبات أمس يضرب باب الغرفة بيديه حتّى أدماهما. يخاف أن ينام وحده ، فاضطُررت هذه الليلة أن أجيء به. هو يشرب العرق كما أشربه أنا ولا يسكر. وأنا أشرب معه كلّ يوم على الغداء... أمّ أمين ! كان عليها أن تداريني. كنت سكران. تعوّدت أن تراني

سكران... طلبت منها أن تقوم من فراشها وتهيّئ لي العشاء. كان الوقت بعد منتصف الليل، الساعة الأولى أو الثانية، لا أذكر. رفضت أن تقوم وشتمتني، فشتمتها وضربتها فهربت. وكنت أظنّ أنّها باتت ليلتها عند الجيران، وأنّها ستعود في الصباح ولكنّها لم تعد... النساء! النساء! كلّهنّ للذبح!

– ألم تهتدِ إليها حتّى الآن؟

– أبحث عنها أنا؟ أركض وراءها؟!

– امرأتك.

– بيروت ملأى بالنساء. ألا أستطيع أن أجد امرأة عندما أحتاج إليها؟ ولكنّي كنت أفضّل أن تبقى أمّ أمين في البيت لكي تعتني بابنها بدلًا من أن أجرّه ورائي في الليالي... هذا حظّه، يجب أن يتعوّد الحياة التي تعوّدها أبوه. أنا أيضًا نشأت شريدًا على الطرقات. اشتغلت حمّالًا، واشتغلت إسكافيًّا قبل الحرب، واشتغلت مقامرًا، واشتغلت كلّ شيء حتّى انتهيت إلى هذا الإبريق. هذه هي الدنيا! وأمّ أمين لا أعلم أين؟... آه! كلّهنّ للذبح!

– أجميلة؟ أجميلة امرأتك؟ ألا تغار عليها؟

– أغار؟ ما دمت لا أحبّها ولا أحبّ امرأة على وجه الأرض. الحبّ! الحبّ! الحبّ ليس لنا. الحبّ لمن عنده سيّارة، الحبّ لمن عنده القصور والخدم والحشم، لمن هو موظّف، نظيف الثياب، مهفهف. الحبّ لنا؟!...

قال بو أمين هذا وهو يهزّ رأسه. ثمّ ردّ طرفَي قميص أمين على صدره، وأدار ظهره ضاربًا بفنجانيه الفارغين وهو يردّد:

– كلّهنّ للذبح! كلّهنّ للذبح!

الحمّال الصغير

عظة من الشارع

إكتشفت أمس اكتشافًا.

عرفت أنّ الحمّال الذي ينقل لي أمتعتي من السوق إلى البيت إنسان سويّ مثلي. فلم أعجب من ذلك بقدر ما خجلت.

كلّفتني امرأتي أن أنزل إلى السوق وأشتري لوازم البيت. فقصدت إلى سوق الخضر، وما كدت أدخل دكّان أحد الباعة حتّى تزاحم حواليّ الحمّالون، وفي سوق الخضر منهم العشرات، أكثرهم بين السابعة والعاشرة من العمر. مكشوفو الرؤوس، ممزّقو الثياب، حفاة يدعسون على الحصى منذ ولادتهم، فالطبقة السفلى من أقدامهم نعال يابسة، سميكة، لم يدفعوا لها ثمنًا ولا احتاجوا يومًا إلى تبديلها، وعلى ظهورهم سلال ضخمة، السلّ الواحد يسع اثنين منهم. تزاحموا حواليّ يدفع بعضهم بعضًا ويشتم بعضهم بعضًا، وتتصارع السلال فيما بينها على ظهورهم، وكلّ واحد يرفع إليّ عينين متوسّلتين ويصيح: أنا!

حرت فيمن أختار منهم. وأخيرًا وجدت حلًّا للقضيّة، فالتفتّ إلى صبيّ بقي بعيدًا عن الزحام لهزاله وعجزه. فأشفقت عليه وأشرت إليه أن يدنو.

وجعلت أدور في السوق من دكّان إلى دكّان، والحمّال الصغير يتبعني بسلّه الكبير وأنا أضع فيه من هنا رطل بطاطا، ومن هنا رطلَي فحم، ومن هناك أقّة كوسا، وبصلًا وفجلًا وبيضًا وما إلى ذلك من قائمة طويلة أعطتني إيّاها زوجتي.

انتهينا من الشراء، وأردت الرجوع إلى المنزل. ومنزلي بعيد عن سوق الخضر، إذا ماشيت الحمّال إليه استغرق ذلك أكثر من ثلاثة أرباع الساعة. فسوق الخضر إلى جانب ساحة الشهداء ومنزلي في رأس بيروت. فعرضت على الحمّال أن يركب معي في الترامواي على أن أحسم له من أجرته – وهي سبعة قروش – قرشين ونصف القرش، وهو رسم تذكرته في الترامواي. ففضّل أن يمشي ويبقى له القرشان والنصف. فاتّفقنا على أن أسبقه أنا في الترامواي وأنتظره على المحطّة الفلانيّة حتّى يصل.

وكان ذلك.

ولكنّي انتظرت على المحطّة ساعة كاملة بدلًا من الثلاثة الأرباع فلم يأتِ الحمّال، فقلقت. ثمّ ساورني الشكّ بأمانته فجعلت أسبّه وأستنزل عليه اللعنات وعلى حمّالي الأرض جميعًا. وقلت في نفسي: لقد ذهب ابن كذا وكيت بمالي، ومن أين لي أن أعرفه بين مئات الحمّالين في المدينة! وخطرْ لي ألف خاطر. خطر لي أن أذهب إلى المخفر وأشكو أمري وأدلي إلى رجاله بأشكال السارق الوقح، وأن أذهب من غد إلى الصحف فأنشر الخبر وأنادي بالويل والثبور، وخطر لي أيضًا أن أفتّش

عنه في سوق الخضر، أن أبقى في السوق من الصباح إلى المساء، حتّى إذا وقعت عيناي عليه عرفت كيف أنتقم منه! ...

وبينما أنا في هذه الأفكار إذا بي ألمح عن بعد شبح حمّالي الصغير. فبدلًا من أن أتنفّس الصعداء تضاعف سخطي وسعيت إليه وأنا أدمدم. فما كدت أدنو حتّى رأيته ينوء تحت حمله ويرفع إليّ عينين محمرّتين باسمتين كأنّه يعتذر عن تأخره. وكان ظهره مقوّسًا، وركبتاه تصطكّان، وأوداجه تنتفخ. ولعلّه أراد أن يستعجل فصبّ آخر جهد فيه وقدّم رجلًا في خطوة كبيرة، ولكنّه لم يستطع، فوقع على الأرض تحت سلّه وتبعثرت البضاعة في كلّ جهة، وجاء هو على وجهه فسال الدم من أنفه، فلم يُعره اهتمامًا بل مسحه بظاهر يده، ثمّ طفق يلمّ البطاطا والكوسا والفحم... ثمّ التفت فإذا بيضتان قد انكسرتا واندلقتا على التراب، فانفجر بالبكاء وهو لا يجسر أن ينظر إليّ من خوفه!

وليته نظر! بل ليت لي من كان حاضرًا ليراني! جمدت جمودًا غريبًا، وانحلّ غضبي في نفسي انحلال الملحة في الماء، وسال مع لعابي سائل حلو غريب، فاقتربت من الحمّال الصغير وكأنّي أنا الساعة غيري قبل ساعة، وتناولت منديلي من جيبي ومسحت الدم عن أنفه، ثمّ طمأنته بتربيتة على كتفه، وانصرفت أجمع أشيائي عن الأرض وأعيدها إلى السلّ. ثمّ مددت يدي إلى السلّ عندما امتلأ وامتحنت ثقله فهالني. ولكنّي لم أعبأ. فأدرت بصري حواليّ ثمّ انحنيت وقلبت السلّ على ظهري ومشيت به. وكان بيني وبين البيت نحو من خمسين مترًا. فبُهت الحمّال الصغير وأخذ يناديني، وكلّ ظنّه أنّني أُصبت بالجنون!

ولمّا وصلت نقدته ما اتّفقنا عليه من أجرة فأخذ يعدّها وهو لا يصدّق. ثمّ ضحك في وجهي وتناول السلّ عائدًا إلى السوق يركض ركضًا، والسلّ يرقص على ظهره من شدّة الفرح.

قميص الصّوف

وقصص أخرى

قميص الصّوف

أمضت الأمّ يومها في ترتيب المنزل ، وصرفت عنايتها الكبرى إلى الحجرة التي أعدّتها لابنها وزوجته. ولمّا سوّت السريرين تراجعت تنظر إلى اللحافين الأبيضين وتوازن بينهما ، ثمّ دنت فرفعت طرفًا من هنا وأنزلت طرفًا من هناك ، ولاحت على وجهها ابتسامة رضى. وتذكّرت فجأة أنّ أمين معتاد أن يضع تحت رأسه مخدّتين ، فذهبت إلى اليوك* فأزاحت الستار وحملت مخدّة ناعمة فوضعتها فوق الأولى على السرير اليمين ، وربّتت عليها بيديها.

ولمّا ابتعدت عن السريرين مرّة ثانية استفاق في ذهنها ، على غير وعي منها ، ذلك العهد الذي كانت تنكبّ فيه كلّ يوم على تسوية اللحافين بعد قيام المرحوم من النوم مبكرًا وخروجه إلى العمل. كأنّ زوجها يغادر المنزل في هذه الدقيقة ، كأنّها تسمع وقع قدميه يتلاشى على العتبة وصرير الباب يغلقه وراءه بعنف ، فمشت في جسد الأرملة رعشة. وأحبّت أن تستسلم ألى هذا الحلم فعادت إلى السريرين الباردين عفوًا تمهّدهما أيضًا على غير حاجة ، ولم تشعر أنّها تفسد ترتيبهما السابق. ووقعت من عينها اليسرى دمعة مدوّرة على المخدّة ، فانقشعت الضبابة عن تلك العين ، وانحنت الأرملة على الدمعة ولم تدرِ أأنفاس زوجها استنشقت ، أم أنفاس وحيدها الذي ينام هنا بعد قليل ، أم أنفاس وحدتها وكآبتها وحرمانها في هذا البيت المهجور ، المملوء بالذكريات.

ولمّا رفعت رأسها استعادت وعيها الكامل ونصبت أذنها لسماع رعد قاصف ارتجفت له النوافذ ارتجافًا ، ففركت كفّيها من البرد وذهبت إلى المرآة. كانت قد رتّبت المنزل كلّه ونسيت نفسها. ألا يجدر بها أن تلقي يدًا على شعرها وتغسل وجهها وتلبس غير هذا الثوب قبل أن يصل أمين وامرأته؟ أليس من واجبها أن تظهر بمظهر لائق أمام كنّتها ، المدنيّة المتأنّقة؟

وكان على المرآة صورة زوجها وقبالتها صورتان: الأولى لأمين وهو في العاشرة من عمره يحمل كتابًا ، والثانية له ولأوديت يوم العرس. يا له شبهًا غريبًا بين أمين وأبيه! كأنّ الأمّ تلحظ ذلك لأوّل مرّة في حياتها ، مع أنّها تقف أمام الصورتين مرّات في اليوم. الشبه ضعيف في الطفل ، ولكنّه في الشابّ بارز واضح: امتداد الجبين ، وسعة الحدقتين ، وقصر الأنف ، والذقن المائل إلى الطول ، واستدارة الرأس وانتصابه بقوّة. هذا هو! هذا هو لولا الشاربان.

وجعلت الأرملة تنظر إلى زوجها حينًا وإلى ولدها حينًا ، والشاربان المعقوفان المرتفعان بزهو يتنقّلان من

* اسم لخزانة الفُرش واللُّحف في القرى اللبنانيّة ، محفورة في الحائط.

وجه الأب إلى وجه الابن ، ثمّ يعودان إلى الأوّل ، ثمّ يقفزان ويلتصقان بالثاني. وتسارعت حركة تنقّلها ، وخُيّل للمرأة أنّ لهذه الحركة صوتًا كحزّ الحديد على الحديد ، حتّى غاب الوجهان والمرآة وما عليها فلم يبقَ إلّا الشاربان وقد تحوّلا إلى عشرات الأزواج من الشوارب المتشابهة تروح وتجيء. فدار رأسها كأنّها أُصيبت بصداع ، فسحت جبينها ، وانصرفت وهي تفكّر بألف شيء ولا تفكّر بشيء ، ونسيت زينتها.

جلست على حشيّتها أمام الموقد تنكت النار بالملقط مصوّبة إلى الجمرات الملتمعة بين يديها نظرات عميقة. ثمّ تناولت الصنّارتين وقميصًا من الصوف الأبيض كانت قد بدأت نسجه ، ووضعت كرة الخيطان في حضنها واستأنفت العمل. وأحسّت بالحنان يغمر قلبها لمّا نظرت إلى هذا القميص. ولدها ما يزال يذكرها ، ما يزال يحبّها بالرغم من زواجه وابتعاده عنها. ألم يرسل إليها منذ يومين هذه الخيطان هديّته ، كما يقول ، في عيد الميلاد؟ يقول أيضًا في رسالته «جاء دوري اليوم ، يا أمّي ، في تقديم الهدايا إليك» بعد أن كانت تقدّمها إليه وهو صغير. ويعتذر عن تفاهة ما أهدى ، ولكنّه يرى الصوف ذا منفعة في ردّ البرد في تلك القرية العالية. عليها أن تسرع في النسج ، وليتها تجيده مثل أوديت! إنّ يديها لم تتعوّدا إلّا صنع الأشياء الكبيرة الضخمة.

وأدغشت الدنيا ، فنهضت الأمّ وأشعلت القنديل وألقت نظرة على الطعام. كانت قد ذبحت ، إكرامًا لزيارة أمين ، ديك دجاجاتها. فلتبقَ الدجاجات بلا ديك! الليلة ليلة عيد وأمين لا يأتي إلى القرية كلّ يوم. إنّ أمين لم يزرها منذ سنة. يكتب إليها مرّة كلّ شهرين وكلّ أربعة أشهر أحيانًا ، ويقول إنّ صحّته جيّدة. ولكنّ أمّه تعرفه ، وتعرف أنّه هزيل ، وأنّه عصبيّ المزاج ، وأنّه كثير التدخين ، قليل الأكل مثل أبيه. وهي تريد أن يأكل ويسمن.

* * *

تقدّم الليل. يجب أن تكون الساعة قد تجاوزت السابعة ، وأمين وزوجته لم يصلا بعد. كانت الأمّ ترهف أذنيها لكلّ حركة في الخارج ، ويقفز قلبها بين أضلاعها ، وتقوم إلى النافذة صوب الطريق تمسح بكفّها رشح المطر عليها وتنظر.

تُرى ، لماذا تأخّر؟ بيروت لا تبعد أكثر من ساعة في السيّارة ، هذه السيّارة التي تنهب الأرض نهبًا ، والتي ركبتها الأمّ أربع مرّات في حياتها إلى بيروت ومنها ، فما علمت هل اجتازت المسافة حقيقة أو أنّ طيرًا من حكايات الجنّ حملها على جناحيه. هل انقلبت بهما السيّارة ، هذه الآلة الجهنّميّة ، فحصل له حادث ، لا سمح الله!... أم تكون امرأته حملته على قضاء ليلة العيد في المدينة بين صواحبها؟ تكون قد قالت له: «القرية! الجبل! هل تريد أن نضيّع ليلتنا هذه إكرامًا لأمّك؟» هل أصغى إليها واقتنع منها ولم يرحم أمّه؟

لا. لا. إنّه يؤكّد في رسالته التي قرأتها لها بنت الجيران ثلاث مرّات أنّه سيجيء وأنّه مشتاق إليها. وكانت الرسالة في صدرها فتناولتها وفتحتها وطفقت تجيل فيها نظراتها – وقد أمسكتها مقلوبة – فتقف عيناها على السطور والكلمات والحروف وقفات معذّبة بلهاء. وبعد أن لبثت الرسالة في كفّها دقائق طوتها وأعادتها إلى مكانها ، وكأنّها ذاقت تأكيده ، على جهلها القراءة ، فانفرجت أسارير وجهها وعاد إلى نفسها اطمئنان الانتظار.

غير أنّ الوقت طال فعاودها اليأس من جديد. هذا شأن أولاد هذا الزمان! هذا شأن المتزوّجين في هذا العصر المتمدّن: عبيد لنسائهم! ثمّ لماذا هذه الهاوية بينها وبين كنّتها؟ لقد حاولت الأمّ أن تمدّ بينها وبين تلك المرأة بساطًا من الألفة والعطف فلم توفّق. وإذا بينهما جفاء وحذر ، وإذا لقاؤهما – وقليلًا ما تلتقيان – مملوء بالكلفة المزعجة لكليهما ، وخصوصًا لأمين ، يحار بين شطرَي قلبه ، من هنا شطر يرتمي عليه ليلمّه عن

الأرض فيقع من هناك الشطر الثاني.

كانت الأمّ تفكّر بهذه الأمور وهي متوجّهة إلى غرفتها تحاول النوم. قعدت في فراشها وصلّت حسب عادتها كلّ مساء. وحسب عادتها كلّ مساء أدارت وجهها إلى بيروت، إلى حيث كانت تخمّن أنّ بيروت قائمة، وصنعت إشارة صليب كبيرة ارتسم خيالها على الحائط كالشبح، ونفخت القنديل فأطفأته. ولكنّها ما كادت تلقي رأسها على المخدّة حتّى سمعت هدير سيّارة على الطريق، فحبست أنفاسها. وما هي حتّى دُقّ الباب دقّات متوالية قويّة. هذه دقّته. إنّها تعرف دقّته. هكذا كان أبوه يأتي من قبله.

* * *

في الساعة الحادية عشرة انطلق جرس الكنيسة يقرع داعيًا القرويّين إلى قدّاس منتصف الليل. وكان الثلاثة: أمين وزوجته والأمّ جالسين حول النار. الأمّ على حشيّتها والآخران على كرسيّين متقابلين لأنّهما غير متعوّدين التربّع على الأرض. وكانت الأمّ تشوي حبّات من الكستناء حملها ابنها معه من بيروت، وتقدّم حبّة إليه وحبّة إلى كنّتها:

– أتصدّق، يا أمين؟ إنّ للبلّوط المشويّ لذّة غير لذّة الكستناء. لا أعلم أيّ مرارة حلوة له تحت الضرس.

فالتفتت أوديت إلى حماتها وصاحت وقد انفلق فمها بالاستهزاء:

– البلّوط! البلّوط مأكول الخنازير. إيّاك يا أمين أن تأكل منه!

فلم تعلّق الأمّ بكلمة، واكتفى الشابّ بابتسامة بليدة هي كلّ ما استطاعه من تدخّل بين أمّه وامرأته. وتابعت الأمّ تقشير الكستناء والزوجة تنظر إليها تتناول الحبّة وتنفض عنها الجمر بأصابعها:

– يا ماما! لو كانت أصابعي مكان أصابعها لاحترقت!

ونظرت إلى زوجها شامتة بأصابع أمّه الخشنة أمام نعومة أصابعها هي. ثمّ رمت حبّة بعنف وصاحت غاضبة:

– أتختارين لي الحبّات الفاسدة؟!

لم تكن الأمّ، في الواقع، تختار الحبّات الفاسدة لكنّتها، لكنّها كانت تختار الحبّات الحسنة لابنها وتعطيه إيّاها، وتعطيه معها نظرة عميقة طافحة بأسرار الحنان والحبّ والغيرة. فلم يبتسم الشابّ هذه المرّة بل تناول حبّة وأراد أن يقدّمها إلى زوجته فرفضت مدّعية الشبع، وتابعت الأمّ تقديم الحبّات إلى ولدها وحده.

وقُرع الجرس قرعته الثانية، وكان له صوت رخيم في تلك الليلة الباردة من ليالي كانون. فارتاح أمين إلى رنّاته مستعيدًا عليها صور صباه الذي قضاه في هذه القرية الصغيرة المتواضعة. فقد مضى عليه سنون في المدينة ولم يتسنَّ له مرّة أن يسمع قرع الجرس في كنيسة من كنائسها صافيًا هذا الصفاء.

وثقلت وطأة الصمت بين الثلاثة فقام أمين قائلًا:

– يجب أن نلبس ثيابنا لنلحق القدّاس.

ودخل أمام زوجته إلى الحجرة، وذهبت الأمّ إلى غرفتها فلبست ثوبها الأسود وأركزت طرحتها السوداء على رأسها ولفّت حول عنقها شالًا أخضر من الصوف من نسج يديها. ثمّ تقدّمت إلى البهو تنتظر ولدها أن يخرج قبل زوجته. حتّى عيل صبرها فطفقت تتمشّى ذهابًا وإيابًا بخطى عصبيّة، وتدير وجهها إلى باب غرفته، ثمّ وقفت وانفرجت شفتاها وهمّت بمناداته، فلم يطلع صوتها أولًا، ولكنّه طلع في المحاولة الثانية عاليًا خشنًا:

– أمين! أمين! تعالَ أقل لك كلمة.

فأقبل أمين يعقد ربطة عنقه، فجذبته إلى حجرتها وأغلقت الباب عليه وهي تنظر كالسارقة، وعانقته عناقًا شديدًا، ثمّ أفلتته وأخذت تحدّق إليه، إلى جبينه، إلى عينيه، إلى شعره، ثمّ مدّت يدها تداعب صدره، وهجمت عليه ثانية تقبّله وتضمّه وتشمّه. فأزاحها عنه وحاول أن يتناول كفّها ويرفعها إلى فمه،

فمنعته وتناولت كفّه وأكبّت عليها بشفتيها. ثمّ رفعت وجهها فإذا عليه صورة هائلة، مزيج غريب من ضحك السرور وضحك اللوعة، أرادت أن يغلب الأوّل الثاني فغلب الثاني الأوّل فانفجرت بالبكاء:

– نسيتني! نسيت أمّك! أمّك التي أنزلتك من قلبها، نسيتها وتركتها أرملة وحيدة مسكينة. أرأيت! أرأيتها بعينيك؟ ماذا عملت لها لتكرهني هكذا؟ مات أبوك فقلت: لي هذا الولد. ربّيتك بدموع عينيّ، فجاءت وسلختك عنّي سلخًا، لا أراك إلّا من السنة للسنة. أتكون بيروت أميركا ثانية؟ ولكنّها، هي، محرومة نعمة الأمومة. هي لا تعرف محبّة الأمّ لولدها حتّى يرزقها الله ولدًا. الله يبعث لك ولدًا يا ابني لأراه وأموت.

– أُسكتي! أُسكتي يا أمّي، أنا أحبّك. وسأظلّ أحبّك أكثر من كلّ نساء الأرض. لا تبكي.

* * *

مشى الثلاثة على الثلج في طريق الكنيسة، تغرق أحذيتهم فيه وتحدث كلّ خطوة خشّة ناعمة كمن يدعس في بيدر. وكان الهواء يقرص الوجوه، والبساط الأبيض الكبير يبهر العيون، فشكت أوديت البرد، وأعلنت أنّها ستقع مريضة بسبب هذه الليلة، ثمّ توجّهت إلى زوجها وقد خفت صوتها وامتلأ حقدًا:

– من أين لأمّك هذا القميص الصوف الذي تنسجه؟ هل تريد أن تكذب فتقول لي إنّك لم ترسله إليها أنت؟

فعقد أمين حاجبيه وأجابها بحزم:

– بلى، أنا قدّمته إليها. هذه أمّي.

ثمّ رأى أمّه تقترب منهما فسكت، وأراد أن يُسكت زوجته فنزع معطفه ولفّها به. فنزعت الأمّ شالها عن عنقها ولفّت به عنق ابنها وأخفت له أذنيه تحته، وردّت طرفًا منه على صدره وربطته بالطرف الآخر من الوراء. فأخذ أمين يضحك من هذه القيافة ويحاول أن يعيد الشال إلى أمّه فرفضت.

بعد القدّاس تزاحم القرويّون أمام المغارة في الزاوية الشرقيّة من الكنيسة. وكان كلّ واحد يحمل إلى الطفل يسوع هديّة: هذا قروشًا يضعها في صحن على كتف المغارة، وذاك عنقودًا من العنب المحفوظ طول الشتاء في كيس، وهذه حُقًّا من الفُلّ، وتلك كيسًا صغيرًا من الطحين. فلمّا جاء دور أمين تناول محفظته بحركة كبيرة يريد بها لفت الناس إلى هديّته السنيّة وحطّ منها ربع ليرة في الصحن. أمّا الأمّ فتنبّهت إلى أنّها نسيت هديّتها هذه السنة فأحسّت بخجل عميق. وقفت أمام المغارة تتأمّل في الطفل المصغّر، وفي انحناءة أمّه العذراء وأبيه مار يوسف عليه، وفي الحملان والبقر، وفي الضوء الذي يشعّ عليه. ولبثت جامدة تنظر إليه طويلًا دون أن تطرف لها عين. وخامرها شعور مبهم، ضعيف بادئ بدء، ثمّ أخذ يتّضح ويقوى شيئًا فشيئًا: ما أشبه فرحة العذراء بيسوع بفرحتها هي يوم وُلد أمين! ولكنّ طفلك هذا، يا مريم، سيسلخونه عنك ويصلبونه! وستقاسين غدًا آلامًا هائلة لم تقاسيها امرأة في الدنيا! والأمّ تعرف شيئًا من هذه الآلام وإن لم يصلبوا لها وحيدها، لا سمح الله! ولا سمح الله أيضًا بالشبه بين يسوع الإله وأمين الإنسان! اِغفر يا يسوع لهذه الأمّ المعذّبة كفرها! أنت نزلت في أحشاء عذراء لم يمسّها رجل، وهو ثمرة أحشاء امرأة أحبّت رجلًا حتّى الجنون. رجلًا كانت ترى السعادة بين ذراعيه، فإذا الموت يأخذه ويرميه جثّة في القبر الملاصق لهذه الكنيسة...

وجثت الأمّ وضمّت يديها الاثنتين وحنت رأسها إلى اليمين وصلّت من أجل زوجها ومن أجل وحيدها بخشوع حقيقيّ.

* * *

حينما عاد الثلاثة إلى البيت تقدّم أمين إلى أمّه وتمنّى لها عيدًا سعيدًا، فقبّلته على خدّيه وتبادلت مع أوديت

عناقًا جافًّا وذهبت إلى حجرتها. وبينما هي تخلع ثيابها سمعت جدالًا بين الزوجين، ثمّ ضحكة وقحة من كنّتها، فأصاخت، فاستطاعت أن تتبيّن من الحديث أنّ أوديت تهزأ بزينة الأمّ، وتقول إنّ مسحات البودرة ظاهرة على وجهها، وإنّها، هي الأرملة الكبيرة في السنّ، الحزينة على زوجها، ما حاجتها إلى الزينة؟ وأمين يعنّف زوجته على هذه الملاحظات ويقول لها إنّها أشياء لا تعنيها، فمن واجبها أن لا تتدخّل فيها بخير ولا بشرّ. غير أنّ لهجته في التعنيف كانت ضعيفة وكان يسكت على كلمات أحسّت الأمّ بأنّ عليه أن لا يسكت عليها، وودّت لو أنّها تدفع هذا الباب بيديها وتدخل وتقف في وجه كنّتها وتقاتلها!

ولمّا انقطع الجدال أقفلت الأمّ باب حجرتها وحملت القنديل إلى جانب المرآة وجعلت تنظر إلى وجهها. أصحيح أنّ المسحات ظاهرة عليه؟ بودرة! بودرة! إنّ الأمّ لم تعرف البودرة في حياتها، بل تستعمل دلوك البيض* الذي كانت أمّها تستعمله من قبلها. أجل، بعض مسحاته ظاهرة على خدّها الأيمن، نتيجة السرعة حينما تزيّنت قبل الخروج إلى القدّاس. أو هي الخطوط التي أحدثتها دموعها لمّا بكت على كتف ابنها. لماذا لم تُعد نظرها على وجهها قبل الخروج؟ بل لماذا لم ينبّهها أمين إلى هذه المسحات، مع أنّها سألته عن وجهها وعن طرحتها وعن ثيابها فأجاب أنّ كلّ شيء فيها جيّد؟ أتُراه يهمل أمّه إلى هذا الحدّ؟ ولماذا يقف أمام امرأته دقائق وهو يسوّي لها قبّعتها، وزنّار معطفها، وصفّة شعرها؟

ورفعت الأمّ يدها إلى خدّها وجعلت تزيل المسحات، كأنّها تحسّن ظنّ نفسها بنفسها بعد فوت ما فات. وجمدت عيناها فجأة. أجل، لقد كبرت! إنّ الشيخوخة تهجم عليها وتفترس كهولتها افتراسًا. فالزمّة في العين اليسرى التي كانت غمزة ظريفة – على قول زوجها لها – ازدادت وأصبحت عيبًا صريحًا. وهذه التجاعيد، وهذه الظلال القائمة التي تكسو الخدّين، وهذا العنق الذي برز وريده وارتخت أعصابه، وهذه الشعرات التي ابيضّت وذهب أكثرها فاضطُرّت إلى استعمال الجدائل المستعارة، وهذا الفم الذي ترهّلت شفتاه ونضب ماؤهما...

لقد كبرت. حقًّا قالت عنها كنّتها ما قالت.

وهزّت الأمّ برأسها ونظرت عفوًا إلى صورة أوديت المعلّقة على جانب المرآة. كانت جميلة بثياب العرس! عيناها المنيرتان الصافيتان، قامتها المعتدلة، وجهها المدوّر، وفمها ذو الشفتين الرقيقتين. جميلة، ولكنّه جمال لا تدري الأمّ أيّ قحة فيه. جمال لم ترَ مثيلًا له بين بنات القرية. أتُراها لا تحبّه لأنّه غريب، أم لأنّ أوديت حين تتكلّم تنعكس نفسها ذات الأهواء العديدة الجامحة على وجهها، فتنكره قرويّة لا تستطيع أن تفهم الجمال بلا سذاجة؟

ولكن ما لها هي وللجمال! قبيحة! عجوز! خرقة بالية! ما يهمّها؟ أليست هي أمًّا؟ ألا يحقّ للأمّ أن تحبّ ابنها، وتطالبه بحبّها؟ ومن لها في الدنيا سواه بعد وفاة أبيه؟

* * *

ورجعت الأمّ تحدّق إلى صورة زوجها وصورة ابنها، وتستعيد في ذاكرتها حياتها الماضية من أوّلها إلى آخرها. وكانت صور تلك الحياة تتوالى أمام عينيها واحدة واحدة بوضوح نادر.

عاشت مع زوجها ستتين غير كاملتين. كانت تعبده عبادة. تزوّجت منه على كره من والديها وكانا يريدان زفّها إلى ابن عمّ لها. تتذكّر، في هذه الساعة، كيف التقته على العين وهي تملأ جرّتها، وكيف دنا منها واتّفق معها على خطفها، وكيف خرجت في الليل حافية بعد أن نام والداها وإخوتها الصغار حاملة صرّة ملابسها،

* لا تزال بعض القرويّات في لبنان يستعملنه، وهو كناية عن قشر البيض مدقوقًا ومعجونًا بطريقة خاصّة.

وكيف مدّ بذراعيه إليها من العربة فتناول منها الصرّة أوّلًا ثمّ احتملها إليه ، ودرجت العربة بهما إلى بعيد وأخذ الحوذيّ يلهب أكتاف الفرسين وآذانهما بسوطه ... تكاد ترى خيال السوط في الفضاء ، وتكاد تسمع وقع حوافر الفرسين وحزّ الدواليب على حصى الطريق . وكيف وقفت إلى جانبه أمام كاهن القرية المجاورة . وكيف عاد والداها فرضيا وأقاما لها عرسًا بعد أن رأيا نفسهما أمام الأمر الواقع .

هل كانت تظنّ في ذلك الوقت أنّه سيموت بتلك السرعة ؟ صفقة هواء ذهبت به في أسبوع فانقصف انقصافًا . قضت مدّة الزواج كلّها وهي لم ترفع صوتها اعتراضًا . كان أميرها المطاع ، وكانت أمته . أجل ، كان يقسو عليها بعض الأحيان فيصيح بها أو يرفع عليها يده ، فلا تلبث أن تزحف إليه مستغفرة عن ذنب ربّما كان هو مقترفه . وتحوم حواليه وتغسل له رجليه . أليس الرجل رأس المرأة كما يقول الإنجيل ؟ أليس الرجل يعاني الحياة وأتعابها ؟ فعلى من يفرّج همومه وغمومه إن لم يكن على امرأته ؟ إنّها الآن تتذكّر تدويرات عينيه فيها ، وتحسّ صيحاته في أذنيها حلوة ، ويده عليها لذيذة . ليته عاش ليعنّفها دائمًا ، وليملأ البيت بأنفاسه دائمًا ! ليته عاش ليرى ابنه ! مات قبل أن يولد بشهر . وحينما رأى الصغير النور قالت : سيكون اسمه أمين على اسم أبيه .

وقد أخذ أمين عن أبيه ملامحه وطباعه . أما هو ذو جبروت مثله ؟ ألم يرفع يده مرّة عليها كما كان يفعل أبوه ؟ ولكنّه فقد جبروته بعد زواجه . لماذا لا يرفع يده على امرأته ؟ لماذا ؟ !

وقضت الأرملة السنين تبكي . جاء شبّان كثيرون وخطبوا يدها ، فأعرضت عنهم عازمة أن تقف نفسها على وحيدها . قطعت كلّ صلة لها بالرجال ، موقنة في عقلها وفي قلبها أنّ رجلها مات ولن يرجع . وكانت تنظر إلى الصبيّ يكبر بين يديها فينعش أملها ويتحوّل عزاؤها إلى فرح وزهو عظيمين . كانت تحتضنه وتقول له : أبوك مات وتركني لك ، فأنت ابني وأنت ربّ البيت مكانه . وكانت تغسل له رجليه كلّ مساء ، وتضجعه إلى جانبها في فراش واحد ، إلى أن تجاوز من العمر الخامسة عشرة ، فانفرد بفراش له على كره منها ، فاستبقت من عادتها زيارته في فراشه كلّ صباح وتدفئة قلبها على حرارة لحافه .

وكانت تغار عليه من النساء ، إذا حدّثها قبل زواجه عن إحداهنّ مداعبًا تجهّم وجهها وشنّعت بها تشنيعًا . أيكون ذلك لأنّها لم تكن تريد لأمين زواجًا ؟ كانت تقول له إنّ الفتاة التي ستكون عروسه لم تقع عليها عيناها بعد . وكانت تصنع في مخيّلتها بعض الأحيان صورة تلك العروس ، ولكنّها لا تلبث أن تخرّبها وتطرد الفكرة وتذهب إلى وحيدها وتعانقه ، دون أن يعلم هو السبب أو المناسبة .

وها هو قد تزوّج . كانت الأمّ على حقّ في خوفها من بيروت ، المدينة المملوءة بشيطانات النساء . نزل ليتقلّد وظيفة في الحكومة ، وأحسّت لدى وداعه أنّه ينسلخ عن قلبها انسلاخًا لا ردّة له . ولكنّه وعدها مؤكّدًا أنّه سيطلع إلى القرية ويزورها مساء كلّ سبت وينزل إلى عمله صباح الاثنين . قام بوعده ستّة أشهر دون أن يخلف مرّة . ثمّ أخذت غيباته تطول بأعذار شتّى ، فتستنطقه إذا التقيا فينكر ، فتكذّب نفسها حينًا وتكذّبه حينًا . وأخيرًا ظهرت الحقيقة عارية :

– ألم أكن أقول لك يا أمين إنّك تحبّ ؟

... كيف ألحّ عليها وانطرح يقبّل رجليها ، وتركته يفعل لأوّل مرّة في حياتها . وكيف أقنعها فذهبت معه إلى بيروت وقامت بزيارة لأهل الخطيبة ، وكيف عادت إلى البيت ولبثت حزينة – مع أنّ أوديت أعجبتها بجمالها – وكيف زوّجته بعدئذ وحاولت أن تسكن معه في المدينة ، فقام الخلاف بينها وبين كنّتها والصياح . وكيف كانت تنتظر من أمين أن ينتصر لها ويدافع عنها فإذا هي تُفاجأ بالتعنيف من قِبله ، وكيف ذهب هو فقضى ليلته بجانب امرأته وترك أمّه تقبع في

غرفتها وتبكي . وكيف قامت في الصباح وحملت صرّة ثيابها وصعدت إلى القرية مخلوقة مهانة حقيرة ، أرملة شقيّة ، وأمّا تذوق أفجع من الثكل .

* * *

كانت الأمّ تمضغ في ذهنها هذه الذكريات وهي تحدّق إلى صورة ولدها . ثمّ نقلت عينيها إلى صورة زوجها وتأمّلتها مليًّا ، فخُيّل إليها أنّ أجفانه تتحرّك وأنّ فمه ينفتح ، وأنّه يبتسم لها ويخرج من الصورة ويمشي في البيت . فاقشعرّ بدنها وأدارت رأسها كأنّها تفتّش عنه . عن يمينها . عن شمالها . وراءها .

زوجها لا يعاملها هذه المعاملة ! ... لماذا هذه المقابلة بين زوجها وابنها ؟ لماذا تختلط صورة هذا بصورة ذاك ؟ ابنها لا يمكن أن يكون لها مثل زوجها . لقد تزوّج . ألا تكفيها سعادته ؟ ولكن . في الواقع . لماذا لم تسأله مرّة بعد زواجه : هل أنت سعيد ؟ ولماذا لا يقول لها شيئًا من تلقاء نفسه ؟ لماذا تغيّر طبعه بعد زواجه فأصبح كتومًا جافيًا بعد أن كان يركض إليها فيبوح لها بأفكاره وخلجات قلبه ؟

ودار رأس الأمّ فتنهّدت تنهّدة عميقة تلقي بها عنها حملًا إلى الأرض وقامت تريد النوم . لكنّ قدميها وقفتا بها عند الباب فشقّته ولكنّها لم تدخل . مالت ، وأصغت لجهة غرفة أمين وزوجته ، ثمّ انسلّت ووضعت أذنها على بابهما . لقد رقدا . كيف لها أن تعرف هل هما في فراش واحد ؟

نظرت من خصاص الباب فلم تتميّز شيئًا . الظلام دامس . وإنّ الارتباك ليحرّق شفتيها تحت أسنانها إذا بالسماء تسعفها ببرق ، وإذا بها ترى الفراشين ملآنين . فانخلع قلبها انخلاعة فرح ، ومدّت أصابعها إلى المزلاج برفق وأخذت تشقّ الباب ، ثمّ مرقت منه على مشط رجليها ، مادّة يديها أمامها تتلمّسان طريقها . وكانت تحاذر في وضع كفّيها لئلّا تقعا على عضو منه فيستفيق . فإذا حدث ذلك فماذا تقول ؟ ماذا يقول هو ؟ وإذا أحسّت كنّتها فماذا تفعل ؟ ... أخيرًا لمست يدها اليمنى طرف اللحاف فرفعته بتؤدة . وحدّثتها نفسها بأن تصعد إلى السرير وتضطجع إلى جانبه هذه الليلة ، ساعة من هذه الليلة ، دقيقة واحدة . أن تشعر بأنفاسه على وجهها ، أن تضمّه إلى صدرها بقوّة ، أن تحسّ بأنّه ما زال ملكها ، ما زال لها منه شيء ...

وهي تتذكّر الآن وقفة سبقت لها بجانب هذا السرير مثل هذه الوقفة ، إذ غضب زوجها عليها لأمر من الأمور وناما متباعدين . فقامت في الليل إلى فراشه تسترضيه ، وحاذرت مثل هذه المحاذرة . ولكنّ هذا ابنها ، وذاك زوجها ، وابنها غير غاضب عليها لأمر من الأمور . فلماذا لا ترفع اللحاف وتعانقه ؟

وهمّت بأن تنفّذ إرادتها ، فدار أمين على نفسه فظنّت أنّه استفاق وأنّه يشعر بوجودها ، فطلعت إلى ذهنها ذكرى أخرى أقرب من الأولى ، مزعجة هذه ، ذات أشواك وإبر حادّة . ذكرى ترجع إلى عهد كان أمين ينام معها في فراش واحد ، بل إلى الليلة الأخيرة من ذلك العهد . ليلة رأت نفسها في الحلم بين ذراعَي زوجها يضغطها بكلّ قوّته ويعصرها فتذوب على صدره حبًّا ، وتقبّله هي على فمه قبلة كبيرة . فإذا هي تستيقظ وشفتاها على شفتَي ولدها ، فاستغفرت مريم العذراء وطردت الشيطان .

وها إنّ الحلم نفسه يعود ، فتطرده فيعود عنيدًا ... حينئذ أدارت الأرملة رأسها نحو سرير كنّتها وقد بدأ قلبها يضاعف خفقاته ، فلم ترَ شيئًا لشمول العتمة ، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرّات ، ثمّ انحنت على سرير ابنها فاتحة شفتيها ، وقبّلت عضوًا ظنّته جبينه . فإذا السماء تبرق من جديد ، وإذا الأم ترى نفسها على مؤخّرة السرير وفمها مطبق على قدم أمين . فطفرت الدموع من عينيها فغطّت قدمه جيّدًا وعادت إلى غرفتها تخنق الشهقة في حلقها خنقًا .

* * *

في الصباح استفاقت الأمّ على صياح ديكة الجيران تتجاوب من بيت إلى بيت، ولم تدرِ أيّ انقباض خامرها لسكوت ديك دجاجاتها سكوتًا أبديًّا.

طلبت أوديت من زوجها أن يذهبا في نزهة على الثلج في ذلك النهار المشمس الذي تنبعث فيه من كلّ ناحية في الأرض والسماء فرحة هادئة قريبة جدًّا من الحزن. أليس للحزن أحيانًا مظهر الفرح وللفرح مظهر الحزن، فهما متداخلان لا يفترقان، يشعر القلب بهما معًا ويتعب العقل تعبًا مزعجًا في شطر الواحد عن الآخر؟

كانت تودّ أن ترافقهما في هذه النزهة، ولكنّها انتظرت أمين أن يدعوها فلم يفعل. ثمّ إنّ زوجته كانت تقفز قفزًا وتستعجل في الخروج، فخرجا وبقيت الأمّ وحدها. وأرادت أن ترتّب البيت، ولكنّها تذكّرت شيئًا، فذهبت إلى قميص الصوف، وكان عليها أن تكمل نسج الكمّ الثاني منه، فقبعت في الزاوية تُدخل صنّارتيها في الخيطان وتُدخل الخيطان في النسيج بحركات عصبيّة مسرعة. فإذا أخطأت في نسجة أو خانتها يدها، غضبت على نفسها غضبًا شديدًا.

ومضت ساعة من الزمن. وإذا أمين وأوديت يعودان في سيّارة. فقفز قلبها هلعًا. أيريد أن يتركها؟ أيريد أن ينزل الساعة إلى بيروت؟ أقنعته زوجته. سينزل دون أن تشبع أمّه منه وتروي قلبها...

وكان ذلك.

ولكنّ الأمّ لم تكثر الإلحاح، بل اكتفت بكلمة واحدة. كانت تحسّ بتصلّب في شعورها غريب. هو أكثر الكلام وحشر الأعذار بعضها فوق بعض، فأصغت إليه ساكتة وقد ظهر على وجهها أنّها تصدّقها كلّها في حين أنّها لم تكن تصدّق عذرًا منها، وكان كلامه يرتدّ عن قلبها كما ترتدّ الطابة عن حيط.

* * *

عندما صار أمين وزوجته في السيّارة سحبت الأمّ من تحت إبطها شيئًا ملفوفًا في ورقة، ودفعته إلى ابنها وقالت له:

– هذه هديّة عيد الميلاد من أمّك. أخاف عليك من البرد. دفّئ بها صدرك.

ثمّ التفتت إلى كنّتها وتابعت بابتسامة:

– يا ابنتي أوصيك به. إنّه لا يعتني بصحّته.

فزّق أمين طرف الورقة فإذا فيها القميص الذي أهدى صوفه إلى أمّه لتصنعه لها فصنعته له. فتناول كفّها ليقبّلها فأرجعتها وأهوت عليه تعانقه، وكانت أوديت قد أشارت إلى السائق بأن يمشي فتحرّكت السيّارة، وجاءت القبلة الأخيرة في الهواء!

ولمّا توارت السيّارة وانقلبت الأمّ إلى بيتها أحسّت في جنباته، على فُرشه الباردة الباقية على السريرين والأرض، وعلى ثيابها السوداء الطويلة، وفي أعماق نفسها، رطوبة اليأس وعتمته وثقله، كأنّها تعود الآن من دفن زوجها...

... كأنّها ترمّلت مرّة ثانية.

الـــوســـام

لمّا دخل بركات الراسي مأوى العميان خُيِّل إليه أنّه يدخل قصرًا منيفًا. أمسكه الكاهن بيده وقاده صعودًا على درج طويل وهو يلاطفه ويردّد عليه :

– أنا ملاك الرحمة يا ابني ، أرسلني الله إليك لأخلّصك من شقائك! الشغل هنا قليل والراحة كثيرة. تأكل وتشرب مع رفاقك السعداء ، والخدم يعتنون بكم ، وأنا أسهر عليكم كما تسهر الأمّ على أولادها.

وكان بودّ بركات لو تنفتح عيناه ليرى صاحب هذا الصوت الناعم ووجه هذا المحسن الكبير. ولكنّه كاد ، وهو يفكّر بهذه الأمنية ، أن يعثر على إحدى الدرجات لو لم تتداركه عصاه ويد رجل الله ، فتابع سيره وقد لاحت على شفتيه ابتسامة اعتذار.

وقف مدير المأوى عنايته ذلك اليوم على الضيف الجديد. فطاف به أقسام المأوى من قاعة النوم ، إلى المشغل ، إلى ساحة النزهة ، إلى المطعم. وأبى أن يخرج به من المطعم إلّا بعد أن أمر له بحساء ولحم وحلوى.

وبعد الظهر قاده إلى المشغل ، فسمع بركات على العتبة خشخشة القشّ وطلعت رائحته إلى أنفه. وما كاد المدير يدخل حتّى وقفت الحركة في الغرفة ، وأخذ كلّ واحد من البضعة عشر أعمى يسوّي جلسته ويرفع في الفضاء عينيه المطفأتين منتظرًا. فإذا صوت عريض يعرفونه يقول :

– جاء كم رفيق لكم. أُدخل يا بركات ، هؤلاء إخوتك. أوصيكم أن يحبّ بعضكم بعضًا... يا أبو عمشه ، سلّم إلى بركات شغلًا.

فقام من بينهم واحد إلى بركات وأخذه من كتفه إلى زاوية في المشغل وأعطاه هيكل كرسيّ وقشًّا ، وأوصاه بالإتقان.

وما تلاشى وقع قدمَي المدير حتّى انحنى العميان يهمسون بعضهم في آذان بعض :

– بركات؟

– بركات؟! ...

– بركات الراسي ، أم غيره؟

فهتف بركات مسرورًا :

– بلى. بركات الراسي!

فزحف إليه ثلاثة يعرفونه وأخذوا يتحسّسونه ويسلّمون عليه :

– كيف علقت بالفخّ يا بركات؟

– خدعه ملاك الرحمة ، كما خدعنا!

– يتاجرون هنا على ظهورنا ويأكلون أتعابنا. الله يعاقبهم!

– الله مع المفتّحين ، وهو مع العمى علينا!

– خبّرنا يا بركات ، خبّرنا كيف اصطادك أبو الذقن الملعونة !

– هس ! هس ! أبو عمشه يسمعنا.

وعادت الأيدي إلى العمل وساد الردهة صمت مريب لا يقطعه إلّا صوت القشّ طالعًا نازلًا ، وسعال يخرج من أحد الأركان كأنّ صاحبه يبصق فيه دمه.

* * *

أصغى بركات إلى أحاديث أصدقائه الثلاثة يوسف وحنّا وفريد. أصحيحة هذه الأشياء التي يقولونها له؟ الأكل قليل ! ... والشغل كثير ! ... والمدير ظالم ! ... وأبو عمشه جاسوس ! ...

– وإذًا ، فلِمَ لا نخرج من المأوى ونعود إلى تقشيش الكراسيّ للناس؟

فضحك الثلاثة ضحكة مرّة وتابعوا شرحهم لبركات يفهمونه أنّه مضطرّ إلى العمل من الصباح إلى المساء ، وأنّ له على كلّ كرسيّ قرشين إذا كان عازبًا ، وخمسة قروش إذا كان متزوّجًا – والمتزوّجون في المأوى أربعة فقط – وتبقى الأرباح في صندوق المأوى. يأتي في يوم الأحد أهل المتزوّج فيأخذون نصيبهم ، ويبقى نصيب العازب أمانة إلى يوم لا يعلمه إلّا الله ، لأنّ الباب مفتوح للداخلين ، مقفل على الذين يريدون الخروج.

لم يصدّق بركات بادئ بدء أذنيه. فالمدير رجل لطيف يأتي كلّ يوم إلى المشغل ويربّت على كتف بركات ويسأله عن حاله ، ويتفقّده على المائدة ويأمر الخادمة بملء صحنه إلى فوق ، وأبو عمشه لا يفتأ يحوم حواليه ويقول له : إذا عرضت لك حاجة فقُل لي أقضِها لك. ثمّ يردف : أرأيت هذا المدير؟ قدّيس !

ولكنّ الحقيقة ظهرت أخيرًا. كان يوسف وحنّا وفريد على صواب. العميان يتذمّرون جميعًا. بل ها هو يختبر بنفسه. المدير يهمله ، وأبو عمشه ينتهره ، والأكل قليل والشغل كثير. فحزن بركات وانفرد في زاويته ذات مساء يفكّر. فأحسّ أبو عمشه بأنّ بركات لا يشتغل فصاح به :

– حرّك يديك !

فلم يجبه ، فصاح به :

– اِشتغل !

فظلّ معتصمًا بالسكوت.

– أتريد أن أنادي المدير؟ قلت لك حرّك يديك ! حرّك يديك ! اِشتغل !

فسارت بين العميان غمغمة منكرة ، فجعل أبو عمشه يدور على نفسه من الغيظ ، ثمّ دنا من بركات متلطّفًا وهمس في أذنه :

– يا بركات ، لا تسمع لهم... ما بك؟

– أنا مريض ، لا أستطيع أن أبقى هنا. أين المدير؟ قل له إنّي أريد ترك المأوى.

– ترك المأوى؟ ها ! ها ! ...

وابتعد أبو عمشه ، فعاد بركات إلى وجومه وقد ثارت في نفسه عاصفة من الغضب ، إلّا أنّه كبحها واستأنف عمله.

وعندما أوى العميان إلى أسرّتهم في الليل استلقى على ظهره ورفع أذنيه في الفضاء يتسمّع. وكان العميان يتمازحون قبل النوم ويتراشقون بالنكات ، فيصيح بهم أبو عمشه : ناموا ! ناموا ! وكان يعرف صوت كلّ واحد منهم. غير أنّ بركات لم ينبس تلك المرّة ببنت شفة. فقال أبو عمشه :

– تشبّهوا ببركات ، وصلّوا وناموا !

وظلّ بركات ينتظر والشخير يتبع الشخير حتّى ساد النوم الغرفة. وكان يحبس أنفاسه ويحاول أن يتبيّن من خلال هذه الضجّة حركة أو صوتًا يدلّ على يقظة أحد. ثمّ رفع اللحاف عنه وأنزل رجليه الحافيتين إلى الأرض ودفع يديه أمامه. وما صدّق أنّه خرج حتّى أغلق الباب وراءه برفق وتلمّس الحائط. هذا حائط الممشى. ومن الممشى إلى البهو ، ومنه إلى الساحة ، ومن الساحة... أفّ ! أهي طويلة إلى هذا الحدّ المسافة بين

أوّل الساحة وسورها؟ هذا ترابها الناعم البارد يداعب قدميه. آخ! حجر محدّد يغرز بين أصابعه! لا بأس، بشرط أن لا يراه المدير أو مريم الملعونة... هذا هو السور، هذا هو السور! هذا ملمسه الخشن وهذه حجارته النافرة! وتسلّق بركات السور بيدين ورجلين ترتجف. إلى فوق، إلى فوق!... إذا كان للسور هذا العلوّ من الداخل، فما علوّه من الخارج؟! سيرمي نفسه إلى الشارع مهما كان من أمر، فيصل سالمًا أو محطّمًا، لا فرق. ألا يتخلّص من هذا السجن على كلّ حال؟... ثمّ يعود إلى حياته الأولى فيطوف في الأحياء وينادي: قشّاش كراسي! قشـ... ـشّاش كراسي!

وبينما بركات يتسلّق الجدار متذوّقًا طعم هذه الأمنية العذب استشعر حركة وراءه في الساحة، فانخلع قلبه وانحلّت يداه ورجلاه، فجمد هنية ينتظر. فإذا صوت المدير في أذنه مع قهقهة ساخرة:

– أهذا أنت يا بركات؟!.

وظنّ بركات أنّ في استطاعته الخلاص بنفسه، فرفع رجله اليمنى إلى فوق، ولكنّ يدًا أمسكت برجله اليسرى وشدّت به، فوقع مجرجرًا وجهه على حجارة الحائط الناتئة حتّى سال منه الدم، وجعل يصيح:

– أُتركني! أُتركني أخرج!

– يا مسكين يا بركات!

فعرف بركات صوت أبو عمشه:

– أنت أيضًا يا أبو عمشه؟ بحياة جروح المسيح تتركني يا محترم! أُتركني يا أبو عمشه!

ولم يكمل بركات توسّله حتّى أحسّ بالكاهن ومساعده ينهضانه عن الأرض، فأرخى ثقله بينهما وأبى المشي، فانتهره المدير بصوت أجشّ:

– اِمشِ، اِمشِ!

ثمّ تناول من جيب قبائه الواسع سوطًا من الجلد يحمله دائمًا مع السبحة، وأمر أبو عمشه، فلفّ يدَي بركات خلف ظهره، ثمّ انهال بالسوط على المتمرّد ضربًا على رجليه وكتفيه ورؤوس أصابعه المجموعة.

ثمّ قال:

– اِحمله معي يا أبو عمشه!

فحملاه ومشيا، ونزلا به درجات كثيرة وهو لا يعلم إلى أين وحطّاه على الأرض، فسمع صوت مفتاح وصرير باب ثقيل، ثمّ أحسّ بيدين تدفعانه إلى الداخل، وبقدم ضخمة ترفسه على فخذه وسمع المدير يشتمه وأمّه، فحاول أن يجيبه على شتيمته ولكنّ الباب أُغلق على ظهره، فنادى فلم يجبه أحد، فعالج الباب ساعة حتّى إذا استيأس منه طاف في المكان متلمّسًا الحيطان والأرض فعرف أنّه في القبو.

وكان صديقه يوسف قد حدّثه عن هذا الحبس وأخبره بأنّه قضى فيه ليلة هي أفظع ليالي حياته.

وظلّ بركات واقفًا على قدميه هزيعًا من الليل. واهتدى أخيرًا إلى حزمة من القشّ في زاوية من زوايا القبو فاضطجع عليها وأدركه النعاس.

* * *

استفاق مع الفجر على حذاء المدير يرفسه ويقول له:

– سيقودك أبو عمشه إلى الكنيسة لتسمع القدّاس. وإيّاك أن تفوه بكلمة! لا أنت حاولت الهرب، ولا أنا وضعتك هنا. وإلّا كان جزاؤك أسبوعًا كاملًا في هذا القبو، مع كأس ماء في اليوم لا أكثر ولا أقلّ.

وما انتهى القدّاس والتقى العميان في الساحة حتّى زحف بركات إلى يوسف فأخبره بما جرى له، ويوسف أخبر حنّا، وحنّا أخبر فريد، وفريد أخبر كرم، وكرم أخبر رشيد، ومن رشيد إلى أبو عمشه، ومن أبو عمشه رأسًا إلى المدير. ولكنّ المدير مسح بكفّه كتف أبو عمشه وهوّن عليه، فقال أبو عمشه:

– بركات يسبّك أمام العميان كلّهم. وهم يسمعون له ويهزأون بي!

– أنسيت ، يا ابني ، أنّ الله يوصينا في إنجيله أن نحبّ أعداءنا ومبغضينا وأن نحسن إلى من أساء إلينا؟

ثمّ أردف :

– هؤلاء الخنازير لا يقدّرون التضحية ! ولكنّ هنالك أناسًا يقدّرونها . هل عرفت يا أبو عمشه بالخبر؟ لقد قرّرت الحكومة أن تمنحني وسامًا؟ هل تفهم؟ سيعلّقون على صدري نيشانًا .

ويا ليت أبو عمشه كان مبصرًا ليرى على وجه سيّده التهاليل !

* * *

عند الظهر ، بينما كان العميان على المائدة ، إذا بصوت بركات يصيح :

– هاي ! أنتِ يا مريم ! ما هذا الطعام الذي لا يأكله الخنازير؟ اللحم تفوح رائحته بالنتن . قولي للمدير نريد لحمًا طازجًا .

ولكنّ الخادمة ظنّت الأمر مزاحًا فقهقهت عاليًا ، فصاح بركات :

– وهذا الزيتون المدوّد لا نأكله !

فكادت تقع على موخّرتها ، لولا أنّ رأت بركات يتناول صحن الطبخ ويدلقه على المائدة ، فهرولت تنادي :

– أبونا ! أبونا ! يا محترم ! يا محترم !

فقال بركات :

– تذهبين إليه؟ حسنًا . قولي له إنّنا منتظرون .

ولكنّ بركات ورفاقه – وكانوا قد تفاهموا على اللعبة بغياب أبو عمشه – انتظروا عبثًا . ثمّ مدّ بركات يده إلى صدره وتناول نايه ودقّ على المائدة ثلاث دقّات . فسحب جيرانه ناياتهم ، وتلكّأ آخرون . إلّا أنّهم لمّا سمعوا غيرهم ينفخون تشجّعوا وسحبوا ناياتهم ، ما عدا أبو عمشه فقد بقي مشدوهًا لا يفهم شيئًا . وانطلقت في جوّ الردهة الفسيح موسيقى ضاجّة ، متنافرة ، غريبة ، تصمّ الآذان . وتهوّس أكثرهم عليها فراحوا يقرعون البلاط بأقدامهم حينًا وعصيّهم حينًا ، ويلوّحون برؤوسهم كأنّهم جماعة من المجانين أو القرود ، حتّى تعبوا فأمسكوا ، وعلت احتجاجاتهم .

– دعونا نخرج من هذا الحبس !

– نريد الحرّيّة !

– أرجعونا إلى الشوارع !

– أعطونا أتعابنا !...

ثمّ سمعوا الصوت الذي يعرفونه فتهامسوا : هذا أبو الذقن . فقام أبو عمشه عن كرسيّه يريد لقاء المدير ، ولكنّ المدير تركه وصاح متظاهرًا بالبحث عن الخادمة :

– مريم ! مريم ! أين هي هذه الملعونة؟ من قال لك أن تشتري لهم هذا اللحم؟ من هو هذا القصّاب الـ... (وتذكّر المدير ذقنه وثوبه) خذي هذه خمس ليرات ، سليهم ماذا يحبّون أن يأكلوا على العشاء !

فساد صمت حائر مبغوت ، إلّا أبو عمشه فقد هتف بحياة المدير والدعاء له . فأسكته الكاهن بإشارة من يده ، ثمّ نادى بركات برقّة . فأقبل بركات مرفوع الرأس ، فقاده المدير إلى غرفته ، وقام العميان عن المائدة إلى الساحة يتهامسون ويحاولون أن يفسّروا عمل المدير ، فتدخّل أبو عمشه قائلًا :

– أما قلت لكم إنّه رجل قدّيس؟

فأخرسوه منتظرين عودة بركات . فلمّا جاء حاموا حواليه يطرحون عليه ألف سؤال وسؤال :

– ظننّا أنّه يريد طردك !

فقال آخر :

– يا ليت الطرد لي !

ثمّ ثالث :

– لا نخرج من هنا إلّا مجتمعين... ماذا يا بركات ، ماذا قال لك أبو الذقن؟

– ما الذي غيّره في ساعة؟

– تكلّم ... اِفتح فاك !

فظلّ بركات ساكتًا لا يحير جوابًا . وكان يحاول أن

يبتعد عن رفاقه ، فيلحقون به ويشدّونه من سترته ، ويلكمونه على كتفه ليقول كلمة فأبى . خشبة لا فم لها ، ولا أذن ، ولا إحساس .

وبات بركات ليلته تلك يعاني عذابًا غريبًا يذوقه لأوّل مرّة في حياته . كان يقضم اللحاف بأسنانه ، ويدفن رأسه بالمخدّة غاضبًا على نفسه . كيف أخبره المدير بأنّ الحكومة أنعمت عليه بوسام مذهّب تقديرًا لخدماته في سبيل الإنسانيّة المعذّبة ، وبأنّ الحاكم سيأتي إلى المأوى يوم الأحد – بعد أربعة أيّام – مع كبار الموظّفين ، فتُقام حفلة يعلّق فيها الوسام الثمين على صدره ، وكيف وعده بتسريحه من المأوى يوم الاثنين ، بل فور ختام الحفلة ، وتزويده بخمس ليرات – فضلًا عن بدل أتعابه المحفوظ في الصندوق – بشرط أن يكون هادئًا ويساعده على تهدئة رفاقه بعد الثورة التي أحدثها . وكيف قال له إنّه يحبّ الشجعان أمثاله ، وإنّه سيعلّمه خطابًا يلفظه في الحفلة أمام الحاكم والموظّفين وكبار المدعوّين ... ولم يكتفِ بذلك بل أدناه منه ومسح لحيته بخدّه وقال له :

– الله يرضى عليك يا ابني !

فضعف بركات وأجابه بالقبول ، فكان جبانًا ، وكان خائنًا مثل أبو عمشه ...

في الصباح وصل خبر الوسام إلى العميان بواسطة أبو عمشه أوّلًا ثمّ بواسطة المدير نفسه ، أعلنه عليهم ذيلًا لعظة قصيرة ، قائلًا إنّها نعمة من نعم الله ، وإنّه لا يستحقّ هذه النعمة ، وإنّ الله هو الذي يلهمه أن يعمل ما يعمل ، فما هو إلّا عبد حقير من عباده . ثمّ طلب منهم أن يصلّوا من أجله .

وبعد تناول الطعام وجّه المدير مريم في طلب بركات إلى غرفته ، فقادته إليها ، فاستقبله بالترحيب وباركه ثمّ قال له :

– نبدأ اليوم بالخطاب . أمامك أربعة أيّام لتتعلّمه ، أتكفيك ؟ تأتي كلّ يوم مرّتين قبل الظهر وبعده . أنت ذكيّ يا بركات وجريء ، ولا تستحقّ أن تكون أعمى . ولكن هذه مشيئة الله . لنبدأ بالخطاب . اِسمع جيّدًا . أنا أقوله قبلك جملة بعد جملة فتردّد ورائي .

وتناول الورقة وأخذ يقرأ :

– سعادة الحاكم ، سيّداتي ، سادتي ، أبتي المحترم .

– سعادة الحاكم ، سيّداتي ...

– لأ . لأ . قِف ، هذا غلط . قُل من جديد : سعادة الحاكم ، أبتي المحترم ، سيّداتي ، سادتي .

* * *

... كانت تلك أوّل مرّة يصعد فيها بركات إلى منبر الخطابة . وكان وسط رفاقه العميان على دكّة من خشب أُقيمت مسرحًا ، وقد لبسوا ثيابًا جديدة أمر لهم المدير بها خصّيصًا لهذه الحفلة . أربعة عشر أعمى واقفون بلا نظام ، يزحم بعضهم بعضًا وينحني بعضهم على بعض ، والحاكم والمدعوّون ينظرون إليهم ويضحكون ضحكة الشفقة على واحد يكاد يقع عن الدكّة لولا تعلّقه بثوب رفيقه ، وعلى آخر يقف مديرًا إليهم قفاه . فاضطرّ المدير أن يقوم عن كرسيّه ويعتذر للحاكم ولسيّدة جميلة بجانبه ، ويذهب إلى عميانه مدمدمًا ومنظّمًا صفّهم . وبعد أن انتهى أسرّ إلى بركات أن ابدأ بالخطاب ! وعاد فقعد على كرسيّه معرّضًا صدره ومسرّحًا لحيته ، فقالت السيّدة :

– صحيح ، أجرك عظيم عند الله يا محترم . الوسام كان في محلّه .

فشكرها بابتسامة ، لأنّ بركات كان قد فتح فاه :

«سعادة الحاكم ، أبتي المحترم ، سيّداتي ، سادتي ،

إنّه لسعيد هذا اليوم الذي تشرّفون فيه مأوانا . وكم كنّا نودّ لو أنّ عيوننا مفتوحة ترى النور وتراكم شموسًا وبدورًا تتألّق في سماء هذه المؤسّسة الخيريّة . ولكنّ الله ، سبحانه وتعالى ، لا يترك البائسين في بؤسهم وشقائهم . وكما أنّ السيّد المسيح فتح عيون العميان ، هكذا أرسل إلينا بدلًا منه حضرة مديرنا المفضال الكلّيّ

الاحترام (وحتى بركات رأسه وحتى العميان رؤوسهم كما علّمهم الكاهن) المحسن الكبير الأب روفائيل ، هذا الشهم الغيور الذي ترونه بينكم.

يا سعادة الحاكم ،

نحن نعلم أكثر من الجميع أنّ هذا الوسام الرفيع الذي أهديتموه سعادتكم إلى حضرة مديرنا المفضال علامة شرف ومجد. فأنا بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن رفاقي العميان المساكين أقول لكم – وتسمحون لي بذلك – إنّ الإنعام جاء في محلّه. لأنّ حضرة مديرنا المفضال الكلّيّ الاحترام (حنية رؤوس أخرى) هو لنا بمثابة الأب الشفيق والأمّ الرؤوم ، يسهر على راحتنا ليل نهار ، حتّى كأنّنا في بيوتنا ، مضحيًّا بكلّ ما يملك في سبيلنا . فهو ، والحقّ يُقال ، رجل الله وخادم الإنسانيّة المعذّبة.

يا سعادة الحاكم... لا. لا... أيّها الحضور الكــرام..»

وأُرتج على الخطيب ، فجعل يرفع يده إلى جبينه ويفركه والحضور يبتسمون ، والمدير يتمزّق في مكانه ويشدّ بلحيته ويجيل عينيه هنا وهناك ويتمتم على غير انتباه منه – ببقيّة الخطاب. ولكنّ بركات لم يوفّق ، وبقي دقيقتين طويلتين يردّد : أيّها الحضور الكرام... أيّها الحضور الكرام... حتّى تحوّل الابتسام في القاعة إلى عاصفة من الضحك. فانحنى بركات على رفيقه يوسف عن يمينه ورفيقه فريد عن شماله وهمس شيئًا في أذن كلّ منهما. ثمّ رفع يده وصاح بصوت مطمئنّ :

«أيها الحضور الكرام»

فعاد الصمت إلى القاعة ، وتهلّل وجه المدير وانعطف يقول للحاكم :

– هذا اسمه بركات الراسي ، إنّه أذكى عميان المأوى !

وتابع الخطيب :

«يا سعادة الحاكم ، ويا سيّداتي وسادتي ، لا تتعجّبوا إذا كنت قد غلطت في الخطاب ، فصاحب الخطاب هو الأب روفائيل لا أنا».

فامتقع لون المدير ونظر ، فإذا الناس كلّهم عيون عليه . ولكنّه تكلّف ابتسامة وأصغى إلى البقيّة :

«... أنا أعمى مسكين لا أعرف الفصاحة. وإذا كنتم تريدون منّي خطابًا صحيحًا لا خطابًا مزوّرًا فأقول لكم : يا ضيعان الوسام ! يا ضيعان النيشان !

فردّد العميان من ورائه بصوت واحد :

– يا ضيعان النيشان ! يا ضيعان النيشان !

استولت على السامعين لدى هذه المفاجأة دهشة عظيمة فسكتوا ينظرون إلى العميان حينًا ، ويستنطق بعضهم بعضًا بعيون كبيرة حينًا آخر. وغادر جيران الكاهن كراسيّهم وحاموا فوقه يسألونه : «ما هذا الأعمى الوقح؟ ما هؤلاء الكلاب تحسن إليهم؟!» والمدير يجيل حواليه نظرات تائهة بلهاء ، والعميان يُتلعون الأعناق ويُرهفون الأسماع ، وترفّ جفون من له جفون منهم رفًّا متسارعًا. ثمّ علا الصياح بينهم ، وهجم أبو عمشه على بركات ، فإذا بالمدير يشقّ الناس بكتفيه ويسبق جاسوسه فيصل إلى بركات ويصفعه صارخًا به :

– يا ناكر الجميل !

فردّدت أصوات قليلة خافتة من خلفه :

– أيوا ، يا ناكر الجميل !

وأراد بعضهم مساعدة رجل الله ، لكنّ بركات تناول خصمه بذراعيه القويّتين مدمدمًا :

– هذا أنت يا أبو الذقن؟ خذ هذه للحيتك !

وبصق بصقة جبّارة فجاءت على الوسام الجديد اللمّاع. ثمّ أردف :

– وهذه الثانية لوسامك !

فجاءت على اللحية.

حينئذ تحوّلت القاعة إلى ساحة عراك ، فما فيها إلّا قرقعة كراسيّ وأسماء الله والصليب ومريم العذراء تختلط بالشتائم واللعنات ، وصوت الخطيب يهتف بين الحين والحين :

– يتاجرون بعمانا!

... يجمعون الأموال باسمنا ويبنون القصور!

... وتعطيهم الحكومة النياشين!

... أين أنت يا أبو الذقن الملعونة! يا ملاك الرحمة!

.... تقدّم! أين أنت؟...

... أين هو؟ أهو بين يديك يا فريد؟

.... أهو تحتك يا يوسف؟!

... يا حنّا الحق به! دلّني عليه! فتّش عنه!

ومشى بركات يدفع الكراسيّ، يتعثّر، ينهض شاتمًا، يضرب عن اليمين، يضرب عن الشمال، والناس ينسحبون متزاحمين على الباب، وهو يصيح:

– أين أنت؟ أين أنت يا أبو الذقن الملعونة؟!

ولكنّ المبصرين أيضًا كانوا يفتّشون عن المدير...

كانت ساره مستلقية على فراشها وعلى وجهها اصفرار هادئ هو الاصفرار الذي يتركه سلخ حياة عن حياة. وكانت القابلة تلفّ بالأقماط كتلة لحميّة صغيرة ، والنساء يتهامسن بعد هذه الخيبة تهامسًا مريبًا ، وقد آثرت الحماة الانصراف داعية بالكسر على يد فريدة ، معلنة أمام الله أنّها يد منحوسة لا تطلع عليها إلّا البنات ! وكانت فريدة في الواقع تشعر بخجل ، فأحبّت أن تسرّي عنها فأخذت تهدهد للطفلة وتقول :

— يا ملعونة ! نبضها قويّ وصوتها يقدح السقف. أُسكتي !

ثمّ أدارت وجهها إلى الأمّ فإذا هي تبكي وتقول بكلمات متقطّعة مقهورة :

— يا ذلّي ، وذلّ هذه الطفلة المسكينة ! لعن الله الزواج ! ولعن الله الأولاد ! كان على أمّي أن تخنقني حينما قلت لها أريد أن أتزوّج سليمان. لعن الله الرجال ! قولي ، قولي لي يا فريدة ، قلن لي أنتنّ يا نسوان العالم ، أهذا شيء من الله أم منّي ؟ هل ذهبت إلى دكّان فيه صبيان وبنات فاشتريت بنتًا ولم أشترِ صبيًّا ؟ بعد يومين ، يوم الأحد على الأكثر ، يكون هنا. كيف أخبره ؟ كيف أخبره ؟

فتهيّأت النساء لتعزيتها ، ولكنّ القابلة لم تدع إحداهنّ تسبقها فصاحت بالأمّ :

— أُسكتي ! بس ! بلهاء أنت من جدّ. ضعيها في عينيه وقولي له : هذه بنتك ! وليتجرّأ أن يمسّها أو يمسّك !

واكتسى وجه فريدة الهيبة التي تألفها القابلات فجعلت تهزّ برأسها وتقول :

— اِمسحي دموعك ، لا أريد أن أراك تبكين بعد الآن ، لا أسمح لك بالبكاء ! خذي بنتك وأرضعيها ونامي واستريحي. أفهمت ؟

وكانت الأمّ شاردة الفكر فكأنّها لا تسمع. فحلا للقابلة الكلام ، وعنّ لها أن تمثّل دور سليمان فرفعت كتفها اليسرى إلى أذنها ومدّت يدها إلى موضع الشاربين — وكان عندها منهما بوادر كافية — تفتلهما وتتمشّى وتنظر بمؤخّر عينيها يمينًا وشمالًا ، وتضرب خيال الطربوش بكفّيها إلى الوراء ثمّ تردّه إلى الأمام ، مسرورة ، معجبة بإتقانها التمثيل. حتّى إذا نال منها التعب رمت كفلها الرجراج على كرسيّ مستغرقة في الضحك. ولكنّها انزعجت حين لم ترَ واحدة من الحاضرات تشاركها ضحكها فعادت العقدة إلى حاجبيها ، وساد الغرفة صمت طويل لا يقطعه إلّا صياح الطفلة ، كمواء هرّة في ليلة سوداء.

* * *

كان سليمان درّه ، قبل أن يدخل الشرطة ، من أولئك القبضايات الذين تمتّعوا في حقبة من الزمن بمجد عريض. إلّا أنّه لم يبقَ له من ذلك المجد إلّا ذكريات ما يزال ، وهو في الوظيفة ، يعتزّ بها ويردّدها كلّما شرب كأسًا على زملائه وأصحابه. وكره البنات من خصائص القبضايات ، فهنّ عندهم آلتان : آلة لذّة وآلة عار ، والثانية نتيجة حتم للأولى. أمّا النساء الفاضلات فلا وجود لهنّ في ظنّهم تحت قرص السماء. ولولا الحياء لارتاب سليمان بامرأته. وقد ضربها ذات يوم ضربًا موجعًا لأنّها ذهبت إلى الدكّان لشراء علبة سردين مازة لكأسه وتأخّرت. والقبضاي القبضاي من لا يلد إلّا صبيانًا يعشقون بنات الناس. أمّا أن يلد بناتًا ، ويأتي أولاد الناس فيعشقونهنّ ، فأمر أهون منه الموت وزلزال الأرض !

وكان سليمان مسافرًا تلك الليلة في القطار مع زميله يوسف العزّام إلى دمشق لمطاردة شقيّ قيل إنّه التجأ إليها واختبأ عند نسيب له فيها. وكان في مثل هذه الحالة لا ينفكّ عن الكلام على الشقيّ ، كيف يهجم للقبض عليه ولو كان مثقلًا بالقذائف ، وعلى مغامراته السابقة وحوادث بطولته. ولكنّه كان مشغولًا هذه المرّة بما تضع امرأته عن الدنيا كلّها.

– يا يوسف أفندي كان عليّ أن أبقى في بيروت. تركت امرأتي وقد بدأت تحسّ.

– صبيّ إن شاء الله ، مع سلامتها ، يا سليمان أفندي نَم. نَم. أنا أموت من النعاس !

وأرخى يوسف رأسه على كتفه واستسلم إلى النوم على هدير القطار.

وأحبّ سليمان أن يحذو حذوه ، ولكنّه ما كاد يفعل حتّى عاد فرفع رأسه وقال :

– وأنت ، كم ولدًا صار عندك ، يا يوسف أفندي ؟

فانتبه يوسف وأجاب بفخر :

– ثلاثة صبيان !... وإذا جاءتك امرأتك ببنت ، إذا وصلت إلى البيت وطلعت في وجهك توها* ؟! ... تعرف ماذا يقول المثل. المثل قال لا أنا ولا أنت. لعن الله البنت ! البنت مصيبة في بيت أهلها ، ومصيبة عند زوجها ، ومصيبة إذا تزوّجت ، ومصيبتان إذا لم تتزوّج !

* * *

كانت الصدمة قاسية على سليمان. أخذ الخبر على عتبة بيته فأبى الدخول ، وقفل فقضى بقيّة نهاره في الوظيفة غاضبًا ، شاتمًا ، رافسًا مجرمًا ساقه القدر إليه فصبّ عليه كلّ نقمته. وفي المساء تنقّل في القهوات ساعة ، ثمّ صعد إلى بيت من بيوت المواعيد السرّيّة يعرف صاحبته ويخفي أمرها عن السلطات لقاء مكافآت من لحم ودم ، فشرب العرق ورأى صباحه بين ذراعَي امرأة.

وما صحا من نومه وسكره حتّى عادت عقدة حاجبيه وبلاطة اليأس على صدره.. وكأنّ سليمان الأمس غيره اليوم. ولو لم يتغيّر فيه إلّا وقفة طربوشه لكفى الناظر إليه أن ينكره. فقد تركه ينزل في رأسه كالطنجرة ، وترك شرّابته تتفرّع من الأمام ، بعد أن كانت تنحني وراء أذنه مع انحناءة الطربوش بأناقة وزهو ، ونكّس بصره إلى الأرض ، يبحث فيها عند كلّ خطوة عن أمله الضائع.

وأمضى نهاره الثاني أيضًا بعيدًا عن البيت ، وبعيدًا عن رفاقه في العمل ما استطاع هاربًا من ممازحاتهم. كانوا يتسابقون في ابتكار ما يؤذيه من الكلمات والحكايات لمعرفتهم بكرهه البنات ، حتّى أحرجوه فقذفهم بخيزرانته فجاءت على كتف يوسف أفندي ، وانفتل صوب الباب وأبى أن يلمّها عن الأرض ، وانصرف من بينهم جبلًا من غضب ، فانتظروه حتّى توارى فأخذوا يقهقهون.

وكان في نيّة سليمان أن يبيت ليلته الثانية خارجًا.

---

* كلمة تُطلق على البنت على سبيل السخرية.

ولكنّه لم يجد عند صاحبته شريكة لسريره ، فانتظر ساعة ، فأغلقت الدنيا في وجهه ، فقام يتمشّى على الأرصفة ، فقادته قدماه – كأنّهما تقودانه عفوًا – فلم يرَ نفسه إلّا على عتبة منزله ، فدخله .

* * *

نام سليمان كالقتيل لفرط ما تعب في الليلة السابقة . وقد استيقظت بنته مرّتين فأرضعتها أمّها ، وهو يشخر غير شاعر بصوت ولا حركة . إلّا أنّ الطفلة استفاقت مرّة ثالثة تصيح صياحًا مزعجًا ، ووالدتها تقدّم إليها الثدي الأيمن ثمّ الثدي الآخر وتهزّ لها سريرها عبثًا . فتململ سليمان ونفخ وكأنّه يتكلّم في نومه :

– سكّتي بنتك ! سكّتيها وإلّا خنقتها لك !

فنظرت الزوجة إليه على ضوء القمر المنسلّ من النافذة وارتسمت على وجهها علامة اشمئزاز . ولكنّ الخوف تغلّب عليها فخفق قلبها بعنف ، وعادت تبذل الحيل لإسكات الصغيرة وتغنّي لها ، فاختلط الغناء بالصياح :

– أنغامك فوق نغامها؟ سدّي فمك وفطّسيها !

وكان سرير الصغيرة بين فراشَي الزوجين ، فأدار سليمان ظهره إليه ، وما كاد يغمض عينيه حتّى أرسلت بنته صيحة اخترقت اللحاف وثقبت أذنيه ، فجعل يلعن ويسبّ ، وخطر له أن يقوم ويذهب فينام بقيّة الليلة عند صاحبته . غير أنّ الكسل أقعده ، فقذف الغطاء وصاح بزوجته :

– أما انتهينا منك ومنها؟!

فتذكّرت ساره كلام القابلة فتشجّعت وأجابت ببرودة :

– يجب أن تتعوّد . أتظنّ الصبيّ لا يصرخ مثل البنت؟ هي بنتي كما هي بنتك . ناولني المصّاصة ... فتّش . حرّك يديك . أنظرها تحت السرير؟

فمدّ يده يتلمّس بها المصّاصة . ولمّا وجدها دهش من نفسه كيف أطاع امرأته وفعل فيه كلامها الهادئ .

وانقلب الموقف بينهما فجأة ، فإذا هي القويّة وهو الضعيف . ثمّ طلبت منه أن يضع المصّاصة في فم الطفلة ، فقعد وجرّ السرير إليه ، والطفلة تصرخ ، فألقمها المصّاصة . فرفعت ساره رأسها تحدّد النظر وتتمنّى لو كان النور كافيًا لتراه جيّدًا يعتني بابنته . فريدة كانت على صواب : هل يتحوّل الدم إلى ماء ، وهل يكره أحد ولده صبيًّا كان أو بنتًا؟

وفرحت الأمّ ، وجمدت عيناها على السرير تنتظر أن تسكت الطفلة على يد أبيها . وكانت تفرك يديها وتقضم شفتيها وتهمّ بمساعدة سليمان . ولكنّ الصغيرة لم تسكت ، وكأنّها كانت تريد نكاية والدها ، فارتفع صوتها وامتدّ نفَسها فيه ، وانفرجت شفتاها وطردتا المصّاصة فأعادها سليمان ، فطردتاها ، فطلبت منه امرأته أن تقوم عنه بالمهمّة فرفض بعناد :

– أُتركيها ! أريد أن أرى أتسكت أم لا؟

وأحسّ قوّته على زوجته من جديد ، فأدنى السرير منه وراح يهزّه بشدّة ويضغط بالمصّاصة على فم ابنته وهي تبصقها وتعوي . واستمرت المصادمة بينهما دقيقتين طويلتين ، وأخيرًا صاح بامرأته :

– يا بنت كذا وكذا ، هذه المخلوقة ليست منّي !

– معك حقّ ، حملتها لك من بيت أبي . أليس كذلك؟

– بل أنت امرأة فاجرة . ماذا تصنعين في الدكاكين؟ لا أدخل البيت يومًا وأراك فيه !

– كلّ هذا لأنّني وضعت لك بنتًا؟ خَف ربّك يا سليمان ! خَف ربّك !

وغطّت وجهها وأجهشت بالبكاء ، ولبثت مدّة لا تعرف مداها غارقة في بحران من الأفكار لا أوّل لها ولا آخر .

وفجأة تذكّرت يومًا تخاصمت فيه وزوجها ، وكانت حبلى ، فرفع يده وضربها ضربة أرادها على بطنها ، فاتّقتها بصدرها ، فهدّت أضلاعها هدًّا . وتلمّست ساره موضع الضربة وكأنّها ما تزال تحسّ بألمها .

«لو أصابت تلك الضربة هدفها لأجهضت وماتت البنت!»

لمعت هذه الفكرة في ذهن الأمّ لمعانًا غريبًا، فجعلت تطردها فترتدّ، ثمّ تطردها فترتدّ، فتذوق بين طردها وارتدادها حلاوة مرّة في قلبها ومرارة حلوة... لماتت البنت وتخلّص الأب من صيحاتها، وتخلّصت الأمّ من غضبه... من يدري؟ ربّما كان الموت خيرًا لها من الحياة في كنف هذا الرجل... ولكن لا. لا. يجب أن تحيا. يجب أن تحيا غصبًا عنه. ها هي تواصل صراخها. فلتثقب له أذنيه! فلتنتقم لأمّها منه! فليسهر عليها حتّى تنام! أما هي بنته كما هي بنتها؟

ولكنّ رؤيا الضربة عاودت الأمّ المحمومة، فرجعت الفكرة نفسها قويّة هذه المرّة، جبّارة، عنيدة، لا تتزحزح: «لو أصابت الضربة بطنها لماتت البنت... لماتت البنت!»

– أتسكتين الآن؟

غمغم الأب بهذه الكلمات وقد ضغط بطن كفّه على المصّاصة وفم الطفلة وجعل من إبهامه وسبّابته كمّاشة على أنفها الصغير، وظلّ يضغط محدّقًا إلى زوجته بعينين زجاجيّتين. وفي أثناء ثانية من هذه الدقيقة التي خيّل إليه أنّها دهر، أوشك أن يسحب يده، ولكنّه لم يسحبها، لم يستطع أن يسحبها، وبقي شادًّا حتّى أيقن بأنّه تمّ له ما أراد. وحينما رفعها أحسّ بها ثقلًا، وأحسّ على أصابعه يبوسة وخدرًا، فكأنّها كانت على قطعة من جليد.

وكانت الأمّ قد فرغت من الصراع الهائل بينها وبين الرؤيا، فأزاحت اللحاف تتنفّس، فكان سرورها بسكوت الطفلة على يد والدها عظيمًا. فتهلّل وجهها وأدنت السرير منها واستسلمت إلى النوم.

* * *

أمّا سليمان فأوى إلى فراشه وأدار ظهره إلى السرير. وأحبّ أن يمتحن نفسه فيعرف بماذا يحسّ بعد فعلته، فوجد أنّه لا يحسّ بشيء إلّا برجفة في أصابع اليد التي قامت بالعمل، فشدّ عليها بأصابع اليد الأخرى، ووضع كفّيه بين فخذيه وأغمض جفونه. ولكنّ النوم كان يهرب من عينيه، فما فيهما إلّا نار مؤذية وحاجة إلى الانفتاح. فتململ... ثمّ خيّل إليه أنّه يسمع صياح بنته يملأ الغرفة ويخترق اللحاف: واع ويع! واع ويع!... فأدار وجهه صوب السرير، ثمّ رفع رأسه وعلّق بصره بالطفلة وأرهف سمعه فلم يسمع شيئًا. حينئذ تجلّت له حقيقة ما جرى، فضجّ دماغه، وفتح فه كالأبله. لا! لا! هذا حلم مزعج. إنّ بنته ما تزال حيّة تُرزق، إنّها ستعود إلى الصياح! وحملق بالسرير مرّة ثانية وحبس أنفاسه ينتظر. ينتظرها أن تصيح، أن تزعجه من الآن إلى الصباح، ومن الصباح إلى المساء. ولكنّ الصمت ظلّ مخيّمًا. صمت ثقيل ينشر في الجوّ ضغطًا خانقًا كالهجيرة في قلب تمّوز. إلّا خفقات قلبه تتضاعف وتزحم أنفاسه. فقام على الأربع إلى السرير، ومدّ أنفه يفتّش عن لهاثها فلم يجد أثرًا له، ويده إلى خدّها وقرصه فلم تُبدِ حركة ولم تُسمع نأمة، فاشتدّ الارتجاف في كفّه، ثمّ تساقطت عن ذلك الخدّ الصغير البارد، فكان تساقطها، على غير قصد، مداعبة لطيفة.

وأمضى سليمان ساعة يتقلّب محاولًا طرد صياح بنته من ضميره فلا يقدر، حتّى لاح الفجر فارتدى ثيابه وخرج دون أن يغسل وجهه. وشدّ ما كان فرحه حينما وصل إلى الباب ونظر قبل أن يغلقه، فإذا زوجته ما تزال نائمة.

* * *

انصرف إلى عمله بهدوء غريب كأنّه لم يأتِ أمرًا، بل كأنّ ساره لم تلد بعد. ولكنّ الاضطراب لم يلبث أن عاوده، وعاوده الواع ويع، فأخذ ينفض أذنيه بيديه. ثمّ مشى إلى غرفة المدير يقدّم رجلًا ويؤخّر رجلًا. حتّى رأى نفسه أمام الباب وهمّ بقرعه. ثمّ أمسك وأدار

ظهره ، ثمّ رمى سيكارته وداسها بعنف كأنّ له عليها ثأرًا ، وتهيّأ لقرع الباب ، فإذا به ينفتح في وجهه ويطلّ منه المدير :

– خير إن شاء الله ، يا سليمان أفندي؟

فلم يتجاسر على رفع عينيه إلى عينَي المدير ، كأنّه يخشى أن يسرق منهما سرّ جريمته ، وقال متلعثمًا إنّه جاء يسأل هل من مهمّة يُراد إسنادها إليه –وكان سليمان يريد هذه المهمّة خارج المدينة– فأجابه المدير بأنّ عليه الراحة ، فالوظيفة تطلبه قبل أن يطلبها. فانصرف يتمشّى في الرواق ، وينظر من النافذة إلى الشارع ليرى هل يأتي أحد من جيران البيت بخبر إليه. واتّفق أن مرّ به زميله يوسف فسأله :

– كيف حال البنت ، يا سليمان أفندي؟

فخرج سليمان عن هدوئه ولمعت عيناه بالغضب :

– ألا تزال تلحقني بالبنت؟

ولكنّ يوسف لم يفهم وتابع سخريته :

– أبو أيّ شيء نناديك؟ أبو حنّه؟ أبو منّه؟

– قُم من دربي ! رُح من وجهي !

فلم يبتعد ، بل دنا منه وربّت على كتفه ، فآذته هذه التربيتة وحاول أن يحيد :

– كبّر عقلك يا سليمان ، وخذ المسائل بطول البال. هل غضبت عليّ؟ البنت مثل الصبيّ. الولد عزيز مهما كان. سترى غدًا أنّك ستحبّها...

فقاطعه سليمان مبغوتًا :

– ومن قال لك إنّني لا أحبّها؟

– كنت على يقين من ذلك. وستحبّها أكثر. ستحبّها أكثر من صبيان الأرض كلّهم. قُل لي أهي جميلة؟ سأذهب يوم الأحد في زيارة بنتك فأخطبها لمنير. أتعرفه؟ منير اليوم في الخامسة من عمره. حينما يصير هو في الخامسة والعشرين تكون هي في العشرين ، في عزّ زواجها... صدّقني يا سليمان ، لا شيء في الدنيا مثل الأولاد. الحياة بلا أولاد (وقلب شفته) لا تساوي قشرة بصلة. سترى غدًا أنّ حياتك تنحصر فيها. تفكّر بها في الشغل ، تفكّر بها وأنت تأكل ، تفكّر بها وأنت قاعد وقائم ، تفكّر بها وأنت نائم...

وكان لكلمات يوسف على سليمان وقع السياط. فأحبّ أن يتخلّص منه بحيلة فلم يوفّق ، لأنّ يوسف كان –ككلّ الآباء– يشعر بسعادة وفخر ما بعدهما سعادة وفخر في التحدّث عن أولاده. فوضع يده مرّة ثانية على كتف سليمان ، ولكنّ سليمان لم يستطع تحمّلها هذه المرّة فنزعها متكلّفًا ابتسامة ، وتابع يوسف :

– أتصدّقني يا سليمان أفندي؟ منذ رُزقت الولد الأوّل لا أعرف المقهى ما هو. رأسًا من الشغل إلى البيت. وستكسر لك بنتك رأسك فتكون مثلي. بنتك اليوم كتلة لحم لا يظهر منها شيء. اِصبر حتّى يصير عمرها سنة ، حتّى تمشي وتبدأ في الكلام.

وكان يوسف يفكّر بأولاده ويراهم أمامه يلعبون ويزقزقون فيتدفّق حبّه وحنانه على وجهه :

– أهي سمراء أم بيضاء؟... ما لك ساكتًا؟ ها ! ها ! اِبتسم.

– سمراء؟ لأ. لأ. بيضاء... أظنّ أنّها بيضاء.

وأوأ سليمان بهذه الكلمات رافعًا إلى محدّثه عينين تقذفان الشرر. ولكنّ يوسف كان خالي الذهن ، فأراد أن يرسل آخر سهم من سهام دعابته فقال :

– أهكذا ترخي لحيتك؟ لا ينقصك من أجل هذه التوها إلّا أن تنتحر !

* * *

دُفنت الصغيرة بعد الظهر في المقبرة القريبة. إنّ موت طفلة بنت يومين كموت قطّة في البيت. هذا ما اتّفق الناس عليه. مع هذا الفارق أنّ الناس يقولون «ملاك عاد إلى السماء». وكان الرجال يتقدّمون لتعزية سليمان القاعد في زاوية البهو ، مردّدين العبارة المألوفة «العوض بسلامتك». فيجيبهم «العوض بسلامتكم» بحسرة في عينيه ، وهيئة ظنّها الكثيرون لعبة يلعبها

عليهم ، لمعرفتهم بكرهه البنات . حتّى إنّ جاره أبو سعيد التفت حواليه بعد أن صافحه ، ثمّ همس في أذنه :

– أشبعتنا تمثيل روايات ! إضحك في عبّك . بنت وماتت ، مع ستّين ألف سلامة !

ثمّ نظر إلى وجه سليمان وهو يتوقّع إشارة موافقة ، غمزة أو طيف ابتسامة . ولكنّ وجه سليمان ظلّ كالنحاس ، فسوّى أبو سعيد طربوشه وفسح في المجال لمن يليه .

التمثيل؟... لقد فطن سليمان أنّ عليه أن يمثّل رواية . ذكّره أبو سعيد . فأخذ يتظاهر بأنّه غير متأثّر ويكسب وجهه ولهجته شيئًا من اللامبالاة . غير أنّ حقيقته الضاجّة في صدره كانت تخونه ، ويعود الواع ويع إلى أذنيه فينفضهما ، فيقطّب الجبين ويحني رأسه بانكسار .

وحينما انصرف المعزّون والمعزّيات بقيت القابلة وحدها بين الزوج وزوجته . وكانت الأمّ تشدّ السرير الفارغ إلى صدرها وتشمّه وتقبّله وتبكي . فعطفت عليها فريدة وتناولتها بين ذراعيها تقول :

– الحقيقة يا سارة أنّ البنت وُلدت ضعيفة ، ممصوصة ، مريضة . ولم أشأ أن أخبرك بذلك لئلّا أغمّك . أتذكرين زيارتي لك بعد ظهر أمس؟ كنت أنا مديرة ظهري لك . تناولت هذه الطفلة بين يديّ ونظرت إلى عينيها ، فقلت حالًا : هاتان العينان ليستا للحياة !

ففتح سليمان أذنيه وكلّ جارحة من جوارحه لهذه الكلمات . أصحيحٌ أنّها كانت مريضة؟ أصحيح أنّه لم يقتلها بيده؟ ودنا من فريدة وتحرّكت شفتاه بأسئلة كثيرة ، ولكنّه لم يفه بصوت... وبدلًا من أن يهدّئ كلام القابلة روع الأمّ زاد في نار قلبها فصاحت :

– ولماذا لم تخبريني؟ لماذا لم تقولي لي إنّها مريضة ! كنت أستدعي لها الطبيب . أنتِ قتلتِها !

وتناولت القابلة من ساقها وشدّتها ، فكادت فريدة تشتم . إلّا أنّها فطنت إلى أنّ ساره ستلد في السنة الآتية ، وأنّ رزقها يوجب عليها السكوت ، فتكلّفت الابتسام وابتعدت ، تاركة الثكلى غارقة في الدموع .

وأبت القابلة أن تخرج من البيت دون أن تنتقم ، فدنت من سليمان على الباب وأسرّت إليه :

– صدّقت أنّها كانت مريضة؟ البنت كانت مثل الحصان ! أنا أراهن بمليون ليرة على قرش مقدوح أنّ أمّها فطّستها في الليل ! تكون قد أعطتها ثديها ونعست فنامت فوقها . ألم ترَ وجهها كيف كان أزرق مثل النيل؟ العوض بسلامتك يا سليمان أفندي... حزين؟ في حفظ القرد بنات الدنيا ! ارتحت منها ومن الواع ويع .

وخرجت . وبقي سليمان ينفض أذنيه ، ثمّ دخل إلى غرفة زوجته فإذا هي ترفع رأسها وتصيح به :

– أمسرور أنت الآن؟ ها ! ماتت ! ماتت ! ماتت من دعواتك عليها !

– أُسكتي ! أُسكتي . أتريدين أن أقول لك ماذا أخبرتني فريدة؟

ولكنّ الأمّ لم تشأ أن تسمع شيئًا ، فتابعت :

– ماتت ! ماتت ! وستموت أمّها وتلحق بها . أنت يليق بك زواج ونساء وأولاد ! ها ! ها ! ها ! أنا أتوجّع وأرى الموت بعينيّ ألف مرّة ، وأنت بعيد ، وترجع إلى بيروت ولا تدخل بيتك لترى امرأتك ميتة ، حيّة ، متعافية ، أم مطعونة في قلبها... أُدخل لترى على الأقلّ بنتك . بنتك . لحمك ودمك ، فلذة كبدك ! الله الله على الرجال ! كان القهر يحتقن في قلبي فأُرضع تلك الطفلة حليبًا مسمومًا . حينما مددت يدك آخر الليل ووضعت لها المصّاصة وهززت سريرها قلت في نفسي : أشكرك يا الله ! كثّر خيرك يا مريم العذراء ! قمت الصبح ، ففتّشت عنك فلم أجد أحدًا . هل ندمت على أنّك كنت إنسانًا مدّة دقيقتين فهربت؟... مسكينة ! أرأيت كيف نامت على يدك؟ أبوها ! هي أحسّت بالحنوّ قبلك ! يا حبيبتي ! يا حياتي ! لو شبعت منك ! لو عرفت كيف متِّ... لو سمعت لك صوتًا ! أزعجتك

بصراخها ، أليس كذلك؟ أين هي الآن لتصرخ؟ أين هي لتصرخ؟

فاضطرب الأب كأنّ خبطة جاءت على رأسه ، وعاد إلى أذنيه صياح ابنته يعلو ويشتدّ ويمزّق أذنيه :

– واع! واع! ويع! وييع!...

فجعل يدور على نفسه ولا يتجاسر أمام زوجته على رفع أصابعه إلى أذنيه للتخلّص من الصوت. ثمّ أحسّ وكأنّ الصوت يطلع من أعماق قلبه ويخترقه كالسكاكين ويضجّ في رأسه حتّى يفلقه ، فخرج من الباب يتنفّس الهواء الطلق.

كان مأذونًا بقيّة نهاره ، ولكنّه أحبّ أن يذهب إلى العمل. فما دخل الدائرة حتّى رأى زميليه يوسف أفندي وسمير أفندي يسوقان فتاة بغلظة. فتاة هزيلة ، متزمّلة بثياب عتيقة وسخة. ولم يتورّع يوسف عن لكمها على كتفها ، فدنا سليمان وصاح به :

– لماذا تضرب هذه المسكينة هكذا؟

– سارقة! سارقة! كانت تسرق مال سيّدها وتعطيه عشيقًا لها. أنظر. أهذا وجه عشق؟!

وهمّ يوسف بضربة ثانية ، وفي ظنّه أنّه أقنع سليمان ، ولكنّ سليمان أمسكه من ذراعه وهزّه وتفرّس في وجهه قائلًا :

– ألا تعرف أنّ القانون يمنع الضرب؟

فحملق يوسف وسمير في سليمان ، وقال يوسف :

– كان يجب أن تتذكّر القانون حينما كنت تدقّ الموقوفين بالبوكس على رؤوسهم ، أو تدمي أرجلهم بقضيب الخيزران!

ورجع يوسف إلى الفتاة فرفسها بلا شفقة قائلًا :

– خذي هذه إكرامًا لذقن الأفندي!

فجاءت الرفسة على مؤخّر الفتاة ، فاعوجّت لها ولم تحفل بها كثيرًا. ولكنّ سليمان أحسّ بحذاء يوسف الضخم يرفس قلبه!

وكان سليمان آخر من ترك الدائرة ذلك المساء.

وحينما وصل إلى البيت رأى امرأته ناثرة ثياب بنتها تناجيها وتبكي. فلم يتوجّه إليها بكلمة ، على شدّة رغبته في أن يقول لها أشياء ، ولم تفاتحه هي بحديث. ثمّ أوى كلّ منهما إلى فراشه دون عشاء ساكتين.

* * *

مع الفجر استفاقت الأمّ على قرقعة في المطبخ ، فصاحت مذعورة ، والتفتت إلى فراش زوجها فلم تجده ، فنادته فأجابها صوت هادئ حلو :

– أنا هنا.

– ماذا تعمل في المطبخ؟

فلم يجبها. لكنّه أطلّ من الباب بعد قليل حاملًا بيديه خشبتين متعارضتين ، فنظرت الأمّ ، فإذا هما صليب ، فقال :

– هذا لبنتنا يا ساره. ليس على قبرها شيء.

وبقي الأب غارسًا نظره في نظر الأمّ ، بينما كان الصليب يغمر سرير الطفلة الفارغ ، الباقي على الأرض ، بخياله الكبير.

كان اليوم الذي يذهب فيه ميخائيل إلى مركز عمله ، دون أن يرى وجهًا جميلًا على الطريق ، يوم نحس تملأه السويداء والسآمة.

فإذا خرج من منزله إلى محطّة الترامواي رفع أنفه إلى الحافلة ينظر من فيها ، فإذا لاح له فسطان قفز إليها ، وإلّا انتظر التالية.

أمّا ذلك الصباح فكان صباح خير ونور ! ما كاد يصل إلى المحطّة حتّى وقفت حافلة فيها سيّدة ، كأنّ بينه وبينها ميعادًا ، فصعد وقعد إزاءها. وأيقن من النظرة الأولى أنّه أمام امرأة من الطبقة النبيلة في المدينة ، على رأسها المدوّر الأسمر قبّعة لها ريشة صغيرة تنحدر على الصدغ الأيسر ، وثوبها أخضر غاية في البساطة ، ولكنّه أنيق يلتفّ حول خصرها عارضًا نحافتها ، منشقًّا من فوق عن عنق ناصعة لا أثر عليها للمساحيق ، ومنتهيًا من تحت على ساقين دقيقتين منسجمتين ، مضمومتين عند الركبتين بحياء. ولم يستطع بادئ بدء أن يتبيّن وجهها لأنّها كانت تديره إلى الشارع ملتصقًا أو يكاد بزجاج النافذة.

كان المنهاج معلومًا : تناول علبة اللفائف وأشعل عود كبريت ، فلم تلتفت. فأشعل الثاني والثالث ، فلم تلتفت. فكان لا بدّ من إيصال الرابع إلى اللفافة. ثمّ عمد إلى المادّة الثانية ، فوضع ساقه اليمنى فوق اليسرى وضرب حذاءه بحائط الترامواي، فلم تلتفت. فأنزل اليمنى ورفع اليسرى فوقها ، فلم تلتفت. فعمد إلى المادّة الثالثة : مدّ يده وكشف عن كمّه متظاهرًا بالنظر إلى الساعة ، ومسح شعره بكفّه ، وسوّى ربطة عنقه ، وصنع مئة حركة وحركة والسيّدة جامدة لا تحيد أنفها عن زجاج النافذة.

فاستولى عليه الغضب ، وأسف على ضياع القرش الذي دفعه فرقًا لركوب الدرجة الأولى ، وعلى ضياع امرأة جديدة علّل نفسه بضمّها إلى قائمة نسائه. ولمّا ترجّل من الترامواي وقف على الرصيف واضعًا يديه في جيبي بنطلونه ورافعًا أنفه إلى النافذة ، فإذا التفافة منها ، وإذا لها عينان نجلاوان ، زرقاوان ، صافيتان ، ساذجتان ، انطبعتا في نفسه انطباعًا وأحسّها طول ذلك النهار نجمتين متألّقتين عالقتين بجبينه.

وفي الأيّام التالية كان يركب الترامواي على خطّ بيته وعمله ، وسائر الخطوط أحيانًا ، لعلّه يظفر بتلك المرأة المجهولة ، فذهبت جهوده عبثًا. حتّى انقضى على ذلك أسبوع ونيّف ، فنسيها وشبك سواها بحباله.

* * *

ولكن ، حدث ذات ليلة أنّه تأخّر في سهرة عند أقربائه ، فوقف ينتظر الترامواي وطال به الانتظار على

المحطّة – لأنّ بين الحافلة والحافلة ، بعد الساعة التاسعة مساء ، ربع ساعة – فأخذ يتمشّى في الشارع على غير هدى ، فقادته قدماه إلى باب أحد المراقص فدخله هازًّا بكتفيه : «لا بأس ، ما دمت قد تأخّرت .» وكان قد مضى عليه أكثر من شهر لم يدخل مرقصًا .

رفع نظره إلى المسرح ، فإذا سمراء على نور بنفسجيّ ترقص رقصة البطن . وكان يحبّ هذه الرقصة ويؤثرها على غيرها من الرقصات البريئة ، فحمل كأسه ودنا يريد مقعدًا قرب المسرح ، فلم يجد ، فبقي واقفًا .

وفجأة التقت عيناه وجه الراقصة فكادت الكأس تقع من كفّه . ماذا؟! أهذه هي المرأة التي رآها في الترامواي؟ أهذه هي السيّدة الشريفة الخجلة؟ هنا ! هنا ! راقصة عارية ، ماجنة ، لا تتحرّج في الظهور بهذا المظهر؟!

وابتسم ابتسامة ظفر وخيبة معًا . أمّا الظفر فلأنّ المرأة التي اشتهاها وحسبها فوق متناول يده أصبحت ملكه في أيّ ساعة شاء . وأمّا الخيبة فلأنّه وعد نفسه بأكلة سامية فوقع على فتات مائدة حقير .

وكان صاحب الملهى صديقه ، يستشيره في هذه الراقصات قبل الإقدام عليهنّ ، فيقوم حضرته بالوساطة – ولا ريب أنّها مأجورة من الطرف الآخر على الأقلّ أو أنّها لذّة عنده خاصّة – فجاءه بابتسامته المندلقة على بطنه وقال :

– ميمي؟ أعندنا عزيز عليك يا ميخائيل؟ الليلة إذا طاب لك .

ثمّ ذهب إليها – وكانت قد نزلت عن المسرح وقعدت على كرسيّ تنتظر أحدًا يدعوها إلى كأس – وهمس في أذنها همسة وغمز ميخائيل بطرف عينه الصغيرة الخبيثة وتوارى ...

* * *

في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل كان ميخائيل يقفل باب الغرفة عليه وعلى ميمي في الفندق الذي تنزل فيه . وما كاد ينفرد بها حتّى أخذ يقهقه ويقول :

– ميمي ! ميمي ! ها ! ها ! ها !

وكان سكران ، وكانت هي سكرى فقهقهت معه دون أن تفهم :

– ها ! ها ! ها !

هو من هنا ، وهي من هنا حتّى كادا يزلزلان أركان الغرفة ، وسمعا الخادم يتحرّك على فراشه وقد استفاق من نومه .

– ميمي ! ميمي ! إذًا أنت ميمي !

– وأنت بماذا يجب أن أناديك؟

– أنا؟ ناديني بما شئت؟ شيطان ! ملاك ! حمار ! بل حمار حمار !

فعادت إلى القهقهة ، فاقترب منها – لا كالحمار ، بل كالوحش – وأخرسها بقبلة قويّة ، وعصرها بين ذراعيه ، ثمّ تراجع وضغط زرّ المصباح الكهربائيّ فساد الغرفة ظلام دامس ، فزحف إليها مادًّا يده فوقعت على ثديها ، فجذبها منه إلى الأرض ، فانطرحت وانطرح إلى جانبها وكلاهما يضحك ولا يحسّ بألم الوقعة ولا ببرودة البلاط لشدّة السكر ...

– اِسمعي ، يا ميمي ، أنا أكرهك !

– وهل ترى أنّني أموت في غرامك؟

– وأحبّك بقدر ما أكرهك !

– ماذا تقول؟ ما لغة الألغاز هذه التي تكلّمني بها؟ لماذا تكرهني ، ولماذا تحبّني؟

فأخبرها بحكاية الترامواي وحكاية المرقص ، وتغيّر صورتها في ذهنه بينهما ، ثمّ قال :

– إنّني أكره الراقصة ، وأحبّ المرأة التي رأيتها في الترامواي .

فقعدت تنظر إليه ، فرأى جانبًا من وجهها على شعاع يدخل من النافذة ، فإذا عليها جمود مخيف .

– وأيّهما أنا الآن في عينيك؟

فأفلت من هذا السؤال المحرج وقال :

– اِسمعي ، أنا لا أحبّ أن أناديك باسم ميمي . ما اسمك الحقيقيّ ؟

– اِسمي بهيّه . ولكنّ هذا اسم قديم ، أكاد أنساه .

– لو تعلمين كيف كانت بهيّه في الترامواي ، وكيف كانت ميمي على المسرح !

– كيف رأيتني في الترامواي ؟

أيّ ساعة ؟

ماذا كنت لابسة ؟

هل كنت جميلة ؟

لقد ظننت أنّني شريفة ، أنّني ابنة أسرة كبيرة ، أليس كذلك ؟

أين نزلت أنت ؟

لماذا لم تلحق بي ؟

عشرات الأسئلة مثل هذه ألقتها عليه ، وهو يجيبها بشيء من الاستغراب . ثمّ أعادت :

– قُل لي ، لماذا لم تلحق بي ؟

– كنت أخشى أن أتحرّش بك فأجد ما لا أرضاه . كانت هيئتك الكاملة ذات هيبة . وكنت أحسّ أنّني إذا تجاسرت على الدنوّ منك بكلمة أو حركة فكأنّني أخترق حرمة شيء مقدّس . ولكن ما لنا ولهذا الآن ؟ أحبّك يا بهيّه .

فلمعت عيناها في الظلام وصاحت :

– أصحيح أنّك تحبّ بهيّه ؟ كلّا . أنت لا تحبّها . إنّ بهيّه لا تستسلم إليك ولا إلى سواك . أنت تحبّ ميمي . ميمي تستسلم إليك . خذها . خذها ! هي لك كلّها ، لك بابتسامتها العريضة التي رأيتها على المسرح ، وجسمها العاري ، وفخذيها الملوّحتين . أمّا بهيّه فيجب أن تلحقها مرّة ثانية في الترامواي وثالثة ورابعة وعاشرة . لِمَ جئت هذه الليلة ؟ لِمَ ذهبت إلى المرقص ؟ لِمَ رأيتني في الترامواي ؟ لِمَ قلت إنّك رأيتني فيه ؟...

وقامت إلى الزرّ فضغطته فعاد النور . ونظر ميخائيل إليها فإذا احمرار الغضب على وجهها ، وانتفاضة في يديها وفي أطراف شفتيها وعلى أرنبة أنفها . وذهبت إلى خزانتها فأخذت منها صندوقة وطرحتها على الأرض تنثر ما فيها وتفتّش ، حتّى وصلت إلى مغلّف صغير ، فتناولت منه صورة وحدّقت إليها ، ثمّ دفعت بها إليه وقالت :

– هذه بهيّه !

ثمّ تناولت صورة أخرى وفعلت بها ما فعلته بالأولى ودفعتها إليه وقالت :

– وهذه ميمي . بين هاتين الصورتين خمس سنين .

وكانت السنوات الخمس في عينيها دهرًا .

الصورة الأولى تمثّلها مع شابّ منحنية على كتفه في ظلّ نخلة . فذكّرته هذه الانحناءة بانحناءتها تلك على زجاج النافذة في الترامواي . إلّا أنّ شعاعًا من الفرح يطفر هنا من العينين ، بدلًا من ضباب الحزن الذي كان يغشاهما وهي في الترامواي . والثانية تمثّلها في غلالة الرقص وقد لاح عريها من خلال تلك الغلالة متأجّجًا بالشهوة .

– فهمت ! فهمت ! أنت تحبّين . عاشقة ! عاشقة ! الغرام شيء عظيم !

فاستعادت منه الصورتين وأدنتهما من المصباح ، تتفرّس بالواحدة ثمّ بالأخرى وكأنّها تنظر إليهما لأوّل مرّة . وكانت ترتسم على وجهها مشاهد مأساة . ثمّ أدخلتهما في المغلّف برفق وهي تردّد :

– الغرام شيء عظيم ! ولكنّك أنت لا تفهم .

– أُنظري ما الفرق بين موقفنا الآن وموقفنا فيما لو صحّ خيال الترامواي . أنت الآن لي بكلمة من صاحب المرقص .

– بكلمة !

– وبخمس دقائق سعي .

– بخمس دقائق !

– وعشر ليرات ... أتريدين أكثر ؟

– عشر ليرات !

كانت ميمي تردّد وراءه هذه الكلمات ، وهي

خافضة بصرها إلى الأرض ، ترديد الأبله أو ترديد الببغاء . ثمّ رفعت إلى ميخائيل بصرها فجأة وهي تصرّ بأسنانها وتمضغ قلبها مضغًا بهذا الصرير.

قالت ميمي لميخائيل إنّه لم يفهم . أمّا الحقيقة فإنّه فهم كلّ شيء . ولكن كان عليه أن يحسّ في قلبه بالذي فهمه في عقله ، وهو لم يحسّ إلّا بالشره ، فانقضّ على المرأة فاغرًا فاه ، فصفعته صفعة طاش لها دماغه . واستولى عليها شبه جنون ففتحت الباب ودفعته منه ثمّ أغلقته بعنف ، فأحدث قرقعة نهض لها خادم الفندق مذعورًا من نومه ، فمشى إلى الزائر بشعره المنفوش وقال له :

– لا تؤاخذها يا سيّدي . عادتها السكر والعربدة .

فلم يأبه ، ونزل السلّم .

* * *

انتظر ميخائيل المساء التالي بفروغ صبر ليذهب إلى المرقص ويرى ميمي . وشدّ ما كانت دهشته إذ أقبلت إليه ملاطفة وأخذت مكانها إلى جانبه وقالت :

– أريد أن أراك هذه الليلة .

– وأن تفعلي بي ما فعلته أمس ؟ لا . لا . لا أريد أن أراك .

ثمّ تابع :

– كان في استطاعتي أنا أيضًا أن أصفعك . ولكنّي قلت في نفسي : امرأة ! لن أضع رأسي لرأس امرأة !

فتفرّست به طويلًا وكأنّها تحاول أن تقرأ ما في أعماقه . ثمّ قالت وقد خفت صوتها وأصبحت فيه حرارة وعذوبة :

– أتوسّل إليك أن تقبل دعوتي . أريد أن أراك . أريد أن أطلب منك الصفح عمّا بدر منّي . هذه آخر ليلة لي في بيروت . اليوم ينتهي أجل الاتّفاق بيني وبين إدارة المرقص ، وسأسافر صباحًا إلى بغداد . يجب أن تترك كلّ شيء وتعطيني ليلتك . حتّى الساعة الأولى هنا في المرقص ، وبعدها نذهب إلى الفندق.

– إنّني أكره ميمي المرقص .

– وبهيّه الترامواي ، ألا تزال تحبّها ؟

فاكتفى من الجواب بابتسامة فقالت :

– هذه الليلة لي . هل اتّفقنا ؟

فلفّها بنظرة من رأسها المصفوف الشعر إلى قدميها النازل عليهما طرف ثوبها الطويل الأزرق ، وقال :

– اتّفقنا .

رقصت ميمي تلك الليلة رقصًا ما رقصت مثله قطّ ، ولن ترقص مثله أبدًا . كانت تتلوّى بقامتها الفارعة ، وتهزّ نهديها وردفيها ، وتعلو وتهبط ، وتدور على نفسها ، ثمّ تعيد الكرّة ، والحاضرون يرافقونها . ونظراتهم تنصبّ على سرّتها الدائرة كحجر الطاحون ، والموسيقى تضجّ ، والأنوار تنعكس عليها ، ومثل هذه الأنوار بل أشدّ منها تشعّ من وجهها وكلّ حركة من حركاتها ، أنوار من الطرب غريبة ، حتّى طرب الحاضرون جميعًا ودوّت القاعة بالتصفيق والهتاف . وتطايرت البرانيط والطرابيش في الجوّ . ولو شاءت ميمي أن تجاري الناظرين لرقصت تلك الليلة حتّى الصباح وهم راضون .

– قُل لي ، ألا أرقص جيّدًا ؟

فقال ميخائيل :

– كنت في الترامواي أجمل منك الساعة ومن كلّ ساعة ترقصين فيها .

* * *

في الساعة الأولى بعد منتصف الليل ذهبا إلى الفندق .

وحاول ميخائيل ، طول الطريق ، أن يحملها على الحديث في شيء ، فلم يفلح . كانت معتصمة بصمت عميق ، ومديرة رأسها إلى نافذة السيّارة بانحناءة كانحناءته على نافذة الترامواي حينما رآها لأوّل مرّة . وكانت زينتها فاسدة ، فشعرها منبوش ، وخصلتان منه تنزلان على عينيها .

ولمّا وصلا إلى الفندق ، وفتحت ميمي باب غرفتها ، أحدث المفتاح صريرًا اضطرب له قلب ميخائيل. أمّا هي فلم تفطن إلى ذلك وذهبت فارتمت على سريرها وطمرت وجهها بيديها دقيقتين طويلتين ، ثمّ استوت وقالت وعلى وجهها توسّل ذليل :

– إسمع يا ميخائيل. لقد مضى على ميمي خمسة أعوام وهي تحيا وتدوس بهيّه بقدميها . وبهيّه تريد هذه الليلة أن تحيا حياتها هي . فهل تشاركها في تذوّق هذه الليلة ؟

ثمّ خلعت ثيابها وجذبته إلى السرير . وأمضى ميخائيل معها تلك الليلة في فراش واحد كما لم يمضِ ليلة مع امرأة قطّ . طلبت منه أن يمدّ ذراعه تحت رأسها فوضعته عليها . وجعلت تتمرّغ على وجهه وهي صامتة . وكان ميخائيل يرغب في الاطّلاع على حياتها الماضية وعلاقتها بالشابّ الذي أرته صورته والأسباب التي دفعتها إلى أن تتركه وتنصرف إلى الرقص . ولكنّها أصرّت على الكتمان. ثمّ قالت :

– ما يفيدك أن تعلم ؟ إنّك لا تستطيع أن تغيّر شيئًا ممّا قُدّر لي . إنّ الماضي مكتوب حفرًا . هل يقدر أحد أن يمحو المحفور على الحجر بإسفنجة ؟ يمكنك أن تعرف من حياتي أنّ اسمي كان بهيّه ، وأنّه صار ميمي . ويمكنك أن تحتفظ منّي بأنّك رأيت ذات يوم امرأة في الترامواي ، وأنّك اعتقدت ساعة أنّ تلك المرأة شريفة وابنة أسرة كبيرة .

ثمّ أخذت تردّد أسئلتها :

– كيف رأيتني في الترامواي؟ أيّ ساعة؟ ماذا كنت لابسة؟ هل كنت جميلة؟

ثمّ قالت :

– أتريد أن نطفئ المصباح؟

ولم تنتظر جوابه فأطفأته وأعادت رأسها إلى ذراعه وقالت :

– أأكون متطفّلة إذا سألتك ما اسمك ؟ اسمك كلّه .

فذكره لها فقالت :

– هذه سعادة للإنسان أن يكون له اسم واحد !

ثمّ جعلت تبكي وتقول :

– يا صديقي ، لا تؤاخذني. اِغفر لامرأة ضعفها. ضحٍّ لي بليلتك هذه من أجلي. أتستطيع ؟ نَم مع المرأة التي رأيتها في الترامواي لا مع الراقصة التي رأيتها على المسرح. أتوسّل إليك أن تقلّدني هذا الجميل . أكون لك شاكرة ، أحفظ لك هذه اليد طول الحياة. أنا مشتاقة إلى قبلة من القلب لا من الشفة. أنا أعلم أنّك لا تستطيع أن تحبّني بقلبك بعد أن عرفت أنّني راقصة. ولكن تظاهر أنّك تحبّني. أعطني منك الشفقة. الشفقة تكفيني. أتشفق عليّ؟ دعني أقبّلك على جبينك... وقبّلني أنت على جبيني ، هنا... هنا...

ورجعت إلى البكاء وهي تدفن رأسها في صدره ، وظلّت كذلك حتّى غلبها النوم. فجعل ميخائيل يصغي إلى أنفاسها ، تقطعها بين الفينة والفينة جهشة كجهشة الأطفال ، ثمّ يحوّل أنفاسه عن جبينها لئلّا يزعج رقادها . حتّى تملّكه النعاس هو أيضًا ولم يعد يعي شيئًا .

* * *

وشدّ ما كانت دهشته عند الصباح لمّا فتح عينيه فوجد نفسه وحيدًا في السرير. فلبس ثيابه على عجل وسأل في الفندق عن الراقصة ، فقيل له إنّها سافرت منذ أكثر من ساعة .

الرفيق كامل

قال الرجل لزوجته :

– أعطيني سوارك ، قومي أعطيني إيّاه !

كان واقفًا إزاءها على عتبة البيت ، خافضًا إلى الأرض عينين مظلمتين. فلم تجب فصاح بها :

– قومي !

وصنع كامل بيده اليمنى إشارة من تحت إلى فوق ، إشارة غاضبة كمن عيل صبره ، فأحسّت سامية بأنّها لو بقيت جامدة على كرسيّها لأعادها ضربة عليها أينما جاءت تجيء. فقامت إلى السرير وتناولت طرف الفراش وفتقته ، ومدّت يدها فسحبت السوار. وكان ملفوفًا بخرقة ففكّت ربطتها ، فلم يقع بصرها على الحلية حتّى اغرورقت عيناها بالدموع والتوت شفتاها بالحسرة. فتجاهل كامل تأثّرها. وبعد أن قلّب السوار على كفّه مرّتين دسّه في جيبه وأدار ظهره لينصرف. ثمّ وقف وسأل امرأته دون أن يلتفت إليها :

– أتذكرين بكم اشترينا هذا السوار؟

– بأربع عثمانيّات. اِعلم أنّ ابنتك مريضة ، وأنّني أتنازل عن السوار أجرة للطبيب الذي يجب أن ترجع به ، لا لكأس عرق تملأ به بطنك. كن واعيًا ولا تدع الصائغ يغشّك.

ولكنّه كان واثقًا من أنّ الصائغ سيغشّه. أليس الصائغ من جملة هؤلاء الرأسماليّين المستثمرين؟ أليس هو أحد أعضاء هذه الشركة العظيمة التي تهيمن على العالم والتي يشبّهها كامل بالغول ، تأكل وتأكل وتظلّ تأكل ولا تشبع؟ إذا أعطاه مقابل الرهن أربع ليرات ورقًا فيا سعده! أربع ليرات تكفي طحينًا لزوجته ولأولاده الثلاثة ، وعرقًا ودخانًا له طول أسبوع. وفي الأسبوع التالي؟... إنّه لا يريد أن يفكّر في المستقبل. ربّما عاد في الأسبوع التالي إلى السجن.

كان يسرع في مشيته حتّى اجتاز المسافة بين حيّ الرميلة الذي كان يسكن فيه وساحة الشهداء بأقلّ من خمس دقائق. وولج سوق الصاغة وأخذ يعرض السوار متنقّلًا من حانوت إلى حانوت فلا يستطيع رهنًا له ولا بيعًا. كان الصائغ يضع على إحدى عينيه مكبّره ويتأمّل الحلية ثمّ يسأل صاحبها ناظرًا إليه بعينه المعوجّة :

– أين شهادة هذا السوار؟

ثمّ يقيسه من رأسه إلى قدميه ، فيراه في هيئته الزريّة ، وفي ربطة عنقه الحمراء القذرة ، وقميصه الممزّق ، وجواربه النازلة على الحذاء ، ويعيد إليه السوار متمتمًا بكلمات غير مفهومة ، أو مسرًّا في أذن مساعده شيئًا ، فينفرج فم كامل بابتسامة احتقار ويقصد إلى حانوت آخر ، فيشيّعه صاحب الحانوت السابق بنظرة تقع على فتق في بنطلون كامل من الوراء كأنّها ابتسامة احتقار ثانية!

وأخيرًا وُفّق الرجل إلى صائغ ابتاع السوار بليرتين ورقًا ونصف. وبعد أن نقده الثمن قال له :

– بشرط أن يكون هذا السوار ملكك.

فعبس كامل في وجه الصائغ وتوارى وهو يضغط النقود بين أصابعه ويغمغم :

– سارق أنا؟! أنتم اللصوص! كلّكم لصوص، يا كلاب!

* * *

كانت سامية تنتظر زوجها على أحرّ من الجمر. ولم تذهب في ذلك النهار لغسل الثياب لأحد من سكّان الحيّ، بل لبثت في البيت جاثية إلى سرير طفلتها نادية التي كانت تئنّ وتجيل عينيها المحمومتين في أمّها جولات مخيفة. حتّى إذا نامت أخذت سامية ترتّب الفُرش، وتكنس الحصير، وترفأ ثياب أولادها. وبينا هي تبحث في أحد أدراج الخزانة عن خرقة تخيط بها كمًّا ممزّقًا، وقعت يدها على كتب زوجها وأوراقه، وهي مبعثرة في الدُّرج، من هنا ورقة منزوعة، ومن هناك غلاف مخلوع، ومن هناك كتاب مفتوح نصف فتحة. فوقفت أمام هذه الأشياء وقد اعتراها انقباض عظيم، كأنّ ملقطًا أمسك بها وشدّها بين سنّيه. أهذه هي الكتب والأوراق التي كانت تنتظر أن يشعّ منها النور على العالم؟ أهذه معلّمة العدل والمساواة ومقوّضة قصور الأغنياء وأصحاب السلطان؟ أهذه هي حاملة الخبز إلى الفقراء، والصحّة إلى المرضى، والمعرفة إلى الجهلاء؟ أهذه هي الجوقة السماويّة التي كان على طبقات البشر كلّها أن يمشوا على أغنيتها صفًّا واحدًا في طريق واحد إلى غاية واحدة هي السعادة للجميع!

كلمات! كلمات معسولة خدّاعة!

وطفقت المرأة تنظر إلى محتويات الدُّرج وتهزّ رأسها استخفافًا وتشتم الكتب والأوراق، وتودّ، لفرط هياجها، لو تتحرّك السطور والكلمات والحروف وتجيبها بشيء. لكنّها لم تتحرّك وبقيت جامدة، بلهاء، تحتمل الإهانة بصبر عجيب. فأمسكت سامية كتابًا ومزّقته وداسته بقدميها. فحبا ابنها الصغير، وكان يحوم حواليها متعلّقًا بأذيالها، إلى بقيّة الكتاب يفتّت أوراقه، وقد وجد به سلوة فريدة، ولعبة نادرة في بيت لم يرَ أولاده لعبة في زمانه.

* * *

كان كامل – إلى ما بعد زواجه بسنة تقريبًا – موظّفًا في إحدى شركات البنزين في بيروت. وكان يتقاضى راتبًا حسنًا مكّنه من استئجار بيت له ولامرأته مؤلّف من غرفتين. وكانا يعيشان راضيين. وكان الزوج يقسم وقته بين عمله وبيته. إلى أن جاء عهد أخذ يتأخّر فيه ليلة بعد ليلة، ويعود بكتاب تحت إبطه وينصرف إلى قراءته حتّى انتصاف الليالي، فتسأله سامية أين أمضى سهرته فيقول لها : عند أصحاب له معهم شغل. ولمّا تكرّرت الغيبات وامتدّت إلى أكثر من شهر، لم يسع كامل إلّا أن يُطلع روجته على الحقيقة. فجلس بجانبها على السرير وقال لها :

– أتحفظين السرّ؟

فارتعش بدنها، وحدّثتها نفسها بأمر مريب يشترك فيه زوجها. إلّا أنّ ثقتها بنبل أخلاقه طردت هذا الظنّ. فقال لها إنّ هنالك جمعيّة يعمل فيها هو وأصحابه في الخفاء، جمعيّة سياسيّة هي صغيرة اليوم وضعيفة ولكنّها كبيرة بغايتها، قويّة بعقيدتها، وكبيرة وقويّة بآلاف وملايين الجمعيّات أخواتها المنتشرة في العالم من أقصاه إلى أقصاه... وسيأتي يوم يهبّ فيه أعضاء هذه الجمعيّات هبّة الجبابرة فيقلبون صفحة الدنيا ويكتبون صفحة جديدة.

– بشرط ألّا تكون هذه الجمعيّة ضدّ الحكومة! أخاف عليك.

وكان كامل يشرح لسامية كلّ ليلة شيئًا من مبادئ جمعيّته، ويقرأ فصولًا من كتبه، فإذا فهمت جملة غابت عنها جمل. وكثيرًا ما كانت تحاول إقناعه بترك

هذه الجمعيّة وهذه الكتب ، وتقول له :

– هذا نظام الكون. الله أراد أن يكون غنيّ وفقير ، وخادم ومخدوم. كيف تضعون أنفسكم مكان الله وتخلقون الكون على ذوقكم من جديد؟ نحن مكتفون من خير الله. يجب أن نحمده ونبوس الأرض.

فيجيبها أنّ الله لا دخل له في الأمر ، وأنّ البشر يظلمون أنفسهم بأنفسهم ، ويقيمون الحواجز بين فريق منهم وفريق. ويتدفّق في الكلام تشنيعًا حينًا بهذه الأوضاع القائمة ، وتغزّلًا حينًا آخر بالأوضاع المقبلة. وينهض واقفًا ، ويذهب ويجيء في الغرفة ، وتلمع عيناه بالغضب تارة ، وبالزهو تارة أخرى. وكانت سامية تحبّ أن تصغي إليه وهو متحمّس هذا التحمّس ، وأن تراه يصنع هذه الإشارات الكبيرة. فلا تقتنع بعقلها ، وتكتفي بإعجابها به فتهجم عليه وتعانقه ، وتطلب من الله أن يحرسه بعنايته.

ومضت الأيّام والأشهر ، وأخذ البيت يتعرّف إلى اجتماعات الرفاق ومناقشاتهم في الليالي. إلى أن فوجئت الزوجة ذات يوم بأنّ زوجها في السجن بتهمة توزيع المناشير ، وفوجئت بعد خروجه بإقالته من وظيفته في الشركة. فكانت الصدمة قويّة عليها وعليه معًا. وقُبض عليه مرّة أخرى بتهمة تحريض عمّال الأحذية على الإضراب لزيادة أجورهم. ثمّ توالت زياراته للسجن ، يكاد لا يخرج منه إلّا ليعود بتهمة الدعاية الممنوعة. وأصبح يطرق العمل في الحكومة والشركات والمحلّات التجاريّة فيجفونه كما يجفون الأبرص أو المجدور. وكان قد انتقل خلال هذه الحوادث من بيته القديم إلى البيت الحقير الذي يقيم فيه الآن. بيت ! قبو ، بل مغارة واطئة لا تنفذ الشمس إليها إلّا شعاعًا ضئيلًا من النافذة الشرقيّة عند الصباح ، وتنضح أرضها بالرطوبة في عزّ تمّوز. واضطرّت سامية إلى تذليل نفسها والاستخدام عند الناس لتكفي أولادها مؤونة العوز. وحلّ الخلاف بين زوجين كانا في بحبوحة العيش مثالًا للأزواج. فقد كانت المرأة تُصاب بنوبات غضب على رجُلها ، وعلى جمعيّته ، وعلى الساعة التي تعرّف فيها إلى أولئك الأصدقاء الذين انحدروا به وبها إلى هذا الدرك ، وتدعو عليهم بالويلات وبخراب بيوتهم كما خربوا بيتها. إلّا أنّ كامل بقي جلودًا جبّارًا في إيمانه ، وكان يرفض الاستقالة من الجمعيّة سادًّا أذنيه عن توسّلات زوجته وصيحاتها ، قاضيًا نهاره كلّه والقسم الكبير من ليله مع رفاقه. حتّى كان ذات مساء فإذا جدال كبير ينشب بينهم ، وإذا سوء التفاهم يتحوّل إلى خلاف كاد يوصل إلى التضارب بالأيدي. فأُقيل كامل من العضويّة ، فكانت أكبر مصيبة نزلت به ، ولكنّها لم تزعزع عقيدته ، فظلّ يعقد على عنقه الربطة الحمراء. وأخذ يبحث عن تعزية فاهتدى إلى الخمرة ، فساءت حاله ، وتنكّر لعارفيه ، فإذا هو مُهمَل قذر بعد الأناقة والنظافة ، وإذا هو شارد الفكر ، ضائع النظرات ، إذا التقى واحدًا من عارفيه أولئك على رصيف حاد عنه إلى الرصيف الآخر.

وكان كثير من الشرطة يعرفونه ، فهو زبون مكرّر بلا عدّ ، فإذا رأوه لحقوا به وراقبوه.

وكان هو لا يكره ذلك منهم. فقد اتّفق له حتّى اليوم ، بواسطة هذا الاحتكاك ، أن جذب إلى عقيدته ثلاثة من كبارهم...

* * *

بعد أسبوع اشتدّ المرض على نادية ، فزاد نحولها وزاد بروز عينيها السوداوين الواسعتين اللتين ورثتهما عن أبيها. فقالت الأمّ لزوجها :

– أُنظر ! أُنظر إلى هذه الطفلة المسكينة. إنّ الرطوبة في هذه المغارة تقتلها. أحسّ أنّها ستروح من بين يديّ وتنطفئ كالشمعة ، وأنت لا تفكّر إلّا بفلسفتك وكأس عرقك. يجب أن ندعو لها الطبيب مرّة ثانية. هل أصدّق أنّك بعت السوار بليرتين ونصف ! أنا حمارة؟ أتعتقد أنّني حمارة ! أزل هذه الربطة الحمراء من عنقك ، أزلها من وجهي. إنّها خنقتك وخنقتني

وخنقت أولادنا ، وإخال أنّهم سيجرّوننا بها إلى القبر.

– من قال لك أن تلدي لي ثلاثة أولاد. أولاد ! أولاد ! أولاد !

قال الأب هذه الكلمات وكرّر الأخيرة منها ببطء وذهول وهو ينظر أمامه بعينين فارغتين. ثمّ تابع وقد رفع رأسه :

– أما كنت تقولين لي إنّ الله يبعث لكلّ ولد رزقه معه ؟ فليبعث لنا رغيفًا ، فليبعث لنا قنّينة كاز ، فليبعث لنا طبيبًا. قولي له قولي ! صلّي إلى إلهك الأصمّ. اِركعي واقرعي صدرك !

فهاجت ، وأرادت أن يكون هياجها غضبًا فاستحال على الرغم منها بكاء ، فأجهشت وقالت :

– ولكنّك زعزعت إيماني ، فجعلتني أكفر بالله. غفرانك يا الله ! ما أحلى الزمان الذي كنت فيه أصلّي وأعترف وأتناول ! كنت أحسّ براحة. كنت أرجو على الأقلّ حياة بعد هذه الحياة تكون فيها السعادة. أمّا الآن...

– ها ! ها ! هؤلاء مثل أولئك. كلّهم مساهمون في الشركة. فريق يستأثر بالدنيا ، وفريق يلهي المحرومين بالآخرة !

– رجعنا إلى فلسفتك المسمومة. قلت لك انزع هذه الربطة الحمراء عن عنقك. اِنزعها. اِنزعها !

وأمسكت بالربطة وجعلت تشدّ زوجها بها وهو لا يبدي حراكًا. فزاد غيظها لسكوته ، فجعلت تشتمه وتشمت به ، حتّى رفع كفّه إلى كفّها وضغط أصابعها فأفلتت الربطة ، وقال لها بابتسامته العريضة :

– ولكنّك لا تفهمين. ظننت أنّك ستفهمين يومًا زوجك ، فإذا تعبي عليك يذهب أدراج الرياح. سنحطّمهم في قصورهم ! قلت لك سنحطّمهم ! هذه اليد يجب أن تنقضّ على رؤوسهم ، يجب أن تبقر بطونهم. أترَين هذه الربطة الحمراء؟ يجب أن ترجع هذه اليد مصبوغة بدمائهم ، حمراء كهذه الربطة الحمراء !

وجعل يصيح وقد برقت عيناه ، وبقيت الربطة منحرفة عن موضعها إلى كتفه ، فظهرت له هيئة مجنون تمامًا. وكانت المريضة الصغيرة قد استفاقت تنتحب ، فذهبت إليها أمّها ، وخرج الأب من الباب ودفعه وراءه بعنف ، وقصد توًّا إلى سوق الصاغة.

– لقد خدعتني يا هذا ! أعد إليّ السوار ، أو أعطني أيضًا مثل ما أعطيتني أوّلًا : ليرتين ونصفًا. بخمس ليرات من الورق تكون قد اشتريت سوارًا دفعت ثمنه أنا أربع ليرات عثمانيّة. هاتِ المبلغ أو السوار.

فتظاهر الصائغ بأنّه مشغول بحلية أمامه. ثمّ رفع إليه عينه بالمكبّر مكشّرًا وقال :

– السوار ، بعته يا صاحبي.

وعاد إلى الحلية البرّاقة بمكبّره وملقطه. فعنّ لكامل أن يضرب الطاولة بجُمع كفّه ويبعثر ما فيها على الأرض وينتقم انتقامًا فظيعًا. ولكنّه لا يدري أيّ شيء أمسكه فانقلب إلى اللين ، وتقدّم من الرجل يحدّثه عن مرض ابنته بتأثّر حقيقيّ – شعر به لأوّل مرّة هنا أمام وجه هذا الصائغ الأصفر – فأصغى هذا إليه دون أن يوقف عمله. ثمّ نزع عن عينه المكبّر وفتح محفظته ورمى منها على الطاولة نصف ليرة وقال :

– المسألة إذن مسألة شفقة. ها ! تغيّر الموقف. لِمَ لم تقل لي ذلك قبلًا؟ خُذ. شفاها الله ! بشرط أن تكون صادقًا في كلامك ، وأن يكون لك بنت ، ومريضة.

وابتسم المحسن ابتسامة أطفحت الكيل في نفس الأب فقذفه بقطعة النقد ، فمرّت بين رأسه والواجهة وانطلقت من الباب إلى الشارع ، وصاح :

– الشفقة ! الإحسان ! لا ! لا ! هذه بضاعة لا أتاجر بها ! هذه بضاعتكم أنتم. أريد منك العدل ! العدل ! العدل !

ومشى... فحمل الصائغ نفسه إلى الشارع ووضع نظّارته وانحنى يبحث عن نصف الليرة بعينيه وبأنفه

حتّى وجدها فنفض عنها ترابًا ظنّ أنّه علق بها وأعادها إلى محفظته. ثمّ التفت إلى حيث ذهب كامل، وضحك ضحكة عالية يسخر منه بها، أو يهنّئ نفسه بالمال الذي عاد إليه.

أمّا كامل فذهب إلى البيت وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ويشعل سيكارة وراء سيكارة. وكان يصغي لأنين بنته ويتفقّدها من حين إلى آخر مارًّا بكفّه على جبينها، فإذا به مثل النار، فيذوب قلبه كالثلج ذوبانًا ناعمًا مؤذيًا.

ولمّا عادت سامية مساء من عملها كان على وجهها ضياء من فرح لم يشعّ عليه منذ زمان. فدنت من زوجها وألقت في حضنه كومة من أرغفة يابسة، وهتفت:

– أرأيت أنّ الله بعث لنا حسنة هذه الصغيرة! غسلت ثيابًا لجار جديد يسكن الحيّ، هنا عند المفرق، في البناية الكبيرة، فأعطتني زوجته عشرة قروش وهذه الأرغفة، وأعطاني هو نصف ليرة. الكلّ ستون قرشًا! وسيعطيني كذلك كلّما غسلت لعائلته ثيابها، مرّتين في الأسبوع. هل تؤمن بالله الآن؟

ونظرت الزوجة إلى زوجها بعينين يملأهما الظفر، فإذا به يبتسم ابتسامته العريضة ويسألها:

– وماذا قال لك؟ ألم يقل لك إنّك جميلة؟

فاكمدّ وجه المرأة وأجابت بضحكة نافخة تستهزئ بها من نفسها:

– جميلة! إذا كان لي جمال فقد مضى.

وكان الولد الكبير قد تلقّف رغيفًا وأخذ يعضّه.

* * *

كان كامل ينتظر الصباح بفروغ صبر، ويتمشّى في الغرفة رافعًا عينيه صوب النافذة الشرقيّة، فإذا لم يرَ بصيصًا عقد حاجبيه مخاطبًا نفسه وصانعًا حواليه إشارات في الهواء كان خيالها يرقص على الحائط على ضوء شمعة معوجّة، تكاد تنقصف من الوسط، موضوعة على حديد السرير الذي تنام فيه المريضة الصغيرة.

كانت نادية قد غابت عن الوعي. وكان أبوها قد ذهب في الليل وحمل في جيبه الستّين قرشًا إلى دار الطبيب وطلب إليه أن يعاين ابنته مرّة ثانية. وقال له إنّها في خطر الموت، وإنّ واجبه الإنسانيّ يدعوه إلى القبول بهذا المبلغ الزهيد إذا أبى إلّا القبض. فغضب الطبيب من هذه اللهجة، وأغلق الباب في وجهه.

وكان كامل قد عزم على العود إلى الصائغ. قصّ قصّة نصف الليرة على زوجته فلامته وقالت له: «كان عليك أن تأخذها». صحيح كان عليه أن يأخذها. لو كانت معه وضمّها إلى الستّين قرشًا لصار في يده مبلغ ربّما يرضى به الطبيب أجرة لزيارة.

ومع الفجر رأى حارس الليل، لدى انصرافه من سوق الصاغة، رجلًا رثّ الثياب يتمشّى في السوق ويلوي. كلّما وصل إلى أوّله وآخره، أنفه الطويل يمينًا ويسارًا ثمّ يخفضه إلى الأرض ويستأنف شأنه الأوّل. فخامرت الحارس الريبة، وودّ لو يبقى لمراقبة الرجل. ولكنّه التفت إلى ساعته فإذا وقت الوظيفة قد انقضى، فهزّ رأسه وحمل عصاه وانصرف.

وأخيرًا فتح صائغ حانوته، ثمّ الثاني فالثالث إلخ. أيذهب القدَر في نكايته إلى حدّ أنّ صائغه لا يأتي إلّا الأخير؟!

وأحسّ كامل في نفسه ذلًّا استغربه من نفسه. تقدّم من الباب عفوًا وعاون صاحب الحانوت على فتحه وكأنّه يحمله على الاستئناس به والعفو عن ذنب اقترفه. ودخل وراءه، فأخذ الصائغ يرتّب حلاه في مواضعها وينفخها، ولا يعير الرجل التفاتًا. وساد بين الاثنين صمت طويل مزعج، فبلع كامل ريقه وقال:

– أعطيتني أمس نصف ليرة... و...

– نعم. ورفضتها أنت. إذا كنت مستعدًّا أن تعيد إليّ الليرتين والنصف أعدت إليك السوار، وتخلّصت من هذه الصفقة.

ونظر الصائغ بخوف إلى وجه كامل يرتقب

الجواب. لأنّه كان في الحقيقة مستعدًّا أن يزيده بدل نصف الليرة ليرة وليرتين وأربع ليرات بشرط أن لا يستعيد السوار الثمين منه. فقال كامل:

–كيف قلت لي إنّك بعته؟

واستفاقت في لهجته كرامته الغاضبة. واتّفق أن دخلت سيّدتان في تلك اللحظة إلى الحانوت فلملم الصائغ نفسه لاستقبالها. وأخذ يعرض عليهما سوارًا من هنا، وسلسلة من هناك، وقلبًا من هنا، وقرطًا من هناك. وكان كامل يرافق هذا المشهد ويتذكّر بلاهته – نفعته بعدئذ ولكنّها بلاهة – بقيّة كانت فيه من بقايا الأرستقراطيّة، يوم قصد إلى سوق الصاغة في طرابلس بعد العرس واشترى لسامية سوارها. ثمّ تابع النظر إلى المعروضات والإصغاء إلى المساومات. وحانت منه التفاتة إلى الخزانة التي تلي يمينه، والتي كان الصائغ قد فتحها ليعرض ما فيها على السيّدتين وتركها مفتوحة، فلمح السوار. هذا هو! هذا سواره!

وأخذ يرسل إليه من طرف عينه اليمنى النظرة العجلى تلو النظرة العجلى، ثمّ يسوّي جلسته مقتربًا إلى اليمين ومختلسًا النظر إلى الصائغ.

وحاول أن يرفع يده إلى الخزانة فإذا هي ترتجف ارتجافًا ظاهرًا، فيجتهد أن يوقفه فلا يستطيع. ثمّ وضع كلّ عزمه ورفعها، ثمّ دسّها في الخزانة والتمس السوار بأصابعه، حتّى إذا وقع عليه وضعه في جيبه، ونهض متثاقلاً يتدخّل في الحديث بين السيّدتين والصائغ ويقول أشياء لا لزوم لها، والكلمات تتعثّر على لسانه بلا وعي.

ولمّا خرجت السيّدتان لم يستطع الصائغ إلّا أن يعبّر عن سروره بالصفقة الجديدة التي تمّت له معهما ففتح محفظته بحركة كبيرة مملوءة بالزهو، ونقد الرجل الذي كان منتظرًا ليرة. فلم يدرِ كامل أنّها صارت بين يديه حتّى أدار ظهره وخرج.

على أنّه ما وصل إلى أوّل السوق، من صوب ساحة الشهداء، حتّى كانت الصيحة قد قامت من ورائه:

– سارق! سارق! أمسكوه! أمسكوه!

فطنّت هذه الكلمة في أذني كامل طنينًا غريبًا تجاوب في كيانه من أقصاه إلى أقصاه. ولكنّه تابع سيره برباطة جأش. حتّى تجمّع عليه الناس. وملأت صفّارات الشرطة الفضاء بطلب النجدة. وانقضّ عليه شرطيّ وبصق في وجهه:

– أهذا أنت البلشفيكي؟ بلشفيكي وسارق أيضًا!

وضرب بيده إلى جيبه فانتزع السوار. ثمّ ساقه إلى المخفر حيث لقي من الشرطة الآخرين لكمًا ورفسًا كثيرَين قبل أن يغلقوا عليه باب النظارة وهو لا ينبس ببنت شفة.

ولمّا تواروا نظر إلى ربطته الحمراء فإذا هي ممزّقة، وإذا عليها قطرة دماء كبيرة من أنفه، لامعة لمعانًا أخّاذًا. فابتسم لها ابتسامته العريضة، وظلّ محدّقًا إليها، وقد استحالت في عينيه إلى فجر كبير أحمر يغمر الدنيا.

كـاراخـو

اِختلفت آراء أهل القرية في المهاجر العائد إلى بلاده اختلافًا كبيرًا. خرجوا من بيته بعد تهنئته بالسلامة وأخذوا يتجادلون :

– بالأمس كان درويش الموالي يشكل شرواله ويحمل المحراث . عشر سنين مرّت كأنّها عشرة أيّام . ها هو يعود مثل أولاد الملوك... خمسون ألف ليرة !

– خمسون ألف ليرة؟ أنا أراهن على أنّه لا يملك خمسمئة !

– سمعت أخته تقول إنّه كان صاحب أملاك وتجارة طويلة عريضة في أميركا. فباع أملاكه وصفّى تجارته ، وجاء ليبني بيتًا بقرميد ، ويتزوّج .

– أتصدّق هذه الأخبار؟ أخته تريد أن تزوّجه . أمّا أنا فقد سمعت أنّه استدان من ابن عمّه رؤوف أجرة الطريق. الغنيّ هو رؤوف ! عنده سوق في أميركا على حسابه. ولكنّه لا يريد أن يرجع إلى البلاد.

– أتظنّ أنّه مشتاق إلى كبابه؟ أتريد أن يعود إلى الفرن وإلى الدخان الذي كان يصبغ وجهه وثيابه؟ ! تزوّج أميركيّة. امرأتي رأت صورتها عند أخت درويش. بيضاء شقراء مثل القمر. ورؤوف نفسه أصبح مثل الأميركان.

– ودرويش ، أيّ شيء يشكو؟ اسم الله ! ألم تسمعه يحدّثنا طول الوقت بالإسبانيولي؟ سي سنيور... سي سنيوريتا !

– وهل نسيت كاراخو! * كارّ.. ر.. اخو!

وقلّد الرجل لهجة درويش في التشديد على الراء ، فضحك الجميع . ثمّ أردف :

– عائلة الموالي فلّاحون بفلّاحين ، قضوا عمرهم في المراح ينامون مع البقر . تصوّروا درويش يفلح وينخز البقرة بمسّاسه وهو يصرخ فيها : سنيوريتا كاراخو ! كاراخو سنيوريتا ! كان عليه أن يأخذها معه لتتعلّم إسبانيولي .

– تخلّص من البقر ، وما دارت الدائرة إلّا علينا نحن . ماذا كنّا خسرنا لو سافرنا إلى أميركا مثل درويش ورؤوف؟ !

* * *

في اليوم التالي خرج العائد وأخته يردّان الزيارات . وكان درويش يتنقّل من بيت إلى بيت ببرنيطة ذات رفارف عريضة ، وبمظلّة يعلّقها في ذراعه أو ينكت بها الأرض وهو يمشي. وكان الرجال والنساء يستقبلونه أحسن استقبال ويشيّعونه إلى الطريق بفضول وكثير من الاحترام. للفريقين منفعة منه. الرجال يشتغلون غدًا في بناء بيته ، والنساء يدبّرن له عروسًا . حتّى لقد لبست الستّ أو السبع البنات الموجودات في كبابه أجمل

* شتيمة باللغة الإسبانية .

زينتهنّ ذلك اليوم. ومنهنّ من أجبرتها أمّها أو عمّتها على تقديم القهوة بيدها إلى الخواجه درويش، وعلى سؤاله عن أحوال أميركا، وهل تعب في البحر أو لا. وكان درويش ينتظر مثل هذه الأسئلة ليفيض في الكلام:

– كاراخو! عندنا في كولومبيا الشوارع ملساء مثل الحرير، والحكومة ساهرة على راحة الناس... كنت خارجًا ذات صباح إلى شغلي مع الفجر فسمعت صوت جارتي: «بحياتك يا سنيور كاربنتي! بحياتك يا سنيور كاربنتي! سامحني هذه المرّة!» فقلت في نفسي: السنيور كاربنتي هنا! ولم أصدّق أذني حتّى دنوت فرأيت السنيور كاربنتي، السنيور كاربنتي بذاته، يقول: «سنيوريتا! سنيوريتا! – بكلّ تهذيب، لأنّ عندنا احترامًا للنسوان – كيف تتركين الأوساخ في الشارع؟» فدنوت من السنيور كاربنتي وقلت له: «إكرامًا لذقني يا سنيور كاربنتي!» فقال لي: «أوه! سنيور درويش، أهذا أنت؟» ولو لم أتدخّل في الأمر لساقها إلى الحبس.

ونظر درويش حواليه، فإذا السامعون يبتسمون ابتسامة بليدة. فعقد حاجبيه وأردف:

– هل تعرفون من هو السنيور كاربنتي؟ حاكم كولومبيا!

ونظر مرّة ثانية، فإذا فوقه سماء تضيء بالعيون المدوّرة، فاستأنف:

– من أعزّ أصدقائي. ولا كلفة بيني وبينه. أنظروا. هذه هديّة منه.

ودفع بطنه أمامه، وتناول ساعة ضخمة لمّاعة من سترته مربوطة بسلسلة سميكة مزدوجة، ثمّ قال:

– ماركتها باتك فيليب، أخت الساعة التي يحملها هو... والسنيوريتا كاربنتي، لو ترون ما ألطفها!... أمّا هنا فالأوساخ تأكلكم وأنتم ساكتون تكتّفون الأيدي! الرائحة على طول الطريق قتلتني في بيروت. والحالة في كبابه ألعن... كاراخو!... إصبروا عليّ. سأنزل عند الحاكم. من هو الحاكم في بلادكم؟ سأنزل عنده وأقول له: هذا لا يجوز، سنيور، الأمراض تنتشر من الزبالة!

ويستمرّ درويش في الكلام على عظمة أميركا وأبنيتها وأهلها وقوانينها وكلّ من فيها وما فيها مستخفًّا بوطنه. ولو لم تكن أخته تنبّهه بوخزة في ساقه إلى أنّ الزيارة قد طالت، وأنّ من الواجب أن يقوما لئلّا يعتقد أهل البيت أنّه حطّ عينه على بنتهم لما أمسك. حينئذ يمدّ درويش يده إلى الباتك فيليب ويسحبها بجلال ويغمغم:

– كاراخو! راح الوقت! خاطركم!

* * *

في الأسبوع التالي علا في المقلع، في طرف القرية، صوت البارود. كان درويش قد عزم على بناء بيته. وكان له أراضٍ واسعة، ولكنّه أبى إلّا أن يبني فوق البيت القديم الذي ورثه عن أبيه.

وأصبح درويش منذ ذلك اليوم حركة دائمة. حمل مظلّته، ووضع في قدميه حذاء عتيقًا يؤكّد الخبثاء في كبابه أنّه حذاؤه قبل عشر سنين، تركه عندما سافر فحفظته له أخته سليمًا معافى. وأخذ يتنقّل بين المقلع والبيت ويصدر أوامره باللغتين.

واتّفق مرّة أنّ فاعلًا كان يعالج بالمهدّة والإسفين صخرًا كبيرًا في المقلع ويلهث فوقه عاجزًا. فعلّق درويش مظلّته على غصن سنديانة، وصاح:

– أعطني المهدّة لأرى!

فظنّ الفاعل أنّ درويش يمزح، فرفض إعطاءه المهدّة واحمرّ وجهه خجلًا. فهجم درويش على المهدّة هاتفًا:

– كاراخو، هاتها!

ورفعها فوق برنيطته وضرب بها بكلّ قوّته، فجاءت على حدّ الإسفين، فزلقت وأصابت قدمه، فهرست له إبهامه حتّى بصق الحذاء الدم. فحمل ساقه بيده وعرج حتّى استلقى على ظهره تحت السنديانة وهو

يردّد : «كاراخو ! كاراخو مِردا ! » وتهافت الفعلة عليه يؤاسونه ويهزّون برؤوسهم تأسّفًا ويلومونه على هذه المغامرة. وهو يئنّ ويفتّش بعينيه عن الفاعل الذي كان يعالج الصخر. فإذا هو يقبل حاملًا الساعة بيد، وقطعة من سلسلتها باليد الأخرى، وينفخ نافضًا عنها التراب. فقفز إليه وقد نسي جرحه، وتناول الساعة بيدين ملتاعتين، فارتجف الفاعل خوفًا وتمتم :

— إن شاء الله لا يكون أصابها عطل. أما قلت لك يا خواجه درويش إنّ يديك لم تتعوّدا حمل المهدّة؟

ورفع درويش الساعة الضخمة إلى أذنه، فانحنى الفعلة يحبسون أنفاسهم. فإذا به يتهلّل وجهه ويقول :

— وجّه الله لك الخير يا سنيور كاربنتي ! هذه باتك فيليب لو ضربتها بالمهدّة لظلّت ماشية !

فتنفّس الفعلة الصعداء.

* * *

ومضت الأيّام... وكادت النساء يمتن ضجرًا لتأخّر درويش في خطب عروس له.

— ألم تعجبه واحدة من كبابه؟ أيتكبّر على بنات قريته؟ وأحسن ممّن هو؟ لم ننسَ بعد أصله ولا فصله.

— أخته واحدة بنت حرام ! لولاها كان تزوّج من زمان ! مضى شهر ونصف على وصوله وهي تقول له : هذه سوداء، وهذه عيناها صغيرتان، وهاتيك أمّها كذا وكذا... لا يعجبها العجب !

— ذهبت الملعونة يوم الأحد إلى طمران وادّعت أنّ بنت خالها مريضة وأنّها قصدت زيارتها. كذّابة ! ذهبت تفتّش له عن عروس في طمران.

— مسكينة كبابه ! حظّها قليل ! بالأمس تزوّج ابن الشيخ صالح أيضًا من طمران. كأنّ البنات انقطعت عندنا !

— أنا أرى أنّ درويش لن يتزوّج لا من كبابه، ولا من طمران. لتقل كلّ واحدة لبنتها أن تريح بالها. لو كان فيه خير، كما يقول أبونا الخوري، لكان يأتي إلى القدّاس يوم الأحد مثل أولاد الأوادم.

القدّاس ! والصلاة ! والقربان ! ... هذا شيء كان لدرويش فيه رأي أيضًا. وذلك الرأي هو الذي أبقاه بعيدًا عن الكنيسة. ولكنّ أخته ألحّت عليه ذات يوم وقالت له :

— هذا عيد الفصح ! هذا الأحد يجب أن تذهب معي إلى الكنيسة.

— كارخوا ! إكرامًا لك أذهب، لا للفصح.

وركّز درويش ساعته، وأمسك مظلّته، ووضع برنيطته ذات الرفارف العريضة... إلى القدّاس. فسارت بين النساء همهمة سرور. وشكرت أمّهات العرائس الله ومريم العذراء على أنّ صهرهنّ المنتظر ليس كافرًا كما ادّعى أبونا الخوري. وأبونا الخوري نفسه لم يرَ درويش بين الحضور حتّى جهر بصوته وجعل ينغّم في صلواته. ودعا القندلفت إلى المذبح وهمس في أذنه بأن ينظّف الصينيّة، ويضع عليها المنديل الحريريّ الأبيض، وأن يبدأ الطواف بالخواجه درويش. فلمّا وقف القندلفت بالصينيّة، وبابتسامة عينه الواحدة أمام درويش، اشرأبّت الأعناق، وتخلخلت المؤخّرات عن المقاعد. ولكنّ درويش ظلّ ناظرًا إلى المذبح، مريحًا ذقنه على رأس مظلّته الواقفة بين فخذيه وكأنّه لا يفهم شيئًا. فانحنى القندلفت بصينيّته، فإذا بدرويش يضربها بمظلّته فتقع من كفّ القندلفت محدثة على بلاط الكنيسة رنّة عظيمة متجاوبة الأصداء :

— كاراخو ! ألا تزالون متأخّرين في هذه البلاد؟ هذه أعمال شحّادين يا أبونا ! إذا كنت محتاجًا إلى مساعدة فتعالَ إلى البيت وأنا أعطيك شِكًّا على البنك. أمّا في الكنيسة؟! ...

وأجال درويش في السامعين عينين محمرّتين، فإذا هم يخفضون رؤوسهم متهامسين، وإذا بالكاهن يعود بوجهه إلى المذبح مستأنفًا قدّاسه، دون تنغيم. وحمل القندلفت صينيّته ولم يتجاسر على إكمال الطواف.

بعد القدّاس تزاحم الشبّان على الجرس يدقّونه . فوقف درويش ينظر إليهم . ثمّ وضع مظلّته جانبًا ، وخلع برنيطته ، ووضع الباتك فيليب في البرنيطة ، ثمّ دنا فأمسك بالحبل ولفّ طرفه على كفّه وهتف :

– قبل أن أسافر كنت أربّعه بيد واحدة !

وشدّ ، ثمّ أرخى ، ثمّ شدّ ، ثمّ أرخى ، والشبّان عيون عليه . ثمّ جذب الحبل تحت خاصرته جذبة صبّ فيها قوّته وثقله . فانخلعت ذراعه إلى الوراء ، وأفلت الحبل طائرًا في الجوّ على حائط الكنيسة ، ثمّ أهوى فضرب وجهه . فكان له من المغامرة ألمان ، الواحد في مرفقه وقد أحسّ أنّه ينقصف . والآخر في أذنه وقد كاد يصلمها ، فضلًا عن سخرية الشبّان وقد سنحت لهم فرصة الانتقام منه على ما صنع مع القندلفت.

وتلمّس درويش ساعته وبرنيطته ومظلّته وقال :

– كاراخو ! الناس هنا مثل البهائم ! سأوصي لكم على آلة لدقّ الجرس بزرّ صغير يضغطه ولد بإصبعه ، كما نعمل عندنا في كولومبيا !

* * *

راحت أيّام ، وجاءت أيّام ، فإذا صوت البارود في المقلع يسكت ، والبنّاؤون يوقفون رصف الحجارة. تجمّع لهم في ذمّة الخواجه مبالغ وهو يماطلهم . وكان آخر موعد بينهم وبينه السبت الماضي إذ قال إنّه سينزل إلى بيروت ليسحب من البنك . أيّ بنك هذا؟ نزل إلى بيروت ثلاث مرّات قبل ذلك ولم يسحب شيئًا ، ولم يدفع لسائق السيّارة أجرته.

وتجمّع الفعلة والبنّاؤون ذات مساء وذهبوا إلى منزله ساخطين ، فاستقبلتهم أخته وقالت لهم إنّه – عقبى لجميع العازبين ! – ذهب إلى طمران ليرى ابنة المختار التي خطبتها له من أبيها ، وإنّه قبض المال من البنك ، وإنّه في الصباح يكون هنا ويدفع لهم إلى آخر بارة ، فيستأنفون الشغل ليكون البيت جاهزًا لاستقبال العروس بعد شهر على الأكثر.

فمنهم من صدّق كلام الأخت واستبشر ، ومنهم من لم يصدّق فغمغم. وأخيرًا خرجوا وقد عزموا على الانتظار تلك الليلة أيضًا.

ولكنّ الصباح طلع وجاء المساء ، وتلاه مساء وصباح ، ولم يدفع درويش قرشًا . فضجّوا وأوصلوا الخبر إلى شيخ كبابه والخوري ، وطلبوا توسّطها بينهم وبين درويش. فذهبا إليه وأخبراه بأنّ العمّال جماعة فقراء ، عيالهم تطلب الخبز ، وهم متعوّدون أن يتناولوا أجورهم يوميًّا. ففرّج درويش فخذيه والتفت إلى الخوري قائلًا :

– أصحيح ما أخبروني عنك يا محترم؟ كاراخو ! نحن في عصر الحرّيّة. كيف رفضت أن تزوّج رشيد البدّاد من زهّور تميم؟ أبوها غير راضٍ؟ يرضى بعدئذ على مهله ! السنيوريتا ، كاراخو ، أعني البنت لها حرّيّتها عندنا في كولومبيا مثل الشابّ.

فتبادل الشيخ والخوري نظرة ، وقال الشيخ مقاطعًا :

– ولكن هذا حديث آخر ، يا خواجه درويش. ولكلّ حادث حديث. نحن جئنا...

– كاراخو ! هذا ظلم. تستطيع زهّور أن تقيم الدعوى عليك ، يا محترم ، وعلى أبيها ! عندنا في كولومبيا البنت تعاشر وتروح وتجيء مع الشابّ الذي تريده ولا أحد يسألها عمّا تفعل. كاراخو ! ليس له حقّ أن يسألها !

– يا خواجه درويش....

فمدّ درويش كفّه ملوّحًا بها في الفضاء ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، وقال :

– فهمت. فهمت. المبلغ كلّه ثمن علبة سكاير. ذات يوم كنت في البرّ ، فخطرت السيكارة ببالي ، فأرسلت سيّارة خاصّة على سفر يومين ذهابًا إلى المدينة ويومين رجوعًا ، أربعة أيّام ، وكلّفتني علبة السكاير خمسين ريالًا. كاراخو ! أهارب أنا من كبابه؟

ثمّ ادّعى أمام الشيخ والخوري أنّه كتب إلى وكيل أملاكه في كولومبيا بإرسال ألف إنكليزيّة على جناح

السرعة. وبعد عشرات من الكاراخو صرفها عنه.

* * *

كان من الطبيعيّ أن لا يقتنع العمّال بهذه الحيلة، فجمعوا جموعهم في السهرة وتآمروا على درويش. فلمّا كان الصباح ذهبوا إليه يهدّدونه هذه المرّة ويستهزئون به. فوقف على العتبة وسحب الساعة البرّاقة وقال:

– خذوا الباتك فيليب رهنًا!

وفكّ سلسلتها من زرّ سترته وهمّ بدفعها إلى كبيرهم. فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض متسائلين، وبرقت عيون السذّج منهم، ولكنّ كبيرهم صاح:

– خلّها لك، تنكة مدهونة! نحن نعرف كيف نأخذ حقّنا!

– اِحتفظ بها هديّة من السنيور...

– من السنيور كاربنتي! ها! ها!

– أشبعتنا كذبًا وادّعاء.

– أبوك كلّ عمره يأكل مال الناس.

– اِرجع إلى البقرة والمسّاس!

وأشار كبيرهم إلى رفاقه فتبعوه، وانقضّوا على الحيطان الجديدة التي بنوها فوق سطح البيت القديم يهدمونها ويبعثرون حجارتها في الطريق، ودرويش يترجّى هذا ويهدّد ذاك، ويركّز برنيطته القافزة على رأسه، ويلوّح بمظلّته، وهم ماضون في عملهم يقهقهون من قهرهم ويصيحون:

– كاراخو! كاراخو! كارّرراخو! كارّرراخو!

* * *

وقعت هذه الحوادث كلّها في كبابه منذ خمس عشرة سنة، وقد رجع درويش الموالي على أثرها إلى أميركا، وماتت أخته بعد سفره بسبعة أشهر، من كثرة ما دعت عليها زوجة مختار طمران إذا صدّقنا النساء، ومن كثرة ما كفر أخوها درويش إذا صدّقنا الخوري.

ولا يزال المارّ في كبابه يشاهد، في الجهة الشرقيّة منها، حجارة صبغتها العناصر، مبعثرة على قبو قديم حقير. وقد نسي صغار القرية اسم أصحاب البيت الحقيقيّ، فهم يشيرون إليه ويقولون: بيت كاراخو.

ميثاق الموت

إلى صديقي ميخائيل نعيمه

كان الحديث عن الحالة السياسيّة في العالم، وعن إمكان نشوب حرب عامّة جديدة، فقادنا الموضوع إلى تذكارات الحرب الماضية، فأخذ كلّ منّا يدلي بما عنده ويستشهد بما كتبه المؤرّخ الفلانيّ والروائيّ الفلانيّ عن تلك المأساة الفظيعة التي تناحر فيها البشر من ١٩١٤ إلى ١٩١٨. وكان بيننا صديق ساح في الأرض وقُيِّض له أن يحمل البندقيّة إلى جانب الذين حملوا بنادقهم أربع سنين متواصلة، فقصّ علينا القصّة التالية. قال:

كان ذلك في أواسط ١٩١٨، وكانت الأوامر قد صدرت إلينا بالمسير إلى الجبهة نجدة للجيش المقاتل. وكان بين رفاقي واحد شدّت بين نفسه ونفسي روابط من المحبة حتّى أصبح لي مثل أخ. لست أدري أيّ كآبة حلوة كانت تتقطّر من عينيه الزرقاوين، وأيّ طيبة قلب ترفّ بجناحيها الأبيضين على شاربيه، وأيّ شيء في صوته الحارّ يدعوك فتنجذب إليه، وتحسّ أنّه أخذك بخيط من قلبك إلى حيث يريد.

وكان فرانسوا – وهو اسمه – يكره الحرب. يجب أن لا تروا في هذا الكره جبنًا. لا، فقد كان فرانسوا شجاعًا إلى أبعد حدود الشجاعة، ولكنّي ما أزال أذكر كلمته: «يا صديقي، أنا أربأ برأسي أن يكون مثل هذه البندقيّة محشوًّا بالبارود والرصاص!»

قد أنسى أهوال الحرب كلّها، ولا أنسى صورة فرانسوا ما حييت.

كانت السيّارات قد سبقتنا بأمتعتنا إلى مكان نُصبت فيه للجنود خيام وحُفرت خنادق. ومشت الفرقة على الأقدام إلى المكان أيّامًا، ووصلت إليه ليلًا، فجلسنا للعشاء. وفجأة التفت إليّ فرانسوا وقد أوقف اللقمة دون فمه وقال:

– من يضمن لنا أنّ هذه اللقمة تصل إلى فمنا ولا تسبقها إليه قنبلة؟

وما أكمل حتّى انشقّت الأرض على مقربة منّا في ثلاثة مواضع وانفجرت دخانًا وترابًا وحجارة بثلاث قنابل لم نعلم من أين سقطت علينا. وكان الجوع يصيح في أحشائنا صياحًا، فتركنا الطعام وزحفنا على بطوننا نتلمّس المخابئ. ثمّ أُطفئت الأنوار وصدر الأمر إلى الجنود أن يذهبوا إلى حقائبهم – وكانت مرصوفة على بعد مئتي متر تقريبًا – على أن يتناول الواحد منّا الحقيبة التي تقع عليها يده، فإذا رجعنا إلى خيامنا أضأنا المصابيح ووُزّعت الحقائب على أصحابها. فدنا منّي فرانسوا ووضع ذراعه على كتفي وقال:

– سأضرب بيدي، فإذا أصبت حقيبتي كان ذلك دليلًا على أنّي سأعود من الحرب سالمًا، وإلّا فموتًا أموت بعيدًا عن زوجتي وأولادي وبيتي ووطني.

فظننته هازلًا ، فقلت :

– أمجنون أنت؟ إنّ الحقائب ألف ومئتان. كيف تريد أن تقع يدك على حقيبتك من بين هذه التلّة العظيمة؟

فلم يجبني وتابعنا طريقنا ، حينًا مشيًا ، وحينًا ركضًا ، وأحيانًا زحفًا على البطون ، وكان الليل أسود مثل الفحم. وفيما نحن عائدون قال لي فرانسوا :

– ماذا تقول إذا كانت حقيبتي؟

– أقول إنّها مصادفة. إنّ من المصادفات لأعاجيب. ولكنّك لن تستطيع أن تقنعني بأنّ ذلك دليل على شيء ، على ما تعرف من حبّي لك وحرصي على أن تسلم من كلّ أذى.

وسمعت حركة ، ورأيت ، على اشتداد الظلام ، يد رفيقي تمتدّ وراء ظهره وتتحسّس الحقيبة ، ثمّ قال لي :

– مصادفة! سمّها أنت ما تشاء. أمّا أنا فلن أتحوّل عن عقيدتي. (وكان صوته يرتجف) يُخيَّل إليّ أنّها حقيبتي... إنّ الكون مملوء بالأسرار ، وبين هذه الأسرار ونفوسنا نحن البشر ، بل بينها وبين كلّ حيّ وجماد في الكون تجاذب خفيّ وتفاهم وتفاعل. نسمّيه نحن في لغتنا مصادفات طورًا ونسمّيه طورًا أعاجيب من السماء ، ولا نفهم منه كثيرًا ولا قليلًا ، ولكنّنا نتحمّل نتائجه ونقف عندها مشدوهين. أقول لك إذا كانت هذه حقيبتي فإنّني سأسلم.

وامتزجت في نبراته رنّة جواهر من السرور والأمل. وكنّا ما نزال نمشي. فلم أشعر إلّا ويدي ، أنا أيضًا ، تحاول ، على غير وعي منّي ، أن تمتدّ وراء ظهري. وتذكّرت أنّ في حقيبتي من جهة اليسار دبّوسًا شككته فيها لرتق فتق. فألحّت عليّ رغبة هي أشدّ من الفضول بأن أتحسّس مكان الدبّوس. أحقيبتي هي؟ ولكنّ يدي لم تطاوعني ، واستولى عليّ قلق غريب ، مع أنّي كنت قبل دقيقة أسخر من فرانسوا لإيمانه بهذه الخرافات. وأردت أن أسرّي عنّي فأخذت أناجي نفسي : أمجنون أنا؟ وهل من الممكن أن تكون حقيبتي قد طلعت لي بين ألف ومئتي حقيبة؟ من يدري؟ ربّما يكون الحظّ قد قذفها إليّ... أيّ مفاجأة إذا مددت يدي إلى جهة اليسار ، من هنا ، ووجدت الدبّوس؟... ما الفائدة من ذلك؟ سنصل إلى الخيام بعد دقيقة فأرى على النور أحقيبتي هي أم لا. ولكن ما دمت مضطرًّا إلى معرفتها بعد دقيقة ، فلِمَ لا أمدّ يدي الآن إليها وأعرف!

وأخيرًا مددتها وأنا أحسّ عليها الارتجاف. ولكنّها ما لمست طرف الحقيبة حتّى ارتدّت من تلقائها. وحدّدت نظري في الظلام إلى فرانسوا فإذا هو قد سبقني يركض ركضًا ليصل إلى الخيام ويرى حقيبته. فكدت أهزأ من بلاهتي. ولكنّ كفّي عادت إلى الحقيبة بمثل السحر ، فإذا هي تقع على الدبّوس ، فكاد عقلي يطير! وأخذت أتحسّس الدبّوس جيّدًا وأتفحّصه. هذا هو! هذه هي حقيبتي!... لا أدري أيّة غبطة غمرت قلبي في تلك اللحظة النادرة من لحظات الحياة! على أنّها غبطة خالطها من المفاجأة اضطراب سرى في دمي من أمّ رأسي إلى أخمص قدميّ وخلع قلبي خلعًا حتّى سمعت دقّاته في ضلوعي كدقّات الجرس. وتابعت مسيري ، وقد انقلب أمري من الهزء بما كان يحدّثني به رفيقي إلى الإيمان به كنبوءة مقدّسة ، على كفري بالنبوءات وبأصحابها جميعًا. وأخذت أحاور نفسي وأردّ على ما سبق من كلامي لفرانسوا ، حتّى وصلت إلى الخيمة ، فكان أوّل همّي أن قلبت الحقيبة على النور ، فإذا هي حقيبتي. فداخلتني خيلاء عظيمة ، وشعرت بفخر لا أستطيع له وصفًا على رفاقي هؤلاء الذين كانوا يضجّون ويتقاذفون بالأرقام والحقائب والصيحات واللعنات. ثمّ فتّشت عن فرانسوا فإذا هو قاعد في زاوية وحقيبته بين قدميه ينظر إليها تائهًا ورأسه على كفّه. فعرفت ما وقع له وأردت أن أخفّف عنه وأردّد عليه ما سبق لي أن قلته قبل أن ذهبنا لنأخذ الحقائب ، فخانتني قواي والتصق لساني بحنكي. كان الإيمان الذي يملأ قلبه قد مشى إلى قلبي وملأه. فخجلت من تلعثمي أمامه ولكنّي لم ألبث أن لبست وجه الكذب فرميت

بحقيبتي على الأرض وصحت :

– وأنا أيضًا لم تطلع لي حقيبتي... كانت مع فردينان ، أتعرفه؟ وشأن الجنود جميعًا شأني وشأنك. فلِمَ تكون أنت وحدك القليل العقل؟ أتعتقد أنّ الفرقة ستذهب طعامًا للرصاص والنار؟ أما تخجل يا جبان؟ (وكنت أنا الجبان وحدي) أما تخجل أن ترى الموت يحصد ألفًا ومئتي جنديّ ، وتخرج أنت معافى وكأنّك رأيت حلمًا من الأحلام؟

فرفع إليّ فرانسوا عينيه ، فلمحت فيهما صراعًا هائلًا بين شجاعته وعقيدته. ثمّ هزّ برأسه ، فرقص شارباه على هذه الهزّة رقصة جناحَي الخفّاش وتمتم :

– سأموت !

ومنذ تلك الساعة أصبحت فكرة الموت ملازمة لفرانسوا ملازمة أنفاسه. فإذا أكل رأى الموت في صحنه ، وإذا نام كان في فراشه ، وإذا قام لقيه تحت إبطه ، فكأنّ الحادثة التي وقعت له وهو يتناول حقيبته من بين ألف ومئتي حقيبة قد كتبت بينه وبين الموت ميثاقًا.

قلت لكم إنّ فرانسوا كان جنديًّا باسلًا. وقد تحوّلت بسالته بعد تلك الحادثة إلى شبه جنون. يقذف بنفسه إلى الرصاص والنار وكأنّه يقذف حجرًا من الأرض. إذا عرض هجوم كان أوّل الهاجمين ، أو تراجع كان آخر المتراجعين. أمّا إذا احتاجت القيادة إلى الاستكشاف ، ونُودي على الجنود مَن له هذه المرّة ، فكان لا يدع أحدًا يقوم عنه بهذه المهمّة المحفوفة بالأخطار. فحرت في أمره ، وكنت أقول له :

– يا أبله ، إذا كنت تخاف الموت إلى هذا الحدّ فلِمَ تدفعُ بنفسك إليه طعامًا سائغًا في كلّ مناسبة؟

فيبتسم ابتسامة صفراء ويجيبني :

– أنا لا أخاف الموت ، وما خفته في حياتي قطّ. ولكنّي سأموت ! والموت يرصدني في أوّل الصفّ ويرصدني في آخره. يرصدني من السماء ويرصدني من تحت الأرض. فأنا أريد أن أثبت له أنّي لا أهرب منه. وما الفائدة من الهرب منه ما دمت أحسّه في ثيابي كالأفعوان ، ينسلّ وراء ظهري ، ويصعد إلى كتفي ، وينزل على صدري ، ويلتفّ حول عنقي؟!...

* * *

ودار الفلك دورته...

ومشت البشرى بأنّ الحرب انتهت ، وتعالت في الفضاء تهاليل الظفر ، وانكبّ الجنود يعانق بعضهم بعضًا ، فشددت بيدي على يد صديقي وقلت له وقد خامرني سرور عظيم :

– ها ! أما قلت لك لا تؤمن بالخرافات ! ها إنّ الحرب تضع أوزارها ، وها أنت مثل الفيل عافية ونشاطًا ، لم يُصبك خدش. بل مرّت عليك الرصاصات والقنابل كما تمرّ قطرات المطر على الزجاج : أشرقت الشمس فعاد نقيًّا لمّاعًا. خذ كأسك واشرب نخب الظفر. أما نحن الظافرون؟ والله إنّ لك يدًا في هذا الانتصار. إشرب ! إشرب نخب الانتصار !

– بل نخب الموت !...

فلم أشكّ عند هذا الجواب أنّ في صاحبي مسًّا من الجنون. وساورتني عليه المخاوف ، ووضعت عليه منذ ذلك اليوم عينًا مراقبة مشفقة ، وأخذت على نفسي عهدًا أن أرافقه إلى وطنه ، فأوصله إلى بيته ، وأوصي أهله بمداراته لعلّهم يزيلون من أعصابه آثار الصدمات والأهوال التي لقيها في الحرب.

وكان علينا ، ونحن راجعون من ميدان القتال ، أن نمشي مسافة كبيرة على الأقدام لنصل إلى الطريق الصالحة لسير السيّارات فنركبها. وساعدني الحظّ فكنت وفرانسوا في صفّ واحد. ولكنّنا ما كدنا نمشي ساعتين حتّى رأيته ينزع بندقيّته عن كتفه ويرميها بين الأدغال على جانب الطريق الضيّق الذي كانت الفرقة تسلكه وسط الحقول ، ثمّ يلتفت إليّ ويقول :

– اِرمِ بندقيّتك !

ثمّ رفع صوته ملتفتًا إلى الجنود :

– إرموا بنادقكم ! إرموا بنادقكم أيّها الرفاق !

فحاولت أن أفهمه مغبّة فعلته ، وأن أردّه عن غيّه ، فحدّق إليّ تحديقة مخيفة ، عاقدًا حاجبيه كأنّه يهدّدني ، ثمّ انفرجت أساريره وشرع يقهقه هاتفًا :

– إنتهت الحرب ! إنتهت الحرب ! فليحيَ السلام ! فليحيَ السلام ! إهتفوا معي : فليحيَ السلام على الأرض ! سننام غدًا على فُرشنا الوثيرة بدل الخنادق ، وبين أنفاس زوجاتنا المحبّات بدل روائح البارود الخانقة ! إنتهت الحرب ! إنتهت الحرب !

وكان جنديّ بالقرب منّا قد ذهب إلى الدغل فحمل البندقيّة إلى صاحبها ، فلمّا رآها فرانسوا عاد إليه هدوء حزين ، فتناولها وأخذ يقلّبها بين يديه ، ويضع عينيه على فوّهتها ، ويتفحّص كلّ جزء منها كأنّه يرى بندقيّة لأوّل مرّة في حياته . ثمّ علّقها على كتفه وواصلنا السير .

سرنا أسبوعين كاملين ، ستّ عشرة ساعة في النهار مشيًا متواصلًا ، وثماني ساعات من الليل للنوم . والمطر ينهمر علينا ويلصق ثيابنا بأجسامنا ، يساعده على ذلك العرق المتجمّد المتلبّد فيها منذ أربعة أشهر . ولكنّ ذلك وكثيرًا غيره من المصاعب والمتاعب لم يكن ليؤثّر فينا تأثير البنادق . كان الواحد منّا يحسّ بندقيّته منذ اليوم الثالث كالسكّين يحزّ في كتفه وينزل فيها إلى الإبط ، فما يدري أكتفه باقية عضوًا من أعضائه أم هي على وشك الوقوع على قدميه ! ومنذ اليوم الثالث أخذ كلّ جنديّ يخفّف من حمله شيئًا . بدأ بإحراميّه يرمي واحدًا ويبقي واحدًا ، ثمّ رمينا قسمًا كبيرًا من الخرطوش ، ثمّ رمى بعضنا البنادق وتبعه البعض الآخر في اليوم الرابع والخامس والسادس ، حتّى كان اليوم الرابع عشر فلم يبقَ من الجنود من يحمل بندقيّته إلّا فرانسوا وبضعة جنود . وكنت قد دعوته إلى رميها فقال :

– حينما رميتها ضحكتم منّي . فأنا أحتفظ بها اليوم دونكم نكاية بكم !

وكنت أنظر إليه ينوء بها ويهدّه ثقلها فأشفق عليه . وحاولت مرّة أن أنزعها عن كتفه بالقوّة فلكمني على وجهي ، فصبرت صبر الصديق على صديق أعرف مصيبته .

وأخيرًا وصلنا إلى الطريق ، ونصبنا الخيام ، وأقمنا نستريح بانتظار السيّارات ، ونمنا تلك الليلة نومًا عميقًا . واستفقت حوالى الساعة التاسعة صباحًا على هزّ فرانسوا لي من كتفي ، فسألته لِمَ قام مبكّرًا ، وأنا أنفض بيديّ النعاس عن عينيّ ، فلم يجب . ثمّ نظرت إليه جيّدًا فإذا هو منبوش الشعر ، وعيناه محمرّتان ، بارزتان ، تريدان الخروج من وجهه فقال :

– سأموت ! أما قلت لك إنّي سأموت ؟ لقد حلمت هذه الليلة أنّي ما أزال في الجبهة ، وأنّ الأعداء رمونا بالقنابل . فذهب كلّ منّا يحفر خندقًا ليحتمي به . ولكنّني فتّشت عن معولي فلم أجده ، وناديت حواليّ ، لعلّ أحدًا يعطيني معولًا أو رفشًا ، فلم يجبني صوت . فانكببت أحفر الأرض بأظافري حتّى سال منها الدم . وشعرت أنّ قواي تخونني فلم أحفل وتابعت الحفر ، وتحوّل الدم إلى سيل ، فانقلبت مهمّتي من الحفر إلى إفراغ الحفرة من دمي ، أغرف منها بكفّيّ وأرمي على الجانبين . ثمّ عطشت فتناولت مطرتي ، فلم يكن فيها قطرة ماء ، فانحنيت فوق الحفرة ، وقد صارت بركة حمراء ، أعبّ منها حتّى ارتويت . وكان طعم دمي حلوًا في حلقي حلاوة لا أستطيع وصفها . وكلّما شربت زاد عطشي ، وألحّ بي إلى الشرب أيضًا . فما زلت أفعل حتّى جفّت البركة ، فتطلّعت فإذا في قعرها شيء يلمع ، ففتحت عينيّ جيّدًا فإذا أنا بكنز من أغلى كنوز الدنيا ، وإذا لآلئه وماسه وذهبه وزبرجده وسائر جواهره التي ليس لها اسم تضيء كالشمس . فخفت على الكنز أن يفضحه نوره ، فيعرف به رفاقي ، فنزلت في الحفرة ، وجعلت نفسي فوقه كما تجعل الدجاجة نفسها فوق فراخها ، فظلّت الأشعّة تنطلق من بين يديّ ورجليّ . فقلت : ليس لي إلّا أن أردّ التراب على الكنز وعليّ ، فرددته ودفنت نفسي . أسامع أنت يا صديقي ؟

رددت التراب ودفنت نفسي! إنّ هذا الحلم معناه أنّني سأموت! سأموت! أما قلت لك إنّني لن أرجع إلى وطني وأهلي سالمًا؟

في الواقع أنّ حلم فرانسوا كان رهيبًا، ولكنّني لم أستغرب أن يطرق مثل هذا الحلم نفسًا قلقة مثل نفسه. فجعلت أخفّف عنه بما حضرني من الكلمات، وهو ساكت يغرس في الأرض أنظارًا عميقة.

* * *

تأخّرت السيّارات أيّامًا عن المجيء لنقلنا. فانتشرت بين الجنود الإشاعات، وبلغ التذمّر منهم مبلغًا. فلم يرَ الضبّاط بدًّا من شغل فراغهم، فصدرت الأوامر إلينا أن نقوم بالتمارين مرّتين في اليوم، قبل الظهر وبعده. وكان على كلّ منّا أن يذهب إلى الحقل فيقصّ عصًا يحملها بدلًا من البندقيّة التي رماها في الطريق. فلمّا كنّا في التمرين الأوّل خرج فرانسوا من صفّه وذهب توًّا إلى الضابط، فدهش الضابط من فعلته، وجمد مكانه ينتظر. فما راعه وراعنا جميعًا إلّا فرانسوا يتناول بندقيّته من رأسها ويرفعها إلى العلاء، ثمّ يهوي بها هويًّا واحدًا على الأرض محاولًا تحطيمها وهو يصيح:

-- الحرب! الحرب! الحرب دائمًا! قلتم لنا إنّ الحرب انتهت. وقلتم لنا قبل أن نذهب إلى الحرب إنّ هذه هي الحرب الأخيرة. فعلامَ التمارين إذًا؟ أتريدون حربًا جديدة؟

فاستشاط الضابط غضبًا ودمدم بعقوبة لفرانسوا لم نستطع أن نعرف ما هي، وأمره برفع البندقيّة. فقذفه فرانسوا بابتسامة احتقار، ثمّ لمعت عيناه فأمسك بندقيّته ودار حواليه فتناول حجرًا وانحنى يدقّها به دقًّا عنيفًا، مكشّرًا عن أسنانه كالحيوان الهائج. فلم يطق الضابط صبرًا فهجم عليه يشدّه إلى جانب، فلم يكن من فرانسوا إلّا أن رفسه رفسة بحذائه الضخم، فجاءت في الهواء، فسارت في الصفوف غمغمة هزء بالضابط، وكأنّ فرانسوا سمعها فشجّعته، فالتفت إلى الجنود وصاح:

– أيّها الرفاق! ليذهب كلّ منكم إلى بيته! (أيّ بيت في ذلك الحقل البعيد الموحش؟) إنّهم يخدعوننا. يريدون أن يقذفوا بنا إلى الموت مرّة أخرى، فكأنّ الموت لم يشبع بعد، والموت قد شبع! الموت قد شبع!

وكنت أراقب حركات فرانسوا وأصغي إلى أقواله وأنا مشدوه. على أنّ الجنود كانوا منصرفين إلى الضابط باهتمامهم، ينتظرون كيف يتخلّص من هذا المأزق. فإذا به يدور، ثمّ يعود منتصبًا كالعمود، وينادي صفًّا منّا أن يقترب ويقبض على المتمرّد. وكنت أنا في ذلك الصفّ. فلمّا أوصلناه إلى الخيمة التي أشار إليها الضابط قال لي صديقي:

– قلت لك إنّ الموت أكل وشبع. ولكنّه لم يحلّ ضرسه بعد، وسيحلّيه بي كما سترى.

وكان الضابط قد وصل وراءنا، فأبى إلّا أن يضع قيد الحديد هو نفسه بيدَي فرانسوا، وساعدناه نحن عليه فأمسك جنديّ بذراع وأمسكت أنا بذراع. فالتفت إليّ فرانسوا وأنا أشدّ على ذراعه التفاتة قصيرة لم أفهم أهي التفاتة عتاب، أم التفاتة اشمئزاز، ولكنّي لم أستطع أن أوقف عينيّ على عينيه، بل أدرت وجهي ومسحت بطرف كمّي دمعتين.

وحاولت إفهام الضابط أنّ فرانسوا مريض، وأنّ من الواجب أن يعذره لأنّه لم يفعل ما فعل عن عقل. فلم يصغ إليّ وأمرني أن أبيت في الخيمة القريبة من خيمة السجين، وهدّدني بوضع القيد في يديّ إن نبست ببنت شفة. فعدت أتوسّل إليه أن يستمع إليّ، وكان رجلًا طيّب القلب، فأشعل سيكارة. فأخذت أشرح له ما أعرفه عن فرانسوا، من الحقيبة، إلى البندقيّة، إلى الحلم. فاقتنع بكلامي واستدعى له الطبيبين – وكان لدى الفرقة طبيبان – فأقبلا معًا، فاختلفا في أمره. قال أحدهما إنّه مجنون، وقال الآخر بل متمرّد يستوجب تشديد العقوبة. فتدخّل الضابط ورجّح الرأي الأوّل لينقذ نفسه من عار الحادث على الأقلّ.

وظلّ فرانسوا في سجنه يومين هادئًا هدوءًا مدهشًا طول النهار، حتّى إذا جاء الليل أصابته نوبة فظيعة، فجعل ينبش شعره ويصيح طالبًا بندقيّته:

– أعطوني بندقيّتي! ردّوا إليّ بندقيّتي!

ثمّ يلين صوته حتّى يصير استعطافًا باكيًا:

– أما تريدون أن تردّوا إليّ بندقيّتي؟ أتوسّل إليكم. أريد أن أراها! أن أستغفرها عمّا بدر منّي من ذنب... حاولت تكسيرك يا بندقيّتي الجميلة. أهنتك يا بندقيّتي المعبودة. ولكنّك ستغفرين لي. ستغفرين، أليس كذلك؟ بلى... بلى... ها... ها... ها أنا أقبّلك! ها أنا أغسلك بدموعي.

ثمّ يعود الصوت فجأة إلى العنف:

– أيّها الأعداء! خذوا الموت من هذه الفوّهة! من هنا! من هنا! من هنا نبني الأوطان. من هنا نعمّر المدنيّات... من هنا، من هذه الثغرة الصغيرة تخرج آلاف الثكالى، والأرامل، والأيتام، والمفجوعين والمفجوعات بالأخ، والعمّ، والخال، والحبيب. من هنا. من هنا... إلى الوراء أيّها الأعداء. إلى الوراء! ماذا أقول؟ لا. لا. بل تعالوا. اقترب منّي أيّها الجنديّ الذي تحاربني. لماذا تحاربني ولماذا أحاربك؟ لا تسدّد بندقيّتك إليّ. ماذا عملت لك؟ هل قتلت أباك؟ هل شتمت أمّك أو سرقت دارك؟ ماذا عملت لك لكي تقتلني؟ من أنا؟ هل رأيتني قبل الآن؟ وهل سمعت اسمي؟ فكيف تقتل من لا تعرف؟ قلت لك لا تسدّد بندقيّتك إليّ. جنّبها عنّي. ارمِها، حطّمها! حطّم بندقيّتك. حطّم هذه الآلة الملعونة! حطّمها! حطّمها. حطّمها! خُذ هذا الحجر ودقّها به. دقّها أيضًا. دقّ. دقّ. ها. ها. ها. فليحيَ الموت!...

في صباح اليوم التالي تعالت تهاليل الفرح بين الجنود. فقد جاءت السيّارات لتنقل كلًّا منّا إلى وطنه، إلى بيته الهادئ وفراشه الوثير، وأحضان أهله وأحبابه. فاستفقت على الأناشيد تشقّ الفضاء في ذلك الصباح الجميل، وعلى قرقعة السيّارات وتحميل الأمتعة وضجيج الأحذية، وذهبت إلى الضابط أستشيره في أمر السجين. فمسح كتفي بيده وأوصاني أن أتسلّم فرانسوا وأتعهّده في الطريق.

فطمأنته وقلت له إنّني سأوصل صديقي إلى بيته ولو كلّفني ذلك يومًا أتأخّره عن أهلي.

* * *

كان النهار نيّرًا صافيًا، والسيّارة تنهب بنا الأرض، وفرانسوا يجيل في الحقول عن يمينه وشماله نظرًا هادئًا شاردًا. وكنت واضعًا يدي على كتفه أسأله بين الحين والحين:

– أما نزال بعيدين عن البيت؟... يا لفرحة زوجتك وولدك بك بعد قليل! ألم ترسل إليهما كتابًا تبشّرهما فيه بوصولك اليوم؟ ولكن حسنًا فعلت. إنّ للمفاجأة لذّة. تصوّر ابنك يثب إليك ويتعلّق بعنقك! كم عمره الآن؟ يجب أن يكون قد صار شابًّا في غيابك، أليس كذلك؟

– هاي! أنت يا سائق! على مهلك! أتريد أن ترمينا في الوادي!

وهزّ فرانسوا السائق من ذراعه. فهتفت وقد خفق قلبي بالفرح:

– فلتحيَ الحياة! فلتحيَ الحياة!

فأدار فرانسوا وجهه إليّ وابتسم ابتسامة قلقة. ثمّ مدّ يده من نافذة السيّارة وأشار هاتفًا:

– هذا هو! هذا هو!

– ماذا؟

– البيت! البيت! بيتنا! أسرع أيّها السائق أسرع!... هاي! هاي! أتريد أن تقلب بنا السيّارة! (والتفت إليّ برزانة متابعًا) الموت أيضًا موجود تحت دواليب السيّارة، أليس كذلك؟

– أفّ! أتصل إلى البيت وأنت ما تزال تفكّر بالموت!

فبسط فرانسوا ذراعيه متمسّكًا بركبتي من جانب،

وبباب السيّارة من الآخر ، حتّى إذا وصلت بنا أمام درج البيت ترجّلت ودعوته إلى النزول . فلمّا وصلنا أمام الباب رفع كفّه ليدقّه . ولكنّ يده وقفت في الفضاء فجأة ، فسألته ما به ، فأدار وجهه إليّ ببطء ، ببطء عظيم وكأنّه صخر يتحلحل ، وانفتحت عيناه في عينيّ جامدتين هائلتين . فأردت أن أحوّل عينيّ عن تينك العينين فلم استطع ، وانتظرت أن يحوّلها هو عنّي فلم يفعل . فحاولت أن أقول له شيئًا فلم تطعني شفتاي ، وجعل قلبي يخفق ، وأحسست بمثل الاختناق في حلقي ، فعزمت بأن أرفع يدي إلى يده الباقية إزاء الباب ، فالتصقت بثيابي . ومرّت دقيقة طويلة ، طويلة كأنّها دهر ، وعيناه في عينيّ برّاقتين كالزجاج على شمس الهجيرة . حتّى سمعت صرير الباب تفتحه يد من الداخل ، فارتعدت ، ورفعت عينيّ وانحلّت عقدة لساني وهممت بأن...

فإذا بفرانسوا يقع على عتبة بيته جثّة هامدة !

العَذارَى

وَقصَصٌ أخرَى

على مذهب جدّتي

– تريدون أن أحكي لكم حكاية؟
– وحياتك ، يا ستّي ، اِحكي لنا.

ونتزاحم حولها في الزاوية ، حائرين بين رغبتنا في الاتّكاء على حضنها وحرصنا على موضعنا من الموقد ، وقد سبق لنا في الحصول عليه ما لسنا نجسر أن نعود إليه من شجار وجلبة. وتتردّد جدّتي – دلال الفنّ! – فتتناول الملقط وتنكت الرماد نابشة كنوز الدفء ، متجاهلة صراعنا المكبوت ، راجية أن ينقضي الأمر بسلام. ولكنّ الشيطان – خزاه الله – يأبى إلّا الخصام: من هنا لكزة ، ومن هناك قرصة ، لأنّ هذا زحزح ذاك قيد شبر ، أو وضع كفّه دون كفّه فوق النار. وربّما حانت من يد أو قدم نترة طائشة ، الويل ثمّ الويل إذا أصابت الهرّة العجوز المغرغرة تحت الكانون! أزعجناها عن نعيم الراحة ، وقطعنا عليها تأمّلات الكسل! فتكشّر بالغضب وتنفخ ، وتنبّه الجدّة إلى ما لم تكن غافلة عنه ، فترفع الملقط وتصفقه في الهواء صفقة هائلة ، وتسدل أستار أجفانها وتبرطم: «لن أحكي لكم حكاية! » لا!!! كلّ شيء ولا هذا. ونبادر إلى سدّ الأفواه وتكتيف الأيدي ، فنحن ملائكة أطهار ، وصور على جدار.

«كان ما كان في قديم الزمان ، هالوقت منحكي وبعد ساعة منّام ، عن شكي ، عن بكي ، عن جعفر البرمكي ، عن دبس اللديد الشديد اللّي ما يبطلع إلّا بإصبع خالتي أمّ سعيد...»

الله الله على تلك الأيّام! أين جدّتي وحكاياتها؟ أين القرية والبيت الواطئ الوادع؟ أين الدخان يتململ على الحيطان ويدغدغ المعاطس؟ أين البروق تشقّ النوافذ ، والرعود ترتعش لها القلوب وتزلق أصداؤها على الظهور؟ أين صفّ الأحذية مرشوشة بالثلج على العتبة؟ أين تلك الخزانة العتيقة الدكناء؟ وأين زقّ النبيذ فيها ، وأطايب الجوز والزبيب؟ إنّ صرّة المفتاح في كفّ جدّتي المعروقة ، المضطربة ، ما تزال في أذني ، وطعم النقل على لساني... كلّ هذه الأشياء راحت مع الماضي الذي راح. صدّقوني ، تغيّرت الدنيا

وتبدّل كلّ أمرها. القرية ، والجبل ، والموقد ، والسهرات ، والناس ، حتّى البرق والرعد والثلج. إنّ الدنيا لا تبرق اليوم ، ولا ترعد ، ولا تثلج ، كبروق تلك الأيّام ورعودها وثلوجها.

* * *

أجل ، تغيّرت الدنيا بعد جدّتي. والدنيا غير راضية عن شيء ، ولا صبورة على حال. كنساء هذا العصر يلبسن في الصباح ثوبًا ليخلعنه في المساء ، ويبدّلن مثل ذلك في القبّعة والحذاء ، حاسبات أنّهنّ هنّ اللواتي يتغيّرن ويتبدّلن ، ووَهْمٌ حسابهنّ وتمنّ.

لقد مضى على أوّل حكاية على فم أوّل جدّة سنون لا يحصيها عدّ ، نبت خلالها كثيرون أرادوا تقليد الجدّات في حكاية الحكايات وتأليف القصص والروايات. من هوميروس اليونان ، إلى فرجيل الرومان ، إلى أصحاب ألف ليلة وليلة ، إلى روسّو الفرنسيّين ، إلى غوته الألمان ، إلى ديكنز الإنكليز ، إلى تورغينيف الروس ، إلى مئات من المؤلّفين سواهم ، عبقريّين ومغفّلين ، يحمل كلّ واحد إلى الحكاية شيئًا من عنده ، ويخلع عليها ثوبًا من تفصيله. وتكون قرون العلم فيولعون بتسميتها بشتّى الأسماء ، يقصّرونها فهي الحكاية ، ويطيلونها فهي الرواية ، ويقفون بين بين فهي القصّة. وتتطوّر مع تعقّد الحياة الاجتماعيّة ، وتشعّب النظريّات الفلسفيّة ، فتكون هناك تقسيمات من نوع آخر ، وتقسيمات للتقسيمات ، وتفريعات لتقسيمات التقسيمات. فعرف الأدب العالميّ الرواية المثاليّة ، والرواية النفسانيّة ، والرواية التاريخيّة ، والرواية الخرافيّة ، والرواية الطبيعيّة ، والرواية البوليسيّة ، والرواية الفنّيّة ، والرواية الواقعيّة إلخ. إلخ. ويختصم أصحاب هذه المذاهب فيما بينهم ويتجادلون ، ويتدخّل النقّاد منتصرين لفريق على فريق ، يُلقون في النار حطبًا ، ويزيدون عباد الله القارئين المساكين تعبًا... كلّ هذا وجدّتي متربّعة في زاويتها جنب الكانون ، بل وجدّات العالم من أقصاه إلى أقصاه يتداولن التراث الثمين من فم أدرد إلى فم أدرد ، جاهلات من الفنّ عبدانه وأربابه ، ومعاركه وأحزابه ، يجمعن الصغار حولهنّ ويردّدن على الدهر : «كان ما كان». والأطفال يطربون ، يدمعون ويصفّقون ، ثمّ يعجبون – عندما يكبرون ويقرأون – كيف أنّ عظماء الكتّاب ، ومشاهير الروائيّين ، وجهابذة الأدباء ، قد تفلسفوا ما تفلسفوا ، وقسّموا ما قسّموا ، وسمّوا ما سمّوا ، ثمّ لم يأتوا بجديد على الجدّة ، فذهب كلّ ما عملوا في الهواء.

* * *

ومن أين لهم الجديد على هذا التعريف؟ جامع مانع ، على لغة القانون ، اشتركت في وضعه آلاف الجدّات منذ كان في الدنيا أولاد يحبّون الحكايات. والغريب أنّهنّ – الخبيثات! – كلّما حكين حكاية قدّمن لها به ، هو هو لا يزحزحن منه حرفًا.

فكأنّهنّ ، في إصرارهنّ عليه ، يتحدّين أصحاب المدارس الروائيّة قائلات : لكم أزياؤكم المستجدّة كلّ يوم وخصامكم فيها ، ولنا ما كان لجدّاتنا نحافظ عليه ... وهل يليق بنا ، ونحن جدّات ، أن نكون غير محافظات ؟!

«كان ما كان في قديم الزمان» – هو الشرط الأوّل في الرواية . وهو شرط مزدوج . أوّلًا : كون الحادث الذي تدور عليه الرواية قد حدث ، بعبارة أخرى قد مضى . لأنّه ليس بالإمكان إعادة بناء بيت غير مهدوم . والرواية ، في الأصل ، إعادة بناء حياة . حياة إنسان أو عدّة أناسيّ ، أو شطر منها ، لا فرق أعاشوها في الحقيقة أم في مخيّلة الفنّ . ثانيًا : كون هذا الحادث – وهذا هو الأهمّ – يظلّ ، بالرغم من سعة الإحاطة ، وعمق السبر ، ودقّة الوصف والتعبير ، سرًّا من الأسرار ، إذا تكشّف للمعرفة عن أحد جوانبه ، فدون سائر الجوانب أستار وأستار . هذا في فلسفة الأمر وواقع الحال . ناهيك بفضيلة التواضع – وما أندرها عند حملة الأقلام ! – تفوح من «كان ما كان» ، تقف دونه الكيف والكمّ عاجزتين ، ولا يحيط به إلّا العليم البصير ، جلّ وتعالى ، القادر على إحصاء الأنفاس وعدّ رمال البحار .

«هالوقت منحكي وبعد ساعة منّام» – وهذه الغاية من الرواية ، بل من الأدب والفنون جميعًا . وهل للفنون ، على اختلافها ، من غاية سوى المتعة الروحيّة ؟ وهل لها غير هذه الساعة بين العشاء والنوم ، أو أخت لها قائمة بين حاجتين من الحاجات الجسديّة ، الأولى قد سُدّت ، والأخرى لا بدّ مسدودة بعد حين ؟ هي فترة إلهيّة ينتزع الإنسان فيها ، بالرغم منه ، إلى قضاء حقّ أعلى ، هو حقّ الروح عليه . فترة يمضيها الصغار حول الموقد في الإصغاء إلى حكاية ، ويمضيها الكبار في قراءة كتاب ، أو الاستماع لأنشودة .

بقيت علينا مادّة الرواية . «عن شكي ، عن بكي» . يقول المثل الفرنسيّ : «ليس للشعوب السعيدة تاريخ» . والرواية (وأنا أطلق اسم الرواية هنا على النوع كلّه سواء أكان رواية أم قصّة أم حكاية) هي تاريخ فرد أو أفراد . ومن هنا كانت الرواية تختار أبطالها من قلب المضطرَب الذي يعترك فيه البشر . وهل مصير هذا العراك ، سواء أكان في سبيل المجد ، أم الغنى ، أم الحبّ ، أم غير ذلك ممّا تتطلّبه النفس وتطمح إليه ، إلّا الشكوى والبكاء ؟ لقد جرت العادة أحيانًا بتسمية الكلّ باسم الجزء . وجدّتي ، في تعريفها للزواية ، تسمّي الشجرة باسم الثمرة . بعبارة أخرى إنّ الرواية لا تدور على البكاء والشكوى من حيث هما ، ولكن على الحوادث والصراعات الخارجيّة والداخليّة التي أفضت إليهما ، وما رافقهما من ظروف وأحوال . «عن شكي عن بكي» : يا له من إيجاز بليغ ، بل يا له من تلخيص عبقريّ للحياة من المهد إلى اللحد .

«وشَبيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إذا قيسَ – بصَوْتِ البَشيرِ في كُلِّ نادِ»

على أنّ جدّتي لا تأبى التفصيل لمن يحبّ ، فتزيد «عن جعفر البرمكي» . وبرمكيّ التقاليد غير برمكيّ التاريخ . فهو عنوان الذكاء والثراء ، والجاه والكرم ، والبأس

والشمم ، والأناقة والكياسة . وهو الرجل الكامل والمثل الأعلى الذي خلقه الفنّانون في مختلف العصور مزيجًا من صنم وبشر وإله . هو كلّ هؤلاء وليس واحدًا منهم . غريب في طباعه ، عجيب في مآتيه ، لا لشيء إلّا لهذه البساطة الفذّة التي يجبلونه منها . فهي طينة خير بلا شرّ ، وصفاء بلا كدر ، ونور بلا ظلام . وما هكذا خلق الباري البشر. ولكنّه النظر إلى علٍ ، والنزوع إلى الكمال . حاجة في الإنسان لا تنفكّ عنه ، ومرض مبارك لن يشفى منه ، والحمد لله .

وأخيرًا ... لا يشمخنّ أحد من المجدّدين بأنفه على جدّتي . فقد ، والله ، سبقتهم إلى كلّ شيء . أليس آخر زيّ هو التأنّق في الطعام طبخًا وتلوينًا ؟ «إنّ لبطنك عليك حقًّا» شريعة أزليّة تجاوز الفنّ عنها في غفلات من الدهر ، ولكنّ جدّتي لم تنسها قطّ ، ولها فيها فضل الاستمرار والثبات على المبدأ ... «عن دبس اللديد الشديد اللّي ما بيطلع إلّا بإصبع خالتي أمّ سعيد» . بماذا أحلف لكم ؟ إنّ المأكل الشهيّ والشراب اللذيذ ، والأطايب كلّها بما فيها من متع النظر والشمّ واللمس قبل الذوق ، ومن كبرياء المقدرة على غالي الثمن ، وفرحة الاكتشاف للنادر الكريم ، والبعيد الآتي عبر المحيطات ... بماذا أحلف لكم ؟ ورحمة جدّتي ! إنّ ذلك الدبس الشديد « على إصبع خالتي ، هيهات منه ما أكلتم في زمانكم ، وما أنتم وأولادكم وأحفادكم آكلون !

لكم أقراص الكاتو ، تفنّنوا بها ما شئتم عجنًا وخبزًا ، وشكلًا ولونًا ، أنا راضٍ بدبس جدّتي . وللروائيّين منكم مذاهبهم المتناقضة ، ومدارسهم المتضاربة . أمّا أنا فعلى مذهبها محافظ وعن مدرستها لن أحيد . رحمها الله مرّة أخرى ، ورحم جدّاتكم أجمعين .

بحرصاف – ٥ كانون الثاني ١٩٤٤

ت . ي . ع .

في هذا الربيع ذهبت أنا وصديقة لي إلى الحقل القريب ، فقطف كلّ منّا أقحوانة ، ثمّ مشينا إلى حيث دفنّا ، ونحن صغيران ، رفيقة لنا قبل أن تبلغ العاشرة من عمرها .

وقف بعضنا إزاء بعض ، وأخذنا ننثر الوريقات واحدة واحدة. فلمّا فرغنا من ذلك التفتت إليّ الصديقة وقالت :

– أنا ترهّبت .

قلت لها :

– وأنا تزوّجت .

ثمّ التفتنا معًا إلى القبر وقلنا :

– ولكنّها ، هي ، لم تتزوّج ولم تترهّب . فكيف ماتت إذًا؟ أيموت من لم يحيَ؟!

وعدنا من حيث أتينا ، بينما كان الهواء يحمل الوريقات التي نثرناها بعيدًا فوق الوادي .

أمّا كيف تزوّجت أنا وترهّبت صديقتي فأمران لا أدري منهما شيئًا . ولكنّي أقصّ عليك كيف ماتت رفيقتنا :

في ذلك الصباح استيقظت الأقاحيّ مبكّرة في مروج قريتي العالية الجاثمة على كتف الوادي . وما كادت تفتح أجفانها حتّى هبّ النسيم من السفح وذرّت الشمس من وراء الجبل ، فارتعشت مكسال تحت حمّام الهواء والضياء ، ونصبت أخرى عنقها إلى الدروب المتعرّجة التي تشقّ بساط الربيع ، وقالت لأختها :

– أُنفضي ندى الليل عنك ، وقومي . سيأتي الصبيان ذوو الشعور المبعثرة ، والصبايا ذوات الأقدام الناعمة ، فيسألك الصبيّ أيترهّب أم يتزوّج ، وتسألك الصبيّة أتتزوّج أم تترهّب؟ فماذا تجيبين؟

فاستوت التؤوم وقالت :

– هذا سرّي ، لن أبوح به إلّا لصاحبه . هل طلبت منك يومًا أن تطلعيني على سرّك؟ أليس عندك مثل ما عندي؟

– أُنظري ، لم يبق سوانا نحن وأختنا الكبرى . لقد مرّ الصبيان والصبايا من هنا أمس وقبل أمس ومدّوا أيديهم إلى بنات أعمامنا وأخوالنا وذهبوا بهنّ . هو دورنا اليوم ، ألا ترين؟

– أرجو أن يكون . ولكنّ قلبي يرتعش . أيرتعش قلبك ، يا أختاه؟

– كثيرًا ، كثيرًا !

– سيسلخونني من أرضي وينزعون عنّي ورقاتي . أنا خائفة .

– من أيّ شيء؟

– أخاف من الألم ، وأخجل من العري . أنا لا أريد .

– ماذا؟

– لن أبوح بسرّي.

– تخنقينه في صدرك؟

– ...

– كان خيرًا لك لو بقيت في أحشاء الأرض.

– أحسّ بشيء غريب، حلو ومرّ في آن واحد. كأنّني أتفتّق لأولَد.

– إذًا ستبوحين؟

– أو كأنّني أتفتّت لأموت.

– هو شيء جميل. هو كلّ شيء.

– أتعرفينه أنت؟

– كلّا، ولكنّني أتخيّله.

– لو نسأل أختنا الكبرى؟

– تعالي.

وما كادتا تميلان حتّى ارتدّتا مذعورتين. فقد اصفرّت أختهما الكبرى وذبلت ورقاتها، ولكنّها تبسّمت من حلاوة الروح وقالت لهما:

– هو شيء غريب كما تقولان. حلو كالحياة ومرّ كالموت، بل هو أعظم منهما جميعًا. لن أقول لكما ما هو لأنّه سرّي، وسأمضي قبل أن يأتي صاحبي الذي كتبه لي القدر في لوحه لأقوله له. أمّا أنتما فطوبى لكما لأنّكما ستقولانه. ستقولانه بكلمتين اثنتين مختلفتين في المظهر، متّحدتين في الجوهر. طوبى لكما مرّة أخرى، ووداعًا!

وشهقت شهقة، فصرخت الوسطى:

– أختاه!

وهتفت الصغرى:

– أفديك بروحي!

ولكنّها كانت قد هوت إلى الأرض. فانحنتا عليها تولولان.

– هي العاصفة التي هبّت في الليل قصمت ظهرها.

– لو عاشت إلى أن يأتي الصبيان والصبايا.

– ... إلى أن تبوح بسرّها.

– ماتت ولم تعرف الألم.

– استراحت.

– ... قبل أن تعرف ما هو التعب.

– هنيئًا لها!

– رحمها الله!...

وبعد فترة صمت ثقيل مدّت الصغرى بأذنها للهواء وهتفت:

– أتسمعين؟

– ماذا؟

– لقد جاؤوا!...

القــرينــة

كثيرًا ما كان يتّفق لي ، وأنا صغير ، أن أستيقظ من نومي مذعورًا ، فتبادر أمّي إليّ تصنع إشارة الصليب وتسألني ما بي ، فأقصّ عليها ما رأيت في الحلم ، فتقول : «لا تخف ، يا ابني ، هذه قرينتك قد جاءت إليك في الليل. يجب أن تصلّي دائمًا قبل أن تنام».

ويشهد الحائط الذي لم يزل قائمًا حتّى اليوم كم كان يصلّي ذلك الصبيّ. أكاد أراه على مسافة ثلاثين ونيّف من السنين ، في قميصه الأبيض ويديه المضمومتين ، راكعًا في فراشه على الأرض . وأكاد أسمع تمتمة شفتيه وأحسّ لهاثه على الحائط . وربّما دخل في رأس الصغير أنّه خاطئٌ كبير ، فجمع كفّه وأخذ يدقّ بها صدره دقًّا عنيفًا متواصلًا ، حتّى لتشفق أمّه عليه وتنهره من بعيد : «على مهلك ، يا ابني ، على مهلك !» أجل ، ولكنّه ربّما شرد بالفكر إلى لعبة كان يلعبها في النهار مع أترابه ، أو جار له فوق الطريق كان يترصّد مروره إلى المدرسة كلّ صباح ليرميه بالحجارة ، أو حذاء جديد لمّاع اشتراه له أبوه فلا يتمالك أن يميل إليه بطرف عينيه مع أنّه سيضجعه إلى جانبه ... أو ربّما غلب عليه النعاس فألقى جبينه على الحائط واسترخى ، فتأتي أمّه وتأخذه بين ذراعيها وتلقيه على الفراش برفق.

* * *

لست أذكر المرّة الأولى التي تعرّفت فيها إلى قرينتي. لكنّ الصبيّ كان يحسّ إحساسًا أشبه ما يكون باليقين أنّها ولدت معه ولم تفارقه قطّ . وكانت دائمًا هي هي. إنّه لا يستطيع أن يصفها بوصف ، ولا أن يقول طويلة أو قصيرة ، جميلة أو قبيحة ، شقراء أو سمراء. كلّ ما يعرف منها وجودها تملأ به دنياه فجأة ، فإذا هي ملء بصره وسمعه وجوارحه جميعًا ، وإذا هو مأخوذ بها لا يحسر أن يطرف بجفنه أو يلقي العنان لنفسه.

يذكر ، فيما يذكر ، أنّه نام ذات ليلة — دون أن ينسى صلاته — فإذا هو عائد من المدرسة إلى البيت في مساء ممطر ، فدفع رأسه لولوج الباب فإذا هي تعترضه على العتبة ، جالسة القرفصاء ، شعرها طويل يتدلّى على حضنها ، وهي تسرّحه بيديها الاثنتين ، فتلمع أظافرها من خلاله حمراء صفراء خضراء ، وعيناها مفتوحتان فوّهتين فارغتين تنظران إلى لا شيء وكلّ شيء. هاتان العينان تقفان في وجهه وتمنعانه من الدخول ! فأراد أن ينادي أمّه ، وحاول أن يستغيث ، فخانته قواه ، وهمّ بأن يدنو منها يترجّاها أن تدعه يدخل إلى بيته ، وهمّ أن يدير لها ظهره هاربًا منها ومن البيت ، ولكنّه بقي مسمّرًا في مكانه. ولم يستفق إلّا غارقًا في حضن أمّه يشهق بالبكاء.

ورآها مرّة أخرى تمشي في قفر لا يقاس له طول ولا

عرض ، تفتل بيمينها سلّة فيها تفّاح ، مربوطة بحبل إلى وسطها ، وتشير إليه بيسارها أن يتبعها ، وهي لا تنظر إليه أو تفوه بكلمة . وهو يتبعها على كره منه كالمسحور ، موقّعًا خطاه على خطاها في رقصة غريبة . وكلّما دارت السلّة في الهواء دورة تناثر منها التفّاح ، فإذا انحنى ليلتقط منه حبّة استحالت الحبّات في كفّه جمرات لاهبات . ثمّ جعلت تسرع مهرولة وهي تلوّح له بيسراها أن أسرع ! والسلّة تقذف التفّاح الجمر ، حتّى أعياه الركض . ولكنّه ظلّ يركض وكأنّ قدميه مشدودتان إلى قدميها بخيط غير منظور . ولم يستفق إلّا على صراخ إخوته يدعس عليهم في نومهم ، واثبًا في الغرفة كالمجنون .

ومرّة دعاه داعٍ إلى عرس . وكان الصبيّ يحبّ حضور الأعراس لا لطمعه في لمّ الملبّس الذي يُنثر على موكب العروس – وقد كان يسيل لعابه له – بل رغبة منه في رؤية العروس كيف تكون في الزفّة . فكان العرس في بئر عميقة تحت الأرض ، وإذا هو ينحني فوق البئر فيرى قعرها مرآة عظيمة تسطع بألف شعاع وشعاع ، وعلى المرآة صبايا حفايا في غلالات بيض شفّافة كغيوم الربيع ، يرقصن على صفحة المرآة أبدع رقص وقعت عليه عين ، فيجتهد أن يتبيّن وجوههنّ فلا يرى إلّا شعورًا مسبلة تغطّيهنّ حتّى الركبتين ، إلى أنغام تتردّد في جوانب البئر وترنّ فيها رنينًا عجيبًا ، فيه من قرع الأجراس في العشيّات وتحنان شبّابات الرعاة في الأودية ، ولكنّه أعذب وأشجى . وإذا الصبايا الجنّيّات يختفين فجأة ويصعد من قعر البئر دخان . هذه هي ! لقد ملأت المكان ! وهذا لهاثها يلهب وجهه ! ولكنّه انتفض انتفاضة فأفلت من سلطانها قبل أن تظهر ، وارتدّ يجمع الحجارة من هنا وههنا ويقذف بها في البئر حتّى يسدّها ، وعاد وقد خُيّل إليه أنّها هلكت تحت الردم وتخلّص منها إلى الأبد .

على أنّه لم يكن إلّا واهمًا ، فقد عادت إليه بعد ليالٍ وثأرت منه أفظع ثأر . إذ تخلّف في ساحة المدرسة مرّة لحاجة من حاجاته ، فحشرته إلى حائط ، ثمّ تفرّست فيه وقهقهت بأعلى صوتها ، ورفعت يديها وفتلت بأظافرها حمراء صفراء خضراء فوق رأسه ، ثمّ غرّزتها في عنقه .

وهو يذكر جيّدًا أنّه مات .

* * *

ولقد كنت أعتقد أنّ القرينة لا تقتل إلّا في الأحلام ، وظلّ هذا اعتقادي طوال سنين . ثمّ كبر عقلي فحاولت أن أنسى القرينة فيما نسيته من أوهام الطفولة . حتّى كان عهد غادرت فيه مسقط رأسي إلى بيروت ملتحقًا بمعهد الطبّ ، وسكنت في حيّ قريب من المعهد مأهول أكثره بطبقة العمّال والفقراء من الناس ، في بيت يتألّف من غرفتين اثنتين ومطبخ إلى جانب ، تشغل صاحبته العجوز غرفة منهما وتؤجّر الأخرى لتعيش . وكانت العجوز طيّبة القلب ، سكوتًا على غير عادة العجائز ، ما تفتأ تروح وتجيء في بيتها ، ولكنّ عينيها تحبّتان سرًّا ، فهما لا تستقرّان على شيء . وكانت لا تعاشر أحدًا إلّا طلّاب الطبّ تقف عليهم غرفتها دون سائر عباد الله المستأجرين . ولا يُرى بابها إلّا مقفلًا ، لا تستقبل نسيبة ولا صديقة ، ولا تخرج إلّا لشراء حاجاتها من دكّان الحيّ ، ثمّ تعود ملقية ذات اليمين وذات اليسار نظراتها القلقة ، كأنّها في خوف دائم .

وكانت أمّ حنين – وهو اسمها – معروفة في الحيّ بأنّها لا تطيق الأولاد . ولا يعرف أحد حنين هذا الذي هو ابنها في الكنية . فإذا سُئلت عنه تجهّم وجهها ودارت عيناها دورانهما المريب وانفتلت لا تحير جوابًا . وبالرغم من الألفة التي انبسطت بيني وبينها لم أوفّق يومًا إلى استكشاف سرّها .

على أنّ ما كان يغيظني من العجوز حقًّا وقوفها دوني ودون طفل للجيران كنت ألتقيه في الطريق يلعب حافي القدمين مبعثر الشعر ، فأنست به وأنس بي . وتشاء

المصادفة أن يكون اسمه حنين هو الآخر. فإذا رآني خارجًا من البيت أو عائدًا إليه درج إليّ مرفرفًا بذراعيه، فأتناوله وأرفعه في الهواء ثمّ أخفضه وأرفعه، وهو يصيح صيحات سرور وخوف ودغدغة. حتّى انعقدت بيني وبينه صداقة، وجعلت له كلّ يوم جعالة من الشكولاتة التي يؤثرها، فإذا كان وقت خروج العجوز لشراء حاجاتها كان أوّل همّي أن أترقّب مجيء الصبيّ. فما يكاد يراها خارجة من بيتها حتّى ينسلّ إلى غرفتي من باب خلفيّ خاصّ بها لألاعبه بلعبته المحبّبة وأعطيه نصيبه. وربّما جاءني بقميص النوم، أو تفلّت من أمّه، أو ترك طعامه لا يحفل بشيء ولا يحسب حسابًا إلّا لتلك العجوز، وقضيب لها تضعه خلف الباب، تهشّ به على الدجاج، ولم تتورّع مرّة أن تصفقه به، وقد أدركته في بيتها، بحجّة أنّه يوسّخ البيت.

إلى أن كان يوم لزمت فيه غرفتي لوعكة ألمّت بي، وقعدت في السرير أقلّب كتبي. فلمّا كان العصر أرخيت رأسي على المخدّة في نعاس استولى عليّ. وإذا صراخ ينبعث من مكان قريب، فاستفقت، فإذا هو يمتدّ ويتعاظم، ولم ألبث أن عرفت فيه صوت الجارة والدة حنين صديقي. فقفزت من السرير إلى الباب، فإذا حشد وركض وفضول، فضربت بيدي إلى معطفي وهرولت وقد خفق قلبي خفقًا عنيفًا. كلّ شيء ولا يكون أصاب صديقي الصغير مكروه! وكان ما كنت أحاذره. وإذا الصبيّ مسجّى على مقعد في الدار بلا حراك، وأمّه فوقه تنبش شعرها وتخمّش خدّيها، تعانقه، تناديه، تضمّه بين ذراعيها، تنفخ في وجهه، وتدور معولة في البيت كالمجنونة.

لم يعلم أحد كيف مات. أخبرت أمّه أنّه كان يلعب على العتبة، يقفز ويزغرد، وإذا به يجمد فجأة ويرفع ذراعيه في الهواء ثمّ يرفرف بهما ويصرخ: آخ! وتجحظ عيناه ويقع على العتبة بلا روح. لا مرض ولا جرح، ولم يسبق له أن شكا ألمًا. ولمّا وصل الطبيب — وكنت قد استدعيته أنا من المعهد — وسمع منها ذلك، عقد حاجبيه بحركة عصبيّة والتفت إليّ طالبًا له سببًا من الأسباب يهضمه العلم. ولكنّي أكّدت له أنّ الولد كان على أحسن ما يُرام من العافية، وأنّه إذا كان هنالك من سبب خفيّ أودى بحياته فهو أدرى به من الأمّ المسكينة ومنّي. فانصرف واعدًا بالجواب في اليوم التالي.

وكانت النساء قد هدأ لغطهنّ وانصرفن إلى ترتيب المنزل يساعدن الأمّ على إعداد المناحة. ونظرت فما راعني إلّا صاحبتي العجوز وقد قعدت بجانب الجثّة تعلّق بصرها بوجه الصبيّ لا تشترك مع النساء في عمل ولا تفتح فاها بنأمة، مكتوفة اليدين، جامدة، وقد حلّ محلّ القلق في عينيها لوعة خرساء وذهول لم أرهما فيهما قطّ.

ولقد علمت فيما بعد أنّها بقيت هكذا طول الليل، لم يطرف لها جفن. ولمّا عدت مع العائدين في اليوم التالي من المقبرة التي دفنّا فيها صديقي الصغير لقيتها تنتظرني قاعدة على عتبة بيتها. وبادرتني بقولها:

— هل عرفتم كيف مات الصبيّ؟

قلت:

— مرض عجيب، سيقول لنا الطبيب اسمه اليوم.

فقالت دون أن تلتفت إليّ كأنّها تخاطب نفسها:

— أيّ شيء يعرف الأطبّاء؟ سيقول لكم، كما يعلّمونك أنت أن تقول في المستقبل، أشياء لا طعم لها.

ثمّ رفعت إليّ وجهها فجأة وأردفت بصوت عميق كأنّه خارج من بئر:

— حنين خنقته قرينته، كما خنقت القرينة حنين الذي كان لي قبل خمسين سنة.

وفرغت عيناها من الحزن الذي رأيته فيهما أمام الصبيّ وعادتا قلقتين لا تستقرّان. فسرت في دماغي رعشة، وتخطّيت العتبة مسرعًا إلى غرفتي.

* * *

مضت سنون انتقلت خلالها من بيروت إلى باريس فأكملت دروسي في الطبّ وتخصّصت في معالجة الأطفال ، ثمّ عدت إلى وطني فأنشأت عيادة متواضعة وأخذت أزاول حرفتي مجتهدًا في محاربة الخرافات التي تؤمن بها الأمّهات ، ومحاولًا أن أفسح مجالًا للعلم بين مختلف التعاويذ التي يلجأن إليها.

واتّفق لي ذات مساء أن دُعيت إلى معالجة طفل في الحيّ الذي كنت أسكن فيه وأنا طالب. ولم أكد أصل حتّى قيل لي إنّ الأمّ حملت طفلها إلى عجوز هناك ، بعضهم يقول مجنونة والبعض الآخر قدّيسة ، تصنع أحجبة للأولاد الصغار ولها قوّة عجيبة في طرد القرائن عنهم. فطلبت من الجيران أن يدلّوني على بيتها وسألت عن اسمها ، فقالوا : «أمّ حنين. الحيّ كلّه يعرف أمّ حنين إذا سألت عنها».

فأدرت ظهري وأنا أغالب ابتسامة طفرت إلى شفتيّ ومشيت إلى البيت. كانت الدنيا قد أدغشت وتلبّدت السماء بغيوم دكناء ، ثمّ لم تلبث أن أخذت تنشقّ عن بروق خاطفة يتلو بعضها بعضًا ، ثمّ قصف الرعد وانهمر المطر مدرارًا ، فرفعت معطفي إلى أذنيّ ، وأطبقت عينيّ ، فتمثّلت لي أيّام الدراسة فكأنّني عائد الساعة من المعهد إلى غرفتي عند أمّ حنين. هذا هو البيت لم يتغيّر فيه شيء. بلى ، لقد لاح لي بهيئة زريّة ، وخامرني شعور أشبه شيء بالشفقة على نفسي لأنّني استطعت أن أسكن في هذا الكوخ أربع سنين من حياتي. وقفت عند الباب هنيهة ثمّ طرقته وانتظرت ، فلم يجب أحد ، فطرقته ثانية وثالثة ، فانفرج وأطلّ منه وجه عرفت فيه وجه عجوزي ، إلّا نظّارتين لم أعهدهما مربوطتين بخيط إلى أذنيها ، وتفرّست فيّ هاتان العينان على برق هائل عقبه رعد ارتجّت له الأرض ، وكأنّه هو الذي دفع الباب في وجهي حتّى كدت أن أقع لولا أن تمسّكت بالحائط. ثمّ جمعت قواي ووضعت كتفي على الباب فاقتحمته صائحًا :

– أمّ حنين ، يا أمّ حنين! أنا فلان.

فاستقبلتني رائحة بخور تملأ البيت ، وظلام وسكينة ورهبة. وفي الزاوية امرأتان في ثياب فقر ، على وجه إحداهما لوعة ممزوجة بخوف. فلمّا رأتاني وقفتا ، ولكنّ العجوز اعترضتني كأنّها تريد الحؤول دوني ودونهما وقالت :

– هذا أنت؟ ظننتك واحدًا من هؤلاء الشرطة الملاعين. ما جاء بك في هذا الوقت ، في عزّ شغلي؟

وفجأة علا في البيت مواء لم أعتّم أن تبيّنت أنّه صراخ طفل. اِلتفتّ حواليّ فلم أجد أحدًا. ثمّ أدركت أنّ الصوت صادر عن الغرفة المجاورة ، وهي الغرفة التي كنت أسكنها وأنا طالب ، فدنوت من بابها ، فلم يكن من العجوز إلّا أن شدّت بكمّي وصاحت بي «إنّ الغرفة لم تبق لطلّاب الطبّ البله أمثالك!» ثمّ دارت إلى ذات الوجه المحزون من المرأتين وقالت لها :

– تعالي أمسكي لي الصبيّ!

ودخلتا معًا إلى الغرفة ، وأقفلت العجوز الباب بعنف. فبقيت حيث كنت إلى جانب المرأة الغريبة ، أنظر إليها مشدوهًا. ولكنّ الطفل عاد إلى الصراخ ، فملت إلى الباب أدقّه وأصيح :

– أين الطفل؟ أريد رؤية الطفل.

فلم يجبني إلّا قصف الرعد يهزّ أركان البيت وتتجاوب أصداؤه بين أضلاعي. وقامت المرأة بكلّ هدوء فدنت من الباب ووضعت عينها على خصاصه وقالت لي :

– أمّ حنين بركة أرسلها الله إلى الحيّ. سترى أنّ الصبيّ سيشفى على يديها. أُنظر ، تقدر أن تنظر من هنا. لأنّها لا تسمح أن يدخل مع الأولاد إلّا أمّهاتهم.

فانحنيت إلى شقّ بين مصراعَي الباب ونظرت. فإذا الأمّ جالسة على الأرض القرفصاء وقد وضعت الطفل في حضنها ، والعجوز قبالتها تلوّح بيديها فوق موقد – لعلّه الموقد الذي كنّا نجتمع حوله في الشتاء بالأمس – وهي تتمتم بشفتيها وتحدّق إلى النار كأنّها تخاطب شخصًا غير منظور ، فتغضب حينًا وتزمجر ، وتستنجد

أحيانًا وتستعطف. وقد انبعث من الموقد دخان فانعقد بينها وبين الأمّ، وهي تداعبه بأظافرها الطويلة وتكمشه وتفلته، ثمّ تجمع تلك الأظافر فوق وجه الطفل كأنّها مخالب الصقر منقضًّا على فريسته. ثمّ خُيّل إليّ أنّني أرى شيئًا تقلّبه العجوز فوق النار، فحدّدت بصري فإذا هو قضيب حديديّ. وإذا هي تتناول القضيب وقد احمرّ رأسه، فتفتح الأمّ عينيها كبيرتين كمن أُصيب بمسّ ثمّ تعضّ إصبعها! فانتفضتُ كالملسوع وقد أحسست بالحديد المحمّى في ضميري. فجعلت أصيح وأضرب الباب بجمع كفّي وأدفعه بقدميّ وأهدّد باستدعاء الشرطة. والريح تضرب الشبابيك المخلّعة فتصطفق اصطفاقًا منكرًا. وتدور حول البيت معولة إعوالًا رهيبًا كأنّه صوت الجنّ. والطفل يرسل خلال ذلك كلّه صراخًا يخترق الحيطان ويمزّق الجوّ... لقد سمعت في حياتي أطفالًا كثيرين يصرخون تحت الألم، ولكنّ هذا الصراخ كان فيه ما هو أعظم من الألم وأفظع من الرعب. لقد كان فيه من المواء والصهيل والعزيف ما غطّى على العاصفة في الخارج وبعث في داخلي عاصفة أشدّ هولًا. فاندفعت أتناول كلّ ما تقع عليه يدي وأضرب به الباب كالمجنون، ولست أدري هل انخلع تحت ضرباتي أم جاءت العجوز ففتحت لي، وكلّ ما أذكر أنّني رأيت نفسي وسط الغرفة، ولا أمّ ولا طفل، بل وجه هذه العجوز الملعونة وهي تصيح بي وتشتمني وتُلقي عليّ تبعة أيّ مكروه يحلّ بالصبيّ، زاعمة أنّها كانت على وشك أن تسلّ القرينة منه وتشفيه فأفسدتُ عليها كلّ شيء. ولكنّي لم أكن مستعدًّا لسماع هذا الهراء فانتهرتها بصوت أسكت الرعد قائلًا: «إذا كان في الدنيا قرينة أو شيطان فهو أنت يا عجوز النحس!» وتناولتها من كتفها وجذبتها جذبة واحدة فوقعت فوق الموقد، وبادرت الباب الخلفيّ الذي كان مفتوحًا وهرولت تحت العاصفة لاحقًا بالأمّ وطفلها إلى بيتها.

* * *

القرينة! القرينة!

لقد مضى عليّ خمس عشرة سنة وأنا أطبّب الأطفال وأحارب الخرافات، وأنفي وجود القرائن، وأهزأ بالطلاسم والتعاويذ. ولقد مات على يدي عدد من الأطفال إذا عرف أهلهم المرض الذي ماتوا فيه اقتنعوا بحكم الله، وإذا لم يعرفوا لم أُعدَم أنا بين أسماء الأمراض اسمًا أستحقّ به أجرتي. وهؤلاء هم أطفالي الأربعة – لأنّني تزوّجت وأصبح لي أطفال – يستيقظون من نومهم مذعورين فتهرع إليهم أمّهم تصنع إشارة الصليب كما كانت تصنع أمّي. ولكنّها تؤمن بالعلم وتؤمن بي خصوصًا، ولا تذكر القرينة. أمّا أنا فأقف فوق رؤوسهم مفكّرًا بقرينتي.

أجل، لأنّ قرينتي لم تفارقني قطّ. ولم تزل إلى اليوم ترافقني في حلّي وترحالي. تضطجع على مخدّتي في الليل، وفي النهار تختبئ في ثيابي. تقطع عليّ حديثي وتقف دوني ودون لقمة ألقيها في فمي أو كأس أرفعها إلى شفتيّ. إذا قمت اعترضتني: لمَ تقوم؟ وإذا قعدت: لمَ تقعد؟ أكون في عرس فتنطلق بي إلى مأتم، وفي جنازة فتضحك في عبّي. ولولا أنّني أخرسها لفضحتني ألف مرّة ومرّة!

أخلّص الناس من أوهام قرائنهم، وأعجز عن خلاص نفسي من حقيقة قرينتي. لأنّها حقيقة صارخة هذه، أشدّ ما يغيظني منها هزؤها الدائم بي وقهقهتها التي تملأ أضلاعي في النهار وتقضّ مضجعي في الليل، فأنتفض مذعورًا كالطفل، وأجمد مشدوهًا كالقصبة الفارغة.

يوم حصلت على شهاده الطبّ بتفوّق على أقراني، وأقبل أعضاء اللجنة الفاحصة يهنّئونني، وأحاط بي الأهل والأصدقاء يتمنّون لي مستقبلًا زاهرًا، انتصبت بيني وبينهم تقهقه بوجهها النحاسيّ الذي أعرفه. وسمعتها تقول لي وقد كشّرت عن أسنانها: «صحيح، يا فلان، أنّك أصبحت طبيبًا ماهرًا وعالمًا جليلًا؟ وما رأيك لو قلت لهؤلاء الذين يزدحمون حولك مهلّلين إنّك

نقلت ما كتبت نقلاً – مع أنّها هي التي مزّقت ورقات الكتاب ودسّتها في جيوبي – وما رأيك لو قلت لهم إنّك عندما وقفت تتصنّع الرصانة ، وتُقسم يمين الشرف للحرفة ، كنت تفكّر لا بالحرفة ولا بشرفها بل بعشر ليرات حقيرة خسرتها على مائدة القمار قبل أسبوع؟»... «أُسكتي ! أسكتي ! » ، قلت لها.

ويوم حملتني على جفاء المرأة التي اختارها قلبي ، فرفعتُ كفّي بصفع الخدّ الذي طالما ذوّبت عليه قبلات حبّي ، وأطلقت في بلعنة الاسم الذي لم ألفظه إلّا معطّرًا بحناني . فلمّا بلغت من ذلك مأربًا تفرّست في وجهي هنية ثمّ قهقهت حتّى طبّقت قهقهتها السماء . ولم أستفق إلّا والدموع تنهمر من عينيّ ، فالتمستها فوجدتها قد شقّت الأرض وغارت فيها ، لأنّ جبروتها أضعف من أن يقف بوجه دمعة ، ولم أعرف في حياتي أجبن منها أمام الحبّ والحنان.

ويوم زعمت لي أنّني إله ، فنفخت في كبريائي فإذا هي أشمخ من الجبال ، وجنّحت طموحي فإذا هو يسبق العاصفة ، وأوقدت في عينيّ مصباحين كالشمس كلاهما وأعظم نورًا ، فانطلقت أمشي فوق الأرض وأدوس النجوم ، وإذا شيء يشدّني من قدميّ فأقع عاضًّا الحضيض . فالتفتّ فإذا هي تقهقه ملء شدقيها فوق رأسي وتقول لي : «حشرة أنت ! » وكادت تبصق في وجهي . وهذا رغام الذلّ لم يزل لاصقًا بجبيني أحاول نفضه كلّما حاولت التطلّع إلى السماء.

حتّى كان أمس فاعترضتني على عتبة البيت وهي جالسة القرفصاء ، وسألتني بقِحة : من أنت؟ كأنّها تعرفني لأوّل مرّة . ولم تدع لي مجالًا للجواب . فأخذت تُلقي عليّ السؤال تلو السؤال . أسئلة غريبة ترفع لها أظافرها في الهواء وتلوّح في وجهي . ثمّ نزعت عني ثيابي بأطراف تلك الأظافر واحدًا بعد واحد . ثمّ خُيّل إليّ أنّني كتاب فهي تنزع صفحاته ، أو بصلة فهي تعرّيها من ورقاتها . تدلّ بأظافرها على عيوبي ومواضع النقص فيّ ، وتكشف عن مخبّآت ماضيّ وحاضري ، وتكذّبني فيما أقول وأفعل ، وتمزّق ما بيني وبين الناس ، وبيني وبين الله ، وبيني وبين نفسي ، لا تتورّع عن سرّ ولا تقف عند حرمة . وهي تسأل وتهزأ وتقهقه ، حتّى ضجّ الليل ، وضجّ في رأسي ما هو أعظم من الحياة والموت ، فوثبت إليها أريد خنقها ، فهربت منّي ، فلحقت بها تحت جنح الظلام وأنا مُقسم بيني وبين السماء أنّني قاتلها . فإذا هي تركض في قفر والسلّة في يمينها تلوّح بها والتفّاح يتناثر من السلّة عند قدميّ ، فصحت بها : «أنا أعرف تفّاحك ، إنّه جمر محرق ! » فتقول لي : «ذُق ! ذُق ! بل إنّه حلو رطب» . فلا ألتفت وأهجم عليها هجمة واحدة وأمسكها من عنقها وأهمّ بها . فإذا أنا فوق بئر خُيّل إليّ أنّني أعرفها من اليوم ، وإذا هي تهمس في أذني مشيرة إلى صفحة البئر :

– أُنظر !

فنظرت ، فرأيتني أشدّ بكلتا يديّ على عنقي !

فأرخيت...

بينما كانت أصداء قهقهتها العظيمة تزلزل عليّ الأرض.

بلاد الذهب

لمّا ركب بطرس همّام البحر قاصدًا إلى البرازيل صبيحة ذلك اليوم الأدكن الممطر، مخلّفًا في البيت امرأته حنّة وهي بعد عروس لم ينقضِ عليها أكثر من ستّة أشهر، لم يجد في سفره أحد من أهل الضيعة أيّ غرابة. فقد كان نصفهم على الأقلّ غائبًا في أميركا. لذلك لم يسع حنّة إلّا أن تكفكف دمعها وتتقبّل الأمر كما يتقبّله غيرها من نساء الضيعة – وليست أحسن منهنّ – ومنهنّ من تركها زوجها بعد أسبوع من الإكليل وهي تنتظر عودته منذ عشرين سنة.

وما كاد بطرس يصل إلى البرازيل حتّى بشّرته حنّة بولادة طفل لهما. فسُرّ به وأرسل يسمّيه مخّول على اسم أبيه ويطلب صورته ويؤكّد لها وعده أنّه لن يمكث في البرازيل أكثر من ثلاث أو أربع سنوات. وتوالت رسائله بعد ذلك تحمل إليها وإلى ابنه وإلى الضيعة أشواقه الحارّة منثورة حينًا ومنظومة في أبيات من الزجل حينًا. وبين هذا وذاك شِكٌّ بمبلغ من المال كانت حنّة تحرص على إحاطته بهالة من الأسرار، فتضعه في عبّها، وتنزل إلى بيروت وحدها فتقبضه من البنك، فيذهب له في الضيعة حديث، وتنسج حوله النساء في اجتماعاتهنّ ألف أسطورة وأسطورة، فإذا سألنها داورت في الجواب وقالت:

– يقبرني بطرس! قلبو حنون.

وفجأة سكت بطرس. لا شِكٌّ، ولا كتاب، ولا خبر. كان ذلك في السنة السابعة لسفره. وتوالت الأعوام دون أن تعلم حنّة من أمره شيئًا. قيل لها بادئ ذي بدء إنّه انتقل إلى منطقة بعيدة في مجاهل البرازيل، ثمّ قيل لها إنّه أفلس في تجارة فهرب من دائنيه خارج الحدود، ثمّ قيل لها أشياء أخرى فظيعة، فلم تصدّق كثيرًا ولا قليلًا من هذه الأقوال.

لا يعلم أحد بالضبط كيف استطاعت حنّة أن تحتال على العيش طول هذه المدّة وأن تربّي ابنها. ولكنّهم كانوا يرونها، وقد رثّت ثيابها وبانت عليها المسكنة، تنصرف إلى أعمالها البيتيّة أو تسوق عنزة لها إلى الحقل، أو تعود من القدّاس يوم الأحد خافضة الرأس، فلا يكلّمونها إلّا لمامًا. وإذا سألوها عن بطرس تكلّفت ابتسامة كئيبة وكذبت عليهم وردّدت عبارتها المألوفة «يقبرني بطرس! قلبو حنون» ثمّ تؤكّد أنّه سيرجع ليرى مخّول: «احترق قلبو عليه!».

وكبر مخّول وصار يفهم. واتّفق أن سمع أمّه ذات يوم تقول ذلك في ساحة الكنيسة فانتفض صائحًا:

– أيّ قلب هذا هو الذي يحترق عليّ؟ أريد أن أسافر إلى البرازيل لأرى هل لي أب.

ولبط الأرض. فضحك من ضحك شامتًا، ورثى بعضهم لحاله فدنوا يواسونه، فبرطم وركب رأسه إلى

البيت تاركًا أمّه تلحق به وهي تمسح دموع القهر وتودّ لو تنشقّ الأرض بها.

عبثًا حاولت حنّة إقناع ابنها بأنّه لا يزال صغيرًا —كان دون الثامنة عشرة من عمره— فقد وقف بوجهها كالعمود وأصرّ على تنفيذ ما قال. فلم تجد بدًّا من أن تنزل عند طلبه، فأعطته أساورها فباعها بما يقارب نفقات السفر، وسافر.

أدار مخّول ظهره لأمّه كأنّه لا يحسّ بشيء. حتّى إنّه لم يبادلها عناقها الباكي على المرفأ، ولم يلتفت إليها وهي تقتحم سلّم الباخرة وتكاد تقع في البحر. فعادت إلى البيت بين أخيها وابنة عمّها محطّمة. وجاءت الجارات يتمنّين لها أن تلاقي بالسلامة من ودّعته بالسلامة، فقالت:

— يقبرني بطرس! أرسل يطلب مخّول ليتسلّم أشغاله. كيف يستطيع أن يعود وليس عنده عوض؟

أمّا الخبيثات فتبادلن نظرات ذات مغزى. لقد كنّ يعرفن منذ زمان أنّ بطرس يعيش مع خليلة له يحبّها وتحبّه. يقال إنّها من أحسن عائلات البرازيل. جميلة وغنيّة. فكيف يخطر له أن يتركها إلى حنّة وعنزتها؟ أمّا حنّة فكانت تعلم أنّها تكذب عليهنّ، ولكنّها كانت تصدّق نفسها.

ومضى عام وبعض عام دون أن تتلقّى حنّة رسالة من مخّول. لا أنّه وصل ولا أنّه رأى أباه، ولا أيّ شيء. وكاد أهل الضيعة ينسون مخّول كما نسوا بطرس من قبل، ودخل في روعهم أنّ حنّة ستموت إن لم يكن قهرًا فجوعًا. وإذا بخبر ينتشر في الضيعة ذات يوم، فتقف الجرار على العين، والمعاول في الحقل، وتتناقل الأفواه:

— مخّول بن بطرس همّام رجع! مخّول بن بطرس همّام رجع من البرازيل محمّلًا ذهبًا!

ولم تكن دهشة حنّة بعودة ابنها غنيًّا بأقلّ من دهشة الآخرين. ولكنّ فقء هذه الحصرمة في عيون أهل الضيعة قد ملأ رأسها وقلبها وروحها جميعًا بنشوة ما بعدها نشوة. فجعلت تستقبل وفود المهنّئين، ينظرون إليها حينًا وإلى مخّول حينًا، فلا يصدّقون ما ترى عيونهم وتسمع آذانهم. وهي تفتح عُلب الحلوى وتقدّم لهم منها وكأنّها تدفع ذلك في أنوفهم دفعًا، على معرفتهم ببخلها. وتدسّ لهم في جيوبهم، وتتأهّل بالكبير فيهم والصغير، وتمسح دموعها من الفرح وتردّد: «يقبرني إن شاء الله بطرس!» وتحملق في مخّول وتهجم عليه فتعصره على صدرها فيحتمل منها مُكرهًا، ويتكلّف السرور والابتسام. ثمّ يعود إلى عبوسه وسكوته. يكاد لا يجيب على الأسئلة المنهالة عليه عن أبيه وعن فلان المهاجر وفلان، فلا يفهمون لكلّ ذلك سببًا، بعد تأكيده لهم أنّ أباه بألف خير وأنّه عائد قريبًا جدًّا. ولكنّ حنّة وجدت له العذر من تعب البحر، فقاموا واستأذنوا بالانصراف.

في الصباح استيقظت حنّة وقلبها يضحك. ولكن شدّ ما كانت دهشتها إذ نظرت إلى فراش ابنها فوجدته فارغًا. فنادت في البيت فلم يجبها أحد. لم يكن مخّول في البيت ولا خلف البيت ولا على السطح. لعلّه دخل عند الجيران، أو قصد إلى الحقل... وانطلقت الأمّ في الضيعة تسأل وتنادي. وانتشر الخبر بأسرع من لمح البصر أنّ مخّول اختفى. وذهبت الأقاويل في تعليل اختفائه كلّ مذهب. ولبثت حنّة طول نهارها تبحث عنه وتسأل حتّى أعياها السؤال والبحث، فرجعت إلى بيتها تضرب كفًّا بكفّ. فوجدت أنّها نسيت فراشها وفراش ابنها على الأرض، فانحنت تلمّها. فإذا تحت مخدّته كيس مربوط من عنقه. فتناولته وما كادت تفتحه حتّى خفق قلبها. فأسرعت إلى الباب فأغلقته وعادت إلى الكيس فإذا هو محشوّ بالليرات. عشرات الليرات الذهبيّة. بل مئات الليرات الذهبيّة الصفراء. فجعلت تحملق بعينيها وتجسّ بأصابعها. ثمّ كفأت الكيس مرّة واحدة في حضنها وخرجت من الباب تركض في الطريق منبوشة الشعر، زائغة العينين، شاكلة ثوبها على الليرات تنادي:

– شوفوا ! شوفوا بعيونكم شو بعت لي بطرس ! يقبرني بطرس !

* * *

حدث ذلك منذ عشر سنوات في الضيعة التي نصف أهلها في البرازيل. وما يزال المارّ في طريقها يرى حتّى اليوم امرأة في الخمسين من عمرها ، منبوشة الشعر ، زائغة العينين ، شاكلة ثوبها على ليرات ذهبيّة طارت في لحظة بين سمع الأرض وبصرها ولم يبقَ منها إلّا الجنون ، تردّد لازمتها :

– شوفوا ! شوفوا بعيونكم شو بعت لي بطرس ! يقبرني بطرس !

وربّما دنا منها بعض الخبثاء وسألوها عن مخّول ، فتجيب أنّه سافر إلى بلاد الذهب مرّة ثانية ليعود من عند أبيه بالدفعة الثانية . وسيظلّ يسافر ويعود حتّى ينقل ثروته كلّها . مئة مرّة ومرّة بمئة دفعة ودفعة . فيضحكون ملء أفواههم ...

إلّا أصحاب القلوب الرقيقة فإنّهم يهزّون رؤوسهم راثين لحال هذه المرأة التاعسة ، واجدين لها على كلّ حال في جنونها عزاء . فبعد خمسة عشر يومًا من اختفاء مخّول ، لمّا جاء الشرطة يسألون ، ولكن عبثًا ، عن الشابّ الذي قتل أباه وخليلة أبيه في مجاهل البرازيل وهرب ، كانت حنّة قد فقدت عقلها .

المعلّـــم

أراك ، يا بنيّ ، قد كبرت وتفتّحت عيناك على أبيك. أكون مديرًا ظهري – وربّما فعلت ذلك عن قصد – فأحسّ عينيك ما تزالان واقفتين على عاهتي ، وأكاد أسمع شفتيك الصغيرتين تتمتمان : لماذا يكون لكلّ الآباء عينان صحيحتان ، وأبي أعور؟ ويقينًا ، يا بنيّ ، إنّني أفهم العذاب الذي تتخبّط به وأرثي لك من أجله. ولو تدري مبلغ ما يتعاظمني الشيء إذ أفكّر بعبثك مع أترابك ، فأتمثّلهم ، في خبثهم البريء ، يعيبونك بأبيك في ما ينشب بينك وبينهم من مشاجرات ويقوم من مباريات تعيير... تعال ، يا بنيّ ، أريد أن أخلّصك من كابوس هذا السؤال ، بل أريد أن أريح نفسي. إنّ خياله على وجهك يكدّر صفو عيشي في النهار ويقضّ مضجعي في الليل. أُدنُ منّي واسمع.

* * *

قبل ثلاثين سنة كان صبيّ في مثل عمرك يذهب إلى المدرسة كلّ يوم كما تذهب أنت. ولكنّ السيّارة لم تكن تأتي إلى البيت في الصباح لتحمله إليها ، ولم تكن تأتي في المساء لتعود به منها. وكانت المدرسة بعيدة عن البيت مسافة ساعة أو أكثر يقطعها الصبيّ مشيًا على قدميه مرّتين في النهار ، متمنطقًا بمحفظة من القماش خاطتها له أمّه ، يضع في إحدى شقّتيها كتبه ودفاتره ، وفي الشقّة الأخرى غداءه : رغيفًا محشوًّا بطبيخ يابس ، أو بيضة مسلوقة ، وبضع حبّات من الزيتون. تحت المطر والثلج ، وفي الشمس اللاهبة المحرقة ، كان يذهب كلّ صباح ويعود كلّ مساء ، ما يذكر أنّه مرض قطّ – لم يكن المرض من حقوق التلاميذ في ذلك العهد – ولا تغيّب لعذر من الأعذار. وكان الصبيّ قويًّا شجاعًا ، لا يبالي المشي في الزمهرير ولا في القيظ ، ولا يشكو قلّة الطعام ورداءته ، بل كان راضيًا بهذا كلّه مطمئنًّا إليه. أليس هو واحدًا من عشرات أمثاله؟ وإنّما كان يقلقه ويملأ قلبه جزعًا الوقفة أمام المعلّم حين يجيء دوره لتسميع الأمثولة أو تقديم الفرض.

كانت المدرسة غرفة حقيرة ملاصقة لكنيسة القرية ، تكتظّ فيها مقاعد محطّمة ، قذرة ، ملطّخة بأنواع الحبر ، حافلة بأسماء وتواريخ وألف شكل وشكل من أشكال الحيوانات يحفرها الأولاد على قدر ما أوتي حافرهم من موهبة في الفنّ ، أو حدّة في السكّين ؛ منها ما هو حديث ، ومنها ما هو من آثار آبائهم. ولكنّ المعلّم لم يكن خبيرًا بعهود الآثار الفنيّة ولا مهتمًّا لذلك على الأرجح ، وكثيرًا ما أخذ في أزمات هياجه بريئًا منهم بجريمة من فِعل جدّه قبل ستّين سنة.

وكان بالقرب من المدرسة حرج للوقف. وكان

المعلّم ينادي كلّ أسبوع ثلاثة أو أربعة من تلاميذه ، ويأمرهم بالانطلاق إلى ذلك الحرج والرجوع منه بحزمة من القضبان ، يوصيهم باختيارها مستقيمة ، طويلة ، ليّنة . فيسحبون سكاكينهم من أوساطهم ويطوفون بين الأدغال يتفحّصون القضبان ، ويجرّبونها عطفًا على أمّاتها يمينًا وشمالًا ، يناجونها ناظرين إليها وإلى أكفّهم ، متسائلين عن نصيبهم منها .

وقد يتمازحون بها فيلوّح واحدهم لآخر بقضيب عظيم ويصيح :

– يا ملعون ! استحليتُ لك هذا !

* * *

في ذلك المساء كانت أمثولة الصبيّ وأترابه ، في الكتاب الجديد الذي باعهم إيّاه المعلّم قبل يوم ، صعبة جدًّا . فلمّا عاد إلى البيت قعد في فراشه يحاول تهجئتها وحفظها . ولكنّ الكتاب لم يكن جديدًا بغلافه وصوره فقط ، بل كان جديدًا بأسلوبه أيضًا . فأُشكل الأمر على الصبيّ وجعل ينظر إلى الحروف والكلمات فما يدور له شيء . وسرعان ما طمس التهيّب على ذهنه ، فإذا الكتاب طِلّسْم هائل والحروف والكلمات فيه رسوم سحريّة ، كأنّه لم يقرأ من قبل حرفًا ولم يتهجّأ كلمة . وزالت فرحته به واستحالت إلى كره لا حدّ له . وربّما عنّ له أن يمزّقه بأظافره أو أن يلقيه طعامًا للنار ، لولا أنّه يعرف أن لا فائدة من ذلك . فالكتاب لا مناص منه ، وقد أعطاه أبوه ثمنه بعد ألف جهد ومنّة ، فكيف إذا طلب منه بشلكًا آخر؟ لا ، لا. ثمّ إنّ الصبيّ رضيّ الخلق ليس يحسن به عمل كهذا ، وهو معروف في المدرسة وفي البيت بالنظافة والترتيب والحرص على الأشياء. وهذا كرّاسه الأوّل حفظه من الدفّة إلى الدفّة ، وما يزال لمّاعًا كما اشتراه . ولمّا فرغ منه خبّأه أبوه في الخزانة لإخوته الصغار ، من وُلد منهم ومن هو في الطريق ، يتداولونه حينما يكبرون واحدًا بعد واحد.

وانقلب الصبيّ إلى أمثولته يعالجها من جديد ، ويحاول أن يلوك الحروف بمثل ما يتذكّر أنّ المعلّم كان يدير بها لسانه عندما لقّنهم إيّاها . ولكنّه لم يلبث أن أدرك أنّه لا يتذكّر شيئًا ، فاسودّت الدنيا في عينيه وحطّ العجز على صدره ثقيلًا كالبلاطة . وكان القنديل الزيتيّ يرسل أنواره الشاحبة على الحيطان ويرسم في الزوايا أشباحًا مخيفة ، وقد نام الجميع في فرشهم المبسوطة على الأرض حواليه ، في تلك الغرفة الصغيرة الواطئة ، وضاق جوّها بأنفاسهم وغطيط أبيه . أمّا العون على أمره من أحد فلم يكن يخطر له ببال ، فوالداه يجهلان القراءة ، وإخوته الصغار لم يذهبوا بعد إلى المدرسة . فأخذ ينظر إليهم في نومهم الهادئ ، ولأوّل مرّة في حياته عرف معنى الحسد. ما أسعدهم ! لا أمثولات عليهم حفظها ، ولا فروض يُطلب منهم كتابتها . وأحسّ الصبيّ نفسه وحيدًا في هذا البيت ، غريبًا ، شقيًّا ، أشقى ما يكون الناس . وغمرته موجة من اليأس انحلّ لها قلبه وذاب كما تذوب الملحة . تمثّلت له مأساة غد بأفظع صورها . المعلّم يناديه بصوته الراعد أن «تعال سمّع أمثولتك !» فيدنو بخطى بطيئة مرتبكة ، ويقف على قيد شبرين من المكتب ، والمعلّم يقحم المكتب ببطنه ، ويشب إليه من فوقه حتّى لتضرب أنفاسه وجه الصبيّ :

– ابدأ !

فيرتجف الكتاب في يديه وتخور قواه ، ويحاول أن يقول شيئًا فيتلعثم ولا تطيعه شفتاه . وحينئذ تدقّ الساعة الرهيبة فيرفع المعلّم قضيبه وينزل لملاقاته :

– اِفتح يدك !

لا . لقد ذاق الصبيّ ذلك من قبل ورأى رفاقه يذوقونه ، وهو غير قادر على احتماله مرّة أخرى . إنّ كفّيه لتلتهبان الآن لمجرّد الذكرى ، فيخرجها من تحت اللحاف ويرمقها بتحنّن أطلع الدمع إلى عينيه . ثمّ حانت منه التفاتة إلى الحائط ، فطلعت بوجهه صورة سيّدة النجاة معلّقة فوق رأس أبيه ، وقد انعكس النور على زجاجها وأبرز ابتسامتها الوديعة . فثنى عنقه

وجمد دقيقة طويلة ينظر إليها. ثمّ خطر له خاطر عبقريّ. فانسلّ من فراشه ودنا من فراش أبيه، قبالة الصورة، وهمّ بالركوع. ثمّ أدرك أنّه لا يزال بعيدًا عنها لا يستطيع أن يهمس إليها بسرّه، فتلمّس كرسيًّا واعتلاه متقوّسًا فوق رأس أبيه، ونزع الصورة من موضعها برفق لئلّا يوقظ أحدًا، وعاد بها إلى فراشه فأركزها على المخدّة. أليست سيّدة النجاة تصنع العجائب كلّ يوم؟ وأيّ شيء سيطلب منها الصبيّ؟ لقد شفت المرضى، وأقامت المقعَدين، وجعلت العميان يبصرون، وأنزلت الأمطار في تمّوز. فكيف لا تستجيبه إلى أهون الهيّنات؟

وجثا على ركبتيه وأخذ يدقّ صدره بخشوع فاجع ويتمتم:

– يا سيّدة النجاة! وحياتك يا سيّدة النجاة! مرّة واحدة في العمر... (وانحنى حتّى لامست شفتاه الصورة، فيما الدموع تسبقه إلى الزجاج الأملس البارد فيأخذها بقبلاته) لا تقولي لي: لا. أنت قادرة على كلّ شيء. وحياتك! وحياتك يا سيّدة النجاة! مُري أن لا يطلع الصباح غدًا!

* * *

ونام تلك الليلة نومًا هنيئًا قلّ أن ذاقه في لياليه السابقات. ولكن شدّ ما كانت دهشته إذ فتح عينيه فرأى الصباح قد طلع وأمّه تستحثّه، حسب عادتها، ليبكّر إلى المدرسة قبل أن يمرّ المعلّم. وكانت طريق المعلّم إلى المدرسة على بيت الصبيّ وبيوت الكثيرين من رفاقه، فإذا طلع الصباح من كلّ يوم مشى من أوّل القرية إلى آخرها، يقف عند كلّ بيت متفقّدًا تلميذه فيه، ما ينسى أحدًا. وكثيرًا ما عرّج على بيت الصبيّ وأخذه من أذنه، لا لكسل يتكاسله ولا لبطء، بل مبالغة منه في الحرص، ومنًّا على أهل تربطه بهم صلة مبهمة من النسب.

ووقع نظر الأمّ على صورة سيّدة النجاة – عليها السلام – فسألت الصبيّ عن الأمر، فعقد حاجبيه وأشاح بوجهه يغمغم. لقد كان يحوك في رأسه شيئًا جديدًا. فرفعتها إلى شفتيها ثمّ علّقتها في مكانها على الحائط.

– أمّي، هل مرّ المعلّم؟

وخفق قلبه لدى جوابها «لا» خفقة سرور، وتلمّس ثيابه فأدخل نفسه فيها عجِلًا وضرب بيده على محفظته ووثب يريد الخروج.

– غداءك، خُذ غداءك يا ابني. ألا تريد أن تغسل وجهك؟

ولكنّه نتر الزاد من يديها وأطلق ساقيه للريح. يجب أن يصل قبل المعلّم بربع ساعة على الأقلّ ليتمّ له ما يريد.

كان أكثر الأولاد قد اجتمعوا في الساحة ينتظرون جرس الدخول. فشقّهم الصبيّ لاهثًا من تعبه واعتلى درج الكنيسة فرفع ذراعه في الفضاء وصاح:

– أبشّركم يا أولاد! ... اليوم فرصة كلّ النهار... المعلّم ماتت جدّته!

وقذف محفظته في الهواء. وكان التلاميذ يعرفون ما بين المعلّم والصبيّ من قربى، وقد سبق للمعلّم أن كلّفه إبلاغهم أشياء كثيرة. فتعالت الهتافات، وبمثل لمح البصر جُنّ جنون الساحة، فالقبّعات تتطاير، تتبعها الكتب والدفاتر، والأرجل تشتبك بالأيدي في زحمة التراكض والصراع، والضجيج يرجّ الفضاء ويتجاوب صداه في أرجاء الكنيسة، فيه من العواء والزئير، والمواء والحمحمة، والزغردة والولولة، فيه من الأصوات كلّ ما يفتق للأطفال في فرحتهم العظمى وعيدهم الأكبر.

* * *

أوشكت الحكاية أن تنتهي، يا بنيّ. ولقد فكّر الصبيّ بكلّ شيء إلّا بتلك النهاية، أو هو على الأرجح لم يعد يفكّر بشيء. بعد نصف ساعة وصل

المعلّم فلم يجد على باب مدرسته إلّا طفلين لا عهد لها بالحقول ، ولم يتعرّفا بعد إلى نبش الأعشاش ، وتعمير البيوت بالرمل ، وحفر الأقنية في السواقي ؛ فسألها عن الأمر فأخبراه. فانطلق كالمجنون يبحث عن الصبيّ ويُقسم بينه وبين السماء أنّه قاتله. ولكنّه لم يجد في الاهتداء إليه كبير مشقّة. فبعد أن افرنقع التلاميذ وخلت الساحة ، كبرت على الصبيّ كذبته ، وطارت من رأسه مشاريع الألعاب التي سوّاها فيه طول الطريق ، فجعل يمشي على غير هدى ، يجرجر يأسًا من الدنيا والآخرة لا حدّ له. ولمّا رأى المعلّم يركض إليه شاكلًا قنبازه ، هائجًا كالوحش ، لم يختبئ ولم يحاول الهرب ، بل جمد مكانه يلاقيه بوجه لم يتحرّك فيه عِرق. وحينما أهوى المعلّم على رأسه بعصاه الضخمة خُيّل إلى الصبيّ أنّ العصا هي التي ستنكسر... أمّا ما حدث بعد ذلك فهو لا يعي شيئًا منه. كلّ ما يذكر أنّه أفاق ، إذ أفاق ، فوجد نفسه في الفراش ، ثقيل الرأس ، مغطّى نصف الوجه بالرباطات ، ومكان عينه اليمنى جمرة لاهبة. فيرفع يده يريد أن يتلمّسها فوق الضمادة ، ويصرخ من وجعه ، فتمسكه أمّه وتنهال عليه لثمًا وبكاء ، ولا تجد لمصابها عزاء.

* * *

انتهت الحكاية يا بنيّ. قصصتها عليك لا لأجيبك على سؤالك الأخرس فقط ، بل لأهوّن عليك ما قد تلاقيه في طلبك العلم ، ولأفتح عينيك على ما أنت فيه من نعمة في البيت ، والمدرسة ، والعصر ؛ إذ تقابل بينك اليوم وبين ذلك الصبيّ بالأمس. هل أنا في حاجة أن أقول لك من هو؟...

قبـــر أمّ

في صباح اليوم التالي ، انتهزت الفتاة فرصة غياب أخويها الصغيرين واشتغال أبيها باستقبال المعزّين ، فانسلّت من باب المطبخ وركضت إلى المقبرة لترى أمّها. كانت تقول ذلك بسذاجة الأطفال واطمئنانهم ، لا لأنّها بعد في الطفولة ، فقد جاوزت الرابعة عشرة منذ أكثر من شهر ، بل لأنّها لم تكن تستطيع أن تتصوّر ما قاله أبوها والناس : إنّ كلّ شيء انتهى . إنّ الأمّ لا تموت هكذا ! هنالك مراحل لا بدّ من المرور بها قبل اعتزام السفرة التي لا عودة بعدها . أين ابيضاض الشعر ، ورجفان اليدين ، وتقوّس الظهر ، وسقوط الأسنان؟ أين العكّاز في الغدوّ إلى الكنيسة يوم الأحد ، وزيارة الأصدقاء في العشيّات ؟ إنّ لموت الأمّهات أصولًا وتقاليد جرت عليها دنيا الناس من أوّل الحيّ إلى آخره . أمّا أن تمرض أمّها قبل أسبوع ويأتي الطبيب بعد يومين فيأخذها إلى المستشفى ، ثمّ يحملها أبوها وصحبه بعد ثلاثة أيّام ويعودون صفر الأيدي ، لا هي معهم ، ولا عند الجيران ولا في الكنيسة ، فهذا شيء لا يكون !

وصلت تلهث تعبًا من سرعتها . وجدت باب المقبرة مفتوحًا فولجته . ولم تكن قدماها وطئتا مدينة الأموات من قبل ، فبهرتها فخامة المدافن . وشرعت تجول بينها ، تقف عند كلّ واحد منها ، تقرأ الكتابات المذهّبة ، تنظر هنا إلى دمية حلوة كأنّها تمشي لملاقاتها ، وهناك إلى صليب عظيم يبسط ذراعيه على الأفق ، وهنالك إلى إكليل فنّيّ لا تُذبله شمس ولا يؤثّر فيه شتاء... لم تدرِ الوقت الذي قضته مأخوذة بهذه الأشياء الجميلة الرهيبة ، ولكنّها استفاقت فجأة فخُيِّل إليها أنّها مرّت بقبر أمّها دون أن تشعر ، فعادت أدراجها تستعرض القبور من جديد ، فلم تكن أمّها صاحبة واحد منها . وسرعان ما تملّكها شبه جنون ، تركض يمينًا ثمّ تثب شمالًا ، وتهمّ إلى الأمام لتعود على الأثر إلى الوراء . وما زال هذا شأنها حتّى استولى عليها اليأس فصرخت بأعلى صوتها : أمّي ! أمّي ! وارتمت على الأرض .

وسمع حارس المقبرة حسّ حيّ في مملكته الخرساء ، فأقبل يبحث حتّى اهتدى إلى الفتاة . فلمّا فهم منها ، بعد جهد ، من هي أمّها ابتسم بهزء وقال :

– أهنا تفتّشين عن أمّك؟ تعالي !

وأخذ بيدها إلى زاوية بعيدة مهملة تنبت فيها أعشاب ليس لها اسم ، وأشار إلى بضعة أكاليل ذابلة على أرض مقلوبة حديثًا وقال :

– هنا .

وأدار ظهره ومضى .

* * *

عادت الفتاة إلى البيت بحقيقتين كبيرتين. الأولى أنّ أمّها ماتت ، والثانية أنّها ماتت ميتة حقيرة لا تليق بالأمّهات. لأنّه إذا كان لا بدّ من الموت فلا أقلّ من أن يكون مع حجرة منحوتة ودمية جميلة وإكليل لا يذبل. ولم يكد البيت يخلو من المعزّين حتّى دنت من أبيها تسأله أن يصنع لأمّها من الغد الباكر مدفنًا فخمًا ، وأخذت تصف له كيف تريد أن يكون. فأصغى إليها صامتًا شارد النظر ، ثمّ احتضنها وبكى وقال :

– مؤكّد ، مؤكّد ، يا ابنتي. سنصنع لأمّك مدفنًا فخمًا. أمّا الآن فيجب أن تصلّي لها وأن تعديني بأنّك لن تذهبي أبدًا إلى المقبرة وحدك.

ولكن لا الأب ولا ابنته قاما بوعدهما. أمّا الأب فكان يماطل في بناء القبر ويرجئه من يوم إلى آخر ، يداري الفتاة ما استطاع ، ويشاركها في تصوير شكل البناء وحجمه ولونه ، وفي المفاضلة بين الملاك ذي الجناحين الكبيرين والآخر ذي الجناحين الصغيرين النابتين على منكبيه كأنّهما زهرتان. حتّى كان ذات مساء فاشتدّ إلحاحها عليه ، ونظر إليها فتجلّى له في عينيها أنّها تفهم كلّ شيء ، وكأنّه سمع تينك العينين تقولان له : أنت تكذب ، أنت تكذب عليّ ! فلم يبقَ مناص من فقء تلك الكرة المطّاطة من الوهم. وكان الرجل قد قضى نهارًا من أسوأ ما يكون حمل إليه الخيبة الأخيرة للحصول على عمل ، فدفع ابنته بعنف وصاح بها :

– مجنونة أنت ! نكاد لا نحصل على الرغيف نحن الأحياء ، وتطلبين لأمّك الميتة قبرًا من رخام !

في تلك الليلة بكت الفتاة بكاء عظيمًا ، ورثت أمّها بينها وبين المخدّة بتفجّع لم تعرفه حتّى في اللحظة التي بلغها فيها النعيّ. وفي الصباح لبست ثيابها وخرجت دون أن تقول لأبيها شيئًا ، ولو هو سألها إلى أين لرفعت رأسها وتحدّته ، ولكنّه لم ينبس ببنت شفة.

ذهبت هذه المرّة توًّا إلى الزاوية البعيدة المتواضعة. وكانت الأكاليل قد استحالت دوائر من القضبان اليابسة البشعة ، وجفّ التراب تحتها وعاد لونه أبرش بلون الأرض. فجمدت الفتاة وقد خيّل إليها أنّ أمّها ماتت مرّتين : بالأمس ماتت من الدنيا ، وتموت اليوم من بيتها وقلوب زوجها وأولادها.

وفتحت الفتاة محفظتها وأخرجت منها صورة صغيرة لأمّها ، ترجع إلى عهد عزوبتها ، أعطتها إيّاها قبل أن تموت. وأخذت تتأمّل الصورة وتخاطبها بأعذب الألفاظ معجبة بنضرة ذلك الوجه ، وصفاء تينك العينين ، وحلاوة ذلك الفم الذي لم يكن يعرف إلّا الصلاة والصمت. وكانت الصورة تبتسم فبادلتها الفتاة ابتسامتها ، ثمّ شدّت عليها بأصابعها وأجهشت تقول :

– أمّي ، أمّي ، ما أجملك يا أمّي ! أنت قلت لي إنّك بكّرت في زواجك. لو اصطبرت قليلًا لكان جاءك عريس أحسن ألف مرّة من أبي !

ورفعت الصورة إلى شفتيها. ثمّ تنبّهت إلى تلك البلاهة التي مرّت بخاطرها فلم يكن ذلك إلّا ليزيدها لوعة على لوعة ، فانحنت على التراب تريد أن تمرّغ صدرها به ، وأن تنتقم من القدر بتمزيق نفسها. فلم تكد حتّى طلع بوجهها بين المدَر شيء مدوّر أبيض. فمدّت يدها وقلبته ، وإذا هو – يا للهول ! – جمجمة فارغة العينين مكشّرة عن أنيابها المكشوطة. فارتدّت تصرخ بأعلى صوتها من الذعر وركضت نحو الباب...

* * *

بعد بضعة أيّام أقيم في المكان سياج متواضع من خشب أسود ، في زاويته صليب من خشب أيضًا كُتب عليه اسم الأمّ وتاريخ ولادتها وموتها. وجاءت الفتاة فزرعت ضمن السياج أزهارًا وأعطت حارس المقبرة كلّ ما تملك من نقود ليتعهّدها بالماء كلّ يوم ، واعدة إيّاه بمثل هذا المبلغ كلّ أسبوع. تمّت كلّ هذه الأشياء بعد أن اطّلع الأب على الحادث المروّع الذي حصل لابنته ، فاستدان من أصدقائه ثمن الأخشاب وأجرة النجّار والخطّاط. وكانت الفتاة قد أكملت في هذه

الأثناء ثقافتها المقابريّة ، فعرفت أنّ الأرض التي دفنوا أمّها فيها مشاع للفقراء منذ القدم ، يتكدّس فيها ميت فوق ميت فتختلط النعوش بالنعوش والرمم بالرمم. وما الجمجمة التي طلعت بوجهها إلّا بقيّة من بقايا نكرة من مئات النكرات الذين ليس باستطاعة أهلهم أن يقيموا لهم قبورًا فخمة وأنصابًا عالية وكتابات مذهّبة تدلّ عليهم... وعرفت أنّ أباها لو استطاع أن يبني لأمّها قبرًا خاصًّا لكان عليه قبل ذلك أن يشتري الأرض التي يقيمه عليها. وقيد قامة في مدينة الأموات بمساحة بيت طويل عريض في مدينة الأحياء! وحينئذ غفرت له ما كانت تعدّه خطيئة لا تُغتفر ، واكتفت بإقامة ذلك السياج المتواضع ، بناءً على وعد من حارس المقبرة بأن يتركه حرامًا لا يُدفن فيه أحد من الآن إلى أن تشتري الأرض...

أمّا كيف تشتري الأرض فسرّ بينها وبين نفسها. سرّ عظيم لم تبح به لأبيها ولا لمخلوق في الدنيا. بلى ، إنّ الأمّ وحدها جديرة بأن تعرفه ، ولا شكّ أنّها ستكون سعيدة به. وهكذا انحنت الفتاة على أزهار القبر ذلك المساء فقلّمتها ومرّت عليها بيديها تداعبها بلطف ، ثمّ تراجعت قليلًا تنظر إلى الصليب والسياج ، وهمست مخاطبة أمّها :

– اِطمئنّي يا أمّي. هذا شيء وقتيّ. كنت أقول لك ، أتذكرين؟ إنني لن أتزوّج إلّا شابًّا جميلًا أحبّه ولو كان فقيرًا على الأرض. غيّرت رأيي يا أمّي. سأختار غنيًّا كبيرًا من الأغنياء ، ويكون شرطي الأوّل عليه لا الجهاز ، لا الفساطين الحرير ، ولا الخواتم والأساور ، بل أن يبني لك ، رأسًا بعد الإكليل ، القبر الفخم الذي تستحقّينه.

الكمبيالة الأولى

ما أعظم الفرق بين دنياه حينما خرج من البيت في الصباح وبينها الساعة وهو يعود إليه ! لقد ذهب خفيف الخطو ، منوّر النفس ، عامر القلب بالإيمان . أجل ، كانت العين النقّادة تلحظ غمامة تلوح على جبينه ، ولكنّها ما تلبث أن تتبدّد ، وكانت شفتاه تتمتمان بعض كلمات ، ولكنّها ضروريّة لأنّه ليس معتادًا أن يتقدّم من أحد بمثل هذا الطلب ، فلا بدّ له من تسوية المشهد في ذهنه ، وتجربة الحوار القصير - المزعج على قِصره - بينه وبين نفسه قبل أن يكون بينه وبين صاحبه . وما خلا ذلك فلن يؤلمه إلّا وقع الموافقة ، والحياء الذي سيستولي عليه إذ يمدّ يده . حتّى لقد أطلع مجرّد التخيّل الدم إلى وجهه وزحم الأنفاس في صدره .

ولكن ، أليس الناس للناس ، يعين القادر عاجزهم على الدهر ، ويجبر كسره ، ويقيل عثرته ؟ هذا بين الناس ، فكيف إذا كان بين جارين تربطهما المعرفة القديمة ، وصديقين لا يطيق أحدهما فراق الآخر ؟ لا ! لا ! وإنّ من حقّه أن لا يتحرّج بالأمر ، وأن لا يكدّ ذهنه ، كلّا ولا أن يهتمّ للحديث كيف يدور . سيدخل على صاحبه حسب العادة ويقول له بكلّ صراحة ، بكلّ بساطة ، بالبساطة التي يدعوه فيها إلى فنجان قهوة :

- أنا في حاجة إلى مئة ليرة ، أردّها لك بعد ستّة أشهر .

أجل ، ما أعظم الفرق بين دنياه حينما دخل الباب وبينها حينما خرج منه بعد خمس دقائق ! هو لا يتذكّر كلّ ما دار في هذه الدقائق الخمس . لا يتذكّر شيئًا ممّا ردّده الآخر عشر مرّات بلعاب الاعتذار الكاذب ، ولم يفعل به الرفض مقدار ما فعل به ذلك التلطّف المتناهي ، وتلك الأيمانات المغلّظة بالأهل والولد ، وتلك اللعنات المصبوبة على الظروف . كلّ ما يذكره أنّه حينما خرج لم تكد ساقاه تحملانه ، وأنّه أحسّ بالعرق البارد ينضح من جبينه ، وكأنّه أُصيب بدوار فهو لا يرى طريقه ولا يميّز يمينه من يساره ، فمشى على غير هدًى يضجّ رأسه ضجيج الآلة التي تدور على الفراغ .

وفجأة رأى نفسه أمام بيت صاحب آخر . فوقف كالأبله ، فاغر الفم ، ثمّ رفع إصبعه فعضّها . «كان عليّ أن أطرق هذا الباب لا ذاك» . وصعد الدرج من وقته . لم يتردّد هذه المرّة ، ولم يحسّ بشيء من الارتباك ، بل جمدت عيناه في صاحبه جمودًا استغربه هو من نفسه وآذاه بعض لحظة . ثمّ إذا هو يستلذّه ويجد فيه من التحدّي ما لا يعرفه إلّا الجبابرة والتماثيل . أمّا النتيجة فلم يلبث منها بين الشكّ واليقين إلّا بمقدار المسافة التي تفصل بين لسان صاحبه وحنكه . فأشاح بوجهه ونزل الدرج قبل أن يكمل الآخر اعتذاره . ولقد أحسّ هذه المرّة من الرفض لذّة لو أنّه قوبل بدلًا منها بالمال ملء كفّه لما أخذه بها ولما انقطعت

حسرته عليها. وكأنّه كان يخشى أن يندم صاحبه ويناديه ليعود إليه، فراح مسرعًا يطرق الأبواب بعناد غريب واحدًا بعد واحد مردّدًا أمثولته كالببغاء، وقد قصّر منها وشذّب، ولم يُبقِ إلّا على الجوهر يحكّ به ما يصادفه. ويأخذه تبرّم لا حدّ له، فهو يريد الجواب فورًا وكالسؤال موجزًا، لا لفّ ولا دوران. فإذا تلكّأ الآخر أو أوشك على النزول إلى الآداب والعواطف قطع عليه وأمسكه: «قُل لي لا!» وربّما لم يمتدّ به صبره إلى هذا الحدّ، فخيّره في السؤال نفسه: «إي أم لا؟» ثمّ يروح...

وها هو الآن يعود إلى بيته بعد نهاية الطواف مهدود القوى، منكّس الرأس، ذليلًا. بلى، إنّ ابتسامة – ولكنّها صفراء – تلوح على وجهه. ألم يطلب أحدهم بالمبلغ رهن البيت «لأنّ الدنيا فيها موت وحياة»؟ لقد ذهب بخشية الخجل من سواه، وعاد يملأ جبينه الخجل من نفسه. أليس هو إنسانًا ويُدعى أولئك الذين استعرضهم ناسًا؟ كيف كانوا إذًا يقولون: الناس للناس؟ أأكذوبة هي من الأكاذيب؟ أم تغيّر الناس، فبات على العاجز أن يتململ إلى ما شاء الله في عجزه، وعلى المكسور أن يطيّن كسره بدمه، وعلى العاثر أن يحفر قبره حيث عضّ الأرض؟

مرّة أخرى، ما أعظم الفرق بين دنياه حينما خرج من البيت وبينها الساعة وهو يعود إليه! إنّ بينهما لمسافة قرن.

* * *

في صبيحة يوم من حزيران ١٨٧٠ كان رجل بين الأربعين والخامسة والأربعين من عمره نازلًا من قريته الجبليّة العالية إلى ضاحية من ضواحي بيروت اعتاد أن ينزل إليها كلّ سنة في مثل هذا الوقت، لا يكاد يقدّم أو يؤخّر فيه إلّا أسبوعًا أو أسبوعين، ولو استطاع لكان أمينًا لليوم والساعة. ولكنّ القطاف ربّما بكّر، وربّما أبطأ، وهو مضطرّ لانتظاره، فيبيع الحرير ويأخذ من رأس الثمن – قبل مؤونة البيت وعلف البقرات وأيّ همّ آخر من هموم معيشته – قيمة الدَّين الذي عليه: ليرات ذهبيّة يختارها جديدة لا ممسوحة ولا مقروضة، يقلّبها في الضوء وينقف الواحدة منها بإبهامه الضخمة فتدور في الفضاء عاكسة ألف شعاع وشعاع، فيلاقيها بكفّه وقد اطمأنّ إلى صحّتها وارتاحت أذنه إلى حسن جَرْسها، ويضعها فوق أخوات لها يرصفها عشرات عشرات قبل أن يحشو بها كمره. هو لا يشكّ بواحدة منها أبدًا، إذ سبق له أن تفحّصها جيّدًا عند القبض، ولكنّه يفعل ذلك مبالغة منه في الحرص، لا لأنّ بو حبيب أعطاه السلفة صحيحة كلّها لا عيب فيها ولا نقص – بو حبيب لا يتحرّج في مثل هذا الأمر ولا يقبل فيه، وراء نظّارتيه القاسيتين البرّاقتين، جدالًا – بل اعترافًا بالجميل وما عابه ذلك، وإقرارًا بالفضل وما انتقص شيئًا منه.

كان الرجل يسرع في سيره على قدميّات تتعرّج بين الصنوبر والسنديان، تضرب الأغصان كوفيّته، وقد تزيح لبّادته عن موضع التأنّق، وتعترضه الأشواك فيدعسها بمداسه القويّ، والصخور فيقفز من واحد إلى آخر كالعصفور. وبين المرحلة والمرحلة يرسل صوته بأبيات من العتابا أو أبو الزلف يفتح بها في ذلك الفضاء الواسع الحرّ متنفّسًا لفرحه، ويقصّر الطريق لتبرئة ذمّته.

وبينما هو مسترسل في أغنية من أغانيه وقد دوّت أصداؤها في الأودية، إذ طلع له في فم الدرب مكاريّ يسوق بغلته صعدًا، وإذا هو أحد أبناء قريته، فهتف له بالسلام ملوّحًا بذراعه في الفضاء، فابتدره المكاريّ بصوت عالٍ:

– إلى أين يا طنّوس؟

فأبى أن يجيبه عن بعد بمثل صياحه، لا لأنّه لم يكن متعوّدًا الصياح من وادٍ إلى وادٍ، بل لأنّ الجواب لم يكن يليق به ذلك. فلمّا اقترب منه أعاد المكاريّ الكرّة على طنّوس يسأله إلى أين يقصد مع هذه المجيرة، فأجاب:

– إلى الساحل ، نردّ لبو حبيب ماله ، ونأخذ الوديعة .

وارتفعت يد طنّوس عفوًا إلى شاربيه . فلاحت على وجه المكاريّ ابتسامة وحاول أن يدخل في المزاح فقطع عليه طنّوس الطريق ، فارتدّ المكاريّ إلى الوقار وغيّر الحديث ، يدعو صاحبه إلى الاستراحة قليلًا ويقنعه أنّ «بو حبيب لن يموت من الجوع إذا تأخّر عليه دقائق !...» فلم يصغِ طنّوس إلى شيء من ذلك واستأنف السير ، فشيّعه المكاريّ بهزّة رأس ، ثمّ رفع كلتا يديه إلى شاربيه ففتلهما بعنف ثلاثًا ، وهو ينفخ خدّيه إلى أقصى حدّ ، فخورًا بأنّه ليس مدينًا لأحد والحمد لله .

وصل طنّوس قبيل الظهر . فنهض له بو حبيب وراء مكتبه في ذلك البيت الفخم القائم وسط جنينة في أجمل موقع من البلدة ، ولمعت وراء نظّارتيه الفرحة التي تلمع كلّما جاءه زبون للوفاء . وبالرغم من الوجه المشدود الذي كان يحمله الغنيّ والشفتين اليابستين اللتين كان يرسل عليهما الكلام ببعض الصفير ، فقد أحسّ طنّوس أنّه يستقبله بمحبّة . ثمّ إنّ جوّ القاعة الرحب وما يتيحه من برودة طيّبة ، بعد رحلة طويلة شاقّة كهذه ، أسهم في الأمر ، فجلس طنّوس وقد غمره شعور من الغبطة طالما اشتاقه وحلم به في لياليه .

كان بو حبيب صاحب كرخانة حرير لها صيت بين أخواتها في طول لبنان وعرضه . وكان ، إلى ذلك ، صاحب أعمال ومشاريع تتّصل أسبابها بكلّ شيء ، من جملتها أنّه يوسّع على الناس ويسلّف أبناء الجبل على الموسم . وكان منهم ، ساعة وصول طنّوس ، سبعة أو ثمانية زبائن يسترق بعضهم النظر إلى بعض وقد بانت على وجوههم أمارات السأم ، لأنّ بو حبيب كان مشغولًا بدفاتره يقلّب فيها منذ نصف ساعة ولا يرفع عينيه إلّا لقادم جديد.

وأخيرًا قام عن كرسيّه ، فتحلحل الحضور ، وارتفعت أيدي الجميع بحركة واحدة إلى شواربهم . فأرسل إليهم بو حبيب ابتسامة خبيثة لم يفت أحدًا منهم مغزاها ، ولكنّهم كانوا يعرفون كيف يتحمّلونها . وكأنّ قيام بو حبيب كان الإشارة فجاء من دعا الجماعة بلطف إلى الغرفة المجاورة فانتقلوا إليها . وأخذ بو حبيب ينادي الواحد منهم فيختلي به بضع دقائق ، ثمّ ينادي الآخر . حتّى كان دور طنّوس ، فأقبل صوب المكتب وفكّ كمره وكبّ الليرات دفعة واحدة ، فكان لها على تلك الخشبة القذرة القاسية رنين لم يُطق الغنيّ حبس سروره به ، فأخذ يسأل طنّوس عن الموسم ويتمنّى إقباله كلّ سنة كإقباله هذا العام. وهو ، مع ذلك ، يرصف الليرات إلى يساره ، يتناولها بأطراف أصابعه بأناقة لا يجيدها أحد إجادته .

فلمّا استوت خمسين عثمانيّة سليمة لا غشّ فيها ولا نقص ، مال إلى الصندوق الحديديّ على يمينه ففتحه بتأنٍ عظيم ، فكان له صرير تجاوب في دماء طنّوس . ودفع فيه نظّارتيه فأنفه فيده ، يمرّ بها على وريقات صغيرة موزّعة بنظام دقيق داخل الصندوق ، ثمّ سحب إحداها وقرأ : «طنّوس بو مرعي من بسكنتا ٥٠ ليرة عثمانيّة» كأنّه يخاطب نفسه ، ودفعها إلى صاحبها . وكان طنّوس يجهل القراءة ولكنّه يعرف شعرة شاربيه . فسحب الدبّوس الذي يربط ثنيتَي الوريقة وفتحها ، فإذا هي وديعته : طويلة ، معكوفة ، شقراء ، يشوبها بعض بياض ، مقلوعة من الأصل كما كان طنّوس حريصًا أن يفعل كلّ مرّة .

لقد كان بو حبيب يتقاضى القرويّ الذي يقصد إليه في دَين شعرة من شاربيه :

– أنا أثق بكلامك يا صاحبي ، ولكنّي أريد علامة صغيرة من شاربيك الظريفين.

وكان عنده مقصّ صغير للقيام بهذه المهمّة الدقيقة ، يمدّ يده به إلى شاربَي الطالب أو يتركه يفعل بنفسه إذا تهيّب. ثمّ يتناول وريقة فيطويها على الوديعة ، ثمّ يكتب عليها اسم المدين وعنوانه ومبلغ الدّين والتاريخ ، ثمّ يشكّها بدبّوس ويضعها إلى جانب

أخواتها في الصندوق الحديديّ حيث تبقى إلى موعد الدفع . فإذا جاء الموعد تسابق القرويّون من كلّ حدب وصوب لاسترجاع ودائعهم الغالية ، عنوان الشرف والصدق والأمانة والوفاء بالعهود.

أمّا طنّوس فقد أبت عليه كبرياؤه منذ المرّة الأولى – قبل عشر سنين – أن يدع المقصّ يصل إلى شاربيه ، فمدّ يده ونتر منهما شعرة. فلم يكن ذلك إلّا ليزيد بو حبيب اطمئنانًا إلى صاحبه ووثوقًا به . وها هو الآن ، وهو يعيد الوديعة إلى طنّوس ، يتذكّر المشهد فيضحك بعينيه الصغيرتين ويزمّ بطرف شفتيه ، ولكنّه يحرص على إخفاء ذلك – والويل إذا فضحه ! – فيعود إلى سؤاله عن أحوال الضيعة وعن فلان وفلان وبو فلان ، ويحمّله السلام إليهم ، ويرجو منه الالتجاء إليه كلّما سنحت الفرصة لخدمة ، وطنّوس يضع كفّه على صدره وينحني المرّة بعد المرّة ، وما يزال يفعل وهو يتراجع إلى الباب ، داعيًا لبو حبيب بمال الدنيا ، وطول العمر ، والفرح بعرسانه ، حتّى قارعة الطريق.

* * *

عندما عاد إلى البيت مهدود القوى منكّس الرأس ذليلًا ، قعد يقابل بين الماضي والحاضر ، وعادت إلى ذهنه قصّة بو حبيب مع طنّوس. لقد قصّها عليه أبوه ذات يوم في مجلس ضمّ جماعة يعالجون مشكلة سند طال الأخذ والردّ بشأنه بين الدائن والمدين ووصل أمرهما إلى القضاء. وهو يذكر أنّه أُعجب بهذه القصّة كلّ الإعجاب ، وأخذ يمتدح الثقة التي كانت بين بو حبيب وأمثاله وطنّوس وأمثاله. بشعرة من الشاربين كانت تُوثّق الديون البالغة مئات الليرات الذهبيّة ، واليوم تُكتب السندات كأنّها الكتابة على الماء ، وتُلحس الإمضاءات كما يُلعق العسل . فرماه أبوه بنظرة غاضبة وصاح :

– بو حبيب وزمانه ! قُل لعن الله الساعة التي جاء فيها بو حبيب لا يكتفي بإمرار الرجل يده على شاربيه ، وقام يطلب شعرة منهما !

إنّ تلك الشعرة هي التي أوجدت الشكّ بكلام الرجال ، وزعزعت الثقة بين الناس. إنّ شعرة بو حبيب أوّل كمبيالة في لبنان.

الأربعــون

البارحة ، في الساعة الثانية عشرة ليلاً ، دُقّ باب غرفتي ، فقمت وفتحت. فإذا شبح يحمل بيديه طبقًا من الكاتو مغروسة فيه شمعات مضاءة. فقلت له :

– من أنت ، وما هذا الذي بين يديك ؟

فأزاحني بكتفه وأدخل الطبق ، فتلألأت أنوار الشمعات على وجهه الشاحب ، ثمّ قال :

– ألا تعرفني ؟ عجيب والله أمرك ! تعال نجلس. حسبك أن تعلم أنّني تذكّرت أنّ اليوم عيد ميلادك فجئتك بهذه الهديّة.

فأخذني بعض الخجل وقلت :

– صحيح ! وهذه الشمعات...

– أربعون.

قالها كمن يقرع ناقوسًا ، ووضع الطبق على المائدة ، فجعلت أنظر وقد سال لعابي. ثمّ هممت بإطفاء الشمعات كما تقضي المراسم ، ولكنّه بادرني بكفّه دون فمي وقال ، وقد تغيّر وجهه من لطف الزائر إلى قسوة الآمر :

– قبل أن تنفخ يجب أن أتحقّق من شيء.

– ماذا ؟

– هل تستطيع أن تطفئها دفعة واحدة ؟

– وإذا لم أستطع ؟

– موتًا تموت !

فارتعدت فرائصي ، فقال :

– إذًا اعرف حدّك ، وانفخ واحدة واحدة.

فتنفّست الصعداء. ولكنّي بدأت أنزعج من لهجة لا تصدر عن ضيف ولا تليق بمضيف.

ونفخت الشمعة الأولى... وشدّ ما كانت دهشتي إذ طلعت منها ضبابة ناعمة فانعقدت ثمّ تجسّمت فإذا هي طفل سويّ يناغيني.

– هل عرفته ؟

– لا.

– ستعرفه عندما تعرف نفسك.

وأشار بيده إلى الطفل ، فحبا على المائدة وانزلق إلى كرسيّ في الطرف وجلس عليه.

– اُنفخ !

فانتبهت من ذهولي ونفخت الشمعة الثانية ، فطلع منها مثل الضبابة الأولى وانعقدت وتجسّمت وخرج منها طفل في الثانية من عمره. ودون أن يسألني الزائر الساحر شيئًا أومأ إلى الطفل فدرج مسرعًا بقدميه المرتبكتين وذهب فجلس إلى جانب رفيقه.

ونفخت الشمعة الثالثة فالرابعة... فالعاشرة. وفي كلّ مرّة يطلع صبيّ يكبر سابقه ، فصحت وقلبي يخفق :

– لقد عرفته ! لقد عرفتهم جميعًا.

– أُنفخ !

فعدت إلى شأني ، والسلسلة تكرّ أطفالاً وفتيانًا وشبّانًا ، حتّى امتلأت القاعة ولم يبقَ إلّا شمعة واحدة . فرفعت وجهي فإذا عيوني تنظر إليّ من تسع وثلاثين «أنا» جالسة ، جامدة ، لا تنبس . فلم أدرِ أيّ رعشة سرت في بدني ، فوقفت أمام الشمعة الأخيرة ، وقد اختنقت أنفاسي في صدري ، وإذا بصوت هائل يقطع الصمت :

– أطفئها !

فجمعت قواي ونفخت ، فانطفأت الشمعة . والتفتّ فإذا الشبح نفسه قد انتصب هنيهة أمامي ثمّ غام في ضبابة وتوارى . وما كاد حتّى هبّ الجماعة عن المائدة هبّة واحدة فتشابكوا بالأيدي وجعلوا يرقصون حولي ويهزجون .

وبعد أن داروا ثلاثًا دنَوا متحلّقين فوق الطبق حتّى تلاقت رؤوسهم ، ومدّوا أنوفهم فتلمّظوا وهمهموا . ثمّ تراجعوا بانتظام وانقسموا أربعة أقسام . وتقدّم القسم الأوّل قافلة يقودها ابن السنة ووراءه ابن السنتين حتّى ابن العاشرة ، ومدّوا أيديًا عشرًا إلى عشر قطع من الكاتو فالتهموها ، ثمّ ضحكوا في وجهي ضحكة رنّت في الأرجاء رنين الفضّة وهتفوا :

– نحن الطهر واللعب ! أتذكر اللعب والطهر ؟

ورقصوا رقصة . فأردت أن أقبّل خدودهم المورّدة وأتشمّم شعورهم المبعثرة ، ولكنّهم غاموا في ضباب ناعم وتواروا .

وتقدّمت على الأثر القافلة الثانية من ابن الحادية عشرة حتّى ابن العشرين فتناولوا قطعهم وهتفوا :

– نحن الطموح والدرس ! أتذكر الدرس والطموح ؟

ورقصوا رقصة . فناديت صغيرًا فيهم ليس عليه من الجديد إلّا كتاب تحت إبطه ، وهزيلاً أحببته لعينيه العذبتين ، ومنكمشًا أردت أن أسأله عن سبب حرده وأمسح جرح كبريائه ، وشاعرًا أدركتني له رأفة ... ولكنّهم ودّعوا وتواروا .

ثمّ تقدّم ابن الحادية والعشرين حتّى ابن الثلاثين فأكلوا حصّتهم . ثمّ رقصوا وغنّوا :

– نحن الشباب والهوى ! أتذكر الهوى والشباب ؟

وإذا القاعة تنقلب فجأة إلى مرجة خضراء ، ويطلّ القمر مذرذرًا أضواء هادئة ، وإذا حفيف ثياب من حرير ، ووقع أقدام من زنبق ، وطيوف أنامل تمتدّ إلى الشجر ، وتفّاحات تتناثر ، لها على العشب خفق ، وفي الغدير رنين القبل ...

فنازعتني نفسي أن أثب إليهم وأشاركهم . ولكنّ التسعة الآخرين سرعان ما أمسكوني وقالوا بصوت واحد :

– أنت لنا ! أنت لنا !

وراحت الدنيا وأصحابها ... وأخذ التسعة المتخلّفون نصيبهم من الكاتو ، وأطعموني وقالوا :

– نحن البيت والعمل ! نحن العمل والبيت !

ورقصوا بي رقصة .

كانت جباههم مثقلة بالرضى ، ولكنّ عليها مشحات من عرق ودم ، وفي أجفانهم تعب ، وعلى شفاههم ملل من التفاهات .

وتركوني وانصرفوا .

وإذا بالشبح يشقّ الباب عائدًا ، ويأتي فيجلس قبالتي ساندًا ذقنه بكلتا يديه متحدّيًا كالصنم . فقلت له :

– قُل لهم يرجعوا . قل لهم يرجعوا من أوّلهم إلى الأخير !

فقهقه حتّى زلزل عليّ الأرض . ثمّ مدّ يده المعروقة إلى المائدة فجمع الشمعات المطفأة وهمّ بالانصراف ، فتعلّقت به :

– تعالَ نشعلها من جديد ونطفئها .

فتريّث منعطفًا :

– أتريد حقًّا ؟

قلت : أرجو !

فعاد إلى الجلوس. وتناول الشمعات كلّها في قبضته وعصرها فإذا هي شمعة كبيرة واحدة. ثمّ أرسل إلى رأسها لهثة من فيه فاشتعلت. فنظرت إليه متعجّبًا. ولكنّه لم يهتمّ لي ودقّ الشمعة أمامي فإذا هي فوق مستواي. فوقفت على قدميّ ونفخت، فصعد دخان كثيف، ولكنّ الشمعة لم تنطفئ. فأعدت الكرّة فطلعت وجوه متداخل بعضها في بعض كأنّها من أساطير الجنّ. فنفخت أيضًا بكلّ قوّتي فإذا خلفها طيف متّشح بالبياض فصحت:

– يُخيّل إليّ أنّني أعرف هذه المرأة. ولكن ما بال ثوبها ليس من حرير! وما بال قدميها قد تشقّقتا! وكيف ذبلت التفّاحات في كفّيها؟

– أنفخ! أنفخ!

فنفخت. فإذا خلال الدخان أربعة طيوف بلون الورد.

– وهؤلاء الأطفال يُخيّل إليّ أنّني أعرفهم. أليسوا هم أنا في الشمعات الأولى؟

وإذا الأطفال يتعلّقون بالمرأة: على صدرها واحد، وعلى كتفها واحد، ويمسك الثالث بتلابيبها، ويلحق بها الرابع قفزًا. وهي تمشي بين الشوك والحصى، وتعصر لهم من التفّاحات لبنًا وعسلًا، فإذا نضبا أسبلت أجفانها وسقت التفّاحات دمعات عجيبة تتلألأ فيها ابتسامات.

والتفتّ إلى الشبح وقلت:

– وأنا؟ أين أنا؟

فأشار إليّ أن أنفخ، فجعلت أنفخ فإذا الدخان يتكاثف حتّى كاد أن يعميني، وإذا الوجوه المتداخلة تعود، وإذا هي تفتح أفواهًا ليس لها قرار، ويتدفّق منها سيل من الكتب.

– أنا؟ أين أنا؟

فأخذت الكتب تتمزّق والأوراق تتناثر...

– أريد أن أعرف أين أنا؟

صرختها من أعماق صدري، ورحت أنفخ بلا وعي كالمجنون، والكتب تتمزّق بصرير موجع كأنّها أرواح تُسلخ، والأوراق تتناثر في الفضاء. وجاءت ورقة سوداء فتمايلت يمينًا ويسارًا ثمّ أهوت على وجهي.

فعدت إلى الصراخ:

– أنا؟ أنا؟ أنا؟!

ونترت الورقة بيدي. فمدّت الحروف من خلال أصابعي ألسنة مستهزئة. فعصرتها بحنق، فسالت على الأرض دمًا...

– أريد أن أطفئ هذه الشمعة الملعونة!

وتراجعت فعبّأت صدري بعاصفة من الغضب والحقد واليأس. ولكنّها تلاشت على الشمعة كلهاث محتضر. فاعتزمت أن ألقيها في الظلمة البرّانيّة، ولكنّي ما مسستها حتّى التهبت أصابعي. فصرخت بالشبح:

– خذها! خذها من هنا!

فنهض على مهله وقال:

– بل أتركها لك... وإلّا!

– وإلّا ماذا؟

– موتًا تموت!

فصحت: وما تكون؟

قال: الحياة.

وانسلّ من الباب.

وقفت أمس أمام الموت وتفرّست في وجهه على وجه محتضر، فلم يهلني الموت ولا الميت بقدر ما هالتني حياة الأحياء من حوله.

على السرير إنسان متهدّم أحاله المرض إلى شيء من الأشياء، لولا حركة من يده أو فكّه بين الحين والحين، ولولا رفّة من عينيه الجاحظتين دفعًا لأذى ذبابة.

وفي المنزل سكوت رهيب. الجميع ينتظرون نتيجة الصراع بين هذه الروح التي تقلّصت وتجمّعت غرغرة في الحلق، وبين الموت المقبلة طلائعه على سحنة هذا الكاهن الذي يثقب السقف بنظراته وتضرّعات يديه.

وأنا واقف أدخّن سيكارة.

يتقدّم الطبيب ويمسك ساقًا من ساقَي المحتضر، ثمّ يتركها فتقع على الفراش كالخشبة.

– اِنتهى! سينتهي بعد ساعة!

فتأتي الزوجة وتحتضن زوجها – الذي لم يجمد في حياته على احتضانها مثل هذا الجمود – وتناجيه بصوت حارّ حلو، ثمّ تصيح وتلطم وجهها.

القسم الأكبر من الأهل مشغول بترتيب أوراق النعيّ. وفي الغرفة المجاورة جدال على الإرث، وحركة مريبة. إنّهم يتقاسمون الأمتعة ويتنازعون الفُرش والسجّاد والأواني إلخ. والميت تعود إليه الحياة فجأة فيفتح عينيه ويئنّ أنّة عالية. أتُراه قد سمع ما يقولون، وفطن إلى ما يعملون؟

إنّهم يعودون إليه، ينحنون فوقه مظلّة من رؤوس، يفتحون عيونًا ملأى بالبلاهة، وأفواهًا تريد أن تلتوي باللوعة.

ثمّ تهدأ أعصابهم ويرجعون إلى شأنهم: «أيقوم الأموات من قبورهم؟ إنّ هذا الرجل قد مات!»

هكذا كانوا يردّدون فيما بينهم، ناظرًا بعضهم إلى بعض، كأنّهم يكرهون أن يحيا. وأنا أعلم أنّهم يحبّونه، وأراهن أنّه كان رجلًا طيّبًا.

على أنّني، أنا أيضًا، لا أحبّ أن يقوم من فراشه. لا أريد أن أتصوّره إلّا في رقدته الأخيرة. أمدّ يدي فأجسّ جبينه، فتكاد تلتصق به على العرق الصبيب اللزج. ثمّ أقبضه من يده وأشدّ فلا يحسّ، فلا أدري أيّة قسوة تدفعني إلى الشدّ أيضًا، وأمضي في الشدّ حتّى التعب... وهو لا يتحرّك نكاية بي.

الذبابة تعود إلى عينه وتنقر فيها نقرًا، كأنّ ما بي بها من شهوة القسوة التي لا أعرف لها سببًا في نفسي. أمّا هي فقد تكون راتعة في خير من رزقها.

كذب الطبيب! الأطبّاء لا يفهمون من أمور الحياة والموت شيئًا. ألم يقل إنّه سينتهي بعد ساعة؟ وها قد مضى خمس ساعات والموت لا يزال على الباب.

إنّ النساء ينتظرن موعد العويل بفارغ الصبر.

والأهل قد اتّفقوا على التابوت وشكله وثمنه. واتّفقوا كذلك على اقتسام التركة. والكاهن قد فرغ من صلاته. فماذا ينتظر الميت لكي يموت؟!

تركوه وقاموا إلى شرب القهوة.

– أنا لا أحبّ السكّر الكثير في القهوة.

– كان عندنا الليلة البارحة ضيوف، وكان البعض منهم يفضّل المرّة والآخر الحلوة، فحارت بنتي في الأمر.

– ما أشنع هذا الطقس! إن شاء الله يهدأ المطر غدًا.

– المثل يقول: شباط لو شبط ولو لبط رائحة الصيف فيه.

– هس! هس!

يكون الرجل قد أرسل غرغرة، فيعود الجميع من القهوة والطقس وتنحني الرؤوس مرّة أخرى فوق السرير.

– مسكين! مسكين!

– خلّه يتخلّص من عذابه.

المحتضر يتلوّى كالدجاجة المذبوحة ويرفع رأسه حتّى ينطح حديد السرير، وتنفتح عيناه انفتاحًا مخيفًا، ثمّ يعلو صدره ويهبط مرّتين، ثمّ ينقصف عنقه من جهة الشمال ويقع رأسه على كتفه، وينحدر فكّه الأسفل تاركًا مكان فمه حفرة عميقة...

من هنا خرجت روحه! أين هي؟

إنّ الكاهن يشيّعها بنظراته إلى السماء! والزوجة تبحث عنها على جبين الجثّة ويديها وخدّيها ورجليها.

وتعود الذبابة... ذبابتان بدل الواحدة. تحطّ الأولى على أنف الجثّة، وتحطّ الثانية فوقها، وتعقدان على تلك القمّة عرسًا له أغنية لطيفة تخرج من تصفيق تلك الأجنحة الصغيرة...

أغنية كنت وحدي الذي سمعها خلال العويل الذي ملأ البيت.

تُوفّي إلى عهد قريب وجيه في قرية مجاورة. وللوجاهة في القرى مفهوم خاصّ. لم يكن الرجل عالمًا كبيرًا ، ولا متنفّذًا مسموع الكلمة ، ولا محسنًا صاحب مشاريع خيريّة. ولكنّه مهاجر عاد إلى وطنه بمال كثير وشيّد بيتًا فخمًا وقعد على بابه يستعرض المارّة ، يصبّحهم ويمسّيهم ، ويدعوهم لفنجان قهوة وتدخين سيكارة.

المهمّ أنّ أهله أرادوا أن يقيموا له مأتمًا يليق بالوجهاء ! فدُعي إلى المأتم في جملة من دُعوا زجّال أعرفه لا يعرف الميت ولم يسمع باسمه في حياته. قال لي ونحن جلوس للعزاء :

– قلت لي إنّ اسم الفقيد فلان بن فلان. لا أزال في حاجة إلى معرفة اسم أمّه. اسمه واسم أبيه واسم أمّه واسم العائلة الكريمة : لقد ترسملت !

ثمّ عصر دماغه بين كفّيه وغامت عيناه. ولكنّه لم يلبث أن وخزني وهمس في أذني :

– أليس عندكم في الضيعة دكّان يبيع العرق؟

فتعجّبت من سؤاله وقلت :

– عرق؟ وأيّ مجال لشرب العرق مع ندب ميت؟ الضيعة كلّها مقفلة وهي هنا في المأتم.

– لا أستطيع أن أقول كلمة قبل أن أشرب كأسًا. مستحيل. أحسّ بدماغي يابسًا. والّو! هل انقطعت المروءة عندكم؟

فلمّا رأيت إلحاحه فتقت لي الحيلة وقلت في نفسي : أزعم لأهل البيت أنّ فلانًا أصيب بوجع قلب ، وأطلب كأس عرق للمنفعة.

وهكذا كان. أخذته من يده بعد أن أطلعته على الحيلة ودخلنا إلى المطبخ. وكان التابوت موضوعًا في ممشى قريب. فلمّا تناول كأسه الشبراويّة التي أترعتها له حتّى الطفاح دنا من التابوت فدقّه بها وقال :

– كأسك يا با ! ...

وكرعها كرعة واحدة.

وحان وقت الطواف أمام بيت الفقيد ، والرقص بالسيف ، وضرب الطبل. فخرج بين اثنين يمسكانه ، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال. ومن التقاليد المتّبعة في ذلك أن يشدّ صاحبا القوّال بكتفيه علوًّا ، فهما لا يتأبّطان ذراعيه على سبيل المسايرة ، بل مساعدة له على فتح رئتيه وإرسال صوته على مداه. فأنت تنظر إليه بينهما فتحسب أنّه مجرم مكتّف من الوراء يُساق إلى « القره غول » ، في حين أنّ هذا التدبير روحانيّ بحت وتمهيد ضروريّ للوحي !

« مـــــات خزّان المبـــــادي
مـــــات قيـــــدوم البلادي
مـــــات نبراس الشهـــــامي
لبّسوا العـــــــالم سوادي ! »

والزجّال يرسل صوته عاليًا عريضًا إلى أقصى ما يستطيع ، وصاحباه يشيران إلى الناس باليد الحرّة ويعبّسان داعيين إيّاهم إلى الردّ ، ويحمّسانهم بنتق العنق وصرّ الأسنان ، وربّما ضربا بالأرجل ، وقد انتفخت أوداجهما ونفرت أعينهما وتصبّب العرق من جبهتيهما. وهو ، إذ يأمر بتلبيس الناس السواد وينقل عنه صاحباه الأمر ، تخاله وإيّاهما حكومة دكتاتوريّة الويل كلّ الويل لمن لا يطيع أوامرها ، ولكنّه – أي الزجّال – ينسى أنّه يلبس سترة بيضاء وربطة عنق حمراء !

ويمضي في تعداد مآثر الفقيد ، فلا يدع فضيلة ولا خلقًا كريمًا ولا خصلة حميدة إلّا وينعته بها. ولو وقف الأمر عند هذا الحدّ لهان ، ولكنّ الشمس قد كُسفت ، والقمر دُفن في التراب ، والنجوم غارت في الظلمات ، والطبيعة فجّرت براكينها ، والبحار تلاطمت وطغت على الأرض فهي تهدّدها بالغرق من كثرة الدموع... ولم يعد في الكون جمال ، ولا شهامة ، ولا مروءة ، ولا كرامة ، ولا ناموس ! أمّا المجد فانهدّت أركانه ، والعزّ سقط بنيانه ، والجود أقفل أبوابه ، وصفّى حسابه. فمن للجائعين يشبعهم ، وللعريانين يكسوهم ، ومن لليتامى والأرامل والمساكين؟ ومن للمشاكل يحلّها من بعده؟! والمصيبة الكبرى هي في إقفال هذا البيت ، فأين ينزل المطران بعد اليوم عندما يأتي لزيارة الضيعة؟!...

دُفن الميت ، وتناول الزجّال مظروفه المختوم المعنون باسمه. ثمّ لقد راحت السكرة وجاءت الفكرة. دنا منّي وفتحه أمامي كأنّه يُشهدني فإذا فيه خمس عشرة ليرة جديدة لمّاعة ، فركبنا السيّارة معًا ونزلنا إلى بيروت.

وفي الطريق تمّ الفصل الثاني والأخير من الرواية ، على اعتبار أنّ الفصل الأوّل هو فصل الندب على الميت. قال لي الزجّال :

– ماذا نفعل بهذه الليرات الخمس عشرة؟ تعال أعطني رأيك وساعدني في الأمر : أأشتري بها طحينًا؟ أم أدفعها قسطًا من أقساط الطقم الذي أوصيت عليه؟ أم أشتري لامرأتي فسطانًا وعدتها به على حساب أوّل فقيد؟ ويشهد الله أنّني ندبت ، منذ وعدي لها ، أكثر من عشرة كلّهم وجيه محترم ، وأقلّهم هذا الذي مات اليوم عندكم – رحمه الله – فأنا لم أعرف أبخل من ورثته.

قلت وقد فكّرت في شيء :

– كيف حذاؤك هذا الذي تنتعله؟

فدفعه في أنفي ، فإذا هو عتيق مرقّع ، فقلت :

– هذا لا يليق بك في المآتم. تذهب وتشتري حذاء جديدًا.

فشال بكتفه وقال :

– أمجنون أنت؟ إنّ فلانًا وفلانًا وفلانًا من زملائي الزجّالين ينتظرونني في بيروت على أحرّ من الجمر. لقد وصلت ورقة النعيّ إليهم فانتدبوني عنهم لأمثّلهم في المأتم ، وبدأوا السكرة على حسابي. تعالَ اشرب كأسًا معنا !

بويا ! بويا ! ...

سألت هذا الصباح وأنا أدخل إلى مكتبي عن أبو حسن ليأتي ويمسح لي حذائي. فقيل لي :

– أبو حسن مات منذ أسبوع. انتحر بالديمول.

أعرف أبو حسن منذ سنين. كان من معالم الشارع الذي فيه مكتبي. يجلس على كرسيّه الصغير الواطئ وكأنّه ، بشرواله الأسود العريض ، دجاجة تحضن فراخها ، وأمامه صندوقة البويا تلمع أزرارها النحاسيّة لمعان عينيه المناديتين ، ولمعان الأحذية تحت يديه البارعتين. لا يبرح مكانه في الزاوية تحت الحائط ، فكأنّه جزء من تلك الزاوية وهذا الحائط.

وها هو ينفصل عنهما إلى غير رجعة. أصحيح هذا؟

كيف؟ لماذا؟

أيّ مأساة كانت وراء ذلك اللمعان كلّه ؟ أتراها كانت الفقر ؟ أم خلافًا مع الزوجة ؟ أم مرضًا دفينًا ؟ أم شيئًا آخر؟ وأين كان أبو حسن يخبّئها عندما كان يستقبل زبائنه ويمسح لهم أحذيتهم وكأنّه يجلو الصباح بحلاوة وجهه ولطف فرشاته ؟ ...

أبو حسن انتحر؟

إذًا كانت حياته باهتة ، مجرّحة ، ملطّخة بالوحل... وكان يمسحها كلّ يوم كالأحذية سواء بسواء ، ويخدع نفسه بلمعانها ، حتّى جاء يوم رماها فيه كالحذاء العتيق البالي.

* * *

يا أبو حسن ، سيبقى حذائي اليوم باهتًا ، مجرّحًا ، ملطّخًا بالوحل في وجه هذا الصباح ...

حلم مهاجر

على الطريق ، بين بيروت وطرابلس ، قرى جميلة متناثرة على الأكمات ، الحياة فيها تلوذ بالوداعة والهدوء.

بين اثنتين من هذه القرى ، على رابية جرداء لا طريق لها ، استوقف نظري قصر منيف مبنيّ بالحجر المنحوت يتحدّى وجه الشمس في النهار ، ويتربّع على صدر الليل كأنّه من قصور الحكايات.

لمن هذا القصر؟ ألشخص هو أم لشركة؟ وكيف الوصول إليه؟ وإذا أمكن الوصول – بالهليكوبتر مثلًا – فكيف تمكن الحياة بين جدرانه ، أو يمكن العمل؟

كلّما مررت بتلك الناحية ، ألحّ بي الفضول لمعرفة السرّ فلا أجد من أطرح عليه السؤال. حتّى شاء القدر أمس أن يشفي غليلي. فقد صادفت فلّاحًا أخبرني أنّ فلانًا الفلانيّ من الضيعة عاد من البرازيل بعد هجرة ثمان وأربعين سنة ، فبنى هذا البيت. ولكنّه مات قبل أن يسكنه. قلت : وأهله؟ قال : لا أهل ولا ولد. قلت : وما يحلّ بالقصر؟ قال : يبقى ذكرًا لصاحبه.

فرفعت بصري إلى الأكمة الجرداء ، وإلى القصر الجاثم على رأسها ، الخالي الخاوي إلّا من حنين المهاجر إلى وطنه وطموحه. كانت أبوابه وشبابيكه ما تزال كلّها بدون خشب. فوّهات عميقة مظلمة. فخُيّل إليّ أنّ روح المهاجر تغادر قبره كلّ صباح ومساء ، ترفرف فوق الرابية ، تروح وتجيء محوّمة في الفضاء ، ثمّ تدخل وتخرج من هذه الأبواب والشبابيك وتصفّق بجناحيها ، فخورة بالبيت الذي حلم به صاحبه سحابة نصف قرن من جهاد العرق والدم في الغربة : أعلى بيوت الضيعة وأفخمها !

الآباء والبنون

موضوع قديم ، طُرح على بساط البحث منذ رُزق آدم وحوّاء قايين وهابيل ، وما يزال مطروحًا . اِستوقفني مظهر من مظاهره وقعت عليه عيناي أمس ، وأنا أزور قرية أعرف – فيمن أعرف من أهلها – عجوزًا تُدعى أمّ مخّول ، كانت تطوف القرى لبيع اللبن وكنت من زبائنها سنين ، ثمّ انقطعت عن التردّد إلينا دون أن أعرف السبب .

وكان لأمّ مخّول ثلاثة أولاد . البكر الذي كُنّيت به ، وآخران ، ذكر وأنثى ، قضت حياتها تحمل قربة اللبن على كتفها وتبيعه في الجوار حتّى ربّتهم أحسن تربية ، فأصبح الأوّل موظّفًا في الحكومة ، والثاني مقاولًا ، وتزوّجت البنت .

وشدّ ما كانت دهشتي عندما رأيت في زيارتي لتلك القرية شبح عجوز تمشي وعلى كتفها قربة تنوء بها ، فقلت في نفسي : أليست هي أمّ مخّول ؟ ولكن كيف يمكن أن يكون هذا بعد أن أصبح مخّول موظّفًا والآخر مقاولًا ، والبنت صاحبة بيت ؟ كيف يسمح الأولاد لأمّهم أن تحمل قربة اللبن فوق السبعين ممّا تحمله من أثقال السنين ؟ وهل هذه هي مكافأتهم لها بعد أن ضحّت في سبيلهم بما ضحّت ، وربّتهم بدمع العين ودم القلب ؟

سلّمت على أمّ مخّول ، وكاشفتها بما يجول في خاطري ، فهزّت برأسها وقالت :

– يا ابني ، حاجتهم لنا عزّ ، وحاجتنا لهم ذلّ . سأبيع لبنًا إلى أن أموت .

مريض بالوكالة

ما شعورك لو كان لك صديق هو مثال الذكاء ثمّ فوجئت يومًا بأنّه فقد عقله !

زرته أمس في المستشفى ، وتمنّيت له الشفاء العاجل . فنظر إليّ باستغراب وقال :

– أنا ؟ لا ! المهمّ أن يأتي هو ويأخذ مكانه .

فلم أفهم . فأسعفتني الممرّضة همسًا :

– يعتقد أنّه مريض بالوكالة ! ما يزال يسألنا عن المريض الحقيقيّ الذي هجر هذه الغرفة وطلب إليه البقاء فيها عوضًا عنه . وهو يعاتبه دائمًا – بلطف – ويدعوه إلى زيارته ، فقد طالت غيبته... من هو ذلك الشخص ؟ لا أحد يدري ولا هو يسمّيه . والغريب أنّه يتناول الدواء بالوكالة عنه ، ويأكل طعامه بالوكالة ، ولعلّه مستعدّ أيضًا أن يموت ، إذا اقتضى الأمر ، بالوكالة...

وهمّت الممرّضة بالضحك . ولكنّها لم تلبث أن خفضت رأسها وقامت .

قال لي المريض :

لا تؤاخذها . هي لا تصدّق . لا تؤمن بالتضحية إلى هذا الحدّ .

ثمّ انحنى صوبي وأسرّ إليّ :

– تريد الحقيقة ؟ أنا سعيد بأن أمرض عوضًا عنه . قل له : يقول لك فلان لا تأتِ إلى المستشفى واذهب وشمّ الهواء . لا تنسَ أن تقول له ذلك .

فوعدته ، وانصرفت أبحث في كلّ مكان عن ضائعَين في واحد .

الشابّ السهران

السهر حياة ثالثة.

بين حياة النهار التي هي تعب، وحياة الليل التي هي راحة وأقساط على حساب الراحة الأبديّة، فترة يغتنمها الإنسان للسرور. وقد كان الشبّان وما يزالون يحبّون السهر. وهم يسهرون اليوم في مرابع الرقص، وحانات الشراب، ودور السينما إلخ.

بالأمس كان الأمر مختلفًا جدًّا.

يوم الأحد الماضي دعاني المعلّم الياس إلى زيارته في ضيعته الجبليّة الحلوة، القعقور، لأبارك له في بيته الجديد. ولكنّ البيت العتيق الأدكن، الواطئ، ذا السطح الترابيّ، والأبواب المطروشة بالكلس الأبيض، قد شغلني بسحره عن البيت الجديد.

قال المعلّم الياس: هذا بيت جدّي. أحببت أن أحافظ عليه كما هو.

وكان أمام العتبة – عدا العريشة العجوز – نبتة كبيرة خضراء تحكّ أغصانها بأكتاف الداخلين، ولها أبواق خضراء حمراء تتدلّى كالأجراس. فسألت: ما هذا؟ فقال: الشابّ السهران.

وضحكت فتيات كنّ حوالينا، وتولّت إحداهنّ الشرح، والحياء يورّد خدّيها:

– هذه زهرة قديمة عندنا من أيّام جدّي. تطبق أجفانها طول النهار وتنام. ولكن ما تكاد الشمس تغيب حتّى تتفتّح وتبقى سهرانة حتّى الصباح. ولذلك سمّوها الشابّ السهران.

* * *

ذهبت إلى الضيعة الجبليّة الحلوة لأشاهد البيت الجديد، وتركتها وأنا لا أفكّر إلّا بالبيت العتيق وبالشابّ السهران على عتبته منذ مئة سنة.

حنّا الدرج

قمت بزيارة لإحدى دُور اللقطاء في بيروت، فعدت منها بألف عبرة وعبرة.

لن أحاول أن أرثي لهؤلاء اللقطاء، ولا لآبائهم وأمّهاتهم. كلّا ولا للمجتمع. ذلك قد يقودني إلى بعيد. ولكنّي أقصّ عليك قصّة صبيّ في العاشرة من عمره رأيته حزينًا كسير الطرف. قال الناظر:

– كان هذا الصبيّ سعيدًا يأكل ويلعب ويدرس، كأنّه ابن ملك. حتّى كان أن وسوس في رأسه شيطان المعرفة فراح يسأل: أين أبي؟ وأين أمّي؟ ولماذا أنا اسمي حنّا الدرج؟

وأضاف الناظر:

– إنّه أذكى رفاقه وأجملهم كما ترى.

قلت:

– أمّا أبوه وأمّه فقد ماتا طبعًا. أو هكذا يجب أن يقتنع. وهما على كلّ حال ميتان. ولكن أنا أيضًا أريد أن أعرف من أين جاء اسم حنّا الدرج؟

فأخبرني أنّهم التقطوه – إذ التقطوه قبل عشر سنين – في عيد القديس يوحنّا، فسمّوه حنّا. وأنّهم وجدوه – إذ وجدوه – ملقى على درج قصر العدل، فرأوا من العدل أن ينسبوه إليه.

في دنيانا، وكلّ دنيا، أسماء عائلات ضخمة يدلّ بعضها على حشرات، وأخرى على أوعية فارغة، وأخرى على مهن حقيرة. ومنها أسماء هي عنوان الشرف والسخاء والصلاح. ومنها ما لا يدلّ على شيء إطلاقًا... حنّا الدرج؟ وأيّ بأس في هذا الاسم؟ أليس خيرًا لك، يا حنّا، أن تصعد هذا الدرج وتظلّ صاعدًا إلى حيث تريد لك صحّتك الممتازة، وجمالك الرائع، وذكاؤك الوقّاد، من أن تركب ظهر اسم لا تعرف إلى أين يحملك؟

أمّ

أطللت من شرفة منزلي ، وكأنّني في لوج من ألواج مسرح . وكانت الرواية في الشارع .

سيّارة من سيّارات البلديّة الخاصّة بالتنظيفات واقفة إلى جانب ، وقد تجمهر بعض الأولاد ينظرون إلى قطّة تروح وتجيء حولها ملهوفة لاهثة كأنّها أضاعت شيئًا . فنظرت فإذا جِراء – سبعة أو ثمانية – أبناء يوم أو يومين ، قد ألقاها الزبّالون في السيّارة كومة واحدة ، فهي تتململ وتموء مستغيثة . باحثة في كلّ صوب عن أمّها . والأمّ لاثصة حول السيّارة ، عينًا على صغارها ، وعينًا على الزبّالين ، لا تدري ما تفعل .

وقفت لأرى نهاية المأساة . فإذا أحد الموكّلين برصف النفايات على ظهر السيّارة يضرب بيده فيتناول جروًا – هكذا بالقرعة – بأطراف أصابعه ، ويقذف به إلى الأمّ هاتفًا بزهو حلّال المعضلات وصفاقة موزّعي الحسنات :

– «حرام ! لازم نتركلها واحد» .

وما كاد الجرو يقع على الأرض حتّى هرولت الأمّ إليه فتناولته من قذاله وغابت هنيهة ، ثمّ عادت وحدها تبحث عن إخوته ... ولكنّ السيّارة كانت قد ذهبت لتلقي حملها في البحر .

* * *

بقيت أيّامًا أطلّ على الشارع فأرى الأمّ تأتي كلّ يوم في الساعة المعيّنة وتدور متشمّمة ، ثمّ ترجع بثكلها ...

قرد ابن حرام

تعرفه ، ولا شكّ ، إذا كنت من روّاد المقاهي . فهو ما يفتأ يتنقّل بينها حاملًا في بطانة معطف لا يفارقه في عزّ الصيف كيس يانصيب فيه بضع لعب : فيل وقرد وكرة وزمّور ، إلخ ...

ولكنّ لهجته غير لهجة أصحاب اليانصيب . وابتسامته غير ابتسامتهم . ثمّ إنّ شأنه الكتمان والهمس ، وشأنهم هم الإعلان والصياح .

كنت أراه في قبّعته المنحنية ، وكانت عيناه من تحتها تقفان أحيانًا على عينيّ ، فتأخذني عليه شفقة ، تشوبها نفرة لم أكن أدري لها سببًا .

حتّى كان أمس فغلبني الفضول ، فناديته ونقدته ربع ليرة ، وسحبت من قعر كيسه حجرًا من حجارة الحظّ فربحت . فنظر إليّ ثمّ مدّ يده إلى كيسه وقال :

– أنت حرّ أن تختار . ولكنّي أحبّ لك هذا القرد .

ثمّ برقت في زوايا عينيه الابتسامة المؤذية ، تلك التي كانت – هي هي – تجفّلني منه ، وأردف :

– هذا قرد ابن حرام .

ثمّ دار ببصره ودنا حتّى كاد يلتصق فمه بأذني وقال :

– عندي بنت حلال مثل القمر ...

فنفضت أذني وصرفته ... ثمّ نظرت إلى القرد الذي تركه على الطاولة ، فرأيته يضحك في ذقني ملء قفاه ...

بائع العلكة

هو واحد من عشرات. حافي القدمين، مبعثر الشعر، في السابعة أو الثامنة من العمر، يحمل علبة ويقفز من رصيف إلى رصيف مستوقفًا المارّة، مناديًا على بضاعته بصوت أشبه بصوت الفرخ وهو يتعلّم الصياح.

وقد لا يتورّع عن دفع العلكة في أنفك:

– بخمسة قروش!

ويحدّق إليك مكوّرًا شفتيه باستخفاف لا تدري أهو بك أم بهذه الدنيا كلّها بما فيها من أمثالك ومن القروش.

لقيته فعرض عليّ علكته، فرفضت. فألحّ وتبعني يحكّ بي. ثمّ رفع إليّ عينيه متحدّيًا وقال:

– اِشترِ منّي.

فناولته خمسة قروش وقلت له:

– خذها، والعلكة لك.

فلحق بي وأنا أحاول التخلّص منه. ولم يتركني إلّا بعد أن دسّ العلكة في يدي وهو يهتف:

– من فضلك، يا أفندي، أنا بائع علكة لا شحّاد! خذ علكتك.

وقفز إلى الرصيف الآخر.

* * *

ويشهد الله لم أعلك في حياتي قطّ. ولكنّي تناولت هذه المرّة علكة بائعي الصغير، وجعلت أمضغها بلذّة عجيبة. وكلّ الظنّ أنّ طعمها لن يفارقني، لأنّه طعم الكرامة.

البقيّة المودّعة

مرّة أخرى وقفت على شرفة منزلي أتأمّل الحياة التي يحياها جاري في المنزل المقابل. يفصلني عنه بل يفصله عنّي وعن الناس شارع من أكثر شوارع المدينة ازدحامًا بالسيّارات والباعة والضجيج. وأنا وهؤلاء جميعًا نطلّ عليه في أيّ ساعة من ساعات النهار، فنراه في شرواله الفضفاض يروح ويجيء في المنزل، أو يدور في الحديقة. لا يُلقي بالًا للشارع ولا لما فيه.

أكاد أقول يدور على نفسه. لأنّ الحديقة عبارة عن بضعة أمتار. لا تتجاوز حجم الحصيرة. وقد جعلها الرجل آية من آيات الفنّ بما زرع فيها: أكّي دنيا تتألّق حبّاتها كالنجوم على المدخل، وعريشة تتدلّى بالعناقيد والظلال، وأحواض من الزهر تسيّج الحدود، وفي الوسط بركة بنافورة، ومصطبة لا تتّسع لغير شرواله. وهو، إلى ذلك كلّه، بدين، طويل الشاربين، معقوفهما بكرسيّين، عجبت والله كيف لا تشتبك أطرافهما بأغصان الحديقة كلّما تحرّك.

أروع ما يكون المشهد عند جاري في الصباح إذا جلس يشرب القهوة، أو في المساء إذا اتّكأ يدخّن نارجيلة. وبين الحين والحين، تخرج امرأته من المنزل حاملة إليه جمرة تجدّد بها نار النارجيلة فتسوّيها بملقط في يدها، حتّى إذا اطمأنّت إلى إصلاح شأنها وشأنه عادت من حيث أتت دون أيّ سؤال أو جواب...

في الجهة المقابلة من الشارع المزدحم بالسيّارات والباعة والضجيج، بضعة أمتار لا تتجاوز حجم الحصيرة. بقيّة باقية من العصر الذي مضى، ومن هناء العيش الذي يودّع الشارع.

أبو ملحم

هل لك في زيارة لأبو ملحم! سنقصد إليه في بيته.

إنّه لا يزال قائمًا على بعض الهضبات بكبرياء، أو جاثمًا عند بعض السفوح وكأنّه يشدّ ظهره إلى الوراء خشية التزحلق في الوادي. صدره مفتوح بقنطرة واسعة، يزيد في ترحيبها بنا طلاؤها الكلسيّ الناصع.

لو ناديناه: يا أبو ملحم! ولا بأس أن ندخل قبل أن يجيب. هو هنا، ولا شكّ، يستريح الآن من تعب النهار ممدّدًا رجليه. وإلّا ففي الجلّ تحت البيت يسقي الخيارة أو يقلّم الخوخة.

ولنجلس إذا شئنا على هذا المقعد المريح النظيف، ذي المساند المطرّزة أغطيتها بإبرة أمّ ملحم ونور عينيها. وفوقنا السقف الترابيّ المضلّع بجذوع الصنوبر الدكناء، تختبئ فيها ألف شرارة وشرارة من نار الشتاء، وألف جنّيّة من حكايات الجدود المتردّدة الأصداء!

وإذا أحببنا أن نستمتع بغياب الشمس، ونتذوّق غبطة المساء، فعلى السطيحة المسيّجة بالورد والمنثور والمردكوش، في ظلّ العريشة العجوز المتصابية أبدًا مع كلّ ربيع... المقاعد هنا صخور وجذوع، على بعضها طرّاحات برسم المترفين الآتين من المدينة.

ويكون أبو ملحم قد أشعل لنا السيكارة الأولى ثمّ الثانية، وعيل صبره فيصيح: «يا أمّ ملحم، وين صرت بهالقهوه!»

• ليته طوّل باله قليلًا. ها هي أمّ ملحم مقبلة بصينيّة القهوة، وفي طرف عينيها، صوب أبو ملحم، نظرة غضب وتأنيب لرفعه صوته. ولكنّ الابتسام ترحيبًا بنا ما يلبث أن يغلب.

— قهوة دايمه يا أبو ملحم!... عامر إن شاء الله، يا أمّ ملحم!....

ذكرى كاوية

يحلو لي، حتّى في أيّام الشتاء، أن أصعد إلى الجبل وأتفقّد الضيعة. وبينما كنت أمس أتجوّل فيها مشيًا على قدميّ، هائمًا على غير مقصد، إذا بالمطر يدهمني. فهرولت أحتمي بقبو قديم مجاور للكنيسة.

هذا القبو كان مدرستنا ونحن أطفال. لا يزال كما كان إلّا أنّه مهجور، لا تسكنه إلّا الذكريات.

من هذه الذكريات واحدة عاودتني وأنا واقف تحت القنطرة أرتعش من البرد. فأغمضت عينيّ وخُيّل إليّ أنّني أسمع نداء: لمَ لا تدخل وتتدفّأ؟

كنّا، في الزمان، نتدفّأ في مدرسة الضيعة على الحطب، وكان على التلاميذ أن يؤمّنوه من بيوتهم، فيأتي كلّ منّا في الصباح حاملًا تحت إبطه — إلى جانب كتابه وزاده — قطعة من الحطب، الأفضل أن تكون يابسة كي تشتعل، لا كبيرة ولا صغيرة كي تدخل في البابور.

وكان البابور يتوسّط مدرستنا كلّ شتاء. صندوق من الحديد الأسود الأجرد، مخلّع الجوانب، ملحّم مربّط، له داخون يثقب السقف، وظيفته ككلّ داخون أن يطرد الدخان! ولكنّ الرياح كانت تتغلّب عليه فتعيد الدخان إلينا مع دفقات قويّة من الأمطار، فتصطبغ وجوهنا، ويعبق جوّ الغرفة، ويختلط أزيز الوقيد بعطاسنا بغضب المعلّم بالرعود القاصفة في الخارج ببكاء التلميذ الراكع في الزاوية قصاصًا.

وكثيرًا ما كنت أنا ذلك التلميذ لشيطنتي. ولن أنسى يوم دعاني المعلّم ورفع القضيب ليضربني، فتراجعت ووقعت ملء قفاي على البابور!

ذكرى كاوية... ما تلبث أن تنهمر عليها بحنان —كهذه الأمطار المنهمرة— ألف ذكرى وذكرى من ذلك العهد الطيّب.

غزالة الصحراء

للصيّادين ، إذا كانوا في مجالسهم ، أحاديث هي العجب العجاب .

وقد كنّا البارحة نصغي إلى أحد مشاهيرهم يروي لنا أصناف الصيد ومآثره فيها . وفجأةً اربدّ وجهه ، ثمّ أجال بصره فينا وقال :

– والغزلان ، لم تسألوني عنها !

فلمّا اطمأنّ إلى إثارة ما يريد من فضول قال :

– مرّة واحدة في حياتي . كنّا ثلاثة في رحلة لنا بين بيروت وبغداد . فلمّا وصلنا إلى صحراء الرطبة إذا بغزالة تطلع لنا عن بعد ، من النوع الظريف الرشيق الذي يألف تلك الجهات . ورابها هدير السيّارة فأتلعت عنقها تتنصّت ثمّ أركنت إلى الفرار . فاندفعنا وراءها نستحثّ السائق ونطلق عليها بلا وعي من بنادقنا الثلاث ، وهي ماضية تنهب الأرض . ثمّ إذا هي تنكفئ إلى الوراء انكفاءة ، فلم نشكّ في أنّها أصيبت . ولكنّها لم تلبث أن مالت يمينًا فلنا في إثرها ، فيسارًا فتبعناها ، ثمّ أعادت الكرّة ونحن نلحق بها ونسدّ عليها المنافذ . وما زلنا بها حتّى أعيتها الحيل فجعلت تدور على نفسها كالسكرى ، ثمّ أدركها الجهد وألحّت بها جراحها فوقفت في العراء لا تبدي ولا تعيد .

حينئذ (تابع صاحبنا) أشرنا على السائق وترجّلنا ماشين إليها نريد أخذها حيّة ، وقد وضعنا أصابعنا على أزناد البنادق متهيّئين لإطلاق الرصاص إذا حاولت الهرب ، ولكنّها لم تتحرّك . فلمّا صرنا على خطوتين منها مالت بوجهها ببطء ورمتنا من عليائها بنظرة احتقار ، ثمّ وقعت ...

قال : فكادت البندقيّة تقع من يدي . ومنذ تلك النظرة لم أعد إلى صيد الغزلان .

فطّوم والبوتغاز

عند جار لي ، في البناية التي أسكن فيها ، خادمة صغيرة ألتقيها على السلّم وأنا خارج من منزلي أو عائد إليه . وأطلّ أحيانًا على الشرفة فأراها على شرفة المنزل الذي تعمل فيه تنفض السجّاد ، أو تختلس فرصة لمضاحكة زميلة لها في البناية المقابلة .

فطّوم هو اسمها تدليلًا . في العاشرة من العمر ، نظيفة ، نشيطة ، رشيقة ، لا تلقاني إلّا ابتدرتني بابتسامتها الحلوة ، وألقت عليّ التحيّة بصوت كلّه عذوبة ، ما أذكر أنّها شذّت عن ذلك قطّ .

حتّى كان أمس فإذا بي أجدها منطرحة على سفرة الدرج تشهق بالبكاء . فانحنيت أسألها :

– شو القصّة يا فطّوم !

فرفعت إليّ عينيها وقالت :

– فطّوم أنا ! لا ، أنا مش فطّوم . أنا برّاد ! أنا تلفزيون ! ويا ريت ! أنا بوتغاز . والبوتغاز أحسن منّي .

فدخل في روعي أنّها أصيبت بمسّ . فطلبت إليها أن تشرح لي هذا الكلام ، فأخبرتني أنّ أهلها وضعوها عند الجار للعمر . وهم يأتون مرّة واحدة في السنة من بلدهم البعيد لمشاهدتها ، كما يدّعون ، ولقبض القسط في الواقع .

– ولا يعطونني منه قرشًا . واليوم جاء أبي وقبض القسط : ألف ليرة ! ولمّا طلبت منه أن يشتري لي فستانًا على العيد ، ناولتني خالتي – زوجته بعد موت أمّي – كفًّا على خدّي ، وجرّته وراءها كالكلب ...

وتركتني فطّوم ومشت إلى بيت سيّدها تمسح دموعها وتردّد :

– إي ، إي ، أنا مش فطّوم ! أنا بوتغاز باعوني واشتروني بالتقسيط !

حكايات صغيرة

أنا والظلّ

لي ظلّ يتبعني في كلّ مكان . طوعًا أو كرهًا ، ولكنّه يتبعني دائمًا .
حتّى بلغ به أمس أن قال لي :
– أنا الحقيقة . وأنت الظلّ !
فقلت له :
– ومن تكون ؟
قال :
– الإنسان .

بين الابن وأبيه

مات أبوه
فحزن عليه كثيرًا
فذهب إلى المدينة ليشتري له تابوتًا مزخرفًا .
فمرّ في طريقه على بائع ألعاب ...
فعاد بسرير مزخرف لابنه !

من معاني الحرّيّة

مررت في الشارع فرآني كلب شارد من تلك الكلاب التي ليست ملك أحد من الناس .
فدنا منّي ورفع إليّ عنقه ، وقال :
– لماذا أنا حرّ ؟
فقلت له :
– الناس لا يقيّدون إلّا الأشياء الصالحة .

رجل بين امرأتين

وقفت عانسان أمام باب السينما .
– أُنظري ! أُنظري فيلم الأسبوع .
– امرأة بين رجلين .
– بين رجلين ؟
– يكفيها واحد !
– والآخر ؟
وتلاقت عيون المرأتين : رجل بين امرأتين .

الشفقة القصوى

رآه كسيحًا ، صورة الإنسان فيه مشوّهة ، فآواه في بيته.

في اليوم الأوّل رثى له.
في اليوم الثاني ابتعد عنه.
في الثالث خاف منه.
وفي الرابع تناول فأسًا وقتله...
... شفقة على نفسه!

المفرد والجمع

كان عشرة أشخاص في مجلس ، فسألتهم :
– ما أنتم؟
فقالوا :
– فصول من مهزلة!
ثمّ تفرّقوا فجعلت أسأل كلًّا منهم على حدة :
– ما أنت؟
فيجيب :
– مأساة كاملة.

الخيط السحريّ

غضب الله يومًا على الكذب فقال :
– أيّها الكذب ، زُل من الناس!
فزال الكذب من الناس.
ولكنّ الله أطلّ في الصباح فرأى حبّات السبحة منثورة في كلّ أفق.
فمدّ يده ووصل الخيط فانتظمت فيه.
واقتنع الله مرّة أخرى أنّ ما خلقه حسن!

بين الداخل والخارج

وقف اثنان بباب :
الأوّل : اِفتحوا لنا!
الثاني : اِفتحوا لنا!
الأوّل : دُقّ! دُقّ!
الثاني : شُدّ! شُدّ!
وانفتح الباب ، فدخل الأوّل وأغلقه في وجه الثاني صائحًا :
– رُح ، بلا مشاغبة!

الآداب الاجتماعيّة

التقى خليل وخليلته في الشارع.
قال :
– ما يمنعني منك هنا؟
وقالت :
– ما يمنعني أنا أيضًا؟
ولكنّهما خجلا من الناس.
أمّا الناس فكانوا قد عرّوهما...
فضاع عليهما وصال!

الحاكم وامرأته

اِنتخبوه حاكمًا بإجماع الأصوات.
فطغى وبغى وتجبّر.
فمرّ أحدهم يومًا أمام داره فرأى امرأته تضربه :
– يا الله! يستبدّ بالناس وامرأته تستبدّ به!
فسمعه الحاكم فصاح به :
– يا غبيّ! ألا تعرف أنّ النساء محرومات الحقوق السياسيّة؟

الناسك والجمجمة

كانت الجمجمة في صومعته إزاء كتاب الصلاة يتأمّل فيها مصير صاحبها القدّيس ومصير الإنسان.

فجاءه من قال له:

– بل هذه جمجمة امرأة حسناء!

... ونفذ الشعاع ذات صباح إلى الصومعة، فإذا الناسك يحتضن امرأة حسناء!

الغنيّ والفقير

حلمت ذات ليلة أنّني تُوِّجت ملكًا.

ولمّا أفقت وجدتني فقيرًا أمدّ يدي للحسنة.

وحلمت في الليلة التالية أنّني فقير مسكين.

ولمّا أفقت وجدتني ملكًا صاحب تاج وصولجان

ولكنّ ذلك يرجع إلى عهد بعيد. عهد لم أكن قد وصلت فيه أن أكون الاثنين معًا.

في وصيّة كذّاب

خلا أكبر كذّاب إلى نفسه في آخر العمر وأراد أن يتوب إلى الله عازمًا أن يكتب، إلى من كذب عليه أكثر، رسالة استغفار.

ففتّشوا أشياءه بعد دفنه، فعثروا على ورقة صغيرة مكتوب فيها:

«أستغفرك يا نفسي».

المقاييس

كان عمره خمسين سنة، فجاءه من قال له:

– إن شاء الله تعيش مئة سنة.

ففرح وشكر له دعاءه.

وجاءه آخر وقال له:

– لم يبقَ من عمرك إلّا نصفه.

فكاد يموت.

مطار الصقيع

وقصص أخرى

مطار الصقيع

أعرف قبل كلّ شيء أنّني لست بطلاً.

وأنا أكره الأبطال.

ترجع عداوتي لهم إلى عهد التلمذة. كان رفاقي يعشقون الإسكندر أبا القرنين ونابليون وهتلر وأضرابهم ويحفظون سيرهم عن ظهر قلب، وآخذ صفرًا في التاريخ.

وكنت أجفل من الألعاب العنيفة وأرفض الاشتراك فيها. ربّما لأنّني كنت هزيلاً ضعيفًا. أو هكذا كان يقول أساتذتي.

حتّى أمّي كانت تعيّرني: «الدجاجات تأكل عشاءك!» عندما تراني أتهرّب من مواجهة الخصوم وأترك لهم حقّي شرط أن يعفوني من المباطحة.

اليوم سأنتقم.

وسأريهم كيف أنّ هذا الجبان قادر أن يكون عند اللزوم بطلاً عالميًّا.

عند اللزوم قلت. أو بمحض المصادفة. أو إذا خطر له، بين الجدّ واللعب، أن يلعب الأشياء الجادّة.

حتّى هذا الصباح، مثلاً، لم أكن أتمنّى، وأنا ذاهب إلى المطار في لندن، إلّا رحلة هادئة وأن أصل بالسلامة إلى بلدي وأهلي.

تأخّرت الطائرة في الإقلاع خمسًا وثلاثين دقيقة. وهذا كثير بالنسبة لطباع الإنكليز وتقاليدهم في ضبط المواعيد. ولكن يجب الاعتراف أنّ الظرف كان غير عاديّ نظرًا لأهمّيّة الركّاب، فقد كانوا في أكثريّتهم الساحقة من كبار الشخصيّات الرسميّة، جاء لوداعهم في المطار الوزراء واللوردات، وازدحم الناس يهتفون لهم ويصفّقون، فضلاً عن عشرات الصحفيّين والمصوّرين الذين كانوا يدورون حولهم ويقفزون كالقرود.

ولم ألبث أن علمت أنّ الجماعة هم مندوبو الدول التي اشتركت في المؤتمر العالميّ للبحث في الوسائل الكفيلة بمنع استعمال الأسلحة النوويّة - وقد انعقد في لندن أثناء وجودي فيها - وأنّهم يعودون بعد ارفضاضه، كلّ إلى بلده، بمراسم التعظيم التي استُقبلوا بها لدى الوصول.

لم يكن بين المسافرين من عباد الله العاديّين إلّا أربعة أشخاص ونصف.

أنا - واحد.

عريس وعروس في رحلة شهر العسل، مشغولان عن الدنيا، ما يفتآن متخاصرين - ثلاثة.

امرأة درويشة، بأكياس وعلب تحت إبطيها وفي يديها الاثنتين تعيقها في المشي - أربعة.

والنصف الباقي ابنها. صبيّ في الرابعة أو الخامسة من عمره منهمك بلعبته، مسدّس فلّين، يقلّد به الكاو بوي، يديره بين أصابعه بخفّتهم البهلوانيّة

ويطلقه بوجه كلّ من يطلع بوجهه. لم يوفّر رئيس المفتّشين أبا الشاربين الوقورين – بوم! بوم! بوم! ثلاثًا بين شاربيه.

صفعته أمّه معتذرة لحضرة الرئيس. ولكنّ الرجل ضحك للصبيّ وانحنى فمسح جبينه بشاربيه. وإكرامًا له أعفى الأمّ من فتح بقيّة كراكيشها.

* * *

لم أوفّق في سفرتي إلى العاصمة البريطانيّة. كنت عائدًا منها بخيبة كبيرة، من جملة خيبات حياتي التي لا تُعدّ، إذ رفضت فبركة الملابس الجاهزة أن تعيد وكالتها إليّ. وكان قد سلبني إيّاها تاجر فاجر، من هؤلاء التجّار الجدد الذين طلعوا في آخر زمان، بدون أيّ مبرّر سوى أنّ رصيده في البنك أكبر من رصيدي. وعبثًا حاولت إقناع الفبركة بأن لا تقطع رزقي فقد أصرّت بعناد الإنكليز على رأيها. ومع أنّها تنتج فئات الملابس الثلاث، للرجال والنساء والأولاد، فقد اعتذرت عن التعامل معي حتّى بأقماط الأطفال.

وهكذا صعدت إلى الطائرة أنوء بأكداس من الخيبة والانكسار والمرارة، كما كانت تنوء تلك المرأة بأثقالها. وللشبه بين الحالين رقّ لها قلبي، وحملت ابنها بذراعي على السلّم، وزدت فأجلسته إلى جانبي في الطائرة ألاعبه مرفّهًا عن نفسي.

رفاقنا الشخصيّات الرسميّة انقسموا قسمين: أصحاب الإكسلانس احتلّوا الدرجة الأولى بكاملها. أمّا معاونوهم، حملة الوثائق والتقارير، فقعدوا حيث ينبغي لهم، في الدرجة الثانية، معي ومع من ذكرت آنفًا.

وما هي إلّا بضع دقائق حتّى دار علينا الشراب، وراح رؤساء الوفود يقرعون الكؤوس متبادلين الأنخاب بلغاتهم الشتّى – بابل! – عرفت منها الإنكليزيّة والفرنسيّة والروسيّة والألمانيّة والإسبانيّة، وخمّنت تخمينًا على اليابانيّة والصينيّة، وفاتتني البقيّة.

ثمّ انبطحوا على الكراسي مدى انقلابها. وكنت أسمع قهقهاتهم ونفثاتهم الضخمة – لا يدخّنون إلّا السيكار – ثمّ سكتوا مرّة واحدة وأطبقوا أجفانهم مستسلمين إلى ما يشبه إغفاءة الأطفال – «ريلاكس» يمنحونه لأنفسهم عن جدارة واستحقاق بعد أعمال المؤتمر المرهقة.

كنت أراقب حركاتهم وسكناتهم كلّما أزاحت المضيفة ستارة الباب متنقّلة بين الدرجتين، فلاحظت أنّ أكثرهم يغطّون وجوههم بالجرائد ويجتهدون في تسويتها على أوضاع يتثبّتون منها بين الفينة والفينة بأطراف أحداقهم ويصحّحونها طلوعًا ونزولًا ويمينًا وشمالًا. فأغرى ذلك فضولي، وانتهزت فرصة غياب المضيفة لأمر فقمت إلى ممشى الدرجة الأولى أذرعه ذهابًا وإيابًا، فإذا جماعة الجرائد لا ينامون وإنّما يتظاهر الواحد منهم بالنوم وقد فتح من جريدته الصفحة التي فيها صورته وهو يخطب في المؤتمر لتراها المضيفة الحسناء.

في درجتنا كان الشأن مختلفًا تمامًا، والجوّ، عكس ما هو هنالك، مشحونًا بالنقمة والتذمّر. كان حملة الوثائق والتقارير يرتّبون أوراقهم نترًا وضربًا. شغل المؤتمر عليهم، كانوا يقولون، والتصفيق والمآدب العامرة وشمّ الهواء لرؤساء الوفود، فضلًا عن ثناء الجرائد والصور العنتريّة. ويا ليت! لم يعرفوا، خزاهم الله، أن يقرأوا الخطب التي حضّروها لهم.

أكثر من ذلك. كان ثلاثة بالقرب منّي يتضاحكون بخبث، ويتهامسون بأشياء لم أدركها كلّها ولكنّ المهمّ لم يفتني. وهو أنّهم عبثًا تعبوا في تحضير تلك الخطب وتنميقها. ذلك أنّ أصحاب الإكسلانس، بعد أن سحروا الألباب بتلك الخطب، وناقشوا طول أسبوع واحتدموا واختلفوا – وزير حربيّة الاتّحاد السوفياتيّ ناول وزير حربيّة أميركا بالكرسيّ على رأسه – عدا ما كلّفوا المترجمات من اللهاث وراءهم لالتقاط دررهم ونقلها إلى جميع لغات المؤتمر، أقول، سمعت أحد

الثلاثة يقول لزميليه إنّه بعينيه الاثنتين رأى الوزيرين الخطيرين، إيّاهما، يتعانقان وراء الكواليس قبل الجلسة الختاميّة، ثمّ يشيران بطرف الإصبع إلى رئيس وفد تانزانيكا ويدسّان في كفّه ورقة صغيرة. هذه الورقة هي نفسها التي سحبها الجميع في الجلسة التاريخيّة والتي كانت فيها زبدة المؤتمر وبلسم البشريّة: التأجيل.

كنت أرى كلّ ذلك وأسمعه من زاويتي وأسجّله في قلبي. والعريس يلقي رأسه في حضن عروسه – تعبت من مصّ شفتيه فهي الآن تكتفي بمداعبة شعره بأناملها – وأمّ الصبيّ تفتح صرّة وتعقد صرّة. والصبيّ يغفو على كتفي.

* * *

– نحن الآن فوق بحر المانش. وبإمكانكم أن تشاهدوا الشاطئ الفرنسيّ. الطائرة تحلّق على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم. الطقس في باريس صحو والحرارة فيها...

لم أسمع البقيّة، لم يكن عندي وقت ولا تهمّني باريس ولا حرارتها. لقد حان وقت العمل. فوضعت كفّي على فمي وتنحنحت عاليًا لأنبّه المرأة. فدارت بوجهها إليّ، فغمزتها بطرف عيني اليمنى الغمزة المتّفق عليها، فدسّت يدها في كراكيشها وهي تنظر إلى العروس والعريس، فيما كنت أنا أشير إليهما بطرف العين الأخرى، فمدّا يديهما من تحت الكرسيّ وتناولا من المرأة...

كانت المسألة غاية في البساطة. قام العريس فسار بهدوء إلى غرفة القيادة ليبلغ ملّاحيها الأمر والقذيفة في يده، وتمترست العروس بمؤخّرة الطائرة وقذيفتها في يدها، وانتصبت أنا على الباب الفاصل بين الدرجتين شاهرًا مسدّسي.

– مكانكم! أيّ حركة أو نأمة أطلق الرصاص! وأيّ اعتراض ننسف الطائرة!

ونقت برأسي إلى المضيفة فأقبلت بابتسامتها، فكلّفتها أن تبلغ الركّاب بواسطة المذياع وبجميع اللغات أنّ الطائرة مخطوفة.

أدّت المضيفة الرسالة برباطة جأش أدهشتني. وزادت، تلطّفًا منها، فأبلغتهم أنّ خطف الطائرة لا بدّ أن يكون لقصد نبيل، وأنّ عليهم فقط أن لا يحاولوا المقاومة، وأن ينقطعوا خصوصًا – وكانت هذه تعليماتي الصريحة – عن تدخين السيكار. لا مانع من السيكارة.

لست أدري أيّ سحر كان ينبعث من عينيّ في تلك اللحظة فيسقط على الجماعة ويحبس حتّى أنفاسهم في الصدور. كلّ ما أعلمه أنّني كنت سكران بخمرة عجيبة، مغمورًا بغبطة لم أذقها في حياتي. كنت، بكلمة واحدة، بطلًا.

ثمّ فكّرت في نفسي وقلت إنّ المسدّس بيدي والفعل ربّما كان فعله لا فعلي، فالجماعة يردّدون أنظارهم بين النار المنبعثة من عينيّ والنار التي قد تنبعث في أيّ لحظة من فوّهة المسدّس. خصوصًا ركّاب الدرجة الأولى. فقد استولى الخوف على أصحاب الإكسلانس بأشكال يُرثى لها حقًّا، ولمحت سكرتيرًا صغيرًا من معاونيهم في الدرجة الثانية يلكز زميلًا له على واحد برتبة مارشال يرتعد كالدجاجة المبلولة. ماذا لو رأى الآخر – وهو برتبة فيلدمارشال – يشقل بنطلونه بيديه الاثنتين ويشير برأسه إلى المضيفة خانقًا تكشيرة، والمضيفة تشير إليّ خانقة ضحكة، وأنا بينهما يا جبل ما تهزّك ريح...

وعادت إليّ المضيفة وعلى وجهها هذه المرّة كامل أنوثتها تواجه بها كامل رجولتي، فاكتفيت برقّة من جفوني معناها بالعربيّ الفصيح «مرسي» على تأديتها الرسالة. لم تقل لي «بادكوا» لأنّ المقام لم يكن يتّسع لمثل هذه المجاملات التافهة. ولكنّني كنت أقرأ في عينيها مدى إعجابها بي. ماذا أقول؟ لقد عشقتني. كان واضحًا أنّها عشقتني. وإذا كان من عشق صاعق فهذا هو بالذات. النساء لا يعشقن إلّا الأبطال. وهذه

نظراتها إلى الركّاب في الدرجتين تقذفهم فيها بكلّ الاحتقار والهزء والرثاء.

وخطرت لي أمّي ورأيت وجهها نصب عينيّ.

– آه! أين أنت، يا أمّي، لتري ابنك أيّ ديك هو بين دجاجات!

البطولة!

الآن أنا أعرف من أيّ شيء تتألّف البطولة. طبعًا الجرأة! الجرأة! الجرأة! كما أوصى ميرابو. ولكن هذه ليست كلّ شيء. ثلاثة غرامات. يجب أن تزيد عليها أربعة غرامات من الاستهانة بالقوانين والشرائع، وضعفها أي ثمانية غرامات من الاستهانة بأرواح الناس بما فيها روحك، وغرامًا واحدًا من النباهة أو الحكمة أو الدهاء – ما يقع تحت يدك من هذه الموادّ – أُخلط الكلّ جيّدًا ثمّ رُشّ عليه رشّة من بهار المثل العليا والمبادئ السامية. وإذا كان الكذب ملح الرجال فالمبادئ والمثل هي بهار الأبطال.

ولا تنسَ أن تضع كلّ ذلك في آنية جيّدة: مسدّس أو قذيفة. إذا نسيت فالجبن الذي هو تحت إبطك كفيل بتذكيرك.

* * *

لم تخدع المضيفة الخفيفة الدم ركّاب الطائرة. فالقصد نبيل وأكثر ممّا يتصوّر هؤلاء الرعاديد.

وأيّ قصد أنبل من تدمير الأسلحة النوويّة وإنقاذ البشريّة من ويلات حرب تدكّ الحضارة وتعيد الكون إلى عدمه كما كان؟

على أنّي لم أبح بقصدي على الفور. تركت الجماعة يعدّون معي: خمس دقائق. سبع دقائق. تسع دقائق. تسع دقائق ونصف – كانوا هم يعدّونها بالثواني – عشر دقائق. وأنا لا أنبس بكلمة.

«سوسبانس»!

بعدها رأيت أن أكشف نيّتي وأشرح لهم خطّتي. أعدت في ذهني خلال هذه الدقائق العشر، مرّتين أو ثلاثًا، الخطاب الذي كنت قد هيّأته لهذه المناسبة، ولكنّي في النتيجة لم أقل حرفًا منه. وبكلّ بساطة أجلت أنظاري هنا وهناك من أقصى الدرجة الأولى إلى أقصى الدرجة الثانية وقلت:

– آسف أن أبلغكم أنّ الطائرة لن تحطّ في باريس. أنا أعرف جيّدًا أنّكم كنتم تمنّون النفس كلّكم بليالٍ عامرة، ليلة واحدة على الأقلّ، تقضونها في مدينة النور وعاصمة الهوى والشباب، قبل أن تتوزّعوا منها إلى بلدانكم المختلفة. إعلموا الآن أنّ الطائرة لا تتّجه إلى مطار أورلي في العاصمة الفرنسيّة بل إلى مطار الصقيع في القطب الشماليّ.

مطار الصقيع؟ الفكرة جاءتني بعد أن رفضت فبركة الملابس الجاهزة إعادة وكالتها إليّ. وإذا كان المسافرون الأجلّاء يجهلون العلاقة بين الأمرين، وأنا طبعًا لم أفتح لهم هذه السيرة، فسيتّضح لهم كلّ شيء لدى وصولنا إلى مطار الصقيع.

كانوا، بالفعل، يفتحون عيونهم بالدهشة، وينظر بعضهم إلى بعض بكثير من البلاهة، متسائلين عن هذا المطار وأين هو بالضبط من القطب الشماليّ. ورفع أحدهم إصبعه إلى المضيفة، ثمّ آخر، ثمّ آخر، فرفعت إصبعها إلى فمها تدعوهم إلى السكوت، فخفضوا أصابعهم بخيبة لا تخلو من غيظ. ثمّ جمدوا... فليكن مطار الصقيع ما كان وأينما شاء. في الطائرة بطّانيّات من الصوف الجيّد – هكذا سمعتهم يقولون في قلوبهم – شرط أن لا ينسف بنا هذا المجنون الطائرة أو يطلق علينا مسدّسه.

– قوّس! قوّس!

هكذا كان يهتف بي الصبيّ وهو بين ذراعَي أمّه تحبسه بهما وتمنعه من الوثوب إليّ.

كان متحرّقًا لا يفهم لماذا أصوّب المسدّس هكذا ولا أطلقه، ويطلب منّي أن أعطيه إيّاه ليقوّس هو. فابتسمت له وأشرت عليه أن: اصبر.

* * *

– نحن نقترب من مطار الصقيع وسنبدأ بالهبوط بعد دقائق. الرجاء من الركّاب أن ينقطعوا عن التدخين ويربطوا أحزمتهم.

لا لزوم للقول إنّ مطار الصقيع لم يكن له وجود. اخترعته أنا، وكان من إلهام البطولة ووحي الانتقام. قلت للعريس «مُر قائد الطائرة أن يتّجه صوب القطب الشماليّ وينزل على الجليد في أيّ مكان يتيسّر له. نعمّد المطار باسم مطار الصقيع».

ثمّ رفعت رأسي وبدأت الخطاب:

– أصحاب المعالي والسعادة ممثّلي الدول العظمى المحترمين، حضرات أعضاء الوفود من مستشارين وسكرتيرية ودكتيلو وسائر حملة الحقائب والمتاعب. مطلوب منكم الاتّصال بدولكم الموقّرة، ولا لزوم للشيفرة لأنّ العالم كلّه عرف الآن أنّ الطائرة مخطوفة وعرف القصد من خطفها، وأن تقولوا لها بصراحة أن تبادر إلى إتلاف الأسلحة النوويّة التي لديها إذا كانت من صاحباتها، وأن تحرق، إذا كانت من صاحبات الاستعداد لها، كلّ الدروس والتقارير والوثائق المسروقة التي لديها وتهدم مختبراتها. وأنتم رهائن لديّ ولدى العصابة التي أنتمي إليها لأربع وعشرين ساعة في مطار الصقيع. بعدها، إذا لم تنفّذ دولكم الأمر، نأخذ منكم بطّانيّات الصوف ومعها ثيابكم التي عليكم ونتركّكم بالزلط في مطار الصقيع، عائدين بالطائرة إلى أشغالنا مع قائدها وملّاحيها والمضيفة اللطيفة التي لا أنسى لها خدماتها.

لم أكد أتفوّه بهذه الكلمات الرهيبة حتّى تعالت في الطائرة، خصوصًا من صوب الدرجة الأولى: تكتكة حسبتها لأوّل وهلة خرطشة مسدّسات، فضغطت على زناد مسدّسي. ولكنّي لم ألبث أن تبيّنت أنّ الجماعة يتكتكون بأسنانهم، سلفًا، من الصقيع. فاطمأنّ قلبي وأحسست بدفء عظيم بين أضلاعي، لأنّ هذا هو بالذات ما كنت أنشده وأصبو إليه.

* * *

كيف علّموني في المدرسة أنّ غيومًا كثيفة سوداء تغطّي القطب الشماليّ طول السنة، وأنّ صيفه كشتائه معتم كئيب؟ كنت أنظر من النوافذ فأرى عكس ذلك، شمسًا لم أرَ في حياتي أشدّ شعشعانًا منها ولا أجمل ولا أبهج. سلطانة تتلألأ بما لا يُوصف من أنواع الإبريز والماس والياقوت، والأرض تحتها تردّ لها لألاءها بأحسن منه، وفي الجوّ ملايين من الذرّات تتراقص أشبه برؤوس العصافير وأجنحتها إلّا أنّها كلّها بيضاء من ثلج ونور. فلم أتمالك أن أهتف بجماعتي:

– بإمكانكم أن تستمتعوا بالمنظر الرائع.

فحاولوا التطلّع من النوافذ. ولكنّ رقابهم كانت مشنّجة من شدّة الفزع ورؤوسهم جامدة كالتماثيل. وحدها العروس بادرت أقرب نافذة وارتمت عليها تضاحك الشمس وتريد طرح نفسها على هذا البساط الناصع الناعم الذي يغطّي الأرض حتّى الآفاق الأربعة، ثمّ تنظر صوب غرفة القيادة وكأنّها تدعو عريسها: «ما أحلى أن نتمرّغ معًا هنا ولا يكون علينا رقيب إلّا هذه الشمس الدافئة».

أمّا الصبيّ فجعل يقفز من نافذة إلى نافذة ولا يصدّق عينيه المنبهرتين بكلّ هذا الثلج. ورأيته يدقّ بقدميه ويكوّر كفّيه واعدًا نفسه ولا شكّ بلعبة التقاذف بأكر الثلج، فأومأت إليه برأسي أن «سنلعبها معًا بعد أن ننزل في المطار، فأمامنا أربع وعشرون ساعة «كران كونجه»، وسنلعب ما شئت من الألعاب، وأعلّمك أن تعمل من الثلج أغرب من هذه التماثيل التي تملأ الطائرة وأعجب!»

الأمّ كانت مشغولة بتسوية كراكيشها. ولعلّها انتبهت إلى ما كان يتشوّق إليه الصبيّ وخافت عليه البرد فخلعت شالها ولفّت به عنقه.

في تلك اللحظة أطلّ العريس من غرفة القيادة فطمّنني أنّ كلّ شيء يسير على ما يُرام، وأنّ القائد يسألني هل أسمح له بالهبوط.

لم أعرف في حياتي، على كثرة ركوبي الطائرات

وتجوالي جوًّا في أنحاء العالم ، أهدأ ولا أهنأ من النزول في مطار الصقيع . هذا ، على الأقلّ ، ما يجب أن لا ينساه لي الركّاب الأماجد وحتّى الملّاحون بمن فيهم القائد. فقد حطّت بنا الطائرة على البساط ، إيّاه ، كما يحطّ العصفور في عشّه ، أو يرتمي الطفل في حضن أمّه ، أو كما تقع قبلة المحبّ المشتاق على جبين حبيبه بعد غياب طويل.

قلت للجماعة ودائمًا بهدوء أعصاب :

– قالت لكم المضيفة المدموازيل (والتفتّ إليها فأسعفتني باسمها الكريم مشفوعًا دائمًا بابتسامتها) إنّ الحرارة في باريس اليوم (فأكملت عنّي : ١٠ فوق الصفر) آسف مرّة أخرى أن أعلمكم أنّ الحرارة في القطب الشماليّ ١٠٠ تحته وتزيد. لا تنفع الوحوحة ولا فرك الأكفّ. إلى العمل فورًا وأرسلوا برقيّاتكم بأسرع ما يكون. مختصر مفيد. لا لزوم لكثرة الشرح. وأنا ، عفوًا نحن في انتظار الجواب. ستسألكم دولكم من نحن؟ بإمكانكم أن تفشوا السرّ. الواقع أنّه ليس سرًّا. نحن عصابة كما قلت لكم. عصابة أشقياء البشريّة الواقفة على كفّ عفريت العفاريت ، المتأرجحة فوق جهنّم الفناء. لا ! لا ! لست أنا الرئيس. ليس في عصابتنا رؤساء ولا ألقاب. إنّما أنا عضو بسيط متواضع ، واحد من مئات ملايين عباد الله ، ولكنّي مفوّض مطلق الصلاحيّة أنطق باسم هؤلاء الملايين من شرق الأرض إلى غربها. وقد وقع عليّ الاختيار بقرعة الظروف التي شاءت أن أكون في لندن أثناء انعقاد مؤتمركم الخطير لاستعادة الوكالة من فبركة الملابس الجاهزة. على فكرة ، اسم الفبركة «أب توديت» يعني آخر موضة ، وهي تنتج أظرف الملابس من كلّ الأجناس ولكلّ الأعمار وللرجال والنساء والأولاد على السواء. خسارة ! راحت الوكالة منّي. لو كانت باقية لي لأوصيت لكلّ واحد منكم على ثوب للتجربة. بضاعة ممتازة... ولكن ، أوّلًا الوكالة راحت منّي ، وثانيًا – وهذا هو الأهمّ – ربّما لن تعودوا محتاجين بعد الأربع والعشرين ساعة إلى شيء من ذلك. سأنتظر جواب دولكم الموقّرة. أطلعوها مع الشروط على الكيفيّة أيضًا. أترككم في مطار الصقيع في القطب الشماليّ بالزلط إذا.... لا لزوم للإعادة.

ثمّ زدت على سبيل الإيضاح :

– معاونيّ من أعضاء العصابة الحاضرون هنا عرفتموهم. بإمكانكم أيضًا أن تذكروهم لدولكم ، ولكن لا حاجة بكم إلى الأسماء. الأمّ هي كلّ أمّ من عصابة البشريّة. والصبيّ طفل من ملايين أطفالها الأبرياء. وكذلك العريس والعروس فهما يمثّلان عرسان العالم وعرائسه – إن شاء الله تفرحوا من أولادكم – الذين يريدون العناق والحبّ والفرح ، ويفضّلونها على الموت بالقنابل النوويّة.

في حياتهم لم ينكبّ أصحاب الإكسلانس على العمل بمثل هذا الجدّ والاجتهاد. فجعلت أنظر إليهم وأنا راضٍ عن نفسي كلّ الرضى.

ولا شكّ أنّ أمّي في قبرها كانت تباركني.

بأقلّ من خمس دقائق كانوا قد هيّأوا برقيّاتهم ، وتوجّهوا إليّ راجين منّي تلاوتها لتنقيحها ، إذا شئت ، وصياغتها على ذوقي أزيد أو أنقص ما أراه. وكانوا يتزاحمون على ذلك ويتفنّنون في التوسّل إليّ بأشكال مخجلة حقًّا. كانت خبرتي معدومة في هذا المجال ، فأنا عمري لم أتعاطَ الديبلوماسيّة ولا أعرف شيئًا من أصول مخاطبة الملوك ورؤساء الجمهوريّات (بين هلالين أصررت أن تُوجّه البرقيّات مباشرة إلى هؤلاء) وبالرغم من ذلك هززت رأسي ، بعد إلحاحهم ، بالموافقة.

يا للغلطة التي ارتكبتها ! هبّوا هبّة واحدة يريد كلّ منهم أن يكون الأوّل في تلاوة نصّه ، وحصلت بينهم الفوضى التي تحصل عادة في المؤتمرات. لم أكن أملك جرسًا أدقّه وأعيدهم به إلى النظام. ولكنّ المسدّس كان بيدي فجعلت ألوّح به في الهواء بما معناه بالعربيّ الفصيح :

– على رِسْلكم ! على رِسْلكم !

ويظهر أنّني نطقت بها بالفعل ، فلم يفهموا ، وتبادلوا النظرات وكأنّهم يتساءلون ماذا أعني وبأيّ لغة أتكلّم ، فالتفتّ صوب الدرجة الثانية وقلت :

– من في عداد التراجمة يعرف العربيّ الفصيح فليرفع إصبعه .

فرفع شابٌّ هزيل إصبعه ، فأمرته أن يتقدّم ويترجم . قال :

– على رِسْلكم ! على رِسْلكم ! يعني على مهلكم ، أزعجتم الرجل بضجيجكم وأوجعتم رأسه .

ثمّ سألني هل من خدمة أخرى ، فصرفته بقفا كفّي ، وعدت إلى الجماعة أقول لهم :

– أكتفي بواحد منكم – مسطرة – يتلو نصّه ولمّا كنتم لم تتّفقوا على واحد فليختر الصبيّ من بينكم أيّ واحد يقع عليه اختياره .

وأشرت إلى الصبيّ أن يدلّ على واحد ، فكادت الفوضى تسود من جديد ، لأنّ كلًّا منهم أراد أن يطبّق الصبيّ – على عادتهم في المؤتمرات – فبادرت إلى حسم الأمر وقلت لأقربهم :

– أنت . قُم .

الخلاصة كان النصّ على ذوقي تمامًا . فلأوّل مرّة عمل رجال السياسة بقول السيّد المسيح فسألوا سؤالهم طالبين الجواب على الطريقة التي أوصى بها : لا لا ، أو نعم نعم ، والباقي من الشيطان .

* * *

أُرسلت البرقيّات بواسطة جهاز الراديو الذي في الطائرة إلى أربعة أقطار العالم ، وقعد الجماعة مكتّفي الأيدي ينتظرون .

كان الصبيّ قد عيل صبره في هذه الأثناء وهو يشدّ بثيابي طالبًا الخروج ليلعب على الثلج . فرأيت أن ألبّي طلبه . وهكذا كان شأن العروس التي كانت تجرّ عريسها صوب باب الطائرة . ولكنّي لم أنسَ أن أربط الجماعة ، بمن فيهم قائد الطائرة وملّاحيها ، كلًّا إلى كرسيّه ويداه إلى ظهره . وساعدتني مضيفتي في هذه المهمّة الشاقّة وقلّدتني فضلًا إلى أفضالها السابقة .

الأمّ خافت من الرشح وفضّلت البقاء في الطائرة . أو ربّما لكي لا تفارق كراكيشها . هكذا ظنّ البعض . لا هذا ولا ذاك . بقيت لتقوم بالدور الملقى عليها ، أي مراقبة الركّاب في غيابنا .

على باب الطائرة أدرت وجهي وقلت بصوت عالٍ أغالب به رياح القطب الشماليّ :

– بانتظار الجواب بإمكانكم أن تقتلوا الوقت بشيء مسلٍّ ومفيد . أُطلبوا إلى رئيس وفد اليابان أن يحكي لكم حكاية القنبلة النونو التي سقطت على هيروشيما . فهو من أبنائها واختارته دولته خصّيصًا باعتبار أنّه فقد امرأته وأولاده الأربعة بفعل تلك القنبلة . وإذا كان سعادته قد تكلّم في المؤتمر بلغته تاركًا للتراجمة أن يترجموا أقواله إلى لغات العالم بداعي أنّه لا يعرف إلّا لغة الميكادو فلا تصدّقوه . وسترون أنّه يحسن الإنكليزيّة والفرنسيّة والروسيّة والإسبانيّة إلخ . أكثر من شكسبير ودي غول وخروتشوف وسرفنتس .

....

كان الصبيّ يشدّني من كمّي بيد ، وباليد الأخرى ينزع شيئًا من بين أصابعي . ففتحت عينيّ فإذا هو مسدّس الفلّين .

كنّا قد وصلنا إلى مطار باريس .

مارا والملِك

إلى الذين يعرفون حكاية «يوم الطين» في تاريخ الأندلس – وإلى الذين لا يعرفونها.
إنّ حكايتي مختلفة جدًّا.

ت. ي. ع.

كان في الزمان ملك اسمه ياروت. وكان ياروت ملكًا عظيمًا، ولكنّه كان يشكو مرض الملوك: الضجر.

وكان قصره على ضفّة نهر يفصل المملكة إلى مدينتين: مدينة الأسياد الذين هو رأسهم، ومدينة العبيد.

وكان يعيش في قصره مديرًا وجهه صوب الأسياد، كما عاش آباؤه وأجداده، لم ينتقل أحد منهم يومًا إلى الضفّة الأخرى، ولا وقعت عين لهم على عبد.

ذات يوم نادى الملك حاشيته وقال:

– هيّئوا لي مركبًا، أريد أن أذهب إلى الضفّة الأخرى من النهر.

فصُعقوا للنبأ. وأقبل رئيس الكهنة فقال:

– يا مولاي، إنّ مدينة العبيد لا تصلح موطئًا لأقدام الملوك.

وتقدّم رئيس الوزراء فقال:

– إنّ منظر العبيد يؤذي عيون الملوك ويجرح شرفهم.

وهتف رئيس الخصيان:

– ألا يرى مولاي أنّ للقصر نافذة واحدة، عينًا واحدة إلى مدينة الأسياد؟

شاعر الملك وحده بقي ساكتًا.

في الموعد المضروب حضر المركب مجهّزًا بجهازه. فرشوه بطنافس الحرير، ورفعوا له الشراع المزركش، ووقفوا ينتظرون متسائلين: تُرى من يختار الملك لمرافقته في الرحلة؟ ولكنّ الملك لم يلتفت وراءه. نزل إلى المركب وقال لرئيس النوتيّة:

– اِذهب إلى الضفّة الأخرى من النهر.

كانت الشمس على وشك المغيب عندما لاحت مدينة العبيد. ليس إلّا النخيل يتعالى نابشًا شعره بوجه السماء، وخلفه أكواخ متلاصقة هنا، متناثرة هناك، واطئة، لونها لون المساء الشاحب، وصامتة كصمته الكئيب...

أيكون العبيد أصنامًا؟

أيكون العبيد أمواتًا؟

وظلّ المركب يمخر بأمر الملك حتّى أشرف على الضفّة. فإذا جلبة تتعالى من وراء غيضة. ضحكات وهتافات وأغاريد لم تطرق سمع ملك الزمان في زمانه. فأشار إلى النوتيّة:

– حثيثًا! حثيثًا نحو الغيضة خلف منعرج النهر.

* * *

صبيّ وصبيّة عاريان، يستحمّان، يلعبان، يغرفان الطين ويتراشقان، يتراكضان بين اليابسة

والماء ، يتعاركان ، يتصايحان. تتباكى الصبيّة ، يتضاحك الصبيّ ، يغوص في النهر ، تغطس وراءه ، تنتصب باحثة عنه ، يمينًا شمالًا ، والمركب يقترب شمالًا إذا مالت ، ويمينًا إذا مالت. حتّى طلع وجهها السائل بالطين في وجه الملك.

سراجين لمعت عيناها في جبهة الليل ، وجمرتين اتّقدتا في قلب الملك فصاح بجماعته :

– جيئوني بالصبيّة !

وانثنى المركب عائدًا بالصبيّة إلى الضفّة التي جاء منها. فاندفع الصبيّ وراءه في النهر ، ينادي ويلوّح بذراعيه ، حتّى أدرك المركب وألقى بكفّه يريد الصعود إليه. فإذا بسوط يخدّ وجهه ، فانقلب إلى الماء ، وقد اصطبغ بدمه ، ثمّ خرج إلى الضفّة يركض كالمجنون.

كان الملك قد أضجع الصبيّة إلى جانبه ، وغطّى نصف عريها بطرف طيلسانه ، وانعطف يتأمّل في النصف الآخر ، يناوب ثوبه سترًا لجزء من جسمها وكشفًا عن جزء ، ثمّ يضحك في نفسه موقنًا أنّه وجد – أخيرًا – ما هو حريّ بقتل ضجره.

وسألها :

– ما اسمك ؟

كانت عيناها ما تزالان معلّقتين بعينيه ، فلم يجبه إلّا ذعرهما الأخرس.

وسألها ثانية :

– ما اسمك يا صبيّة ؟

فأغمضتهما. فتناول جدائلها ملء كفّه وسألها ثالثة :

– ما اسمك ؟ يقول لك ملك الزمان.

فسترت وجهها بيديها الاثنتين. بينما كانت الريح تحمل الصراخ من الضفّة الأخرى يشقّ صدر الليل ويصدع أضلاع المركب : «مارا ! مارا ! مارا ! ...».

* * *

أُسلمت مارا لدى وصولها إلى القصر إلى الماشطات ليهيّئنها للملك. فمشت خلفهنّ إلى الحمّام منكّسة الرأس ، مجلببة بعار الطين. وتنادت أميرات القصر ومحظيّاته يسترقن النظر من كوى الحمّام ويخنقن هتاف الفضيحة.

«لقد جُنّ الملك ياروت !» هكذا كنّ يقلن.

وأقسمن لا تغتسل لهنّ قدم في الحمّام الذي دنّسته بنت العبيد بعار طينها.

على أنّ مارا لم تلبث أن طلعت من الحمّام رافعة الرأس كما لم ترفع ملكة رأسها بمثل هذا الجلال. جدائلها على الكتفين آبنوس على عاج. وخلف غلالة الحرير ، التي يأمر بها الملك لليالي أعراسه ، كلّ بهاء القمر خلف السحاب.

ونهدان هما هذان ، أم حمامتان مذعورتان ؟ لكأنّهما تحاولان شقّ القميص. بل لقد انفرج عن إحداهما. فما من ذعر نهوضهما بل من تحدٍّ.

وتراجعت نساء القصر منبهرات ، يلملمن أطراف ثيابهنّ متعثّرات ، ويعضضن الأصابع.

وتقلّبن طول ليلهنّ على القهر ، يحلمن بالسرير الذي يستأثر ، دونهنّ ، بالحبّ...

وطلع الصباح أخيرًا. ولكن على غير ما حدّثت الظنون.

فما لياروت لم يجلس على عرشه ، ولم يستقبل أحدًا من رجاله ؟ صامت ، مقطّب ، يرفس الطعام ، يرمي الكأس بوجه من يقدّم إليه شرابًا ، يروح ويجيء كالنمر في قفص. حتّى حيّر القصر ومن فيه.

فلمّا كان المساء قالوا : لعلّ مع هذه الليلة فرجًا.

على أنّهم استفاقوا في اليوم الثاني على ما لم يعهدوه من الملك. رمى أوراق الدولة من النافذة عندما حملها إليه رئيس وزرائه.

وفي اليوم الثالث رمى رئيس الوزراء !

وفي الرابع حاول أن يرمي نفسه لولا أن بادر رئيس الخصيان فأمسك بتلابيبه.

وفي الخامس تشاورت رئيسة الماشطات مع مهرّج الملك. فأُقيمت بالاتّفاق بينهما ليلة ساهرة عامرة لتسلية

الملك ، عرض فيها المهرّج أبرع ألعابه ، وتوالت نساء القصر بعده على الرقص كاشفات عن محاسنهنّ ، متراميات على كتفَيِ الملك وفي حضنه وعلى قدميه. ولكنّ الملك أغفى طول السهرة. وعندما استفاق أمر النساء فعُلّقن بشعورهنّ في قبو القصر ، وبالمهرّج فصُلب على بابه...

أمّا ما حدث في الأيّام التالية فأمر ذاع في طول المملكة وعرضها وشاع : إنّ ياروت الملك مريض حبًّا. وفي مارا الطين شفاؤه ، وهي تأبى.

* * *

وفي كلّ يوم كان الملك يجثو أمام مارا ويسألها ماذا تريد :

– مال الدنيا؟

– كنوز الأرض؟

– العرش والتاج؟

ولكنّها كانت تجيبه :

– لا أريد مال الدنيا. لا أريد كنوز الأرض. لا أريد العرش والتاج.

مئة يوم بلياليها وهي لا تقول ما تريد. حتّى جُنَّ الملك وضجّت المملكة.

فأُمرت نساء القصر ونادين رئيسة الماشطات :

– إلامَ تدّخرين دهاءك؟ ألا ترين أنّ الملك ياروت يوشك أن يموت؟

فلمّا كان الليل دخلت رئيسة الماشطات على مارا ، والملك بالباب ينتظر – سهر طول الليل ينتظر – فلمّا طلع الصباح طلعت رئيسة الماشطات منكسفة. قالت :

– يا ملك الزمان ، في القبو المعتم تُلقى بنت العبيد ، وتُكبّل بأصفاد الحديد ، وكسرة خبز تُطرح لها كلّ يوم.

وعمل الملك بنصيحة رئيسة الماشطات. ألقى مارا في سجن نسائه ، تحت القصر ، في القبو المعتم حيث العظام والأشباح ، مع كسرة خبز تُطرح لها كلّ يوم ، كالكلاب. مئة يوم بلياليها.

فلمّا كان صباح اليوم الأوّل بعد المئة انتفضت مارا في أغلالها وقالت :

– خذوني إلى الملك.

فلمّا مثلت بين يديه قالت :

– شيئًا واحدًا أريد ، إذا أعطيتنيه أعطيك حبّي.

فهتف ياروت وقد رُدّت إليه الروح :

– قولي ، هو لك ، ولو كان نصف مملكتي.

قالت :

– تصنع لي حمّامًا أغتسل فيه ، بالطيب والعنبر وماء الورد تملأه ، وبدموع الباكين في الأرض تجعله يطفح.

ومن غد اشتغلت الدولة بأمر ياروت.

مئة يوم بلياليها اشتغلوا حتّى صنعوا لمارا ، كما أمر الملك فوق ما تشهّت عليه ، حمّامًا من المرمر والعاج نحتوه ، وبالفيروز والياقوت رصّعوه ، وبالذهب الإبريز طلوا حواشيه. وجاءت قوارير الطيب والعنبر من أربعة أطراف المملكة جمالًا محمّلة ، وعصرت كلّ الجنائن ورودها ، ولم يبقَ إلّا الدموع. فسأل الملك :

– من أين نأتي بها؟

قالت مارا :

– إنّ العبيد في مدينتي يبكون دموعهم هدرًا. قُل لجندك يعبّئوا منها جرارًا.

ركب الجند أسطول الملك إلى الضفّة الأخرى ، وانطلقوا بين أكواخ العبيد يجبون الدموع. كانوا يحارون أين يتوجّهون ، فالبكاء عند كلّ باب وتحت كلّ سقف. ولكنّهم ، مع كثرة الباكين ، لم يستطيعوا أن يملأوا جرارهم. فلمّا عادوا قالت مارا للملك :

– أريد أن يطفح حمّامي بالدموع.

قالوا :

– طفنا على الثكالى والأيتام ، ولم ندع جائعًا ولا محرومًا ولا ابن سبيل.

قالت :

– أهلي أغنى بالدموع ممّا تظنّون. أنا أعرف أهلي كم يبكون. اِذهبوا واملأوا لي جراركم.

وعاد الجند في المساء وقالوا :

– روّعنا العذارى. نهرنا الأطفال. أتلفنا الزرع والضرع. وأخذنا حتّى من الرجال ما يخبّئونه تحت لُحفهم من دموع.

قالت مارا :

– اِحملوا السياط واستقطروا بها ما تعبّئون به جراركم !

قالوا :

– فعلنا. حتّى شرعت العيون تقطر بدل الدمع دمًا. هل نملأ جرارنا بالدم؟

فاستضحكت في وجه الملك وقالت :

– ألوّن به حمّامي أحمر كالشمس في المغيب، وأطلع منه مثلها في الشروق.

ثمّ عادت إلى جناحها في القصر بعد أن أوصت : لا يطرق أحد بابها إلّا في المساء، للحمّام الذي يمتلئ بالطيب والعنبر وماء الورد، ويطفح بدموع الباكين في الأرض.

* * *

تسلّق الملك أبراج قصره وقضى نهاره راصدًا الضفّة الأخرى من النهر، منتظرًا أن يعود جنده من مدينة العبيد. وكان يناجي نفسه : الليلة تغتسل مارا في حمّامها وتخرج منه آتية إليّ، حافية إلّا من الشوق، عارية إلّا من الأريج...

وأدغش المساء وجباة الدموع لم يعودوا، وياروت من أعالي القصر يحدّق إلى النهر، فلا يرى أحدًا ولا يسمع حسًّا.

وفجأة طلع إليه رئيس الكهنة ملهوفًا. صاح والزبد يتدفّق على لحيته :

– اُنظر يا ملك الزمان.

فنظر الملك فإذا جرّة مكسورة يرشح منها سائل مريب.

وتابع رئيس الكهنة لاهثًا :

– عاد بها جنديّ هاربًا. قال إنّ العبيد يكسرون الجرار على رؤوس الجند ويقتلونهم، وهم يتهيّأون للزحف على أسطول الملك إلى القصر بزعامة فتى منهم قد نادوا به ملك الضفّتين – هكذا قال الجنديّ – ومعه شاعر الملك إيّاه – يخطب فيهم داعيًا إلى حمّام الدم !

هاكهم، أيّها الملك، قد أقبلوا. ألا ترى مشاعلهم تضيء السماء؟ علينا بالنجاة !

وانقلب رئيس الكهنة متعثّرًا ببقايا الجرّة، بينما كان الملك يبادر الجناح الملاصق لجناحه ويدفع الباب :

– مارا ! مارا ! مارا !

ولكن الجناح كان مقفرًا...

– مارا ! مارا ! أين مارا ؟

وشهر الملك سيفه وصرخ بصوت كالرعد مناديًا رئيس الخصيان، فأقبل منكّس الرأس، ووقع جاثيًا على قدمي الملك :

– اِقطع رأسي يا مولاي. في الليل خرجت مارا إلى حديقة القصر لتلاقيك على نزهة في ضوء القمر. هكذا قالت لي. وفي ضوء القمر رأيت شبحًا يلاقيها من صوب جناحك وعليه عباءتك.

– عباءتي التي خلعتها على هذا الشاعر الملعون بعد قصيدته فيها وفيّ !...

وأراد رئيس الخصيان أن يكمل، فلم يدعه الملك وأهوى عليه بالسيف فقطع رأسه.

* * *

على الضفّة الأخرى كان الخلق يتراحمون على المراكب رجالًا ونساء، شيوخًا وأطفالًا. يتنادون من الأكواخ البعيدة والأزقّة المعتمة. يرفعون عكاكيزهم رماحًا، وحناجرهم أبواقًا، وأسمالهم رايات.

وبدل الدموع في عيونهم ثارات مشعّة.

وعندما عزم المركب الأخير على الإقلاع ملتحقًا بالزحف الكبير لم يبقَ على الضفّة إلّا فتاة تغطّي وجهها بإزار أسود.

قالت: بل أبقى هنا.

ولم يكد المركب الأخير يذهب في النهر حتّى زاحت طرف الإزار عن محيّاها ووقفت ترافق ببصرها الحدث العظيم.

المشاعل تنبئ بنزولهم إلى الضفّة الأخرى.

تتراكض كالنجوم انفرطت من عقودها.

تتلاقى وتتباعد.

تعود إلى التجمّع والتطلّع.

تقتحم القصر، تتسلّق الأسوار.

تطلّ من فوق الأبراج.

تمرج في نيران تلتهم أسافل القصر وأعاليه، فهو المشعل الأكبر الباهر الأرض والسماء.

وأحسّت مارا اللهيب في خدّيها. في عنقها. في ساقيها. أهو من حريق القصر، أم من حريق صميمها؟ كلّ ما تدري أنّه لهيب حلو وأنّه يدعوها إلى الابتراد.

أليست تلك ليلة الحمّام الموعودة؟

وطافت بها قدماها ذهابًا وإيابًا على الشطّ، وعيناها تتردّدان بين القصر وموطئ هاتين القدمين الحافيتين منذ الصباح، كعهدهما قبل أن تنتقل إلى مدينة الأسياد. كعهدهما كلّ صباح وكلّ مساء أيّام كانت تأتي صبيّة مع ذلك الصبيّ يغتسلان في النهر ويتراشقان بالطين.

حتّى إذا وصلت إلى المكان، إيّاه، وقفت.

دقيقة طويلة وقفت. دقيقة وسعت العمر.

ثمّ مدّت بيديها الاثنتين إلى إزارها وشقّته من النحر، وارتمت تمرّغ نهديها العاريين بالطين. تدفن وجهها بالطين. تقضم بأسنانها الطين.

فلمّا قضت من ذلك مأربًا انتصبت من جديد بوجه القصر.

كانت نيرانه تنعكس على النهر نهرًا آخر من نور. جسرًا متألّقًا يصل بين الضفّتين والمدينتين، ويدعوها إلى العبور.

ولكنّها قبل أن تخطو إليه انحنت مرّة أخرى، فتناولت ملء كفّيها طينًا، فشدّت عليه بأصابعها من هنا ومن هنا، وأغمضت عينيها ومشت.

منتصبة تمشي على الجسر المسحور، قدماها تغوصان في رمال النهر وعيناها معلّقتان بنيران القصر. تلهب النيران عينيها. تهرب الرمال تحت قدميها. وهي ماضية. ماضية. ماضية.

حتّى غرقت في الشعاع.

حنّا الفانوس

كان جاري. وكان اسمه حنّا الفانوس. وللجيرة بيننا قصّة عجيبة، بانتظار قصّته مع فانوسه وهي أعجب.

يرجع ذلك إلى التاريخ الذي اشتريت فيه من رهبان دير الشرخ «عودة بو حنّا» لأبني فيها بيتي الصيفيّ. لقطة. بأسعار الحرب أخذتها. في الحروب، كما تعلمون، يرخص شيئان: الأراضي والأرواح.

والرهبان الذين يغفرون خطايا العالم كلّ يوم لا يغفرون لرئيسهم حتّى اليوم أنّه باعني عودة بو حنّا بتراب الفلوس. وأذكر أنّه أفادني، وهو يعدّها، أنّ العودة، في زمان الحرير في لبنان، كانت تعني القطعة من الأرض المزروعة توتًا، يقوم عليها فلّاح من قِبل المالك هو الشريك، وأنّ الشريك لذلك الزمان كان اسمه بو حنّا. وكان بو حنّا يعيش مع أمّ حنّا وحنّا والبقرة، والقزّات لموسمها، في مراح هو عبارة عن قبو ما يزال قائمًا في طرف العودة.

وزاد، رحمه الله، تبرئة للذمّة، أنّه يبيعني العودة على عيبها. يعني مع حنّا الذي يأبى أن يترك القبو.

بعد التوقيع على العقد ذهبت إلى عودتي أتعرّف إلى حدودها برفقة رئيس الدير، مستمتعًا في سرّي بالغنيمة التي غنمتها، متشوّقًا للقاء صاحبي حنّا بفضول يخالطه الكثير من النقمة. فإذا حنّا يخرج من القبو – هذا هو بلا شكّ – بقمباز ممزّق وعينين محملقتين، وبيده فانوس يضعه في وجهي ويسألني مَن حضرتي وماذا أريد.

– أنا صاحب هذه الأرض. اِشتريتها من حضرة رئيس الدير.

قال:

– أيّ أرض؟

فاستعنت برئيس الدير، ففسّر له. فدفع فانوسه في ذقن المحترم وصاح:

– أنت، ما علينا، أعمى. من أين وقعت على أعمى أكثر منك لتبيعه القبو مع العودة؟

وعاد إليّ بفانوسه يلوّح به ويتفرّس بي على ضوئه. أيّ ضوء؟ الفانوس لم يعرف الزيت، كما قال لي رئيس الدير، منذ ماتت أمّ حنّا.

لا أخفيكم أنّ الأمر ضايقني، ولعلّ حنّا أحسّ أخيرًا بزوغان عينيّ فانقطع عن رسم دوائره ليرسم بعدها علامة الصليب عليّ – دائمًا بفانوسه المطفأ – مسبلًا أجفانه ومتمتمًا بكلمات غير مفهومة.

ثمّ انقلب بفانوسه إلى القبو وهو يردّد مقهقهًا:

– قال هو صاحب الأرض! قال هو صاحب الأرض!

وأخبرني رئيس الدير أنّ حنّا من العاملين بالآية «الملك لله» – بحذافيرها –. فمرّة قال له: «تفضّل، يا

محترم ، وأبرز لي وكالتك عن الله ! » وتساهل : « أقبل إمضاء أيّ واحد من الثلاثة : الآب ، أو الابن ، أو الروح القدس » .

وإلّا فليبع رئيس الدير العودة لمن يشاء . هو لن يترك القبو .

تتصوّرون غصّتي في تلك الساعة وغضبي . البائع شاهد ، وصكّ الملكيّة في جيبي ، وأنا قاض أحكم بالقانون بين الناس . وهذا معناه في القانون غصب أملاك الغير . فما على حنّا إلّا أن يخلي القبو ، وإلّا أخليته منه بالقوّة وكسرت فانوسه على رأسه ! ...

لا لزوم أن أقول لكم إنّ حنّا كان بعد شهر في العصفوريّة . فإثبات الجنون عليه كان أهون الهيّنات . وعلى الأثر علت أصوات المعاول والمطارق في العودة لبناء بيتي المنشود ، وذلك على تلّة غير بعيدة من القبو . وهممت بهدم ذلك القبو العتيق ، الأدكن ، ولكنّ رئيس الفعَلة كان رجلًا حكيمًا . قال لي :

— بل الخير في تركه . نضع فيه العدّة من الآن إلى أن نفرغ من البناء . ومن يدري ؟ قد تحتاج إليه في المستقبل لدجاجاتك . أمّا هذا الفانوس ...

ورفع يده إلى القنطرة يريد أن يطرح الفانوس في الوادي فتداركته :

— ونترك الفانوس مكانه .

* * *

في اليوم الذي تمّ فيه بناء بيتي أقمت عيدًا ، ودعوت أصحابي إلى مائدة عامرة في الحديقة . وشربت حتّى استخفّني الطرب . وما شأن الوقار في ذلك اليوم ، فقد كان بيتي الجديد رائعًا ، وللطرب حقّه حتّى على القضاة في أوقاتهم .

الخلاصة سكرت . ورحت أطرف الأصحاب بحديث حنّا وفانوسه . وأبيت ، في تعتعتي ، إلّا أن أقوم إلى الفانوس فأنزله عن قنطرة القبو ، وأضعه وسط المائدة أدقّ به كأسي ، وأدعو الأصحاب إلى دقّ كؤوسهم ...

اِستمرّ العيد طول النهار . وطول الليل ظللت أحلم ببيتي . واختلطت عليّ الأحلام بفعل السكر اختلاطًا عجيبًا . منها أنّ الفانوس قد عاد إلى مكانه في القنطرة ، وهو يروح ويجيء كالأرجوحة ، وله في الليل أضواء باهرة تدخل عليّ من النوافذ . ولكنّي لم ألبث أن قلت : فانوس حنّا لم يعرف الزيت منذ ماتت أمّ حنّا ، وبيدي وضعته على الطاولة وتركته . إنّه حلم . أو هو من رؤى السكر .

وفركت عينيّ بكلتا يدي ، ونظرت فلم أرَ إلّا الظلام ، فضحكت وغطّيت رأسي باللحاف .

على أنّ الصباح لم يكد يطلع حتّى رأيت حنّا بلحمه ودمه على سطح القبو ، والفانوس بيده يرفعه إلى الشمس ، وباليد الأخرى يهيل من الفضاء شيئًا كأنّه يحلب بقرة .

حنّا يزيّت فانوسه .

أجل . لأنّ حنّا كان يعبّئ فانوسه من أشعّة الشمس . الضيعة كلّها تعرف ذلك وتتندّر به . وحينما رفعت شركة الكهرباء أسعارها تذكّر الفقراء فانوس حنّا ، وتذكّره كذلك البخلاء من الأغنياء . لم يكلّفه في زمانه زيتًا ولا كازًا ولا كهرباء ...

قدّرتم ولا شكّ ما حصل . هرب حنّا من العصفوريّة .

« سأعيده على عقبيه من حيث أتى ! » هكذا صرخت عاليًا وأنا أحزم تكّتي متهيّئًا له : فإذا به يسبقني إلى باب بيتي والفانوس بيده ويقول لي بمنتهى اللطف :

— أهلًا بالجار . جئت أهنّئك ببيتك الجديد .

اِنحلّ ما كان من حزمي وعزمي ، وملت إلى المزاح :

— أين كنت يا حنّا ، طوّلت الغيبة .

— في سياحة عظيمة ! عظيمة ! وأشكرك على التذكرة .

ولمّا سألته ، خانقًا ضحكتي ، أين كانت سياحته قال :

– بعثني ، ولا تعرف؟ صدّقني ، في مدينة المجانين لم أجد واحدًا أعمى ، عدا الأطبّاء طبعًا. لذلك تركت العصفوريّة. لا شغل لي فيها. شغلي مع العميان هنا. ولذلك عدت وحملت فانوسي من جديد.

دعوت حنّا إلى تناول شيء ، فقد كانت بقايا الطعام كثيرة. فلم يكتمني أنّه جائع فأكل. ثمّ تناول فانوسه عن العتبة وودّعني :

– لا تحمل كلفة ، قال ، أيّ خدمة.

وأشار صوب القبو :

– الجار للجار.

* * *

أعلم جيّدًا أنّ الرهبان كانوا يضحكون في ديرهم. يفركون لحاهم ويقولون شامتين بي :

– قلع توتات العودة وحنّا لم يستطع قلعه. وعاد حنّا يضع فانوسه هذه المرّة في قفاه!

الواقع أنّني عدلت من تلقاء نفسي عن طرد حنّا من القبو وأنست بفانوسه ، وليضعه أينما شاء! تسألونني عن القفا – جلّ شأنكم – إليكم البيان : حنّا ، بعد هربه من العصفوريّة وعودته إلى الضيعة ، خطر له أن يكمل خطّته. كان من قبل يضع فانوسه في وجوه الناس فأصبح يضعه في أقفيتهم أيضًا.

فسّر لي :

– العمى اثنان. واحد من الأمام ، وآخر من الوراء. وربّما كان الذي من الوراء أعظم.

على أنّني أطمّن الرهبان. حنّا يعدّني في المبصرين من الجهتين. أكّد لي ذلك منذ تركته يعود إلى القبو. قلت : ما أخسر؟ يتعهّد جنينة التفّاح التي قامت في العودة حوالى البيت. يسقي الزهور على الفيراندا. يشتري لي حوائجي من الدكّان. يقوم على خدمتي طول الصيف ، وفي الشتاء ناطور على بيتي بالمجّان. ولكنّي لا أنسى الغلطة التي ارتكبتها حينما عرضت عليه أجرًا.

رفع فانوسه وصاح بي :

– عدنا إلى العمى؟ إختر. من أين تريد أن أضعه لك؟

فنجوت بنفسي ، وحلفت لا أعود لمثلها.

بلى. رضي حنّا – أقصى ما أقنعته به – أن أدفع عنه حسابه كلّ شهر في دكّان الضيعة. وانعقدت بيننا صداقة حميمة...

قلت له ذات مساء وهو قاعد أمامي على العتبة :

– قُل لي ، يا حنّا ، لماذا تعلّق فانوسك بالقنطرة؟

– أنتظر.

– من؟

– ضيوف الليل.

ولمّا سألته أن يذكر لي بعضهم ، لعلّي أعرف أحدًا منهم ، قال :

– كلّهم. كلّ الذين أعطوك عمرهم من أهل الضيعة. يزورونني كلّ مساء ، ومعهم بو حنّا وأمّ حنّا. يسهرون كلّ ليلة عندي.

مرّة قامت قيامة الضيعة على حنّا. فقد فاجأه أحدهم في المقبرة ، ليلًا ، يحمل فانوسه ويدور به. وكان بو خليل قد مات ودُفن في اليوم السابق ، فعاد الرجل إلى الضيعة يوقظ أمّ خليل وأولادها ويقول لهم إنّ حنّا الفانوس يحاول فتح تابوت بو خليل لسرقة خاتم الذهب الذي في إصبعه. فشمّروا إلى المقبرة فوجدوا التابوت على حاله.

قلت لحنّا :

– ماذا كنت تعمل في المقبرة؟

قال :

– سمعت أولاد بو خليل يتخانقون في الليل ، بعد خروج المعزّين ، على تركة المرحوم. ورأيت أمّ خليل قاعدة تنظر إلى الطعام حزينة ولا تأكل. قلت : أذهب وأطلب من بو خليل أن يأتي ويصلح بين أولاده. فضلًا عن أنّ أمّ خليل تنتظره على العشاء.

وبعد سكوت تضاحك بمرارة :

– الخاتم! الخاتم! تريد أن أقول لك أين خاتم

الذهب؟ لمّا أدار المشيّعون أقفيتهم بعد الدفن كان حفّار القبور يشيل الخاتم من إصبع بو خليل ويدسّه في جيبه. وتسألني لماذا أضع فانوسي في أقفية الناس؟

ومرّة اختلف حنّا مع مختار الضيعة.

كان للمختار ولد مدلّع يتزعّم أولاد الضيعة ويحملهم على اللحاق بحنّا في الطريق والدقّ له بالتنك منادين:

— حنّا الفانوس! حنّا الفانوس!

فذهب حنّا إلى المختار وطلب منه أن يربّي ابنه الأزعر. فما كان من زوجة المختار إلّا أن نترت الفانوس من يد حنّا وقذفته على الدرج ضاربة الباب بوجهه. فلمّ حنّا فانوسه وراح، لم يقل شيئًا.

في الصباح أفاق الجيران على حنّا واقفًا بفانوسه على سطح بيت المختار يلوّح به في الفضاء ويرفعه مدى ذراعيه. فأخذوا يتنادون وينظرون إليه متسائلين عن مغزى هذا الضرب الذي ينتقم به حنّا من المختار، لأنّهم كانوا قد عرفوا بالحادث. وأحسّ المختار بالتجمهر حول بيته، ورأى الأصابع تشير إلى السطح فبادر الصعود إليه، وما كاد حتّى كان حنّا قد قفز إلى الجلّ بفانوسه وأطلق ساقيه للريح.

وسألوا حنّا لماذا كان يلوّح بفانوسه هكذا على سطح بيت المختار، فقال:

— لكي يرى أهل الضيعة القرون التي أطلعتها له زوجته وقدحت السقف!

وثالثة، فضيحة.

وصل خبرها إلى الجرائد في بيروت. ولكنّها اكتفت بذكر الأحرف الأولى من أسماء الشخصيّات. رجال دنيا ودين من أعلى الطبقات. وسياسة وانتخابات. إلخ.

خلاصتها أنّ نائب المنطقة أبدى رغبته في زيارة الضيعة يوم عيد مار شلّيطا، عليه السلام، وهو شفيعها، واتّفق مع مطران الأبرشيّة على ملاقاته. فجاء المطران في العيد وأقام قدّاسًا صارخًا تصدّر النائب فيه الحضور — ومنهم المختار والجاويش والوجهاء — على كرسيّ مخمليّ أركزه له القندلفت بوجه المذبح.

أين كان حنّا؟ كيف دخل حنّا؟ لا أحد يعرف. لم يرَوه إلّا وهو على درج المذبح ينحني ثمّ يضع فانوسه في قفا صاحب السيادة الكلّيّ الاحترام.

فضيحة، قلت لكم، أعجز عن وصفها.

نام حنّا في القرغول تلك الليلة وسلخوا جلده من كثرة الضرب. ولولاي لتخّت عظامه في الحبس. لأنّ المطران لم يكن يصدّق أنّ حنّا مجنون. حنّا قال في القرغول إنّ نيّته طيّبة. فهو لم يقصد الهزء من المطران — معاذ الله! — ولكنّه أراد أن ينبّه سيادته إلى أنّ حضرة النائب وراءه يضحك عليه. فهو، أي النائب، قد تناول القربان المقدّس على ألف كذبة وكذبة في بطنه.

* * *

ماذا أحكي لكم أيضًا من أخبار حنّا الفانوس؟

ذات مساء دعوته إلى العشاء معي على الفيراندا. قلت:

— تعرف، يا حنّا، ديوجين؟

قال:

— من حضرته بالخير؟

فقمت إلى القاموس أقرأ له. فجعل يصغي وهو يقلب شفتيه ويردّد «ما شاء الله! ما شاء الله!» باستخفاف عظيم. وأنا ماضٍ في القراءة. فلمّا انتهيت قلت:

— ما رأيك بصاحبك؟ ممكن أن تكون من نسله.

فدوّر فيّ عينيه:

— أنا؟ أنا حنّا بن شعيا بن بطرس بن مرقص بن قزحيّا... إرجع معي حتّى تصل إلى حنّا الأوّل المشهور، المذكور في تاريخ الدويهي.

نسيت أن أقول لكم إن حنّا يقرأ ويكتب. وعنده من الكتب توراة كبيرة تزن ثلاثة كيلوات، و«ميزان

الزمان» و«تاريخ الأعيان في جبل لبنان» وغيرها كثير.

ثمّ هزّ برأسه:

– مَن ديوجين وما فلسفته؟ قضى حياته يفتّش عن رجل؟ الرجال أكثر من الهمّ على القلب. الإسكندر الذي قال له صاحبك قُم من شمسي، أما كان رجلاً؟ النابليون، أما كان رجلاً؟ المير بشير المالطي... أعدّ لك الألوف من الرجال. ولكن دلّني على واحد، واحد منهم لم يهرس بقدميه البشر؟ واحد، يعني غير أعمى، لم يعتقد أنّه ملك أو سيملك الأرض. عميان. كلّهم عميان. أما رأوا أنّ الأرض ليست ملكهم وإنّما هم ملكها؟ لا. لا. لست من نسل ديوجينك ولا أتعرّف عليه. إلّا إذا كنت فتحت لي سيرته، ودعمتها بقاموسك، عن قصد: أن أترك لك القبو وأعيش كما عاش هو.

واحمرّت عينا حنّا بالشرّ، وحمل فانوسه للانصراف. وعند الباب أدار وجهه إليّ:

– طمّن بالك. حنّا الفانوس أذكى من أن يعيش كصاحبك في برميل زبالة على الطريق!

* * *

– لماذا لا تجد لك بنت حلال، يا حنّا، وتتزوّج؟

طرحت عليه السؤال مرارًا، فكان دائمًا يداورني ويغيّر الموضوع. حتّى حشرته ذات يوم فأمسكته من قبازه وقلت له:

– ترفأ لك هذا القمباز الممزّق على الأقلّ؟

– من؟

– امرأة تكون شريكة حياتك.

فنظر إليّ طويلًا:

– تتكلّم عن جدّ؟

– طبعًا. أتريد أن أختار لك عروسًا؟

– كثّر الله خيرك. لا.

– لماذا؟ الذين يتزوّجون أحسن منك؟

– عميان.

وأدار لي ظهره متابعًا:

– وأنت أكثر عمى منهم. ضيعان أملي فيك.

– بل تقول لي لماذا لا تتزوّج؟

فانتصب بوجهي متحدّيًا:

– إكرامًا لك قبل كلّ شيء. أيعجبك أن أقلقك في أنصاف الليالي على خناقاتنا أنا وامرأتي؟

– ليس من الضروريّ أن تتخانقا.

– عدنا إلى العمى؟

– والأولاد. ألا تحبّ الأولاد!

– أحبّهم في ساحة الكنيسة يلعبون. لا أحبّهم في البيت يملأونه بالصراخ، وإذ أموت يختلفون على التركة.

– إذن أنت لا تحبّ النساء.

– من قال لك ذلك؟ أحبّ كلّ النساء نكاية بك.

– كيف؟

– أقول أحبّ كلّ النساء لا واحدة. لأنّني إذا أحببت واحدة منعتني من حبّ البقيّة.

– يا ملعون!

وضربت بيدي على كتفه، فانفلت منّي يقول:

– ولكن الأهمّ من كلّ ذلك فانوسي. فانوسي.

– وما شأن امرأتك والفانوس؟

– إذا رأيت من الضروريّ، يومًا، أن أعلّقه لها من جهة ما؟

فخنقت ضحكة جاءتني، فيما كان حنّا يتابع:

– إسمع. أنا ما خفت منك حينما اشتريت العودة، ولا من رئيس الدير من قبلك، ولا من القضاة والأطبّاء والجندرمة الذين حلفوا كلّهم أن يفعلوا بي كذا وكيتَ وعجزوا. مخلوق واحد تحت السماء أخاف منه.

– من؟

– إمرأتي، أن تكسر الفانوس على رأسي!

* * *

كنت أتوقّع من حنّا كلّ شيء إلّا أن يعمل ما عمله في النهاية معي ومع فانوسه.

ففي صباح يوم شامس من هذا الشتاء خطر لي أن أصعد إلى الضيعة وأتنشّق الهواء النقيّ. قلت : وأسمع إلى أخبار حنّا وفانوسه ، فقد اشتقت. ولمّا وصلت إلى عتبة البيت درت ، قبل أن أدخل ، صوب القبو وناديته على عادتي ، ليأتي ويستقبلني على عادته. فلم يجبني أحد. ثمّ انتبهت إلى أنّ الفانوس غير معلّق بالقنطرة ، فقلت : حنّا في بعض مهمّاته في الضيعة مع فانوسه. وانحنيت إلى الممسحة أمام الباب ورفعتها فوجدت مفتاح البيت في الموضع المتّفق عليه بيني وبين حنّا إذا غاب. ولكنّي وجدت مع المفتاح ورقة مثقوبة من طرفها ومربوطة بعنقه بخيط مصّيص. فتناولتها فإذا فيها بخطّه المفرطح :

«بخاطرك. لا تؤجّر القبو. ربِّ فيه خنازير»

الإمضاء : «حنّا بلا فانوس»

دار رأسي ولم أفهم شيئًا. فانطلقت أسأل في الضيعة. فقيل لي :

– أما عرفت؟ حنّا تزوّج. راح خطيفة مع دلّول ابنة الفرّان.

كنت أسمع بدلّول على ألسنة الخبثاء. يقولون إنّها تنزل إلى بيروت دون علم أبيها وأمّها ، وتتغيّب ليالي عند خالتها التي تشتغل في أوتيل على ساحة البرج. وأبوها لا يريد. في المرّة الأخيرة هدّد بوضعها في الفرن ، وسط النار ، ليتخلّص منها ومن حكي الناس. ولكنّ أمّ دلّول ردّت زوجها عن ابنته وقالت له :

– رُح لفرنك. هذا شغلي.

واختلت بها في البيت. الجيران سمعوا شهقات دلّول وسمعوا أمّها تقول لها : «أُسكتي! أُسكتي!» وإذا بها ، بعد قليل ، تفتح الباب وتصيح على مدى صوتها حتّى يسمع الجيران :

– تريدين أن تتزوّجي حنّا؟ يقبر عيونك وعيونه! مبروك عليك! ولكن قولي لي ما دِخل خالتك في إقناع أبيك؟ أما عندك أمّ؟

وأخبرني الخبثاء عن دلّول أشياء – لهم الله! – منها أنّها حبلى. ولكنّ كلّ ذلك لا يهمّني. ما همّني أنّ حنّا تزوّج. خطفته دلّول بمعاونة أمّها وأصحاب المروءة من الشباب.

وزادوا :

– دلّول تركته القمباز ولبّسته البنطلون الإفرنجيّ. وهو يعيش معها عند خالتها في الأوتيل على ساحة البرج ، ولم يطلع إلى الضيعة إلّا مرّة واحدة.

* * *

قلت لكم لم أكن أنتظر من حنّا أن يعمل بنفسه ما عمل. أمّا ما عمله معي فيجب الاعتراف أنّه كان غاية في اللياقة والأمانة.

بقي الفانوس.

لماذا وقّع حنّا ذلك التوقيع وأين فانوسه؟

وقصدت من فوري إلى القبو أطوف بزواياه وأفتّش على رفوفه ، فلم أجد شيئًا.

وفيما أنا خارج انكسر تحت قدمي شيء مثل الزجاج. فانحنيت فإذا شظايا مبعثرة يغطّيها التراب. حطام الفانوس ما في ذلك ريب.

ولكن من حطّمه يا تُرى؟

دلّول لخلاصها منه؟

أم حنّا على سبيل الاحتياط لسلامة رأسه؟

لم أرَ وجهًا لحنّا ، مذ ذاك ، لأعرف الحقيقة.

أدلّاء الآثار في كلّ بلاد العالم نسل واحد. نسل الذكاء والدهاء، والرواية والتأليف، والظرف على كلّ حال. وإذا كانوا يعرفون التاريخ، أو الزاوية التي يرتزقون فيها منه، فإنّ معرفتهم بالناس، وهم يسوقونهم كلّ يوم كما يسوق الرعيان قطعانهم، أعظم وأعجب. وغالبًا ما يلعبون بالناس وعقولهم لعبهم بالتاريخ وأربابه. لهم في ذلك لذّة ساديّة.

ساتوصن يزيد عليهم أنّه يابانيّ.

يعني، أوّلًا، أنّه لا يتكلّم بلسانه المتعدّد اللغات فقط، بل أيضا بعينيه الصغيرتين، المبطّنتين، الطافيتين في صحن وجهه كحبّتي زيتون. ثانيًا أنّه يضحك دائمًا على وزن «ولكنّه ضحك كالبكا». فاليابانيّون يولدون باكين ضاحكين، ويعيشون ضاحكين باكين، ويموتون بين بين. ما استطاع أحد أن يعرف أيضحكون هم في ذقون الناس والآلهة أم يبكون.

اِصطحبت ساتوصن، طول سياحتي في بلاد الشمس المشرقة، لكلامه الحلو، وجعبة له لا تنفد غرائبها. ويشهد الله، لقد عدت من تلك البلاد بأشياء حيّرت عقلي، لا أعلم، كلّما فكّرت فيها، أيّها من جعبة دليلي التي كان يُطلع منها ما يطلعه الساحر من كيسه، وأيّها من جعبة اليابان التي تسع الأرض والسماء.

كلّ ما أعلم أنّني كنت مجذوبًا، مأخوذًا إلى عالم آخر، محمولًا بين الحسّ والوهم، والحقيقة والخيال. وبين الحاضر والغائب، والضحك والبكاء.

* * *

ذات يوم نهضنا مبكّرين أنا وساتوصن، وانطلقنا بسيّارتنا دون أن أسأل إلى أين. وكنّا قد قضينا ليلتنا في فندق ريفيّ هادئ، بعد أن شاهدنا في النهار طائفة من الهياكل، وطفنا بعشرات الأنصاب، وتعرّفنا إلى عدد لا يُحصى من الآلهة.

عن هذه الآلهة المنتشرة في كلّ مكان حدّثني دليلي حديثًا عجبًا. فهي تختلف عن الآلهة التي عرفها البشر. آلهة اليابان، مثلًا، لا تتجبّر. ولا تتستّر. تعيش معهم بإلفة ورفع كلفة. هي هنا، على التلّة وفي الوادي. خلف الشجرة والصخرة والنبعة. في زاوية الطريق وعلى عتبة البيت. حتّى الحجر إله. والماء إله. وكلّ جذع، أخضر أو يابس، إله. وكذلك الجبل إله، والريح والسحاب والرعد، مرورًا بالورود والقرود، والسلاحف والفراشات.

قال ساتوصن:

– ذلك أنّ اليابان نفسها إلهيّة. ألم تنبثق من الرمح الذي غمسه إيزناكي في المحيط؟

ثمّ أردف :

– وآلهتنا ، يا سيّدي ، يتزوّجون وينجبون أولادًا. ذاهبان أنا وأنت الآن لزيارة إيزناكي – صاحب الرمح – وزوجته إيزنامي والدَي أميتراسو إلهة الشمس وجدّة الميكادو.

كنّا قد دخلنا فوتامينو أورو ، المدينة الخشبيّة ، المتواضعة ، المتّكئة على سفح بجانب البحر. وبعد أن سلكنا في طرقها الضيّقة ، المتعرّجة ، وصلنا إلى فسحة. فأشار ساتوصن فتوقّفنا وترجّلنا من السيّارة. ثمّ مشى أمامي في منعطف بين الأشجار ، وإذا نحن أمام باب في العراء – عارضتين كبيرتين مع ثالثة فوقها مطنّفة على الميلين – وناس يتوقّفون عند هذا الباب وينحنون وكأنّهم يعالجون أقدامهم.

قال ساتوصن مفسّرًا :

– نخلع أحذيتنا. فالمكان مقدّس.

لم يكن بدّ من التزام المراسم. على أنّ الجماعة لا يمشون حفاة بل يبدلون من أحذيتهم أخفافًا نظيفة ، زاهية الألوان ، مصفوفة على دكّة بجانب الباب. فاقتدينا بهم وسرنا وراءهم. وأخبرني ساتوصن أنّهم زوّار جاؤوا كما جئنا. وكان عددهم يتزايد شيئًا فشيئًا ، لا يتحرّج خشوعهم بالسندويش ، ولا يجد بأسًا بالكوكا كولا.

قال دليلي :

– على هذا الدرب الدهريّ سار قبلنا الملايين وسيسير بعدنا الملايين. إنّه حجّ الحبّ المقدّس.

ثمّ أضاف مبتسمًا ابتسامته :

– إيزناكي وإيزنامي هما إلها الأمانة الزوجيّة. ولذلك ترى الزوّار أزواجًا ، في الغالب ، يأتون من أطراف اليابان ، حتّى إذا وصلوا إلى هنا أكبّوا على أقدام إيزناكي وإيزنامي يضعون قلوبهم ، وينذرون النذور...

فقاطعته ساخرًا :

– حبًّا إلى الأبد ، أليس كذلك؟ وإخلاصًا ووفاء وأمانة حتّى الموت !

فحدّجني ساتوصن بطرف عينيه وبقي ساكتًا. ثمّ أشار بيده أن «انتظرني قليلًا» ، وتركني كأنّه يتهرّب من الجواب ، أو يذهب لجلبه من الدكّان.

رأيته يتّجه ، فعلًا ، إلى دكّان من هذه الدكاكين التي تصطفّ على مدخل كلّ مزار لبيع التذكارات السياحيّة : صورًا ودمى وعلبًا وصَدَفًا وقصبًا ، وأيّ شيء يزوّقه لك اليابانيّ.

على أنّي ، وقد لحقت به ، لم ألبث أن وقفت مشدوهًا. فالبضاعة المكدّسة في ذلك الدكّان – بخلاف الدكاكين الأخرى – كلّها من صنف واحد :

مرايا.

مرايا من كلّ حجم وشكل.

مرايا كبيرة وصغيرة.

مرايا مربّعة. مرايا مدوّرة. بيضويّة. مستطيلة. مسدّسة.

مرايا بأطُر زاهية وأخرى عاطلة عارية.

معلّقة بالحيطان.

مدلّاة من السقف.

تتقابل. تتدابر. تتوارب.

تتراقص عليها أشعّة الشمس.

تطلع لك كيفما التفتّ.

ويطلع منها رأسك مضروبًا بالعشرات...

ودون أيّ سؤال وجواب اشترى لي ساتوصن واحدة منها ودفعها إليّ مع قوله :

– اِحتفظ بهذه المرآة. إنّها ثمينة.

* * *

واستأنفنا سيرنا. فجعلت أقلّب المرآة وأقلّب شفتيّ. كيف تكون هذه القطعة الحقيرة من الزجاج المموّه ثمينة؟ ولكنّي ما أحببت أن أجرح شعور صاحبي ، فوضعتها في جيبي ، وهممت بمحفظة نقودي ، فردّني بلطف من يده :

– إسمح لي بهذه الهديّة. تعلم أنّ المرآة من شعارات الميكادو. هو الأمين على مرآة ياماتو، روح اليابان، كابرًا عن كابر. هي من أعظم شعاراتنا وأعزّها. ثمنها ليس مهمًّا. ولا يهمّ الشكل ولا الحجم. سرّها في قلبها. ولها عندنا، نحن اليابانيّين، شأن سيصلك خبره عندما نصل إلى إيزناكي وإيزنامي، فهو جزء لا يتجزّأ من حكايتهما ومن تاريخنا. هو الحدّ الفاصل بين اليابان المتوحّشة واليابان التي تراها الآن.

وفجأة نظر إليّ وقد برقت عيناه:

– رأيتك، يا سيّدي، تصغي إلى حديثي عن الأمانة الزوجيّة كالمرتاب. نحن نؤمن بها بمقدار ما نؤمن بإيزناكي وإيزنامي. ها هما قد أطلّا.

فوقفت، ونظرت حيث كان ينظر، فلم أتمالك من الهتاف متعجّبًا:

– هذا؟!

فأكّد، وهو يدلّ بإصبعه مرّتين متمهّلًا عند كلّ مرّة، كالمعلّم أمام لوح الدرس:

– هذا. وهذه.

صخران في البحر. عليّ أن أقول، طبعًا، صخر وصخرة.

الأوّل بقامة عشرين من الأمتار، والثانية دونه بمتر أو مترين، يطلعان من البحر مواجهين الشاطئ، وحبل يربط عنقيهما متدلّيًا فوق فقش الموج، معقودًا في عدّة مواضع.

أجل هذا. هذا كلّ شيء.

بل هذا وهذه – على حدّ قول ساتوصن – إيزناكي وإيزنامي الإلهان.

لبث ساتوصن ساكتًا –سكت طويلًا– لعلّه ينتظر، قلت، أن تخنقني الخيبة ويجهز عليّ البله.

فلمّا نفد صبري تفرّست فيه بوجه حاولت أن أحمّله معنى. ولكنّي على يقين أنّه كان فارغًا. فتداركني آخذًا بيدي وقال:

– نتبع الصفّ. نذهب فننحني مع المنحنين لإيزناكي وإيزنامي. لا تعجّل، يا سيّدي، بالحكم علينا.

وأشار بذراعه إشارة كبيرة وقال:

– أترى هؤلاء الأزواج الهانئين كيف يملأون الشاطئ مرحًا؟ أتسمع خفقات قلوبهم على وقع الأمواج تأتي وتروح عند أقدام إيزناكي وإيزنامي؟ بل انظر. انظر إلى هؤلاء الفتيان والفتيات يخلعون ثيابهم وينزلون في الماء متشابكين بالأيدي، متصايحين، متضاحكين. قل لي، أليس هذا مشهدًا رائعًا؟

ثمّ أردف:

– ولكنّ الأمر لم يكن كذلك في السابق. أريد أن أقول لم يكن كذلك قبل المرآة.

وهزّ برأسه:

– لو فهمتَ لغة هذه الأمواج لعرفت أنّها تتحدّث بفظائع ليس لها اسم ولا عدّ كان هذا المكان مسرحًا لها في الزمان. من يحسب القرون الخوالي، ومن يحصي الضحايا التي تلقّفها هذا البحر طعامًا لأسماكه وحيتانه؟ أترى هذه العُقَد من أوّل الحبل إلى آخره؟ إنّها الآن دوائر بريئة. حلَق في أذن الشمس. قليلًا من الخيال، يا سيّدي، قليلًا من الخيال. بالخيال وحده تُدرَك حقائق اليابان.

فسألته:

– ماذا تعني؟

– لا شيء سوى أنّها مشانق. عنقود من مشانق.

وخفض ساتوصن بصره. تُرى أهو يخجل من قومه؟ ولكنّه لم يلبث أن رفعه صوبي، وكأنّه يطوّق به عنقي، وتابع بلهجة القاضي على منصّة الحكم:

– الذين كانوا يخونون الأمانة الزوجيّة، إلى هنا كانوا يُساقون، وعلى هذا الحبل الذي يربط بين إيزناكي وإيزنامي يُعلّقون، ليلقوا جزاء خيانتهم ويكونوا عبرة للناس. ولم يكن الأمر مقصورًا، كما هو في بعض البلدان العمياء، على النساء، بل كان يتناول الرجال والنساء على السواء. عدالة تفرضها ثنائيّة الجرم، وإلّا

كان مستحيلاً ، أليس كذلك ؟

وضحك دليلي ضحكته ، فقلت :

– ومن كان يحاكمهم ؟ وكيف ؟

– في البداية كان عندنا ، يا سيّدي ، قانون وأصول محاكمات وجلّادون مختصّون بهذه المهنة الزريّة كما في أيّ بلاد محترمة . وكانوا يطبّقون القانون بأحكامه ويلتزمون الأصول بحذافيرها . وكانوا ينقسمون إلى ثلاثة :

فريق القضاة ، وفريق الرماة ، وفريق الراجمين .

كان المتّهم يُسلَّم إلى القضاة أوّلًا ، فإذا ثبت لهم ذنبه علّقوه عند شروق الشمس من شعره على الحبل . وكانت شعور الرجال في القديم مرخاة كشعور النساء وأطول ، فلم يكن لدى القضاة وأعوانهم أيّ إشكال .

ثمّ يأتي دور الرماة . وهم أهل الزاني أو الزانية ، يقفون بأقواسهم هنا صفًّا منتظمًا ، ويرمي الزوج أو الزوجة السهم الأوّل . فإذا كان أحد الزوجين ميتًا – وكانت الأمانة مفروضة على كلّ منهما حتّى بعد وفاة الآخر – تولّى بدء الرماية أقربهم نسبًا ، ويتبعه الآخرون .

ويليهم على الفور الراجمون . وهم كلّ صاحب مروءة ممّن عرف المحكوم عليه بالموت أو لم يعرفه . وكانوا يعدّون عدّتهم حجارة سوداء كالحة تفور بالزفت والكبريت يلتقطونها من سفوح البراكين التي كانت تملأ اليابان .

وأخذ ساتوصن نفَسًا طويلًا ثمّ استأنف قائلًا :

– ظلّ الأمر على انتظامه مدّة . ولكنّ الخيانات الزوجيّة ، بدلًا من أن تقلّ ، كان يبدو ، على العكس من ذلك ، أنّها تتكاثر بشكل عجيب . فبعد أن كانت المحاكمات مواسم سنويّة – ونحن لا نزال نحتفل بذكراها حتّى هذا التاريخ بتجديد الحبل في الخامس من كانون الثاني – إذا بها تُقام كلّ شهر ، ثمّ تعدّدت في الشهر الواحد وعظم شأنها ، ثمّ أصبح الناس لا يرضون إلّا أن تكون لهم كلّ أسبوع عيد أو أكثر من هذه الأعياد الدمويّة الرهيبة . وألقوا القانون والأصول وراء ظهورهم ، وأخذوا يتذرّعون لممارسة هوايتهم لا بالوقائع الثابتة ، ولا بالأدلّة المعقولة ، بل بالظنّ المجبول بالإثم .

بالغيرة العمياء ،

بالنزق والغضب والحقد ،

بالرياء ،

بالوشاية والسعاية والنميمة ، وكلّ ما يعتمل في النفوس من ضراوات ودناءات .

يتبارى في ذلك – قبل الأزواج – الآباء والإخوة والأعمام والأخوال ، وأبناؤهم وأبناء عمومتهم وخؤولتهم ما نسلوا ، وحتّى الجيران وزعران الحيّ .

وكانت أميتراسو ، ابنة إيزناكي وإيزنامي ، لا تطلع شمسها ولا تغيب إلّا على واحدة أو أكثر من هذه المآسي . وهي تنظر إليهما لا يبديان ولا يعيدان ، مع علمها بعذابها . أليس الحبل في عنقها من هنا ومن هنا ، وفي عنقها كلّ البرايا تحت سماء اليابان ؟ وكثيرًا ما كانت تحجب وجهها لا تريد أن ترى . بالغيوم السود كانت تحجبه وتقول : « متى ترتفع هذه اللعنة عن بلادي ؟ »

ولكنّ القوم تمادوا في غيّهم يلطّخون جبين الشمس في الصباح ويجرّحونه في المساء .

حتّى كان ذات يوم فإذا هم قد ملأوا الساحة وهاجوا وماجوا ، فاختلط القضاة بالرماة بالراجمين بالمتفرّجين ، وقد أقبلوا من كلّ صوب يتدافعون ، يخرقون الصفوف ، يتسلّقون الأشجار ، ويعتلي بعضهم مناكب البعض .

كان العيد كبيرًا .

وكانوا قد علّقوا على الحبل – عدد حلقاته المشؤومة – ضحاياهم من الجنسين . وأعدّ كلّ فريق عدّته ، وقد نفد صبرهم وكثر اللغط فيهم . وأخيرًا أُعطيت الإشارة ، فانحبست الأنفاس في الصدور ، وانجذبت العيون إلى الصفّ الأماميّ ، فإذا فتى يخرج

حاملًا قوسه، يمشي متمهّلًا، مترفّقًا، متّجهًا صوب الجبل. ثمّ إذا هو يرفع القوس نترًا ويشدّها ملء ذراعيه، والناس ينظرون والشمس تنظر. ما راعها إلّا السهم الأوّل وُكّل به ابن يرمي أمّه! وزورًا كان ذلك وبهتانًا -كانت الجارة التي تتقدّم صفّ الراجمين خلف الفتى الغرير تنفخ في عنقه- ومرق السهم من قلب الأمّ إلى عين الشمس ففقأها. كلّ الناس رأوها، وقد اصطبغ وجهها بالدماء، تميل ميلة واحدة، ثمّ تلتفع بسحابة كثيفة وتتوارى.

إنتظرت اليابان من غد شمسها المشرقة فلم تطلع. ولم تطلع كذلك في اليوم الثاني ولا الثالث ولا العاشر. وغاب القمر، واختفت الكواكب والنجوم.

كان الظلام يلفّ الأرض والسماء. ليل أعمى ما له آخر: مارد على صدر اليابان استوى. إله الدّيجون، أبو العيون تقذف البروق، والشفاه تلفظ الصواعق، مع أكمام له في جلبابه الأسود يلوّح بها يمينًا وشمالًا، علوًّا وسفلًا، طردًا وعكسًا، ويرقص رقصة التّيفون.

والأيّام تتعاقب بلا حساب، لا يُعرف لها نهار من ليل، وقد عمّ الدمار والويل، وفقدت اليابان أنفاسها. كيف تحيا اليابان من دون شمسها المشرقة؟

* * *

أشعل ساتوصن سيكارة ثمّ استأنف:

– لكنّ اليابان لا تموت. تعرف ذلك، يا سيّدي، ويعرفه جميع عارفيها. فلمّا بلغ الأمر مبلغه زحفت ملايينها تحت جنح الظلام من كلّ صوب. يهبطون من الجبال، يطلعون من الأودية، ينبثقون من الكهوف والسراديب، يملأون الحقول ويغطّون السهول. وصوتًا واحدًا نادوا بندائهم الذي يرتعد له القطبان:

– ياماتو! ياماتو!

فاستيقظت روح اليابان. وانطلقوا خلفها يبحثون عن الشمس.

وما زالوا حتّى وجدوها مختبئة في مغارة، هنا خلف الجبل. سنذهب لزيارة هذه المغارة. ليست بعيدة. ولكن يجب أن أكمل لك الحكاية، فالحكاية لم تنتهِ. لقد كانت المشكلة إقناع الشمس في الخروج من المغارة. كانت تأبى أن تخرج. لا تريد أن تتعرّف على أبنائها. وعبثًا دعوها بأحسن أسمائها. عبثًا تضرّعوا قارعين الصدور، فلم يرقّ لها قلب، كأنّها لم تشرق عليهم في زمانها.

ولكنّ ياماتو كانت عارفة بطباع الشموس معرفتها بطباع البشر. فأوحت إلى إله البحر وإله الريح أن «اصنعا لي مرآة». فصنعا لها مرآة – المرآة الأولى في اليابان – ثمّ أوحت إلى الميكادو، فتناول المرآة وأخذ يقلّبها في فم المغارة. يدنو مرّة، ويبتعد أخرى. يرفع المرآة ويخفضها. وما زال حتّى نظرت الشمس، فهالها ما رأت.

– أشمس غريبة في بلادي؟

وخرجت من وقتها، واستوت من جديد على عرشها في سماء اليابان.

* * *

كنّا قد عرّجنا في طريقنا على مقهى. وكان ساتوصن يشرب كوبه من الشاي اليابانيّ، متمهّلًا، مواصلًا حديثه بين جرعة وجرعة، ومع كلّ جرعة دهشة يقطفها من وجهي أو لهفة.

فلمّا وصل إلى هذا الحدّ وجدتني أتلمّس في جيبي المرآة التي أهداها إليّ. وقد طفت على وجهي ابتسامة. ولكنّ ساتوصن ردّها بوقاره. وبالهدوء الذي لا يجيده أحد إجادة اليابانيّين مدّ يده فأخذ المرآة يداعبها:

– إلها البحر والريح يصنعان المرايا منذ ذلك الوقت. إنّهما مشغولان دون انقطاع بصنع الملايين منها: عدد الذين لهم عيون تنظر في طول البلاد وعرضها. هكذا أوصت ياماتو، روح اليابان الأزليّة الأبديّة، أن تكون المرآة في كلّ بيت نُصْب الصباح والمساء، كلّما تاه

الياباني عن «الأنا» عاد إليها. وإذا اتّهم وهمّ، نظر إلى نفسه فأحجم.

وقمت وقام ساتوصن ساكتًا. ثمّ قال:

– أترى الآن لماذا نبيع زوّار إيزناكي وإيزنامي المرايا؟ بفضل هذه الزجاجة المموّهة انتقلنا من وحشيّة القرون الخالية إلى ما ننعم به اليوم.

قلت:

– والأمانة بين المتزوّجين؟

فألقى بإبهامه وراء ظهره مشيرًا إلى إيزناكي وإيزنامي وقال:

– ذلك امتياز الآلهة والصخور.

وضحك في ذقني ضحكته.

أسوار الحريم

تقدّم الليل، ومولانا يروح ويجيء، متنقّلًا من شبّاك إلى شبّاك على ضوء سراج الزيت المتماوت في الزاوية. وفجأة، كأنّما ظلّه أزعجه في اللحاق به، دنا من السراج فأفطسه بكلّابة من إبهامه وسبّابته الغليظتين، ثمّ مسحهما بعثنونه، ومشى إلى الشبّاك المطلّ على المدينة.

وعلا صدر أحمد باشا الجزّار، والي عكّا، وهو ينظر إلى أسوار مدينته تحنو عليها النجوم وتتراقص. وعلى غير وعي منه ارتفعت يمناه بتحيّة الاستهزاء والرثاء يودّع بها، مرّة أخرى، من جاء من أقاصي الأرض على رأس الإفرنج – «الأنجاس!» – ينطح هذه الأسوار فتحطّمت عليها كبرياؤه وآب مع فلول عسكره بما آب به من هزيمة وعار.

ولكنّه لم يلبث أن عاد إلى الشبّاك المطلّ على دار الحريم، وقد ردّ يده إلى فخذه يعصر بها طرف عباءته، ويعضّ بسنّين نافرتين باقيتين له. ودفع أنفه في خصاص من الشبّاك – نوبتها اليوم بنت الإفرنج! – وهذا هو العلَم مرفوع فوق مقصورتها، يرفرف قلقًا كأنّه واحد من هذه الخفافيش اللائصة في الساحة ممزّقة أستار الليل – ذات الجدائل الشقر والعينين الزرقاوين!

والأخريات؟ الحبشيّة ذات الجسم الغضّ البضّ، والنوبيّة ذات الشامة الحلوة، والجركسيّة ذات عقدة الحاجبين، والموصليّة والشاميّة والحلبيّة... أربعون! ثمّ تذكّر أنّهنّ ثمانٍ وثلاثون. أحرق واحدة قبل شهر وأخرى قبل أسبوع.

وذهب خفّاش في الجوّ صعودًا، يمينًا، يسارًا، فهبوطًا وراء الزجاج على أنف مولانا اللاصق بالشبّاك، فضرب أحمد باشا بيديه الاثنتين على الزجاج، لا يضرب الخفّاش بل بنت الإفرنج وصواحبها جميعًا:

– رفعت لمدينتي أسوارًا ارتدّت عنها جحافل بونابرت، فهل أعجز عن رفع أسوار لحريمي؟!

واقتحم الباب على الحرس المهوّمين وراءه وصاح:

– جيئوني غدًا مع الفجر بوزير الحريم.

وضحك بين فكّيه ثمّ راح ونام. فيما كانت الخفافيش تخلي ساحة دار الحريم، إلّا علم بنت الإفرنج، فقد ظلّ يرفرف طول الليل لوجه الشيطان.

* * *

هبّ حايم مذعورًا على العبيد يفتحون عليه باب السجن قبل طلوع الشمس:

– قُم، مولانا يطلبك.

ماذا؟ إستشارة؟ وما يشغل بال مولانا مع هذا الصباح؟ أم هي عقوبة على مشورة سابقة؟ وعلى أيّ

عضو يقع اختيار مولانا هذه المرّة؟ وأحسّ أنّه يتساقط إربًا إربًا لولا أن لمّه العبيد واحتملوه ، فمشى وهو يفكّر بصاحبيه مفتي المسلمين ومطران النصارى ، ويغبطهما على مصيرهما – علّق لهما مولانا مشنقة مزدوجة – لو ألحقه مولانا بهما لاستراح في قبره.

كان مولانا متربّعًا في ديوانه وإلى يمينه طنفسة يستند إليها . فلمّا دخلوا عليه بوزير الحريم أمرهم بفكّ القيود عنه . وما كادوا حتّى رفع حايم يديه يستر بهما وجهه ، فبادره مولانا :

– أُدنُ . كم عينًا بقيت لك؟

– واحدة ، كما ترى ، يا مولاي.

– وكم أذنًا؟

– واحدة ، من فضلك ، يا مولاي.

– ولكنّ لك يدين اثنتين ، ورجلين اثنتين.

– من عفوك ، يا مولاي ، وإنعامك.

– ومنخرين واسعين.

– لأنف واحد ، يا مولاي. ولكن هل يأذن مولاي بالسؤال : بماذا أشرت على مولاي بالسوء؟ أما كنت أنا الناصح لمولاي أن يصمد لعدوّه داخل الأسوار ، وأن يتجنّب لقاءه –كما كان يريد قوّاد جيشك– خارجها . وقد عملت بنصيحتي . ولو عملت بنصيحتهم ... مع أنّني لست وزير الحربيّة بل وزير الحريم.

– ليس الإفرنج أكبر أعدائي ، بل الحريم . هل قلعت لك عينًا على ذلك أو صلمت أذنًا؟

– ولكنّي أستحقّ على ذلك يا مولاي...

– ماذا تعني؟

– لا شيء. لا شيء. أعني ، يا مولاي ، أنّني كنت أحبّ لو تعود لي عينان اثنتان وأذنان بدل الواحدة لأستمتع بكلّ حواسّي بمباهج انتصارك.

– أمّا أنا فكلّت عيناي من منظر هذا الشعب يرقص كالسعادين من الصباح إلى المساء ، وتمزّقت أذناي من صياحه . والغبار ! الغبار الذي يثيره حول القصر ! أُدنُ من الشبّاك . لقد وصلوا إلى ساحة القصر بغبارهم . أم ليس لك أنف للشمّ؟

وضرب مولانا على ركبته صائحًا بعبيده :

– خذوه إلى الجلّاد يجدع له أنفه !

ولم يعتّم الجماعة أن عادوا بحايم مربوطًا مجدعه بخرقة إلى قذاله ، ومن عينه الوحيدة تنهمر الدموع على الخرقة فتختلط بما ينضح منها من دماء ، وهو يرفع يديه إلى حيث كان أنفه ويخنق شهقاته . فأشاح مولانا بوجهه :

– اِذهبوا به إلى سجنه . وإلى غد.

فتمتم حايم وقد اصطكّت ركبتاه :

– مشورة جديدة ، يا مولاي؟

ولكنّ العبيد كانوا قد اقتادوه . فلما تواروا التفت مولانا إلى رئيس خصيانه وقال :

– هذه الليلة ترفع العلَم...

وسكت مفكّرًا . فأكمل معزوز ضاحكًا :

– بنت الإفرنج . كانت نوبتها الليلة السابقة ، وقد انتظرت مولاي ومولاها...

فقاطعه مولانا :

– بل الأخرى ، نسل هذا الوزير اللعين.

* * *

في صباح اليوم التالي أُدخل حايم على مولانا في ديوانه فرأى رئيس الخصيان واقفًا في الزاوية ، وبصره إلى الأرض يرفعه إلى مولانا ثمّ يخفضه ، ثمّ يختلسه إليه في ريبة كان يعرف سببها ممّا سمع من تهامس العبيد بين السجن والديوان.

ترى ، هل أخبر معزوز مولانا؟

ولكنّ مولانا لم يلبث أن قطع على الوزير تساؤله :

– مشورتك الجديدة هي في أعظم أمر يواجهني أثناء سفري خارج الولاية . ومعزوز هنا لتستعين به . ولا تنسَ أنّ لك عينًا أخرى ، وأذنًا ، ويدين ورجلين. أواثق أنت ، هذه المرّة ، من أنّك قادر على مشورة صالحة؟

– الثقة أستمدّها من مولاي وممّا بقي لي من فضله ، وأنا حريص عليه.

– أنا أعلم أنّ أسوار الحريم فضيلة وعفاف ، وإخلاص ووفاء. ولكنّ هذه البضاعة ليست موجودة في النوبة ولا الحبشة ولا الموصل ولا حلب الشهباء. ولا عند العرب ولا عند العجم. ومعنى ذلك ، بصريح العبارة ، أنّ دار الحريم خالية منها.

فتدخّل رئيس الخصيان بقوله :

– ولكنّ هيبتك ، يا مولاي ، تملأ أرجاءها . حاضرًا كنت أم غائبًا.

فأشار مولانا إلى معزوز بقفا كفّه أن «اسكت!» واستأنف متوجّهًا إلى وزيره :

– اِسمع يا حايم! لقد كان بإمكاني أن أُلحقك بمفتي المسلمين ومطران النصارى ، فهل تدري لماذا أبقيت عليك؟

– لكي تظلّ راحيل حاظية على رضى مولاها ومولاي ، ولم يكن لمفتي المسلمين ابنة ، ولا لمطران النصارى فيما أعلم.

فضحك مولانا عن سنّيه وهتف :

– أنا لا أثق ولا بواحدة من الثماني والثلاثين بمن فيهنّ ابنتك راحيل.

– بل هنّ سبع وثلاثون ، يا مولاي.

– ماذا تقول؟ سبع وثلاثون! وأين الثامنة والثلاثون؟ كيف اختفت؟ ومن هي؟

– بنت الإفرنج ، يا مولاي. وجدتها مشنوقة يا مولاي ، على الشبّاك ، يا مولاي ، بتكّة سروالها.

– ولا تخبر إلّا الساعة يا ابن الزانية!

ورفسه رفسة طار معها الخفّ من قدمه ، فتلقّاه الوزير في الهواء ، فيما كان مولانا يبادر الباب :

– أنا ذاهب لأرى.

– فاعترضه حايم :

– لا يليق بمولانا. لا يليق بمولانا.

فجمد مولانا ، ثمّ ارتدّ إلى المقعد ودفن رأسه بين يديه وهو يردّد : «ذات الجدائل الشقر والعينين الزرقاوين! ذات الجدائل الشقر...» والوزير ينحني ويتناول قدم مولانا ويُلبسها الخفّ غابطًا نفسه ، هذه المرّة على الأقلّ ، لأنّه بغير أنف. ثمّ رفع رأسه :

– ماذا؟ أيبكي مولاي – عاش رأسه – على قوّادة فرقة المومسات في جيش عدوّه بونابرت؟

فانتفض أحمد باشا الجزّار انتفاضة واحدة وصاح برئيس خصيانه :

– اِطرح هذه النجسة من فوق الأسوار لتلحق بسيّدها قائد الإفرنج الأنجاس ، واتركني وحايم وحدنا.

أمّا انتحار بنت الإفرنج فكان حزنًا على انكسار بني قومها ، ما في ذلك شكّ ، هكذا قال حايم فاقتنع مولانا. وأمّا المشورة المثلى في أمر الحريم أثناء السفر فقد توسّل حايم أن يأذن له مولانا بزيارة ابنته ، فالأمر يعني النساء ، وأن تكون المشورة بمعزل عن معزوز ، فهو يكره أن يأتيه الرأي من الخصيان :

– يفقد الرجل عينه وأذنه وأنفه ويبقى رأيه سليمًا والحمد لله. وأمّا الخصيان فقد ودّعهم الرأي مع ما ودّعوه ، يا مولاي.

فوافق مولانا كلّ الموافقة وأمهل حايم يومًا. اليوم الأخير قبل قيامه للسفر.

* * *

في طريق سفره خارج الولاية ، وفي تنقّله من مكان إلى مكان ، كما في طريق عودته إلى عكّا ، كان أحمد باشا الجزّار يفكّر بما عسى أن تكون نتيجة المشورة التي أشار بها عليه وزيره ، ويردّد بينه وبين نفسه : «في غاية البساطة! في غاية البساطة!» – كما قال الوزير في وصفها وهو يزمّ بعينه الباقية – اليمنى هي يا ترى أم اليسرى؟ لا يتذكّر مولانا وما يهمّه.

ولكنّه يتذكّر جيّدًا حكاية القمقم. ويستعيد في ذهنه كيف حمل إليه حايم هذا القمقم ، زاعمًا أنّ بنت الإفرنج كانت تريد دسّ السمّ لمولانا ، ليلة

نوبتها ، في دسم قبلاتها فيموتان معًا . فلمّا فاتتها النوبة أعطته إلى راحيل ، وعهدت إليها بالمهمّة اتّكالًا على ما تعرف من شأن أبيها وما حلّ به . ولكنّ راحيل أخذت القمقم وسلّمته إلى أبيها ليسلّمه إلى مولانا ...

«خرافة ! كيف جازت عليّ هذه الخرافة ؟ !»

نشيطًا قويًّا عاد مولانا من السفر . ومرّة أخرى أزعجه هذا الغبار يملأ عكًّا ويتصاعد من ساحة القصر المزدحمة بجموع الشعب ترحيبًا بعودته . وما كادت الشمس تغيب حتّى انقلب إلى الشبّاك الآخر المطلّ على دار الحريم ونادى بمعزوز ، فأقبل معزوز يفرك يديه ويسأل مولانا : أيّ واحدة ؟ فكلّ منهنّ تنتظر أن تكون هذه الليلة المباركة نوبتها .

– اِرفع الأعلام على المقاصير كلّها !

– السبع والثلاثين يا مولاي ؟

ولكنّ مولانا كان قد عقد حاجبيه ، فانفتل رئيس الخصيان وقد تطايرت من عينيه سبع وثلاثون ألف نجمة انبهارًا بقدرة مولانا ، ما شاء الله !

ولمّا نزل مولانا إلى ساحة الحريم كانت الشبابيك على مدار الساحة تبرق بالعيون : لأمر ما تُرفع الأعلام على المقاصير كلّها . ولكن لم يخطر لواحدة منهنّ ببال أن يحدث ما حدث . فقد كان مولانا يدفع أبواب المقاصير ويختلي بصاحبة كلّ منها دقيقة . دقيقة واحدة ، ويا ليت ! ثمّ يغلق بابها إلى التالية . حتّى أتى عليهنّ ما عدا راحيل . وما كاد حتّى نادى برئيس الخصيان أن ينادي برئيس الوقّادين أن يجمعوا في ساحة دار الحريم كلّ ما لديهم من أحطاب ، ويصبّوا فوقها زفتًا وكبريتًا ويحرقوا نساءه جميعًا إلّا ابنة حايم .

– جيئوني بها وبأبيها إلى هنا .

كانت المشورة على مولانا أن تُوكّل كلّ من نسائه بالتجسّس على الأخريات أثناء غيابه في السفر . فلمّا عاد وسألهنّ اتّهمت كلّ منهنّ الأخريات بالخيانة . إلّا راحيل ، فقد أعلنت أنّها لم ترَ على الحريم طول هذه المدّة ريبة قطّ .

وأشرف أحمد باشا الجزّار من شبّاكه على المحرقة الهائلة ، يتعالى إليه منها صراخ النساء ورائحة الشواء ، مع دخان يدخل من الشبّاك ويفسد جوّ الديوان . وحايم وابنته واقفان ، يختلس أحدهما النظر إلى الآخر اختلاسًا ، وقد رأى حايم عيني راحيل تبتسمان ، فردّها بنظرة منه ملؤها الرعب ، فلم تفهم ، وظلّت ابتسامة الظفر تشعّ من عينيها .

وإذا بمولانا ينكفئ فجأة ويمدّ بيده إلى جيب قبائه ويقذف القمقم بوجه راحيل :

– إذا كان صحيحًا أنّك أخذت هذا القمقم من بنت الإفرنج فقولي لماذا أخذته ، ولماذا لم تسلّميه من توّك إلى معزوز وانتظرت أباك ؟

فأدرك حايم أنّ الحكاية لم تجز على مولانا ، وأحسّ بسوء العاقبة على ابنته فصرخ :

– بل أنا ، يا مولاي ، أنا . وسأعترف بكلّ شيء لمولاي . وليأخذ هذه المرّة حياتي .

وأكبّ على قدمَي مولانا معترفًا بأنّ القمقم منه ، وأنّه كان يحتفظ بالسمّ لنفسه إذا ذهبت عينه الأخرى بمشورة لا يحالفها الحظّ . ولكنّ مولانا كان قد اتّخذ قراره . رفع حايم من كتفيه وأمره أن يُلقم ابنته القمقم ويُفرغه في جوفها حتّى الموت .

وعبثًا حاول حايم أن يفدي ابنته بحياته . فقد استلقى أحمد باشا الجزّار على المقعد وأسند كوعه إلى طنفسته وهو يقهقه :

– القمقم إذن منك ولك ! ولكنّك لن تموت به ولا بسواه ما دمنا في حاجة إليك . فمشاكل المملكة لا تنتهي . وقد كانت مشورتك الأخيرة سيّدة ما أشرت به عليّ منذ ولّيتك وزارة الحريم . كنت حائرًا في كيف أتخلّص منهنّ جميعًا مرّة واحدة ...

وأمر رئيس خصيانه أن يذهب في الأرض ويجدّد له الحريم .

المشنقة والعصافير

أطلّ الأمير من شرفة قصره يردّ على تحيّة الشعب وقد زحف من أقصى الإمارة إلى أقصاها ليعرب عن ابتهاجه بالقرار العظيم الذي صدر.

وحرص الوزير الجديد على المشاركة بالعيد ، فهو أوّل انتصار له بعد توليته الوزارة ، فوقف وراء كتف سيّده يترجم له عواطف الشعب.

ولم تكن المرّة الأولى التي يواجه فيها الأمير من شعبه العزيز هذه الموجات الدافقة من الولاء. ودائمًا كان يحسّ أنّه محمول عليها بين الأرض والسماء على بساط من النشوة ، هو المجد ، ولكنّ ذلك اليوم كان بلا شكّ أروع أيّامه.

«يوم تاريخيّ!» هذا ما أعلنه الوزير ، وهكذا يخطب الناطقون باسم الشعب في الشعب. كيف لا وقد استجاب الأمير لطلب الشعب فألغى عقوبة الإعدام ، تلك البقيّة الباقية من العصور المظلمة ، ومحا صورتها البشعة من الوجود.

وها هو الشعب يحتفل بإحراق المشنقة في ساحة القصر. قد نصبها ناصبوها في المكان الذي طالما نُصبت فيه في الماضي فصبّوا عليها زفتًا وكبريتًا وراحوا يرقصون حول النار ويهزجون. وزغاريد النساء تثقب السماء.

ولبث الأمير ساعة مأخوذًا بالمشهد.

من خلال ألسنة النار تطلع له مواكب المشنوقين، مجرمين وسفّاحين وقطّاع طرق ، وأصنافًا لا عدّ لها من منتهكي الحرمات والمعتدين على الشرائع والقوانين.

تختلط عليه الوجوه. وجوه الذاهبين إلى الموت يخلع عليها الموت وجهه الواحد. يرسم عليها علامته الفريدة : البلاهة.

الموت ، حتّى على المشنقة ، ليس مخيفًا. الفظيع هو تلك العلامة.

في عيونهم تنتصب تلك العلامة.

كالكلاب الأليفة يسلمون أعناقهم إلى الجلّاد ليضعها في الحبل ، ما عدا عيونهم.

تهرب عيونهم بعلامتها من المشنقة ، تتغلّب على الموت ، وتصرّ بعد الموت على نصب علامتها بعين الشمس ، حتّى يطبقها الجلّاد.

وجه يخرج من بينها لا ينساه. يسأل الجلّاد صاحبه عن رغبته الأخيرة فيجيب : أحبّ أن أموت ووجهي إلى القصر.

ورفع وجهه إلى شرفة القصر وبصق في وجه أميره. ثمّ رفس الكرسيّ من تحته وكأنّه يرفس كرسيّ أميره.

ولكنّ هذا الوقح كان من فئة الثائرين على السلطة ، المدبّرين الخطط لاغتيال الأمير والجلوس مكانه.

الآخرون كانوا يطلبون طلبين لائقين : غفرانًا كاملًا

من ربّهم ، وسيكارة يدخّنونها إلى النصف.

وذاك الذي انقطع الحبل به ثلاث مرّات !

في الأولى تأفّف الشعب عاتبًا على الجلّاد.

في الثانية احتجّ الشعب لهدر مال الخزينة في شراء الحبال المهترئة.

في الثالثة ارتفعت أصوات الشعب تنادي بالعفو !

«كانت تناديني أنا. وكنت – أنا الأمير – على وشك أن ألبّي طلب شعبي. لا رحمة بالرجل ، فالرحمة أقتل للعدل من القسوة. بل إكرامًا لخرافة الشعب. الخرافات غذاء الشعب ، هكذا كان يقول أبي».

على أنّ الجلّاد كان قد عاجل صاحبه بحبل المسد المعدّ لأمثاله من غلاظ الرقاب.

... القبضايات الذين يمشون إلى المشنقة رافعي الرؤوس ،

والجبناء الذين تسقط رؤوسهم في أحضانهم ، فيحملهم الجلّاد إلى المشنقة حملًا ،

الذين تهبط عليهم فصاحة سحبان بن وائل .

والذين ينعقد لسانهم وتختنق الصلاة الأخيرة على شفاههم ،

الأسخياء الذين يُسلمون أنفاسهم دفعة واحدة نقدًا بلا عدّ ،

والأشحّاء الذين يتمسّكون بها ، والناس يعدّونها لهم على دقّات ساعاتهم ، حتّى يُضطرّ الجلّاد إلى شدّهم من الأقدام لقبض حقّه منهم.

الذين يستغفرون ، والذين يجدّفون ، والذين يبكون ، كلّهم ، كلّهم يعودون ، تتراقص رؤوسهم في الدخان المتصاعد من أعواد المشنقة المحترقة ، يدورون على أنفسهم ، يختفون ويظهرون ، يعرضون على صدورهم الأحكام التي تحمل أوزارهم ، وفي الأسفل تحمل توقيع الأمير. إسمه بخطّ يده.

ألسنة النار تصرخ باسمه !

وهو يسمع اسمه مدوّيًا في أذنيه مع ولولة تلك الأمّ طول ذلك النهار الذي طلع عليها بشنق ابنها ، فجعلت تثب حول القصر ، تنبش شعرها ، وتقذف وجهها بوجه السماء ، تناديه باسمه وتستنزل على اسمه لعنات السماء.

يذكر أنّه أنس بقيّة ذلك اليوم إلى مضحك القصر ، على عادته بعد تنفيذ كلّ حكم بالإعدام ، وأدار أذنه المسدودة إلى صوت الأمّ.

«كن دائمًا أطرش من إحدى أذنيك !» هكذا أيضًا قال له أبوه. وتناول قبل موته قطنة من أذنه ووضعها بيده في أذن ابنه. «أذنك الحكيمة أيّها الأمير من بعدي».

كيف رضي بشيل القطنة من أذنه؟

وأخذ يراقب أفراد الشعب ويتفحّص وجوههم المهتاجة المتوهّجة بالنيران ، باحثًا عن وجه تلك الأمّ. ذاك صوتها . هو هو في الزغردة وكأنّه ترجيع للولولة ، فأين وجهها؟

وإذا الوزير يلقي ذقنه على كتف الأمير وينفخ له من الوراء مؤكّدًا أنّ سموّه قد سما هذه المرّة فوق الإمارة ، وفوق الأوطان جميعًا بمعانيها الضيّقة ، إلى أجواء لا تعرف حدودًا ولا أوطانًا . فكان لا حاكمًا صالحًا مصلحًا فقط بل بطلًا من أبطال الإنسانيّة وخالدًا في الخالدين ...

ولكنّ الأمير تظاهر بأنّه يردّ يده من تحيّة الشعب فعرّج بها على أذنه ينفضها بعنف كأنّه يفتقد القطنة. كان مشغولًا عن تملّق الوزير بتأمّل ما ينكشف له من أمر الشعب.

هذا الشعب الذي يحرق المشنقة وسط أهازيج الفرح هو نفسه الذي كان يحتشد في هذه الساحة احتشاده اليوم ، محيّيًا المشنقة تزهق أرواح المحكوم عليهم جزاء وفاقًا لما جنته أيديهم ، داعيًا للأمير العادل بالنصر.

وتوارت من أمامه أشباح المشنوقين فهو لا يرى إلّا وجوه الشعب المشعشعة بالعيد رجالًا ونساء ، كبارًا وصغارًا

كأنّ المشنقة كانت لهؤلاء جميعًا. لكلّ منهم. وإلّا فما معنى هذا الانتقام يصبّونه على المشنقة زفتًا وكبريتًا ولعنات؟

إنّهم إذًا في أفراحهم السابقة إنّما كانوا يفرحون لأنّ سواهم هو الذي عُلّق عليها لا هم. يموت بالنيابة عن الآخرين، ويبقون هم في صفّ الآخرين، وفي حلوقهم الغصّة الحلوة: مرّ الحبل بأعناقهم وراح. وها هم يتخلّصون اليوم من ظلّه. مسحته عن رقابهم شطحة قلم. فعادوا كلّهم أبرياء، وتغلّبوا على المشنقة. وهم يطلبون الآن الجلّاد لإحراقه فوق أنقاضها.

كانت يد الأمير تداعب من دون وعي عنق الأمير الصغير، وقد خرج هو الآخر إلى شرفة القصر ووقف بين ساقَي أبيه.

وفجأة خُيّل إليه أنّ أصابعه تلتفّ حول عنق ابنه. وأحسّ لها امتداد الحبل والتفافه، فعرته قشعريرة. لكنّ الصبيّ كان قد سبقه، فأزاح بيديه الاثنتين يد أبيه عن عنقه، ورفع وجهه يسأل – بعد أن سمع اسم الجلّاد – عن الجلّاد ما يعمل بعد أن زالت المشنقة؟

سؤال لم يخطر للأمير ببال. فتولّى الوزير إجابة الأمير الصغير. قال:

– يحكي لك قصص الذين شنقهم في زمانه.

* * *

لم يُدعَ الجلّاد إلى القصر ليحكي للأمير الصغير قصص الذين شنقهم، بالرغم من إلحاح الأمير الصغير. ولم يسأل عنه أحد في القصر.

في اليوم الأوّل اختبأ في البيت وسمّر الباب، ناجيًا بنفسه من نقمة الشعب.

في اليوم الثاني انطلق يطلب عملًا فلم يجد عند أحد من الشعب عملًا لأنّه في حياته لم يعمل إلّا الشنق. صناعة انقرضت.

في اليوم الثالث صاحت به امرأته:

– إنّ معجننا فارغ! إلى متى تقعد في البيت كالتنبل؟

فخرج هائمًا على وجهه، حتّى ساقته قدماه إلى ساحة القصر، فشبك يديه بقضبان حديدها، وقضى نهاره ينظر إلى حيث كان مورد رزقه.

في اليوم الرابع والخامس والسادس كانت امرأته تنتصب في وجهه من الصباح إلى المساء وتعيّره:

– جلّاد! وحش مفترس!

ولعنت يومًا رضيت فيه أن يكون زوجها.

في السابع طردته إلى الخارج فاضطُرّ أن ينام على عتبة البيت. فلمّا طلع الصباح خطر له أن يذهب إلى الأمير ويطلب منه أن يُنعم عليه ولو بوظيفة معشّب في «حدائق التوبة» – هكذا سُمّيت السجون بعد إلغاء عقوبة الإعدام – ولكنّه لم يلبث أن عدل عن جنونه. فحدائق التوبة عنوان العهد الجديد، والوزير هو الذي اختار لها موظّفيها المتخصّصين، فكيف يوافق على توظيفه فيها، هو الجلّاد عنوان العهد البائد، بل أن يطأ أرضها ولو للتعشيب؟

ومرّة أخرى ذهب إلى ساحة القصر ورفع بصره إلى الشرفة التي طالما أطلّ منها الأمير على المشنقة في زمانها، وجعل يتحسّر مناجيًا نفسه: «لم يقطع إلغاء المشنقة الإجرام ولكنّه قطع رزقي. وسيزداد المجرمون وتعظم الجرائم».

أكثر ما يضحكه – عاف البكاء فهو لا يتعاطى اليوم إلّا الضحك – النظام الجديد الذي يخضع له المحكوم عليهم.

قبل كلّ شيء هذه البيوت البيضاء التي بنوها لهم مكان السجون القديمة ونثروها مهفهفة بين الماء والخضراء. وأصناف من لطاف حُمر العصافير وزُرقها وصُفرها جمعوها لهم من أطراف الدنيا وأطلقوها ترفرف لهم وتزقزق. وبدل السلاسل والقيود آلات موسيقيّة عليهم – وهذا كلّ عقابهم – أن يقلّدوا بها أصوات العصافير.

الموسيقى! الموسيقى! ذلك كان شعار الوزير. وكان يردّد على الأمير:

– الموسيقى تصيّر وحش البرّ حمَلًا والشيطان ملاكًا. إنّ إمارتك، يا مولاي، ستصبح وطن العصافير والملائكة.

ولم يكتفِ الوزير بذلك، فحمل الأمير على زيارة حدائق التوبة مرّة في الشهر، ودعا الجرائد إلى نشر صور زياراته. وزاد فقال له ذات يوم:

– ما رأيك، يا مولاي، لو جلست إليهم وشاطرتهم طعامهم! إنّها إذن قمّة مآثرك وهالة فخارك.

وما زال به حتّى أقنعه.

* * *

على أنّ نبوءة الجلّاد صدقت. فما هي إلّا بضعة أشهر حتّى ضاقت الحدائق الغنّاء بالضيوف المتدفّقين عليها من أنحاء الإمارة. فأشار الوزير على الأمير بتوسيعها. فرصة، قال، للتخلّص من تلك الأكواخ البشعة التي تشوّه مدخل الحدائق. ولكنّ الفقراء ضجّوا لهدم أكواخهم، فأمر الوزير الجند بقمعهم وسوق قادتهم إلى القضاء بتهمة العصيان، فزاد عدد المحكوم عليهم بتقليد أصوات العصافير.

تدبير لم يقتنع به الأمير تمامًا وبدأت تساوره الهواجس.

وبالفعل كانت الجرائم قد ضربت أطنابها، فشاع السلب والنهب، وتوالى سفك الدماء، وهان العدوان على الحرمات، فلهج الشعب باضطراب حبل الأمن، وراح يشكو الفوضى السائدة في أنحاء الإمارة. ولكنّ الوزير بادر إلى تلقّي الأمر: وضع قرارًا يمنع الجرائد من نشر هذه الأخبار، وحمله إلى الأمير وحمل الأمير على توقيعه.

في الزيارة التالية التي قام بها الأمير إلى الحدائق رابه السكوت الذي لقيه في طريقه. فقد كان الشعب يهرب من وجهه، وتغلق النساء أبواب بيوتهنّ. وعلى الغداء مع أصحابه بدا مشغول البال، لم يأكل إلّا بمقدار ما ينقد عصفور من عصافيرهم. أمّا هم فكانوا في أحسن أوقاتهم. أكلوا هنيئًا وتبادلوا الأنخاب. دقّوا ورقصوا. وغنّت لهم العصافير أعذب الألحان. وأقبل كبير فيهم يرفع كأسه ويدنو من الأمير ليشرب، قال، نخب الأمير، ودعا الآخرين إلى رفع كؤوسهم. إلّا أنّه كان متعتعًا من السكر، فوقعت منه الكأس ووقع فوقها، فقام الأمير يلمّ طيلسانه الملطّخ عائدًا إلى القصر.

لم يذق طعمًا للنوم تلك الليلة ولا في الليالي التي بعدها. كان يتقلّب على كلّ جنب ويقلّب شؤون إمارته. ومع كلّ صباح تحمل له تقارير شرطته أنباء عن سلسلة جديدة من الجرائم، وعن فنون جديدة في الإجرام، وجيل جديد من المجرمين.

تقرير منها – سرّيّ – يستأذن فيه «خادم مخلص للأمير» في مصارحة أميره. جاء في التقرير: إنّ الشعب يتندّر في مجالسه وسهراته بعصافير الأمير، ويستهزئ به كيف يجلس إلى مائدة السفّاحين وقطّاع الطرق... ويترحّم على عهد المشنقة!

وقبل أن يفرغ الأمير من قراءة التقرير إذا بالوزير يدخل إليه صائحًا:

– مؤامرة، يا مولاي! الرجعيّة تدبّر مؤامرة دنيئة على مولاي!

وأشار إلى أعوانه فدخلوا، ووضعوا بين يدي الأمير بومة.

– وجدناها على باب القصر وفي عنقها هذه الورقة: «هديّة من الشعب إلى أميره أبي العصافير».

قال الوزير:

– واضح ما يريدون بذلك: رأسك يا مولاي، وتنعى البومة حكمك!

* * *

أمر الأمير بالبومة أن تُطرح في الظلمة البرّانيّة. وصرف وزيره بقفا يده، معلنًا أنّه يريد أن يعتكف يومه في القصر ولن يبحث في شؤون الإمارة مع أحد،

فبإمكان الوزير أن يعود إلى بيته. وبرقت عيناه بريقًا مخيفًا، فارتعد الوزير وانسلّ من الباب.

وما كاد الوزير ينصرف حتّى استدعى الأمير رئيس شرطته، وقال له:

– أريد الساعة الكشف عن «خادمي الأمين» ومثوله بين يديّ.

ثمّ نادى كاتبه فأملى عليه قرارين:

الأوّل – بعزل الوزير وتعيين الخادم الأمين مكانه.

الثاني – بإقفال حدائق التوبة وإعادة عقوبة الإعدام.

وما هي حتّى رجع رئيس الشرطة مروّعًا يلهث، فتلقّاه الأمير:

– أين خادمي الأمين؟

فأخبر رئيس الشرطة أنّ أعوانه لم يستطيعوا الخروج إلى المدينة، وأنّ الشعب في ثورة، قد ملأت جموعه الأسواق وهم ينادون بسقوط الأمير، وأنّهم هجموا على عربة الوزير في طريقه إلى البيت، فأسرجوه مكان حصانها يُلهبون ظهره بالسياط، والأنباء من حدائق التوبة أنّ المحكوم عليهم بالموسيقى قد حطّموا آلاتهم على رأس المايسترو بعد أن أكلوا عصافيرهم بريشها، وهم يقصفون الأشجار عصيًّا ملتحقين بالثوّار.

– والشعب الهائج، يا مولاي، يزحف باتّجاه القصر.

فوثب الأمير إلى الشرفة فرأى زعران الشعب قد سبقوا الجموع إلى ساحة القصر، والأمير الصغير يلعب إلى جانب الغدير. فما كان من أحدهم إلّا أن رماه بالحجر الأوّل، فوقع مضرّجًا بدمائه. ثمّ انهالت الحجارة من كلّ صوب على القصر. فجُنّ جنون الأمير فصاح برئيس الجند أن يعلن النفير. ولكن بعد فوات الأوان...

مع فجر اليوم التالي كان الشعب ينصب المشنقة في ساحة القصر. وعلا الهتاف بالبحث عن الجلّاد. ولكنّ الأمير أعفى شعبه من التعب: صعد إلى المنصّة ووضع عنقه في حبل المشنقة بيديه الاثنتين.

أعمى القنطرة

هذه البنايات الجديدة ، الشاهقة الباهقة ، التي تطلع على أنقاض بيوتنا القديمة ، هل تعرف في كبريائها الوقحة أيّ ماضٍ تطمس معالمه ، وأيّة ذكريات تدفنها بالباطون المسلّح؟

كلّما مررت بورشة في بيروت ، ورأيت الحفّارات والرافعات ، والزحّافات والشاحنات ، في انهماكها وعجيجها وغبار لهاثها المالئ الجوّ ، أخذني انقباض أشدّ ما يعصر قلبي حينما تتناول هذه الحيوانات الأسطوريّة تلك القناطر الجميلة التي كانت تستقبل شمس النهار ، وتطلّ منها وجوه الأحبّة ... كيف يستحيل كلّ هذا إلى حطام مرذول!

الحيّ الذي كنّا نقيم فيه ، وأنا صغير ، كان حافلًا بالقناطر. وقد قصدت إليه أمس ، بعد غياب سنين عن البلاد ، في زيارة ابن عمّ لي استأجر شقّة في تلك البنايات الجديدة ، فأنكرته ، ولم أهتدِ إلى حيث كنت أقصد إلّا بعد دوران وألف سؤال.

كانت القناطر تستقبل الزوّار في الزمان. كلّها ، كلّها تعود إلى ذهني من أوّل الحيّ إلى آخره. واحدة منها تنعقد على أجفاني ما حييت. لم تكن أكبرها ولا أفخمها. قنطرة في زقاق من الأزقّة ، تحت درج مكشوف ، واطئة ، ذات حجارة صفراء نخرة ، مع هيكل كرسيّ مربوط بحلقة لها في الوسط. إنّ صورتها تبعث ذكرى من ذكريات طفولتي ، مربوطة بقلبي ، هي الأخرى ، كذلك الكرسيّ المعلّق تلفحه الشمس في الصيف ويلعب به الهواء في الشتاء.

كانت معروفة بقنطرة الأعمى. وتحتها كنت أجتمع بعبده ، قشّاش الكراسي في الحيّ لذلك العهد.

ترجع علاقتي بعبده إلى يوم زحمني فيه المطر وأنا ذاهب إلى مدرستي ، فلجأت إلى أوّل قنطرة عرضت لي. ونظرت ، فرأيت رجلًا ينحني على كرسيّ بين ساقيه ، ويداه تروحان وتجيئان فيه بحركة أشبه بحركة المكّوك أو الضرب على البيانو ، وإلى جانبه أكوام من حبال القشّ يتناول منها ويُدخل في بطن الكرسيّ. وأحسّ الرجل بوجودي ، فرفع وجهه ساحبًا من بين أسنانه حبلًا كان يمتحنه بها. كيف لي أن أنسى تلك اللحظة؟ كانت عيناي من قبل على حضن الرجل ، فأنا الآن لا أنظر إلّا إلى وجهه ، أفتّش فيه ، مشدوهًا ، عن عينيه أين هما. كان محلّ عينيه حفرتان عميقتان ، على حافّتيهما سياج من أهداب تضطرب اضطرابًا متداركًا كأنّها أجنحة طيور مذعورة.

– نعم؟

قالها بجواب السائل ، وقد ظنّ أنّه أمام زبون جديد ، فتلعثمت..

– ما شي.

وهممت بالابتعاد. ولكنّ صوتي كان كافيًا لأن يعرف الرجل أنّني ولد لجأ إلى قنطرته من المطر، فأضاء وجهه بابتسامة العميان، يسألني عن اسمي، وابن مَن أنا من أهل الحيّ، فأجيبه وأزيد أنّني تلميذ في مدرسة اليسوعيّين، وأودّ أن أسأله بدوري سؤالي الملحّ: كيف يمكنه أن يمضي في ما كان ماضيًا فيه من تقشيش هذا الكرسيّ وليس له عينان، فتخونني الكلمات. ولست أدري، في النتيجة، كيف قلتها له، فطفت على وجهه تلك الابتسامة مرّة أخرى:

– يا ابني، العميان وحدهم يقشّشون الكراسي.

ثمّ:

– مدرستك. أيّ ساعة تبدأ المدرسة؟

لم يكن في صوته شيء من التأنيب الذي في صوت أبي إذا تأخّرت في الخروج من البيت، وإنّما كان فيه لطف وحنان، وكان واضحًا أنّه لا يدعوني بذلك إلى مغادرة الدكّان، فقد كان المطر هدّارًا. ولكنّي خفت أن أتأخّر. وقبل أن أمشي في اتّجاه مدرستي استدرت إلى الدكّان أستزيد ممّا راعني. بأيّ سحر يحبك القشّ هذا الحبك صفوفًا متوازية طولًا وعرضًا، وبأيّ سحر تتوالى الفجوات بين الصفوف بهذا الشكل الهندسيّ الدقيق! والمطر ينقف أذنيّ، مع حبّات تتساقط على أجفاني، فأكفكفها غاضبًا لأنّها تحول دوني ودون المشهد العجيب.

* * *

كالقشّ بين أصابع عبده، انحبكت الصداقة مع الأيّام بيني وبينه، فأصبح دكّانه محطّة لي في الذهاب والإياب، لسلام ألقيه عليه وكلام نتجاذبه. كنت أسأله عن حاله فيحمد الله دائمًا، ويسألني عن دروسي وألعابي. وربّما قاسمته كعكة أو قطعة من الكاتو، كانت تزوّدني بها أمّي لأتبلّغ بها في الفرص، فيقبلها بطيبة خاطر، ولكن في غياب امرأته. مرّون كان اسمها. وكانت تخدم في بيوت الناس، غسّالة نقّالة، ولا تعود إلّا مع الليل.

ولم يكن يضاهي حرصي على المرور بزقاق عبده إلّا خوفي من المرور بالزقاق المجاور، فقد كان يطلع لي فيه زعران، على رأسهم واحد يُقال له القُطرب، دينهم وديدنهم التعدّي على أولاد المدرسة في ذهابهم وإيابهم ورشقهم بالحجارة.

ذات يوم مررت بالقنطرة صباحًا، على عادتي، فوجدت الدكّان مقفلًا. ومررت بها في المساء فكان مقفلًا أيضًا. ولبثت على حالي أيّامًا أمرّ صباح مساء فلا أرى لعبده وجهًا، فساورتني الهواجس. حتّى كان ما بعد ظهر الخميس من ذلك الأسبوع، وهو عطلة، فخرجت بعد الغداء لملاقاة بعض رفاقي في الحيّ للّعب. وما كدت أهبط إلى الشارع حتّى لاح لي من بعيد شخص يتهادى بكرسيّ على رأسه وعصًا في يده يضرب بها الحيطان متلمّسًا طريقه.

– قشّاش كراسي! قشّاش كراسي!

كان يردّد نداءه بصوته الأبحّ مائلًا به ذات اليمين وذات اليسار. فاعترضته وتصدّيت قصدًا لعصاه، فضربتْ حذائي بدل الحائط، فأجفل، فبادرته:

– عمّي عبده! عمّي عبده!

وتنبّهت إلى أنّني أناديه بعمّي للمرّة الأولى. وكأنّ مجرّد التلفّظ بها كان كافيًا، فأحسست بالدمع يطلع لي. فشدّني إليه، يسألني هل أنا وحدي وإلى أين أنا قاصد، وأسأله عن حاله وعن الشغل، وأرفع بصري إلى ابتسامته. وأنا، إلى ذلك، أمسك برأس العصا معه، وأصغي إليه، فأخبرني أنّه لم يقشّش منذ أسبوع إلّا كرسيًّا واحدًا، لا يغني من جوع، وأنّه يدور في الحيّ مفتّشًا. وكان يلعن هذه الأيّام...

وساد بيننا سكوت طويل ونحن نتابع المشي وهو ينادي، فلا يجيبه أحد على جانبَي الشارع.

– عمّي عبده، اتّكل عليّ، سأدبّر لك كرسيّين. ثلاثة كراسي. ثلاثة!

وقبل أن يسألني كيف ومن أين، قلت وأنا أودّعه:

– غدًا غدًا ، في الصباح الباكر ، تكون عندك . لا تترك الدكّان قبل أن تصل الكراسي . ثلاثة . ثلاثة !

وعدت من توّي إلى البيت وقد نسيت اللعب .

* * *

كان عندنا في البيت نصف دزّينة من كراسي القشّ . كانت عتيقة – صحيح – ولكنّها لم تكن في حاجة إلى تقشيش . بلى ، أعرف جيّدًا أنّ واحدًا منها وقعت عليه سيكارة كان جدّي يدخّنها فأحرقت بعض حباله ، وآخر أفلت من حباله صفّان أو ثلاثة لعيب في حبكه . ماذا لو أقنع أمّي بهذين الكرسيّين؟ والثالث؟ لقد وعدت بثلاثة ولن أخلّ بوعدي . ولكن هل تقتنع أمّي؟ وإذا اقتنعت فما يقول أبي؟ ما يفتأ يحتجّ . لا نعرف كلّنا إلّا أن نطالبه بالدفع .

قضيت بقيّة مسائي وأنا أدور في البيت على الكراسي ، أقلّبها متظاهرًا ، إذا حانت من أمّي التفاتة ، بأنّني أمارس بها لعبة رفع الأثقال . في الواقع كنت أفحصها . وجاءت نتيجة الفحص مخيّبة لأملي . فحريق السيكارة في الكرسيّ الأوّل عبارة عن ثقب صغير لا يستحقّ من جدّي ذلك الارتباك الذي ارتبكه حتّى أحرق أصابعه في التقاط سيكارته . والنقص في الكرسيّ الثاني قد تغطّى ، أو كاد ، بانضمام الحبال بعضها إلى بعض مع تراخي الأيّام . وفوق هذا وذاك يبقى الكرسيّ الثالث ...

عتيقة أم جديدة ، ستكون لصاحبي كراسيّه الثلاثة . ولجأت إلى الفراش وقد حزمت أمري ، وليكن ما يكون . شرط أن تنام أمّي ويشخر أبي – أختي تغفو على العشاء– وشرط أن أبقى أنا صاحيًا . وبالفعل ، غلبني النعاس مرّتين ، ولكنّي في الثالثة غلبته . وأرهفت أذني متنصّتًا في العتمة فلم أسمع حسًّا ، فأزحت اللحاف ، وقمت حابسًا أنفاسي .

مشيت حافيًا على رؤوس الأصابع ، أجوس في البيت ، وأحمل ضحاياي إلى المطبخ . وفي المطبخ ، بعيدًا عن غرف النوم ، فعلت بها فعلتي . بدأت بأبي ثقب السيكارة – هذا واحد . ثمّ إلى الممشى حيث وضعت أبا العيب الآخر بيدي قبل أن أنام . وإذا حركة في غرفتي المجاورة للممشى . أتكون أختي قد أفاقت؟ لا . لا . ليس إلّا خفقان قلبي . وحملت الكرسيّ إلى المطبخ حيث كان نصيبه نصيب أخيه – صارا اثنين . بقي الثالث . سأنسلّ إلى غرفة السفرة وأضرب بيدي على أوّل كرسيّ تقع عليه . فإذا باب المطبخ يخبط بالحائط . أمّي ! ووقف شعر رأسي . يا الله ! ... يا الله ! ... واستجاب الله ندائي . لم تكن أمّي ، بل البسينة . لا أدري ما أرعبها في تلك الساعة فأرعبتني هكذا في اقتحامها الباب ، ثمّ راحت إلى الزاوية فصوّبت عينيها إليّ تبصّان في الليل بصيصًا غريبًا ، كأنّها تسألني ما أفعل . ولعلّها رأت السكّين في يدي فكشّرت عن أنيابها وهمّت ... كلّ شيء ولا تعرّ فيفيق أهلي .

لم أتجاسر على الكرسيّ الثالث بحضور البسينة . وأخذت أحدّجها وأراوغها حتّى خرجت فأغلقت عليها باب المطبخ وأكملت مهمّتي .

هل أنا في حاجة إلى وصف الصباح الذي طلع على البيت؟ ما كادت أمّي تدخل مطبخها ويقع نظرها على الكراسي الممزّقة حتّى صرخت مستعيذة بالآب والابن والروح القدس . ولم تنسَ مار مطانيوس ، شفيع الحيّ ، فرفعت ذراعيها تناديه ، ولكنّي كنت أسرع منه فقلت بكلّ برودة :

– هذا أنا يا أمّي . أنا فعلت كلّ هذا بالسكّين .

واعترفت لها بكلّ شيء .

ليس مهمًّا الضرب الذي نالني منها . المهمّ أنّها لن تخبر أبي . هكذا وعدتني . وزادت ، بعد أن هدأت ، أنّ لديها بعض ما تدّخره من نفقات البيت ، فهي لن تطلب منه قرشًا لتقشيش الكراسي . ومسحت دموعًا لي وشفعت ذلك بصفعة أخرى ، على قفاي هذه المرّة ، وقالت :

– إنزل نادِ عتّالًا .

لم تخفَ لعبتي على الأعمى الخبير. فما كاد يُدخل يديه في هذا الكرسيّ، ثمّ في ذاك - لم ينتظر الثالث - حتّى عبس عاضًا شفتيه وقد تذكّر ما قلت له من أمس لدى لقائنا في الشارع. فلمّا أدارت أمّي ظهرها راح يستنطقني. وعبثًا حاولت الإنكار، فقشّ الكراسي كان ممزّقًا بشكل لا يترك مجالًا للشكّ في أمر السكّين. فلم يسعني إلّا أن أعترف له، كما اعترفت لأمّي.

- وأبوك؟

فطمّنته أنّ أمّي وعدتني بأن لا تخبره. فسكت رافعًا إليّ وجهه، وأخذت أهدابه تضطرب اضطرابًا عنيفًا، ثمّ انحدرت من الحفرتين إيّاهما - وأنا أنظر متعجّبًا - دموع لم أكن أتخيّل انحدارها إلّا من العيون الصحيحة. ثمّ جذبني إليه وضمّني وقال، كلّ ما قال:

- اِذهب إلى مدرستك.

وطفت على وجهه خلال الدموع تلك الابتسامة.

* * *

كان قصاصي من أبي -كيف عرف؟- انقطاعه عن الكلام معي وتغيير طريقي إلى المدرسة. وهكذا أخذت أسلك الشارع إلى المفرق التالي لمفرق زقاق عبده، ومنه إلى زقاق آخر من تلك الأزقّة التي كان يحفل بها الحيّ.

كنت لا أجسر، حتّى في أيّام العطلة، على المرور بصاحبي. رحم الله أبي. أخبرني، فيما بعد، أنّه أراد أن يربّيني -كذا- ويعدّني للحياة، وهي بلا رحمة، وكثيرًا ما ينقلب فيها المعروف إلى ضدّه.

أمّا كيف التقيت عبده بعد هذا الحادث فشيء لا أنساه. كان ذلك بعد شهر أو أكثر، وكنت خارجًا من المدرسة مع بعض رفاقي. فلم نبتعد إلّا قليلًا حتّى طلع لنا القطرب وعصابته. لم تكن المرّة الأولى التي نتواجه فيها لمعركة من معاركنا، فالحرب بيننا سجال. ولكن ما باله اليوم لا يتحرّش بنا وكأنّه لا يشعر بمرورنا؟ «مكيدة» قلت لمن معي. وواصلنا السير ونحن نتوقّع أن تنشب المعركة عند أيّ لحظة. كنّا ثلاثة وكانوا هم أربعة، ومع القطرب قضيب الزعامة الذي لا يفارقه. وما هي حتّى علت في أعقابنا ضوضاء. لم تكن شيئًا من نفير الحرب المألوف بيننا، فتطلّعت فإذا بعبده، الكرسيّ في رأسه، والعصا في يده يلوّح بها في الهواء، والقطرب ورفاقه قد أحاطوا به من كلّ صوب وهم يعيّرونه بأعلى أصواتهم:

- أعمى مرّون، يا مجنون!

- أعمى مرّون، يا مجنون!

مع دقّ على التنك موقّع، والقطرب يهجم بقضيبه لاحقًا بقوائم الكرسيّ فوق رأس الأعمى. ولم يلبثوا أن انتقلوا إلى البيت الثاني من قصيدهم:

- أعمى مرّون، يا بو قرون!

- أعمى مرّون، يا بو قرون!

هل نتركهم يتمادون؟ وتلاقت العيون بالعيون تقدح شررًا.

كان همّي الأوّل أن أُشعر عبده بوجودي فاقتربت منه:

- عمّي عبده! عمّي عبده! نحن هنا.

فعرف صوتي، فمدّ بالعصا إليّ هاتفًا:

- خُذ دافع عن نفسك.

ورفع ذراعيه فنتر هيكل الكرسيّ عن رأسه وراح يدفع قوائمه في صدور مهاجميه، في حين ارتددنا نحن إليهم من الظهور، نضربهم بجُمع أكفّنا أو نشدّهم من الشعور. واحد منّا كانت حقيبة كتبه من خشب فحطّمها على الرؤوس، وحطّم آخر مسطرته، فضلًا عن عصاي، وقد كان للقطرب منها ضربتان، جاءت الثانية منها على منخوره ورأيت الدم يسيل منه، والأعمى بأربعة منّا - عدد قوائم كرسيّه - يهدر داعيًا القطرب، إن كان شجاعًا، أن يتقدّم. أين القطرب؟ ونظرت، فإذا هو يحمل من حافّة الطريق حجرًا كبيرًا ليهوي به على رأس عبده، فصحت بأعلى صوتي:

- وراءك! وراءك! عمّي عبده، وراءك!

فاستدار وهجم بكرسيّه ، فدخل القطرب بين قوائمه كالداخل في فخّ ، فلوّح به عبده يمينًا ويسارًا ، ثمّ قذفه ، فوقع على ظهره يعوي ، فيما كان الآخرون يهربون في كلّ ناحية…

عدت مع عبده بعد تلك المعركة يدًا بيد مشبوكتين إلى عصاه ، والكرسيّ يرقص على رأسه ، وفي رأسي جرح كلّما رفعت بصري إلى صاحبي ، ونحن سائران ، أحسست لوخزه حلاوة لم أذقها في حياتي . من زقاق إلى زقاق نزولًا في تلك الأزقّة ، حتّى الدكّان ، على شمس رافقتنا ، كانت باهرة ذلك المساء ، ولها بين القناطر وهج عجيب .

* * *

وبعد ،

لم أكن أتوقّع ، ذلك اليوم الذي زرت فيه ابن عمّي ، أن أعود بمثل النهاية التي عدت بها لقصّتي مع عبده . فقد كان عند ابن عمّي شيخ من أهل الحيّ ، فذكرت له أعمى القنطرة ، فقال :

– قشّاش الكراسي ؟ عبده مرّون مات من زمان . وجدوه مقتولًا في دكّانه . قتله أزعر في الحيّ كان اسمه القطرب ، لسرقة بضع ليرات كان يخبّئها في دكّانه ، كما يقول البعض ، ولعلاقة غرام بين القطرب ومرّون ، كما يقول البعض الآخر .

ثمّ أضاف :

– مرّون في السجن ، والقطرب ابتلعته الأرض .

صفحة من مذكّرات لن تُنشر

هذا الرجل القابع في زاوية الغرفة ، أمام كأس الويسكي المشعّ في عتمة المساء ، هو إنسان ميت .

والمرأة في الغرف الأخرى. فيها كلّها وليست في واحدة منها . شبح يروح ويجيء في دنيا العمايات .

وغراب يحوّم في الجوّ ثمّ يهبط فجأة باتّجاه النافذة – ظلّه مسح كأس الويسكي – فمدّ الرجل يده وجرع مرّة واحدة .

ثمالة الحياة .

* * *

الواقع أنّه مات قبل اليوم مرارًا . – من قال إنّ الموت واحد؟ – ميتات حلوة ، رائعة . ومسلّية أحيانًا ، مضحكة .

ولكنّها كانت كلّها كاذبة . لِمَ لم تصدق واحدة منها؟ واحدة على الأقلّ ! إذن لما كان يعاني الآن هذه الميتة الزريّة .

وجعل يتذكّر...

أبهجها ما كان في الصيف .

كان يصحو مع تباشير الفجر ، حريصًا على الاستمتاع بشروق الشمس في الجبل . وهي تشرق فيه ، وخصوصًا في ضيعته ، غيرما تشرق في الدنيا . من أجل ذلك كان يطيل إقامته في الضيعة ما استطاع بعد أن يغادرها المصطافون . موكّل هو بإقفال الموسم ، يدور على العناقيد المنسيّة في الكرم ، ويستقبل ملء ذراعيه أوراق الخريف الأولى .

ما يكاد ينهض وتنهض هي – وكانا ينامان في سرير واحد – حتّى يخرجا بثياب الليل ، مصعّدين في جلول الكرم المتدرّجة خلف البيت ، يسلكان دروبه المتعرّجة ويتمسّكان بدواليه . يأخذ بيدها ، أو تأخذ بطرف ثوبه . تتوقّف عند عنقود احتمى بجذع بطمة أو اختبأ في شقّ صخرة وتهتف إليه . فيجيبها مستحثًّا :

– في العودة . في العودة أقطف لك ما تشائين .

ولكنّها تلحّ . فيومئ برأسه إليها :

– اُقطفيه أنت .

فتأبى إلّا أن يفعل هو ، وهي تنظر . إنّ له في تناول العنقود – على حدّ تعبيرها – فنّ امتلاك الشيء . فيُقبل ، يقطف العنقود ذهبًا ندّاه الفجر ، ويقدّمه إليها . فتأكل منه حبّة أو حبّتين . ثمّ تدفعه كلّه ملء فمه – فنّه الآخر في الالتهام – وينفرط الباقي على الأرض...

ولكنّهما ما ينسيان أنّ غايتّهما الشير .

كأنّه ، بجبهته الناطحة السماء ،

وبصخوره الجبّارة ، المتراكبة ، المنحوتة بعناصر الفصول هياكلَ مسحورة وحيوانات أساطير ،

بمزالقه المنقضّة ومهاويه السحيقة ،
بأشجاره البرّيّة التي لم تعرف منجلاً أو مقصًّا ،
رؤوسها منفّشة كشعور الجنّيّات ،
بأدغاله الملتفّة ومخارمه ،
ببرزه المقصّف ، وعفصه الممسوخ ، وقطلبه المجرّح ،
بعارشاته المتلوّية المشتبكة بألف نبات ما له اسم .
بحكايات ذئابه وسعاليه في الزمان ،
وجوقات جداجده المغنّية ضجر الأبد ،
كأنّه – في إطلاله – الدهر .
ولكنّه دهرهما . وقد عركاه ألف مرّة .
يتوقّفان عند السفح ويتساءلان من أين وإلى أين ؟
كان الشير يبذل لهما كلّ يوم جانبًا ، ويبقي جوانب يتسابقان في اكتشافها .

– تعالي من هنا .

– بل من هنا .

ويتسلّقان وينحدران . يقعان ويقومان . يبتعد مختفيًا ، فتلحق به ملهوفة . يزيح أغصانًا ويقلب أحجارًا . يطوف بها في الشير كلّ مطاف ، كأنّما هي والشير قد اتّحدا جسدًا واحدًا ، فهو يسلك في مجاهله إلى مجاهلها دربًا بكرًا دائمًا ، ويفتح فتحًا جديدًا .

يذكر جيّدًا ذلك الصباح – واحدًا من صباحات لا تُعدّ – أنّه ارتضى في النهاية متكأً اختارته هي بين صخرتين . وكان عليهما أن ينحدرا إليه ، فسبقها ومدّ لها يده ، فزلقت قدم لها على إحدى الصخرتين ووقعت عليه ، فوقعا معًا وجرحت ركبتها .

فنظر إلى الدم وقال متضاحكًا :

– الحِبر الذي ينبغي ! ماذا تريدين أن نكتب به على قبرنا بعد عمر طويل؟

فزعقت من ألمها :

– حفرت قبرنا في كلّ فجوة من الشير ، ونثرت عظامنا تحت كلّ صخرة وشجرة فيه . ألا تعتمد؟

ولكنّه لم يجب . لم يسمع على الأرجح . بل دنا منها ، حتّى إذا ألهبته أنفاسها تناولها بكلتا ذراعيه وألقاها أرضًا في لعبة الحبّ والموت التي كان يزاولها في الشير .

هل للحبّ ، إذا بلغ حدّه ، إلّا حدّ الموت؟

وبينما كانت الشمس تعانق البحر من فوق السفوح ، كان هو ما يزال معانقها ، متذوّقًا ، في غاية حبّه ، أشهى ما يكون الموت...

* * *

مرّة ، مات في الناس علنًا وعلى صفحات الجرائد .

كان قد وصل إلى مكتبه مبكرًا ، على عادته كلّ صباح . وعلى عادته ، تناول جرائده ليكون على اطّلاع على أخبار اليوم . فما كاد يتصفّح أولاها حتّى وقعت عيناه على نعيّه !

شيء عظيم أن يقرأ امرؤ نعيّه بعينيه الاثنتين . ذلك هو الشعور الذي استولى عليه . فضول يخالطه مرح عجيب : أن يعلم سلفًا كيف سيموت .

كما يموت سواه...

تمامًا كما يموت سواه . لا جديد ولا مثير . ضمن إطار أسود ، مع صورته ، وتحتها بالحرف الغليظ : مات فلان الفلانيّ .

بأيّ مرض؟ بأيّ حادث؟ بأيّ سحر؟ الجريدة لا تذكر . أيّ أهمّيّة؟ المهمّ أنّه مات .

«وجرى له مأتم حافل... ورثاه الخطباء معدّدين مزاياه ومآثره... ثمّ وُوري جدث الرحمة...» .

إلخ . إلخ . حتّى «فسيح الجنان» .

ضرب بيده إلى التلفون :

– آلو ! من فضلكم صاحب الجريدة .

– من المتكلّم؟

– أليعازر !

وانتظر لحظة .

وكان العشرات من زملائه في العمل قد تنادوا ووقفوا بباب المكتب لاهجين مهنّئين . فاستوقفهم بإشارة من حاجبيه ، يريد أن يستمتع بهذه اللحظة الفذّة ،

اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت ، أو بالعكس.

– نعم . من؟

– أنا فلان الفلانيّ أكلّمك من وراء القبر.

واستطرد لا يدع لصاحبه مجالًا لشرح أو اعتذار.

– لا . لا أريد أن تهين جريدتك . إنّها لا تكذب . بنت عمّ «التايمس» . قيل : نشرت ذات يوم أنّ فلانًا الفلانيّ مات . وفي اليوم التالي تلقّت منه بخطّه وإمضائه : بل أنا حيّ أُرزق . فنشرت التصحيح ، عملًا بحرّيّة النشر ، وفي ذيله هذا التعليق : «التايمس لم تتعوّد نشر الأخبار الكاذبة . يجب أن تكون ، مع احترامنا لك يا سيّدي ، قد متّ».

والحقيقة ، يا صاحبي ، أنّني متّ ، ثمّ عدلت لأسباب أسردها لك . ولكنّي قبل ذلك دعني أشكرك على أشياء . منها الصورة التي اخترتها لي ضاحكًا ، فأنا أحبّ أن أواجه الموت هكذا . ومنها هذا الشباب الذي جدّدته لي وأنا في أرذل العمر . ومنها خصوصًا «ذلك القلب الذي لم يعرف في حياته إلّا الحبّ» . وكدت أغفر لك بهذا كلّ شيء وأموت حقًّا ، إكرامًا لك ، مكفّنًا بهذه الشهادة التي هي حسبي ونعم الوكيل.

كان الآخر مرتبكًا ، منسحقًا ، لا يدري ما يقول ، والميت يجلده متابعًا :

– ولكنّي لم ألبث أن عدلت ، كما قلت لك . ذلك بأنّني لست من الذين يموتون – كما قد تعلم – إلّا في الصفحة الأولى من الجرائد . ولست من الذين يذهبون إلى القبر إلّا مشيّعين بإخوانهم وعشرائهم ورفاق عمرهم الطويل إن شاء الله . فأين كنت ، يا ابن الحلال ، في مأتمي؟ فتّشت عنك فلم أجدك.

– اِقرأ الجريدة غدًا! كنت غائبًا عن المدينة! اِلتبس على المحرّرين الاسم! سأشرح الأمر! سأتولّاه أنا! ...

– لا تكتفي بموتي حتّى تقطف من على قبري الزهرة النادرة . الخبر الطريف.

– بالله عليك أين نلتقي الليلة؟

– في أيّ مكان غير فسيح جنان ربّك! ...

هذه الأشياء لم يضحك لها كما ضحك من قبل . أزعجته ذكراها . أحسّ لنكاتها وقعًا منكرًا . بلى ، طافت على وجهه ابتسامة صفراء للمرحلة الأخيرة منها : كيف قطع عمله ذلك النهار – استراحة من عناء الموت – وكيف عاد إلى بيته فجلس في صدر القاعة يستقبل الأهل والأصدقاء.

إنّ الموت كان في بيت آخر . بالغلط دقّ بابه.

* * *

ذات يوم قصده إلى عنوانه الصحيح . كان بين أوراقه وكتبه مع الذين لا يموتون . كيف دخل عليه؟ من أين؟ لا يدري . وإنّما وجده بغتة نُصب عينيه ، ينفخ في وجهه ، وقد غرّز في قلبه مخالبه ، ويسأله :

– قُل كلمتك . كلّ عمرك كنت تهيّئ الكلمة التي تحبّ ، إذ أجيئك ، أن تقولها.

ولكنّه لم يقل شيئًا.

لعلّه من أجل ذلك تركه . سحب مخالبه الزرق تقطر دمًا ، وخرج من حيث أتى.

على أنّه ما يزال يعود إليه بين الحين والحين . كلّما أكل أو شرب ، سهر أو تعب ، فرح أو غضب ، أحبّ أو كره فوق الحدّ – حدّ الحياة.

حتّى انعقدت بينهما صحبة وعشرة ، فهو الآن محامي الموت في محكمة أبناء الحياة.

«رموك بكلّ تهمة ، ألصقوا بك كلّ فريّة ، قالوا فيك أقوالهم زورًا وبهتانًا . أنت لست قاسيًا ، ولا بشعًا ، ولا مرعبًا . تظلّ ذلك الألدّ حتّى تضمّهم إليك ، فـإذا أنت الصديق الحميم ، والنسيب القريب ، والحبيب الذي لا ينتهي له عناق».

* * *

على أنّ له ، من قبل ومن بعد ، ميتات من نوع آخر.

كم من مرّة مات في القصص التي خطّها قلمه! أبطال يخلقهم ليخنقهم، ويسمّنهم لينحرهم. يطلب إليهم الآن من كلّ قلبه أن يغفروا له. لم يكن يقصد قتلهم، وإنّما نفسه كان يقتل.

كُتبه هذه المعروضة في الواجهات توابيت – لو يعلم الناس – تحوي جثثًا متعدّدة لميت واحد. يفتحها الناس ليتفرّجوا على الآخرين، ويفتحها هو – إذ يفتحها – لكي يتأمّل وجهه. ويبكي، بالدموع السخينة، نفسه.

صغيرًا مات وكبيرًا. بريئًا ومجرمًا.

في خِرَق الطفل العالق بثدي أمّه الميتة جوعًا على قارعة الطريق، يطرحه حفّار القبور فوق جثّتها، وحيًّا يهيل عليه التراب،

في بزّة الفتى الشاعر الذي تطوّع في سبيل الحرّيّة وتلقّى الرصاص ملء صدره ووقع، على فمه ابتسامة الأبطال وعلى جبينه هالتهم.

في جِلد الشيخ المقهور. المطروح في القبو استغناء ومهانة. شيئًا من أشيائه العتيقة التي انتهى دورها.

شهيدًا مات ينشد أناشيد الخلود،

وعلى عنقه شدّ الحبل إذ شدّه على أعناق الخونة والسفّاحين وقطّاع الطرق،

بالنار مات حرقًا، وفي البحر غرقًا، وبالسكّين ذبحًا،

كافرًا مات، وقدّيسًا مات، ومجنونًا.

ثمّ عاف ذلك. زهد بالبطولات والمآسي، وجعل يموت ببساطة الذين يموتون كلّ يوم. ببلاهة الموت.

يموت في الجنازة المارّة في الشارع لغريب لا يعرفه ولم يسمع باسمه،

في النعيّ الذي يقرأه على الحيطان لزيد من الناس أو عمرو،

تحت الأنقاض في الزلازل والكوارث في أربعة أطراف الدنيا،

بالأيدي تخنق عصفورًا،

والأقدام تسحق حشرة على عتبة البيت...

* * *

الموت يلتطم فيه كأمواج البحر.

ولم يلبث أن رأى نفسه على شاطئ موحش، يخبط في رمال لزجة، والبحر يقذف إليه جثثًا.

الأمواج تتعالى في الغرفة. تضرب الحيطان، تغرق كأس الويسكي. والجثث تطوف حواليه. تقف على أقدامها وتحدّق إليه بعيون حيّة. أليفة وجوهها، حارّة أنفاسها، ولها أكفّ تدعوه إلى الخروج.

أيّ نزهة مع الأصحاب في هذا الليل الممطر الراعد؟

رفاق الصبا وعشراء العمر:

الرسّام أبو الشعر والروح المبعثرين،

الشاعر أبو السمرة الحلوة والقافات.

الصحافيّ البسّام، لم تطفئ الرصاصة قلبه إلّا لتشعّ على وجهه ابتسامة لا تموت،

الناقد الساخر، اللمّاع اللذّاع، المتفجّر زخمًا وضحكًا.

الأهل والجيران الذين مشى وراءهم إلى مقبرة الضيعة واحدًا بعد الآخر. الأقربون والأبعدون. كلّهم جاؤوا. يطلعون من ورائه. عن جانبيه. يلاقونه من أمامه. يملأون الطريق...

* * *

وصبيّة تشقّ لنفسها منفذًا بينهم. تخترق الصفوف إليه. تدّعي أنّ لها حقوقًا ممتازة.

يدير وجهه عنها. يشير إليها أن تبتعد بالحسنى. ولكنّها تصرّ على الالتصاق به وتعيد حكايتها للمرّة الألف. بصوت عالٍ هذه المرّة كأنّها تتعمّد الفضيحة. تصرخ بوجه السماء كيف أحبّته، ونذرت نفسها له، وصلّت من أجله لياليها. ثمّ لم يعرف – يا ناس! – بموتها إلّا بعد سنة.

ها هي تضمّه إليها. لهاثها في عنقه. وعطرها – لم يتغيّر – ملء خياشيمه.

– لا أحبّ هذه الرائحة، قلت لك!

لو كانت – عافاها الله – تتعطّر بغير ذلك لربّما أحبّها. – «ربّما» أقول لك. ولم أقل لك يومًا أحبّك، فعلام تلاحقينني حتّى بعد موتك؟ وحتّى لو قلت لك وأقسمت أيماني، فماذا يعني؟ قلت هذا للكثيرات من قبلك ومن بعدك.

أكّدته في وجوههنّ،

سفحته في أحضانهنّ،

ونظمته قصائد ترنّ.

ومع ذلك فقد مُتن جميعًا في قلبي أكثر ممّا أنت ميتة. اِذهبي وقولي لهنّ ذلك. اُطرقي أبوابهنّ، وبوجه كلّ منهنّ اقذفي الحقيقة! عارية – كما لم يعرفن عريًا قطّ – اِقذفيها. قولي لهنّ: كان يكذب عليكنّ.

ولا غضب ولا عتب. كان يكذب على نفسه.

اِمرأة واحدة صدقها الحبّ. ليست هنا. وعهده بها لا تدعه يذهب وحده لأهون من هذا بكثير.

أين هي؟

من دنيا المعرفة أنت. اِذهبي إليها حيث هي من دنيا العمايات. اِبحثي عنها في فجاج الأرض. اُسلكي الوعور. توغّلي في المغاور. أشرفي على كلّ شفير وناديها. بأحسن أسمائها ناديها. وباسمك واسمهنّ جميعًا قولي لها:

– من خلالنا أحبّ خيالًا، فيك أنت تجسّد.

كنّا له الكرم والعنقود، والمعصرة والكأس، وعلى شفتيك وحدك شرب الخمرة التي مزجتِ فيها حياته ودنياه وربّه.

أنفاسنا كانت تخمد روحه، وأنفاسك أذكت في روحه نارًا مقدّسة.

أيدي اليباس والحرمان كانت أيدينا، وباليدين كنت تحتضنينه: يد الحنان تمسح جراحه، ويد الخير تملأ – على الفقر – أهراء بيته كنوزًا...

وقبّليهما – يديها – اعترافًا بنداهما، وبالدموع اغسليهما تكفيرًا.

اِستغفري له عمّا كان منه من قبل ومن بعد. مغفورة خطاياه كلّها...

إلّا واحدة:

يوم زرع في قلبها الشكّ، فأبكاها بدل الدمع دمًا.

* * *

كانت الرياح قد اشتدّ عويلها، والأمطار تنهمر، وهو يمشي والأموات يواكبونه.

أحياء كلّهم. وحده بينهم هو الميت.

مات – حقًّا – إذ مات في قلبها.

وجثّة هو. يطلب منهم أن يعاونوه على طرحها... في نهر المدينة نفاية من نفاياتها... من نافذة المكتب الذي مفتاحه في جيبه... تحت أيّ سيّارة في الشارع.

هذه الشاحنة، مثلًا، المقبلة في الظلام. أليست متّجهة إليه؟

وحثّ الخطى يلاقيها.

كانت تشقّ الليل سائلة بأمطاره، مجرّحة ببروقه، متقلقلة، وكالحبلى تتقلّب. تخبط ثمّ تغيب في المنعطف. يحبس الأنفاس باحثًا عن مظانّها بسمعه. يمشي متربّصًا، لاهثًا.

تُرى، هذا الهدير أمنها هو أم من قلبه؟

أين هي؟ هل ابتلعها الليل؟

وإذا هي تطلّ مرّة واحدة. بل هي التي تبتلع الليل. بعينيها تبتلع الليل.

وفجأة خُيّل إليه، من خلال هاتين العينين المصوّبتين المفترستين، أنّها حيوان خارج من غابة وحشيّة. فضرب بكفّيه على عينيه الاثنتين. وعلى برق انبثق بين أصابعه صباحًا باهرًا دفع رأسه...

... ومشى إلى قبره في الشير.

الرغيف

إليك ، يا أبي ، أقدّم هذا «الرغيف».

وإذا كنت سكبت له الحبر وراء مكتبي الوثير فقد قدّمت أنت إليّ في أيّام الحرب الكبرى ، وإلى إخوتي وأخواتي ، أرغفة سكبت لها عرق جبينك ودم قلبك ، عهد تخلّى الآباء عن أبنائهم وأنكر الأخ أخاه.

وكنت ، يا أبي ، من الذين يقولون مع الناصريّ : «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». فإذا كان في هذا «الرغيف» نفَس للحرّيّة والكرامة فمن أنفاسك على تلك الأرغفة الغالية.

ترى أنّني لا أقدّم إليك إلّا بعض ما هو منك. واعذر قصوري عن بلوغ ما بلغت ، فأنت أبي ، وأنا ابنك ما أزال صغيرًا.

بيروت في ١٧ آذار ١٩٣٩

ت. ي. ع.

أذكر ذلك جيّدًا.

قال أبي «قُم انظر إلى العسكر!» فقمت، وقام إخوتي وأخواتي ولحقت بنا أمّي. المساء. ونحن على الشرفة نتزاحم شادّين بحديدها، والجنود يمرّون على الطريق، ثيابهم رثّة مبلولة، تنوء أكتافهم بالبنادق وظهورهم بالأحمال، بعضهم في جزمات مقطّعة بالية، والأكثرون حفاة تغرق أقدامهم في الوحل.

خافت أمّي فدعتنا إلى الدخول فلم ندخل، فحاولت أن تحملني فامتنعت واعتصمت بأبي، فبسط كفّيه فوق رأسي واتكأ عليّ لم يحفل بغضبها. أما كان الجيران كلّهم قد خرجوا مثلنا فملأوا حافتي الطريق!

الفرقة أوّلها رأيناه، وأمّا آخرها فلا يناله الطرف. وأنا أرفع أنفي حينًا بسؤال إلى والدي، وأشير بإصبعي حينًا، وأصفّق مسرورًا حينًا آخر. أشيح بوجهي عن المشاة وأمدّ برأسي إلى الفرسان، أرافق واحدهم إلى أن يغيب وراء كتف أختي، فأنحّيها فلا تحسّ، فأدور على التالي. حتّى لم يبقَ إلّا البغال الهزيلة العرجاء، والمقصّرون من الجنود، المقتولون تعبًا وبردًا وجوعًا.

ووقع أحدهم على وجهه فتداركته جارة أرملة وأدخلته إلى بيتها. لم أدرِ ما حلّ به ولكنّي سمعت من غد نساء يتوشوشن بأنّ أمّ حنّا أخذت بندقيّته وإحرامه برغيفين وصحن عدس.

وجاء المختار في السهرة فخلا بأبي هنية. ثمّ رأيت أبي وأمّي يُخرجان ما في معجننا من خبز وأكثر ما في الخزانة من بيض، وحضن بطاطا، وبصلًا وسكّرًا وأشياء، وجعلا كلّ ذلك في كيس خيش، فحمله فلّاح كان بالباب ينتظر المختار، وسار معه إلى البيوت الأخرى.

وعاد والدي يخبرنا أنّ العسكر جائعون، فالمختارون يجمعون لهم من بحرصاف وساقية المسك وبكفيّا والمحيدثة ما يمسكون به أنفسهم. ثمّ أقبل على والدتي يحادثها عن الحرب وتركيّا وفرنسا والنمسا وإنكلترا وألمانيا، فوقفت أصغي وأقاطعهما بالسؤال تلو السؤال لعلّي أفهم، فما دار لي من كلامهما شيء.

كنت طفلًا لا عهد لي بالروزنامة. ولكنّي علمت فيما بعد أنّ الجيش التركيّ دخل وطني لبنان، ووصل إلى قريتي بحرصاف، في تشرين الثاني سنة ١٩١٤، وأدركت أنّه لم يدخل دخول الفاتحين إلّا في البلاغات الرسميّة التي أُذيعت في إسطنبول وغيرها من العواصم والمدن، وأنّ قوّاده كانوا يخشون قيام اللبنانيّين بوجههم ويحسبون لهم حسابًا، لما اشتُهروا به في سالف الزمان من الرجولة والمروءة، ولما تمتّعت به جبالهم من مناعة وشموخ واستكبار.

مشت الحملة فلم يقف في طريقها إلّا العواصف والثلوج، فأفنت فريقًا وأهلك الجوع فريقًا آخر، وحامت الغربان فوق بلادي ووقعت على الأودية تقتات لأوّل مرّة من جثث الأتراك...

أجل، لم يقف في طريق الحملة إنسان من لبنان، لأنّ لبنان تبدّل منذ حوادث ١٨٦٠ غير لبنان. أُذكيت فيه الفتن الطائفيّة فتوزّع شيعًا وتشتّت فرقًا. وسعت الدول الأوروبّيّة إليه بمطامعها، وإلى سواه من أجزاء السلطة العثمانيّة المفكّكة، فاصطنعت العطف عليه وتكلّفت حمايته، فاجتمعت سبع منها ووضعت له نظامًا خاصًّا، وأجبرت «الرجل المريض» على ضمان امتيازات له، أهمّها إعفاء أبنائه من الخدمة في الجيش الهمايونيّ ومنع هذا الجيش من احتلال أراضيه.

ومنذ ذلك الوقت أدار لبنان وجهه نحو الغرب، وحسّه وفكره جميعًا، وأمسى في مجموعه متواكلاً، رخو الأعصاب، قليل الهمّة، شأن كلّ شعب يفقد اتّحاده وإيمانه بنفسه. فلمّا نشبت الحرب الكبرى وخرقت تركيّا امتيازات لبنان لم تجد فيه أبناءه، فاستوت على صدره استواء المستبدّ، فلم تدعْ ظلمًا إلّا أتته ولا حرامًا إلّا ارتكبته، وسجّل لها التاريخ، في هذا الوطن الصغير الجميل، صفحة لم يعرف في حياته أشدّ اسودادًا منها، والظنّ كلّه أنّه لن يعرف إلى الأبد.

غير أنّ بقيّة من الدم الكريم أبت إلّا أن تفور في صدور النابهين المتعلّمين من الشبّان، فتعاونوا مع إخوانهم وأبناء عمومتهم وخؤولتهم في كلّ شعب من الشعوب العربيّة على خلع نير الأتراك، وكانوا في طليعة الداعين إلى الانفصال عن الدولة العثمانيّة التي حكمت العرب أربعة قرون ونيّفًا هجعوا سحابتها هجعة هي من أغرب الأسرار وأرهبها في سيرة الأمم. من هؤلاء الشبّان مَن أدّى الأمانة الكبرى فمات على المشانق التي نصبها الحاكم العسكريّ جمال باشا في بيروت ودمشق وسواهما، ومنهم مَن لبّى نداء الصحراء فاشترك في ثورة الشريف حسين في ١٩١٦ ودخل ظافرًا مع مَن دخل بهم نجله فيصل إلى عاصمة الأمويّين في ١٩١٨، يحاولون إعادة ذلك المُلك العربيّ العظيم، وبعث جاهه العريض، ومنهم مَن لا يزال حيًّا إلى اليوم يتعهّد النبتة التي سقاها الشهداء بدمائهم، فتعلو ساقها وتشتدّ، وتذهب فروعها في السماء.

* * *

كلّ هذه الأشياء تفتّحت عليها عيناي حينما كبرت. ولو كان ذلك الطفل يدركها في وقفته على الشرفة بين ذراعَي أبيه لما صفّقت كفّاه الصغيرتان للعسكر التركيّ يطأ قريته ووطنه... وحينما كبرت استيقظ في نفسي ابن ١٩١٤ واحتجّ بسذاجته، ولعن ألف مرّة ومرّة لقمات طيّبات أطلعتها أرضنا النديّة، ورعتها سماؤنا الطاهرة الوفيّة، يقطعها الآباء والأمّهات عن أفواه أولادهم وفلذ أكبادهم، ليسدّ بها الأجنبيّ المحتلّ جوفه ويردّ غائلة الجوع عن نفسه. حتّى إذا تمكّن من البلاد أطعم الآباء والأمّهات والشيوخ والصبايا والأولاد شعيرًا وكرسنّة وزؤانًا، أكل الدوابّ والكلاب أطعمهم، ثمّ حرمهم فقتلهم...

ولكن، ما لي أسترسل في الحديث وأستبق الحوادث من روايتي؟

التُّربـــة

١

كانت ورده كسّار عابسة لم تفترّ عن سنّ طول ذلك النهار. فقد جاء الدرك في الصباح وفتّشوا البيت مرّة أخرى، فقلبوا الأثاث وأزاحوا الخزائن والمقاعد ورموا الفُرش واللحف إلى الأرض، ونزلوا إلى المراح فبعثروا أشياءه العتيقة. وأقاموا لها الدكّان وأقعدوه فلم يدعوا صندوقًا إلّا كفأوه ولا طبقًا ولا إناء، كأنّ مَن يطلبونه يستطيع أن يواريه طبق أو يغطّيه صحن! وزادوا فكانوا غلاظًا، فشتمها أحدهم وهدّدها الآخر بعقب بندقيّته، واستهزأ بها الثالث وهي فلانة التي تستهزئ بالناس أجمعين. وكان كبيرهم أشدّهم تجنّيًا وأبلغهم نكاية بها، لم يعرها التفاتة ولم يقل لها خيرًا ولا شرًّا، ظنّته فاضلهم فإذا به يمدّ يده، وهو خارج، ويأخذ من البرتقالات أكبرها لا إذن ولا حياء.

ولم تكن ورده لتحفل بالحادث كثيرًا لولا أنّها تتشاءم منه وتخشى أن ينال من سمعتها لدى العسكر التركيّ. فقد تكرّر منذ شهر فتكرّر به النحس، وانحبس عنها الرزق طول اليوم الذي يطأ فيه هؤلاء الدرك عتبتها بجزماتهم المسمّرة الطقاقة. وها إنّ الدنيا تُدغش ولم يزرها من زبائنها إلّا همشريّان* عند الظهر ببشلك وأربعة متاليك. وشأن الدكّان لا يصلح بمثل هذين وكيسها الهزيل، ولولا ذوو الشرائط اللمّاعة ومجيديّاتهم المرنّة لماتت ورده جوعًا ومات مَن وراءها، كما يموت الناس في ساقية المسك وغيرها بالعشرات والمئات.

– قدح واحد بعد! قدح واحد!

لم تجب، وبقيت مستندة إلى عارضة الباب مديرة ظهرها. فالسكران يردّد هذا الطلب منذ ساعة بإلحاح السكران. وهي تأنف من مجاراته خصوصًا في هذه الأزمة تأخذ بنفسها وكيسها معًا، فتجعل الحياة كلّها تبرّمًا وحقدًا. ولو أدرك السكران شيئًا من ذلك لأمسك، ولكن هيهات!

– قدح أخير! أقوم وأصبّه بيدي.

– أكسرها لك!

وتحوّلت ترمي الجالس في الزاوية بنظرة تحدٍّ: بدين ينطوي كرشه على حافّة الخوان، ويتدلّى تحت عينيه الحمراوين شاربان قذران على فم رخو مبتلّ. لم يسمع تهديدها وحاول القيام بكأسه فوقعت على الأرض وذهبت شظايا.

فانحنى يلمّها ويبوسها متباكيًا:

– يا حرام... يا حرام!

– كُلّها، كُلّها. عسى أن تموت!

وجرّته إلى الباب لتطرده، فإذا برجل قد صار إلى

* انظر تفسير الألفاظ والعبارات التركيّة في آخر الكتاب.

العتبة بطقم إفرنجيّ ومظلّة على ذراعه ونظّارتين يسوّيهما ويشمخ كالمتسائل أيدخل أم لا يدخل. غريب لم تَرَ له ورده وجهًا من قبل، فاستوت ترحّب به وتتكلّف الضحك، وتراجعت إلى أقرب مائدة فمسحتها بطرف إزارها:

– تفضّل، تفضّل... لا تؤاخذه، سكران! دخل إلى هنا سكران. أنا لا أسقي عرقًا في دكّاني. ممنوع! من أجل العسكر... هل أنت آتٍ من بعيد؟ أعطني طربوشك لأنفضه. هات عنك. البرد شديد اليوم. سأوقد لك النار حالًا.

وفركت كفّيها ونادت:

– أبو سعيد... أبو سعيد!

ولمّا تأخّر الجواب ذهبت إلى باب في الحائط فانفرج، قبل أن تصل، عن ولد في التاسعة من عمره.

– أين جدّك؟... ها!... هل طرشت؟

فلم يبالِ الشيخ بها، ورفع عينيه من فوق الصغير إلى الزائر الجديد فتلاقت عيون الاثنين هنيهة، ثمّ نظر إلى السكران وهزّ برأسه وأغلق الباب.

– قدح واحد بعد... يدفعه عنّي الخواجه.

– من أين لي العرق؟ هل أنت مجنون؟ (وصرّت بأسنانها) رُح أكمل سكرتك حيث بدأتها. يلّلا من هنا!... هل ترى عندي عرقًا يا خواجه؟

ولم يجدِ ورده غضبها شيئًا، وما أحسّ السكران بتفريكها أصابعها ولا بغمزة حاجبها، وظلّ مقبلًا بقمبازه المشقوق على الصدر، حاملًا حطامة كأسه مصبوغة بالدم.

– أهذا عرق أم لا؟ شمّ. شمّ يا خواجه. عرق ورده كسّار رائحته كالمسك. سترى أنّها تصبّ لي قدحًا آخر... وحياتكِ! (ولوى عنقه) وحياة طام. ها! ها! انظر يا خواجه (وأطلق لسانه) حلقي ناشف مثل الحطبة.

فأجفل الرجل من أنفاس السكران.

– لا تريدين أن تعطيني؟ طيّب. أنا أبو زيد! أنت لا تعرفين أبو زيد بعد... والله العظيم أطلع على السطح وأنادي...

– اُخرج من هنا!

وصفعته، فضحك للصفعة ضحكة بلهاء، ورفع إصبعه وهو يتهادى:

– اِشهد يا خواجه! أنا أُنذرها منذ الآن، سأطلع على السطح وأنادي: يا ناس يا ناس! كذا وكذا... لأنّني أنا وحدي يا خواجه (وحملق بوقار) وحدي أنا أعرف السرّ.

ارتعش الغريب عند هذه الكلمة وركّز نظّارتيه على أنفه المجدور وأخذ يحدّج السكران. أمّا ورده فقد كان ذلك فوق طاقتها فوثبت على أبو زيد تريد أن تقضمه بأسنانها، فوضع الغريب يده بينها وبينه، فارتدّت وقالت:

– كرامتك يا خواجه، وإلّا... وحياتك لا تؤاخذني.

– العفو. أعطيني برتقالة، وصبّي لأبو زيد قدحًا.

ووضع ريالًا على الخوان. فتردّدت، فأردف:

– ومتى شرب به قولي لي لأفتح له حسابًا على ريال ثانٍ.

– ولكن أنا لا...

– وثالث ورابع، إذا أحبّ.

فبلعت بريقها وهرولت خلف الستارة.

٢

لمّا جاء أبو سعيد بالموقد كان أبو زيد قد حظي بكأسه واطمأنّ إلى حظّه. والغريب يتناول قطع البرتقالة بطرفي سبّابته وإبهامه قطعة فقطعة متمهلًا، متأنّقًا، متشاغلًا بها عن أبو زيد وهذيانه، وورده ومحاملاتها. حتّى إذا أحسّ بحرارة النار التفت إلى الشيخ ليشكره،

ولكنّ أبو سعيد كان قد أدار ظهره يسأل ورده :

– ألم تأتِ زينه بعد؟

فنكصت برأسها أن لا. فدنا من عتبة الدكّان وأرسل بصره في الطريق حتّى طرفها البعيد فلم يرَ إلّا الأمطار تتلاعب بها الرياح ، فتنهّد من أعماق قلبه ، فغشّت لهبة أنفاسه الدنيا في عينيه فوق ما فيها من ضباب وظلام ، فأطبق أجفانه عليها جميعًا وانقلب عائدًا ، فلمّا حاذى أبو زيد رفع السكران طربوشه ولوّح بقدح كان تحته وقال :

– السرّ بيننا نحن الثلاثة : أنا وأنت وورده (وجرع جرعة كبيرة) من هو الحمار... بُف... بُف... من هو الحمار الذي قال إنّ السرّ إذا جاوز الاثنين شاع؟ أنا واحد ، وورده اثنان... عدّ معي يا خواجه. وأبو سعيد ثلاثة... وطام (ونفخ أيضًا بين شاربيه) أين صرنا في العدد؟ وزينه أربعة... هذا أنفك وهذا فمك. وهذا... تعالَ ، تعالَ ، اقترب منّي. هل أنا سكران؟ صحيح أنّني سكران. لو كنت صاحيًا لكان لك شاربان! قه قه! السكر يطيّر شوارب الآخرين!

فلم تتمالك ورده ، على ما بها ، من الابتسام ، لأنّ الجدريّ كان قد أحفى كلّ شعر في وجه الغريب. ولكنّه لم يُبدِ للنكتة انزعاجًا ، وشارك السكران في الضحك ، والسكران يتنقّل في ثرثرته :

– أترى هذه المرأة؟ هذه ستّ النساء... بُف... وأخت الرجال! هل تظنّين يا ستّ ورده أنّني سأفشي السرّ؟ يا عيب! أنت لا تعرفين أبو زيد. لو شنقوا أبو زيد لا يقول كلمة. أفضّل أن أموت ألف مرّة (وضغط رقبته بكلتا يديه)... ورده مثل أمّي وأحنّ منها عليّ. اِسمح لي يا خواجه أن أشرب كأس ورده. تصوّر... بُف بُف... تصوّر ما كان يحلّ بأبو سعيد وزينه وطام لولا ورده! بهم كلّهم ، حتّى الصبحا كانت تموت جوعًا. هل تعرف الصبحا؟ تسمعين منّي يا ورده ، اذبحيها ، اذبحيها قبل أن تموت جوعًا. أنا أبو زيد بطولي وعرضي ، أنا أبو زيد... بُف... بُف... الجوع ما عليه أبو زيد ، كنت أموت أنا أيضًا لولا ورده. كأسك يا ورده ، يا أمّ الجميع! أنا أقولها على السطح أمام كلّ الناس : أبو زيد يعيش من فضل الستّ ورده!

– هل تريد أن تسكت!

– هاه هاه! سددت فمي. الله يقصف عمري! هل بحت بالسرّ؟ قلت لك سدّي لي فمي. ولكن لا. ماذا قلت أنا؟ أتظنّين أنّني أزلق بلساني؟ أبدًا أبدًا. صبّي لي كأسًا.

– لم يبقَ عندي عرق.

– صبّي لي كأسًا. أنا أفهم ما أقول. لا تخافي. بوف... بوف... أعبثًا تضعين ثقتك بي؟ أبو زيد سيّد من حفظ السرّ. اِسمع يا خواجه ، لا تظنّ أنّني سأبوح لك بالسرّ ، العرق وحده والشرف وحده.

– وأنا وأنت معًا.

– طبعًا. أنت مثلي شريف ، والشريف يفهم الشريف. أليس كذلك؟

– صبّي له يا ستّ ورده.

– القدح الأخير على شرط.

– أنا لا أشرب إلّا الأخير دائمًا... ما لك تقوم يا خواجه؟ بل تقعد. وحياتي تقعد... ما هذا؟ لا تأخذي منه متليكًا يا ستّ ورده ، الحساب كلّه عليّ ، أسمعتِ؟

وكان الرجل قد أخرج من جيبه حفنة بشالك وترك منها على الطاولة بشلكًا ، فصحّحت ورده أنّ له بذمّتها من المجيديّ الأوّل بشلكًا فعليها أن تعطيه ما له لا أن يزيدها ، ولكنّه أبى أن يقاضيها حقّه ، ونظر فإذا الصبيّ يشقّ الباب في الحائط ويتلصّص من خصاصه ، فمدّ إليه بالبشلك :

– خُذه ، تشتري به حلوى.

وقام ، فتبعته :

– لا تؤاخذني. لا تؤاخذني. (وخفضت صوتها) تأتينا المرّة الثانية في السهرة إن شاء الله فتكون بنتنا هنا... أعني ليست بنتي بل بنت زوجي. هل تعدني؟

ما الاسم الكريم؟

– خليل المعلّا.

– تشرّفنا. تشرّفنا... ولا يكون هذا السكران هنا. لقد أزعجك كثيرًا.

– بالعكس، إلّا إذا كان أزعجك أنت. هـ هـ هـ!

وضحك خليل المعلّا ضحكته الأولى في ساقية المسك، وضرب عقب مظلّته في الأرض.

٣

ركض طام إلى جدّه فضمّ يديه وراء ظهره ورفع أنفه:

– اِحزر يا جدّي.

– كلّتان.

– ما حزرت.

– أربع كلل!

فشال الصبيّ بحاجبيه، فعبس الشيخ وتناول عصاه:

– ها ها! حزرت. برتقالة أخرى سرقتها من عند أمّك!

– لأ. لأ. اُنظر يا جدّي.

– هوه هوه! من أين لك هذا؟

– أعطني إجّتي وتعالَ نحسب، كم متليكًا في البشلك؟

– هل نسيت؟

– عندي في الإجّة واحد وعشرون متليكًا.

– الخواجه أعطاك البشلك؟

– إي، إي. وإذا رجع غدًا وأعطاني بشلكًا أيضًا، فكم يصير معي؟

– ...

– كم يصير معي يا جدّي؟

– كثير، كثير!

– يعني كم متليكًا؟

– ماذا أعلّمك أنا طول النهار؟

– تعلّمني الحساب.

– أُحسب لأرى.

– جدّي، جدّي! أريد أن أصرف البشلك بمتاليك. البشلك لا ينزل في الإجّة ها! ها! لا ينزل فيها.

وكان الصغير قد تناول حِقّه الفخّاريّ يعالج باهتمام دسّ القطعة في شقّه فلا يُفلح.

– جدّي، جدّي! اِشترِ لي غدًا إجّة كبيرة، كبيرة! (وكبّر عينيه) تدخل فيها البشالك. وسأقول لراسم بك أن يعطيني بشلكًا.

– لا، لا تقل له.

– سأقول للخواجه سامي.

– كم مرّة أوصيتك لا تقل الخواجه سامي.

– قلتها بيني وبينك. ولكن لماذا صار اسمه الأخ حنانيا؟

– هذا لا يعنيك.

– أنت يا جدّي، ماذا كان اسمك قبل أن يكون أبو سعيد؟

– بطرس. ألا تعرف؟ أنا اسمي جدّو بطرس وأبو سعيد.

– وأنا، لماذا ليس لي إلّا اسم واحد؟

– أنت؟... لأنّك صغير.

فلم يفهم طام كثيرًا. فبلع بريقه وعاد يحاول إدخال البشلك في الإجّة.

– وأنت، ألا تعطيني بشلكًا يا جدّي؟

– بلى، بلى، سأعطيك.

– أعطني.

– سأعطيك في المستقبل يا جدّو.

– أعطني الآن!

– ألا يكفيك ما معك؟

– لماذا لا تعطيني أنت إلّا متاليك؟
– المتليك يا جدّو حلو، أبيض، ويلمع. ألا ترى البشلك: أسود، وسخ!
– ولكنّه يساوي عشرة متاليك. أما أنت قلت لي؟
– ...

وكان الشيخ يريد أن يجاوب لولا شعوره بأنّ حفيده أفحمه فما يدري ما يقول، فأخذ ينكت النار بالملقط وعيناه تحترقان مثل هذه الجمرات الحمر التي ينكشف عنها الرماد. وما أدرك الولد شيئًا من مأساة جدّه، وكلّ ما فهم أنّه أغضبه فهو لا يصرف وجهه عنه مثل هذا الصرف إلّا لأمر. فترك الإجّة والبشلك على البساط ودنا منه، فإذا ورده تدخل صائحة:

– طام! طام!

وتهجم:

– أين البشلك؟ هاته إلى هنا.
– هذا لي. هذا لي.

وارتمى طام على الحضيض حاميًا ثروته الكبيرة بجسمه الصغير. فشرعت أمّه تشدّه ليزيح فلم يتحرّك، فضربته فما لان، فشدّته من شعره فدسّ كفّه تحت إبطه وضغط القطعة، واقترب أبو سعيد يردّ كنّته فشتمته، ويُقنع الولد فلم يقتنع، وما زالت ورده بابنها حتّى تمكّنت من كفّه، ففرّكت أصابعه واستولت على البشلك، وتركته فريسة البكاء.

لبث أبو سعيد دقيقة طويلة جامدًا يحدّق إلى الباب الذي دفعته ورده وراءها بغضب... ثمّ أقبل على طام يؤاسيه حتّى أمسك عن جهشته وقال:

– تعطيني في المستقبل بدلًا منه؟
– وعدتك. هل أكذب أنا يا جدّو؟
– وأحسن منه. بشلك أبيض، نظيف، يلمع... هل يوجد بشالك هكذا؟
– مؤكّد، مؤكّد يا جدّو.

ورفع الشيخ حاجبيه الكثيفين ونظر طويلًا إلى جبين الصغير...

ثمّ تنهّد وقال:

– رُح يا ابني تفقّد أختك هل وصلت، والحقني إلى المراح.

ونزل أبو سعيد إلى الطبقة السفلى من البيت يضع للبقرة عشاءها. وبعد قليل جاء طام فأخبره أنّ زينه لم تصل بعد، ثمّ جعل يقصّ عليه أنّ جنديّين أقبلا وعاونا أمّه على طرد أبو زيد.

– لو تراه يا جدّي، ذهب إلى القناة ووقع على وجهه. طوب!

وضحك طام من كلّ قلبه.

* * *

كان الجنديّان طليعة السمّار. ثمّ توافد بعدهما زبائن كلّ ليلة، فحفل جوّ الدكّان بالقلابق ودخان السيكارات وخليط النكات والعربدات تركيّة وعربيّة، وورده تبسم لهذا، وتجيب ذاك، وتلبّي طلب الآخر، لا تكلّ لها يد ولا يملّ لسان. وإذا تصدّى لها ساذج منهم بكلمة تركيّة ساخرة فليس أسرع منها إلى الردّ، على دهشة البعض وقهقهة الآخرين، لأنّ ورده قد ضربت من لغة السلطان بسهم تفخر به، إلى فخرها بالإنكليزيّة التي لا يفهمها العسكر ولا يستطيعون – ويا للأسف! – أن يقدّروا براعتها فيها.

ولكنّ جهود المرأة لتسلية الجماعة ذهبت سدى. فقد مضت ساعة ثمّ ساعة، وبات الانتظار ثقيلًا جدًّا. وكان أشدّهم تذمّرًا جنديّ يدخل الدكّان لأوّل مرّة، لم يرضَ أن يأكل مجدّرة ورده وبصلاتها العفنة إلّا طمعًا بما منّاه به رفاقه من لقاء فتاة سمراء، مربوعة القامة، مفتولة الساقين، لها عينان تذبحان ذبحًا، وفم كالفستقة.

– يا ورده، أين زينه؟
– بالقبر إن شاء الله!
– حرام عليك.
– سأُريها حينما تصل إلى هنا. ألا تقع بين يديّ؟

ورفعت قبضتها في الهواء صوب الطريق ، ثمّ أطلّت من الباب ، فضاق ذرع صاحبنا الجديد فخرج ، ولم ينفع في استبقائه رجاء ورده ولا دلالها ، وخرج بعده آخرون ، وبعدهم آخرون . ولم يلبث أن استوحش أحد الخمسة الباقين ، وكان متنحيًا زاوية ، فخرج هو أيضًا . وما أدار ظهره حتّى تنفّس الأربعة الصعداء ، وهتفوا بورده أن تعجّل بتلبيتهم . فنظرت يمينًا ثمّ نظرت شمالًا ثمّ أعادت الكرّة ، فرأت شبحًا على رأسه مظلّة ، ورأته يدير ظهره ، فخُيّل إليها أنّها تعرف هذا الشخص . هل يكون خليل المعلّا؟ ولكنّه ذهب من الجهة الأخرى فلماذا يعود؟ ولم تشأ أن تُشغل فكرها به طويلًا ، وكان الزبائن ينادونها بفروغ صبر ، فأغلقت الباب برفق وحيلة ، ولم تنسَ أن توجّه إلى أبو زيد شتيمة كبرى لسكره وتخلّيه عن وظيفته هذه الليلة .

واستوى الأربعة على مائدة العرق والقمار .

٤

لم تكن ورده كسّار في ماضيها صاحبة دكّان ، ولم يكن من تقاليد أهل ساقية المسك أن تفتح النساء الدكاكين ويتعاطين البيع والشراء .

كانت ساقية المسك تعيش ، قبل الحرب الكبرى ، على مواردها المحلّيّة من زراعة الكرمة وتربية دود الحرير ، عيشة متواضعة كسائر قرى الجبل اللبنانيّ ، وفي فترة من الزمان على حياكة الديما التي أكسبتها شهرة امتدّت حتّى البلقان وأطراف أوروبّا . وشأن ساقية المسك في ذلك شأن جارتيها بحرصاف وبكفيّا ، وهي وسط بين الأولى والثانية ، تنخفض الأرض بها على سفح يظلّ ينحدر ببيوتها حتّى الوادي حيث يهجع طاحونها القديم هجوعه الأبديّ ، وينتثر ذَنَبها بدير تاريخيّ وبضعة أكواخ للفلّاحين .

على أنّ مورد ساقية المسك الأعظم كان من مهاجري أبنائها إلى أميركا . فقلّما يخلو بيت فيها من أب أو أخ أو عمّ أو خال نزح عن الديار وركب البحار وراء الرزق ، يبقى على بعد الشقة برًّا بأهله ، وفيًّا لقريته .

وبيت كسّار لا يشذّ عن القاعدة ، بل هو نموذج حيّ لكثير من بيوت القرية . حجارته وأقسامه وسطحه صفحات مفتوحة للناظر يقرأ فيها تاريخه وتاريخ العائلة وتاريخ ساقية المسك كلّها .

رأى الجدّ النور في المراح الذي تحتلّه البقرة اليوم . وكان هذا المراح في زمانه موضع فخر . يقال «حارة بعمودين» وكفى ! يشغل أصحابه قسمًا منه لقعودهم ومنامهم ، والقسم الثاني لأطباق القزّ ، والثالث للبقر والخروف والدجاج . لا يفصل بين هذه الأقسام إلّا العمودان الثخينان اللذان سلخت السنون طينهما على الإهمال ، فهما اليوم عظمان مجرّدان كالحان ، وخرّبت الأيّام الرفوف فيهما وذهبت بأوتاد المناجل والفؤوس ، وأفسدت الرطوبة ، شتاء بعد شتاء ، دهان الحيطان ، فغيّبت آثار الدخان على الحائط الشماليّ ، وضاع في الذكريات مكان الموقد ومتّكأ كلّ مساء .

وتزوّج الشيخ ، إذ تزوّج ، في هذه الحارة ورُزق فيها ابنه سعيد . وكبر سعيد بين البقر والكرم والحقل ، وتزوّج بدوره ورُزق زينه . حتّى كان ذات يوم فألقى بعض رفاقه في روعه السفر إلى أميركا ، فأبى عليه والده بادئ ذي بدء لأنّه كان وحيدًا ، فأصرّ فنزل عند رغبته ، فغادر ساقية المسك مخلّفًا زوجته زاهيه بعد سنتين لزواجه ، وابنته زينه وهي تحبو من العتبة إلى التوتة ومن التوتة إلى العتبة . وماتت زاهيه في غيابه فكتب له أبوه أنّها أُصيبت بحمّى خبيثة ، ولكنّه علم فيما بعد أنّها وقعت عن صنوبرة وهي تقطف رؤوسها ، مع أنّه أوصاها قبل أن يضع رجله في السفر وفي رسائله من أميركا «لا تتسلّقي صنوبرة أبدًا !»

وكان يحبّ زاهيه لوداعتها ونظافتها ورعايتها لأبيه . فبكاها بين أثواب الجوخ في المعمل الذي كان ملتحقًا به في نيويورك ، وعلى مخدّته في منزله الحقير من حيّ أولاد

العرب ، وقصّ أخبار فضائلها على جيرانه وجاراته ، فاستمع الرجال وترحّموا ، واستمعت النساء فتشاورن في عروس له ... فتزوّج للمرّة الثانية من ورده . وورده ابنة مهاجر من ساقية المسك نفسها ، مضى عليه دهر في أميركا دون أن يرسل إلى أهله المتخلّفين درهمًا أو يكتب كلمة ، فلمّا ضاقت الزوجة به ذرعًا ألحقته بابنته عساها تعيده أو تحمله على الأقلّ على التفكير بها وببناته الثلاث .

وافته ورده فوجدته منصرفًا للذّاته الرخيصة من أكل وسكر وكسل ، فبقيت إلى جانبه. ولو أرادت الرجوع لما استطاعت لعجزه عن دفع أجرة السفر . وأخذت تشاطره حياته الشقيّة وتقاسي منه السبّ والضرب والعذاب ألوانًا . وانكمشت في عزلتها مدّة ، ثمّ دخلت المعمل حيث تعرّفت إلى سعيد وسواه من الشبّان ، وانبسطت لها حرّيّة المعاشرة في نيويورك بعد سجن الخفَر في وطنها الأوّل ، فاكتسبت مرحًا في مزاجها لا تعرفه القرويّات ، وجرأة في الحديث ينكرنها ، وغرورًا كثيرًا .

وقد رغّب سعيد فيها أنّها تشتغل فلا بدّ أنّ لديها مالًا ، وكان أبوه يلحّ عليه بالعودة ، فليعد إذن بما جمعته هي من الريالات إلى ما جمعه هو. وتمّ الأمر على هذه النيّة . ولم يجرؤ سعيد على إخبار أبيه به ، حتّى إذا وصل إلى ساقية المسك وصل بامرأة جديدة وطفل له على صدرها أعظم ما غاظ الشيخ منها تسميتها إيّاه باسم ناظر المعمل الذي مكثت فيه سنتين متواليتين...

حينذاك بنى سعيد الطبقة الثانية من البيت على هندسة ورده وبماله وحده ، لأنّ ورده أعطت أمّها ما جمعته في أميركا ، وسقّفه بالقرميد وحمل أباه على بيع البقرات والاشتغال بالديما ، فانتقل بيت كسّار بذلك إلى الدور الثاني من تاريخه مرتقيًا إلى صفّ البيوت المرموقة في ساقية المسك... على أنّ أبو سعيد عزّ عليه الانفصال عن بقراته كلّها فاحتفظ بواحدة ، الصبحا من نسلها الطيّب ، وقسم الحارة قسمين : الأوّل لها وللقزّ ، والثاني له ولامرأته ولأجران الصباغ ، وجعلت ورده غرفة من الطبقة الجديدة للأنوال ، وغرفة لها ولزوجها وولدها . وفرشت الثالثة صالونًا ، وبقيت زينه مع جدّيها في المراح .

كان هذا العهد عهد الرخاء المادّيّ والاتّصال ببيروت . تعرّف سعيد إلى تاجر الديما وديع عاصم ، واستمرّ ثلاث سنين ونيّفًا يركب العربة فجر كلّ سبت ناقلًا إليه منتجات الأسبوع ، ويصعد في المساء بكَمَر عامر بالمجيديّات ، ويصعد معه في بعض أيّام الصيف الخواجه سامي نجل التاجر ، فيُنزله في خيمة الكرم ، يبقى فيها نهاره وليله وتقوم زينه على حاجته حاملة إليه مأكله ومشربه كلّ صباح .

ولكنّ ذلك العهد كان أيضًا عهد الشقاء والنكبات . فقد ماتت فيه أمّ سعيد من كيد كنّتها الجديدة ، وتبعها سعيد على الأثر بمرض عزّ دواؤه حتّى على الطبيب الذي أوفده وديع عاصم من بيروت ، فكان حزن الشيخ على امرأته وولده عظيمًا ، وضاعفته النفرة بينه وبين ورده ، ولولا حبّه لحفيده وعطفه عليه لانقصف عمره كشجرة تحت العاصفة .

ثمّ كان أن نشبت الحرب ، فانقطعت النساء والصبايا في ساقية المسك عن أغانيّ كنّ يوقّعنها على طقطقة المكّوك ذاهبًا آيبًا ، وعلى دوران دولاب أعوج يقطع الخيط بين الدقيقة وأختها ، ونفض أبو سعيد يده من الديما ، وأنزلت ورده الأنوال إلى المراح ينخرها السوس وتنسج عليها العنكبوت ، وجثمت الأجران في مطارحها يأسن فيها الماء ويثقلها يأس البطالة .

واستقبل البيت دوره الثالث : فتحت ورده دكّانًا ! اختارت الصالون لبابه المواجه الطريق وجعلت منه دكّانًا بمطعم بحانة بمقمرة بكلّ شيء : أربع طاولات غليظة عرجاء ، وبضعة كراسي من كلّ شكل ولون ، ودكّة من خشب لها من الوراء ستارة تحتميْ العرق وأقداحه ، ومن الأمام رفوف عليها صحون وأصناف من المملّحات والمكبوسات والمحلّيات في أوعية زجاجيّة

بعضها مكسور تلحمه بورقة والبعض مفقود غطاؤه فتسدّه بخرقة... وصناديق محطّمة ، وأكياس هزيلة ، وأطباق فوق أطباق تحتوي من الأشياء ما لا عدّ له ولا وصف .

وازدهرت تجارة ورده بفضل العسكر التركيّ الذي احتلّ المنطقة منذ أوائل الحرب ، فأصبحت في يسير من الوقت محطّ أنظارهم وأمسى دكّانها مجمع ضبّاطهم وملتقى الباذخين منهم . ولو جارتها زينه فيما تشاء لكانت الآن من الأغنياء ولاستطاعت أن تسترهن البيوت والأرزاق كما يفعل إبراهيم بك فاخر في بكفيّا ، ولتضاعف لله حمدها من أجل هذه الحرب يشقى بها الناس وتسعد ، ويهلكون وتحيا... ولكنّ زينه فتاة حرون تتقذّر وتتكبّر ، وكان ينقصها – على تعبير خالتها – أن يأتي سامي عاصم إلى ساقية المسك ، ولا ديما ولا من يحزنون ، وأن تسعى وراءه وتحبّه ، كأنّ المجال ينفسح للعشق والغرام !

غير أنّ المخلوق الذي يغلب ورده لم يلده بطن بعد ! لذلك وضعت رأسها لرأس زينه تعالجها بالمكر حينًا ، وترهقها بالعمل أحيانًا . وها هي منذ أوّل الموسم تحمّلها سلّة كبيرة وتجبرها على النزول كلّ صباح إلى الساحل والصعود بها في المساء مملوءة خضرًا ، مسافة خمسة عشر كيلومترًا وخمسة عشر... ثلاثين كلّ يوم تحت الشمس والمطر ، حافية ، نصف عارية ، والزاد فتات المعجن ، والكلمة الحلوة اللعنة والدعوة بالموت .

٥

وصلت زينه متأخّرة جدًّا تلك الليلة . كانت تعلم ما يجري في الدكّان في مثل هذه الساعة ، فلم تشأ أن تدخل منه ، ودارت حول البيت إلى درج يرتقي من جانب المراح إلى السطيحة الغربيّة . ولمّا أطلّت على الزاوية لمحت شعاعًا يشقّ باب المراح فعلمت أنّ جدّها عند الصبحا ، فخالجها لوقوعها عليه سهران سرور كبير . فقد كانت محتاجة إلى الإفضاء إليه بشيء لو حبست عليه إلى الصباح لما استطاعت إلى الرقاد سبيلًا .

وكأنّ الصبحا استروحت بإنسان يُقبل ، فأرسلت خوارًا ومالت بعنقها ، فلمعت عيناها . ومال الشيخ هو الآخر مقدّمًا السراج ليرى مَن القادم .

– سعيده يا جدّي .

– قلقت عليك يا بنتي . سأوقد لك النار حالًا لتدفّئي وتنشّفي ثيابك . حطّي عنك ، حطّي عنك !

ووضع السراج على حافّة المعلف وحطّ عنها السلّة . كانت في ثيابها المبلولة كالدجاجة الطالعة من حوض أُلقيت فيه . إلّا أنّ خدّيها المدوّرين كانا ينبضان بدم حارّ فيخلعان على سمرتها جاذبيّة نادرة ، وعلى فتوّتها جمالًا فوق جمال النساء .

وأخرجت البقرة لسانها صوب زينه ، وكرّرت خوارها موجعًا هذه المرّة ، فمسح أبو سعيد ظهرها بكفّه وهزّ رأسه مكتئبًا :

– أنت أيضًا يا صبحا تجوعين !

– جدّي ، جدّي !

– أحمل عنك السلّة وتأخذين معك حطبتين (وخفض صوته) هل كنت عنده طول هذا الوقت ؟ (واختلج شارباه وأردف) عند الأخ حنانيا ؟

– جدّي ، سامي يريد أن يروح . جئته اليوم أيضًا بمكتوب أحسست منذ تناولته في انطلياس بخفقان في قلبي . قلبي دليلي . قيل لي هذا مكتوب خطير ، وأُوصيت بالمحافظة عليه . حياة سامي تتعلّق به ، هكذا أنذرني من سلّمه إليّ . كنت خائفة طول الطريق ، كلّما لمحت مكاريًا أو عربة تمرّ ظننت أنّ السرّ افتُضح وأنّهم سيهجمون عليّ ويسلبونني المكتوب . هل تعلم يا جدّي أين خبّأته ؟ كان في صدري إبرة وخيط ففتقت ثنية فسطاني وحشوتها به ورددت الثنية كما كانت . حتّى وصلت إلى المغارة وأعطيته إيّاه . رأيت على وجهه وهو

يقرأه اهتمامًا ، ورأيت ذقنه يرقص. سألته أن يأذن لي بقراءته فرفض ، فمددت يدي لأختطفه فعبس. فقلت له : إذن تُفهمني ما فيه. فلم يسمع وقال : ماذا عمل جدّك مع كامل أفندي؟ اِذهبي حالًا وقولي له «سامي في حاجة قصوى إلى ما أوصاك به». ألحّ عليّ كثيرًا ، قال لي «لا يخف جدّك من كامل أفندي ، يجب أن يفاتحه بالأمر». وأمسكني بيده يدفعني إلى الخروج. فامتنعت إلّا أن يطلعني على ما في المكتوب. وحينئذ قبل أن يقرأ لي شيئًا ، فوضع كفّه على قسم منه وسمح لي بقراءة القسم الآخر. لقد قبضوا على ثلاثة من رفاقه يا جدّي ، وساقوهم إلى الديوان العرفيّ في عاليه. قرأت أسماءهم ولكنّني لم أحفظ منها اسمًا. كنت أفكّر فيه هو ، وكلّ ما حفظته أنّ صديقه يخشى عليه أن يفشي أحد المقبوض عليهم سرّه تحت الضغط ويدلّ الأتراك على مخبئه في ساقية المسك... جدّي ، جدّي ، أصحيح ما يقول لي سامي؟

– عن أيّ شيء؟

– خوّفني كثيرًا. أنا وحدي خفت. أمّا هو فكأنّه لا يبالي. لا أقدر أن أسمع هذه الكلمة ، الديوان العرفيّ ، إلّا ويقشعرّ بدني.

– لا تخافي يا بنتي ، لن يطالوه.

قالها بقوّة المؤمن فسرى الإيمان إليها.

– مَن يظنّه في تلك المغارة المهجورة! أليس كذلك؟

– ...

– قال لي إنّه يريد أن يذهب إلى كسروان ويحتمي بدير فيها. ألا تعرف ديرًا أقرب يا جدّي؟

ولكن أبو سعيد كان مستغرقًا في التفكير.

– قُل ، ألا تعرف ديرًا أقرب؟

فلم يشأ مضاعفة قلقها فداعبها :

– ألا تخافين أن يترهّب فعلًا؟

وابتسم كالعابس ، فقالت :

– دعني أنا أكاشف كامل أفندي بالأمر. سامي لا يغادر ساقية المسك قبل أن يعرف نتيجة المسعى معه. وكان يقول لي «يجب أن أراه أنا. يجب! يجب!» ويشدّ.

– كامل أفندي رجل طيّب يا جدّي.

– أجل طيّب. وهو عربيّ. ولكنّني أخاف ثوبه. أما هو عسكريّ؟ العسكريّ لا يُؤتمن يا بنتي.

– هل سمعته يسبّ الأتراك؟ يسبّهم ويسبّ راسم بك والدولة.

– سمعته. له كلمات يخيّل إليّ وأنا أسمعها منه أنّني أسمع سامي. كنت أودّ لو يسمعها سامي بأذنيه... ترى لماذا لم يأتِ اليوم مع أنّه معتاد أن يجيء كلّ يوم فيخافل رفاقه ويدخل ويقصّ عليّ نكاته. سأكلّمه غدًا ، سأكلّمه!

– خلّني أحضر الحديث يا جدّي.

– إطلعي نامي.

٦

أفاق أبو زيد وفي رأسه خُمار داوٍ. وكانت الشمس قد علت في السماء ، فتدحرج على الدرج ولفّ زنّاره في الطريق ودلف صوب دكّان ورده غاضبًا نافخًا بين شاربيه ، وطرفا قمبازه يضربان على ساقيه. فقد ضاع عليه رغيف الصباح ، ولن ترضى ورده – وهو يعرفها – أن تضيف إلى الغداء ما فاته من الفطور... فلا بدّ إذن من رثاء رغيف!

ولم يمشِ في النور غير قليل حتّى تفتّحت مغالق مخّه ، فتذكّر أنّه لم يقم بوظيفته الليلة البارحة ، فهدأ خفق قمبازه رويدًا رويدًا ، ووقف يفتل شاربيه ، ثمّ انفرجت أساريره وتغضّنت على الأثر. أيّ شيء قاله البارحة لصاحب النظّارتين والبنطلون الإفرنجيّ؟ وهمّ أبو زيد بالبكاء ، فطلع البكاء ضحكًا على وجهه يعزّي به نفسه ويشجّعها ، وانفلتت يداه في الفضاء خطبًا ،

واشتدّ وقع خطواته وتوازن... ثمّ وقف ثانية لا يدري من أيّ جهة يمشي، يدور يمينًا ثمّ يدور شمالاً... وإذا به أمام خليل المعلّا، صاحبه أمس، فأدار له ظهره، ولكنّ الآخر أدركه وقال:

– حظّي كبير يا أبو زيد.

– العفو، العفو!

– إلى أين تذهب؟

– أنا مشغول. مشغول جدًّا عند الستّ ورده.

– وأنا قاصدها.

– أريد أن أقول إنّ عليّ موعدًا مع صديق لي بالقرب من دكّانها.

– إذن أرافقك... كنت أفتّش عمّن أتناول غدائي معه.

– صحيح؟

وجمد أبو زيد مرتبكًا. كان يريد في الحقيقة الهرب من ورده وخليل المعلّا معًا. فورده ستستقبله بالزعيق لحادثة أمس، وهذا الغريب يريد أن يجرّه إليها، ولكنّ الغداء مغرٍ، فما العمل؟ وأخيرًا فتقت له الحيلة فقال:

– إذا كان لا بدّ فأنا أدلّك على دكّان أحسن من دكّان ورده.

– كنت أعتقد أنّ ورده هي أحسن امرأة عندكم وأنّ دكّانها أحسن دكّان!

بعد قليل كان الاثنان متّكئين إلى قدحَي عرق في حانوت منعزل. وكان أبو زيد صامتًا لا تطلع الكلمة من شفتيه. ينازعه أمران هامّان جدًّا، يحار بأيّ واحد يفكّر فيأبيان إلّا أن يزحم الأوّل الثاني ثمّ يزحم الثاني الأوّل بسرعة عجيبة، وهو بينهما يصغي ولا يسمع وينظر فلا يرى، ويريد التخلّص من هذه الورطة فلا يستطيع، كالكرة بين لاعبَين لا يدعان لها مستقرًّا ولا هي تتنفّس فتستريح!

– أراك يا أبو زيد ضَجِرًا. هل لك في دقّ ورق؟

جاء الإنقاذ بأعجوبة! فقد كان أبو زيد في الواقع متهاديًا بين هذين: اللعب وحديث البارحة. وما كاد خليل المعلّا يعرض عليه اللعب حتّى قال في نفسه إنّه لو استمرّ في مصارعته للأمرين لانتهى حتمًا إلى هذا! لأنّ خليل رجل غريب ما همّه من السرّ، ولا شكّ أنّه عدّها ثرثرة سكران لا يعي ما يقول. وآية ذلك أنّه لم يذكر له عن السرّ كثيرًا ولا قليلًا، وما يبدو على وجهه سؤال من هذا الباب البتّة، فإلى اللعب إذن. وتراقصت عيناه طربًا وطمعًا. أجل، لأنّ أبو زيد يزعم أنّه خير من أمسك ورقًا وأنّ له في اللعب براعات تخفى على أمهر اللاعبين، تعتقد ورده أنّها تفهمها كلّها فيستهزئ بها بينه وبين نفسه، فهو لا يطلعها إلّا على الساذج منها، كجرح الورقة بالظفر، والغشّ في جمع النقاط وما إلى ذلك. بقيت هنالك الخفّة في التوزيع من تحت أو من فوق عند الحاجة، وسرعة الرمي على الركبة، والخطف عند الفرصة، والمغاضبة لتشويش المائدة، والملاطفة في أوقاتها، مع ضروب من رشاقات اليد. وزلاقات اللسان، واختلاف الطبع كان أبو زيد سيّدها وضابط أسرارها.

– على بشلك.

– كثير يا أبو زيد. الدقّان ببشلك. لا تنسَ أنّ القصد أن نسلّيك.

ومضيا في اللعب. ربح أبو زيد الدقّ الأوّل، فالثاني. فتناول خليل بشلكًا ودفعه إليه فتمانع أبو زيد – وهي من أصول اللعب أيضًا – فقال الآخر:

– هذا حقّك. كأنّك ورثت من أبيك. الآن الدقّ الواحد ببشلك.

– كما تريد.

– على سيرة الإرث، لقد مات لي عمّ غنيّ كنت عنده بمنزلة الولد وكنت أحبّه كثيرًا...

– مسكين!

– قلت لك إنّه كان غنيًّا.

– آه! الله يرحمه.

– ألم تفهم؟

ففتح أبو زيد فمه ، فأطلقها خليل المعلّا ضحكة من ضحكاته :

– هـْ. هـْ.

– قه قه قه قه.

وربح أبو زيد ، فقال خليل :

– ببشلكين.

– أمرك.

فربح أبو زيد البشلكين فصار أمامه أربعة ، وحان الوقت أن يفتل شاربيه.

– بالأربعة !

فأراد أبو زيد أن يجيبه «بل بثلاثة» ليبقى البشلك الرابع رأسماله إذا خسر. ولكنّه كان واثقًا من الغلبة ، كان واثقًا منذ رأى خليل المعلّا يفتّ الورق. فابن المهنة يفهم لعب اللاعب من فتّه. وصدق فأله فظفر هذه المرّة أيضًا ووضع أربعة بشالك في جيبه وطلب من البائع كأسًا أخرى مع «مازة ممتازة !» وغضب عليه – أصول اللعب كذلك ! – ثمّ اعتدل في جلسته ، فقال خليل :

– أتزيد؟

– خلّنا على الأربعة.

– الدقّ بخمسة بشالك.

– بخمسة.

وربح أبو زيد ، فصفّق وطلب لخصمه – آداب اللعب بعد أصوله – كأسًا على حسابه هو. ولم يرفض خليل التقدمة ولكنّه سوّى نظّارتيه ولمعت عيناه لمعانًا لم يخفَ على أبو زيد. ورفع خليل قدحه وشرب نخب صاحبه. ثمّ استؤنف اللعب وظلّ أبو زيد يربح ، يربح ، يربح حتّى تكدّست البشالك أمامه وعمرت بها جيوبه :

– الدقّ بمجيديّ !

وكرّت الخسارة على أبو زيد كرًّا. فجعل يتململ على كرسيّه حينًا ، وينتف شاربيه حينًا ، ويستنجد ببراعاته وأحابيله ، ويصلّي لسيّدة المعونات التي يؤمن بها كثيرًا ، ويكفر ليعود إلى الاستغفار والصلاة... ولكن عبثًا ! حتّى إذا استردّ خليل المعلّا خسارته وربح انطلق في ضحكته :

– هـْ هـْ هـْ.

وتهيّأ للقيام.

– لا أدعك تخرج ! أنا خسران بشلكين.

– نتغدّى بهما. كدت أنسى أنّني دعوتك إلى الغداء.

– لا أحسّ بالجوع.

– مع أنّ الجوع كافر... خذها منّي نصيحة يا أبو زيد : البطن قبل كلّ شيء.

ورأى أبو زيد أنّ الواجب هنا أن يبتسم ، فابتسم وقال :

– اللعب يُنسي الجوع وخصوصًا مع خواجه مثلك.

– أيّهما أفظع : الموت جوعًا أم على المشنقة؟

– ها !

– أسألك رأيك بكلّ جدّ : ماذا تفضّل؟

– أنا؟... يعني... المشنقة شيء فظيع (وأردف حالًا) والجوع أيضًا شيء فظيع.

– أنت ليس لك رأي. كنت أحبّ أن أعرف رأي ورده كسّار.

– لماذا؟

– ورده سيأخذونها إلى المشنقة !

– ماذا تقول؟ ورده؟!

– ويخربون بيتها إلى الأبد.

– هل أنت مجنون؟

– وأنت أيضًا...

– أنا؟!

– العفو ، لا أريد أن أقول إنّك أنت مجنون. بل أنت أيضًا سيأخذونك إلى الديوان العرفيّ في عاليه... إلّا...

– عاليه؟

ورفع خليل إصبعه في الهواء:
– ... إلّا... دعني أكمل... إلّا إذا أردت أن لا تذهب.
فبُعث أبو زيد حيًّا.
– أقول لك الحقيقة أنا لا أحبّ المزاح. غلبتني وتريد أن تمازحني فامزح على غير هذا الشكل.
– وأنا لا أحبّ المزاح. عجيب توافق الطبع بيننا!
– أنا رائح.
– أقعد.
– أُتركني.
– أقعد، أنا وحدي أخلّصك من المشنقة.
– لماذا تنظر إليّ هكذا؟ (واصطكّت ركبتا أبو زيد) لا شكّ أنّك غلطان. أنا أبو زيد...
– ... ابن طنّوس المكاري مطلوب إلى الديوان العرفيّ. أتدري بماذا تتخلّص منه؟
وكان خليل المعلّا يهمّ أن يدعوه مرّة أخرى إلى القعود ولكن أبو زيد وقع من نفسه قاعدًا.
– تتخلّص من المشنقة بكلمة.
– بكلمة! عن أيّ شيء؟
– لا تتغافل. هل نسيت الليلة البارحة؟
– ماذا جرى البارحة؟ شربنا عرقًا وصرنا صديقين. أهكذا يصنع الصديق بصديقه؟ (واغرورقت عينا أبو زيد).
– لقد هدّدت ورده كسّار مرارًا بفضح السرّ، وقلت إنّك ستطلع على السطح وتنادي به. أنا أكلّفك أقلّ من هذا: توشوشه في أذني.
– أنا ليس عندي أسرار.
– كنت عازمًا على إفشائه من أجل كأس عرق.
– أنا!
– عليك الآن أن تفشيه من أجل حياتك!
– وبأيّ صفة تكلّمني أنت هكذا؟ أنا رائح.
– أُقعد.
– أُتركني، اتركني!

ونهض، فتعلّق خليل المعلّا بقمبازه يشدّ به، فأخذ أبو زيد يصيح، فوثب البائع يفرّق بينهما، وتحوّل الدكّان إلى ساحة عراك وقعت فيها الصحون والكؤوس أشلاء، وانقلبت الكراسي والطاولات، وخليل ممسك بطرف القمباز لا يفلته، وأبو زيد يحلّ زنّاره طاقة طاقة، ثمّ خلع القمباز دفعة واحدة وتركه لخصمه، وأطلق ساقيه للريح.

٧

لم يحاول خليل المعلّا اللحاق بأبو زيد، لكنّه اكتفى بالضحك ونقد البائع ثمن أقداح العرق وبدل ما تحطّم في المعركة، المجموع ثلاثة بشالك وأربعة متاليك. ثمّ نفض مظلّته وخرج قاصدًا إلى دكّان ورده كسّار، فالتقى بطام فانكمش حائدًا من طريقه وتركه يمرّ... حتّى إذا ابتعد عن السوق والناس تبعه وهتف:
– طام!
– أوه! هذا أنت؟ بغتّني.
– هـ هـ! أردت أن أسلّم عليك. أنت ذاهب إلى الدكّان؟
– لأ. ألا تعرف الدكّان أين؟
– أليس من هنا؟
– بل من هنا (وأشار طام بالعكس) أنا ذاهب عند راسم بك.
– راسم بك! الضابط راسم بك! ألا تخاف من جزمته التي تطقطق؟
– أنا أخاف! أذهب عنده كلّ يوم، أمسح بكفّي على خدّيه وأقول له «أبانا الذي في السموات». كلّ مرة أقولها بحفنة زبيب وجوزتين.
– أنت إذًا صديق الضابط؟
– معلوم. وراسم بك يعلّمني العسكريّة.
– العسكريّة؟ ستكون ضابطًا عظيمًا عندما

تكبر! هل تعرف الحركات كلّها؟

– أعرف كلّ شيء. إسألني.

فضمّ خليل المعلّا مظلّته إلى جنبه وضرب قدمًا بقدم:

– حا... ظ، دور!

فانتصب طام يحيّي بكفّه كالجنديّ التركيّ.

فاقترب وربّت على كتفه:

– ماذا يعطيك راسم بك أيضًا؟ ألم يعطِك بشلكًا؟

فرفع الصبيّ ذقنه سلبًا.

– ولا مرّة؟ ولا مرّة؟!

– أنت وحدك أعطيتني بشلكًا.

واحمرّ طام حتّى أطراف أذنيه.

– هل أنفقته؟

– لا.

– عافاك! أين هو؟

– عندي. عندي.

– أرني إيّاه.

– أعني في البيت: لا أحمله في جيبي.

– أخذه منك جدّك؟

– لأ. جدّي لا يأخذ منّي. جدّي يعطيني دائمًا.

– بشالك؟

– لأ. متاليك. وعد بأنّه سيعطيني في المستقبل بشلكًا أحسن منه.

– أحسن منه؟ هـ هـ. خذ، هذا أحسن منه يا طام.

– لأ، لأ. جدّي عنده أحسن.

– أحسن من هذا؟

– أحسن.

ومن هذا؟ ومن هذا؟ ومن هذا؟ إختر البشلك الذي تريد.

وكان خليل المعلّا قد أخرج حفنة من البشالك، فمدّ الصبيّ أنفه إليها كمنقار العصفور، ثمّ رفعه وسأل:

– أما عندك بشلك أبيض، نظيف، ويلمع؟

– هـ هـ. فهمت. هذا. (وسحب من جيبه قطعة أخرى).

– هذا ريال مجيديّ، لا بشلك.

– أيعتقد جدّك أنّ في الدنيا أنظف من هذا؟

– جدّي لا يكذب أبدًا.

– صحيح؟

– معلوم صحيح.

– خذ.

– المجيديّ!

– لا تخبر أحدًا به.

– لا. لن أخبر أمّي.

– ولا جدّك، ولا أختك، ولا الخواجه سامي.

– الخواجه سامي لا يأخذ منّي، هو مثل جدّي يعطيني.

فارتعش بدن خليل المعلّا.

– ماذا أعطاك آخر مرّة؟

– أعطاني بشلكًا.

– ألم يعطِك مجيديًّا؟

– لأ.

– لو تعرف كم أنا مشتاق إليه! صديقي منذ كنّا مثلك صغيرين. متى أعطاك البشلك؟

– منذ تشاجر جدّي وأمّي فزعقت «لا أريد أن يدعس الأخ حنانيا بيتي!»

فارتعش بدن خليل المعلّا مرّة ثانية.

– أترافقني لتراه معًا؟

– أريد أن أذهب عند راسم بك. راسم بك ينتظرني.

– دلّني عليه واذهب.

– أتركني، أتركني.

– في أيّ دير هو الخواجه سامي؟

– من قال لك إنّ الخواجه سامي هو الأخ حنانيا؟ أنا لم أقل لك. أنا لم أقل لك.

ورفع الصغير ذقنه متحدّيًا. ولكنّ شفتيه كانتا تختلجان بشدّة فلم يلبث أن حوّل وجهه.

– زعلت منّي يا طام؟

– أتركني، أتركني.

– طام، طام... طام!

وكان الولد قد تابع طريقه. وفيما خليل المعلّا يحاول أن يلحق به إذا بطام ينقلب على عقبيه ويدفع الريال إليه.

– خُذ.

وضرب خليل بيده. لكنّ طام كان أسرع منه فألقى المجيديّ على الأرض وركض راجعًا إلى البيت ودخل توًّا إلى الغرفة التي ينام فيها وأغلق الباب ودسّ جسمه الصغير في الفراش وغطّى رأسه يبكي.

وظلّ اللحاف يخفق فوق صدره طالعًا نازلًا ساعة طويلة.

٨

عند مغيب الشمس، كانت زينه تضع سلّتها في المخبأ الذي تضعها فيه كلّ مساء حينما تعرّج على «مغارة الخوريّة» لتزور حبيبها. والمغارة على مسيرة نصف ساعة من ساقية المسك، إلى الجهة الغربيّة الجنوبيّة، منقورة في شفير من الصخور، يحبو إليها الصاعد حبوًا، متمسّكًا بالأدغال الملتفّة على الجانبين، يرصده الموت على غفلة من يده وزلّة من قدمه.

أمّا لماذا تُنسب المغارة إلى الخوريّة فأمر لا يعرفه أحد على وجه التحقيق. تحكي عجائز القرية أنّ الخوريّة، جدّة الخوري فلان الذي ما يزال حيًّا يُرزق، كان عندها ضرف فيه شيطان! وكان اللعين، إذا نام الخوري، يحمل الخوريّة في الضرف ويذهب بها ليلًا إلى تلك المغارة فتبقى ساعة وتعود. واتّفق أنّ الخوري انتبه من رقاده مرّة، فرأى الباب مفتوحًا فقام وأغلقه. فلم يغمض أجفانه حتّى طُرق الباب طرقًا منكرًا، فنهض فإذا الضرف ينطح الباب وصوت فيه كصوت الخوريّة يقول: «يا خوري، صلّب على وجهك!» فصنع الخوري إشارة الصليب، فطلعت الخوريّة من الضرف.

تقول العجائز: ولم تنفع صلوات الخوري ولا نذوره في إخراج إبليس من الضرف، ولا كان أحد يشتريه ويبعده عنه. وظلّ الخبيث يخطف له خوريّته، إذا غطّ في فراشه. حتّى مات بهذه الحسرة! فلمّا أسلم الروح نطّ الضرف نطّة واحدة واختفى، خجلًا من الملائكة التي هبطت لتحمل روح القدّيس إلى السماء.

وعلى باب المغارة شجيرة متعرّشة يقال لها عند الرعيان «عاشقة» تستند إلى قطلبة لها أغصان مفتولة، ملساء، حمراء كأذرع الحصّادين العارية تحت وهج الشمس.

وحفّت الأوراق على كتف زينه. فعلا من الداخل صوت:

– مَن؟

نبرة عريضة مضطربة لم تتعوّدها. وقبل أن تستطيع جوابًا أُعيد السؤال قويًّا، كوترٍ كان مرخًى فشُدّ:

– مَن هنا؟

– أنا. أنا زينه!

ودخلت، فلم يخرج للقائها، وسمعت وقع شيء ثقيل وحركة، فنادت:

– سامي! سامي!

وكان للمغارة سرداب ينحدر من عند فمها ويذهب متعرّجًا بين حيطان طبيعيّة محدّدة الجوانب، وسقف من الصخور تتفرّق هنا وتلتقي هناك وتندلق في ناحية أخرى، والظلمة في ذلك الكهف شديدة في رابعة النهار، فكيف عند الغروب. لذلك سرت في جسم زينه خشية، فكرّرت النداء وفي صوتها استغاثة:

سامي، أين أنت؟

وأنصتت قليلًا. ثمّ اقتحمت العتمة فإذا نور ينداح فجأة في قلب المغارة، وإذا سامي بجبّة الأخ حنانيا مدبر يعالج تركيز السراج في فجوته. ثمّ أدار وجهه إليها وعلى شفتيه محاولة ابتسام، فصاحت:

– سامي! أدمٌ على وجهك؟!

وبادرت إليه فردّها بكفّه ومسح خدّه.

– ليس هنا، بل الخدّ اليمين. ماذا أصابك؟

– لا شيء... لا شيء...!

– هل وقعت؟ أُدنُ لأرى.

– قلت لك لا شيء.

وقعد على فراشه المطويّ لم يلتفت إليها. كانت عيناه زائغتين، وخصلة من شعره الطويل المشعّث نازلة على صدغه، فرفعها. ثمّ نظر إلى زينه نظرة مخيفة، واستوى واقفًا فأخذت بكتفيه:

– قُل لي ما هذا الدم على وجهك؟

– ...

– هل طلعت اليوم من المغارة؟

– لا شيء. قلت لك لا شيء!

– كأنّها آثار أظافر... ودم أيضًا على رجلك! أُنظر.

– رجلي؟ صحيح، على رجلي.

– أهذا أيضًا شيء لا يجوز لي أن أعرفه؟

فلم يسمعها، بل كان مرهفًا أذنه إلى بعيد.

– أُقعد، أُقعد. ماذا تريد؟

– ظننت، ظننت... لا شيء، لا شيء... ظننت أنّني أسمع دعسة.

– هل تنتظر أحدًا سواي؟

– ...

– من يعرف هذا المخبأ؟

– لا أحد سوانا. لا أحد، أليس كذلك؟

– يفتّشون عليك في البيت دائمًا. لقد فتّشوا حتّى الآن ستّ مرّات، لا يريدون أن يقتنعوا أنّك لست في بيت كسّار. سامي! سامي!

– ...

– ألا تصغي إليّ؟ ما لك؟ أرى كلّ شيء تغيّر في هذه المغارة.

– ماذا ترين؟

– كلّ شيء. كلّ شيء. إنّ يدك ترتجف. أُنظر. لماذا ترتجف يدك هكذا؟

– من البرد.

– ترتجف كثيرًا، كثيرًا!

وألصقت بصرها بكفّه. أمّا هو فلم يجرؤ على الالتفات إلى تلك الكفّ، ولكنّه شدّها إلى فخذه جهده، فلم تزد إلّا اضطرابًا، فأرادت زينه أن تأخذها بين يديها فأجفل.

– قلت لك اتركيني.

– هل يزعجك وجودي؟

– بل ابقي هنا. لا أريد أن تذهبي.

وغرق في سكوته. فجعلت تبحث في أنحاء الكهف عن أسباب هذه الأزمة البادية على حبيبه، وهو يراقب اتّجاهات عينيها بزاوية من عينيه، حتّى إذا خطت خطوة وثب واقفًا في وجهها كأنّه يحول دونها ودون رؤية شيء.

وغرس ألحاظه فيها ثمّ قال:

– زينه، هل تحبّينني؟

لم تكن المرّة الأولى التي تسمع فيها منه كلمة الحبّ. ولكنّها لا تدري لماذا فعلت فيها هذه المرّة ما لم تفعله من قبل. كان يقولها في الماضي مطمئنًا، قويًّا، فارضًا إرادته عليها فرضًا، أمّا الآن فإنّه يقولها بانكسار، كمن يطلب صدقة. فتماوجت في قلبها عواطف كدوائر الماء إذ يُلقى فيه بحجر، ورفعت إليه وجهها وقالت كلّ ما استطاعت أن تقول:

– لماذا تسألني هذا السؤال؟

وكان ذهنه قد اجتاز على هذا السؤال الجسر الذي لا بدّ منه ليصل إلى ما يريد، ففتح ضميره وجعل يقصّ قصّته.

٩

قال :

– يدي ترتجف. أليس كذلك ؟ ولكنّ الأمر أهون ممّا تظنّين ، وأهون ممّا كنت أظنّ أنا. أتفهمين؟ لم أكن متعوّدًا... كنت في حاجة إلى بندقيّة ، فقد فرغ مسدّسي ولم يبقَ فيه إلّا رصاصة واحدة. من أين أشتري له رصاصًا؟ وأنا لا أقدر أن أبقى بلا سلاح. أنت تعرفين ، لا أقدر أن أبقى بلا سلاح. وجدّك لم يكاشف كامل أفندي. الحقّ على جدّك ليس الحقّ عليّ... لا. أريد أن أقول : جدّك ليس مكلّفًا أن يغامر هذه المغامرة. أنا أخاف عليه من هذا الجاويش. لماذا أُوقعه في هذه الورطة؟ يجب أن أتدبّر أمري بيدي. وعنّ لي أن أروح إلى بيتكم وأقابل كامل أفندي ، وليكن ما يكون. أقول لك كنت على وشك أن أذهب. كنت ذاهبًا. ولكنّ الله أراد أن يكون ذلك الشيء. أتؤمنين أنت بالقضاء والقدر؟ أمّا أنا فأقول لك أؤمن بالقضاء والقدر... كنت هنا ، قاعدًا على فراشي. كنت أنظم قصيدة. قصيدة وطنيّة أحمل فيها على الأتراك وأستنفر الشعوب المقهورة. أفكار القصيدة كانت كلّها في رأسي واضحة تمامًا. فجعلت أصنع البيت والبيتين ثمّ أشطبها... أكثر من عشرين ، ثلاثين بيتًا شطبتها ، سوّدت الدفتر كلّه. الدفتر الذي جلبتِه لي ، كم ورقة فيه؟ كلّها سوّدتها ومزّقتها! كنت أريد القصيدة... كنت أريد قصيدة جميلة. لا ، لا! كنت أريد قصيدة قويّة ، أتفهمين؟ قويّة مثل الظلم ، قويّة أكثر من الظلم ، مثل الثورة التي تحطّم الظلم والظالمين. فأجد ما أنظم جميلًا ، ولكنّه مع جماله يعوزه شيء : القوّة! فأشطب وأمزّق. حتّى دار بي رأسي وأحسست أنّني سأختنق في هذه المغارة ، أحسست أنّني سجين يا زينه ، وأحسست القيود والسلاسل في يديّ ورجليّ. كنت أريد أن أهرب من سجني. ألست أنا الذي خلقت هذا السجن لنفسي؟ ستقولين لي : كنت مضطرًّا. لا ، لم أكن مضطرًّا. هذا كذب! ماذا أنتظر من غدي في هذه المغارة ، في هذا القبر؟ رفاقي الذين اعتُقلوا وسيقوا إلى الديوان العرفيّ في عاليه سجناء ، أمّا أنا ففيت! والذين سبقوهم إلى المشانق شهداء ، أمّا أنا فجبان... جبان أختفي عن الأنظار وأقنع بلقمة أمدّ بها في حبل حياتي الذليلة. ومن يأتيني بهذا الرغيف؟ فتاة! رأيتُني حقيرًا كالحشرة التي أدوسها بقدمي. وماذا أفعل هنا عدا الأكل والشرب والنوم؟ قصائد! قصائد!... ضحكت ، ضحكت عاليًا يا زينه. لا أدري كيف كانت هيئتي حينما ضحكت ، لا أشكّ أنّني كنت كالمجنون... سأصل بك إلى ما أريد. خرجت إلى باب المغارة ، وهممت بأن أرمي نفسي من الشفير فأقع تحت محطّمًا. ثمّ قلت لا ، بل أخلع عنّي هذه الجبّة وأمشي إلى عاليه : تطلبونني فها أنذا! ولكنّني جبان. قلتها لك أنا جبان! لأنّني لم أفعل هذا ولا ذاك ، وانتهيت إلى أنّ من الخير لي أن أنتظر. ارتحت إلى حالي وكنت على وشك أن أدخل وأتناول غدائي. وأدرت ظهري لأدخل ، فإذا بقعقعة حجارة غير بعيد منّي ، هنا ، إلى يمين المغارة. فنظرت. وحينئذ رأيته. رأيت جنديًّا ينحدر من الأكمة محاذرًا يتلفّت بين الخطوة والخطوة. سبق لي أن رأيت جنودًا كثيرين يمرّون تحت هذه المغارة ، وربّما كان هذا العاشر. ولكنّه كان يحمل مارتينة والآخرون كانوا عزّلًا ، حفاة ، نصف عراة. وكانت المارتينة في يده يحاول إخفاءها فيجرّها على الأرض جرًّا وهو يرفع رأسه أمامه مزيحًا بها البلّان والشوك. سمعت حزّتها على الأغصان ، ورأيتها تلمع على شمس الظهيرة. وكان يسير دائمًا في وجهتي. لم يكن آتيًا إليّ. كلّا ، كلّا ، لم يكن يقصد بي سوءًا. كنت على يقين من ذلك. كنت واثقًا أنّه فراريّ كزملائه الهاربين من جور ضبّاطهم الأتراك. وشعرت بشيء في قلبي نحوه. شعرت بالشفقة عليه. أذكر جيّدًا أشفقت عليه وشتمت الضبّاط الأتراك وتركيّا. وأدليت برأسي

أتبّعه. ثمّ خشيت أن تحين منه التفاتة إلى فوق فيراني، فاستخفيت فغاب عنّي. فانحدرت خطوة فرأيته ما يفتأ يمشي مسرعًا وذقنه إلى الأرض. أردت أن أقف حيث كنت منه فلم أدرِ أيّ قوّة دفعتني إلى الانحدار أيضًا، فانحدرت دركة ثانية، ثمّ انحدرت الثالثة وأنا أتساءل عن السبب متعجّبًا بيني وبين نفسي. ولكنّ صوتًا داخليًّا، صوتًا دقيقًا متواصلًا كان يقول لي: اِنزل، انزل! وأنا أنزل. ثمّ نظرت فإذا هو على عشر خطوات من المكان الذي أشرف عليه، يمشي دائمًا في وجهتي محدودبًا. ثمّ رأيته يشيل برأسه قليلًا، فخفق قلبي، ورأيت شاربيه يرتجفان، ورأيته كأنّه يناجي شيئًا غير منظور فهو يطبطب بشفتيه. أقول لك كنت أراه جيّدًا. وحبست أنفاسي أنتظر. ماذا كنت أنتظر؟ لا أعلم. ثمّ اختفى، فظننت أنّه غيّر وجهته. فإذا بفوهة بندقيّته تطلّ من قلب الوزّالة الكبيرة تحتي. ولمعت الحديدة هذه المرة حتّى بهرت عينيّ. لم أكن أريد شيئًا. أقول لك لم أكن أريد شيئًا حتّى تلك اللحظة. لم تحدّثني نفسي حتّى بمدّ يدي وخطف المارتينة. لأنّها لم تكن تكلّفني أكثر من مدّ يدي هكذا. ولم أمدّها. بل ندمت على انحداري إلى هنالك وقلت: كان عليّ أن أبقى فوق. هذا ما قلته، أذكر جيّدًا. كلّ ذلك جرى في لحظة، لحظة واحدة. فإذا هو يرفع وجهه فجأة وتلتقي عيناي عينيه! وحينئذ، حينئذ فقط... قلت لك القضاء والقدر. عيناه المدوّرتان المذعورتان، لماذا رفعهما إليّ؟ لماذا رفعهما في تلك الثانية ولم يرفعهما قبلها ولا بعدها. كان إذن يمرّ دون أن يحدث شيء. هل صاح؟ لا أذكر هل صاح بفمه، ولكنّي رأيت عينيه تصيحان صيحة هائلة. رأيتهما جيّدًا. زرقاوان كبيرتان. ورأيت شاربيه. كان له شاربان طويلان مشوّشان، ورأيت جبينه وخدّيه. لا أقدر أن أنسى! لا أقدر! وجهه في تلك الثانية من الدهر لا أقدر أن أنساه. عيناه الفارغتان من كلّ شيء، المملوءتان بألف شيء وشيء، لن أنساهما. أقول لك سمعت عينيه تدعوانني وتلحّان عليّ، فلم أستطع المقاومة... أجل هما عيناه. ولولاهما لما حدث شيء... كان ذلك أقوى منّي، أقوى منّي! فلم يكن بدّ ولا مهرب...

وأمسك سامي وجعل يلهث كأنّه صعد جبلًا عاتيًا. وساد بينه وبين الفتاة سكوت. ثمّ قال وهو ينظر جانبًا وقد هدأ صوته هدوءًا غريبًا:

– وهكذا، هكذا قتلته.

– لا! لا!

– رميت جثّته في الوادي. يمكنك أن تريها...

وقام فرفع الفراش وأخرج من تحته بندقيّة وقال:

– لا تنسي أن تأتيني غدًا بزيت لأمسحها.

ثمّ أردف:

– وصار عندي ثوب عسكريّ تركيّ قد أحتاج إليه.

وأزاح الفراش وأخرج ثوبًا ملطّخًا بالدماء...

١٠

ثمّ قال متعجّبًا:

– ما لك ساكتة؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ إنّ يدك ترتجف. لماذا ترتجف يدك؟ أنظري إلى يدي أنا، أنظري... ماذا قلت لي؟ جاء الدرك وفتّشوا عليّ أيضًا. هه! مجانين! إذا قبضوا عليّ وساقوني إلى عاليه فسأقول لهم: قتلت جنديًّا تركيًّا وسلبته بندقيّته وثوبه. ما رأيك؟ ألا ينبغي أن أقول لهم كلّ شيء؟ أمّا إذا حكموا عليّ بالإعدام من أجل جمعيّة انتميت إليها وإمضاء لي وجدوه على بعض المناشير، وقصائد... قصائد! (وعاد إلى ضحكته المرّة) هل يستحقّ الإعدام شاعر ينظم القصائد؟ أنا لو كنت رئيس الديوان العرفيّ وجاؤوني بواحد اسمه سامي عاصم لقلت له... أتعلمين ما أقول له؟ اِسمع، ما اسمك أنت؟ – سامي عاصم – أنت متّهم بعصيان الدولة العليّة والثورة على السلطان،

أتنكر؟ – لا أنكر التهمة لأنّها فخر لي وشرف... وهنا يا زينه لا أعلم بالضبط ما يكون موقف رئيس الديوان العرفيّ لأنّني لست الرئيس. ولكنّني لو كنته لتابعت وقلت : ماذا كنت تعمل يا سامي عاصم لأجل تحرير وطنك من ظلم الأتراك ولأجل استقلال بلادك؟ –كنت أنظم القصائد!!!! ها ها ها! لماذا لا تضحكين؟ أليس في هذا ما يُضحك؟... وكنت أيضًا أقيم في مغارة اسمها مغارة الخوريّة. وأنتظر زادي من فتاة تمشي كلّ يوم ثلاثين كيلومترًا حاملة على كتفها عشرة أرطال. ثمّ يقول سامي عاصم، أعني أنا : وكان قلبي يخفق خفقانًا حلوًا إذ أسمع حفيف أغصان القطلبة على فم المغارة فأعلم أنّها هي... ثمّ أحني، أعني أنا دائمًا، أحني رأسي على كتفي هكذا وأقول لرئيس المحكمة : نعم، لأنّني كنت أحبّها! أليس هذا شيئًا مضحكًا؟ ماذا! أتبكين؟ لا. لا أريد أن تبكي. أنا لا أقول لك ذلك لتبكي. ولماذا البكاء؟... أتظنّين أنّهم يهتدون إليّ؟ كلّا. لن يعرفوا مخبئي. هبيهم استدلّوا عليه، فهل يتجاسرون على ارتقاء هذه المغارة؟ أخرج إليهم شاهرًا بندقيّتي. أنا فوق وهم تحت. تك تك! تك تك! أتّخذ من الصخر متراسًا. لا تنسَي الزيت والخرقة. خرقة ناعمة لأمسحها بها. المغارة رطبة لا تدخل إليها الشمس وأنا أخشى عليها الصدأ... ماذا كنت أقول لك؟ أتبكين أيضًا؟ أُف! لا تخافي. سأقتلهم إذا جاؤوا إليّ. ولن ترتجف لي يد... قلت لك لم أكن متعوّدًا. يجب أن أترك هذا السجن. سأنطلق وأقول للناس الذين يموتون في عقر دورهم أو على قارعة الطرق : «يا ناس، لماذا تموتون جوعًا؟ قوموا! قوموا واقتلوا ظالميكم واحموا الرزق الذي يغتصبونه منكم. أتخافون أن يقتلوكم؟ ولكنّكم لا تخافون الموت أنتم، لأنّكم تموتون كلّ يوم بالمئات، وتنظرون إلى إخوتكم وآبائكم وأمّهاتكم وأولادكم يموتون على مشهد منكم ولا تتحرّكون، بل أنتم تخافون الحياة!» أجل أقول هذا وأقبض ناصية واحدهم، وأنزع وجهه عن التراب وأعطيه بندقيّة. أقول له «خُذ!» أعطي كلّ واحد بندقيّة مثل هذه... لم تقولي ما جواب كامل أفندي لجدّك. كان ينبغي أن أرى هذا الجاويش بنفسي، لأنّني في حاجة إلى سلاح، في حاجة إلى بنادق أخرى. عشرين، ثلاثين، مئة بندقيّة، ألف بندقيّة! ألا ترَين أنّه يوافقني على تهريب السلاح من الثكنة؟ أما هو قادر على تهريبه؟ ألا يبيع رفاقه بنادقهم كلّ يوم ببضعة أرغفة من الخبز؟ وإذا كان عربيًّا ويكره الأتراك فلن يكون لديه أشهى من طلبي. إذا أراد مالًا أعطيه. أنزل إلى بيروت وأرهن بيتي أو أبيعه وأحمل ثمنه إليه. كلّ مارتينة بليرة ذهبيّة. وأدعوه إلى السير معي. أقول له : «هيّا هيّا لنعلن الثورة على الأتراك أعدائي وأعدائك!» آه! الثورة، الثورة! لو أنّ هذا الشعب يثور! لو تعرفين الثورة ما أجملها، ما أروعها!... ألا تظنّين أنّه يأتي؟ يفرّ مثل هذا الجنديّ الذي فرّ اليوم ومرّ تحت مغارتي. أنا أقنعه. أنا أكفل لك أنّه يأتي. ونطيح في الجبال والأودية مثل سائر الطيّاح. لا نقطع الطرق بل نقتل الأتراك، نهجم عليهم في الليل ونفتك بهم وننهب أسلحتهم وأرزاقهم... ونمشي في البلاد من قرية إلى قرية ونسلّح الناس بما ننهب. سأقول له. سأذهب وأقابله. سأذهب!

وهزّ زينه من كتفها.

– متى يأتي إلى الدكّان؟

– ...

– ما لك؟ متى يأتي كامل أفندي إلى الدكّان؟

كان يتكلّم بحماسة متوقّدة، وما يفتأ يهزّها هزًّا عنيفًا وهي تصغي إليه، فلا تدري أيحقّ لها أن تحبّه أم يجب عليها أن تهابه. وأرادت أن تغضب لحبّها وتصيح : «وأنا؟ وأنا، ماذا تفعل بي؟» فلم تطعها شفتاها وأطرقت تقول :

– لا أعلم... لا أعلم.

– أنا أعلم. أنت قلت لي إنّه يأتي كلّ مساء. لا تدَعوه يخرج قبل أن أجيء.

فانتفضت زينه :

– أتريد أن ترمي نفسك بين أيدي العسكر ؟ قلت لك إنّهم يبحثون عنك.

– لن يرجعوا إلّا بعد أسبوع كما فعلوا في المرّات السابقة. يجب أن أقابله.

– سامي...

– قولي لجدّك لا يدعه يذهب قبل أن أصل أنا.

– سامي ! سامي !...

– ماذا ! أعدت إلى البكاء؟

– لماذا تعذّبني هكذا؟

وغطّت وجهها بيديها وأجهشت.

– زينه ، زينه ! إرفعي وجهك إليّ. أحبّ أن أتملّى من هاتين العينين. أنت تعلمين ، لم يبقَ لي حياة في هذه المغارة. ألم تقراي الرسالة التي حملتها إليّ البارحة؟ يجب أن نفترق. سأذهب كما قلت لك إلى كسروان ، إلى دير من الأديرة سأدلّك عليه فيما بعد ، حيث أجتمع برفاقي لأمر خطير. وسيوافينا إلى كسروان نعّوم لبكي صديقي وصديق جدّك. هو اليوم مختبئ في مغارة مثل هذه في ناحية صنّين. ولقد أحببت ألّا أطلعك على جزء من تلك الرسالة لأنّني لم أكن عازمًا بعد على المضيّ فيما يحتويه. أمّا الآن فيجب أن أمضي. سنجتمع ونعلن الثورة يا زينه. أتفهمين حرصي على مقابلة الجاويش؟ يقولون لي في الرسالة : إنّ عليك تدبير مئة بندقيّة بواسطة أحد الجنود. كامل أفندي فرصة يجب أن لا تفوتنا. من يدري؟ ربّما خرج على الأتراك فحاربهم معنا...

– وإذا افتُضح أمرك وأمره؟

– لا تخافي. إذا اتّفقنا أحكمنا الخطّة واتّخذنا الحيطة. الجماعة ينتظرونني يوم الأحد ، ونحن في الخميس. يجب أن أراه غدًا ، ما من ذلك بدّ. وبعد غد أغادر ساقية المسك تحت ستار الليل. قولي لجدّك «سامي قادم إلينا بعد غروب الشمس لمقابلة كامل أفندي». فليحبسه إلى السهرة بحيلة. تعالَي قبل ذلك وأخبريني. سأنتظرك ، أسامعة؟ أنتظرك. تصوّري يا زينه ثورتنا ظافرة ، والأتراك منهزمين من هذه البلاد يأخذون معهم الجوع والأمراض والمشانق ، وتتوارى عنّا إلى الأبد جزماتهم ووجوههم... غدًا بعد غروب الشمس ، قولي لي «إي»... يجب أن ننتصر أو نموت ! لدينا الآن ثلاثمئة رجل. ولا يمضي أسبوع حتّى نصير ثلاثة آلاف.

وسكت طويلًا.

– زينه ، زينه ! تأتين بعدي إلى هنا وتقولين «كان الأخ حنانيا في مغارة الخوريّة». وتتذكّرين هذه الجبّة وهذه اللحية. «هنا كان ينام ، هنا كان يأكل»... وتصلّين لي... سأذكرك أنا مهما كنت بعيدًا. ستكونين في قلبي. سأذكرك تحت الرصاص أو تحت حبل المشنقة. ولن أنسى زينه التي كانت تزورني كلّ يوم وتحمل إليّ رغيفين وبرتقالة قطعتها عن فمها. لن أنسى ، وحياتك يا زينه لن أنسى. ذخيرة عود الصليب التي أعطيتني إيّاها لن تفارق صدري. أنا أؤمن بها لأنّك أنت تؤمنين. سأتناولها صباح مساء وأنظر إليها فأراك تخيطين ثوبها ثمّ تعلّقينها في عنقي بيدك ، وتمهّدين مخبأها ، ويخفق قلبي لك كما خفق حينما أقمتِها حارسًا عليّ.

كان سامي يقول ذلك وزينه تمدّ كفّها وتشدّ على الذخيرة وعلى صدره بكلّ ما فيها من قوّة. حتّى سكت أخيرًا فرفعت وجهها ببطء ولبثت ناظرة إليه ، فخُيّل إليها أنّ عينيه تغرورقان ، ثمّ اغرورقت عيناها ، فانتصبت بينهما ضبابة كثيفة حتّى لم يعد أحدهما يرى صاحبه.

ثمّ أهوى بعضهما على بعض في عناق عظيم...

* * *

دخلت زينه هذه المرّة من الدكّان لترى هل كامل أفندي فيه ، فلم تجد غير خالتها منتحية إلى رجل هزيل ، مجدور الوجه ، في طقم إفرنجيّ ، مع نظّارتين

على أرنبة أنفه. وشدّ ما كانت دهشتها حينما وضعت سلّتها وأكملت طريقها دون أن تدعوها خالتها إلى مجالسة الرجل. فقد كانت ورده تنتظرها كلّ مساء لتستدرّ من الزبائن مالهم على وجهها الصبيح، فتجاريها الفتاة يومًا وتعصي أيّامًا. ولكنّ ورده لم تشعر هذه الليلة بوصولها، وكأنّها تبرّمت بها فقطعت الحديث بينها وبين خليل المعلّا فور ظهورها على العتبة، ولم يحفل بها هو واكتفى بإلقاء نظرة عليها ثمّ تلهّى بتنظيف نظّارتيه.

لم يكن أشهى من ذلك على قلب زينه، فقصدت إلى جدّها في غرفتهما المشتركة، وبادرته بالسؤال عن كامل أفندي، فأخبرها أنّ الضابط راسم بك أمر بحبسه وأنّ الجنود يعلّلون ذلك بأنّ مخبرًا أخبره أنّ كامل أفندي سبّه فأنزل به ذلك عقابًا له. فكانت صدمة عظيمة لآمال زينه، فذهبت إلى فراشها وألقت عليه جسمًا منهوكًا وغمًّا لا حدّ له.

١١

كان راسم بك ساكنًا بيتًا من بيوت بحرصاف، على مشية عشر دقائق من ساقية المسك. رجل أشرف على الخمسين، طويل القامة، متصلّب كالعمود، له شاربان كفّتا ميزان، وحاجبان معقوفان، وكتف تنخفض عن الثانية، وجزمة لها مهماز له وسوسة مخيفة. وكان راسم بك قائد الكتيبة التي احتلّت تلك المنطقة، له الأمر المطاع لا على العسكر فقط بل على الأهلين جميعًا وما يملكون.

وكانت ورده كسّار تفخر على الناس بأنّ الضابط صديقها وصديق ابنها طام. ولهذه الصداقة حكاية ترجع إلى نحو من شهر. ذلك أنّ راسم بك مرّ ذات صباح أمام الدكّان فرأى فيه الجاويش كامل أفندي والجاويش محمّد أفندي، فدخل يداعبهما. فعدّته ورده شرفًا عظيمًا وحامت حواليه تحار ماذا تقدّم إليه تودّدًا واستعطافًا. فضربت بيدها وقرّبت شيئًا قلّب له شفتيه استكبارًا فكادت تموت... لولا أنّه أشار إلى طام الواقف في الزاوية أن يدنو منه. فتردّد فوثبت أمّه تجرّه إليه، فرفعه على ذراعيه في الهواء ثمّ حطّه ثمّ رفعه ثمّ حطّه، والجاويشان وورده يضحكون، وساقه راسم بك إلى بحرصاف. ولم يعد طام إلّا بعد ساعة بجيوب ملأى بالزبيب والجوز، فأجلسته ورده تسأله عمّا قال له الضابط، فأجابها أنّه خاطبه بالتركيّة والعربيّة مخلوطتين فلم يفهم كثيرًا، وأنّ كلّ ما يفهمه أنّ راسم بك لطيف وكريم، وأنّه أعطاه زبيبًا وجوزًا، ووعده بمثل ذلك كلّما زاره.

فكانت لورده فرحة لا تبيعها من أحد، ودخلت من وقتها فأخبرت زينه وأخبرت عمّها أبو سعيد. وفاض سرورها فوضعت لهم ذلك اليوم صحونًا عامرة ونصف رغيف لكلّ واحد زيادة عن المقنّن، كأنّ الزفّة قائمة!

ومنذ ذلك اليوم وطام يزور الضابط كلّ يوم، فإذا تأخّر عن موعده أو نسي ذكّرته أمّه وردّدت عليه اللازمة: «قُل له أمّي تسلّم عليك وترجو منك أن تشرّف دكّانها».

ولأوّل مرّة في حياته عصى طام جدّه. أرسله ليجمع حشيشًا للصبحا فغافله وترك المنجل على باب المراح وأطلق ساقيه للريح. فقد قضى أمسه دون زبيب وجوز، فلا أقلّ من أن يستعجل نصيب يومه. ولكنّ حادثته مع خليل المعلّا لم تكن تفارق ذهنه، فظلّ طول الطريق يتلفّت وقلبه ينخلع كلّما سمع دعسة، محاذرًا أن يلتقيه فيستدرجه بحيلة من حيله إلى أكثر ممّا استدرجه إليه من سرّ الأخ حنانيا.

على أنّه كان يحسّ براحة ودهشة معًا لعدم إقدام أحد على سؤاله عن شيء. ولو سألوه لأنكر... ولكن من يسأله؟ وماذا قال هو لخليل المعلّا؟ وإذا كان خليل المعلّا عرف أنّ الأخ حنانيا هو الخواجه سامي فقد بقي عليه أن يعرف أين هو. وهو لن يدلّه على دير مار نهرا

ولو أعطاه كلّ بشالك العالم ومجيديّاته. وكان الصبيّ يعتقد أنّ الأخ حنانيا مختبئ، كما قيل له، في دير مار نهرا، وهي حيطة اتّخذها أبو سعيد مع حفيده حين غادر سامي البيت إلى مغارة الخوريّة.

وصل طام إلى منزل الضابط وهو يفكّر بكلّ هذا عاليًا. فإذا راسم بك على الشرفة يدخّن نارجيلته عابسًا مكمدّ اللون. فوقف أمامه يلهث من الركض، وأراد أن يقفز إلى حضنه، حسب العادة، ويفتل له شاربيه فلم يجرؤ وتحوّل عنه منكسرًا، فقال راسم بك:

– أُطور كرسي! اُقعد!

وضرب بكفّه على كرسيّ فقعد الغلام جزءًا من الكرسيّ لا يتحرّك فيه إلّا عيناه الدعجاوان يختلسهما إلى صديقه المبرطم، ثمّ يردّهما على قرقرة مفاجئة أو أحّة صاخبة. ثمّ نهض الضابط وقذف النربيش على الأرض. فالتفت طام فإذا جنديّ مكبّل اليدين يُقبل بين جنديّين آخرين واحد عن يمينه وواحد عن اليسار. وإذا راسم بك يرفع ذقنه ثمّ يخفضه باصقًا بوجه المأسور بصقة جبّارة. فينفض المهان رأسه ويلتفت إلى طام مبتسمًا فعابسًا عبسة ذات بريق مؤذٍ، والقذر ينحدر على شاربيه وأنفه الطويل خيوطًا متمايلة، ويكسبه في كلا الابتسام والعبوس سحنة تاعسة. فكاد طام يشهق باسم كامل أفندي لأنّه كان يعرفه من تردّده على الدكّان. ولكنّ صوته اختنق وأخذ يجيل رأسه بين راسم بك وكامل أفندي وشفتاه تختلجان ولا تطيعانه بكلمة.

وقف الجنديّان بالمأسور على العتبة فحلّا وثاقه. فهمّ بالانحناء، فأمسكه صاحب يمينه من يأفوخه وأدار له وجهه نحو الضابط، ولكزه صاحب شماله على خاصرته، فضمّ كامل أفندي رجليه ورفع يده بالتحيّة لضابطه. حينئذ انكفأ راسم بك إلى كرسيّه وانحنى كامل أفندي إلى نعليه فنزعهما ووضعهما خلف الباب ودخل إلى البهو ودخل الجنديّان، ولحق بهما الضابط بعد أن أوصى طام بالانتظار خارجًا.

انتظر طام دقيقة، فإذا في البهو حركة، فقام إلى الباب يصغي، فإذا صفقات متوازنة تعقبها أنّات متوازنة تقطّعها شتائم ضخمة. وإذا هذا المزيج المبهم يدوّي في أرجاء البهو الواسع وفي صدر الصبيّ اللائص بين الباب والشبّاك ليرى شيئًا فما يستطيع. ثمّ إذا بالصفقات تسكت، ثمّ تخفت الأنّات وتستطيل وتعمق، ثمّ لا تبقى إلّا الشتائم وما تلبث هي أيضًا أن تتلاشى...

وانفتح الباب، فتعثّر طام بالكرسيّ في تراجعه إليه. وخرج كامل أفندي بين الجنديّين ساحبًا على البلاط قدمين يسيل بين أصابعهما الدم. وأرخى على الباب يدًا ضعيفة مشلولة إلى نعليه فأخذهما تحت إبطه. ودفعه صاحباه على الدرج، وشيّعه الضابط ببصقة أخرى. فتململ طام في مكانه يريد أن يلحق بكامل أفندي، فإذا راسم بك يحضنه ويقعد به مرسلًا لهاثه على شعراته المجعّدة. فأحسّ الغلام هذا اللهاث شوكًا يخز جلدة رأسه، فقفز وتدحرج على السلّم كالكرة، وطار كالطير.

ولم يصل إلى الزيتونة العجوز القائمة في منتصف الطريق بين بحرصاف وساقية المسك حتّى لقي كامل أفندي يمشي متثاقلًا عارجًا على الميلين، فأسرع إليه يعرض كتفه عليه ويسأله عن سبب الفلق ويدعو على راسم بك معلنًا أنّه لن يحبّه بعد اليوم مهما أعطاه من خبز أبيض وجوز وزبيب وحلوى! فاعتمد الجاويش كتف طام وأخذ يسأله بدوره عن سبب صداقة الضابط له، وإلى متى ترجع، وماذا بينهما بعد تفتيل الشاربين... حتّى وصلا إلى الدكّان.

١٢

ادخلت ورده الجاويش إلى البيت، وقام أبو سعيد على العناية به... وحار الشيخ أيفاتحه بمطلب سامي أم

لا. يدفعه أنّ الجاويش مضطهَد لكرهه الأتراك، ويثنيه أنّه قد انفتحت العيون عليه من أجل هذا الكره. وكان كامل أفندي يئنّ حينًا ويشتم الدولة حينًا آخر. ثمّ نظر من النافذة فرأى الليل فاستأذن وانتحى زاوية من الغرفة وركع يصلّي العشاء.

إنّ مرأى رجل يصلّي يوحي الاحترام في قلوب الآخرين، فكيف إذا كانوا مؤمنين إيمان أبو سعيد وكان المصلّي ضحيّة مثل كامل أفندي يرفع إلى خالق السماء ظلامته من أبناء الأرض. ولقد بلغ ذلك من نفس الشيخ أن أومأ إلى طام بالانصراف، فذهب إلى الدكّان، وخرج هو إلى الشرفة تاركًا الجاويش إلى ربّه. فإذا الصبحا تخور مرّة ومرّتين وثلاثًا. وما عادتها أن تفعل إلّا لأمر، فانحدر إلى المراح فإذا ببابه... الأخ حنانيا.

- الخواجه سامي!

- هو أنا.

- كيف تخاطر بنفسك والليل لم يُظلم بعد! أُدخل إلى المراح.

- جئت لأودّعك يا أبو سعيد. لا بدّ أنّ زينه أخبرتك. وقد مرّت عليّ هذا الصباح وأخبرتني كذلك بخبر كامل أفندي. فما الفائدة من الانتظار حتّى السبت؟ الخير أن أمشي إلى كسروان الليلة.

- أُدخل، أُدخل. هو في غرفتي، فوق.

- من؟

- كامل أفندي.

وقصّ عليه قصّة الفلق، فداخل سامي من الفرح ما لم يستطع إخفاءه، فجعل يفرك كفّيه ملحًّا على الشيخ في مقابلة الجاويش فورًا، فحاول إبعاده عن هذه المجازفة فقال:

- يا أبو سعيد، ماذا يخاف المظلوم من المظلوم؟

ثمّ صعدا معًا، فوجدا كامل أفندي قد عاد إلى الاستلقاء على الحصير، وكأنّه أحسّ بأنفاس غريبة فأدار وجهًا مصفرًّا وادعًا وقال:

- مساء الخير يا محترم. أُعذرني إذا لم أقدر على الوقوف.

- خذ راحتك يا ابني.

ونظر سامي إلى قدمَي الجاويش الناضجتين، ثمّ إلى وجهه المعذّب وأخذ يهزّ رأسه. كانت لكامل أفندي الورّاق هيئة ساذجة: أبرص البشرة، أزرق العينين، ليس فيهما لمعان لخبيء البتّة. دمشقيّ ابن شيخ، نشأ في بيت متديّن وترعرع في جوّ الكتب الصفراء، فأخذ منها لفكره وحسّه كلّ شيء، وأغلق نوافذ نفسه عن الحياة تاركًا إيّاها تمرّ بعيدة عنه بملذّاتها وحسراتها، وجمالها وقبحها، لم يهزّه يومًا شوق كبير، ولم تقرضه خيبة عظيمة، ولم يقف مرّة مستقريًا عن سبب، أو متسائلًا عن نتيجة. أليس كلّ شيء مكتوبًا، والله يجري الأمور، أوّلها بحساب وآخرها بحساب، ما يستقدم منها الإنسان ولا يستأخر.

- في شريعة محمّد، صلى الله عليه وسلّم، لا يجوز هذا يا محترم (وأشار إلى قدميه) أفيجوز في شريعة عيسى عليه السلام؟ أنت كاهن، وأنا على يقين أنّ الكهنة يكرهون الأتراك ولا يشون بكارههم إليهم. «وسيرى الظالمون أيّ منقلب سينقلبون».

تمشّت في جسد سامي رعشة مؤذية وحلوة معًا، وامتدّت إلى شفتيه فجعل يقضمها بأسنانه معلّقًا ناظريه بوجه الجاويش.

- أخبرني أبو سعيد بما حلّ بك... ماذا قلت بحقّ الضابط راسم بك؟ أصحيح أنّك شتمته؟

- والدولة!

فلم يجد سامي ما يقول بعد، وأحسّ برجليه تُدنيانه، فدنا وجثا بركبة واحدة إلى يمين كامل أفندي وسأله:

- هل أنت محموم؟ هات كفّك.

وضغط سامي بسبّابته على كفّ الجاويش ضغطة قويّة. فقابله بالمثل، وحملق كلّ منهما بالآخر هنيهة واضطرب كيان سامي. ثمّ سحب يمناه وألقاها على

ساعده الأيسر مظهرًا السبّابة والوسطى ومخفيًا أخواتها. فأخذ الآخر يرفع رأسه عن الحصير، ثمّ رفع كتفيه فظهره واستوى قاعدًا هاتفًا «هاء» فأجابه سامي «لام» وكامل «ألف» وسامي «لام»، وهجم أحدهما على الآخر يتعانقان.

تلك الإشارات والحروف هي علامة التعارف بين أعضاء «الجمعيّة القحطانيّة»، إحدى الجمعيّات السرّيّة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت بين ضبّاط الجيش وجنوده العرب خاصّة، يدبّرون في الخفاء معدّات الثورة، ويهيّئون الانتقاض على الدولة.

وفي ساعة متأخّرة خرج من بيت كسّار شبحان فوقفا أمام المراح متواجهين. كان الظلام ناعمًا، والنجوم ترتعش في الجلد الفسيح ارتعاش الآمال الجديدة، والصمت يشمل الأنحاء إلّا هيمنة نسيم نديّ بارد. ثمّ امتدّت كفّ أحدهما إلى كفّ الآخر فتصافحا بقوّة، وسمعها الليل وحده يتعاهدان:

– إلى غد!

– إلى غد!

وافترقا، فذهب ذو الثوب العسكريّ في الطريق وانسلّ ذو الجبّة في الوادي.

البِــــذار

١

في ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي أحاط بمغارة الخوريّة أربعة من الدرك وجنديّان تركيّان على رأسهم الضابط راسم بك ودهموا سامي عاصم نائمًا ، فكبّلوا يديه ولكزه قائدهم بجزمته صائحًا :

– قُم دلّنا على كلّ ما تخبّئ.

فانتصب سامي بجبّته فرفع الضابط كفّه بالمسدّس وأهوى على صدغه :

– خُذ يا أخ حنانيا !

فأدماه ، وقهقه الآخرون. فضرب بيديه المكبّلتين وقذف راسم بك بقوله :

– جبان !

فكان الجواب ضربة أخرى على رأسه ، فصبغ الدم حاجبه وتشعّب على خدّه حارًّا. ونصر الجنود قائدهم متألّبين على الفريسة حذفًا بأعقاب البنادق وبالشتائم. ثمّ انصرفوا ينقّبون ، يلتقطون من هنا ورقة ، ومن هنا خرقة ، ومن هناك علبة كبريت فارغة. وسامي ينظر إليهم لا يفكّر بشيء ولا يحسّ بشيء. حتّى اهتدوا إلى البندقيّة ملفوفة بالثوب العسكريّ المبقّع بالجساد فوثب الضابط إلى الثوب :

– من أين هذا؟

ونظر الجنود بعضهم إلى بعضهم يغمغمون :

– ثوب عسكريّ !

– عسكريّ تركيّ !

– وبندقيّة أيضًا !

– من أين هذا ، أقول لك؟ ودم عليه ! ألعلّك قتلته ؟

– لقد أكملتَ ما بدأ به جنودك. اِنتهت إفادتي.

فوقف راسم بك مفرّجًا بين رجليه ورفع مسدّسه مشيرًا بالهجوم. فعادوا إلى سامي بكلّ ما ملكت أيديهم وألسنتهم ، ثمّ وضع فوهة مسدّسه إلى رأس الأسير يطرقه بصخرة ناتئة. وإنّه لماضٍ في ذلك إذ حانت التفاتة منه إلى شقّ في الصخرة مسدود ، فرفع يده ، فرفع الجلّادون أيديهم وتوجّهوا بعيونهم جميعًا إلى ذلك الشقّ وقد ظنّوا فيه الوثيقة الكبرى والمؤامرة العظمى. وجعلوا ينزعون ورقة بعد خرقة وخرقة إثر ورقة ، ويمدّون برؤوس بنادقهم حينًا ، ويشكلون عن زنودهم حينًا آخر ، يتناوبون ويتعاونون ، والسرّ الهائل يأبى إلّا الاستعصاء والاستخفاء. حتّى ضاق القائد ذرعًا فأزاحهم وأرسل ساعده عاريًا في الشقّ مكشّرًا عن أسنانه ، وهم من ورائه منحنون عليه ، يشدّون… يرخون… وأمسكت أصابعه بشيء فالتفت إليهم بعينَي البشرى ، فحبسوا أنفاسهم.

هذه المرّة تلقّى سامي حملتهم بلذّة غريبة. فقد كان في الشقّ نعلاه القديمتان أخفاهما فيه وطال العهد عليهما فتكمّشتا وأكلهما الفساد.

* * *

اقتاده في طريق بيروت ثلاثة فرسان مشيًا على قدميه، مربوطًا بزنجير إلى سرج من سروج خيلهم. وكان قد نهكه ما ناله قبلاً في المغارة فلم يلبث أن خانته قواه فاستسلم، يجذبه الحصان ويدلي به في طلوع الطريق ونزوله، فتنلخع يداه شدًّا لتهويا بعد ذلك بقيده الحديديّ الثقيل هويًّا يحسّ أنّ كتفيه ذاهبتان معه. فإن شكا ألوى عليه الفارس بالسوط وهمز مطيّته، فتجتمع عليه ضروب من العذاب، من اضطرار إلى الركض، واتّقاء للسنابك، وتعرّض للحصى المتناثر. أرسل الشكوى الأولى احتجاجًا، والثانية عفوًا، ثمّ ختم على فه حتّى وصلوا به إلى إنطلياس، فقعدوا في حانة يشربون الخمر، وأذنوا للخادم فقرّب إليه السطل الذي سقي به الخيل، فعبّ منه، ثمّ أدخل وجهه فيه وأخرجه سعيدًا ببرودة الماء، وهم يشيرون إلى لحيته المبتلّة المتساقطة ويقهقهون.

وعرّجوا به على الجدَيدة، المركز اللبنانيّ الأخير قبل بيروت، وكان بانتظاره ثلاثة آخرون فتسلّموه وتولّوا أمره حتّى بيروت حيث زجّوه في أحد الأقبية مع كثيرين من أمثاله. وكانت الحمّى قد دبّت في أعضائه فاستلقى على الحضيض كالقتيل.

ولم يدرِ متى ولا كيف نقلوه، ولكنّه صحا، إذ صحا، نشيطًا على نور نهار جميل، وكلام، وقرقعة آلات... ففرك عينيه فإذا هو في القطار على محطّة عاليه.

كانت بلدة عاليه قبل الحرب مصيفًا لأغنياء بيروت وأشرافها، ومقامًا للّهو والسرور، النهار فيها مسرح والليل عيد، فصارت على عهد الأتراك شؤمًا لم تنعق بومة بمثله. أربع سنوات كاملة مرّت على عاليه وكأنّ عاليه أوقفت الزمان عن دورته في الفلك فهو يزحف بين الأقدام والوحول والسلاسل، يومه شهر وشهره دهر... والمحطّات في العالم مملوءة بالقلوب الخافقة للقاء الأحبّة، والوجوه الطلقة، والثغور المرنّة بالقبلات. أمّا محطّة عاليه فكان عليها وجوم مخيف، يروح الجنود بحرابهم اللامعة ويجيئون، يخفرون المعتقلين وينهرون الناس، والناس أشباح منتصبة، شيوخ وأطفال يبسطون أيديهم للحسنة، ونساء وصبايا في أسمال بالية وعيون ملتاعة بارزة، يعرضن جمالهنّ برغيف خبز.

وذهب جنديّان بسامي إلى بناية كبيرة على بابها حجّاب عابسون، ودخلا به على ضابط ثخين الرقبة، مفتوح المنخرين، يجلس وراء منضدة عليها أوراق ودواة وقلم في غرفة عارية باردة الجدران.

وبادره الضابط:

– ما اسمك؟

– سامي عاصم.

– ها ها! الأخ حنانيا! أليس كذلك؟

– ....

لم يكلّف نفسه عناء النظر، فصاح الضابط:

– إلى الرقم ٦.

وخبط على الطاولة، فأدار سامي وجهه، وقد رنّ الرقم في أذنه رنينًا منكرًا فجعل يفكّر طول الطريق فيما عساه أن يكون الرقم ٦.

٢

أربع غرف، اثنتان من هنا واثنتان من هنا، وفي الوسط ممشى معتم في آخره طاولة وراءها هيئة إنسان. أدناه خفيراه، فسأله الحارس عن اسمه ودوّنه في دفتر أمامه، ثمّ ترك القلم وتناول سوطًا من الجلد وقام مشيرًا إلى الجنديّين، فتبعاه، وسامي يسرّح بصره من اليمين

ومن الشمال في عيون زائغة، وأنصاف شوارب، وأصابع غليظة تطلّ من طاقات مشبّكة في أعلى الأبواب.

– يا أفندي، يا أفندي، بادي شاهم جوق يا شاه!

وتجاوبت الضحكات من طاقة إلى طاقة. والتفت سامي صوب الدعاء فرأى وجهًا مذعورًا وراء إحدى الطاقات بشاربين نازلين وعينين تهمّان بالبكاء وفم...

– يا أفندي، يا أفندي، بادي شاهم جوق يا شاه!

وانطلقت الضحكات أوقح منها من قبل. فاستدار الحارس، وأقبل يخادع المنادي بابتسامة. فأشرق وجه السجين ومدّ يده على حديد الطاقة، فانهال السوط عليها، فتقلّصت وتوارت، ثمّ توارى صاحبها. وكأنّ المضروب كان ناسيًا فتذكّر، فصرخ صرخة هائلة.

وتناول الحارس مفتاحًا من حزمة ضخمة يربطها بزنّاره، وأدخل سامي إلى الغرفة المحاذية لغرفة المضروب، وفكّ الجنديّان وثاقه وأغلقا عليه الباب. وما كادا حتّى انبعثت في أنفه رائحة كريهة... ونظر فرأى شيئًا يتململ في الزاوية وإذا شخص يستوي واقفًا ويقول:

– أمعك شيء للأكل؟

وكانت عينا سامي قد ألفتا العتمة، فإذا هو بمخلوق في قميص وسخ نبتت له لحية طويلة كثّة، وطال شعره حتّى جعل له رأسًا أقرب إلى رأس حيوان. فداخلته من هذه الحجرة ومن ساكنها معًا نفرة واشمئزاز، وأحسّ أنّه لو أقام يومين هنا لمات اختناقًا. وبقي صامتًا لا يجيب سائله. ثمّ دنا من الطاقة فإذا الوجه المعذّب يعود إلى الظهور على طاقة زندانه المقابل وتعلو الصيحة:

– يا أفندي، يا أفندي، بادي شاهم جوق يا شاه!

ويأتي الحارس بسوطه، ويظلّ السجين مادًّا كفّه على الحديد حتّى تنال نصيبها. فيهمّ سامي فيمسكه رفيقه قائلًا:

– أبله كما تراه وتسمعه، لا يكفّ عن الدعاء: يا أفندي يا أفندي! والأفندي يضربه. جاؤونا به أمس فلم يدعنا نذوق طعمًا للنوم طول ليلنا.

– هيه! هيه! لماذا تضرب هذا المسكين هكذا؟

فانقلب الحارس إلى سامي عاقدًا يديه بالسوط خلف ظهره:

– أعلى بالك؟ لو لم تكن جديدًا لأدّبتك! ولكنّني أحذّرك: لا تتدخّل في ما لا يعنيك.

ومضى. ثمّ عاد إلى وسط الرواق وهتف:

– ألـ.. قيـ.. روانة!

فضجّ السجناء في زنادينهم. وانفرج الباب وأدخل جنديّان حافيان حلّة كبيرة ذات لهب، فصبّا منها قصعة لسامي وثانية لرفيقه، وطرحا لهما رغيفين أسودين. أمّا سامي فنظر وشمّ وصرف وجهه، فسأله الآخر وهو يزدرد ويلتهم ويتلمّظ:

– ألا تأكل؟

– لا.

فقرّب القصعة والرغيف إليه.

– دائمًا هكذا، الجديد في السجن لا يأكل في اليوم الأوّل. ستتعوّد.

وأدخل يده. فإذا الباب يُخبط، وإذا الحارس ينشب يديه في لقمة بين أسنان السجين، ثمّ يرفسه ويتناول القصعة والرغيف ويخرج محدّجًا سامي بسخرية. فأدرك سامي معنى ذلك كلّه ولم يقل شيئًا. ثمّ انحنى يسأل رفيقه:

– ما اسمك أنت؟

– حنّا الدهّان من بيت مري. وأنت؟

– كم مضى عليك هنا؟

فأشار حنّا الدهّان إلى الجدار وهو يتابع أكله مشغولًا فمه باللقمة عن الكلام والدنيا. فنظر سامي فلم يفهم فأعاد:

– قلت لك كم مضى عليك في هذا السجن؟

– أما ترى؟ أُنظر إلى الخطوط وعدّها. هذه هي روزنامتي. أحفر على الحيط بظفري خطًّا كلّ يوم.

فجعل سامي يعدّ الخطوط: «ثلاثون... أربعون... خمسة وأربعون»، فقاطعه حنّا الدهّان:

– الخطوط العموديّة للشهور! (وبلع لقمة) حسابي المخطوط يصل إلى ثلاثة أشهر وخمسة عشر يومًا. بعد ذلك لم أعدّ. قلت: ما الفائدة من التعب؟

– يا أفندي، يا أفندي، بادي شاهم جوق يا شاه!

فلم يضحكوا لانصرافهم إلى الأكل. ومشى الحارس إلى المستغيث به فضربه أيضًا. ففار الدم في عروق سامي:

– ألا تكفّ عن ضرب هذا المسكين؟

فجاء الحارس صوب سامي هادئًا مطمئنًا. والتقت عيون الاثنين من خلال الشبكة الحديديّة. وشدّ سامي عليها بأصابعه متحدّيًا الجلّاد بسلاحه الوحيد، حقده، يتفجّر من عينيه وتختلج به شفتاه. فما كان إلّا أن أهوى السوط على كفّه، فما تمالك من الصراخ وسحب أصابعه إلى فه وقد جرّت الضربة عليها خطًّا أحمر لاهبًا... وعاوده إذ ذاك الشعور الذي عذّبه لأوّل مرّة في مغارة الخوريّة لمّا ضربه معتقلوه دون أن يستطيع عن نفسه دفاعًا، شعور الإنسان باحتقار أخيه الإنسان، حتّى ينزع عنه ثوب الإنسانيّة ويجرّده من كرامتها وعقلها ومحبّتها وفضائلها جميعًا، فما يراه إلّا وحشًا وما يتمنّى لنفسه إلّا أن يكون وحشًا مثله – ولكن حرًّا – في ميدان يصاوله فيه باليد والرجل، والظفر والناب، ولا يغادر أحد منهما صاحبه إلّا وقد شفى غليله بالموت وانبطاح جثّة على الأرض حجرًا من حجارتها الصمّاء، لا الخير تقدر عليه ولا الشرّ.

وقعد مطرقًا. وجعل حنّا الدهّان يقصّ عليه قصّته وقصص السجناء. تهمته صورة لنابليون وجدوها في بيته، وتهمة آخر كتاب من صديق له في أميركا يذكر له فيه الدولة التركيّة بما لا يرضيها، وتهمة ثالث أنّه سبّ السلطان... وسامي يصغي حينًا ويشرد حينًا آخر ليفكّر بزينه.

ولمّا اسودّ الليل أغمض جفونه على خيالها ونام.

٣

كانت زينه تتقلّب في فراشها مفتّشة عن وسيلة تصل بها إلى عاليه. فكلّ ما تدّخره لا يتجاوز البشلكين اختلستها متليكًا فمتليكًا من تجارتها اليوميّة. ولقد خطر ببالها أن تفاتح جدّها بالأمر، لا طمعًا بماله فلا مال عنده، ولكن عسى أن يستدين، ثمّ عدلت عازمة أن تخفي رحلتها عنه. وعنّ لها أيضًا أن تستولي على إجّة طام بحيلة من الحيل فتضمّ ما تحتويه إلى ما تخبّئه في ثنايا ثوبها، فيكفيها المجموع ثمن ما تمسك به الرمق ذهابًا وإيابًا. ولو أنّ خالتها أرسلتها إلى إنطلياس لعملت بالرأي الأخير وانطلقت وراء سامي فور اعتقاله. ولكنّ ورده انقطعت منذ الحادث عن إيقاظها مع الفجر، ولا تذكر لها البرتقال ولا الخُضَر. وأعجب من ذلك أنّ لهجتها تبدّلت فما تقذفها بلعنة، ولا تلحّ عليها في مسامرة الزبائن، ولا تلفظ اسم الأخ حنانيا بخير أو شرّ، مع أنّه كان حديث الناس في ساقية المسك وجوارها.

وفجأة لمع في ذهن زينه خاطر لم تتمالك من الارتعاش له، فجعلت تنظر إلى الباب في الحائط الفاصل بين غرفتها وغرفة خالتها. وكانت ورده قد أغلقت الدكّان واستسلمت إلى النوم، تسمع زينه غطيطها يخترق الجدار متقطّعًا بنفخات سكرة ثقيلة. وبالرغم من العتمة السائدة أدارت الفتاة وجهها تطمئنّ من ناحية جدّها. ثمّ رفعت لحافها وقامت تتلمّس الشبّاك، ومن الشبّاك إلى المغسلة، فإلى المقصّ الذي تركته عليها بعد رفء ثيابها، فتناولته وضمّت

سنّيه برفق ، وبسطت يديها من جديد تستهدي. ولم تصل إلى الباب حتّى وقفت دونه. خُيِّل إليها أنّ ورده ستنتبه عليها بل إنّها قد نهضت فهي الآن من الجهة الأخرى من الباب ليس إلّا أن تفتحه وتطلع في وجهها ! فاضطربت حائرة بين الإقدام والإحجام ، وعضّت إصبعها. وصاح ديك في الليل ، فلم تدرِ أيّ سحر حمله هذا الصوت الأبحّ إليها فعاودها العزم. فلتقل لها خالتها ما شاءت ولتفعل بها ما طاب لها ! فاللعنات وشدّ الشعر واللكمات أشياء تعوّدتها منها ، فما تبالي بعد.

وفتحت الباب ، ولعلّه صرّ بالمزلاج ولم تسمعه. ولكنّها سمعت خالتها ما تفتأ تشخر ، ورأتها على ضياءة من القمر تنفذ من الشبّاك ، رأتها مكشوفة قد زلق اللحاف عن كفليها الرأبيين ، وغطّاهما القمر بفضّته العمياء. فتابعت تسترق الخطو ، والمقصّ في يدها تضغطه مع ضغط فكرها ، حتّى إذا وصلت وقامت بمهمّتها قامت بها برباطة جأش ، وباطمئنان لم تكن تتوقّعه قطّ.

كانت ورده تربط مفتاح صندوق المال بعنقها مبالغة في الحرص. فلمّا استولت عليه زينه انسلّت إلى الدكّان ، فلم يكن عليها إلّا الاختيار بين الليرات والمجيديّات والبشالك ، فكمشت من الصندوق ما وسعت كفّها وصرّته بمنديلها وجعلت الصرّة في صدرها ، ثمّ تساءلت هنيهة ما تصنع بالمفتاح ، ثمّ تركته مكانه وولّت.

ولم تفطن إلى أنّها نسيت طرحتها والرغيف الذي تناولته من المعجن إلّا بعد أن بلغت قرنة شهوان ، على ساعة من ساقية المسك.

* * *

وصلت إلى عالَيه على مساء بارد. وماكادت العربة تدخل بها المدينة حتّى أخذها انقباض في صدرها وحلّ محلّ اللهفة التي رافقتها طول الطريق من ساقية المسك إلى بيروت ومن بيروت إلى هنا. وكان في العربة ثلاثة ركّاب آخرين حاولوا بادئ ذي بدء أن يفتحوا حديثًا بينهم وبينها فصدفت عنهم ، وكان جديرًا بها ألّا تفعل ، فقد كان في استطاعتهم أن يعينوها على أمرها في هذه المدينة الغريبة الرهيبة. فحاولت أن تصل ما انقطع من الحديث وتسألهم عن الديوان العرفيّ ، والسجن ، ومقابلة السجناء. وهيّأت في سرّها الخدعة ، تقول هو ابن عمّها أو ابن أختها. واستأنست بشيخهم ومدّت بفمها إليه ، فإذا به يشير إلى السائق بالوقوف وينزل.

استأنفت العربة سيرها فوضعت الراكبين الباقيين كلًّا حيث يقصد ، وهي ساكتة تنظر حواليها إلى البنايات الشاهقة وتتفحّص وجوه المارّة ويخفق قلبها كلّما لمحت جنديًّا. ثمّ شعرت أنّ الحوذيّ ينظر إليها شزرًا متبرّمًا بها بعد أن تقاضاها الأجرة في بيروت قبل أن تضع قدمها في عربته ، فشدّ اللجام وألقى سوطه وقال :

– هذه عالَيه ! (وأردف مستهزئًا) تفضّلي.

– هل تعرف أين السجن؟

– أيّ سجن؟ في عالَيه عشرات السجون ، والعربة لا تدخل واحدًا منها !

فترجّلت منكسرة فناداها وقال :

– إذا كنت آتية لزيارة سجين فسلي عن رشدي بك.

– رشدي بك !

– رئيس التحقيق رشدي بك.

وابتسم كالمكشّر ثمّ ضرب بسوطه.

وقفت لا تدري من أين تذهب. رشدي بك ! رشدي بك ! رئيس التحقيق رشدي بك ! أذكت هذه الكلمة فيها أملًا ، وبعثت لهفة مشوبة هذه المرّة بعذاب الاستيحاش. لو قال لها أين تستطيع أن تراه ! لو دلّها على وجهة ! ولكن لماذا ضحك؟ ما معنى ضحكته تلك؟ وجعلت ترسم في ذهنها صورة لرئيس

التحقيق ، وتبحث فيها عن سبب ضحكة الحوذيّ ، فتراه هو الآخر خلال ضباب الظنّ ضاحكًا فتضاحكه ، ثمّ تعبس لترجع إلى الضحك. ولو رآها أحد ورأى وجهها في تلك الساعة لما شكّ أنّ بها مسًّا. ثمّ ثابت إلى نفسها فإذا هي في سوق ، عن الجانبين دكاكين وناس. فواصلت طوافها تتصفّح الوجوه من هنا ومن هناك... ثمّ تمتمت : «ما اسمه؟ هل نسيت؟ راشد... راشد بك... بل رشدي بك. رشدي بك!» وردّدت ذلك مرارًا.

وجازت بها فقيرة بثياب ممزّقة ، على ذراعها طفل مطمول الوجه بالدمع والقذر ، فأسرعت إليها وتصدّقت عليها بمتليك.

– يا خالتي أتعرفين رشدي بك؟

– مَن؟

– رشدي بك رئيس التحقيق في الديوان العرفيّ.

– لا. لا يا ستّ ، سلي في الدكاكين. الله معك!

واستأنفت زينه سيرها ، تهمّ بالدخول إلى دكّان ثمّ تغادره إلى التالي. حتّى رأت خبزًا في واجهة فدخلت وابتاعت رغيفًا ، على غير شهوة منها إلى الأكل ، وطرحت على البائع سؤالها ، فقال :

– أَلكِ أحد في السجن؟

– سامي عاصم.

– سامي عاصم؟

– شابّ طويل أسمر جاؤوا به من ساقية المسك منذ ثلاثة أيّام.

– كلّهم شبّان مثل الرماح يا بنتي. من أين لي أن أعرفه؟ أجل ، الأمر بيد رئيس التحقيق.

– دلّني على بيته.

– أدلّك على مكتبه. في البناية المجاورة للمحكمة ، في أوّل عاليَه. عليك أن ترجعي من هنا.

وكان يريد أن يكمل ولكنّها أدارت ظهرها مسرعة. «كأنّ رشدي بك ينتظرها على موعد!»... وهزّ الرجل كتفيه.

٤

استوقفت زينه في طريقها عجوزًا. فرفعت العجوز وجهها المسنون وهتفت بها :

– صبيّة مثلك تحار كيف تقابل رشدي بك؟ (ولفّتها بنظرة من رأسها إلى أخمص قدميها). ولكن اذهبي والبسي غير هذا الفسطان.

وتابعت سيرها ، فحدّجتها زينه بغضب ، وتذكّرت ضحكة الحوذيّ... وخطت عشر خطوات أخرى ، فرُفع لها عن بعد جنود منتصبون ، فلم تشكّ أنّه الديوان العرفيّ لما وصفوا لها من أشكاله. بنايتان كبيرتان متقاربتان ، على باب كلّ منهما حجّاب يحملون بنادق في رؤوسها حراب ، وللبنايتين فناء مشترك إلى الشارع فيه ضبّاط بقلابق سوداء وبيضاء ، وأزرار لمّاعة ، وطاقات طويلة ومهامز ، متجمّعون حلقات ، يتحادثون بأصوات عالية. فجعلت تدنو متفرّسة بوجوههم مهتمّة لحركاتهم ، والحجّاب لا يحيدون رأسًا كأنّهم لا يشعرون بها. فأقلبت على واحد منهم فلم يلتفت ، فظنّته لا يحفل بها فإذا هو يصوّب حربته إليها ويصيح :

– يساق... تشابوك!

فأجفلت وعثرت وأوشكت أن تقع. وأرادت أن تجوزه مواصلة سيرها ، فهدّدها مرّة أخرى ، فانقلبت إلى السوق منكسرة ، ودخلت إلى الدكّان الذي ابتاعت منه رغيفًا وطلبت صحن فول. وقصدت إلى زاوية فوجدت الطاولة فيها مشغولة فقعدت في الزاوية المقابلة.

وكان صاحب الزاوية الأولى يأكل بنهم عجيب ، يهبط مع الملعقة ويصعد بحركة متوازنة موقّعة على خفق لسانه بعد كلّ لعقة. فراقها ذلك منه فجعلت تنظر إليه ، وهو مدبر ، لا ترى إلّا قذاله وطرفَي نظّارتيه وظهره الصاعد الهابط ، حتّى إذا فرغ من حسائه دقّ بالملعقة على الصحن واستدار ، فالتقت عيناه عينيها.

– الخواجه خليل المعلّا!

وقامت إليه. كانت قد رأته في دكّان خالتها مرّتين، الأولى عند عودتها من مغارة الخوريّة، والثانية في اليوم التالي وقد شرب نخبها وظلّ يسامر خالتها إلى منتصف الليل. وخالجها سرور كبير بلقائه، وأغرتها بشاشته وحفاوته، فمضت تفضي إليه بكلّ ما في قلبها وهو يصغي أحسن إصغاء ويربّت على كتفها ويهوّن عليها، ويؤكّد لها أنّه يعرف رشدي بك شخصيًّا وأنّ له عليه دالّة الصديق. وزاد فتحنّن على سامي وقال:

– سأوصي رشدي بك به.

ونهض من فوره، على أن تنتظره حيث هي نصف ساعة على الأكثر. ولكن لم تختفِ رجلاه حتّى أطلّ رأسه على باب الدكّان يشير إليها بإصبعه، فدنت فأسرّ في أذنها وهأهأ، فأدخلت يدها في صدرها وفتحت الصرّة. فلم يصدّق نظّارتيه فأزاحها وحملق:

– إياكِ والنشّالين! أُدخلي. أُدخلي. إنّ أولاد الحرام كثيرون.

واختليا في زاويته. فتناول من الصرّة ليرة ذهبيّة وأربعة بشالك وخرج.

صدق خليل المعلّا في ميعاده حتّى الكذب، فلم يغب أكثر من عشرين دقيقة فهبّت زينه إلى لقائه:

– ماذا؟

– أُقعدي، ولنأكل معًا برتقالة.

وجعل يقصّ عليها أنّ رئيس التحقيق وعده بإنقاذ سامي عاصم مهما كلّفه الأمر، وأنّه مطّلع على ما بينها وبينه من مذكّرات السجين التي ضُبطت في مغارة الخوريّة، وأنّه كان ينتظر أن تأتي إلى عاليه ليقابلها ويستوضح منها بعض ما يحتاج إليه للأخذ بناصر الأخ حنانيا (ولم ينسَ خليل المعلّا هأهأته إذ تلفّظ بهذا الاسم) وأنّه سيأذن لها بزيارته كلّ يوم إذا شاءت، ولكنّه الآن مشغول كثيرًا، وقد أمست الدنيا، فهو ينتظرها صباح غد في بيته.

– الساعة السابعة تمامًا، لا تنسَي.

وأضاف:

– حبّذا لو أستطيع مرافقتك! ولكنّي لن أكون في عاليه. تعالَي أدلّك على بيته.

وقادها إلى طرف المدينة وأشار إلى قصر فخم. وقبل أن يفترقا قال:

– أوصيك باللطف. لا تعبسي هكذا. ألا تريدين أن تخلّصي سامي؟ اِضحكي. رشدي بك يحبّ الضحك. هـْ هـْ هـْ...

وكان على زينه أن تجد مبيتًا لها فأرشدها إلى نزل فقير وسلّمها إلى صاحبته: امرأة مترهّلة، عوراء، لا تفتأ تضحك. أخذتها من يدها وأدخلتها إلى «أحسن غرفة عندها»، فاستلقت الفتاة على سرير مخلّع، عليه لحاف وسخ ومخدّة مبقورة... المرّة الثانية تنام فيها خارج بيتها، وكانت الأولى في بيروت على بنك في الخان. غير أن وحشتها هذه الليلة أوجع منها البارحة، حتّى لقد ساورها شيء هو الندم، ولكنّها لم تشأ أن تسمّيه باسمه، على قيامها بهذه المغامرة... وأحسّت بذلك الشيء ملء الغرفة المعتمة الباردة الحقيرة. فإذا طردته حلّ محلّه شيء آخر هو الشكّ في خليل المعلّا، ولكنّها لم تشأ كذلك أن تسمّيه باسمه، مع أنّه يعذّبها ويقضّ مضجعها فتبعده مخادعة نفسها عنه، محوّلة غضبها إلى البقّ السارح من السرير إلى عنقها وذراعيها ورجليها، تطارده نفضًا ومعسًا ولعنًا.



ضحكة الحوذيّ، واستهزاءة العجوز، ووصيّة خليل المعلّا... ولكن هل أحد يأكل أحدًا؟ ثمّ ليست هي باللقمة الهيّنة! وهزّت برأسها. ماذا يريد منها؟ يمدّ إليها يده؟ تكسرها له! تبصق في وجهه كما فعلت بالجاويش محمّد أفندي الذي تجرّأ عليها خلف الستارة في دكّان خالتها قبل أسبوع. ستبقى على العتبة بعيدة عنه وتقول له ما تقول...

في الواقع ماذا تقول له؟ كيف تبادئه الحديث؟

كانت زينه تلوك هذه الأفكار مرّة أخيرة وهي واقفة أمام منزل رشدي بك عند بوّابة الحديقة تنتظر أن تحمى الشمس لتدخل، فقد أتت مبكّرة جدًّا. ثمّ دنت تتلصّص من خلال القضبان الحديديّة، فإذا سيّدة تنزل السلّم رافعة بيدها طرف ثوبها الفضفاض، فارتدّت زينه إلى الجدار مستخفية. فرمقتها السيّدة بعينين مكحولتين حتّى الأذنين وقلبت شفتها ومشت. فأنشأت زينة تقلّدها تحدّيًا وازدراء. ثمّ انكفأت ودخلت رابطة الجأش، فإذا هي بعياط وضوضاء. فأخذها فضول غريب لمعرفة ما يجري. جدال عنيف وشتائم ولبط جزمات. حينئذ ثاب إليها شعورها بحقيقة حالها وأحسّت بحاجة إلى الهرب من هذا المكان. وكأنّ قدميها لصقتا بتراب الجنينة، تشدّ بهما إلى البوّابة فلا تطيعان. ثمّ رأت ضابطًا ضخمًا – هذا رشدي بك! – ينزل السلّم نهبًا ويهدّد السماء بسوط يحمله، وخلفه ضابط آخر يكاد يعثر على كلّ درجة. فتحاشتهما حتّى جاوزاها، فانسلّت إلى الشارع، وظلّت تركض وراءهما كالبلهاء حتّى وصلا إلى مركز المحكمة، فوقفت دون الخفراء لاهثة. ولبثت مكانها دقائق طويلة، على يقينها بأنّ رشدي بك لو طلع لها لما تجاسرت على الدنوّ منه. ثمّ أحسّت بيد على ثوبها وانتصب لها صبيّ وقال:

– تعالَي كلّمي أمّي.

قادها الصبيّ إلى الطبقة السفلى من بناية الديوان العرفيّ. مطبخ كبير، وامرأة في الأربعين ذات رشاقة وزلاقة وحركات ذكّرتها خالتها ورده. كانت تلك المرأة متعهّدة طعام السجناء، ولها من أجل ذلك صلة بالضبّاط – برئيس التحقيق خاصّة – تساوم أهل السجناء على الحصول لهم على الأذون، ويسهّل رشدي بك مهمّتها لأمور كثيرة، إذا كان التجسّس على الزائرين أعظمها شأنًا في نظر الدولة، فليس ألذّها في نظره هو حينما يخلو إلى عبثه كلّ مساء...

انتهت المساومة بين زينه وبينها على مجيديّ قبضته منها وصعدت إلى الطابق الثاني. ولكنّها لمّا رجعت بالإذن بعد خمس دقائق لم تسلّمه إليها إلّا ببشلك للصبيّ ليوصلها إلى السجن.

٦

كان السجن الذي فيه سامي يبعد بضع مئات من الأمتار. ولكنّ زينه وجدتها فرسخًا، فلمّا أشار الصبيّ أن «هذا!» ارتعدت فرائصها. وتناول أحد الخفيرين المنتصبين على الباب الورقة من يدها فنظر فيها، ثمّ دخل إلى الحارس فأراه إيّاها، فقام الحارس إلى الفتاة يجسّها مفتشًا هنا وهناك وهي تتفلّت من يديه الوقحتين، حتّى إذا وصل إلى صدرها أجفلت، فصاح بها، فأخرجت الصرّة:

– أنا أريك إيّاها.

فلمّا بصر بالمجيديّات انبسطت أساريره عن غبطة بلهاء. ومشى أمامها إلى غرفة سامي وفتح بابها وصاح به: «هيه! هيه!»

– سامي!

ولم تستطع أن تزيد فالتوت شفتاها بالبكاء، فحدّجها الحارس وخرج.

– جئتِ إلى هنا يا زينه!

لقد بدّله السجن، على قلّة هذه الأيّام التي قضاها فيه، تبديلًا. خبا لمعان عينيه وغشيتهما ضبابة باهتة مخيفة، وكأنّ جبينه الواسع العالي قد ضاق وانخفض، وامتقع لون شفتيه وارتخت سفلاهما وترهّلت. ولم يقتصر هذا التبديل على هيئته بل شعرت زينه أنّه نال من نفسه أيضًا، وأحسّت لذلك بألم قبض قلبها بسنّين محدّدتين. وزادها جوّ هذه الغرفة. عارية ليس فيها من متاع الدنيا إلّا حصير عتيق قذر وإحرام ممزّق، وقد رسمت الرطوبة على حيطانها أشكالًا بشعة وانبعثت منها العفونة. معتمة

لا ينفذ إليها النور إلّا من شقوق شبّاك حديديّ مقفل نسجت عليه العنكبوت خيوطها ، إمعانًا في البخل على السجين بالنهار وشمسه.

– كنت كالمجنونة لمّا علمت. ساقية المسك كلّها تقول إنّهم ضربوك. رحت إلى المغارة في المساء أدور فيها. ظننتك ذهبت إلى كسروان دون أن تخبرني. وأخذت أبحث في المغارة عن شيء ، عن ورقة تتركها لي ، عن علامة. ولمّا عدت إلى البيت أخبرني جدّي ، ودمعت عيناه ، وبكى طام معنا. هل عرفوا بحادثتك مع العسكريّ؟ لا تقرّ لهم ، إيّاك أن تقرّ!

– هس! هس!

ونظر صوب الباب. فخفضت صوتها :

– أنا أخبرت جدّي. لم أدرِ مَن أخبر كامل أفندي أيضًا. لو ترى جزعه لوقوعك في يد الديوان العرفيّ! جدّي يوصيك : لا تقرّ!

فابتسم السجين هادئًا ، فقالت :

– هل أقررت؟

– يجب أن يغفر لي جدّك كلّ ما سبّبته له يا زينه. أمّا أنت فستغفرين. أنا واثق أنّك تغفرين.

– ماذا تقول؟ وبماذا أسأت إلينا؟

– اُسكتي! الجدران هنا لها آذان يا زينه. أخاف أن يظنّوا بك.

– الحارس على مكتبه (ونظرت من الباب) يقلّب هديّة صغيرة حملتها لك... ولك أيضًا هديّة من جدّي. خُذ.

وأرادت أن تدسّ له الصرّة.

– ما هذا؟

– خبّيها. جدّي يعلم أنّ طعام السجن لا يكفي.

فرفض شامخًا :

– أنتم في حاجة أكثر منّي.

وباعدها عن الموضوع ، يسألها كيف تركها جدّها تأتي وحدها إلى عاليه ، ويسألها عن كامل أفندي ، وعن طام ، وعن خالتها... فإذا :

– يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه!

فأدارت زينه وجهها وقد فاجأها هذا الصوت المذعور الأبحّ يشقّ فضاء السجن. فقال سامي :

– أبله يظنّ أنّه إذا نادى بحياة السلطان عفوا عنه. ولو رحموا لاكتفوا ببلاهته وأطلقوا سراحه. سيسكت الساعة. لقد دخل الحارس بسوطه ليجلده به حتّى يُغمى عليه... فإذا عاد إلى وعيه عاد إلى الصراخ : بادي شاهم! إنّ منظر هذا المسكين يؤلمني أكثر ممّا يؤلمني سجني. أنام وصوته في أذني : بادي شاهم...

– بادي شاهم جوق يا شاه! يا أفندي يا أفندي! آه آآآآ...

– أتسمعين؟.. ها ، سكت.

أنصتت زينه مضطربة. ثمّ نظرت إلى سامي وقالت :

– حلمت حلمًا هذا الصباح. كنت بين النائمة والصاحية. حلم غريب هائل. رأيتني في أرض واسعة ، سهل كبير ، كبير لا حدود له ، لا جبال ولا أودية ولا سواقي... رمل على مدّ النظر وشمس تكوي كيًّا. وأنا أمشي في السهل وتغرق رجلاي في الرمل. أمشي ، أمشي ثمّ أستكفّ فلا أرى شيئًا ، والشمس تصبّ على رأسي. ثمّ عطشت وجفّ لساني فالتصق بحنكي. أحاول أن أصيح : عطشانة عطشانة! فيختنق صوتي... وكنت أسمع خلفي أصواتًا وشيئًا يقول لي : اِلتفتي خلفك فربّما كان مع أصحاب هذه الأصوات ماء. ولكنّني لم أتجرّأ على ذلك. أيّامًا وليالي الله يعلم عددها مشيت حافية حتّى تشقّقت قدماي وسال منهما الدم. فإذا برجل يتداركني بقربته ، فأشرب فينصبّ الماء على لساني مرًّا كالصبر ، ولكنّه لا يصل إلى حلقي حتّى يصير كالشهد وأحلى. فأردت أن أشرب أيضًا فناديت الرجل فابتعد عنّي وهو يبتسم حتّى توارى. ثمّ لاح لي في الأفق مثل الضباب يتحرّك صوبي وينتشر حتّى حجب السماء. ثمّ إذا هنالك مثل النقاط تتململ تحت الضباب ، وإذا هذه النقاط خرفان لا عدّ لها ،

قطيع عرض السهل ، متزاحم متراصّ ، يقفز في ركضه قفزًا كما لم أرَ في حياتي خرفانًا تركض قطّ . وأنا أتقدّم وقلبي يهبط في صدري ويعلو. فإذا ذئب يحكّ بي ويمرق كالسهم ، فالتفتّ خلفي فرأيت ذئابًا كثيرة ، كثيرة عرض السهل ، تهجم مكشّرة عن أنيابها وعواؤها يملأ الجوّ. وأنا أركض وأقع وأقوم ، ثمّ أركض ، أركض... وإذا بي أسقط هذه المرّة عاجزة عن النهوض وأعضّ الأرض. أحملق مذعورة بالذئاب الهاجمة وألتمس مهربًا ولات مهرب ! فأدخل رأسي بين كفّيّ وأغمض أجفاني على أفظع ميتة. فإذا صوت يناديني باسمي «زينه ! زينه ! » ألا أزال في قيد الحياة ؟ فرفعت وجهي فرأيت الذي يناديني خروفًا يتكلّم بلغة الإنسان ! ونظرت إلى نفسي فإذا أنا واحدة من القطيع : نعجة ولي إلية ! وتلاقى أفقا الغبار من هنا ومن هنا ومدّا فوقنا رواقًا لا أوّل له ولا آخر. فسألت الخروف الذي خاطبني : كيف تقاتل الخرفان ذئابًا ؟ فإذا به قد تحوّل أسدًا ، وإذا الخرفان حواليه أسود جميعًا وأنا لبوة... وزأر أسد فينا زأرة عظيمة تجاوب صداها كالرعد في البرّيّة ، ووثب إلى الذئاب ، والتحم القطيعان في معركة هائلة ، واختلط الزئير بالعواء حتّى طبّق السماء ، وتناثرت الأشلاء عضًّا ونهشًا وكسرًا ، وسالت الدماء كالأنهر. وأهويت أنا على ذئب فأنشبت أظافري وأنيابي فيه. ثمّ حطّمت عظام ثانٍ وثالث ورابع ، أنتزع قلوبها وأمصّها مصًّا. وشردت عن قطيعي فوصلت إلى تلّة ونشقت هواء طيّبًا ، ونظرت إلى نفسي فإذا أنا قد عدت أنا ، إنسانة ضعيفة مسكينة أبكي وأجهش بالبكاء...

حينئذ خرج الحارس فظنّته زينه آتيًا إليها لينذرها بانتهاء الزيارة ، فتوقّفت عن الكلام ، فهتف سامي وقد بلع ريقًا لذيذًا :

– أكملي ، أكملي !

– ... واستفقت فرأيت دموعي قد بلّلت اللحاف.

لم يعتّم الحارس أن أقبل وفي شدقيه لقمة يعوجّ بها شارباه. ووقف على الباب يلوكها ناظرًا إلى الزائرة والسجين :

– يلّلا !

صاحها صيحة أطارت من فمه عليهما رشاش حلوى ! فالتفت سامي إلى زينه وقد زحمته الضحكة ، فإذا هي مشغولة بدسّ الصرّة إليه من وراء ظهره ، فما كان من الحارس إلّا أن هجم مزمجرًا وضرب بيده فاستولى على الصرّة واستاق الفتاة من كتفها.

– يا أفندي ، يا أفندي ، بادي شاهم جوق يا شاه !

فالتفتت زينه إلى غرفة المنادي ، فإذا على طاقتها وجه أبو زيد !

٧

ظلّ أبو زيد الشغل الشاغل للسجن ، إلى أن كان ذات مساء فجاء جنديّان فكبّلا يديه بالحديد وأخرجاه. فأطلّت الرؤوس على الطاقات وضجّ السجناء صياحًا وهمهمة وضربًا على الحيطان والأبواب. ونظر سامي فرأى «بادي شاهم» يخرج بين خفيريه آية مذلّة ، يلوي رأسه على كتفه ويطوّف عينيه المتاعتين ، وقد ارتخى شارباه ارتخاء لا قيام بعده. وكأنّ ذلك لم يكفِ فانفكّت تكّة شرواله على الباب فأراد شدّها فلم تطعه يداه المكبّلتان فأثبتها على وسطه فوق الشروال ، فكانت له هيئة المصاب بمغص ، فلم يتمالك سجين أن صاح هازئًا :

– بادي شاهم جوق يا شاه !

وأتبعها بقهقهة فتجاوبت القهقهات من زندان إلى زندان ، فاستدار الحارس على عقبيه لعلّه يدهم أحدًا بالجرم المشهود ، فسكتت الضحكات فجأة ، وحلّ محلّها غمغمة منكرة ، كلّما نظر الحارس إلى شبّاك ظانًّا

أنّها منه قابله صاحبه بوجه هادئ كالنحاس فما يزيده ذلك إلّا غيظًا. والغمغمة ما تفتأ متواصلة وهو يثب إلى هنا وههنا كالحيوان المربوط... وكانت تلك طريقة السجناء في طلب الاستنطاق، يلجأون إليها كلّما أتى رسولا رئيس التحقيق فأخرجا أحدًا منهم. وتذكّر سامي أنّهم فعلوا قبل أيّام ما يفعلون الآن حينما كان دور رفيقه حنّا الدهّان. أبرياء في أكثريّتهم، يعتقدون أنّهم ما يمثلون أمام رئيس التحقيق حتّى تنصع براءتهم فيطلق سراحهم. وقد وثّق اعتقادهم هذا أنّ حنّا الدهّان خرج ولم يعد، وأنّ آخرين قبله خرجوا ولم يعودوا... وبدلًا من أن تسكت الغمغمة تحت التهديد تضاعفت وامتدّت، فجُنّ جنون الحارس فكشّر وضرب بسوطه على أقرب طاقة. ولكنّ سامي كان قد احتاط للأمر فأحدثت الضربة على الشبكة صفقة خرساء، ووقف يرسل إلى ضاربه من خلالها ابتسامة ساخرة. وتهيّأ الحارس لفتح الباب واقتحام السجين فإذا الجنديّان يظهران من جديد ويناديان معًا:

– سامي عاصم!

لم يكن ينتظر أن يجيء دوره بهذه السرعة. وعلى غير قصد منه تفقّد زنّاره قبل أن يدخل الجنديّان ويضعا يديه في القيد.

ساقاه إلى بناية الديوان العرفيّ وأدخلاه إلى غرفة من غرفها هي التي أدخلوه إليها فور وصوله إلى عاليه. وعرف الضابط، هو نفسه ذو الرقبة الثخينة والمنخرين المفتوحين. وفي الزاوية كاتب وراء طاولة صغيرة غارق في أوراقه. وكأنّ رشدي بك لم يشعر بدخول سامي فلم يلتفت إليه وظلّ يتحدّث إلى الكاتب. ثمّ استوى عاقدًا حاجبيه ورمى السجين بنظرة غضب، أعقبها بابتسامة طفت على شاربيه كالشعاع الكاذب. ثمّ دفع إلى أحد الجنديّين ورقة فخرجا بسامي فشيّعهم الكاتب إلى الباب وخبطه.

كانت السجون كثيرة. بيوت يطرد الأتراك أهلها ويزجّون فيها الشبّان بالعشرات والمئات، ضحايا الوشايات الكاذبة والسعايات الدنيئة. أمّا مغذّو النهضة القوميّة ومعدّو الانتقاض على الدولة فلم توفّق إلّا إلى القليل منهم. وكانت الطبقة السفلى في بناية المحكمة العسكريّة سجنًا لأصحاب التهم الكبيرة.

أنزله الجنديّان ودخلا به قبوًا كبيرًا في سقفه قنديل ضئيل. فاستولت على سامي رهبة لا عهد له بها، لا يدري أهي من هؤلاء الجنود الواقفين كالأنصاب الرخاميّة إلى الجانبين، أم من هذا الصمت الشامل الذي لم يكن يُسمع فيه إلّا غرغرة القنديل، وكأنّه هو الآخر مخلوق يُحتضر.

تفحّص الزندان الذي أُلقي فيه، فإذا سرير وكرسيّ وطاولة صغيرة وإبريق ماء. وعلى غير عطش منه تناول الإبريق ورفعه إلى فمه، ثمّ قعد يتساءل لماذا نقلوه وما ينتظره بعد هذا. وانتهى إلى الترجيح أنّهم قرّروا استنطاقه من غد، فارتاح إلى الفكرة واستلقى على سريره، فأحدثت حدائده المخلّعة صريرًا منكرًا.

ولكنّه لم يجد إلى النوم حيلة، فعاد إلى القعود ينظر إلى رئيس الحرّاس يتمشّى في الرواق ذهابًا وإيابًا، وخياله يطول بالضوء ويقصر، ويقصر ويطول، ويتّخذ في تقلّصه وامتداده أشكالًا غريبة.

واختفى الخيال فجأة، ثمّ أقبل صاحبه حاملًا إحرامًا وقال:

– خُذ، هذا من عمر حمد.

ودفعه إليه فتلقّاه سامي وفتح عينيه وفمه، ولكنّ رئيس الحرّاس عقد بين حاجبيه وتابع بصوته الأجش:

– الآن يجب أن تنام.

ومدّ يده الضخمة إلى الباب وأقفله على السجين.

٨

وتعاقبت الأيّام...

ونسيت زينه ما نالها على أثر عودتها من عاليه تأنيبًا من جدّها، ولكمًا من خالتها وشدّ شعر. ولو أنّ الأمر وقف عند هذا الحدّ لاحتملته بصبر وسرور، ولكنّ الشيء الذي ما يزال يحزّ في نفسها أنّ ورده أشركت الشيخ في التبعة، فرفعت يدها عليه وأوشكت لولا الحياء أن تضربه. وها قد مضى على الحادث شهر ونيّف وأبو سعيد منعزل في غرفته يبسط فوق الموقد كفّيه المعروقتين ويسامر همومه طول النهار وهزيعًا من الليل. لا يتوجّه إلى كنّته بكلمة ولا يطأ دكّانها بقدم.

وكان أشدّ ما يقلقه لا الخوف على نفسه، «فلم يبقَ من العمر أكثر ممّا مضى» كما يقول، بل الخوف على زينه وطام. إنّ الجوع يهجم بخطوات الذئب، ويجوس المنازل المجاورة، يأخذ منها الكبير والصغير والمرأة والرجل، واحدًا بعد واحد وجماعة إثر جماعة، وورده لا تُطعم زينه رغيفها اليابس إلّا مغموسًا بأحد اثنين: العيب أو الدم. ويذهب بها البخل إلى القسوة حتّى على طام فتأبى إلّا أن تحمل كتفاه الطريّتان نصيبهما من مشاقّ المعيشة...

* * *

إلى جانب الطرق العامّة المتعرّجة، التي تصل بين مدن الشاطئ وقرى الجبل في لبنان، دروب قصيرة للمكارين والمشاة صقلت الحوافر والأقدام حجارتها على كرّ الزمان، فهي ناعمة ملساء تلمع على الشمس لمعان الفضّة، ويزلق عليها المطر في الشتاء. بعضها باقٍ على ما رصفه راصفوه قبل العهد بالعربات والسيّارات، والبعض الآخر قلقلته دعسة دابّة باهظة الحمل، أو عدا عليه سيل جارف فأزاحه من محلّه. تذهب هذه الدروب قافزة فوق الطرق العامّة من رابية إلى واد، ومن سفح إلى منبسط، في العراء هنا، وفي غابة من الصنوبر هناك، وفي دغل من الملّول والبلّان هنالك، تؤنس وحشتها في أكثر ساعات النهار والليل جلاجل البغال والحمير بطنينها، ومواويل أصحابها المتجاوبة الأصداء.

في درب من هذه الدروب الوعرة، عشيّة ذلك اليوم من آذار، فتاة تمشي ساندة سلّة كبيرة على كتفها، وخلفها صبيّ يحني ظهره بسلّة أصغر، وينقل شبكة الحبل بين يديه نقلًا متسارعًا، وقد نفخ العبء أوداجه وأرخى رجليه، ولكنّه لا يتجاسر على فتح فيه بشكوى. فإذا أدارت وجهها إليه قوّم من ظهره جهده، وتبادلا ابتسامة وواصلا السير. والدرب ما ينفكّ صعودًا، والفتاة ترمق السماء من الغرب المرّة بعد المرّة وتستحثّ رفيقها «يلّلا! يلّلا! الدنيا تنذر بالمطر!» فيوسع خطاه شادًّا على الحبل. ويكرّر سؤاله «ألا يزال البيت بعيدًا!» فتعلّله بقرب الوصول، فيعود إليه النشاط... ولكنّ الدرب لا ينتهي إلّا إلى درب آخر، فدعاها إلى الراحة قليلًا فما ردّت عليه، فشكا الجوع فلم تحفل، فتوقّف فنهرته: «اِمشِ، اِمشِ!» فخانته قواه. وحطّ سلّته، ومدّ يده إليها مغافلًا أخته فصاحت به:

– أُتركها! أُتركها! ألا تعرف أمّك؟ ما يخلّصني منها؟

– جوعان، يا أختي!

– أمّك لا تصدّقني، وتتّهمني بها.

– أقول لها: «يا أمّي أنا أكلت برتقالة» برتقالة واحدة. هه هه!

ورفعها إلى فمه، فرفعت يدها وهمّت به، فأفلت الحبّة ولكنّ عينيه ظلّتا تتردّدان بينها وبين أخته. وجعل يفطفط ويفحص الأرض برجله. ثمّ سوّى غطاء سلّته عابسًا:

– أتظنّين أنّني سآكلها! لا جميلك ولا جميل أمّي. إجّتي فيها ثلاثون متليكًا. آخذ متليكين وأقول لأمّي: «أعطيني برتقالة وهذا ثمنها!» وأختار أحسن

واحدة... عندما كان البستانيّ يزن لك درت وراءه وقطفت حبّة. هذه هي. لم أخبرك لئلّا تضربيني.

– كذّاب! تلفّق لي هذه الحكاية لتأكلها.

– هذه ليست لي ولا لأحد.

– لمن؟

– سأعطيك إيّاها لتأخذيها للخواجه سامي. ألا تريدين أن تذهبي إلى عاليه؟

– هل تحبّ سامي يا طام!

فخفض رأسه:

– كثيرًا، كثيرًا. لماذا لا يهرب من السجن؟ أنا لو كنت محلّه لهربت.

– خُذ برتقالة من سلّتي. أتعجبك هذه؟

فانتصب واقفًا وعاونته على حمل عبئه. فسبقها يلتهم البرتقالة ويقضم لبابها بأسنانه المحدّدة. ثمّ لم يلبث أن جاراها، ثمّ تأخّر عنها، فاضطُرّت أن ترضيه بمحطّة ثانية... من محطّة إلى محطّة، والمسافات بين المحطّات تقصر، والبيت ما يبرح بعيدًا قريبًا بين سؤاله وجوابها، حتّى أظلمت الدنيا بوجهه وطرحه اليأس على حجر فمالت سلّته وتناثر ما فيها ودموعه. فأرسلت زينه سبّة أخرى إلى خالتها وانثنت تلمّ حبّات البرتقال، ثمّ حملت السلّتين معًا، الكبرى على كتفها والصغرى بيدها، فنهض طام فرِحًا يسايرها ويرفع بين الخطوة والخطوة كفًّا مساعدة إلى كتفها. وطفقت تسرع ناظرة إلى المساء بجزع، فقال:

– أمشينا كلّ هذا المشي في النزول؟

ثمّ وقع وقام... ثمّ استسلم لسقطة كبيرة تاركًا زينه وحدها. فلم تفطن إليه إلّا على مسافة، فنادته فلم يجب، فحطّت السلّتين ووثبت إليه، فاتّقاها بكوعه الصغير وانكمش حتّى لامس خدّه التراب.

– أختي، أختي! وحياتك اتركيني هنا، وغدًا تمرّين بي وتأخذينني.

فوقفت يدها دونه. وإنّها لكذلك إذ ارتعشت لقطرة ماء على أنفها، فرفعت عينيها إلى السماء، وما كادت حتّى انهمر المطر. فجذبت أخاها إلى كنف صنوبرة. ولبث كلاهما في حمى الشجرة طويلًا والسماء لا تكفّ، والريح تشتدّ وتصفر، والصبيّ يغرق في طوق قميصه ويتضاءل صاكًّا بسنّين له نافرتين، ويحدّج زينه بخوف، كأنّ تبعة المطر والريح عليه، فتتداركه بذراعها وتضمّه إليها.

ومرّ مكاري في أوّل الدرب يضرب حماره ويدفع بقفاه لاجتياز درجة عالية، فبادرت إليه:

– الله يردّ عن أولادك! تضع لي سلّة على ظهر هذه الدابّة.

فلم يسمعها المكاري لضجيج العاصفة.

– سلّة صغيرة، رطل برتقال.

– إلى أين؟

– إلى ساقية المسك. هنا.

– طريقي ليست إلى ساقية المسك. حا! حا!

وردّ كوفيّته على أذنيه. فبقيت تنظر إليه حتّى توارى. ثمّ انقلبت وقد عزمت عزمًا. أدنت السلّتين فزادت من الصغيرة على الكبيرة، ووضعت حبّتين في جيبها، وعقدت طرفَي ثوبها من الميلين على ثلاث بثلاث، ففضلت ثمانٍ، فدفعت إلى طام اثنتين:

– كُلْ، كُلْ نكاية بأمّك!

فأكلها متعجّبًا، وأطعمته الثالثة غصبًا، وأكلت هي حتّى زحم الماء حلقها. وحارت ما تصنع بالاثنتين الباقيتين، فتركتهما أخيرًا في السلّة وحملتها ودارت في الدغل فخبّأتها لغد بين وزّالتين متلاصقتين، وألقت فوق قضبانهما المتشابكة حجرًا، وسوّت الستر على كنزها، ثمّ تراجعت فما بان منه شيء.

ونادت أخاها فارتقى صخرًا وركب على ظهرها لافًّا ذراعيه حول عنقها. فمشت تغالب العاصفة الهوجاء وتتلقّى ضربات المطر على خدّيها، ولكنّها تمشي دائمًا، تنقل السلّة الثقيلة من يد إلى يد، وتدفع رأسها في الدرب الصاعد، يغرز الحصى في قدميها الحافيتين فلا تحسّ، ويكرّ بعضه مهزومًا إلى قعر الوادي.

٩

هذه المرّة قامت ورده إلى العتبة فاستقبلت زينه بكثير من الحفاوة واستمعت إلى إفادتها عن السلّة الأخرى ببشاشة ، وزادت في الرقّة فوضعت لها رغيفين أبيضين وصحن فاصوليا فيه حزّة لحم .

– كلي يا بنتي . كلي .

راب الفتاة هذا الحنان المفاجئ وهذا الكرم من خالتها ونظرت إلى الدكّان فلم ترَ ما ينير ظلمتها . كانت الساعة قد جاوزت السابعة والموائد مستوحشة ليس إلّا أبو زيد في الزاوية يثني عنقه ويعلّق عينيه بصندوق الخبز ... قد قنع من ورده ، بعد هول ما قاساه من أجلها في الديوان العرفيّ ، أن يعود إلى وظيفته السابقة : الوقوف على الباب ومراقبة الطريق في سهرات السكر والقمار . وحلف بشرفه وسيّدة المعونات ، عليها السلام ، لا يتناول عرقًا أبدًا لئلّا يزيّن له تهديدًا آخر بإفشاء السرّ ويعرّضه لنزهة ثانية إلى عاليه . شأنه شأن الكلب الأمين يزحف إلى سيّده متمرّغًا على قدميه غير حافل بما أصابه في السعي وراء الطريدة من جهد . وما ترك بين الأشواك من دم جلده .

حملت زينه عشاءها إلى غرفة جدّها وقعدت بجانب الموقد فقاسمته إيّاه . ولم تلبث أن هوّمت على الشبع والدفء ، فدعاها أبو سعيد إلى النوم وذهب إلى فراشه . كانت البروق تتوالى ببهقها وتبثق النوافذ ، فجرّت الفتاة لحافها إلى فوق رأسها وتجمّعت تحته مستسلمة إلى ارتعاشة لذيذة . ثمّ ارتجّ البيت برعدة عظيمة ، وخبطت الرياح على الشبابيك بالبرَد وثارت الطبيعة ثورتها . فحاولت زينه أن تسدّ أذنيها ، وخيّل إليها بعض الحين أنّها وُفّقت إلى ذلك وأنّها أغمضت عينيها بإغفاءة . ثمّ فتحتها وقد أزعجها ، أكثر من الرعود وضرب البرَد على النوافذ ، صفقات مشوّشة ظنّتها في البداية فعل الرياح في أغصان الازدرختة أمام المراح . ثمّ وضحت الصفقات فإذا هي هنا في الدكّان ، وإذا هي محاورة بألسنة بشر : «أتكون خالتي سهرانة إلى هذه الساعة؟» ولم تشغل فكرها طويلًا ، فقد كانت ورده معتادة أن تحيي الليل إلى الفجر أحيانًا . فعادت تحاول النوم فإذا الأصوات تعلو ومعها صيحات ... أصيحات هي أم ضحكات؟... فلتكن ما تكون ، ما همّ زينه منها !

وأدارت ظهرها ووطّنت نفسها على الرقاد . ثمّ وثبت قاعدة وقد فُتح الباب بين الغرفة والدكّان بعنف . وأرادت أن تصيح ، فارتدّ الباب بمثل العنف الذي فُتح به ، ودارت وراءه مصاولة بالأجسام مع شتائم تركيّة وعربيّة . فقامت زينه حافية على البلاط ومشت إلى الباب وأمسكت بمفتاحه الكبير البارد فلم تطِعها يداها لإيصاده . وقفت تميل بأذنها ، والعراك في الداخل يشتدّ . واسمها ، اسمها هي زينه ، يتردّد في صوت خُيّل إليها أنّها تعرفه . فوضعت عينها على الخصاص لعلّها ترى شيئًا فإذا خالتها وجنديّ نصف عارٍ يتماسكان ، يدفع رأسه هاجمًا وهي تصدّه ، وتلتمس كفّه لتعضّها ... ثمّ ابتعدا وغابا ... وسكنت الضجّة وأعقبها لهاث المتشاجرَين . فلم يهدّئ ذلك من روع زينه وأحسّت قلبها يذهب بين ضلوعها ويجيء كمطرقة الجرس . وندمت أن لم تقدم على إقفال الباب خلال الضجّة ، إذن لكان الصرير ضاع فيها . وحارت ما تفعل ، لا تجسر أن تدير المفتاح ولا أن تعود إلى فراشها والباب غير مقفل . فإذا بالاثنين يستأنفان العراك بعد هدنتهما القصيرة ، سكوتًا هذه المرّة لا جدال ولا سباب . ولم تفكّر زينه بوضع عينها على الخصاص ، وعنّ لها أن تستغيث بجدّها ، ثمّ عنّ لها أن تقتحم الباب ، فإذا بوقع أقدامهما يقترب ، فضربت بكلتا يديها على المفتاح تضغطه جهدها وتحرص في الوقت نفسه على أن لا تحرّكه فيصرّ ، والمصاولة وراء الباب مستمرّة مع نفخ ولهاث شديدين . فنظرت من شقّ الباب فرأت الجنديّ وخالتها ... ولكنّها لا تريد أن ترى ، فسترت وجهها بكفّيها وانقلبت إلى فراشها .

استفاقت ورده مبكّرة ، وانتظرت حتّى نزل أبو سعيد عند الصبحا فدخلت تدور حول زينه وعلى وجهها كلام. وكانت زينه جنب الموقد تغالب الحطب كسرًا وخبطًا وتلقم النار.

وفتحت ورده فمها أخيرًا :

– ألا تريدين أن تأكلي؟... كان الطقس رديئًا في الليل.

فلم تلتفت ، ودفعت رأسها في الموقد تنفخ النار والرماد يتطاير على وجهها ووجه خالتها.

– أسألك ، ألست جائعة؟

– ...

– ألا تنزلين إلى إنطلياس اليوم؟

– لا.

– ولا تقعدين في الدكّان؟ إذن موتي جوعًا إكرامًا لسامي عاصم!

ودقّت قبضة على قبضة. وسمعت وقع قدمَي أبو سعيد فأردفت :

– أنت وجدّك النحس!

وخرجت. فعادت زينه إلى النفخ ، فلمّا وصل جدّها وسألها لماذا تبكي حوّلت وجهها وقالت :

– لا أبكي يا جدّي ، بل طلع الرماد إلى عينيّ.

وأجهشت ، فتناول الملقط منها وقامت تطلّ من النافذة ، فقال :

– أُقعدي هنا. لن أدعك تنزلين اليوم.

١٠

كان الصباح جميلًا ، قد صفت السماء وتلألأت ، وفاحت من الأرض رائحة زكيّة وهدأ كلّ شيء في الطبيعة فلا يُسمع إلّا خرير الساقية في الوادي القريب.

تأمّلت زينه في هذا النهار فأغراها صحوه. وبالرغم من محاولات أبو سعيد أصرّت على النزول ، فأخذت من خالتها رأسمال كلّ يوم وحملت سلّتها. وهمّت أن تهمس في أذن جدّها بشيء ، ثمّ هزّت بكتفيها ومشت.

قصدت إلى بيروت وباتت ليلتها في الخان الذي باتت فيه من قبل ، وبكّرت في الصباح فاستأنفت طريقها إلى عاليه سيرًا على قدميها الحافيتين فبلغتها قبيل الظهر. وقبل أن تدخل السوق وضعت نعليها وذهبت توًّا إلى صاحبتها ونقدتها المجيديّ قطعًا من بشالك ومتاليك لتستحصل لها على الإذن.

أدخلها رئيس الحرّاس إلى زندان سامي ولم يفتّشها بل اكتفى بأن أوصاها «لا كلمة خارجة عن المجاملات!». ولم يكن سامي ينتظر زيارتها في تلك الساعة ، على كثرة تفكيره فيها ، فقام وفي عينيه حفاوة المحبّة ودهشة المفاجأة ، فشعرت حالًا بفرق ما بين هذه الزيارة وزيارتها الأولى ، وداخلها من أجل ذلك سرور كبير. فقعدت على حافّة الكرسيّ بحياء تشوبه الخشية ، وبسطت كفّيها على ركبتيها. وجلس السجين قبالتها على السرير يردّد النظر بينها وبين شفيق أفندي ، لعلّه يغادرهما إلى شأنه لينصرفا إلى شأنهما... ولكنّه ظلّ لاصقًا بالعتبة مديرًا ظهره. وفجأة استدار وأقبل نحوهما ممسكًا بساعته وقال :

– مضى من الوقت إحدى عشرة دقيقة ونصف.

ورفع وجهه القاسي إلى زينه فاضطربت في أعماقها.

– بقي لك ثلاث دقائق ونصف. هذا هو النظام.

ورجع إلى موقفه ، فهتف سامي :

– أتريد أن تتركنا؟

فلم يلتفت ، فتابع :

– الظلام كافٍ ، فلا تزده بجثّتك!

فاستدار رئيس الحرّاس ، فاستوت زينه واقفة بينهما وقد حدّثتها نفسها بشرّ. ولكنّ شفيق أفندي قطّب حاجبيه وقال :

– يجب أن أحضر الحديث. هذا هو النظام.

وكان في صوته رباطة جأش فعلت ما لم يفعله تهديد قطّ في الديوان العرفيّ وسجونه. فاطمأنّت زينه بعض الاطمئنان.

وأطرق سامي.

ماذا يقول لها؟

الواقع أنّه كان يريد أن يقول لها أشياء وأشياء... بل لم يكن يشتهي أن يقول لها شيئًا، ففمه محتاج إلى تبريد قلبه بغير الكلام. كان الحبّ يتدفّق في دمائه موجًا حتّى يصل إلى حلقه فيكاد يخنقه، وتطلّ الرغبات من عينيه كالأظافر فيردّهما عن الفتاة لا استيحاء بل عجزًا عن الفتك، وهذا الجبل راسٍ على العتبة، وهذه الحراب قائمة في الرواق...

لقد مضى عليه في السجن ساعات كان يحسّ فيها أنّ المرأة هي كلّ شيء في الدنيا، وأنّه بدونها مخلوق مضطرّ إلى احتقار نفسه. وها هي ذي المرأة التي يحبّها بين يديه لا يستطيع أن يطوّقها بذراع أو يمرّ على عنقها بشفة. وهي، لسذاجتها، ما تزال تسأله عن صحّته ومأكله ومشربه.

وهو ساكت ساهم.

ولم ينتبه إلّا على شفيق أفندي يدعو الزائرة إلى الخروج. حينئذ زالت الغشاوة عن عينيه ورأى زينه بلحمها ودمها على قيد شبر منه، فلم يكن إلّا أن يضمّها إلى صدره بكلّ ما أُوتي من قوّة. ولكنّه لم يفعل ودسّ كفّه يبحث عن ذخيرة عود الصليب ليقول – كما يقول الطفل – إنّه لا يزال حريصًا عليها يتذكّرها بها كلّ يوم. وكانت زينه إلى جانبه فاغتنمتها فرصة غالية ومالت عليه تتشمّمه، ثمّ مسحت شفتيها بكتفه...

وخرجت.

وأطلّ سامي يشيّعها، فإذا سجين في الحجرة المقابلة يرسل إليه ابتسامة وغمزة. ولكنّه لم يكن مهيّأً في ذلك الحين لمثل هذه المعابثة فصدف عنه وانقلب إلى زندانه.

١١

طال العهد على سامي وهو مطروح في هذا السجن الرهيب، فتشرّبت نفسه رطوبة الحيطان، وخيّم على عينيه ظلام هذه الغرفة الضيّقة، حتّى لكان يدخل في روعه أحيانًا أنه إنّما خُلق للسجن فليس له من الماضي أكثر ما للمستيقظ من حلم، ومن المستقبل إلّا شبح أسود مبهم، فيوشك أن يستسلم إلى القضاء يفعل به ما يشاء. ويثور على الحرّاس أحيانًا أخرى فيقوم متمشيًا، لاعنًا، كافرًا، يودّ لو يهجم على رئيس الحرّاس ويمسكه من كتفيه. فقد كان شفيق أفندي، في روحاته وجيئاته وتوقيع قدميه على البلاط من أوّل النهار إلى الليل، أشبه شيء بالآلة أو الساعة الدقّاقة المزعجة. ولمّا أقبل على سامي ذات صباح وقال له: «إلى الاستنطاق!» صعّد فيه سامي بصره بشيء من عجب، فكرّر:

– سآخذك الآن إلى الاستنطاق.

وخُيّل إليه أنّ في صوت شفيق أفندي، على خشونته، شيئًا من العذوبة. أكان فيه عذوبة حقًّا، أم بحّة خدعت أذنيه؟ لا يدري، ولكنّه أحسّ بدفقة من الحياة جديدة تغمر كيانه، وتتحدّر باردة من رقبته إلى كتفيه إلى ظهره، فقد طالما اشتاق الاستنطاق للدفاع عن نفسه. وابتعد عنه رئيس الحرّاس يدعو جنديًّا، ثمّ عادا معًا إلى سامي فوضعا في يديه القيد الحديديّ.

– اِمشِ!

طلع به شفيق أفندي والجنديّ إلى غرفة الاستنطاق. ونظر سامي فرأى الكاتب على طاولته ورشدي بك على الطاولة الأخرى، هو هو بمنخريه المفتوحين وفكّه القبيح القاحم، مع عناية هذه المرّة بشعراته القليلة فهي مسدولة تلمع على صلعته، وأناقة في ملابسه الخضراء ذات الأزرار النحاسيّة الكبيرة. إلّا أنّ يأفوخه كأنّما استدقّ، فبانت الأذنان نافرتين

كجناحَي خفّاش.

وتكلّف رئيس التحقيق ابتسامة وشال بحاجب وقال:

– كنت أفضّل أن أراك في ثوب الأخ حنانيا! ولكنّ حظّك كبير. لأنّ هنالك أمرًا لا بأس أن أطلعك عليه، هو أنّني أكره الثياب السوداء. ترى إذن أنّني أعرف ماضيك وكيف استخفيت عن العدالة وفي أيّ مكان. ما لنا ولهذا فقد مضى، أو أنّنا لم نصل إليه بعد. أحبّ أن أسألك الآن هل أنت مرتاح في سجنك، فأنا هنا المسؤول عن السجناء. أما تزال تعاند؟

– ...

– ما لك تنظر إليّ بهاتين العينين (وضرب بقلمه على الطاولة) إخفض رأسك!... قلت لك اخفض رأسك! أين كنت قبل الحرب؟ وما كانت صنعتك؟

– في بيروت.

– ماذا كنت تعمل؟

– أشتغل في تجارة الديما مع أبي وديع عاصم الذي نفيتموه إلى الأناضول.

– وفي التآمر على الدولة العليّة، أليس كذلك؟

– كنّا نسعى للحصول على حقوقنا.

– حقوقكم!... إحذر، إحذر أن تثير غضبي. متى كان لكم حقوق خارجة عن نعم السلطان التي يتمتّع بها العثمانيّون على السواء؟

– نحن عرب نطالب بحرّيّتنا واستقلالنا.

فاستلقى رئيس التحقيق على كرسيّه حاملًا نفسه على السخرية:

– إسمع يا سامي عاصم، إسمع. لا أريد أن أحاسبك على ما تقول. حقوق... عرب... استقلال... أتعلم لماذا؟ (ودفع فكّه إلى الأمام) لأنّها كلمات فارغة.

ثمّ نظر إلى ورقة أمامه وقال:

– أنت متّهم بثلاثة أمور خطيرة: الأوّل الاشتراك بالجمعيّة القحطانيّة مع زمرة الخونة الذين قبضنا عليهم، والثاني السعي لتهيئة الثورة. ها! ها! – تسمح لي أن أضحك أحيانًا – بالاتّفاق مع رفاقك، والثالث قتل جنديّ تركيّ وسلبه بندقيّته. لي نصيحة أسديها إليك: لا تحاول أن تنكر، فرفاقك أقرّوا بكلّ شيء. بعضهم نجا بجلده ففتح فاه لمّا رأى هذا (وأشار إلى سوط معلّق وراءه بوتد) والبعض الآخر أبى إلّا أن يذوقه. فمن أيّ فئة أنت؟

– ...

– أجب. أسألك من أيّ فئة أنت؟

– ليس لهذا السؤال دخل في الاستنطاق.

– أنت وقح على ما يبدو لي (والتفت إلى رئيس الحرّاس الواقف بالبّاب) أليس كذلك يا شفيق أفندي؟

فظلّ المخاطَب جامدًا، فقال رشدي بك:

– إيّاك والكذب! من الصعب جدًّا الكذب عليّ، يجب أن تقول الآن... بل خُذ واقرأ.

وتناول ورقة صفراء ودفعها إلى سامي، فنظر فيها طويلًا.

– اقرأ، اقرأ!

– «يا بني قحطان، يا سلالة عدنان، أأنتم نيام؟ أما تسمعون الضجّة القائمة حولكم؟ أما تعلمون أنّكم في زمن مَن نام فيه مات، ومَن مات فات؟ متى تفتحون عيونكم وترون لمعان الأسنّة المصوّبة إليكم؟... أُنظروا كيف تسعون وتكدّون ليغتصب الغريب منكم ثمرة أتعابكم ويترككم تموتون جوعًا...

– كفى!

– «... أنتم في نظرهم كقطيع من الماشية يجزّون صوفها...».

– أُسكت، أُسكت. قرأت المنشور قبلك.

– هذا مستحيل، لأنّني أنا واضعه!

– حسن (وتنهّد بخيبة). تقرّ به إذن. حسن! هذا كلّ ما أريد.

انصبّ عليه الحداب كالماء فأطفأ غضبه على حين

كان لا يريد له انطفاء ، ثمّ قال :

– ماذا... ماذا تعني بالأسنّة؟ ومن هو الذي يصوّبها إليكم ؟

– لا أحرمك لذّة الاكتشاف !

فاشتعل رئيس التحقيق من جديد :

– اِعلموا ، أيّها الأغرار الخونة ، أنّ الأتراك سيبقون هنا رغمًا عن أنوفكم وسيحكمونكم إلى الأبد ، إلى الأبد ! أفهمت؟ لقد ضحّينا بألف جنديّ في الدردنيل ورددنا الإنكليز على أعقابهم ، وسنرسل بنصف مليون من أبطالنا إلى الترعة وندخل مصر ونطرد الإنكليز منها ، ونقتل فكرتكم الخبيثة ، وجوعًا نميتكم ! أنت قلتها ، سنميتكم جوعًا !

وتنفّخت أوداجه وجعل يهتزّ ويلهث. ثمّ مسح العرق عن جبينه وتنفّس الصعداء كأنّه قاد المعركة فهو يستريح على النصر ، فلم يتمالك سامي من الابتسام.

– أتضحك ؟ هل تظنّني أمزح معك ؟ وهل الحرب مدعاة للمزاح؟

– كلّا ، ولا الثورة !

– قلت لك لا أحد يعلم متى أغضب. ولكنّ غضبي الحقيقيّ لم تصل إليه بعد.

في تلك اللحظة دخل أحد الضبّاط فسلّم ودنا من رئيس التحقيق فهمس في أذنه ثمّ تراجع وأدّى التحيّة. فلمّا توارى قال رشدي بك :

– أتعلم ماذا أخبرني الضابط الآن؟ لقد حاول أحد السجناء الهرب فأطلقوا عليه الرصاص وقتلوه. عربيّ يطالب بالحرّيّة والاستقلال أيضًا ! بطل من أبطالكم الذين كانوا يهيّئون الثورة. بطل يهرب ! أهذه هي بطولتكم ؟

– الهرب من الظلم ليس عيبًا.

فحدّق شفيق أفندي لدى هذا الجواب إلى سامي ثمّ خفض وجهه إلى الأرض.

– من أين سلاحكم لإعلان الثورة؟ أنت مارونيّ... ألست مارونيًّا؟

– ما يهمّك من مذهبي ؟

– الموارنة أصدقاء فرنسا.

– وأصدقاء كلّ عدوّ للظالمين.

– مَن تعني بالظالمين؟

– ...

– تعود إلى الضحك؟ اِضحك ما طاب لك. ستبكي بعد هذا الضحك (ونظر إلى شفيق أفندي). يجب أن تعترف لي بكلّ مخابراتكم مع القنصليّة الإفرنسية في بيروت. لا تحسب أنّك ستزيدني علمًا بما ستقوله فأنا مطّلع على كلّ شيء. كانت عيوننا ترافق خطواتكم وتحصي عليكم أنفاسكم ، وأنتم لا تشعرون.

– ...

– ما لك تسكت؟ أريد منك الحقيقة ، الحقيقة كلّها. بماذا وعدتكم فرنسا بلسان قنصلها؟

– ليس لي علم بشيء من هذا.

– أنا رئيس التحقيق. بين يديّ موتك وحياتك. هل أُفهمك مرّة ثانية أنّ الإقرار خير لك ؟

– ...

– إنّ هذا السكوت سيضرّك كثيرًا. أكرّر نصيحتي : اِعترف بكلّ شيء.

لم يخرج سامي عن صمته وظلّ يحدّق إلى رشدي بك بعينين زجاجيّتين ، فظنّ رئيس التحقيق أنّه يرتبك وأنّه يفتّش عن وسيلة لبدء اعترافه ، فقال في نفسه : «يجب أن ألجأ إلى اللين».

– أنت شابّ وأنا لا أحبّ أن أرسلك إلى المشنقة. لقد كنت شابًّا في زماني وأفهم أنّ الشباب يحبّ الحياة.

– الموت في سبيلها أحبّ أحيانًا.

– يظهر أنّك من أصحاب الخيال.

– لأبتعد به عن بعض الحقائق.

– هوه هوه !... كدت أنسى أنّك شاعر. بلغني أنّك شاعر مجيد. أنا أحب شعراء اللغة العربيّة ، ولكن... (واستوى في جلسته وعاد إلى التقطيب) ولكن هذا ليس موضوعنا الآن. يجب أن لا تنسى أنّني

أنا هنا رئيس التحقيق في ديوان الحرب. قُل لي هل تحبّ فرنسا؟

– ...

– فرنسا، هل تحبّها؟

– أحبّ وطني.

– وفرنسا!

– مُر الكاتب يدوّن ما أقوله (وحملق سامي بالكاتب الذي كان يسند رأسه إلى مرفقه) ما لك لا تدوّن إفادتي؟

فصاح رئيس التحقيق:

– هذا لا يعنيك.

– أم تدعني أقول ما أقول ثمّ تضع في غيابي الإفادة التي تشاء!

– من قال لك هذا؟ أتعلم خطورة ما تقول؟ هم يقولون عنّي هذا؟ ماذا يقولون أيضًا؟ يقولون: «رشدي بك غول» (ومدّ بفكّه الأسفل) غول... ها ها! إنّ التشبيه لا يزعجني. ولكنّك لا تعرف عن هذا الغول شيئًا حتّى الآن. أين اجتمعت بنعّوم لبكي؟

– في ساقية المسك.

– أين هو الآن؟

– لا أعرف.

– بل تعرف.

– لكم جواسيس فليبحثوا عنه.

– قُل لي أين هو؟

– قلت لك لا أعرف.

– كذّاب!

فعضّ سامي شفتيه وحملق دون أن يجيب. فصاح الآخر:

– أما تزال تنظر إليّ بهاتين العينين يا كلب!

وبصق في وجهه، فانتفض السجين:

– بل أنت الكلب!

فرقّص رئيس التحقيق فكّه وقام متهاهلًا فصفع المكبّل ثلاثًا. ثمّ ابتعد عنه وعاد إلى العبوس فقال:

– موعدنا الساعة العاشرة ليلًا. (وأشار إلى شفيق أفندي والجنديّ) خذاه من هنا.

أُعيد السجين إلى زندانه وقد أحسّ أنّ دعسته قويت، وعلا صدره بالأنفاس الكبيرة، ففي دمائه عزم الأيّام الأولى.

قضى بقيّة نهاره يتشوّق إلى الموعد بينه وبين رئيس التحقيق، على معرفته بهول ما كان ينتظره. فما يسمع طقّة الجزمة تدنو من بابه حتّى يخفق قلبه ويرفع رأسه. فإذا تابع شفيق أفندي نزهته المعهودة انقلب يحاول القراءة فلا يستطيع، والكتابة فلا يقدر، والجلوس فتأبى أعضاؤه الاستقرار.

وهبط المساء وجيء إليه بالقيروانة فرفس القصعة فراحت شظايا. فهجم عليه جنديّ بحربته، فاستوى حالفًا بينه وبين نفسه أن والله ليفترسنّه بأسنانه قبل أن تصل الطعنة إليه. فإذا شفيق أفندي يردّ الجنديّ إلى موقفه ويخرج، لم يخاطب المتمرّد بخير ولا شرّ. فخمدت ثورة السجين واستلقى على كرسيّه.

١٢

كان رشدي بك معتادًا أن يتناول في المساء كأس خمر على وجه مليح. فغادر مكتبه وركب عربة إلى بيت كثيرًا ما أقلّته إليه في لياليه السابقات. فلمّا وقفت عنده وثب شخص ضئيل إلى الفرسين فأمسك بلجامها، ثمّ بادر إلى باب العربة وانحنى حتّى الأرض.

– اِسمع يا خليل المعلّا. أريد منك شمبانيا. هاتان ليرتان. أتكفيانك؟ اِضحك لأرى.

– هـْ هـْ هـْ هـْ!

– تضحك لما تسرقه منّي. تحاسبني في آخر السهرة وأنا سكران. على مهلك! تطير إذا رأيت متليكًا، هذه عادتك، (وعبّس هادرًا) الليلة دور صاحبك الأخ حنانيا.

– هـْ هـْ... رأيت في السوق تفّاحات بديعة!

وكان الضابط قد أدار ظهره يصعد الدرج إلى المنزل. فهبّ إلى استقباله على الباب سيّدتان أنيقتان، يتدلّى على عنق إحداهما عقد يزيد نصوع صدرها، وللعقد ذؤابة تحتمي في الثغرة الدقيقة الناعمة بين الثديين. فانخفض رئيس التحقيق وأزاح العقد بفمه ولثم موضعه. ودخل إلى البهو فقامت ثلاث من النساء ورجلان، يرحّب كلّ على طريقته بالزائر العظيم.

ولم يتأخّر خليل المعلّا، فصُفّت المائدة بأطايب المآكل والمشرب، وتوسّط رشدي بك ربّة البيت وابنتها، يميل على هذه ثمّ يميل على تلك. وضجّت القاعة بالهتافات وقرع الأقداح، وخليل المعلّا واقف في الزاوية يغمز الضابط على فتاة جديدة لم يفطن إليها ويهأهئ في كمّه. وصاحب البيت وصديق له يقدّمان المازة ويأمران الخدم وينهيان. ويدوران حركة دائمة وبشرًا لا ينقطع.

وإذا رشدي بك يردّ القدح عن شفتيه ويرفع عن كتفه ذراع إحدى المرأتين ويجمد. فيسكت الندامى جميعًا وتتّجه الأنظار إليه من كلّ صوب، فينفجر في ضحكة عالية قاذفًا كأسه إلى جوفه. فتتجاوب الضحكات:

– ها ها!

– هو هو هو!

– قه قه!

– هـْ هـْ هـْ هـْ!

– أتعلمون لماذا أضحك؟

فنظر بعضهم إلى بعض، إلّا خليل المعلّا فقد ظلّ ماضيًا في ضحكته.

– هـْ هـْ هـْ...

– خليل المعلّا وحده يعرف لماذا أضحك... ها ها! الأخ حنانيا، الأخ حنانيا! والله شجاع! الحقيقة أنّني لم أرَ متّهمًا بهذه الشجاعة. بل وقح، وقح! يتظاهر بأنّه لا يبالي بالمشنقة. ويهينني أيضًا، الكلب!

فحاروا كيف يغضبون لكرامة الضابط:

– يهينك!

– ماذا تجاسر أن يقول لك؟

– هذا بلا عقل!

– لا يعرف من هو رئيس التحقيق!

– الكرباج سيؤدّبه!

فرفع رشدي بك يده:

– الليلة، الساعة العاشرة. كم الساعة الآن؟... بعد نصف ساعة. آه! أنا أمين على مواعيدي. ماذا؟ لا. لا. سأعود. ربع ساعة تكفي... من شرب كأسي؟ أنتِ أم أنتِ أم أنتِ..؟ أسمعني ضحكتك يا خليل المعلّا. أين القنّينة؟ أريد أن أشرب. نفسي مفتوحة هذه الليلة... سأؤدّبه! العرب الكلاب! ها ها! اِشربوا معي.

فارتفعت الأقداح من كلّ جهة.

– كم الساعة الآن؟ كأس أخرى قبل أن أذهب.

وحدّج جارته ومال عليها فأوقع الكأس من يدها، فامتدّت الأيدي بالمناديل إلى ثوب الضابط تلتقط عنه قطرتي شمبانيا، وهو مستلقٍ في الحضن المضياف يبتسم راضيًا. ثمّ هبّ وسوّى من هندامه وخرج مشيَّعًا بأكثر ممّا استُقبل به من التكريم، وأُعيدت عليه التوصية:

– لا تتأخّر!

فأكّد أنّ المسألة لربع ساعة، حسب العادة.

١٣

غرفة الاستنطاق نفسها. قنديل باهر يتدلّى من السقف. ورشدي بك واقف، له من ظلّه أنف على الحائط يتوتّر انتفاخًا وتقلّصًا بشكل مضحك، بالقرب من سوط معلّق حديثًا فذنَبه يتهادى... وشيء جديد: مقعد خشبيّ طويل لم تقع عينا سامي عليه حتّى سرت في بدنه قشعريرة. وأراد أن يصيح، لا

خوفًا بل احتجاجًا ، ولكنّه لم يفعل . ومشى الضابط إلى الباب فأطبقه وأدار فيه المفتاح برفق ماكر ، فأحدث صريرًا مزعجًا .

وكان شفيق أفندي قد وقف برأسه الضخم لا يتحرّك فيه إلّا عيناه ، وانتصب إلى جانبه الجنديّ الهزيل الذي عاونه في الصباح على سوق سامي إلى الاستنطاق . فأمرهما رشدي بك فبطحا السجين على المقعد ، فاستسلم لا يمتنع منهما بحركة ولا يفتح فاه بنأمة .

لماذا يريدون ضربه ؟ لم يخطر له السؤال ببال . هو يتساءل فقط كيف ؟ حتّى هذا السؤال يهرب وشيكًا ويهرب معه كلّ فكر ، فإذا رأسه فارغ ، فارغ كالجرّة الفارغة ، لو نقفه أحد لرنّ .

وعادت عيناه فوقعتا على خيال الأنف طويلًا هذه المرّة ، يتسلّق الحائط الأبيض الأملس صعودًا ، ثمّ يختفي بسرعة ويمتدّ مكانه فكّ عريض . ولكنّ الأنف يعجبه أكثر من الفكّ ، فيتمنّى لو يظهر من جديد ، يكاد يقول لصاحبه : « دُر ، دُر لأرى أنفك ! »

هو يجهل الوقت الذي قضاه متلهّيًا بذلك . كلّ ما يعرفه الآن أنّه يحسّ ببرد في قدميه . فقد خلعا نعليه وجوربيه ، ويحسّ شيئًا قاسيًا يجمع ساقيه ويشدّهما إلى المقعد . يشدّ ، يشدّ حتّى لتكاد ركبتاه تنخلعان . فحاول أن يرفع رأسه ليرى ، فوجد ذراعيه قد شُدّتا أيضًا . وكان الضابط ينقف السوط على طاقته متبرّمًا ، ثمّ دنا وصفق به فوق أذن سامي ، وضحك ، وشتم ، ووثب إلى الطرف الآخر ، فرفع الأسير قذاله جهده ، وانفتحت عيناه هائلتين .

– آخ ! (مع أنّه وطّن نفسه على السكوت) .

– أتسمع ؟ إنك تعوي كالكلب تمامًا .

فسحق سامي بأسنانه وأغمض جفونه ... حاول أن يعدّ الضربات فلم تبلغ العشر حتّى داخ ، فأخذت تتوالى بدون حساب ، تهوي على قدميه – هل هما قدماه ؟ – وتمشي أصداؤها في عظامه حتّى تصل إلى الدماغ فتهدر فيه هديرًا .

– أتقرّ الآن أين نعّوم لبكي ؟

كان قد آلى على نفسه ألّا يفتح فاه ، فترك رئيس التحقيق يجلده حينًا ويطرح عليه سؤالًا حينًا ، ثمّ انقطع رشدي بك عن الأسئلة وانصرف إلى الضرب ، وسامي يتململ ويتخبّط ويلوي برأسه من هنا ومن هنا ، يخنق الصرخة ويعضّ الأنّة . والسوط يخطّ على القدمين خطوطًا بيضاء جنب خطوط حمراء فوق خطوط زرقاء ، حتّى اختلطت فيهما الألوان وتنفّستا بالدم .

حينئذ ألقى رئيس التحقيق في الديوان العرفيّ سوطه ، وأبى قبل أن يخرج إلّا أن يودّع ، فرفع جزمته ولبط بها سامي على يأفوخه ، فارتجّ رأس الضحيّة ، ثمّ هدأ هدوءًا مخيفًا .

١٤

استلقى السجين على فراشه أيّامًا وليالي لا يعي . أخذته الحمّى فلا يعرف نومه من يقظته ، ولا يتبيّن أحدًا ممّن حواليه ، ولا يدرك أين هو .

ودارت به الدنيا ذات مساء ، فرأى نفسه سائحًا في الجوّ على عربة ، والعربة تذهب محمولة على غيوم دكناء ، تعلو وتهبط ، وتهبط وتعلو ، ولسنابك خيلها وقع بطيء ، ناعم ، متوازن : طق ... طق ... طق ... ثمّ تقف في ساحة من السماء مظلمة ذات رعود وعواصف ، ويرتدّ عليه السائق – رشدي بك نفسه – فيمسكه ليرميه من شاهق . والخيل تسرع : طقطق طقطق ! تريد تركه لراكب آخر ينتظر على الأرض . فيضرع إلى السائق « لا ترمِني لا ترمِني ! » مشيرًا إلى بُعد ما بينه وبين الأرض ، فيتوتّر أنف رشدي بك ، ولكنّ السوط يلتفّ حول عنقه فيقف معلّقًا بين الأرض والسماء ، فيزمجر الحوذيّ ، فتخرس الصواعق :

– إختنق ، إختنق أيّها العربيّ الكلب !

وحوافر الخيل تقرع دون انقطاع : طقطق طقطق ! وقد نفد صبرها. وتضيق دائرة السوط على عنقه فتبرز عيناه وتتواثب رجلاه كأنّ الحياة انحدرت فاعتصمت فيهما. فيتهادى رشدي بك على حافّة العربة ، يميل به رأسه إلى السقوط ، فيبدّل من غضبه وتهديده ابتسامًا ومكرًا ويقول :

– إنزل ، إنزل ! ألا تريد أن تنام؟ لك ، تحت . فراش وثير. إنزل ، أنت تحبّ النوم.

– مضى عليّ أكثر من أربعمائة سنة وأنا نائم ! لا ، لا ! لا أريد ، لا أريد ! لقد فتحت عينيّ وستبقيان مفتوحتين إلى الأبد ، إلى الأبد! لو ترى أنفك يا رشدي بك؟ لوكنت موضعي لترى منخريك ينفتحان وينطبقان ! إسمح لي أن أضحك. أنا أعلم أنّك تكره المزاح. أمّا أنا فدعني أمزح. ألست حرًّا؟

– حرّ ! سكتير ! ألا تزال تتلفّظ بهذه الكلمة؟

ويستوي الضابط في وقفته ويتمكّن من السوط فيجذبه بكلتا يديه ، ويكبر أنفه وكأنّه كرة مطّاط . يكبر ، يكبر حتّى يصبح أضخم من رأسه ، ثمّ ينفلق انفلاقة مدوّية. ولكنّ سامي يرسل بصره في الآفاق البعيدة ، ويحاول أن يفوه بكلمة ، كلمة واحدة ، كلمة كبيرة ، فلا يستطيع . ويندلق لسانه إلى جانب وترتخي رجلاه. وقد سكنت العواصف والرعود ، وانقشعت الغيوم عن سماء صافية زرقاء ، وسرى نسيم معطّر لطيف ، لطيف ، يداعب شعره وشاربيه الصغيرين ، ويدور حواليه ، ويرجع إلى جبينه وشفتيه وخدّيه.

طقطق طقطق... طق... وتختفي العربة ويختفي رشدي بك. وتأتي الشمس فينفذ شعاع منها إلى العين اليمنى ، وشعاع إلى اليسرى فيفتح سامي جفونه ، فإذا حبال ذهبيّة مدلّاة تلفّه من رجليه ويديه وأعضائه كلّها في شبكة وهّاجة ، وتسمو به إلى فوق ، إلى فوق ، إلى فوق !

ربّي ، ما هذه الديار الغريبة؟

قالها بينه وبين نفسه ثمّ انتفض صائحًا :

– أين أنا؟ أين أنا؟

– أصحوت ، يا سامي؟

فأجال المحموم عينيه فرأى صديقه عمر حمد إلى جانب السرير.

– أين أنا؟

– ليتك في غير هذا الحبس! كنت تهذي يا سامي. هاتِ رأسك أجسّه.

– عطشان ! أنا عطشان !

فناوله الإبريق ، فأفرغه وتنهّد الصعداء.

– سوِّ المخدّة جيّدًا. وضعتها لك عشر مرّات وأنت تحضنها ثمّ تقذفها وتحاور خيالًا. أتركك لتستريح. يمكنك أن تناديني إذا شئت. بعد أن استنطقوا الجميع أصبحنا قادرين على الاختلاط.

– ماذا حكموا عليّ؟

– لم يحاكموك بعد. أنت محموم منذ أسبوع. أمّا نحن فقد مثلنا أمام المحكمة وما نزال ننتظر كلمتها فينا.

وسكت عمر مطرقًا ثمّ رفع وجهه وقال :

– أعتقد أنّ كل شيء قد انتهى.

– تريد أن تقول...

– لم يبقَ إلّا أن يوافق جمال باشا.

– وأنا؟

– يُقال إنّنا سنذهب قافلة بعد قافلة.

– ستسبقني يا عمر؟ لقد كنّا دائمًا جنبًا إلى جنب !

ونظر أحدهما إلى صاحبه.

– لا تفكّر بهذه الأمور الآن. خصوصًا أنت ، لا تفكّر بها.

وخرج ، فعلا سامي في سريره يتبعه بنظره. فرأى رئيس الحرّاس ما يفتأ يذرع الرواق بجزمته : طق طق ! طق طق ! فرفع يده إلى جبينه ثمّ أرخى رأسه وقد طفت على شفتيه ابتسامة.

١٥

الخامس من أيّار السنة ١٩١٦ .

وقفت الشمس في الشفق البعيد ترسل آخر شعاع من أشعّتها إلى عاليه ، ثمّ جاءت غيمة كبيرة سوداء فحجبت وجهها بها وغارت في البحر ، وامتدّ الظلام طبقًا كثيفًا على المدينة فخنق فيها حتّى الهواء ، فما تختلج ورقة على غصن ولا تميل عشبة .

وكان القنديل في رواق السجن شاحبًا ، تتدافع دخنته من الفتيل المجروح متلوّية من هنا ومن هنا ، فيشهق لها الضوء ويرسل إلى حيطان الرواق وإلى الغرف عن جانبيه أجنحة خفافيش جبّارة تضرب السقوف والزوايا ، والسجناء واقفون خلف الأبواب ، يشبكون أيديهم بحديدها أو يتمشّون ذهابًا وإيابًا كأسود في أقفاص .

كانوا يحسّون بالموت يرود حول السجن ويهمهم . فما يسعل حارس أو يتحرّك حتّى تعلو القلوب في الصدور ، وتطلّ الرؤوس ، وتتبادل العيون من خلال الحراب المنصوبة نظرات فيها من البطولة والذعر ، والتحدّي والاستسلام ، والسخرية والحقد ، والإيمان والكفر ، فيها من الحياة والموت كلّ أسرار الموت والحياة إذ يصطدمان على مفرق ويتواجهان .

دقّت الساعة التاسعة ، فانفرج باب الرواق وأطلّت منه عينان وانطلق صوت :

– سعيد عقل ، اِلبس ثيابك واخرج !

فرأى القنديل الضئيل وجوهًا تميل ميلة واحدة إلى زنزانة المختار . ثمّ رأى شبحًا طويلًا يخرج مرفوع الجبين ، ثابتًا ، لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا . فرافقه رئيس الحرّاس إلى الباب ثمّ أقفله وراءه .

ومرّت دقيقة ... دقيقتان ... عشر دقائق . كان الزمان ثقيلًا ، كجذع ضخم يجرّه حطّاب عاجز . خمس عشرة دقيقة ، ففُتح الباب وظهرت العينان :

– الشيخ أحمد طبّاره ، اِلبس ثيابك واخرج !

فجأر المختار الثاني :

– لا إله إلّا الله !

ثمّ ردّدها بخشوع :

– لا إله إلّا الله !

ولبس ثيابه وخرج . فلمّا توسّط الرواق أجال بصره في رفاقه :

– أولادي ! أولادي ! أوصيكم بأولادي . قولوا لهم : «ولا تظنّوا أنّ الذين قُتلوا في سبيل الله ... » .

ولم يدعه الواقف بالباب يكمل فهجم عليه وأمسكه من كتفه وقذفه .

ومضى ربع ساعة ، وعاد صاحب العينين والصوت :

– عمر حمد ، اِلبس ثيابك واخرج !

فغصّ القنديل غصّة كبيرة ، وارتفع إلى السقف خيال ذراعين عظيمتين . كان عمر قد لبس ثيابه وتهيّأ من قبل ، فلم يسمع اسمه حتّى وثب إلى الرواق هاتفًا :

– إلى الموت ! إلى حياة الأمّة العربيّة ! إليّ يا إخوان ننشد جميعًا :

نحنُ أبنـــاءُ الأُلى جرّدوا السيـفَ سنـــا

فهرعوا والتفّوا حوله . وشدّ سامي كتفه بكتفه ودوّت أرجاء السجن :

ومشوا في الأرضِ يحلونَ من الأرضِ سمًا

ودار عمر على رفاقه يعانقهم وهم ينشدون ، فلمّا وصل إلى سامي اغرورقت عيناه ، ثمّ مدّ يده إلى جيبه ودفع إليه ساعته وقال :

– اِحفظها تذكارًا منّي ... إذا لم تطلب الحرّيّة دمك غدًا .

فشدّ سامي على يد صديقه وأكمل :

نفتـدي الأوطـانَ بـالأرواحِ هـانت ثَمنا

وعند منتصف الليل أُطبق الباب شدقَيه . فالتفت الباقون بعضهم إلى بعض وعدّوا النقص . ثمّ تجرّروا إلى حجرهم ... ينظرون إلى أمكنـــة رفـاقهم وقـد

استوحشت ، فليس فيها إلّا حذاء تحت السرير مقلوب ، أو شملة على الوسادة ملتاعة ، أو كتاب مفتوح على سطوره السوداء.

ثمّ اخترق الليل صهيل خيل ووسوسة حراب ، ثمّ علت ضوضاء مبهمة وارتجّت أركان السجن ، وكرّت العربات على طريق بيروت : طقطق طقطق طقطق... فاتّكأ سامي على الشبّاك وأرسل بصره في الظلام ، فجالت بين أجفانه غبطة محرقة ، ثمّ نسّم الهواء فقطّرها دمعة. ثمّ ترامت إليه أصوات من بعيد وبينها الصوت العريض الذي يحبّه :

رنّ فينـا صوتُهم فنفضنـا الزمنـا
ومشينـا نتركَ الـدربَ موشّى بـالـدِما

فارتعشت شفتاه يرافق من وراء شبّاكه بصوته الحارّ نشيد السابقين الذاهبين إلى الفجر :

علّقـونـا سُلّمًـا للمجـدِ يتلو سُلّمَـا

وخيّم على السجن سكوت مبغوت ثقيل ، لا يُسمع فيه إلّا وقع قدَمي رئيس الحرّاس في نزهته الأزليّة الأبديّة.

وما هي إلّا دقائق حتّى دخل رشدي بك وبيده ورقة كبيرة فأمر شفيق أفندي فنادى السجناء ، فلمّا اجتمعوا في الرواق استعرضهم بأنظاره حتّى اهتدى إلى سامي :

– ألا تزال هنا؟

ومدّ يده إلى مسدّسه ودفعه إليه. فتردّدت عينا سامي بين المسدّس ووجه الضابط واختلجت أصابعه وهمّ بأن... فإذا برشدي بك يسحب يمينه بالمسدّس ، ويمدّ له بما في الشمال ويأمره :

– اِقرأ على رفاقك.

وانصرف. فتكتّل السجناء حول سامي يقرأون معًا :

بلاغ القائد الكبير
عن تنفيذ حكم الإعدام بخائني الوطن

«... وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفيّ في عاليه صدرت الأحكام المقتضاة بحقّ المظنون فيهم من الموقوفين والفارّين كلّ على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعيّة التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانيّة وجعلها إمارة مستقلّة. فحُكم على مَن يأتي ذكرهم هنا بالإعدام : شفيق بك أحمد المؤيّد العظم ، الأمير عمر ابن الأمير عبد القادر الجزائريّ ، عمر مصطفى حمد ، رفيق بن موسى رزق سلّوم ، محمد حسين الشنطيّ ، شكري بدري العسليّ ، عبد الغنيّ محمّد العريسيّ ، عارف محمّد سعيد الشهابيّ ، توفيق أحمد البساط ، سيف الدين أبي النصر الخطيب ، الشيخ أحمد حسن طبّاره ، عبد الوهّاب الإنكليزيّ ، سعيد فاضل عقل ، بترو باولي ، جرجي موسى الحدّاد ، سليم محمّد سعيد الجزائريّ ، علي حاجي عمر ، رشدي أحمد الشمعه ، أمين لطفي محمّد الحافظ ، جلال سليم البخاريّ.

«... ومن الذين صدر بحقّهم حكم الإعدام وهم : شفيق بك المؤيّد ، الأمير عمر ، شكري العسليّ ، عبد الوهّاب الإنكليزيّ ، رشدي الشمعه ، رفيق رزق سلّوم ، هؤلاء قد جرى إعدامهم في هذا الصباح في الشام في ٦ أيار ، والآخرون جرى إعدامهم في بيروت ، وسائر المجرمين صار سوقهم إلى منفاهم وحبوسهم.

... وعلى هذه الصورة تقرّر في سوريا وفلسطين السكون والأمن إلى الأبد....»

قائد الفيلق الرابع وناظر البحريّة
أحمد جمال

١٦

لم يكد سامي يفرغ من قراءة المنشور حتّى مزّقه وداسه وانقلب إلى غرفته فدفن وجهه في كفّيه. ثمّ تناول الساعة التي أعطاه إيّاها عمر فلمع زجاجها في

العتمة ، فآذاه لمعانه وآذته تكّاتها المتواصلة ، المتوازنة — كأنّ أمرًا لم يحدث في الدنيا — فهمّ برميها من الشبّاك وهمّ بسحقها بقدميه ، فردّته ذكرى عمر فوضعها على الطاولة برفق وقام إلى العتبة.

كان شفيق أفندي قد عاد سيرته يُقبل ويُدبر في الرواق ، خفيف الوطء هذه المرّة رفيقًا. فبدا لسامي أن يتناول هذا الكرسيّ فيرميه به فيحطّم رأسه. ولكنّ رئيس الحرّاس وقف فجأة قبالته وأرسل إليه نظرة غريبة. كانت تلك أوّل نظرة تلتقي فيها عيون الرجلين. والضوء يغمر وجه شفيق أفندي فيظهر شارباه وقد ارتخيا ، وعيناه وقد جال فيهما ذهول ، وكتفاه وقد انخفضت إحداهما عن أختها تحت حمل خفيّ.

وانقضت دقيقة والعيون متلاقية جامدة ، لا يرفّ لها هدب. وأحسّ سامي ، على دهشة منه ، أنّ حقده ينحلّ ويذوب ذوبان الثلج على تلك النظرة التي لا تنتهي. كان يريد أن تنتهي ولا يريد... فإذا بشفيق أفندي يخطو إليه ، فينبعث الحقد في صدره مشوبًا برعشة ، وتراجعت إحدى رجليه فأبى عليها ، ورفع ذقنه متحدّيًا ، فألقى رئيس الحرّاس كفّه على كتف السجين وقال :

— يجب أن تنام.

والتقت العيون مرّة ثانية.

— إنزع يدك عنّي !

— يجب أن تنام.

— هل النوم تحت أمركم أيضًا ! كيف أنام وأنتم تعلّقون واحدًا وعشرين أخًا لي على أعواد مظالمكم؟

— أربعة عشر في بيروت ، وسبعة في دمشق... كلُّهُم شُنِقوا !

— في يوم واحد...

— عدا المحكوم عليهم بالسجن وعشرات المنفيّين...

— أتخيفني بهذا الإحصاء؟

— إخفض صوتك ! ولا تزال المشانق منصوبة...

— أغرب عن وجهي !

— الموعد الرابعة صباحًا. أين ساعة عمر؟

— تريد أن تسلبني إيّاها؟

فغابت تحت شاربَي شفيق أفندي ابتسامة. ثمّ ثنى رأسه فتناول ساعته من جيبه ونظر فيها. ثمّ أعادها ورفع كفّه إلى جبينه وأدار ظهره. فمدّ سامي بأنفه واجتاز العتبة لاحقًا به كأنّه يجذبه بخيط من سحر. وتفقّد شفيق أفندي أعوانه فإذا هم يُغفون على بنادقهم ، فانكفأ بعبوسه المعهود وقال لسامي :

— إذهب ونَم. لا تفارق فراشك !

وكان في صوته رباطة الجأش التي غلبت سامي لأوّل مرّة لدى زيارة زينه له ، فمشى إلى سريره.

تنازعته أفكار متقطّعة مشوّشة ، تقفز به من المشانق إلى ساقية المسك ، إلى ذكريات صباه البعيد. ثمّ انتبه إلى نفسه وعاد الحقد حيّة تلفّ قلبه ، فتهيّأ للوثوب فالتقت عيناه العينين الأخريين مرّة ثالثة. وكان شفيق أفندي ممسكًا ساعته ، وقد وقفت يده في الفضاء وانفرج فه. وخيّل إلى سامي ، من خلال الضوء المصفرّ ، أنّ رئيس الحرّاس يتهادى ، وأنّ عينيه هاتين تنظران ولا تريان.

وكان المصباح قد جفّ زيته ، فشهق شهقته الأخيرة ، وأطلع شرارات قويّة ، حمراء ، باهرة ، وانطفأ...

الـــغَيث

١

انتشر خبر المشانق في البلاد فأحدث دويًّا عظيمًا.

وجاء كامل أفندي الورّاق إلى دكّان ورده كسّار، وقعد أبو سعيد وورده وزينه وطام يصغون إليه وهو يسرد عليهم أسماء الذين أُعدموا ويفرك كفّيه:

– رحمة الله عليك يا صديقي! لا حول ولا قوة إلّا بالله! واحد وعشرون شابًّا، صفوة شباب العرب! أعوذ بالله! رحمة الله عليه! ما كان أشجعه وأظرف حديثه!

وكان أبو زيد قد وصل ووقف بالباب فسأل:

– مَن؟

– رفيق سلّوم.

فترقرقت عينا أبو زيد، فقال الجاويش:

– هل عرفته في عالَيه؟

– لا.

وعاد إلى البكاء.

– رحمة الله عليك يا حبيبي! إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ورفع كامل أفندي عينيه إلى السماء يسلّم تسليمًا، وهم ينظرون إليه واجمين، وزينه تودّ أن تطرح عليه، مبالغة في الاطمئنان، ألف سؤال وسؤال فلا تجسر، فتحدّق إليه رجاء أن يقرأ تلك الأسئلة في عينيها، ولكنّه يستأنف تحسّره ويهزّ برأسه، فتحدّج إلى خالتها فتراها هي الأخرى تحدّج إليها، وكأنّ كلّ واحدة تتربّص بصاحبتها. ثمّ وخزت الفتاة جدّها وسألت كامل أفندي لماذا لا يدخل إلى الغرفة. فأجاب أنّه مضطرّ أن يعود إلى الثكنة في الموعد. وأنّه لولا ذلك لما أزعج أبو سعيد عن زاويته. والواقع أنّه قد طالما تأخّر في الماضي عن الموعد فما حفل، حتّى كانت هذه القائمة السوداء من المشانيق والمحكوم عليهم بالسجن والنفي، فبعثت فيه رهبة وأنعشت في نفسه حرمة للنظام خُيّل إليه يومًا من الأيّام أنّه داسها إلى الأبد.

وتهيّأ للقيام فدعته ورده على غير عادتها إلى المكوث قليلًا، وهمّت بأن تقول له شيئًا فتلعثمت، ثمّ بلعت بريقها وقالت:

– أتظنّ أنّ تهمة سامي عاصم خطيرة؟

وكان في صوتها اضطراب، فأجاب:

– خطيرة، خطيرة جدًّا.

– تعني أنّه مثل هؤلاء، وأنّه يمكن أن...

ولم تُطعها شفتاها على الكلمة الهائلة. فدُهشت زينه لهذا التحنّن تبديه خالتها على سامي وقد كانت إلى قبل ساعة لا تذكره إلّا باللعنة، وتدعو عليه بالشنق كلّما عاندتها ورفضت الابتسام لزبائن دكّانها أو تأبّت

من غسل صحونهم وكنس أوحالهم عن البلاط .

أمّا كامل أفندي فلم يجب ورده على سؤالها ، رفقًا بنفسه على الأكثر ، وقال :

– ما أزال أفكّر في الوغد الخسيس الذي أرشد إلى مخبئه وأسلمه . قلت يا أبو سعيد وأكرّر قولي إنّ هنالك مؤامرة . فأبو زيد لم يكن يعرفه ، وخليل المعلّا لم يستطع أن يأخذ من طام شيئًا من السرّ . وأنا أعتقد أنّك ظلمت هذا الصغير لمّا ضربته وحملته على الإقرار لك بما زلق به لسانه مع ذلك الرجل . السرّ لم يكن في أنّ شابًّا مطلوبًا من الديوان العرفيّ اسمه سامي عاصم استتر باسم الأخ حنانيا وجبّته ، بل أين هو هذا الشابّ . والحال أنّ طام لم يكن يعرف أنّه في المغارة ... يجب أن يكون هنالك من دلّ خليل المعلّا على مغارة الخوريّة .

فسح أبو زيد دموعه والتفت إلى أبو سعيد وقال :

– ماذا كنت أقول لك دائمًا ؟

فقذفته ورده بتكشيرة قهر :

– ماذا كنت تقول يا أبله !

فخفض رأسه . وقال الجاويش :

– ما الفائدة الآن يا ستّ ورده ! سبق السيف العذل .

وخرج ، فتنفّست الصعداء ...

* * *

في الليل جثت زينه في فراشها وضرعت للمصلوب المعلّق فوق وسادتها بإيمان وخشوع . ثمّ اضطجعت تتمثّل سامي وقد نجا فتضمّ طيفه إلى صدرها وتستسلم إلى هذه الرؤيا ساعة ، فإذا عادت إليها أشباح المشانق ارتعدت فرائصها وضعفت حتّى لكأنّها طفل صغير ، فتعضّ اللحاف وتخنق صراخها ، واجدة في الحالين عذابًا مدغدغًا كاللذّة ، ولذّة لها وخز العذاب .

وفي الصباح لبست ثيابها وغادرت القرية .

جعلت طريقها إلى عاليه مرحلة واحدة هذه المرّة . وصلت إلى بيروت عند الظهر ، وتابعت السير فبلغت عاليه عند غروب الشمس ، وقصدت توًّا إلى نزل صاحبتها العوراء . وأخرجت من صدرها رغيفًا يابسًا ابتاعته من بيروت فأسكتت جوعها ، ثمّ استلقت لا تحسّ ببقّ ولا بأيّ شيء لما نالها من جهد في يومها .

استيقظت في الصباح على قرع الباب . ولو لم توقظها العوراء لظلّت نائمة . فهبّت وفركت عينيها فرأت النهار قد ارتفع ، فخرجت مسرعة . ولكنّها ما لبثت أن تذكّرت . صرّتها تكاد تكون فارغة إلّا من بضعة متاليك . فثقلت قدماها ووقفت على حافّة الطريق تعضّ إصبعها بمرارة . كيف تشتري الإذن ؟ كانت تعلم قبل أن تغادر ساقية المسك أنّ ما معها لا يكفيها ، وجاءت مع ذلك لأنّها لم تكن تستطيع أن تبقى . وكانت قد أنِست من العوراء عطفًا حين باتت عندها مرّة أولى ، فقالت في نفسها : « ربّما ساعدتني على أمري » ثمّ قالت : « بل أذهب أنا بنفسي عند رئيس التحقيق » .

ولم تفعل هذا ولا ذاك ، وعزمت أن تقابل سمسارة الأذون لعلّها ترقّ لها . فلم تخطُ خطوتين حتّى سمعت وقع حوافر فالتفتت ، فإذا رشدي بك على حصانه ، فتوسّطت الشارع ورفعت يديها تلوّح بهما في الفضاء ، فهمز الفارس مطيّته وجاز كالبرق ، لو لم تتحاشَه لداسها . ثمّ لحقت به تحت الغبار الذي سحبه وراءه حتّى شارفت الديوان العرفيّ ، فرأت الناس مجتمعين حلقات حلقات وعلى وجوههم اهتمام وهم يتهامسون . فدسّت رأسها في حلقة تصغي :

٢

– شيء عجيب !

– شيء لا يصدّقه العقل !

– السجن محاط بالحرّاس المسلّحين لم تُغمض لهم عين طول الليل !

– هو نفسه حارس.

– من كان يظن أنّ حارسًا يهرب من السجن الذي يحرسه!

– والظريف أنّ سجينًا مفقود من السجن.

– تُرى، من هو؟

– لا يزال مجهولًا. ذهبوا إلى رشدي بك وأخبروه فجُنّ جنونه. هل رأيتموه كيف مرّ من هنا برجًا من غضب؟ نزل الآن يتفقّد السجناء ليعرف أيّهم الهارب.

– ماذا ينفعه عرف أم لم يعرف؟ الذي هرب هرب.

– ألا يكون الاثنان متّفقين على الهرب معًا؟

– طبعًا!

– أيّ هرب؟ سيلحق بهما العسكر ويقتلونهما كما فعلوا بسواهما من قبل.

– كان محكومًا عليه بالإعدام.

– من؟

– السجين.

– كيف عرفت أنّه محكوم عليه بالإعدام؟

– الإعدام أو المؤبّد.

– أو النفي إلى الأناضول.

– السجين هرب من الحكم، ولكن لماذا هرب الحارس؟

– هس! هس! تعالَوا أخبركم.

وتزحزحت الحلقة لشابّ يدخل فيها ملهوفًا، وشقّت زينه لنفسها منفذًا وأتلعت عنقها، فقال:

– رأيت جثّة هنا، هنا. رأيت جثّة هنا! اقتربت من ضابطين وسمعتهما يقولان: «قتلاه وهربا»، أي صاحب الجثّة، وهو حارس من حرّاس السجن. فهمت منهما كلّ شيء. كانا يتكلّمان بالتركيّة ويظنّان أنّني لا أفهمها أو لا يشعران بي. ولكنّي كدت آكلها حربة من الحاجب. (وتوقّف هنيهة يتنفّس) رئيس الحرّاس قتل معاونه وهرب...

– رئيس الحرّاس!

– هو هو!

– شفيق أفندي رئيس الحرّاس.

– أنا أعرفه. شفيق أفندي العلايلي.

– وأنا أعرفه أيضًا. نحيف الجسم.

– بل هو كالجبل!

– من أين تعرفه أنت؟

– أُسكت!

– بل أنت سدّ فلك!

– أتركانا أنتما الاثنان.

– أكمل، أكمل. جثّة من رأيت؟

– أتريدون أن تسمعوا؟ (وأدار فيهم عينيه فحبسوا أنفاسهم) شفيق أفندي العلايلي – هكذا سمعت أحد الضابطين يقول لرفيقه – شفيق أفندي طلب لأحد السجناء إجازة بنقله إلى المستشفى بحجّة أنّه مريض. ونادى حارسًا من الحرّاس ليعينه، فوضعاه على خشبة ومشيا به. فلمّا ابتعدا عن السجن قليلًا، هنا، هنا، هنا، أهوى شفيق أفندي على الحارس وطعنه بالخنجر وفرّ مع سجينه. أنا رأيت جثّته. رأيت جثّة الحارس. كان الضابطان ينظران إليها مطمولة بالدم وفيها أكثر من عشرين طعنة.

– مسكين! ما ذنبه؟

– مسكين! مسكين! لماذا لا تشفق على الذين شنقوهم؟

– والله العظيم، لو سمعك رشدي بك!

– لا أخاف منك ولا منه. اِذهب وقُل له!

فتدخّل أحدهم لحسم الخلاف:

– الحارس قُتل، ورئيسه والذي هرب معه سيُقتلان أيضًا. هل تظنّون أنّهما يفلتان من يد الدولة؟

– الدولة لا يخفى عليها شيء.

– من يقدر على الدولة؟

– الحقّ على الدولة تعيّن ضابطًا عربيًّا رئيسًا للحرّاس.

– يقولون إنّه من نابلس.

– الدم يعطف على الدم. هل يتحوّل الدم إلى ماء؟

– عربيّ وعربيّ ، فلا عجب.

– ولكن من هو السجين الذي هرب مع شفيق أفندي؟

– أما كان قادرًا على تخليص السجناء كلّهم!

– ليخلص بجلده وجلد مَن معه!

– لن ينجو لا هو ولا السجين. سترون. ليست هذه المرّة الأولى يهرب فيها سجين. وقد لحقوا حتّى اليوم بأربعة قبله. الأوّل قتلوه في عالَيه ، والثاني على طريق بيروت ، والثالث على باب الحبس ، والرابع..

كانت زينه تشرب هذه التعليقات شربًا ، وقلبها يخفق بسؤال همّت شفتاها بطرحه على الرغم من أنّ غيرها كان قد طرحه تكرارًا فلم يلقَ جوابًا. فإذا شابّ يطلّ بأنفه فوق الحلقة ويهمس:

– سامي عاصم! الذي هرب مع رئيس الحرّاس اسمه سامي عاصم.

فانفتحت عيناها في الرجل. وفجأة قام خلفها صهيل ووقع سنابك ، فتفرّق الفضوليّون وبقيت هي مكانها لا تصدّق ما وعت أذناها ، تبحث عن الذي لفظ اسم سامي لعلّه يعيد لفظه مرّتين وعشر مرّات ، فيهوي عليها فارس بسوطه فتمسح الضربة عن كتفها ، تصعد إلى الرصيف ، تعود إلى الشارع ، يمرّ الجنود على خيلهم شاهرين السيوف ، ملوّحين بالسياط ، تريد أن تضحك ، تريد أن تبكي ، تركض ، تقف ، تلتفت إلى اليمين ، تثب إلى الشمال ، لا تسعها الدنيا.

* * *

أحدث الجنود في المدينة ذعرًا كبيرًا. أقفل أصحاب الدكاكين دكاكينهم وأقفرت السوق في دقائق معدودة ، فليس إلّا كوم أقذار وكلاب هزيلة ذات عيون جائعة. والفرسان يروحون ويجيئون ، يرفع قائدهم ذراعه مشيرًا إلى ناحية فيلحقون به ثمّ يرجعون. وزينه تتبعهم محاذرة ، مستخفية بجدار هنا ، وبزاوية هناك ، حتّى وصلت إلى نزل العوراء. فإذا ضجّة وجنود فيه وفي البيوت المجاورة يقلبون الأشياء ويقذفون على الأدراج ومن النوافذ ، غير حافلين بصياح النسوة وبكاء الأطفال. وتلمّست مخبأ فطلع بوجهها قبو تحت السلّم مظلم ، فدخلت فيه وتجمّعت على نفسها بين عناكبه وحبست أنفاسها تصغي. حتّى إذا سمعت الجنود ينزلون الدرج انسلّت تتلصّص ، وأرادت الهرب في جهة من الجهات ، فإذا العوراء تناديها فتردّدت ، ولكنّها استشعرت منها إلحاح محبّة فارتقت إليها ، وأخذت تعاونها في ترتيب البيت وإصلاح ما أفسده العسكر ، يتألّق وجهها بالأمل فتمضي نفضًا وحملًا وتسوية للأثاث ، ثمّ تقف يداها وتجمد زائغة البصر. وعنّ لها أن تفتح قلبها لهذه العوراء الطيّبة وتقول لها إنّ أحد الهاربَين «فلان»! ولكنّها فضّلت أن تُخرس فرحها احتياطًا. مع أنّ المرأة كانت تلعن الأتراك وتدعو عليهم ، وقد غفرت لهم كلّ شيء إلّا أن يعيّروها «يا عوراء!» وحلا لها فجعلت تقصّ على زينه كيف فقدت عينها وكيف كانت من قبل جميلة ، والفتاة تهزّ برأسها حينًا ، وتتكلّف الابتسام الأصمّ حينًا آخر ، وهي لا تعي هذه البربرة وما تبالي صاحبتها. كانت تتخيّل سامي ورفيقه – يا حبّها له ولو على غير معرفة! – في مأمن من مطاردة المطاردين ، يتضاحكان ساخرين من هؤلاء الذين يفتّشون عليهما في عالَيه وفي ضواحي عالَيه فما يفتّشون على غير عقولهم ، وما يعثرون إلّا على الغبار تحت الأسرّة ، والعنكبوت خلف الخزائن... ثمّ يغلبها الجزع إذ تتذكّر كلام ذلك الثقيل يؤكّد أنّ الدولة ستهتدي إليهما وتأتي بهما حيّين أو ميتين ، كأنّ له عليهما ثأرًا أو كأنّ الأتراك أولاد عمّه! فتبغضه وتودّ لو تلاقيه لتكسر أسنانه... وتشدّ في ظنّها مع الفارّين وتذهب معهما إلى مغاور في الأودية عميقة ، وتلجأ إلى صخور في الجبال ذات شعاب وقباب... ثمّ تطلع لها الصورة الرهيبة: العسكر

يصرعونهما بالرصاص ويجرّونهما إلى عالَيه مربوطين إلى أذناب الخيل ، فتطردها طردًا وتستر وجهها بكفّيها .

٣

ظلّ هذا شأنها حتّى فات الظهر وجاعت فمشت إلى السوق . كان بعضهم قد فتح دكّانه وجلس مطمئنًّا ، والبعض الآخر قد فتح الباب نصف فتحة ووقف دونه ، وفضّل الأكثرون تعطيل العمل بقيّة النهار . فأخذت تسترق النظر خشية أن يراها الرجل الذي يعرفها والذي التقت عنده خليل المعلّا ، حتّى وصلت إلى باب فدخلت واشترت رغيفًا وقعدت في الزاوية تلتهمه .

وما هي إلّا دقائق حتّى علا وقع السنابك . فأطلّت فرأت الجنود قد عادوا يملأون الشارع ، يشيرون إلى الناس بأيديهم ، ويكلّمونهم بلطف هذه المرّة . والناس يخرجون من الدكاكين ويشرفون من السطوح وينزلون على الأدراج ، حتّى تجمّع حول العسكر عشرات منهم . فأومأ القائد فانطلقوا من ناحية واحدة يتسابقون ، فغصّت بلقمتها وانطلقت وراءهم .

ولحقت بمؤخّرتهم ، فسمعت واحدًا يتساءل عاليًا :

– إلى أين نركض هكذا ؟

فيجيبه الآخر :

– سعرك سعر الناس . أركض !

فتقدّمت إلى الجماعة التالية فإذا بينها الثقيل ذو شاربَي ريش القنافذ .

– في ضهر البيدر ؟

– في ضهر البيدر ، هنا .

– الاثنان ؟

– الاثنان ... ماذا كنت أقول لك ؟ تعالَ وانظر .

وجعلا يلهثان وقد عجزا عن متابعة الكلام ، فسبقتهما تعدو وتصغي إلى ما يقال حواليها حتّى وصلت مع الطليعة .

وقفت في ساحة المحكمة تشاهد مع المشاهدين ... نطاق من حبل مضروب على جثّتين مطروحتين على الأرض ومغطّى رأساهما بكيس خيش . بقع من الدم مسودّة تصبغ ثوبه ، هو ، على الخاصرة وبقع أخرى حمراء على ساقه اليمنى . جاء رصاصهم في قلبه وربّما في رأسه أيضًا . جثّته الضئيلة ملقاة على البطن ، وجثّة الآخر الضخمة على الظهر . وجنديّان يدوران حولها ولا يلتفتان ... كأنّهما قطّتان رهستهما عربة ! وجنود بين الناس يحافظون على النظام ، والناس يسدّدون أنظارًا بلهاء ولا ينبسون ، إلّا بعض همسات :

– الحقّ عليهما !

– نجّانا الله !

– الله يرحمهما !

تلطم هذه الكلمات أذنيها فتميل إلى قائليها ميلة بطيئة ، ثمّ تعود إلى التحديق إليه ... فإلى الآخر ... ثمّ غامت عيناها ، فطار بها خيالها إلى ذكريات بعيدة ، فجعلت تبلع بريقها كأنّها تجترّ أشياء حلوة ، وكأنّ طعمها ما يزال بين الأضراس فهي تتلمّظ بشفتيها وتغمض أجفانها ... ثمّ ثاب إليها رشدها فنظرت ، فإذا هي قد بعدت عن النطاق ، وإذا بوجهها رجل قد احتلّ مكانها وضرب بكتفيه العريضتين حاجزًا . واكتنفتها الأجسام من خلفها وعن يمينها وشمالها وضاقت الحلقة عليها حتّى لتعصها . فأنزلت رأسها بين كتفيها وضربت الجمع بكوعها وألقت بكلتا يديها على الحبل .

كانت تشعر بمثل السرور يدغدغ جلدها وهي واقفة أمام جثّة من تحبّ . سرور غريب ، ناعم ، بارد ، لم تشعر بمثله قطّ ولم يخطر لها ببال أنّها تشعر به على خطوتين من ميت ، فكيف إذا كان أعزّ إنسان لديها ! ولبثت ثانية عنقها ، معلّقة بصرها به ، لو بقيت الأبديّة واقفة وقفتها تلك لما تحرّكت لها يد ، ولا انفتح فم ، ولا اضطربت في نفسها حاجة ولا شهوة ولا حسرة . فإذا أحد الجنديّين قد رفع قدمه يضرب بها رأس الجثّة الكبيرة ، فيلتفت رفيقه إليه زامًّا شفتيه ، ثم يُنزل

بندقيّته عن كتفه متهاهلًا ويضرب بها الرأس الآخر.

– آ... ع!

فوثب ثلاثة جنود إلى زينه واقتادوها إلى بعيد بحجّة أنّها تشاغب، فحاولت أن تعصي فلكموها وجرجروها إلى مسافة. ولمّا أداروا ظهورهم لحقت بهم عائدة إلى الساحة، فرأت الجمهور قد تفرّق إلّا أقلّه، والنطاق قد رُفع، ولم يبقَ من الجثّتين إلّا قطرات من الدم تلمع على التراب. فوقفت خائبة تتمثّل جثّته كيف كانت مطروحة هنا، وكيف كانت قدماه مضمومتين، وكيف أنحل السجن والمرض ساقيه، وسوّدا أصابع يديه... وكيف قصّره الموت فجعل منه شيئًا قليلًا... وكيف كان وجهه مغطّى... لو كشفوا لها عن وجهه على الأقلّ! «الميت قتلًا يُغطّى وجهه لهول منظره!» هكذا سمعت أحد المشاهدين يجيب جارًا. أمّا هي فلا تستطيع أن تتصوّر وجهه إلّا طافحًا بالقوّة والبشاشة والجمال، لا يزيده الدم المتشعّب عليه إلّا روعة، كما كان حينما حدّثها عن الثورة في مغارة الخوريّة... لماذا لم تطلب من الجنود أن يرفعوا الغطاء عنه؟ لماذا لم تهجم وترفعه هي لتراه مرّة أخيرة، وتضمّه أمام الناس جميعًا وتصرخ بأعلى صوتها: حبيبي، لماذا قتلتموه؟!

٤

قضت يومين بعد عودتها إلى البيت ساكتة، منتحية زاوية من غرفة جدّها تنكمش فيها خرقة مطويّة. وأفاقت مع فجر اليوم الثالث تفرك عينيها كأنّها خارجة من حلم. ثمّ تذكّرت ما قاله جدّها فور وصولها، فهالها الأمر. كان أبو سعيد يهمّ منذ زمان برهن بيته فما فعل. وها هو قد ذهب إلى إبراهيم فاخر ورهنه عنده بمئة ليرة!

– ستتبدّل حياتنا يا زينه. لن أسمح لك بالنزول إلى إنطلياس. وأمنع خالتك من التوجّه إلينا بكلمة... وأقفل هذا الباب بيننا وبين الدكّان وأسمّره بخشبة... وأعطيك كلّ يوم ما تطبخين به طعامنا، ونأكل وحدنا... ونتخلّص من منّة ورده ومن فضلات العسكر، ونستأثر بلبن الصبحا فلا نبيع منه، ونصنع جبنًا.

طَنّ رَجْع هذه الكلمات في أذنيها، فقامت إلى السطيحة فرأت أبو سعيد يمشي بالبقرة إلى الحقل. فلبثت ناظرة إليه حتّى توارى، ثمّ ساقتها قدماها فنزلت السلّم. كانت الشمس لم تطلع بعد وراء صنّين، ففي السماء كدرة زرقاء شفّافة، وهواء ناعم يبعث في الظهر قشعريرة حلوة. فوقفت على باب المراح هنيهة، ثمّ ارتفعت يدها إلى مفتاحه الكبير المعلّق بوتد إلى جانب العارضة، ودخلت إلى المراح. كان الليل يحتمي فيه فلم ترَ شيئًا، فاستهدت إلى السراج لا تفكّر بما تفعل، وأضاءته فانهزم الظلام إلى الزاوية. وحملت السراج بيدها تجول بين الحطام المبعثر، تقف فوق هذا الكرسيّ المحطّم، وذاك النول النخِر المتداعي، وتتأمّل في هذا الجرن المتربّع كالشيخ الهرم، وتنظر طويلًا إلى كومة القشّ والحدائد المكدّسة في ناحية، والخرق المطروحة في أخرى، لها أشكال غريبة وخيالات... ولمّا وصلت إلى المصطبة التي نام سامي عليها أسبوعًا في أوّل عهده بالاستخفاء في ساقية المسك اضطرب السراج في كفّها، فشدّت عليه فما ازداد إلّا ارتجافًا. وانحنت تطوف به فوق المصطبة ذهابًا وإيابًا مرّتين وثلاث مرّات. ثمّ نقلته إلى اليسار وبسطت يمناها فنفضت عن حافّة المصطبة غبارًا... ونسيت نفسها فوقع السراج وانطفأ، فتركته وجمدت مكانها في العتمة ما شاء لها الله. ثمّ خُيّل إليها أنّها تسمع كرّة دولاب وطرطقة نول. وما هي إلّا أن عاد المراح إلى عهده السابق، فأبو سعيد يهيّئ الصباغ في الجرن، وهي قاعدة على النول تضرب برجلها وتروح مع المكّوك وتجيء، وأبوها يلمّ أثواب الديما ويرصفها تلّة كبيرة ويربّت عليها، والنساء على الباب يغزلن الخيطان ويغنّين أغانيهنّ... ثمّ ماتت

الضجّة في أذنيها ، فإذا هي في المراح بين أشيائه العتيقة وأشلائه العفنة ، وقد نفذ الصباح إليه شاحبًا مكمدًّا ، فخرجت .

وانحدرت مع وجهها في الوادي إلى مغارة الخوريّة .

٥

بعد الظهر أقبل طام من صوب بحرصاف ودخل إلى الدكّان ينادي أمّه لاهثًا :

– أمّي ، أمّي ! راسم بك يريد زينه الآن .

– ماذا؟ راسم بك قال لك إنّه يريد زينه !

– الآن ! طلب أن أرافقها إليه الآن . أين هي ؟ (وركض إلى الداخل) زينه ! زينه !

– على مهلك ! أنظر هل جدّك هنا . لا تقل لها شيئًا بحضوره .

هذه نعمة من السماء ! وفركت ورده كفّيها سرورًا . الضابط يريد ... ها هو إذن يتوسّل بنفسه إلى التقريب بينه وبينها . وأيّ وسيلة خير من زينه التي لا يقع بصر أحد عليها إلّا جذبته سمرتها وفتنته عيناها . وقد جاء الأمر في وقته ، فليس في قلب زينه من الحبّ الذي كان يشغلها من قبل ويشمخ برأسها إلّا ذكرى لن تلبث حتّى يحلّ محلّها النسيان . ويثبّت اعتقاد ورده في ذلك خبرتها السابقة حينما كانت في أميركا ، والمعرفة التي تدّعيها تامّة بالنساء وبشؤون العشق والغرام . ثمّ إنّ زينه تتأبّى من معاشرة الجنود ، وهم في الغالب غلاظ فقراء ، أمّا راسم بك الحاكم بأمره في المنطقة والذي يتسابق كبراء القوم وسيّداتهم إلى ابتسامة منه فسيكون الشأن معه مختلفًا .

وعزمت ورده ألّا تتدخّل ... كم من مرّة قالت لزينه هذا أبيض ، فردّت بل أسود ! الحكمة إذن في البقاء على الحياد . وصدق حدسها ، فلم يلبث طام أن خرج مع أخته من ظهر البيت ، فأطلّت تنظر إليهما يسلكان طريق بحرصاف ، وقد شدّ الصغير بيد زينه يستعجلها ويقفز فرحًا .

* * *

استقبلها الضابط بعبوس لم تكن تنتظره . ولم يكن طام ينتظر كذلك أن يبقيه خارجًا ، كما فعل به حينما عمل الفلَق للجاويش كامل أفندي .

مشت إلى البهو وراءه ، ففتح باب غرفة ثمينة الرياش وأدخلها . فسألته ، كالمتجاهلة ، لماذا لا يكون أخوها معها هنا . فلم يجب ، ولم يبتسم ، ولم يدعُها إلى الجلوس ، وأدار ظهره فأوصد الباب ، ثمّ وقف إزاءها بقامته الطويلة وخفض إليها عينيه ، وقال :

– أريد أن تفهمي قبل كلّ شيء أنّني لا أتدخّل فيما بينك وبين سامي عاصم ، وأنت تعلمين أنّني لو شئت التدخّل لما وقف الأمر عندك ، بل لتجاوزه إلى عائلة كسّار من الكبير إلى الصغير . فقد كنتم تخبّئون عن عيون الدولة عاصيًا . فأنتم إذن مشتركون في الجريمة . ولكنّها شفاعة طام . فلولاها ...

فجعلت زينه تتساءل ما معنى هذه المقدّمة .

– متى رجعت من عالَيه؟

– منذ ثلاثة أيّام .

– الموقف دقيق جدًّا . يجب أن تشكري لي أنّني وجّهت إليك أخاك حين كان الواجب يقضي عليّ بأن أرسل جنديّين فيكبّلانك بالحديد . (فنظرت إليه) على أنّي كنت على يقين أنّك ستأتين ، وحسنًا فعلتِ . أُقعدي ، أُقعدي .

وقرّب إليها كرسيًّا . فقالت في نفسها : «ربّما كانت هذه طريقته تهديدًا فملاطفة» ، فقعدت .

– كم يومًا مكثت في عالَيه؟

– ليلة ونهارًا .

– هل تعرفين شفيق أفندي العلايلي؟

– لا ... أعني بلى . أعرفه ولا أعرفه . لماذا تسألني

هذا السؤال؟

– رئيس الحرّاس في السجن الذي كان فيه سامي.

هل تعرفينه؟

– رأيته مرّة واحدة لمّا ذهبت لزيارة سامي. وسمعت اسمه لأوّل مرّة من الناس في سوق عاليه.

– ألم ترَيه بعد ذلك؟

– لا.

– ألم ترَيه بعد أن هرب من السجن هو وسامي؟

– رأيته جثّة هامدة.

– وسامي؟

– كانت الجثّتان جنبًا إلى جنب.

– أيّ طريق سلكت في عودتك إلى ساقية المسك؟

– الطريق الذي ذهبت عليه.

– أين بتِّ ليلتك؟

– في بيت صاحبته امرأة عوراء.

– ألم ترَي سامي في بيروت؟

– ...

– يجب أن تقولي لي الحقيقة. (وقطّب حاجبيه).

– إذا كنت قد دعوتني إلى هنا لتسخر منّي ومن لوعتي على هذا الشكل...

– أمضى عليك زمان طويل لم تزوري مغارة الخوريّة؟

– ...

– إذا كان سامي عاصم وشفيق العلايلي قد نالا جزاءهما من الدولة لمحاولتهما الهرب من السجن فقُتلا كما رأيت جثّتيهما بعينيك، فإنّ ذلك لا يمنع الإجراآت القانونيّة أن تتمّ. هنالك أمر تعترفين به وهو أنّك كنت في عاليه ليلة هربهما.

– كنت نائمة، وعرفت الخبر في الصباح من الناس الذين تجمهروا في السوق. أتريد أن تقول إنّني ساعدته على الهرب؟

– الحقيقة أنك لو استطعت لما تردّدت. أليس كذلك؟

وبسط كفّه على كتفها، فحاولت أن ترفعها، فدنا حتّى شعرت بأنفاسه على وجهها.

– كنت تحبّينه كثيرًا؟

فابتعدت، فلحق بها.

– وهو، هل كان يحبّك أيضًا؟

– ...

– أتستحين منّي؟... وكيف يمكنه أن لا يحبّ هاتين العينين!

فأزاحت كفّه عنها وقصدت إلى الباب، فعاد إلى العبوس وقال:

– أنا أفتح لك. اُصبري، سأفتح لك. تذهبين الآن وتبقين في البيت، فقد أُضطرّ إلى دعوتك غدًا استكمالًا للتحقيق.

وخرجت، فطلع في وجهها خليل المعلّا! ولكنّه أدار ظهره عجلًا وسوّى نظّارتيه متظاهرًا بالتحديق إلى صورة في الحائط.

فلمّا توارت مشى إلى راسم بك وقال:

– سمعتُ الحديث كلّه.... أرأيت أنّ الحقّ معي؟ حاولت إقناع رشدي بك فلم يقتنع. سامي عاصم ليس مجنونًا. وإذا كان مجنونًا فما أظنّ شفيق العلايلي يجاريه. هل فهمت الفتاة شيئًا؟

– لا، لا. إنّ هيبة الدولة تتوقّف على هذا الأمر.

– هيبة الدولة، كم مرّة أنا أنقذتها!

– ثلاث مرّات، أليس كذلك؟

– بل أربع مرّات. هـْ هـْ... يا حسرتي عليك يا خليل المعلّا! يا حسرتي! يا حسرتي! هـْ هـْ! سيبكون عليّ كثيرًا أيضًا!

– وأنت تضحك مع رفيقك.

– الضاحك هي الدولة العليّة يا راسم بك.

فتنكّب الضابط عنه ثمّ قال:

– الحقيقة أنّ قلبي رقّ لها.

– هـْ هـْ!

– لماذا تضحك؟

– قلت لك سمعت الحديث كلّه. ستدعوها إلى هنا غدًا. هـْ هـْ.

وطلع على الشرفة وأشار بإصبعه:

– أُنظر، أُنظر، وقل أليست جميلة؟

كانت زينه تمشي مخفوضة الرأس، غارقة في تفكير عميق. فكرّر طام سؤاله للمرّة العاشرة:

– أختي، أختي، ماذا قال لك راسم بك؟ إذا كان قد ضربك فسأنتف له شاربيه غدًا. أقعد في حضنه وأتظاهر بأنّني سأفتلها له هكذا (وبرم بأصابعه) وأشدّ!

– لو كنت أكبر ممّا أنت يا طام!

– لماذا أكبر؟

– هل تحبّ سامي؟

– كنت أحبّه كثيرًا. هل قتلوه... أعني أنّه لن يقوم أبدًا؟

– أبدًا، يا طام.

– لو ذهبت حالًا، حالًا عندما رأيته في عالَيه ونشّقتِه شيئًا! ربّما كان مغمى عليه مثل جارنا الذي أخذوه إلى المقبرة على المحمل فقام في الطريق!

– أترافقني يا طام إذا أردت أن أروح إلى بعيد، إلى بعيد؟

– إلى أين؟ إلى إنطلياس؟

– سامي كان يقول لي... ولكنّك ما تزال ولدًا.

– ماذا كان يقول لك؟

– أنت لا تفهم هذه الأمور. غدًا تصير شابًّا.

– قولي لي، ماذا كان سامي يقول لك؟

– لا شيء، لا شيء... أنا مجنونة!

– سأقول لجدّي. جدّي يخبرني.

– وجدّك أيضًا ليته كان أصغر ممّا هو!

– جدّي كبير، وأنا صغير! تحيّرين أنت يا أختي، أعني تريدين واحدًا مثل سامي؟

– ...

– لن تجدي. الخواجه سامي ما له مثيل في الدنيا... أختي أختي، جاء جدّي!

وكانا على بضعة أمتار من البيت، فالتفتت فرأت الشيخ يدفع عصاه مسرعًا، فبادر إليه طام يلاقيه، فشال أبو سعيد بحاجبيه، فلمّا وقع بصره على زينه انحنى يبوس الأرض. ثمّ أخذ يلومها على طيشها وقلّة تفكيرها بالعواقب، وأراد أن يشفي غليله فصفق بالعصا على قفا حفيده وأنذره ألّا يطأ صوب بحرصاف بقدم أو يزور الضابط أبدًا!

ولمّا اختلى بها في غرفته أخبرته بما جرى لها، فأحكم الخطّة لإبعادها عن راسم بك إذا كان من غد ووجّه بطلبها.

٦

كان بيت كسّار بيت تقى وصلاة، لم يتجاوز الدنس الصالون الذي جعلته ورده دكّانًا، ولم تمدّ الرذيلة إصبعًا من أصابعها إلى فكر أو عاطفة عند أبو سعيد وزينه وطام. فلمّا طلع الصباح أرسل الشيخ حفيدته إلى المخبأ الذي اتّفقا عليه، ثمّ خرج بالبقرة مع طام إلى الحقل ليجمعا الأزهار للمسيح.

كان اليوم الجمعة الحزينة. وللجمعة الحزينة شأن في القرية يتعاقب كلّ سنة، لا يذكر أبو سعيد أنّه فاته منذ طفولته مرّة واحدة. كان ينطلق مع رفاقه وهو صغير، ومع أفراد عائلته لمّا كبر وتزوّج، حفاة في مباذلهم وثيابهم الرثّة، لا يتأنّقون ولا يتزيّنون إماتة لكبريائهم، تغرز الأشواك والحجارة في أقدامهم فيجدون لوخزها لذّة الإيمان وسعادة مشاركة المسيح بآلامه، ويوافيهم صبيان القرية وصباياها، ورجالها ونساؤها، يتسابقون جميعًا إلى الزهرة الجميلة ويباهون بعضهم بعضًا بالباقات المنوّرة الفوّاحة.

أمّا اليوم فإنّ أبو سعيد يمشي من الوادي المستوحش إلى الرابية القفراء وليس إلّا طام والصبحا، وهيكل

فرس عظميّ يلمع على الشمس... قد قعد همّ الرغيف بمن قعد في بيته ، ونفر بمن نفر إلى بيروت وزحلة وحوران ، وقتل الجوع البقيّة فما يجد الفادي العظيم من يُعدّ كفنه.

كان يصعد ويهبط ، ويتزحلق ويتسلّق ، فلا يقع إلّا على شقّيقة ملويّة هنا ، وبنفسجة مدعوسة هناك ، وريحانة مقصوصة عن جذور ما تزال جراحها سائلة. كأنّ الربيع ، خير الأرض ، ذهب مع سائر خيراتها ، ما عافه الجراد أو لم يقدر عليه أتى عليه الأتراك وبغالهم. إلّا الشوك والعوسج ، وبضع نباتات عاصيات ، ما لهنّ اسم ، اعتصمن بصخرة عاتية أو استخفين بدغل من الأدغال ، منتظرات يدًا تقيّة في يوم الجمعة الحزينة.

وقف الشيخ ، وليس في يده إلّا باقة هزيلة ، يسرّح نظره في العراء ويطوي نفسه إلى الماضي ، عهد الأرض في عرس. يضحك وجهها بالزهر من كلّ لون ، وتزقزق عصافيرها بأغاني الحياة. ويتماوج نسيمها متقلّبًا على بساط من سندس يلفّ الرابية ويمتدّ إلى السفح فالوادي ، غاسلًا طرفه بالساقية. حتّى الساقية جفّ ماؤها. وأسن ما تجمّع منه في البرك ، وفاحت رائحة النتن القاتلة من جثث الحيوانات ، تموت فيلقيها العسكر في الوادي. حتّى السماء تنكّر وجهها فاربدّ بعد صفائه ، ومشت فيها أشلاء غيوم وراء أشلاء. وسكون في الجوّ كسكون القبور لا يصفّق فيه أبو حنّ ، ولا يلوّنه حسّون بريشه. ليس إلّا قرد الهيش في العلّيقة القريبة الحاضنة الصخر ، عصفور صغير شائخ يتنقّل بين القضبان تحت قدمَي أبو سعيد ، تاركًا على كلّ قضيب شيئًا من زغبه ، يتطلّع إلى السماء من خلال شبكته ويخفض دونها منقاره.

ورفع الشيخ حاجبيه يتفقّد الصبحا فلم يجدها ، فنهض ونادى :

– طام !

فردّ الصبيّ وتعانقت أصداء الصوتين. ثمّ انطلق كلّ منهما في جهة وراء البقرة. وما زالا يسعيان حتّى لحاها في الكروم ، فلحقا بها فإذا هي في «النقبة». والنقبة اسم أطلقه أبو سعيد على كرمه منذ عشرين سنة حين نقب أرضه فجدّد شبابه ونصب قبابه ، حتّى صار أحسن كرم في المنطقة وذهب له صيت في الكروم.

هذا الكرم وحده يساوي مئة ليرة ذهبًا ، وإبراهيم بك فاخر يسترهن البيت والتوتات التي أمامه ، والكرم والحقل الذي في طرفه بمئة ليرة ورقًا ! ورطل الطحين بليرة قبل أسبوعين ، وبليرة ونصف اليوم ، وبليرتين أو ثلاث بعد شهر... وإذا طالت الحرب ، ومن يدري متى تضع أوزارها ، واستحقّ الرهن فلم يتمكّن من دفع المبلغ وفائدته الثلاثين بالمئة. فهل يكون معنى ذلك أنّه سينفض يده من الكرم والحقل والتوتات والبيت إلى الأبد؟

ومشى في الكرم. قد فعل به الأتراك ما فعلوه بالحقول. قصّوا أشجاره وسلّطوا بغالهم على عرائشه قضمًا ووطءًا ، وخرّبوا حافّاته التي رصفها بيديه حجرًا فحجرًا ، فتكوّمت الحجارة تلّة هنا ، وتبعثرت فرادى في موضع آخر... ولولا شفاعة طام لدى الضابط لشقّوا فيه الخنادق كما شقّوها في الكروم المجاورة خطًّا معوجًّا يمنطق القرية بسخرية الدفاع عن الوطن إذا هاجمه العدوّ ! وجعل يرفع حجرًا إلى محلّه ، ويُخرج وجه عريشة إلى النور ، ويهزّ برأسه حزينًا.

ثمّ استكفّ إلى الشمس ، ودعا حفيده أن يسوق الصبحا. فدار الصبيّ خلفها ، فأبت أن تنزع شفتيها عن الأرض ، فضربها ، فأصرّت ، فاستعان بجدّه فأقبل بعصاه وصفقها على ظهرها ، فرنّت الصفقة على عظامها رنّة خرساء ومالت برأسها إليه ، وعادت تجرّ لسانها على الأرض وقد ألحّ بها الجوع فما تجد عشبة. فأدركته لها رقّة فمسح بكفّه عليها ، قد نتأت في ظهرها وكتفيها وعجُزها رواب صغيرة ، وانخفضت ما بينها أودية عميقة ، وبرزت أضلاعها فالعين تأخذها عدًّا.

وقبل أن يصل أبو سعيد إلى البيت عرّج على أحد الدكاكين فاشترى رطل شعير ووضع منه مقدارًا

في معلف الصبحا وقال لها :

– تأكلين مثلما نأكل ، ويفرجها الله !

وحمل طام باقتَي الزهر وقصدا إلى سيّدة المعونات .

– متى يطلع المسيح إلى السماء ، يا جدّي ؟

– في اليوم الثالث. يتدحرج الصخر عن القبر فيقوم من بين الأموات كما جاء في الكتب.

فتألّقت عينا الصغير ابتهاجًا ، وسار بضع خطوات ثمّ قال :

– جدّي ، جدّي ! هل مات المسيح من الجوع ؟...

ولمّا وصلا إلى الكنيسة لثم الشيخ جدارها ودخل مشيرًا إلى حفيده أن يسبقه فيضع الباقتين على المذبح ، فمشى إلى المذبح ووقف يحدّق بغيرة إلى باقة كبيرة أخاذة الأشكال والألوان. ولكنّ الثلاث الأخريات أدخلن إلى قلبه العزاء ، فوضع ما في يده وانكفأ. فإذا في وسط الكنيسة رجل قد أكبّ يصكّ جبهته بالبلاط ثمّ يرفع عينيه وذراعيه إلى العلاء ضارعًا بصوت عالٍ ، ثمّ يقرع صدره قرعًا شديدًا ليعود إلى عضّ الأرض ! فأقبل طام وئيدًا حتّى ركع بجانب جدّه وعيناه لا تفارقان الرجل. ثمّ جأر المصلّي «يا ربّ !» فلم يستطع طام حبس ضحكته ، فحدّجه أبو سعيد مؤنّبًا ، فعاد إلى الوقار.

ولمّا استكمل الشيخ صلاته قام ولحق به حفيده ، فلم يصيرا إلى الباب حتّى سأله :

– جدّي ، هل رأيت الباقة الكبيرة ؟ لمن هذه ؟

– للّذي كان يصلّي وضحكت منه.

– ومن هو ؟

– إبراهيم بك فاخر.

٧

رجع أبو سعيد توًّا إلى المراح. وشدّ ما كانت دهشته إذ نظر فلم يجد البقرة فيه ، ووجد معلفها مقلوبًا وراويتها محطّمة ، فطار صوابه فخرج يدور حول البيت فإلى الدكّان :

– الصبحا ، أين الصبحا ؟

فضحكت ورده ضحكة استهزاء وسألته بدورها :

– أين زينه ؟

ثمّ أخبرته أنّ راسم بك وجّه جنديّين بطلب زينه ، فأجابته أنّها لا تعلم أين هي وأنّ جدّها ذهب بها. فانصرفا ثمّ عادا ومعهما الضابط ففتّشوا في البيت ونزلوا إلى المراح وساقوا البقرة وقال الضابط : «تبقى عندي رهينة إلى أن تأتوني بزينه !»

كان الشيخ لا يستطيع أن يتصوّر دنياه خالية من الصبحا ، فهي الذكرى الباقية من ماضيه ، يتوكّأ عليها ويجرجر أيّامه العاجزة ناشقًا من أنفاسها رائحة شبابه وعزّه. فلمّا سمع من كنّته ما سمع نكّس رأسه ونزل إلى المراح فوقف إزاء أشياء البقرة كاسف البال ، يفكّر بالضابط أين يضعها عنده وماذا يطعمها ، وهل يُبقي عليها أو يذبحها. وكان يعلم أن هذه ليست بالمرّة الأولى يلجأ فيها راسم بك إلى مصادرة حيوانات الناس. سبق له أن استولى على كديش ابن عمّه طانيوس كسّار ، وبغل جاره ، وثلاثة حمير لبعض المكارين ، باسم التكاليف الحربيّة. فتشرّد المكارون بعد حميرهم ومات صاحب البغل جوعًا. أمّا طانيوس فعرف سبيله إلى الانتقام. وها هو ، منذ أن سُلب كديشه ، يغزو مستودعات العسكر بالتواطؤ مع كبارهم ، فيسلّمون إليه تحت جنح الظلام أكياس الشعير بالعشرات ، فيقضي الجوع كلّ أسبوع على أربعة أو خمسة من خيل الدولة مقابل ذلك الكديش العاجز.

وكان أبو سعيد قد خبّأ حفيدته عند طانيوس لبعد بيته ولبأسه ودهائه وكثرة مداخله ومخارجه. فعزم على الذهاب إليه لإطلاعه على ما جرى ، لعلّ له رأيًا.

* * *

وذاع خبر الحادث ، فلهج الناس به يتساءلون أيترك

أبو سعيد بقرته أم يفديها بزينه؟ ورآه بعضهم في اليوم التالي يدور حول منزل الضابط ويقف قبالة الصبحا على باب القبو، فقالوا: البقرة أحبّ إليه! وانتظروا أن يسلّم زينه. ولكنّ اليوم الثالث انقضى والصبحا ما تزال معتقلة، فقال قائلهم: سيزوّج زينه من ابن عمّه طانيوس فيكفّ الضابط عنها ويفلت البقرة. وقال آخرون: بل تتولّى ورده تسوية المشكل فترضي راسم بك بما تملك من أساليبها!... إلى غير ذلك من حلول كانت تصل إلى أذنَي الشيخ فيقاسي من أجلها عذابًا كبيرًا.

وطال الحبس على الصبحا فرأى أبو سعيد أن يقوم بمسعى، فوجّه طام إلى الضابط يزعم له أنّ زينه هربت من ساقية المسك وأنّ جدّه بذل فوق الطاقة لمعرفة مقرّها فلم يوفّق، وأنّ البقرة لا يرعاها أحد فهو يخشى عليها الموت، و«حرام أن تموت بقرة مثلها»، فليؤذن له على الأقلّ أن يقوم على العناية بها، ولراسم بك لبنها كلّه في الصباح وفي المساء.

على أنّ المسعى أسفر عن نتيجة معكوسة. فقد رجع طام باكيًا بين جنود ثلاثة هجموا على أبو سعيد وأمروه بأن يحمل معولًا ورفشًا من عنده، وصاحوا به:

– اِمشِ أمامنا إلى كرمك!

فلمّا وصلوا إلى الكرم التفت فإذا جنود كثيرون يشقّون فيه خندقًا. وتسلّمه جاويش يرئسهم فأجبره على المساهمة في العمل تحت وابل من التهديد والشتم والضرب.

وكان الضابط يأتي إلى الكرم مرّة أو مرّتين في اليوم فيسأل الشيخ عن زينه، فيصرّ على الإنكار، فيبصق في وجهه ويأمر الجاويش بجلده على مرأى منه. واستمرّ ذلك أسبوعًا وأبو سعيد يتحمّل عذابه راضيًا، وحسبه أن ألقم الثرثارين حجرًا وبقيت حفيدته في منجى.

على أنّه فوجئ ظهر يوم، وهو يتناول غداءه في البيت، بجنديّين يسوقان الصبحا إليه فهبّ مبهوتًا يسألها، فتبادلا ابتسامة وقفلا. فترك الطعام وأسرع إلى بيت ابن عمّه، فاستقبله طانيوس على الباب كأنّه كان ينتظر قدومه وقال له:

– زينه عند راسم بك!

٨

كان فرح الضابط لا حدّ له.

زعمت له أنّ جدّها هو الذي أوفدها، لا طمعًا بالبقرة فهي هديّة منه إليه، بل تشرّفًا بالقائد الكبير والحاكم الخطير. وكانت تتكلّم خافضة رأسها وفي صوتها ارتجاف. ولم يكن ذلك إلّا ليزيدها إغراء ويزيد راسم بك تشوّقًا إلى التمتّع بمحاسنها المصونة، فاندفع ينثر الوعود الطيّبة، ويبسط حبّه في عبارات مختارة، ويكشف بين هذا وذاك عن محبّبات طبعه، حتّى وقع في ذهنه أنّها استأنست به، فرفعت وجهها إليه وابتسمت ابتسامة الاطمئنان، فكاد يطير فرحًا، وقام من فوره يريد أن يقفل الأبواب ويطرد الحجّاب، ولكنّها استمهلته إلى الليل وأرسلت إليه غمزة! فوثب لعناقها، فردّته بدلال. ومضت في البيت ترتيبًا للأثاث ونفضًا للغبار، تضاحكه فيعابث، ويطاردها فتداور، حتّى أرخى الظلام سدوله.

قالت:

– لا يخدمك في البيت سواي.

– ليس عندي إلّا جنديّان: الطبّاخ والحاجب. وقد صرفت الحاجب، فهل أصرف...

– لا أريد أن يزعجنا مخلوق.

– ومن يصبّ لنا كأس العرق ويهيّئ العشاء؟

– قلت لك أنا أخدمك. ألا تحبّ أن أخدمك بنفسي؟

فقام وعمل بما شاءت. ورجع حاملًا طبقًا عليه زجاجة وأقداح وفاكهة، فانتصبت وأخذته منه فحطّته على المائدة، فحمله من جديد وأشار إليها أن تتبعه،

حتّى وصل إلى غرفة نومه فألقاه على السرير ضاحكًا وقال :

– هنا !

وجلس ، وضرب بيده ليُجلسها على حضنه فمانعت ، ثمّ وقعت عليه وقعة واحدة فطوّقها بذراعه فأفلتت منه وتناولت قنّينة العرق :

– لعن الله خالتي ، عوّدتني الشراب !

– أتلعنينها من أجل ذلك؟ الشراب حياة الإنسان. أنا إن لم أشرب في اليوم الواحد زجاجتين مثل هذه فليس اليوم من عمري. ألك هذا القدح أم لي؟

– لي أنا.

ورفعته مشمئزّة :

– أفّ لهذا الجنديّ الذي يخدمك ! لا يغسل الأقداح.

وقامت بقدحها ، ثمّ حملت القدح الآخر وقالت :

– أتعلم بماذا يُغسل القدح؟

– ...

– بما وُسّخ به !

– العرق؟ (وضحك).

فضحكت ، وتناولت الزجاجة أيضًا وذهبت إلى المطبخ فحاول أن يلحق بها.

– لا تزعج نفسك. أما قلت لك أنا الخادمة هنا؟

– بل سيّدة البيت.

– إذن تبقى !

فكتّف يديه ومدّ بفمه إلى ابتسامتها حتّى اختفت وراء الباب.

ومضت دقيقة فنفد صبره فهتف :

– أأقوم وأساعدك؟

– لا. لا !

– إنّك تضيّعين هذا الوقت الثمين.

– سترى أنّني لم أضيّعه.

وجاءت تحمل بيسراها كأسًا وباليمنى الكأس الثانية والزجاجة. فنهض يلاقيها ، فأدنت يمناها فتناول منها الزجاجة والكأس وقعد مكانه وجذبها إليه. فقالت :

– نشرب أوّلًا.

وقرعت قدحها بقدحه. فلم ينتزعه عن شفتيه إلّا فارغًا.

– ما لك لم تشربي؟

فانتفضت ثمّ ضحكت :

– كنت أحبّ أن نتناوب الشرب من القدحين ، فمن هنا مصّة ومن هنا مصّة.

– هاتي إذن.

وشرب من قدحها فشربت بعده ، فشرب أيضًا. ثمّ أرسل ساعده فلفّها به وألقاها على صدره ، فاستسلمت لقبلته في سعادة من غير هذه الدنيا.

– صبّي لي. العرق من يدك أطيب.

فصبّت ، فقال :

– كانوا يقولون لي إنّ بنت كسّار عظيمة فلا أصدّق.

– مَن قال لك؟ طام؟

– لا. طام لا يفهم بهذه الأشياء ولا يهمّه إلّا الزبيب والجوز.

– خليل المعلاّ؟

– ولكنّه قال لي أيضًا إنّك تحبّين ، أو كنت تحبّين... رحمه الله الآن ! رحمه الله ، أليس كذلك؟ (وأفرغ كأسه) صبّي ، صبّي ! أحسّ بحلقي ناشفًا لا ترطّبه إلّا الكأس العاشرة.

– الواقع أنّ هذا العرق حادّ. أنا أيضًا أحسّ بشيء في حلقي.

– بل هذا أحسن عرق ! أثّر فيك كلامي. أريد أن تشربي. إشربي ! إشربي ! كان عليّ أن لا أفتح حديث سامي ، المرحوم سامي ! أما تزالين غضبانة عليّ من أجل الأسئلة التي طرحتها عليك يومذاك؟ صدّقيني ، كنت مضطرًّا بحكم القانون... القانون لا يراعي أحدًا.

– أنا أفهم موقفك جيّدًا. والحقّ أنّك كنت لطيفًا.

– تصوّري، تصوّري يا زينه. أنا ضابط في جيش الدولة أشرب الخمر مع حبيبة ثائر على الدولة! صحيح أنّ هذا الثائر قد لقي جزاءه كما رأيت بعينيك... ولكن ما لنا ولهذا.

وقذف كأسه إلى جوفه ثمّ قال:

– أين كنّا من الحديث؟ آه! لماذا انقطع طام عنّي؟ لولا طام... لولا طام... ألا يزال العسكر يسكرون ويقامرون في الدكّان؟ خالتك تعتقد أنّني أجهل كلّ شيء... وأبو زيد؟ كيف حال أبو زيد بعد الديوان العرفيّ؟... أُف! ما هذا العرق؟ إنّ صدري يشتعل.

– لا تشرب من هذه القنّينة. أخاف أن يكون فيها شيء. أما عندك غيرها؟

– بلى. في خزانة المطبخ. وهذا مفتاحها.

وقام يتهادى فأمسكته.

– أتركيني. أتركيني! أنا لا أسكر من العرق! (فاضطربت من أمّ رأسها إلى أخمص قدميها) أنا لا أسكر من العرق! أبدًا! أبدًا أنا لا أسكر.

ولكنّه لمّا دفع بالمفتاح أبعده عن ثقبه شبرًا. فتناولته وفتحت. فأدخل يديه الاثنتين فترامت القناني والأقداح بعضها على بعض بقرقعة عظيمة. ثمّ مال فإذا عيناه تجحظان، فكادت رباطة جأشها أن تخونها. فإذا به يقهقه عاليًا. ثم انحنى إلى زجاجة وهتف:

– هذه!

وأهوى بكفّه على أختها! ورفعها إلى فمه، فقالت:

– هاتِ، أنزع لك السدّة.

فلم يفعل، وشدّ عليها بأسنانه فنزعها. وظلّت القنّينة تقرقر فوق شدقيه حتّى أنصفت، فتلمّظ هاتفًا:

– ها! هذا هو العرق الزحليّ الطيّب.

وعاد فاستلقى على السرير:

– لو نفتح شبّاكًا. أحسّ بحرّ شديد.

فتهيّأت للنهوض، فأردف:

– اِبقي هنا. بل أفكّ طوقي. يجب أن أفكّه.

وطفق يصاول طوقه فما تستقرّ أصابعه على زرّ، فدنت تعاونه فضمّها إليه، فقالت:

– تفكّ طوقك قبل كلّ شيء.

– وسترتي هذه، اخلعيها عنّي.

– وسترتك أيضًا!

– وطاقتي، وكلّ ما عليّ... كلّ ما عليّ!

– هوه، هوه! أخاف من هذا.

فثنى عنقه وقال:

– الـ.. مسدّ... س. ! اِحذري! إنّه محشوّ!

فتناولته في سيره الجلديّ اللمّاع، ثمّ نزعته من غلافه برفق، فسرَت من حديده البارد إلى أصابعها رعشة هائلة. ونظرت إلى راسم بك وقد أغمض عينيه وفغر فاه... وخُيّل إليها أنّه يتحرّك صوبها، فهمّت! فإذا به يردّ اللحاف عليه فلم تعد تسمع إلّا خنينه وخفقات قلبها. فعزمت ألّا تتحرّك حتّى تأتي ساعته.

– أين أنت؟ تعالَي.

فوضعت المسدّس على المكتب وخطت إليه مسحورة، واتّكأت على حافّة السرير، فشدّها إليه، فأحسّت بحرارة فراشه نارًا تدخل إليها حتّى الصميم وتطلع شعلاتها إلى وجهها فتحرقه.

– ها ها! لو كنت سكران لأخبرتك أشياء عن سامي عاصم. ولكنّي لست سكران. انتهى كلّ شيء. لقد استرحت. استرحت. ألا ترين أنّني استرحت؟ ولو كنت سكران لأخبرتك أشياء عن خليل المعلّا تُضحك... تُضحك! مات خليل المعلّا – يا حسرتي عليك يا خليل المعلّا! – أربع مرّات! ولكن لا أستطيع أن أخبرك عن خليل المعلّا وحده لأنّ خليل المعلّا... ها ها ها! لست سكران... لماذا تعودين إلى حديث سامي عاصم؟ قلت لك دعينا منه. سامي

عاصم خائن الدولة! خائن! خائن! خائن!... في الواقع أنّني أحسّ بشيء. عطشان! عطشان! أريد أن أشرب. تعالَي. قرّبي هذا الوجه... لن يبرّد عطشي إلّا قبلة من هنا، من هنا!... آه... آه... آه! قومي، أعطيني الإبريق... الإبريق! إنّ أمعائي تتمزّق!

فانسلّت من السرير ووقفت تدور بيدها خلف ظهرها وتتلمّس بها على المكتب. ثمّ برقت عيناها وحدّثتها نفسها للمرّة الثانية أن تضع حدًّا لهذه الأزمة التي لا تنتهي. ولكنّها لم تفعل وهرولت إلى المطبخ، وجمدت وراء بابه تنصت حابسة أنفاسها.

– الإبريق... الإبريق!

فلم تتحرّك. وعقب ذلك صمت طويل. فلم تشكّ أنّ الساعة دنت. وأخذ يدغدغها سرور أشبه شيء بالنشوة. وأطلّت برأسها على عارضة الباب، فإذا به يزحف نازلًا عن السرير، يقبض بطنه بكفّ ويبسط الأخرى إلى سترته المعلّقة على الكرسيّ، وقد توثّبت على وجهه تهاويل من عذابه زرقاء، حمراء، سوداء، وكشّر عن أسنانه. فلم يبقَ لها أن تتردّد فتناولت الإبريق ومشت إليه. فحاول أن يسند مرفقه إلى حديد السرير، فسقط على الحضيض، فابتعدت.

– قرّبي! قرّبي الإبريق!

فقدّمت الإبريق، فاختلجت أصابعه إليها. ثمّ جعلت عيناه تكبران، وهي تقدّم الإبريق شيئًا فشيئًا، حتّى إذا استشعر أنّها على متناوله وثب هادرًا:

– سمّ! سمّ! سأقتلكِ!

ولكنّه قبل أن يتمكّن من شمالها كانت يمينها قد أطلقت الرصاصة الأولى فالثانية، فانطوى على قدميه، فتراجعت تنظر إلى الدم يدفق من جبهته وصدغه نبعتين فوّارتين.

وتقلّصت ساقه العارية المكسوّة بالشعر.

ثمّ انبسطت على البلاط البارد وهدأت...

* * *

في ساعة متأخّرة من الليل قُرع الباب المطلّ على السطيحة من بيت كسّار قرعًا متداركًا فقام أبو سعيد وفتحه، ولم يكد حتّى اقتحمه شخص بلباس عسكريّ، فظنّه الجاويش فهتف به:

– كامل أفندي! ما يجيء بك في هذه الساعة من الليل؟

– أنا زينه! زينه!

فتفرّس بها:

– زينه! ولماذا تلبسين هذا الثوب؟

– سأخبرك فيما بعد.

ثمّ أردفت:

– يجب أن تخرج معي في هذه الدقيقة، وربّما لن نعود أبدًا! اِحمل المال فقط واترك كلّ شيء.

– ماذا عملتِ يا زينه؟

– سأخبرك عندما نبتعد من هنا. كنت أريد أن أكتفي بالسمّ، أمّا وقد اضطُررت إلى الرصاص فلم أرَ بدًّا من أن أمرّ بك. أخاف أن يأخذوك بي.

– زينه! زينه!

– عجّل! عجّل!

– وطام؟ ماذا نفعل بأخيك طام؟

– طام صغير... وخالتي تتدبّر أمرها. أين طام؟

فأخبرها أنّ الصبيّ ترك أمّه ونام معه لأنّها ضربته لرغيف أخذه من الدكّان دون علمها، فاشترى له كعكة. فأضاءت المصباح، ومشت إلى الزاوية تتأمّل في أخيها. كان شابكًا يديه على الكعكة وقد أدناها إلى فمه وعضّ طرفها بأسنانه. وكانت خصلة من شعره الأسود مسبلة على جبينه، فانحنت تردّها بأطراف أصابعها وتتمتم:

– لن آخذك معي يا طام.

وعادت تتأمّل فيه، ثمّ:

– هو ما قلت لي يا طام: أنت صغير وجدّك كبير.

ومسحت بشفتيها موضع الخصلة من جبينه.

٩

طلع الصباح...

واكتظّ العسكر في منزل الضابط، ومشى الخبر من بحرصاف إلى ساقية المسك إلى بكفيّا والمحيدثة أنّ راسم بك مقتول في غرفته.

ودهم الجنود البيوت وجاء الفريق الأكبر منهم إلى بيت كسّار بصحبة طاهي الضحيّة، ففتّشوا وبعثروا وحطّموا وداسوا ونهبوا. كلّ ذلك على مشهد من ورده ومسمع، تحاول أن تردعهم عن الدكّان وترتمي على أقدامهم متوسّلة حينًا وتنبش شعرها مولولة حينًا آخر. حتّى ضاق بها أحدهم ذرعًا فضربها بعقب بندقيّته على يافوخها فوقعت مغمى عليها، فانحنى يصفعها ففتحت عينيها وقامت متهادية، فأعاد عليها الكرّة لكمًا على ظهرها. وسحبوها وطام إلى الثكنة.

بدأ هذا الحادث عهدًا جديدًا في حياة طام لم يكن يتوقّع من عرائبه شيئًا، ولم تكن نفسه البريئة قد تهيّأت بعد لتحمّل فظائعه وموبقاته. فكأنّ الأيّام التي تتدرّج بالناس في دنياهم تدرّجًا، فتقطع بهم أنجادها وأوديتها على مراحل محسوبة، شاءت أن تشذّ به عن القاعدة فتناولته كما يمسك الراعي حصاة بمقلاعه. وقذفته من علٍ قذفة هائلة، فلم يرَ نفسه إلّا وسط المعركة لا سلاح لديه من قوّة أو خبرة، ولا تمتدّ إليه يد بمعونة.

وصلوا به وأمّه إلى الثكنة فاجتمع عليهما العسكر، ووقع نظره على كامل أفندي فصرخ إليه. فتنحّى الجاويش وابتعد. واستمرّا يمشيان محثوثين بالشتم والضرب، إلى أن وقفوا بهما على عتبة غرفة فيها ضابط لم يرَ طام له وجهًا من قبل. وتقدّم الضابط فكلّم الجنود بالتركيّة فأدخلوا ورده إليه، وساقوا ابنها إلى حجرة مجاورة وأغلقوا عليه الباب.

كانت الحجرة خالية ليس فيها إلّا حقائب محطّمة وأكياس فارغة مع بعض أحذية ضخمة عتيقة. وكان أكثر ما أقلقه إبعاده وإفراده، فالتصق بالباب يقرعه وينتحب عاليًا، فانفرج ودخل جنديّ وصفعه بلا شفقة، وخرج.

ومضت دقائق طويلة يختنق فيها الصبيّ عذابه ويترك دموعه تنهمر على خدّيه صامتة هادئة. ثمّ إذا خبْط على الباب، وما هي حتّى اقتحمه جنديّان يدفعان ورده من ظهرها فوقعت على الأرض. فحاول أن ينحني إليها، فاجتذباه وساقاه إلى الضابط، فوقف بين يديه يرتعد كالقصبة في الريح ولا يتجاسر على رفع بصره.

أخذه الضابط باللين أوّلًا ثمّ بالشدّة، فلم يستطع أن ينيره بشيء. فأمر بإخراجه، فوضعوه في حجرة خاصّة قضى فيها ليلته فريسة الخوف والألم. وفي الصباح جرّوه إلى الضابط مرّة أخرى فصفّ أمامه قطعًا من الحلوى، فلم يمدّ إليها يدًا على شدّة جوعه وذوبان قلبه على واحدة. فأوّلَ امتناعه بأنّ لديه سرًّا يخفيه، فألحّ عليه، فلم يأكل. فتناول عصًا وانهال بها على ساقيه حتّى كاد يهلكه.

ولكنّ أتعاب الضابط ذهبت سدى ولم ينتزع من الصبيّ إلّا صراخًا واسترحامًا ودموعًا. فأمسك عنه. وجاء الجنود فأخذوه عند أمّه. وشدّ ما كانت دهشته إذ رآها تستقبله بالضحك منبوشة الشعر زائغة البصر، فارتمى يلتمس في حضنها العزاء عمّا أصابه. فقذفته وقامت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وتخاطب نفسها بكلمات غير مفهومة، وهو يلحق بها ويتمسّك بأذيالها فتهرب منه وتعود إلى القهقهة.

في اليوم الثالث قرنوا شمالها إلى يمينه بحبل. ووضعوهما في طنبر من طنابر العسكر وساروا بهما في طريق لم يمرّ عليه طام في حياته. وكانت ورده تغفو تارة ثمّ تنتبه فتشدّ بالقيد محاولة الإفلات فيهوي عليها الجنود فتهدأ... وظلّ الطنبر يكرّ بهما نزولًا حتّى أظلم الليل. وقد برّح العطش بطام فطلب من الجنود أن يسقوه من القربة الكبيرة التي معهم فلم يردّوا عليه. ثمّ اجتمع عليه الجوع والبرد فاحتمى بصدر أمّه النائمة يرتعش وتصطكّ

أسنانه ، والطنبر يهبط في الأخاديد ويعلو على تلك الطريق المخرّبة برجرجة تخلع قلبه وتقضّ عظامه ، حتّى خُيّل إليه أنّه في رحلة لا نهاية لها.

* * *

وزُجّ طام وورده في السجن.

وتكرّرت رواية التحقيق بفصليها لطفًا وشدّة.

على أنّ أفظع ما آلم الصغير أنّه أصبح ابن مجنونة! وتطوّر جنونها فلم تعد تضحك ولم تعد تتمتم. بل تلتزم الصمت وتنتبذ ركنًا تقعد فيه مسدّدة إلى الأرض عينين فارغتين. وتأتيها النوبة بين ساعة وساعة ، فترفع إزارها إلى وجهها وتزغرد بأعلى صوتها :

– لللللللي !

تقوم الزقّة في الصباح ، وعند الظهر ، وفي المساء ، وفي منتصف الليل أحيانًا. فيجتمع عليها السجناء هازئين ، ويتحرّش بها خبثاؤهم وتقوم المشاجرات بينهم وبينها فيتدخّل طام ، ويتدخّل حارس السجن ، ويتكرّر الشأن كذلك حتّى يغلبها النوم.

وكان في القاووش نحو من عشرين سجينًا يختنق الجوّ بأنفاسهم وروائحهم ، وتحفل أرضه بأقذارهم ، فهي لزجة عفنة أشبه بزريبة الخنازير. إذا كان النهار تمنّى الصبيّ الليل تخلّصًا من مأساة أمّه ، وإذا كان الليل تمنّى النهار تخلّصًا من البقّ والقمل والبراغيث.

وكان بين السجناء رجل شرس يهابونه ، يقال له كركور. وكان يتولّى تنظيمهم وقيادة الحملات على المجنونة. يرتّبهم صفًّا ويشير عليهم بالسكوت ، ثمّ يختلس الخطو من ورائها فيفاجئها بقبلة ، فتهبّ غاضبة مرسلة من الشتائم أقذعها ، لاحقة به من الحيط إلى الحيط ، والسجناء يحرّضونها ويضحكون ، حتّى يمدّ لها أحدهم قدمه فتعضّ الأرض. وقد يدخل السجّان مهدّدًا فلا يقع بصرها عليه حتّى ترفع إزارها :

– لللللللللي !

فما يتمالك من الابتسام ، وترتجّ أرجاء القاووش بالقهقهات.

واستفاق طام ذات ليلة فرأى رجلًا يدبّ إلى أمّه ، فحدّد نظره فإذا هو كركور. فلم يأتِ بحركة وحبس أنفاسه... فألفاه ينزع ثوبها برفق ، ثمّ ينقضّ على وجهها لثمًا. فانتفضت زاعقة ، وهجم الصغير على الأثيم يصدّه ، وانتبه السجناء من نومهم مذعورين وكثر اللغط ، فأقبل الحارس بقنديله ، فانطرحوا متناومين. فالتفت فإذا طام في الزاوية يتفجّر لكمًا ورفسًا على كركور وقد انبطح يشخر عاليًا. وكانت لا تفوت السجّان شاردة ولا واردة من حيل كركور فتقدّم منه ودقّ رأسه بالأرض ، ثمّ أخذ بيد طام وخرج به إلى الرواق يسأله عن الحادث فيتلعثم مستحييًا ، حانقًا ، مسرورًا أن وجد مخلوقًا يعطف على والدته ويدافع عنه.

ولم يكتفِ السجّان بحسن الإصغاء والوعد بتأديب كركور حتّى ربّت على كفل الولد وقبّله.

وفي الليلة التالية أخرجه ولاطفه أيضًا ، ثمّ شرع يشدّه وينفخ على خدّه. وما زال حتّى فهم طام ما يُراد به فأفلت يركض في الرواق مستغيثًا ، فأفاق بعض الجنود. فزعم لهم زميلهم أنّ هذا الشرّير قد حاول الفرار. فتعاونوا على القبض عليه ، ثمّ قذفوه إلى القاووش بعد أن أدّبوه بقسوة.

١٠

قضت ورده وابنها أربعين يومًا في السجن. ورأى القائمون على الأمر أن يتخلّصوا منهما فأطلقوا سراحهما. فراحا يخبطان في الأرض ، يذرعها هو بالدموع وتواكبه هي بالزغردة... يبيتان في العراء هنا ، ويقعد بهما الجوع هناك ، ويرميهما التعب على حافّات الطرق ، ثمّ يقومان فيسحبها بيده مستهديًا ، مستعطيًا ، حتّى انتهيا إلى ساقية المسك.

أمّا ورده فلم ترَ شيئًا.

وأمّا طام فوقف حيال البيت مبهوتًا ، ينظر إليه

وينكره. فقد نزع النازعون أبوابه ونوافذه، والقرميد عن السقف مع أخشابه، وتكدّست الحجارة والأوساخ، وحُفرت الأرض عن البلاط... وليس أثر للفُرش واللُّحف والمقاعد والخوابي.

ودار إلى ظهر البيت فرأى التوتات قُصّت من أعقابها وأقفرت الساحة، وطار باب المراح وكلّ ما كان في المراح من المحراث إلى المعاول إلى المناجل إلى المعلف. ولم يبقَ من آثار الصبحا إلّا رمّة حبل تتدلّى من حلقتها في الحيط.

– لللللللي!

فوثب يسترها عن العيون بجسمه الصغير وشدّ بإزارها سدلًا، فما ترخيه إلّا أن تأخذ الزغردة مداها وتحطّ على قرارها. وكان الجيران قد اجتمعوا عليها، يحاولون أن يكلّموها ثمّ يبتعدون على الأثر. منهم من شمت، ومنهم من تحنّن. صفّان عن اليمين والشمال يتهامسون، ويقلبون الشفاه، ويشيرون بالأصابع. فأخذ طام يجيل فيهم عينيه ويسأل هذا وذاك وتلك، وهم ينظرون إليه في شعره الطويل المنفّش، وقميصه المشقوق عن فخذه الهزيلة. ثمّ وقف في الساحة وصرخ بأعلى صوته:

– جدّي! جدّي! أين أنت يا جدّي؟

ووقع يبكي. فأخذ الفضوليّون ينسحبون جماعات وأفرادًا، ولم يتخلّف إلّا بعض النسوة يُحطن بورده ويحثثنها على رفع إزارها ويمسكن الخواصر من الضحك.

ولكنّ الشفقة مسّت قلب إحداهنّ فدنت من طام فرفعته عن الأرض وأخذته إلى بيتها وأطعمته. وخافت من المجنونة فلم تدَعها تدخل ووضعت لها صحنها على العتبة.

وعلم طام من الجارة أنّ ما عافه الجنود في الدكّان والبيت، بعد اعتقاله وأمّه، قد سرقه السارقون ليلة بعد ليلة، وأنّ خبر السرقات اتّصل بإبراهيم بك فاخر فأرسل من قِبله مَن أخذ الأبواب والنوافذ والبلاط قبل أن يأتي عليها اللصوص، وأنّ أبو سعيد وزينه لم يعودا إلى القرية ولم يعرف أحد مصيرهما ولا سمع عنهما شيئًا. ولكنّ طانيوس كسّار الذي اختفى معهما جاء مرّتين وسألها عن ورده وابنها. فأجابته أنّها تجهل أهما في السجن أم خرجا منه. فأكّد لها في المرّة الثانية أنّهما ماتا، وهزّ كتفيه وتوارى.

– ألم يقل لك شيئًا عن جدّي؟

– لا.

– ولا عن زينه؟

– طانيوس يحبّ أختك منذ زمان. وأظنّ أنّهما تزوّجا وذهبا إلى زحله.

– زحله؟

وتأهّب للقيام، فقالت:

– يقول آخرون بل هما في بيروت. الحقيقة أنّني لا أعلم، ولا أحد في الدنيا يعلم. اُقعد وأكمل صحنك قبل أن يأتي أحد.

ثمّ مضت تواسيه، ووعدته بإعطائه شيئًا كلّ يوم. على أنّها حذّرته: «لا تأتِ بحضور زوجي أبدًا». وانتهزت فرصة غيابه في تلك الساعة فحملت فراشًا ولحافًا عتيقين وأعطت طام مخدّة، وسارا وورده خلفهما إلى البيت المخرّب، فلم يكن إلّا المراح يُستطاع فيه النوم تحت سقف واحد، فسوّت الجارة موضعًا للفراش على الدكّة التي كانت معلفًا للصبحا، ونصحت الصبيّ أن يذهب من غد عند إبراهيم بك فاخر، فلا بدّ أن يعطف الغنيّ عليه.

١١

ذهب الجنون بعقل ورده وعوّضها منه فطرة عجيبة. كانت ترى أنّ الرزق لا يأتي إلّا على يد ابنها فشرعت تلحق به كأنّها مربوطة إليه برسن. لا تكلّمه، ولا تنظر إليه، ولا ترى أحدًا من الناس ولا من الأشياء

حواليها. تلتزم السير خلفه فإذا وقف وقفت، وتميل معه إذا مال، يمينًا وشمالًا كما يشاء، وادعة مطمئنّة، لا تأمر ولا تتوسّل، ولا تؤذي أحدًا ما لم يتعرّض لها.

كانت الجارة قد لقّنت طام ما ينبغي له أن يقوله للبك. فلمّا بزغ الفجر مضى في طريق بكفيّا، وأمّه تتأثّره، يجتمع عليها الناس فيشير إليهم أن يسكتوا كلّما صوّتت وهمّوا بالضحك.... حتّى وصل إلى الضاحية حيث يقيم الغنيّ.

وقف دون قصر فخم، له حديقة ملتفّة الأشجار تتعرّش على سورها ضروب من النبات والزهر بمئة لون واسم. كان يعتقد، لسذاجته، أنّه قادر على مواجهة البك من فوره، وأنّه عائد منه بالبشالك، حتّى لقد سبقها همّ التصرّف بها ووضع الخطط لإنفاق ما ينبغي إنفاقه والحبس على ما يجب حبسه. فإذا بالبستانيّ يلمحه ووالدته في أسمالها وقذارتها فرفع معوله مهدّدًا وطردهما عن البوّابة. فأجفل الصبيّ وقال:

– جدّي رهن بيتنا عند البك بمئة ليرة ورقًا. بارك الله له به! ولكنّي جئت...

فلم يدَعه يكمل وهمّ به، فدار الصبيّ حول السور يلتمس مدخلًا آخر. يقف بين الحين والحين ويرفع عنقه جهده، لعلّه يرى البك أو أحدًا من أهله فيناديه ويقول له «أنا طام بن سعيد كسّار!» فيأذن له بالدخول... وظلّ يمشي حتّى بلغ بابًا صغيرًا مشبّكًا بالحديد، فأطلّ فرأى دجاجًا وأقفاصًا وحبيشيًّا يتبختر في الساحة، وغزالًا له قرنان طويلان، وطيرًا له ريش ملوّن وذنَب عظيم بألوان ورسوم أخّاذة. ولم يكن يعرف الطاووس، فدفع أنفه بين القضبان، ونسي البك والبيت المرهون وما أوصته به الجارة، وفتح عينيه يرافق مشية الطاووس، ويُدخل وجهه في الشبكة من هنا ومن هنا، والطير العجيب يفرّج ذنبه ويعلو به حتّى صار له إكليلًا.

– لللللللي!

ولم تكد حتّى ارتدّ مذعورًا على كلب يقفز من وراء الباب عليه. ومضى الكلب نباحًا ووثبًا على القضبان، ففرّت الطيور وأطلّ ربّ المنزل على الشرفة.

– يا بك! جدّي رهن البيت عندك بمئة ليرة ورقًا. بارك الله لك به! ولكن ستعطيني لآكل أنا وأمّي.

فأدبر الغنيّ، فظنّ أنّه ينزل للقائه، فعاد يحاول الدنوّ من الباب ثمّ يحجم خيفة الكلب الأسود الكبير المتربّص به، وقد استلقى الآن وقدّم يديه مسدّدًا نظرًا أحمر. ولكنّ البك لم يأتِ ولم يرسل من قِبله أحدًا، فهتف طام بكلّ قوّته:

– جدّي رهن البيت عندك، يا بك!

فظهر البك وفي يده شيء يفرك به أسنانه مكشّرًا.

– يا سعادة البك! أنا طام بن سعيد كسّار.

فنزع الفرشاة من فمه وبصق بعنف. فأرسلت المجنونة زغردتها فهجم الكلب، وظلّت عينا طام تتردّدان بينه وبين سيّده، ثمّ نظر فألفى البك قد دخل، فثنى عنقه كاسفًا ومشى. ثمّ سمع صوتًا من خلفه فالتفت، فإذا رغيفان تمدّ بهما يد من الباب، فركض وركضت ورده تسابقه، فلم يستطع أن يأخذ إلّا بطرف رغيف، واستأثرت بالباقي وهرولت تلتهمه.

جاء طام في اليوم التالي فأعطته الخادمة رغيفين أيضًا، فدفع إلى أمّه واحدًا وأكل نصف نصيبه، وغافلها فأخفى النصف الآخر للمساء. ثمّ ذهب مطمئنًّا إلى أنّهما نائلان من البك كلّ يوم رغيفين يمسكان بهما الرمق مع ما يجمعانه في الحقول من أعشاب.

في اليوم الثالث دلف إليه إبراهيم بك بنفسه، وكان يتنزّه في الحديقة، وقال له عابسًا:

– جدّك أخذ ثمن بيته، والمجنونة تزعج الستّ في نومها.

ولوّح بعصا في يده وأدار ظهره.

كانت الخيبة موجعة. فهام الصبيّ على وجهه أيّامًا يقف بأبواب الناس فيطردونه. ولقد قصد إلى جارته التي أحسنت إليه فقالت إنّها لا تجرؤ على إعطائه شيئًا

خوفًا من زوجها ، وإنّ لها أولادًا عليها إعالتهم ... وجاءها مرّة أخرى فأغلقت الباب متظاهرة بأنّها لم تره. فلم يبقَ إلّا الرجوع إلى إبراهيم بلك فاخر.

وكان للبك امرأة عاقر ناهزت الأربعين. وكانت قد نزلت في ذلك الصباح إلى الحديقة فاستوت على مقعد ، تحتها طنفسة ، وخلفها طنفسة ، وإلى كوعها طنفسة ، والنارجيلة أمامها تسحب ببزّها المذهّب الشحطة بعد الشحطة وتمجّ الدخان من جانب. فلم يشكّ طام أنّها ستعطيه شيئًا. فدنا من البوّابة الكبيرة ينظر هل البستانيّ أو الكلب يترصّده ، فلم يرَ هذا ولا ذاك فهمّ بالدخول. فإذا فقيران يزاحمانه ويحاولان إبعاده. فألقت الستّ النربيش وقامت إليهم مغضبة تنادي زوجها والخادمة والبستانيّ ليعاونوها على طردهم. فأقبلت الخادمة ثمّ أقبل البستانيّ فأقفلا البوّابة ، فلم يكن من ورده إلّا أن رفعت إزارها وزغردت. فوقفت الستّ مبهوتة وقد وجد المشهد من نفسها هوى. ثمّ طلبت من المجنونة أن تعيد الكرّة شرط أن يبتعد الصبيّ عنها فلا يحجبها. ودعت البك فلم يسمع ، فأوفدت إليه الخادمة فأتى. ولكنّ طام أبى إلّا أن يسدّ ما بين العيون وعري أمّه ، فقالت الستّ وهي تمدّ بإصبعها إليه :

– أعطيك رغيفًا !

فلوى عنقه وسكت.

وأمرت الخادمة فأحضرت بضعة أرغفة يابسة. فلمّا أخذت عينا المجنونة الخبز ، تلوّح به اليد من وراء البوّابة ، تناولت أطراف ثوبها وطفقت تثب هاربة من ابنها وهو يتكمّش بها ويشدّ بالثوب ، والستّ والبك يتضاحكان ، فيضحك معهما البستانيّ وتزمّ الخادمة بشفتيها.

حتّى إذا استوفت الستّ حظّها من المزاح ألقت الأرغفة من فوق السور على مدّ يدها ، فتراكض إليها الفقراء يتضاربون.

١٢

رأى طام ، وهو عائد إلى البيت ، الجاويش كامل أفندي جالسًا في دكّان مع أحد الجنود ، فاقترب يناديه :

– كامل أفندي !

فازورّ عنه لأنّه لم يعرفه لأوّل وهلة.

– أنا طام ابن ورده ! وهذه أمّي ، أما عرفتنا؟

فتفرّس بهما مدهوشًا ، وهمّ طام بالدخول فمنعه البائع من اجتياز العتبة. فقام الجاويش ورفيقه إلى الطريق يماشيان الصغير وهو يقصّ عليهما ما جرى له ولأمّه ، وهي تقف بين الحين والحين لنوبة جنونها المضحكة المبكية ، وتجمع عليها الناس. فلمّا بلغوا بيت كسّار انحنى كامل أفندي على طام فوضع في كفّه شيئًا ثمّ همس في أذنه. وتبادل ورفيقه نظرة واستأنفا السير إلى الثكنة.

وانقلب طام إلى دكّان قريب فاشترى بالمتليكين رغيف ذرة وشدّه تحت إبطه ، وعدا وورده تعدو وراءه ، حتّى إذا وصل إلى زاوية البيت نطّ الحافّة إلى المراح ، فطلعت من تحته يدان ونشلتا الرغيف.

– أبو زيد ! أبو زيد !

ولحق به قافزًا فوق الحافّات ... فلمّا أيقن أنّه فاته أرسل صوته الدقيق الباكي ليصنعنّ به ويفعلنّ ، ورماه بحجر.

قضى بقيّة نهاره يرافق الشمس ، ينتظرها بصبر فارغ أن تغيب فيرفع عينيه إليها حانقًا حينًا ، وضارعًا حينًا ، وهي تردّ طرفه في الحالين كليلًا ، فيدخل إلى المراح يحاول طيّ الوقت بالنوم فيقلّبه الجوع على مثل الجمر ، ويقتله الانتظار صرًّا بالأسنان وبلعًا بالريق ... وورده تدور حول البيت ، تحفر بأظافرها عن عشبة عافتها الحيوانات ولم يهتدِ إليها بنو آدم. وخُيّل إليه أنّ هذا النهار لا آخر له فمساؤه لن يأتي أبدًا ، فقام فغافل المجنونة وانسلّ لاصقًا بالجدار ثمّ ركض صوب بحرصاف.

كان الأتراك قد احتلّوا دير مار يوسف وأنزلوا أجراسه وطردوا رهبانه وجعلوا منه ثكنتهم . فأخذ يدور مفتّشًا عن كامل أفندي بين الجنود الرائحين الغادين . ثمّ دنا فرأى صفًّا من الحلل الكبيرة قد اتّقدت النيران تحتها وصعدت اللهبة منها متماوجة على الحيط من شقوقه المسودّة ، وتذهب ذؤاباتها في الفضاء وتضيع . وملأت رائحة القيروانة خياشيمه ، يتنشّقها ويتلمّظ ، ويرسل عينيه إلى الحلل بانفتاحة مفترسة . وكان الطاهي ينقل مغرفته الجبّارة من حلّة إلى حلّة ، حتّى حانت منه التفاتة فهجم على الصبيّ يطرده . فأطلق ساقيه منحدرًا إلى قبو الدير الذي صار إصطبلًا للخيل ، ووقف ينظر لعلّ كامل أفندي فيه . فلم يرَ إلّا جنودًا يمسحون الخيل والبغال الهزيلة . وهي ترفع برؤوسها وتميل ذات اليمين وذات اليسار . فتلمع عيونها في العتمة لمعانًا .

وإنّه لفي وقفته تلك إذ حكّ به صاحبه وقال :

– أما قلت لك لا تأتِ إلى هنا؟ اذهب وانتظرني في المراح .

وتابع كامل أفندي طريقه حريصًا .

* * *

في ساعة متأخّرة من الليل دخل الجاويش إلى المراح وعلى خاصرته كيس كبير . ثمّ أدلج في الظلام عائدًا ، بعد أن وعد صديقه الصغير بمثل هذا كلّما استطاع إليه سبيلًا .

وثابر يحمل إلى المراح كلّ أسبوع كيسًا من الشعير يختلسه من علف الخيل ، ويطرحه أحيانًا في خندق اتّفقا عليه ، فيزحف طام إليه في عماية الصبح ويوصله إلى البيت فيخبّئه في حفرة حفرها له في الزاوية ، ويأكل منه مع أمّه قضمًا ، ويجرشان منه بين حجرين أملسين ، ويعجنان في جرن كان في الماضي لصبغ الديما ، ويشويان خبزًا خشنًا فتيتًا ، واجدين في التهامه سعادة إمساك الرمق التي ليست بعدها سعادة .

ووقع في روع طام أنّ الحياة ستتابع سيرها على هذا الشكل إلى ما لا نهاية له . لم يكن يتحسّر ولم يكن يترجّى ، قد ملأ فراغ بطنه رأسه فلم يدع فيه محلًّا لذكرى أو منفذًا لأمل . وربّما خطر له جدّه وخطرت له أخته . فيمثلان شبحين مبهمين ، ثمّ يتواريان في الضباب .

١٣

جاء الجاويش ذات مساء بكيسين معًا ، في الأوّل شعير على جاري العادة . وفي الثاني أشياء ناتئة أخذ الصبيّ يجسّها متعجّبًا مسرورًا . ودسّ له كامل أفندي في يده شيئًا فنظر طام على ضوء قِدّة صنوبر كان يشعلها سراجًا :

– بشلك !

– خُذ... وثلاثة متاليك . لست في حاجة إليها .

– لماذا هذا كلّه؟ يكفيني كيس الشعير . والكيس الآخر ما فيه؟

ففتحه له . فإذا أصناف من المقدّدات والمجفّفات ! فنظر إليها ثمّ إليه ، فقال الجاويش :

– هذا كلّه لك . خبّئ المال عن أمّك . مسكينة ! (وكانت تغطّ في نومها) أتدري كم أحبّك يا طام؟

فرفع إليه عينين فيهما أفصح جواب . فأطرق كامل أفندي ساكتًا .

– ما لك يا كامل أفندي؟ هل عمل لك الضابط الجديد قلقًا؟

– الضابط الجديد لا يعمل قلقًا لأحد .

– ...

– ولا يسلب الناس بقراتهم لئلّا يحلّ به ما حلّ براسم بك . ألم تأتِ أختك قطّ؟

– لا .

– في ضواحي عاليه ، يا طام ، عصابة خطفت حتّى اليوم ضابطين وسبعة جنود... طام ، طام !

اِسمعني ، ستأكل بعد أن أذهب ، أتسمعني؟

فبلع الصبيّ بقدّة من لحم.

– هذا لحم طيّب. لحم أيّ حيوان؟... العصابة البيضاء!

– من قال لك اسمها؟

– كلّ الناس يعرفون.

– أنا أعرف شيئًا لا يعرفونه هم ولا تعرفه أنت!

– ماذا؟ عند العصابة بيضة فيها خاتم سليمان! أنا أعرف ذلك.

– لا! لا يا طام. أظنّ أنّ زينه... (وجرض بريقه).

– أختي تحبّ طانيوس أكثر منّي! أخذته وراحت.

– طانيوس كسّار مع زينه؟ لقد جرّد الأتراك حملة تتألّف من مئة عسكريّ تفرّقوا في الجبال والأودية وراء العصابة البيضاء ، وجعلوا مكافأة مئة ليرة ذهبًا لمن يأتيهم برئيسها حيًّا وخمسين ميتًا. وإذا كان جنديًّا صار جاويشًا ، أو جاويشًا صار ضابطًا.

– لماذا لا تذهب معهم يا كامل أفندي ، فتقتله وتصير ضابطًا؟

– أنا لا أقتله يا طام ، لأنّه يقتل الأتراك. أرأيت أنّك كنت مشغولًا بالأكل فلم تسمع ما قلته لك؟

– هه هه! أنا سامع.

– طام أتعلم لماذا جئتك بكلّ هذا؟ كيسين وبشلك...

– لأنّك تحبّني.

– هذا صحيح ، ولكن...

وأمسك ، فقال طام:

– لكن ماذا؟

– في الصحراء البعيدة ، البعيدة ، حيث وُلد النبيّ الكريم ، في السهل الكبير على مدّ النظر ، وحيث الشمس تكوي كيًّا ، والرمال التي لا آخر لها... هنالك قد نشبت ثورة على الأتراك.

– ومن غلب؟

– النصر بيد الله يؤتيه من يشاء... العرب سيغلبون يا طام.

– ويذهب الجوع ، أليس كذلك؟ ونعود نأكل خبزًا أبيض.

– قل إن شاء الله يا طام!

– الله لا يحبّ الأتراك الظالمين.

– لذلك قلت لك العرب سيغلبون... ولكن أنا لن أكون مع العرب ، يا طام.

– مع من إذن؟

– أنا جاويش في جيش الدولة ، مضطرّ أن أحارب مع الأتراك.

– وتقتل العرب!

– غصبًا عنّي.

– أنا أقول لك ما تفعل. ضع في المارتينة بارودًا وانزع الرصاص. البارود لا يقتل.

– أنت ستكون جنديًّا في الجيش العربيّ.

– سأكون ضابطًا وأقتل الأتراك!

– أنا حزين يا طام. لأنّني تاركك.

– إلى أين؟

– الصحراء البعيدة التي ذكرتها لك اسمها الحجاز. سيرسلونني غدًا إليها مع كثير من الجنود.

– ومتى تعود؟

– من يعلم؟ ربّما لن أعود أبدًا.

– أبدًا؟... أبدًا؟!

– اِتّكل على الله. الحرب ستنتهي قريبًا... بيتنا في الشام فيه خبز أبيض ، وأرزّ ، ولحم ، وعنب وكلّ شيء! إذا قدرت أن تذهب إلى الشام فاذهب إلى حيّ الميدان وسَلْ أين بيت الشيخ محمّد أبو كامل الورّاق. قُل لي أحفظت الاسم؟ الشيخ محمّد أبو كامل الورّاق ، حيّ الميدان ، إيّاك أن تنسى!

– وتكون أنت هناك يا كامل أفندي؟

– ربّما. وإذا لم أكن فقل لهم: أنا طام من

بجرصاف ، وكان كامل أفندي صديقي . ولكنّ الشام على مسيرة أسبوع . تذهب مع مكاري يُركبك على بغل أو في طنبر... وإذا لقيت زينه فقل لها كامل أفندي يسلّم عليك ، ولتذهب إلى الشام . تذهبان معًا... وجدّك أيضًا... لا تبكِ يا طام . سأعطيك في الشام مهرة حمراء لها غرّة ، وكوفيّة من حرير ، وعقالاً مقصّبًا . لا تبكِ ! إنّ الله مع الصابرين .

* * *

انتبه طام من غد على قرع الطبول تتجاوب أصداؤها وترجّ في سكينة الصباح وكأنّها ترجّ في قلبه . فخرج إلى الطريق مسرعًا فإذا فصيل من الجنود آتٍ من صوب بجرصاف ، فتسلّق الحافّة ، فلم يعجبه الموقع ، فأراد أن يبحث عن سواه ، ولكنّ الجنود كانوا مسرعين وقرع الطبول يقترب ويقوى ، فجمد حيث هو ، فوصلوا وأخذوا يمرّون تحته ، فنظر إلى الصفّ الأوّل... فالثاني... فالثالث... فالأخير ! فكاد صوابه يطير ! فركض حتّى سبقهم ، يستعرضهم من جديد جنديًّا جنديًّا . فزاغ بصره واختلطت عليه الصفوف فسبقهم مرّة ثانية حتّى واجههم ، فإذا كامل أفندي في الصفّ الثاني إلى جهته لا يحجبه عنه أحد . فخفق قلبه ومشى يحاذيه معلّقًا عينيه بوجهه حتّى التقت عيون الاثنين ، ولكنّه لقاء قصير كالومض... والصبيّ يمشي ، يقلّد الجنود في مشيتهم ، ثمّ ينتبه إلى نفسه فيُمسك ، ثمّ يغلبه التوقيع فتعود قدماه الحافيتان تخفقان خفقًا متوازنًا . وربّما عثر بمدرة أو شوكة فما ألوى ولا بالى... حتّى نظر فإذا كامل أفندي يشيل بحاجبه ويردّ برأسه إلى الوراء ردًّا خفيفًا . فأدرك ما يريده ، فوقف مكانه ، فابتسم الجاويش ابتسامة رضى وظلّ مائلاً برأسه نحوه أكثر فأكثر حتّى أدبر...

وطام يشيّعه...

ظهره ، والحقيبة المربوطة عليه ، والقربة على جنبه تنطّ لكلّ خطوة... وتوارت القربة والحقيبة فما تظهر إلّا فوهة البندقيّة... ولا تلبث هي الأخرى أن تضيع بين العشرات من أخواتها....

حينئذ أحسّ طام أنّ قلبه يسقط عن موضعه ، فاندفع يركض وينادي بأعلى صوته :

– كامل أفندي ! كامل أفندي !

ولكنّ الفصيل كان قد ابتعد .

١٤

رجع طام إلى البيت حزينًا .

ولم يكد يطلّ على باب المراح حتّى رأى ورده قد أخرجت كيس المقدّدات والمجفّفات فبعثرتها في حضنها وحواليها ، تلتهم وتزدرد وتنادي أبو زيد . فاستدار على العتبة فإذا أبو زيد يقفز غير بعيد شاكلاً قبازه على شيء ، ثمّ يرفع يده إلى فمه . ففهم طام الحكاية فهرع إلى الحفرة فوجد كيس الشعير مكانه ، فشكر الله وارتدّ إلى أمّه ينتزع من حضنها ويلمّ عن الأرض ، ويأخذ كلّ ذلك فيضعه فوق كيس الشعير ويقعد عليه حتّى المساء .

وفي جوف الليل ، بعد أن غرقت المجنونة في نومها ، حمل الكيس وتلك البقايا فحفر لها مخبأً في حافّة أمام المراح وسوّى الحجارة كما كانت . وجعل له ولأمّه حصّة كلّ يوم ، وهو يرجو أن تنتهي الحرب ويغلب العرب الأتراك قبل أن يفرغ الكيس .

وفيما هو ذات صباح يُدخل يده في المخبأ سمع صوتًا من خلفه يناديه باسمه ، فتحوّل ينظر مَن يبغته .

– أنا طانيوس .

ولكنّه لم يطمئنّ فتراجع يسأل :

– أيّ طانيوس ؟

– اِخفض صوتك ، عمّك طانيوس .

– عمّي ! عمّي !

– ظننتك متّ وتخّت عظامك ! وها أنا أراك مثل الشيطان ! ماذا تعمل هنا ؟

– أين أختي؟
– لا أقدر أن أدلّك.
– كلّ الناس يقولون إنّها خطفتك وتزوّجتك.
– الناس يقولون هكذا؟!
– إي.
– يا ليت!
– وجدّي، أين جدّي؟
– كنت أحبّ أن يشاهد ورده ويسمع زغردتها ولو مرّة واحدة!
– أنت أيضًا تعرف...
– أرسلتني أختك منذ مدّة إلى هنا فلم أجدك، وطلعت المجنونة بوجهي.
– لم تقل لي أين جدّي!
– جدّك؟ ألم أقل لك إنّه مات؟
– ما...ت!
– تركنا وجاء ليرى الصبحا... وضيّعناه. واتّفقنا أنا وأختك على أنّه مات... أتريد أن تبكي أم أن تأكل؟ خُذ، هذا كيس ملآن بالخبز. أين أضعه لك؟ لا أدخل إلى المراح لأنّني لا أحبّ المجانين.
– خذني عندها يا عمّي.
– عند من؟
– عند أختي.
– ألم تقل لك إنّك ما تزال صغيرًا؟ تصرع رأسي صباح مساء: «لو كان طام كبيرًا! لو كان طام كبيرًا!».
– كبرت يا عمّي، انظر، كبرت!
– ولكنّك لا تزال أصغر من المارتينة... هل أرسل إليك إبراهيم بك فاخر مئة ليرة؟
– مئة ليرة! أخذها منه جدّي.
– غيرها، غيرها.
– غيرها؟ لماذا؟
– لم يرسل إليك شيئًا!
– لا.
– ولم يقل لك شيئًا؟
– أعطتني خادمته رغيفين.
– وبعد ذلك؟
– لا شيء.
– اِسمع يا طام، هذا الكيس من الخبز يكفيك من الآن إلى أن يرسل إليك البك مئة ليرة، لأنّه سيرسلها ما من ذلك بدّ. ولكن إيّاك أن تقول له أو تخبر أحدًا أنّك كنت عارفًا بأنّه سيرسلها إليك!
– أنت قلت له؟
– هذا لا يعنيك. سيرسلها مع أحد رجاله أو يدعوك إلى بيته ويسلّمها إليك يدًا بيد.
– تكذب عليّ لكيلا تأخذني معك عند أختي. أريد أن أروح معك. وحياتك! خذني معك يا عمّي.
– هس! أنا ليس لي جلد على الأولاد الصغار. ستأتي أختك وتأخذك.
– متى؟
– ستأتي، لا أعلم متى ولا هي تعلم. المسألة تتعلّق بإبراهيم بك فاخر وعلى دفعه المبلغ أو تمنّعه. على كلّ حال لا خوف عليك أن تموت من الجوع. أنت مثل عمّك: يلوكه الموت ويلوكه ثمّ يبصقه!
– وكيف يدفع إبراهيم بك؟
– أنا أتمنّى أن لا يدفع.
– ...
– إي، أتمنّى أن لا يدفع لكي يفهم أنّ العصابة البيضاء تقول وتفعل!
– العصابة البيضاء! أصحيح يا عمّي أنّ رئيس العصابة من الجنّ؟
– من قال لك ذلك؟
– سمعت. جنّيّ، يقولون، لا هو رجل ولا هو امرأة!
– ها ها ها!
– ألا تصدّقني؟
– عمّك وحده الذي يصدّقك بين الناس

أجمعين ! وماذا يقولون أيضًا ؟

– خذني معك ، خذني معك !

– عدنا ؟ ! خبّئ هذا الكيس وكُل منه حتّى تأتي أختك . قلت لك ستجيء هي وتأخذك ... أنا مضطرّ أن أعود . لا تبح لمخلوق أنّني جئت إلى هنا ولا رأيتك ولا كلّمتك عن إبراهيم بك فاخر ولا عن العصابة البيضاء . وأوصيك : إيّاك أن تموت !

وراح في الظلام .

١٥

انتظر طام أسبوعًا فلم تأتِ زينه ، ولا المئة ليرة . وتحوّل شكّه إلى يقين بأنّ عمّه إنّما هزأ به .

وفرغ كيس الخبز ففكّر في حاله فلم يجد إلّا أن يقصد إلى البك مرّة أخرى ، فمشى من فوره واقتفت ورده خطاه .

وكان يتمنّى أن يجد البك وحده لما ثبت في قلبه من المقت للستّ منذ الحادث الأخير . وإنّه لفي بعض الطريق إذ جاءت المجنونة نوبتها فلم يتمكّن من الوقوف دونها لبعدها عنه ، فاجتمع الناس ينظرون ويضحكون ، فلم يقل شيئًا واستأنف سيره ، يتخيّل الستّ تقهقه وفي يدها الخبز الأبيض الشهيّ ، ويكاد يسمعها تقول له « أعطيك رغيفًا شرط أن تتركها ! » من يدري ؟ ربّما كان وحده ، لا يزاحمه أحد من الفقراء ، فيستأثر بالرغيف . ولتشاهد الستّ ما تحبّ ، وليتظاهر بأنّه حاول منعها فلم يستطع ، أو فليكن بينه وبين أمّه مسافة كالتي كانت الآن بينه وبينها ... ثمّ ماذا بعد هذا كلّه ؟ أليست مجنونة ؟ المجنونة لا تؤاخذ على ما تعمل .

ومضى يحاور نفسه كذلك . وفجأة فطن إلى حقيقة ما يفكّر فيه فصدمته فظاعته صدمة أحسّ لها مثل الصداع ، والتفت عفوًا وراءه فلم يجد لأمّه أثرًا .

لم ينطلق في طلبها ، ولا تساءل أين قصدت بل هرول مسرورًا بأنّه تخلّص منها .

كان لإبراهيم بك فاخر تَكٌّ ، أي عربة بحصان واحد يطيب له أن يسوقها بنفسه لنزهات مسائيّة في الضاحية . وصل طام فرأى السائس يجهّز التَكّ ، فانتظر على البوّابة ، فأقبل البك حديث الوجه بالحلاقة ، على رأسه طربوش قانٍ تنحدر ذؤابته إلى الأمام وتتفرّش ، وتختلج جفونه بحركة عصبيّة دائمة كأنّه يقول لرائيه : « أنا لي عينان ! » لأنّهما كانتا صغيرتين جدًّا .

– أعطني متليكًا يا بك .

فصعد إلى العربة .

– يا بك ! يا بك ! الله يخلّي لك أولادك ! أنا طام بن سعيد كسّار ، جدّي رهن البيت عندك يا بك ! الله يخلّي لك أولادك ، يا بك !

ولكنّ الغنيّ تناول الكرباج وصفقه به ، ثمّ ردّه إلى الجواد فدرج التَكّ خببًا ، واستمرّ البك يضرب بالكرباج على مؤخّرة العربة يمينًا حينًا ، وشمالًا حينًا آخر ، إلى مسافة بعيدة .

حينئذ أدار طام وجهه فإذا السائس يضحك بين كفّيه ويردّد :

– الله يخلّي لك أولادك ! الله يخلّي لك أولادك ! ...

فانتصب الصبيّ يتحدّى مقلّده . فنظر السائس إلى الجهة التي ذهب فيها سيّده وهزّ برأسه وقال :

– سبحانك يا الله ! لو أعطيته بالغلط ستّة من الدزّينة التي عندي !

ومشى .

•

فذهب طام مع سور الحديقة حتّى وصل إلى الباب الصغير المطلّ على الطيور والحيوانات ، وقد قنع بأن يلقى الستّ . فإذا المقعد خالٍ ليس إلّا الكلب مربوطًا هذه المرّة إلى كوخه الأحمر يغفو إغفاءة سعيدة ، والدجاجات تنقل أرجلها نقلات بطيئة . شبعانة ، الحبّ منثور لها كومًا ولا تمدّ إليه منقارًا ، بل تغمض عيونها وتجوز . ولكنّ دجاجة هناك تعالج شيئًا في

التراب وتتخبّط وتمرّغ رأسها وترفعه وتخفضه وتعود إلى التخبّط ، ثمّ تُقبل وقد تدلّى من فمها خيط طويل ، فتدور في الساحة ثمّ تقف منصرفة إلى شأنها الأوّل ، ثمّ تستأنف الدوران ، لتقف مرّة أخرى تعالج الخيط لعلّه يخرج ، فما يزداد إلّا ولوجًا . وطرفه المجرور على الأرض يقصر شيئًا فشيئًا ، وطام ينحني على الباب مرافقًا الحادث . فإذا الباب يصرّ منفتحًا تحت دفع جسمه ، فمدّ يده عفوًا وردّه وترفّق في الاستلقاء عليه . ثمّ لمعت في ذهنه خاطرة ، فنظر فلم يجد أحدًا ، فأخذ يفتح الباب متمهّلًا مخرسًا صريره ، حتّى صارت الفرجة على قدّه ، فاندسّ إلى الجنينة ونظر أيضًا من هنا ومن هنا ، وحاول أن يرفع عينيه إلى الشرفة فأحسّ رقبته كأنّها مشدودة بثقّالة ، فاستعاض إرهافًا لأذنيه ، فلم يسمع نأمة . فجرى وراء الدجاجة المعذّبة ، فنفرت منه ونفرت أخواتها مرفرفات ... هيّن كلّ شيء ولا يفيق الكلب ! وجمد طام هنية ليعيد إلى الجوّ الطمأنينة التي لا غنى له عنها ، حتّى إذا ظنّ أنّه نال من ذلك غايته تأهّب لاستئناف سعيه وراء الدجاجة ، فإذا هي تقبل والخيط في منقارها ، فارتمى القرفصاء في وجهها ففاتته ، فضرب بكفّه وراءها فأثبت طرف الخيط إلى الأرض ثم جرّها به إليه فأفطسها وانسلّ بها ...

١٦

منذ تلك الغزوة اعتاد طام أن يغشى حديقة الغنيّ . وقد ساعفه الحظّ فوُفّق مرّة ثانية إلى الدخول من الباب ، وفي الثالثة وجده موصدًا فتسلّق السور وأدلى بخيط احتاط به ، فعقد طرفه على دودة وجعل يرجّحه ويدفعه ، فمدّت الطيور برقابها وحامت المناقير على الدودة تتزاحم وتتضارب ويلتفّ بعضها ببعض ، حتّى تمكّنت دجاجة منها فأخذتها وهرولت ناجية بها . فانحنى يذهب معها ما استطاع ليترك لها أن تبلع السنّارة . فأقبلت دجاجة أخرى من بعيد ووثبت عليها فخافت هذه وألقت ما في منقارها ، فنقدته تلك نقدة واحدة ، فجذب طام... رويدًا... رويدًا ، والدجاجة تدنو حتّى انتصبت مشنوقة . فخفق قلبه وجعل يسحبها كالدلو من بئر ، فإذا يدان تشدّانه من رجله ، فيسقط على الطريق وقد سلخت حجارة السور المسنونة كفّيه وثلمت أنفه .

وساقه البستانيّ إلى البوّابة حيث لقيه البك بعصاه وضربه ضربًا مبرّحًا ، وهو يقع على الأرض فيرفعه الآخر من أذنيه حتّى كاد يصلمها ، فيعود الغنيّ إلى ضربه وشتمه ويعيّره بالحرامي ، ولم يتركه إلّا بعد أن تعبت يداه وخُيّل إليه أن أعصابه هدأت . حينئذ انقلب يتنفّس الصعداء ويمشي في الحديقة ذهابًا وإيابًا . ثمّ وثب إلى الدرج فارتقاه ودخل غرفته فتناول رسالة كان ألقاها على مكتبه وأخذ ينظر فيها حينًا ، ويهمّ بتمزيقها حينًا آخر .

وكان في الغرفة مرآة كبيرة فوقف قبالتها فهاله اصفرار وجهه ، فذهب إلى الباب ففتحه ونادى :

– فيروز !

فأقبلت الزوجة فدفع إليها الورقة وقال :

– اِقرأي .

فأخذت تقرأ :

«إلى إبراهيم فاخر .

وجّهنا إليك مكتوبًا قبل هذا نبلغك فيه إرادتنا . ولمّا كانت المهلة التي حدّدناها لك ، وهي أسبوع ، قد انقضت ولم تنفّذ أوامرنا رأينا أن نكتب لك ثانية ونستمهلك ثلاثة أيّام أيضًا . فإذا لم تبادر خلالها إلى إعطاء أصحاب البيوت المرهونة عندك والمذكورين أدناه المبالغ المعيّنة تجاه أسمائهم نُعدمك الحياة :

أوّلًا : بطرس الضاهر	٢٠٠ ليرة
ثانيًا : حنّا ناصر	١٠٠ ليرة
ثالثًا : بطرس كسّار	١٠٠ ليرة
رابعًا : بولس ماضي	٧٥ ليرة

خامسًا : أرملة عيسى فدعان ٧٥ ليرة

تعطي هذه المبالغ كاملة إلى هؤلاء وإلى غيرهم ممّن استرهنت بيوتهم أو اشتريتها بعُشر أثمانها ، وأنت تعرفهم أكثر منّا ، وفي حالة موت أحدهم إلى ورثته.

ونعيد ما قلناه في مكتوبنا الأوّل : إنّنا لسنا قطّاع طرق ، وإلّا كنّا طلبنا شيئًا لأنفسنا ، بل نحن قضاة عدل نحبّ أن يصل لبعض المظلومين ولو بعض حقوقهم التي اغتصبتها بأطماعك.

تنبيه : ليس لأحد الراهنين علم بهذا ، فإذا حاولت الانتقام من أحدهم سقطت المهلة وهدرنا دمك حالًا . »

«العصابة البيضاء»

– العصابة البيضاء أيضًا ! العصابة البيضاء !

كان هذا الاسم على كلّ شفة ، بمجرّد التلفّظ به يبعث الذعر في السامعين. وكانت تُروى عن العصابة البيضاء روايات غريبة عجيبة. يقول بعضهم إنّ على رأسها شخصًا يرتدي ثوبًا أبيض ، وهو لا يظهر إلّا في الليل ، يجلس على قمّة جبل فيراه الداني والقاصي. ويصوّب إليه الجنود بنادقهم فلا يتحرّك ، لأنّ الرصاص لا يفعل فيه لدرع يلبسه تحت ثوبه... ويقول آخرون بل يحمل ذخيرة عود الصليب ، وهي تحميه من كلّ شرّ وتذيب الرصاص قبل أن يصل إلى جلده ، فمُطلقه عليه كضاربه بوردة سواء بسواء... وتذهب جماعة إلى القول إنّه ساحر يستخدم جماعة من الجنّ ، ويستدلّون على ذلك بأنّ الدرك دهموه يومًا ثم نظروا فإذا هو قد استحال إلى عمود دخان واختفى بين الأرض والسماء... وبينما يكون يومًا في صنّين مثلًا يؤكّد آخرون أنّهم رأوه في اليوم نفسه في ضهر البيدر ، فهو لا يستقرّ في مكان ، ولا يعرف أحد له بيتًا ولا يفهم أسرار تنقّلاته بين الجبال والأودية في طول البلاد وعرضها.

كانت فيروز تردّد على زوجها هذه الأساطير وهو يصغي إليها شارد الفكر ، ثمّ صاح :

– أمجنونة أنت لتعتقدي بهذه الخرافات؟ الضابط مدعوّ إلى العشاء عندنا الليلة. سأعطيه هذه الورقة وهو يتدبّر مرسليها مع خليل المعلّا.

– أعطيته المكتوب الأوّل ، فماذا عمل لك هو وخليل المعلّا؟

– وماذا عملت العصابة؟ لقد انقضت المدّة التي حدّدوها... ها ! ها ! (وحمل نفسه على الضحك) انقضت المهلة منذ أسبوع وأكثر ، فلماذا لم يقتلوني؟ وستنتهي المدّة الجديدة وأنا بألف خير.

– لو أعطيت كلًّا من هؤلاء المساكين...

فقاطعها غاضبًا :

– ماذا ! أعطيهم أيضًا؟!

– أنا لا أقول لك أعطِهم بالمئات. ولكن أرسل إلى كلّ واحد ثلاث ليرات أو ليرتين. أتظنّ أنّهم سيذهبون إلى العصابة...

– تعودين إلى العصابة؟ اِقطعي هذا الحديث. فليرهنوا بيوتهم وأملاكهم عند سواي... هذه نتيجة المعروف مع الفقراء.

– أما قلت لي إنّ بيت أبو سعيد كسّار وأملاكه تساوي ستمائة ليرة عثمانيّة على الأقلّ فاسترهنّاها بمئة ورقًا؟

– تساوي ! ماذا تساوي؟ قلت لك أنت لا تفهمين بهذه الأمور. أنا ذاهب.

– إلى أين؟

– يجب أن أوصل هذه الورقة السخيفة إلى الضابط الآن ، في هذه الدقيقة !

– أخاف عليك. يجب أن لا تخرج من البيت.

وأمسكت بتلابيبه ، ولكنّه أصرّ ، فأفلت منها وانطلق ينادي السائس أن يحضّر له العربة.

١٧

كان طام قد ابتعد عن منزل الغنيّ ووصل إلى السوق.

وقف أمام واجهة يلمع فيها صفٌّ من الخبز ثمّ خطا يدفع أنفه حتّى لامس زجاجها. كانت الأرغفة كثيرة يستلقي بعضها على بعض من طرف الواجهة إلى الطرف الآخر في عرض جميل. بيضاء لها أُطر موشّاة، وخدود محمرّة عليها شامات سوداء. رغيف رافع إلى جانب رغيف ضامر إلى جانب آخر قد اعوجّت يد الخبّاز به وفاتته النار فهو عجين جامد لا لون له ولا شكل. تجيء عينا الصغير وتروحان على الأرغفة ثمّ تستقرّان على هذا المسخ من بينها جميعًا، فيثني عنقه إليه ويسيل لعابه عليه، ويتشمّمه من وراء الحاجز، وأصابعه تتفرّك على جبينه من هنا ومن هنا، ثمّ تلتقي على فه فيعضّ عليها... حتّى تنبّه له الخبّاز فقام وطرده.

كان يمشي بقدميه المشقّقتين، وقبازه الوسخ المقدود، وشعره الطويل المبعثر، من الحافّة إلى القناة، ومن القناة إلى الحافّة، يلتقط عن الأرض ويزاحم القطط والكلاب على الأقذار، والطريق مزروعة عن الجانبين بعشرات الجياع أمثاله، شيوخًا ونساء وأطفالًا، بعضهم يستطيع المشي، والأكثرون انطرحوا لا يملكون إلّا الأنين.

وإنّه لهائم على وجهه إذ أقبلت عربة، فالتفت فإذا هي عربة البك يسوقها بنفسه والستّ إلى جانبه تتّقي الشمس بمظلّة ملوّنة. فاقتحم الجياع العربة من كلّ صوب يمدّون الأيدي. لكنّها كانت تنهب الأرض نهبًا وأوشكت أن ترهس امرأة منهم لولا أن صفقها الغنيّ بسوطه فارتدّت تصرخ من الألم. وفجأة توقّف الحصان لحاجته، فحاول البك أن يحول دونه ودونها، فذهبت ضرباته سدى. وهرع الفقراء مرّة ثانية فتولّى الكرباج إبعادهم. ثمّ كرّت العربة فانقضّوا على أطباق النفاية اللاهبة يتضاربون ويتصايحون. وخفّ طام فدفع كتفه بين الأكتاف وأخذ ما وسعت كفّه ونجا إلى ناحية، يلقط حبّة الشعير وينفضها على صدره ثمّ يقذفها إلى فه طيّبة شهيّة. وحانت التفاتة من بعضهم إليه فهجموا عليه، فدفع بما في كفّه إلى شدقيه فالتهمه بما فيه قبل أن يصلوا.

قضى بقيّة نهاره متنقّلًا منقبًا في الأرض كالحيوان. وكانت أمّه قد كفّت عن اللحاق به منذ حبست الأيدي الرزق عنه فعنها. ففتّش عليها يومًا فوجدها في الوادي تأكل من جيفة بغل متنة. وبغتها يومًا آخر تذبح قطّة وتلتهم لحمها المطّاط نيئًا. ثمّ دبّ الورم في رجليها فعظمتا وقعدتا بها لا تقوى على الخروج ولا على القيام من مطرحها على باب المراح. وكأنّ الجوع افترس جنونها فيما افترس، فانقطعت عن الزغردة واعتصمت بصمت هائل، لا يتكلّم فيها إلّا عينان تنفتحان كبيرتين على الأشياء حينًا وفي عرض الفضاء أحيانًا، تناديان شبح الرغيف.

وفي المساء حاول أن يصل إلى البيت فلم تحمله رجلاه، فجرّ نفسه إلى كنف قنطرة بجانب الطريق فانطوى في الزاوية ونام.

كانت الليلة قاسية، تقطّع فيها نومه بنوبات الجوع تقطّعًا لم يعرفه في لياليه السابقات. ما يكاد يغفو، أو يُخيّل إليه، حتّى يفيق متقلّبًا على البلاط البارد، يبلع بريقه بلعًا متواصلًا، وكأنّ هذا الريق عصارة من قلبه الذائب، وكأنّ بطنه الخاوي طبل فهو يصوّت بين الفترة والفترة، ويسمع قرقرته فتؤذيه، فيشدّ عليه بيده ويطبق أجفانه، فتطلع في ذهنه ذكريات من ماضيه مبهمة، وتتوالى أشباح في موكب عجيب من أرغفة تمزّقها أشداق وحوش، إلى أفاعٍ رؤوسها برتقالات مورّدة، إلى صحون عدس تكرّ على الطريق مسرعة كالدواليب أفلتت من عربة، إلى زبيب وجوز وعنب تتدلّى بحبال من السماء، فيمدّ إليها كفّيه فتتلاشى ويقبض الهواء.

وطال به عذابه، حتّى تمنّى بينه وبين نفسه لو يرقد ولا يطلع عليه صباح أبدًا... ولكنّ موكب الأشباح عاوده بأفاعيه ووحوشه وطيّباته المستحيلة، فأجهش بالبكاء، ينادي جدّه وأخته وأمّه.

ثمّ ضعف جهشه رويدًا رويدًا. ثمّ جمدت دموعه. وهدأت أخيرًا في زاويتها كومة العظام والخرق...

* * *

انتبه باكرًا على شيء يسحبه من قبازه وعلى صوت يقول:

– إقلبه!

وقلبه رجلان على خشبة، فانتفض مذعورًا.

– قلت لك إنّ فيه حياة بعد.

وانصرف الرجلان إلى الزاوية الأخرى من القنطرة، فوقف طام ينظر ما يفعلان، ولوكان قد رأى مثل ذلك مرّات من قبل. كانت في تلك الزاوية امرأة مطروحة على ظهرها يسرح عليها القمل، ويعلق على صدرها العاري طفل له عينان هائلتان. تقدّم الأوّل فرفسها على خصرها وانتظر... فعضّ طام إصبعه وخطا خطوة أخرى. كان رأسها ملقى إلى جانب، وشعرها منسدلًا على البلاط، وقد اندلق من صدرها ثدي فيه أخاديد ومشحات، تعبث به اليدان الصغيرتان، وينقضّ عليه الفم الصغير ويجذبه عصرًا ثمّ يفلته ويبكي.

ورفس المرأة ثانية. ونظر إلى رفيقه وقال:

– لقد شبعت موتًا.

ثمّ انحنى على الطفل فأزاحه، فانقلب عن صدر أمّه متململًا في خرقة تلفّ وسطه وتقصّر عن ستر عورته العظيمة، وأخذ يصرخ. وقلب الرجلان الجثّة على الخشبة وحملاها فكفآها على المحمل المنتظر إلى جانب الطريق وتهيّآ للسير بها. ولكنّ أحدهما استدار إلى صاحبه وقال مشيرًا برأسه إلى الطفل:

– ما رأيك؟ نأخذه الآن.

– معك حقّ. سيموت!

– نوفّر علينا نقلة.

وكان الطفل قد تفقّد أمّه فحبا صوبها حتّى وصل إلى إفريز القنطرة فسقط على الشارع بين أقدام الرجلين، فتناوله الأوّل من ذراعه الهزيلة ولوّح به في الفضاء ثمّ رماه فوق أمّه.

كان طام ما يزال ينظر. ويظهر أنّه أزعج الموكّلين بحمل الموتى، فضرب أحدهما بيده إليه، فأركن إلى الفرار وهو يصيح:

– أنا ما متّ! أنا ما متّ!

وعزم ألّا ينام خارج البيت أبدًا.

١٨

قبل أن تنادي الشمس أشعّتها الأخيرة عن الأكمة الجاثمة جنوبيّ ساقية المسك رأت شبحًا أسود يطلّ على صخرة ثمّ يدور خلفها ويختفي. حتّى إذا غطست في البحر وخيّم الليل أطلع رأسه وعاد إلى الشفير، فقعد شابكًا يديه على حضنه، يطوّف بصره في القرية الميتة المسجّاة تحت قدميه: في هذه البيوت التي كانت مملوءة بالأهل والمحبّة والبركة، فاستحالت سقوفًا مخرّبة وجدرانًا مدكوكة، لا يتردّد فيها نفَس حيّ. ولا تطأ عتباتها قدم، اللهمّ إلّا بعض أنوار تلوح في بيت... وبيت إلى جانبه... وفي كوخ أبيض في الوادي... ضئيلة شاحبة كبقايا الجمر خلال الرماد الكثيف.

وفجأة امتدّ على طرف القرية، وعلى التلال القائمة عن جانبيها والمتدرّجة تحتها حتّى الشاطئ البعيد، بساط أصفر كبير تقطّعه على الأودية ثغرات سود، وتطلع الأشجار القليلة الباقية هناك وهنالك نقوشًا فيه، فالدنيا سجّادة سحريّة لا عهد بها لإيران ولا ليد إنسان. كان القمر قد أشرق خلف صنّين قرصًا من ذهب، يصعد على رأي العين في الجلَد الأزرق الصافي، فال إليه الشبح يستقبله بوجهه مستسلمًا إلى أضوائه تتدفّق في عينيه وتذرذر حبّاتها المتألّقة على كوفيّته المقصّبة وعباءته الفضفاضة.

ثمّ انتصب وانحدر إلى القرية في درب ضيّقة يتلمّسها بيديه ويكرّ حصاها تحت قدميه. حتّى إذا شارف بيت كسّار وقف.

وقف يتأمّل فيما أبقت الأيّام منه ، في هذا الحيط الذي تهدّم جانب منه وتكوّمت حجارته تحته ، وصعد الجانب القائم درجات من سلّم إلى الفضاء... وفي هذه النوافذ وقد انفتحت أشداقًا عظيمة يدخل فيها الليل ويسرّح أخيلته الخرساء في أرجاء الغرفة التي كانت موئل النار ومجلس حكايات الجدّ وفرك الأكفّ والوحوحة... وفي هذا السقف المبقور تتدلّى خشبة طويلة منه وكأنّها حربة جبّارة سدّدتها إلسماء طعنة إلى الدكّان... وفي هذه المحدلة التي انقلبت على الأرض ، يلمع بياضها على القمر ناصعًا ، قد ضاع جرّارها الحديديّ وقعدت هنا ساكتة ، لن يصعد أبو سعيد إلى السطح ملفوف العنق بشملته ليدلكه بها ذهابًا وإيابًا تحت وكف المطر ، ولن تهتزّ أركان البيت تحت الحدل تلك الاهتزازة الحلوة... وفي هذه الساحة القفراء التي قُصّت توتاتها فليس منها إلّا كعوب مهترئة طالعة من الأرض وكأنّها أقدام بشر دُفنوا رأسًا على عقب... وفي باب المراح وقد شغر واستوحش فلن تطلّ الصبحا برأسها خارجة منه إلى الحقل ، ولن تُدبر عائدة إليه ، ولن يتّكئ على عتبته سطل الحليب مرسلًا لهبته الدافئة في صباح ولا مساء أبدًا...

وخطا الشبح إلى باب المراح ونادى :

– طام ! طام !

فلم يردّ عليه أحد ، فرفع صوته مكرّرًا فتجاوب الصدى في المراح على صمت شامل ، فهمّ بالدخول ، فطلعت في أنفه رائحة ، فدنا من الباب يتحسّس مصدرها فلم تكن في المراح ، فذهب يمينًا فخفّت ، فمال إلى الشمال فجذبته. وما زال يمشي إلى جانب الحيط حتّى بلغ الزاوية فعثرت رجلاه بشيء كبير رخو فانخلع قلبه وجمد... وكانت غيمة دكناء تمرّ بالقمر إذ ذاك وتحجبه فلا يستطيع النظر أن يتبيّن الأشياء. فانحنى يتلمّس بكفّيه ، وارتدّ على الأثر ينفضهما مذعورًا. ثمّ سقط القمر على جثّة !... بل هما جثّتان ! أتكون هي وطام؟! ولكنّ الجثّتين كلتاهما طويلة. ودنا... هذا قباز أبو زيد ، وهذه شعرات ورده ، وهاتان يداه... بل يداها هي ملقيتان عليه... وأسنانها في فخذه. والفخذ معروقة قد انكشط لحمها عنها وعلقت قطعة منه بتلك الأسنان المكشّرة... وانفرجت رجلاه هو في الاستسلامة الأخيرة ، وانضمّت قدماها هي وتجمّعتا وغابت إحداهما تحت حجر.

وملأت رائحة النتن خياشيمه ، تصعد دفعات دفعات وتدخل إلى صدره وتزحم حلقه بقلبه. ولقد عنّ له أن يرفع يده فيسدّ أنفه ، فلم يفعل. ولبث لا يتحرّك معلّقًا بالجثّتين نظرة لا تنتهي.

ومال القمر ، فلمعت عيناه... عيناه هو... عينا أبو زيد ، كأنّه يتحدى السماء تحدّيًا فارغًا مخيفًا. وكأنّ هاتين العينين تبتسمان ، بل كأنّهما تضحكان ، وكأنّ الشاربين تحتهما يختلجان ويستقيمان ثمّ ينعقفان. وكأنّ اليد ، يده هو.... بل يدها هي تسقط عن فخذه وتضمّ أصابعها الجرداء.

ولكنّ القمر لملم ملاءته الشفّافة فجأة ، وعاد الظلام يلفّ الجثّتين الهامدتين بكفنه.

فانتفض وهرع إلى المراح فدخله وأضاء عود كبريت وهتف بصوت متهدّج : «طام !» ووقع عود الكبريت فأشعل غيره ، فإذا شيء يتململ على الدكّة ، فوثب إليه : «طام ! طام !»

ففتح الصبيّ عينيه فأهوت عليه ذراعان جبّارتان :

– أخي ! أخي ! أنا زينه !

١

انطلقت زينه بأخيها إلى مغارة الخوريّة حيث كان طانيوس بالانتظار. وفتح طانيوس كيسًا للصبيّ، فجلس يلتهم الزاد ويصغي إلى أخبار العصابة البيضاء ولا يصدّق أنّ العصابة البيضاء هي هذه. فلقد طبعت الأساطير في نفسه صورة عنها أبعد ما يكون لا عن زينه وطانيوس فقط، بل عن البشر أجمعين. فجعل يحدّد النظر إليها ويقيسها هازًّا برأسه، حتّى إذا أنس منها الجدّ ولم يبقَ من التصديق مفرّ هبط قلبه بخيبة عظيمة.

وتحوّل كلام زينه فجأة من اللين والملاطفة إلى الشدّة والتأمّر، فأحسّ بخوف يبعده عنها، فانكمش يستمع إلى تعليماتها وتوصياتها وتهديداتها. وربّما خالجته ريبة في أمرها، فينكرها بينه وبين نفسه ويقول: «كلّا! ليست هذه زينه!» ثمّ يرفع بصره إلى وجهها يتصفّحه من جديد، فتلتقي عيناه عينيها في نظرة حنان، فيعود إليه الاطمئنان.

ثمّ فطنت زينه إلى أنّه يأكل بلا حساب، فسحبت ما تبقّى في حضنه من الطعام وقالت:

– نجوت من الموت جوعًا فهل تريد أن تموت تخمًا؟

أمّا هو فكان يريد أن يأكل أيضًا، لا ليملأ بطنه الذي امتلأ، بل ليُشبع عينين حفر فيهما الجوع هوّة من النهم لا قرار لها. فمدّ بيده إلى كسرة أخرى فضربته عليها ضربة لم يكن ينتظرها فحملق بها مبهوتًا. ولكنّها كانت قد تحوّلت عنه تطوّف في المغارة نظرًا تائهًا، وتقول كأنّها تخاطب نفسها:

– هنا كان الأخ حنانيا!

وكان القمر يتسلّل إلى المغارة، فتجثم صخورها كالأشباح ويلتجئ الظلام إلى زواياها. فانفلتت ذراع زينه عن أخيها واستوت واقفة كأنّها مأخوذة بسحر، وراحت تتلمّس في هذا المكان أشياء وذكريات، وتنصت إلى كلمات وأصداء يُخيّل إليها أنّها ما تزال تتردّد وأنّ من المستحيل أن يتغلّب عليها الموت كما يتغلّب على فانيات الدنيا.

ثمّ انقلبت فجأة وقالت:

– أما تزال تحبّ سامي يا طام؟

– ولكن، ألم تقولي لي إنّه مات يا أختي؟

– ...

– أحبّه، بلى أحبّه!

– طام! طام! لقد كذبت عليك.

– بأيّ شيء؟

– كذبت عليك كذبة كبيرة. أنا لست رئيس العصابة البيضاء.

– مَن؟ من هو؟

– هو كما تقول ، لا يستطيع أن يقبضه أحد على وجه الأرض ، ولا أن يراه أحد.

– ألا أقدر أن أراه أنا؟

– ... وأنا وعمّك طانيوس جنديّان عنده. وستصير أنت مثلنا جنديًّا من جنوده.

– ويعطيني مارتينة كهذه!

– سأقول له أن يدبّر لك عملًا في العصابة البيضاء ، لأنّك لا تستطيع أن تراه الآن.

– ولماذا؟ خذيني معك إليه.

– هو في مكان بعيد ، بعيد يا طام ، وأنت صغير جدًّا. غدًا عندما تكبر...

– أما تزالين تقولين إنّني صغير؟

– عندما تكبر تصل إليه وتراه.

– أريد أن أراه اليوم.

– ستراه يومًا من الأيّام يا طام. قلت لك ستراه ، ما من ذلك بدّ.

وتهدّج صوتها بالبكاء.

– وحدي؟ ستكونين معي ، أليس كذلك؟

– من يدري؟ ربّما كنت وحدك.

– لماذا لا ترافقينني؟

– ربّما سبقتك أنا. وإذا سبقتك فإنّني لن أعود. أتخاف أن تذهب وحدك؟

– ومن يدلّني؟ هل يعرف عمّي طانيوس الطريق؟

– سأدلّك أنا. طانيوس يعرفها ولا يعرفها.

– كيف!

– أريد أن أقول إنّه يشرد بعض الأحيان ، لأنّ الطريق تطلع وتنزل بين الجبال والأودية ، وفيها شعاب كثيرة.

– أنا لن أضيع. أفعل مثل الشاطر حسن في حكايات جدّي : أعبّئ جيوبي بالرماد وأرشّ منه على الطريق لأعرفها فيما بعد... أصحيح يا أختي أنّ رئيس العصابة البيضاء يتكلّم بلغة غير لغتنا؟

– إي ، له لغة خاصّة.

– أتفهمينها أنت؟

– أفهمها.

– وأنا. علّميني إيّاها.

– سأعلّمك إيّاها يا طام.

– علّميني.

– هي قريبة من لغتنا نحن يا طام. ولكن يجب أن تخفض صوتك وتجثو على ركبتيك وتضمّ يديك.

ونظرت حواليها فإذا طانيوس ما يزال غارقًا في نومه ، فدنت من أخيها وقالت له :

– اِركع.

فركع على أرض المغارة وركعت إلى جانبه وضمّت يديها إلى صدرها ، فضمّ يديه ، فقالت :

– قُل معي : «أبانا الذي في السموات...»

٢

في مساء اليوم التالي ابتدأ عمل طام في العصابة البيضاء. فقد تشاور طانيوس وزينه في أمر إبراهيم بك فاخر ، فكان رأيه أن يدهمه في منزله ، وكان رأيها التربّص له بعيدًا. أمّا هو فيطمع بالاستيلاء على شيء من مال الغنيّ ، وأمّا هي فلا تريد إلّا الانتقام. على أنّها انتهت إلى إقناعه ، فامتثل كالكاره... وخرج الثلاثة فكمنوا في ضاحية بكفيّا ، بالقرب من طريق قال طام إنّ البك يركب عربته عليها كلّ يوم عند الغروب ، لا يتخلّف إلّا في النادر عن هذه النزهة الرائقة.

انبطحت زينه وراء صخرة كبيرة ، وقبع طام إلى جانبها يحبس أنفاسه ويمدّ برأسه بين الحين والحين إلى أوّل الطريق ، ثمّ ينظر إلى أخته في اتّكائها على البندقيّة ، وإلى البندقيّة في اتّكائها على الصخرة ، فتخالجه خشية فيها شيء كثير من السرور. كانت تلك المرّة الأولى يخرج فيها إلى مثل هذه المغامرة. وكان يشعر

بالشفقة على إبراهيم بك فاخر بالرغم من كرهه الشديد له ، فيودّ لو يجد له أسبابًا مخفّفة :

– الناس يقولون إنّ رئيس العصابة البيضاء لا يقتل إلّا الأتراك ، وإبراهيم بك ليس تركيًّا .

– إبراهيم بك فاخر عدوّ لا يقلّ شرّه عن الأتراك ، بل إنّ شرّه أعظم . رئيس العصابة البيضاء كان يقول لي : البك وأمثاله هم العدوّ الداخليّ والأتراك العدوّ الخارجيّ . الأتراك يسلبون الناس حرّيّتهم ، وإبراهيم بك فاخر وأمثاله من الأغنياء الجشعين يسلبونهم خبزهم . الخبز والحرّيّة ، هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدونهما ؟

فجعل الصبيّ يبلع بريقه محاولًا فهم هذه الأشياء ...

وطال الانتظار . والتفتت زينه إلى دغل قريب كان يختني طانيوس وراءه ، ونادته فلم يجبها . فدنت تزيح القضبان بالبندقيّة فلم تجد له أثرًا . فارتقت إلى تلّة وأجالت بصرها حولها فلم ترَ أحدًا . فأدركت أنّه غافلها ، فتعبّق وجهها بالغضب ، وانحدرت فأخذت بيد طام وقالت له :

– أنت تعرف بيت إبراهيم بك جيّدًا . أليس كذلك ؟

– إي .

– اِذهب إليه ، دُر حول الحديقة وادخل إذا قدرت ، ثمّ تعود إلى هنا وتخبرني . وإذا رأيت طانيوس فتظاهر بأنّك لا تعرفه ، لا تقرب منه ولا تكلّمه . أفهمت ؟

– فهمت ، فهمت . أخفض رأسي هكذا (وثنى عنقه) وأمدّ كفّي كأنّني أطلب حسنة .

– وإيّاك أن تقول لأحد إنّ أختك زينه أرسلتك أو إنّك تعرف أين هي . أنا أنتظرك فلا تتأخّر . وسأقول لرئيس العصابة البيضاء أن يعطيك مارتينة صغيرة .

كان بين الكمين وبيت الغنيّ مسيرة عشر دقائق . فانطلق طام مسرعًا ، يدير بين الفترة والفترة وجهه إلى الوراء فتشير عليه زينه بالمضيّ ، حتّى غاب في المنعطف ، فقعدت تنتظر على أحرّ من الجمر . ثمّ ساورتها المخاوف على هذا الصغير ، أن دفعت به في هذه المخاطرة مع ما تعلم من طيش ابن عمّها طانيوس ، وتعرّضه للمشاكل ، وقلّة تفكيره بالعواقب . وندمت على ما فرط منها ، وجعلت قدماها تجذبانها إلى الجهة التي مشى فيها طام ، فمشت مستخفية بالصخور والأدغال ، تنظر وتُرهف أذنيها . وكان المساء هادئًا جميلًا فسرت في بدنها قشعريرة ، وخفق قلبها خفقة كبيرة لا تدري لأيّ شيء خفقها . على أنّها تعتقد بمثل هذه الخفقة ، ترى فيها شعورًا سابقًا لحدث من الأحداث . فصلّت في سرّها إلى الله أن يحرس طام من الأذى .

وفجأة شقّ الجوّ أزيز رصاصة غير بعيد . فوثبت إلى الطريق ، فإذا طقطقة ووقع حوافر ، فتوارت . فإذا العربة تمرّ فارغة وجوادها ينهب الأرض ! فرفعت رأسها ترافقه وهو يعدو ، والعربة تعلو وتهبط بين الحفر ... ثمّ انطلقت رصاصة أخرى فأجفلت وأدارت وجهها ، ولكنّ ضجّة عظيمة ردّتها ، فالتفتت أمامها فإذا الحصان قد أجفل هو الآخر وانقلب بالعربة إلى جانب الطريق رافعًا قوائمه إلى السماء .

لم يبقَ عندها أدنى ريب بأنّ طانيوس هو بطل هذه الحادثة . فذهبت في الجهة التي أتى منها الرصاص . فلم تسِر إلّا قليلًا حتّى سمعت حركة ، فخفّفت وطأها وأنصتت . وكانت قد وصلت إلى تلّة صغيرة ، فعنّ لها أن تنادي طانيوس ولكنّها حسبت للمفاجآت حسابًا فآثرت أن تستكشف بعينيها ، فحبت على التلّة دافعة فوهة البندقيّة أمامها . وأطلّت فرأت طانيوس مكبًّا على جثّة عسكريّ يفتّش في جيوبه منهمكًا لاهثًا . فهتفت :

– أين هو إبراهيم فاخر ؟

– يا ضيعة الرصاصة في هذا العسكريّ !

وانحدرت زينه فإذا صوت :

– أختي ! أختي !

كان طام على خطوات منها وفي يده حبل يشدّ به إلى جذع شجرة ضخمة رجلاً لم تكد عيناها تقعان عليه حتّى صُعقت في مكانها. وقال طانيوس :

– هذا خليل المعلّا ، تركته لك.

فتقدّمت منه. طالما سعت وراءه ، فإذا الأقدار تضعه بين يديها بأعجوبة. أمّا هو فحملق بها وصرخ مسترحمًا. فلبثت ساكتة ، تغرس فيه نظرة فيها من الاشمئزاز والشماتة ، وفيها من غبطة الظفر وسعادة الانتقام. وكان طام ما يبرح ممسكًا بطرف الحبل ، وعيناه تتردّدان بين أخته وأسيره وقد لمع فيهما سرور غريب. وإذا بزينه ترفع يدها وتنزع الكوفيّة التي كانت تتلثّم بها ، فيعلو صدر خليل المعلّا بدهشة لا حدّ لها وتزيغ عيناه حتّى لكأنّهما تطيران من وجهه :

– زينه !

ولم يكن أحدهما يطمع من صاحبه بأكثر من هذا. فدنت منه دنوة وقد امتلأ فمها بلعاب حدّثتها نفسها بأن تقذفه به على وجهه شتيمة كبرى. وضربت بكفّها على البندقيّة ، فاصطكّت ركبتا المعلّا واسترخى في وثاقه وهتف :

– كلمة... كلمة واحدة !

فدفعت عقب البندقيّة بين شدقيه فسال منهما دم وزبد ، وبين الدم والزبد استغاثة أخرى :

– زينه ! قبل أن تقتليني...

فناولته الضربة الثانية.

– سامي عاصم...

– أتلفظ اسمه بهذا الفم الوسخ؟

وقذفته بضربة أخرى. وتراجعت ، فصرخ :

– سامي عاصم لم يمت !

ولكنّها نادت أخاها :

– اِبتعد يا طام.

وسدّدت البندقيّة.

– سامي عاصم لم يمت ! اِنتظري. اِنتظري. الجثّة التي رأيتها أمام ديوان الحرب في عاليه ليست جثّة سامي عاصم.

فانفرجت أصابعها عن الزناد. وجاء طانيوس فنكّس بندقيّتها بيده ، واقترب من خليل المعلّا بخطى بطيئة وهزّه من كتفه :

– ماذا تقول؟

وأقبلت زينه وقد ثاب إليها ما غرب من عقلها ، فأخذ الجاسوس يقصّ عليها قصّة هرب سامي عاصم ورئيس الحرّاس شفيق أفندي العلايلي من سجن عاليه ، وما كان من الخدعة التقليديّة التي دبّرتها الدولة بعد أن فات العسكر اللحاق بهما ، وذلك بأن انبطح خليل المعلّا في الساحة على أنّه جثّة سامي. وانبطح أحد الجنود الضخام إلى جانبه على أنّه جثّة رئيس الحرّاس... وزينه تصغي مدهوشة ، وتعيد إلى ذهنها صورة تلك الجثّة الضئيلة المسودّة المغطّى رأسها بكيس خيش ، وتحدّق إلى قدمَي الأسير تتعرّف فيهما على تينك القدمين ، وإلى كتفه الضيّقة الواطئة تتعرّف فيها إلى تلك الكتف. ثمّ يخامرها ، بالرغم من ذلك ، الشكّ فيما تسمع فتشتعل أحشاؤها ثانية ، وتحدّثها نفسها بأنّ هذا الجبان إنّما يختلق هذه الحكاية وينسج ثوبها الجميل البرّاق التماسًا للنجاة ، فتتذكّر دعوة الضابط راسم بك لها على أثر عودتها من عاليه ، وتطنّ في أذنيها من جديد أسئلته المريبة : «أين بتّ ليلتك في عاليه؟ هل رأيت سامي بعد هربه من السجن؟...» ثمّ تتذكّر هذيانه ، عندما أسكرته في تلك الليلة ، وقوله : «لو كنت سكران لأخبرتك أشياء عن سامي عاصم... ولكنّني لن أخبرك... مسكين خليل المعلّا ! لقد مات أربع مرّات... !!!» حينئذ يعاودها الاطمئنان إلى ما تسمع ، فتجتاح كيانها موجات من نشوة ليس لها بها عهد من قبل ، وتهدر هذه الموجات في داخلها هديرًا وتصعد إلى حلقها دفعات مِن شهد إثر دفعات ، فتلبث جامدة تصغي إصغاءة إذا عكّرها عليها معكّر فإنّما هو من أسئلة طانيوس ، هذه التي يطرحها على المعترف

بإلحاح وعنف، فتودّ لو يُمسك عنها ويدعه يتكلّم وحده... وربّما كبر هذا الذي تسمع فلم تسعه نفسها ففاض حتّى غمرها بجوّ الحلم، فليست تعتقد أنّها في يقظة، بل أنّ هذا الذي تكاد تلمس حقيقته وبراهينه لمس اليد لا يمكن أن يكون إلّا هاجسًا من هواجس حبّها أو طارقًا من طوارق الأمانيّ. ولو لم يكن إلّا هكذا لشاءت أن لا ينقطع حبله ولا ينصرم عهده. بل لكان أقصى ما ترجوه أن يمتدّ بها فلا تفيق إلّا في ظلام القبر.

– يجب أن تصدّقيني يا زينه. صدّقيني ثمّ افعلي بي ما بدا لك. أنا أعلم أنّ حياتي التي قضيتها في التجسّس على بني قومي خدمة لأعدائي وأعدائهم الأتراك قد قاربت النهاية، بل يجب أن تنتهي. تستطيعين أن تضعي لها حدًّا بيدك أنت. على أنّي أحببت أن أكفّر عن ذنوبي فاعترفت لك بكلّ هذه الأمور. كنت آتيًا مع الضابط في العربة لأتحسّس مدى ما تريد العصابة البيضاء بإبراهيم فاخر، فإذا العصابة تقع عليّ وعلى الضابط... أنا لا أطلب منك شيئًا. لا. أنا لا أطلب منك شيئًا. كلمتي الأخيرة لك: صدّقيني! صدّقيني! لقد طالما كذبت، ولكنّ كلمتي في هذه الساعة فيها من الصدق ما يخسف بكلّ ما كذبت في حياتي.

كانت زينة تصغي وقد غرست بندقيّتها في الأرض واتّكأت عليها. فتابع:

– أنا يا زينه مطّلع، بحكم وظيفتي، على كثير من أسرار الدولة وواقف على سير الثورة العربيّة في الصحراء. إنّ العرب يتقدّمون من ظفر إلى ظفر، وسيتقلّص ظلّ الأتراك قريبًا عن هذه البلاد... سامي عاصم وشفيق العلايلي هما في طليعة الثوّار، وقد تقلّد كلّ منهما رتبة ضابط في الجيش العربيّ. إنّ التقارير الواردة إلى الأتراك من ميدان القتال تؤكّد ذلك. ولو كانت لديّ خريطة لعيّنت لك أين وصل سامي وصديقه، ووضعت إصبعك على مكانهما.

٣

في الأرض الواسعة... في السهل الكبير الذي لا حدود له... وقد خلع عليه القمر حلّته الفضّيّة الساحرة، وتوشّت القبّة الزرقاء بآلاف النجوم، قافلة تُدلج بين السماء والصحراء. خيط قصير على طوله، ضئيل على ضخامته. يذهب مستقيمًا حينًا وينعرج حينًا، يصعد على الكثبان ويهبط، والمطايا تخفق على الرمال الليّنة الوثيرة، ترتمي أخيلتها تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار قافلة أخرى إلى جانب تلك تلتزمها أبدًا، الخُفّ على الخُفّ والغارب على الغارب، أشدّ ما يأخذ فيها صمتها الماشي كأنّها من بنات الحلم أو طيوف الأرواح. وفي المقدّمة هجينان متحاذيان، يرفعان رأسيهما بكبرياء، ويميل راكباهما الواحد على الآخر فيتبادلان نظرة. وقد يهمّان بالحديث فلا يجدان له سببًا، فيعودان ساكتين، متهاديين على السنامين، مستسلمين إلى هذا الجمال الهادئ ينبسط أمامهما ملء السماء والصحراء.

كان سامي وشفيق يقصدان بقافلتهما إلى أقرب محطّة للقطار الحديديّ، ومعهما مدفعان خفيفان وكلّ ما يحتاجان إليه لقضاء المهمّة الدقيقة التي انتدبهما القائد لها. وفي الهزيع الثاني من الليل أشرفت القافلة على المحطّة، وهي واقعة في وادٍ صغير تحت رابية يمتدّ الخطّ حواليها ويلفّها، كالحيّة لا ذنَب لها ولا رأس. فرأى سامي اعتلاء الرابية فانحرف وقاد المقدّمة، وأشار على شفيق أن يضبط المؤخّرة.

وكانت الغيوم قد حجبت القمر، وترطّب الجوّ بنسمة باردة واطئة تزحف على الأرض. ثمّ إذا هي تشتدّ وتتحوّل إلى ريح تنفخ الثياب وتعوق أصحابها عن الصعود. ثمّ جعلت تصفر في آذانهم وتصفع وجوههم فيتهاوى بعضهم على بعض. ثمّ تعاظم الصفير فإذا هو ليس صفيرًا بل دمدمة بزغردة بنواح بعزيف بمواء: أصوات تجتمع متنافرة وتتنافر مجتمعة كألحان

الجحيم ، تجتاح ، تقتلع ، تذرّي في الفضاء ، تذهب بأحمالها الطائرة ، ضاربة بها الآفاق طولًا وعرضًا ، وعلوًّا وسفلًا... ثمّ سقط الجوّ بالبَرَد زخًّا كالرصاص يجرّح الأكفّ المتواثبة المتمسّكة بالرمل والحصى ، والفحول تهدر من الفزع ، بعضها يحرن ويأبى التقدّم ، والبعض الآخر يقطع اللُّجم شاردًا أو يزلّ متدحرجًا إلى السفح ، وقد جُنّ الليل فلا يرى الرائي إلّا هولًا ، واختلطت استغاثات البشر بصيحات الحيوانات بزغردات ألف ألف جنّيّة ، وقرص البرْد الجلود وشلّ الأعضاء فهي تترامى عاجزة وتودّ لو تلتصق مواضعها ، لولا أنّ الرياح تنفضها فتعود إلى الارتفاع لتعود بها الرياح سيرتها الأولى.

فصاح سامي :

– على بطونكم ! على بطونكم ، ولا تتحرّكوا !

فمَن سمعه ممّن كانوا قريبين منه انبطحوا على بطونهم يغرسون أظافرهم في الأرض صامدين للعاصفة. وانحدر هو يتابع صياحه :

– اِضطجعوا على بطونكم ! على بطونكم ولا تتحرّكوا ! على بطونكم !

فتردّدت الأصوات من بعده ناقلة الأمر من جماعة إلى جماعة. ثمّ هدر صوت شفيق فوق أصواتهم :

– على بطونكم ! على بطونكم !

فلصقوا جميعًا بالأرض. وبركت الجمال ، إلّا بعض أشباح ظلّت تدور على نفسها وتلوّح بغواربها المروّعة في وجه الليل المجنون.

* * *

بعد ربع ساعة هدأت العاصفة بمثل السرعة التي هبّت بها ، وانقشعت الغيوم هاربة إلى الشرق وأطلّ القمر ، فأصدر سامي أمره بالسعي وراء الحيوانات الشاردة ، فانطلقوا يبحثون عنها ، ولم يلبثوا أن عادوا بأكثرها لم يفقدوا إلّا أربع نياق. ثمّ استأنفوا الصعود ، وسبقهم سامي فأشرف من القمّة فلمح أضواء المحطّة :

ودار حول المكان فاختار منصبًا للمدفعين. ثمّ أرسل جنديّين يستكشفان الأعداء ، فغابا ساعة ورجعا يقولان إنّ الأتراك ينامون ملء عيونهم. وكان العرب أحقّ منهم بذلك فاستسلموا إلى نوم هنيء.

ولمّا اطمأنّ سامي عليهم حمّل شفيق معدّات الانفجار ونزلا معًا يتلمّسان على الخطّ الحديديّ أصلح موضع للغمه.

٤

عند بزوغ الفجر أخذت الحركة تدبّ في المحطّة ، واستطاع سامي أن يرى الجنود الأتراك يستيقظون على صوت البوق ، يروحون ويجيئون بين بنايتين واطئتين في إحداهما برج يعلو في الفضاء ، له عيون عموديّة سوداء تطلّ على الجهات الأربع. ثمّ رأى ستّة جنود حاملين البنادق قد خرجوا من البناية الأولى على الخطّ الحديديّ إلى ناحية الرابية ، حتّى إذا وصلوا إلى السفح انقسموا ، فذهب ثلاثة إلى اليمين وانعطف الثلاثة الآخرون إلى اليسار ، وسامي يتناوبهم بمنظاره ، ويشير على رجاله بالهدوء التامّ.

وفجأة غاب الثلاثة الذين إلى اليمين ، وتفرّق الثلاثة الباقون كلّ واحد أخذ جهة. وصعد أحدهم توًّا إلى الأكمة يدفع بندقيّته في الأرض متكئًا عليها ، مسدّدًا خطواته إلى مكمن العرب بكلّ اطمئنان ، وهو يتوقّف بين الفترة والفترة ويطوّف بصره حواليه ، ثمّ يتنفّس الصعداء ويتابع طريقه ، حتّى لم يبقَ بينه وبين القمّة إلّا بضع خطوات ، وبان شارباه المعقوفان ينفخ بينهما لاهثًا من شدّة التعب.

كان شفيق واقفًا غير بعيد من سامي والبندقيّة بين يديه ، فنظر إليه كأنّه يستشيره : «هل أطلق ؟» فشال بحاجبه سلبًا. إنّ أقلّ طلقة في تلك الساعة كانت جديرة بأن تفسد على العرب خطّتهم. فغرضهم الرئيسيّ

نسف القطار لا الاشتباك مع حامية المحطّة. وكان التركيّ يتقدّم دائمًا، فأشار سامي على شفيق بالاستتار جيّدًا كيلا تنفّر الصاعد إليهما ريبة. فإذا هو يقف ويدير وجهه إلى الوراء كأنّه أزمع الرجوع. على أنّه لم يلبث أن استأنف الصعود. وكان إلى جانب سامي وشفيق فرجة بين صخرين لم يشكّا أنّ صاحبهما والج فيها، فلم يكد يفعل حتّى وثب سامي إليه فاعتلاه ضاغطًا عنقه وطرحه أرضًا فعركه بفخذه فاندلق لسانه، وأقبل شفيق يدفع فوهة مسدّسه فوق ذلك الوجه المذعور. وأخذ سامي يستنطق أسيره عن قوّة الأتراك، ففتح فاه يوأوئ، فحسبه شفيق يتعمّد الصمت فضربه بالمسدّس على جبينه، فطفرت الدموع إلى عينيه وتراقص شارباه، وتلعثم يطلب الكلام فلا يطيعه. فهمّ شفيق بالضربة الثانية فمنعه سامي لما تحقّق لديه من أنّ الرجل استحوذ عليه الخوف فعقد لسانه، فأفهمه أنّه لن يقتله شرط أن يعترف بكلّ شيء، بل يكرمه كأحسن ما يكرم العربيّ ضيفه. فاطمأنّ وأخبر أنّ الأتراك يبلغون الخمسين، وأنّ القائد أرسل عند الفجر الكاذب مَن استكشف سفوح الأكمة، فوقع المستكشف على جثّتي ناقتين، فاستدلّ منهما على مرور العرب بالقرب من المحطّة، ولكنّه ظلّ في جهل للناحية التي سلكوها بعد العاصفة أو الموقع الذي أناخوا فيه، وأنّه قلق من أجل ذلك قلقًا شديدًا لأنّه ينتظر قطارًا بعد طلوع الشمس يحمل نحوًا من مائتي جنديّ وعددًا من الضبّاط قاصدين إلى مدينة معان للدفاع عنها، بعد أن تفاقم حصار العرب لها ونفدت فيها المؤن والذخائر.

ولم يكد الجنديّ يفرغ من إفادته الثمينة حتّى استغاث بسامي طالبًا قوتًا، معترفًا بأنّه لم يذق منذ يومين إلّا رغيفًا أسود وقليلًا من الحساء. فسلّمه إلى شفيق فساقه وألقى بين يديه طعامًا، وتركه يلتهمه بنهم الذئب في حراسة بدويّ، وأوصى البدويّ أن يقتله لأوّل صوت يحاول أن يطلقه أو حركة مريبة يأتي بها.

وكان سامي في تلك الأثناء يتفقّد المدفعين ويهيّئ رجاله. حتّى إذا رضي عن كلّ شيء تسلّق القمّة من جديد يصوّب منظاره إلى أطراف الصحراء.

كانت الشمس قد ذرّت وانتشر البهق في الآفاق. فلاح له في الأبعاد ما ظنّه بادئ ذي بدء تلويحة من تلاويح الصباح، فسوّى المنظار وحدّد بصره، فإذا شيء مثل الغمام... بل هو دخان وتحت الدخان مثل النقطة الطويلة السوداء. فلم يشكّ أنّه القطار الموعود، فدعا شفيق وأعطاه المنظار، فوضعه على عينيه فرقص قلبه فرحًا. ثمّ ترامت عيون الصديقين عفوًا إلى السفح حيث وضعا اللغم:

— أأنت واثق منه؟

فابتسم سامي وأجاب:

— سترى مشهدًا عجبًا.

كان القطار يقترب منسابًا على الرمال، نافثًا دخانه المتكاثف، متعاظمًا على رأي العين. ثمّ حمل الهواء قرقعة دواليبه فأحسّ لها سامي ارتعاشة في بدنه. وأبى شفيق إلّا أن يذهب إلى الأسير ويشير بيده الضخمة إلى القطار كأنّه يدعوه إلى جنازته. ثمّ لم يبقَ بين القطار والرابية إلّا رمية حجر، والدخان يخرج من فوهة المحرّك متدافعًا متقطّعًا بنغمة بطيئة متوازنة. فلم يستطع شفيق كبح نكتته وقال:

— حازوقة الموت!

ثمّ تداركت النغمة، واختفى المحرّك يجرّ خلفه سلسلة طويلة من الحافلات فتبلعها الرابية واحدة فواحدة. فقفز سامي إلى الجهة الأخرى من القمّة، وتبعه شفيق وقبعا ينتظران بروز القطار، وقد خفتت ضجّته وراء الأكمة، ثمّ أخذت تهدر، وشقّ الفضاء صفير ارتجّ له قلب سامي. وكرّ القطار على الأثر مسرعًا، فمرّ المحرّك فالحافلة الأولى فالثانية فالثالثة... فالتفت شفيق إلى صديقه فرآه يحملق مأخوذًا... فالرابعة فالخامسة فإذا دويّ كالرعد قلقت له الصحراء في سكينتها، وجبل من الدخان يتعالى في الجوّ حتّى حجب الأنظار، وأخشاب وحدائد وأشلاء ودواليب

تدور لتهوي في خليط عظيم من الدخان والغبار والرماد. وعقب ذلك سكوت رهيب، وأخذت السحابة الكثيفة تنقشع شيئًا فشيئًا عن مركبات محطّمة هنا ومنقلبة هناك، وقطعة من الخطّ قد اقتلعها اللّغم ورفع رأسها إلى العلاء، وقتلى يتمدّدون على الأرض، وآخرين يعلقون كالحشرات على بقايا القطار، وصيحات ذعر، وأنّات ألم، وهتافات...

على أنّ سامي لم يكن لديه متّسع من الوقت لكي يتملّى من هذا المنظر الرائع، فانقلب إلى رجاله يوزّعهم وينظر بين هذا وذاك إلى الجنود المبادرين من المحطّة إلى نجدة إخوانهم. حتّى إذا دنوا من السفح وتكتّل الأعداء جميعًا، قتلى وجرحى وأحياء ومنجدين، نادى بإطلاق النار، فدوّى المدفعان بقنابلها وأزّ الرصاص من البنادق المتحصّنة فوق، فقامت الضجّة بين الأتراك وضاع رشدهم بين هول ما ينظرون بين الأقدام وهول ما يسقط على الرؤوس، فصاح بهم قائدهم ورفع سيفه وتقدّم وهو يرجو أن يتبعوه. فإذا هو يرتدّ رأسه إلى الوراء منقصفًا، وتتدحرج جثّته على السفح. فما كاد جنوده يرون مصرعه حتّى أدبروا. فشهر سامي سيفه وانقضّ، فوثب رجاله من أكنافهم وانقضّوا معه، يُعملون سيوفهم بالصامدين ويتعقّبون الفارّين.

واستعجل بعضهم الغنيمة فهجموا يغزون الحافلات ويستولون على ما فيها من ذخائر ومؤن. وشفيق بينهم يحطّم ما تبقّى من أجزاء القطار. وحانت من سامي التفاتة فإذا بجنديّ تركيّ يزحف على تلك المركبة المهشّمة ويدلي برأسه فوق شفيق، ثمّ يمدّ يده بمسدّس كبير محملقًا، كأنّ الرصاص سينطلق من عينيه! وشفيق ما يبرح لاهيًا، مزهوًّا بعمله، وقد تقوّس ظهره وانصبّ المسدّس فوقه. فسدّد سامي بندقيّته، فأجفل شفيق للطلقة القريبة، ورفع بصره فإذا أصابع الجنديّ التركيّ تنفرج عن المسدّس، فتلقّاه منه ونظر إلى سامي بابتسامة. ثمّ سحب الجثّة إلى الأرض ورفسها.

وأدار سامي وجهه وجمع جنوده، فحملوا ما استطاعوا تحميله على جمالهم وجمال حامية المحطّة، وساقوا أسراهم وانطلقوا لا يبالون بالحرّ، لاضطرارهم أن يلتحقوا بفرقتهم قبل الوصول إلى وادي أبي اللسان.

٥

عند الظهر تضرّمت الهاجرة وجعلت الشمس تضرب الرؤوس، فيتراجع صدى الضربات في الأصداغ، وتحترق الأجفان حتّى لتكاد تنفضّ من الوهج المتصاعد من العراء، المترامي من الفضاء، المتلاقي بينهما عمودًا عرض الصحراء، حاجزًا هائلًا لا جسم له، تخترقه الجمال بأجسامها القاسية العتيّة. والطريق لا معالم لها ولا رسوم، تذهب القافلة جنوبًا وكأنّها تذهب شمالًا، وتتقدّم وكأنّها تتقهقر، تتيه ساعة فتقف متجمّعة، وتدور العيون إلى كلّ صوب تستهدي بالظنّ والتوهّم، حتّى يرفع الدليل ذراعه ويهتف مشيرًا إليهم، فتكرّ الإبل كما يكرّ الخيط من بكرة، وتستأنف القافلة السير.

* * *

صخور تذهب في السماء قبابًا، وتنبطح كحيوانات الأساطير، تتعاقب قوافل، وتتحاذى صفوفًا، تتباعد هنا كالقطيع السارح، وتتراكب هناك كبقايا مدينة دمّرها الزلزال، وشمس الأوّل من تمّوز تعربد على الأفق العاري، وتكسّر أشعّتها الحادّة على الصخور، فتلتمع فيها ألف مرآة ومرآة، وتمتدّ لها ظلال أغرب من أشكالها وأعجب، فيتألّف من ذلك كلّه وسط الصحراء عالم رهيب هو الذي تصوّره المتصوّرون مواطن للجنّ ودهاليز لائتمارهم وسحرهم.

في ظلّ صخرة من هذه الصخور المهيبة استلقى

شفيق على ظهره إلى جانب نبعة ، يرفع رأسه بين الحين والحين متفقدًا الجنود وقد تمددوا في الفيء يتقون الحر ، وشردت خيلهم وجمالهم غير بعيد تتلمس الكلأ ، ثم يعود إلى الاستلقاء عاقدًا يديه تحت رأسه مستسلمًا إلى إغفاءة حلوة .

وإنه لكذلك إذ انتبه على أزيز رصاصة فتناول بندقيته وزحف إلى الشفير . فإذا شيء من الوراء يسحبه من قدمه فالتفت وقال :

– سامي ، هل سمعت الطلق ؟

فاكتفى من الجواب بإيماءة ، وانحنى على الماء يعبّ منه ويمسح شاربيه مبتردًا . ثمّ خلع مسدّسه من وسطه وألقاه على الأرض واضطجع بالقرب من صديقه .

ومضت دقيقة سكوت . ثم مال شفيق وقال :

– الرصاصة من الوادي ، أليس كذلك ؟

– كانت مرسلة إليّ فضلّت الطريق . أظنّ أنّهم يبلغون الأربعمائة .

– ولكنّنا نحن فوق ، وهم تحت .

– وهذا ما يجعل واحدنا بعشرة منهم .

– إذن ؟

– القائد يفضّل أن نحاربهم بالنوم .

– يريد أن يرغمهم على الاستسلام ؟

– أو أن يدفعهم إلى الصعود إلينا فنصطادهم كالعصافير .

وعاد سامي إلى إطباق عينيه . حتّى إذا أخذه النعاس تسلّل شفيق وقصد إلى القائد .

وفجأة استيقظ سامي على صهيل وجلبة . فوثب ينظر فإذا شفيق على الكتف المحاذية من الوادي قد علا جوادهُ ، وإذا هو يزعق زعقة تجاوبت أصداؤها في الأرجاء ويندفع نزولًا . وما هي إلّا أن انصبّ الوادي من جهاته الثلاث بالرجال ، البعض على الخيل والبعض على الجمال ، وهي تنقضّ بهم كأنّها بعض الصخور حطّها السيل ، وهم يطلقون النار من على ظهورها ، وهو في الطليعة يترك ذؤابة كوفيّته الحريريّة للهواء ، ويرتدّ بين الفترة والفترة كخطف البرق ليزعق زعقة أخرى ... ونظر سامي فرأى الرعب يدبّ في قلوب الأعداء ويضعضعهم ، فهم لا يدرون كيف يتّقون الرصاص وقد زخّ عليهم كالمطر من كلّ صوب .

فنسي ، في نشوة هذا المشهد ، هوس صاحبه ومجازفته بما يجازف به ، فبادر إلى بندقيّته . ففرسه الشهباء فامتطاها ولوى عنقها ، فانحدرت تلحق بالسابقين ، وكأنّها غضبت لما كان من إمساكها فهي تحمحم وتمدّ برأسها وما تكاد حوافرها تطأ الأرض . وهو من فوقها يسلّم إليها تسليمًا ، قد أعمى الوغى عينيه وسدّ منخريه ، ولغط المعركة يضجّ في أذنيه صراخًا وهديرًا ودويّ رصاص وهويّ أجسام . فيحاول أن يرى فتلمع الشمس خلال الغبار والبارود المنعقدين طبقًا بين السماء والأرض ، فتؤذي بصره ويحسّ لها بين أجفانه مثل الجراح . حتّى لكأنّ هذه الجراح قد سالت بدماء محرقة لو رفع كفّه إلى خدّيه لالتقط حبّاتها المختلطة بعرقه المتصبّب ... والفرس ماضية به هائجة مجنونة ، تشقّ الحجاب الكثيف كالصاروخ منطلقًا بلا وعي ، وإذا بها تزلّ على حين غرّة وتنقلب رأسًا على عقب ، وتقذفه وحيدًا في الفضاء فيقفز ثمّ يسقط وسط المعركة ، لا حراك ولا شعور .

٦

لم يكن سامي يهاب الموت . ولكنّه ، لمّا ثاب إلى رشده بعد قليل ، عجب كيف أنّه لا يزال في قيد الحياة . وبلغ به العجب أن لم يجرؤ على فتح عينيه ، فبقي ساهمًا يتلمّسُ في ظنّه ألم جرح ما ... فإذا هو لا يحسّ ألمًا البتّة ، إلّا دوارًا في رأسه ، فهو لا يقدر على تحريكه كأنّه جلمود أو جبل . ثمّ سمع أصواتًا تتردّد في أذنيه آتية من بعيد ، غامضة ، عميقة القرار ، بينها

أنّات قريبة ، واضحة ، موجعة الوقع ، محدّدة النبرات . ففتح أجفانه فبهرته الشمس ، فعاد إلى إطباقها ، يصغي إلى هذه الأنّات المتواصلة ويتملّى منها . ثمّ نظر من جديد فواجهته جثّة فرسه وقد انطرحت مقصوفة العنق وتمدّدت قوائمها الامتداد الأخير .

وتململ يريد القيام ، فإذا هو بحركة من ورائه ، فارتدّ فرأى جنديًّا تركيًّا يزحف بين القتلى ساحبًا ساقه المشلولة ، وكلّما مدّ يده أرسل أنّة من أعماق صدره وعضّ شفته . فتناول مسدّسه وهمّ بالإجهاز عليه ثأرًا لمئات الجرحى والأسرى من العرب الذين فتك الأتراك بهم بلا حقّ ولا رحمة . وكان التركيّ مدبرًا ما يفتأ يجرجر نفسه على الحصى ويغرس أصابعه في الأرض تارة ، ويزحل على كوعه تارة أخرى . فرفع سامي رأسه يرافقه في هذه الرحلة البطيئة الشاقّة ، فإذا هو يتحوّل شمالًا ويظهر جانب من وجهه الأبرص تبرق الرقشات فيه على الشمس بالقرب من قطرات قانية تتحدّر من صدغه . ثمّ يدنو فيحملق بجثّة عربيّ بارزة بعباءتها الصفراء بين عشرات الجثث المترمّلة بالثوب التركيّ ، ويضرب إليها بكفّه ملهوفًا ، فتقع الكفّ دونها عاجزة ، قد سمع سامي وقعها الخائب على الأرض . ثمّ دنا الجريح دنوة أخرى وتناول أطراف العباءة بكلتا يديه يشدّ بها . فتعجّب سامي من فعلته وصوّب المسدّس . ثمّ قال : «بل أنتظر ماذا يريد» ، والآخر ما يزال يعالج العباءة وهي تأبى أن تطيعه لضخامة الجثّة وعجزه عن تقليبها . ثمّ انكبّ على الأطراف التي بين يديه يمرّغ فيها وجهه تمريغًا غريبًا ، وكأنّه يتشمّمها ، ويمسح عليها بشفتيه بمثل القبلات ، ثمّ يعلو بذقنه جهده متصفّحًا وجه القتيل .

فلم يشكّ سامي أنّ الرجل مجنون فأدركته عليه الشفقة ومشى إليه هاتفًا :

– هيه ! ماذا تعمل يا هذا؟

فانتفض الجنديّ رافعًا يديه :

– أنا عربيّ مثلك !

ثمّ فتح عينيه فالتقتا عيني سامي . كان يرتجف من الذعر منتظرًا أن يتلقّى الموت بين المنية وأختها . ولكنّ سامي ظلّ خافضًا كفّه بالمسدّس ، يحدّق إليه تحديقة طويلة ، وقد استفاقت في ذهنه صورة بعيدة يجتهد في أن يدنيها ويستجلي شبَه ما بينها وبين هذا الوجه ، فتغيب في ظلمات الماضي وتضيع في مجاهل الذاكرة ، فيبلع بريقه ويرفع كفّه إلى جبينه ، والجريح يتمتم مستغيثًا :

– أنا عربيّ مثلك ، لا تقتلني ! وقد كنت زاحفًا إلى هذه العباءة لألبسها وأنضمّ إليكم . أنا من الشام ، حاولت الهرب مرارًا من الجيش التركيّ لمّا كنت في لبنان فلم أستطع ... أرسلوني بالرغم منّي إلى هنا مع رفاق لي يكرهون الأتراك مثلي ... إنّ العربيّ أكرم من التركيّ . العربيّ لا يقتل أسيره ولا يجهز على جريحه .

وكان سامي يصغي تائهًا وهو ما يزال يتذكّر . ثمّ انحدر بصره عفوًا إلى قدمَي الجريح واستقرّ عندهما ، وارتدّ على الأثر هاتفًا :

– كامل أفندي ! الجاويش كامل أفندي .

فغمرت قلب الآخر موجة من الدهشة ، وطفرت دموع الفرح إلى عينيه :

– كامل الورّاق . من أين تعرفني؟

– أنا سامي عاصم .

فخُيّل إلى كامل أفندي أنّه في حلم . ألم يُقتل سامي عاصم وهو يطلب الفرار من سجن عاليه ، ويُقتل معه رئيس الحرّاس؟! وأردف سامي :

– وشفيق العلايلي هنا . وهو بطل هذه المعركة العظيمة . هل نسيت فلَق الضابط راسم بك وبيت كسّار في ساقية المسك؟

– الأخ حنانيا ! الأخ حنانيا !

ونهض على قدميه كالشيطان ! وتعانق الصديقان أشهى من عناقهما الأوّل في بيت كسّار .

ثمّ أراد سامي تضميد جرح كامل ، فسح

الجاويش صدغه ضاحكًا :

– لا شيء. لا شيء. لست مجروحًا. أنا صبغت وجهي بالدماء!

وأخذ كلّ منهما يقصّ على صاحبه قصّته...

ولاحت في فم الوادي عباءة شفيق وارتفعت ذراعه في الفضاء يلاعب بندقيّته فلوّح له سامي ، فهمز مطيّته إليه.

ووقف شفيق ينظر إلى مرافق صديقه متسائلًا مَن هو. فبادره سامي بتعريفه إليه ، وكان قد ذكره له فيما ذكره عن عهده بساقية المسك. فانفرجت أساريره ، وبسط كفّه يربّت على كتف كامل أفندي ، ثمّ قال :

– اِنتظراني في الخيمة.

وانطلق بجواده يصعد ويهبط ويعدّ القتلى.

ولمّا رجع إلى الخيمة قال :

– ثلاثمائة مقابل ثلاثة منّا وستّة جرحى.

ثمّ أشار إلى عباءته :

– وأربع خروق في هذه العباءة الثمينة.

وقعد إلى جانب سامي يستمع معه إلى أخبار الجاويش عن ساقية المسك وبيت كسّار.

٧

في ذلك الوقت كانت زينه جالسة في إحدى الخرائب في ضاحية بكفيّا وقد انحنى طانيوس عليها يقول :

– زينه ، أنا ابن عمّك. هل تذكرين ما كان المرحوم جدّك يقول؟ «يلّلا يا طانيوس! شدّ حيلك! زينه عروسك!»... لماذا تضحكين هكذا؟ لو تعلمين كم تؤذيني هذه الضحكة! لو تعلمين عذابي من أجلك يا زينه! ألا تشعرين بعذابي؟ على الأقلّ أشفقي عليّ. أنا أطلب منك أن تشفقي عليّ... زينه ، زينه! سأفعل ما تريدين. أعدك أنّي لن أسلب أحدًا قرشًا ، ولن أنهب رغيفًا... تعودين إلى الضحك! أنت لا تؤمنين بكلامي ، تعتقدين أنّني خُلقت لصًّا. ولكنّك غيّرتني. تستطيعين أن تغيّريني. بماذا تفكّرين؟ أديري وجهك إليّ. أصحيح أنّك لا تحبّينني؟ قولي ، قولي. أتتجاسرين على الادّعاء أنّك لا تحبّينني؟

– من قال لك إنّني لا أحبّك يا طانيوس؟

– كيف تحبّينني؟

– كما تحبّ كلّ فتاة ابن عمّها.

– ليس هذا هو الحبّ الذي أريده.

– أحبّني أنت كما تريد ، وأحبّك كما أريد.

– ولكنّنا نختلف.

– أبدًا.

فاقترب منها ملهوفًا. فقالت :

– أسمع حركة. هس! هس!

ولكنّه انقضّ عليها. فضربته على يده فتراجع ذليلًا :

– ترين أنّنا اختلفنا حالًا.

– إذا أردتَ أن نبقى متوافقين فحافظ على المسافة (وأشارت إلى ما بينها وبينه).

فحرد وانتحى زاوية.

ثمّ قال :

– سأذهب وحدي. أقول لك سأذهب وحدي إلى بيت إبراهيم فاخر.

– بل لا تتحرّك من هنا.

– لو تركتني البارحة لصلّينا اليوم لراحة نفسه.

فضحكت ، وكاد يضحك.

– بل قُل لكانتْ جيوبك ملأى بالذهب.

– هو يهزأ بنا ولا شكّ. وحقّه أن يهزأ. فقد أنذرناه أوّلًا وثانيًا وثالثًا... أنتِ تفسدين سمعة العصابة البيضاء.

– خير ، على كلّ حال ، من تلطيخها بأعمالك.

– تريدين أن نعيش عيشة النسّاك. أنت تتغذّين بالغرام. وكان ينقصك أن يأتي هذا الملعون خليل المعلا

ويقول لك إنّ سامي عاصم ما يزال حيًّا! الحقّ عليّ. كان من واجبي أن أقتله قبل أن تَرَيه. ومن يضمن لك أنّه لم يخترع هذه الحكاية من بطنه؟ هذا جاسوس والجواسيس يكذبون كما أشرب أنا الماء. ربّما كان يعتقد، المسكين، أنّه إذا لفّق لك هذه الكذبة عفوت عنه. ولكنّك قتلته بلا رحمة. تقولين لي أنتَ بلا ضمير إذا قتلتُ واحدًا لأستولي على ماله. أنتِ التي بلا ضمير. وإلّا فلماذا قتلت خليل المعلّا بعد أن بكى بين يديك واستغفر؟ ألأنّه بشّرك بأنّ سامي لم يمت؟! أهذا جزاؤه منك؟! أنا إن قتلت فلي غاية، هي أن آكل. أمّا أنت فتقتلين لوجه الشيطان. قلت لك إنّ عرامك يجعلك وحشة، وحشة ضارية! فهل أعجب بعد ذلك إذا لم يكن عندك عاطفة نحوي؟ لا، لا. لا أريد هذه العاطفة. أنت غولة، أنت حجر!...

وزينه ساكتة، شاردة الفكر، تنظر إليه ولا تراه. وكأنّ سكوتها حفزه إلى الاستزادة فتابع مستهزئًا ملء شدقيه:

– إذا كنت تظنّين أنّ سامي يفكّر بك وبساقية المسك وبمغارة الخوريّة وبذخيرة عود الصليب فأنت مجنونة. ذخيرة عود الصليب تمنعه من حبّ النساء! أم تعتقدين أنّه لم يرَ على شكلك؟ بيروتيّ، وابن جاه، وغنيّ! إذا انتهت الحرب وطلعتِ في الطريق بوجهه فسيحيد عنك إلى الطرف الآخر... هذا إذا كان حيًّا. ولكن اطمئنّي بالًا. إنّ مئات وألوفًا من العرب قُتلوا في الثورة ويُقتلون اليوم وسيُقتلون غدًا. ذخيرة عود الصليب تنجّيه من الموت! ها ها! اسمحي لي أن أضحك، هذا دوري في الضحك عليك.

– أُسكت!

– لا أسكت. لا أسكت! إنّني أتساءل ما معنى وجودي معك؟ أنا أبله! أبله! أبله! وفوق هذا تجبرينني على دفن الموتى. أطوبيًّا البارّ أنا؟... اِضحكي، اِضحكي! اِدفنيهم وحدك. أنا لن أوسّخ يديّ بعد اليوم أبدًا! وفوق هذا لا تدعيني آخذ من أحد شيئًا. لولاك لأصبحت من أكبر الأغنياء، ولتزوّجت بنت أكبر غنيّ. لا لا. لا أستطيع أن أعيش معك. يبس بطني من الخبز الجافّ.

– نعمة من الله! الناس يموتون جوعًا.

– ما يهمّني من الناس أنا؟ ماتوا أو عاشوا على حدّ سواء.

– ألا تتألّم لهم؟

– أتألّم؟ أنا! ولماذا أتألّم؟

– ضع نفسك مكانهم قليلًا.

– أنا؟

– إي، أنت. والأغنياء كإبراهيم بك فاخر قد استولوا على بيوتهم وأرزاقهم ببضع ورقات تركيّة أو ببضعة أرطال من الطحين المغشوش، ولم يبقَ لديهم عمل، وانقطعت عنهم الأموال من أميركا، ماذا كنت تصنع؟

فهزّ برأسه ونظر إليها شزرًا وكرّر:

– أنا!

قالها هذه المرّة بلهجة غلب فيها الخوف على الاستخفاف، فتحدّته:

– قلت لك إي أنت!

– كم هو عدد الأغنياء؟

– أين؟

– في بكفيّا وضواحيها.

– أربعة أو خمسة.

– وكم هو عدد الفقراء؟

– الباقون كلّهم.

– يعني؟ يعني: ألفا فقير مقابل أربعة أو خمسة أغنياء.

– وأكثر من ألفين.

– أفهمتِ ماذا كنت أفعل لو كنت فقيرًا؟

فبرقت عيناها محدّقة إليه، فعاوده الجزع فخفض رأسه وقال:

– لا شيء، لا شيء...

٨

كان طانيوس من طينة غريبة عن الطينة التي جُبلت منها زينه ، لم يفهم يومًا من الأيّام المَثَل الأعلى الذي تجاهد له ، ولم يتذوّق قطّ حلاوة ما كانت تجده هي في ذلك السبيل . ولقد بذلت ما في وسعها لرفعه إلى مستواها ، وتنشيقه الهواء النبيل الذي تتنشّقه ، فيُخيّل إليها أحيانًا أنّها وُفّقت ، ثمّ ما تلبث أن تتبيّن خيبتها ، إذ يعود ابن عمّها إلى الحضيض الذي ارتضته نفسه واستقرّت عند حدوده الضيّقة أطماعه وأمانيه .

عاش طول حياته لا يعرف أحد من الناس ما يشتغل ولا كيف ولا أين . وكلّ ما يعرفونه عنه أنّه رجل قليل الاختلاط ، على ظرف حديثه إذا ضمّته الصدفة إلى مجلس . ولم يكن صاحب أملاك تدرّ عليه ، ولكنّه لم يشكُ مرّة فقرًا . يقيم في بيته البعيد المنعزل ، ناظرًا إلى الدنيا كما ينظر الولد إلى صندوق الفرجة ، يبهجه ما فيها من غرائب وعجائب فيقف دونها مبهوتًا ، ويسيل لعابه على نعيم المترفين بقصورهم وعرباتهم ، وأثوابهم الجميلة ومآكلهم الطيّبة ، فيبلعه ويكتفي بالتحسّر .

أجل ، كان عنده في ماضيات الأيّام كديش . وكان أهل القرية يقولون له «أبو كديش» لأنّ هذا الكديش كان يؤلّف عائلته بعد أن فقد أبويه صغيرًا ، فخلّفاه إلى خالة ربّته إلى أن صار يافعًا ، ثمّ ذهبت بوجهها المحزون إلى القبر . ويؤكّد بعضهم أنّه هو الذي استعجلها إليه لفرط ما عذّبها بشراسة طبعه ، حتّى كان يربطها إلى عمود في البيت ويغلق عليها ويروح . وكثيرًا ما عرض عليه أبو سعيد أن يعمل في صناعة الديما ، فيعمل يومًا ويتغيّب أسبوعين... وتبلعه الأرض فجأة فيدخل في الظنّ أنّه مات أو هاجر إلى غير رجعة ، فإذا هو يطلّ بعد حين وهو على أحسن ما يرام .

ولمّا اقتنى الكديش لم يبدّل شيئًا من طراز معيشته . يكاري عليه حينًا ويقعد أكثر الأحيان مفضّلًا الكسل والتأمّل تحت الشمس ، والكديش يسرح على مقربة منه ملتقطًا الأعشاب . حتّى كان مقتل الضابط راسم بك فالتحق بزينه . وكان يسمع أخبار الطيّاح ، فتستهويه مغامراتهم وأمجادهم ولا يملّ من ترديد أخبارهم ، على قلّة نصيبه من الشجاعة وصمود القلب . ولكنّه كان يعتاض عن سلاح الأسود بسلاح الثعالب . وقد سبق لزينه أن تعرّفت إلى صنوف من حيله وأحابيله حالفها التوفيق في كلّ مرة . ولم يكد يعود إلى هدوئه حتّى جلست تصغي إليه وتبادله الرأي في تدبير الانتقام من المرابي ...

٩

تقدّم العرب في الأيّام التالية يحتلّون المواقع واحدًا إثر واحد ، ولا يلاقون من الأتراك مقاومة تُذكر . كانوا يخلونها قبل وصولهم ويهربون متجمّعين في الخضرة . والخضرة حصن العقبة يتوقّف على احتلالها مصير عظيم من مصائر الثورة .

وأدرك العرب ما يُعدّ لهم ، ووزنوا ما لديهم من رجال وعتاد مقابل ما يظنّون أنّ الأتراك قد جهّزوه في الخضرة من رجال وعتاد ، فرجحت كفّة الأتراك . فرأوا أن لا يغامروا بالهجوم ، وانتهى بهم التشاور إلى وجوب أخذ الأتراك بالخدعة ، والتهويل عليهم بانتصار أبي اللسان والانتصارات التي تلته ، فإن صدّقوا واستسلموا فذلك . وإلّا فينتظرون مددًا ، أو يفتح الله عليهم بابًا من عنده .

وكان الوقت آخر الليل ، والقمر بدرًا . فأرسلوا من قِبلهم مَن تقدّم فأنذر الأتراك بضرورة الاستسلام فأجابوه بإطلاق الرصاص . فأعقبوه بجنديّ فردّه الرصاص أيضًا ، فحاروا في أمرهم . فانبرى كامل وقال :

– أنا لها !

وكان ينتهز الفرصة ليثبت إخلاصه للثورة ،

وليدشّن أوّل عمل له في الجيش العربيّ الذي طالما تمنّى الانضمام إليه. فطلب أن يوضَع تحت أمره بضعة جنود. فسُئل عمّا يريد بهم. فبسط حيلته، فلم تعجب القائد. فاكتفى بجنديّين، فعارض أيضًا. ولكنّ سامي تدخّل فأقنع القائد. فسُرّ كامل سرورًا عظيمًا وشرع بنزع ملابسه، فلم يبقَ إلّا ما يستر عورته. ثمّ انسلّ كالطيف الساري، مترفّقًا في خطوه، محاذرًا أن تراه عيون الأعداء قبل الأوان، وأوصى الجنديّين أن يلتزما مسافة دونه لا تقلّ عن مئة متر.

مشى، ومشيا خلفه كما أوصى. حتّى إذا اقترب من الخطوط الأماميّة ارتمى يحبو مبالغة في الحرص. والجنديّان ينظران إليه يدبّ كالحيوان ويتضاحكان. ثمّ انبطح يزحف... فلمّا صار في الموضع الذي ظنّ أنّه موافق استدار على عقبيه، وهي الإشارة التي عيّنها للجنديّين، فأخذا يطلقان الرصاص، فانتصب في وجه الأتراك رافعًا ذراعيه. فلم يشكّوا أنّه منهم، لعادة البدو المعروفة: أكثر ما يستهويهم في الأتراك ثيابهم، فما يقع بين أيديهم واحد منهم حتّى يجرّدوه منها... وحسبوا أنّه ناجٍ إليهم بخبر خطير فالعرب يتعقّبونه خشية أن ينفذ به. فصوّبوا بنادقهم يجيبون الجنديّين بمثل خطابهما. فدنا كامل وطلب مقابلة القائد. فأرسل إليه القائد أحد ضبّاطه، فقال له:

– أنا رسول من عند العرب. جئت أنذركم باسم قائدهم النبيل بوجوب الاستسلام حالًا. أنذرناكم بالأعلام فأجبتم بالرصاص، وأرسلنا إليكم أسيرًا من جنودكم فأطلقتم عليه النار كذلك. وكان علينا بعد هذا أن نقابلكم بالهجوم، ولكنّ رجحان عَددنا وعُددنا على عَددكم وعُددكم يجعل ظفرنا غير مجيد. وليس من شيم العربيّ أن يقاتل إلّا كفؤه. إنّ القبائل كلّها انضمّت إلينا. وقد علمتم، ولا ريب، ما حلّ بعسكركم في وادي أبي اللسان، لم يُبقِ منه العرب مَن يُخبر، فمن قُتل قُتل، ومن جُرح جُرّح، ومن أُسر أُسر. فإذا كنتم تحرصون على دماء من الحرام أن تذهب هدرًا فعليكم بما أرسلني به قائدي: الاستسلام بلا قيد ولا شرط. إنّ العرب لا يقتلون أسيرًا ولا يُجهزون على جريح. وقُل لقائدك إنّ قائدي يقسم له بشرفه العربيّ أنّه يؤمّن على حياته وعلى كرامته كقائد، وعلى حياة ضبّاطه وجنوده جميعًا. تأكلون من طعامنا، وتشربون كما نشرب، وتنامون كما ننام...

كان كامل يتدفّق في خطبته معجبًا بطلاقة لسانه، والضابط التركيّ يقيسه من أمّ رأسه إلى أخمص قدميه، حتّى إذا فرغ دماغه أُرتج عليه فالتجأ إلى عبارة من عباراته التقليديّة الجاهزة فختم قائلًا:

– أجل، وتنامون كما ننام... إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

واستوى بأدب وفخر عاقدًا بين حاجبيه منتظرًا الجواب. فقال الضابط:

– نبلغكم قرارنا بعد يومين.

فحيّا كامل وأدار ظهره. ثمّ انكفأ وحيّا من جديد وقال:

– إنّ قائدي يطلب الاستسلام دون قيد ولا شرط.

– قل له القائد التركيّ يطلب يومين.

– وبعد يومين تستسلمون دون قيد ولا شرط.

– إذا لم تأتِنا نجدات.

– ولكنّ العرب في هيجان عظيم. وقد عانى القائد مشقّات كبيرة في كبح جماحهم وإيقاف هجومهم.

– هذا جواب قائدي إلى قائدك، وإذا شئتَ كتبتُه لك، وليس لي ما أزيد أو أنقص حرفًا. واذكر أنّه قيل «ما على الرسول إلّا البلاغ».

فحملق كامل بالضابط وأردف كالغاضب:

– وقيل «لقد أعذر من أنذر».

وحيّا وشيكًا وهمّ بالانصراف. فناداه الضابط، فعاد عابسًا.

– أعندكم طعام كافٍ؟

– كثير! كثير!

فتلمّظ ، واستمهله دقيقة لاستشارة القائد . ثمّ عاد وقال :

– تقول إنّ قائدك يتعهّد بمعاملة قائدي معاملة حسنة ؟

– هذا ما قلته .

– قُل لقائدك نستسلم عند شروق الشمس .

كان الزهو يملأ كامل ويفيض في كلّ جارحة من جوارحه . فلم يكد يغادر الأتراك ويطمئنّ إلى أنّه صار في منجاة عن عيونهم حتّى انطلق يقفز ، ويرقص ، ويدندن بأغنية حماسيّة سمع شفيق العلايلي في الليلة السابقة ينشدها بصوته العريض الحارّ . فإذا رصاصة تدوّي في الفضاء ، فهمّ بمناداة الجنديّين وقد حسب الرصاصة من أحدهما . فإذا أختها تصفر في أذنيه ! فابتلع أغرودته وارتمى يزحف على بطنه وهو يلعن القائد التركيّ ويشتمه أقذع شتم ... وتتابعت العيارات الناريّة تمرّ فوق رأسه وتغرز في الأرض حواليه . فاستلقى حابسًا أنفاسه ، فلمّا خرست البنادق استأنف زاحفًا ، فحابيًا خببًا ، ثمّ استوى على قدميه راكضًا ، يأبى عليه فرحه إلّا أن يستعجل الوصول . فعادت الطلقات سيرتها الأولى ، فلم ينخفض لها ، ولجأ إلى حيلة جديدة : يذهب يمينًا ثمّ يذهب يسارًا في لفتات ودورات مخادعة ، وهو يلوّح بيديه كالشجرة في مهبّ العاصفة .

وشرع العرب يردّون على رصاص الأتراك بالمثل ، فبات بين نارين حاميتين ، ليست حسرته على الحياة كحسرته على خدعة كانت على وشك أن تؤتي ثمرها . وفيما هو يفكّر في الأمر لاعنًا حظّه السيّء إذا برصاصة قد نفذت في ظهره فتهادى ، ثمّ انطوى ساقطًا كأنّه ينغرس في التراب ودفن وجهه في صدره هنيهة يتمتم الفاتحة ، ثمّ رفع أنفه يتنشّق بملء روحه نسمة آتية من بعيد . فعاد إليه العزم ، فأخذ يسحب جسمه على الحصى سحبة بعد سحبة . ثمّ خارت قواه فألقى ذراعيه ، يستريح على يأس لا حدّ له .

وكان الفجر قد بدأ يحلّ سدول الظلام خيطًا فخيطًا ، ويغيّب النجوم في آفاقها البعيدة نجمة فنجمة ، وسقط الجوّ بأندائه الرطبة على الجريح العاري المنبسط في القفر ، فارتعش من البرد . ثمّ حمل إليه الهواء حمحمة خيل ، فأدرك أنّه صار على أمتار ، فبعث الأمل القوّة فيه ، فتابع الطريق يبذل لكلّ شبر منها دفقة من دمه . ثمّ لمح شبحًا يلاقيه فجعل يستحثّ نفسه إليه ، حتّى إذا تبيّنه هتف :

– سامي !

فدنا منه واحتمله بين ذراعيه .

وعقد القائد والضبّاط مجلسًا فاستمعوا إلى كامل . وقال سامي :

– يجب أن لا يداخل الأعداء شكّ فيما أبلغهم رسولنا إيّاه .

وكرّ العرب في جلبة عظيمة ، فتبودلت بعض الطلقات . وجازت الحيلة ، فأشرقت الشمس على ألوف الأيدي التركيّة مرفوعة إلى السماء بالاستسلام .

١٠

لم يصب الأتراك من كامل مقتلًا . ولم يمضِ مدّة بعد وصول العرب إلى العقبة حتّى التأم جرحه وتماثل إلى الشفاء . ولكنّ الطبيب منعه من مفارقة الفراش قبل استكمال دور النقاهة ، فكان سامي وشفيق يعودانه ويجاذبانه الحديث ساعات حلوة من النهار والليل .

وكانت القوّات العربيّة تتوارد إلى العقبة لتحصينها وجعلها قاعدة من قواعدهم ونقطة الاتصال بالإنكليز في السويس وفلسطين . فترة راحة وانبساط انصرفوا خلالها إلى الاستعداد لوثبتهم الكبرى إلى سوريّا واحتلال دمشق ، مطمح أنظارهم وقمّة آمالهم منذ الرصاصة الأولى .

– الله أكبر ! اللـ....ـه أكبر !

كان هذا الأذان يتجاوب مرّات في اليوم ، وكان

الأصدقاء الثلاثة مجتمعين ذلك المساء في خيمتهم ، فلمّا سمعوه ركع كامل يصلّي ، وقعد شفيق صامتًا ، ووقف سامي على الباب يصغي مأخوذًا بتردّد الأذان بين أشجار النخيل وقد انتصبت في غبشة المساء أعمدة لهيكل عظيم قبّته الجوزاء ، وانبسط البحر وراءها في زرقته الضاربة إلى السواد ، وهدأت أمواجه فهي تخفق على صخور الشاطئ خفقًا لطيفًا . كأنّ البحر يصغي هو الآخر ، أو كأنّ له صلاته يؤدّيها بلغته لذلك الذي هو أكبر منه . كلّما سمع سامي الأذان وقف عند هذه اللفظة «أكبر» وتمنّى لو أنّ المؤذّن يمدّ بها صوته إلى ما لا نهاية له ، فتشمل الشاطئ والبحر ، وتستوعب الجبال والصحارى ، وتبتلع الأرض والسماء ... والظلم .

ولم يكد كامل يفرغ من صلاته حتّى قال :

– هذا المؤذّن يقتلني . يصيح كالديك الأبحّ ، ولا يرضى حتّى يلحن . أمؤذّن ويلحن ؟!

وكان كامل صاحب صوت رخيم ، ومجوّدًا حسن التجويد . وقد طالما همّ بالوثوب من فراشه واعتلاء المأذنة مكان ذلك الشيخ الأبله . فرفع شفيق أجفانه الكثيفة وقال :

– طرد هذا الشيخ من المأذنة أهمّ لديك من طرد الأتراك من دمشق !

– يُفسد والله عليّ صلاتي ، حتّى لأتمنّى لو متّ قبل سماعه .

– برصاصة أبي اللسان . قه قه قه !

وأسعفه سامي :

– ها ها ها !

– بل برصاصة الخضرة هذه ! (وأشار إلى ظهره) .

– أنت بطل الخضرة غير مدافَع .

– جرح في ظهرك افتديت به جراحًا .

فأتبعه كامل بالسجعة :

– وأرواحًا .

فعاد شفيق إلى المزاح :

– أنا عربيّ مثلك ! أنا عربيّ مثلك ! لا تقتلني ! لا تقتلني !

فاشتعل وجه كامل خجلًا والتفت إلى سامي يستنجده على صديقه القاسي ، فلبّاه ولكن على غير ما يشتهي :

– إحمد الله على أنّه أرسلني إليك ولم يرسل شفيق . إذن لقتلك .

– تصوّر أنّه كان الساعة في الجنّة .

– رصاصة العربيّ لا تُصعد العربيّ إلى الجنّة .

– آه ، صحيح . ذلك فضل الرصاصات التركيّة ...

– الوحيد ...

– إذا أصابت أهدافها .

– ما أقلّ العرب إذن في الجنّة !

– والأتراك ؟ أكلّهم إلى جهنّم ؟

فأكّد سامي ضاحكًا :

– هكذا يقول كامل .

ولكنّ كامل ، وكان قد لزم الصمت منذ أخجله شفيق ، رأى الواجب يدعوه إلى التدخّل :

– أنا لا أقول هذا ، أستغفر الله ! أنا لا أقول هذا . إنّ بين الأتراك من هم مسلمون موحّدون يؤمنون بالله وبرسوله وباليوم الآخر . هؤلاء لهم ثوابهم عند الله . ولكنّ الألمان والنمساويّين ومَن لفّ لفّهم ...

فقاطعه شفيق :

– ماذا تفعل بالإنكليز والفرنسيّين ...

– أولئك لا يحاربوننا ، بل يحاربون معنا .

– لهم ثوابهم عند الله طبعًا .

فقال سامي :

– وعندنا أيضًا .

فاستأنف كامل :

– نحن أعلنّا الجهاد على الأتراك .

– والأتراك قد أعلنوا علينا الجهاد . فأيّ جهاد يا تُرى أصحّ ؟

– نحن أمّة الرسول .

– ولكنّهم كفّرونا .

– كذبوا ، بل هم الكافرون . إنّ الخلافة يجب أن تعود إلى العرب . سينتصر العرب ويعودون سيرتهم الأولى ، ويبعثون عهد الخلفاء الراشدين والأمويّين والعبّاسيّين ، وتجدّد دمشق شبابها ، ونبايع فيها الملك حسين أميرًا للمؤمنين فيجعل فيها مقرّه ، ونحوطه بالشعراء والعلماء وأهل الرأي فينا .

– وتكون أنت شيخ الإسلام . قه قه قه !

فأمسك كامل وأرخى رأسه على المخدّة ، وشفيق يسدّد إليه ضحكته الساخرة الهائلة . ثمّ التفت إلى سامي وقال :

– أليس كذلك ؟

ولكنّ سامي ظلّ مطرقًا ، يمجّ بدخان لفافته غارقًا في التأمّل . فضرب شفيق بيده الجبّارة على كتفه ، فرفع بصره إليه ببطء كأنّه يحاول قراءة ضميره . ثمّ عاد إلى خفض رأسه ، فسأله شفيق :

– بماذا تفكّر؟

– ...

– بزينه أيضًا ؟

– ربّما !

فانبرى كامل :

– بطام؟

– ربّما بالاثنين... وبواحد آخر .

– من ؟

– أنا... أفكّر في نفسي ، وأفكّر في أمثالي من الذين علّقهم الأتراك على أعواد مشانقهم في بيروت ودمشق ، وفي الذين نفوهم إلى أقاصي الأناضول أو زجّوهم في أعماق السجون ، وفي الذين يحاربون معنا هنا في جيش الثورة أو انضمّوا إلى الحلفاء في مهاجرهم . منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال حيًّا... هؤلاء جميعًا ، يا كامل ، أفكّر فيهم عندما أسمع كلامك . كلّا ليس بين العرب والأتراك جهاد دينيّ . الأتراك في أكثريّتهم مسلمون ، والعرب في أكثريّتهم مسلمون كذلك ، ولكنّ القضيّة ليست قضيّة مسلمين أو غير مسلمين . بل قضيّة عرب يقاتلون أتراكًا لاسترداد حرّيّتهم ، وأتراك يقاتلون عربًا لاستبقاء سلطانهم عليهم . اليوم وُلدت القوميّة العربيّة الصحيحة . إنّ أمّها هي هذه الثورة التي أمشي فيها أنا المسيحيّ العربيّ إلى جنبكم أنتم المسلمين العرب ، لنحارب عدوًّا مشتركًا لبلادنا هو التركيّ ، سواء اتّبع محمّدًا أو المسيح أو الشيطان . وإنّ أباها هو ذلك الاستشهاد الذي لقيه شبّان العرب وأبطالهم السابقون ، أخذهم إليه الأتراك على أنّهم عرب فلم يسألوا المسلم عن قرآنه ولا المسيحيّ عن إنجيله . أكبر الظنّ أنّك يا كامل تستوحي تاريخنا القديم ، وهذا التاريخ قائم معظمه على الإسلام ، وليس يعيبه أنّه كان كذلك فلم يكن يستطيع أن يكون إلّا كذلك . وقد طالما كانت الأديان ، عند مختلف الأمم ، الحافز الأوّل للمّ شعثها وتوحيد كلمتها وتكوين شخصيّتها . أمّا نحن في هذا العصر فعيب علينا أن نبني دولتنا الجديدة على أسس الدين . إنّ قوميّتنا العربيّة التي وُلدت اليوم ، أقول وُلدت اليوم ، لا يهمّها من الخلافة إلّا بمقدار ما يهمّ الإيطاليّين من البابويّة . الذين يقاتلون الأتراك اليوم يقاتلون معهم الألمان وهم لا ينازعونهم على خلافة ، وقد يقاتلون الإنكليز غدًا والفرنسيّين إذا طمعوا ببلادهم وحاولوا إذلالهم...

كان سامي يتحدّث بحماسة إلى رصانة ، فأوقعت لهجته المهابة في نفس كامل فتلعثم لا يدري ما يقول ، وبعثت الزهو في نفس شفيق الذي لقّنه سجن عاليه هذه الأمثولة عمليًّا ، فلم يزد صديقه على أن كرّرها عليه بالكلام وألقى على بعض نواحيها الخافية نورًا .

وساد بين الثلاثة صمت طويل ، فأبى كامل إلّا أن يعلّق على الحديث شيئًا ، فابتسم إلى سامي وقال :

– أنت فقيهنا السياسيّ .

فاندفع شفيق في مزاحه :

– أنا عربيّ مثلك ! لا تقتلني ! لا تقتلني !

وأطلقها ضحكة من ضحكاته الفضّيّة الكرّارة.
وعاد جوّ المرح من أوّله.
ثمّ التفت سامي إلى شفيق وقال :
– نحن مستعدّون لغد. أليس كذلك ؟
– يكاد العثّ يقتلنا هنا... اِسمع ، اِسمع !
فهتف كامل :
– طيّارة ! طيّارة !
ومدّ رأسه ينظر. كانت الطيّارات تعجبه كثيرًا ، وكان الإنكليز قد أرسلوا من مصر إلى العقبة بضع طيّارات لمساعدة القوّات العربيّة على استكشاف مواقع الأعداء وإزعاجهم. قال كامل :
– بساط الريح في ألف ليلة وليلة ، هذا هو والله العظيم !
فقال سامي :
– بساط الريح كان ينقل العشّاق إلى معشوقاتهم.
فأردف شفيق :
– والطيّارة تنقل عشق الإنكليز إلى الأتراك !
فقال كامل :
– ومن العشق ما يقتل ! إنّني ما أزال أفكّر في الطيّارة التي حلّقت فوق معان وألقت قنابلها على مقرّ القيادة فطاحت برأس الطاهي وكسّرت القدور والصحون.
فقال شفيق :
– لو كسّرت رأس القائد التركيّ لوجدت فيه أرنبيطًا !
فضحكوا لهذه النكتة طويلًا. ثمّ استأنف كامل :
– وعندما حلّقت فوق الوادي وألقت قنابلها على مربط الخيل فقطّعت الخيل أعنّتها وانطلقت مجنونة في الصحراء... سنوصي الإنكليز عندما نقيم دولتنا أن يرسلوا إلينا من هذه الطيّارات الشيطانيّة فنجهّزها بها. ونوصيهم أن يرسلوا إلينا بواخر لها مدافع.
فقال سامي :
– أمّا أنا فأخشى أن تكلّفنا هذه الطيّارات وهذه البواخر غاليًا جدًّا.
– لو دفعنا ثمنها مال الدنيا لساوت مال الدنيا !
– المال يهون. أخشى أن يتقاضونا ثمنها ما هو أغلى من المال. بل أخشى أن يكونوا قد بدأوا يفكّرون بتقاضي ثمن هذه الطيّارة التي تهدر الساعة فوق رؤوسنا. لأنّهم لم يرسلوها حبًّا لنا.
– لا حبًّا لعليّ بل كرهًا لمعاوية.
فعيّن شفيق :
– إي ، بل كرهًا للأتراك والألمان.
وصوّب إلى سامي عينين تنتظراد إيضاحًا ، ولكنّ سامي هزّ برأسه وقال :
– هذه أشياء يحين أوانها.
ثمّ نهض حاملًا نفسه على الابتسام.
– أتذهب معنا غدًا يا كامل؟ رحلة جميلة في الصحراء.
وقال شفيق :
– والعهد الذي بيني وبين سامي يكون مثله بيننا وبينك. أتقبل؟
– ما هو؟
– إذا جُرح أحدنا في المعركة ولم يستطع حمل جرحه أجهز عليه رفيقه.
– لماذا؟
– لئلّا يقع في أيدي الأتراك فيموت بدل المرّة عشرًا.
فأشرق وجه كامل وظلّ ينقّل عينيه الصغيرتين المدهوشتين بين صديقيه ، ثمّ ابتسم لسامي وقال :
– رأيتك في الحلم ، يا سامي ، واقفًا إلى جانب زينه وكلاكما في حلّة العرس ، ورأيت شفيق قد تحوّل قسّيسًا يبارك إكليلكما.
فانعطف شفيق على سامي وضرب بيده إلى صدره هاتفًا :
– أرني ذخيرة عود الصليب.
فشدّ سامي على الذخيرة ونجا هاربًا ، وعدا شفيق وراءه يتضاحكان.

١١

انطلق طام في الأسواق المغطّاة بالجياع يهمس في الآذان :

– إبراهيم بك فاخر يوزّع الطحين ! إبراهيم بك فاخر يوزّع الطحين ! ...

فيتناقل السامعون البشرى ، ويستأثر بها بعضهم طمعًا . يهبّ الشيخ المتهدّم ململمًا قواه . ويرفع الشابّ الذليل رأسه ، وتنتفض المرأة في أسمالها ، ويخفّ الولد طائرًا ... جماعات وفرادى يتراكضون ، الأمّ تجرّ طفلها ، والأخ يترك أخاه . هذا يدلف بورمه ، وذاك يقع على وجهه ، حفاة نصف عراة ، بأقدام مشقّقة وسخة ، ووجوه بارزة العظام ، وشعور منفّشة طويلة ، وعيون فارغة مخيفة . موكب متّصل الحلقات هنا ، منفصلها هناك . يثب ويعثر ويزحف ، ولكنّه يتقدّم دائمًا . لا يفكّر أحد إلّا بالكلمة الحلوة ، الطحين ، ولا يرى إلّا الصورة الشهيّة . الطحين ، تشدّد عزيمة من ارتخت عزيمته ، وتضاعف قوّة من عنده قوّة ، تمسك الأرماق في الحلوق ، وتجدّد دفقات الحياة في الصدور .

– إبراهيم بك فاخر يوزّع الطحين . عجّلوا ! عجّلوا !

حتّى التفت طام فلم يبقَ حواليه أحد ، فمشى في مؤخّرة الجيش يستحثّ المقصّرين . ثمّ نفد صبره فأخذ يعدو . فلمّا شارف الحديقة المزهوّة في تلك الضاحية المنعزلة ، راعه ذلك العدد العديد وتلقّاه لغطهم من بعيد . فدنا ينظر بحرص بين الجمع ، يتطاول على مشط قدميه ، ويندسّ بين الأجسام المتراصّة ، فاهتدى إلى زينه واقفة وسط الجمهور بقمباز عتيق كانت قد انتزعته عن جثّة دفنتها قبل يوم ورأت أن تتخفّى به . فبادل الأخ أخته طيف ابتسامة ، وعضّت على شفتها فصدف عنها يمدّ يده مع المادّين ويشترك في ضجيجهم .

كان الجياع يتراحمون على البوّابة ، وطانيوس في المقدّمة يزيح المناكب عنه نترًا ويتمسّك بالقضبان الحديديّة مناديًا :

– يا بك ! يا بك !

فتردّد عشرات الأفواه :

– يا بك ! يا بك ! يا سعادة البك !

ولم يكن في الجنينة إلّا الكلب ينبح على البوّابة ويكشّر عن أنيابه ... وحانت التفاتة من امرأة إلى طام فسألته :

– أين الطحين؟

وأقبل إليه جار لها :

– أين البك ؟

وتحلّق حوله آخرون :

– أين الطحين؟

– أين إبراهيم بك فاخر؟

– من قال لك إنّه يوزّع الطحين؟

– أتضحك علينا؟

فرفع طام رأسه صوب زينه ، فشقّت الحلقة وهتفت :

– البك وزّع على الذين جاؤوا قبلنا ثمّ أمر بإغلاق البوّابة .

فتعالت الأصوات :

– ونحن !

– أليس لنا حصّة؟

– أنا أحقّ من الجميع . بيتنا مرهون عنده بخمسين ورقة !

– وأنا اشترى منّي التوتات بكيس قمح نصفه زؤان وتراب .

– طرد أمّي من بيتنا فماتت على الطريق .

– وأختي ماتت تحت شبّاكه هنا ، ولم يعطِها رغيفًا !

– أراد أبي أن يسترحمه فدفعه وأوقعه عشر درجات !

واشتدّ لغطهم ، يسرد كلّ واحد حكايته . واندفع

طانيوس يصيح :

– هذا القصر من أموالنا !

فصاحت زينه :

– هذا القصر من دمائنا !

وتردّدت الهتافات من بعدهما. فأطلّ إبراهيم بك على الشرفة.

– هذا هو !

– هذا هو البك !

– نريد طحينًا !

– نريد أن نأكل !

– اِنزل إلى هنا !

– يا بك !

– يا سعادة البك !

– يا لصّ !

فزمجر من فوقهم مهدّدًا بجُمع كفّه :

– اِبتعدوا من هنا !

– يا لصّ ! يا مجرم !

– يا مجرم !

– يا آكل أموال اليتامى والأرامل !

وعشرات الأيدي مسدّدة إليه مع عشرات الأشداق المزبدة.

– اِبتعدوا يا كلاب !

– أنت الكلب !

– ماذا يقول عنّا؟ نحن كلاب !

– أنت الكلب !

– أنت الكلب !

وهجموا على البوّابة هائجين ، تدخل الأيدي خلال القضبان كبيرة وصغيرة ، ضخمة وهزيلة ، مجموعة ومنفرجة ، وتلتفّ السواعد عارية وكاسية ومشقوقة الأكمام ، والمناكب تضرب المناكب ، والأصوات تشقّ الجوّ خليطًا منكرًا من الطحير والتهديد والتحريض والشتم والصراخ. وإذا زوجة البك قد أقبلت ومعها الخادمة تتأبّط بضعة أرغفة ، والبستانيّ وراءهما. واقتربت الستّ وعلى وجهها اضطراب تحاول تمويهه بابتسامة. فهدأ الغليان فجأة ، وتحوّلوا ينظرون بعضهم إلى بعض ، وارتفعت بعض أصوات :

– أنا ، يا ستّ !

– أعطيني رغيفًا !

– لهذا الولد ، يا ستّ !

فطوّفت زينه حواليها عينين جازعتين ووثبت فمدّت يدها أقصى ما تستطيع فتناولت الرغيف الأوّل وقذفت به في وجه الغنيّة زاعقة :

– خذي في سحتتك !

فأردف طانيوس :

– نريد لكلّ واحد كيس طحين !

وعاد الغليان أشدّ ممّا كان.

– نريد طحينًا !

– أين أكياس الطحين؟

– اِفتحوا لنا !

وانهالت الشتائم من جديد وزعقت زينه مرّة أخرى :

– اِخلعوا البوّابة !

فتراجعت الستّ مذعورة. ثمّ تقدّمت بابتسامة عريضة ، تسترضيهم بشتّى أنواع الوعود ، فتضيع أقوالها في الهواء وتبتلعها الجلبة ، وهي تُحجم وتُقدم ، وتلوّح بذراعيها ، وتنظر إلى الجمع المجنون المترامي على البوّابة أيديًا وعيونًا وشعورًا. حتّى خانتها شجاعتها فاستنجدت ودعت زوجها ، فسبقه البستانيّ إلى البوّابة شاهرًا معوله ، فإذا رأس قد أطلّ من فوق السور ، وانقضّ طانيوس فألقاه ومعوله أرضًا ، والجمع يموج موجته الأخيرة جزرًا ، فمدًّا ، فهويًّا واحدًا. فانخلعت البوّابة بصرير فخبّط على العارضتين ، وتدفّق السيل الهائل وتوزّع وثبًا على السلالم وانسلالًا في الأقبية ، يمينًا وشمالًا وراء الدجاجات الثمينة النافرة ذعرًا ، والمعاول والرفوش المنتظرة على الأرض... من تسلّح منهم تسلّح ، ومن لم يتسلّح فبيديه وأسنانه ، استيلاء

وتحطيمًا ونزعًا ، وقفزًا فوق الأثاث وقلبًا على الأدراج وطرحًا من النوافذ ، خلال قرقعة الخزائن التي تُلبط ، والمرايا التي تُكسر ، والصناديق التي تُبقر ، والأسرّة التي تُخلع ، والصحون والقدور تتناتشها الأيدي وتتداعسها الأقدام شظايا ، والفُرش واللُّحف طيًّا ونشرًا وتمزيقًا ، والطنافس تهشيمًا ، والأثواب نهبًا ، والمآكل التهامًا ودفعًا في الجيوب وتعبئة في الصرر وحملًا بالأكياس . والسمن والزيت والخمر كفأً على البلاط ووطأً...

وزينه تنفر من حجرة إلى حجرة ، وخلفها طام يتأثّرها بين خليط البشر والحطام ويميل معها كيفما مالت . حتّى لم يبقَ إلّا المطبخ فولجته فرأت إبراهيم بك منبوش الشعر مجنونًا ، يصدّ السالبين بالشتم وبما استطاعت يداه ورجلاه ، وهم يزيحونه من طريقهم ويلكمونه حينًا ويسدّون فمه حينًا . فهجمت عليه ودفعته إلى الحائط ومدّت بفمها وصاحت في وجهه :

– العصابة البيضاء !

واستدارت ، فأخذت عيناها صفيحة كاز فابتدرتها بذراعيها وصبّتها على الباب وأشعلت عود كبريت ، فاندلعت النار ، فخرجت وهي تهتف :

– حريق ! حريق ! اُهربوا ! حريق ! أسرعوا بالخروج !

وقصدت إلى حيث غادرت طانيوس ، والأصوات تتردّد من خلفها : «حريق ! حريق ! » ولكنّها لم تلقَه . فمالت إلى الغرفة المجاورة فلم يكن فيها ، فإلى الثالثة فإلى الرابعة فلم تجد له أثرًا . فشرعت تدور ملهوفة وتنادي ، وطام ينادي معها :

– طانيوس ! طانيوس ! عمّي طانيوس ! عمّي طانيوس ! طانيوس !.... .

... بين المتأخّرين في لمّ الأسلاب ، والمنحدرين على السلّم ، والمتسلّلين من الأبواب ، والقافزين من النوافذ...

– لعلّه في القبو يا أختي؟

فأخذت بيد طام ونزلا إلى الأقبية ، فلم يرياه ، فرجعا إلى فوق ، فإذا الدخان قد تعبّق في الدار ، ولاحت خلال غيومه السوداء بعض أشباح تتحرّك . فتركت أخاها واقتحمت الظلمة الخانقة وهي لا تنفكّ عن الصراخ : «طانيوس ! طانيوس ! » فحكّ بها شبح ، وصدمها آخر بشيء كبير يحمله ، وخُيّل إليها أنّ هنالك شخصًا ثالثًا في الزاوية فاقتربت فإذا هو مَقعد قائم . وحارت من أيّ جهة تروح وطام يدعوها :

– زينه ! زينه ! إرجعي !

وألسنة النار تندلع من الجانبين ، يدوّي القصف في أذنيها ، وتشوي الحرارة وجهها ، ويعمي الدخان بصرها ويسدّ أنفاسها . فاندفعت يمينًا فصدمتها النار ، فاندفعت شمالًا....

– أختي ! أختي !

فلم تجبه ، فاقتحم اللهيب ، فعثر ووقع على وجهه .

– زينه ! أختي زينه !

وشقّ الظلام بالقرب منه لسان عظيم بلسانين ، شدقان من النار ينقضّان عليه ! فانفتحت عيناه تقابلانهما بمثل النار وأرهب ! فلم يشعر إلّا ويدان تحتملانه من الأرض إلى الباب إلى السلّم . وكرّ الأخوان إلى الحديقة فظَهْر البيت فالعراء ، يمضيان في المساء مسرعين ، ثمّ يتوقّفان بعيدًا ينظران إلى الشعلة الجبّارة الصاعدة حتّى السماء .

١٢

كانون الثاني السنة ١٩١٨ .

انقطع الثلج فجأةً ، وأبت السماء أن تكمل نسج الثوب الأبيض لهضاب الطفيلة وأوديتها وساحاتها وسطوح بيوتها الواطئة المتناثرة على السفح . وهبّت الرياح باردة مولولة ، تطرد الغيوم في الجلَد ، فتتراكض متدافعة متراكبة كالقطيع المذعور . وتعالى صراخ النساء والأطفال في ذلك الليل الدامس ، وامتلأت طرق

القرية الضيّقة الوحِلة بالناس ، يتنادون تحت الزمهرير ثمّ يتفرّقون كتلًا وأفرادًا ، يتلمّسون مهربًا أو يستخفون اتّقاء الثأر الفظيع . ذلك أنّ خبرًا انتشر بسرعة البرق بأنّ الأتراك يزحفون من عُمان لاسترداد الطفيلة ، ولمّا يمضِ على احتلال الثّوار إيّاها إلّا بعض أسبوع . وكان الأهالي قد هتفوا للعلَم العربيّ واطمأنّوا إلى أنّه سيخفق فوق رؤوسهم إلى الأبد ، فإذا هم يشاهدون الثوّار يخلون مواقعهم مولّين ، تاركين القرية ومن فيها إلى الأعداء يذبحون الأبرياء ويعتدون على الحرمات . كما فعلوا في كلّ مكان داسته أقدامهم .

انقضى الليل إلّا أقلّه والهلع لا يغمض لأحد جفنًا . وكانت القوّة العربيّة قد انسحبت في هذه الأثناء إلى المرتفعات وعسكرت في مأمن . وراح سامي ينظر إلى الطفيلة خلال الظلام متحسّرًا على مصير أبنائها وعلى الجهود التي بُذلت لأخذها ، ويتمثّل قائده قبل أيّام يشرب القهوة على شرفة الحاكم التركيّ المستسلم ، ويكاد يسمع الهتاف يشقّ الفضاء بحياة الحرّيّة .

وبينما هو في وقفته تلك إذ لمح جماعة يتقدّمون مسرعين ، وإذا هم وفد من الطفيلة ، أكثر من مئة شخص ، فيهم الشيخ والشابّ والمرأة يحملون العصيّ وبنادق الصيد والرفوش ، قد جاؤوا يلتمسون من القائد الدفاع عن قريتهم ويعلنون استعدادهم لتقديم كلّ مساعدة . ولم تكن الطفيلة موقعًا خطيرًا يحرص العرب على استبقائه ، فمال القائد عنهم وأصرّ على تركها إلى الأعداء . فارتمى الشيوخ بين يديه يذرفون الدموع ، وضجّ الشبّان غضبًا ، فشقّت الصفوف امرأة ورفعت ذراعها صائحة :

– نحن لا نفهم بالخطط الحربيّة ! نحن لنا أرزاق وأولاد نريد أن نحميهم . (والتفتت إلى صاحباتها) : إذا كان الجنود لا يحاربون معنا فنحن النساء نحارب ، ولا ندع الأتراك يرجعون إلى الطفيلة إلّا على جثثنا !

فعلت كلمات هذه المرأة في القائد ما لم تفعله حجج الشيوخ ولا خطب الشبّان المتحمّسين ، فظلّ ناظرًا إليها دقيقة طويلة . ثمّ خفض رأسه مفكّرًا . وساد الصمت ، ينتظرون ما يكون جوابه . فرفع عينيه ، فإذا عينا المرأة ما تزالان تتحدّيانه ، فقال :

– اذهبوا واجمعوا لي كلّ قادر فيكم على حمل السلاح .

١٣

... ومع بهق الصباح استلّ القائد سيفه وتحرّكت قطع الجيش ، وبقي قسم منه حيث هو ، يشرف على الأتراك يتقدّمون في الوادي ، تحميهم المدافع من خلفهم وتقذف قنابلها المعولة في الفضاء . ثمّ طلع من فم الوادي ضباب . وأخذ يدنو متقلّبًا ، متكاثفًا ، متهاديًا كحيوان بدين جبّار ، مسخ هائل في الحيوانات له مئة رأس ولا رأس . وألف قائمة ولا قائمة ، وجسم يتمطّى على رأي العين . يغمر الوادي فالسفوح فالآكام ، ويجتاحها صاعدًا متمدّدًا إلى غير حدّ . والرصاص يلعلع مخترقًا الضباب بشرارات ضئيلة كأنّها النجوم لولا أنّها لا تستقرّ . ولغط المعركة ، بين صهيل الخيل وهتاف الجنود وقرقعة السلاح ، يتعالى ويهدر في الآذان هديره الأصمّ كأنّ الأصابع تتداولها دون انقطاع . ثمّ راح الضباب يجرّ خلفه ذنبًا طويلًا رقيقًا ، ثمّ انفصل الذنَب وبقي وحده معلّقًا فوق الوادي ، ثمّ أخذته الرياح فدارت به دورة فإذا هو يتلاشى ، وينجلي الميدان نارًا عن اليمين ونارًا عن اليسار ، وشراذم بينهما تتنادى ثمّ تتكتّل وتتقدّم . وقد ساعدها الضوء العائد على تنظيم صفوفها والاهتداء إلى طريقها ، وفُتح ما بين البنادق وأهدافها ، فتداركت الطلقات تتخاطب متقاطعة وتتجاوب من صوب إلى صوب ، وقنابل تنصبّ من فوق وأخرى تسمو من تحت ، والكتلة العظيمة ما تفتأ تدبّ إلى الأمام وتموج عرض الوادي . وتساقطت السماء بالبرَد . ثمّ أمسكت وأعقبته بنُتَف من

الثلج تتلاعب مع الهواء ، يحطّ بعضها على التلال ، ويتابع البعض الآخر تهاديه ، متهاويًا بغنج ساحر فوق الملحمة الصاخبة.

وكان الأمر قد صدر إلى سامي وشفيق أن يشغلا الأعداء من الوراء. فانطلقا في خمسين فارسًا ولفّا الوادي. ثمّ افترقا فذهب الواحد يمينًا والآخر يسارًا. وما هي إلّا أن أزّ الرصاص جهة شفيق ، فهبّ سامي يتفقّده ، فرآه على حصانه يصوّب بندقيّته إلى الوادي. ثمّ وثب الحصان غائبًا به خلف صخرة ، وأطلّ على الأثر ينهب الأرض انقضاضًا ، والبندقيّة ترتقص لا يتمكّن شفيق من إثباتها على كتفه. وإذا هو يقفز قفزة واحدة ويسقط على الحضيض ، ويظلّ الفرس راكضًا بضع خطوات ثمّ يجمد مائلًا بعنقه. فاندفع سامي في أقرب طريق معلّقًا بصره بمكان الحادث ، يحبو اتّقاء عيون الأعداء ونارهم. ثمّ حانت منه التفاتة فرأى الحصان يتداعى هو الآخر ويتدحرج كصخر يتقاذفه السيل...

وتضاعفت الطلقات التركيّة وجعلت تقترب منه وشفيق لا يقوم ولا يُسمع نأمة. فخفق قلب سامي بعنف واستوى على قدميه ومضى يستقبل الرصاص بوجهه ويتطلّع من هنا ومن هنا حتّى اهتدى اليه أخيرًا على بضعة أمتار منه ، ذراعاه مفتوحتان لاصقتان بالأرض.

– شفيق!

وانحنى يحتضنه. فأنّ الجريح وثنى عنقه ببطء. فالتفتَ سامي فرأى الدم يتدفّق من صدره ويصبغ الثلج متلألئًا بلونه القاني.

– كنت أخاف أن أموت قبل أن أراك... أمّا الآن.

وغامت عيناه. فتناوله سامي بذراعيه وحمله ، فصرخ صرخة موجعة ، ثمّ كرّرها وأردف :

– أتركني! أتركني هنا!

وتجمّع الجنود يريدون رفع الجريح إلى مطيّة من مطاياهم. ولكنّ سامي كان قد مضى به ، يشدّه إلى ظهره المحدودب ويرفع ذقنه بين الخطوة والخطوة ويناديه فلا يردّ عليه ، والرصاص ما يفتأ يترامى ناطحًا الصخور وحافرًا التراب ، والجنود يحمون ضابطيهما ويتراجعون.

– سامي! سامي!

قالها بصوت ضعيف وتراخى ، وتدلّت إحدى رجليه تحفّ الأرض. ثمّ وقعت الثانية ، فحاول سامي أن يرفعه فلم يقدر. وانطرح الجريح يغمض أجفانه ويفتحها ثمّ تختلج شفتاه :

– لن يغلبونا. أليس كذلك؟

وتغضّن وجهه ، وحاول أن يرفع كفّه إلى صدره ليوقف الدم المتدفّق فترامت عاجزة. فأكبّ سامي يسدّ الجرح والدم يتشعّب بين أصابعه لزجًا حارًّا. ونادى الجنود أن يعاونوه على حمل شفيق ، ولم يكد حتّى قصفت قنبلة ارتجّت لها الأرض ، وسدّ السماء حجاب كثيف من الدخان والتراب والحجارة فصاح :

– إلى الوراء!

فتراجعوا مذعورين ، وبقي وحده. فرفع الجريح إلى صديقه عينين فيهما الرجاء الأخير! فسرت في بدن سامي قشعريرة ولمع له مثل البرق الأسود. وجلبة الأتراك تدنو وتتعاظم ، حتّى خُيّل إليه أنّهم يمرّون عليه ويطأون في قلبه. كانت كفّه اليمنى تمتدّ برفق إلى جنبه الأيسر وتقبض المسدّس البارد! ثمّ تنفرج أصابعه وترتدّ متقلّصة مشلولة ، وعيناه لا تفارقان العينين المنتظرتين ، المتألّقتين بشعاع من غير هذه الدنيا. وكأنّ شفيق شعر بحركة سامي وأراد أن يتثبّت منها ، فلوى برأسه صوب تلك اليد الرهيبة الرحيمة ، وارتعشت شفتاه :

– العهد!

وقبل أن يكمل كانت الرصاصة قد انطلقت ، فاختلج لها قليلًا. ثمّ هدأ... تطفو على وجهه في الموت أجمل ابتسامات الحياة.

١٤

بعد مقتل شفيق تملّك سامي شعور ليس هو الحزن بهدوئه الثقيل ، ولا اللوعة بأظافرها الجارحة ، كلّا ولا هو اليأس . شعور غريب ، قويّ وضعيف في آن واحد . قويّ حتّى ليُحسّ سامي بمثل العاصفة تثور حواليه وتلفّه وتدفعه لملاقاة الموت ، فيندفع فإذا الموت ينحني أمامه مغلوبًا بين المغلوبين ، فيدوس عليه بحوافر جواده ويجوز من فوقه ... من معركة إلى معركة ، من نصر إلى نصر . وهو محمول في هذه العاصفة الهوجاء ذرّة من ذرّاتها الجامحة ، المجنونة ، الطائرة في الجوّ . حتّى إذا عقبت سكينة النصر ضوضاء المعركة ، حطّ سامي كما تحطّ الذرّة ما تبالي في أيّ مكان . وحينئذ يهبط قلبه وينصرف إلى التفكير في الموت والحياة وفي ماضيه ومستقبله . ويفكّر بشفيق ، ويتذكّر وجهه في تلك الساعة وكلمته الأخيرة « العهد ! » ويدوّي في قلبه رجع الرصاصة التي أعطى بها الموت من أعطاه بالأمس الحياة ...

* * *

كان الأتراك قد انهزموا في جميع الميادين ، ووصل العرب إلى ضواحي درعا حيث تجمّعت قواهم من مختلف الأنحاء استعدادًا للوثوب إلى دمشق . وكثر لديهم الأسرى فحاروا ما يفعلون بهم ، ففرّقوهم على القرى المجاورة يعاونون الأهالي في أعمالهم الزراعيّة ، فتحوّلت المنطقة إلى معتقل لا حدّ له . وخفض الانكسار أعناق الأتراك ، فذلّوا بعد جبروت وبانت عليهم المسكنة .

كان سامي مستلقيًا تحت شجرة وارفة الظلّ ، يخشخش هواء الخريف بين أوراقها المصفرّة وينثرها حواليه ، فينظر إلى هذه الأوراق المتساقطة ، فيُخيّل إليه أنّها صفحات من كتاب قرأه الزمان وملّه ، فهو يتناول بأصابعه القاسية الصفحة بعد الصفحة ويذريها في الفضاء... وكامل ، بالقرب منه ، تتألّق لحيته الشقراء سرورًا ، وتتراقص عيناه الصغيرتان على الأشياء ، يتحدّث على عادته عن الدولة العربيّة الجديدة حديثه المملوء بالحماسة والفخر . وسامي يصغي خلال الجلبة المترامية إليه من المعسكر القريب .

– إنّ عهد معاوية سيعود . أكاد لا أصدّق ، يا سامي ، أنّنا بعد أسبوع نكون في عاصمة بني أميّة . بعد أسبوع يتحقّق حلمنا الأكبر ! ليت شفيق عاش ليتمتّع برؤية دمشق الظافرة ! أتذكر ؟ أتذكر كلماته « عندما ندخل دمشق سأطلب إلى القائد أن يعيّنني حامل العلَم » .

وحملت النسائم رائحة زكيّة من بعيد ، ففتح لها سامي صدره ملء الرئتين ، وأغمض أجفانه سائحًا في جوّ من الأماني المبهمات ، أحلى ما فيه وفيها أنّه لا يدرك له حدودًا ولا يعرف لها اسمًا .

وسكت كامل قليلًا ثمّ قال :

– سنذهب معًا إلى ساقية المسك . لي فيها مثل ما لك . لقد وعدت طام بمهرة وعقال مقصّب وعباءة من حرير ، وسأفي بوعدي . وأنت لك زينه .

فال سامي إلى محدّثه ، وأحسّ شعاعًا يضيء في قلبه لاسم مَن يحبّ . وطفا هذا الشعاع ابتسامة على شفتيه فعاد ينظر إلى السماء . وأخذت صفحات حياته تكرّ أمامه ... زاوية صغيرة ، هنا بين ضلوعه ، قد تستوعب الصحراء والدنيا وأمجادها ، وتبقى مع ذلك مستوحشة ... وشيء صغير قد يحطّم كلّ ظلم على وجه الأرض ، ويغيّب الظالمين في أعماقها ، ويظلّ مع ذلك متململًا غير راضٍ ... ساقية المسك ، وبيت كسّار ، ومغارة الخوريّة ، ووجه زينه ... « الثورة ! الثورة ! لو تعلمين يا زينه ما أجملها ! ما أعظمها ! » لو تعلم ما أتفهها الآن ! ما أتفهها ! كالماء بلا خبز . كالخبز بلا ماء .

وكامل يتنقّل في ثرثرته . وإذا نسمة أخرى تهبّ على الشجرة فترتعش ورقاتها كأنّها تحاول التمسّك بأمّها مغالبة القدر . وتنفصل ورقة كبيرة عن أخواتها وتتمايل بين الأغصان متهاوية فوق سامي ببطء... تروح

وتجيء ، وتتقلّب وتترجّح ، ثمّ تحطّ فجأة على جبينه . فمدّ إليها كفّه وضغطها ، فسمع لها تكسّرًا موجعًا . واستمرّ يفركها حتّى طحنها ففتح أصابعه وأذراها في الفضاء... ثمّ تلمّس ورقة أخرى بالقرب منه وهمّ بأن يتلهّى بها كما تلهّى بالسابقة ، فإذا هدير في الجوّ فرفع عينيه . وهتف كامل :

– طيّارة ! طيّارة !

وتهيّأ للقيام ، فأمسك به سامي وأشار عليه بالاختباء وقد علم أنّها من طيّارات الأعداء . ثمّ أطلّت طيّارة ثانية ، فثالثة ، وجعلت تحوم فتتجمّع وتتفرّق وتدنو من الأرض وتلقي قنابلها على العرب . ولكنّهم كانوا قد احتاطوا لمثل هذه الغارة فلم تصب القنابل منهم أحدًا . وعادت الطيّارات أدراجها صوب درعا فمشى سامي إلى المعسكر ولحق به كامل . وما كادا يصلان حتّى رأيا عشرات من القرويّين يقبلون نحو المعسكر وهم يملأون الفضاء صراخًا طالبين النجدة . قالوا إنّ الأسرى الذين فرّقهم العرب في القرى قد لمّوا شعثهم وانتقضوا على الأهالي يحرقون البيوت ويتلفون الغلال وينكّلون بمن تقع عليه أيديهم ، لا يرحمون عاجزًا ولا يشفقون على طفل .

١٥

غلت الدماء في قلوب الجنود وأصدر القوّاد أمرهم لأوّل مرّة بإفناء الأسرى . فاندفع الفرسان من كلّ صوب واتّجه سامي إلى قرية المزيريب –وقد خلّف فيها العرب مئتي أسير– في شرذمة بطّاشة من رجاله . وكان دخان الحرائق يتصاعد من القرية وينعقد في الجوّ ، وطلقات متقطّعة بعيدة تشوّش سكينة تلك الظهيرة ، ومواكب الهاربين تترى بين عجوز مهرولة ، وأمّ تركض برضيعها ، وابن ينجو بأبيه الشيخ ، يحتمون بالأدغال ، وينفرون إلى الحقول . وقد سرى الخوف إلى المواشي فانطلقت الأبقار والخرفان تقفز تائهة في العراء ، تمزّق أجسادها بين الصخور ، أو تدقّ أعناقها في المهاوي .

على أنّ الهاربين تشجّعوا لمّا رأوا العرب آتين إليهم ، فرجع أكثرهم إلى القرية يدلّونهم على جثث الأبرياء وقد انطرحت مغروسة بالحراب ، أو مشوّهة دقًّا بالحجارة . وحانت من سامي التفاتة إلى شجرة فرأى امرأة قد أوثقوا يديها ورجليها وعلّقوها من شعرها ، وأخرى على الحضيض قطعوا ثدييها ، وثالثة عارية فصلوا رأسها عن جسدها وركّزوا في بطنها عودًا . فصعد قلبه إلى حلقه وهمز مطيّته ، وانطلق ورجاله ينهبون الأرض ويقلقون السماء بإرعادهم . وكان شبّان القرية ما يزالون يقاومون مستميتين في الدفاع عن بيوتهم وأرزاقهم ، فما وقع بصرهم عليهم حتّى هبّوا إلى لقائهم . وركض صوب سامي شبحان صغيران ، أخت تجرّ أخًا لها دون السادسة يتفجّر الدم من صدره وهو يصرخ : «أمّي ! أمّي !» فثنى جواده إليهما ، فذُعر الصبيّ وسقط على الأرض بلا حراك . فقال سامي للفتاة مشيرًا إليه :

– من فعل به هذا؟

– ضابط تركيّ !

وانحنت على أخيها تولول . وتناثر الأتراك يتلمّسون مفرًّا ، ووقف بعضهم مبغوتين رافعين أيديهم في الهواء . فاستعرضهم يسألها عن الجاني ، وهي تصعّد فيهم بصرها وتنتقل من الواحد إلى الآخر . ثمّ هتفت :

– هذا هو !

فمدّ التركيّ بفكّه الأسفل إليها ، فإلى سامي...

– أنت هنا أيضًا؟!

وجمد سامي هنيهة يرمي رئيس التحقيق السابق في الديوان العرفيّ بنظرة يتحدّر معها من بين أجفانه احتقار دونه الدوس بالأقدام . ثمّ وثب إلى الأرض ومشى إلى رشدي بك ، فلمعت عينا الأسير وتحرّكت يده تتلمّس شيئًا إلى جنبه . ولكنّ سامي كان السابق فانتضى

خنجره وأهوى عليه فأغمده في قلبه حتّى النصل ، فتهادى في هرير عظيم وخبط على الأرض . ثمّ تناول سامي مسدّسه فسوّى الأتراك صفًّا واحدًا وأشار على رجاله فصوّبوا البنادق وحصدوهم جميعًا . وأبى إلّا أن يرجع إلى رشدي بك فأفرغ رصاصات مسدّسه الستّ في رأسه ، ورفع قدمه وألقمها ذلك الفكّ .

وكان جنوده قد انبثّوا في الأنحاء يتصيّدون الفارّين ، فعلا فرسه وانطلق في أثرهم ، حتّى اقترب من المعسكر فإذا جلبة قويّة ، فجمع شرذمته ودار بهم دورة ، فإذا المعركة حامية بين العرب وأكثر من ستّة آلاف من الأعداء يتقدّمون من الجنوب صفًّا عريضًا يغطّي السهل : الفرسان في الطليعة وعن الجانبين ، والمدفعيّة في الوسط ، وفي المؤخّرة خطّ طويل من المشاة . وكان المساء قد بدأ يرشّ غبشته على الآكام والوهاد . فأدرك العرب أنّ هؤلاء الزاحفين من بقايا الجيوش المنهزمة من فلسطين ، فسلّطوا عليهم المدافع .

ولكنّ أهالي القرى الذين ذاقوا من الأتراك الأمرّين لم يستطيعوا صبرًا ، وهاج بهم حبّ الانتقام فاندفعوا صوب الأعداء غير منتظرين أمرًا حربيًّا . فلمّا رأى القوّاد ذلك لم يجدوا بدًّا من الهجوم بالسلاح الأبيض ، ونظر سامي حواليه وصاح بالفرسان :

– إلى الأمام !

ولكز جواده ، فعلت حمحمة الخيل وأهازيج العرب وهو يردّد :

– إلى الأمام !

والسيف في كفّه يلمع على الشفق ، وهو ماضٍ يستقبل الرصاص بصدره :

– إلى الأمام ! إلى الأمام !

والأبطال يقعون عن جانبيه من هنا ومن هنا وهو يفتح عينيه متحدّيًا الموت :

– إلى الأمام ! إلى الأمام !

حتّى واراه غبار المعركة ...

مع سفر الطيور الغريبة أسرابًا سوداء في السماء ، ووثب ظلالها المضطربة فوق الجبال والأودية ، كانت الجيوش التركيّة تجلو عن البلاد وتغادرها إلى غير رجعة. وقد دبّ الذعر في القوّاد والجنود فتفكّكت الروابط واختلطت الأوامر بالنواهي ، فاختلّ النظام وسادت الفوضى وعلت الضوضاء في الثكنات. يترك العسكر وظائفهم وأسلحتهم وكلّ ما يملكون وينجون هاربين من كلّ صوب ، يتكدّسون في القطُر المولولة المسرعة نحو الشمال ، ويخرجون شراذم متجنّبين المدن والقرى ، ويتيهون على وجوههم شاردين في البراري. والناس يطلّون على السطوح ويشرفون على رؤوس الجبال مشيّعين مع هذه الفلول المتوارية أشباح الظلم والجهل التي ساورتهم قرونًا ، يذرفون دموع الفرح ويتعانقون ، ويتنادون بالبشرى ويهزجون. غابت الوجوه الغليظة من الدواوين ، واستراحت الطرق من الجزمات الثقيلة ، وأمنت العذارى في غدواتهنّ من البيوت وروحاتهنّ ، وولّى الجوع بمواكبه الكالحة الصفراء ، واشتاقت الأرض إلى سنابل القمح والأزهار بعد الجيف وركائز المشانق...

ونسّم الهواء بالحرّيّة.

* * *

وكانت دمشق أكثر البلدان ابتهاجًا بالنصر. قد وافاها يومها في ميعاده ، وانحنى يمسح بأنامله السحريّة أجفانها المثقلة بمئات السنين ، فاستفاقت تحطّم قيودها وسلاسلها ، وتنفض غبار الأجيال المتراكم عليها ، وانبعثت تحت شمس الشرق تشمخ بقاسيونها إلى السماء ، وتزيّن الأرض بغوطتها الخضراء ، وتطيّب الأرجاء.

كانت جموع الناس تموج عرض الشوارع والساحات ، وتكتظّ على السطوح والنوافذ ، شيبًا وشبّانًا ونساء وأطفالًا ، في ثيابهم المزركشة الفضفاضة وأكمامهم الملوّحة في الفضاء. يهتفون ملء الصدور ، أفواهًا كالأبواق ، وجباهًا عالية ، وعيونًا متألّقة. يعتلي الشبّان مناكب الحشد ، راقصين بالسيوف والخناجر ، متنقّلين بين ألوف الرؤوس ، فتتعانق لمعات الأسلحة وشراراتها فوق دَرْز الطرابيش الحمراء ، والعمائم الخضراء والبيضاء والصفراء ، والشعور المبعثرة مع الهواء. وتتجاوب الأناشيد وتختلط الأنفاس في زحمة الفرحة الكبرى ، ويصعد كلّ ذلك في الجوّ فيملأه ويرجّه ، حتّى ليُخيّل إلى الرائي أنّ هذه الكتلة المتلاصقة ، المتهادية ، المترامية إلى كلّ منفذ ، الزاحفة إلى غير حدّ ، بحر هائج قد ضاع فيه الأفراد كما تضيع القطرات ، فهو مخلوق من الأساطير له جسم واحد جبّار

وروح واحد هدّار. هو الشعب العظيم قد أقبل من كلّ صوب وفجّ إلى عرس الحرّيّة وعيد الاستقلال.

كانت زينه في تلك الأثناء واقفة على الشرفة من بيت الورّاق تصغي إلى كامل أفندي يقصّ عليها وعلى طام أخبار الثورة وأحاديث الانتصارات التي أحرزها سامي، من الصحراء التي ليس لها اسم... إلى وادي أبي اللسان حيث كان اللقاء به وبشفيق... إلى العقبة حيث كانت قيلولة الأحلام... إلى الطفيلة الرهيبة المدمّاة بظُفر القدر القاسي... إلى المزيريب حيث فتكة الانتقام الكبير... فإلى...

– إنّ صوته، يا زينه، ما يزال يرنّ في أذنيّ. وما أزال أرى وجهه في تلك الساعة، وتلك الكفّ تمتدّ إلى صدره وتُخرج الوديعة مضرّجة بدمائه لترتفع وتسلّمها إليّ... وشفتيه يتمتم بهما اسمك ويحاول أن يزوّدني إليك بالكلمة الأخيرة...

وزينه تنصت ولا تقول شيئًا... وقد علت في الشارع جلبة، وتراجع الناس إلى الأرصفة متدافعين، وأقبل من بعيد وقع حوافر وأهازيج. ثمّ انعقدت سحابة من الغبار وجعلت تدنو وتتعاظم، والوقع يتدارك والأهازيج تملأ الفضاء. ولاحت الكوفيّات الحريريّة والعقالات المقصّبة والعباءات المجنّحة، وكرّ الفرسان على خيولهم، فجُنّ الناس سرورًا وزهوًا يلوّحون لهم بالأيدي، ويرشقونهم بألبسة الرؤوس، ويترامون على أعناق المطايا، وقد أطلّت الصبايا من أخدارهنّ ومزّقت النساء براقعهنّ، وانعطفن على النوافذ والشرفات ينثرن على الجيش الأزهار والعطور، ويمددن أذرعهنّ مع الزغاريد إلى غير ما حدود. وزينه، وسط هذا المشهد الرائع، جامدة تنظر عيناها وكأنّهما لا تريان، وتصغي أذناها وكأنّهما لا تسمعان. ثمّ خُيّل إليها أنّ موجة عظيمة قد جاءت من أقصى الشارع تتقلّب فوق هذا الحشد الزاخر، وتقترب متعالية في اتّجاهها حتّى تطفو على الشرفة حيث هي واقفة، تداعب قدميها، وتتسلّل بين رجليها وتغمرها حتّى عنقها، فتحاول التنفّس فلا تستطيعه إلّا بجهد... ثمّ تحسّ كأنّ قلبها يصعد، يصعد، يصعد، وإذا هو قد هاج بين أضلاعها بحرًا تتدفّق أمواجه وتتلاطم بأمواج البحر الآخر، فتغمض أجفانها وتستسلم إلى هذا المرج متهادية، تجيء بها موجة وموجة تروح، ساعة طويلة من الزمان الذي لا يعرف الساعات. ثمّ كأنّ الغمر هبط فجأة وهبط قلبها معه، فاستفاقت على أخيها يعالج كفّها المطبقة على ذخيرة عود الصليب ويسأل:

– أختي، أختي! ما هذه؟

فخفضت رأسها إلى كفّها وظلّت تنظر إلى ما فيها. ثمّ اغرورقت عيناها فلم تعد ترى... ومالت إلى أخيها وقالت وقد انفرجت أصابعها في الهواء:

– لا شيء!...

الألفاظ والعبارات التركيّة

فيما يلي تفسير الألفاظ والعبارات التركيّة التي وردت في هذا الكتاب:

همشري: صاحب، رفيق. وتُستعمل للدلالة على رجل بسيط أو مُهمَل.
ريال مجيدي: عملة عثمانيّة من فضّة. الواحدة تساوي سبعة بشالك.
بشلك: عملة عثمانيّة من نحاس. الواحدة تساوي ثلاثة قروش.
متليك: عملة عثمانيّة من نيكل. الواحدة تساوي ربع قرش.
حاظدور: تأهّب. كن مستعدًّا.
مارتينة: بندقيّة.
أطور: أقعد.
بادي شاهم جوق يشاه: أطال الله عمر مولانا السلطان!
القيراونة: طعام السجناء. وهو كناية غالبًا عن حساء مع بعض الحبوب.
يساق: ممنوع.
تشابوق: عَجِل.
سكتير: شتيمة قبيحة يُراد بها التحقير والإسكات.

تنبيه

إنّ أشخاص هذه الرواية وحوادثها هي من خلق المؤلّف، ولا تمتّ بصلة قريبة أو بعيدة إلى أشخاص أو حوادث معيّنة في مكانٍ ما.

على أنّ وقائع الثورة العربيّة وأخبار الديوان العرفيّ في عالَيه هي وقائع وأخبار تاريخيّة في جملتها، وهي مستقاة من عدّة مصادر، بين مذكّرات وكتب تاريخ ونبذات في الصحف.

أمّا الأتراك الذين يعنيهم المؤلّف فهم أتراك السلطنة العثمانيّة المتفسّخة التي أقام على أنقاضها الغازي مصطفى كمال دولة حديثة جديرة بكلّ احترام.

طواحين بيروت

– أدرجت منظّمة الأونسكو العالميّة هذه الرواية ، على أثر صدورها ، في سلسلة «آثار الكتّاب الأكثر تمثيلاً لعصرهم» .

– تُرجمت إلى اللغات التالية :

* الإنكليزيّة وصدرت عن دار «هاينمان» في لندن سنة ١٩٧٦ بعنوان Death in Beirut

* الروسيّة وصدرت عن دار «بروغرس» في موسكو سنة ١٩٨٠ بعنوانها الأصليّ .

* الألمانيّة وصدرت عن دار «فرلاك ركلام» في ليبزيغ سنة ١٩٨٢ وعن دار «يونيوس فرلاك» في زوريخ سنة ١٩٨٤ بعنوان Tamima.

الحلقة الأولى

«لماذا يموت الصباح وتنتحر الشموع؟...»

عبدالله القصيمي

١

مع الفجر قامت آمنه إلى سلّتها.

وها هي للمرّة العاشرة تقلّب ما حشتها به ، وتميمه واقفة تنتظر : متى تنتهي تسوية هذه السلّة التي استغرقت أسبوعًا من التحضير؟

وعيل صبر الفتاة فضربت بيدها إلى الخزانة وناولت أمّها طرحتها تستعجلها في الخروج . ولكنّ المرأة ألقت الطرحة وهرولت إلى دكّة في المطبخ فأدخلت يدها في خابية ، وزادت منها ما تعرف جيّدًا أنّ ابنها يحبّه منذ الصغر ، فكيف غاب عن بالها؟

– ما نسينا شيئًا بعد؟

– بلى ، نسيت أنّ الشمس طلعت ونحن في المهديّه. متى تريدين أن نصل لبيروت؟

– سنصل لبيروتك. بيروت تهمّك ، لا يهمّك أخوك !

ونترت السلّة فوضعتها أمام باب البيت وأقفلته ، ثمّ أعادت المفتاح بعنف إلى عبّها ، وهمّت لا تدري بأيش...

كان قد مضى على سفرتها الأخيرة إلى بيروت شهران. وحدها كانت –كما أوصاها جابر ، كما يوصيها كلّ مرّة– ووحدها كانت تريد أن تكون اليوم. ولكن ماذا تصنع بتميمه؟ ترفض البقاء في البيت.

– لو تنتظرينني عند خالتك في صيدا.

شالت تميمه برأسها سلبًا. فبربرت آمنه وهي ترفع السلّة إلى كتفها :

– أعوذ بالله من هذا الجيل !

وبدلًا من أن تمشي في الدرب اتّجهت إلى ما وراء البيت ، إلى حيث تعرف تميمه ، فصاحت تلحق بها :

– متى نخلص من دجاجاتك؟ طمّني بالك ! أنا لن أقضي حياتي في هذا القنّ مثلك إكرامًا لك ولابنك.

– قلت لك ألف مرّة انزعي بيروت من رأسك. صيدا وبس !

لم تجب تميمه.

فاستطردت الأمّ ملاطفة :

– بيروت لها ناسها ، يا بنتي.

تقول ذلك وهي موقنة أنّ كلامها يزلق عن تميمه كما يزلق المطر عن البلاط . واستطردت :

– إيّاك أن تفتحي هذه السيرة لجابر ! إكفينا شرّه وشرّك.

كانت تميمه قد مشت لوجهها تاركة لأمّها أن تودّع دجاجاتها وتتبعها متى تريد... هذا القنّ تفوح منه المسكنة . يعشّش فيه الذلّ. والبيت العتيق الأدكن من

أساسه قبر للأيّام ، لم تزده هذه الغرفة الرطبة من الباطون وهذه السقيفة ذات الأعمدة الكالحة إلّا بشاعة الترقيع . أحسّت تميمه مرّة أخرى بكره ذلك كلّه وهي تدير ظهرها وتبتعد .

ووضعت آمنه إسكربينتها تحت إبطها تحثّ الخطى وراء ابنتها وتطلب منها أن لا تركض هكذا ، فهي لا تقدر أن تركض مثلها ، فتجتهد تميمه في التمهّل وفي لجم أفكارها .

هذا الدرب أكل طفولتها بين المهديّه وصور — وهو يأكل صباها اليوم بينهما وبين صيدا — تمامًا كما يأكل قدمَي أمّها الحافيتين .

لن يأكل من عمرها بعد اليوم إلّا بمقدار ما يفصلها عن البكالوريا . ثلاثة أشهر . وبعدها بيروت . من المدرسة في صيدا إلى الجامعة في بيروت ... وبعد الجامعة ؟ لا تعرف ... كلّ ما تعرفه ويجب أنْ يعرفه الآخرون أنّ حياتها لها .

حياتها ليست ملكهم .

وستعيش حياتها كما تريد .

بانتظار ذلك عليها أن تقضي ما تبقّى عليها بين المهديّه وصيدا . من المهديّه إلى صيدا ، مرورًا بصور ، ومن صيدا إلى المهديّه — « خطى كُتبت علينا » — وتردّد هذا البيت الذي تحفظه من جملة ما تحفظ من أشعار ، وتترنّح به على الدرب الذي يلفّ الرابية نزولًا ، ولا تلتفت إلى الوراء .

لم يكن في المهديّه من السيّارات إلّا واحدة منذ كانت المهديّه ، ناش ، ماتت ماركتها قبل أن تولد تميمه ، وزال أثر الناش من الأرض وناش المهديّه تقرقع بأوصالها المفكّكة غادية رائحة ، لا هي تكسي فتُعرف ولا كميون فتُوصف . جاءت من صور عجوزًا إلى المهديّه ، شمطاء عرجاء ، مع هذا الدرب المحفّر المغبّر الذي وصل المهديّه بالعالم . ومنذ أسبوع انطرحت في الساحة تطلب رحمة ربّها ، وأبو أحمد يأبى إلّا أن يعالجها من الفجر إلى النجر ليعيدها إلى أشغالها الشاقّة ، وأحمد وراءه يصلّي على روحها حالمًا بالمرسيدس .

وما شأن السيّارات — وجديدة ! — في ضيعة ذات ثلاثين بيتًا أو أقلّ نصفها خراب والنصف الآخر سينمى من بناه في القريب ؟ تولّت أفريقيا القسم الأكبر ، وتتكفّل الكويت بالباقي بما تبذله من سهولة العمل وسرعة الإثراء .

وتستعرض تميمه في خيالها المراحل التي شهدتها من حياة المهديّه ، فتطلع لها وجوه ووجوه ، فلا تجد منها وجهًا تأنس إليه .

حتّى أطلّ البحر .

كانت الشمس ترقّص أشعّتها على البساط الأزرق الشفّاف ففتحت الفتاة صدرها لفرحة الصباح ، ونسيت أشعارها العربيّة فهي تترنّم الآن بأغنية فرنجيّة تعرف أنّ أمّها لا تطيقها فترفع صوتها بها وتقفز على الحصى .

وآمنه غارقة في بحرها . كيف يكون استقبال جابر لأخته ؟ أكثر ما تخشاه أن يرفضها معًا : « اِرجعي ببنتك وسلّتك ! »

وأفريقيا . تُرى ، متى تنتهي أفريقيا ؟

متى يعود تامر رأس البيت ؟

سبع عشرة سنة ... أقسم لن يغيب إلّا ثلاث سنين . أربعًا على الأكثر .

صحيح ، فكّ رهن البيت ، « وكفانا مؤونة الناس » ، وبانتظام يبعث بنفقات العائلة وأقساط المدرسة لتميمه وأقساط الجامعة لجابر ومطالب جابر التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكنّ الحاجة إلى وجوده أهمّ اليوم من الحاجة إلى المال .

في السابق كان يوجّه الحوالات باسمها . فلمّا رشد جابر أصبحت تصل باسم جابر . وجابر يبعزق . يتحكّم بالبيت . يقتّر على أمّه — « لا بأس . » يسلبها ما توفّره من قرش أبيض لليوم الأسود — « لا بأس . لا بأس . » ولكنّه يمنّ على أخته . يسوّف . ينهر . يعارضها

في ما تطلب لملبسها وزينتها ، وحتّى في ما تشتري من كتب ومجلّات . كلّما أتى إلى المهديّه نبش خزانتها وبعثر : «ما هذه الكتب الروائيّة الهوائيّة وما هذه المجلّات المولعة بها؟!» حسنًا فعل في تمزيق تلك المجلّات . نساء بلا حياء ! «أعوذ بالله من هذا الجيل !» وقطع مصروف الجيب عنها طول شهر .

ولكن ، إلى هذا الحدّ وكفى . قسط المدرسة استحقّ منذ أسبوع ، والمدرسة تطالب تميمه ، وجابر إلى اليوم لا علم ولا خبر . «كلّ شيء ولا يكون قسط المدرسة قد طار» .

المال . المال . لعن الله الطمع ضرّ ما نفع . لماذا لا يكتفي تامر بما عنده؟ محلّات من خير الله ومزارع – كلّ الناس تعرف ، كلّ من عاد من أفريقيا يقول – بثمنها يعيش في لبنان سلطانًا . ويسكن بيروت . ويكون ابنه وابنته تحت جناحيه . كلّ سنة يعد : في القابلة إن شاء الله ! ثمّ يطلع بنغمته : الشغل . الشغل ! «العمر ينتهي ولا ينتهي الشغل» .

ما بقي من هذا العمر؟

وانخفضت كتف آمنه بالسلّة .

هذا الذي بقي ، لها على الأقلّ ، لا يليق ببيروت . لذلك ستبقى هي في المهديّه . لو عاد مع أفواج الذين عادوا . لو عاد في الوقت الذي كانت تحتفظ فيه بشيء من شبابها .

في البداية كان يكتب مرّتين وثلاث مرّات في الشهر . ومع كلّ رسالة أشعار لها . أيّ خجل كان خجلها وأيّ هناء حينما كان الحاجّ فضلو يقرأ لها ، وهي ترفع طرف الحبرة ، تختلس النظر – أعمى – إلى هذه الألفاظ التي يرتّلها ترتيلًا وتبرق بها عيناه .

ثمّ انقطعت الأشعار .

الخجل الذي كان يعتريها من سماعها انقلب إلى خجل أشدّ من انقطاعها . بأيّ انكسار عادت بعد الرسالة التي ليس فيها من أولها إلى آخرها قافية واحدة ، ولو أنّها تحمل حسب العادة نبأ المبلغ المرقوم .

في الزيارة التي تلت – تذكر آمنه ذلك ولا تنساه – هزّ الحاجّ فضلو رأسه وحكّ لحيته متسائلًا بسخرية عن السبب الذي من أجله «جفّت القريحة التامريّة» ... سكت من بعدها ونسي .

أيكون صحيحًا أنّ تامر تزوّج عليها عبدة سوداء؟ أمّ حسين تقول : «كلّهم تزوّجوا عبدات» . تروح وتجيء في المهديّه : «تعرفون الأخبار؟» وتتوقّف بسحنتها النحس وعينها البلقاء وتسأل : «كيف الأخبار عن الغيّاب يا أمّ جابر؟» ولسانها على الغيّاب ، وعلى تميمه ، وعلى جابر ، وعلى خلق الله . لسان الحيّة !

تعرف أمّ جابر كيد أمّ حسين . ومع ذلك فقلبها يحتقن لمجرّد الفكرة ، ينفجر على تامر ، على أفريقيا وعبداتها ، وعلى كلّ الذين يتزوّجون الثانية و... الرابعة .

جميل الموالي رجع من غينيا . وهو في الأوتيل في بيروت . لو تذهب إليه وتستوضحه الحقيقة عن تامر . ما اسم هذا الأوتيل؟

– تميمه !

نادت الأمّ ابنتها دون وعي ، فأدارت الفتاة وجهها جوابًا . ولكن آمنه نكّست رأسها ولم تقل شيئًا كيف تدخل على الرجل ، وبأيّ عين تكلّمه في هذه الأمور؟

– ما تريدين من تميمه؟ تميمه ستكتب إلى أبيها من غد : حصّة تميمه باسم تميمه . وأنت حصّتك باسمك إذ أحببت . وصاية ابنك ستجرّ علينا الخراب والويل .

– لا تكتبي شيئًا . اقرأي لي ما تكتبين قبل أن تبعثيه .

ووضعت آمنه السلّة لتنتعل .

كانتا قد وصلتا إلى الطريق العامّ ، فوقفتا تنتظران أيّ باص إلى بيروت من باصات صور . وحالفهما الحظّ فلم تنتظرا إلّا قليلًا . جلست آمنه على كرسيّ إضافيّ محشور

بجانب الباب والسلّة في حضنها ، ودعا المعاون تميمه إلى المقعد الخلفيّ الممتدّ عرض السيّارة ، فنظرت فإذا هو مزدحم بستّة أشخاص وهو أصلًا لخمسة . وشالها أحدهم ببصره ثمّ نهض مقدّمًا إليها محلّه الضيّق بابتسامة واسعة ، وكرّر الدعوة . ولكنّ تميمه كانت قد أدارت وجهها صوب البحر . لم يعجبها المحلّ ولا الابتسامة . ولو لم ينزل راكب في المحطّة التالية لسافرت واقفة إلى بيروت .

٢

كانت تلك المرّة الثالثة التي تدخل فيها تميمه نصّور شارع الحمرا .

في الأولى رافقت أمّها إلى بيت مدام خوري حيث يقيم جابر ، وكان الشجار مع جابر .

وفي الثانية تركت أمّها عند فم الشارع زاعمة أنّها ستذهب لزيارة صديقتها ماري أبو خليل في المستشفى الأمريكيّ . قالت : « ونلتقي في كاراج صور الساعة كذا وكذا » . ودارت دورة وعادت فجلست في مقهى على الرصيف .

كانت الحمرا تبهرها بما يعجّ فيها من حياة وألوان .

في الطريق الضيّق المؤدّي إلى بيت مدام خوري تجدّد النقاش بين الأمّ وابنتها . ولكنّ تميمه لازمت عنادها تزيد مجابهة جابر .

فانثنت آمنه عن الموضوع . قالت ترثي لصاحبة البيت :

– النقرس مرض صعب . مسكينة ! ماذا تنفع هذه الحبوب التي تبتلعها الواحدة بظهر أختها ؟

وتعود إلى جابر :

–كنت أفضّل أن يكون أخوك في ربعه . الحاجّ فضلو مستعدّ ، قال لي ، أن يدبّر سكنه مع رفيق له من أولادنا في غرفة واحدة .

ثمّ تردف طالبة لنفسها التعويض :

– المهمّ أن يبتعد عن حسين القمّوعي . مصيبتنا كلّها من حسين .

وطلعت آمنه درج البيت تحمل سلّتها بيد ، وتستند باليد الأخرى على درابزون الباطون المقشّر . وسبقتها تميمه إلى الجرس فضغطت بعنف ، وثارت على أمّها من جديد من أجل هذه السلّة .

– تعتقدين أنّ ابنك سيأكل منها ؟ في أيّ زمان أنت عائشة ؟ كلّ تعبك رائح في الزبالة . ابنك لا يأكل إلّا في السان جورج وفي فينيسيا وفي الكازينو ، وأنت احملي إسكربينتك تحت إبطك وارجعي حافية كما جئت !

لا مَن يفتح ، وفي الداخل حسّ خطى . فدقّت آمنه بدورها تريد الخلاص من تعنيف تميمه . « هذه البنت تفضح أمّها . أعوذ بالله من هذا الجيل ! »

وأخيرًا انفرج الباب وأطلّت منه الخادمة وهتفت بملء فيها :

– أهلًا وسهلًا بالستّ أمّ جابر وبالمدموازيل تميمه !

تلميذة نابهة تبدأ خطابًا في حفلة مدرسيّة . هكذا فكّرت تميمه وهي تنظر إلى زنّوب وإلى عينيها البارقتين بالذكاء . وتتذكّر فنجان القهوة الذي حملته إليها زنّوب في الزيارة الأولى وكيف كبّه جابر في غضبه على السجّادة ، فاعتذرت تميمه وركضت زنّوب تمسح السجّادة وعيناها معلّقتان بتميمه ، تبتسم – تواسيها – وتمسح لها طرف تنّورتها ، مع أنّ القهوة وقعت بعيدة عن التنّورة .

كانت الأمّ قد بادرت بالسؤال عن جابر ، فأجابت زنّوب وأنظارها لا تفارق تميمه أنّها لا تعرف .

– الستّ روز يمكن أن تعرف .

وقادتها في الممشى الطويل إلى الدار .

كانت الستّ روز جالسة إلى طاولة عليها خرائط

بعضها فوق بعض ، فقامت ودلفت بسمنتها ترحّب بالستّ أمّ جابر وترمق تميمه هاشّة باشّة :

– ما شاء الله ! ما شاء الله !

مبدية إعجابها بالمدموازيل ، مؤكّدة أنّها «كلّ يوم أجمل وأجمل» . وتتأمّلها من فوق إلى تحت . وأمرت لها بالكولا وللستّ أمّ جابر بالقهوة .

كان الصبا كلّه يهجم مع هذه الكتلة من الحياة الغضّة البضّة المشدودة في فسطان رماديّ رقيق ارتدته تميمه لذلك اليوم . وكان فيها أكثر من الجمال . دعوة في هاتين العينين العسليّتين الواسعتين إلى «الشرود في دنيا لها أوّل وليس لها آخر» – روز خوري ذات خبرة – لولا هذه العقدة بين الحاجبين . ولكنّها عقدة حلوة تكسب صاحبتها لدى الابتسام مزيجًا من القبول والرفض والرفض والقبول تعرفه روز جيّدًا من القرويّات ، فلا يزيدهنّ إلّا فتنة وإغراء .

– جابر لم ينم البارحة في البيت .

فشهقت الأمّ .

– لا داعي للقلق (أكّدت صاحبة البيت) فهو معتاد أن يغيب . ولكنّها المرّة الأولى التي ينام فيها ليلتين متواليتين خارج البيت .

– ليلتين !

كاد صواب الأمّ يطير . وانهالت التكهّنات والابتهالات إلى الله . فيما كانت الستّ روز تقلّب خرائطها بوجه تميمه مزهوّة :

– البناية التي سأطلع بها .

ثمّ تبلع حبّة من حبوبها وتلعن الهندسة والمهندسين . أكّدوا لها في البداية أنّ التكاليف لن تتجاوز المئة والخمسين ألف ليرة . وصلوا بها الآن إلى المئتين والخمسين .

– كلّ شحطة قلم بعشرين ، بثلاثين ألف ليرة !

وهي لا تريد أن تقع تحت الديون .

وانفتح باب إحدى الغرف وأطلّت منه نظّارتان ، فرفعت رأسها ونادت :

– فنجان خصوصيّ يا زنّوب ، مرّ للأستاذ .

والأستاذ بالباب لا يتحرّك ولا يقول شيئًا . نحيل ، ضئيل ، في روب أصفر ، مقلّم ، وشعر مهمل تتهدّل خصلة منه على صدغه الأيمن ، ونظّارتاه بوجه تميمه . أزعجتها هاتان النظّارتان فنهضت وهي تتظاهر باستشارة ساعتها .

– العاشرة .

قالتها بصوت مسموع . والأستاذ لا يبرح العتبة يفرك ذقنه القاحم ذا الشعر النافر بأنامل عصبيّة . وتهمّ روز بمراسم التعريف ولكنّ تميمه أدارت ظهرها لتقول لأمّها إنّها ذاهبة إلى الجامعة تسأل عن جابر ، فهبّت الأمّ ، فردّتها تميمه إلى القعود :

– أنت انتظريني هنا .

وخرجت .

لم تتناول آمنه من قهوتها جرعة أو جرعتين حتّى قامت إلى غرفة ابنها تتفقّد ثيابه وأمتعته . فأتبعتها روز بقهوتها . ولمّا دخلت عليها الخادمة وجدتها تمسح عينيها بقميص من قمصان جابر ، فعادت تخبر أنّ أمّ جابر تبكي . . .

كانت روز خوري غارقة في خرائطها .

لا بدّ من البناية الجديدة . كلّ الحيّ نفض عتيقه . على أنّها ، بصرف النظر عن التكاليف ، لا يمكنها أن تفكّر بهدم هذا البيت إلّا بالكثير من التأثّر ، فهو جزء من حياتها ، وعتبته خير ، منذ أن داستها وهي من أعلى إلى أعلى .

تنقّلت في ماضيها من شرق المدينة إلى غربها ، ومن الشمال إلى الجنوب ، وبالعكس ، مرارًا ، قبل أن تستقرّ في الحمرا .

في بيتها .

«مدام روز خوري» محفورة في النحاس على الباب ، منصوبة أمام عيون الحسّاد منذ عشر سنين .

زهره جناديوس ! لو ناداها منادٍ اليوم بزهره جناديوس ، أو بأيّ اسم آخر من الأسماء التي تعاقبت

بعده ، فالنداء موجّه إلى غيرها .

ماتت تلك الأسماء .

وروز خوري تحتفظ منها بذكريات بعيدة ، داخل بعضها في بعض ، مبهمة ، كأنّها من عالم آخر .

زهرة ابنة الخوري نعمة الله جناديوس كاهن رعيّة المقلب في شماليّ لبنان... مات المرحوم قهرًا . الحمد لله أنّ الخوريّة ماتت قبل الحدث العظيم : «أحبّت الشاويش . راحت خطيفه مع المسلم ! » قالوا . وكرّت السبحة .

لم يقبل أحد أن يعترف لها باسم حرم أدهم أفندي . سمّوها زهّور الشاويش . وكان الغيارى يفتّشون عن يد تغسل لهم الفضيحة بالدم لولا أن أتاهم فرج من السماء : مات أدهم برصاص الأشقياء وهو يطارد عصابة منهم في الصرود . فهربت إلى بيروت باسم ورده نعمة الله . ولم يلبث المترجمون في بيروت أن ترجموا ورده إلى روزيت تحبّبًا ، ولكنّها بترته يوم بترت آخر علاقة لها مع الرجال . وقصص الرجال الذين عرفتهم قد طوتها . ختمت عليها وعلى كار الغرام .

ما عدا هذا – ونظرت إلى صورة في صدر الدار – فهي لا تستطيع أن تنساه . واغرورقت عيناها .

المهمّ أنّها استوت في وقار الستّ روز لا من البارح ، ولا من سنتين حينما شرعت في تشغيل التكسيات ، بل من اليوم الذي اشترت فيه بيت الحمرا وتنبّأت للحمرا بمستقبلها الباهر .

الطابق الأرضيّ أصله قبو الحجر الذي بنت عليه هذا الطابق من الباطون . لو عرفت في ذلك الوقت كيف ستنقلب الدنيا ! ولكن من كان يستطيع أن يعرف؟ الحاصل أنّ الطابق الأرضيّ ضائع . مرتع لجلال الكرش بين دكّانه ومكتبه العامر ، مع كاراج لا يسع إلّا سيّارتين من سيّارات التكسي . الثالثة تبيت في الطريق .

« الكرش لا يمكن الاستغناء عنه وعن جلاله ! » عمود من أعمدة البيت على حاله ، وعمود لا بدّ منه في البناية التي ستطلع . كان في الدكّان قبل أن تنتقل إلى البيت وينتقل البيت إليها . دخل في الصفقة . ظلّ يبيع خُضَره سنين ويدبّر خادمتين أو ثلاثًا لأهل الحيّ كلّما راح إلى عكّار . فلمّا ازدهر هذا الحقل ترك الخُضَر تذبل في الحقل الآخر – روز لا تشتري من عنده شيئًا – ثمّ جعل من غرفة نومه خلف الدكّان مكتبًا ، فأصبح أولياء البنات يأتون بهنّ إليه ، وهو كالطاووس خلف طاولة عتيقة عرجاء قالت له روز ألف مرّة «غيّرها» فلم يسمع . «يحبّ أن يعيش في الوسخ ! » ولِصق الحائط صوفا أوسخ وأوسخ ، وكراسي قشّ منفّشة كشعور البنات لدى وصولهنّ من عكّار .

ولكنّ الشغل ماشٍ .

الطابق الثاني بهندستها : دار وخمس غرف ومطبخ .

غرفتها هي في أوّل الممشى ، مع نافذة تطلّ على الطريق وأخرى على سفرة الدرج .

تقابلها الغرفة الثانية إلى الجهة الخلفيّة ، معتمة ، مقفلة طول النهار على أثاثها الفاخر . ليست بحاجة إلى نور الشمس ولم تعرف من الكهرباء إلّا الضوء الأحمر في الليالي .

الثالثة على الصفّ نفسه لجابر نصّور ولأيّ مستأجر . نحس هذه الغرفة . يتبدّل عليها في السنة عشرات . عسى أنّ يثبت هذا . طالب حقوق ، يقول . الطلّاب إذا ثبتوا فتسعة أشهر . ولكنّها لا تراه يدرس . همّه ملاحقتها : «عندك واحدة جديدة ؟ » كأنّ عندها فبركة نساء . دفّيع على كلّ حال . الحوالات تتدفّق عليه من أبيه ، وليلته العامرة بعد كلّ حوالة بخمسمائة ليرة من خير أفريقيا .

الرابعة للصحافيّ المؤلّف الشاعر الأستاذ رمزي رعد وكتبه وجرائده وأوراقه وجنونه . وحده بين مستأجري خلق الله غلب روز . يدفع شهرًا ويمتنع دهرًا . ومع ذلك أيّ قوّة من السماء أو من جهنّم حالت دونها ودون طرده حتّى الآن؟ لا تعرف أتحبّه أم تكرهه؟ تحترمه أم

تحتقره؟ مخلوطة في دماغها. أمّا أن تخاف منه ومن قلمه -كما لمّح مرّة بعد تأخّره في الدفع- ففشر! روز خوري لا تخاف أحدًا. وعندها في الحكومة من يحمي ظهرها.

أمّا الخامسة فعلى اسم «نائبنا العتيد» المحامي اللامع الأستاذ الكبير أكرم بك الجردي. الغرفة الوحيدة التي لها شرفة على الطريق. طبعًا، البك ما أطلّ على الشرفة في زمانه. فالغرفة ليست لسكنه - هو يسكن شقّة فخمة في الحازميّة - وإنّما هي لمزاجه. وكيلها في مشاكلها مع السوّاقين. ومنذ وفاة زوجته الزبون رقم ١ في البيت. إيجار الغرفة مدفوع سلفًا كلّ ثلاثة أشهر لساعتين في الأسبوع: ساعة يوم الإثنين وساعة يوم الجمعة... «البك حجز من العمارة الجديدة الروف. أوديت لا ترضى إلّا بالروف. تريد أن تطلّ على البحر! أن تسرّح أنظارها في الجبال! السيّدة المبجّلة أوديت مدام فوّاز أفندي نعمان. يعني - وهزّت روز برأسها - يعني بالعربيّ الفصيح الذي فاز بالشرفين: الوظيفة التي دبّرها له البك، والقرون التي أطلعتها له أوديت».

سبحت بأفكارها إلى بعيد. من الآن إلى أن تبيع التكسيات، وتستردّ ما لها في ذمّة الناس من أموال، وتتّفق مع المهندسين على الأسعار، فرج ورحمة... «فوّاز أفندي نعمان! والنعم! كشّاف! كشّاف، قال، في الجمرك! فليكشف خلف رأسه! فليتفضّل وينظر تحت ذقنه ماذا تهرّب زوجته وأمّ أولاده الثلاثة»!

وطوت الخرائط ودخلت إلى غرفة جابر تؤانس أمّ جابر. فرصة لمفاتحتها في هذا الجسم الذي يأخذ العقل: تميمه.

٣

تعرف تميمه الجامعة اللبنانيّة. مركزها على الأقلّ، الأونسكو، وبعض أقسامها الموزّعة في المدينة. سبق لها أن زارتها مرّتين ومعها رفيقة من صيدا تعتزم هي أيضًا المجيء إلى بيروت للدروس العالية. وفي الحلم زارتها ألف مرّة.

أمّا ما يقول جابر إذ تطلع بوجهه فلا تفكّر فيه.

كانت تستمع، وهي في سيّارة السرفيس، إلى الركّاب يتحدّثون عن الطلّاب وعن التظاهرة التي قرّروا القيام بها. اليوم الساعة العاشرة يلتقون أمام الأونسكو.

-كلّ يوم خضّة.

هكذا كانوا يقولون. يخشون خصوصًا أن ينقلب الأمر في بيروت إلى ما انقلب قبل أيّام في طرابلس: اصطدامات وقتلى، مع الفدائيّين وضدّ الفدائيّين.

- وضربات سخنة.

- والعودة إلى نغمة مسلم مسيحيّ.

- أصابع أجنبيّة. إسرائيل.

- لا مسلم ولا مسيحيّ. إسرائيل لا تفرّق بيننا.

- إسرائيل ومعها ألف عزرائيل: الزعماء ومآربهم ونكاياتهم.

- يتناحرون فيما بينهم واليهود على الحدود.

- الجيل الجديد كفر بهم وبخزعبلاتهم.

- أين هو هذا الجيل الجديد؟ بالسينمات والستريوهات. إلى أين نروح مع جيل الهيبّي؟

- والميني جوب!

فأفلت السائق المقود ورفع قبضته مهدّدًا. كان منرفزًا ويتوقّع لهذا اليوم شؤمًا، فالسيّارات تنقل العسكر منذ الصباح الباكر باتّجاه الأونسكو، وقد غيّر له البوليس وجهة السير مرّتين، وهو يشتم البوليس ومن لبّسهم الطقم. الميني جوب أطفح كيله فأخذ يروي كيف أنّ ثلاثة، «من الشبعانين من حليب أمّهم»، أمسكوا نهار الأحد بنتًا من بنات الميني جوب فمزّقوا عنها الميني جوب وتركوها نصف عارية في ساحة البرج. ركضت لأوّل سيّارة - إليه هو - طالبة السترة. خلّصها البوليس وإلّا:

- كنت هرست عظامها تحت الدواليب!

ولعن الركّاب هذه الأيّام وسبّوا الحكومة.

تميمه بقيت ساكتة.

كان العسكر يتكاثرون كلّما اقتربت السيّارة من الجامعة. وعلى المفرق الكبير، على مئتي متر من الأونسكو، سيّارات كبيرة تتوالى وتُفرغ أفواجًا منهم حاملين الهراوات، وأخرى تتبعها بجنود يتمنطقون بأسلحتهم الكاملة ويتوزّعون في كلّ صوب، قد منعوا السير باتّجاه الأونسكو وهم يدعون حتّى المشاة إلى الرجوع، فاضطُرّ سائق السرفيس أن يخضع للأوامر، وترجّلت تميمه.

وقفت في ناحية تراقب ما يكون.

الاصطدام واقع حتمًا إذا خرج الطلّاب من الجامعة.

وعنّ لها فخطت نحو الجامعة. حاذت صفًّا من رجال الأمن فلم يعترضها أحد. بضع خطوات أيضًا. فلحق بها جنديّ فابتعدت. كان يأتي من حرم الجامعة هدير وهو يتعالى في الجوّ ويتزايد. فانثنت تنظر. الطلّاب يتدفّقون إلى البوّابة والجنود يتراصّون بوجههم سدًّا. وتسود الضوضاء. اشتبك الفريقان. وتُقبل سيّارة للعسكر، تحكّ بظهرها، تكاد تقلبها، وجنديّ يحثّها بعقب بندقيّته، فتستدير إليه باحتقار، لم تتأثّر لو صوّب البندقيّة إليها وأطلق قدر ما تأثّرت بما أطلقه من كلام شنيع.

واستأنفت سيرها بتمهّل، تحدّيًا له. والجلبة تتعاظم، وزحْف الطلّاب إلى البوّابة يتحوّل إلى سيل جارف، فيتراجع الجنود، وما كادوا حتّى أقبلت من صوب المدينة جماعات أخرى من الطلّاب بأعلامها ولافتاتها، فارتدّت تلاقيهم ووضعت رأسها بين الرؤوس دون أن تعي على الأرجح ما أقدمت عليه، فهي في قلب المعركة وكأنّها في بحر هائج، تماسكًا وتدافعًا، ضربًا وصياحًا، مع مطر من الأحجار والأخشاب والنفايات يرشقها أولاد قد هرعوا يتسلّقون الأعمدة، يطلّون من وراء الحيطان، يتصايحون من كلّ صوب.

وإذا بأزيز منكر.

– رصاص!

– رصاص! رصاص!

من هو الأرعن؟ من هو الخائن؟ ودوّت الأصوات:

– ليسقط مطلقو الرصاص!

– جبناء! جبناء! ليسقط الجبناء مطلقو الرصاص!

– يريدونها مذبحة. يشعلون الفتنة.

– يعيش الطلّاب! يعيش الطلّاب!

– ليسقط المجرمون!

والرصاص يمزّق الفضاء. ترفع تميمه كفّيها إلى عينيها. تحاول أن تنجو يمينًا، يسارًا، فيتقاذفها الحشد. وهي مع ذلك تتّقي الوقوع تحت الأقدام. تحين لها فجوة بين الأكتاف، تتطلّع. جريح يقع. آخر يجرّه جنديّان. ثالث يمسح الدم عن وجهه... تذكر أنّها رأت ذلك كلّه، ولاحت لها من خلاله – كلمع البرق خلال الضباب المتكاثف – صور التظاهرات والاشتباكات في صيدا. ولكنّها لم تشترك فيها مرّة.

ثمّ بدا لها أنّ الهرج والمرج قد أخذا في الزوال، وشيئًا فشيئًا هدأ الحال.

الساحة تخلو.

الطلّاب يتفرّقون، العسكر يركبون سيّاراتهم وينصرفون، لم يبقَ منهم إلّا أفراد قلائل، انتصب بعضهم في ناحية، وتمشّى بعضهم في ناحية جيئة وذهابًا.

والشارع ليس فيه إلّا بقايا المعركة. حطام لا اسم له، مع رؤوس بندورة مهروسة تذكّر بالدم. وفي الجوّ سكوت مبغوت.

بإمكانها أن تمضي... ولكن، إلى أين؟ هي لا تعي شيئًا ممّا حدث بعد ذلك.

حينما فتحت أجفانها وجدت نفسها في مستشفى والطبيب يعالج جرحًا في رأسها بمعاونة ممرّضة. وبين

الطبيب والممرّضة وجه ينحني عليها بابتسامة تشعّ ملء عينيه.

ونقلوها إلى غرفة بيضاء، وأضجعوها على سرير أبيض، والشخص – إيّاه – ينحني عليها.

لم ترَ في حياتها عينين تبتسمان كهاتين اللتين ترمقانها، لا يقول صاحبهما شيئًا، ولا تقدر هي أن تقول.

وعزمت أخيرًا فسألت:

– من أنت؟

قال وقد شاركت شفتاه في الابتسام:

– «أخوك»، ولكن اسمي هاني الراعي.

ثمّ أخذ يقصّ عليها ما حدث.

بعد أن تفرّق المتظاهرون، وكان منهم، مشى في الشارع باتّجاه البحر. وكانت أمامه فتاة تمشي مسرعة كأنّ عليها موعدًا هامًّا. أمّا هو فكان يفكّر بلا شيء ويألف شيء واضعًا رأسه في طريقه، وكان يسمع وقع قدميها ويراهما دون أن ينظر غارقًا في بحران ما تركته المعركة في نفسه. ومرّ بجنديّ يروح ويجيء على الرصيف من أولئك الذين تخلّفوا في المكان للحراسة، وإذا بحجر يمرق في الفضاء بينه وبينه. وآخر أشدّ منه. فعبر الجنديّ الشارع إلى الرصيف المقابل رافعًا بندقيّته وعيناه إلى شجرة على الرصيف. وإذا ولد يهبط من الشجرة ويطلق ساقيه للريح فيلحق به الجنديّ. فتوقّف ينظر إلى المطاردة المثيرة حتّى توارى كلاهما في منعطف، فارتدّ مستأنفًا السير، فما هاله إلّا الفتاة التي كانت تمشي أمامه وقد انطرحت أرضًا على خطوتين منه. فانحنى ينظر إلى الدم ينزف من رأسها، وحملها بذراعيه يتساءل أين يأخذها. كان المكان بعيدًا منعزلًا. وأقبل تكسي فيه راكب فاعترضه مستغيثًا: «أختي!» فيشير الراكب إلى السائق، ويعاونانه في حملها إلى السيّارة إلى أقرب مستشفى... في الطريق اتّضح له الأمر. الحجر الأخير الذي رشقه الأزعر – «لعله عزّ عليه أن يذهب ضياعًا» – أخطأ الجنديّ فأصابها في قذالها.

– الجرح بسيط، والحمد لله.

– أخبرني أيضًا. أخبرني كلّ شيء.

أخبر أنّه قصد خصّيصًا إلى الجامعة اللبنانيّة ليشترك في التظاهرة. طالب هو في جامعة القدّيس يوسف، السنة الثالثة هندسة. كان يودّ أن يكون في الجامعة اللبنانيّة لو أنّ فيها كلّيّة هندسة. يؤيّد الحركة التي يقوم بها الطلّاب. حركة بريئة عادلة. يريدون من السلطات الوفاء بالوعد: أن تنشئ أبنية خاصّة بالجامعة اللبنانيّة وتجهّزها بما تتطلّبه رسالتها. «الجامعة اللبنانيّة ينبغي، قال، أن تنهض بالأعباء الملقاة حتّى اليوم على الجامعات الأجنبيّة».

كانت تصغي إليه بشغف. فإذا سكت طرحت عليه سؤالًا. تطرح عليه الأسئلة بلا حساب. وهو هادئ في كلامه، وهي مهتاجة، وسألته من أين هو. قال:

– من دير المطلّ. طبعًا لم تسمعي اسمها. ضيعة صغيرة في الجبل، المتن الشماليّ. حلوة.

ويعيش في الضيعة مع عمّته وجدّه. ويسكن في بيروت – الأشرفيّة – غرفة بالإيجار. وأبوه في ليبيا، منذ سنتين، متعهّد بناء.

هو لم يسألها شيئًا كثيرًا عدا اسمها وماذا كانت تعمل أمام الأونسكو. هي تطوّعت لذكر المهديّه، ودروسها في صيدا، والبكالوريا هذه السنة، والجامعة اللبنانيّة في السنة المقبلة.

على الغداء دعته أن يتناول ممّا أحضرت لها الممرّضة. اعتذر:

– أتغدّى وأعود يجب أن أرى بعض الأصحاب.

انتظرته وهي تعدّ الدقائق. وامتدّ بهما الحديث إلى المساء.

وفجأة نظرت إلى ساعتها: «السادسة!» فقفزت من سريرها.

– بأيّ قلق يجب أن تكون أمّي. تركتها في العاشرة صباحًا.

وجاء الطبيب فكشف عن الجرح. الأفضل أن تقضي يومين أو ثلاثة في المستشفى تحت رقابته، وإلّا فعليها أن تعود كلّ يوم لتغيير الضمادة.

رافقها هاني الراعي بالتكسي إلى شارع الحمرا وودّعها على مفرق الطريق المؤدّي إلى بيت مدام خوري. وكانت قد أخبرته في ما أخبرته - هل تدري ماذا أخبرته أيضًا؟ بالخلاف بينها وبين أخيها في شأن متابعتها دروسًا عالية بعد البكالوريا، فقال لها:

- أراكِ غدًا في المستشفى. أيّ ساعة؟

- الثالثة، قال الدكتور... إذا بقيت في بيروت. سأجتهد أن أبقى.

- وإلّا فتكتبين لي إلى دير المطلّ. أنا في دير المطلّ كلّ أحد.

- وتخبرني في جوابك هل تحقّقت أمنيّة الأزعر. فانتظر إيضاحًا. فأردفت بخبث:

- أم ذهب حجره الأخير ضياعًا...

٤

أحدث دخول تميمه بالحالة التي عادت بها هتافًا عظيمًا من قبل الستّ روز وانهماكًا وتهافتًا. وما كادت تطّلع على ما جرى - وقد روته الفتاة بكلمتين زاعمة أنّها ذهبت من نفسها إلى المستشفى - حتّى انبرت تقذف حمم غضبها على الحكومة وبواليسها والطلّاب والزعران «وكلّ هذا الكون الذي تغيّر من الأساس». وغطّى خطابها على لوعة الأمّ فلم تجد آمنه محلًّا لنأمة إلّا هزّ الرأس بالموافقة.

وجابر لم يظهر حتّى الآن.

وليس بالإمكان السؤال عنه في الجامعة إلّا من غد. هذا إذا فتحت الجامعات أبوابها. فالطلّاب يلهجون بإضراب عامّ في جامعات بيروت الأربع ومعاهدها العليا. هكذا أنبأها هاني، وقال إنّه اجتمع على الغداء بقادة الحركة من الطلّاب، وإنّ المفاوضات جارية بينهم للقيام بعمل مشترك استنكارًا لأساليب العنف التي لجأت إليها السلطات. وربّما تطوّرت الحركة بسبب تدخّل عناصر تريد تحويلها إلى نصرة الفدائيّين، الأمر الذي يهدّد بخطر الانقسام والاصطدام، وهو ما يسعى هاني الراعي وأصحابه، كما قال، لتفاديه. لا بدّ على كلّ حال من قضاء الليلة في بيروت مهما قالت الأمّ. ولكن آمنه موافقة في قلبها، فلن يطمئنّ لها بال حتّى ترى جابر.

كانت روز قد سبقت تميمه إلى أفكارها فوضعتها في سرير أخيها وأمرت لها بالشاي وأبت إلّا أن تقدّمه بيدها - «سلامة عينيك!» - وتجسّ نبضها كلّ دقيقتين. وأوفدت زنّوب إلى جلال الكرش توصيه بشراء فرّوج للشورباء «عشاء خفيفًا للمدموازيل تميمه». أمّا الستّ أمّ جابر فلن ترفض الدعوة إلى أيّ شيء من حواضر البيت - «البيت بيتك» - ولمّا حاولت آمنة الاعتذار بأنّها ستأكل ممّا في السلّة حلفت روز بالله العظيم لا يمسّ السلّة أحد، فهي مخصّصة لجابر. وأكلت الأمّ عشاءها مغموسًا بالدموع.

لم تذق تميمه النوم إلّا لمامًا.

كانت تفكّر بأحداث نهارها بين الجامعة والمستشفى وما انكشف لها فيه من أمرها وأمر هذا «الأخ» الذي انبثق لها مكان أخيها. تكاد لا تصدّق كلّ هذا. ربّما كان من نسج خيالها المحموم. ولكنّه واقع لا ريب فيه، وها هي تتحسّس ضمادة رأسها، فترى العينين اللتين تبتسمان، وتسمع كلمات هاني تنسكب في روحها كهذه الأمطار الهادئة المرنّمة على الشبّاك. تُرى، هل يأتي في الموعد إلى المستشفى؟

حاولت في الصباح أن تقوم فدار بها رأسها. وقامت عند الظهر تتمشّى في الغرفة فكادت تقع. فصرخت أنّ عليها أن تذهب إلى الطبيب بعد الظهر.

- طبيبي الخاصّ أجلبه لك على رأسه إلى هنا وفي هذه الدقيقة.

ووثبت روز إلى التلفون.

ولمّا جاء الطبيب جعلت تدور حواليه ، تعاونه على كشف الجرح ، تسابق الأمّ إلى التحديق والتفجّع. فلمّا انتهى من تغيير الضمادة قال إنّه سيعود في اليوم التالي ، وأوصى بالراحة التامة.

ولكنّ روز كانت حريصة على معرفة شيء. ولدى تشييعه إلى الباب سألته عن المدّة التي يحتاجها الجرح للشفاء ، وهرولت عائدة :

– أسبوع ، قال الدكتور ، وممنوع أن تتحرّكي من السرير.

وخرجت إلى الدار ونادت زنّوب أن تأتيها بعلبة السكاير من غرفتها.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة. فأفاق الصحافيّ من نومه ، ولمّا أطلّ على الدار بروبه رأى روز ترفع سيكارتها بأطراف الأصابع وتنفث الدخان بأشكال هندسيّة وتتابع طيرانها وذوبانها حتّى السقف لتعقبها بأخرى. فقال في نفسه : «لأمر ما راضية اليوم عن نفسها».

– ماذا تقول الجرائد يا أستاذ عن حوادث البارح؟ وما هو رأيك الشخصيّ في الحالة؟

كان من دالّتها عليه أن تجلسه كلّ صباح على فنجان قهوة ليقرأ لها الأخبار المحلّيّة – «لعن الله أيّامنا لم تتعلّم فيها البنات قراءة ولا كتابة!» – ولكنّها تشفع : «ومن له مثلي سكرتير خاصّ يقرأ ويكتب!»

رمزي رعد لم يكن يقرأ لها في الواقع إلّا القليل ، ويلخّص لها في الغالب ، ويؤلّف تأليفًا. ولم يكن مستعجلًا لذلك. دوشه الصباحيّ البارد – هي تعرف – قبل كلّ شيء. فتركته إلى دوشه ودخلت على تميمه.

لمّا أحسّت بوقع خطاه في الدار عائدًا من الحمّام هتفت له من الغرفة :

– عندي شخص ، يا أستاذ رمزي رعد ، معجب بكتاباتك. تفضّل اشرب القهوة معنا.

خفق قلب تميمه في لهفة وتهيّب. الأستاذ رمزي رعد! هنا في هذا البيت! وصاحبة البيت تناديه باسمه الكامل – تأكيدًا.

أحسّت بمزيج من غبطة وكبرياء ، وبالكثير من الخجل عن روز خوري تخرق حرمات الأسماء الكبيرة بمثل هذه اللهجة التمثيليّة.

الأستاذ رمزي رعد! تقرأ مقالاته كلّ يوم في جريدة «الصباح» ، وقصائده كلّ أسبوع في مجلّة «العصور». وقرأت كتابه «أرباب وعبيد» في صيدا ، لم ينفع حظر المدرسة على التلميذات قراءته إلّا في الترغيب فيه والتهام فصوله في خلواتهنّ.

كان إذن هو الذي وقف بباب الغرفة أمس ، وكان هو الذي نجت بنفسها من نظّارتيه. وها هو يقف بالباب ، قبل أن يدخل ، وقفته تلك ناصبًا نظّارتيه بوجهها ، ثمّ يتقدّم إلى كرسيّ إزاءها ، لم يسألها عن سبب الضمادة مكتفيًا بما استبقته به روز من شروحها. ومضى الحديث عن التظاهرة.

قال ، وكأنّه يصدر قرارًا ، إنّها بداية. الإشارة للاندفاع في طريق الثورة.

«لا بدّ منها» – ذلك كان عنوان مقاله في العدد الأخير من «العصور» – تذكر تميمه عنفه. وهو عازم على مواصلة الكتابة تصعيدًا حتّى يرى الثورة لا في الجامعات فقط ، بل في البلاد كلّها. وإذا كان الطلّاب في العالم قد ثاروا – وهم في الغالب يثورون ضدّ عالم لا يفهمهم – فأسباب الثورة في لبنان أهون من ذلك وأدهى. إنّها الحلقة الأولى من سلسلة الثورات في التاريخ. الثورة ضدّ الظلم والقهر ، والجهل والفقر. ثورة العبيد على الأرباب...

كان يتكلّم بسخرية. باحتقار.

من علُ ، كأنّه واقف على نُصُب نفسه.

وعلى وجهه جمود وعليه صفرة. كالصفرة في الأفق قبل العاصفة.

عيناه وحدهما ترافقان لسانه ، فبين نظراته وألفاظه

شرارات متشابكة. والشرارات تتساقط على وجهها وتحرقه.

وقطع حديثه فقام إلى غرفته ثمّ عاد بأوراق قال إنّه سوّدها الآن. وتركها لها.

انقضى النهار ولم تذهب تميمه إلى المستشفى – اكتفت بتلفون اعتذار – وتقدّم الليل بعد انصراف رمزي رعد وهي ملازمة غرفتها تتناول مقاله فتقرأه مرّة أخرى. سيظهر المقال في العدد المقبل من «العصور». عنوانه حرف. حرف واحد – «لا» – وتعود إلى بعض مقاطعه والشرارات تتساقط على وجهها من جديد:

«أيّها الطالب الذي تظاهرت،
لقد رآك الحكّام تملأ الشوارع والساحات
وسمعوا صوتك يصرخ بوجوههم: لا!
لا أصدّقكم.
لا أؤمن بكم.
لا أريدكم.
من الجامعات سترتفع الهتافات لعنات
والأيدي بوجه السماء
حرابًا!...»

والعبارات حافلة بالتشطيب، كأنّما يكتب بسكّين، فالورق مجرّح.

في الصباح حملت الجرائد أخبار التظاهرة وأسماء الجرحى، وكذلك أسماء الطلّاب الذين أُوقفوا بتهمة الشغب. بضعة عشر في مقدّمتهم جابر نصّور. «والتحقيق جارٍ عمّن أطلق الرصاصة الأولى».

فرصة أخرى انتهزتها تميمه لاجتماعات وأحاديث بينها وبين الأستاذ رمزي رعد، تنعقد قبل الظهر وبعده وتمتدّ إلى ساعة متأخّرة من الليل.

لقد غابت العينان اللّتان تبتسمان.

إنّها الآن بكلّيّتها للوجه ذي الصقيع وكلماته المحرقة.

٥

كان الطلّاب قد تنادوا من الجامعات كلّها واشتدّ هياجهم. وانتهت المشاورات بين الرابطات الى اتّخاذ قرار وافق عليه الجميع: الإنذار بالإضراب العامّ إذا لم تطلق السلطات سراح زملائهم وتوقف التحقيق معهم.

فخضعت السلطات.

في مساء اليوم نفسه علا الصراخ في المهديّه.

فبينما كانت تميمه تقلّب الأمر بينها وبين أمّها من أين تدبّران قسط المدرسة إذا بجابر يدخل إلى البيت برجًا من غضب. وتتوسّط أمّه لردعه عن أخته فيطرحها أرضًا فوق ابنتها، ما هاله إلّا كيف تجرّأت «الكلبة» – وتسكت أمّها – على عصيان أوامره. ولم تكتفِ حتّى قصدت إلى الجامعة، ونزلت في التظاهرة، ونامت في بيت روز خوري بحجّة الجرح. «تستأهل الرجم بحجارة الأرض كلّها. تستأهل الرصاص!» قسط المدرسة؟ فلتدبّره من خالتها في صيدا! فلتعطِها أمّها ممّا تخبّئ في الصرر!

– وبلاك وبلا مدرستك!

وهدّدها بالذبح إن هي وطئت بعد اليوم شارع الحمرا أو أدارت وجهها صوب بيروت. ورجع من حيث أتى.

لم تنزل لتميمه دمعة ولم يطرف جفن. ذهبت إلى غرفتها فأقفلت على نفسها الباب.

ماذا تفعل؟

هل تكتب إلى أبيها؟ لم تكتب إليه في هذه الأمور ولا في غيرها منذ سنين.

أربع سنين بالضبط.

وهو يلحّ في رسائله إليها فلا تلين، ولا تبوح بالسبب.

وجّهت إليه في صغرها، منذ فكّها الحرف، رسائل عديدة باسم أمّها كانت تذيّلها بإمضاء

«زوجتك الأمينة آمنه». وحبّرت له في ذلك العهد أكثر وأكثر، أشياء باسمها تطلعه فيها على مراحل دراستها وتنمّق عواطفها نحو «الوالد الحنون» الذي تشوّق إلى رجوعه إلى «الوطن العزيز»، فتتلقّى منه بخطّه الفارسيّ المنسرح وعباراته الجميلة أجوبة كانت مثار فخرها وكانت تحتفظ بها بين محبّآتها الثمينة.

حتّى كان ذلك اليوم الذي وصلت إليها منه تلك القصيدة.

كانت في الخامسة عشرة من العمر والقصائد ملء رأسها – رمزي رعد ليس من رأيها فيمن أحبّت وتحبّ من شعراء. لا سعيد عقل ولا نزار قبّاني. ولا شوقي ولا أبو ماضي. جبران، قال، يشذّ عن الجميع، فيه شيء من النبوءة. وهذا رأيها. قصائده هو؟ كلّمته مطوّلًا عن قصائده. مقالاته كلّها قصائد. بين سطوره أصوات غريبة. «يُخيّل إليّ وأنا أقرأك أنّني أسمع ريحًا». أعجبه التشبيه، قال: «أنت شاعرة ويجب أن تكتبي»... ربّما! ربّما كتبت يومًا من الأيّام شعرًا على الطريقة الحديثة، طريقته هو... كلّهم في جبل عامل ينظمون. إذا كتبت شيئًا في المستقبل فما أبعد ما سيكون عن هذه الأوزان الرتيبة والقوافي المقرقعة كالعظام!

وعادت إليها قصيدة أبيها – ليتها احتفظت بها! – لا تذكر منها إلّا القافية الأولى: تميمه، والأخيرة: تميمه. مع أنّها استظهرتها في ذلك الوقت بكاملها، واندفعت تتلوها على الرائحات والغاديات من أترابها وتعقد لها الحلقات مزهوّة بأبيها، حتّى تصوّرت أنّ أباها أبو فراس الحمدانيّ، أبو فراس آخر في منفاه يحنّ إلى الأهل والوطن.

عيد دام طول ذلك النهار.

في صباح اليوم التالي دخلت إلى صفّها لتجد في دُرجها تلك الورقة: «القصائد الرنّانة لأختك العبدة السوداء» – بالحبر الأحمر!

حتّى الآن تتساءل أيّ واحدة دسّت لها السمّ. وإن كان قلبها قال لها من هي الحسودة اللدودة التي كانت تموت قهرًا كلّما جاءت علامتها في الدرس أو مرتبتها في الامتحان دون علامة تميمه نصّور ومرتبتها. ولكن كيف كان لها أن تواجهها بذلك؟ لم تعرف كيف انتهى الصفّ حتّى هرولت إلى الحمّام، مزّقت القصيدة والورقة معًا، وبكت كأشقى ما يبكي إنسان على وجه الأرض. ومنذ تلك اللحظة انقطعت عن الكتابة إلى أبيها.

هل تكتب الآن؟

ضحكت لأوّل مرّة منذ أربع سنين لهذا السؤال. وقامت إلى طاولتها فتناولت ورقة وقلمًا.

على أنّها كانت قد حسبت حسابها. فبين وصول الرسالة إلى غينيا ووصول الجواب بالمال إلى لبنان شهر أو يزيد. والمدرسة تفتح أبوابها بعد يومين. والقسط لا ينتظر.

ستذهب إلى الحاجّ فضلو في طلب سلفة على الدفعة المقبلة من أفريقيا.

فوافقتها أمّها.

كان الحاجّ فضلو تاجرًا معتبرًا في صيدا، له منزلة متوارثة أبًا عن جدّ في عالمَي الدين والدنيا. وكان، إلى جانب تجارته، على رأس مؤسّسة أشبه ما تكون بالبنك، إليه تعود المنطقة في أكثر معاملاتها بينها وبين ديار الهجرة. بنك لا كالبنوك، له نظامه الخاصّ ميثاقًا شرفيًّا غير مكتوب، وله شبكاته الموزّعة في زوايا الأرض يعرفها قصّادها والراسخون في العلم. نشأ أصلًا صندوقًا للودائع يأتمنه عليها الأقربون، وظلّ كذلك سنين. فلمّا فرضت السلطات الأفريقيّة في مختلف أنحاء القارّة القيود على إخراج المال عظم شأنه، فأشغاله تنبت مثل الكمأ تحت كلّ سماء، وقد أدّى إلى المهاجرين وإلى أهلهم في الوطن خدمات، بالإضافة إلى إعلاء منزلة صاحبه، على علوّها، في العالمين المذكورين. بلى، إنّ الخبثاء لا يفوتهم أن يشيروا مثلًا

إلى رجحان كفّة على أخرى ، فيتصدّى لهم الغياري بما يكون لو لم يكن الحاجّ فضلو؟ «أتبقى أتعاب أولادنا ، جنى عرقهم ودمهم ، عند العبيد السود ، وتموت هنا نساؤهم وأطفالهم جوعًا؟»

الواقع أنّ الحاجّ فضلو من الفضل معدنه ، إلى دقّة في المعاملة ، ولطف في الاستقبال ، وحرص على مصالح الفريقين هنا وهناك.

وقد سبق لتميمه أن جاءت مع أمّها وأخيها إلى مكتبه مرارًا ، خصوصًا عهد كان تامر نصّور يوجّه المال باسم زوجته. فلمّا صار إلى اسم جابر – حقًّا من حقوقه الشرعيّة كما قال الحاجّ – درج جابر على المجيء وحده وبدأت المشاكل في البيت.

تذكر تميمه –كيف تنسى؟– ذلك اليوم الذي جاءت فيه مع أمّها وأخيها قبل سنين لقبض ما كانوا يتوقّعون أنّه وصل في موعده لذلك الفصل. فأخبرهم الحاجّ فضلو أنّ المال لم يصل هذه المرّة ، «لعلّه بسبب انقلاب حصل في غينيا فأخّر الأمور». ففتحت أمّها فاها لا تفهم. تسأل عن «الاقلناب» أيّ شيء هو ، وتلوك اللفظة العجيبة بما يضحك تميمه بالرثاء كلّما تذكّرت. وصحّحتها لأمّها دون أن تدرك كثيرًا من معناها –كانت في الحادية عشرة من العمر– ولا تنسى انكسار أمّها وضبّها على ولديها للانصراف وهي تدعو الله أن يحمي تامر ويعيده سالمًا من أفريقيا. فإذا الحاجّ يستمهلها على الباب وينثني إلى خزانته الحديديّة فيعطيها مبلغًا على الحساب –هكذا لا ورقة ولا شيء– لتلبية حاجات العائلة.

مع هذه الصورة دخلت تميمه إلى مكتب الحاجّ فضلو في ذلك الشارع الضيّق من صيدا القديمة ، المزدحم بالقرويّين من أنحاء الجنوب للتبضّع ، العابق بروائح أصناف المانيفاتورة تمتزج برائحة الثمار المجفّفة برائحة الحلويات تُقلى في دكّان على باب المكتب وتهبّ في وجهها. تمامًا كما كانت في الزمان ، لم يتغيّر شيء. وسال لعابها ، ورأت نفسها طفلة تلتهم هذه الفطائر الرافعة ، وتلمّظت بالذكرى ورقيت السلّم.

وكعهدها بالمكتب. هو هو. وزبائنه الدائمون. نساء وأطفال ينتظرون دورهم في الدخول على الحاجّ – الحاجّ في الغرفة الثانية مع الخزانة الحديديّة – فأخذت لنفسها محلًّا بينهم على المقعد الخشبيّ – إيّاه – قد حني لونه الأخضر على مسح الأقفية وكست ذراعيه أدهان الأكفّ. وطاولة أمام المقعد من عمره ، عليها جرائد لمن يعرف القراءة ، أكداس فيها العتيق والجديد. وسجّادة على الأرض مخروقة في مواضع ، مع رطوبة وعفونة في السقف والزوايا ، وهيئة زريّة في كلّ شيء... ولكنّ الأمل يشعّ في عيون هؤلاء النساء والأطفال ويصدع المكان ببهجة رائعة ، فليس في جوّه إلّا انتظار الخير المتدفّق من أفريقيا. ومعه الحبّ والحنين ، والأشواق والقبلات.

الأنظار منصبّة على الباب حتّى ينفرج. قد رأت تميمه على أثر وصولها رجلًا يأخذه الحاجّ بيده ثمّ يغلق الباب. فوق هذا الباب بالخطّ الثلثيّ العريض وبالحرف المذهّب الفاقع ضمن إطار مطعّم بالصَّدَف: «اِتّقِ شرّ من أحسنت إليه». لم تدرِ أيّ شعور خامرها وهي تتأمّل هذه الكلمات. انقباض لا تستطيع وصفه. عتب على الحاجّ فضلو. نقمة عليه وعلى التجّار جميعًا. لماذا يختارون هذا الحديث دون سواه من الأحاديث الشريفة السمحاء؟

أيّ تشكيك في عباد الله! أيّ تمنين!

وضربت بيدها إلى الطاولة تقلّب الجرائد.

«العصور». العدد الأخير من «العصور». وفتحت المجلّة على زاوية رمزي رعد. زاويته كلّ أسبوع. وهذا اسمه –كليشيه عن توقيعه– في ذيل هذه المقاطع التي يكتبها في السّياسة ، في الأدب ، في الفنّ ، في كلّ ما يخطر بالبال.

وأخذت تقرأ: «التعليم الجامعيّ في لبنان مسألة ثورة لا مسألة إصلاح – الرقابة تفقأ عيون الناس (تعليقًا على طمس نهود عارية في مجلّة فرنسيّة مصوّرة لدى دخولها

إلى البلاد) – تحيّة إلى منتحر (طالب تشيكوسلوفاكيّ احتجاجًا على احتلال السوفيات لوطنه) – إلى التي هربت من نفسها...»

من هي هذه التي هربت من نفسها؟

«إلى التي هربت من نفسها
وتركت ظلّها معي
وفوحها في روحي
هل أقول لك: إرجعي
سترجعين مع الليل نجمًا يهوي في حضني
وعصفورًا يقع بين يديّ بجرحه الدافئ
وسأكون في انتظارك
أنا الذي وجدت نفسي فيك
والذي ظلّي معك أيّان تكونين»...

انتفضت بكلّ جوارحها. هذه الكلمات إليها موجّهة. قال لها مثلها تمامًا. يعيدها هنا على الورق. قالها تلك الليلة حينما اختلى بها بغياب أمّها في زيارة لجابر على أثر توقيفه.

وعادت تقرأ... وتقرأ.

ولكنّ المكتب قد خلا. والحاجّ فضلو يدعوها إلى الدخول.

٦

كانت هادئة في عرض الموضوع عليه، واضحة في شرحه، حسنة التوزيع والربط بين أقسامه، منتهية إلى رجاء – في ضوء ذلك كلّه – بالكتابة إلى أبيها في غينيا بما تمليه حكمة الحاجّ وحرصه على مصلحة الطرفين... وتصغي إلى نفسها وتتعجّب كيف استطاعت، بالرغم من اضطرابها الداخليّ، أن تمضي في الحديث هذا المضيّ الذي لا اضطراب فيه ولا تجمجم.

ولكنّها لاحظت – وارتابت – أنّ الرجل يستمع إليها بشيء من ملل، فهو يزمّ بعينيه الصغيرتين ويمضغ طرف عثنونه، أو ينكت بقلمه شعرات له في رأسه الأصهب نكتًا متداركًا. فلمّا فرغت قال متلطّفًا:

– يا ابنتي (وسكت قليلًا) أنا مقتنع بما تقولين ومؤيّد له بحذافيره. فليس غائبًا عنّي سلوك أخيك. وكنت مزمعًا أن أكتب إلى الوالد من تلقاء نفسي إراحة لضميري أمام الله. ولكن... ولكن أخشى أن لا يصل كتابي إليه.

– الحالة في غينيا طبيعيّة. هل جدّ شيء؟

كان الحاجّ ينقر الآن بقلمه على الطاولة. فرفع وجهه:

– من واجبي أن أصارحك. قبل أن أستمع إليك كنت عازمًا على الكتمان. ثمّ وجدتك فتاة ذكيّة مثقّفة. ولذلك أنا واثق...

وتوقّف يبحث عن الكلمة، فقالت:

– أرجو أن تكون ثقتك في محلّها.

فأطلع على وجهه ابتسامة يطرد بها من ذهن مخاطبته أيّ سوء تفاهم. هو يريد أن يقول إنّ لها من علمها ورجحان عقلها ما يشجّعه على الإفصاح لها بما كان يفضّل أن تطّلع عليه من سواه. وبادر إلى رفع يده مطمئّنًا:

– لا. لا. صحّة الوالد بخير ولله الحمد.

فاستعجلته الخبر – من فضله – فأخبرها أخيرًا. قال لها إنّ السلطات في غينيا قد اكتشفت عصابة للتهريب، وإنّها ألقت القبض على عدد من المهاجرين اللبنانيّين، وهي تحقّق معهم بتهمة الاشتراك في العصابة، وبينهم تامر نصّور.

– والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقام إيذانًا بانتهاء الزيارة.

خرجت إلى الشارع وفي رأسها أنواء كأنواء البحر.

عصابة! تهريب! تحقيق!

إذن أبوها...

ليتها لم تكتب إليه! ليتها لم تضع الرسالة في البريد

قبل دخولها إلى المكتب! ليتها لم تطأ عتبة هذا المكتب.
«اِتّقِ شرّ من أحسنت إليه».

هل أحسن إليها ليتّقي شرّها؟

لم يجد ضرورة للاعتذار عن تسليفها المبلغ... سلّفها رجحان العقل والثقافة العالية.

وتغمرها موجة من الاحتقار. له. لنفسها. لأبيها. للدنيا.

ما يكون وقع الخبر على أمّها؟

فلتصلْ آمنه نصّور! فلتقرع صدرها - الآن وقت ربّها - فليردّ لها زوجها من غربته! فليطلق سراحه من السجن! ولينتظر جابر بعد اليوم الحوالات! فلدعد إلى المهديّه يضربها ويضرب أمّه! فليقلب الخوابي! فليمزّق الفُرش ويحفر في الزوايا! ربّما كان، في خرم ما، قرش أبيض للياليه الحمر.

ولكن لا. لم يبقَ شيء لا له ولا لها. وإذا بقي شيء فلتلك المسكينة تعلف به أحلامها ودجاجاتها.

قسط الفصل الأخير. وبعده البكالوريا، وبعد البكالوريا ستشتغل. تدبّر لنفسها وظيفة.

لا. لن تقصد إلى خالتها ووجه زوجها المقيت. وبأيّ حقّ تسبّب لتلك المرأة الطيّبة مشكلاً؟

إلى من تقصد؟

إلى من؟

وأحسّت تميمه بالاختناق. هذا الشارع الضيّق القذر روائحه تُطلع إلى حلقها الغثيان، فأسرعت في الخروج إلى الهواء الطلق.

واجهها بائع جرائد. طلبت العدد الأخير من «العصور»، وجعلت تقرأ من جديد وهي ماشية، كالماشي في حلم. وضرب رأسها بكتف أحدهم، ثمّ برأس آخر. لم تجد نفسها إلّا وهي في ساحة صيدا على مقربة من كاراج بيروت. وكلمع البرق خطر لها خاطر: المسّ ماري. المسّ ماري. كيف لم تفكّر بالمسّ ماري أبو خليل؟

وطوت المجلّة وركبت إلى بيروت.

٧

كانت ماري أبو خليل، أو المسّ ماري كما يعرفها الجميع، ممرّضة في المستشفى الأمريكيّ. ترجع العلاقة بين تميمه وبينها إلى سنيّ الدراسة الأولى في صيدا بالرغم من اختلاف الصفوف. ماري أكبر منها وكانت في صفّ أعلى من صفّها. ولكنّها صديقتها الحميمة، إليها وحدها كانت ترتاح وتفضي بشؤونها، بمطامحها، بكلّ هذه الأسرار الصغيرة التي تتداعى الصبايا للهمس بها. ويا ما زارتها في المهديّه في العطلات، تقضيان النهار قفزًا في الحقول وتنامان الليل في سرير واحد. تنامان! إذا توقّفت ماري عن أخبارها. من أين تأتي بهذه الأخبار؟ تقلّد التلميذات، تتكّت على المعلّمين والمعلّمات، تمثّل أدوار المغرمين والمغرمات... لعوب، طروب، مزقزقة كالعصفور، وفي غاية الذكاء والكسل! ولم تترك المدرسة لتقصيرها. كانت تضحك لعلاماتها كما تضحك لكلّ شيء وتتذرّع بها لفصل آخر من فصولها الهزليّة. ولكنّ أباها مات تاركًا أرملة وثلاث بنات هي كبراهنّ. فاضطُرّت إلى العمل. وفي مدى قصير من الوقت ارتقت إلى رتبة رئيسة ممرّضات في قسم الجراحة.

ماري لن تخيّبها. تكاد ترى وجهها الحلو وتتخيّل كلّ شيء.

قصدت رأسًا إلى المستشفى.

في المستشفى هبطت آمالها. قيل لها إنّ المسّ ماري أبو خليل غائبة.

- ماذا؟ في الأناضول؟

- يجب أن تكون اليوم في اليونان.

رحلة من هذه الرحلات الموسميّة التي تنظّمها شركات السياحة - هكذا فسّرت الموظّفة - ثمّ أضافت:

- ستعود يوم الاثنين من الأسبوع المقبل. أيّ خدمة؟

- لا شيء. لا شيء.

وخرجت تميمه.

كانت عاجزة عن التفكير. ثمّ فكّرت: من يضمن لها أنّ ماري قادرة على تسليفها مالًا وهي تعيل أرملة وولدين؟

بالإضافة إلى نفقاتها هي.

بالإضافة إلى إيجار هذه الشقّة الجميلة التي تسكنها في شارع عبد العزيز.

جنون!

وثارت ثائرتها من جديد على جابر.

توجّهت إلى كلّيّة الحقوق في الجامعة اللبنانيّة وطلبت مقابلة العميد. أحالها العميد بواسطة سكرتيره إلى مدير التسجيل، فذهبت إليه في مكتبه حيث انتظرت بالباب نصف ساعة خُيّل إليها أنّها دهر. وسألت عن أخيها أفواج الطلّاب الذين كانوا يروحون ويجيئون في المكتب، فلم يكن واحد منهم يعرف جابر نصّور.

وتحقّقت ظنونها لدى مقابلة المدير. فما إن لفظت الاسم حتّى عبّس وانقلب إلى أوراقه فأخرج فيشة جابر نصّور. ثمّ مطّ ذقنه نحوها ليبلغها أنّ جابر نصّور قدّم بالفعل في بداية السنة الدراسيّة طلبًا للالتحاق بالكلّيّة ومع الطلب شهادة «الموحّدة» السوريّة. ولكنّ مجلس الجامعة تلقّى من لجنة الخبراء الناظرة في الشهادات أنّ شهادة جابر نصّور مزوّرة.

- على كلّ أُحيلت الشهادة إلى السلطات في دمشق بواسطة وزارة الخارجيّة اللبنانيّة للتحقيق. وآسف يا آنسة لشيء آخر: لدى مجلس الجامعة ما يثبت أنّ جابر نصّور هو الذي أطلق الرصاصة الأولى في التظاهرة الأخيرة. وإذا كانت الحكومة قد أفرجت عنه وعن رفاقه وأوقفت التحقيقات تحت التهديد بالإضراب العامّ، فإنّ مجلس الجامعة اتّخذ قرارًا بمنعه من دخول حرم الجامعة.

رجعت إلى الشارع وقد عزمت أمرًا. ستركب أوّل سيّارة إلى الحمرا وتقذف بوجه أخيها القنبلتين: خبر تامر وخبر جابر.

وإذا صوت يناديها باسمها. فالتفتت.

رمزي رعد.

- اِمشي خلفي.

ومشى.

ومشت خلفه.

لا تعلم المسافة التي مشتها ولم تتبيّن الناس ولا الأشياء.

وجدت نفسها في غرفة ما، في حيّ ما، في لحظة ما، ورمزي رعد قد خلع نظّارتيه. يلفحها لهيبه. ينفخ في نحرها. يطوّف بأعطافها، يلفّها من أخمص قدميها إلى أمّ رأسها.

فتغمض أجفانها وترتمي.

٨

- لا! لا! لا!

لم تصرخ صرختها إلّا عندما وصل بالحميم منه إلى الحميم منها. قبل ذلك كانت كأنّما تتفرّج على فِلم أو تسلك في حلم.

كان قد ألقاها على الكنبة واستلقى إلى جانبها في استراحة ماكرة، رأسه على كتفها وأنفاسه إلى نهد منها يتشمّمه، وكفّه على النهد الآخر يتذوّق، متمهّلًا، دِفاه ويتلمّس، مترفّقًا، حجمه وصموده وشموخ برعمه. وإذا به يهبّ فجأة وينقضّ عليها بقبلة ملء الفم، فحاولت صدّه شأنها في المرّتين السابقتين: الأولى في بيت مدام خوري في تلك الزاوية المعتمة، والثانية هنا في هذه الغرفة لدى دخولها، ولكنّها هذه المرّة، كانت ضعيفة. أحسّت أنّها ضعيفة وأنّها لن تستطيع المقاومة.

«إذا أعطت المرأة شفتيها فلم يبقَ لها ما تمنعه».

أين قرأت هذا؟

وتتذكّر أنّ القول كان موضوع محاورات بينها وبين بعض صاحباتها في المدرسة ، وتختلف الآراء بينهنّ فيه فيسألنها : «وأنت؟» فتلزم الصمت.

في الواقع ، ماذا تريد أن تعطي وماذا تريد أن تمنع؟

تهرّبت من الجواب ، واستوت في جلستها :

– لو نتحدّث؟

– عن الصعود إلى القمر؟!

واندفع في حضنها هبوطًا ، فرفعته عنها :

– بل عن قصيدتك.

فشال بحاجبيه واشتعلت عيناه ببريقهما الخبيث :

– أيّ قصيدة؟

وانزلق من الكنبة إلى الحضيض ساحبًا كفّيه على عطفيها فساقيها حتّى أطراف قدميها ، وجثا على ركبتيه يتناول إسكربينتها من فردتيها ويخلعها من هنا ومن ههنا ، ويهمّ بخلع جوربيها فتضرب صدره بالقدمين ، فيأخذهما في الهواء وينصرف إلى أصابعهما فركًا من فوق الجورب بأصابعه وعضًّا بأسنانه. ثمّ يطوّق عنقه بهما ، ويرسل يديه في ثيابها متلمّسًا محارمها ومواطن الفرح في جسدها ما طالت أنامله ، وهي في استلقاءتها على الكنبة تشدّ بساقيها على أذنيه ، وترمقه من فوق ، قد استولى عليها ، وهي منه في تلك الحال ، شعور أقرب ما يكون إلى الكبرياء. الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد! لو يرى الناس أذنَي الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد بين قدمَي تميمه نصّور!

وإذا به قد وثب من مكانه وعلاها ، فأحسّت لوقوعه عليها انسحاقًا. لحظة. وما كادت حتّى صرّت بأسنانها واستجمعت قواها فدفعته بعنف لم تكن هي تتوقّعه ولا ترغب فيه ، فانقلب إلى جانبها في حرد ظاهر. قالت ملاطفة :

– قصيدتك. أهي لي حقًّا؟

لم يقل لها حتّى الآن كلمة حبّ. وقامت إلى حقيبتها فأخرجت قصاصة المجلّة ، فتناولها منها وأخذ يتلو كلماته. جلس هذه المرّة على كرسيّ بإزائها ، فخُيّل إليها أنّه ابتعد فراسخ. عاد الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد ، وعاد إليها التهيّب.

كانت له في الأداء براعة الممثّلين. أوشكت أن تقولها له ، ثمّ عدلت غاضبة على نفسها للفكرة وسمّرت عينيها بشفتيه. ومن شفتيه إلى عينيه. إلى ذقنه. إلى جبينه. كانت الكلمات تُضفي عليه هالة من عبقر. كلّا ، إنّه لا يمثّل. إنّه يعيش كلماته ، يعيش منها وبها ولها ، فهي لحمه ودمه ، وفيها دنياه ، وهو في الدنيا غريب.

قالت :

– لو يكون الحبّ شِعرًا! لماذا لا يكون الحبّ شِعرًا فقط؟

طرح القصاصة على الحقيبة ومال فأخذ بشَعرها ملء كفّيه.

– شَعرك. كلّ خصلة منه قصيدة.

ولواها به على المسند يعرك بجبينه أذنها على خصلة طائشة ، فارتعشت للدغدغة تنساب في عروقها وتغمرها منها غبطة هي غبطة الأمّ يعابثها طفلها. وطفل هو هكذا – طفلها – ودّت لو يظلّ على لعبته البريئة الحلوة. وتمدّ ذراعيها إليه بحنان. فإذا الرجل فيه يستيقظ هائجًا كالوحش ، ينهض مزمجرًا ، يحتملها بذراعيه ، يعصرها على صدره ، ينشب أظافره في ردفيها ويدور بها على نفسه في الغرفة دورة ، دورتين ، ثلاثًا ، ثمّ يرتمي بها أرضًا وينهال نهشًا.

– قميصي! تمزّق قميصي!

وطاش دماغها فهي لا ترى ولا تسمع ولا تعي شيئًا. لا تعرف الوقت الذي انقضى عليها في تلك الحال ، وانتقلت من حيث هي إلى حيث تذهب بها أفكارها قافزةً فوق الحواجز ، ضاربة بين الأمكنة والحوادث والأشخاص...

حسين القمّوعي ، وهي طفلة ابنة ستّ أو سبع ، يرفع ثوبها عند تلك الصخرة على درب الحقول في المهديّه ويحكّ بها ملحًّا ، يحاول طرحها على الصخرة لولا أن أطلّ الناطور بعصاه . تكاد ترى عصاه تصفق ظهر حسين ، وتجسّ ساقيها من وقع ما لحقها معه . ومذ ذاك لا تطيق القمّوعي وتنجو بنفسها من نظراته .

وماري أبو خليل ، ضيفتها في المهديّه أثناء تلك العطلة . ونامتا في فراش واحد . في الثالثة عشرة كانت هي وماري أكبر منها وقد تكوّر نهداها واشرأبّا . «هاتي لأرى» ، قالت لها . وأخرجت لماري نهديها من القميص . وكشفت بدورها عن باكورتين فجّتين . قاسيتين . «بل هما كلّتان» ، قالت ماري ، «إيّاك أن يلعب بهما الصبيان !» والصفعة التي أكلتها من ماري بين الجدّ والمزاح إذ استفاقت عليها في الليل تأخذ النهد الذي صوبها وترضعه .

وأبو الشروال على طريق المدرسة في صيدا ، ذلك الصباح وهي ذاهبة إلى المدرسة . السنة الأولى من دخولها إلى مدرسة صيدا . كانت تقيم عند خالتها . وأبو الشروال يبول في حائط أو كأنّه . طلع بوجهها في المنعطف فأجفلت . أتمشي أم ترجع ؟ أم تقف مكانها ؟ فإذا به ينقلب إليها انقلابة وقد أمسك بكلتا يديه : «تعرفين ما هذا !» ولوّح لها به وعيناه تقدحان شررًا ، فأركنت إلى الفرار . وتذكر أنّها بكت طول نهارها ...

– تبكين يا تميمه ؟

وانحنى رمزي رعد يتلقط بفمه عن خدّي تميمه نصّور دمعتين .

– لا شيء . لا شيء . أريد أن أروح .

وأخرجت من حقيبتها منديلًا تمسح به وجهها ، ثمّ تنتصب بوجه الرجل وتتفرّس به بعيني حيوان مذعور .

....

ما هذه الفراشة اللاصقة بالسقف ؟

لعلّها «الرقيب» الذي طالما قرّعه الشعراء في قصائدهم .

إحدى «العواذل» ، ما في ذلك ريب ...

بل هما فراشتان . وها هي الأخرى تطلع من الزاوية وتلاقي أختها ، وكأنّها تدعوها إلى مهمّة ، فتلبّي ، وتنطلقان معًا دورانًا في جوّ الغرفة من حائط إلى حائط .

أيّ مهمّة عجلة هي هذه ؟

إلى أين تقصدان ؟ وعن أيّ شيء تبحثان هبوطًا وصعودًا ، شمالًا ويمينًا ، وتقلّبًا بعضًا على بعض .

أم هو ذكر يطارد أنثاه !

وهي ترافقها وترافق ظلالًا لها تقفز إلى السقف وتنزلق على الحيطان . وإذا هما ترفرفان فوقها الآن ، تحكّان بشعرها ، ثمّ تصكّان بالمصباح الأحمر .

أحمر هو المصباح ؟

كان أبيض لدى دخولها إلى الغرفة . كيف تغيّر ؟ أم هو مصباح آخر ؟ بلى ، هو مصباح الحبّ . سبق لها أن قرأت عنه ورأته في الروايات السينمائيّة على خلوات المحبّين . وهو هنا على أريكة إلى جانب السرير .

متى انتقلت من الكنبة إلى السرير ؟

تُرى ؟ لماذا يكون للمرأة – وحدها بين مخلوقات الله – هذا الوضع في الوصال : ظهرها إلى الأرض ووجهها إلى السماء ؟ وضع أبله ، مزرٍ حقًّا هذا الوضع ، ليس فيه شيء من الكرامة . وانتفضت تريد القيام . ولكنّ الرجل كان قد تمكّن من وضعه ، وألزمها وضعها – إيّاه ! – وإذا ذراعه تنساب ، وإذا أصابعه تتلمّس تحت القميص مظانّها ، يتوقّف هنا ، ويقفز من هنا إلى هناك فهنالك ، وإذا هو ينحدر ، يمرّغ في ربوة أنوثتها وجهه ، يوسعها لثمًا وشمًّا ونفخًا ، في نشوة سرت منها في أعضاء المرأة وتوزّعت في دمائها دفعات من حمّى ، فأحسّت أنّها محمولة على عربة عجيبة تمخر في بحر ، ولها خيل من أمواجه الهائجة الهادرة ، خفقات قلبها من وقع حوافرها ، ولهاثها من

لهاث خيلها الراكضة اللاهثة. وقد ردّ الغطاء عليه وعليها، فنظرت حواليها فخُيّل إليها أنّها وحيدة في هذه الغرفة. وحيدة في هذه الدنيا. وهمّت بأن ترفع الغطاء ولكنّ يديها لم تطاوعاها. يداها ليستا منها. وإذا هو يرفع الغطاء من تلقائه وما كاد حتّى علتها موجة عاتية غطّت على تلك الأمواج. وترتعد فرائصها بردًا. تعرف من أين هي آتية هذه الموجة الرهيبة.

من بحار الجليد.

من المهديّه!

والسرير في ساحة المهديّه، وتميمه تصّور على هذا السرير في ساحة المهديّه والعيون عليها من كلّ صوب. فهبّت كالمجنونة تريد الهرب، ولكن رمزي رعد كان قد انتصب على قدميه دونها، وإذا هو بادي الذكورة قاحمها، فتداركته باليدين وأغمضت عينيها واقعة على السرير العريض الواطئ، كلّ ما تذكر أنّها صرخت صرخة الذبيح:

— لا! لا! لا!

٩

لم تعد إلى المهديّه إلّا مع ظهر اليوم التالي.

آمنه لا تصدّق أنّ تامر مهرّب.

أنّ جابر لن يصير محاميًا،

أمّا أين قضت تميمه ليلتها...

— عند ماري أبو خليل.

فصدّقتها الأمّ.

وتمادت تميمه في الكذب فقالت إنّ ماري وعدتها بالمبلغ لهذا الصباح، لذلك اضطُرّت إلى النوم في بيروت. وفي الصباح أبلغتها أنّ أمين الصندوق لم يشأ أن يسلّفها أيّ مبلغ على راتبها بحجّة أنّ نظام المستشفى يمنع ذلك... فلامتها أمّها على التوجّه إلى الناس بطلب المال، وأدارت ظهرها تبتهل إلى السماء من أجل تامر.

تامر مهرّب؟!

— الله أكبر! الله أكبر! إنّ الله مع الصابرين إذا صبروا.

وراحت صوب المطبخ.

حينما عادت وجدت تميمه تبكي. لم ترَها مرّة تبكي هكذا. كانت تختلج بكلّ أعضائها وتغطّي وجهها بكفّيها وتشهق.

— أكلّ هذا من أجل القسط؟ قومي. قومي انزلي إلى المدرسة وادفعيه.

وقدّمت يدها بالمبلغ.

كانت تميمه تعلم أنّ أمّها قد جنّبت ورقات من ذوات العشر ووضعتها تحت بلاطة في المطبخ بعيدًا عن ظنّ جابر – «خبزها كفاف يومها وسِترها أمام الناس». فما كادت تميمه ترى ذلك حتّى ازداد شهيقها. فانحنت عليها الأمّ تواسيها وتسألها. فارتمت الابنة في حضنها تدفن وجهها وتردّد والدموع تخنقها:

— لا! لا! لا!

هي لا تبكي من أجل هذا. ولا من أجل المدرسة. لا تريد أن تعود إلى المدرسة. ولا من أجل أبيها. ولا من أجل جابر. تبكي لأنّها تريد أن تبكي.

ولم تستطع آمنه أن تهدّئ من روع تميمه إلّا بعد جهد جهيد. وقامت الأمّ عن ابنتها فجمعت لها ثيابها وكتبها:

— مدرستك غدًا يا ابنتي. والشهادة على الأبواب.

في اللقاء الثاني الذي كان لها مع رمزي – «أحد آخر قضته عند صديقتها في بيروت» – أخبرها الصحافيّ أنّ «الصباح» تنشر في عددها المقبل رسالة من كوناكري عن قضيّة تتعلّق بتهريب الألماس، تحقيقًا هامًّا يكشف النقاب عن تجارة من أكبر تجارات أفريقيا السرّيّة، وعن شبكاتها الممتدّة في سواد القارّة من أقصاها إلى أقصاها، وعن الوسائل العجيبة التي يلجأ إليها المهرّبون في إخفاء الألماس ونقله عبر الحدود

لتصريفه. عصابات ترتدي، قال، جاه المناصب الرفيعة في دول الزنوج، ووقار الأعمال الكبيرة في أوساط المهاجرين. وإنّه خُيّل إليه وهو يقرأ الأسماء أن بينها اسم...

– تامر نصّور. أبي.

ولكنّ رمزي استدرك أنّ القضيّة ما تزال قيد النظر. ولن تظهر الأسماء في الجريدة على كلّ حال إلّا بالأحرف الأولى بانتظار نتائج التحقيق وهو يتناول عددًا من كبار الموظّفين في غينيا ومن المهاجرين العرب فيها وفي بلدان أفريقيّة أخرى.

ثمّ ضحك بسخرية وأردف:

– سأمثل أنا أيضًا أمام المحكمة هنا، في الوقت الذي يكون فيه أبوك ماثلًا أمام المحكمة هناك. أنا متّهم مثله بالتهريب. أهرّب أشياء إذا لم تكن أثمن من الألماس في عيون الحاكمين فهي أخطر من الحشيشة: أفكاري.

وقال إنّ مذكّرة جلب صدرت بحقّه على أثر مقاله بعنوان «لا» والمقالات التي أتبعها به داعيًا إلى الثورة، وإنّه اقتيد إلى الاستنطاق مرّتين بتهمة التحريض على الإخلال بالأمن والنيل من هيبة السلطات.

– السجن أشتريه بكلّ ما أملك لو كنت أملك غير هذا القلم. ثلاثة أشهر على الأقلّ، وستّة أشهر على الأكثر. لا فرق. السجن هو، من هيكلهم، القسم الذي لم أتعرّف عليه بعد. أشكرهم على بطاقة الدعوة.

ونزع نظّارتيه. قد توقّدت عيناه بالحقد.

وتهدّلت شفته السفلى بالاحتقار.

كانت الأيّام تتعاقب في المدرسة. مملّة. ثقيلة. مع أرق في الليل واضطراب بانتظار الأحد من كلّ أسبوع، موعد اللقاء مع رمزي. تقضي نهارها ذاك في بيروت ولا تطلع إلى المهديّه. واتّصل خبر غيابها بالأمّ: «ماذا تعملين كلّ أحد في بيروت؟» فتتذرّع تميمه بماري أبو خليل تارة وبالبحث عن وظيفة تارة أخرى. ثمّ تدير ظهرها.

وأهملت دروسها، فهي ساهمة في المدرسة منعزلة. تنظر إلى كتبها ودفاترها فيُخيّل إليها أنّها بقايا من الماضي، كهذه الخرائب التي يأتي السيّاح لمشاهدتها في صيدا. حتّى كان ذات يوم فإذا الحسودة اللدودة – إيّاها – تحتلّ في إحدى المباريات الأدبيّة المرتبة الأولى مزحزحة تميمه نصّور لأوّل مرّة عن المكان الذي تحتلّه صفًّا بعد صفّ منذ سنين، ففعل فيها الأمر فعل السوط. ولمّا جاء الموسم المنتظر – الامتحانات – فازت تميمه بالبكالوريا، وبعلامة «جيّد» لم تكن تنتظرها بعد أن كان منها ما كان.

قضت نهارها الكبير في بيروت مع الفائزات من صفّها يعلّقن على النتائج مزقزقات، ويقمن بدور المعزّيات الخيبيّات أمام اللواتي «خانهنّ الحظّ». نهار استعادت فيه جوّ المرح المدرسيّ وبراءته كأطيب ما عرفته. وبلغ بها انهماكها أن كانت قد ضربت لرمزي موعدًا مشروطًا – تلقاه إذا نجحت – ولكنّها لم تذهب إلى الموعد.

وتخلّفت كذلك عن موعدها يوم الأحد الذي تلا. اعتكفت في المهديّه تقلّب أمورها. عليها قبل كلّ شيء أن تجد عملًا يمكّنها من السكن في بيروت ودخول الجامعة. وما همّها أخوها ولا أيّ مخلوق في الدنيا.

وجاءتها رسالة أولى من رمزي – يهنّئها بفوزها – ثمّ ثانية يخبرها فيها بسقوطه هو في بكالوريا الجزاء. فقد مثل أمام القضاة الناظرين في دعاوى المطبوعات فامتحنوه شفهيًّا طول ساعتين، بعد الخطّيّ في الاستنطاق، فكانت النتيجة شهر حبس مع وقف التنفيذ. أي صفر أو ما يشبه الصفر. فإلى الدورة المقبلة.

لم تعجبها النكتة. عمره رمزي رعد لم يعرف الابتسام...

وجابر عن سمته لا يحيد. قصد إلى جميل الموالي، فدّه المهاجر العائد بألف ليرة إكرامًا للصداقة بين العائلتين ووفاء للمعروف كما قال، فهو لا ينسى استقبال

تامر نصّور في غينيا والعون الذي بذله له في أوّل عهده بالعمل. وزاد فلم يقبل من جابر سندًا بالمبلغ ، فاستراح البيت من مشاكل جابر أيّامًا. ولكنّها لم تطل. وإذا بجابر يدخل على أمّه ذات يوم ، يوقظها من نومها في الليل ويقول :

– أريد أن أسافر إلى غينيا.

١٠

على أنّ الحدث العظيم الذي غطّى كلّ شيء ، وطغت أخباره على كلّ خبر في المهديّه وجوارها ، كان من نوع آخر.

كانت المهديّه منذ شهرين مسرحًا لأعمال ومآثر بطلها جميل الموالي. بدأ بتعبيد درب الضيعة وتزفيته على حسابه الخاصّ ، ودرجت على الدرب منذ أوّل الصيف سيّارته البويك الخضراء ، وعلت أصوات المطارق والأزاميل تنحت الحجارة للبيت الجديد الذي اعتزم أن يقيمه مكان بيته القديم. قصر على ما يتوقّع الناظرون ويتحدّث المتحدّثون في المهديّه. وهو يأتي كلّ يوم ، كلّ يومين على الأكثر ، من أوتيله في بيروت فيشرف بنفسه على البناء ، بقبّعة فرنجيّة يتنقّل بها بين الفعَلة مصدرًا أوامره وموزّعًا سيكاراته.

ولم يكتفِ بذلك بل شرع على نفقته أيضًا بجرّ المياه على مسافة أكثر من ألفَي متر إلى المهديّه. وأعلن في الجرائد عن تبرّعه لإنشاء مدرسة وتجهيزها بما يلزم. فلهجت الألسن بالمواطن الكريم والمحسن الكبير. عدا ما يؤكّده البعض أنّه قدّم إلى الفدائيّين في اليوم الثاني لتخييمهم في ضاحية المهديّه شيكًا بالمبلغ المرقوم. اختلفوا على تحديد المبلغ. ولكنّ حسين القمّوعي يقسم أنّه رآه بعينيه الاثنتين: خمسة آلاف ليرة.

كانت آمنه تنظر إلى كلّ ذلك بغيرة كاوية.

تفكّر بتامر نصّور وتقابل بينه وبين جميل الموالي ، الولد الحافي ، أبي القميص المرقّع ، ابن نوّاف الموالي العتّال في سوق النوريّة في بيروت بسلّه المشدود إلى ظهره من الصباح إلى المساء ، جميل الموالي يرجع من أفريقيا بعد عشر سنين بهذه الثروة وهذا العزّ! وتامر نصّور المتعلّم ، الشاعر ، ابن البيت الذي لم يعرف سلال العتالة في زمانه ، ينتهي في سجن العبيد السود بتهمة التهريب!

على أنّ آمنه تعود إلى تبريد غيرتها إذ تذكر لجميل الموالي أخلاقه ومواقفه. لا لأنّه سلّف جابر بشهامة ما سلّف وحسب ، بل خصوصًا لأنّه ، مثلها ، لا يصدّق أنّ تامر نصّور مهرّب.

– لا. لا. أنا أعرف تامر نصّور ، كلّنا في غينيا نعرف. تامر نصّور شريف وأنا واثق من براءته. كلّه حسد بين أولاد العرب ووشايات.

أكّد لها ذلك.

وهي تمرّ مرّة في الأسبوع على الأقلّ أمام الورشة ، تحيّيه وتكرّر عليه أسئلتها فيكرّر أقواله ويعلن أمام الرائح والغادي أنّ تامر نصّور سيخرج من السجن مرفوع الرأس.

في المرّة الأخيرة عرض خدماته –كثّر الله خيره– قال :

– أيّ مبلغ تحتاجينه يا ستّ أمّ جابر للعائلة. تامر أعزّ من أخ كبير.

أجابت شاكرة بأنّ لديها من خير الله ما يكفيها ممّا سبق لتامر أن بعث. «وقد بعث الكثير» وخنقتها الدموع.

ماذا؟ جميل الموالي! جميل الموالي يطلبها للزواج؟

وتستعيد في ذهنها حديث أمّها ونصائح جابر –جابر صار عنده نصائح يوزّعها على أهل البيت– جاءت أمّ جميل الموالي وأخته في زيارتين حتّى اليوم. شاهدتها تميمه في الأولى ترمقانها بنظرات وتوجّهان إليها كلمات. ولكنّها لم تُلقِ بالًا. حملت ذلك على الملاطفة المجرّدة ، وحملت الزيارة من حيث هي على

أنّها ردّ لزيارة أمّها لبيت الموالي تهنئة برجوع ابنهم من غينيا. وها هما في الزيارة الثانية –كانت هي غائبة في بيروت – تطلبان يدها.

أين رآها جميل الموالي؟

ماذا يعرف عنها جميل الموالي؟

ماذا تعرف عنه؟

ربّما رآها تمرّ أمام ورشته. هي لمحته لمحات. لم توجّه إليه كلمة. كلّ ما تعرفه عن جميل الموالي قبّعته ذات الرفاريف، ولون وجهه الأسود – أسود أسود – كأنّه يحمل أفريقيا على وجهه.

مشاريعه في المهديّه – عظيم! عظيم! يستحقّ عليها وساماً.

لا تريد أن تكون هذا الوسام.

إلّا إذا كان بيت الموالي وبيت نصّور يريدان أن يعقدا عليها صفقة من صفقات الزمان الذي كان. جابر ينوي بيعها، ما في ذلك شكّ. باعها – بالتقسيط. ألف ليرة قسطاً أوّل. وألف آخر يعتزم التقدّم بطلبه. والحبل على الجرّار.

أمّها! مسكينة أمّها! لم تقل شيئاً. كلّ ما قالته إنّ جميل الموالي آدمي – آدمي ابن أوادم – لم تذكر حتّى غناه أو تُشر إلى جاهه. بلى، قالت أيضاً إنّه ينبغي أن يكون في الأربعين من عمره: «كبير على تميمه».

فصرخ جابر:

– كبير في كلّ شيء. بنتك لازم لها كبير ليكسر رأسها.

ورفع يده على أخته.

أدارت تميمه ظهرها ومشت إلى الوادي.

١١

كانت الشمس تميل إلى المغيب فجلست على صخر هناك تألفه منذ الطفولة. كانت تتردّد إلى ذلك المكان لا لخضرة فيه أو ظلّ، فقد كان تراباً أغبر لولا شجرتان وبضع نبتات برّيّة، وكئيباً موحشاً لولا إطلاله على البحر. ولكنّها كانت تجد نفسها فيه وتلملم أفكارها وذكرياتها في منجى من نقّ أمّها ودجاجاتها.

كان في يدها كتاب «أرباب وعبيد»: حملته معها لا لتقرأ فيه بل لتقلّب مرّة أخرى رسائل رمزي إليها وكانت تضعها بين دفّتيه. وبدون وعي ضمّت إليها رسالة هاني الراعي. رسالة تلقّتها اليوم من دير المطلّ. وفجأة تنبّهت للأمر فتناولتها ودسّتها في عبّها. وفتحت الرسائل الأخرى:

«عندما ضممتك لأوّل مرّة خُيّل إليّ أنّني لم أضمّ في حياتي امرأة قطّ.

كنت واثقاً أنّك ستسبقينني إلى تلك الزاوية. هل اتّفقنا عليها وعلى الساعة والدقيقة؟

ذلك أنّك لست، كغيرك من النساء، صدى الصوت الصارخ في البرّيّة، بل الصوت الآخر الصارخ فيها. حوار نلتقي عليه ذراعين بذراعين وفماً بفم. وتموت بيننا براري الأرض».

«الحبّ هو كلّ شيء.

سلي أطيار السماء من علّمها الحبّ. سلي غزلان الفلوات. وسلي الزهرة ترشق أترابها بالطَّلع. يميناً ويساراً ترشقه، يقع حيث يقع، ويعقد حيث يعلق.

أمّا ما في الحبّ من بشاعات فمن صنع الشرائع والتقاليد التي قيّدته باسم المحافظة على قدسيّته.

قدسيّته الوحيدة: الحرّيّة».

«هل تعلمين ما عنوان كتابي الجديد؟

ليس في الكون حلال وحرام. ليس في ناموس الطبيعة، سمائها وأرضها، كواكبها وحشراتها، أزهارها وأشواكها، عواصفها وأنسامها، تحليل ولا تحريم.

الثورة المقبلة في العالم هي ثورة الإنسان على

الأكاذيب والأوهام والطلاسم التي جعلت منه مسخًا. يمزّقها كلّها. ليستوي عاريًا في الكون العاري وحرًّا في الكون الحرّ.

لذلك سيكون عنوان كتابي الجديد: «الحرّيّة هي أنا...»

أطبقت الكتاب على هذه الأوراق وأرسلت أنظارها في الأفق.

كانت الدنيا قد أدغشت، فلمحت عن بعد شخصين يسلكان قافزين بين مزارع التبغ التي تغطّي تلك الناحية فما تزيدها إلّا كآبة. اثنان من الفدائيّين. بل هو حسين القمّوعي مع واحد منهم، بانتظار أن يتمنطق هو الآخر بالكليشنكوف ويرتدي البذلة المرقّطة. أما يملأ الضيعة بالخطابات عن الفدائيّين وبطولاتهم وينعت المختار بالخائن لأنّه طلب إلى قائدهم الابتعاد بهم عن الأمكنة الآهلة؟

حتّى أمّ حسين! لمّت الضيعة على صراخها إذ أنزل حسين صديقًا له منهم في البيت. ولكنّها لم تلبث أن غيّرت رأيها. وها هي منهمكة نهارها وليلها بشؤونهم والسلّة لا تفارق كوعها. تقول إنّها تجلب لهم من أسواق صور ما لا يجدونه في المهديّه. لا أحد في المهديّه يصدّق. كلّهم يعرفون أمّ حسين ويراهنون على سلّتها — فارغة!

ولكن، ماذا جاء الفدائيّون يعملون هنا والمهديّه تبعد عن إسرائيل عشرين كيلومترًا؟

وتنبّهت تميمه فإذا حسين فجأة بوجهها، قد ترك صاحبه يتابع سبيله وارتدّ إليها متذرّعًا بالسؤال عن جابر أين هو فهو لم يرَه منذ مدّة.

— تعرف أحسن منّي أين جابر.

ووضعت رأسها في الكتاب. فسألها عن رأيها في الفدائيّين فأجابت أن ليس لها رأي. فعاد إلى سيرة جابر. «جابر لديه مشروعان عظيمان، قال، أحدهما الانخراط في صفوف الفدائيّين، والآخر لم يبح به...».

— قلت لك أنت أعرف منّي بجابر ومشاريعه.

وتهيّأت للقيام. فإذا هو يدنو منها دنوة وبذراعيه الاثنتين يطبق عليها ويغصبها على فمها قبلة، مع بخَر له وفحيح، فوضعت كوعها في صدره وقذفته، وبكلّ أثقال مقتها أهوت عليه بصفعة مدويّة.

لم ينبس حسين القمّوعي بحرف. انتصب إزاءها وقهقه عاليًا ثمّ أدار ظهره. وما كاد حتّى انفجرت بالبكاء.

غرّد عصفور على مقربة منها.

هنا، في البطمة، أبو الحنّ يكرّ بألحانه كرّة ويسكت.

كأنّه في سكوته ينتظر
يعود إلى كرّة أخرى ويسكت
وثالثة يمدّ بها صوته مدًّا بعيدًا، متواصلًا، ملهوفًا
عمّن يسأل؟ أيّ شيء أضاع؟
وهو يلحّ في وجه السماء — السماء خرساء
والأرض قفر
فينقضّ في الوادي...

... تُرى، من يحكي سرّ العصافير؟ من يقول أعراسها ومآسيها؟!...

١٢

عيل صبر جابر. أوشك الصيف أن ينقضي بعد الربيع. فصلان لم يصل خلالها شيء من أبيه. لا بدّ من السفر، لا بدّ. ولكن كيف؟ طرق كلّ الأبواب لتدبير ثمن التذكرة على الأقلّ فعاد بالخيبة. حتّى جميل الموالي اعتذر بعد أن كان ما كان من رفض تميمه. ولم يكتفِ حتّى طالب جابر بسلفة الألف ليرة بحجّة الحاجة لما هو فيه من ورشة البناء.

– أُكتبي لأبيك يا تميمه واسأليه.

تقولها الأمّ لابنتها للمرّة العاشرة فتجيبها «كتب جابر. الأمر يعنيه.» ولا من مجيب. ألم يقل جماعة أفريقيا إنّ السجناء في قضيّة التهريب ممنوعون أن يتّصلوا بأحد أو يتّصل بهم أحد حتّى بالمراسلة؟

أغلقت باب غرفتها وأخذت ورقة وقلمًا وكتبت:

«السيد هاني

تأخّرت عليك في الجواب.

أنا أيضًا لا يمكن أن أنسى. كيف أشكر لك تهنئتك بنجاحي في البكالوريا؟ كيف أشكر لك خصوصًا ما فعلته معي من قبل؟ كلّ ما أستطيع قوله إنّك عاملتني كأخت كما أعلنت أنت. ولكنّ الأخت لا يختارها أحد. تفرض نفسها كما يفرض الأخوة أنفسهم. ولم أعاملك أنا بما ينبغي للأخت أن تفعل.

ولكن لا. لست أخي. أبعد من ذلك أنت وأقرب.

منذ يوم الحجر توالت عليّ أحداث كثيرة. أحجار كثيرة أصابتني. ألمها مختلف جدًّا، وما همّني الألم، وإنّما أثرها هو الذي يهمّني.

لا يسعني أن أفصح لك أكثر من هذا. ولا تلحّ. عدني بأنّك لن تلحّ إذا التقينا.

كيف كانت رحلتك إلى ليبيا؟ وصلتني بطاقتك منها. لماذا اخترتها تمثّل المرأة الليبيّة وراء هذا الحجاب الذي يكمّ فمها؟ صدّقني. المرأة عندنا – في بعض مناطقنا على الأقلّ – حتّى بعد نزع الحجاب عن عينيها ليست أحسن حالًا. الحجاب السميك هو على روحها.

ما أزال في المهديّه أعدّ الأيّام للنزول إلى بيروت والالتحاق بالجامعة اللبنانيّة، دار المعلّمين والمعلّمات.

هل من الممكن أن أراك قبل تشرين؟ إنّني أختنق في الضيعة.

حاشية: حسيب الدرويش بن أحمد الملقب بالمبيّض، من النبطية؟ لا. لا أعرفه. ولكنّي أتمنّى لك التوفيق في مسعاك من كلّ قلبي».

تميمه نصّور

•

لم يعتّم جابر أن وجد لنفسه المخرج بالرغم من معارضة أمّه – تميمه سكتت – في جيبه التوكيل العامّ من أبيه، فرهن البيت بما دفع به أجرة السفر وسافر...

وبعد ظهر ذلك اليوم – السادس والعشرين من أيلول ١٩٦٨ – انقلبت الأمّ إلى غرفة جابر في بيت روز خوري تضبّ على أمتعته لنقلها إلى المهديّه وتشمّ رائحة ابنها حيث كان ينام ويقوم، ورافقتها تميمه.

وامتدّ حديث الستّ روز فشمل الجميع: تامر نصّور – حسنًا فعل جابر بالسفر ليكون إلى جانب أبيه. رمزي رعد – دخل السجن في الأسبوع الماضي.

– عفوا عنه المرّة الأولى. ما كلّ مرّة تسلم الجرّة. عاد يسبّ الحكومة أكثر وأكثر. تصوّري أنّ الأستاذ أكرم الجردي، أكبر محامٍ في البلد، تطوّع للدفاع عنه فرفض. قال يريد أن يدافع عن نفسه بنفسه الجرائد والقصائد لا تنفع في المحاكم.

سكتت تميمه.

– زوّاره كلّهم حكّام وعظماء. والهدايا لا تنقطع ثمّ:

– وأنت يا مدموزيل تميمه؟

أجفلت تميمه للسؤال. ولكنّ الستّ روز بادرت إلى الإيضاح. تريد أن تعرف ما مشاريع المدموزيل تميمه بعد سفر جابر – «من غير شرّ» – وحصولها – «اسم الله» – على البكالوريا.

أجابت تميمه أنّها ستنتقل إلى بيروت لدخول الجامعة. ولكن عليها من أجل ذلك أن تدبّر وظيفة إلى جانب دروسها بانتظار الفرج من أفريقيا.

فهتفت الستّ روز:

– غرفة جابر على اسمك منذ اليوم. والوظيفة عليّ.

الحلقة الثانية

«في دمي رقصة القالس
وفي عظامي عويل كربلاء»
محمّد الماعوط

١

صيف روز خوري كان منحوسًا هذه السنة.

فاتتها أفواج أثرياء العرب، وكانت تعلّق عليهم آمالها في هذا الموسم لاستكمال ما هي في حاجة إليه لرفع عمارتها – ليلة واحدهم بألف ليرة – ذلك أنّ الصيف ما كاد يبدأ وتظهر طلائعهم حتّى أطلّ شرطة الآداب وشنّوا على الحمرا حملة أدّت إلى إقفال عدّة بيوت. وكبسوا بيتها مرّة ثمّ مرّة أخرى. طبعًا عادوا مكسوفين. فروز ليست حديثة عهد بالكار ولها بين الجماعة أصدقاء وحماة، هم الذين نبّهوها. «التعليمات مشدّدة، قالوا، والمفتّشون وجوه مقيتة».

وجلال الكرش يطلع كلّ يوم ويعرض عروضه. الكرش لا يفكّر إلّا بنفسه. منشار يأكل طالعًا نازلًا منها ومن البنات ومن الزبائن، فضلًا عمّا يحطّ في جيبه من أثمان الطعام والشراب في الليالي العامرة.

على أيّ شيء يخاف الكرش؟ أمّا هي فغير مستعدّة للمجازفة بسمعة بيتها. ستنتظر إلى أن تهدأ الحال. كلّما جاء وزير جديد دقّ طبل الفضيلة – «عند تغيّر الدول احفظ رأسك» – وتقتل وقتها بالّتي هي أحسن إلى أن يمنّ الله بالفرج.

كانت تخرج يومًا أو يومين في الأسبوع في تكسي من تكسياتها لنزهة إلى الجبال أو على شاطئ البحر صوب صيدا أو صوب طرابلس، وزنّوب إلى جانبها. وفيما عدا ذلك تبقى في البيت تنقّل أزرار الراديو، وفي المساء تأنس إلى التلفزيون.

وربّما عاودتها في وحشتها أفكار لها وعزائم. تتخيّل نفسها، بعد البناية الجديدة، وقد صارت إلى ريع نظاميّ يكفل لها عيشًا هنيئًا مع سيّارة خصوصيّة – ألفاروميو – تقف على الباب... فما لها بعد ذلك، بل منذ اليوم إذا شاءت، وهذه المشاكل كلّها!

سيّدة محترمة ستقضي بقيّة عمرها.

بل امرأة بسيطة. بسيطة كما كانت أمّها الخوريّة.

وتسترضي أباها الخوري في قبره، فتعود إلى حضور القدّاس كلّ أحد وكلّ عيد وتضع إحسانها في صينيّة الكنيسة خمس ليرات تكفيرًا عن ماضيها.

أكثر من ذلك. ستتبنّى زنّوب.

ليس لها هي من الأهل إلّا ابن عمّ في أميركا.

وستكون زنّوب موضوع حبّها وحنانها. ستجعلها في غرفة خاصّة بالقرب من غرفتها وتأتي لها بمعلّم يدرّسها في البيت. ستجعل منها عكّازها في الشيخوخة ووارثتها بعد عمر طويل.

وتغمر السعادة روز لساعات وتبكي بكاء حلوًا.

على أنّها ما تلبث أن تستفيق من أحلامها إذ تفكّر بأنّ البناية ما زال يلزمها الكثير. فتعطي نفسها مهلة أخرى. سنة، سنتين على الأكثر. تتناول حبّة من حبوبها ثمّ تمسح دمعها وتقوم...

إلى أن كان اليوم الذي أطلّت فيه تميمه نصّور بحقائبها.

٢

لم تجد تميمه لزومًا لسؤال رمزي في سكنها، فقد كان ذلك أمرًا مفهومًا. ثمّ إنّها كانت تحذر التردّد على السجن. ذهبت يومًا فتفتّحت عليها العيون وسمعت في ظهرها تهامسًا.

على أنّها لم تتمالك نفسها طويلًا. بعد بضعة أيّام قامت بالزيارة الثانية. فأصغى إليها بشيء من الذهول. قال:

– متى نكون تحت سقف واحد؟

وأضاءت في عينيه تلك الشرارات. لحظة ثمّ خبت. كان خائر القوى وقد مالت صفرته إلى بياض مريب.

وهمّت باستشارته بما يشغل بالها: البحث عن وظيفة. ثمّ لم تقل شيئًا. وخرجت.

انصرفت إلى تتبّع الإعلانات في الجرائد وقصدت إلى أكثر من واحدة من هذه المؤسّسات التي تطلب «آنسة تحسن كذا وكذا» فلم تجد ضالّتها. ثمّ خطر لها خاطر فوضعت بدورها في جريدة «الصباح» إعلانًا عن استعدادها لإعطاء دروس خصوصيّة في البيوت بالعربيّة والإنكليزيّة.

وكتبت إلى دير المطلّ تخبر هاني الراعي بانتقالها إلى بيروت، ولم تنسَ أن تسأله عن مصير ابن النبطيّة حسيب بن أحمد درويش الملقّب بالمبيّض.

* * *

لم تتناول الرسالة التي وجّهها هاني الراعي إلى تميمه نصّور على أثر فوزها بالبكالوريا إلّا طرفًا من حدث عظيم كان يقيم دير المطلّ ويقعدها شاقًّا أهاليها إلى حزبين، هاني الراعي على رأس أحدهما، والمختار على رأس الآخر.

«مسلم يربّي أولادنا!» – تلك كانت صرخة المعارضين – ومبيّض فوق المسلم، «شهادته شرواله المعلّق بالسنديانة!»

والمسلم المبيّض حسيب بن أحمد درويش هو المعلّم الآخر الذي عيّنته وزارة التربية الوطنيّة لمدرسة دير المطلّ الرسميّة بعد أن لاقت في السنة المنصرمة الإقبال الذي لاقته، فمسّت الحاجة فيها إلى معلّمين اثنين في الموسم الدراسيّ الآتي بدلًا من معلّم واحد.

كانت دير المطلّ في الواقع للموارنة منذ قديم الزمان، لم تعرف المحمّديّين إلّا في عهد الأتراك، وهي تحفظ عنهم ذكريات ما تزال أصداؤها تتردّد في نفوس المعمّرين. ويروح المختار، وهو من هذه البقيّة الباقية، يعيد على الأسماع أخبار الأهوال التي تعرّضت لها دير المطلّ في ذلك العهد، فيجمع أنصاره في دكّانه كلّ مساء وينبشون الماضي.

يرجع ذلك إلى سنة ١٩١٤ عندما دخلت الجيوش التركيّة جبل لبنان خارقة امتيازاته. فقد نزلت شرذمة منها في دير المطلّ وعاث أفرادها في البيوت نهبًا وغصبًا، وداسوا حرمة الدير فجعلوا من الكنيسة إسطبلًا لخيولهم. وجاء رئيس الدير القسّ شعيا الجزّيني محتجًّا، طالبًا من ضابطهم حكمت بك إخلاء الكنيسة من الحيوانات، فاستهزأ به. فرجا أن يأمر جنوده على الأقلّ بنزع صورة العذراء من فوق المذبح وتسليمها إليه، فأجابه الضابط: «إنتظر!» ومشى على مرأى منه إلى المذبح فاعتلاه وسلّ سيفه فطعن العذراء ناعتًا إيّاها بكلّ ما في القاموس التركيّ العسكريّ من نعوت، وانثنى إلى جنوده فأمرهم فجرجروا الكاهن في ساحة الكنيسة وبصقوا في لحيته. وصاح به حكمت بك:

– رُح وخبّر.

لملم القسّ شعيا نفسه وراح ، ولم يخبّر أحدًا .

ولكنّ الأتراك أفاقوا صباح اليوم التالي على ضابطهم حكمت بك قتيلًا على درج منزله بأربع رصاصات من مارتينة... وقامت القيامة تحرّيًا عن القاتل وانصبّ غضب العسكر على الرهبان وأهالي دير المطلّ اضطهادًا وتفظيعًا . اختفى الجزّينيّ أبو الطاقيّة . بلعته الأرض . كانوا يلقّبون القسّ شعيا بالجزّينيّ أبي الطاقيّة لأنّ أصله من جزّين ولأنّه كان يعتمر طاقيّته منحنية فوق أذنه متأنّقًا في ذلك تأنّق القبضايات في حني الطربوش .

أربع سنين لم يظهر له أثر .

فلمّا انتهت الحرب وغادر الأتراك البلاد فتح أهالي دير المطلّ عيونهم فإذا الجزّينيّ أبي الطاقيّة في ديره ! وعاش بقيّة حياته على سرد مغامرته للناس .

ويترحّم المختار ألف مرّة على الجزّينيّ أبي الطاقيّة . أين منه رئيس الدير الحاليّ الأب أندره – «أبو الشورت المزدوج في اسمه ولحيته» – لاعنًا هذه الأيّام التي يسوق فيها الكهنة السيّارات ويكتبون في الجرائد . فقد كان الأب أندره من أنصار هاني الداعين علنًا إلى التأهيل بالمعلّم الجديد . ويشبر المختار على ذقنه ويحلف بمريم العذراء أنّ هذا لن يصير والسماء زرقاء .

– سأكسر رأس هذا الولد الأرعن هاني بن طنّوس ابن راعي الغنم وأنتف لحية صاحبه وألحق حسبو بأبيه المبيّض في قبره !

وكان حسيب المبيّض معروفًا بحسبو . وأبوه ، أبو حسبو ، لم تنسه نساء دير المطلّ وجوارها – المسألة لم ينقضِ عليها عشر سنين – فقد كنّ ينتظرنه من موسم إلى موسم ، يجمعن له الطناجر والصواني لتبييضها ، ولا يدخل دير المطلّ من المبيّضين إلّا أبو حسبو ، ينزل في ساحة الدير مع ابنه – إيّاه – فيجعل من السنديانة مأواه ، حصيرة في حضنها لنومه مع حسبو وأخرى ينصبها بابًا . وكان حسبو في الحادية أو الثانية عشرة من عمره ، لم ينسَ هاني ، هو أيضًا ، كيف كان يؤلّب رفاقه حول السنديانة ليتفرّجوا على حسبو وهو يفتل بشرواله مبيّضًا الآنية التي يعهد بها إليه أبوه ، فيما يبيّض أبو حسبو الدسوت الكبيرة والخلاقين .

وما كادت الحكومة تستجيب لطلب الأهالي بتعيين معلّم ثانٍ للمدرسة حتّى فوجئ هاني في عرزاله ، صبيحة يوم من هذا الشهر – أيلول – وهو يقضيه كلّ صيف في الكرم ، بشابّ ظريف الهندام يُقبل إليه من صوب الضيعة ويستأذنه في الكلام . لم يعرفه لأوّل وهلة ، فذكّره الزائر بحكاية طنجرة صغيرة حملها صبيّ قبل عشر سنين إلى صبيّ ابن مبيّض ، هنا في دير المطلّ تحت سنديانة الدير ، وطلب منه أن يبيّضها فخورًا بأنّها طنجرته وبأنّها ، بين جميع الطناجر ، وحدها تحمل اسمه محفورًا مع تاريخ ولادته . وقلبها مشيرًا بإصبعه : «هاني ١٩٤٥» . ولكنّ الآخر لم يكن يعرف القراءة .

– حسبو ! (هتف هاني) .

وسأله حسبو هل تقبل به دير المطلّ معلّمًا في مدرستها .

كيف تعلّم حسبو؟

أين درس حسبو حتّى صار معلّمًا؟

أسطورة ينبغي سماعها منه .

وهاني ينزله ضيفًا عليه ريثما تنقضي العطلة ، يصحبه بقيّة الصيف متردّدًا بين البيت والعرزال ، ويدور به في الضيعة على جماعته وقد أصبحوا الأكثريّة بعد أن قال رئيس الدير كلمته .

على أنّ الأب أندره ، في تسامحه المسيحيّ إزاء المعلّم المسلم ، وفي تعصّبه السياسيّ ضدّ المختار ، فضلًا عن خلافه معه على أملاك الدير ، لم يلبث أن لجأ إلى وسيلة فذّة : ألقى عظة في أخويّة قلب يسوع طالب فيها بتأليف وفد من أعضاء الأخويّة لشكر الحكومة على قرارها . – زادها المحترم ، قال الحياديّون . واغتنمها المختار فرصة لمحاربة الكاهن بسلاحه فألّف وفدًا برفع

إهانة قلب يسوع إلى رئيس الرهبنة! ولكنّ الأب أندره كان قد سبقه فاستأذن الرئيس العامّ في إقامة الدعوى على آكل أملاك الدير عن طريق التزوير في دفاتر المخترة... فيما كان الطائفون بالعرائض، مع المعلّم وضدّ المعلّم، يجمعون تواقيع المؤيّدين والمعارضين، ووصلوا بها إلى قريتَي القنـدول والمرج والقرى البعيدة. أمّا القندول، وكلّها من الدروز، فحرصوا على الحياد بناء على دعوة عقّالهم لم يشذّ منهم إلّا أربعة من أهل الطيش معروفون بانتمائهم إلى حزب ممنوع. وأمّا أهالي المرج، وهم روم أرثوذكس مع عائلتين بروتستانت، فصبّوا كلّهم مع هاني...

وكان الأمر إلى هذا الحدّ هيّنًا والزحام في نظر هاني شائقًا لو لم يزر دير المطلّ نائب المنطقة بدعوة من المختار، وفي اليوم التالي للزيارة يتصدّى مجهول للمعلّم على درب الكروم ويشجّ رأسه بالعصا طالبًا منه أن يعود من حيث أتى، إلى النبطيّة، يبيّض النحاس... مؤامرة لم تخفَ على هاني ولا على حليفه الأب أندره. «يولعون النار لحمل الحكومة على سحب المعلّم وتعيين سواه». ولكنّهما تلقّياها بالستر والدهاء: كتمَ هاني فم حسيب المبيّض عن ذكر أيّ شيء ممّا وقع له، ونقله الأبونا إلى ديره وأسكنه بين رهبانه.

٣

كانت الستّ روز تنظر إلى انهماك تميمه بالبحث عن وظيفة بلهفة الكارهة لأيّ وظيفة تأتي على غير يدها. البك –كانت تؤكّد لها وتكرّر– الأستاذ الكبير أكرم بك الجردي هو الذي سيجد لها ما تريده. وهي تنتظر عودته من البقاع – «طوّل الغيبة هذه المرّة!» – لتجمعها به.

وتتلفن كلّ يوم إلى مكتبه.

ذات صباح دخلت على تميمه في غرفتها متهلّلة.

– السبت يتعشّى البك عندي، وتكونين معنا.

انقضى نهار السبت في إعداد المأدبة. رأت روز أن تُقام في غرفة الضيافة ذات الرياش الثمين فانصرفت إلى ترتيبها للمناسبة. أمرت بنقل الطاولة من الدار إلى الغرفة وفرشت عليها غطاء مخرّمًا – شغل اللعازريّة كلّفها المبلغ المرقوم– وصفّت الكراسيّ الثلاثة وأواني الطعام والشراب. وأبت على تميمه أن تمدّ يدها إلى أيّ عمل من كلّ ذلك. ولكنّها تقبل منها بطيبة خاطر المعاونة في تحضير التبّولة، وأخذت بذراعها إلى المطبخ وتبعتهما زنّوب، فيما كان الكرش يغدو ويروح، يشتري المقدّدات والمملّحات وأصناف المقبّلات من السوق. وروز لا تبيع فرحتها لأحد:

– البك وطنيّ مخلص لا يشرب إلّا العرق الزحلاويّ!

تأخّر.

والمراسم المتّخذة لمجيئه تتوالى. تلفون للستّ روز، وآخر لجلال الكرش، مع إطلالات من الخادمة على الطريق لاحظت تميمه أن زنّوب ذات مران فيها، فساورتها الهواجس.

سبق لها أن شاهدت الرجل مرّة. خطفًا. يوم جاءت مع أمّها لنقل أمتعة جابر إلى المهديّه. كان في الدار يتناول القهوة فقدّمتها روز إليه وهي تهمّ بحبّة من حبوبها. وعضّت الحبّة ومضت في لعن الأطبّاء بما تخصّهم به من ألفاظ تطفر على لسانها من لغتها الشماليّة القديمة. فضحك الأستاذ الكبير.

كانت له ضحكة كرّارة، موقّعة توقيعًا – ضحكة المحامين– ومع الضحكة يرتقص خدّان له مترهّلان، وتلمع عينان في وقبيهما احمرار، تحت حاجبين كثيفين بشعر نافر. عمره؟ فوق الأربعين. ذو قيافة. تذكر تميمه جيّدًا قميصه الحريريّ الناصع وكرافته الكحليّة المعقودة بأناقة.

بهذه الهيئة الحسنة دخل أكرم الجردي، مع نضرة في وجهه الحليق حديثًا ومرح ظاهر. وفور جلوسه إلى

المائدة انصرف يهيـىءُ شرابه على طريقته.

كانت روز قد أحضرت له العدّة. تناول قنّينة العرق وصبّ منها في إبريق من البلّور ثمّ صبّ فوق العرق ماء – بمقدار كان يزنه بعينيه ويرفع الإبريق ليرى إلى لون المزيج – ثمّ غرّق الإبريق في سطل الثلج وجعل يديره فيه بأطراف أصابعه، وهو في أثناء ذلك يرمق تميمه وكأنّه يدعوها إلى الإعجاب بما يصنع. على أنّه لم ينتظرها فانطلق في شرح ما سمّاه «فنّ الشرب»، وأدنى قدحًا صغيرًا أشبه بالكشتبان فملأه وملأ «للآنسة تميمه» مثله. فاعتذرت. فألحّت روز، وتشجيعًا ملأت لنفسها قدحًا.

كان أكرم الجردي يكرع كشتبانه دفعة واحدة ثمّ يضحك ضحكته. يفرط في الشراب وفي الطعام على السواء، ولا يني يتحدّث. أدار الكلام في البداية على تميمه فسألها عن بعض شأنها، ثمّ انقلب إلى السياسة، همّه الأكبر على ما بدا لتميمه.

علمت من الحديث أنّه يطمح إلى النيابة.

قال إنّ له من الشباب المثقّف في البقاع ومن أنصاره بين الفلّاحين ما يأمل معه أن يتغلّب على الزعامة الإقطاعيّة التي تتحكّم منذ أجيال بالمنطقة. ولن ينثني حتّى يحتلّ الكرسي الذي ورثه شوكت بك اليغموري عن أبيه، عن عمّه، عن الجدّ الذي كان عضوًا في مجلس المبعوثان في العهد العثمانيّ.

حلا الحديث لتميمه فاشتركت فيه وطارحت المحامي الرأي في الزعامات الإقطاعيّة المتخلّفة في بعض مناطق البلاد – منطقتها من الجملة – كانت تخاطبه بالأستاذ وتخاطبه روز بالبك المفخّمة. قال متضاحكًا:

– أنا ضدّ البكوات يا ستّ روز. تعرفين أنّي ضدّ البكوات. الأستاذ وبس. وأفضّل أكرم برفع الكلفة.

والتفت إلى تميمه.

فهتفت روز:

– بك ونصّ! البكوات أحسن منك يا بك؟!

وأثنى الأستاذ الجردي على أفكار تميمه، لولا أنّه أكثر من طرح الأسئلة على أثر سماعها – «كأنّه في دعوى هو وكيل الخصم فيها» – ثمّ يقطع الأسئلة ليعود إلى اليغموريّين ومشاكل له معهم قديمة وحديثة، يرصّع كلّ ذلك بنوادر يضحك لها ضحكته ويكرع كشتبانه.

طال العشاء.

قامت روز مرارًا بحجّة أشياء وأشياء. تتلكّأ في العودة عن سابق تصوّر وتصميم ثمّ تدخل فترى كلّ شيء على حاله. بالعكس، لاحظت في المرّة الأخيرة أنّ تميمه أبعدت كرسيّها عن المائدة وجعلت بينها وبين البك مسافة لم تكن من قبل، وانقطع البك عن الضحك.

وما هي إلّا أن أبدى رغبته في الانصراف، مؤكّدًا «على كلّ حال» أنّه سيعير الوظيفة اهتمامه.

ولكنّ تميمه بقيت محافظة على هدوئها. كلّ ما كان أنّ الرجل ألقى يده على كتفها في غياب روز، لم يلفظ كلمة نابية ولم يأتِ أمرًا. عيناه فقط برقتا بأبعد من الشراب. فحرصت على ردّ البريق. لذلك كانت هي التي قطعت الصمت فجعلت تعتذر عن إزعاجه بشأن وأكّدت أنّ نوع الوظيفة لا يهمّ شرط أن تأذن لها بمتابعة تحصيلها الجامعيّ. فاستبقته روز بالجواب وطمّنت تميمه أنّ كلّ شيء سيكون على خاطرها، ومشت إلى الباب تشيّعه، وتميمه وراءها قد رأت جيّدًا إصبع روز يرتفع له بإشارة تؤجّل شيئًا ما إلى ما بعد.

٤

مكتبة انطوان – باب ادريس. وتميمه تقلّب في المجلّات بانتظار هاني. كان قد ضرب لها الموعد في جوابه. بادرها لدى وصوله:

– الحقّ على العطلة وعلى الطلّاب. لم يتظاهروا

منذ زمان ولا ضرب أزعر بحجر.

فضحكت من قلبها. ما أشدّ ما كانت تحتاج إلى الضحك! واستدارت حتّى واجهته لترى ابتسامة عينيه. ثمّ مشت إلى الصندوق فألقت بثمن كدسة من المجلّات وخرجت تعرض عليه نزهة على البحر. وإذ همّت بمناداة تكسي قال:

– بل تدشّنين سيّارتي.

وضرب بيده إلى جيبه فأخرج مفتاحًا وسبقها بقامته المديدة إلى حيث كان قد أوقف سيّارته:

– أتركبين مع هذا الرأسماليّ؟

وعقد حاجبيه مزهوًّا: فيات ١٢٥! هديّة من أبيه، قال، جاءت على جناح البرق، اتّفق عليها مع أبيه في ليبيا – ليبيا لا تُطاق في الصيف لم يقم فيها سوى شهر – آخر موديلات فيات. أمّا لونها فوصى عليه: نسخة طبق الأصل عن لون زيتون دير المطلّ في موسم القطاف.

ومفاجأة. لأنّه كان ينتظرها في آخر السنة الدراسيّة بعد الفوز بالشهادة. هكذا كان وعد أبيه.

– صدق الوعد حتّى الكذب. أليس عظيمًا كذب الوعود بهذا الشكل؟ بقي وعدي أنا: الشهادة. معلّقة بذنَب الحالة في الجامعات هذه السنة. تقرأين الجرائد؟ تهيّئنا لتشرين حافل. تشرين لبنان بعد أيّار فرنسا.

انطلقا في السيّارة يقودها مداعبًا المقود وهي إلى جانبه.

إلى أين؟ – خلده؟ – جونيه؟

إلى حيث تريد، بل إلى حيث يريد هو. كان النهار جميلًا. وما هي إلّا لحظات حتّى غمرت تميمه بهجة الحياة. أهي من فوح هذه السيّارة الجديدة الحلوة، أم من هذه الأنسام الخريفيّة العذبة التي تهبّ من صوب البحر، أم من أنفاسه كلّما التفت إليها؟ كانت تحسّ قلبها يرفوف بين أضلاعها كالعصفور خفيفًا، طروبًا، حرًّا، يطير مع الفيات الطائرة في سباق إلى أرض المجهول.

وهاني يتكلّم عن كلّ شيء. عن السيّارة. عن الجامعة. عن ثورة الطلّاب في العالم. «جنون؟ طبعًا، أكثره جنون. ولكنّ وراء هذا الجنون انقلابًا عظيمًا. إنّه كفر بالقيم التي آمن بها الناس حتّى اليوم وقدّسوها. تمرّد على كلّ سلطة. رفض لكلّ مبدأ. تحطيم لكلّ شيء... في سبيل أيّ شيء؟ لا أحد يعلم...» وعن الحالة في لبنان والسياسة في العالم، وعن حرب حزيران وما كشفت من عوراتنا نحن العرب، ومن مهاوٍ بين ألسنتنا وأيدينا، «بين مطارحنا على الأرض وركب التاريخ الصاعد إلى الكواكب».

– إسرائيل هي الكابوس رقم ١. التحدّي الأكبر. الآفة الجديدة من آفات التوراة الأسطوريّة.

في اليوم التالي قصدا إلى الريفييرا للاستحمام.

قالت إنّها تحبّ البحر.

وقال إنّه يحبّ الجبل.

– في الجبل أستحمّ بعطر الأرض.

ثمّ عاد إلى الثورة التي يدعون الطلّاب إليها. الداعية الأكبر رمزي رعد. سمّاه. هي لم تتعرّض لذكر أحد. تصدّى لمقالاته في «العصور» وفي «الصباح» وإلى كتابه «أرباب وعبيد». «فوضويّ»، قال، يزرع الشكوك. يضرم النيران. يركب الحرّيّة إلى الإباحيّة». واغتبط بالعقوبة التي نزلت به.

بقيت تميمه ساكتة.

كلماته تلحق بها إلى مقصورتها، تلفّها بجلباب من شوك. فتنتفض، تخلع ثيابها، تعلّقها على المشبك وتعلّق معها ذلك الجلباب. ثمّ تخرج بمايو – الأسود هو لونها المفضّل – يشدّ حقويها ويبرز صدرها وترتمي مرّة واحدة على الشاطئ إزاءه، تسند ذقنها بكفّيها وتتحدّاه:

– هكذا!

كان شعره الأشقر يلتمع على الشمس، وحبّات من النمش تنبت على كتفيه الأبيضين العريضين،

وشفتان له تعكسان ابتسامة عينيه ، مع أنف رومانيّ يشمخ بوجهها فلم تتمالك :

– منخراك ، أتدري ماذا؟ الحزم والعزم.

– أحجارك ، هاتيها . عندي منها خبر الأوّل فقط .

– خلِّنا مع الرمال.

وجعلت تكمش منها . تكرّها بين أناملها . تمرّغ بها خصائل شعرها.

كانت رائعة.

تحدّثه عن المهديّه . عن صيدا . عن مطامحها . عن أفريقيا . ثمّ تتوقّف غارسة أناملها في الرمال اللزجة حتّى الألم.

– أحلم دائمًا أنّني تحت وابل من الأزهار ، لا الأحجار . أحلم أنّني مدفونة بالأزهار . ليس هذا حلمًا إلّا بالنسبة إليّ . الناس كلّهم يُدفنون بالأزهار إذ يموتون . أنا مدفونة حيّة والأزهار تغطّيني . هذا موضوع الحلم في أزهاري ، أليس كذلك؟

أوشك أن يجيبها : «أنت زهرة الحياة» . كان فوحها في وجهه . ولكنّه أمسك ، ولبث يطوّف بها أنظاره . قالت عنه :

– لماذا أقول لك هذه الأشياء؟ أشعار! أشعار بلهاء.

وهبّت واقفة ، فتبعها ، فانثنت تخفي ما بها :

– قُل لي الآن . أخبرني عنك نثرًا . أنتم المهندسين لا تحبّون الشعر.

– لست أدري من الذي تنبّأ بهذا : «حينما تأخذ المرأة حرّيّتها ستنتقل مملكة الشعر من الرجل إليها» . بانتظار ذلك أتعلمين ماذا أتمنّى؟

– أن تأخذ المرأة حرّيّتها.

– طبعًا . طبعًا . هذا لا خلاف عليه . أريد أن أقول : أتمنّى لو يصدر قرار بحذف الشعر والشعراء من برامج التعليم في طول البلدان العربيّة وعرضها.

قالها جادًّا وبشيء من الغضب كأنّ له ثأرًا على الشعراء . فعارضت بأنّ الإنسان سيظلّ محتاجًا إلى الشعر احتياجه إلى الماء والهواء ، وأضافت :

– شاء المهندسون أمثالك أم أبوا.

– القرار لا يسري على أشعارك التي رسمتها على الرمال... ولو كنت الحاكم لعيّنت على تطبيق القرار المذكور لجنة مكافحة ، لجيل أو جيلين وربّما لأكثر ، إلى أن يطلع جيل عربيّ جديد سليم من الميكروب . نحن مصابون بالشعر . بالإدمان على الشعر . الشعر كان لنا أسوأ من الحشيشة قبل حرب حزيران . الشعر منظومًا في القصائد الرنّانة ، ومنثورًا في الخطب التي لا تقلّ عنها رنينًا وطنينًا... ولكن أنت لا تهتمّين بالسياسة.

– من قال لك ذلك؟

– قلتها لي أنت في السيّارة . مخطئة إذا كنت لا تهتمّين بالسياسة . يجب أن تعرفي أنّ السياسة تهمّ على كلّ حال بك . وهي الماء والهواء والخبز الذي نأكل.

وأخذ بيدها إلى طاولة تحت السقف في زاوية.

كانت الريفييرا تعجّ بالخلق ، وملء الخيمة أحاديث وضحكات ، والظلّ طيّب في هذا النهار الحامي الذي يبهر.

سألته وهي تنهل من قنّينة الكولا أن يحدّثها عن دير المطلّ.

قال :

– دير المطلّ أخت المهديّه التي لا تعرفها . أدعوك لزيارتها في أيّ وقت . تحبّين الضيعة؟

– أوّل شيء نختلف عليه . سجّل : لا أحبّ الضيع.

– أعتقد أنّنا سنختلف على أمور كثيرة . أنا أحبّ دير المطلّ . لماذا لا تحبّين المهديّه؟

– حتّى في مدينة كصيدا لا أعيش ولو عادت لعزّ الفينيقيّين!... في المدرسة كنّا حزبين : الحزب العربيّ والحزب الفينيقيّ . الفينيقيّات والعربيّات . مرّة علا الصراخ بين العربيّات والفينيقيّات وتماسكن بالشعور . جاء المعلّم وفصل بينهنّ بعد جهد جهيد.

– من أيّ حزب كنت؟

– كان عمري اثنتي عشرة سنة. لمّا دخلنا الصفّ رفعت إصبعي: أستاذ، أقدر أن أسأل سؤالًا؟
– تفضّلي – أستاذ، ما الفرق بين الفينيقيّ والعربيّ؟ فأسكتني. وما أزال حتّى اليوم أبحث عمّن يجيبني.
– لن تلقي من يجيبك.
– وأنت أبو السياسة ماذا تقول؟
– أقول إنّك تهتمّين بالسياسة قبلي. ترين أنّها في دمك منذ كنت صغيرة.
– والعربيّ والفينيقيّ؟
– لبنانيّان أحدهما أغبى من الآخر. ولكنّك تعلمين أنّ السؤال كان له زمان. صرنا إلى زمان مختلف وعقائد سياسيّة لا عدّ لها بين يمين ويسار. هذه العقائد لا لزوم لها. يجب وضعها كلّها على الرفّ. سؤال واحد مطروح علينا في هذا الوقت. تطرحه إسرائيل: هل نكون أو لا نكون؟ وتريدين أن لا تهتمّي بالسياسة؟
– وما دخل الطلّاب في السياسة؟ حدّثني عن دير المطلّ لماذا تحبّها إلى هذه الدرجة؟ وما شأن ابن النبطيّة في دير المطلّ؟
– سياسة. في حبّي لدير المطلّ كلّ السياسة، وإلّا لما كان له معنى. أمّا ابن النبطيّة في دير المطلّ فسياسة فوق سياساتنا كلّها. كما أنّ حكاية حسيب المبيّض فوق كلّ الحكايات. اسمعي.
ومضى في السرد...

تميمه مأخوذة بما تسمع. كان هاني يتكلّم بحرارة يرطّبها بين الحين والحين بنوادر دير المطلّ وطرائفها. عمرها تميمه لم تسمع مثل هذا. وسرت من هاني إليها حرارته فهي تودّ أن تتعرّف إلى المعلّم حسيب، وإلى الأب أندره، وإلى مختار دير المطلّ، وإلى الدير وسنديانة الدير. أكثر من ذلك – وغرست عينيها مرّة أخرى في عيني هاني – تودّ لو تثب إليه وتقطف ابتسامة عينيه بقبلة. ولكنّ هاني كان قد عطف بالحديث إلى طفولته فذكر لتميمه أنّه تعلّم الألفباء تحت السنديانة نفسها. فهتفت تنفّس عمّا يجيش في ص...ها بالضحك.

– خرّيج سنديانة دير المطلّ!
– في العلم وفي الحبّ. في عبّ السنديانة كنّا نختبئ أنا وليندا.
– من هي ليندا؟
– كنت أحبّها وأنا صغير وكانت تحبّني. لم أكن صغيرًا جدًّا كما تتوهّمين. كنت في الثامنة على الأقلّ وكانت من عمري.
أثارتها الحكاية بمثل الكيّ.
– وبعد؟ قُل لي.
– هذا كلّ شيء. كنّا نلعب معًا. من الجملة لعبة العريس والعروس في عبّ السنديانة.
– وبعد؟
– انتقلتُ إلى مدرسة الفرير في بيروت. ثمّ، كما ترين، إلى الجامعة اليسوعيّة. تعالي الآن نسبح.
وما كاد ينهض حتّى أحسّ بيد تربّت على كتفه من الوراء فاستدار:
– أهلًا بالدقتور! تعالَ أعرّفك.
ونظرت تميمه وهي تمدّ يدها إلى هذا الذي يرحّب به هاني، فهالتها ضخامة رأسه وعينان له عظيمتان قاحمتان بالرجولة، إلى براءة تترقرق فيهما أقرب إلى الوحشيّة. وأبى هاني إلّا أن يدعو صاحبه إلى الجلوس، على انزعاج من تميمه أخفقت في كتمانه. ولكنّها لم تلبث أن أنست بالدقتور بعد أن فرغ هاني من ديباجة التعريف: قاسم الهلال، رفيق قديم في مدرسة الفرير، حامل الشهادتين: دكتور بالفيزياء من الجامعة الأميركيّة، ودقتور بالقاف من قرنايل.
قال قاسم ضاربًا على رأسه:
– مسقط هذا الكنفوش.
أردف هاني:
– أعندُ الكنافيش في حزب الأصحاب.
وسألت تميمه ناظرة إلى هاني ما حزب الأصحاب هذا؟ فقال قاسم:
– يجب يا آنسة أن تعرفي قبل ذلك ما معنى

الكنفوش. هذه كلمة يجب أن تدخل في القاموس.

ومضى مفسّرًا:

– الكنفوش هو الرأس من رؤوس الصنوبر إذا كان يابسًا ومفلّجًا وفارغًا. أمّا حزب الأصحاب فأترك شرحه لهاني.

– الآنسة لا تهتمّ بالسياسة كثيرًا. لذلك لا داعي للعجلة. نشرح فيما بعد. قُم اخلع ثيابك والحق بنا إلى البحر.

أحبّ هاني أن ينتظر الدقتور. فلمّا أقبل لم تتمالك تميمه من الدهشة للشعر الفاحم الكثّ الذي يكسو صدره فأدارت وجهها حياءً وتهيّبًا ومشت إلى الأمواج. كانت تجيد السباحة فغابت منسابة إلى مسافة بعيدة. ثمّ طلعت تردّ شعرها وتهتف وقد خُيّل إليها أنّ هاني وراءها:

– قُل لي: ليندا. أين ليندا الآن؟

وتلفّتت حواليها:

– هاني! هاني!

وتنبّهت إلى أنّها تناديه باسمه مجرّدًا لأوّل مرّة.

وراعها إذ جاءها الجواب من قاسم أنّه «هو – أي قاسم – من حيوانات البرّ» أمّا هاني – وأشار بيده إلى الأفق – فكان قد ابتعد شاقًّا بذراعيه العباب. فوضعت رأسها واندفعت إليه.

٥

تعدّدت اللقاءات بينهما.

ذات ليلة أفاقت تميمه على نفسها تبكي.

وطال أرقها، فقامت إلى طاولتها فتناولت جزدانها وأخرجت منه دفترها اليوميّ وكتبت:

«٢٠ تشرين الأوّل – هل أحبّ هـ...؟ – ولكن لماذا أخاف أن أسمّيه؟ لقد ناديته باسمه على البحر. وسمعني البحر والأرض والسماء».

وتوقّفت، ثمّ أخذت تقلّب في الدفتر. مذكّرات! يا للكلمة الكبيرة! لا. ليست هذه مذكّرات للنشر. ليست لأحد. هي لها وحدها. ولذلك سمّت دفترها، كتبت عليه: «دفتر الخرطوش». إنّما هي تخرطش. تخرطش. هكذا بلا معنى.

كانت ما تزال في السرير عندما دخلت عليها الستّ روز. قالت إنّها انتظرتها أمس إلى ساعة متأخّرة لتبشّرها:

– حضرت الوظيفة!

وأبلغتها أنّ البك يستقبلها في المكتب صباح اليوم، الساعة الثامنة والنصف، قبل أن يكثر المراجعون.

وأعطتها عنوان المكتب.

وصلت تميمه في الموعد فوجدت المراجعين سبقوها، تدلّ قيافة أكثرهم على أنّهم من البقاع، وهم ينحنون للبك – «هم أيضًا يأبون إلّا أن يكون بكًا. العبيد في حاجة إلى بك ولو غصبًا عنه!» – على أنّ غضبها هدأ إذ نهض الأستاذ الجردي لمصافحتها، وأشار إلى الجماعة ففسحوا لها. قال:

– إخواننا في المنطقة. يجب أن نهتمّ بمشاكلهم.

«أهي أعظم هذه المشاكل؟» كلّ الوجوه استدارت إليها. والأستاذ الجردي يرحّب بها، ولا يكاد حتّى يتناول من دُرجه بطاقة ويأخذ في الكتابة، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الحديث، يعتذر لديها عن الوظيفة، فالوظيفة في نقابة عمّال المرفأ. ضاربة على الآلة الكاتبة في نقابة عمّال المرفأ.

وخامر تميمه شعور من الضآلة وهي تغرق في المقعد الجلديّ الثمين المواجه للمكتب.

– «السيد بهجت عمّار الأمين العامّ لنقابة عمّال المرفأ».

كتبها على غلاف البطاقة وهو يرفع بها صوته.

– رجل طيّب. حدّثته عنك. ثلاثمائة ليرة في الشهر. الشغل مريح. ساعتان أو ثلاث في النهار. ضرب على الآلة الكاتبة.

ولم يسألها رأيها. دفع إليها البطاقة وقام يشيّعها إلى الباب. كان بودّها أن تردّ له البطاقة، أن تعترض على الوظيفة. ولكنّه لم يدع لها مجالًا.

– آنسة تميمه!

فالتفتت إليه. قال:

– لا شيء. لا شيء.

ثمّ أردف خافضًا بصره:

– موفّقة يا آنسة تميمه.

أيّ توفيق هذا؟ وما هذه الوظيفة الشريفة في جمعيّة عتّالة البور؟

هاني لم يكن من رأيها.

– أما قلت لكِ سنختلف في أمور كثيرة؟

وجعل يعدّد لها فوائد التحاقها بالمؤسّسة المذكورة. إنّها تجربة ثمينة، قال، بما تحمل من التعرّف إلى حياة هذه الفئة الكادحة من الشعب، وإلى شؤون النقابات في البلاد وقد شملت المهن كلّها وتعاظم نفوذها، فضلًا عن أنّها ستتيح لها الاطّلاع على مطالب العمّال وعلاقاتهم بأصحاب العمل. وربّما كانت في النتيجة أجدى لها من أيّ وظيفة أخرى وأدعى إلى شكر المحامي.

الشكر؟ توجّهت به تميمه إلى الأستاذ أكرم الجردي بعد أسبوع من مباشرتها العمل. كلمة لم تشأ أن تكتبها إلّا عن اقتناع. فبالرغم من قصر المدّة تسنّى لها أن تتبيّن أيّ عالم تدخل فيه. ومنذ اليوم الثالث استحصلت من الأمين العامّ، وقد كسبت ثقته على الفور، على حقّ الاطّلاع على ملفّات النقابة وراحت تقضي من مسائها ساعات مقلّبة في الأوراق، واجدة فيها متعة لم تكن تخطر لها ببال.

كان هاني قد عاد إلى دير المطلّ لقضاء ما تبقّى من العطلة. أسبوع، قال، لوداع موسم الصيف والأصحاب الصغار. واكتفى من شرح حزبه أنّه يضمّ أصحابًا كبارًا وصغارًا.

– أكبر الصغار في دير المطلّ في الثانية عشرة: قيدوم. سأعرّفك عليه، هو رئيسهم، أما وعدتني بزيارة لدير المطلّ؟

كانت هي أيضًا تحبّ الصغار. وأخبرته أنّها بدأت، في اليوم الذي سجّلت فيه اسمها في دار المعلّمين والمعلّمات، بطرف من رسالتها مع زنّوب:

– زنّوب قيدومة هي الأخرى. رئيسة ينبغي أن تكون. لو ترى كيف تلتهم الحروف!

وكانت قد انعقدت بين تميمه وزنّوب، على تفاوت السنّ، علاقة من هذه العلاقات الحلوة التي لا تعرفها إلّا البنات. فكانت زنّوب تجد أطيب السرور في تنظيف غرفة تميمه وترتيب سريرها، وتميمه أطيبه في الانحناء عليها وتعليمها مبادئ القراءة والكتابة.

أبت روز إلّا أن تقيم مأدبة أخرى للبك:

– على شرف الوظيفة الجديدة. يا مدموازيل تميمه.

وحُدّد للعشاء يوم انقضى كأخيه بالاستعدادات. ولكنّ تميمه أمضت صباحها خارج البيت ولم ترجع إلّا بعد الظهر. ولدى دخولها إلى المطبخ للمعاونة شاهدت رجلًا بكوفيّة قابعًا على كرسيّ في الزاوية، ما وقف لسلام ولا تحرّك، مع هيئة زريّة وعصا بين فخذيه يغفو عليها. نتقت روز برأسها تقول لتميمه:

– والد زنّوب.

كانت الخادمة تجلو الصحون. فسألتها تميمه منذ أيّ وقت لم ترَ والدها.

– سنة! (أجابت عنها سيّدتها) يأتي كلّ سنة مرّة لقبض «الثمن»: أجرة السنة سلفًا. بدأنا بخمسمائة ليرة، صرنا بألف، وبعد الألف الله العليم.

وتناولت حبّة من حبوبها وغمغمت:

– قلنا له تشرين الأوّل، لم نقل له هذا اليوم وهذه الساعة والشغل فوق رأسنا!

وأحبّت أن تسرّي عن نفسها فعادت إلى حديث

الوظيفة ، واستطردت منه إلى يدَي تميمه الناعمتين. لماذا لا تزيّنها بأسوارة ليزيد حلاهما؟ فتجيب تميمه أنّها غير مولعة بالحلى. تكتفي من الزينة ، إذا كانت هذه زينة ، بالساعة في معصمها...

متى يقوم راعي المعزى؟... وشخير أيضًا؟ قبض. وأكل. وشرب. ماذا ينتظر؟

– تصوّري. أنا أشتري لزنّوب كلّ شيء. لا يعطي بنته من الألف ليرة قرشًا.

– صحيح ، يا زنّوب؟

كان السؤال من تميمه. ولكنّ زنّوب لم تجب. استدارت إلى أبيها فأيقظته وأفهمته أنّ الستّ مشغولة كثيرًا اليوم. فتثاءب ونهض ، ومشت وراءه إلى الباب. ليس من عاداتها الوداع. لعلّها تريد أن توصيه بشيء لأمّها.

– ذكيّة الملعونة! كان ينقصها العلم. جئت لها يا مدموازيل تميمه من الله. عندك صبر. أتسمّع عليك من الدار تعلّمينها الألفباء وأراقبك تمسكين يدها بالقلم. وزنّوب لا تعود.

– ما هذا الوداع الطويل؟ ومن أين لأين هذه العواطف؟ يجيء ويروح لا يحسّ بها ولا تحسّ به. أنا علّمتها أن تبوس يده وتطلب رضاه. رضا الوالدين من رضا الربّ. وصرختُ به: «ما تبوس بنتك»! بالكلفة يمسح شواربه بخدّها.

وإذا بصوت يزعق على الدرج. صوت زنّوب بالبكاء! فهرولت روز وتبعتها تميمه.

كان الرجل ينهال على الصغيرة بعصاه وجلال الكرش يحاول ردّه فلا يرتدّ ، وقبل أن تصل روز وتميمه إليه كان قد رفسها بمداسه فراحت تتقلّب على الدرج حتّى الطريق ، تنهض مضرّجة بالدم ، تثب ، تلاقيه ، تصيح:

– أُقتلني! موّتني! الموت أحلى لي.

بادرت تميمه تحضنها ، فيما كان الأب ينزل السلّم ملوّحًا بعصاه بوجه ابنته ، موصيًا الستّ بأن لا تعاملها إلّا بمثلها. وتميمه تحاول إيقاف زنّوب على رجليها ، تسألها ما الخبر ، تدعوها للطلوع لتضميد جرح كبير في رأسها وآخر في ركبتها ، وهي تأبى وتتمرّغ بأقدام المتعاونين عليها.

– قومي يا زنّوب!

– أنا زنّوب أنا؟ أنا عنزة ، عنزة أنا! أتركوني. العنزة أحسن منّي ألف مرة!

حتّى خُيّل إليهم أنّها جُنّت. والكرش يخبر أنّه خرج من مكتبه على الصوت ، لم يفهم شيئًا. سمع الرجل يصرخ وهو يرفع عصاه على زنّوب: «أسوارة! أسوارة؟!» وعيناه تطيران من وجهه. وعيل صبر روز فأمرت الكرش فحملها بالقوّة إلى البيت وهي ما تنفكّ:

– عنزة! أنا عنزة! قولوا له يرجع ويذبحني على الدرج.

ولم تهدأ في النهاية إلّا على يد تميمه بعد أن ضمّدت لها جراحها وأضجعتها على الصوفا عندها في الغرفة. حينئذ فقط وضح الأمر. لقد طلبت زنّوب من أبيها أن يشتري لها أسوارة – «أسوارة صغيرة» – من أصل «ثمنها» الذي صار هذه السنة ألف ليرة. فطار عقله. «بثمن الأسوارة ، قال ، أشتري عنزة!»

٦

تعكّر مزاج الستّ روز ذلك المساء. وانقضى العشاء باردًا – قلبها كان دليلها – فقد جلس أكرم الجردي إلى قنّينته حسب العادة ، ولكنّه لم يشرب إلّا خمسة أو ستّة كشتبانات ولم يضحك إلّا مرّتين أو ثلاثًا ، وبالغصب.

ولمّا ألحّت عليه روز بأن يفصح عن همّه توجّه بالجواب إلى تميمه متأنّقًا:

– «ولو كان همًّا واحدًا لحملتُه...»

قال إنّ جماعة شوكت بك اليغموري قتلوا أحد أبناء عائلة الجردي قبل شهر ، وأُلقي القبض على القتلة بالجرم المشهود. وإذا خبر يصله اليوم أنّهم هجموا على حارس السجن فكمّوا فاه وأجبروه على فتح الباب ثمّ ضربوه بالحديد على رأسه وتركوه بين الموت والحياة وأركنوا إلى الفرار مع القتلة.

وأعقبت تميمه بسرد الحادث الذي جرى لزنّوب فربطت بينه وبين جريمة اليغموريّين المزدوجة ، وأفاضت في الكلام عن الأوضاع المتخلّفة في عكّار والجنوب على السواء.

الخلاصة انقضت السهرة في السياسة والمصائب. وجه راعي المعزى كان نحسًا. هكذا كانت تقول روز لنفسها. وأكملت ابنته النحس فجلبت لها العنزة إلى البيت تتمرّغ على الدرج وتلمّ الجيران.

قبل أن تقوم تميمه إلى غرفتها طلبت الإذن لزنّوب أن تنام على الصوفا عندها هذه الليلة. فلم تجد روز مانعًا. وزادت فدخلت تطمئنّ على زنّوب وتحاسن تميمه مؤكّدة لها أنّ البك سيكسر أكبر رأس في اليغموريّين.

كان على تميمه أن تذهب من غد إلى المهديّه في زيارتها الأسبوعيّة لأمّها كلّ أحد. ولكنّها لن تترك زنّوب في هذه الحال. ستبكّر إلى كاراج صور وتبعث إلى أمّها بخبر.

نامت زنّوب أسعد ليلة في حياتها.

نسيت جراحها والعصا والأسوارة فما تفكّر إلّا بأنّها نائمة مع تميمه في غرفة واحدة ، وبأنّ تميمه باقية إلى جانبها من غد طول نهارها. وبالرغم من أنّ اللحاف ظلّ يعلو ويهبط بجهشها فقد كانت لا تصدّق سعادتها.

فتحت أجفانها في الصباح ونظرت إلى سرير صديقتها فرأته فارغًا. متى خرجت تميمه؟ ولكنّها لن تتأخّر - هكذا قالت لها في الليل - وألقت اللحاف فوق رأسها لإغفاءة أخرى تقتل بها الانتظار. وما كادت حتّى نبّهتها جلبة في الطريق ، جلبة هذه الساعة من كلّ يوم ، تعرفها زنّوب من صوت الزبّالين وهدير كميونهم.

ركعت على الصوفا وأطلّت من الشبّاك تنظر إلى أصناف ما يجمعون من صناديق موضوعة أمام الأبواب وأوراق ونفايات يكدّسونها ثمّ يقلبون كل ذلك على ظهر الكميون ، وقد وقف عليه كبيرهم وبيده قضيب ينكت به الأكداس ، لعلّ فيها متاعًا ما يزال يصلح ، أوحلية منسيّة ، أو محفظة ضائعة... زنّوب لم تخترع ذلك. فقبل يومين شال ديكهم هذا برأسه وتلفّت يمينًا وشمالًا ليطمئنّ إلى أنّ أحدًا لا يراه - رأته هي - ثمّ انحنى فالتقط شيئًا يلمع ودسّه في جيبه ثمّ ارتدّ يمسح شاربيه وينهر الآخرين بصوت عالٍ ليخفي لقطته.

ولكن ما باله اليوم يلعن هذا الصباح وكلّ بسينات الدنيا؟

واستوت زنّوب متمسّكة بحديد الشبّاك ، فإذا واحد من الذين على الأرض يقذف إلى الكميون بعلبة من الكرتون فيها أربعة ، خمسة ، بل سبعة جراء ، تنوء بأصوات حادّة ، متململة. وهي ترتدّ من بعض إلى بعض ، فيها الأسود والأبيض والأشقر وذو اللونين والثلاثة. ودّت زنّوب لو تمدّ يدها إلى واحد منها وتأخذه لها. بل لقد همّت بذلك وكادت تهتف أن «اعطوني هذا الأشقر!» وتطعمه وتسقيه وتضجعه إلى جانبها. فإذا الرجل يرفع قدمه ويمعس العلبة بجزمته ويهيل عليها الزبالة. فعضّت شفتها تختنق صرخة. وأقبل الكرشر رافعًا بيديه الاثنتين كيسًا من الجنفيص فيه شيء يتخبّط :

- لقطتها الملعونة! لحّقوها بأولادها!

فتناول عالي القوم الكيس وحطّه.

- ضبّ عليها! ضبّ عليها! (زعق الكرش).

ولكنّها كانت قد أفلتت ، وكالبرق نطّت من السيّارة إلى الطرف الآخر من الطريق ناجيةً بجرو من جرائها - أشقر - أهو الذي كان في العلبة أم أخ له كان معها في الكيس؟ وخفق قلب زنّوب بالغبطة ، تشمت

بمن هم فوق ومن هم تحت ومعهم جلال الكرش يركضون وراء البسينة ، يتعثّر هذا ، يصيح ذاك ، يلوّح الثالث بيديه. اختفت بصغيرها. بلعتها الأرض.

تُرى ، أين ذهبت به؟

كيف يصنع ما تبقّى من الجراء حيًّا؟ هل على الشاطئ حيث يرمون الزبالة مكان تأوي إليه البسينات الصغار؟

كان الكميون قد انصرف بجماعته. فألقت زنّوب بنفسها على الصوفا... وفجأة فطنت إلى أنّ الدنيا نهار ، فقامت وحملت لحافها إلى مكانه المعهود في المطبخ فرصفته فوق الفراش – لم تحتج للفراش ليلتها – وفي عودتها لاح لها في مرآة المغسلة التي على جانب الحمّام رأسها الملفوف بالرباطات ، فطلع لها البكاء من جديد.

كانت الستّ روز تنام الضحى تاركة لخادمتها أن تقوم على التنظيف والترتيب. وفيما كانت زنّوب منصرفة إلى عملها فُتح الباب. ولكن فرحتها بعودة تميمه قد غلبها شيء لم يكن في الظنّ. فما كادت تميمه تجتاز العتبة حتّى كانت قد سبقتها – منسلّة بين قدميها – البسينة ، إيّاها ، وفي فمها جروها الأشقر. ولاصت في الدار بين الفتاتين تنقّل عينيها الخضراوين هنا وهناك كأنّها تسأل عن ملجأ... هادئة. لا تركض. لا تلهث. وزنّوب ترفع يدها إلى تميمه بالانتظار. فإذا البسينة تعتزم أمرًا. تدير وجهها وتمشي بحملها الثمين من الدار إلى الممشى الضيّق إلى المطبخ ، وزنّوب وراءها ، حتّى وصلت إلى الزاوية فدخلت بين الفراش واللحاف. فبادرت زنّوب إلى إقفال باب المطبخ وركضت إلى صديقتها تصفّق بيديها عاليًا وتحكي لها الحكاية العجيبة.

بقي إقناع الستّ ، إذ تفيق ، بالحياة مع البسينات وجرائها تحت سقف واحد. كانت زنّوب تعرف كرهها لهذا الجنس ، ولعلّ جلال الكرش لم يتطوّع لما تطوّع له من إبعاد البسينة وقطع نسلها – وكانت تحتضن صغارها في مكان ما خلف الدّرج أو في القبو ما في ذلك شكّ – إلّا عملًا بما يعرفه من مزاج ربّة البيت.

ولكنّ تميمه أعلنت أنّها ستتولّى الأمر. «البسينة لها هي ، والجرو لأمّه». فأُعجبت زنّوب بالحلّ.

وانصرفتا معًا إلى تدبير مكان صالح للّاجئة وصغيرها.

٧

بعد الظهر فوجئت روز خوري بدقّ الباب. كانت زنّوب في غرفة تميمه لأمثولتها اليوميّة ، فرأت أن تتركها لألفبائها وذهبت إلى الباب تتساءل من الزائر الكريم في مثل هذه الساعة.

– أوديت!

وانبرت ترحّب بـ «المفاجأة الحلوة»!

هذه الزيارة لا تعجبها. قالت أوديت إنّها طلعت لفنجان قهوة. وتقتحم الباب ، على وجهها خبر اجتهدت في إخفائه فتفضحه ، وهي تكرج من الممشى إلى الدار أمام روز ، مشية لها تكاد تمزّق ثوبها الضيّق من غيظ. رأت ذلك روز ورأت بالون الشعر المستعار على رأس أوديت يندفع صعودًا كأنّه يتحدّى الأجواء. وعبثًا تقول أوديت وتكثر الشرح أنّها كانت في سينما الحمرا وأنّ الرواية كانت كذا وكذا. روز ليست أمام الأولى من بنات جنسها وقد قلّبت أوديت وجهًا وقفا وتعرف رواياتها. لأمر ما تزور بدون علم ولا خبر.

وأحسّت أوديت في عينَي روز حذرًا ، فارتمت على المقعد متكلّفة الاطمئنان وشبكت ساقًا بساق – وضعها المفضّل لإبراز نحافتها وانسكابها – وأخرجت من جزدانها منديلًا تمسح العرق عن نحرها وتتأفّف من الحرّ ، وهي خلال ذلك تجيل عينيها السوداوين المتجهّمتين في كلّ صوب – روز تعرف عن أيّ شيء تبحثان – وتنذران بالشرّ.

ولبثت الاثنتان هكذا ، تتدارسان باللفتة خطفًا ،

والحركة خلسًا ، مع ابتسامات ومجاملات لم تشكّ كلتاهما أنّها مراسم المباراة التي ستخوضانها.

كانت أوديت هي التي أعطت الإشارة :

– عندك أخبار عن جابر نصّور؟

جابر نصّور! آخر هموم أوديت. ليلة وانطوت صفحته. ومن أين لأين؟ جابر نصّور الآن في دنيا ونحن في دنيا.

– لا أحد يعرف شيئًا عنه بعد سفره ولا كيف تدبّرت القضيّة (وهزّت برأسها) المال دبّار كلّ شيء. رنّ الفلوس تحضر العروس. وتحضر البراءة لأكبر مجرم. وأيش عمل تامر نصّور؟ هرّب؟ تشرّفنا. المهمّ أن يعرف ابنه أين ينفع الرنين.

وتضاحكت روز. فتلقّتها أوديت بوقار الوعّاظ :

– لا تؤمنين إلّا بالفلوس. في الدنيا أشياء أخرى ترنّ.

– مثلًا؟

فمالت أوديت إلى عبث خبيث :

– مثلًا القلوب. أنا أسمع رنّاتها رنّة رنّة ، وأعرف الرنّة الصحيحة من الرنّة التي فيها خنّة.

فتأوّهت روز عاليًا :

– كانت أيّام. أتكلّم طبعًا عنّي. أنت في عزّك. الله وكيلك أنا عائشة في الطرش منذ وقت هذا.

وأشارت بعينيها إلى الصورة على الحائط فوق رأس أوديت.

لم تلتفت أوديت.

كانت تعرف القصّة ، وهي ليست مستعدّة لسماعها من جديد. فهذا المعلّق بالحائط – بعين الرائح والغادي – هو آخر من أحبّته روز في سجلّ من أحبّتهم من الرجال. تركها ليتزوّج بنت عائلة من طرابلس ، وبمالها فتح صيدليّة في طرابلس. – «العروس رنّت الفلوس هذه المرّة فحضر العريس» – هكذا صحّحت أوديت في ذهنها مثَل روز. روز دعتها يومًا إلى مرافقتها في تكسي من تكسياتها لنزهة إلى طرابلس ، ودخلت الصيدليّة بحجّة حبوبها. كلّ شهر مرّة على الأقلّ تذهب إلى طرابلس ... لحبوبها! ومع كلّ حبّة تتناولها تعاودها ذكراه.

حتّى في هذه اللحظة ، وهي تشير بعينيها إلى صورته ولا تجسر أن ترفعها ، يطلع لها الدمع. لاحظت ذلك أوديت وتساءلت : «أتبكي روز حقًّا أم تغيّر الموضوع؟»

الواقع أنّ روز نفسها لا تعرف.

ولكن ، سواء أكان الأمر صحيحًا أم تمثيلًا فأوديت غير روز. إذا كان في يدها ما تكمشه فهي تكمشه ، وتخنقه ولا تفلته.

– والأستاذ رمزي؟

الأستاذ رمزي أبعد وأبعد. «مجنون» تقول عنه أوديت. ويوم الحكم عليه ملأ صوتها الدار : «لو كنت القاضي لحكمت عليه بالمؤبّد مع الأشغال الشاقّة». لا تطيق صورة وجهه ... أمّا الآن :

– وماذا عمل رمزي رعد؟ قال الحقيقة. قلمه من ذهب. أكرم اتّفق معه على سلسلة مقالات ضدّ اليغموريّين. زاره في السجن وتمّ كلّ شيء. وعندما يطلع رمزي يطلع رأسًا مع أكرم إلى البقاع ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويكتب. الفكرة فكرتي.

وساد سكوت مزعج.

أوديت :

– غرفة الأستاذ رمزي محفوظة على اسمه؟

روز :

– محفوظة.

عيل صبر أوديت. فوقفت عند هذا الحدّ من المداورة. كانت تسمع منذ دخولها حسًّا في الغرفة المقابلة. صوت زنّوب وصوت أنثى أخرى – «هي بلا شكّ!» – فأومأت برأسها إلى الباب ، واضعة روز أمام الأمر الواقع :

– المستأجرة الجديدة ، أخت جابر ، أحبّ أن أتعرّف عليها.

ثمّ :

– وقولي لزنّوب تجيء وتعمل لنا القهوة.

وتفرّست بروز بعينين ظافرتين، فلم يكن بدّ من التسليم. فازت أوديت في الشوط الأوّل. ولم يبقَ إلّا أن تخبرها روز بما حدث لزنّوب مع أبيها ثمّ بتأثّر أخت جابر إلخ... بانتظار الشوط الثاني. وستعلن روز هذه المرّة بدءه.

ولكن من أين تتسرّب أخبار البيت إلى أوديت؟ من أين؟ أوديت تتصرّف تصرّف العارف بكلّ شيء.

وقامت إلى الغرفة فنادت زنّوب.

كانت تميمه مرتدية ثيابها وقد تهيّأت للخروج. فتولّت روز مراسم التعريف بينها وبين الستّ أوديت ودعتها إلى الجلوس للقهوة بإلحاح ظاهر كذبه. على أيّ حال كانت تميمه مستعجلة فشت صوب الباب. وأوديت تشيّعها بنظراتها ثمّ ترتدّ إلى روز وتهتف:

– ما شاء الله!

وانقطعت عن الكلام. لم تتناول من القهوة إلّا جرعة أو جرعتين وقامت فودّعت وقد تحوّل بريق عينيها إلى خمود مخيف.

٨

بينما كانت تميمه تقلّب مجلة «العصور» وقع نظرها على عنوان مثير: «العنزة» بحرف كبير.

أخذت تقرأ.

الخبر، مع التعليق عليه، هو في الحادث بالذات الذي جرى لزنّوب مع أبيها. كلّ التفاصيل: أوصاف الرجل. العصا. الأسوارة. «ثمن» البنت. عكّار. ما عدا أسماء الأشخاص فلم يذكرها الكاتب. رمزي مئة في المئة ولو كان الإمضاء «عين». الكلمات المحرقة كلماته. وسياق الخبر على ما روته هي لأكرم الجردي، فعليه شيء من لهاثها. واضح أنّ أكرم الجردي هو الذي نقله إلى رمزي في سجنه.

أيّ شيء نقله إليه غير ذلك؟

وقصدت من وقتها إلى السجن. فلم تكد تصل حتّى بادرها رمزي من وراء قضبانه:

– اِرجعي واحزمي أمتعتك واتركي بيت هذه القحبة اليوم!

وقذف بوجهها الموائد العامرة التي تُقام في البيت احتفاء بها، وإعجاب أكرم الجردي بالمستأجرة الجديدة. «ثقافتها طبعًا قبل كلّ شيء!» أجل، المحامي نفسه نقل إليه ذلك. وبلغ به الأمر أن سأله: «صحيح أنّها مولعة بكتاباتك؟ إلى أيّ درجة؟» كأنّه يغبطه عليها، أو يستأذنه فيها... وتميمه تحاول أن تعرف منه ما كان جوابه وتجتهد في تبرئة نفسها ممّا علق في ذهنه فيُردف:

– وتتركين الوظيفة من غد!

فثارت لظنّه فيها:

– لن أترك الوظيفة ولا البيت.

وانقلبت راجعة.

ذهبت إلى الشغل. كان عليها أن تضرب تقريرًا عن مكافحة الحشيشة في أوساط عمّال المرفأ دفعه إليها بهجت أفندي وكلّفها أن تصلح لغته قبل ضربه. أكثر من ذلك. طلب منها أن تضمّنه أفكارها وتصوغه من جديد على أن تتلوه عليه غدًا قبل عرضه على مجلس النقابة. وقد ألهتها حادثة زنّوب فلم تستطع العمل في البيت، وها إنّ رمزي يشوّش ذهنها.

كيف تترك الوظيفة؟

وكيف تترك البيت؟

وأحسّت بالجوع –كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر– فدقّت جرسها للحاجب. فنزع أبو العزّ سمّاعة الترانزيستور من أذنه وأقبل لتلقّي أوامر الآنسة. يعيش مع الترانزيستور. لا يعاشر غيره. بلى، يطلب منها الجرائد بعد أن تكون قد قرأتها ويحطّ رأسه فيها

طول النهار، وفي المساء يحملها تحت إبطه إلى البيت.

– صحن فول يا عزيز.

كلّ يوم فول أو حمّص. كلّ يوم سندويش. بالثلاثمائة ليرة في الشهر ماذا تستطيع أن تذوق غير هذا؟ أجل، تردّ عليها الأمثولات الخصوصيّة التي تعطيها في البيوت منذ افتتاح الموسم الدراسيّ مبلغًا مقاربًا، ولكنّه مورد غير ثابت. كان عليها أن تدخل مباراة دار المعلّمين والمعلّمات للحصول على منحة. فاتتها هذه السنة. عمرها لم تفكّر بالمنح. المنح للفقراء. هل خطر لها يومًا أنّها ستصبح فقيرة؟

يا ليت! الفقر ليس عيبًا. «مسكينة في عقلها أمّي! لا تصدّق أنّ زوجها قادر على عيب. من إيمانها به. من إيمانها بالله. تلاحقه بصلواتها وتطلب منه أن ينزل من سمائه السابعة إلى جهنّم أفريقيا ويخلّص لها تامر! كأنّه هو الذي قال لتامر: هرّب وحطّ سمعة بيت نصّور في الوحل، وانسل مع العبدات، واترك لابنك أن ينشأ على تقاليدك ويمشي في صراطك! خُذ جابر الآن. بضاعتك رُدّت إليك. اِحتفظ به. لقّنه ما يلزم. ينقصه التهريب. اِطمئنّ، سيتقنه. أليس الابن سرّ أبيه؟ وتعاونا معًا على تميمه، وأوصياها ألّا تنسى خبز أمّها في المهديّه وزؤان دجاجاتها!»

كانت تمضغ مراراتها مع لقمات صحن الفول وتستطرد: يومًا ما سيعرف هاني بفضيحة أبيها: «بنت المهرّب!»

ماذا لو عرف بعلاقتها مع رمزي! بفضيحتها هي فوق الفضيحة الأخرى.

واعترتها قشعريرة.

هذه الغرفة! هذا البيت! روز خوري! كان عليها أصلًا أن لا تطأ تلك العتبة.

في السهرة، بينما كانت منصرفة في غرفتها إلى تنقيح تقريرها للنقابة دقّت عليها روز الباب ودخلت، على وجهها ابتسامة عريضة وفي يدها علبة مربوطة بشريط. – هديّة، قالت إنّها جاءت باسمها وهي تريد أن تقدّمها لها يدًا بيد.

فتحت تميمه العلبة فإذا فيها ساعة ذهبيّة مع بطاقة «أكرم الجردي المحامي بالاستئناف» فيما تهتف روز إعجابًا. تتناول الساعة، تقلّبها، تتأمّلها. وتأبى إلّا أن تضعها في معصم تميمه. فأشارت إليها تميمه أن «هاتيها»، وأعادتها إلى علبتها ووضعت العلبة على الطاولة.

– السبت سيشرّفنا على العشاء. وعدته بأن تكوني معنا. كريم أكرم بك. لم أعرف في حياتي أكرم منه. ولك عنده منزلة خاصّة. أمّا أنا...

وارتمت على تميمه تحاول عناقها، فأزاحت تميمه رأسها.

– بنتي أنت. مثل بنتي وأعزّ!

وقبّلتها بالقوّة.

٩

مساء السبت جاء أكرم الجردي مع سلسلة الاحتياطات والاستعدادات ذاتها التي اتُّخذت لمجيئه في السابق. الفارق أنّ المائدة كانت هذه المرّة عامرة بأطايب من الطعام أُوصي عليها من أفخم مطاعم الحمرا، مع باقة من الورد في الوسط منسّقة بشكل بديع.

وروز تروح وتجيء. متى تصل تميمه؟ لم تعاون بشيء اليوم. خرجت قبل الغروب لحضور فِلم، هكذا قالت، وتأتي بعد الفِلم.

الساعة التاسعة والربع.

والنصف...

ساورت روز الهواجس. والأستاذ الجردي يكرع كشتبانًا بعد كشتبان. ساكت. ينتظر. الفكرة فكرة

روز. هي التي قصدت إلى السوق واشترت الساعة على ذوقها. وعاد المحامي إلى السؤال بالتفصيل عن وقع الهديّة. متى؟ كيف؟ ماذا قالت؟ فقاطعته روز وقد بدا عليها التبرّم:

– المهمّ قبلت الهديّة. تساوي رأسها. سبعمائة ليرة.

تؤكّد له المبلغ. تبرّئ ذمّتها. لم تقل طبعًا إنّها استطاعت أن تخفضه إلى ستمائة وتضع الفرق في جزدانها. أتعابها. حلال زلال.

وبلعت حبّة من حبوبها. والأستاذ الجردي يدير في ذهنه ثمّ يُفصح:

– أعتقد أنّها عاشقة.

– مَن! رمزي رعد؟ صاحبك الصحافيّ الحافي أحبّت أشعاره الهوائيّة. ما يمنعها أن تحبّ فيك ساعات الذهب وجاهك الذي يساوي ذهب الدنيا؟

الساعة العاشرة. وصلت تميمه.

كانت قد قضت وقتها عند ماري أبو خليل. ما أجمل هذه الشقّة التي تعيش فيها! دار وغرفتان ومطبخ في بناية ظريفة نظيفة. وحرّة فيها مستقلّة... أخبرتها كلّ شيء: روز خوري، الأستاذ الجردي، الوظيفة، الساعة، والعشاء الذي ينتظرها. وعند هذا الحدّ توقّفت. بلى، لم يسعها إلّا أن تبوح لها بأنّها عاشقة. عاشقة حتّى الجنون. مَن؟ لم تذكر لها الاسم. «فيما بعد. فيما بعد. وسأعرّفك عليه».

ووافقتها ماري على قرارها. لم يبقَ إلّا التنفيذ.

دخلت تميمه حاملة العلبة بيد ومحفظتها باليد الأخرى. وقبل أن يهبّ أكرم الجردي للسلام بادرته بالهديّة فوضعتها على المائدة تعيدها شاكرة معتذرة. فوقفت روز مبهوتة تحاول أن تردّ إليها العلبة وتقول شيئًا، ولكنّ تميمه كانت قد أدارت ظهرها، فلحقتها إلى الدار، فانثنت تميمه تزأر:

– والوظيفة فوقها إذا لزم الأمر!

وهرولت لتخبر ماري بما جرى.

وفيما كان البك يسأل الستّ روز عن معنى هذا، وكلاهما تحت الضربة، إذا بجرس الباب يرنّ ومع رنينه المتواصل طرق باليد عنيف متدارك: «أوديت!» صاحت روز.

واستعاذت بالشيطان وهي تقوم.

وفكّر الجردي بالاختباء، ثمّ آثر لكرامته أن لا، واكتفى بالانتقال إلى الدار حيث جلس، وذهبت روز تفتح الباب. وإذا بأوديت تزيحها من الدرب وتقتحم الدار صائحة: «أين هي؟ أين هي؟» والشرر يتطاير من عينيها. وتوًّا إلى غرفة تميمه تدفع بابها. لا أحد. ألعلّه يستضيفها في سريرها هي؟ وانقلبت إلى غرفته – غرفتها، ترمي اللحاف، تفتح الخزانة. فإلى المطبخ، إلى الحمّام، إلى غرفة روز فإلى الغرفة رقم ١ – وكانت روز قد أقفلتها – فهدّدت بكسر الباب، باستدعاء الشرطة! فأقبلت روز وفتحت. فما وقع نظر أوديت على المائدة العامرة حتّى جُنّ جنونها. وأسرعت روز إلى العلبة تريد إخفاءها فما كان من أوديت إلّا أن نترتها منها.

– ما هذا؟

وفتحتها فإذا الساعة الذهبيّة والبطاقة. فكادت تقع مغشيًّا عليها. ولكنّ كيدها كان أعظم. وثبت إلى الدار، الساعة بيد والبطاقة بيد، فوضعتها بأنف عشيقها وصفعته ملء خدّه، وتراجعت تبحث عن روز، وإذ طلعت لها من صوب المطبخ هجمت عليها، ومن أعماق غيظها قذفتها:

– تفوه!

وخرجت.

فيما كانت روز تمسح وجهها وتسجّل لأوديت الشوط الثاني...

ولكن من أين تتسرّب أخبار البيت؟ من أين؟ ومَن هو الجاسوس؟

امتدّ الحديث تلك الليلة في شقّة ماري أبو خليل.

قالت تميمه إنّها عازمة على ترك الوظيفة والبيت. فهدّأت صديقتها من روعها :

– الرجل لم يعمل شيئًا يستحقّ كلّ هذا. لا تعرفين الرجال. الساعة اتّفقنا على إعادتها وأعدتها. أمّا الوظيفة فسنرى. وأمّا البيت فهنا ، لك غرفة ولي غرفة.

وأضافت أن قد خطر لها أن تعرض ذلك على تميمه منذ نزولها إلى بيروت ، وهمّت به مرارًا ، لا تدري لأيّ سبب لم تفعل. وأخذت بيدها إلى المطبخ :

– لنبدأ بتحضير غدائنا لغد.

وفتحت البرّاد.

لمّا أدارت وجهها رأت تميمه تدمع . فتعانقتا. وضجّ المطبخ بالمشاريع ...

لم تلحّ روز خوري على مستأجرتها بالبقاء. لم تجد حاجة لفتح هذه السيرة أصلاً. كان ترك تميمه للبيت متوقّعًا بعد الذي كان. وحمدًا لله أنّ تميمه نجت بنفسها قبل وصول الذئبة.

وانقلبت تردّد ما كانت تسمعه من جلال : «عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم». وتصرّ بأسنانها وتستنزل عليه اللعنات زفتًا وكبريتًا بانتظار الانتقام منه – أوديت لها حسابها على حدة – فالفعلة فعلة الكرش النجس ، ما في ذلك شكّ. ودبّاره عندها.

ساعدت زنّوب صديقتها تميمه في الضبّ على الأمتعة واللوعة تخنقها على هذا الفراق المفاجئ وتخنق في صدرها ألف شيء وشيء تريد أن تقوله – هل تقوله الآن؟ – ولمّا تناولت الإسكربينة ، آخر ما تبقّى في الخزانة ، رفعت عينيها إلى تميمه ، والإسكربينة في يديها ، ثمّ ضمّت الإسكربينة إلى صدرها ضمّة واحدة وانفجرت بالبكاء.

وحينما صعدت تميمه إلى التكسي وراء حقائبها انحنت على زنّوب تقبّلها وتسرّ إليها بشيء. فبرقت عينا زنّوب ، ورفعت ذراعيها تلوّح بهما حتّى توارت السيّارة. وصعدت السلّم ودخلت إلى الغرفة بحجّة ترتيبها ، ولكنّها لم تكن تفكّر بأيّ ترتيب. جلست على السرير حزينة. وأقبلت «أمّ عيون» ، وأقبل وراءها «نمرود» – وهما الاسمان اللذان اختيرا للبسينة وجروها ، الأوّل يعود فيه الفضل لتميمه ، والثاني جاء لزنّوب عفو الخاطر – فقفزا إلى جانبها في السرير.

١٠

كانت تميمه تواظب على دروسها في دار المعلّمين والمعلّمات وتجد في جوّ الجامعة غبطة عظيمة. وكان هاني الراعي هو الوحيد الذي تشاطره أفكار الطالبة وخوالجها ومطامحها. أمّا حياتها الأخرى ، تلك التي في السجن ، فكانت غريبة عنه ، وغريبة عنها هي نفسها إذا اجتمعت به. يلتقيان على شاطئ البحر أو يشاهدان فلمًا ، تختاره غالبًا من هذه الأفلام العنيفة التي تصطكّ فيها بلاهة الحياة بعمى الأقدار. تستمرئها تميمه ويمتعض منها هاني ، فتقول :

– أنا مع الفلم وفيه بكلّ جوارحي ، أعيش حياة أبطاله بمن فيهم المسوخ. ولكنّي إذ أخرج من السينما يخرجون منّي وأعود أنا. رائع أن يعيش الإنسان حياة أخرى ولو ساعة.

وتحدّثه عن عملها في النقابة. عن عتّالة البور ورائحة البحر الممزوجة برائحة العرق والقذر. ومع ذلك ، تقول ، تحبّ تلك الفئة من صعاليك الأرض. تزور أحياءهم وتدخل مطاعمهم. الفول والحمّص وأمّ الفلافل والحشيشة – خصوصًا الحشيشة. يدخّنون الحشيشة طول لياليهم. يأوون إلى مخابئ لهم في أزقّة المرفأ أو في مراكب راسية فيه ، بعيدين عن عيون الرقباء ، والنقابة تكافح الآفة عبثًا ، فيقول هاني :

– هم أيضًا يعيشون الحياة الأخرى.

أو يقصدان إلى محاضرة أو ندوة ، فيكون معهما لمثل هذه الدعوات قاسم الهلال ، وأصحاب آخرون كانت

تميمه تتعرّف إليهم واحدًا بعد واحد : أحمد عدنان – أبو العافية يسمّيه هاني لطفاحها على وجهه – ولطفي الزحلاويّ أبو الحماسة. وأحيانًا لميا شارون. «لميا شارون تصحب أبا الحماسة وعينها عليك !» هكذا كانت تقول تميمه لهاني. فيشيل هاني بحاجبيه ولا يقول شيئًا.

وما أحفل ما كان الموسم بالمحاضرات والمناظرات، والحلقات والندوات !

قال قاسم :

– كالقِدر تغلي بيروت. والقدور على النار في عواصم العرب كلّها. المهمّ ما نطبخ.

وهتف أبو الحماسة :

– منذ حزيران ينحني العرب تحت وطأة الهزيمة. يتراجعون ويتنازلون. يتوسّلون حينًا وحينًا يتهدّدون. يتكلّمون يتكلّمون. ويتضاءلون يتضاءلون. وإسرائيل في سيناء، على ضفّة الأردنّ، على مرتفعات الجولان، في قلب القدس. فوق الرؤوس صيحاتها. وقنابلها من طرف في البلدان العربيّة إلى طرف.

قال هاني :

– ولن توفّر لبنان.

وغرس بصره في الأرض.

– يُخيّل إليّ أن الفدائيّين لا يضربون الصهيونيّين بقدر ما يضربوننا نحن العرب في صميمنا. إنّهم يوقظون ضمائرنا بالرصاص.

هكذا كان يقول. كانت تحبّ الاستماع إليه يتحدّث في السياسة.

تحبّ كذلك أن تستمع إليه يتلو أمثولته في صفّه. تمنّت لو تحضر ذات يوم درسًا في كلّيّة الهندسة في الجامعة اليسوعيّة. ألا يُؤذن لها بذلك؟ أن تجلس إلى جانبه. أولا، بعيدة عنه، في آخر القاعة. غريبة. لا تكلّمه. تكتفي بالنظر إليه. تكتب له ورقة، تلفّها وترميه بها على غفلة. ماذا تكتب في هذه الورقة؟ أيّ شيء. الأشياء التي تخرطشها على رمال الشاطئ. على دفتر الخرطوش... لا تكتب شيئًا. ترميه بالورقة على رأسه كما رماها الأزعر بحجره. وحينئذ يدير وجهه فترى عينيه، فعيناه تبتسمان، والدنيا جميلة، والحياة رائعة...

– وأستاذ اللغة العربيّة عندنا يلفظ الضاد دالًا. يجب أن تحضر معي الصفّ في دار المعلّمين والمعلّمات. يعلّمنا الأستاذ لغة الداد!

– لعلّها كانت كذلك في الماضي ثمّ تطوّرت وانفصلت عن الدال. أو لعلّه يختصر من الأبجديّة الضاد. أو يخفّف من سمنتها.

وتضحك ملء فيها. وتحدّثه عن رفيقاتها ورفاقها.

عن كتبها وعن كلّ الكتب.

عن الشمس والمطر.

عن أبي عزيز اليافاويّ.

– لم أخبرك بغرامي. أبو عزيز اليافاويّ. «أبو مشرشور»، ينادونه على البور، اليافاويّ أبو شرشور.

وجعلت تقصّ عليه القصّة.

– أبو شرشور اليافاويّ عتّال كغيره من عتّالة البور، وكلّهم أبو شرشور، يعني السنّارة الكبيرة المعلّقة برأس الحبل، تلك التي بها يُشكّون الأكياس لحملها على ظهورهم. لماذا يقولون له أبو شرشور دون الآخرين؟ لا أحد يعلم. ربّما لأنّه يلقي شرشوره على صدره ويلقيه الآخرون إلى الوراء. يفضّل هو أن يناديه الناس أبو عزيز. عزيز حاجب النقابة وساعيها وحارسها. أبوه يقول له أبو العزّ، ونحن في النقابة أبو الهول. أنا أطلقت عليه اللقب. غير السلام وأمرك يا آنسة لا أسمع منه. وما عدا ذلك فهو وراء طاولته بباب المكتب، مع الترانزيستور، وعيناه شاخصتان إلى الأفق. – عاشق يا أبا الهول؟ سألته يومًا. فأدار إليّ وجهه الأسمر الهادئ وعينيه الحالمتين، ولم يقل شيئًا.

ذات مساء جاء أبو شرشور إلى النقابة فوقف بالباب. قال إنّه يحبّ أن يكلّمني. كان أبو الهول قد خرج في مهمّة، وكنت وحدي في المكتب. يجب أن

أعرّفك على أبي شرشور اليافاويّ. مارد في قامته، وبشرشوره يشيل ما لا تشيله إلّا الرافعات. كانت عيناه وحدهما تظهران في وجهه نقطتين حمراوين، وسط كتلة كثّة يختلط فيها شعر الرأس بشعر اللحية بغبار الفحم. وثغرة إذا تكلّم فهي فمه، بسنّين بارزتين صفراوين. حافيًا كان. هل انتعل في زمانه، أو انتعل أحد من عتّالة البور، غير ما حاكته السنون في أكفّ أقدامهم؟ وشرشوره يلمع على صدره العريض العاري – قلادة – فدعوته أن يتقدّم ويخبرني بما يريد.

خطا خطوة ثمّ ثانية، فعبقت الرائحة في المكتب:

– أما وعدتني يا أبا عزيز بأنّك لن تدخّن حشيشة؟

فعضّ الشرشور بسنّيه وجمجم:

– من أجل هذا جئت. جئت أخبرك أنّني لا أقدر. لا أقدر أن أترك الحشيشة.

قلت:

– يا عيب! يتركها أصحابك ولا تتركها أنت؟

ضحك بمرارة:

– تصدّقينهم؟ نقلوا الغرزة من قبو الدكّان لخلف العنابر. هذا كلّ ما عملوه ليداوروا الشرطة. يقولون إنّ النقابة عيّنت عليهم جواسيس، ما اكتفت بشرطة الحكومة. يتّهمونك أنّك أنت صاحبة الفكرة. يقولون: من أين نزلت هذه المخلوقة على رؤوسنا؟ يجب أن نتخلّص منها ومن جواسيسها. لا يحبّونك. لا يحبّونك يا آنسة.

– وأنت يا أبا عزيز؟

– أنا أحبّك. ولكنّي لا أقدر أن أترك الحشيشة.

– تقول لي قبل كلّ شيء لماذا تحبّني وبعد ذلك نرى في أمر الحشيشة. تعالَ اجلس على هذا الكرسيّ جنبي وقُل لي لماذا تحبّني.

– أقول لك لماذا لا أقدر أن أترك الحشيشة. الشيء واحد. إمّا هي وإمّا الحشيشة. وهي لن تعود. لن تعود. تفهمين الآن؟

ولمّا قلت له إنّني لا أفهم شيئًا، وإنّني أحبّ أن أعرف مَن هي هذه التي لن تعود، اختنق صوته، وهطلت دموعه تغسل وجهه – لعلّه لم يغسل وجهه قطّ بغير الدموع – وجلس على الكرسيّ وأخبرني.

أخبرني أنّ هذه التي لن تعود، التي من أجلها لا يقدر أن يترك الحشيشة، ابنته. قتلها اليهود نصب عينيه في يافا يوم الرعب من سنة ١٩٤٨. دخلوا بيته، قال، في طرف المدينة بين بساتين البرتقال. مع الفجر دخلوا بعد ذهاب امرأته إلى العين لتملأ جرّتها ومعها أبو العزّ وهو في الثانية من عمره.

– كبّلوني بالحديد، بعد أن هدّدوني برشّاشاتهم، وحاولوا اغتصاب عدلا. كان اسمها عدلا. وكانت ابنة اليافاويّ. لم يقدروا عليها. كانوا ثلاثة من عصابة الأرغون.

وتلعثم أبو شرشور في رواية المأساة واختلطت كلماته بالشهقات. علمت منه أنّهم بعد أن كبّلوه بالحديد وربطوه إلى الباب اقتادوا عدلا خلف البيت. وكان يسمع صراخها ولغطهم. ثمّ علا اللغط ومعه شتيمة كبرى ورصاصة! وبعدها انقطع صراخ عدلا وتلا ذلك قهقهات. وعاد اثنان من الجماعة ففكّا رباطه ودفعا به إلى حيث رأى عدلا مسجاة على الأرض وفوقها الجندي الثالث يريد أن ينال منها ميتة ما عجز عنه الثلاثة وهي حيّة. فاقتحمه يريد تمزيقه فتدخّل الآخران فقذفا برفيقهما إلى السيّارة وراحوا.

– كانت في مثل سنّك، قال لي، وفي مثل قامتك وسمرتك. ولها رأس مرفوع كرأسك. أرى عدلا كلّما رأيتك، ولذلك أحبّك. ولذلك لا أقدر أن أترك الحشيشة.

كان أبو شرشور على حقّ في تحذيري. فبعد يومين، بينما أنا خارجة من المكتب والدنيا بدأت تظلم، إذ لمحت عتّالَين يتبعانني. غيّرت وجهة سيري فغابا عنّي وظننت أنّني أتوهّم، فإذا هما قد لاقياني من ناحية أخرى وطلعا بوجهي. وما كادا حتّى رأيت أبا شرشور ينقضّ عليهما، وكأنّه ينقضّ من السماء،

ويطرحها أرضًا ولم يتركها إلّا بعد أن أشبعها ضربًا ، مقسمًا بالله العليّ العظيم أنّه قاتلها إذا تعرّضا لي بعد اليوم بسوء.

أين كان؟ لا أعلم. كلّ ما أعلمه أنّ أبا شرشور يترك منذ ذلك اليوم عمله ويجلس القرفصاء على درج المكتب لا يفارقه ما دمت في عملي. فإذا خرجت قام ومشى ورائي حتّى أصل إلى محطّة السرفيس وأركب السيّارة فيعود إلى حشيشته.

قال هاني :

– الحياة الأخرى ، قلت لك ، الأفلام السينمائيّة والكتب الروائيّة التي تحبّينها. كلّها حشيشة. رائع أن يعيش الإنسان حياة أخرى. الأروع أن يعيش حياته.

ثمّ :

– حتّى الغرفة التي أسكنها في بيروت ، لأنّها مُعارة فأنا أكرهها. مؤجَّرة ، ليست لي ، ما هي منّي ولا أنا منها.

– عدنا إلى دير المطلّ؟ صحيح أنّك مهندس ، وستبني لك بيتًا في بيروت. بانتظار ذلك أحبّ أن أزورك في غرفتك هذه التي ليست منك ولست منها. تقبلني؟

لم يجب.

أيّ شيء حملها على قول هذه البلاهة؟ حاولت تغطيتها بضحكة ، ولكنّه تجاهل ذلك أيضًا. مضى يقول :

– أحلم باليوم الذي يصير فيه كلّ الناس مهندسين في لبنان وفي العالم. ليس من الضروريّ أن يهندسوا البيوت والعمارات. الهندسة معاونة للخالق.

– حضرة معاون ربّنا !

أسعفها قوله على التغطية فضحكت هذه المرّة عاليًا. وهو يتابع :

– هندسة النفس أوّلًا. ألا تعتقدين أنّ الإنسان مهندس نفسه وباني حياته؟

قال ذلك وحدّق إليها. كانت تلك المرّة الأولى التي لا تبتسم فيها عيناه ابتسامتها. ولم يدعها تقول شيئًا ، وما كانت قادرة على قول شيء. وفجأة :

– تريدين أن تزوريني في غرفتي؟ سنؤسّس اتّحادًا لرابطات الطلّاب في جامعات بيروت الأربع ومعاهدها العليا. تدخلين رابطة دار المعلّمين والمعلّمات. وتأتين لزيارتي بعد انتخابك عضوًا في مكتبها.

١١

حينما خرج رمزي رعد من السجن بعد أن أكمل مدّته ، وعاد ذلك الصباح إلى غرفته في الحمرا ، بادرت روز إلى إخباره بأنّ البك دفع عنه إيجار الغرفة عن الأشهر الثلاثة. فلم يعلّق على ذلك بحرف ولم يجد سببًا للشكر.

كان المال عنده محتقرًا كسائر القيم التي تواضع عليها الناس.

وعلى الغداء الذي أقامه له أكرم الجردي على الشاطئ في اليوم نفسه نوقشت بين الرجلين تفاصيل الحملة على شوكت بك اليغموري ورُسمت لها الخطّة : يذهب رمزي إلى البقاع فيقيم عند أكرم في كفر زروع أسبوعًا يتجوّل خلاله في أنحاء المنطقة ويكتب بما يرى ويسمع. ويضع المحامي بين يدي الصحافيّ سلسلة من الوثائق ويجمعه بطائفة من الشهود. على أن تبدأ الرحلة بعد أيّام ، فقد أضرّ السجن صحّته وبدا تعبًا مرهقًا على الغداء.

في المساء لاقته تميمه إلى المقهى المعتم في الحمرا. كانت قد زارته في سجنه في اليوم السابق لخروجه منه ، واتّفقا على الموعد.

لبثت إزاءه ، شأنها بالأمس ، في المتّكأ ذاته. وهو يجرع الكأس من الوسكي إثر الأخرى بنهم المحروم. وطلب عشاء ولكنّه لم يتناول منه إلّا القليل. يعود إلى الشراب ويقول إنّه افتقد في سجنه هذه القنّينة. أمّا

النساء؟ النساء! – ولم يذكرها هي على التعيين – فإنّه يحتقرهنّ. ويحتقر نفسه. ولا يؤمن بالحبّ.

– إنني ما كتبته إليك عن الحبّ. مزّقيه! أحرقيه!

وقال إنّه تعرّف في السجن إلى أشياء. رأى أشياء وسمع أشياء.

– سأكتبها كلّها.

وسيقول رأيه في الحكومة، في الحكومات، في المحاكم، في السجون والمساجين، وفي حشرات الأرض وديدانها.

– صدّقيني. الإنسان أحقرها جميعًا.

كان في عينيه خلف النظّارتين غمامتان، مع رجفة في شفته السفلى ونقرة من أصابعه على الطاولة كأنّما هو يعالج آلة موسيقيّة ويشدّ أوتارها.

الغيرة، ما في ذلك شكّ. وها هو يحدّق إليها تحديقة ويقذفها بشراراته، تلك التي تحرق، كأنّما هو يدعوها إلى الإقرار.

إلى التعرّي.

فأخبرته عن الوظيفة. أقسمت له أغلظ الأيمان أنّ علاقتها بأكرم الجردي لم تتعدّ نطاق الوظيفة سعيًا إليها وشكرًا عليها. وكانت قد عزمت أن تخفي عنه أمر الهديّة فإذا هي تبوح به تأكيدًا. وأفاضت في موضوع سكنها عند ماري أبو خليل وصحبتها القديمة في المدرسة والصداقة التي تجمع بين العائلتين منذ زمان. ولكنّها لم تذكر دار المعلّمين والمعلّمات ولا الجامعة ولا الدروس من حيث هي، فكأنّ كلّ ذلك عالم آخر لا يعنيه، ولا يغنيها إذا اجتمعت به، بكثير ولا قليل.

كانت تعدّد له ما تعدّد وهي تسمع لنفسها وكأنّها تسمع لشخص آخر، عارفة أنّها تتشاغل بكلّ ذلك عن الحدث الذي ينتظرها، عن الوصال الذي تمشي إليه، هنا خلف المقهى، على بضع خطوات، في تلك الغرفة، في ذلك السرير.

وعرتها رجفة، فأغمضت أجفانها.

التينة خلف البيت في المهديّة، وهي طفلة ابنة عشر سنين، تتسلّق التينة لاحقة ببواكيرها، تقطفها خطفًا وتلتهمها بلعًا. وقد سبق لأمّها أن حذّرتها: إيّاك أن تطلعي إلى التينة! عليها أن تغنم ما تغنمه قبل أن تبغتها أمّها. تمضي في شأنها تصعيدًا، حافية، وعلى مواطئ قدميها ندى الصباح البارد يتحلّب على الأغصان. تزلق قدم وهي تهمّ بغصن بعيد وتتبعها الأخرى على الأثر، فإذا هي مدلّاة في الهواء، وتحتها الوادي الكلسيّ الأبرش، وهي تترجّح فوقه وتحاول أن تحطّ أيًّا من قدميها على أيّ من أغصان التينة فلا تستطيع، وتخور قواها، وتفغر لها الهاوية فاها...

تناديها الهاوية!

سمعتها تناديها: «لو ترخين يديك!» وما هي إلّا أن أرخت يدًا – استجابة للنداء الرهيب أرخت يدها أم هي اليد على غفلة منها خانتها؟ – وإذا هي الآن معلّقة باليد الواحدة، وإذا هي من رأسها في دوار الخذروف، لا تسمع إلّا قلبها المتدافع ولهاثها المتدارك، وعيناها في أشداق الوادي. – «أمّي!» صرخت. وتريد أن تغمض عينيها لئلّا ترى، فإذا عيناها تنفتحان بالرغم منها، كبيرتين تنفتحان، هائلتين تنفتحان، وتبتلعان الهاوية.

لحظة الرعب هذه لكأنّها تعيشها الآن.

أيّ شيء يبعثها ويملأ بها كيانها بعد أن نسيتها دهرًا ولم تفكّر فيها إلّا على سبيل التفكهة بما يحدث للأطفال، والتندّر مع رفيقاتها بما لحقها بعد ذلك – وقد أدركتها أمّها على آخر جهد – من ضرب ونصح، فضلًا عن شماتة أخيها، على أن لا تعود إلى مثلها أبدًا، فالله قد لطف... وها هي تعود.

كان رمزي يصغي إليها وكأنّه هو الآخر في عالم بعيد.

سكت مثل سكوتها.

كان يفكّر بالساعة التي لا يتكلّمان فيها. لا يسمعان ولا يريان.

وبالرغم من أنّها قد وطّنت نفسها ، قبل المجيء ، على التذرّع بعذر من أعذار النساء –كاذب– فقد قامت وراءه ومشت... إلى حيث يريد وتعلم.

دفتر الخرطوش.

في ٢٩ تشرين الثاني – أحسست اليوم للمرّة الأولى بصقيع الموت. رأيت الحبّ ممدّدًا على السرير بلا روح. بشعٌ الحبّ بعد موته ، ككلّ الجثث ، وله رائحتها.

١٢

«طلّاب العالم كلّهم ثاروا. فمتى ثورتكم يا طلّاب لبنان؟»

هذا هو النداء الذي أطلقه رمزي رعد في «الصباح» بعد الإفراج عنه. وتردّد النداء في كثير من الصحف ولهجت به الأندية.

كانت الجامعة اللبنانيّة ، لحداثة عهدها وحاجتها لاستكمال مقوّماتها ، في طليعة المؤسّسات التعليميّة التي نشطت إلى الحركة. فتقدّم الملتحقون بها بمطالب لهم وأعلنوا الإضراب.

وكانت دار المعلّمين والمعلّمات مركزًا هامًّا من مراكز التجمّع وتداول الرأي ، تنعقد الحلقات في قاعاتها وساحاتها ، وتقوم فيها تميمه بدور بارز بعد انتخابها بالإجماع عضوًا في الرابطة وتُطلع هاني على ما يدور فيها. وكانت الحركة في دار المعلّمين والمعلّمات واعية رصينة ، لبعدها عن الأغراض الحزبيّة والمماحكات العقائديّة التي طغت أمواجها في أوساط عديدة من جامعات بيروت ومعاهدها. فالمطالب حيويّة تبدأ بإلغاء قاعدة التوازن الطائفيّ في قبول الطلّاب وتنتهي بتعميم الضمان الصحّيّ ، مرورًا برفع مستوى الأساتذة وإشراك ممثّلين للرابطة في مجلس الإدارة.

وبالرغم من عدالة هذه المطالب تردّدت السلطات في الاستجابة لها ، فألحّ المضربون ودعا بعضهم إلى التظاهر وبعضهم إلى الاعتصام. ولم تلبث الحركة أن اتّسعت ، وسمت أهدافها عن شؤون الدراسة إلى شؤون الوطن وقضاياه الكبرى ، ونظّم الطلّاب سلسلة من المحاضرات دُعي لإلقائها نخبة من أساتذة الجامعات وغيرهم في موضوعات اجتماعيّة وثقافيّة وتاريخيّة ، بينها واحدة عن «الطائفيّة في القديم والحديث» اقترحتها الرابطة بناء على طلب تميمه وحرص هاني على الاستماع إليها.

سألته :

– وأخبار الجامعة عندكم؟

– لم نرَ لزومًا للإضراب. كان هذا رأيي في كلّيّة الهندسة. الأمر عندكم يختلف.

– يظهر أنّ الإضراب سيشمل الجامعات كلّها لسبب أو لآخر.

– نريد أن نعرف قبل أن نضرب لماذا نضرب. أنتم في دار المعلّمين والمعلّمات مطالبكم واضحة وكلّنا معكم.

بعد المحاضرة عن الطائفيّة انتظمت في مقهى الدار حلقة كان اسم الجامعة الأميركيّة يتردّد فيها. الطلّاب يتزاحمون حول طاولة كبيرة بسط عليها أحدهم جريدة (١) وهو يتلو عليهم نتائج تحقيق قامت به مجلّة «أوتلوك» في قسم الأبحاث من الجامعة المذكورة ، فطرحت على الطلّاب في كلّيّاتها سؤالين.

ورفع القارئ صوته :

– السؤال الأوّل : هل أنت مع أو ضدّ الزواج بين أبناء الطوائف المختلفة؟

– السؤال الثاني : هل أنت مع أو ضدّ الزواج المدنيّ؟

هدأت الجلبة وأرهف الجميع أسماعهم فالموضوع خطير. هاجس هو في النفوس منذ زمان ، ولكن هي

المرّة الأولى يخرج فيها إلى العلن ، ويُدعى الجيل بنخبته المثقّفة إلى مواجهته في استفتاء علميّ.

قالت تميمه لآزّة بهاني :

– البحث عند الإخوان في الزواج وفي العواطف القافزة فوق الأسلاك الشائكة ألذّ بكثير من أبحاثنا نحن.

وكان بودّها أن تطرح عليه السؤالين : «وأنت ، ما رأيك؟» ، ولكنّ أحدهم كان قد اقتحم الحلقة وشقّ لنفسه بينها وبين هاني. فحدّجه هاني وفسحت تميمه في المجال متجاهلة الأمر. وألقى الثقيل بكوعيه على الطاولة مسندًا عليهما رأسه ، ثمّ دفع فكّه الأسفل مقاطعًا القارئ :

– الأسماء. الأسماء. ألا تذكر الجريدة الأسماء؟

فأسكته الآخرون مستهزئين واكتفى القارئ برفع عينين ملؤهما الرثاء. وعلت أصوات :

– أكمل. أكمل.

فاستأنف :

– يتبيّن من الأرقام المثبتة أعلاه...

فعاد المتطفّل إلى المقاطعة :

– من فضلك أعد علينا هذه الأرقام.

فتابع القارئ كأنّه لم يسمع :

– ... أنّ الأكثريّة الساحقة من الطلّاب ، ذكورًا وإناثًا ، يؤيّدون الزواج بين أبناء الطوائف المختلفة ، والأكثريّة الساحقة منهم يؤيّدون كذلك الزواج المدنيّ. ولكنّ نسبة المؤيّدين تختلف باختلاف الطوائف.

وهذه هي خلاصة التحقيق :

٨٢,٣٠٪ يؤيّدون الزواج بين أبناء الطوائف المختلفة مقابل ١٨,٦٠ يعارضون.

٧٨،٦٠٪ يؤيّدون الزواج المدنيّ مقابل ٢١،٨٥٪ يعارضون.

وتوقّف قليلًا يترك للسامعين استيعاب الأرقام النسبيّة. ثمّ استأنف القراءة :

– «وهذه الأجوبة مفيدة من حيث إنّها تبيّن موقف النشء من الطائفيّة ومن الأوضاع الراهنة والتقاليد المتّبعة. وهي تعني أن تغيّرًا كبيرًا قد طرأ على الأفكار. وأهميّة هذا التغيّر أنّه صادر عن الأوساط الجامعيّة أي عن النخبة التي ستصنع المجتمع الجديد».

ارتفعت الأيدي بالتصفيق من جانب ، وتبعتها أخرى. واقترح فريق إجراء مثل هذا التحقيق في الجامعة اللبنانيّة وسائر الجامعات والمعاهد العليا في بيروت ، والخلوص من جملة التحقيقات إلى مطالب محدّدة تُرفع إلى السلطات لسنّ قوانين بها. فتصدّى المتحرّش ضاربًا بجُمع كفّه على الطاولة :

– كلّ هذا كلام فارغ!

– بل أرقام. الأرقام ليست كلامًا فارغًا.

– أرقام في الهواء!

– الأرقام لا يمكن أن تكون في الهواء. الأرقام حقيقة رياضيّة.

– الحقيقة هي الرؤوس. أريد أن أعرف الرؤوس التي تدور فيها مثل هذه الأفكار. أريد أن أرى الوجوه لا الأرقام.

– يعني!

– يعني!

وتعالت الأصوات تتحدّاه من كلّ صوب.

– يعني أتناول كلّ واحد من الطلّاب والطالبات باسمه واسم أبيه وأمّه وعائلته وأسأله السؤال. حينئذ أريد أن أرى جوابه.

وانتصب على قدميه. فتململت تميمه تريد الانصراف ، فإذا به يستدير ويشير إليها ، هي ، بإصبعه :

– أنت ، مثلًا ، تميمه نصّور الشيعيّة المسلمة من المهديّه ، هل تتزوّجين هاني الراعي المارونيّ المسيحيّ من دير المطلّ؟

وألقى يده على كتف هاني.

كان واضحًا أنّ المتنطّع يريد شرًّا. وكالغدير يُلقى فيه بحجر ماجت الجماعة حول المائدة واتّجهت الأنظار إلى هاني وتميمه ، وقد همّت هي بالجواب ، فأشار عليها هاني بالهدوء.

– اِرفع يدك عن كتفي!

قالها دون أن يلتفت. هادئًا. ولكنّ الآخر تلكأ.

فمدّ يده ونتر عن كتفه اليد المتطاولة وهبّ واقفًا.

وساد سكوت رهيب.

لم يكن بدّ من اتّقاء العاصفة فقال أحدهم:

– نحن في صدد بحث علميّ لا علاقة له بالخصوصيّات.

وأمّن آخرون. ورأى ظريف أن ينقذ الموقف.

– كان ينقصنا المستر أوتلوك ليجيء ويعمل لنا مشاكل.

وهاني يتفرّس بصاحبه ولا ينبس.

حينئذ قام القارئ عن كرسيّه وأقبل اثنان من رفاقه فتعاون الثلاثة على إبعاد أبي السؤال السمج عن الحلقة. ثمّ عادوا يذكرونه بالتقريع عاليًا ويهزّون الرؤوس.

ولكنّ الحلقة كانت قد أخذت في الانفراط.

وقام هاني وقامت تميمه.

سألها:

– أتعرفينه؟

– حسين القمّوعي.

وأخبرته بخبره. حجّته أنّه ابن خالة أبيها ووكيل أخيها، في غيابه، عن شرف المهديّه!

كان الوقت قبيل الغروب. فعرض عليها نزهة بالسيّارة.

١٣

انطلقا في طريق طرابلس.

وما كادا يخرجان من إنطلياس حتّى لاقتهما أنسام من البحر تدفّئها شمس باهرة. كانت السماء زرقاء بعد أيّام تلاحقت بالمطر والعواصف، ومن الأرض يطلع فوح عجيب، وهدوء لا يقطّعه إلّا هدير سيّارات نادرة، ثمّ تعود الأمواج المتكسّرة على الشاطئ بأنغامها المتوازنة.

سكت هاني عن الحادث فلم يعلّق عليه بكلمة.

عاد إلى مظانّه: دير المطلّ وما يدور حول دير المطلّ. قال إنّ عليه أن يطلع إلى دير المطلّ بعد أسبوع. فالأصحاب الصغار ينتظرونه لتنظيم منهاج الأعياد. وفي ثاني الميلاد يقدّم تلاميذ المدرسة مسرحيّة «فخر الدين وكيوان»:

– تأتين إذا وجّه إليك قيدوم دعوة؟

كان باديًا عليه أنّه غارق في تأمّلاته. سألها في زيارة دير المطلّ كأنّه يسألها في شرب قنّينة كولا، لم يلتفت صوبها ولا أعار الأمر أيّ اهتمام.

كيف لا تلبّي الدعوة من... قيدومه؟

وتابع وقد تكلّف الابتسام:

– معلّم المدرسة هو مؤلّف الرواية. حسيب المبيّض – إيّاه – المسلم الشيعيّ من النبطيّة الذي يعيش في الدير مع الرهبان. كان معه في الدير أيضًا أخوه الصغير محمود، جاء به من النبطيّة ليكون تلميذه. سيأتيك خبر حمدو الذي كان نسخة عن أخيه في عمره... وقع الحادث قبل أسبوعين. نهار الأحد. أيّ نهار حزين!

وسكت هاني مشيحًا بوجهه. ثمّ أشار بيده إلى رابية صوب الشرق عليها تمثال كبير يرتفع في السماء وقال:

– سيّدة لبنان. تعرفينها؟ أو سيّدة حريصا. قلت للمعلّم حسيب: الأحد المقبل نذهب بأصحابنا الصغار إلى حريصا لزيارة سيّدة لبنان. حملنا زادنا ومشينا نغنّي لا نعرف ما كان ينتظرنا في ذلك النهار الذي لن ننساه ما حيينا. لم يذهب معنا المعلّم جان لشغل طرأ عليه. وبقينا نغنّي حتّى وصلنا إلى قعر الوادي، إلى نهر صغير يفصل بين المتن وكسروان، وكان علينا أن نعبره، فشكل المعلّم حسيب ثيابه ووقف على صخر في النهر يمدّ بذراعيه إلى الصغار من التلاميذ ويتلقّاهم على التوالي، فيما سبقت أنا على رأس كبارهم متابعين طريقنا. لم

نبتعد إلّا قليلًا حتّى سمعنا وراءنا صراخًا أنّ حنّا سليمان وقع في النهر والمعلّم حسيب رمى نفسه في الماء لإنقاذه. فركضت وركض مَن كان معي فرأينا حنّا إلى جانب من النهر كالدجاجة المبلولة وهو يبكي مشيرًا إلى حيث هرعنا حول الصخور نتطلّع. فإذا المعلّم حسيب يخرج من النهر وهو يحمل أخاه محمود، ومحمود تلوّح ذراعاه ورجلاه في الهواء، فتعاونّا على جذبهما وبسطنا محمود على الأرض نحاول ردّ التنفّس إليه بوسائلنا، وأرسلنا قيدوم إلى أقرب بيت يتلفن منه لطلب طبيب... ولكنّ محمود كان قد فارق الحياة..

وتنهّد هاني من الأعماق ثمّ استأنف:

– لم يقل لي المعلّم حسيب شيئًا. عرفت أنا وعرفت دير المطلّ من الأولاد تفاصيل الحادث: أبى محمود وحنّا – وكانا رفيقين متلازمين – إلّا أن يجتازا النهر معًا، فتماسكا بالأيدي وزلقت قدم أحدهما فسقطا معًا في فجوة من فجاج النهر الدافق. وبدلًا من أن يهرع المعلّم حسيب لإنقاذ أخيه انتشل حنّا أوّلًا، ولمّا عاد إلى محمود تبيّن أنّه وصل متأخّرًا.

بدا التأثّر على تميمه، فابتسم هاني ابتسامته. تتردّد هذه المرّة بين الزهو والحزن:

– كنت أفضّل أن لا أحكي لك هذه الحكاية. ولكنّ صاحبك القمّوعي...

وتفرّس هاني بتميمه:

– القمّوعي عندكم كالمختار عندنا بقيّة من حكمت بك. من الأتراك. من السنة الستّين. يدعون الطلّاب إلى الثورة؟ هذه هي الثورة التي ينتظرنا لها لبنان. بعد عهد التصادم بين المسلمين والمسيحيّين الذي استمرّ حتّى في ظلّ الانتداب الفرنسيّ، وبعد عهد التعايش السلميّ والتوازن البهلوانيّ منذ الاستقلال، جاء اليوم دور الاندماج بين الطوائف. وشائج الدم التي طرحت مؤسّسة أوتلوك مسألتها علينا. إنّها مسألة لبنان.

وفجأة أوقف سيّارته ونزل، وأخذ بيدها في ملاقاة البحر.

كانت الشمس قد غابت وسرى في الجوّ برد المساء. والهواء يهبّ على شاطئ طبرجا القفر حاملًا رذاذ الأمواج. وفي صدرها تتدفّق أمواج كهذه الأمواج الهادرة وتلاقيها.

ثمّ صكّ الهدير أذنيها، وعصف الهواء يضرب وجهها ويعبث بشعرها. وهاني ما يفتأ آخذًا بها فتندفع صائحة بلا وعي.

وأسراب من النورس تحوم لائصة في كلّ صوب.

أمن خوف تصيح هكذا؟

أم من تحدٍّ؟

أم من فرح يغمرها حتّى الطفاح؟

في فمها طعم البحر خمرًا. سكرى هي، طائرة مع هذه الطيور التي تعلو وتهبط بين الأرض والبحر والسماء، ولها ألف جناح، ومعه ستمضي هكذا إلى غير أين...

ولكنّه يفلتها فجأة ويمضي وحده. قامته تشقّ جلباب المساء فارعة، وخُطى له واسعة تتأثّرها على الرمال اللزجة، وتناديه فلا يلتفت، فتتوقّف وتمدّ بصوتها في وجه الرياح والأمواج:

– هاني! هاني!

فلا تسمع غير الأمواج تكرّ على الشاطئ، والرياح تغنّي في قصباته.

وسرت في بدنها قشعريرة. خُيّل إليها فجأة أنّ الأمواج تنوح وأنّ القصبات ترقص تحت سياط الرياح رقصة فاجعة.

وهو يمضي... وماضية هي وراءه. ماضية. لم تشعر إلّا وقد وقعت تعضّ الرمال.

حينئذ ارتدّ يلاقيها، فلبثت مطرحها لم تحاول النهوض ولم تمدّ يدًا. فانحنى وحملها بذراعيه. أرادت أن تضحك فانفجرت بالبكاء.

كانت ترتجف بكلّ أعضائها. فلمّا حطّها في السيّارة ارتمت تدفن وجهها في حضنه. وهو ساكت، وهي ساكتة إلّا جهشها.

حتّى إذا أحسّت كفّه على شعرها انقلبت مرّة واحدة فطوّقته بذراعيها الاثنتين في قبلة عظيمة.

١٤

كانت الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم موعدًا لاجتماع رابطة دار المعلّمين والمعلّمات للنظر في الإضراب، وكان الاتّجاه واضحًا لوقفه بعد أن استجابت السلطات لمعظم المطالب. وكذلك الشأن في سائر كلّيّات الجامعة اللبنانيّة.

فليقف الإضراب إذا شاء، أو فليستمرّ إذا طاب له! إنّ تميمه لن تخرج يومها. ستبقى في سرير أحلامها واصلة الليل بالنهار. وستنتظر ماري لتخبرها الخبر الذي وعدتها به.

وكانت ماري قد تلفنت لها منذ العشيّة بأنّها ستُضطرّ إلى النوم في المستشفى لعمليّة جراحيّة طارئة، على أن تأتي في الصباح. وها قد جاوزت الساعة الثامنة وهي لا تعرف أن تجيء.

ضربت تميمه بيدها إلى ديوان شعر. «أزهار الشرّ». كانت تحفظ أكثر قصائد بودلير عن ظهر قلب. مهاويه السحيقة، أجواؤه الحارّة العابقة، سكاكينه القاطرة دمًا وخمرًا، كانت تحبّها... وجعلت تقلّب. هذه القصيدة؟ لا. ولا هذه... ولا هذه.. بل أخرى. أخرى. مختلفة عن هذه كلّها. قصيدة يغنّي فيها. أيّ شيء يغنّي فيها؟ يغنّي، لا يصرخ، لا يلعن. يغنّي للبراءة، للفرح، لشعاع الشمس الدافئ بعد العاصفة. يغنّي لزهرة بريّة. لعصفور أزرق حطّ على شبّاكه... تقلّب، تقلّب ولا تعثر عليها.

أتكون قد قرأتها في ديوان آخر؟ من هو الشاعر الذي يغنّي تلك الأغنية؟ لعلّه إليوت. أجل هو إليوت. وهمّت بالقيام إلى رفّ في الدار تضع فيه صفًّا من الكتب الجميلة. ثمّ تثاقلت مطرحها.

أطبقت أجفانها فجاءها بيت صلاح لبكي:

أَطْيَبُ ما في الشِّعْرِ أُنْشودَةٌ
تَبْقى بِلا وَزْنٍ وَلا قـافِيَـه

أفاقت على التلفون يرنّ مالئًا البيت. من هو المعكّر؟ لن تجيب على أحد. تميمه نصّور ليست هنا. أفاهم؟ ليست هنا! ولا في بيروت، ولا في صيدا، ولا في المهديّه... والتلفون ينادي. لا يسكت. لا يتعب. بعناد عجيب يواصل رنينه.

وإذا كان هاني المتكلّم؟ تذكّرت أنّها أعطته رقم تلفونها. فوثبت إلى السمّاعة.

رمزي.

صعد الدم إلى أوداجها كأنّها فوجئت في ريبة. يريد أن توافيه هذه الليلة. سيكون بانتظارها، قال، وكرّر. بقيت خرساء. فأعاد يطلب منها تأكيدًا، فأقفلت التلفون ومضت ترتدي ثيابها. دقيقة. دقيقتان. ورنّ مرّة ثانية. هو بلا شكّ. لن تردّ.

وخرجت إلى اجتماع الرابطة.

على العشاء امتدّ الحديث بين تميمه وماري.

– الغرام حلو يا تميمه مع صاحبك لو لم يكن لك أخ كجابر، ووكيل له في غيابه كحسين. اِنزعي هاني الراعي من فكرك، ومعه الآخر طبعًا. لا هذا ولا ذاك أريده لك.

ويتكرّر الحديث كلّ يوم بين الصديقتين، ويشغل السهرات إلى ساعة متأخّرة.

دفتر الخرطوش.

١٤ كانون الأوّل – أريد مكاني في الحياة قبل مكاني في المجتمع. هاني لا يوافقني على هذا. اختلفنا اليوم مرّة أخرى. «لا حياة خارج المجتمع» قال.

كانت متوتّرة ذلك المساء. لا يزال في دير المطلّ. لم يتلفن. لم يسأل عنها.

ضربت بيدها إلى الطاولة جنب السرير وتناولت

بطاقة من هذه البطاقات المكدّسة. دعوات إلى محاضرات وندوات. طواحين بيروت الجعجعة. «ولا أرى طحنًا».

على أنّ الدعوة إلى أمسيّة وست هول كانت مغرية: شاعر المراهقات يتحدّث إلى المراهقات.

وصلت متأخّرة بعض الشيء. كانت رئيسة اللجنة الداعية تلقي كلمتها باسم طالبات الجامعة الأمريكيّة مقدّمة الشاعر إلى الحضور. فوقفت تميمه بالباب تطوّف بأنظارها، ثمّ مشت مع الحائط تبحث في الصفوف عن محلّ لها. لمحت ظهر رمزي في الصفّ الأماميّ فارتعدت وارتدّت إلى الوراء. كانت المقاعد مشغولة كلّها، والقاعة تغصّ بالطالبات مع سادة وسيّدات من المجتمع وكتّاب وصحافيّين وطائفة من الطلّاب أقبلوا من مختلف الجامعات. وإذا بأحدهم – قاسم الهلال – يقوم عارضًا كرسيّه مرحّبًا. أرادت أن تعتذر ولكنّه كان قد أخلى لها وألقى كتفه على الجدار. كان المكان في زاوية، أصلح ما يكون لئلّا يراها الآخر...

وأطلّ الشاعر.

«ثوري، أحبّك أن تثوري.

ثوري على شرق السبايا والتكايا والبخور.

ثوري على التاريخ وانتصري على الوهم الكبير. لا ترهبي أحدًا.

ثوري على شرقٍ يراك وليمة فوق السرير...

نحن الرجال، خلاصة الأنانيّة وشهوة التملّك والإقطاع.

فلماذا تسكتن علينا أيّتها النساء؟ لماذا؟

أليس هناك واحدة منكنّ، واحدة لوجه الله، تستطيع أن تردّ لنا الصفعة صفعتين؟

... الحرّيّة التي أطلبها للمرأة هي حرّيّة الحبّ.

حرّيّة أن تقول لرجل «أحبّك» دون أن تقوم القيامة عليها، ودون أن يُرمى رأسها في تنكة الزبالة.

نريد أن نردّ جسد الأنثى إليها. فهو حتّى الآن ملك التاريخ والأعراف والمؤسّسات الدينيّة والدنيويّة...»

لم يكد الخطيب يصل إلى هذا الحدّ حتّى سرت في القاعة غمغمة. ومع الغمغمة دقّ بالأقدام. وزعق زاعق:

– نحتجّ! نحتجّ! لا نقبل هذا الكلام.

فتلفّتت تميمه. زميل لحسين القمّوعي. القمّوعيّون في كلّ مكان.

وإذا به ينتصب واقفًا ويجيل أنظاره في الحفل:

– ألا تسمعون؟ أترضون بهذا الكلام؟

فجذبه جار له من كمّه:

– اُقعد!

وارتفعت أصوات:

– اُقعد! اُسكت!

وهو يمضي في الصياح:

– لن أسكت. لن أسكت. أعراضنا مقدّسة! أعراضنا مقدّسة!

كانت الموكّلات بالنظام قد أقبلن من كلّ ناحية. واعتلت رئيسة اللجنة المنبر وأعلنت:

– ليس من مقدّس هنا إلّا الحرّيّة. من لا يعجبه ذلك بإمكانه أن يخرج.

وأشارت إلى الخطيب، فاستأنف كلامه:

«نريد أن نخلّص جسد المرأة من المزايدات الأخلاقيّة والعنتريّات. فالرجل الشرقيّ يربط كلّ أخلاقيّاته بجسد المرأة لا بأخلاقيّاته هو. فهو يكذب، ويسرق، ويزوّر، ويقتل، ويشلّح على الطريق العامّ ويبقى أطهر من ماء السماء! حتّى يعثر في دُرج ابنته أو أخته على مكتوب غرام فيشدّها من ضفائرها ويذبحها كالدجاجة ويلقي قصيدة شعر أمام قاضي التحقيق.

... سيقول المتزمّتون إنّني أحرّض النساء على الحبّ.

إنّني أحرّضكنّ على أجمل ما فيكنّ ، وأنبل ما فيكنّ .
أحرّضكنّ على الارتفاع إلى مستوى الإنسان» .
(٢) .

أثار الحديث حماسة كبيرة . ولدى نزول الخطيب عن المنبر تزاحم الحضور لتهنئته . وشقّ قاسم طريقًا لنفسه بينهم ، فانتهزت تميمه الفرصة وانسلّت من القاعة .

١٥

المرّة الأولى يتكلّم فيها أبو الهول متعدّيًا السلام وأمرك يا آنسة . دنا من مكتب تميمه واستأذنها في الخروج قبل الوقت ، قال :

– تعذريني يا آنسة . صديق لعائلتنا من يافا ينتظرني الآن ويجب أن أراه .

ورجا منها أن تقفل المكتب وتترك له المفتاح تحت ممسحة الباب . ودفع لها بالمفتاح قبل أن تجيب .

كان في عينيه غير ما تعهد من غياب ، وفي كلامه ثقة لم تدع لها مجالًا لسؤال ، فاكتفت بتناول المفتاح واستأنفت الضرب على الآلة .

ثمّ أحسّت أنّه ما يزال واقفًا إزاءها . فقالت دون أن ترفع وجهها :

– مع السلامة يا أبا العزّ .

– أبو الهول . كلّهم يعرفون أنّك تقولين عنّي أبو الهول . لن أنسى يا آنسة تميمه ...

رفعت نظرها إليه . عُمرها لم تلحظ هذا الجبين الذي له . كان جبينه يضيء تحت غرّته الفاحمة .

– لن أنسى يا آنسة تميمه أنّك أنت لقّبتني به .

وأدار ظهره .

بعد ساعة كانت تميمه تضبّ على أوراقها متهيّئة للانصراف . فإذا بالباب الأستاذ أكرم الجردي !

حيّا ودخل بحجّة شغل له مع الأمين العامّ . بهجت أفندي ليس في المكتب ؟ – سينتظره . قال له سيأتي بعد قليل ... فرصة لسؤال الآنسة تميمه هل هي راضية عن وظيفتها .

كان مرتبكًا . يعتذر عمّا جرى في بيت مدام خوري . يسألها عن منزلها الجديد – عرف أنّها تسكن مع الممرّضة ماري أبو خليل في شقّة واحدة – عن دروسها في الجامعة . يقلّب في الأوراق على الطاولة . ثمّ ، بدون أيّ مقدّمات أخرى ، يعرض عليها الزواج !

قال إنّه قطع علاقته بتلك المرأة . ولم يسمّها . قال إنّه يبحث عن شريكة حياة . عن ربّة بيت . عن ملهمة له ومعاونة في كفاحه السياسيّ . عن أمّ صغيرة لابنته ، بل عن صديقة لزينه – «كلّ ذلك يريده في واحدة . هذا كثير ! » – قال إنّها هي تجمع هذا الكثير وأكثر .

قال إنّه لا يطلب منها جوابًا الآن . سيغيب أسبوعًا في البقاع لأمر يتعلّق بمستقبل المنطقة . بمستقبله هو أيضًا . بالانتخابات النيابيّة ... سيقرأ الناس عمّا قريب ، قال ، بقلم رمزي رعد ، أشياء عن شوكت اليغموري وعن اليغموريّين تشيّب الرؤوس . البقاع ، قال ، كعكّار ، كالجنوب ، مناطق فيها ما يضع أنف لبنان في التراب .

– قال :

علينا أن نعمل . أن نعمل .

... ركضت تميمه إلى الشقّة تخبر ماري وتردّد :

– علينا أن نعمل ! أن نعملْ ! يعني أنا والأستاذ أكرم الجردي .

ودارت على عقبيها تترنّم هزءًا ورثاء .

قالت ماري تردّها إلى الجدّ :

– أعطاك مهلة أسبوع . فكّري .

– قلت له لا أحتاج لمهلة ولا لتفكير . ولمّا أمسك بيدي يريد تقبيلها قمت عن الطاولة . فراح في سبيله .

١٦

«مجنونة روز! مجنونة!
بل أنا المجنون! أنا المجنون لأنّني سمعت منها».
كيد نساء. إذا كان لا بدّ من الانتقام من أوديت فهل من الضروريّ أن يكون بالزواج من غيرها؟
لماذا قام بهذه الزيارة البلهاء؟
لماذا لم يبقَ في مكتبه؟ عليه أن ينهي أشياء كثيرة قبل أن يطلع إلى البقاع. كان قد وعد نفسه بالعمل في الليل لاستكمال دفاعه عن مدير «بنك العمران» - حدّدت المحكمة موعد النظر في القضيّة الحادي والعشرين من الجاري أي اليوم الثاني لعودته من كفر زروع - وفي كفر زروع يجب أن يتفرّغ لرمزي رعد واليغموريّين.
ولكن كيف قبل أن يكون وكيلاً عن مدير بنك العمران؟
العمران! بنك العمران! عاشت الأسماء!
هيكل آخر من الهياكل الكرتونيّة التي تنهار متلاحقة بعد انهيار الهيكل الأكبر، «بنك إنترا». في تلك القرقعة الهائلة التي زعزعت الاقتصاد اللبنانيّ وتردّدت أصداؤها في العالم...
آلهة يسقطون إلى حضيض التزوير والاحتيال والسرقة.
أقنعة تتمزّق فإذا خلفها وجوه مجرمين.
تميمه؟ أمامها الحبّ والمستقبل والحياة. «في العشرين هي وأنا على أبواب الأربعين». ومع زينه. ابنة في البيت من امرأة أخرى...
جنون! جنون!
مدير بنك العمران - ألفرد بك... - كان مختبئاً بنظّارتيه. رآه بدونهما لحظة إذ زاره في السجن هذا الصباح. لحظة، ولكنّها كانت كافية ليرى عينيه. لكأنّه من كتاب «الحكايات المصوّرة»، هذا الذي على مخدّة زينه. من حكاية «القبّوعة الحمراء والذئب».
من رأى الذئب إذ تسقط النظّارتان عن وجهه؟
من رأى عيني الذئب وجهًا لوجه؟
كان أكرم الجردي يرفّه عن نفسه هكذا وهو في سيّارته إلى البيت. لا! لن يعود إلى المكتب. وما همّه الدعاوى في تلك الساعة ولا البنوك. ولا البقاع ولا اليغموريّون. مجنون هو، مرّة أخرى، وألف مجنون!
الانتقام من أوديت؟
لماذا لا يكون الانتقام منها بالانفصال عنها بكلّ بساطة؟
ألم يشبع منها ومن مطالبها؟ ألا يكفي أنّه جهّز لها محلًّا طويلًا عريضًا للخياطة: - «هوت كوتير-أوديت» - ؟
وإذا كان لا بدّ من الزواج فكيف ذهب يعرض على فتاة أن تحمل اسمه وتكون عنوان شرفه وقد تواطأ مع روز قبل أيّام على أن تبيعه هذه الفتاة اسمها وشرفها؟ وكيف بتميمه الذكيّة، المثقّفة، المرفوعة الرأس؟
أتحبّ رمزي رعد؟
أممكن أن تفضّل رمزي رعد وتأبى أن تكون زوجة أكرم الجردي؟
وغمره شعور أبعد من الغيرة. أشدّ من النقمة. وأمضى من المرارة. شعور كئيب. كئيب.
تافه هو! فاشل! فاشل!
وهذه ابتسامة تميمه نصّور وهي تشيّعه على باب نقابة عمّال المرفأ تلاحقه بالهزء والرثاء. أخت المئات من الابتسامات التي غمره بها الأصدقاء حينما جاؤوا معزّين بعد اندحاره في الانتخابات الماضية.
أكثر من ذلك. لقد كان في ابتسامتها احتقار.
إنّه رجل فاشل وحقير!
وتمتدّ كفّ أكرم الجردي إلى خدّه... ربّما كان يستحقّ تلك الصفعة من أوديت. ربّما كان قد خُلق ليتلقّى الصفعات!
أين يقضي سهرته؟ يجب أن يخرج هذا المساء. لا بيته، ولا بيت روز، ولا أيّ قفص. يريد أن يخرج

من نفسه. أن يهرب منها إلى أيّ مكان. استقبلته أمّه على الباب فبادرها:

– سأتعشّى خارجًا.

ودخل يغيّر ثيابه.

على أنّه لم يلبث أن أغلق خزانة ثيابه. وأقبلت الأمّ فرأته في البيجاما. قال إنّه عدل عن الخروج. فعرضت عليه تكرارًا عشاء حضّرته له. رفض بنبرة ثمّ شفعها بنظرة استغفار – لم يكن يريد أن يجرح أمّه، ما ذنبها؟ وأحسّ أنّ ذلك لم يكن كافيًا فابتسم سائلًا عن زينه.

– زيزي نامت. يجب أن تتزوّج يا ابني. يجب أن تتزوّج.

فرفع أكرم إلى أمّه وجه الخائب. ولكنّها كانت قد توارت. تعرض عليه عرضها منذ الشهر السادس لمصرع زوجته، وها هو في السنة الثانية ولا يتزحزح. تعبت من مناقشته في الموضوع، وتخشى غضبه إذا فتحت له سيرة أوديت – «يجب أن تتخلّص من أوديت» – ولكنّها لا تستطيع إلّا أن تعود إلى لازمتها كلّ يوم بعناد العجائز.

سنة وثلاثة أشهر بالضبط. تعاوده الرؤيا الفاجعة: السيّارة المنقلبة والدم على الطريق. والجثّة الممدّدة... والصراخ الذي اخترق ضباب ضهر البيدر ذلك المساء. –كانوا راجعين من البقاع إلى بيروت– وما يزال يخترق سقف الغرفة الصغيرة كلّ مساء: ماما! ماما!

ومشى إلى الغرفة الصغيرة.

١٧

كانت غرفة زينه مضاءة – تبقى مضاءة طول الليل بإشارة من الأطبّاء – فقد كانت زينه منذ الحادث فريسة لنوبات تعاودها، خصوصًا في الظلام. يتراءى لها في الزوايا المعتمة، وخلف الستائر إذا ارتعشت، أشباح وأشباح، فتهبّ منادية أمّها نداءات الذعر.

دنا الأب من السرير. ما وراء هاتين العينين المفتوحتين على السقف؟

– واعية يا زيزي؟

لم تثب إلى عنقه لتردّ إليه قبلته. كان وجهها الأسمر الناعم شاحبًا كغمامة شتائيّة على ضوء الغرفة الخافت، وذقنها الدقيق المروّس مصوبًا إليه. وعيناها – عينا أمّها المعسّلتان الضاحكتان – شاخصتين إلى السقف.

– بماذا تفكّرين؟

– ما شي.

وانحنى ثانية. قالت:

– بابا!

كان في لهجتها هذه المرّة أكثر من اللوعة. هدوء مريب. وتوقّفت هنيهة. ثمّ:

– بابا! لأيش الحياة؟

سرت في دمائه موجة صقيع. سؤاله الآن لنفسه. أرهب سؤال يطرحه رئيس محكمة. سبق له أن سمع من طفلته سؤالًا من هذا النوع، ولكن كم أقرب إلى طبيعة الأشياء – بعد موت أمّها – وكم أدلّ على براءة الطفولة. سألته حينذاك: «لأيش الموت؟». ها هي تسأل لماذا يحيا الناس بعد أن سألت لماذا يموتون.

وإذا كان قد أسكتها عن ذاك السؤال بالجواب الجاهز الذي أجابتها به جدّتها، وعزّتها به معلّماتها، وحفظته عن ظهر قلب في التعليم المسيحيّ فاقتنعت، أو بدا له أنّها اقتنعت، بأنّ الناس يموتون لكي يذهبوا إلى السماء حيث أمّها الآن، فبماذا يجيبها عن سؤالها هذا؟

للأطفال حقًّا أسئلة محيّرة. مدمّرة. بكلمة يشوّشون اللعبة التي يلعبها حولهم الكبار. بكلمة، بكلمة صغيرة يطبقون على رؤوسهم المسرح. وإذا كانت زينه تواجه الدنيا، وهي بعد في الثامنة من عمرها، بمثل هذا، فما يكون شأنها إذ تكبر؟

ابتسم. هل تكلّف الابتسام، أم طفح الحبّ من قلبه؟

– الحياة معناها أنت وأنا يا زيزي. نعيش ليحبّ بعضنا البعض.

– والذين لا أحد يحبّهم! أعرف كثيرين لا يحبّهم أحد.

حربة جديدة. من أين لها أن تعرف؟ إنّها قراءة «حكايات الأطفال المصوّرة».

– مثلاً؟

– الذين مات أبوهم وأمّهم وما عندهم في البيت مثل ستّي ولا عندهم بيت.

– الحكومة تدبّر لهم أبًا وأمًّا وتدبّر لهم بيتًا.

– من هي الحكومة؟

هذه الصغيرة لا تُطاق. ولكنّه سؤال أهون على كلّ حال من الآخر. وتذكّر أكرم الجردي أنّه اشتراكيّ. الحكومة؟ كم خطاب ألقاه عن الحكومة. ما هي الحكومة. كيف ينبغي أن تكون الحكومة. ما هي واجبات الحكومة. سيلقي خطابًا على زينه...

– لماذا لا تجيء الحكومة إلى باب المدرسة؟

وأخبرته عن الساقين المورّمتين تنزّان دمًا وقيحًا على الرصيف، مع اليد المقطوعة، والأخرى التي تلاحق المارّة – «شحّاد، قال، من الشحّادين». وعدها بأنّه سيقول للحكومة – «يعني للبوليس» – أن يذهب إلى باب المدرسة ويأخذ الشحّاد.

– إلى بيت فيه ناس سيحبّونه وسيحبّهم هو. نامي يا زيزي.

تركته يقبّلها. ولكنّها نامت دون أن تقتنع.

في الصباح ركضت بقميصها حافية إلى غرفته:

– بابا، القمر وين هو؟

فرك عينيه وجذبها جذبة واحدة:

– في حضني.

فتفلّتت منه. أخبرته أنّ المعلّمة قالت في الصفّ: «بعد عشر سنين نسافر للقمر». وتسأله عن أمّها التي في السماء هل تسكن بعيدًا عن القمر. ثمّ تعود وتقول إنّها لا تقدر أن تنتظر عشر سنين، ولذلك هي تريد أن تموت الآن لتطلع إلى السماء وترى أمّها الآن. الآن.

– هاتي سمّعيني أمثولتك العربيّة.

على أنّ الأمثولة، بدلًا من أن تقطع هذا الحديث، عادت بالصغيرة إليه أو إلى أبعد منه. كانت الأمثولة لذلك اليوم قصيدة عنوانها «الأعمى». يصف فيها ناظمها ولدًا أعمى يجلس بباب بيته ويسأل: ما لون النهار؟

ما شكل العصافير؟

وما الشمس والقمر؟

والبحر والسماء؟...

تلتها زينه لم تخرم حرفًا.

– بابا، قُل لي: لماذا يخلق الله أولادًا عميان؟

– في عمرك لا يسألون هذه الأسئلة.

وكانت الجدّة قد أقبلت تدعوها لارتداء ثيابها قبل أن يصل أوتوكار المدرسة. والأب يتابع لنفسه: «شرط أن تجدي، يا ابنتي، بعد أن تكبري، من يجيبك ويقنعك لماذا يخلق الله الأولاد العميان. ولماذا يُحدث الزلزال والطوفان. ويأذن بالحروب والقتل. ويبعث الطاعون والأوبئة. ولماذا يبرئ النسمة من روحه ليخنقها بيديه الاثنتين...»

قبل أن تنصرف إلى مدرستها ناداها وأخبرها أنّه طالع إلى كفر زروع. ثمّ رفعها بذراعيه مرّة، اثنتين، ثلاثًا، وقبّلها على الخدّين.

– نسيت شي، يا بابا.

عدنا! فتح عينيه بالسؤال عن هذا الشيء ما هو. كانت زينه تذكر له شحّادة أخرى، على صدرها طفل عارٍ، وسخ، يحوم عليه الذباب. تمرّ بالأوتوكار كلّ صباح وكلّ مساء وتراها وتسمع طفلها يبكي. هنا، على المفرق، تحت البيت. ولكن سرعان ما فكّرت برفيقتها سلمى. طردوها من المدرسة لأنّها لم تدفع القسط – هكذا قالت البنات كلّهنّ – وقالت البنات «أبوها فقير، دفع القسط الأوّل، والثاني ما قدر». وسلمى أبوها بوليس، زينه رأته مرارًا على باب المدرسة.

«الحكومة – البوليس. البوليس – الحكومة...».

أبوها يعتقد أنّها ما تزال صغيرة. ورفعت زينه عينيها تقولان له: تكذب! تكذب عليّ!

– ماذا تريدين يا زيزي أن أقول للحكومة؟

– ما شي. ما شي.

وهرولت إلى السلّم.

١٨

أعلنت «الصباح» عن التحقيق أيّامًا قبل الشروع به، ضاربة لقرّائها موعدًا مغريًا. وقدّم رمزي رعد بأنّ سياحته لن تكون على الطريقة الأميركيّة، كلّا ولا من وحي التقارير الرسميّة. «سيقوم بها، قال، خلال البيوت والضمائر. سيمشي، خلف خرائب بعلبكّ، في خرائب ما صنعه الظلم والجهل والفقر والمرض».

نزل في بيت الجردي، البيت الوحيد المبنيّ بالحجر، على تلّة من أربع أو خمس تلال تطلع كالبثور في السهل الممتدّ عرض الأفق. وفكّر وهو يطلّ من السطيحة غداة اليوم الذي وصل فيه: لا شكّ أنّ اسم العائلة من هذا السهل الأجرد الموحش – «الوحشيّ».

والطبيعة هنا جافية، عداؤها للبشر صارخ بهذه الرياح المزمجرة بوجه الشمس كأنّها تريد طردها.

وأكّد أكرم:

– الشمس هنا في الشتاء دخيلة. مُلكها الصيف. تنتظر الصيف لتلفح. أمّا الشتاء فللثلج، وهذه الرياح بشائره.

وصارخ عداؤها بهذه الأشجار السقيمة، بهذه الحورات المجرّحة الملتاعة.

بهذه البيوت، بل الأكواخ من الطين الأدكن الكئيب تجثم في العزاء.

ونقط سود تتحرّك هي البقر الهزيل، الهائم، المفتّش على عشبة.

ودخان يطلع – علامة الحياة الوحيدة – من تلك الأكواخ المنبطحة...

كأنّها في انبطاحها وفي ما تنفث من لهاثها حيوانات أسطوريّة تقيل على بساط من قبل التاريخ.

كان بيت الجردي ذا طبقتين يسكن السفلى منهما فلّاح يقوم على مزرعة آل الجردي مع امرأة له وأولاد يعاونونه. فإذا جاءهم البك أقبلوا يدورون حوله لخدمته. قال أكرم وهو يقدّم أبا نجيب وعائلته:

– جردي. وكلّهم في هذه البقعة عن يمينك جرديّون. الجرديّون يزرعون القمح لخبز يومهم، واللوبياء قديدًا للشتاء، والعدس الذي أبيعه لهم بعشرة قروش الكيلو إذا تحسّنت الأسعار. اليغموريّون عن شمالك، هنا في جوارنا، «على أكتافنا» يقول أبو نجيب، يزرعون أمّ الذهب: الحشيشة.

– ستكون أولى مقالاتي. أعطيتني العنوان يا أبا نجيب. قُم معي نزور أراضي اليغموريّين.

في اليوم التالي نشرت «الصباح» الحلقة الأولى من التحقيق، بعنوان «أمّ الذهب»، وصف فيها رمزي رعد زراعة الحشيشة ودلّ على مواقعها ونقل أحاديث الفلّاحين عن صناعتها والاتّجار بها بإشراف اليغموريّين والعصابات التي تعمل بأمرهم في الداخل والخارج.

ومضت الحملة في موكبها...

خلال وحل القرى وحفا الأطفال.

مع اللقمة المغمّسة بالدم وروث الدوابّ.

مع الرعب في الخناجر المسنونة والثارات.

مع العشيرة اليغموريّة كابرًا عن كابر والحكّام الذين كانوا لها حلفاء وأعوانًا.

مع قتلة ابن الجردي وسلسلة الضحايا البريئة...

وختم الصحافيّ حملته، وقد استغرقت ستّة أعداد من الجريدة، بمقال عنوانه «مذكّرة إحضار إلى الحكومة» طالب فيه بسوق أصحاب المعالي إلى المنطقة

ليشهدوا بأعينهم كيف يعيش اللبنانيّون في مجاهل جمهوريّتهم السعيدة.

كانت تميمه تتابع قراءة هذه الفصول يومًا فيومًا. في اليوم السابع، بعد فراغ الأستاذ رمزي رعد من مهمّته في البقاع، تناولت الجريدة فطلع بوجهها بالحرف الكبير على عرض الصفحة:

«اعتداء أثيم على المحامي الأستاذ أكرم الجردي.

نقابة المحامين تعقد اجتماعًا فوق العادة.

«الصباح» تطلب اجتماع نقابة الصحافة».

وخلاصة الخبر أنّ ثلاثة ملثّمين كمنوا للمحامي والصحافيّ في الطريق بين زحله وشتورا بعد أن علموا أنّهما سيركبان سيّارة الأستاذ الجردي عائدين معًا إلى بيروت. ولكنّ الأستاذ رعد كان قد نزل في زحله تلبية لدعوة صديق له على العشاء. فلمّا وصلت السيّارة إلى منعطف في المنطقة المذكورة خرج الجماعة من الكروم وأطبقوا على صاحبها بالعصيّ والخناجر مهدّدين إيّاه بالقتل إن لم يدلّهم على المكان الذي ترك فيه رفيقه. وأوشكوا أن يخمدوا أنفاسه لو لم تفاجئهم دوريّة من الدرك فأركنوا إلى الفرار. وتعقّبهم الدرك فتمكّنوا من القبض على أحدهم فتبيّن أنّه من أنصار النائب شوكت اليغموري واعترف باسم شريكيه. ونُقل المعتدى عليه إلى المستشفى الأميركيّ مثخنًا بجراحه، وحالته خطرة...

١٩

حلّ موسم الأعياد.

تلاحقت في ١٩٦٨ بين الفطر والميلاد ورأس السنة. وطغى في الأيّام الأولى جوّ الأفراح والزينات في المعابد والبيوت والشوارع. وكان طلّاب الجامعات وتلاميذ المدارس في عطلتهم الفصليّة، فقصدت تميمه إلى المهديّه لتقضي بجانب أمّها بعض الوقت، وطلع هاني إلى دير المطلّ يحمل مفاجأته للأصحاب الصغار.

كان لديه ما يشغله حقًّا. ففي العطل الفصليّة، بانتظار الصيف، تنقلب الضيعة إلى عاصمة. يتقاطر إلى دير المطلّ أولاد القندول والمرج وسائر الضيع المجاورة للمباريات الرياضيّة والألعاب والاجتماعات، ينظّمونها بإشراف هاني، وإدارة المعلّم حسيب، وبركة «الأبونا الشيخ» – وهو لقب غلب على رئيس الدير بعد أن استضاف المعلّم الشيعيّ المسلم بين رهبانه وأفرد له غرفة من غرفهم. أطلقه خبيث منهم وتهامسوا به فترة ثمّ شاع على الألسنة، فأصبحت تناديه به على سبيل المداعبة، فيجد لذلك غبطة وينكت لحيته.

انصرف هاني والمعلّم لإعداد المناهج للأعياد. فكان الأولاد يجتمعون في المدرسة، أي في أقبية الدير بانتظار إقامة بناء لها، ويحوّلون تلك الأقبية العتيقة المعتمة إلى أعشاش سحريّة بما يضفون عليها من مرحهم وصياحهم. يلوّنون جدرانها برسوم من فنونهم، ويزيّنون زواياها بأشجار قطعوها للمناسبة من أحراج الدير، حتّى إذا حان موعد المباريات – وفي الصباح منها واحدة وفي المساء أخرى – خرجوا إلى الساحة يلعبون ويضجّون.

وعلى الغداء يفتحون زوّاداتهم مشتركين في التهام ما حملوه من بيوتهم، على أن يبدأ الطعام بواجب الدير نحو ضيوفه: دسوت من حساء العدس أو الفاصوليا، وينتهي بالواجب كذلك: صناديق من التفّاح وصحاف من الحلوى لا يعرف أحجامها وأطايبها إلّا من عاشر الرهبان في أديرتهم. ويطلّ عليهم الأبونا الشيخ بعثنونه الأشقر وابتسامته المشعّة فيهتفون له معيّشين ثلاثًا.

ويوم الأحد جلسات اللجان لمناقشة الأمور الجدّيّة، ومنها ضبط ميزانيّة الحزب. على أعضاء اللجنة الماليّة، هذه السنة، وأعضاء لجنة التبرّعات – وقد تألّفت منها لجنة المدرسة المشتركة – أن يضاعفوا جهودهم لجمع ما لا بدّ من توفّره خلال الربيع المقبل للشروع في البناء. أمّا الأرض فقدّمها الدير، قطعة على

الكتف الشرقيّة من الضيعة مشجّرة بالصنوبر ولها مشارف على البحر. رائعة، فضلًا عن موقعها الوسط بالنسبة إلى القندول والمرج.

كان قيدوم هو صاحب الصوت الأعلى بين الأصحاب الصغار. لقب آخر كأبينا الشيخ، كعشرات الألقاب التي يخلعها الأهالي بعضهم على بعض ويتداولها الآباء والأبناء على السواء. قيدوم من القندول، يزاحمه شيبوب من دير المطلّ، يزاحمهما الزيبق من المرج. على أنّ زعامة قيدوم واضحة لشجاعته ولمهارته في التأليف والتنكيت، وإليه يرجع الفضل في فكرة يانصيب البابا نويل، عرضها على هاني قبل العيد بأيّام.

– كيف يا قيدوم؟

فتناول الصبيّ جريدة من عبّه وبسطها. كانت الجريدة قد نظّمت رحلة من بيروت إلى قبرص يوم عيد الميلاد لسبعين ولدًا بين الثامنة والرابعة عشرة هم الرابحون في يانصيب البابا نويل. والأوراق عبارة عن قسائم من أعداد الجريدة لأيّام معيّنة قبل العيد. قال قيدوم:

– نشتري للحزب مئة عدد من الجريدة بخمس وعشرين ليرة. هذه هي، هنا، في جيبي. طبّقت اللجنة الماليّة. فإذا ربحت ورقة من ورقاتنا عملنا عليها يانصيبًا بين أعضاء الحزب. دبّر لنا نسخ الجريدة والباقي عليّ.

المفاجأة التي حملها هاني إلى الحزب هي بشرى فوزهم بواحدة من الجوائز السبعين. وتولّى قيدوم الباقي الذي وعد به. فرضه على أولاد القندول، وشيبوب على أولاد دير المطلّ، والزيبق على أولاد المرج – على كلّ ولد ليرتين – ٢٢٤ ليرة – عدد أعضاء الحزب في الضيع الثلاث. يُعاد إلى اللجنة الماليّة قرضها ٢٥ ليرة. يبقى ١٩٩ ليرة ريع اليانصيب. قال قيدوم:

– نشتري بها الهدايا التي سيوزّعها البابا نويل.

كانت الجريدة قد قامت في بيروت باحتفال احتشد له في محلّة الزيتونة الألوف من الأولاد مع آبائهم وأمّهاتهم، أقبلوا يشاهدون البابا نويل يهبط من السماء، كما في الأساطير، بطرطوره وسلّ الهدايا العظيم على ظهره. استعانت على ذلك بالجيش فأعارها هليكوبترًا أطلّ من بين الغيوم فحوّم فوق الساحة ثمّ أخذ في الهبوط وتدلّى منه البابا نويل وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق، وجوّ من البراءة والفرحة لم يعرف الميلاد مثيلًا له في تاريخ أعياده.

ليس في دير المطلّ ولا في المرج ولا القندول هليكوبتر – لا يملك الحزب طائرات... بعد! – ومع ذلك فإنّ البابا نويل سيهبط من السماء، كما شاهده قيدوم ورفاقه في التلفزيون.

الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. كان الطقس صحوًا منذ يومين. وإذا الجوّ يتلبّد ويأخذ الثلج في التساقط قطعًا من النفناف. قيدوم يعلن أنّ الثلج موصى عليه! إلّا أنّ البرد قارس والأكفّ تفرك الأكفّ، وصيحات «الحوحو» تتعالى من كلّ صوب يلحّنها الأولاد أنغامًا ما أنزل الله بها من سلطان. قد احتشدوا كلّهم داخل الأقبية حسب المنهاج المرسوم، هكذا أمر قيدوم. والمعلّم ينفّذ أوامره، وهاني ينظر. مزروبون كقطيع الغنم، يتدافعون، يتلاكزون، يتصايحون، والأبواب مقفلة، وفي الأقبية شموع مضاءة حملوها بشمعداناتها من مذبح الكنيسة. ممنوع أن يطلّ أحد برأسه إلّا عند الإشارة.

وفجأة يزعق من بعيد نفير الميلاد، فتُفتح الأبواب على مصاريعها وتعجّ الساحة وترتفع الرؤوس. البابا نويل يهبط من أعلى السنديانة – بطرطوره أبي الذؤابة والكيس الملآن على ظهره – تمامًا كما في التلفزيون، تمامًا كما في بيروت، وأعظم وأعظم وأعظم لأنّه جاء تحت الثلج. بابا نويل بلا ثلج بائخ ولو طلع من مئة هليكوبتر.

كانت اللعبة أبسط ما يكون. علّق قيدوم بكرة

حبل في غصن السنديانة المنداح فوق الساحة وأمسك بطرف الحبل ، فيما كان شيبوب والزيبق المختبئان بالأغصان الخلفيّة يمسكان بالطرف الآخر ويدلّيان به . عليم الله ! ما عرفه أحد حتّى عندما ترجّل في الساحة وأخذ يوزّع هداياه... لولا أنّه صاح ، وقد وقعت الجائزة على حمار صفّه ، فلم يضبط نفسه :

– عبث ! من قبرص يا بطرس جيت عالأربعة. راجع ليها طيران !

ونتر طرطوره ورمى به بطرس ملء وجهه.

٢٠

٢٦ كانون الأوّل ١٩٦٨ – تاريخ في حياة تميمه نصّور.

وصلت إلى دير المطلّ الساعة التاسعة صباحًا ومعها المسّ ماري. رأتا بعد التشاور أن تترافقا. اقتراح ماري وقد صفّقت له تميمه :

– أعرّفك على هاني.

في ساحة دير المطلّ سألت تميمه امرأة تقود طفلة من يدها عن بيت السيّد هاني الراعي.

– الشبّ؟ بيتو بآخر الضيعة. أعلى بيت فوق الطريق على شمالك. قدّامو صنوبرة كبيرة.

التبس الأمر على الغريبتين فتبادلتا النظر. وأعادت تميمه :

– السيّد هاني. السيد هاني الراعي.

– إي. إي. نحن منقول له «الشبّ» يا أختي. الضيعه كلّها بتعرف مين هو الشبّ.

ضحكت ماري :

– من أوّل وصولك شمعه على طولك. اِمشي يا تميمه لنمشي إلى بيت الشبّ.

لم تشأ تميمه أن تصل بالسيّارة إلى بيت هاني. أحبّت أن تأخذ فكرة عن دير المطلّ فجعلت تتطلّع. بيوت قديمة في الغالب تجثم بين الجلول فوق الطريق وتنتثر تحته ، متكتّلة هنا ، متباعدة هناك. وخمسة ، بل ستّة ، بل سبعة دكاكين من تلك التي يجد فيها الأهالي شتّى أصناف البضاعة بما فيها الأحذية تتدلّى من السقوف. وفي الطريق فتيان يروحون ويجيئون ، ورجال ونساء في ثياب العيد لحضور حفلة المدرسة ، والسماء صافية مع هبّة محيية من الهواء تطلع من الوادي.

– أعلى بيت في الضيعة !

ورفعت تميمه يدها تدلّ ماري على الصنوبرة الشامخة. ثمّ سلكتا في درب ترابيّ صاعد إلى بيت من حجر قد كسته السنون جلبابها الرماديّ ، وواجهت البحر قناطر له ثلاث مع شرفة تحت القناطر ، ومصطبة أمام البيت قسم منها للعريشة وقسم لطنف من التوتياء تحته سيّارة الفيات.

– هاني هنا.

عند هاني – بعد أن رحّبت عمّته بالزائرتين بصينيّة عليها أقراص العيد وعادت إلى مطبخها – هتفت تميمه باكتشافها الجديد : «الشبّ» ! سرّ آخر كتمه عنها. فكرّ من حبّات السبحة :

– أبونا الشيخ ، قيدوم ، شيبوب ، الزيبق ، الآغاتي ، السبع ، الجيز ، الطوزا إلخ. هواية عندنا. لكلّ واحد لقب على قدّه. لا أعرف من أطلق عليّ لقب «الشبّ». لا الشابّ بالفصيح. كان عمري خمس سنين حينما وعيت على أمّي تناديني به.

كان الشبّ يملأ عيني تميمه ويرفع صدرها بالكبرياء فاستطرد هاني :

– وأبو كنفوش. خلعناه على قاسم الهلال ، تعرفينه ، هذا الصباح وهو لا يدري.

وتتأمّل البيت : مقاعده العريقة المريحة ، سقفه الخشبيّ الدافئ ، شبابيكه المزيّنة بأحواض الزهر. فتسري إليها من هذه الأشياء كلّها دعوة إلى الألفة.

– نتناول العشاء هنا مع قاسم إذا قبلتما دعوتي. وبحضوركما أبلغه قرار الضيعة.

على الحائط بإزائها صورة مكبّرة لأمّه بالطرحة. من نقاء عينيها المتلألئ ابتسامة عينيه. وما عدا ذلك فبندقيّة قديمة مديدة أثارت اهتمام تميمه. ففسّر:

– إبراهيميّة. نسمّيها إبراهيميّة نسبة لإبراهيم باشا المصريّ. وهي ترجع إلى عهد مجيئه إلى لبنان. تذكار من جدّ جدّي الذي وقف في النهاية فيمن وقفوا من اللبنانيّين بوجه الباشا بعد أن انقلب إلى شدّ الخناق على أهل البلاد وتجريدهم من السلاح. هذه من البنادق التي عصت.

تجسّ تميمه البندقيّة بكفّها. تداعب الحيطان. تودّ لو تطوف بالبيت. لو تدخل إلى المطبخ. لو تشاهد غرفته وسريره وتشم الخزانة التي يعلّق فيها ثيابه. لو تسأل عمّته الستّ جميله، هذه ذات الوجه الطافح والكلام الحبيّ، ما تطبخ له، ما يحبّ من الطعام.

الساعة العاشرة والربع وقد غصّ القبو الكبير الذي تحوّل إلى مسرح بالأهالي، وهاني يشرف على الاستقبال ويعرّف الزائرتين بأصحابه كبارًا وصغارًا. وأخذ بيدهما إلى الصفّ الأماميّ فقدّمهما إلى جدّه أبي يوسف. شيخ فوق الخامسة والسبعين، صلب كأنّه جذع سنديانة، مع منخرين – إيّاهما: «الحزم والعزم».

وتعجّبت تميمه لإحاطته بالشيوخ. كان حريصًا على توجيه كلمة إلى كلّ واحد منهم.

– أعضاء الشرف في الحزب. طواطم دير المطلّ والقندول والمرج.

– ماذا؟ ألقاب أيضًا؟!

– طواطم جمع طوطم. هذا اللقب ليس من عندنا. صاحبنا رمزي رعد صاحب فصل «أمقت أبي» في كتابه «أرباب وعبيد» يجب أن يعرف الحكاية. وسيتولّى السيد قاسم الهلال الشرح.

كدّ العرق تميمه وهمّت – بماذا همّت لا تعرف – فإذا الدقّة الأولى إشارة برفع الستار. فالثانية. فالثالثة. كأنّها تدقّ على يافوخها. وظهر الأستاذ حسيب المبيّض عرّيف الحفلة يرحّب بالحضور. يذكر فخر الدين وبني عثمان... يتكلّم عن الوحدة الوطنيّة التي تمّت على يد الأمير... ماذا يقول؟ ماذا يقول عن دير المطلّ؟... يلفظ اسم هاني الراعي ويصفّق الناس لهاني الراعي. تجاريهم في التصفيق دون أن تعي. دون أن تنظر إليه.... يطلّ قاسم الهلال ويبدأ بالكلام. «لبنان بين جيلين» موضوعه. ماذا يقول عن الجيل الجديد؟ بل هو يحكي الآن عن الجيل القديم. «الجيل العتيق» يقول هو... وتبتسم عفوًا للقاف. يبحث عنها حيث تقرقع! ثمّ يفور دمها من جديد – أيدعوها هاني الراعي إلى عقر داره ليرميها بأحجاره؟

لا تميل إليه بطرف. تعلّق أنظارها بالخطيب محاولة أن تستعيد هدوءها. ولا تبالي بماري. لماذا تشدّ ماري على يدها هكذا؟ بل هي التي تغرز أظافرها في ركبة ماري. يُخيّل إليها أنّها تختنق في هذا القبو. هي في حاجة إلى الخروج، إلى الهرب. لا تريد أن تحضر روايات ولا أن تسمع خطابات. وإذا القاعة من حواليها تضجّ بالضحك. يضحك الأولاد عاليًا، والشيوخ يدقّون بعصيّهم الأرض. وماري تميل عليها وترفرف استحسانًا.

قالت تميمه:

– قلت لك إنّه صاحب نكتة.

قالتها مجّانًا – لم تسمع النكتة – لكي تقول شيئًا. والخطيب يستطرد إلى نوادر أخرى عن الجيل العتيق ذاكرًا فضائل الصلابة فيه، وكلمة الشرف، وحسن الظنّ بالحياة «في مرحها ووقارها على السواء»:

– طواطمنا، صدّقوني أيها الأصحاب، هم الذين صنعوا لنا هذا الوطن الحلو. ألا تعرفون ما الطوطم؟ إله أسطوريّ. إله عجيب ومسكين. كانت القبيلة البدائيّة في العصور الخالية تتّخذ من الطوطم شعارًا لها. وفي دراسة قام بها العلماء – هكذا قرأت في مجلة «نيوزويك» الأميركيّة – تبيّن لهم أنّ الطوطم كان مقدّسًا، ومع أنّ مسّه محرّم فقد كانوا يحتفلون في آخر

السنة بقتله رميًا بالحراب، ثمّ يأكلونه مشويًّا على النار... ثورة الجيل الجديد في العالم، تلك التي ينادي بها البعض في لبنان، هي ثورة الأبناء على الآباء كما يقولون. ضروريّة الثورة. لا بدّ من الثورة. ولكنّي جئت لأقول لكم إنّنا نحن في قرنايل لن نشوي آباءنا وجدودنا، ولن تأكلوهم عندكم بإذن الله.

ضحكت ماري ملء قلبها. بقيت تميمه ساكتة.

بعد الرواية قادهما هاني إلى ساحة المدرسة، ساحة الدير، وطاف بهما حول السنديانة الدهريّة يشرح لهما مراحل عمرها، ويشير إلى عبّها:

— هنا كان ينام المعلّم حسيب وهو صغير مع أبيه المبيّض.

لم تتمالك تميمه فدنت منه، وكاظمة ما استطاعت قالت:

— وهنا أنت وليندا. ألم تكن مدعوّة إلى الحفلة؟ أين الآنسة ليندا؟

تتوقّع منه ضحكة هروب أو عبسة. فاستدار يمينًا، وبرأسه أومأ إلى مقبرة دير المطلّ، خلف الساحة، قال:

— هنا.

وحدّق إليها:

— منذ عشر سنين.

فارتدّت منكسرة.

كان قاسم قد انضمّ إليهم. فكرّر هاني دعوته إلى العشاء، فقالت ماري:

— يجب أن أكون في المستشفى الساعة السادسة. دوري في السهر الليلة. شكرًا. إلّا إذا أحبّت تميمه...

وتميمه تجتهد في قراءة أعماقه. تختلس النظر إلى عينيه. لماذا لا تبتسمان؟ بلى إنّهما تبتسمان. واهمة هي واهمة. ولكن، ماذا لو يطمئنّ قلبها؟ وهكذا، عفوًا، بكلّ بلاهة، سألته:

— أتوصلني إلى بيروت إذا بقيت؟

لم يُحر جوابًا. كان مشغولًا بالكلام مع قاسم. فبادرت ماري:

— تميمه تمزح. التكسي الذي جئنا به ينتظر.

وأخذتها من يدها وانطلقتا مودّعتين.

في العودة ألقت تميمه رأسها على صدر ماري تبكي. كيف عرضت عليه ذلك العرض؟ لماذا وضعته أمام ذلك الامتحان الأحمق؟ وماري تضحك من قصص العشق والعاشقين.

منهوكتين وصلتا إلى الشقّة. وعلى الطعام الناشف الذي تناولتاه في المطبخ قالت ماري مواصلة مزاحها:

— الأستاذ أكرم الجردي نجحت عمليّته وسمح له الأطبّاء باستقبال المهنّئين. ما رأيك؟ سأقول له إنّني أسكن في شقّة واحدة مع فتاة اسمها...

فرفعت تميمه كفّها وأطبقت فم صديقتها. لم تردّ لها ضحكتها. راحت إلى السرير وشخصت بأبصارها إلى السقف، تبحث عن النجمتين المتألّقتين...

٢١

كذبت ماري على تميمه.

لم تنتظر ماري موافقة تميمه لكي تخبر أكرم الجردي. ماري، في الواقع، لا تريد أن تخبر تميمه. فالمحامي نادم على ما فرط منه وزاد:

— تميمه نصّور ممتازة. ولكنّها ليست لي ولا أنا لها.

وقطع الحديث.

ترى، لماذا قطع الحديث؟ ممتازة! ممتازة! متى كان الرجال يقولون إذا أحبّوا «ممتازة» عن امرأة يحبّونها؟

كانت ماري تفكّر في ذلك وهي في طريقها إلى المستشفى، وقد مضى فيه على الأستاذ الجردي أكثر من أسبوعين ولم يعد إلى الموضوع. ألأنّه اطّلع، يا تُرى، على علاقة تميمه برمزي رعد؟ — أتشمت!

– وغضبت ماري للخاطر اللئيم كيف خطر لها.

ولكن أتغضب حقًّا؟

إذن علامَ هذا السرور الذي يندسّ كاللصّ في صدرها؟

«تميمه فتاة طيّبة. طيّبة». قالتها عاليًا – تعويضًا.

أم يكون الصحافيّ «المجنون» هو الذي باح للمحامي خلال خلواتهما في كفر زروع؟ رمزي رعد، كما عرفت من تميمه، لا يتورّع عن شيء. «الشرف يجب تحطيمه من جملة الأرباب الكاذبة». هكذا علّم تميمه. وماري لا تستمرئه. رأته مرّتين يزور الأستاذ أكرم في المستشفى. يدخل لا يسلّم، يجلس لا يفتح فاه. يروح كما جاء. يعيش وراء نظّارتيه السوداوين في عالم آخر. الثورة! الثورة! الحقد وصرير الأسنان. كيف أحبّته تميمه؟ تميمه عائشة في الخيال.

«الخيال. الشعر. الحبّ الخياليّ، الغرام الشعريّ. الشعر الغراميّ... كلّه واحد» – وأحسّت المسّ ماري من نفسها خفّة، ومشت إلى غرفة الأستاذ أكرم كأنّها ترقص.

كان قاعدًا في سريره، وفي الغرفة عتمة تلمع فيها عيناه. وحدهما تحت حاجبيه الفاحمين كانتا تخرجان من الرباطات التي تلفّ رأسه، وذراعه اليمنى معلّقة بعنقه.

سبقها بالتحيّة، لاقاها بها منذ العتبة، كان ينتظرها.

ولكنّهم كلّهم ينتظرون.

– البارحة سألتني عنك زينه، جاءت لزيارتي مع ستّها.

أيّ لعبة هذه الطفلة! زيزي يناديها أبوها. أيّ سمرة دسمة في ذلك الوجه! وهذا الذكاء مع الحياء في عينيها. ورقصتها! تتعلّم الباليه. «أرقصي لنا يا زيزي». رقصت مرّة بناء على إلحاح أبيها. وفجأة توقّفت لتسأل المسّ ماري متى تنزع عن رأس أبيها الرباطات، فيجيبها أبوها: «بوسي المسّ ماري. لا تشيلها عن رأسي إلّا إذا بستِها على الخدّين».

كانت ماري تفكّر في ذلك وهي تفتح الشبّاك وتزيح الستائر، فدفقت الشمس في الغرفة.

البارح كان موعد إجازتها الأسبوعيّة، الأستاذ أكرم يعرف. وهو ينظر إليها منهمكة بشؤونه ويتنشّق عطرًا لها يطغى على رائحة هذه الأزهار التي تعيدها إلى الغرفة مع الصباح، تصفّها على الطاولة، توزّعها في الزوايا، تحار أين تضع هذه السلّة الكبيرة من الزنبق الأحمر.

– وصلت الساعة.

ونزعت البطاقة وناولتها للأستاذ أكرم.

وسلّة أخرى يأتي بها الخادم إلى الباب. أزهار. أزهار. كلّ يوم باقات جميلة. وهي ماضية في ترتيبها. تبدي إعجابها. تهتف. تضحك. تغبطه على الصداقات العديدة التي له. تعود إليه وتأخذ ميزان الحرارة من فمه. فيرفع يسراه ويمسك بمعصمها. يقول إنّه لا يحبّ الأزهار في المستشفيات. لا يحبّ في هذا المستشفى إلّا عطرًا واحدًا. تتفلّت منه وتتشاغل بتسجيل الحرارة على الدفتر.

كانت المسّ ماري أبو خليل هي الموكّلة، فوق الممرّضات الأخريات، بالأستاذ أكرم الجردي. وقفت على تضميد جراحه وكانت بجانب الطبيب الذي أجرى له العمليّة في ذراعه –كسر عند الكتف– وسهرت عليه ليالي الألم الحادّ تحكي له ما تحكيه الممرّضات. ولمّا قطع حديث تميمه نصّور–كان ذلك في اليوم الثاني للعمليّة– حارت بما تحدّثه. ظنّت أنّها خير التسليات. علّمتها تجاربها أنّ التسليات العاطفيّة هي أطيب بلسم وأنجع دواء، فضلًا عن الصداقة بينها وبين تميمه وما هي جديرة أن تضفي على الحديث من إثارة.

ولكنّ الأستاذ أكرم طوى الصفحة. بدا أنّ الحديث أزعجه. طلب منها أن تكلّمه عن نفسها.

ويكلّمها هو عن نفسه. يقضي السهرات وهي على

الكرسيّ إزاءه يسرد عليها سيرته. بدأ بالسياسة انطلاقًا من حادث الاعتداء عليه. «اليغموريّون هم آفة البقاع»، هكذا يقول عنهم، وما كتبه عنهم رمزي رعد نقطة من بحر. أرادوا قتله؟ حتّى ولو نجحوا فلن ينجحوا إلّا في زيادة النقمة عليهم وتعجيل المصير الذي ينتظرهم.

ثمّ ينعطف إلى حياته الخاصّة: زوجته التي أودى بها ذلك الحادث المشؤوم. أحبّها؟ كانت له وكان لها منذ الصغر. ابنة عمّه. وعود الأهل بعضهم لبعض. تقاليد ذلك الزمان. الحنان كان يجمعها.

ما يشغل باله خصوصًا الوضع الذى هو فيه: أمّه. ابنته.

ويحكي عن طفولته وشبابه. ذكريات كفر زروع. والمدرسة في زحله. والجامعة في بيروت. وباريس حيث حصّل الدكتوراه في الحقوق وركض وراء النساء. في الكلّيّة. وعلى الأرصفة. وفي الحانات... اعترف لها بكلّ شيء.

وذات مساء ذكر لها أوديت وعلّق وشرح. أخبرها أنّها حاولت زيارته في المستشفى على أثر الحادث، فأوفد إليها من أبلغها قراره النهائيّ: قطع علاقته بها ولن يرى لها وجهًا بعد اليوم. ثمّ أردف متنهّدًا:

– كم يوزّع الإنسان قلبه!

هكذا قال الأستاذ أكرم. واستلقى على مخدّته وأغمض عينيه. فتركته المسّ ماري، لم تقل شيئًا ولم يطلب إليها أن تبقى...

خلف أجفانه المطبقة عادت إليه صورة زينه. وكفرزروع. وسطيحة البيت في البقاع. وذلك الصباح الخريفيّ.

كانت الدنيا قد أمطرت في الليل. خرج مبكرًّا إلى السطيحة ليرى الأرض بعد حمّامها. فواجهه رذاذ خفيف ناعم يتهادى في الهواء.

وزينه على السطيحة –كانت في الخامسة من العمر– قد سبقته. متى أفاقت؟ وشمسيّتها بيدها، وباليد الأخرى كأس تلتقط فيها المطر!

تنقّل قدميها على السطيحة. تكرج كالعصفور. تمدّ كأسها. تدنيها. تقلبها على شفتيها. تهزّ رأسها خائبة.

تحاول مرّة أخرى. تمدّ يدها بالكأس بعيدًا. يمينًا. شمالًا.

لا شيء.

تخطو خطوتين. ثلاثًا. تقف على الحافّة. تضع الشمسيّة والكأس على الأرض ثمّ ترفع رأسها.

وبتكشيرة وُسْع فمها تشرب قطر السماء.

٢٢

المقهى المعتم مرّة أخرى.

وهي هنا في زاويتها، تنظر إلى زبائن المقهى الموزّعين أزواجًا، ذكرًا وأنثى يتهامسان، يتضاحكان، يتعانقان على مرأى ومسمع. ولكن كأن لا عيون ترى ولا آذان تسمع. المقاعد ذات حواجز عالية فكلّ واحد منها عالم مستقلّ. أعشاش للحبّ. وضوء خافت على موسيقى ناعمة. أو بالعكس – صحّحت تميمه – موسيقى ناعمة على ضوء خافت.

وهي تجيل أبصارها في المكان. تتأمّل المصابيح في السقف والصور على الجدران كمن يقلّب في كتاب قرأه في السابق مستعيدًا بعض فصوله، متوقّفًا عند بعض فقراته. المصابيح ترتعش بأسطواناتها الورقيّة المزوّقة حمراء، زرقاء، صفراء، خضراء. الورق تمزّق عن أحدها، هذا الذي بإزائها، ومن المزقة تطلع اللمبة كالعين البلقاء، كالعورة المنكشفة.

وهذا هو التلفون على الطاولة لِصق الحائط. لكلّ مقعد تلفونه. تذكّرت أنّ اسم المقهى «شاي وتلفون». كانت تمشي في الحمرا، في زيارتها الأولى للحمرا، فاستوقفها الاسم: «شاي وتلفون». يبيعونك

هنا فنجانًا من الشاي وموعدًا على التلفون... كهذه الفتاة التي لا يهمّها من البضاعة ، على ما يبدو ، إلّا الشقّ الثاني. فقد جاءها الخادم بالشاي منذ ربع ساعة. برد الشاي ، وهي آخذة بالتلفون ، تصغي ، تقهقه ، تهمس. تمرّغ التلفون بخدّها ، تشدّه بين ذقنها ونحرها ، تقبّله تقبّله تقبّله ! ثمّ تخطف جزدانها وتثب إلى الباب.

أو تلك ، ذات الشعر المرسل الذي يغطّي عينيها ، هناك في الزاوية. مسكين تلفونها لا يحظى منها بشيء ممّا حظي الآخر من صاحبته. لا مداعبة ، لا همسة ، وبدل القبل صيحات وغضبات. وهي تنتره من يد إلى يد ، من أذن إلى أذن. يتعثّر بخصائل شعرها. تضرب خصائل شعرها ! تضربه ، تمسكه باليدين الاثنتين ، تهزّه بعنف كما يهزّ المعلّم تلميذًا مذنبًا من كتفيه. فريسة تلفونها وقعت بين براثن ذئب. تقلّبه ، تهشّم عظامه ، تفترسه... وفجأة. — ما الحكاية؟ — هدأت هدوءًا عجيبًا. نزعت التلفون عن أذنها ، أبقته في الهواء ، نظرت إليه طويلًا. ثمّ تركته يقع مرّة واحدة — مات تلفونها — وتنهمر وحدها بالبكاء.

الضحكات تملأ المقهى. الموسيقى الناعمة على الضوء الخافت — أو بالعكس — والمصباح أبو العين البلقاء.

نظرت تميمه إلى تلفونها. نائم على وجهه. «زعلان» — قالت تلهي نفسها — «بل تعبان. تعبان». بالجهد دنا منها — كأنّه أدير على رقم الوقت. قال : الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة. لم تقل هي شيئًا. فأعاد : الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة.

الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة وصل رمزي.

فقامت ومشت وراءه.

صرير المفتاح في باب الغرفة.

دخل رمزي ودخلت وراءه.

ألقى نظّارتيه وقهقه عاليًا. لماذا يقهقه هكذا؟ لم تسأله.

كانت تسأل نفسها : تُرى ، لماذا يقفل العشّاق — بمن فيهم الأزواج ولو لم يكونوا عشّاقًا — الأبواب والنوافذ؟ لتكون لهم الحرّيّة. تكلّم الشاعر ذلك المساء في وست هول عن الحرّيّة ، حرّيّة الحبّ. عن الكرامة ، كرامة الحبّ. حرّيّة الإنسان في الحبّ وكرامة الإنسان في الحبّ. ولكن ما معنى أن يخلع الإنسان ثيابه — بلا حرّيّة وبلا أيّ كرامة — ثمّ يخلع وجهه هذا الذي يحمله بين الناس ويرصفه فوقها؟

الوجه الآخر — الحياة الأخرى. بل الحيوات الأخرى المتعدّدة الوجوه. المتناكرة الوجوه.

المهديّه وأمّها — الجامعة ودروسها — هاني والبحر — هذه الغرفة والنظّارتان. كأنّه إذ يخلع نظّارتيه قد تعرّى. يتعرّى بخلع نظّارتيه.

ويعود إلى الضحك عاليًا.

— تعرفين الخبر الأخير عن الفيتنام؟ الحرب فظيعة في الفيتنام! الأميركيّون غاضبون على حرب الفيتنام. الإنكليز ، الفرنسيّون ، الألمان ، العرب ، التتر ، كلّهم غاضبون على حرب الفيتنام ، يحتجّون على حرب الفيتنام. بالإضرابات والتظاهرات ، والكتابات والمؤتمرات يحتجّون. الخبر الأخير عن الفيتنام جاء اليوم من أمستردام. جون لينون كبير البتلز ، الخنفس رقم ١ ، معبود الملايين ، الذي تزوّج من الحسناء اليابانيّة يوكو...

يقهقه مرّة أخرى. أسكران هو؟ يمدّ يده ليساعدها على نزع ثيابها.

— تذكّرت حينما أغلقت الباب... جون ويوكو وصلا إلى امستردام لقضاء شهر العسل. تعالي يا يوكو! (وجذبها من ساقيها العاريتين). وفي اليوم الأوّل لوصولها دعوا إلى مؤتمر صحافيّ فصرّحا أنّهما سعيدان جدًّا لقضاء شهر العسل في أمستردام ، مدينة السلام ،

وأنّهما يرجوان أن «يعملا» فيها ولدًا، ويسرّهما جدًّا أن يعلنا بواسطة مندوبي الصحافة والإذاعة والتلفزيون أنّهما سيتركان باب غرفتهما في الفندق مفتوحًا على مصراعيه ليأتي من يشاء ويتفرّج عليهما يمارسان الحبّ. طريقتهما – قال جون وأكّدت يوكو – في الاحتجاج على حرب الفيتنام. فظيعة حرب الفيتنام! فظيعة!

كان رمزي قد قلب تميمه على السرير. يرتمي عليها. ينهش نهديها. يطوّف بساقيها. يتلمّس بشفتيه أطراف أصابع قدميها...

وتغمض هي عينيها.

رياح. رياح على الشاطئ. رياح. رياح.

ومحمولة هي بوجه الرياح في الليل الأزرق على ذراعين رفعتاها مرّة أولى دون أن تعي. وتلك الثانية. وهذه – دون أن تعي الذراعان – الثالثة.

وفي السيّارة ذات فوح الجديد، ملء الحضن الآخر، وبدل هذا الضوء الأحمر، الذي يسرّح طيوفه المريبة في الزوايا والسقف والحيطان، العينان اللتان تبتسمان وتلك القبلة.

هناك هي، هناك، على الشاطئ.

على الضفّة الأخرى من البحر. ولها جناحان كأطيار البحر. ومع أطيار البحر ترفرف بين البحر والأرض والسماء...

لم تنتبه إلّا وقد أُضيء المصباح الأبيض. وهي واقفة وسط الغرفة. وفي المرآة جسد عارٍ.

هي.

ويد تمسك بالحميم من الثياب قد همّت بارتدائه.

وبعده الفسطان الملقى هنا على الكرسيّ.

«الثياب بكارة جديدة»!

وبعد الثياب الوجه الآخر. المستعار.

لا! فلينتظر الثوب الحميم. والفسطان ليسترح على كرسيّه!

إنّها تريد أن تواجه هذه المرآة. تتأمّل بهذا الجسد العاري. تصعد بأبصارها فيه وتهبط من أمّ الرأس إلى أخمص القدمين.

بهذا الشعر المسبل على الصدغين. خصلة منه ملتاعة تحجب عينًا، والعين الأخرى فارغة إلّا من الجسد العاري بنهديه الناهجين.

بالصرّة الخافقة زورقًا يتهادى على الموج. صلًّا ينطوي في كثيب.

بالردفين المكوّرين.

بالساقين الملساوين البارقتين.

بالغابة الصغيرة الكثّة – حيث يرود الشرف وحشًا مفترسًا وتنام الفضيلة في مغاور السباع!...

نفضت خصلة الشعر عن عينها وأسرعت لتستر عريها بعيدًا عن المرآة. عن نفسها. وبعد أن ارتدت ثيابها استدارت إلى المرآة ووضعت الوجه الآخر. فردّت لها الأخرى ابتسامة – ما معنى هذه الابتسامة؟ ولمن؟

«للدنيا» – أجابت نفسها – ثمّ سبقته، حسب العادة، في الخروج.

توقّفت على الباب كمن نسي شيئًا. هنيهة. ثمّ سلكت في السلّم.

كانت تنزل السلّم وكأنّها تعدّ درجاته، توقّع خطواتها الواحدة بعد الأخرى، والحيطان تتجاوب بأصدائها في قفص السلّم المعتم، تغور في قعره وتذهب في أعاليه. حتّى وصلت إلى الباب الرئيسيّ، فصفقها الهواء من الخارج فثنت معطفها على العنق ومشت.

كان عليها أن تمشي إلى الشارع الكبير. لا تكسيات في هذا الطريق الفرعيّ وأضواؤه خافتة. وهي تمشي ببطء. تجرجر قدميها.

لكأنّها تمشي في موكب. ووحدها هي مع الليل.

أنغام الموكب في أذنيها. له أنغام الصمت.

والموكب وراءها. أمامها. وفي وسط الموكب هي تمشي.

صامتة. والموكب صامت.

أخرس وخرساء إلّا من أنغام الصمت.

وهي في الموكب ، مطرقة ، تمشي في جنازة الحرف الذي مات...

وإذا صوت يُرعد باسمها ومع الصوت خيال يشقّ الليل منقضًّا وشيء حادّ يشخط خدّها. فترفع صوتها وكفّيها فإذا الضربة الثانية مع شتائم تجرّح الليل :

– المرّة الثانية ذبحك يا قحبة !

ويركن الخيال الضخم إلى الفرار.

وتقترب من المصباح على المفرق : الدم يملأ كفّيها. يلمع على الضوء أحمر ، حارًّا ، رطبًا.

وتتحلّب منه إلى فمها قطرات.

قد ذاقتها. لها طعم مرّ حلو.

طعم الحياة والم...

٢٣

لم يخطئ حسين القمّوعي هدفه.

الضربة الأولى كانت مُحكمة شطب بها وجه تميمه نصّور من اليسار ، تحت العين ، شطبة عموديّة مع انحراف صوب الأذن. وضاعت الضربة الثانية في كمّها إذ اتّقتها باليد فلم تصبها إلّا بجرح طفيف عند المعصم.

لماذا لم يكمل المعتدي مهمّته فيذبحها؟ وعد بذلك في المرّة التالية.

«ثوري ! أحبّك أن تثوري». هكذا كان الشاعر يصرخ بها وبأخواتها.

كيف؟ بالتظاهرات واللافتات !

أين؟ في الشوارع والساحات !

ثارت. هذه نتيجة الثورة.

جاءت توًّا إلى الشقّة. ومن الشقّة تلفنت للمستشفى ، فهرولت المسّ ماري مع الطبيب بالإسعافات اللازمة. أمّا المستشفى ، وهو يعجّ بالخلق ، فلم يكن من الحكمة أن تطأه تميمه إلّا إذا كان ما يوجب ، وها إنّ الطبيب قد طمّن والحمد لله.

وأضافت ماري :

– وأثر الجرح سيزول. لن يبقى أيّ أثر. أخو جرح التظاهرة.

وابتسمت لها عن كلّ نبلها وحنانها ، فوقعت تميمه في حضنها تبكي وتعترف لها بكلّ شيء.

في الصباح جاء الطبيب فغيّر للجرح ، فأصرّت على مشاهدته مكشوفًا في المرآة. وما كادت حتّى انقلبت بعينين يملأهما فراغ هائل.

وساد صمت. قالت ماري تقطعه بمرحها :

– ماذا تطبخين لعشائنا؟ أترك لك الغداء لأنّي مشغولة عند الظهر وسأتغدّى في المستشفى. طبّاخة على حسابي ، يا دكتور ، من اليوم إلى... خمسة عشر يومًا على الأكثر. خمسة عشر يومًا محكوم على ماري المسكينة أن تأكل طبخًا محروقًا. الآنسة ، يا دكتور ، ماهرة في طبخ الأشعار.

وأسعف الطبيب فرمق تميمه مبتسمًا :

– صحيح ، يا مدموازيل؟ قالت لي المسّ ماري إنّك طول الليل تكتبين. الليلة يجب أن تستريحي.

لم تجب تميمه.

كان قد تمّ الاتّفاق أن لا تغادر المنزل من الآن إلى أن يلتئم الجرح ويزول أثره. أيّ زوال هذا الذي يمنّيانها به؟ بعد أن خرجا قامت مرّة أخرى إلى المرآة وودّت لو تنزع هذه الضمادة لتتأمّله من جديد. ولكنّها ليست عمياء. تكذب ماري. ويكذب الطبيب. إنّه جرح عميق. ثلم كبير. ومعه حتمًا تقلّص الجلد وانثناؤه.

أأثر وشوهة؟ وارتمت تميمه على السرير.

إذن لقد وُسمت. وستحمل وسمها – علامتها الفارقة – هنا على وجهها عند عينها ، بوجوه الناس وعلى عيونهم. في دار المعلّمين والمعلّمات. في الجامعة وخارجها. في المجالس والشوارع. وستصوَّب إليها الأنظار ويُشار إليها بالأصابع : هذه العاهرة ! وهذا برهانها !

وستكون بين تلك الأيدي يد هاني ، وبين تلك العيون عيناه. لكأنّ القمّوعي لم يطعنها هي بل طعن ابتسامة تينك العينين ، وأخمد شعاعها إلى الأبد.

إلى الأبد لن تشعّ لها ابتسامة عينيه. إلى الأبد؟!

مرّة أخرى ، لماذا لم يتمّ المعتدي ما بدأه فيذبحها من الوريد إلى الوريد؟

واحدة تلحق بأخواتها – عشرات – يُذبحن كلّ يوم على العتبات ، في الأسرّة ، في عرض الطرقات ، ويُطرحن في تنكات الزبالة.

لكن ما أجّله حسين القمّوعي ستعجّله هي.

كيف؟ ألف طريقة : الموس. السمّ. الروشه. هذا البلكون... أيّ شيء!

ولمع في ذهنها شيء. ماري وضعت الإسعافات في الصيدليّة الصغيرة المعلّقة في المطبخ. بين تلك الإسعافات قنّينة فيها الشفاء الصحيح.

ومشت إلى المطبخ...

حينما عادت الممرّضة في المساء ، وقد عادت مبكّرة قصدًا ، استغربت كيف لم تبادر تميمه للقائها. فنادت فلم تجبها. فأسرعت إلى غرفتها. مقفلة من الداخل! فدقّت مرّة. مرّتين. نادت بأعلى صوتها. لا أحد.

هل تكون...؟

وتراجعت ماري. وبكلّ قواها دفعت الباب ملء كتفها فخلعته.

ونظرت.

فإذا تميمه ممدّدة على سريرها بلا حراك وإلى جانبها قنّينة اليود.

فوثبت إلى التلفون تطلب المستشفى.

الحلقة الثالثة

«ولكن لماذا أنا أناديك يا ربّ
وهل أنت إلّا غريب آخر؟...»
أنسي الحاجّ

١

تميمه مسجّاة على فراشها وصديقتها الممرّضة ساهرة عليها الليل، مع هذه الحبوب من الدواء التي وصفها الطبيب، وهذا الماء الذي تفتح له فاها لتتقيّأه على الأثر.

على شفتيها يلتقي الموت والحياة ويتواجهان، كما التقيا وتواجها ذات يوم، ذات لحظة، على شفير التينة في المهديّه.

دفتر الخرطوش.

٢٨ كانون الأوّل ١٩٦٨ – «لقد أردت أن أتقيّأ الحياة، وها هم يجبرونني على تقيّؤ الموت الذي شربته. لماذا عادت ماري أمس مبكّرة من عملها؟ أما كان في استطاعتها أن تؤخّر مجيئها قليلاً؟ بل لماذا انهزمت الهاوية أمام ذراعي الأمّ؟ لماذا؟

الموجة التي تريد أن تعانق نهايتها على رمال الشاطئ البعيد، مكفّنة بأشعّة الفجر، أيّ قدر عنيد يعيدها إلى العباب لتكرّ في المرّة الثانية على حائط المرفأ القذر وتعانق نفايات المدينة؟»

وتغشاها رقدة – «نشوة الحمّى» قالت لنفسها. وبين الصاحية والغافية تتعاقب في ذهنها مشاهد متنافرة متداخلة: المهديّه، المدرسة في صيدا، حيّ الحمرا، الستّ روز. أحيّ الحمرا هذا؟ أم باب إدريس؟ أم الروشه؟ وتسمع أصواتاً تناديها:

– يا زهرة الحقل الحلوة! تعالي يا زهرة الحقل الحلوة.

تجتهد أن تتبيّن المكان الذي هي فيه فلا تقدر على فتح أجفانها كأنّ أجفانها صفائح رصاص. ولكنّها ترى روز جيّداً. روز أمامها وروز عن يمينها وروز عن شمالها. روزات يحاصرنها بالعشرات ويتودّدن إليها بالكلمات والإشارات، على جباههنّ مصابيح حمراء، وفي المصابيح شموع تنتحر، وفي أعناقهنّ عقود من الجرذان تبرق عيونها ماساً وياقوتاً، فيروزاً وعقيقاً.

– تعالي يا زهرة الحقل الحلوة. اِقتربي لنطوّقك.

وتنزع إحداهنّ عقدها لتطوّقها به.

– أكاد أختنق! أكاد أختنق!

كانت تميمه قد ضربت اللحاف بيديها الاثنتين فسوّته لها ماري:

– نامي. نامي. يجب أن تنامي.

رأت نفسها تغادر المرفأ... ولكنّها لم تذهب اليوم الى المكتب – تذكر جيّداً أنّها لم تذهب اليوم إلى المكتب – فكيف جاءت إلى المرفأ؟ تمشي في شوارع المرفأ وجرذان المرفأ السمينة تطلع من الأقبية، تخرج

من شقوق الحيطان ، تقفز من المراكب إلى البرّ وتنتظم صفوفًا.

الجرذان تمشي معها. تنعطف ، إذا انعطفت ، من شارع إلى شارع. تحتمي بالقناطر – في سوق المعرض هي هذه المرّة ، ما في ذلك شكّ ، وإلّا فمن أين هذه القناطر؟ – وتحت القناطر طفل يتململ في خرقة فتندسّ الجرذان في خرقته.

وعتّالة يشخرون منبطحين على البلاط فتركب على شواربهم.

وشيخ في الزاوية يبصق رئتيه سعالًا فتلعق بصاقه.

وصبيّ يركض ناجيًا بنفسه من لوطيّ. يدعس الصبيّ على الجرذان فتصوي صواء منكرًا ، واللوطيّ يلاحقه ، فتحاول صدّه فإذا به يهجم عليها فتلوي هاربة.

والجرذان تتبعها... تسبقها...

ترتقي الجرذان أدارج السرايات – بوقار ترتقي أدراج السرايات.

تتعرّش على أبواب المصارف وتشبك أذنابها بقضبان الحديد متأرجحة.

ها هي تتسلّق قبب الكنائس ومآذن الجوامع. حيّا على الفلاح ! حيّا على الفلاح ! والأجراس تقرع ملهوفة وتمزّق السماء.

وتفتح تميمه عينيها. أين ماري؟ العرق يتصبّب من جبينها فترفع يدها من تحت اللحاف لتمسحه. تمرّ يدها بصدرها فتعلو عليه وتهبط. تثبّت يدها على صدرها.

أخفقات قلبها؟

أم طرقات على الباب؟

أم دقّات الساعة؟

وتنظر إلى الساعة المعلّقة بالحائط إزاءها. هديّتها إلى ماري يوم نزلت عليها في الشقّة: «ألا تعرفين قصّة ميخائيل نعيمه «ساعة الكوكو»؟ كنت أقرأ هذه القصّة فأعجبتني ، وفكّرت بهديّة فاشتريت لك ساعة كوكو. تعلن الوقت بصياح ديكها:

– كوكو ! كوكو !

الضربات لا تنقطع ، تصدع الجدران ، تثقب السقف ، وتهوي على رأسها.

– أغلقوا الشبابيك ! أغلقوا الشبابيك !

كانت ماري في المطبخ فهرعت تستطلع الخبر. مسحت جبهة تميمه ، وتميمه تحملق في السقف وتصرخ صراخها:

– الشبابيك ! الشبابيك ! أغلقوها ! وسدّوا هذا السقف ! الغربان ! الغربان !

– أنت تهذين يا تميمه. نامي ، قلت لك يجب أن تنامي

وربّتت على كتفها.

ولكنّ الغربان تصفق الشبابيك بأجنحتها السوداء وتضرب الزجاج بمناقيرها. «ألا ترون مناقيرها الشوهاء؟ تقع عليكم من السقف وقوائمها تتدلّى فوق رؤوسكم. ألا ترون قوائمها الزرقاء تتدلّى فوق رؤوسكم؟»

وفجأة تقتحم الغربان البيت.

من أين دخلت؟

تحوّم فوق السرير ثمّ تهوي. على وجهها ستهوي ! على نحرها ستهوي ! وإذا هي تتزلق من السرير انزلاقًا ، تمرق تحت الغربان وترمي بنفسها من الشبّاك سابحة في الفضاء...

حطّت في ساحة الشهداء. وأبو شرشور اليافاويّ خلفها يلوّح بحبله ، وللحبل ظلّ يسبقها متراقصًا في الجوّ، فأرادت أن تتنفّس الصعداء فقادتها خطاها إلى النصب التذكاريّ. الجرذان حول النصب تزحف إلى المنصّة ، تملأ الحديقة ، تغطّي ساحة الشهداء. والساحة أقفرت ، لا ناس ولا سيّارات ، لا زمامير ولا صفّارات.

ليس إلّا ضوء القمر الأبله.

والجرذان تمرح في ضوء القمر ، تتنادى متدفّقة من الجبال ، تطلّ بنواجذها من صوب البحر ، تقبل من الشمال ، من الجنوب ، تسرح على أقدام الشهداء ،

تدبّ بين سيقانهم ، على أكتافهم ، على رؤوسهم ، تلتفّ حول أعناقهم وتنقّر في عيونهم تنقيرًا.

والساحة ، من جهاتها الأربع ، تمور بالرقص.

– «ساحتنا !» كان يهتف الجرذان بصوائهم.

ويتخاصرون ويقفزون

على أعقابهم يدورون

على الظهور ينقلبون وعلى البطون

يرفعون أذنابهم إلى السماء

يدقّون رؤوسهم بالأرض

يتهاوى بعضهم فوق بعض

يضحكون يبكون

وعلى جثث موتاهم يتضاجعون وينسلون...

واحد منهم ، زعيم ، على قمّة النصب ، يحدّجها بعينيه الجوّالتين ، وينثني انثناءة ، وما يكاد حتّى يكشّر عن نيوبه وينقضّ. ولكنّ اليافاويّ كان قد رفع ذراعه الجبّارة وتلقّاه بشرشوره.

ونظرت تميمه. فإذا الحبل يلفّ الشهداء وقد رسم ظلّه في الأفق قوس قزح عجيبًا.

كوكو ! كوكو ! كوكو !

وطلع الصباح...

متجهّمًا طلع الصباح ، ملطّخًا بالحادث الجلل – اعتداء اسرائيل على مطار بيروت الدوليّ – قد هبط جنودها من الجوّ تحميهم الطائرات الحربيّة ، فأشعلوا النار في ثلاث عشرة طائرة مدنيّة جاثمة على الأرض ردًّا ، كما ادّعت إسرائيل ، لاعتداء على طائرة من طائراتها قام به في أثينا قبل أيّام فدائيّان انطلقا من لبنان. تمّ الغارة في الساعات الأولى من الليل فلا تتعرّض لها أحد ، ولا تنطلق في وجه أصحابها نأمة.

٢

عظم الأمر في نفوس الطلّاب ، فهبّوا غاضبين لكرامة وطنهم وأعلنوا الإضراب في الجامعات وشاركهم فيه تلاميذ المدارس في العاصمة والمدن حتّى القرى الصغيرة النائية ، ورفعوا مطالب إلى السلطات في مقدّمتها التحقيق في فضيحة المطار وإقرار التجنيد الإجباريّ. ولم تلبث الحركة أن تطوّرت من الإضراب عن الدروس إلى الاعتصام في المعاهد والصيام والتظاهر. واستقالت الحكومة وقامت حكومة أخرى فطوّقت الطلّاب بواسطة الجيش تمنع عليهم الخروج ، فتحوّلت بيوت العلم ضمن جدرانها إلى قُفُر نحل.

كان الوقت يزحف بأثقاله وتميمه حبيسة في الشقّة.

أمّا ما نالها من محاولة الانتحار فقد زال بعد أيّام. وأمّا الجرح فقد شفي بعد أسبوعين كما قالت ماري ، بل قبل انقضاء الأسبوعين. ولكنّ أثره كان همّها. فعدّت له أسبوعًا ثالثًا ، وتنظر إليه في مرآتها كلّ ساعة.

صحّ ما توقّعته. الأثر باقٍ. يسطع. يدلّ على نفسه. عليها !

– أغطّيه لك بضمادة. تقولين بثرة طلعت بوجهك ، إلى أن يمّحي. سيمّحي ، أقول لك ، مع الوقت. تفهمين بالحبّ ، سلّمنا ، اتركي لي الطبّ.

كانت ماري ترعاها بمحبّة وحنان مع مرح لا يفارقها. وزارت آمنه ابنتها في أثناء ذلك فزعمت لها الزعم الذي لُقّنته فجاز على الأمّ. وسمّاعة التلفون معلّقة طول غياب صديقتها في المستشفى ، تقطع بذلك السبيل على من يتصدّى للاتّصال بها من الخارج. فإذا كانت ماري في الشقّة ردّت على السائل : الآنسة تميمه في المهديّه ولن تعود إلّا بعد أن تفتح الجامعات أبوابها.

وتميمه تتحرّق في سجنها وتقضم جرائدها آناء الليل وأطراف النهار. قد أوصت على دزّينة من كلّ الألوان : جرائد بالعربيّة. بالفرنسيّة. بالإنكليزيّة. جرائد صباحيّة وأخرى مسائيّة. تتابع فيها الأحداث ، وتذهب بخيالها متتبّعة حركة الطلّاب ونشاط الرابطات ، وتعيش مع هاني في مظانّه.

وفجأة ينتصب الجدار. كيف تقابله بما تحمل؟ كيف تخفي عنه فعلة حسين القمّوعي ؟ وإذا أخبرته بها

فهل تدّعي أنّها نتيجة المحاورة في تحقيق «أوتلوك»؟ العياذ بالله!

وسترت وجهها بكفّيها الاثنتين. مستحيل! مستحيل أن تنحطّ إلى هذا الدرك. إنّها إذن تطعنه بدورها وبأحقر من السكّين الذي طعنها به الآخر. أكثر من ذلك. لن يعلم هاني شيئًا ممّا كان. بعيدًا بعيدًا يجب أن يبقى هاني. هي لعنتها، ويجب أن تتكفّل وحدها بلعنتها.

ولكن كيف؟ كيف واللعنة تصرخ في وجهها بوجهه ووجوه الناس أجمعين؟

وحطّ اليأس على صدرها مرّة أخرى وضاقت بها دنياها.

ذات صباح قالت لماري إنّها ذاهبة إلى المهديّه لتستريح بضعة أيّام، فسوّت لها ماري ضمادتها على شكل ارتضته. فودّعتها تميمه وخرجت.

كان عليها أن تعرّج على مكتب النقابة، قبل أن تطلع إلى المهديّه. لأوراق شخصيّة أقفلت عليها الخزانة. ستأخذ أوراقها وتسلّم مفتاح الخزانة لبهجت أفندي. لقد منحتها النقابة إجازة شهر لمرض ادّعته، ولكنّ الإجازة ربّما امتدّت إلى أجل غير مسمّى واحتاج المكتب إلى سكرتيرة أخرى واحتاجت السكرتيرة إلى الخزانة وفيها الكثير من الملفّات.

شدّ ما كانت دهشتها إذ وجدت المكتب مقفلًا. إنّها الساعة العاشرة، وعزيز يفتحه قبل الثامنة كلّ يوم. أين أبو العزّ؟ أين أبو الهول؟

وارتدّت إلى المكتب المجاور تريد أن تتلفن لأمين السرّ في منزله، فإذا ببهجت أفندي يقبل ليفتح بنفسه. قال:

— في اليوم الثاني لضرب المطار ترك لي أبو الهول ورقة في المكتب يقول فيها إنّه ذاهب ولا يعرف متى يعود إذا عاد. وسألت أباه عنه فقال: أبو العزّ راح يأخذ بثأر أخته. التحق بالفدائيّين.

٣

كان هاني الراعي منكبًّا على قضيّة الساعة، يطوف في نخبة من زملائه، أعضاء رابطة كلّيّة الهندسة، بسائر كلّيّات الجامعة ويتنقّل بين الجامعات الأخرى. الإضراب شامل، مع لجان وبيانات، وخطب وإذاعات، وكتابات على الجدران وحلقات تُعقد في كلّ مكان. تمتزج خلال ذلك كلّه الحماسة بالنقمة، بالمرارة، بنزق الشباب وبراءته، ترفدها التيّارات المتدفّقة من أربع جامعات ببرامج متباينة، ولغات متعدّدة، وطوائف وجنسيّات مختلفة. ولم تمضِ أيّام حتّى فقدت الحركة صفاءها الأوّل. تعكّرت بضروب من الرواسب طفت أوحالًا، وانهمرت فيها مع كلّ ريح أبخرة من معامل التعصّب وغبار الشوارع الغوغائيّ. والزعماء التقليديّون وتجّار النفوذ قد اندسّوا في صفوف الطلّاب يحرّكونهم لمآربهم الحزبيّة وشهواتهم الخاصّة، ويغمسون رؤوسهم في أجران الأصبغة العقائديّة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.

تعدّدت الاجتماعات والمشاورات بين هاني وأصحابه. في قطاع الطلّاب وحده كان ضمير الأمّة يختلج ويتخبّط. ولكن ما عساهم يفعلون والأكثريّة الساحقة منهم ما تزال، بالرغم من مظاهر الثقافة، مرتبطة بالمدرسة العتيقة، يرفعون شعاراتها، ويخدمون أغراضها غافلين؟ والحكّام عاجزون لا يقدّمون إلّا حلولًا اتّكاليّة وصورًا باهتة لمستقبل يكتنفه القلق والشكّ. قد اغتبطوا — على الصعيد الخارجيّ — وصفّقوا لقرار مجلس الأمن الإجماعيّ بإدانة إسرائيل على اعتدائها الغاشم. ولوّحوا — على الصعيد الداخليّ — باستجابة بعض المطالب، فوعدوا بمشروع قانون للتجنيد الإجباريّ وصرّحوا أنّهم يمنحون الفدائيّين تأييدهم الكامل وبركتهم. أمّا بقيّة المطالب...

قال هاني:

— بقيّة المطالب لا يمكن ارتجال تحقيقها. يجب أن

نحدّدها قبل كلّ شيء. أن نعرف ما هي وأن نتّفق عليها. إنّها ليست من عمل الحكومات. ليست من عمل هذه الحكومات المتعاقبة، في كلّ حال.

كانت قد بُذلت محاولات يائسة لتصعيد الحركة، وخصوصًا في الجامعة العربيّة والجامعة الأميركيّة، فانقطع فريق من الطلّاب عن الطعام معتصمين بقاعات الدرس هنا وهناك، وانهار منهم بضعة عشر تحت تأثير الجوع فنُقلوا إلى المستشفيات، ما سأل عنهم إلّا أهلهم الأقربون، فيما انطرح الآخرون في قاعاتهم يصمد منهم من يصمد، ويضبّ منهم من يضبّ على فراشه في اليوم الثاني أو الثالث، والعسكر بأسلحتهم الكاملة يحيطون بالجامعات سورًا منيعًا، وإطفائيّو السياسة يتلقّون شرارات تطايرت في الجوّ بقصد إلهاب العمّال لينضمّوا إلى الطلّاب في زحف ثوريّ، فأخمدوها، وبقي العمّال وسائر فئات الشعب بعيدين عن الساحة يقرأون أخبار الطلّاب كما يقرأون برامج السينما.

إنّ الحركة تختنق.

وطُرح السؤال: هل نعود إلى دروسنا؟

اختلف الرأي بين الجامعات، واختلف بين الطلّاب في كلّ جامعة، واحتدم الجدال داخل الجامعات وخارجها.

في ذلك المساء قصد هاني إلى «نادي الحوار» لاجتماع دعت إليه -كما جاء في البطاقة- «عصبة الطلّاب الأحرار» لمناقشة الموضوع.

كان النادي واحدًا من عشرات الأندية التي تعجّ بها بيروت، والحوار كلمة على كلّ لسان وقلم في تلك الفترة، يدعو إليه ويلتقي عليه الساسة والمفكّرون والطلّاب والفنّانون والعمّال. حتّى أصبح شعارًا وطنيًّا مرفوعًا فوق الرؤوس، وعملة رائجة.

دخل هاني ومعه قاسم الهلال وأحمد عدنان ولطفي الزحلاويّ. وما إن أجال بصره في الحضور – نحو من خمسمئة شخص – حتّى تبيّن له أنّهم خليط من الطلّاب من مختلف الجامعات وبينهم عدد كبير من تلاميذ المدارس بعضهم دون الخامسة عشرة، مع هدير يملأ المكان ورؤوس كان واضحًا أنّهم من المشاغبين أو المتفرّجين. جوّ يعرفه هاني من أمثال هذه الاجتماعات. فاتّخذ لنفسه كرسيًّا ولزّ أصحابه حواليه.

على المنصّة طاولة سوداء، مستطيلة، خلفها ثلاثة كراسيّ، وجرس في وسط الطاولة مع إبريق وثلاثة أكواب. ومجيء وذهاب بين الصفّ الأماميّ وسلّم المنصّة. وما هي حتّى خرج من الكواليس شابّ يقع عليه نظر هاني وجماعته لأوّل مرّة – أطالب هو؟ – قصير، عريض، يدلف بسمنته وعلى وجهه المربّع ابتسامة مصنوعة. ودوّى النادي بتحيّته والهتاف للعصبة والطلّاب الأحرار، وهو يرفع ذراعيه الاثنتين ويشبكهما في الهواء عهدًا وميثاقًا، ثمّ ينحني بالشكر حتّى لامس رأسه الطاولة، ثمّ نتق به فرحّب بالحضور ودعا إلى انتخاب رئيس للاجتماع. وما كاد حتّى كان أحدهم قد اعتلى كرسيًّا في طرف القاعة فأعلن بصوت جهوريّ:

– كلّنا هنا إخوان. ونعرف كلّنا من يستحقّ هذا الشرف بيننا. إنّه رائد حركتنا الوثّابة، وحامل لوائها الخفّاق، وزعيمنا دون منازع، عنيت رئيس عصبة الطلّاب الأحرار، وبالإجماع أقترح...

فارتفعت أصوات:

– موافقون! موافقون!

وصحبتها أيدٍ بالتصفيق، فما ارتفعت أيدٍ وصيحات بطلب التصويت، واحتجّ أحدهم:

– ليس بيننا زعماء. لا نتعرّف إلى زعيم!

فتولّى إطفائيّو النادي إسكات المتجاسر وإخراس المعترضين، واستوى الرئيس في رئاسته.

وبالطريقة ذاتها تمّ تعيين أمينين للسرّ. مع هذا الفارق أنّ الرئيس كان قد تسلّم صلاحيّاته بدءًا بقرع الجرس الذي أعان الإطفائيّين على أداء مهمّتهم. فنهض من الصفّ الأماميّ اثنان، فلاقاهما مصافحًا بالتهنئة.

ثمّ توجّه إلى الحضور وقال إنّ العصبة تلقّت عدّة رسائل وبرقيّات من مختلف الأنحاء – وطلب من أمين سرّ يمينه أن يتلوها – من طرابلس ، من صيدا ، من زحله وبعلبك ، من صور والنبطيّة. حتّى من دمشق والقاهرة ، وكلّها تدعو إلى مواصلة الإضراب. إلى الأمام حتّى النصر.

– حتّى النصر ! حتّى النصر !

– إلى الأمام ! إلى الأمام حتّى النصر !

فأشار الرئيس بالهدوء ثمّ سوّى جلسته وشرع في خطاب الرئاسة :

– نجتمع هنا لا كأولاد يخرجون من الماضي بل كرجال يدخلون إلى المستقبل (تصفيق). إنّ أبواب المستقبل موصدة بوجوهنا. ولقد أعلنّا إضرابنا العامّ الشامل ، نحن طليعة الجيل الجديد ، لتحطيم الأقفال (أصوات : سنحطّمها ! سنحطّمها !) وتعاهدنا على مواصلة النضال ولن نرجع مهما كلّفنا الأمر.

ومضى على هذا النحو عشرين دقيقة فأثار خطابه موجات عارمة من الحماسة. فلمّا فرغ أعطى الكلام لمقرّر لجنة الدراسات في العصبة. فأقبل طويل ، نحيل ، في وجه عصفور ، عليه نظّارتان ، مع كدسة من الأوراق ، فجعل يسرد على السامعين من أوراقه :

– أربع جامعات : جامعة بيروت الأميركيّة التي تأسّست سنة ١٨٦٦ ، وجامعة القدّيس يوسف التي تأسّست سنة ١٨٧٥ ، والجامعة اللبنانيّة التي بدأ تأسيسها سنة ١٩٥٣ بمعهد المعلّمين العالي ، والجامعة العربيّة التي تأسّست سنة ١٩٦٠. يُضاف إلى جامعة القدّيس يوسف مركز الدراسات الشرقيّة ومدرسة الآداب العليا وقد أُنشئتا سنة ١٩٥٤.

وراح المقرّر يستعرض البرامج المختلفة ويقابل بينها. ومنها إلى اللغات المتعدّدة التي تُعطى بها الدروس ، ومنها خاص في الإحصاءات : ٤٥٪ فقط من طلّاب الجامعة الأميركيّة لبنانيّون و٥٥٪ أجانب – ٨٢٪ لبنانيّون في جامعة القدّيس يوسف و١٨٪ أجانب – ٢٠٪ لبنانيّون في الجامعة العربيّة و٨٠٪ أجانب – ٦٧٪ لبنانيّون في الجامعة اللبنانيّة و٣٣٪ أجانب... غير أنّ التوزيع الطائفيّ (أصوات : فلتسقط الطائفيّة ! فلتسقط الطائفيّة ! نرفض الأرقام الطائفيّة !).

وعلت في الوقت نفسه ضوضاء من نوع آخر :

– من هم الأجانب؟

– من تعني بالأجانب؟ العرب؟

– نرفض هذه النعوت !

فقرع الرئيس جرسه فاستأنف المقرّر :

– غير أنّ التوزيع الطائفيّ يطرح مشكلات أكثر خطورة. إنّ نسبة الطلّاب المسلمين في الجامعة اللبنانيّة – مثلًا – ٥٠٪ من المجموع العامّ ، بينما تنعدم نسبة الطلّاب المسيحيّين في جامعة بيروت العربيّة.

ولكنّ السامعين عادوا إلى الاحتجاج. وتثاءب فريق بداعي أنّ الاجتماع ليس للمعلومات الإحصائيّة وبالإمكان العثور عليها في أيّ كرّاس. فاضطرّ المقرّر إلى طيّ أوراقه والنزول عن المنصّة قبل أن ينتهي إلى استنتاجه.

– مؤسف ، قال هاني ، إنّه ضرْب في العظم.

تولّى الخطيب التالي قلب الجوّ رأسًا على عقب. مشى إلى المنصّة بخطى عسكريّة ووقف كالرمح وصاح بأعلى صوته :

– الدعوى مقامة على الدولة. نطالب بإنزال غضب الشعب على رؤوس الخونة. نريد الثورة. الثورة ! الثورة ! الثورة ! وكلّ ما عدا ذلك كلام.

– فليسقط الخونة ! تعيش الثورة.

وهنا أعلن الرئيس حدثًا سارًّا. قال :

– إنّ بيننا زميلًا من القطر الشقيق سوريا (هتاف : تحيا سوريا ! تحيا سوريا !) جاء خصّيصًا من حمص...

ولكنّ الجلبة منعته من المتابعة. كانت هذه المرّة أمام هاني في الصفّ الذي يلي صفّه. علق الأخذ والردّ بين الهاتف بحياة سوريا وجار له. فقد وجد الجار في

هتاف صاحبه ريبة. سمعه يلفظ سوريا بالتخفيف — لغة الحزب الذي لا يطيقه — فوقع الخلاف على الشدّة. فأقبل الإطفائيّون وفرّقوا بينهما، ورفع قائدهم ذراعه صوب المنصّة، فعاد الرئيس يقدّم الزميل السوريّ ويطلب له التصفيق ترحيبًا.

ألقى الضيف الكريم خطابًا مكتوبًا حيّا فيه باسم الطلّاب الثوريّين على ضفاف بردى عصبة الطلّاب الأحرار. وبعد التحيّة صدع إسرائيل والصهيونيّة، وعطف على الاستعمار والأمبرياليّة، ثمّ انكفأ إلى الرجعيّة والإقليميّة، سواء أكانت في ظلّ الملكيّة أم في أكناف الجمهوريّة، داعيًا إلى تحطيم الحواجز وإزالة الحدود، وإعلانها وحدة عربيّة شاملة من الخليج إلى المحيط.

— تعيش الوحدة العربيّة. تعيش! يا! يا!

— تعيش! تعيش!

— يعيش لبنان!

— يعيش لبنان حرًّا مستقلًّا سيّدًا! يا! يا!

— يعيش! يعيش!

واعتلى الأكثرون كراسيّهم وارتجّت القاعة من أطرافها بالهتافات والهتافات المضادّة، وكاد الفريقان يشتبكان ويحدث ما لا تُحمد عقباه، ووقف الرئيس يلوّح بالجرس مادًّا ذراعه ويقرعه بعنف، وقد خطر له خاطر عبقريّ فصاح:

— يعيش الفدائيّون! يعيش الفدائيّون!

— يا! يا! يا!

وجاءه العون من الإطفائيّين فعيّشوا الفدائيّين، الأمر الذي وافق عليه الفريقان وحسم بينهما النزاع، فيما كان أمين سرّ اليسار ينحني على الرئيس ويهمس في أذنه شيئًا، فينتصب الرئيس ويعلن:

— الأستاذ رمزي رعد! نستمع، أيّها الاخوان، إلى الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد ضيف الشرف في اجتماع عصبة الطلّاب الأحرار.

فساد الصمت واشرأبّت الأعناق

كان رمزي رعد النافخ في بوق الطلّاب، مقالاته تُتلى في الحلقات، وكلماته تُعبأ بها البيانات والمناشير. فوقف بقامته الضئيلة وسط عاصفة من التصفيق لم يعرها شكرًا ولا التفاتًا. وكأنّه لا يسمع، وكأنّه وراء نظّارتيه لا يرى. والقوم عيون وآذان.

— أيّها الطلّاب الأحرار، عبيد أنتم! (فصفّق أحدهم غير بعيد عن هاني فضربه آخر على كتفه). ليتكم لم تقوموا بإضرابكم الشامل الخامل! ليتكم لم تعلنوا حركة ليس فيها، كيفما نظرت، بركة. أردناكم صوتًا صارخًا في وجوه الأرباب، ومعاول في هياكل اللصوص، فإذا أنتم بعد شهر حيث أنتم.

وراح الخطيب يدعو إلى الانتقاض على السلطة، ومن التقريع إلى التشجيع:

— أيّها الطلّاب، سيفتحون مخازنهم — وقد فتحوها — يدعونكم إلى الاختيار بين العكاكيز التي يوزّعونها على الشعب، لتمشوا في قطيع العرجان والمكرسحين. أُصرخوا بهم: لا نريد عكاكيزكم المهترئة! لا نريد نظامكم! ونكفر بأديانكم المزيّفة!

وأدار وجهه ومشى خطوة أو خطوتين، فظنّ الحضور أنّه انتهى. فإذا هو يدور على عقبيه:

— أيّها الطلّاب الأحرار، عبيد أنتم مرّة ثانية إذا لم تخرقوا الأسوار التي حجزوكم خلفها فحاصروكم ليخنقوكم. فإذا لم تستطيعوا فإلى الاستشهاد أدعوكم. سائلوا كهنة فيتنام كيف جعلوا من أجسادهم مشاعل للحرّيّة. سائلوا اليابان. سائلوا تشيكوسلوفاكيا. بدلًا من أن يستسلم الثائرون قاموا يحرقون أنفسهم ويستشهدون. أليس بين العبيد في لبنان حرّ؟ أليس بين الموتى في لبنان حيّ ليموت ميتة الأبطال والشهداء والخالدين؟

كهرب الأستاذ رمزي رعد القوم. ونزل عن المنصّة فاخترق الصفوف بين الهتاف والتصفيق، وخرج من النادي يشيّعه حرس من العصبة حتّى الشارع.

خيّل إلى هاني وصحبه أنّ الاجتماع انتهى أو أوشك

فتهيّأ للانصراف ، ولكنّ العشرات هبّوا يعتلون كراسيّهم ويزايدون ، ولكلّ منهم مطلب ينادي به : هذا بميزانيّة للعمل الفدائيّ ، وذاك بإلغاء النظام الطائفيّ ، وثالث بتوحيد التعليم الوطنيّ. ورابعهم بإقفال المعاهد الأجنبيّة بما فيها المدارس والجامعات ونعت أكثرها بأوكار للتجسّس وقبارك للعملاء ، فأشعل النار في الهشيم :

– أيّ مدارس تعني؟ أيّ جامعات؟

– سمّ!

– سمّ! سمّ!

واشتدّ اللغط وعلا الصياح ، والتّهم تُلقى من كلّ صوب عكسًا وطردًا ، يتقاذفها الطلّاب كالكرة ، وفيهم من كلّ المعاهد : – الفرنسيّة! – بل الأميركيّة! – بل العربيّة! – بل اللبنانيّة المسيحيّة الإسلاميّة الطائفيّة... وساد الهرج والمرج وتماسك اثنان في ناحية بالأيدي وانطلقت شتائم. فشقّ هاني لنفسه حتّى أدركها فضرب بيديه مفرّقًا بينهما. وإذا أحدهما ، حسين القمّوعي ، الهتّاف بالتعييش والتسقيط – صاحبه في محاورة تحقيق «أوتلوك» – فأزاحه وأخذ بيد قاسم يشير إليه بالخروج. ولكنّ قاسم طلب إليه التريّث ، قال إنّ لديه شيئًا يريد أن يقوله ، ومشى برأسه الضخم إلى المنصّة.

وقف ساكتًا. سكت الجميع. قال :

– هنالك قضيّة نسيها حضرات الخطباء. قضيّة هامّة تشغل الأذهان في لبنان ، وخصوصًا في أوساطنا نحن الطلّاب. أحبّ أن أعرف رأي الإخوان فيها. فهل تأذنون بعرضها؟

أصوات :

– هاتِ! هاتِ! تفضّل. ما هي هذه القضيّة؟

– الميني جوب.

قالها بكامل وقاره فتجاوبت القاعة بالضحك. فتناول الجرس من أمام الرئيس وقرعه ثمّ تابع :

– الحوار بيننا ميني جوب : يكشف أكثر من اللازم وأقلّ من المطلوب. المطلوب هو اتّفاقنا. أعلن باسم خرّيجي الجامعة اليسوعيّة أنّني سأدعو الإخوان أعضاء الرابطات في جامعتنا وفي الجامعات الأخرى إلى اجتماع عامّ للبتّ في أمر الإضراب. وأرجو من الرئاسة إقفال باب المناقشة. إنّ الطاحون يدور على الفراغ.

ومشى إلى الباب حيث كان ينتظره هاني والأصحاب.

وانفرط الحفل.

٤

في المهديّه لازمت تميمه غرفتها وأقفلت على نفسها ، لا تريد النور ولا الجامعة ولا بيروت ولا الدنيا. وإذا دخلت عليها أمّها بالطعام فبعد ألف رجاء ، وترفضه إلّا لقيمات بالقوّة.

في اليوم الثالث لوصولها جاء من جابر كتاب كان حدثًا عظيمًا عند الأمّ ، وهو موجّه إليها مع عبارات تسيل بالعواطف ، يخبر فيه أنّ أباه ما يزال قيد المحاكمة – «ستطول ولا يستطيع ذكر التفاصيل والأمل بالله» – وأنّه أصبح اليوم على رأس الأشغال بعد أن طرد المستخدمين في محلّ أبيه ، وكانوا «يسرقونه ويزوّرون في الدفاتر». وختم بألف ليرة يرسلها بواسطة الحاجّ فضلو «وطلب رضا الوالدة الحنون ودعاءها».

رفضت تميمه مرافقة أمّها في النزول إلى صيدا. وعادت آمنه بالمبلغ من عند الحاجّ فضلو وقد انتعشت روحها وجلست إلى ابنتها تدفق عليها من سرورها.

– الله أعطاك كلّ شيء يا ابنتي. قولي لي ما بك. تريدين أن تتزوّجي؟ أنا أمّك ، قولي لي أرشدك إلى الزوج الذي يليق.

كانت آمنه نصّور تنتظر كلّ شيء إلّا ما جبهتها به ابنتها. ضربت تميمه بكفّها فنزعت الضمادة الكاذبة وأعولت بوجه أمّها كالذئبة :

– تريدين أن تزوّجيني؟ خذي!

وأفرغت كلّ شيء. الفضيحة كلّها. كما هي. عارية. رهيبة. وسمّت حسين القمّوعي، وسمّت رمزي رعد، وجرفها السيل فسمّت حتّى هاني الراعي.

– تريدين أن تزوّجيني؟ هاتي لي زوجًا لأضع وجهي بوجهه. أقول له: بوجهي أحمل علامتي لتبقى بوجهك، بعينيك، لئلّا تنسى من أنا! أرشديني إلى الزوج الذي يليق بي. هاتيه من عبّك. من صلواتك إلى ربّك. قولي له يطلبه من جهنّم ليخطبني منك. صلّي! صلّي لتامر نصّور في أفريقيا. اقرعي صدرك! أذرفي الدموع لزوجك العزيز ونامي على فراش العفاف والفضيلة، والإخلاص والوفاء. أتعرفين على أيّ فراش ينام هو على بعد آلاف الكيلومترات؟ اسألي أمّ حسين. اسألي البنت التي دسّت لي الورقة في دُرج الصفّ: «القصائد الرنّانة لأختك العبدة السوداء»! والله يعلم كم أختًا لي وكم ضرّة لك سوداء وبيضاء ومن كلّ لون. أمّا أنت فادفني شبابك في المهديّه. هنا في قنّك لِصق الحائط. تمرّغي بأوساخه ولا تتعطّري بغير رائحتها لئلّا يأتي ويجدك خارج السياج فيذبحك. أليس أنّه يلقي إليك بالزؤان والفتات؟ اِلتقطي! كُلي ونامي قريرة العين. وصلّي لابنك جابر! جابر أيضًا يلقي إلينا بفتات موائده... تريدين أن أكتب لجابر؟ أن أجيب جابر على رسالته؟ جابر على رأس الأشغال!... اِنتظري. أبشري ما دام جابر قد تسلّم المحلّ مكان أبيه وأصبح على رأس الأشغال. قولي لي ماذا أكتب له؟ كيف أشكر الأخ الشفيق الذي ينتف شعر أخته لأنّها فضّلت الجامعة على القنّ، ويهدّدها بالذبح إذا تطلّعت من مهديّتك صوب بيروت؟ ولا تنسي في صلواتك حسين القمّوعي إذ تصلّين لجابر. حسين القمّوعي وكيل جابر نصّور في غيابه أمام الناس وأمام ربّك. أمّا أنا فقد كفرت. كفرت! قومي لربّك واتركيني.

تركت آمنه ابنتها. قامت مصعوقة تميد بها الأرض.

– أغلقي الباب وراءك!

لم تغلق الأمّ الباب. لم تُدر وجهها.

– قلت لك أغلقي الباب!

فارتدّت الأمّ مرّة واحدة، وعلى مدّ ذراعها صفعت تميمه ملء وجهها، وضربت عليها الباب...

في الليل أفاقت تميمه على نفسها تبكي. ثمّ نهضت إلى الحمّام – حجّة – ودنت من غرفة أمّها ووضعت عينها على خصاص الباب. كانت آمنه قاعدة في فراشها في العتمة، وعلى وجهها من الشبّاك ضوء شاحب. جامدة، لا تتحرّك، كأنّها في العتمة، وتحت ذلك الضوء، تمثال الحزن، إلّا أنّه حيّ من هاتين العينين الشاخصتين في الفراغ – مسمارين انغرسا في قلب تميمه – فحدّثتها نفسها بفتح الباب والارتماء على صدر أمّها، فإذا آمنه تزيح اللحاف وتهمّ بالوقوف. فانسلّت عائدة إلى غرفتها.

ومع الصباح – ككلّ صباح – أكبّت على الجرائد التي تأتيها إلى المهديّه. أخبار الإضراب مشوّشة. من الجامعات ما فتحت أبوابها ومنها ما يزال مقفلًا، فالرأي بين الطلّاب منقسم. أذاعت الجامعات على طلّابها بيانًا: «الدروس تُستأنف اليوم والطلّاب مدعوّون إلى صفوفهم، وأمّا من أراد منهم الاستمرار في الإضراب فشأنه». تركت لهم الخيار. وتقول الجرائد إنّ قوّات الأمن قد وقفت على أبواب الجامعات تشرف على الحالة وتضمن حرّيّة الخيار. على أنّ فريق المتطرّفين تنادوا إلى حشد صفوفهم على الأبواب ليمنعوا الآخرين من الدخول، فالموقف يهدّد بالاصطدام بين الطلّاب وينذر بالشرّ.

كيف لها أن تكون إلى جانب هاني في هذه اللحظات الحاسمة؟

وأمّها لا تكلّمها. لا تدعوها إلى الغداء. تروح وتجيء في البيت ولا تلتفت إليها.

وفجأة تقتحم غرفتها فتضرب بيدها الاثنتين على الجرائد فتمزّقها، وإلى المجلّات المصوّرة فتقذفها من

الشبّاك ، قد استشاطت غضبًا كما لم ترَها تميمه في حياتها.

في الهزيع الأخير من الليل أفاقت على هدير وأضواء متقطّعة تتدفّق من الشبّاك.

أرعود وبروق مع الصحو الذي كان أمس؟

وإذا بالهدير يتعاظم ومعه صفير يمزّق الجوّ مع دفعات متوالية من النور تعقبها قصفات متقاربة ترتجّ لها أركان البيت. وخيّل إلى تميمه ، سحابة فترة ، أنّها رؤيا من رؤاها ، لولا أن فُتح الباب وأمّها تصرخ :

– حرب ! حرب ! الله أكبر ! الله أكبر !

فوثبت تميمه من فراشها إلى الشبّاك فإذا السماء تتدلّى منها مشاعل ، وطائرتان ، ثلاث طائرات ، بل أربع تحوّم فوق المهديّه ، وخامسة تمرق فوق البيت تكاد تمسح سقفه ، تغيب لتعود فتواجه تميمه وأمّها المتشبّثتين بحديد الشبّاك وكأنّها ستنقضّ على البيت ، والدجاجات تصيح صياحًا منكرًا ، فتهمّ آمنه ، فتنترها ابنتها من كتفها وتنبطح بها على الحصير.

كان القصف يتوالى ومعه الأضواء الباهرة تطرد الليل وتملأ البيت. وآمنه تستر وجهها بكفّيها وتستعيذ بالله لائصة في مطرحها. ثمّ أحسّت تميمه أنّ أمّها تحاول النهوض – «إلى أين؟» كانت الدجاجات قد اشتدّ لغطها فهي ترفرف في القنّ كالمجنونة وتضرب السياج من كلّ صوب. فشدّت تميمه بثوب أمّها تمنعها من التحرّك. ولكنّ آمنه أزاحت يد ابنتها وزحفت القرفصاء حتّى وصلت إلى الشبّاك وجثت تحته تصلّي وعيناها إلى السماء. فأطبقت تميمه أجفانها وقد غمرها شعور الخجل من نفسها والرثاء لأمّها معًا. وكادت تنسى الغارة ، فإذا الطائرات تعود فجأة وتلقي قنابلها زخًّا ، قد دوّت قنبلة هنا ، لِصق البيت ، بانفجار عظيم ارتعدت له الجدران وأعقبه دخان وغبار سدّا الشبّاك. ونظرت فرأت أمّها قد وقعت على وجهها وهي تصرخ ، فدنت منها ، وماكادت حتّى ارتمت الأمّ فوق ابنتها تلفّها بذراعيها الاثنتين وتبكي.

لبثتا كذلك صامتتين ، إلّا دقّات قلبيهما المتجاوبة ، حابستين الأنفاس. ثمّ انقشع الدخان والغبار عن الشبّاك وتبع ذلك أزيز للطائرات مجتمعة ، ثمّ أخذ يخفّ شيئًا فشيئًا. – «تعود إلى قواعدها سالمة» قالت تميمه. وقامت آمنه.

وخرجتا في الفجر إلى السطيحة.

– بيت أمّ علّوش يحترق ! (صاحت آمنه).

وبقرة تنفر من ذعر في الطريق مجرجرة حبلها ووتده. واندفعت آمنه لترى ما حلّ بأمّ علّوش وسبقتها تميمه. كانت النيران تتصاعد من البيت والدخان يغطّيه ، وهما تتلمّسان الباب فلا تهتديان إليه. وانبثق لسان من اللهب لفح وجه تميمه فرأت البيت قد تهدّم جداره الأماميّ وسدّت الحجار الباب ، فنادت بأعلى صوتها فلم يجب صوت ، ودارت آمنه حول البيت وانكفأت بالخبر : علّوش تحت الأنقاض وأمّ علّوش – رأتها من الشبّاك ، ألصقت رأسها بحديد الشبّاك ، أعماها الدخان والغبار – «تحاول أمّ علّوش سحب علّوش من تحت كومة من الحجار !» وجرت تميمه وراء أمّها. الشبّاك محدّد ، ولكنّ الجدار حواليه تشقّق ، فتضرب بكلتا يديها على قضبانه وبقذفة من كتفها تنقذف وراءه إلى الداخل...

كانت المهديّه تحصي ضحاياها بالأخبار يتناقلها الناجون من مأتم إلى مأتم في أنحاء الضيعة : ثمانية قتلى ثلاثة منهم من الفدائيّين. أربعة عشر جريحًا. تسعة بيوت مهدّمة. وثلاثون ، أربعون رأسًا من الماشية سقطت تحت الردم أو تشرّدت في البراري. مع أخبار يحملها الهاربون من القرى المتاخمة لإسرائيل – قالوا : أفاقوا في الليل على أنوار كشّافة أحالت ليلهم نهارًا ، وأصوات بالمكبّرات تدعوهم ، بلهجة تلك القرى ، إلى الاجتماع في الساحات أو في المقبرة إن لم يكن في القرية من ساحة – «ومن يعصَ الأمر يُرمَ

بالرصاص ! » – وما هي حتّى رأوا اليهود يملأون قراهم ، وبالرشّاشات في صدورهم وظهورهم نظّموهم صفوفًا وجعلوا ينادون بالأسماء مضيفي الفدائيّين منهم والمتعاونين معهم ، ثمّ قذفوهم في شاحنات لهم إلى إسرائيل.

تلك ، قالوا ، كانت الغارة الثانية ولم يجسروا معها على المقاومة . في الأولى ، قبل شهر ، قتل اليهود ثلاثة من الأهالي بينهم امرأة لأنّها تمسّكت بوحيدها – ابن أربع عشرة سنة – محاولة إنقاذه . وأخذوه بعد قتلها فيمن أخذوا من رهائن . وبعد أسبوع عصبوا عينيه وأركبوه في جيب إلى الحدود وأطلقوا سراحه ليعود ويخبر ما ينتظر المتعاملين مع الفدائيّين. ولكنّ الصبيّ وصل مخبولًا نصف أبكم لما لاقاه في الأسر ولما شاهد مواطنيه يلاقونه ، وفيهم أبوه وعمّه ، من ضرب وتعذيب وإرهاب.

كانت تميمه واقفة على السطيحة ، تتلقّى هذه الأخبار من الوافدات إلى البيت لمأتم علّوش ، فترافقهنّ إلى غرفة أمّها ثمّ تعود إلى السطيحة تتأمّل المهديّه رازحة تحت نهارها الحزين...

أصداء العويل تتنادى من بيت إلى بيت ،
وبين الأرض والسماء فراغ الرعب.
بلى ، قد جاء جنود على سيّارة شاهرين بنادقهم ،
ولكن على من؟

ومرّت سيّارة بمدافع مضادّة ، وتلتها شرذمة من الفدائيّين يلوصون بألبستهم المرقّطة وكليشنكاتهم على الطريق ، فأشاحت بوجهها . وطلع لها مرّة أخرى صراخ أمّ علّوش يثقب السقف وولولات النادبات حول علّوش ، فدخلت وذهبت إلى غرفتها لا تقوى على رؤية علّوش...

لم يبقَ لأمّ علّوش بيت تقيم فيه مأتم علّوش ولا فراش تسجّيه عليه ، فحملته إلى هنا لمأتمه وجهّزت له آمنه غرفتها وفراشها.

٥

كانت الأيّام تمرّ وقد اجتمع لتميمه جرحان. كموس القمّوعي هذا الاعتداء الأثيم على المهديّه. وأغدر وأحقر. ومثله الضحيّة سكوتًا وخنوعًا ، وكذلك الناس والشرائع.

ولأوّل مرّة أحبّت المهديّه.

كانت تحمل الجرحين إلى الوادي وتقضي ساعات متّكئة على صخرها ساهمة . وربّما تناولت مرآتها ونظرت تحت عينها ضاحكة بمرارة . تذهب مع هذا الخطّ المعوجّ ، وفي لمعانه المريب ، تستعرض مراحل حياتها في بيروت وفي صيدا وفي المهديّه. حياتها وحياة الآخرين . أمّها قبل الكلّ . ثماني عشرة سنة وهي تنتظر زوجها . تنتظر بانتظاره الموت . ولكنّ الموت لا يخيفها إلّا تحت القنابل . وإلّا فهو موعد مضروب تمشي إليه مطمئنّة آمنة . غذاء تلوكه مع خبزها اليوميّ . تتقاسمه مع أموات المهديّه وأحيائها ، هنا ، في مقبرة الضيعة ، على بضع خطوات من البيت ، على الربوة الكلسيّة الجاثمة في العراء كالطبليّة وقد صُفّت عليها الأصناف والآنية أضرحة بيضاء ، وازدانت من أطرافها بباقات البلوط ذات القرون المتدلّية.

تعرف تميمه هذه المأدبة منذ نعومة أظفارها . كانت تصرّ على مرافقة أمّها في تردّدها عليها مرّة كلّ أسبوع على الأقلّ ، وأمّها تمنعها . تطردها إذا لحقت بها – الموت ليس خبز الصغار – وتعطيها كعكة لتبقى في البيت . ولكنّ تميمه تحبّ أن تقضم منه وقد كبرت ، ولم تفوّت مأتمًا من مآتم الغارة ، ولا زيارة من زيارات الأرامل والثكالى لأمواتهنّ.

وسارت وراء أمّها.

كان هناك كتل سوداء ، أسراب من النساء بثياب الحداد ، ينحنين على الأضرحة
يصككن بها الجباه
يرفعن رؤوسهنّ إلى السماء

يتعاونَّ على الندب
يردّدن الذكر
يتنادين ملوّحات بالمناديل
ينهضن
يرحن من بعض إلى بعض ويجثن
يجثمن تحت شجرات البلّوط حالمات
يتحدّثن يضحكن
يتشاورن في طعام نهارهنّ
يهيّئن طبخة الدنيا بعد طبخة الآخرة التي أتخمتهنّ...

إلّا واحدة في الطرف الآخر من المقبرة ما تزال تصرخ:

– علّوش! علّوش!

ولدها. وحيدها وسندها. فلذة كبدها. كان علّوش يملأ البيت. وهو اليوم تحت التراب. تريد أن ترفع هذا التراب عنه. تغرز أصابعها في التراب الطريء. ترتمي وتتمرّغ. ترفع وجهها إلى الله تسأله. أصحيح؟ لا تصدّق. لا تفهم. بأعلى صوتها تسأله:

– لماذا أخذته منّي؟

والسماء صمّاء. خرساء. ليس إلّا الشمس في شعشعانها الأعمى.

لماذا لا يهتف بها هاتف من السماء: إسرائيل أخذت لك علّوش.

وتجأر آمنه:

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أعطوها بدلًا من بيتها خيمة من خيام العسكر، وبدل علّوش كيس طحين.

– كثّر الله خيرهم!

ونسيت المهديّه مصيبتها.

كان القتال يتكرّر بين تميمه وأمّها ويتكرّر الصلح.

وكثيرًا ما كان الدور ينقلب بينهما، فتحنو تميمه على آمنه، تواسيها وتكوكب آمالها. كاذبة؟ ولكنّها عاشت عمرها في هذه الآمال الكاذبة. في جهلها السعيد. لكأنّ جهل الجاهلين هو السعادة، وقد فقدوها إذ وجدوا المعرفة. ولآمنه فوق ذلك الجنّة! هناك! خلف المقبرة، حيث الجواب الذي يبحّ صوت أمّ علّوش في طلبه والذي ستظلّ تبكي حتّى تلقمه ملء فيها عندما تُلقَم التراب.

– الله أكبر! لا تيأسوا من رحمة الله.

بأيّ حقّ تصغّره لها تميمه؟ بأيّ حقّ تحملها على اليأس من رحمته؟

وجلست تكتب إلى تامر نصّور رسالة أخرى في سجنه الأفريقيّ من إملاء آمنه، واستعادت الأمّ قراءتها مصرّة على إثبات حوارها بينها وبين الله صباح مساء. ولكنّ تميمه أغفلت دعوات أمّها وابتهالاتها ورسمت في هذه الرسالة الموجّهة إلى أبيها، ذاك المواطن المهاجر، صورة لهذا المواطن المهجور، لألوف وعشرات الألوف من المواطنين المهجورين في المهديّه وفي القرى التي أمامها والتي خلفها وحواليها ملء الجنوب. وذكرت له الاعتداء الإسرائيليّ وما حلّ بأمّ علّوش.

وذهبت إلى حدّ الكتابة إلى جابر.

هذه النجدة، الألف ليرة، أعجوبة من عند الله.

ولكن ما تفعل الألف؟ ما كان يحلّ بها وبأمّها لولا هذا الراتب الذي تؤمّنه نقابة عمّال المرفأ؟ ها هو يأتيها إلى المهديّه، إلى عقر دارها، لشهر الإجازة الذي انقضى. وكلمة من أمين السرّ «مع أحسن تمنّياته بالشفاء واستعداد النقابة لتجديد الإجازة إذا لزم الأمر». ولكنّ لكلّ شيء حدًّا. عليها أن تعود إلى بيروت. إلى عملها في النقابة وإلى الأمثولات الخصوصيّة في البيوت، وأن تضاعف عدد هذه الأمثولات. ولن تمسّ الألف الذي ورد من غينيا. جابر لن يعملها مرّة ثانية. بيضة ديك.

أمّا الجامعة؟ أمّا هاني؟ لن تذهب إلى الجامعة. لن ترى هاني.

وإذا هي تتلقّى، مع كدسة جرائدها لذلك

اليوم ، رسالة من بيروت .

«عزيزتي تميمه

طال غيابك . لا بدّ أنّك تعافيت تمامًا كما أرجو . أنا بحاجة إلى أن تكوني بجانبي في هذه الأيّام لأمر هامّ . بانتظار اللقاء أقبّلك .

ماري أبو خليل»

أصحيح أنّها تعافت تمامًا؟

ووثبت إلى المرآة في غرفتها تنظر . ولبثت حائرة دقيقة أو دقيقتين . ثمّ تذكّرت ما كانت قد نسيته فتناولت من خزانتها عدّة من المساحيق زوّدتها بها ماري لتستعين بها ، وجرّبت بضع لمسات . كانت تكتفي من الزينة منذ صباها ببعض الكحل زاهدة بما عداه . ولأوّل مرّة في حياتها عرف وجهها الطلاء .

لم يكن يخطر لتميمه ما فاجأتها به صديقتها . استقبلتها ماري بالخبر على طريقتها . أكبّت عليها تعانقها ثمّ تراجعت ، وكمن يمثّل دورًا جليلًا نظرت إلى تميمه من علُ وقالت :

– أنت يا تميمه نصّور ، «المسيحيّة المارونيّة من دير المطلّ» ، لماذا لا تقبلين أكرم الجردي ، «المسلم الشيعيّ» من كفر زروع زوجًا لك !

فأجفلت تميمه وهي تجتهد أن تقرأ في عيني ماري . وماري – الشيطانة – ساكتة ، ماضية في دورها حتّى النهاية . فعيل صبر تميمه :

– أهذا هو أمرك الهامّ؟ خلّي المزاح وقولي لي ، قبل كلّ شيء ، هل بإمكاني الآن أن أخرج بين الناس؟

ورفعت خدّها بالجرح ، فأقسمت لها ماري :

– مستحيل أن يلحظ أحد أيّ شيء .

وتناولتها من خدّيها تسألها أيّ خدّ؟ فهي تريد تقبيلها مكان الجرح فلا تهتدي إليه . ودعتها إلى الجلوس ، وما همّت بالإفضاء بسرّها حتّى سبقتها تميمه فانتصبت بوجهها هاتفة :

– إسمعي . الأمر هامّ . هامّ جدًّا ! أنت يا مسّ ماري أبو خليل ، رئيسة الممرّضات في قسم الجراحة من المستشفى الأميركيّ ، وزعيمة من عزّى الحزانى وجبر الكسور ، هل تقبلين بالمحامي الكبير والنائب العتيد الأستاذ أكرم الجردي زوجًا لك وتتعهّدين بأن تكوني أمًّا حنونًا لابنته؟

حزرت الملعونة كلّ شيء ! وانفجرت الصديقتان بضحكة لم تلبث أن زحمتها دموع الفرح . كانت ماري على ثقة من ردّ الفعل ، وأكّدت تميمه فغمرت «الوارثة السعيدة» ، كما لقّبتها ، بعناق كبير .

وأوديت؟ كانت اوديت هي الموضوع الذي استأثر بالحديث في السهرة وكذلك في السهرات التالية . ولكنّ ماري لم تكن تعير الأمر من الاهتمام ما تعيره تميمه . أخبرها الأستاذ أكرم – حلف لها – أنّه قطع مع عشيقته منذ حادث الساعة في بيت مدام خوري . تعب منها . وهو توّاق إلى إعادة بناء بيته .

– سأعرف كيف أحبّب إليه البيت .

كان ما يزال في المستشفى يقضي دور النقاهة ، يطالع أكثر نهاره ، يستقبل بعض الأصدقاء ويسمر العشيّات مع ماري والمستقبل . أعظم ما سيحمله هذا المستقبل إلى ماري أنّ أمّها وأختها سيسكنّ بجانبها في بيروت . قد وعد الأستاذ أكرم باستئجار شقّة خاصّة بهنّ ، ويشتري باسمها هي شقّة ، ينتقلان إليها بعد الزواج ، في واحدة من هذه البنايات الحديثة الجميلة التي ترتفع في أنحاء المدينة . وكلّفها أن تسأل منذ الآن وتختار مهما كان الثمن . يبيع ، إذا لزم الأمر ، قطعة من أراضيه في البقاع .

كانت ماري لا تتكلّم إلّا عن هذه الأشياء ، لا تذكر شيئًا عن العلاقات الحميمة بينها وبين الرجل الذي ستصبح شريكة حياته ، ولا تلفظ اسمه إلّا باللقب – «الأستاذ أكرم قال ، قلت للأستاذ أكرم» – وتنام ملء أجفانها . نوع من الحبّ لا تعرفه تميمه . فماري تضحك للحبّ كما تضحك لكلّ شيء .

لا عذاب ولا هواجس. كأنّها ذاهبة إلى عمليّة هي مطمئنّة إلى نجاحها فهي لا تهتمّ إلّا بتحضير الغرفة والأدوات.

هل أحبّت في زمانها؟

هي نفسها لا تدري. سمعت الكثير يطارحونها الحبّ في المستشفى، مرضى وأطبّاء، ولم يشغل قلبها أحد. بلى – اعترفت لتميمه – أحبّت طبيبًا في أوّل عهدها بالعمل. خُيِّل إليها أنّها تحبّه. كانت تجد سرورها في معاونته والدوران حواليه، لو طلب منها العمل إلى جانبه طول الليل لما أحسّت بحاجة إلى راحة ولا نوم... تزوّج وسافر إلى أوروبّا لشهر العسل. لم تكد تراه في المستشفى من جديد حتّى عاد إليها سرورها وكأنّ شيئًا لم يكن. وضاعف هو مجاستنه لها وأصبحت هي تصارحه بأشياء. لعلّها لم تحبّ فيه منذ البداية إلّا شبهه بالمرحوم أبيها. جبهته العريضة، وإطلالته، ونكاته.

– وعدت الأستاذ أكرم بزيارة منك. قال: قولي للآنسة تميمه إنّ أكرم الجردي سيكون لها صديقًا طيّبًا.

لم تجد تميمه بأسًا. وبعد يومين قامت بالزيارة بصحبة ماري. وراح الثلاثة في حديث كلّه ارتياح، رصّعه الجردي بطائفة من نوادره وضحك ضحكته وأسعفته الممرّضة بمرحها. وتأكّد لتميمه انطباع عن أكرم الجردي لم تستطع كتمه فأثنت عليه بوجهه وهنّأته لحسن اختياره، وهنّأت ماري بقبلة على هذا الخدّ وقبلة على ذاك، وهي تنظر إلى المحامي وكأنّها تقبّلها عنه، وقامت تستأذن.

٦

– خير يا أبا شرشور! اُقعد.

وقعد أبو شرشور على الكرسيّ المواجه للمكتب. فتناولت تميمه الرسالة التي دفعها إليها ففضّتها وهمّت بالقراءة. كانت تلك الرسالة الثانية من أبي العزّ إلى أبيه. لكن هذه ليست بخطّ يده. ليست منه. قال أبو شرشور إنّ شابًّا جاء هذا الصباح إلى المرفأ وسلّمها إليه، هو غير الذي حمل إليه الرسالة السابقة.

كانت مضروبة على الآلة، وعليها في الأعلى اسم «لجنة الإسعاف رقم ١٦»، وفي الأسفل توقيع رئيس اللجنة. وهو يخبر فيها أنّ عزيز اليافاويّ أُصيب في اشتباك مع العدوّ وهو الآن قيد المعالجة، مع تنويه بالشجاعة التي أبداها في المعركة وترقيته إلى رتبة رائد.

هذا كلّ شيء. وأبو شرشور ساكت، فنظرت إليه تميمه فخفض بصره إلى الأرض.

– إن شاء الله الجرح بسيط. وأهنّئك بترقية أبي العزّ. الرائد أبو العزّ! ألا تريد أن تهنّئه؟ متى يعود الرسول لأخذ الجواب؟ قُل لي. أَمْلِ عليّ وأنا أكتب.

– إسأليهم متى يعود للحرب.

هل تستطيع تميمه أن تواجه الحياة بمثل ما تواجهها ماري؟ هل تستطيع تميمه أن تحقّق لنفسها مثل هذا؟ ماري مسيحيّة تتزوّج أكرم المسلم. وهي مسلمة وهاني مسيحيّ. ولكنّها تعرف أنّ الأمر يختلف. إنّه في دينها ذو وجهة واحدة، والويل للمخالف. «أوتلوك! أوتلوك!» وعادت إليها سحنة القمّوعي.

ولكن، من قال إنّ هاني الراعي يريد تميمه نصّور زوجة له؟ يحبّها؟ يحبّ كلّ الحلوات، قال. الزواج؟ يفكّر فيه بعد شهادة الدكتوراه من هارْفَرْد. بعد تأسيس مكتب الهندسة. بعد الثلاثين من العمر! يحبّ دروسه. يعشق طموحه. مغرم بدير المطلّ. بالحزب. بالأولاد الصغار. ويا ليت! ألم تطلب منه يوم الأحد – بعد شهر انقطاع بين الحبس في الشقّة والاعتزال في المهديّة – أن يذهبا معًا إلى السينما، فاعتذر بأنّه الأحد المخصّص كلّ شهر «للعريس والعروس»؟ هكذا يسمّيهما في لغة ألقابه. شيخ في الثمانين، وعجوز هي امرأته في مثل عمره، يعيشان وحدهما في المرج. ينتظرانه، قال، ولا يمكنه أن يخلف الموعد.

– ماذا تفعل عند هذين الطوطمين؟

– نحكي مع النار. عندهما موقد على الحطب.

أم يذهب في نزهات بالفيات، كما يذهب معها – ولم لا؟ – مع ليا شارون؟ مع سلمى الصافي؟ مع جانيت ومنى وإيفيت... ليا شارون فاتنة بشعرها الأشقر المشعّ، وأنفها المتنشّق من علُ. أروع ما فيها حرّيّتها. سيّدة نفسها. سلطانة حياتها. «تحبّ الحياة»، يقول هاني عنها. – تحبّه هو!

دفتر الخرطوش:

«٢ شباط ١٩٦٩ – الكذب! الكذب! الكذب! ثلاث مرّات أعدتها يا هاني ودققت على الطاولة ثلاثًا في جدالك مع الأصحاب. «الكذب آفتنا»، قلت. وأنا مكتوب عليّ أنا أن أعيش في الكذب عمري. الصدق؟ – إذن ترجمني. وإلّا فكان عليّ أن أعيش في قفص العفّة. أن أقفل على نفسي في صندوق من الشوق والحرمان والغباء بانتظار اليوم العظيم – أيعرف أحد متى يأتي النصيب؟ – لأحمله إليك وأقول لك: تفضّل افتحه بعلمك وتجاربك مع العشرات، من ليندا دير المطلّ إلى ليا شارون!...»

دار المعلّمين والمعلّمات. دروسها ومطالعاتها. النقابة وأبو شرشور. ترك اليافاويّ الحشيشة إلى الترانزيستور فعلّقه بعنقه بجانب الشرشور يتابع أخبار الفدائيّين. وزيارات الأستاذ الجردي لماري في الشقّة بعد خروجه من المستشفى. يطلبان إليها أن تكون دائمًا معهما، المحامي يتحدّث وماري تحوم مرفرفة. كلّ ما رأته بينهما من الحبّ أنّ الممرّضة تدلك له ذراعه، يحاول أن يلقيها في حضنها فتأبى إلّا أن تمدّدها على المسند، ويتضاحكان. وما عدا ذلك فأخبار اليغموريّين. دائمًا اليغموريّون. وأخبار الدعوى بعد أن ألقي القبض على الذين اعتدوا عليه. يريد أن يطال من وراء الفاعلين رأس الحيّة، كما يقول.

وهاني لا تراه منذ عودتها إلى بيروت إلّا لمامًا. في اللقاء الأخير قضى وقته في الكلام عن الحزب.

كانت الأفكار في أوساط الطلّاب، بالرغم من عودتهم إلى دروسهم، تزداد التهابًا يومًا بعد يوم، والجرائد تكتب عن الثورة «التي لا بدّ منها» وتستفتي أصحاب الرأي. اتّفقوا كلّهم على الثورة. يتساءلون فقط كيف تكون.

هو لا يؤمن إلّا بواحدة: الثورة على النفس.

ما أبعده عن هذه العبارات الجاهزة التي يلوكها الطلّاب، وتلك الشعارات الجوفاء! كلماته بسيطة، هادئة.

ولكنّها، حارّة، جارحة، كالأشعّة.

كانا جالسين في أحد هذه المطاعم الصغيرة المخصّصة للطلّاب في حيّ الجامعة الأميركيّة، يشرب هو قهوته وتقضم هي سندويشًا مع الكولا. والمطعم يضجّ بالفتيان والفتيات، ومن السقف تنحدر موسيقى من الجاز وكأنّها تضرب رأسه، فعلى وجهه ألم.

قام وقال:

– نذهب إلى البحر.

صوب المنارة. ثمّ عطف بسيّارته يمينًا إلى الكورنيش فأوقفها بجانب الرصيف وترجّل، ولحقت به. كانت الشمس تميل إلى المغيب بين غيوم متناثرة، لأشعّتها إذا أطلّت بهر ودفء. وقفز هاني فجلس على حاجز الكورنيش، ومدّ ذراعيه فعاون تميمه، وواجها البحر يستقبلان هواءه الرطب ورذاذ الموج المتكسّر على الصخور.

كان يُخيّل إليها، وهي في وضعها ذاك لِصقه، والشارع خلفها، والسيّارات، والناس، والعالم، أنّها تعيش حلمًا في جزيرة المستحيل...

– لا تقولين شيئًا!

– أكلّم البحر.

– ولكنّ البحر لا يكلّم لغتنا. لا يكلّمنا على كلّ حال.

– والنار في الموقد، كيف تحكون معها!

– نحكي مع أنفسنا. مع أنفسنا نحكي دائمًا.

وساد سكوت.

– والذين يخاطبون الله؟... قُل لي أمؤمن أنت؟

خرج السؤال من شفتيها هكذا بلا وعي. كيف سألته؟ لماذا؟ وتعجّبت من نفسها. هو لم يتعجّب – لا يتعجّب أبدًا – قال دون أن يلتفت:

– هل تتابعين التحقيقات التي تقوم بها الجرائد في هذه الأيام؟ قرأت لأحدهم في الأزمة التي نعانيها رأيًا فيه الكثير من الصواب. لست أذكر اسم صاحبه، أذكر كلماته، يقول: «أزمتنا في ظاهرها سياسيّة واجتماعيّة وطائفيّة إلخ. الحقيقة أنّ جذورها مغروزة في الغيب، في الهجرة من السماء إلى الأرض». في الشكّ بالله، يا تميمه. هل الله في النتيجة إلّا رمز القيم، بل مجموعة القيم التي تجعل من الإنسان مخلوقًا يستحقّ هذا الاسم؟

وترك لها – أو لنفسه – التفكير في ذلك. ثمّ:

– اشتهيتك أن تسمعي رمزي رعد في نادي الحوار أثناء غيابك في المهديّه.

يعود إلى رمزي رعد! وترنّحت، تكاد تقع على وجهها بين هذه الأمواج المتلاطمة، وهو يتابع:

– رمزي رعد من السابقين بيننا في الهجرة من السماء إلى الأرض. ولكنّه لم يتدلّ بحبل. لم يهبط بمظلّة. سقط في الهواء على الأرض، على يافوخه.

وأمسكها من ذراعها يدعوها إلى السيّارة. كان عليه، قال، أن يجتمع ببعض الأصحاب لتهيئة الاجتماع. ودارت هي من الجهة الأخرى لتأخذ مكانها إلى جانبه. وإذا شبح في غشية المساء يحكّ بكتفها ويتنحنح مرّة ثمّ يشفعها بأخرى أشدّ. فاندسّت في السيّارة ونظرت في المرآة: حسين القمّوعي! وفي عنقه آلة تصوير! وهاني مشغول بتدوير المحرّك، لن تقول له غير «عجّل!» بحجّة أنّ عليها هي الأخرى موعدًا. وانطلقت السيّارة فيما كان قلبها يقرع ثمّ ينخلع ويهبط.

وهاني متابع فكره، قال:

– الله مشكل كبير من مشاكلنا. لا الله الذي يقسمنا مسيحيّين ومسلمين، أو نقسمه نحن، نتناتشه، كلّ فريق يريد الحصّة الكبرى له. هذا الله الطائفيّة، الله السياسة وتوزيع المناصب. ولا الله الذي يقف بيننا ليمنع الزواج المشترك بين أبناء الأديان المختلفة أو يرفع إصبعه محتجًّا على الزواج المدنيّ. الله هذا له تدبير...

كانت تميمه ما تزال تحت وقع الهول الذي مرّ، لا تسمع، على الأرجح، هاني ولا تراه يتوجّه إليها:

– أتكلّم عن الله الحقيقيّ الذي سألتِ عنه البحر... مرّة جاء قيدوم إلى المدرسة وأخبرنا أنّه نصب فخًّا لثعلب في الكرم عندهم كان يغير على العناقيد ويأكل أحسنها، فعلق الثعلب، فأخذه وسلخ له جلده وهو حيّ، تشفّيًا. وأرانا الجلد، فخورًا، ينزف بالدم... كلّنا ثعلب قيدوم. علقنا كلّنا في فخّ العقل، وجلودنا تُسلخ عنّا ونحن أحياء.

٧

رسالة من غينيا على عنوان دار المعلّمين والمعلّمات وعلى الغلاف اسمها باللغتين، مضروبًا بالفرنسيّة على الآلة، ومنمّقًا بالعربيّة بالخطّ الفارسيّ. خطّ تامر نصّور، أبيها.

«إلى ابنتي تميمه

قبلات أبيك مع تهانئه القلبيّة بدخولك دار المعلّمين والمعلّمات بعد فوزك بالبكالوريا. قرأت الخبرين في حينهما في ما يصلنا من جرائد الوطن، وأحتفظ لِصق صدري بالقصاصات التي تحمل اسم أحبّ الناس إليّ وأدعاهم إلى فخري.

وبعد، لم أتلقّ رسالتك ومعها الرسائل التي كتبتها باسم أمّك إلّا قبل ثلاثة أيّام، أي لدى خروجي من السجن. احتجزتها السلطات في جملة ما كان يرد عليّ وعلى المتّهمين من رسائل، خلافًا لكلّ عرف وقانون، ولم تسلّمها إلينا إلّا بعد صدور الحكم.

ستقولين : متأخّرة وصلت تلك الرسالة . ولكن ، حتّى لو سبقت جابر لما كان تغيّر شيء ، كما سيتبيّن لك ممّا سأذكر . يكفي أنّها وصلت لتصل بيني وبين لحمي ودمي الخيط المقطوع ، وكانت يداي ممدودتين إليه لن ترتدّا حتّى حافّة القبر .

يا ابنتي ، لديّ أشياء يجب أن أقولها . أشياء تعني أمّك بالدرجة الأولى ، وحقّها بها فوق حقّك وحقوق الآخرين – وما أكثرهم ! – ولكنّ أمّك تجهل القراءة . وحتّى لو كانت تقرأ لجئتها عن طريقك رفقًا بها . أمّا جابر فقد سقط حقّه ، طعنه هو بيديه الاثنتين .

لم يبقَ إذن سواك . وها أنا أقف أمامك كما وقفت بالأمس أمام المحكمة . في قفص الاتّهام أم في ساحة الادّعاء ، لا أعلم . بين هاتين الوقفتين كلّ حياة أبيك في أفريقيا .

لن أقصّها عليك بالتفصيل . إنّها موضوع «مذكّرات مهاجر» انصرفت إلى تدوينها منذ أن وطئت قدماي أرض غينيا . وسأتركها لك لتنشريها على الناس ، لا طمعًا بأن يذرفوا دموع التماسيح على شاعر كان له ألّا يهاجر إلّا إلى دنيوات خياله ، بل لكي يضعوا أيديهم على حقيقة المغامرة السوداء ، ويقيسوا أمجادها ومآسيها ، وأحجام الذين هم في وقت واحد أبطالها الميامين ومسوخها ...

في ١٦ تشرين الأوّل ١٩٥١ وصل إلى كوناكري رجل في السادسة والثلاثين ، ترك خلفه في المهديّة زوجة وولدين –كنت أنت طفلة تشرع بالكلام– ولكنّه حمل لهم معه حبًّا لا يضاهيه إلّا الأمل الذي كان يعمر صدره بالحصول على الثروة والعودة إليهم . حلم أفاق منه عندما قذفته الباخرة على المرفأ بوجه أفريقيا ، يطوف نهاره في المدينة كالحيوان الغريب ، ويأوي في الليل إلى زريبة مع بضعة عشر من رفاقه ينظرون إلى أحلامهم تتخاطفها الجرذان في تلك الزريبة في ما تتخاطف من طعامهم الرديء ومتاعهم المرقّع الحقير . ولقد همّ مرارًا بالرجوع من حيث أتى لولا أن تلقّاه ذات يوم أحد مواطنيه من المهاجرين القدماء . أركبه في جيب أعرج ، وذهب به في أدغال ليس لها اسم ، ثمّ حطّه في مزرعة خيّل إليه أنّها على حدود الأبد وقال له :

– تكون قيّمًا على مزرعة الموز هذه التي هي لي ، ويكون في خدمتك عشرون من الزنوج .

كان القيّمون السابقون قد هزمتهم جيوش «التسي التسي» في المزرعة فنجوا بعظامهم هاربين ، ودُفن في أطرافها كبيرهم بلسعة واحدة من مئات الأفاعي التي تعشّش في المنطقة . أمّا البرغش المذكور فتحصّن له الرجل منذ البداية ، فهو لا ينام إلّا ضمن أستار سميكة تكاد تخمد أنفاسه . وأمّا الأفاعي فلم يلبث أن أخذ يسابق الزنوج في مطاردتها ، وتعلّم أن يطبخها من جملة طعامه .

كان القدر يهيّئ له ، بالرغم من احتياطه ، شيئًا آخر : الحصّة الكبرى ، اللعنة الأفريقيّة رقم ١ لذلك العهد ، تلك التي انصبّت على رؤوس الألوف من المهاجرين قبله وأودت بحياتهم . ففي موسم القطاف – وقد استغرق أسبوعًا من صيف مستعر – عاد الرجل إلى كوخه فلم تقوَ يداه على الامتداد إلى مأكل أو مشرب . فألقى جسمه المنهوك على الفراش وفي ظنّه أنّه سيستريح بعد أن أتمّ عمله وأقفل الموسم . كان ينام لياليه السابقة كالقتيل من فرط تعبه ، غير أنّه استيقظ تلك الليلة على آلام تمزّقه ، فيمدّ يده إلى قنديل الكاز بجانب الفراش فيشعله ، ثمّ ينهض إلى زاوية في الكوخ حجبها بستارة من الخيش وجعل منها حمّامًا ، فتخونه ركبتاه ، فيتمسّك بالستارة فيهوي معها إلى الأرض ، وينظر على ضوء القنديل الكئيب فإذا الدم يتدفّق من جنبيه .

كانت اللعنة – إيّاها – قد نزلت به ، ما في ذلك شكّ . ضربته الشمس ضربتها . وهذه براهينها الحمراء تسيل ملء ساقيه ، تصبغ كفّيه ، وتنساب خلال الحصير تحته . فيزحف إلى كوخ حارس المزرعة – على

بضعة أمتار– لا يفصله عن كوخه إلّا نخلة من «البالميست» الأفريقيّ. كان يحبّ الحارس فنونغو ويأنس إليه. شرط أن يكون الآن في هذه الدنيا! لأنّ من لا يعرف فنونغو لا يعرف شيئًا عن الزنوج.

– فنونغو! فنونغو!

فلا يجيبه أحد.

كان فنونغو يدور على المزرعة مرّة في الصباح وأخرى في المساء، بقبّعة كالمظلّة وعصا كالرمح، فإذا انتهت الدورة رمى المظلّة والرمح واعتلى النخلة فجثم على غصن فيها وبيديه البالم يحسو منها ويسكر. والبالم قرعة تُثقب ويُشرب زومها، وهو عندهم كالخمر. ولكنّ فنونغو لا يقنع بالزوم حتّى يمزجه بالسبيرتو، فإذا فاته فبالكاز. ويظلّ يشرب وهو في أعلى الشجرة حتّى تفرغ قرعته فيتزحلق ويمشي – إذا أسعفته قدماه – إلى كوخه لينام. وربّما قضى ليله معلّقًا بين الأرض والسماء، يغفو ويفيق ويشرب حتّى تطلع الشمس. كالقرد، إلّا أنّه أطيب إنسان على وجه الأرض.

– فنونغو! فنونغو! أين أنت يا فنونغو؟

كان الرجل يهتف بذلك، في أحشاء الظلام، بما تيسّر له من لغة القوم وهو يواصل زحفه نحو الكوخ. فإذا هو يتعثّر عند جذع البالميست بفنونغو منطرحًا على الحضيض يشخر. فيهزّه فلا يحسّ، ويناديه فلا يسمع، قد تعتعه السكر فهو حيّ ميت.

لا بدّ من التماس عون آخر. ولكن هيهات! أكواخ الفلّاحين بعيدة، كوم من القشّ في الطرف الآخر من المزرعة. وفكّر الرجل طويلًا. ليس إلّا مامادو شيخ القرية القريبة. وهذا كوخه العالي يلوح تحت النجوم وراء سياج المزرعة. قد عرف الرجل في اليوم الذي تلا وصوله. جاء على رأس وفد يرحّب به وفي يده دجاجة، هديّة الأسود للأبيض وعربون الولاء. أتسعفه قواه على قطع المسافة؟ – مئتا متر على الأقلّ – ليس من خيار. وحبوًا على الأربع كالحيوان الجريح وضع رأسه في اتّجاه الكوخ العالي، يختلط دمعه بدمه بالتراب الذي يعضّه. لم يصدّق أنّه طوى المسافة وأنّه الآن بالباب، وعلى آخر رمق ألقى عليه رأسه يدقّه به لعجزه عن رفع يديه. ثمّ ارتمى على العتبة.

في الصباح وجد نفسه محمولًا على محفّة يأخذ بها زنجيّان، وقد مشى إلى جانب المحفّة مامادو بلحيته الشائبة المضيئة ومعه صبيّة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. كانت الشمس قد علت في الأفق، فنظر الرجل حواليه فأدرك أنّ الجماعة يعيدونه إلى منزله بعد أن قضوا الليل على العناية به في منزلهم. فلمّا وصلوا حطّوه في فراشه، وتجمّع زنوج المزرعة وفي مقدّمتهم فنونغو يتزاحمون على القيام بشأنه. وإذا مامادو يتوجّه إليهم بأمر. فيتراجعون، وتتقدّم الصبيّة، فيأخذ بيدها ويدنيها من الرجل. «فنتا! فنتا!»، كان يقول، ويبتسم ملء عينيه، وتلتمع عشرات الوجوه بالابتسام مردّدة النظر بيني وبين فنتا.

ويخرج الشيخ، ويتبعه الآخرون.

وتبقى فنتا – ابنته – تذهب إلى الباب فتغلقه. ثمّ تعود إلى الرجل، تركع عند فراشه، وتمسح بكفّها السوداء جبينه...

على مثل هذا الفراش أنا ملقى اليوم، يا ابنتي.

وبعد سبعة عشر عامًا تركع بجانبي صبيّة في عمر تلك الصبيّة، عائشة – عيشتا يقول الزنوج – وتمسح جبيني بكفّها السوداء. هي ابنة فنتا من أبيك وأختك السوداء...»

٨

وصلت تميمه من الرسالة إلى هذا الحدّ فأحسّت دوارًا. تراقصت الكلمات أمام عينيها وتداخلت السطور. وتمثّلت لها مأساتها في المدرسة قبل خمس سنين: القصيدة، والبنات الحائمات حولها، ثمّ الورقة المدسوسة في الدُّرج.

ورفعت كفّها إلى جبينها تمسحه . وإذا هي ترتعش بكلّ جوارحها .

أجبينها هذا الذي تمسحه ، أم هو الجبين الآخر ؟

تركت الرسالة تقع من حضنها ، ولبثت طويلًا تنظر إلى كفّها كأنّها تريد الآن أن تقرأ فيها وحدها ، لا في هذه الأوراق المبعثرة على الأرض .

لا تعلم الوقت الذي قضته كذلك . ولكنّها انتبهت لنفسها تلملم الأوراق وتضمّ بعضها إلى بعض بتؤدة ، ثمّ تتابع القراءة :

«قلت لك سأقتصر من حكايتي على البداية والنهاية

النهاية ؟ قدّرت كلّ شيء ولم أقدّر شيئًا منها .

كنت أهيّء أسباب العودة إلى الوطن حينما فوجئت بتهمة الاشتراك بتهريب الألماس . كيف لي أن أطلعك على أسرار تهريب الألماس في أفريقيا ؟ فضيحة من ألوف سبقت ، وألوف تلحق . ذنبها أنّها اكتُشفت دون غيرها فأُعطيت اسمها ، فيما الأخريات مستورة تدرّ على أربابها الثروة بالملايين ، وتعقد لهم هالات الجاه والنفوذ ، فاسمها التجارة الكبيرة وعبقريّة الأعمال . والكبر كلّه ، والعبقريّة كلّها ، في السقوط إلى أسفل ما يتردّى إليه اللصوص والمزوّرون والمحتالون . يُضاف إلى أخلاق هؤلاء جميعًا وإلى أساليبهم وأحابيلهم ما يتقنه القوّادون في السعي وراء طغمة خاصّة من النساء ونظمها في شبكاتهم ، تتولّى نساء الطغمة ما تتولّاه البغايا سواء بسواء : يجرين الأحجار الكريمة في المواضع الحميمة من أبدانهنّ ويتقلنها عبر الجمارك من بلد إلى بلد ، ويلتقين بعملائهنّ عند أحد الأهل أو الأصدقاء أو المعارف في طول القارّة وعرضها ، على أن يكون غريبًا عن العصابة ، جاهلًا كلّ شيء ، إبعادًا للشبهات .

نصيبي من الفضيحة أنّني استضفت رجلًا من أعضاء الشبكة ، من صوبنا في الجنوب ، جاء إليّ بهذه الحجّة – لن أسمّيه – فاستقبلته وأقمت في بيتي له ولجماعته ، على بساط البراءة ، ليلة ساهرة عامرة طلع صباحها بالشؤم الذي تعرفين ... وكرّت عليّ مذ ذاك ضربات النهاية .

أخذتني الفضيحة في غمار النقمة التي انفجرت في غينيا على أبناء العرب ، لا يميّز معها الزنوج حقًّا من باطل ، ولا يعيرون أذنًا لغير الثأر الصارخ من أعماق الأجيال ، يذكيه المتعصّبون وينفخ فيه الموتورون ، وتتنادى فيه المصالح التجاريّة والمآرب السياسيّة ، فضلًا عن السعايات الدنيئة من بعض صغار النفوس من المهاجرين . ولكان مصيري مصير المحكوم عليهم لولا أن لطف الله فأرسل إليّ من وراء قضبان السجن ، كما أرسل إليّ بالأمس من وراء سياج المزرعة ، من أنقذني هذه المرّة أيضًا . مامادو – إيّاه – حمل شيخوخته من كنكا ، حيث مزارع الموز التي عشت فيها إلى جواره أوّل عهدي بالهجرة ، وهبط إلى العاصمة يطرق أبواب الحكّام من أبناء جلدته ويتوسّل إليهم من أجلي ، وما زال يطلب شفاعة كلّ صديق ، ويتملّق كلّ موظّف ، حتّى ظفر لي بالبراءة .

ولكن ، ألم يكن خيرًا لي لو قضيت نحبي في الزنزانة تحت سياط العبيد ولعناتهم من أن أخرج إلى النور وأرى ما رأيت ؟

لقد بلغتني قبل وصول جابر إلى غينيا أخبار عنه – وأخبار عنك بحمد الله – أين كنت لمّا خطر السفر لجابر ؟ وكيف لم تنحلّ عقدة يدك لتكتبي إليّ قبل وصوله ؟ ... ولكن لا . حتّى لو كتبت ... فما إن قيل لي «ابنك في غينيا» حتّى خرست الأخبار كلّها وتكلّم حبّي . ولمّا دخل عليّ في السجن ضربت بيديّ الاثنتين على قضبانه أريد أن أحطّم حاجزًا يفصل عنّي لحمًا من لحمي ودمًا من دمي .

بهاتين اليدين سلّمت إليه كلّ ما أملك : توكيلًا عامًّا مطلقًا على تجارتي ، وعلى ودائع لي في المصارف ، وديون على الناس . الجملة مائة ألف دولار أو يزيد . جنى الهجرة وزاد العودة . ومع ذلك ليس المال ما يهمّني . لو همّني المال لكنت في عداد المهرّبين . في

أعماق السجون أو في أعالي القصور التي يرفعونها في أفريقيا ولبنان. أن يبدّد جابر على القمار والفجور ما بدّد، وأن يزوّر في الدفاتر ويحتال، وأن يستولي على ما استولى عليه من نقود ثمّ ينجو بنفسه تاركًا وراءه الخراب، وأباه قيد المحاكمة أمام الزنوج، كلّ ذلك لا بأس لو اكتفى به. ولكنّه كان يعدّ لي شيئًا آخر، ولم يتورّع فقذفه بوجهي كاتبًا إليّ، ليلة هربه، ما أخشى أن يكون قد واجه أمّه وواجهك به في لبنان، يتستّر من فعلته بأخت لها أشدّ وأدهى.

ففي الزيارة الأولى التي قام لي بها في السجن كشفت له عن كلّ شيء. أيّ فائدة من التكتّم والألسن قد امتدّت من غينيا إلى لبنان منذ زمان؟ أكثر ما آلمني من لسعاتها تلك التي أصابتك فشلّت يدك عن الكتابة إليّ. وفي الزيارة الثانية قال: «أريد أن أتعرّف على أختي الأفريقيّة».

كانت عائشة دون الخامسة من عمرها حين ماتت أمّها بالحمّى. وعلى أثر موتها انتقلتُ من كنكا إلى العاصمة، وعاونني مامادو على تجارتي وعلى وضع عائشة في مدرسة من مدارس كوناكري. وأبى الشيخ إذ عرف برغبة جابر إلّا أن يرافقه إلى المدرسة بنفسه، وحكى لي فيما بعد أنّها كانت أسعد ساعات حياته تلك التي قدّم فيها حفيدته إلى أخيها اللبنانيّ. ومنذ ذلك اليوم واصل جابر زياراته ما سمح له نظام المدرسة، يخرج بعائشة في عطلة الأسبوع لنزهات في ضاحية المدينة، يسبح معها على شاطئ البحر، يصحبها إلى دور السينما، ويأتي إليّ الشيخ بالأخبار عن ذلك كلّه بغبطة عارمة، فأجد لتلك الألفة عزاء، وما كان أحوجني إليه في ما كنت فيه من عار التهمة وعذاب السجن.

لست أدري، يا ابنتي، ما صنع جابر بثمرة عرق أبيه ودم قلبه تحت سماء أفريقيا. وإنّما الذي أخشاه، كما قلت لك، هو صنيعه بك وبأمّك هناك، بعد الذي صنعه بعائشة وبي هنا وبجدّها المسكين. لن أنقل إليك تفاصيل المأساة. حسبك منها العاقبة التي حملها إليّ الشيخ في السجن إذ حمل إليّ عائشة ذات يوم تبكي على ذراعه وتدفن وجهها في صدره، أختًا مفجوعة بأعزّ ما تُفجع به الأخوات، ومخلوقة مهانة لا تعرف لجرحها بين الجراح اسمًا ولا بلسمًا ولا عزاء.

أهي النهاية التي وعدتك بها؟

ولكنّ هذه النهاية ليست ملكي وحدي. أنا لا أملك منها، على الفراش الذي أنا ملقى عليه بعد خروجي من السجن، إلّا جسمًا مهدودًا وروحًا حزينة. والبقيّة ملك جابر.

بلى. تبرئة لذمّتي استدعيت اليوم الكاتب العدل في المدينة ووقّعت على وثائق ثلاث:

الأولى تتعلّق ببيع البناية التي أملكها في كوناكري، وهي تتألّف من المحلّ التجاريّ والمسكن الذي يعلوه، بثمن قدره عشرون ألف دولار ستصل باسم بأمّك إلى صيدا بالواسطة نفسها.

الثانية تتعلّق بمزرعة الموز في كنكا، اشتريتها من صاحبها قبل مدّة وجعلت عليها وكيلًا. وقد أوصيت بها لك من بعدي. وإذا قيّض لي الله أن أقوم فسأرجع إلى الوطن لأموت في المهديّه.

أمّا الثالثة فتتعلّق بآخر ما أملك: اسمي. وقد وهبت منه لعائشة ما يخصّني، فهي اليوم في المدرسة بين رفيقاتها، وفي كنكا بين عشيرة جدّها، وغدًا في الهيئة الاجتماعيّة، عائشة تامر. أقصى ما كانت تطمح إليه، وأدنى حقّها على أبيها وأبيك».

تامر نصّور.

كانت تميمه إذن على حقّ في مخاوفها، وتجاوز الواقع كلّ ظنّ.

والآتي أعظم إذ يصل جابر. أين يكون جابر بعد فعلته؟

هكذا كانت تخاطب نفسها وهي تعيد قراءة الرسالة للمرّة الرابعة... الخامسة... ولا ترتوي. أيّ مرارة فيها، وأيّ حلاوة! طعم الدم الذي ذاقته ذات ليلة – دمها.

وعزمت ألّا تقول لأمّها شيئًا. ستتلو عليها رسالة من تأليفها تبشّرها فيها بالإفراج عن أبيها وعودته القريبة إلى الوطن ليعيش، لا «يموت»، في المهديّه. وتخفي عنها أكثر ما تخفي خبر عائشة. كلّهم في أفريقيا لهم عائشاتهم المرذولات ظلمًا وعدوانًا. وكلّهم لهم العشرات من أخوات فتنا.

ولكنّها ستضع الرسالة بين يدي هاني، هذا المساء، بعد اجتماع الأصحاب في العلّيّة.

٩

لاقاها بعد انتهاء الدروس في مقهى اتّفقا عليه من مقاهي ساحة الشهداء. كانت في انتظاره، الساعة الخامسة، وقد وضعت على الطاولة بجانب قنّينة الكولا مغلّفًا كتبت عليه بخطّها الدقيق المرصوص: «حمراء أو بيضاء»، خلاصة تحقيق قامت به إحدى الصحف بين مفكّري الشباب في موضوع الثورة. وكان هاني الراعي قد عهد إلى تميمه نصّور أن تستخلص من الأجوبة زبدتها لعرضها في الاجتماع. عمل اقتضاها سهرات في مراجعة طائفة من الأجوبة انهالت على الجريدة من الساسة، والكتّاب، وأساتذة الجامعات، ممّن هم من الجيل الجديد أو يريدون اللحاق به. اتّفقوا على أنّ لبنان في حاجة إلى ثورة. اختلفوا على لونها.

«كأنّ للثورة وجهًا غير وجه الدم!» هكذا كانت تميمه تقول لنفسها وهي تردّد بصرها بين المغلّف وباب المقهى. وهي، في هذا أيضًا، اختلفت مع هاني.

– «ثورات الدم ليست للبنان، كان يقول، نحن أكبر منها». سترى في الاجتماع ما يكون رأي الآخرين.

كانت فخورة بالدور الذي أسنده إليها في الحزب، متشوّقة إلى الاشتراك في اجتماعاته. على أنّ ما يثيرها أكثر من ذلك هو التعرّف إلى هذه العلّيّة. «هذه المرّة اجتماعنا في العلّيّة» قال. ولم يلبث أن أطلّ بسيّارته، فتناولت المغلّف وقامت.

انطلقت الفيات من ساحة الشهداء، ودار بها هاني صوب البحر فسلك الكورنيش إلى نهر بيروت، ومنه إلى الأشرفيّة. الطرق في الأشرفيّة تذهب على هواها – لم يسبق لتميمه أن مرّت من هنا – وفي كلّ ناحية تطلع أبنية حديثة، منها الذي ينطح السماء ومنها الذي يثب إلى البحر، قد اكتظّت هنا وتنافرت على غير نظام هناك. وأشكال وألوان يُخيّل معها إلى الناظر أنّه في مدينة من مدن الألعاب المزوّقة.

ويوقف هاني سيّارته عند بيت عتيق، منعزل، في طرف من أطراف الأشرفيّة، أمامه جنينة صغيرة مزروعة بقلًا، وفي الجنينة شجرة كبيرة، زيتونة شائخة، تلقي أغصانها كالأذرع في استراحة. – «هنا». قال، وفتح باب الجنينة ومشى، فتبعته تميمه وهو يقصّ عليها قصّة البيت، فما أقبلت عجوز من خلف الزيتونة:

– مرحبًا أمّ خاتون!

سبق هاني أمّ خاتون بالسلام، ودعا تميمه إلى العلّيّة آخذًا بيدها على سلّم خشبيّ إلى السطح، وهي تثني عنقها إلى العجوز، تختلس كلّ واحدة منهما النظر إلى الأخرى، وهو في أثناء ذلك ماضٍ في السرد: أمّ خاتون ستبقى في بيتها ما شاءت. اشتراه منها قبل شهرين بتوكيل من أبيه بعث إليه به مع المال من ليبيا، بعد أن بيّن له هاني موقع العقار ومزاياه والمستقبل الذي ينتظر هذه التلّة البديعة.

– وهذه هي العلّيّة.

كانت هناك على السطح الفسيح غرفة وحيدة في إحدى زواياه، تتعرّش عليها دالية ذات جذع غليظ يطلع من الجنينة مستندًا على الحائط كحبال المراكب في المرفأ. وفي زاوية أخرى منه مطلّة على البحر دكّة خشبيّة بشكل خيمة لولا سقفها الجملونيّ المعتمر بالقرميد الأحمر، ففسّر هاني:

– عرزالي البيروتيّ. اشتريت له الأعمدة والقرميد

من أنقاض بيت هنا في الحيّ كانوا يهدمونه ليبنوا مكانه بالباطون واحدة من هذه البشاعات التي ترينها.

ودعاها إلى الاستراحة داخل العرزال، وقد وزّع فيه وحواليه حجارًا من تلك الأنقاض ذاتها: رؤوس أعمدة وقواعد من النحيت. قالت إنّها تريد أن ترى العليّة ومشت إليها. قال:

– قائمة قاعدة! عمّتي دخلتها مرّة واحدة إذ جاءت تلقي نظرة على ما اشترينا في بيروت. كان رأي أبي أن تقضي عمّتي جميله ويقضي جدّي معها الشتاء في بيروت، هنا، ولكنّهما لا يتركان دير المطلّ.

نسيت أن تسأله عن المدعوّين إلى هنا، عن الأصحاب، من هم هذا المساء. وإذا بأمّ خاتون تتسلّق السلّم حاملة إليه شيئًا، قالت:

– مكتوب جاء في غيابك. ووصل صاحب لك. أقول له يطلع؟

قالت أمّ خاتون إنّها كادت تنسى المكتوب لولا أن ذكّرها مار مطانيوس، عليه السلام!

– مار مطانيوس هو الاختصاصيّ بين القدّيسين في الأشياء الضائعة والمنسيّة يا آنسة تميمه – قولي لصاحبنا يطلع.

وضحك هاني وهو يتناول الورقة المطويّة التي دفعتها إليه العجوز. وما كاد حتّى عبّس، فسألته تميمه في الأمر، فأعطاها الورقة فقرأتها:

«إليك أنت يا هاني الراعي. اقطع بين دير المطلّ والمهديّه. نصيحة! إذا لم تنفع النصيحة فالدواء سيجيئك من صاحب الإمضاء».

اليد الحمراء

رفعت تميمه عينين ملتاعتين إلى هاني. أرادت أن تقوم، أن تهرب، ولكنّ الأصحاب كانوا قد بدأوا يفدون، فقام يستقبل أصحابه تاركًا الورقة لتميمه.

– «الأزمة الحاضرة عمرها ربع قرن. جايلت الاستقلال. علّة مزمنة، خفيّة، انفجرت تحت رماد النفوس. لقد تسلّم لبنانيّو الطراز القديم، لبنانيّو الجزمة العثمانيّة، بلدًا موجودًا في العالم العصريّ، ولكنّهم حكموه بعقليّة السلطان. كان مستوى البلد وانفتاحه على الحضارة وتجهيزاته الجغرافيّة والاقتصاديّة والبشريّة تعدّه للعيش في ديمقراطيّة العلم. حكموه حكم من يستغلّ مزرعة ورثها عن أبيه وله الحقّ في أن يورّثها ولده... وفي لبنان اليوم لبنانان...»(٣*).

...

كانت تميمه تتلو من دفترها، وقد عيّن لها هاني مكانها وراء مكتبه، وجلس الآخرون على الكراسيّ الموزّعة في العليّة، وعلى الصوفا، واتّكأ هو على سريره واتّكأ قاسم الهلال إلى جانبه. الجملة عشرة أشخاص قدّمهم هاني إليها على توالي وصولهم. عرفت منهم، عدا قاسم، السيد أحمد عدنان رئيس رابطة طلّاب العلوم في الجامعة اللبنانيّة، وهو الفتى الطرابلسيّ أبو العافية، والسيد لطفي الزحلاويّ أبو الحماسة العضو في رابطة كلّيّة الآداب العليا التابعة لجامعة القدّيس يوسف، والآنسة ليا شارون – الأنثى الثانية مع تميمه في الاجتماع – ولكنّ تميمه تختلط عليها الوجوه، يطفو عليها وجه حسين القمّوعي، فتغمض أجفانها لتعود وتفتحها بجهد على هذه الأوراق وتتابع:

...

– «إنّ تحقيق أهداف ثورة فعليّة يصطدم بمصالح مترسّخة وبأجهزة أُقيمت لحماية هذه المصالح. إذ ليس من المعقول أن يتخلّى المستفيدون من الأوضاع القائمة عن أسباب قوّتهم وإمكاناتهم المادّيّة والسياسيّة بصورة طوعيّة. «أكلة الجبنة» في أيّ نظام قائم سيقاومون أيّ محاولة للتغيير الجذريّ، لأنّ التغيير يعني القضاء على امتيازاتهم وزعاماتهم وتهديد مصالحهم. وشكل المقاومة الذي يلجأ إليه قادة أيّ نظام وحياته هو الذي يقرّر في النتيجة أسلوب الثورة...»(٣**)

...

– «النظام البرلمانيّ القائم على الدستور هو الوحيد

الذي يصون الحرّيّة الشخصيّة ، ويعزّز الكرامة الإنسانيّة ، ويضمن حقوق المواطن. وعلى نقائصه أثبت ، منذ الإغريق ، أنّه الأفضل لتسيير شؤون الحكم. فالشعب هو مصدر السلطة ، وهو الشرعيّة التي لا بدّ منها لكلّ نظام حكم. فإذا كان الأمر كذلك يبقى على كلّ لبنانيّ أن يعمل ، في حقل نشاطه العامّ والخاصّ ، على تعزيز النظام البرلمانيّ وتثبيته ، ومحاسبة المسؤولين عن امتهانه أو مخالفته أو الخروج عليه ، والسعي إلى تأليف الأحزاب السياسيّة الصحيحة. فالعلّة ليست في النظام ، إنّما في ممارسته وتنفيذه – أي في الأشخاص ، الحاكمين منهم والمحكومين. فكما تكونوا يُولَّ عليكم...»(٣****) .

...

– «الثورة حقيقة ترفض وضعًا وتستبدل به وضعًا آخر. فما هو وضعنا وما هي معطياته؟ إنّها الشيء وعكسه ، إنّها الحرّيّة والاستبداد معًا ، إنّها الانفتاح والانغلاق معًا ، إنّها تعايش الطوائف واصطدامها معًا ، إنّها الترف والفقر معًا ، إنّها العلم والجهل معًا. وبكلام آخر نحن مع الطائفيّة وضدّها ، ومع الجهل وضدّه ، ومع الزواج المدنيّ يُعقد خارج أرض لبنان وضدّ وجوده داخله ، مع المصارحة وضدّ نتائجها ، مع الكذب وضدّه. ازدواجيّة عجيبة تلعب لعبتها البهلوانيّة حتّى لا تضطرب كفّتا الميزان...

وتسألون أثورة حمراء أم ثورة بيضاء؟ الثائر فدائيّ صريح حتّى البراءة ، واضح وضوح الموت. أمّا نحن فغامرون نحمل دكّاننا على كتفنا لنبيع ونشتري. خوارج! خوارج! كلّ فئة تعتبر الأخرى خارجة عليها...

ما هو الحلّ؟ – أضعف الإيمان ، ونحن ضعيفو الإيمان ، أن نتضرّع إلى الزمن ليشحذ سيفه علينا. فصرخة وجعنا حتّى الآن فيها الكثير من الدلع والجبن والجهل والطيش والعربدة والعرض المسرحيّ»(٣****) .

وتوقّفت تميمه. كانت أكثريّة المجتمعين تؤيّد هذا الرأي الجارح. قاسم الهلال صفّق ملء كفّيه. وتميمه ساكتة بعينين فارغتين إلّا من الكلمات الأخرى – تلك التي خطّتها اليد الحمراء في الورقة المطويّة – وفي أذنيها تضجّ ضجيجًا وتهزّ كيانها. حتّى لم تتمالك أن ألقت بيدها على جزدانها حيث أخفت الورقة ، والجزدان على المكتب ، تعصره بأصابعها دون أن تشعر ، لولا أن تنبّهت على صوت هاني يدعوها بهدوئه :

– آنسة تميمه ، أكملي من فضلك.

...

– «ما دمنا لسنا أوّل القادمين إلى الأرض ، وما دمنا لسنا أوّل المقتربين في العالم من جاذبيّة الثورة ، فلنستفد من دروس الشعوب الأخرى ونفتح قلوبنا وعقولنا على جميع الحقائق ، ولنسأل أنفسنا بشغف الصادقين الأصفياء : نثور على لبنان الماضي ويجب أن نثور ، ولكن هل لا مفرّ من أن نقتل بعضنا البعض كي نكون ثوّارًا حقيقيّين؟ وهل الحلم بلبنان الجديد لن يتجسّد إلّا بكابوس القتل؟ وهل نحن واثقون أنّ كابوس القتل سيسفر عن تجسيد حلم الحياة ، لا عن استمرار الكابوس وانقلابه كوابيس ربّما تكون أبشع؟... تردّد كثير وتخوّف عظيم. نعم ، الثورة رائعة ، لكنّ القتل حقير...»(٣*****)

...

... متى تنتهي هذه الآراء؟ وتغضب تميمه على نفسها لأنّها لم توجز أكثر ممّا فعلت ، وتسأل المجتمعين هل تقف عند هذا الحدّ ، فيطلبون المزيد مُثنين على عملها وعلى حسن تلاوتها. – أصحيح أنّها تتلو جيّدًا؟ شفتاها تتحرّكان بلا وعي. ولمّا فرغت تنفّست الصعداء وأرادت ترك المكتب ، فأشار عليها هاني بالمكوث حيث هي. لكأنّه يسحقها. لكأنّ الأنظار الآن والأسماع مصوّبة كلّها إليها وهي تتلو رسالة حسين القمّوعي!

نوقشت هذه الآراء إلى ساعة متأخّرة من الليل. لم

تحمل كثيرًا من الجديد إلى المجتمعين. أمّا السليم منها فكانوا متّفقين عليه. إنّهم يؤمنون بالعقل والعلم، بالتطوّر والرقيّ، مبدأ «الثورة على النفس»، أي بالتنظيم والتصميم. ولذلك تحوّل البحث مباشرة إلى ضرورة الحزب. واعتُبر الحاضرون لجنة تأسيسيّة له.

– ما نسمّيه؟

– أيّ شيء شرط أن نبتعد عن النعوت الرنّانة.

كانت الملاحظة من قاسم الهلال. وأبى قاسم إلّا أن يضفي على الجوّ من مرحه فتابع:

– عن النعوت الرنّانة وعن العقائد المستوردة. عن حبوب «الدوريدين»! تعرفون حكاية الزنجيّ الأميركيّ جيمس فانيلي؟ دخل جيمس فانيلي المستشفى لمعالجة قرحة. فوصفوا له من جملة ما وصفوا حبوبًا تدعى دوريدين. تعافى تمامًا وخرج من المستشفى. ولكنّه لم يلبث أن لاحظ تحوّلًا عجيبًا في لونه. كان أهله وجماعته ينظرون إليه فلا يصدّقون عيونهم. شهران. ثلاثة. أربعة. وإذا بزنجيّ الأمس قد انقلب رجلًا أبيض! المأساة التي كان يعانيها جيمس فانيلي لكونه زنجيًّا انقلبت إلى مأساة أعظم لتحوّله رجلًا أبيض. أنكره الزنوج. لم يعترف به البيض. طلّقته امرأته. هجر بيته ومدينته. صار أضحوكة الشامتين من الفريقين. وما يزال إلى اليوم يحمل جِلد البيض ومناخير الزنوج هائمًا على وجهه. آخر خبر عنه أنّه أقام الدعوى على المستشفى مطالبًا بنصف مليون دولار تعويضًا عن تحطيم حياته... لا لزوم لنا لحبوب الدوريدين. سنعالج أنفسنا بأعشاب حقولنا. ما نسمّي حزبنا؟ سمّاه هاني. نحن أصحاب. نحن حزب الأصحاب. المطلوب من كلّ منّا أن يكثر من الأصحاب.

قال هاني يختم الاجتماع:

– أنا مهندس في آخر هذه السنة. قولوا إن شاء الله! وأبي متعهّد. وكان جدّي بنّاء. كان على عهد جدّي في شبابه مقلع في دير المطلّ ممنوع استعمال البارود فيه لمادّة كبريتيّة في ترابه. وكان الفعَلة في الضيعة يلتزمون الحذر فيعالجون الصخور بأدواتهم: بالمعول والرفش والمخل، ويقطّعونها بالمهدّة والإسفين ويعرق الجباه المصبوب من طلوع الشمس إلى غروبها. حتّى كان ذات يوم مرض فيه جدّي. فانتهز فاعل فيهم أرعن فرصة غياب المعلّم ولغم صخرًا في المقلع بالبارود على غفلة من رفاقه، فانفجر المقلع كالبركان فقُتل من قُتل وشُوّه من شُوّه. الضيعة لا تنسى المأساة.

مقلع لبنان هو هذا يا أصحابي. وحذارِ من البارود!

١٠

في ٢٣ شباط ١٩٦٩ ذاع خبر عظيم في المهديّه. وأسرعت آمنه نصّور إلى بيروت تبشّر تميمه:

– عاد جابر من أفريقيا.

لا علم ولا خبر. أراد أن يفاجئ أمّه، قال. لم تجده إلّا وهو بباب البيت يهجم عليها معانقًا ويذرف الدموع. أعطاها ألفَي ليرة. نام عندها في المهديّه. طمّنها عن أبيه: لم يغادر كوناكري، قال، إلّا بعد أن تأكّد من البراءة. ولمّا أخبرته أنّ الحكم صدر بحمد الله، وأنّ أباه كتب مبشّرًا بعودته إلى الوطن، طلب أن يقرأ المكتوب. فأجابته أنّ المكتوب مع تميمه: «ستعطيك إيّاه تميمه».

ونزلت معه إلى بيروت.

– نخر رأسي طول الليل يريد المكتوب. هاتيه وقومي معي.

لم تجب تميمه.

فهزّتها أمّها من كتفها. فتذرّعت بدرس يجب أن تحضّره.

– ليس هذا وقت الدرس.

ثمّ أضافت:

– جابر أخوك الكبير!

وتترجّاها وتشدّ بها. فتهبّ تميمه:
— المكتوب ضاع. مزّقته أختك، قولي له، أحرقته أختك!
وأخذت كتبها واندفعت من الباب.

،

نزل جابر نصّور في «بالم بيتش»، في حيّ الفنادق الفخمة من العاصمة وملتقى الطبقات العالية. على باب الفندق سيّارته الشندربرد الحمراء تبرق بانتظاره. مكشوفة اختارها ليراه الناس، ولا يرونه إلّا طائرًا بها في قميص سبور يبدّل به بين الصباح والمساء آخر أصرخ لونًا، وإلى جانبه ملازمه حسين القمّوعي يرفع ذراعه بالتحيّات كلّما بان له صديق على رصيف، أو لاح وجه يعرفه على مفرق.

النهار للعرض والجاه. والليل للحانات والكازينو. فيشته على الروليت مئة ليرة. ويحذف إلى حسين ليلاقي الحظّ من الطرف الآخر. على أنّ لعبته المفضّلة هي البكارا. يُقدم ولا يُحجم ويلاحق الخصم حتّى الألوف. أمّا الأرتيستات فلا يحلو له إلّا خطفهنّ من أحضان الآخرين بما يغمرهنّ به من هدايا ثمينة ومال بلا حساب. له في كسر الأنوف ولع وزهو على العالمين.

أسبوع... أسبوعان... وما أطلّ الثالث حتّى رنّ التلفون في بيت روز خوري، وعلا هتاف بالسيّد جابر. علا ثمّ انخفض. في صوت الستّ روز غصّة لم يعهدها فيه.

في المساء كانت الحقائب في الغرفة. حملها تكسي. الشندربرد بيعت. ولم يبقَ من ثمن البيع، وهو نصف الشراء، إلّا الربع، ويا ليت!

وفتح جابر محفظته يعدّ من جديد: ألفان وبضع ليرات.

هذا كلّ شيء.

وعطر هذه الحقائب الذي يبعث الذكريات... باريس! عرّج عليها وقضى أيّامًا من العمر. رائحة باريس ونساء باريس ولياليها. رائحة الأشياء التي ماتت.

وطفق يقلّب الأمتعة، فعثر بينها على شال حريريّ — بقيّة من عدّة الماضي ما يزال في غلافه — فتناوله ودخل على الستّ روز، وعلى وجهه تأثّر ظاهر. «هديّة منه، قال، تذكار متواضع».

كانت روز ملازمة فراشها، وقد نقلت التلفون من الدار إلى غرفتها فوضعته بجانب السرير على الإسكملة، والإسكملة حافلة — ظهرها وأدراجها — بأصناف من الأدوية. كان الورم قد امتدّ في رِجليها إلى الساقين وعظُم، فهي لا تتمكّن من المشي، حظّره عليها الأطبّاء إلّا للضرورة. وما عدا ذلك فالحبوب. حبوب! حبوب! وكلّ هذه العلاجات شرابًا ودلكًا، وفحوصًا ومختبرات.

— وضربات من الله! نعم من الله يا سيد جابر. من قال إنّ الله ما عنده حجار يضرب بها!

انقلاب لم يكن جابر ينتظره. في هذه الغيبة التي استغرقت أقلّ من خمسة أشهر هبطت الستّ روز بالشيخوخة فضلًا عن المرض. النقرس؟ ليتها بقيت عليه. ولكنّها الذبحة، وقد نجت من النوبة بأعجوبة.

— صلوات أبي الخوري جناديوس في سمائه.

و«ثقلت عليها خطاياها»، على حدّ قولها. هذا هو الأهمّ. وبصريح العبارة أفهمت جابر أنّها تركت الكار. حتّى البناية شالتها من فكرها:

— يا ضيعان ما دفعنا ثمن خرائط!

ساعة وهي في هذه المراثي. وتمسح دموعها وتتناول حبوبها وتنادي زنّوب. «بنتي» تقول لها. «روحي يا بنتي. تعالي يا بنتي».

— لولا زنّوب كانت حالتي بالويل.

مستعدّ جابر أن يصدّق كلّ شيء عدا هذه التوبة. إنّها من الرِجلين. وصحيح أنّها وصلت إلى الركبتين — أرته روز طرفًا منها — ولكنّها لن تصل إلى فوق! وضحك بمرارة: «عادة بالبدن لا يغيّرها إلّا الكفن». يعرف ذلك من أصحاب العادات. وصرّ جابر بأسنانه لاعنًا جابر.

لم ينسَ هديّته لزنّوب. كان يتململ على كرسيّه بجانب روز وعيناه إلى زنّوب.

وعدها قبل سفره بأسوارة.

كانت الخادمة في غرفته ترتّب له ثيابه بأمر سيّدتها. فانتهزها سانحة وقام فأخرج الحلية البرّاقة: «هذه لك يا زنّوب!» ويهمّ بتقبيلها. فإذا زنّوب تضربه على يده وتقفز ناجية بنفسها إلى الدار كالحيوان المذعور.

لماذا تواجهه بهذا الرأس؟ وما الذي جدّ في غيابه؟

قضى نهاره في الغرفة بانتظار الليل، لم يخرج حتّى للغداء واكتفى بسندويش طلبه بالتلفون من مطعم صغير في الحمرا. بعد الأكل دعته روز إلى تناول القهوة عندها – تريد من يسلّيها – فلمّا أقبلت زنّوب بالقهوة مدّ يده بالهديّة وقدّمها، كأنّ شيئًا لم يكن، بواسطة الستّ روز.

– قولي مرسي للسيّد جابر.

غمغمت زنّوب شيئًا ولم تقل مرسي، وحملت صينيّة القهوة عائدة إلى المطبخ، فيما كانت روز تقلّب الأسوارة بنظرة الخبير، ثمّ تضعها على الإسكملة – حذقًا – كأنّها تُفهم مهديها ما يجب أن يفهمه. فما يجوز على زنّوب لا يجوز على روز. كان جابر ينتظر من روز أن تأخذ معصم زنّوب وتُلبسها الإسوارة.

– مرسي على كلّ حال، يا سيّد جابر.

وقالت إنّها تنتظر سماح الأطبّاء لها بالقيام، لتذهب وتعمل المعاملات اللازمة لتبنّي زنّوب

وجه آخر من وجوه الانقلاب العظيم، أو نتيجة من نتائجه. التوبة إذن صحيحة. «سبحان المغيّر!»

في المساء ارتدى ثيابه لسهرة في مكان ما. الانقلابات في هذا البيت تدوّخه وتخنق أنفاسه.

ونظر في المرآة إلى وجهه. انقلاب آخر!

لأوّل مرّة يلحظ هذا الارتخاء في أذنيه، وهذا الاعوجاج في أنفه صوب اليسار، كأنّه يشمّ عن يمينه رائحة كريهة. واستدار إلى اليمين – أينظر من أين هذه الرائحة أم يصلح أنفه؟ – وتلهّى بذلك طويلًا. لا يعجبه هذا الأنف! وهذا الاصفرار في عينيه؟ إنّه من السهر. ولكن لماذا يخاف النظر إلى عينيه؟ يسوّي كرافته هذه المقلّمة أسود بأحمر. وفجأة ينتزها. يختار غيرها. هذه، بل هذه ذات اللون الأخضر، بل تلك الكشمير أمّ الذؤابة العريضة. ولفّ بها عنقه.

لم تعجبه العقدة. وبدلًا من أن يحلّها راح يشدّها بكلّ قوّته، ويبحلق في المرآة، يريد أن يخنق نفسه...

لم يلبث أن ابتسم. فردّت له المرآة ابتسامته – لأيّ شيء هذه الابتسامة التي كلّها رضى؟... أم هو يسخر من قامته؟...

قصير أيضًا! من أين جاء بهذه القامة الواطئة على هاتين القدمين الشختورتين؟ وأدار ظهره إلى المرآة.

«أكلّ هذا لأنّ جيبك فارغ يا جابر؟» ولكنّه ليس فارغًا. المال القليل يجرّ المال الكثير. الكرّ يجر قافلة من الجمال. والمال أنف أنوف، وقامة كالرمح الردينيّ!

ونزل السلّم.

لم يصل إلى أسفله حتّى لاقاه جلال الكرش:

– سيّد جابر، عندي لك خبر هامّ.

ومن الدكّان إلى المكتب حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع.

– الستّ أوديت تسأل عنك. سألتني عنك عشرين مرّة. تريد مقابلتك. ليس هنا. ليس عند روز. روز يجب أن لا تعرف. لا تقل لها شيئًا. سأخبرك فيما بعد. ستخبرك أوديت. أطلبها لك بالتلفون؟ قالت لي: في أيّ ساعة. في أيّ ساعة من النهار أو الليل هي في انتظارك.

– ممكن الليلة؟

فانفتل الكرش إلى تلفونه. وجابر ينتظر، يصعد الدم إلى وجهه، يضرب قلبه للمرأة التي أرته بين ذراعيها ما لم يرَه بين ذراعَي واحدة من نسل حوّاء تحت

أيّ سماء. حتّى باريس. يقولون باريس! باريس!

ولكن أوديت لم تكن في البيت. ومحلّ الخياطة يقفل الساعة السادسة. ومع ذلك يلاحق الكرش التلفون وليس من جواب.

إلى غد.

في التكسي سأله السائق إلى أين، فنظر إلى ساعته. لم يحن موعد الكازينو.

– إلى الزيتونه.

دخل إلى مقهى وطلب كولا. نهض قبل أن يكمل الكولا. امرأة! أيّ امرأة! فهو محتاج أن يذهب إلى الكازينو هادئ الأعصاب. ولكن قبل ذلك يجب أن يتعشّى.

لو يذهب إلى الكيت كات يأكل، ويرى هذه الملعونة التي تمنّيه بالوعود. وحدها بين عشرات الأرتيستات في الزيتونه وفي الحمرا وفي الكازينو، وحدها ما تزال عاصية.

١١

في القبو الواطئ، المعتم، الغوغو سلطان زمانه.

أشرف جابر من سفرة الدرج، تستقبله ملء وجهه دفقات غامرة من الجوّ العابق دخانًا، وأنفاسًا مخمورة، وعطور نساء، وعرقًا.

وقف يتفحّص تلك الزحمة من الأجساد المتلوّية، المقبلة المدبرة، الصاعدة الهابطة، الناتقة بالرؤوس، الخالعة بالخصور،

تدور على نفسها في الحلقة الدائرة، مخطوفة، مسحورة، مجنونة، على قرع جوقة من الزنوج حملوا إلى الدكّة كلّ أفريقيا بأثوابها الفاقعة وأنوفها وأردافها ونهودها وشياطين أدغالها، قفزًا وإعوالًا،

مع عيون لهم تثقب العتمتين وأسنان تبصق وقار الدنيا، قد جاء – من باريس، من نيويورك، من لندن – القيثار الكهربائيّ فحالف طبلهم وزمرهم، فالأصوات والألحان عزيف جنّ، خبطًا على الحيطان، نطحًا للسماء، ودقًّا على الأرض لأبواب جهنّم!

إنّها هنا.

ها هي ترفع ذراعيها بالتحيّة. تترك راقصها يترنّح وحده لاهثًا، وتندسّ بين الحفل، ضاربة من هنا ومن ههنا، تلاقيه إلى خوان هناك وترتمي، ضفائرها الطائشة الشقراء ملء كفّيه...

في مساء اليوم التالي امتدّت المخابرة بين جلال الكرش وأوديت. قالت:

– هذه أشياء لا تصير بالتلفون. تعالَ هنا.

فأقفل دكّانه وقصد إلى محلّ الخياطة في رأس بيروت. كانت هذه المرّة الثانية التي يطأ فيها الكرش المحلّ، فجعل يتأمّل من جديد ويغبط أوديت. «إنّها ماسكة الأستاذ أكرم من رقبته ولن تفلته!» لولاه من أين لها كلّ هذا؟ صالون للاستقبال بمرايا على الجدران مذهّبة، ومقاعد تبرق بالأطلس، وغرفتان خلف الصالون للعاملات وآلاتهنّ – العاملات انصرفن قبل ساعة وأوديت على نار:

– أين جابر؟

قال الكرش إنّه علم من زنّوب أنّ جابر غادر البيت في الصباح. قالت زنّوب إنّه دخل إلى غرفة الستّ روز وبيده حقيبة. ولمّا سألته روز عنها، «ثياب لا أحتاج إليها، قال، لتكليف كاراج صور بإيصالها إلى المهديّه».

– والمكتوب؟

– وضعته في البريد بيدي. مضمون. يتسلّمه غدًا بعد الظهر.

– وأكرم؟

– تعرفين الأستاذ أكرم. أمين على مواعيده. كلّ يوم من الساعة السابعة مساء – يجب أن يكون هناك

الآن – إلى تمام الساعة التاسعة.

وأضاف أنّه لم يشاهد طول هذه المدّة التي يراقب فيها الشقّة غريبًا يدخل على تميمه وصاحبتها. الباقون كلّهم مستأجرون في البناية.

وجاء حسين القمّوعي يسأل عن صديقه. ظلّ يدور في الحمرا حتّى اهتدى إلى بيت روز خوري.

ورأى جلال الكرش شخصًا يتوقّف أمام دكّانه ويجول بأبصاره. فتقدّم إليه عارضًا خدماته. ولمّا عرف مراده اكتفى بالإشارة إلى السلّم ووقف ينتظر.

أطلّت زنّوب من شقّ الباب إطلالة – الوقت الكافي لجواب الزائر عن سؤاله – ثمّ أقفلت. فعاد حسين أدراجه، فتلقّاه الكرش ودعاه إلى الدكّان.

تحدثّا مطوّلًا عن جابر نصّور. كان اهتمام الكرش لغياب الغائب أشدّ من اهتمام مَن جاء مهتمًّا. وانقلب الدور بينهما فالكرش هو الذي يقلق – «ترى أين يكون؟» ويذهب في ظنونه.

وهمّ حسين بالانصراف فعاجله الكرش بقنّينة كولا وبالسيكارة الثانية وأسرّ إليه شيئًا. فأبدى حسين قبولًا حسنًا واستوى في جلسته، فيما قام الكرش إلى خزانة في الزاوية فأخرج منها ألبومًا وقال وهو يضعه في حضن القمّوعي:

– لأنّك صديق جابر. «صديق صديقي...» تعرف ما يقول الشاعر.

وبرق برصه للزبون الجديد.

أحدثت الصور التي يحفل بها الألبوم الوقع المنشود. وضرب الكرش لصاحبه موعدًا للّقاء، هذا المساء، الساعة التاسعة، هنا في الدكّان.

في الوقت المعيّن وصل حسين فبادر جلال إلى الترحيب ثمّ خرج يتطلّع في الطريق. فلمّا اطمأنّ عاد فأقفل باب الدكّان من الداخل، يفرك بكفّيه واعدًا بالطيّبات، ويعتذر طالبًا دفع الرسم سلفًا. «فهذه هي العادة».

طالت المساومة.

أخيرًا تمّ الرضا والاتّفاق على خمس وعشرين ليرة قبل، وخمس وسبعين ليرة بعد. ولكنّ الكرش تشاءم من سحنة الزبون. الواقع أنّه خاف من نظرات القمّوعي ونبراته أثناء المساومة. وكالكاره قام إلى باب في الحائط فغاب هنيهة، ثمّ عاد وطلب من صاحبه أن يدني كرسيّه من الباب. في الداخل حسّ جيئة وذهاب وضحكات أنثويّة كأنغام صغار العصافير. وما هي إلّا أن نقر الكرش على الباب نقرة فانفرجت فيه، على مستوى الجالس على الكرسيّ، كوّة بمقدار مدى العينين. وبإشارة مزدوجة من يده ورأسه دعا الزبون أن ينظر.

كان الكرش قد أخذ عن روز خوري، بعد تركها الكار، مهمّة استقبال قصّاد البيت والتوفّر على تلبية رغباتهم بأسلوب أدخل عليه فنونًا من عنده. تمّ الأمر في معزل عنها، وهو يحرص على تحذير من يأتون إليه، فالستّ روز تأخذ توبتها باليدين الاثنتين وتأبى وصل ما انقطع، ناذرة نفسها للصلوات والدعوات الصالحات.

والقمّوعي ملتصق بالباب قد سمّر محاجره بالكوّة على المشهد المثير. في المكتب – وقد تحوّل إلى غرفة أنيقة – ضوء أحمر خافت ينسكب من السقف على صبيّتين تتكئان على صوفا، وكأنّ الواحدة في زيارة الأخرى فهما تتبادلان عبارات الودّ والشوق، في ثوبين لهما حريريّين أزرق وأصفر – ميني جوب كلاهما – وقد بانت سيقانهما وتدانت حتّى التقت وحكّ بعضها ببعض. سمراء في السادسة عشرة أو ما دون، وبيضاء رعبوب لعلّها لم تبلغ بعد، وعليها هدوء – أهو الحياء؟ – يزيدها فتنة وإغراء.

وإذا السمراء تنحني على البيضاء فتقبّلها في عنقها وتدسّ كفّها في صدرها مداعبة، والبيضاء تتمنّع غنجًا ودلالًا. ثمّ إذا هي تطرحها على الصوفا وتمرّغ وجهها بأنحاء جسمها حتّى الساقين، ثمّ تأخذ بنزع ثيابها، باللمسة الناعمة هنا وبالنترة الحادّة هناك، وهي خلال

ذلك تتعرّى بدورها في انهماك ما تقتضيه الحال من انهماك وتهافت. وهمّت إحداهما، الصغرى، بما يتوقّع المتوقّع أن يكون من شأن الكبرى. فتدفّق الدم في أوداج القمّوعي وسوّى كرسيّه.

ولكنّ الفصل الأوّل كان قد انتهى. نقر الكرش على الباب نقرة فأُسدل الستار. طلب من الزبون أن يدفع. فهتف القمّوعي:

— والَو! ما لك ثقة؟

وربّت على سترته مكان المحفظة. فأصرّ الكرش. فنهض القمّوعي ويده على الطاقة:

— إفتح لي هذا الباب!

كان في عينيه شرارات أبعد من الشهوة، وفي حنكه تحفّز الأشرار الذين يعرفهم الكرش. ففتح له... باب اللذّات.

على أن الكرش أدهى من أن يقع في الفخّ. فقد وقفت الفتاتان في عريهما تطالبان الزبون بالمبلغ الباقي. فداورهما، فانثنتا ترتديان ثيابهما، فاقتحمها بالقوّة وعلا الصراخ! فألوى واحدة من شعرها، الكبرى، وتمكّنت الصغرى من النجاة.

وكان ما خشيه الكرش. سوّى حسين ربطة عنقه وقال:

— المرّة الثانية نتحاسب. خاطرك يا عمّ!

وأدار ظهره ومضى.

فانقلب الكرش يشكر ربّه على السلامة، ويأمر «العنزتين» بلغتهما العكّاريّة أن تضبّا على أشيائهما.

١٢

مع ظهر اليوم الرابع أطلّ جابر.

بنت الحرام — يأنف من لفظ اسمها — هي من الدهاء بحيث كانت هي التي عرضت عليه السفر. «لأيّ بلد من أرض الله، قالت، شرط أن نكون معًا». قال: «اختاري». قالت: «بل لك الخيار». واختلفا على ذلك. فطلبت أن يعدّد البلدان الجميلة ويكتب أسماءها على ورقة — لا! لا! هو لا يستطيع أن يتذكّر — وأن يغمض عينيه ثمّ يضع إصبعه على أيّ بلد يشاؤه الحظّ. فكتب وأغمض. ولكنّه أبى إلّا أن يكون إصبعها... وعلى متن الطائرة ظلّت تسمّي له الجزر السحريّة التي ينبغي لها أن تؤوي حبّهما في البوسفور حتّى وصلا إلى مدينة الأحلام، فإذا هي قد ركبته — مع الطائرة — إلى إستانبول، وفي المطار استأذنته لحاجة وبلعتها الأرض.

وحدها الستّ روز حكى لها الحكاية. وكان مصمّمًا على دفنها في قرارة نفسه.

ومع ذلك لم يبح لها بكلّ شيء. ماذا لو علمت، مثلًا، أنّ المخلوقة نامت طول الطريق فلم تدعه يلمس طرف ثوبها، ولمّا فتح محفظته ليحاسب التكسي الذي أوصله إلى أقرب فندق طار عقله. فقد طارت من المحفظة الورقات الخمس — خمسمائة دولار — لم تُبق له إلّا بعض الليرات اللبنانيّة. متى؟ كيف؟ لا شكّ أنّها انتهزت فرصة قيامه إلى التواليت في الطائرة — ترك سترته على الكرسيّ — وفعلت فعلتها. ولولا أنّ التذكرة للذهاب والإياب «لانقطعنا، بالعربيّ الفصيح، في عاصمة بني عثمان!»

ولكنّه لم يصل في اعترافه أمام روز إلى هذا الحدّ. هتفت:

— إشرب قهوتك يا سيّد جابر.

كان بنفسها أن تضحك. منذ زمان لم تضحك روز.

— صحّتك بالدنيا! بردت قهوتك.

لم تكن شهوته للقهوة. الويسكي. الويسكي لمثل هذه الساعة.

وبلا نساء! بلا نساء!

قنّينة ويسكي وبعدها ينام. ينام. إنّه لا يريد أن يفكّر.

على أنّ الكرش كان له ، تحت ، بالمرصاد . لم يشأ أن يصعد إلى غرفته . تلك كانت تعليمات أوديت : أن تبقى روز بعيدة عن كلّ ريبة . وأين يطير جابر ؟ وها إنّ الكرش يثب إليه من الدكّان ، عند أسفل الدرج ، وبعد ربع ساعة يسلّمه تسليم اليد إلى أوديت في محلّ الخياطة .

كانت أوديت متّكئة على الكنبة في وضعها المفضّل ، مع استلقاءة على الطنافس المكدّسة خلف ظهرها وقد أبدت من ساقيها ما تحبّ . لم يكن على وجهها من الأصباغ شيء ، إلّا الكحل على أهدابها الطويلة المرفرفة . كانت تلوح هكذا في حدود سنّها الحقيقيّة ، الأربعين ، أي أكبر ممّا توهم في زينتها البرّاقة لمواعيدها مع أكرم الجردي . ومع ذلك أحسّ جابر ، وهو يقبّل كفّها الممدودة ويردّها عن محاولة النهوض له ، بالنار تتأكّله ، تهبّ عليه من برق كتفيها ، وهزّ نهديها ، وتلوّي هذا الجسم بلهفة السؤال عن سفرته إلى أفريقيا : «طالت الغيبة . ولا كلمة ولا كارت صغير يذكر به الصحبة القديمة ! » . — مشغول بالقضيّة ؟ كانت على كلّ حال واثقة من براءة أبيه . ولكنّها لا تغفر له إعراضه بعد عودته . «تلفون على الأقلّ ! » ... والكرش يؤمّن على كلامها حالفًا بالله أنّها سألته عن السيّد جابر ألف مرّة وطلبت عنوانه ... ويدور حول الطاولة منهمكًا في تحضير ما يلزم ، يفتح علبًا وأكياسًا ويصفّ آلة الشراب ومازاته ، وقد تألّق البرص على جبينه كما لم يتألّق في زمانه قطّ . إنّ هذه المهمّة لمختلفة جدًّا عن مهمّاته المألوفة . ثمنها — عينًا — من هذه البضاعة الرفيعة لا من سقط متاع عكّار . وهذه نظرات أوديت إليه وغمزاتها مشحونة بالوعود والآمال . كلّ نظرة ترفيع له إلى مرتبة ، وكلّ غمزة توكيد بأنّه لا يقلّ في الهيئة الاجتماعيّة عن الأستاذ الكبير أكرم الجردي ، فضلًا عن السيّد جابر نصّور .

وأومأت إليه أوديت إيماءة ، فودّع وانصرف .

وما كاد حتّى فتحت ذراعيها على مداهما ونادت جابر بأعذب ألحانها . ولم تنتظره فأطبقت عليه تغرس رأسه بين نهديها وتلهب شعره بأنفاسها . ثمّ تنتفض ، تتناوله من خدّيه ، تدنيه ، تقصيه ، وتتقرّى فيه تنقيرًا . وفجأة أفلتت منه وقامت مستأذنة بإشارة جمعت لها أطراف أناملها الحلوة ، ودخلت في باب .

«انّ هذه المرأة تساوي ثقلها ذهبًا ! » على أنّ هاجسًا كان ينغّص عليه هناءه . في تلك المرّة حطّ خمسمائة ليرة في يد روز سلفًا عدًّا ونقدًا . من أين له الآن هذا المبلغ ؟ وأيّ خزي سيكون خزيه ! ويستدرك : «إذا كان للمال مجال مع هذا الدلال ! وعلى فرض التعرّض له فبعد الوصال طبعًا ! » . على كلّ ليس سائحًا أميركيًّا هو ، ستمهله في الدفع . والمبلغ على بضع ساعات بالسيّارة ذهابًا إلى المهديّه وإيابًا .

وإذا هي تناديه من وراء الباب أن : افتح .

فقام ، وما فتح حتّى شهق للرؤيا . ما راعه إلّا أوديت في ثوب عرس يسطع باللؤلؤ والمرجان وضروب من الحجارة الكريمة ، حبالًا تنعقد هنا وتنسرح هناك ، مع ذهب مشرور نجومًا ، وذؤابة لها انسحاب الثريّا ، وفرجة على النحر تبدي عنق ملكة ونهدَي إلهة ، وهي تدنو في بهائها على انحناءة من رأسها ، ورفيف من أهدابها ، وتأنٍّ في النقلة وخشوع . ثمّ تأخذ بذراعه عروسًا وعريسًا في حلم من الأحلام أو أسطورة من الأساطير .

— ثمنه عشرون ألف ليرة ! ليس بالكثير على الأمير الخطير !

وخلعت الفسطان . طرحته بازدراء على الأرض . وجعلت تضرب بيدها في الخزانة ، وقد بانت في ثيابها الحميمة المهفهفة ، وتشير :

— أجرّب لك هذا أيضًا ؟ أم هذا ؟... أم ذاك ؟

الخزانة على طول الحائط تزدحم بالثياب الفاخرة ، وأوديت تستعرض وتقصّ قصص زبوناتها — زبائنها الكرام : أمراء الخليج وشيوخه وتسمّيهم بأسمائهم . يقصدونها للملابس عرائسهم ، لكلّ منهم في العام

عروس على الأقلّ ، ولكلّ عروس في الشهر جهاز جديد. ما قتل أوديت إلّا هذا الحظّ الأبله لا يجد إلّا بين الفلّاحات والأرتيستات مَن يغدق عليهنّ ملايين البترول ويضع على رؤوسهنّ تيجان الأميرات.

وتنطرح على السجّادة رافعة ذراعيها :

– أنت أميري !

تعانقه. تلاعبه. تشدّه من شعره. تعضّه حتّى الدم. تنحني على الألم فتمسحه بالحنان. تركع وتعصر له وجهه بيديها. تقوم وترقص. تستلقي من جديد وتأمره أن يبتعد. أن يجلس هناك في الزاوية. لا يتحرّك. لا ينبس. يدخّن سيكارة وينظر إليها وهي مضطجعة، مغمضة العينين. «كما كانت تفعل في لياليها طول غيابه». تبذل نفسها له – هكذا – في الرؤيا ، وهو في أفريقيا عند العبدات.

– أخبرني. أخبرني. كم عبدة سوداء؟

وهذه الرحلة إلى إستانبول ! كادت تجهز عليها ! من هي تلك الأرتيست التي تريد انتزاعه منها؟ قوّات الأرض والجحيم لا تقوى على ذلك. هو لها. لها وحدها. ولن يكون لسواها بعد اليوم.

ورفعت كفًّا إلى عينيها تفركهما... فدنا منها سائلاً :

– والأستاذ أكرم؟

كانت أوديت تنتظر السؤال بفروغ صبر. كفكفت دموعها وقالت إنّها – «بصراحة» – نسيت أكرم الجردي. نسيته منذ النظرة الأولى التي وقعت منها على جابر. ثمّ مالت بوجهها :

– على كلّ حال صار عنده عشيقة جديدة. تميمه. مبروكة عليه ومبروك عليها.

– ماذا تقولين؟ أيّ تميمه؟!

كانت قد انتصبت ترتدي ثيابها :

– هنيئًا لها ! بدل الواحد صار عندها ثلاثة.

وسمّت له : رمزي رعد. وهاني الراعي.

– وهذا الثالث هديّة منّي.

١٣

أوقف هاني السيّارة في شارع عبد العزيز ، خلف المستشفى الأميركيّ ، في فم الطريق المؤدّي إلى شقّة تميمه وصديقتها. وتميمه إلى جانبه تشير بيدها إلى البناية ، على أمتار من الشارع ، وتلحّ عليه أن ينزل ويطلع معها إلى الشقّة. تضغط يده وتستحلفه بحياته ، وهو يأبى.

«عنيدة» يقولون عنها ! هو العنيد.

كان صوتها يتهدّج بالتوسّل ، لا تعرف ما تقول ، وصدرها يعلو ويهبط بما يموج فيه. ونظر هاني إلى عينيها ، قد كبرتا بالفرحة ، وإلى جبينها تتراقص عليه أشعّة من مصباح الشارع – أمن المصباح هذا التألّق العجيب أم من شمس تطلع في سماء روحها؟ ولم يتمالك أن مدّ كفّه فمسح بها ذلك الجبين. فتناولتها تميمه تقبّلها وتترجّاه مرّة أخرى أن يرافقها إلى الشقّة ، تريد أن توقظ ماري ، أن تخبّرها.

– خبّريها وحدك اليوم. الأحد المقبل نتناول العشاء كلّنا على البحر بدعوة منّي. أتلفن لك في الصباح لتأكيد الموعد بعد موافقة المسّ ماري والأستاذ الجردي.

وأدار سيّارته.

وقفت تميمه تشيّعها بأنظارها حتّى اختفت. ثمّ سلكت في طريقها إلى الشقّة. فلمحت شخصًا ينسلّ من أمام مدخل البناية ، يخفض رأسه ويمضي مسرعًا. هذه المشية... هذا الظهر الأعوج... جلال الكرش ! ماذا يعمل هنا في هذه الساعة؟

أيكون القمّوعي قد أخبر جابر؟ وجابر كلّف الكرش؟...

ومال الطيف ميلة وتوارى.

«ترى لماذا يكون للسماسرة كتف أعلى من أختها !»

وهزّت تميمه بكتفها وضحكت بينها وبين نفسها.

استهزاء ضحكت أم استخفافًا؟ لا تدري.

ولكنّها سمعت ضحكتها. ضحكت إذن عاليًا.

وربّما سمعها جار الشقّة هذا الذي ينزل من البناية، فيرفع رأسه محيّيًا، لا تعرفه إلّا بالنظر، فتردّ السلام بإيماءة كإيماءته وتضع رأسها في السلّم. لا. إنّ الضحك من قلبها الطافح بالحياة، الطافر على الدرجات، القافز بها قفزًا، الطائر بها طيرانًا، يحطّها على صدر ماري ويتدفّق.

كانت ماري تتهيّأ للنوم بعد انصراف الأستاذ أكرم. انتظراها – «تأخّرت» – للتشاور في ثوب العرس: الأحد الأوّل من الشهر المقبل. ولكنّ السيل كان قد غمر تميمه. فقعدت ماري تصغي إليها:

دعاها هاني إلى غرفته. اجتماع آخر، قال، مهمّ يجب أن يسفر عن قرار مهمّ. فظنّت أنّه كسائر الاجتماعات: رابطات وأحزاب ومناقشات، وسيكارات حتّى منتصف الليل.

– ماذا؟ حسين القمّوعي؟ لا! لا أخاف من حسين القمّوعي. حسين القمّوعي هو الذي يخاف منّي الآن. حتّى الموت. أتسمعين؟ حتّى الموت! سأخبرك بخبر حسين القمّوعي. يزوّر على الفدائيّين. يجمع تبرّعات كاذبة باسم الفدائيّين. كتب ورقة ثانية بإمضاء يده الحمراء، .ضحك هاني ورماها عن السطح في الهواء. الخبر الذي أريد أن أخبرك به ليس هذا. ليس هذا. سأعلّم حسين القمّوعي ألّا يتدخّل في شؤوني. ظننت، قلت لك، أنّ هاني يريد مفاتحتي بقضيّة القمّوعي. ظننت أنّ القرار المهمّ أن يذهب وفد من الأصحاب إلى الحكومة لرفع الشكوى عليه. وجدت هاني وحده، لا أصحاب ولا من ينتظرهم. ينتظرني أنا. لو ترَين عزاله على السطح وعلّيته! والمناظر من السطح على البحر والجبال المشعشعة في الليل! وفوضى كتبه ودفاتره! أردت أن أرتّبها له. قال: «فيما بعد». وأمسك يدي وحبسها في يده وهو يتكلّم. ينتظر الشهادة. أن يصير المهندس هاني الراعي. آخر السنة. هذه السنة. أربعة أشهر. ثلاثة أشهر وعشرين يومًا! حسبناها معًا. وأوصلني بسيّارته إلى هنا. يصرّ على أخذنا بسيّارته إلى العشاء يوم الأحد: «دعوني، قال، وسيّارتي». وسيأتي من غد كلّ صباح ويأخذني بالفيات إلى دار المعلّمين والمعلّمات ويعلن على الملأ: هاني الراعي المسيحيّ المارونيّ من دير المطلّ سيتزوّج تميمه نصّور المسلمة الشيعيّة من المهديّه!

وتقوم تميمه فتتوسّط الغرفة وتمثّل الفصل الذي أثاره تحقيق أوتلوك في ساحة دار المعلّمين والمعلّمات. تقلّد حسين القمّوعي برقاعته وأسئلته، والقارئ ببرودته وسخريته، وهاني وهدوءه، ونزعه لليد الغليظة عن كتفه – «هكذا نترًا دون أن يتنازل إلى الالتفات». واضطرابها هي خوفًا من مغبّة الأمر... «يعيش أوتلوك! يعيش أوتلوك! يا! يا!»

وتضحك تميمه حتّى الدمع، يرفد إليه دمع هنائها. وسيأتي أبوه من ليبيا لحفلة توزيع الشهادات. وتكون ماري حاضرة. ويكون أكرم حاضرًا. – «مدعوّان منذ الآن». يكونان قد تزوّجا. تكون ماري قد سبقتها. طبيعيّ أن تسبقها.

– وأخوك؟ وملّتك؟ وحسين القمّوعي؟

– قلت لك حسين القمّوعي أنا ممسكة بخوانيقه. لقطه قاسم الهلال بالجرم المشهود. جاء القمّوعي يبيع قاسم ورقة فنتر الدفتر منه وعرضه في اجتماع الأصحاب. في السجن ستكون آخرة القمّوعي إذا خلص من الموت برصاصة. أنا اقترحت إخبار مكتب الفدائيّين في بيروت ووضع الدفتر بعيونهم. إذن لاسترحت من القمّوعي إلى الأبد. إلى الأبد! ولكنّهم لم يوافقوا. هاني قال: يعنينا نحن وجه واحد من التزوير يتعلّق بالقانون اللبنانيّ، والوجه الآخر لقيادة الفدائيّين تتولّاه كما ترى. تصوّري، تصوّري هاني، بقامته – الشبّ! – تصوّريه يخرج من الصفوف ويتقدّم إلى المنصّة، يتسلّم من اللجنة شهادته، والتصفيق في القاعة. وهو ينزل درجات المنصّة عائدًا بشهادته، وعيناه إليّ، وإلى أبيه. سأكون إلى جانب أبيه. كتب إلى أبيه. أبوه يريد منه أن يسافر إلى ليبيا ليكون على

رأس أشغاله فيها. هاني لم تعجبه ليبيا. لا، أعجبته ولكنّه يريد السفر إلى أميركا للاختصاص في بناء المدن. يقول: «إنّ البناء في لبنان فوضى! فوضى! ونحن نشوّه بأيدينا أجمل طبيعة أعطانا إيّاها الله»...

كانت تميمه تلهث، محمولة في عباب حبّها، وتُغرق صديقتها بما يدفق من قلبها، وماري تهدّئ من روعها مستعيذة بالله من هذا الغرام الجنونيّ. وتميمه ماضية... إلى أميركا! ستسافر معه إلى أميركا، إلى هارفرد. كلّهم في أميركا يتابعون دروسهم العالية متزوّجين. الزوج والزوجة في الجامعة نفسها. ويعيشون في شقق صغيرة، حلوة. – «مثل هذه». ويشتغلون خارج أوقات الدراسة. شغلها هي جاهز. ستعلّم اللغة العربيّة. تساعد الذين يتعلّمونها في هارفرد بأمثولات خصوصيّة.

وإذا أصرّ أبوه على ليبيا لاتّساع أشغاله فيها؟ تسافر إلى ليبيا – إلى ليبيا! إلى أميركا! إلى الغرب! إلى الشرق! إلى أيّ طرف في الدنيا! والدنيا لن تسع سعادتهما.

غدًا إلى المهديّه. لأمّها يوم في الأسبوع. تقدّمه هذا الأسبوع من الأحد إلى الجمعة. فالجمعة عطلة، والأحد لهاني. هاني قال لها: «هذا الأحد وكلّ الآحاد».

ولكن هل تخبر أمّها؟ وما يكون وقع الخبر على أمّها وعلى المهديّه؟ أمّها. المهديّه. جابر. حسين. العالم كلّه ما يعنيه؟

حياتها ملكها ليست ملكهم.

وستعيش حياتها كما تريد.

أم تنتظر أباها حتّى يعود؟ ستكتب له على كلّ حال. ستكتب هذا المساء. وسيؤيّدها أبوها. وسيكون حاميها أبوها. سيجلب من كنكا إلى المهديّه بعض ما يرفعها إلى مستوى الإنسان، وربّما عجّل من أفريقيا – من عند العبيد السود – طردًا حضاريًّا باسم لبنان.

«وسأكتب لك يا أبا الهول. مرحبًا أبا الهول!»

وتفكّر بأبي شرشور إذ جاءها أمس بالرسالة الجديدة لتقرأها له. ماذا تقرأ؟ الحاشية الموجّهة «إلى الآنسة تميمه» ثلاثة أرباع الرسالة. يقول أبو الهول – نطق! – إنّه يحتفظ بصورتها في صدره. من أين؟ التقطها في مكتب النقابة، قال، بآلة صغيرة يخبّئها تحت سترته. ولمّا سأله الرفاق: «من هذه؟ قال: أختي». لكلّ واحد حسناء (كذا) يحكي عنها في الأوقات التي يسكت فيها الرصاص. «أتأذنين أن أحكي لهم عنك يا آنسة تميمه؟»....

اِحكِ يا أبا الهول اِحكِ. اِحكِ يا أبا العزّ وقُل لهم إنّ حسناءك أيضًا هي أمّ العزّ!

١٤

الكازينو.

هذه المرّة رأسًا إلى الكازينو. شبع من النساء. لعنة الله عليهنّ! وتميمه في رأس القائمة. دبّارها عنده. أكرم الجردي، وقبله رمزي رعد، وبينهما هاني الراعي. وهذه الرسالة المغفلة:

«اِنتبه يا سيّد جابر. اِنتبه لأختك! أختك تضع شرفك وشرف العائلة في الوحل».

الإمضاء: صديق مخلص.

جاءته بالبريد المضمون. وأعادها إلى جيبه. وتلميحات حسين – «سلوك تميمه في غيابك لا يعجبك إذا عرفت كيف كان سلوكها». لماذا لم يخبره بصراحة؟ علام اللفّ والدوران؟ – «سأخلّيك ترى بعينيك!» وكلّ يوم يؤجّله ليوم. يلاحقه في الملاهي الليليّة من أرتيست إلى أرتيست. من قنّينة وسكي في الفينيسيا إلى تركة عرق على الروشة... يعيش على ظهره. راحت الثندربرد الآن وطارت الثروة. ليس إلّا هذه الفتيلة وفيها كلّ الحيلة: ألفان ومائة وخمسون ليرة.

قُل ألفان.

ضرب كبير يا جابر! إمّا أن تعوم وتربح ما خسرته، وإمّا أن تغرق إلى القاع.

وسيذهب وحده. القمّوعي وجهه نحس ولن يتّصل به.

سينام بعد الظهر ليتمكّن من سهر الليل، ولن يدع أحدًا يوقظه حتّى المساء.

الواقع أنّه مخضوض البدن بعد الذي جرى له هذا الصباح في المهديّه. كانت تنقصه أخبار الحاجّ فضلو. ماذا كرز الحاجّ فضلو وطرّز؟ ماذا قال لأمّه؟ كان عليه أصلًا أن لا يعطيها الألف ليرة ليعود ويأخذها بالقتال. ولكن وفّرتها له. ربّة من وفّر القرش الأبيض لليوم الأسود. هل أشدّ اسودادًا من هذا اليوم؟ ضرب! ضرب كبير يا جابر ويصير سوادك بياضًا كالصباح!

فوجئ بجلال الكرش يفتح له باب الغرفة، على وجهه خبر أسود، ويطلب منه أن يتفضّل ويلحق به إلى غرفة الستّ روز.

فمشى وراءه.

سكوت في غرفة الستّ روز.

وهي قاعدة في فراشها لا تردّ عليه السلام. وزنّوب في الزاوية ظهرها إلى الحائط. ورمزي رعد. رمزي رعد — إيّاه — في الزاوية الأخرى ينبطح على كرسيّ مفرّجًا بين ساقيه، يدخّن سيكارة ولا يرفع بصره، والكرش قد انتصب بالباب.

محكمة!

وانصبّت عليه العيون.

صرخت روز:

— قرّبي يا عنزة! قرّبي صوبي.

خطت زنّوب نحو السرير فانحنت روز تلاقيها بذراعيها ثمّ ترفع لها ثوبها، فتنفجر زنّوب بالبكاء محاولة التستّر، فيما تضرب روز على بطن خادمتها وتقذف جابر بالتهمة ملء وجهه.

أنكر. هجم يريد ضرب هذه «العنزة الوسخة». ضحك. غضب. صرخ: «البيت غرف للإيجار. ألف مستأجر قبله وبعده. فليبحثوا عن غيره. مكتب الاستخدام للسمسرة، والبيت للدعارة»... وهدّد بفضح كلّ شيء أمام الحكومة. فتلقّته روز بقفا كفّها.

— رُح! أختك تميمه من واحد لواحد.

وأمّن الكرش:

— من كان بيته من زجاج لا يرشق بيوت الناس بالحجارة.

ورمزي رعد يمضغ عقب سيكارته غارسًا نظّارتيه في الأرض، قد همّ جابر بالوثوب عليه. بتكسير رأسه. بلبط الكرش. بصفع زنّوب. بسحب هذه القوّادة من رجليها هاتين المتورّمتين بالتوبة!...

ولكنّه في النتيجة لم يفعل شيئًا.

وانقطع عن الكلام. أُرتج عليه. أفحمته زنّوب بما روت من تفاصيل إغرائه لها قبل سفره إلى أفريقيا. ومحاولاته بعد العودة. والأسوارة... حتّى إذا بلغت روز من ذلك ما تريد أمرت خادمتها بالخروج من وجهها.

وتمّ الاتفاق بين الثلاثة: روز والكرش وجابر — بعد مساومة طويلة اعترف فيها جابر بكلّ ما يملك — على إجراء عمليّة إجهاض لزنّوب يتحمّل نفقاتها. ألف ليرة تتسلّمها الستّ روز الآن لدفعها إلى الطبيب. وألف آخر يتسلّمها جلال الكرش لدفعها إلى والد زنّوب ثمن سكوت.

أمّا رمزي رعد فترك الجماعة قبل دخولهم في الصفقة. عاد إلى غرفته ووراءه صياح روز بوجه جابر:

— يمكن تموت البنت! يمكن تموت البنت تحت العمليّة!

جلس وراء الطاولة. كان عليه أن يهيّئ مقاله الأسبوعيّ فتناول كدسة من الأوراق. لا يفكّر بما يكتب إلّا إذا شهر قلمهَ. المواضيع المحضّرة سلفًا أكره ما يكرهه. — تشيكلس، يقول عنها. حسبه أن يركّز نظّارتيه ويرى العالم من خلالها. أيّ صندوق للفرجة!

على أنّه لم يكن يهتدي هذه المرّة إلى موضوع ، فجعل يكتب ويشطب . يمزّق الصفحات واحدة بعد أخرى . ثمّ دقّ الجرس يريد قهوة – كان يطلب الركوة ويبقيها إلى جانبه إذا كتب – ودقّ ثانية ، فثالثة . ليس من مجيب .

«زنّوب تطبخ مأساتها» – وكتبها عرض الصفحة عنوانًا لمقاله . ومضى حتّى ملأ ورقتين ، ثلاثًا ، أربعًا . كانت الكلمات تنساب من قلمه انسيابًا ، وخُيّل إليه أنّه مقال جيّد . ولكنّه لم يلبث أن تناول الأوراق فعصرها عصرة ثمّ ألقاها في صحن السيكارات وأشعلها بكبريتة . وكأنّه أحبّ أن يتملّى من الحريق فنزع نظّارتيه يستقبل الدخان ملء أحداقه ويمسح اللهيب عن وجهه بيديه الاثنتين عرقًا متصبّبًا .

وقام يتمشّى في الغرفة . يدخّن . يستلقي على السرير . يضرب بيديه إلى الكتب المتراكمة على الرفوف فوق رأسه . في الدار لغط وجيئة وذهاب ، وفي الخارج رعود وبروق تشقّ الشبّاك المخلّع . لا تريد روز تصليحه – «فليسقط على رؤوس الجيران !»

صحوًا كان الطقس طول النهار ، فما الذي خطر ببال الله لكي يزمجر هكذا ؟

غضبان ، ربّما ، على ما حلّ بزنّوب .

طبعًا على ما حلّ بزنّوب .

مؤكّد على ما حلّ بزنّوب !

ووقع كتاب من يده على الأرض فانحنى يتناوله . كان قد انفتح في الوقعة ، فلبث من فوقه ينظر . ولمع برق آخر ملأ الغرفة وتردّد ثلاثًا ينثر بهقه على الكتاب المفتوح المنبطح على السجّادة – «كالمومس تتهيّأ ... أيّها الكتّاب العظام ، والشعراء الخالدون ، انظروا بنات أفكاركم ! تُرى من يضاجع بناتي الحلوات في هذا الليل ؟»

وانفجر في قهقهة ملء فيه وانزلق من سريره إلى الكتاب يلاقيه مستلقيًا على السجّادة . وشرع يقرأ :

«الإله لا يمارس الجنس . لا ينام ولا يأكل . واحد متفرّد . هذه الكينونة لا بدّ أن تصوغ مزاجه النفسيّ صياغة حادّة أليمة .

لو كنت أختار للإله لاخترت أن يشفى من هذه المعاناة : أن يمارس الجنس والطعام والنوم ويتخلّى عن الوحدانيّة .

سوف أنتظر منه ألّا يجد في تشويه الطفل والشيخ وتعذيبهما عزاء وحكمة ومنطقًا وإحسانًا .

أنتظر له حينئذ صياغة إله جديد ليعطي صياغة كون جديد ...»[٤] .

وإذا صوت روز في الدار تجأر :

– يا الله ! يا الله !

فهتف إليها من وراء الباب :

– الله لا يمارس الجنس ! ماذا تريدين منه يا ستّ روز ؟

وعاد يضحك عاليًا مستمتعًا بكرّة ضحكته يرتّلها ترتيلاً . الله لا يمارس الجنس ... أسامع يا جابر ؟ يا عيب يا جابر ! أنت لا تمارس سواه . الله لا يمارس الجنس . فكرة والله ! لم تخطر لي . ولكنّ صاحبنا لا يعرف أين ستؤدّي به . من الشيطان هي . هذه أفكار شيطانيّة . كيف تجاسر على هذا ؟

الله لا يمارس الجنس !

تجديف على الله في سمائه .

وسترى ، يا رجل ، أنّ وكلاءه على الأرض سيأخذون بخناقك . انتظر ! الاجتماعات الآن معقودة في دور الإفتاء وفي كراسيّ الأحبار الأجلّاء .

خضّة .

ويا ما أهون خضّاتي أمامها !

تذكّرني أختًا لها أثارها أخ لنا بالروح كتب يومًا في جريدته : «إنّ نصف أعضاء مجلس النوّاب أغبياء» .

فقامت القيامة عليه .

فكتب في اليوم التالي معتذرًا : «غلطت . نصف أعضاء مجلس النوّاب أذكياء» .

فقامت القيامة عليه كذلكم – تعجبني هذه

«كذلكم» ... ما رأيكم في كذلكم؟ – هذا طبعًا ليس في لبنان بل في بلاد الواق واق. عندنا، الحمد لله، أكتب عن المجلس كلّ يوم دون حساب، دون هذا الحساب على كلّ حال، ولا أحد يحتجّ. من منّا أذكى: أنا أم هو؟ الخلاصة أنّك، يا صاحبي، أغبى من زميلنا الواقواقيّ. إذا قلت مكذّبًا، مستغفرًا: «الله يمارس الجنس» فالنتيجة واحدة، وإلى اللقاء في الحبس.

– يا الله! أين أنت يا الله؟

الستّ روز ضيّعت الله وتفتّش عليه في بيتها العامر! متى استأجر عندها؟ إنّه يجاوبها بالرعد – أفصح لسان – «أنا لست هنا! أنا لست هنا يا ستّ روز!» وهي لا تسمع.

أرهف هو سمعه. الواقع أنّ زهّور تترجّى أباها القدّيس ليشفع لها عند الله ليعينها على طرد الشيطان. وها هي تستعين به هو أيضًا – رمزي رعد – تدقّ عليه الباب. تدقّه بعنف... لا يريد أن يفتح... تبتعد مواصلة أدعيتها وابتهالاتها... أخذت تلعن الآن. تكفر. تعود إلى الباب – «أفّ! أفّ!» وقام متثاقلًا وفتح الباب.

عتمة في الدار ولا أحد. من كان يدقّ عليه؟ لعلّه الشيطان في هربه خبط رأسه بالباب.

ولكنّه قبل أن يثني إلى غرفته استوقفه شخير ينبعث من الممشى، فأضاء الكهرباء فإذا روز ملقاة على البلاط لنوبة من نوباتها.

لم يكن من السهل حملها، فجرّها جرًّا إلى غرفتها، وأضجعها على السرير. كانت الرغوة تتحلّب من شفتيها وقد انقلبت عيناها إلى فوق. فهزّها يسأل هل يتلفن للطبيب؟ فنتقت برأسها أن لا. الطبيب جاء قبل ساعة وعاينها. أوصاها بالراحة التامّة. بملازمة الفراش والامتناع حتّى عن الكلام. كيف لها أن تستريح وتسكت بعد الذي صار! – ما الذي صار؟ هربت زنّوب. انشقّت الأرض وبلعت زنّوب! انتهزت فرصة انشغال الكرش بالطبيب وهربت، والكرش يركض وراءها، وإلى الآن لم يرـ

١٥

وصلت تميمه مع الغروب إلى المهديّه.

الباب مفتوح، وفي الدار نسوة، وأمّ علّوش تبادر إلى استقبالها مبغوتة، فتسأل ما الخبر وتقتحم غرفة أمّها وتتبعها أم علّوش ومعها امرأتان أخريان.

كانت آمنه قاعدة في سريرها. وما إن وقع نظرها على ابنتها حتّى شهقت بالبكاء، تحاول الكلام فلا تستطيع، وتشير بيدها اليمنى إلى فكّها وقد اعوجّ، وتهزّ برأسها رامقة تميمه بلوعة. والجارات يحمن حول تميمه، لكلّ واحدة منهنّ تأويل وشرح، وطبّ وعلاج.

شلل! فالج! أُصيبت أمّها بالفالج – «هذا ما كنت تنتظرينه يا آمنه نصّور؟» وأكبّت على أمّها.

أخبرت أمّ علّوش أنّ جابر جاء في الصباح. كانت آمنه بألف خير. وكانت أمّ علّوش مارّة فسمعت صراخًا، ثمّ رأت جابر يخرج برجًا من غضب وآمنه تقع وراءه على العتبة. لم يلتفت وعاد بالتكسي الذي كان بانتظاره. لم تُصَب في الوقعة إلّا بخدش في كوعها.

– ساعدتها على غسله وربطه. قالت لي إنّ جابر أخذ منها كلّ شيء. صحيح، قالت لي، المال ماله. وأخبرتني بالألف ليرة التي بعث بها من أفريقيا وبالألفين بعد رجوعه. حكت لي كلّ شيء. كانت بألف خير. وقعدت أعزّيها وهي تحكي لي عن جابر وفصوله، وعن تامر وأنّه سيرجع إلى المهديّه قريبًا ويكون على رأس العائلة. هي لا تقدر على جابر. «أبوه يقـ...»، هكذا قالت، ووقف نصف الكلمة بين أسنانها وراح فكّها للشمال.

تمّ الرأي بين الاثنتين: تبقى أمّ علّوش عند آمنه وتنزل تميمه إلى صور لتعجيل طبيب إذا وجدت في صور طبيبًا. وإلّا فهي قاصدة إلى صيدا لإخبار خالتها، وفي صيدا لا بدّ من العثور على طبيب.

في صيدا انكشف الوجه الآخر للمأساة، ذاك الذي حرصت تميمه على إخفائه عن أمّها. أخبرتها خالتها أنّ أمّ جابر جاءت إلى صيدا قبل يومين وزارت الحاجّ فضلو، ونامت عندها. قالت:

– علمت من الحاجّ فضلو أشياء فظيعة عن جابر. أشياء فظيعة عملها في أفريقيا مع أبيه. عادت تقول: يا ليت جابر لم يسافر! وتضرب كفًّا بكفّ ولم تنم ليها.

قضت تميمه يومين في المهديّه، وفي صباح اليوم الثالث عهدت إلى خالتها أن تقوم على العناية بأختها آمنه، وركبت في المرسيدس مع أحمد لعودتها. كان أحمد قد أقنع أباه ببيع الناش وشراء السيّارة الجديدة بعد أن صارت درب المهديّه إلى ما صارت إليه بفضل أريحيّة الموالي.

في الطريق الرئيسيّ لاحظت تميمه جماعات من القرويّين يتكدّسون مع أمتعة لهم في ما تيسّر من مركبات، سيّارات وشاحنات، مقبلين من الجنوب صوب صيدا، ومنهم من حمّل الدوابّ أو حمل على ظهره، مع أطفال يبكون على أكتاف أمّهاتهم، وشيوخ يجرجرون بؤسهم وانكسارهم لاحقين بالركب.

وفسّر أحمد:

– يهربون من وجه الإسرائيليّين. أبناء الكلاب قاموا بهجوم فظيع البارحة!

لمّا وصلت تميمه إلى صيدا وجدتها قائمة قاعدة والناس يتحدّثون عن الاعتداء الجديد الذي قام به اليهود بحجّة ضرب مواقع الفدائيّين، وتحوّلت قوّاتهم إلى القرى الآمنة فقصفتها من البرّ والجوّ ودمّرت بيوتًا وأسقطت أربعين، خمسين، ستّين قتيلًا عدا الجرحى، عدا الذين دُفنوا تحت الأنقاض. ومواكب الذعر تتوالى على صيدا طالبة المأوى والأمان.

وفي السيّارة إلى بيروت – وقد استحصلت تميمه على محلّ لها بجهد – لم يكن الحديث بين الركّاب إلّا عن المعركة.

– معركة! (اعترض أحدهم) أيّ معركة! إسرائيل تجول وتصول وحدها في الميدان.

وهتف آخر:

– بدلًا من العراضات التي يقوم بها الفدائيّون في شوارع بيروت...

فقاطعه ثالث:

– لا جيش ولا فدائيّون. فليعطونا سلاحًا لندافع عن أرضنا وأرواحنا.

وحمي الجدال.

تميمه بقيت ساكتة.

لدى وصولها إلى بيروت، الساعة الثانية بعد الظهر، تلقّتها ماري بوجه القلق. ولم تكد تطمئنّ عن أمّ جابر حتّى أخبرتها أنّ جابر سأل عنها مرارًا. إلى الشقّة تلفن، في الليل كان يتلفن، وإلى المستشفى تلفن اليوم قبل الظهر.

– وهاني؟

– سأل عنك مرّتين. الأولى بالتلفون، والثانية – «كان التلفون مشغولًا كلّ الوقت» قال – طلع إلى هنا، وشرب القهوة معي ومع الأستاذ أكرم، واستأذن في الدخول إلى غرفتك.

نسيت تميمه ما تعاني من أمر أمّها، وتأفّفت لدى ذكر جابر فما تريد أن تسمع اسمه، وانهالت بالأسئلة على ماري كيف وجدت هاني؟ وما رأي الأستاذ أكرم بهاني؟ وماذا قال هاني عن غرفتها؟

– أعجبته صور بيكاسو التي تعلّقينها فوق طاولتك. عظيم! عظيم!

– من هو العظيم؟

– بيكاسو؟ طبعًا. وأعظم منه هانيك، ولكن...

فوثبت تميمه تعانقها فردّتها ماري ، وكانت تسوّي شعرها أمام المرآة استعدادًا للذهاب إلى المستشفى وتضرب بالمشط ضربات عصبيّة :

– اِسمعي . اِسمعي يا تميمه . لهجة جابر كلّها شرّ . نعتك بنعوت لن أذكرها لأنّني أعرفك وأعرف جوهرك . أكثر من ذلك . صرخ بوجهي وقال إنّني أنا المسؤولة . الأستاذ أكرم كان هنا ، لمّا أخبرته عبّس وقال إنّه يريد أن يفاتحك بالأمر الليلة ، وقعد وعمل لي محاضرة . الأستاذ أكرم مسلم ومحامٍ ولا يريد إلّا خيرك . وأنت أيضًا – لو حكّمت عقلك – لا تغيب عنك هذه الأمور . كلّ الناس بمشكل وأنت بمشكلين الواحد أفظع من الثاني : العلاقة التي كانت لك مع رمزي رعد ، ومشروع زواجك اليوم بهاني الراعي . إذا كان لا بدّ من الزواج ، وهذا رأي الأستاذ أكرم ، فالحلّ الوحيد الهرب أنت وإيّاه إلى أميركا بعد الشهادة في ليلة ليس فيها ضوء قمر . بشرط : من الآن إلى الشهادة لا ترَين له وجهًا ولا يراك . حتّى ولا تلفون . الأستاذ أكرم يقول : هذه الحواجز ستزول في المستقبل . يلزمها وقت لكي تزول . بانتظار ذلك ، القفز فوقها لا يتيسّر إلّا من ناحية واحدة . ولا يُقدم عليه من الناحية الثانية إلّا المجانين الذي يخاطرون بحياتهم ، أو القادرون على الدفاع . وأنت غير قادرة . يذبحك أخوك . جسّي سكين القمّوعي على رقبتك ! وجابر حجّته بدل الواحدة اثنتان : الشذوذ في سلوكك والخروج على دينك .

وشعرت ماري أنّها قست على صديقتها . فتميمه تدير وجهها وتخنق شهقاتها .

– عديني أنّك لن ترَيه إلّا في الطائرة إلى أميركا . أم تفضّلين الباخرة ؟ شهر العسل في الباخرة ألذّ . تعالي أبوسك . تأخّرت على شغلي .

وهرولت إلى المستشفى .

ما كادت ماري تخرج حتّى رنّ جرس الباب ومع رنينه طرق ينقطع ثمّ يعود . خفيف وكالحيّ مريب .

أهو جابر ؟ فليكن جابر ! وليذبحها إذا شاء على العتبة !

وقامت تميمه إلى الباب تفتحه .

الحلقة الرابعة

«تصوّر، تصوّر أن ليس أمامك إلّا مصيرك».

هنري ميلر

١

أممكن هذا؟!

تميمه تنظر وتسمع ولا تصدّق، وزنّوب تمرّغ وجهها بقدمَي صديقتها وتبكي:

– يا بيّي، ليش ما كفّيت عليّ؟ يا ريتك دبحتني على الدرج!

أين كانت عيون روز؟

أم يكون الأمر بمعرفة روز؟

وزنّوب تخبر أنّها آتية من صيدا. وصلت قبل الفجر وقعدت تنتظر تحت الدرج هنا. هربت من الستّ روز، قالت، ومن الكرش ومن جابر. يريدون أخذها عند الحكيم. سمعتهم من وراء الباب يتشاورون. وهي لا تريد أن تذهب عند الحكيم. لا تريد أن تموت تحت العمليّة. كيف هربت؟ لا تعرف. ولا إلى أين. من الأسانسور في البناية الأولى التي وصلت إليها في شارع الحمرا إلى السطح. وبقيت على السطح طول الليل. ومع الفجر كانت على طريق صيدا – صيدا ليست طريق عكّار– ولكن إلى من تقصد في صيدا؟ هامت على وجهها طول النهار. جاعت. دارت على البيوت تشحد. لمّا جاء الليل خافت. دخلت عمارة وقالت أنام تحت سفرة الدرج. لمحها رجل فسألها ما تصنع هناك؟ كذبت عليه، قالت إنّها تشتغل في أوتيل صيدا في المطبخ وأنّهم طردوها لأنّها كسرت جاطًا من البلّور. فأخذها الرجل إلى بيته وقال لامرأته: «تريدين خادمة، الله بعثها لك إلى البيت».

ولكنّ المرأة لم تلبث أن عرفت كلّ شيء، وفي الصباح قالت لها: «اِرجعي حيث كنت!» وأغلقت وراءها الباب.

وهكذا عادت من صيدا ماشية. لا تملك أجرة البوسطه. وتعبت من المشي فجلست على حافّة الطريق. مرّت سيّارة ليس فيها إلّا سائقها. لو أوقفته وطلبت أن يأخذها معه! ولكنّها لم تجرؤ. وثانية فيها السائق وامرأة بجانبه. هذه كان عليها أن توقفها – ربّما كانت المرأة زوجة السائق. ولكنّ السيّارة راحت كالسهم. وأطلّت ثالثة فيها رجلان خلف، والمقعد جنب السائق فارغ، فرفعت يدها. وفسح لها الرجلان مطرحًا بينهما وتابعت السيّارة طريقها صوب بيروت. وأخذوا يسألونها أسئلة. ثمّ لم تشعر إلّا والسيّارة تدور عائدة صوب صيدا، فطلبت منهم أن تنزل إذا كانوا قد غيّروا رأيهم في الذهاب إلى بيروت، فلم يدعوها تنزل. ترجّتهم وبكت فلم يسمعوا لها. حاولت الصراخ فكمّوا فاها وأوقفوا السيّارة بجانب البحر وجرّوها بالقوّة إلى ما وراء الصخور، وتناوبوا عليها.

– الثلاثة! الثلاثة! كلّ واحد بدوره. واحد منهم مرّتين.

وتستر زنّوب وجهها.

«أخوة جابر!»

وتطرق تميمه. ما العمل؟

وزنّوب متكمّشة بها. إنّ الحلّ هنا. لا بدّ أن يكون هنا! هكذا كانت تلحّ اليدان الصغيرتان.

الشرطة. القضاء. العقاب... ولكن هذا معناه ذبح زنّوب على يد أبيها كما تُذبح العنزة. كما تمنّت زنّوب، من دون هذا العار.

الحمل يدخل شهره السابع. هكذا أعلنت الممرّضة بعد عودتها ظهرًا إلى الشقّة. وزادت فقالت لتميمه إنّ الإجهاض عمل لا يُقدم عليه إلّا نفر من الأطبّاء لهم، ربّما، آراؤهم.

– وعلى فرض تسليم هذه الطفلة إلى واحد يُعمل فيها سكّينه، فمن يضمن نجاتها؟ لا. لا. ما لك وهذه المسؤوليّة.

ونصحت بإعادة الخادمة إلى بيت مخدومتها.

فاقترحت تميمه استشارة الأستاذ أكرم واستبقاء زنّوب إلى أن يحضر في المساء. ومن الخير أن تقضي الصغيرة ليلتها هنا فلا بدّ من تهدئة روعها. ولعلّ من غد فرجًا. فلم تمانع ماري.

كان الحديث بينهما باللغة الإنكليزيّة، لم تفهم منه زنّوب إلّا أنّ مأساتها قائمة. لو ذهبت معهم – هم – كانت إذن ميتة الآن. وإذا شفيت وعرف أبوها؟ ميتة في الحالين. بسكّين الحكيم أو بسكّين أبيها. وراحت إلى المطبخ فانكمشت في الزاوية. مطعونة. كلّ السكاكين، سكاكين الأطبّاء كلّهم وسكاكين الآباء كلّهم في قلبها.

في السهرة طالت المناقشة. اطّلع المحامي من تميمه وماري على الحادث، ثمّ استدعى الخادمة فطرح عليها بعض الأسئلة ثمّ صرفها. فقادتها تميمه إلى غرفتها وسوّت لها الصوفا وأضجعتها. ثمّ انحنت ومسحت جبينها.

وغمرت زنّوب فرحة النوم في غرفة صديقتها الكبيرة، فبرقت عيناها خلف الدموع وهتفت:

– مدموازيل تميمه، نسيت خبّرك شي.

فابتسمت لها تميمه تسألها ما الخبر. فنقلت إليها زنّوب كلام الستّ روز في ردّها على جابر. ولكنّها هي، زنّوب، لا تصدّق. «ولا أحد في الدنيا يصدّق!» وهي تعرف الستّ روز.

– كذّابة الستّ روز. أكبر كذّابة.

مع الصباح مشت زنّوب إلى قدرها.

لم يكن بدّ. هكذا ارتأى الأستاذ أكرم. العمليّة؟ فليتدبّرها الثلاثة المسؤولون: جابر والكرش ومدام خوري. وإلّا فإبعاد الخادمة وإخفاؤها في مكان ما إلى أن تضع. وهذا غير ممكن وله من المخاطر والعواقب ما يفوق التصوّر.

عرضت تميمه على زنّوب أن ترافقها. أجابت زنّوب:

– أعرف طريق البيت.

ومسحت عينيها ومشت. وتميمه تنظر...

في اليوم التالي نشرت الجرائد الخبر:

«الساعة العاشرة قبل ظهر أمس شاهد المارّة في محلّة الروشة فتاة ترمي نفسها في البحر فأسرعوا لانتشالها ولكنّها فارقت الحياة أثناء نقلها إلى المستشفى. تبيّن أنّ اسمها زنّوب الإبراهيم، الخادمة التي اختفت قبل ثلاثة أيّام، وأنّها حامل. يُقال إنّها انتحرت تخلّصًا من العار. سُئلت مخدومتها روز خوري التي تملك بيتًا مشبوهًا في الحمرا، فاتّهمت أحد المستأجرين عندها بأنّه هو الذي اعتدى على عفاف الخادمة، بتصريحها قبل هربها من البيت واعترافه. أركن المعتدي إلى الفرار والتحرّيات جارية للقبض عليه».

٢

للمرّة الثانية يأتي الشرطيّان الموكّلان بالتحقيق إلى بيت روز خوري. في المرّة الثانية لم تستطع الكلام. رمزي رعد أجاب عنها من طرف لسانه على بعض الأسئلة.

وما كاد يشيّعها بدفع الباب في ظهرهما حتّى عاد ووقف فوق رأس روز، فأشارت إليه بيدها أن يقعد. فقعد.

دمعتان كبيرتان تسيلان على هذا الوجه الهشّ، كالبطّيخة المهترئة، وتحيلان أصباغ البودرة والحمرة التي تكسوه. أهما تقطران من هذه الأجفان المطبقة أم هما نزف البطّيخة المهترئة؟ وتصل الدمعتان إلى طرفَي الفم فتقفان على شعرات من هنا ومن هنا نافرة، محدّدة كسياج الشوك. «لا بدّ أنّ روز انقطعت عن نتفها منذ شهر». ورمزي قاعد مكانه، قد أثاره المشهد، خصوصًا حينما كرّت الدموع وخرقت السياج وأخذت المرأة تلقطها بلسانها. «تشرب دموعها». فليدعها تسكر بخمرة الندم. وقام. ولكنّها مدّت يدها وأمسكت بكمّه تناشده البقاء.

— أريد أن تساعدني على كتابة وصيّتي. سأكتب وصيّتي.

— شغل الكاتب العدل.

وأدار ظهره.

— أستاذ رمزي! أستاذ رمزي!

وأجهشت. تبوح له بشيء عظيم. تحبّه كابنها، تقول. سيرى بنفسه أنّها تحبّه كابنها. شرط أن لا يتركها وحدها. أن يأتي بورقة وقلم ويكتب. تحبّ كتاباته.

ومضت ساعة ورمزي على كرسيّه بجانب السرير يكتب.

لا يكتب شيئًا ممّا تقوله. يكتب: «الملك لله! الملك لله!» عشرين سطرًا. خمسين. مئة سطر! تمامًا كالقصاص في المدرسة. المئة سطر يكتبها بالنيابة عن روز لأنّها تجهل الكتابة. ولا يسمع شيئًا ممّا تقوله وتكرّره وتؤكّده. كانت تريد أن توصي بالبيت لزنّوب؟ حسن. جدًّا حسن. أين زنّوب الآن؟

ماذا؟ مار منصور دي پول! توصين بالبيت لجمعيّة مار منصور دي پول؟ ولكن يجب أن يقبل مار منصور عليه السلام الوصيّة. سأقنع لك وكلاءه، رئيس الجمعيّة وأعضاءها الموقّرين... ولكن، بالله عليك يا ستّ روز، من أين جاءتك هذه الفكرة العظيمة؟ أقسم بالله إنّك امرأة عبقريّة، ومواهبك وإلهاماتك لا تنتهي.

تعرفين يا ستّ روز أيّ شيء اكتشفت؟ أيّ أعجوبة هبطت من السماء عليك؟ من قال إنّ زمن الأعاجيب ولّى؟ سبحانه، عزّ وجلّ، قادر في كلّ لحظة أن يفجّر قدرته ويدفق نعمته على أحقر عباده.

بشحطة قلم يا ستّ روز. بشحطة قلم – وأنا سأكون الشاهد – سترتفعين من البانسيون إلى البانتيون...

— بعد عمر طويل. بعد عمر طويل يا ستّ روز.

— الملك لله! يا أستاذ رمزي.

أتقرأ ما يكتب؟ ويبتعد مسوّيًا جلسته. ثمّ يرفع حاجبيه إلى السقف ويده ماضية على الورقة: «الملك لله. الملك لله...» ولم ينتبه إلّا على روز وقد جاءتها نوبة جديدة، فانحنى، وهي تومئ إلى علبة الحبوب. لا هذه بل تلك. الأولى للنقرس. الثانية، العلبة البيضاء الصغيرة، هنا بجانب القنّينة، للذبحة. وهمّت بالإشارة فتراخت ذراعها على حافّة السرير. ناولها الحبّة، فبصقتها ولوت شفتها السفلى. فكمش من العلبة حفنة وألقمها إيّاها فانتفضت تجأر:

— ليتمجّد اسمك يا الله!

وارتفع رأسها ثمّ وقع مرّة واحدة على المخدّة.

كان يريد أن يضحك. من قال إنّ عزرائيل لا يحبّ المزاح؟ لا، بل يريد أن يرثي. في حياته لم يعمل

رثاء لأحد. هذا وقته :

«الملك لله. ليتمجّد اسمك يا الله !

وليتمجّد اسمك يا ستّ المالكين !

ولكن بأيّ اسم أناديك؟ فقد تعدّدت أسماؤك الحسنى !

على الباب مدام خوري.

وفي اللاهوت روز. وفي الناسوت زهّور.

وفي كلا الناسوت واللاهوت على صورته ومثاله صنعك، ومن أجل مجده العظيم اصطفاك.

إلى بطرس سلّم مفاتيح السماء التي - بين هلالين - لا يدخلها أحد.

أنت، وضع بين يديك مفاتيح الأرض، وكلّنا فيها مستأجرون.

من فضلك، أنت أقرب إليه منّا... أسمعك تخاطبينه في هذه المدّة طول النهار، والمخابرات بينكما لا تنقطع في الليل. ومن أعماق أوجاعك التي يجرّبك بها كما يجرّب كلّ خائفيه تناجينه بأعذب الألحان.

قولي له : المستأجرون مستاؤون.

واسأليه هل رأى وسمع على التلفزيون، أمس، أمس بالذات الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة.

واسأليه هل انتظر خمس دقائق وأكثر العطل الفنيّ.

أيّ عطل فنيّ؟ كان الجماعة ينتظرون تشريف الوطنيّ الكبير والسياسيّ الخطير حتّى يصل إلى ركن «مع رجالات البلاد في سبيل مستقبل أفضل». البلاد كلّها رأت وسمعت السياسيّ الخطير والوطنيّ الكبير يبدي رأيه في مشكلة الإيجار - الإيجار مشكلة يا ستّ روز، أنت سيّدة العارفين - رفع ذراعيه وهتف لا فُضّ فوه :

- الحمد لله. وُلدت مستأجرًا، وأعيش مستأجرًا، وأموت مستأجرًا !

أنا أوّل من صفّق له. عفارم ! برافو ! برافو ! ليس من الضروريّ أن تخرج الحكمة دائمًا من أفواه المجانين. كذلك الحقيقة كثيرًا ما يطيب لها أن تطلع من أفواه الكذّابين. أمّا أن يكون صاحبنا قد كذب فعلى الأقلّ بحمد الله. على أيّ شيء الحمد والشكران؟ المسكن رديء. والإيجار فاحش. والإدارة سيّئة.

تمامًا كما في بيتك يا زهّور. الدنيا كلّها مثل بيت جحا.

صحيح أنّك كنت عازمة - الحيّ كلّه يعرف - على بناء بيت جديد. عمارة عصريّة.

اِطوي خرائطك يا ستّ روز !

اِطوي خرائطك وقولي لأستاذك الكبير، نائبنا العتيد، البك بالرغم منه، أكرم الجردي الذي يريد أن يبني لنا دنيا عصريّة أن يطوي خرائطه هو الآخر.

تغيّرون لنا ماذا في عماراتكم الجديدة؟

المهندسون كذّابون. أنتِ قلتِها.

وغشّاشون. يشارطونك على موادّ من الجنس العال العال ويضعون أردأها.

الشرف والناموس، الحقّ والعدالة، المحبّة والرحمة، حتّى العافية - كلّها مقالع في الغيوم. حجار بيوتنا، وعماراتنا مهما شمخت، كلّها من مقلع وسخ موحل، هو مقلع الشرور والدناءات، ومرصّعة ترصيعًا بالعاهات في أبداننا، وفي نفوسنا، ومنها كلّها تفوح رائحة الدعارة.

ماذا؟ توصين لي أنا أيضًا !

توصين لي بالتكسيات الثلاثة !

هاتي لأبوس يديك الاثنتين يا ستّ روز. ماذا عملت لكي أستحقّ أن أدخل تحت سقف بيتك وأرث عرق بدنك الطاهر؟ وتريدين أن أكتبه بيدي؟ بعد موتك، طبعًا بعد موتك. توصين أيضًا ألّا أبيعها؟ تجارة رابحة؟ ربّما، ربّما، لا شكّ، لا شكّ. ولكن، صدّقيني، أنا لا أعرف من التكسيات إلّا ركوبها. سأرى.

موتي أوّلًا وسأرى.

ولكن هل أضحك؟ الموت شيء جليل. يجب أن

أسكت وأن أخفض رأسي لجلاله كما يفعل الأوادم. كما كانوا يفعلون منذ عرفوا الحياة والموت. لا يا ستّ روز، أنا لا أضحك. وحياتك أنا لا أضحك لموتك.

تريدين حبّة أخرى؟ خذي واسمعي.

اِسمعي يا ستّ روز وعي.

عندي ما أملكه أنا أيضًا – غير تكسياتك وقبلها. كلّنا مستأجرون وكلّنا مالكون.

هذه اللافتة المعلّقة على بلكونك «غرف للإيجار» نحن كلّنا نرفع أكبر منها، ونمشي في الأسواق حامليها فوق رؤوسنا أو معلّقيها برقابنا. أحيانًا من الأمام وأحيانًا من الوراء. عجيب كيف لا يراها الناس مع أنّها بالخطّ الثلثيّ العريض.

ماذا نملك للإيجار؟ – أرواحنا. أغلى من الأحجار المنحوتة، على كلّ حال، والباطون المسلّح.

نبدأ من البداية.

أنت يا ستّ روز – نحن متّفقان – أجّرت روحك للشيطان. أفهم جيّدًا أنّ قرونه لم تعد اليوم تعجبك ولا ذنَبه يغريك بشيء، لذلك تنادين الله آناء الليل وأطراف النهار أن يطرده ويخزيه.

زنّوب، حبيبة قلبك، أجّرت روحها الطريّة الناعمة لأسوارة من تنك. تميمه أجّرتها للمثل العليا. تعرفين ما المثل العليا؟ كيف أترجم لك ما تقول النجوم؟ ما تقول النجمة التي لم يصل نورها بعد إلى الأرض؟ شرح طويل. تلعنين زمنًا لم يعلّموك فيه القراءة والكتابة؟ الحقّ معك. المثل العليا لا تستأجر إلّا عند المثقّفين. لا تندمي، ما خسرتِ شيئًا. زبونة مفلسة. برمكيّة بالكلام، وعند الدفع تهرب.

جابر أذكى من أخته. أجّر روحه للشرف والطرف معًا ويقبض من الاثنين. أوديت أجّرتها لبكويّة أكرم الجردي وقبضت منه كلّ أنواع العملة ما عدا البكويّة. صحّت نبوءتك يا روز. الأستاذ الكبير نفسه، المحامي اللامع، ونائبنا العتيد يؤجّر روحه للوطن – يحيَ الوطن! يسقط شوكت بك اليغموريّ! ويعيش أكرم الجردي، البك بالرغم منه! يعيش! يا! يا! يعيش!

في سبيل مستقبل أفضل. في سبيل عمارة جديدة يرفعها كالمنارة!

قلت لك: قولي له يطوي خرائطه. لن يتغيّر شيء.

الحقيقة أنا أقولها لك عارية. أطرحها هنا على سريرك عارية. ما قلته عنه في الجريدة؟ كذب! حمرة وبودرة يا ستّ روز. فساطين! فساطين أخلعها على الحقائق. كلّ يوم موضة. السياسة أعلق النساء بالموضة.

أجل، أجل – اسمعي يا ستّ روز، سأعمل لك خطابًا أعارض فيه خطب نائبنا العتيد – أجل، يا سيّدي، فلّاحو البقاع سيأكلون في صحون نظيفة. تعرفين لماذا؟ المسألة يا ستّ روز – اسمحي لي هنا أن أضحك – في غاية البساطة. الذبّان الذي يحوم على الصحون يكون قد انتقل إلى الرؤوس. المرتع أخصب.

ألا تسمعين الطنين من الخليج إلى المحيط؟ يعيش! يعيش! يسقط! يسقط!

المسألة، يا ستّ روز، مسألة انتقال من الطابق التحتانيّ إلى الطابق الفوقانيّ. أو بالعكس.

مسألة تأليف وتلحين.

مسألة أوزان وقوافٍ.

مصائبنا كلّها من الأوزان والقوافي. نحن نفكّر على أوزان الخليليّين فينا، وبقوافيهم أو أقفيتهم! الأمر واحد لغويًّا ورحمة سيبويه! ما لك يا ستّ روز؟ اِضحكي معي شوي. شوي. شوي.

بالمناسبة، خذي هذه النكتة:

مرّة كتبت في الجريدة مقالًا كلّه من عائلة «شوي» وقلت لغيري من أصحاب الأقلام: ما المانع أن نزوّج بنات أفكارنا لهذه العائلة؟ نصاهرها ما دمنا نعيش معها في بيتنا. ألا تحبّينها: شوي؟ من ألطف ما خلق الله. شوي شوي! فقامت عليّ القيامة: دسّاس! عميل أجنبيّ! خائن الملّة والدين! مع أنّ مقالي كان في موضوع شروق الشمس، ومنه تطرّقت إلى نهد تلميذة

كانت تمرّ، هنا، تحت شبّاكي وأراه ينمو في صدرها ويطلّ.

أين العائلة الأجنبيّة يا ناس؟

في الغد اضطُررت إلى الشرح والتفسير. قلت: يا جماعة، شوي هي صيغة تصغير. وللتحبّب لا للتحقير. أصلها بالعربيّ الفصيح «شويء». اسألوا سيبويه ونفطويه والفيروزبادي. سألوهم ثمّ عادوا إليّ يريدون أن أستعمل لهم شويء بالقوّة. أحبّ شوي. أهون على لساني، ألذّ في سمعي. فاتّهموني بالانحراف...

الخلاصة يا ستّ روز، أين كنّا؟

أنا؟ – أنا أيضًا أؤجّر روحي.

أؤجّرها للكلمات. كلمات! كلمات! كلمات! بيني وبين بعضها عقود مثل تلك المسجّلة عند الكاتب العدل. ولكنّ أكثرها تروح وتجيء هكذا دون أيّ اتّفاق سابق بيننا.

مغتصبة؟ ربّما.

متطفّلة؟ ما في ذلك ريب.

تدفع أو لا تدفع، ليس هذا المهمّ. المهمّ أنّني لا أطيق العيش بدونها.

ومثل جابر، الذي يسألك دائمًا عن نساء جديدات، أنا أسعى دائمًا وراء كلمات جديدة. الكلمات الجديدة، يا ستّ روز، لها لذّة النساء الجديدات. إطلالتها على الباب. إشراقة وجهها. حياؤها. ملمسها. رائحتها. الكلمات أيضًا لها رائحة وملمس وفيها سرّ. كلّ كلمة ككلّ امرأة لها سرّها. ماذا تخبّئ في عبّها؟

أجل، الكلمات بنات يا ستّ روز. هل قالوها قبلي؟ وأنا أفضّل الأبكار منها حتّى في الكلام على المومسات.

تحبّين كتاباتي يا ستّ روز؟ تميمه أيضًا أحبّتها.

تميمه أحبّت كلماتي. أحبّتني أنا بالغلط.

خلطت بيني وبين كلماتي. لأنّ كلماتي ليست أنا. ليست أنا الذي يدرج بين الناس على كلّ حال.

وحينما اتّضحت لها الحقيقة تركتني.

الكلمات نفسها، القصائد التي عملتها لتميمه عملتها لعشرات قبلها وأعملها الآن لغيرها. أكذب؟ المسألة ليست مسألة كذب وصدق. ألم أقل لك إنّنا كلّنا نؤجّر أرواحنا؟ تمامًا كما تفعلين يا ستّ روز. لم تطلبي من واحد من المستأجرين سجلّه العدليّ. وتهاودت مع كلّ واحد بالأسعار.

الحبّ بَيع.

بيع باتّ. ونحن لا نرضى أن نبيع أرواحنا. متعلّقون بها. كتعلّق جدّي بحِلّ التوت الذي ورثه عن أبيه عن جدّه. يزرعه إلى الآن تفّاحًا. يترك التفّاح يهترئ على أمّه كلّ سنة، لا يريد أن يبيع بخسارة. هكذا نحن، يهترئ كلّ شيء في أرواحنا، ويملأ خياشيمنا النتن، ولا نبيع.

وحده روميو باع روحه لجولييت وباعته روحها.

وحدهم الملهمون المؤمنون يبيعون أرواحهم، لا يؤجّرونها.

ليس لهم جلَدك، يا ستّ روز، في التعاطي مع المستأجرين ومعالجة مشاكلهم.

سيّد من باع روحه المسيح.

والأنبياء كلّهم والشهداء، سواء من مات منهم على الصليب أو من مات على الخازوق.

والفدائيّون.

الفدائيّون طبعًا. الفدائيّون من الجملة. ولكن بشرط أن يموتوا. أن ينفّذوا عقد البيع. أن لا يكونوا قد أجّروا أرواحهم إيجارًا. الإيجار على أنواعه، مع احترامي لك يا ستّ روز، قذر. قذر. قذر.

عدنا إلى الشخير؟

على مهلك يا ستّ روز. على مهلك يا زهّورة أبيك القدّيس! يا مدام خوري! يا مدام خوري! نوبة وتروح مثلما جاءت... زنّوب؟ الله يرحم زنّوب! ويغفر لجابر وجلال الكرش!

نسينا جلال الكرش. يؤجّر روحه لمن؟ لنقل إنّ

الكرش يؤجّر روحه للجلال ، أو إنّ الجلال يؤجّر روحه للكرش. بعض العقود مكتوبة بخطّ مغربيّ ربّك لا يفكّه.

الخلاصة كلّنا ، يا ستّي ، نؤجّر أرواحنا. نؤجّرها لأيّ شيء. لكلّ ما هبّ ودبّ. للحشرات والديدان نؤجّرها كما نؤجّرها للوحوش.

لعلّق الطمع والجشع نؤجّرها.

لعقارب الحسد والبغض والنميمة.

لثعالب الاحتيال.

لضفادع التعصّب المنقنقة وجيزان التقاليد.

لذئاب الغدر ونهش الأموال والأعراض.

لعقبان المبادئ والعقائد تخبط بأجنحتها الحيطان وتثقب السقوف بمناقيرها ! ...

وعلى قاعدة «في بيت أبي أمكنة كثيرة» نحشرها بعضها فوق بعض ، فيدبّ بينها الخلاف ويعلو الصراخ. ومن هنا هذا الضجيج الذي يملأ الأرض.

أحيانًا ، يا ستّ روز ، تفرغ أرواحنا ، كغرف بيتك.

نعرضها على الإنس والجنّ فلا يستأجرها أحد. وربّما تعبنا من ترتيبها وتنظيفها – من إعدادها للزبائن – فيغطّيها الغبار ويعشّش فيها العنكبوت. وقد نترك أبوابها مشرعة لعابري السبيل والمتطفّلين ، وشبابيكها مفتوحة للّصوص.

كما جرى لنا ، يا ستّ روز ، أتذكرين ؟ كما جرى لك ولي بالذات.

كنت في عزّ كهولتك ، حوالى الأربعين ، وكنت أنا في العشرين. المساء ، والدنيا حرّ ، ونحن وحدنا ، وأنت تحكين لي قصّة حياتك. تضجرت. قمت وتركتك. وصلت إلى الباب ثمّ عدت. كان قد مضى عليّ سنة عندك لم أنظر إليك مرّة بمعنى ولا نظرت إليّ. لماذا عدت؟ لا أعلم. عدت. ولم أنسَ أن أغلق الباب من الداخل. وبدون سؤال أو جواب طرحتك على السرير ، هنا.

أخذتك بلا طعم واستسلمت أنت بلا سبب.

قمنا بعد ذلك ساكتين كأنّ شيئًا لم يكن.

وما نزال ساكتين منذ سبع سنين.

في الصباح سلّمتِ وسلّمتُ ولم يكن في أعيننا شيء. عادت أعيننا أبوابًا مشرّعة وشبابيك مفتوحة.

طبعًا ، سبق لي ولك – ولحق أيضًا كما أعتقد – حوادث من هذا النوع.

ماذا؟ «طز !» أنت تقولين؟

لست من رأيك ، ولكنّي لا أمنعك من إبدائه. أطلقيه حرًّا ولا عليك. وإذا كنت غير قادرة عليه من فوق فأي حرج أن يكون من تحت؟ فأنا مثلك أكره الاستعارات.

جدّي ، الله يرحم موتاك ، كان عنوان الصراحة في هذا الصدد. إذا جاءه ما يجيئك لم يزمّ ولم يغتمّ. بلى ؛ يقوم إذا كان قاعدًا بيننا ويدنو من الشبّاك ، وهناك بكلّ وقار يطلقه على مداه ، ثمّ يعود بالحمدلة ثلاثًا.

كان رجلًا شجاعًا.

وفي منتهى النزاكة. لا ينسى أن يفتح الشبّاك على مصراعيه. هل تأذنين ، يا ستّ روز ، أن أفتح؟

هه ! خَي ! كما كان يهتف جدّي. خَي على الفرَجَين ! دائمًا افتحي الشبابيك يا ستّ روز. نصيحة الطبيب ونصيحتي أنا خصوصًا. اِفتحي الشبابيك والأبواب ولا تدعي منفذًا مغلقًا ، وأطلّي على البلكون وبكلّ قوّتك أطلقي ما عندك !

هذا وغيره من آرائك ...

نداءاتك ، وأغانيك ، وشتائمك ، أطلقيها كلّها في الهواء.

صدّقيني يا ستّ روز. الفلاسفة ، الكتّاب ، الشعراء ، العظماء كلّهم ، صانعو التاريخ يقلّدون جدّي. كلّهم ، كلّهم يعملون بآرائهم هكذا. بنات أفكارهم يطلقونها من الشرفات العالية ومن رؤوس السطوح متنافسين في الدويّ حتّى ينشقّوا أشداقًا وأقفية.

يعلّمون الناس ويهدونهم إلى الصواب والفلاح؟

خرط.

يطلبون الفرج من أشياء لو بقيت في أجوافهم لفطسوا.

لا تؤاخذيني يا ستّ روز. أنت فتحت الحديث. تفضّلي أغلقيه، وتأذنين أن أبصق على هذه الدنيا من الشبّاك قبل أن أغلقه.

ماذا؟ لم تكوني تنتظرين أن تموتي هكذا!

كيف كنت تريدين أن تموتي؟

مستأجرة أنت يا مدام خوري. كلّنا مستأجرون، قلت لك. والملك لله. نحن متّفقان.

المالك سعيدًا لا يكتفي بالمبلغ المرقوم قهرًا وعذابًا. أمراضًا وهمومًا، ويتمًا وثكلاً، وتحرّقًا ودموعًا، إلى سائر الأقساط التي يقبضها منّا كلّ يوم بل كلّ ثانية، فضلًا عن العاهات الأيوبيّة التي يشوّه بها صورته ومثاله فينا.

يطردنا فوق ذلك بدون ذنب.

بدون سبب.

علينا أن نُخلي المأجور في الوقت الذي يشاء. غالبًا بلا سابق إنذار. يفاجئنا بطريقة أقلّ ما يقال فيها إنّها ليست على شيء من اللياقة. يضع يديه على خوانيقنا ويصرخ: «برّا»!

ولا يفلتنا إلّا وقد قبض منّا القسط الأخير: أرواحنا.

أنا معك يا ستّ روز. أنا أحتجّ على هذا التصرّف.

العجيب أنّ المستأجرين كلّهم، على تعاقب أفواجهم منذ الخليقة إلى اليوم، يحتجّون مثلك، يعني بالبكاء والدعاء والصلوات وأنواع الخضوع التي ليس فيها أيّ شجاعة.

لذلك أنا أعظّم المنتحرين وأدعو إلى الانتحار.

الانتحار هو الحرّيّة الوحيدة. والمنتحرون هم الأحرار في أرض مملوءة بالعبيد.

هم وحدهم الشجعان النبلاء الذين يموتون بوقار.

أليس الموت انتحارًا في ميعة الشباب، أو براءة الطفولة، خيرًا من الموت جوعًا على الطرقات، أو قتلًا في ساحة الحروب، أو تحت دواليب تكسي، أو بالتيفوس، أو بريح السداد، أو على فراش النقرس مثلاً والذبحة الصدريّة مع شيخوخة تلعن نور الصباح؟

أسامعة أنت يا ستّ روز؟

اِسمعي يا ستّ روز كلمة. كلمة واحدة بعد.

بالأمس جاءني كاتب من المبتدئين يسألني: «لو لم تكن كاتبًا فماذا كنت تودّ أن تكون!؟

صرفته بقفا يدي.

سأستدعيه الآن. أنا ذاهب إلى التلفون، بإذنك، أطلب منه أن يحضر حالًا – يا صاحبي، مصيبتي أنّني لم يكن بإمكاني أن أكون إلّا أنا. ماذا كنت أودّ أن أكون؟

زفتًا وكبريتًا، هواء أصفر، بركانًا، قنبلة ذرّيّة تنسف الكون! ولتعد روح الله ترفّ على وجه الغمر.»

وخرج في الليل...

٣

بناء على إفادة روز خوري طلب المحقّق العدليّ استدعاء جلال الكرش بصفته السمسار الذي تولّى جلب البنت من عكّار. فأعطى الكرش اسم أبيها واسم ضيعته – «أحمد الإبراهيم من جرد الذيب» – وشهد بما سمعه في المواجهة بينها وبين جابر نصّور في غرفة الستّ روز، وأعطى اسم الأستاذ رمزي رعد شاهدًا.

وكان جابر قد نجا بنفسه تحت جنح الظلام وبما تمكّن من حمله من أمتعة. لم تعثر الشرطة في غرفته إلّا على حقيبة فيها بعض الألبسة مع كدسة صور نسائيّة

– أرتيستات في الغالب – ومفكّرة جيب. فانطلقوا يبحثون عنه في مظانّه.

توجّه فريق منهم إلى المهديّه فقلبوا البيت رأسًا على عقب وروّعوا الأمّ المشلولة وأختها وأمّ علّوش.

وقصد فريق آخر حيث تسكن شقيقته جنب شارع عبد العزيز وسألوها عنه – لم ترَ تميمه نصّور أخاها منذ رجوعه من غينيا إلّا مرّة واحدة ولدقائق معدودة، وذلك في اليوم التالي لوصوله، في فندق «بالم بيتش»، بناء على إلحاح أمّها وبحضورها، ولم يقع نظرها عليه بعد ذلك ولم يطأ بقدميه الشقّة.

وكانت ماري أبو خليل إلى جانبها، فأمّنت على هذا الكلام.

وما كاد الشرطة ينصرفون حتّى عادت المشادّة بين الصديقتين، وعادت تميمه تبسط الجرائد على سريرها مفتوحة على الصفحات التي فيها الخبر، تقرأه هنا وهناك وههنا ولا تصدّق. وماري تواسيها:

– يجب أن تعملي ممرّضة لشهر وتضعي يدك على عذاب البشر وشقائهم. أن تمرّغي يديك الاثنتين بالدم والقيح، وتطبقي عيون الموتى. صبايا كقلب النهار وشبّانًا وأطفالًا...

وتنحني ماري وترفع عن السرير هذه الجرائد. هذه الأكفان التي تؤذيها. أليست مسؤولة، هي أيضًا، بعض الشيء عن المصير الذي صارت إليه زنّوب؟

كانت ماري، في الواقع، تترجم ما تقرأه في نظرات تميمه. ثمّ تطرد هذه الأفكار وتقول عاليًا:

– زنّوب استراحت.

– كما ستستريح أمّي في المقبرة قبل أن ترى تامر على عتبة البيت.

ويعظم الأمر على تميمه. ومرّة أخرى تتراءى لها الطريدة البريئة تلوص تحت الرعب، حاملة عارها، لاهثة، مرتدّة بين بيروت وصيدا وصيدا وبيروت، من حائط إلى حائط تضرب بأسها، ومن الحيطان إلى صخور الشاطئ، فراشًا غطاؤه غربان البرّ وحيتان البحر. حتّى انتهى بها المطاف إليها، هي أخت الفاعل، لجأت إلى حضنها فنفضته. تخلّت عنها. أسلمتها وغسلت يديها.

إنّها إذن جبانة! حقيرة! وشريكة في الجريمة!

وتثب من سريرها تريد الذهاب إلى الكرنتينا لترى زنّوب. إلى ساحة قصر العدل لتصرخ بقضاة الأرض. إلى المواخير حيث جابر. تذبحه! يذبحها!

ولكنّ تميمه لا تنسى أنّ اليوم اجتماع الأصحاب وهو يستلزم حضورها، فلجنة الحزب التأسيسيّة عهدت إليها بوظيفة المقرّرة، فيما عيّنت هاني الراعي أمينًا عامًّا، وقاسم الهلال مستشارًا.

ستحضره.

لا بدّ لها من الحضور.

٤

افتتح الأمين العامّ الاجتماع.

كان أوّل المتكلّمين قاسم الهلال في جمع التبرّعات الكاذبة للفدائيّين. أفاد أنّه لم يتمكّن من تقديم الشكوى إلّا أمس بعد أن استوفى لها أسانيدها، فحصل من أربعة أشخاص على ورقات من الدفتر ذاته باعهم إيّاها حسين القمّوعي، وقدّم أسماء هؤلاء الأشخاص إلى الشرطة.

– مستعدّون أن يشهدوا. يظهر أنّ هناك عصابة ليس القمّوعي إلّا واحدًا منها. الشرطة ستمضي في التحقيق. وستتّصل الحكومة بقيادة الفدائيّين، فالقيادة واعية من هذه الناحية وستضرب ولا شكّ على أيدي العابثين بسمعة الفداء.

كانت الكلمة التالية لأحمد عدنان، قال:

– أحبّ أن أعرف ما موقف الأصحاب ممّا ينتظرنا غدًا. وما علينا أن نعمل في أوساط الطلّاب

وغيرها. الحالة متوتّرة. والمعارك مستمرّة في منطقة الجنوب وقد سقط للفدائيّين شهيد جديد، عزيز اليافاويّ الملقّب بأبي الهول، ويستعدّ إخوانه لنقله إلى بيروت ودفنه في مقبرة الباشورة في مأتم شعبيّ، غدًا الساعة الحادية عشرة.

اخترق الخبر قلب تميمه. همّت بأن تطلب الكلام، أن تسأل عن تفاصيل الحادث، والمناقشة ماضية:

– نخشى أن يتحوّل مأتم أبي الهول إلى ما تحوّل إليه سلفه قبل شهر من اشتباك دمويّ بيننا وبين إخواننا الفلسطينيّين. إسرائيل تتفرّج على فصول الرواية المضحكة المبكية وتشمت.

– هل من الضروريّ أن تقوم العراضات في ساحة البرج ويُهدر الرصاص في سماء بيروت وصيدا وطرابلس، أو يصوَّب تحدّيًا واستفزازًا إلى الأهالي الآمنين؟

– لماذا لا يُدفن القتلى حيث يقعون؟ ليس لعائلة اليافاويّ، فيما أظنّ، مدفن خاصّ في مقبرة الباشورة.

كلّ شيء ولا هذا! وألقت تميمه القلم من يدها محتجّة. لقد ذهب قاسم الهلال بعيدًا وتجاوز الحدّ. وانبرت تقصّ عليهم من هو أبو الهول – أبو هولها – وعيناها تتحيّران بين الشرر والدمع، قالت:

– القتيل فدائيّ بكلّ معنى الكلمة. وستستريح عظامه في الباشورة أو أيّ مكان من تراب لبنان.

فتلقّتها لميا شارون:

– أوافق على ما أبدته الآنسة تميمه. وأظنّ أنّي أعبّر عن رأيها ورأي الأصحاب معًا إذا قلت إنّ الرجل لن يرضى، وهو أبو الهول، عن أيّ ضوضاء تُثار على قبره.

سبقتها لميا إلى رثاء أبي الهول كأبلغ ما كانت تحبّ رثاءه. فرفعت إليها عينين شاكرتين.

وردّ هاني المناقشين إلى صلب الموضوع.

– ما يكون موقفنا من المأتم؟

بعد تقليب الأمر أجمعوا على السعي لإحباط الدعوة إلى إضراب الطلّاب والاكتفاء بوفد من اتّحاد الرابطات يشترك في تشييع الجثمان.

تميمه ستكون في المأتم، انتخبها الاتّحاد في الوفد أم لم ينتخبها. ستكون في الطليعة هي وأبو شرشور.

– الأخبار من الجنوب مقلقة. اعتداءات إسرائيل المتكرّرة، ضعف الدفاع الوطنيّ، نزوح أبناء القرى. والأهمّ من ذلك كلّه اشتباك بعض الفدائيّين مع أفراد من الجيش اللبنانيّ وأفراد من الأهالي. يشكو الجيش والأهالي من خروج الفدائيّين على الاتّفاق، ففريق يعسكرون في القرى بدلًا من التزام المواقع النائية المعيّنة لهم. ومنهم من يأتي أعمالًا مخالفة.

– خطفوا رئيس مخفر للدرك. وأجبروا أصحاب بيوت على إخلائها لهم. واعتدوا على مختار بداعي أنّه ضدّ الفدائيّين.

– مهمّة الدفاع عن لبنان موكولة إلى اللبنانيّين وحدهم. هذا أمر يتعلّق بالكرامة وبالسيادة.

– الفدائيّون ثلاثة: فدائيّ فدائيّ، وفدائيّ نصف فدائيّ، وفدائيّ لا فدائيّ. الأوّل هو المقاتل في أرضه، في ساحة فلسطين نفسها، في إسرائيل. والثاني هو الذي يدنو من الحدود فيطلق رصاصة ثمّ ينسحب إلى مخيّمه حيث الأمان. أمّا الثالث، وهو الفدائيّ الذي لا يستحقّ اسمه، فالمتبختر بثوبه المرقّط وكليشنكوفه في الشوارع والساحات.

– والأهمّ من تصنيف الفدائيّين، مع اعترافي بصحّة هذا التصنيف، هو ضرورة إيضاح الموقف الغامض بين لبنان والحركة الفلسطينيّة. أقول الحركة لأنّها لم تبلغ بعد مستوى الثورة ولا حتّى المقاومة بمعناها الشامل. فالطرفان محتاجان إلى المصارحة. المصارحة التامّة.

قال هاني:

– لماذا نخاف من الحقيقة؟ بين لبنان والحركة الفلسطينيّة زواج نفاق. هي تدّعي العفّة، وهو يزعم

حبّها والتفاني من أجلها. زواج النفاق يؤدّي حتمًا إلى هذه النتائج المأساويّة.

لماذا قال هاني هذا وهو ينظر إليها – إليها وحدها – بين المجتمعين؟

كانت تنقل كلماته على السجلّ وتحسّ عينيه مغروستين فيها. تُرى هل تبتسمان، عيناه، ابتسامتها أم يكدّرهما زغل؟

وكيف اختار هذا التشبيه وجاء به الآن ليصدعها، على غير علم، «طبعًا على غير علم»، هذا الصدع الصاعق!

ماذا يقولون عن مستوى الثورة؟... عن الحكم في لبنان... عن السيادة الوطنيّة... عن سياسة الحسم وسياسة التسويات؟... كلّ ذلك يختلط عليها، ينزلق من سمعها إلى أصابعها إلى الورق انزلاقًا. كلّ ما كانت تفكّر فيه، كلّ ما كانت تشتهيه، هو أن ينفضّ هذا الاجتماع. أن يذهب الأصحاب وتبقى وحدها مع هاني.

لقد عزمت أمرًا وستُقدم عليه قبل أن يطلع الصباح.

«لن يكون زواجنا زواج نفاق».

هكذا ستقول له. وستعترف له بكلّ شيء. أجل بكلّ شيء، بكلّ هدوء، هنا في بيته بعد الاجتماع، على السطح، تحت النجوم. «وأن تعلم منّي خير من أن تعلم من الناس. من حسين القمّوعي أو سواه. المصارحة، المصارحة التامّة. لن أتفاخر مثلك، ليس من الضروريّ أن أتباهى كما تتباهون أنتم الرجال بعدد مغامراتكم وانتصاراتكم»...

– المطلوب من الآنسة تميمه أن لا تسجّل أقوالنا حرفيًّا. خلاصة عنها تكفي. فنحن لا نتكلّم للتاريخ وإنّما نوضح بعض القضايا لأنفسنا.

كان قاسم الهلال هو الذي تلفّظ بذلك، رأفة بتميمه على الأرجح، وقد رآها منهمكة والقلم يكرّ بيدها على الورق. فابتسمت له. هل قالت له أيضًا «شكرًا»؟ لا تدري.

– الحركة الفلسطينيّة قامت أصلًا – كان لا بدّ أن تقوم – للمطالبة بحقّ هو أقدس الحقوق. الخروج على القوانين في بعض نشاطاتها وعلى الأعراف الدوليّة كخطف الطائرات، ألا يطعن في أخلاقيّتها، في حقّها بمطالبتها بذلك الحقّ؟

«أفضّل أن آتيك امرأة صادقة من أن آتيك عذراء كاذبة. مَن قطف عذرتي؟ أيّ أهمّيّة؟ ولكن إذا لم يكن ذلك يعني شيئًا لي فربّما عنى الكثير لك. تريد أن تعرف من هو؟ على كلّ حال لن أدعك تسألني. سأبادر من تلقاء نفسي وأقول لك اسمه – كيف أنظر إليه وأنا أتلفّظ بذلك الاسم؟ لن أنظر. سأدير ظهري أنتظر ردّة الفعل منه»...

– أولئك الفتيان الذين يتأرجحون بين الحياة والموت في أعالي الجوّ، وهؤلاء الصبايا اللواتي يقفن وراءهم مجهولات الاسم والقذائف في أيديهنّ، كان بإمكانهم أن ينبطحوا على قارعات الشوارع باحثين في ظلّ القوانين عن التحرّر الغريزيّ، أو في الأقلّ عن الزواج والأمان. ولكنّهم، وقد أسلم الغدر والتآمر وطنهم، وهدر حقوقهم وكراماتهم خلافًا لكلّ قانون، وعجزت قوانين العالم وشرائع الأمم أن تردّ إليهم شيئًا من ذلك، هؤلاء وأولئك كيف تريدون منهم أن يحترموا قانونًا ويقيموا وزنًا لأخلاق السياسة وأعرافها؟

«أجل رمزي رعد. لماذا تنظر إليّ هكذا؟ في الزمان كانوا يرجمون الزواني. عندنا حتّى اليوم يذبحونهنّ على العتبات: اِذبحني! أفضّل الموت على أن أكون في عينك غير ما أنا – وإذا سألني هل سأنسى رمزي رعد؟ لا! لا. لن يلفظ اسمه بشفتيه، ولن يسألني مثل هذا السؤال. وإنّما أنا أطرحه بالنيابة عنه. وإذ ذاك فماذا أجيب؟»...

– فهْم بعض الأعمال التي يقوم بها فريق من الفدائيّين المتطرّفين شيء، والقبول بها شيء آخر. نحن في لبنان، البلد الحضاريّ، لا يمكننا القبول. ولا

يمكننا التجاوز عن هذه الأعمال إذا حدثت في أرضنا أو في سماء وطننا.

«وإذا لم يدع لي فرصة للدخول في هذه التفاصيل؟ الأفضل أن يظلّ الأمر مجرّدًا عن الشروح والتفاصيل. بكلّ بساطة سأقول له...» وستبدأ لا بالجمل الرنّانة... في الواقع كيف تبدأ؟ هكذا، عفوًا، عفوًا. بعد انصراف الأصحاب سيفتح لها ذراعيه لتقبيلها. «دعني أنا أقبّلك. أنت لا تقبّلني. دعني أخبرك أوّلًا من أنا... أنا لا أريد أن أكون إلّا كما أنا. كلّ الناس يريدون أن يكونوا ما يعتقد الناس أنّهم. أنا أريد أن أكون كما أعتقد أنّني. لأنّني باعترافي لك أعترف لنفسي. وكلانا واحد». وتخبره... ستخبره بكلّ شيء وستغمره بالقبلات. ستغمره بقبلاتها كما لو كانت تلك المرّة الأخيرة في عمرها...

٥

التكسي يقف في شارع عبد العزيز، في فم الطريق ايّاه.

وأشار حسين برأسه لجابر، فنظر جابر إلى سيّارة سوداء تلمع في الليل إلى الجانب الآخر من الشارع: الكريسلر تنتظر أكرم الجردي. هو الآن في الشقّة. كلّ مساء يأتي إلى الشقّة لا يخرم مواعيده.

«نقل الأستاذ الكبير أركان حربه من عند روز خوري لعند ماري أبو خليل! المسّ ماري، الممرّضة المسّ ماري، ابنة الكذا وكذا! قوّادة ممرّضة! هكذا تكون القوّادات القانونيّات ممرّضات قانونيّات وإلّا فلا!». وفكّر جابر: روز لو أتقنت الكار كماري لانقضى مشكله في البيت مع زنّوب.

ولكنّ حسين كان منصبًّا باهتمامه على ما سيكون، وكان قد زعم لجابر أنّ أخته أُصيبت في غيابه بطعنة سكّين لخلاف بين رمزي رعد وآخر على حبّها.

– إذا لم تأخذها بالجرم المشهود اكشف تحت عينها اليمنى جهة الأذن، تغطّي الشطب بالحمرة والبودرة، واسألها من أين لك هذا؟

هذا رقم ١ – لماذا لم يهجم عليه عند روز خوري، فينزع نظّارتيه ويطلع له عينيه خنقًا؟

والثاني – ويتناول الصورة التي التقطها القمّوعي على الكورنيش. إنّها هنا في جيبه مع رسالة «الصديق المخلص». وثيقتان. ويحدّق إلى الصورة ويقلّبها على الضوء النافذ إلى السيّارة من مصباح الشارع. إنّه يعرف أخته من ظهرها. يريد أن يتعرّف على الرقم ٢ من وجهه.

والثالث – أبو الكريسلر. شبع من أوديت. وأقرّت أوديت أنّها شبعت منه فجاء يأكل من لحم آل نصّور!

وينساب جسم أوديت ويتلوّى على السجّادة تحت قدميه في محلّ خياطة الفساتين التي من لؤلؤ ومرجان. وتعنّ له السيكارة، فينترها منه حسين ويفطسها.

وهمّ بالوثوب من التكسي فأمسكه الآخر من كوعه:

– اِنتبه. سأنزل قبلك. أترك لك التكسي هنا. وأنتظرك حيث اتّفقنا.

وترجّل حسين ومشى في الشارع، فيما كان جابر يتحسّس سلاحيه:

هنا في جيبه الأيمن مسدّسه التسعة. محشوًّا.

وههنا في عبّه إلى الشمال الموس. مسنونًا.

ذبحًا بالموس من الوريد إلى الوريد. تلك هي التقاليد. ولن يخرج عليها مهما قال القمّوعي. المسدّس للرجال، إذا اعترض طريقه أحد من الرجال.

وتوقّف حسين وأدار بوجهه صوب التكسي. وأدار جابر بوجهه صوب حسين. كان لحسين خيال ينبسط في الشارع على طوله، يتسلّق حائط البناية المقابلة حتّى أعلاها، لينعكس على أرض بور هناك وينبطح على أكداس تراكمت فيها... وخيال ثانٍ عن يمينه وثالث

عن اليسار... خيالات! خيالات! القصير المتجمّع على نفسه هنا، والمنداح إلى السماء هناك. أقزام وعمالقة تتوزّع في الليل. وتنتظر... وتتراقص في عينَي جابر نسخ حسين المحدقة به من كلّ صوب، فيلهو بالنظر إليها والموازنة بينها وبين حسين الواقف على المفرق.

«لماذا تنتظر يا حسين؟ لكي يطمئنّ قلبك؟ ولكنّك تعرف جابر يا حسين!»

وإذا شيء مثل الكرة يقفز عرض الشارع من صوب إلى صوب، فيجفل حسين ومعه العشرات من حسين المالئة الأرض والسماء. — جرذون مرق بين رجليه.

فتح جابر باب التكسي وترجّل. دخل في الطريق فانسلّ حسين وتوارى خلف البناية.

ونظر جابر حواليه. الطريق مقفر وله هو أيضًا خيال كبير. ربّما خيالات. ولكنّه لا ينظر إلّا لهذا الذي يسبقه. كأنّ خياله يدلّه على الطريق، يعطف به إلى اليمين، يتركه في السلّم. في قفص السلّم ضوء واحد يلقي خيال الصاعد إلى الوراء. فجابر يصعد وحده الآن. مسرعًا.

أيّ حاجة إلى العجلة؟ وتوقّف يلهث. سمع وقع خطى وراءه فتشاغل بإشعال سيكارة. الواقع أنّه يشتهي سيكارة. ولكنّ يديه ترتجفان وتقع منه علبة الكبريت. هل يلتقطها؟ سبقه الرجل إلى التقاطها وإذا هما وجهًا لوجه:

– حضرتك تسأل عن أحد في البناية؟

– أختي. في الطابق الثالث.

– جيران الشقّة. أيّها: المسّ ماري؟

– لا. تميمه نصّور.

وأحسّ جابر بغلطته فبادر وهو يفتّش بجيوبه:

– نسيت... نسيت في التكسي...

وهرول متدحرجًا على الدرج. والرجل يتأمّله. ثمّ هزّ برأسه واستأنف الصعود.

أقنع جابر نصّور صاحبه حسين القمّوعي بأنّ المسألة غير ميسّرة، وأخبره بخبر الرجل، قال:

– ما لنا والمشاكل؟ نأتي مع الفجر والناس كلّهم نيام ونأخذها على غفلة.

لحسين القمّوعي لم يقتنع. وكارهًا قال لسائق التكسي:

– اِرجع.

فرجع بهما التكسي إلى حيث كانا نهارهما.

كان حسين القمّوعي قد تكفّل بجابر نصّور فأخفاه عن الأنظار. ولمّا دخل الشرطة إلى «بانسيون ريفاج» في حيّ الأونيسكو حيث يسكن حسين قالت لهم صاحبته إنّ حسين لم ينم البارحة في البانسيون وإنّها لا تعرف شخصًا باسم جابر نصّور، ولكنّ شابًّا أسمر اللون، قصير القامة، يرتدي دائمًا صدريّة مفتوحة، كان يزوره أحيانًا ويخرجان معًا. «لعلّه جابر نصّور».

الليل قضياه في محششة. والنهار عند أنطوانيت في شارع المتنبّي. مومس، حسين عشيقها وراعيها، وهي تنفق عليه منذ سنين، منذ نزوله من المهديّه. جابر كان يسمّي حسين «زوج الملكة» ويتمنّى لنفسه – يائسًا – مثل ذلك. حسين قال له إنّ المكان هو خير المخابئ في النهار لخلوّه من الرائح والغادي، فـ«السوق» ميت من الفجر إلى غروب الشمس.

وعلى أثر عودتهما تجدّد القتال بين القمّوعي وصاحبته لخلاف على مستحقّاته... وقام الضرب والصياح. ولكنّهما انتهيا، ككلّ مرّة، إلى الصلح في الفراش. أمّا جابر فاستلقى في المقصورة المجاورة بجانب «أخت» لأنطوانيت اختارتها له. وسلفًا دفع عنه حسين هذه الليلة أيضًا، فلم تلبث المرأة أن نامت على وجهها تشخر، ورفع هو وجهه إلى السقف.

كان يفكّر بما هو مقدم عليه من أمر عظيم. فاته؟ كلّا لن يفوته!

وتتململ المرأة منقلبة على ظهرها، فنهض وقعد على الكنبة تاركًا لها السرير. لا يريدها... نظر إلى ساعته ثمّ أشعل سيكارة. وإذا هي تضرب فجأة اللحاف وتفرّج

بين ساقيها دافنة رأسها تحت المخدّة ، فما يظهر إلّا جسدها. فلبث جابر يتفرّس بهذا العري الداعر الذي يبحث عن اسم – تميمه نصّور !

«هو أنا. لا تفتّشوا عن أحد. وهذا هو السكّين الذي ذبحتها به !»

الحبس؟ مرحبًا به ! الحبس للرجال.

وسيذهب إلى الحبس لا بالتهمة الحقيرة ، زنّوب ابنة راعي المعزى في عكّار ، بل شامخ الرأس وفي يمينه راية الشرف الرفيع.

٦

تعرف الآن أنّها قامرت بكل شيء.

ماذا قالت ، لا تعرف. لم تقل شيئًا مما جهزّته.

ولم يفه هو بكلمة.

ونزلت تميمه نصّور السلّم الخشبيّ وحدها إلى الجنينة. ومن الجنينة إلى الباب تعالجه ولا تهتدي إلى فتحه. وهاني الراعي حيث هو على السطح ، واقف ، وهذا ظلّه ينداح من فوقها فلا تلتفت.

ثمّ كالخائفة منه ، أو من نفسها ، وضعت رأسها ومشت.

ودارت بها الطريق على التلّة ، فبرز صنّين ينفض عنه الليل ، فجمدت إزاءه.

وظلّت جامدة هكذا دقيقة طويلة. وفجأة رفعت كفّها تمسح على وجهها صفعته.

ودفقت دموعها بوجه الفجر...

بقي هاني على السطح ساهمًا. وربّما دار على نفسه بين العرزال والعلّيّة أو استلقى على حجر من حجاره ، ولكنّه لا يلبث حتّى يثب ، ما يستقرّ به مكان.

ولمّا وافته أمّ خاتون بقهوة الصباح وجدته مرتميًا على سريره ، وقد شبك يديه تحت رأسه ، والفراش على ما سوّته أمس. فلم تتمالك أن قالت إنّها كانت تسمع في الليل وقع خطاه على السطح. قد رأت أصحابه يخرجون ومعهم الفتاتان ، ثمّ رأت إحداهما ترجع وحدها ولا تغادر إلّا قبل ساعة أو ساعتين. ولكنّها لا تحبّ التدخّل في شؤونه وما تجسر. ومع ذلك لم تتمالك من السؤال هل من شيء يشغل باله.

– لا شيء ، لا شيء.

ودون أن يلتفت إلى القهوة – تركتها له أمّ خاتون وتركته – بادر السلّم إلى سيّارته إلى رأس بيروت إلى المستشفى الأميركيّ فلوى بها إلى شارع عبد العزيز فالطريق المؤدّي إلى الشقّة. وشدّ ما كانت دهشته إذ اعترضه شرطيّان فمنعاه من المرور فانثنى فأوقفها حيث استطاع وأقبل كالراكض. في الطريق إلى البناية حيث شقّتها – أجل هي البناية ذاتها – ناس يتقاطرون وشرطة ينهرون الناس طالبين إليهم التنحّي ، فينكفئون لاهجين بالخبر : واحد أطلق الرصاص على أخته ، هنا في الطابق الثاني ، الشقّة التي على اليمين ، أراد التخلّص منها لسلوكها الشاذّ ، اسمها تميمه نصّور ، تسكن مع ممرّضة في المستشفى الأميركيّ في الشقّة ذاتها ، أرادت الممرّضة أن تحميها فجاءت الرصاصة في صدرها ، اسمها ماري أبو خليل ، أخذوها إلى المستشفى.

– الممرّضة هي التي أخذوها إلى المستشفى.

– وأخته؟

– خلّصها الجار الذي يسكن الشقّة المقابلة. كان بالباب خارجًا إذ طلعت الخناقة بوجهه على عتبة الباب الآخر. هو الذي قبض على الجاني وصرخ بها : أهربي ! الله يعلم أين صارت.

فهرول هاني إلى المستشفى الأميركيّ.

كانت المسّ ماري قد فارقت الحياة.

الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم تحوّلت بيروت إلى بحر هائج. وحينما خرج هاني الراعي من المستشفى رأى الشوارع بوجه الجامعة الأميركيّة تعجّ

بالطلّاب المضربين يرفعون اللافتات متهيّئين للسير إلى ساحة الشهداء من حيث تأتي أخبار تكسير محلّات وإحراق سيّارات.

«أهو مأتم أبي الهول اليافاوي؟»

ولكنّه لم يلبث أن اطّلع على الأمر من سائر وجوهه. فعلم أنّ موكب النعش لم يصل إلى ساحة الشهداء حتّى اختلط بتظاهرة عظيمة كان يقوم بها الناس في الساحة، فسقط المأتم على التظاهرة كما يسقط الزيت على النار، فبيروت في اضطرام من أطرافها الأربعة، وعلى الوجوه فيها هول النبأ: في الليل زحفت القوّات الإسرائيلية على الجنوب من البرّ والجوّ، وضربت المدفعيّة شبعا وكفرشوبا والفريديس والمهديّه، وهبط مظلّيو العدوّ فيها والتحموا مع قوّات الجيش والأهالي والفدائيّين في معارك ضارية. والجرائد تتحدّث - خطف هاني إحداها يقرأ العناوين على عرض الصفحات - عن عشرات القتلى والجرحى، والمعارك مستمرّة، ومجلس الوزراء منعقد طول الليل، والحكومة أبرقت إلى وفدها في الأمم المتّحدة بشكواها الصارخة إلى مجلس الأمن، تناشد ضمير الإنسانيّة وتُشهد العالم على هذا الاعتداء الجديد الأثيم طالبة انسحاب القوّات الإسرائيليّة من أراضي لبنان. وسيول النازحين الفارّين من ميادين القتال تتدفّق على صيدا، قد وقفوا أمس سدًّا بوجه وفد الصليب الأحمر الآتي من بيروت، وعلى رأسه عقيلة رئيس الجمهوريّة، فلم يدعوه يتابع طريقه إلى القرى المنكوبة ليُفرغ ما تحمل سيّاراته من أغذية وإسعافات صارخين:

- نريد سلاحًا لا نريد طحينًا!

وألقى هاني الجريدة ونظر. وصل الصراخ إلى بيروت، فالطلّاب يرفعونه شعارًا إلى جانب شعارات أخرى كلّها تنذر بالخطر الداهم. فشقّ لنفسه بين الجموع وقد شرعوا بمسيرتهم، يدور بينهم في كلّ ناحية باحثًا عن أصحابه. ولاح له أحمد عدنان فناداه، ثمّ لميا شارون، وقفز الثلاثة إلى الفيات، مندفعين في الطريق الفرعيّة إلى قلب المدينة المشتعل.

....

دفتر الخرطوش.

بيروت في ... - المذكّرة الأخيرة في هذا الدفتر إليك أكتبها يا هاني، من مكان ما، هنا على خطوات من عليّتك. كان الرجل ينتظرني، يريد أن نذهب من المرفأ رأسًا ويلحقنا أبو عزيز اليافاويّ بعد دفن ابنه. ولكنّي لم أكن قادرة على التغيّب عن مأتم أبي الهول، وعدت نفسي بذلك في اجتماعنا أمس حينما بحث الأصحاب مسألة الاشتراك في التشييع.

ولكن هل أنا عائدة من مأتم أبي الهول أم من مأتم نفسي؟

إنّ ضربة كفّك أثرها لن يزول. الصفعات التي تلقّيتها حتّى من أمّي وأخي كانت تلهب دمي. وأحسّ لصفعتك على خدّي مثل الندى، وفي قلبي سيتردّد صداها كأجراس دير المطلّ حتّى الموت.

أهي اللعنة سبقتَ بها الناس الذين يلعنونني الآن من كلّ صوب؟ معاذ الله! ويقيني أنّك ما فكّرت بشيء من ذلك حتّى في اللحظة التي غضبت فيها غضبتك الخرساء. أعليّ غضبت أم على صاحب ذلك الاسم؟ إذا كانت صفعتك موجّهة من خلالي إليه فضربك في ميت. أمّا إذا كانت، كما أرجو، لي أنا فهاتِ يدك أقبّلها. لأنّك، لو أردت، لاستطعت بدلًا من ذلك أن تقول لي في وجهي ما يقوله حسين القمّوعي وما يظنّه فيّ ابن أبي وأمّي. أن ترجمني. تذبحني. أو تطلق الرصاص عليّ كما أطلقه هو هذا الصباح يريدني. وليته أصاب!

كان باستطاعتك، على الأقلّ، أن تطردني. أن تدير ظهرك لي. ولكنّي رأيتك تبقى ساكتًا، منتصبًا بوجه النجوم، ورأيت ظلّك ينداح من السطح فوقي ويغمرني.

لو ناديتني؟ لو طلبت إليّ أن أعود؟ حسنًا فعلت بأنّك تركتني. أحبّ أن أعتقد أنّك تركت نفسك

لنفسك. أمّا أنا فأعترف لكِ. هممت بالرجوع، بالركوع على قدميك وغسلها بالدموع. وحسنًا فعلت أنا أيضًا بأنّني تابعت طريقي.

طريق مصيري.

أنا ماضية فيه إلى أقصاه. مرّة أخرى، كان بإمكاني العودة وبإمكانك إرجاعي – هل سألت عنّي اليوم؟ هل مررت بجانب الشقّة؟ هل تلفنت؟ أنا واثقة ستسأل عنّي إن لم يكن اليوم فغدًا. ولكن ما الفائدة؟ إنّه قدري شاء لي ولك، ولا مردّ له. وها هو قد قطع علينا كلينا. فلا أنا أستطيع أن أعود إليك بعد مصرع ماري أبو خليل من أجلي. ولا أنت أرضى لك أن ترجع إليّ.

لن أحضر مأتم المسّ ماري. كما لم يتيسّر لي أن أحضر مأتم زنّوب من قبلها. فهل لي أن أطلب منك أن تنوب عنّي يا هاني. وأن تسألها أن تغفر في سمائها لتميمه؟

إلى أين أنا ذاهبة؟ – مع الليل إلى أن يطلع فجره.

ربّما علمت أنت قبلي. كلّ ما يمكنني الآن أن أقوله إنّني قاصدة مع الرجل إلى حيث يعيّنون لي وجهتي ومهمّتي. وكذلك أبو شرشور. هو الآن إلى جانبي ينتظر فراغي من كتابة هذه الكلمات إليك. أبو عزيز اليافاويّ ماشٍ إلى الحرب. هكذا يقول وهذا كلّ ما يعرفه. أمّا أنا...

تذكر أنّنا تكلّمنا أمس في الاجتماع عن أعمال العنف المخالفة للقوانين المرعيّة والأعراف المسلّم بها.

مكاني هناك.

سأحارب تحت كلّ سماء ضدّ كلّ الشرائع والتقاليد التي ارتضاها المجتمع وأطعنها بيدي. لأنّه باسمها – تحت سماء بلادي – أنكر عليّ حقّ الحياة، ولمّا أراد أن يسلبني باسمها الحياة نفسها اقترف بدل الجريمة اثنتين: قتل أعزّ الصديقات وأنبلهنّ وأطهرهنّ، ونحر حبّي.

ترى، يا هاني، أنّنا ما نزال على خلاف. اختلفنا على هذا أيضًا أمس... أنت قلت منذ البداية: سنختلف على أمور كثيرة.

وهذا طريقي الآن يختلف عن طريقك في النهاية.

ولكن. أهي النهاية حقًّا؟

لا أقدر أن أتصوّر ذلك. لا أقدر. لا أقدر.

هاتِ يدك – أيّاها – على خدّي. فالرجل يستعجلني. ويلاقينا أبو شرشور بعد أن يوصل دفتر الخرطوش إلى أمّ خاتون لتسلّمه إليك. فيه كلّ حياتي، وهو لك، وأنا بغير حاجة إليه، فلن أتكلّم بعد اليوم. ومنذ اللحظة التي سأمشي فيها مع الرجل سيخ‍ ‍رس اسم تميمه نصّور.

إلى القارئ

أسماء الأشخاص في هذه الرواية وأسماء الكثير من القرى هي من وضع المؤلّف ، وحبكة الحوادث كلّها من نسج خياله . وكذلك الأقوال التي تجري على ألسنة الأشخاص وما يأتون به من أعمال. إلّا ما أُشير إليه بصراحة في مواضعه من الكتاب.

اقتضى التنبيه إبعادًا لكلّ شبهة ومنعًا لأيّ تأويل.

المؤلّف

إشارات

١) جريدة «الأوريان» L'Orient ، العدد الصادر بتاريخ ١٥ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٨ وقد نقلت فيه خلاصة التحقيق الذي قامت به مجلّة أوتلوك Outlook وعلّقت عليه.

٢) من حديث للأستاذ نزار قبّاني في قاعة وست هول – الجامعة الأميركيّة – عن «ملحق النهار» الصادر في ١٥ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٨.

٣) من تحقيق في «ملحق النهار» منشور على دفعات بين كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ وشباط (فبراير) ١٩٦٩. والفقرات هي للسادة : * رينه حبشي – ** جبران مجدلاني – *** يوسف الخال – **** نور سلمان – ***** أنسي الحاجّ.

٤) من مقال بعنوان «لئلّا يعود هارون الرشيد» للأستاذ عبدالله القصيمي في مجلّة «مواقف» ، العدد الأوّل ، تشرين الأوّل وتشرين الثاني (أكتوبر ونوفمبر) ١٩٦٨.

السَّائح والترجمان

* نال «السائح والترجمان» جائزة أحسن مسرحيّة لجمعيّة «أصدقاء الكتاب» سنة ١٩٦٢.
* تُرجم إلى اللغة الفرنسيّة بقلم المستشرق ميشال باربو رئيس الدراسات الإسلاميّة في «السوربون» ونُشر في مجلّة «أوريان» الباريسيّة، ثمّ على حدة سنة ١٩٦٥.

أضواء

على أثر صدور «السائح والترجمان» في طبعته الأولى
وجّه ميخائيل نعيمه إلى المؤلّف الرسالة التالي نصّها :

أخي توفيق

عدت – وأنت الـ «عوّاد» – إلى توفيق الذي عرفناه فأحببناه في «الصبيّ الأعرج» و«قميص الصوف» و«الرغيف» و«العذارى». وكانت الفترة التي انقضت ما بين هجرتك وعودتك طويلة إلى حدّ أن كدنا نيأس من عودتك. وكيف عدت؟

عدت وكأنّك لم تبرح الحلبة أبدًا. فها هو مولودك الجديد «السائح والترجمان» بين يديّ، وهو يشهد بأنّ الحرارة في قلمك هي هي، والنقمة على البطيء والفاسد والتافه في حياتنا هي هي، واللجاجة في طلب الأسرع والأصلح والأثمن هي هي. وما الفارق إلّا في أنّك نقلت همّك بالإنسان من المسرح اللبنانيّ إلى المسرح العالميّ حيث تحاول أن تجعله يعطي حسابًا عن نفسه يبرّر به وجوده كإنسان.

شئت لمولودك الجديد أن يكون تمثيليّة. فجاء تمثيليّة تعتمد الكلمة والصورة أكثر من اعتمادها الحادث والحركة. وفي ذلك ما قد يقلّل من قيمتها كتمثيليّة. ولكنّك عوّضت عن ذلك النقص إلى حدّ بعيد باختيارك الجوّ الذي تجري فيه، ثمّ بنقلك السائح من حالة بشريّة سويّة إلى حالة تتجاوز حدود الوعي السويّ، وذلك بتنشيقه نوعًا من المخدّرات. وهكذا استطعت أن تخلق «النحّات» و«صوت الزمان» و«رجل المرّيخ» وأن تُجري بينهم وبين «السائح» حوارًا تحمّله ما شئت من الأحاسيس والأفكار.

في خرائب بعلبكّ وحدها ما يزوّد خيال الناظر إليها بأجنحة تمضي به بعيدًا جدًّا في متاهات الزمان والمكان. فكيف بذلك الخيال إذا أسعفته بنشقة من الكوكايين أو الهيرويين؟ ثمّ كيف به إذا رحت تبدّل في أوضاعه النفسانيّة بتبديل أوضاعه المادّيّة؟ وذلك ما تمكّنت منه في الحوار بين السائح والنحّات، والسائح وصوت الزمان، والسائح ورجل المرّيخ.

كأنّي بك ما خلقت النحّات إلّا لتمثّل به الإنسان في تفتيشه المحموم عن الإله الذي يستطيع أن يجد نفسه فيه فيطمئنّ إليه. فهو لا ينفكّ يخلق الآلهة ثمّ يحطّمها لأنّه لم يهتدِ بعد إلى نفسه في أيّ منها. إنّ في أعمق أعماقه ما هو أكبر بكثير، وأبعد بكثير من كلّ ما

توصّل إليه حتّى اليوم بيده وفكره. إنّه لم يبلغ بعد «نقطة الدائرة»، ذلك المحور العجيب الذي عليه يدور الزمان والمكان بكلّ ما فيهما من متناقضات. أمّا هو فثابت لا يدور لأنّه خارج الزمان والمكان، وفوق الخير والشرّ وجميع المتناقضات.

ثمّ كأنّي بك ما خلقت رجل المرّيخ إلّا لتجعل منه هاديًا للسائح إلى نقطة الدائرة. والسائح عندك يمثّل كلّ إنسان. أمّا رجل المرّيخ فيمثّل الإنسان المنفتح على الإله السرمديّ في نفسه. وهذا الإنسان يبني من نفسه هيكلًا بديعًا يتناسب وعظمة الإله في نفسه:

«في وحدةٍ للوجود
لا تعرفُ السدود
ولا الحدود
موصولةِ الأجيال
مشدودةِ الآمال
مربوطةِ الآجال
بالخلود
ونعبدُ فيه الإله الجديد
منه انفطرنا
ومنّا انفطر
منه انشطرنا
ومنّا انشطر»

في «السائح والترجمان» مقاطع لا يملّ القارئ ترديدها لما انطوت عليه من جمال السبك وحدّة الفكر والعاطفة. ولعلّ أبرزها ما جاء على لسان صوت الزمان في وصف تماثيل بعلبكّ المهشّمة، ووصف مخدع الحبّ، ووصف العمّال المسخّرين الذين لولاهم لما قام حجر فوق حجر في هياكل بعلبكّ، ثمّ في وصف الآلهة التي عبدها الإنسان فلم ينله من عبادتها إلّا العبوديّة، وفي وصف الهيكل الجديد الذي سيبنيه الإنسان المنعتق من ازدواجيّته وما تخلقه من أوجاع وأوهام إلخ.

وفي الكتاب لفتات تباغت القارئ بالسرعة التي بها تنقله من جوّ إلى جوّ دون أقلّ تمهيد. مثلما فيه لفتات تضنيه بكثافة رمزيّتها، إلّا أنّها لا تعوقه في السير معك إلى النهاية التي تنشدها.

إنّ «ضربة المعلّم» في «السائح والترجمان» هي، من غير شكّ، في انتقائك خرائب بعلبكّ مسرحًا له. ثمّ هي في ذلك النشوق السحريّ الذي قدّمته إلى السائح بُعيد دخوله الخرائب، فاستطعت أن تنقله إلى واقع غير الذي يواجه كلّ سائح عند دخوله «القلعة» وخروجه منها: باعة مزعجون بجلبتهم وبما يعرضون من تافه المتاع للتذكار.

حتّى إذا انتهى فعل النشوق عدت بالسائح إلى الواقع البليد عينه الذي وجد نفسه فيه في بدء سياحته. وهذان الواقعان : واقع الوعي وواقع ما وراء الوعي ، يلتقيان عندك على صعيد واحد من الزمان والمكان ، فكأنّك تسأل القارئ : أيّ الواقعين يا صاحبي هو الواقع ؟ وجوابك صريح لا شكّ فيه : إنّه الواقع الذي وراء ما درجنا على اعتباره واقعًا.

دعني ، في النهاية ، أجدّد تهانيّ لك «بسلامة العودة» ، راجيًا أن يكون فيها خير كبير لك وللأدب الذي يعتزّ بك واحدًا من أبنائه الأوفياء.

بسكنتا في ٦ نيسان ١٩٦٤ ، المخلص

ميخائيل نعيمه

إلى التي أجهلها وتعرفني

شيئًا واحدًا أعرف ، هو أنّكِ أحببتني.
كانت يدي في يدك ، وفي دروبك كنت أمشي.
ثمّ تخلّيت عنّي ، فتخلّت عنّي روحي ، وصرت أحمل الحياة جثّة على كتفيّ.
كم من مرّة ناديتك في وحدتي بأحسن الأسماء!
وكم من مرّة سألني عنك الناس ، فما عرفت حتّى اسمك لأسمّيك.
وها أنت تعودين – فجأة – كما ذهبت.
ولكنتُ سألتك لماذا ذهبت ولماذا تعودين ، لولا أنّني أعرف أنّك أحببتني.
أتُراك – كبعضهنّ – لا تُغريك المناقير بيضاء ، ولا تعلقينها إلّا بعد أن تتمرّس بالعواصف ، فأمهلتني ، وكنت معي على موعد؟
أم رابك منّي شيء ، فأقسمت – أيمان المحبّين – لا تريني ولا أرى لك وجهًا! ثمّ غلبك الشوق وردّك الحنين؟
إذا كان ذلك ، فهذه خطاياي عند قدميك – وأبلّلها بالدموع.
وأُقسمها – أيماني – إنّ طيفك لم يغادرني. كان يأكل من صحني وينام على مخدّتي.
وكان يأخذ بخناقي بحضرة الملوك ، يقولون لي : اِنحنِ! فيصيح في عينيّ : لغيرها ما انحنيت ، ولن أفعل.
ماذا!
أيكفيك هذا ، وبقبلة تقطعين عليّ القول؟
أم ألحّ بك الحبّ وذهب بالصبر؟
أم آثرت ، كرمًا منك ، الإغضاء؟
كلّ ما أعرف أنّك قد عدت.
فانشري جدائلك أستروح شذًا عالقًا بالنفس منذ صباي.
ومرّي بكفّك على جبهتي تمسح الغربة والزمان.
... ما ضرّني أنّني أجهل حتّى اسمك! فأنت بين ذراعيّ. وسأحملك إلى ما وراء القبر.

بحرصاف في ١٥ أيلول ١٩٦٢ ت. ي. ع.

أمسرحيّة هي؟
إذن، تمنّيت لها ممثّلين على مستوى الآلهة الذين في الإنسان.
وهم، على كلّ حال، أعظم من آلهة بعلبكّ.

المؤلّف

المكـــان: بعلبكّ
الزمـــان: الآن

الأشخاص: السائح
الترجمان
النحّات
صوت الزمان
رجل المرّيخ

١ – الوصول

تَمَتَّعْ مِن شَميمِ عَرارِ نَجْدٍ
فما بَعْدَ العَشِيَّةِ من عَرارِ
شاعر قديم

السائح (أميركيّ في العقد السادس من العمر. أبرص. يلبس طقمًا مقلّمًا فاقع الألوان. على عينيه نظّارتان سوداوان، وفي عنقه آلة تصوير. يمشي صوب الهيكل وقد لحق به رهط من الصبيان باعة الأشياء الشرقيّة والمصنوعات البعلبكيّة، ينادون عليها متزاحمين. يجرّب أحدهم عرقيّة على رأسه مغريًا السائح، ويدفع آخر خفًّا أحمر في وجهه، وهو يحاول الإفلات منهم متابعًا سيره نحو باب الهيكل، مأخوذًا).

الترجمان (بعلبكيّ ضاعت معالم العمر في وجهه المسنون. طويل، ضامر، له عينا نسر. يلبس بنطلونًا إفرنجيًّا لا لون له، وقميصًا بلا ربطة عنق ولا أزرار، ويشدّ وسطه بزنّار عريض مقصّب. مستلقٍ على كوعه في ظلّ جدار، وقد علّق في أحد ثقوبه عصًا طويلة شكّ برأسها عرقيّته وطرح عليها عباءته. تنبّهه الضوضاء فيثب واقفًا. يتناول عدّته ويبادر الصبيان بالسباب يطردهم عن السائح ملوّحًا بيديه الاثنتين، وفي إحداهما العصا وفي الأخرى العباءة. يستدير فجأة إلى السائح ويطرح على قدميه ابتسامة كلّها إجلال. ثمّ يرفع رأسه ويقول)

أنا في خدمة سيّدي السائح.

(لا يلتفت السائح إليه، بل يبقى جامدًا وعيناه عالقتان بالهيكل. يخطو الترجمان خطوة، وينقفه على كتفه نقفة خفيفة، فلا يحسّ. يعيد الكرّة بأشدّ منها، فيجفل بعض الشيء. يحني الترجمان رأسه حتّى الأرض، فيتأثّر السائح لهذا الأدب المفرط ويهمّ بأخذه من ذراعه دون أن يرفع وجهه. يُخرج الترجمان صوته عريضًا كأنّه الصدى)

أنا الترجمان

الناطق بلسان الزمان!

السائح (يحرّك الترجمان فلا يتحرّك ويلتزم وضعه)

الترجمان (يتابع بالصوت نفسه)

سأعرض عليك هذه الخرائب
وأخبرك عنها العجائب
والغرائب.

(يرفع رأسه، ودون أن ينظر إلى السائح يكمل مشيرًا بذراعه إشارات كبيرة)

من الأمسِ المكفَّنِ بالظلام
إلى الغدِ الجنينِ في الأرحام
حكايةَ الدهور
التي تدور
من المهودِ إلى القبور
إلى النشور!

(يجمد مسمّرًا أنظاره في الغيب)

السائح (يدنو من الترجمان وينقفه على كتفه. مرّة أولى بلطف. ثمّ ثانية وبصوت متهيّب)

ماذا تقول؟

الترجمان (يصحو. يشير بعصاه إيذانًا بابتداء الطواف بأنحاء الهيكل، ويمشي أمام السائح. كأنّه يخاطب نفسه)

التعرفة دولار لداخل الهيكل.

السائح: أوه! بكلّ سرور.

الترجمان: ودولار لخارجه.

السائح (يحني رأسه بالموافقة)

الترجمان: زيارة عاديّة. أمّا إذا أراد سيّدي زيارة فوق العادة...

السائح (يتظاهر بأنّه لم يسمع. متأمّلاً الآثار)

يا لجلال التاريخ!

(ثمّ يأخذ في التنقّل بين الأنقاض، وهو مشغول بفكّ آلة التصوير من عنقه، ما يفتأ يردّد)

يا لجلال التاريخ!

(ثمّ مخاطبًا نفسه بصوت عالٍ)

أريد صورة مع الآلهة!

(يستمرّ صاعدًا هابطًا. يختار مكانًا مشرفًا بجانب تمثال أسد. يتفرّس هنيهة بوجه الأسد الرابض، باسمًا له. يدلي بآلة التصوير للترجمان المنتظر تحت)

الترجمان (يلاقيه. وبدون سؤال أو جواب يلبسه عباءته)

السائح (مسرورًا)

جميل! جميل!

الترجمان: والعرقيّة.

(يضعها على رأس السائح)

السائح (ينهمك بتسوية قيافته. يجرّب أوضاعًا للصورة. يوزّع نظرات الدهشة مكرّرًا)

يا لجلال التاريخ!

الترجمان: (يركّز آلة التصوير ثمّ يرفع وجهه إلى السائح فيراه قد جمد في وضع اطمأنّ إليه. يشير بيده)

قدمك، يا سيّدي، قدمك.

السائح (يلتفت إلى قدميه)

ماذا؟

الترجمان: ضع قدمك على رأس الأسد.

السائح (يفعل. ثمّ يعود إلى وضعه وهو يتمتم بين أسنانه)

يا لجلال التاريخ! يا لجلال التاريخ! يُخيّل إليّ أنّ الآلهة سيظهرون معي في الصورة. لو جلبت آلة التسجيل لسمعت أصواتهم أيضًا.

الترجمان (سائلاً بصوت عالٍ)

حاضر؟

السائح (دون أن يتحرّك)

هيّا!

الترجمان (يترك آلة التصوير وينظر إلى السائح ثمّ ينفجر ضاحكًا)

السائح: ما لك؟!

الترجمان: أتريد حقًّا أن ترى الآلهة وتسمعهم؟

السائح (يفتح فمه مشدوهًا)

الترجمان (يفكّ زنّاره ويتلمّس أحد جيوبه الخفيّة بتأنٍّ ظاهر. يضرب على الجيب ضربًا موقّعًا، وينظر إلى السائح سائلاً بحاجبيه)

السائح (وقد ألحّ به الفضول)

ما هذا؟

الترجمان: شمّة من هذا الإكسير وتكون مع الآلهة.

(يهمّ بفتح الجيب)

السائح: قرأت عنه فلم أصدّق. هو إذن صحيح؟

الترجمان: الزيارة التي فوق العادة. خمسة دولارات.

(يعيد الزنّار إلى وسطه بتباطؤ. ثمّ بصوت مرتفع يتكلّف فيه الرصانة)

لنعد إلى الصورة.

السائح (ينسى وضعه ويفتّش عن محفظته. يمدّ يده بالدولارات الخمسة إلى الترجمان)

حسن. حسن. كما تريد.

الترجمان (يقفز إلى الدولارات. وبعد أن يلسّها في عبّه ينحني على السائح آخذًا رأسه بذراعه ويهمس في أذنه شيئًا)

السائح (وقد احمرّ وجهه وتلجلج)

عذراء!...

الترجمان: أجمل عذارى الهيكل.

السائح: كم؟

الترجمان (غامزًا بعينه ورافعًا أصابع يديه الاثنتين)

عشرة دولارات.

السائح (يعيد المحفظة إلى جيبه)

لنأخذ الصورة الآن.

الترجمان (يرجع إلى حيث ترك الآلة، ساكتًا، ويسوّيها من

جديد متهيّئًا للعمل)

السائح (يتناول محفظته للمرّة الثانية ، ويفرغ منها على رأس الأسد كدسةً من الدولارات ويأخذ في العدّ)

الترجمان: واحد ! إثنان ! ثلاثة !

(يضغط زرّ الآلة)

السائح: ماذا؟ أخذت الصورة؟

الترجمان: عظيم ! عظيم ! سترى أنّه شيء عظيم . متى تطلع الصورة في آلتك المدهشة؟

السائح: دقيقة.

الترجمان (يتقدّم ويتناول الدولارات. يحاول السائح بحركة من يده حبس دولارين منها ، ولكنّ الترجمان يضمّهما إليه)

أقسم بشرفي لسيّدي ، ليس لي منها سنت.

(يمدّ يده إلى العرقيّة فيستعيدها)

السائح: أحسّ بقشعريرة في جسمي.

الترجمان: (يساعده على خلع العباءة)

من هذه العباءة... مشحونة بالقشعريرات... من الذين دخلوا فيها قبلك... أفيق عليها في الليل تنتفض انتفاضًا.

السائح: ودوار في رأسي. لعلّه من العرقيّة !

الترجمان: اِنتظر. اِنتظر.

(يحلّ زنّاره من جديد ويفرغ في راحته من الجيب الخفيّ مثل الدقيق الأبيض. يفركه ويشمّه بنشوة ، والسائح ينظر إليه متعجبًا. ثمّ يتناول كفّ السائح ويضع فيها حفنة داعيًا إيّاه ، بحركة من رأسه ، أن يفعل مثلما فعل)

السائح (يرفع يده إلى أنفه ، وبعد تردّد قليل يدفع الإكسير في منخريه دفعة واحدة. وما يكاد حتّى يأخذه العطاس)

الترجمان (يرجع إلى آلة التصوير متشاغلًا بإخراج الصورة)

السائح (يريد أن يلحق به فيزحمه العطاس خلف ظهر الترجمان. عطسة تلو عطسة ، كلّ واحدة أشدّ من سابقتها)

الترجمان (يضحك)

السائح (يتقدّم ليسأله عن سبب ضحكه ، ولكنّ العطاس يعاوده ويمنعه من الكلام)

الترجمان (يرفع الصورة في الهواء ويتابع القهقهة)

السائح (يخطفها منه وينظر ، فإذا هي تمثّله يعدّ الدولارات على رأس الأسد. إلى الترجمان ، غاضبًا)

أتضحك من صورتي؟

الترجمان (يواصل قهقهته)

السائح (يصرخ آخذًا بيديه الاثنتين بكتفَي الترجمان)

أم من عطاسي؟

(يعطس)

ما هذا الإكسير الملعون الذي نشّقتني إيّاه؟

الترجمان (لا يقدر على الكلام ، ويشير بيده وبرأسه سلبًا)

السائح: قُل لي ممّن تضحك هكذا؟

الترجمان (يستوي في وقفته)

من التاريخ !

السائح: ماذا؟

الترجمان: عندما سمعتك تهتف بجلالةْ.

السائح (مقاطعًا بحدّة)

وبعد؟

الترجمان: لا شيء.

(يمسح دموع الضحك بكمّه)

تذكّرت شيئًا.

السائح: أيّ شيء تذكّرت؟

الترجمان (برصانة ، وقد عاد إليه كلّ روعه)

اِعلَم ، يا سيّدي ، أنّ هذا الهيكل ليس وقفًا على صنف واحد من الزائرين. لقد استقبلت فيه ، قبلك ، الملوك والسلاطين ، والأثريّين والمؤرّخين ، والشعراء والصعاليك... نبدأ بأصحاب الجلالة. هؤلاء جاؤوا ليقيسوا قاماتهم بقامات الآلهة. تسألني عن نتيجة الامتحان؟ أجهلها بالنسبة لهم. أمّا بالنسبة لي فالأمر واضح.

السائح: كيف؟

الترجمان: تعلم ، يا سيّدي ، أنّ آلهة السياسة فريقان: فريق من صنع الآلهة ، وفريق من صنع الرأي العامّ. ولمّا كنت أعرف جيّدًا آلهة الهيكل من أيّ شيء قد صُنعت فكيف تريد أن

أنظر إلى الآلهة التي صنعتها! أمّا الرأي العامّ...

السائح (رافعًا رأسه)

الرأي العامّ ليس خرافة مثل خرافات آلهتك.
الرأي العامّ مقدّس.

الترجمان: علّمتني الآلهة أنّ الناس لا يقدّسون إلّا الخرافات.

السائح: إنّك تجدّف على الديموقراطيّة.

الترجمان: نصل في تعداد الزائرين إلى المؤرّخين. سأخبرك بخبرهم وأريك وجوههم عندما أريك وجه التاريخ. أمّا الأثريّون فهؤلاء أرفع لهم قبّعتي.

(يرفع عرقيّته عن رأسه وينحني)

وإن كان بعضهم لا يتجاسر أن يردّ لي التحيّة بمثلها.

السائح: لماذا؟

الترجمان: لئلّا تسقط من تحت آباطهم ما اختلسته أيديهم الجليلة من خفيف الحمل وغالي الثمن.

السائح: والشعراء؟

الترجمان: أكرم الزائرين الذين استقبلتهم في الهيكل منذ أن وقفت على بابه. ولكنّ عملتهم لا تروج في أسواق الناس.

السائح: مزيّفة؟

الترجمان: بالعكس. إنّها العملة الحقيقيّة.

السائح: الشعراء لا يملكون غير القصائد.

الترجمان: عندي لها سوق.

السائح: وما تشتري بها؟

الترجمان: ما لا يُباع بعملة الناس.

السائح: والصعاليك؟

الترجمان: هم الآخرون، أغنياء وفقراء، من كلّ بلد تحت السماء.

السائح (محتدًّا)

والتاريخ؟ لنعد إلى ما يضحكك منه.

الترجمان (متابعًا)

على أنّي لا أستقبل الملوك والعظماء، والعلماء والأغنياء وحدهم في هذا الهيكل. وغالبًا ما طاب لي، قبل التعرفة طبعًا، أن أستقبل المعزى.

السائح (بين الدهشة والاحتجاج)

المعزى!

الترجمان: الواقع أنّ المعزى تنظر إلى البشر نظرتها إلى معتدين غاصبين. فهي تعتقد أنّ الهيكل إرث لها من الآلهة وملك حلال. وقد أقرّتها السلطات طوال أحقاب وأحقاب على ذلك، وتركت الهيكل لها وتركتها فيه حرّة تفعل ما تشاء: تسرح في أرجائه وتمرح، تأكل وتَقيل، وتخلّف فيه، على كلّ حال، ما لم يخلّفه السلاطين وأصحاب الملايين.

السائح: ماذا؟

الترجمان: ما يهيّئ بين شقوق الحجارة موسم الربيع، أعشابًا طريئة من كلّ لون.

السائح: وما دِخل كلّ هذا بالتاريخ؟

الترجمان: ذات مساء كنت هنا. فإذا بقطيع من المعزى يدخل الهيكل، شأنه كلّ مساء، وإذا هو يتوزّع فيه سعيًا ونطحًا وقفزًا، حرًّا لا يرعاه ولا يلتفت إليه أحد. منظر عجيب ظريف، كنت أجد فيه من العبرة والمتعة ما انقطعت أسبابه، ويا للأسف، منذ زمان.

السائح (متضجرًا)

وبعد؟

الترجمان: تلك الأعشاب في أفواه المعزى، تُرى ما عسى كهّان الهيكل يقولون فيها لو علموا أنّ المعزى ستقضم لحاهم، يومًا، على هذا الشكل؟

السائح (ضاربًا بقدمه الأرض)

التاريخ! أين التاريخ؟

الترجمان (يعبس)

أجل التاريخ. لم أنسَ. لم أنسَ.

(يأخذ بيد السائح ماشيًا به على مهل بين الأنقاض. ثمّ يقف وينظر إلى العلاء مشيرًا بإصبعه)

أترى هذا الرفرف؟ الشيطانة! لم أدرِ ما شاقها منه. لعلّها أرادت أن تحقّق ما عجز عنه الزائرون الذين جاؤوا يقفون - كما وقفت أنت - أمام جلال التاريخ، فوصلت إلى حيث لم يصل أحد منهم، حتّى الملوك والسلاطين أصحاب القامات المشمخرّة.

السائح: ومن هي؟

الترجمان: عنزة من القطيع! بيضاء سوداء، أنيقة رشيقة، لعوب طروب، متأمّلة في الأشياء ولا تأمّل الفلاسفة والشعراء. جعلت تقفز من هنا وتتوقّف ههنا، تعلو وتهبط، تُقبل وتُدبر، توازن بين الأعمدة والقباب، تفحص بقوائمها التراب، تضرب بأذنيها السحاب. وبوثبة من وثباتها استقرّت على هذا الرفرف، وأتلعت عنقها إلى الشمس، ثمّ ارتدّت بأبصارها إلى هذه الخرائب، ثمّ...

السائح (مقاطعًا)

أخذتَ لها صورة!

الترجمان (كأنّه لم يسمع)

معّت معّة تجاوبت أصداؤها في الهيكل، فخُيّل إليّ أنّها تنادي التاريخ، وأنّ التاريخ مشى بجلاله ملبّيًا، ووقف هنا حيث نحن واقفان.

السائح: ثمّ ماذا؟

الترجمان: رمته بنظرة وأدارت له ظهرها، ثمّ...

(يقطع كلامه عن قصد ويحدّق إلى السائح زامًّا بشفتيه)

السائح: ثمّ ماذا؟

الترجمان: بالت في أنفه!

....

(رعود وبروق هائلة في جوانب الهيكل)

السائح (يركض من كلّ جهة متلمّسًا الأنقاض من خوفه، محاولاً التمسّك بما يحتمي به)

ربّاه! ما هذا؟

الترجمان: جوبيتر صفق بسوطه. تعالَ إلى الزاوية. لقد حضرت الآلهة.

(يختبئ السائح والترجمان. تتلبّد السماء بغيوم دكناء. ويسود الهيكل ظلام ورهبة. تستمرّ البروق والرعود)

صوت الزمان:

لا تعجبْ للّيل والنّهار
كيف أحدثا هذا الدمار

تعبَ الليلُ والنّهار
من الوقار
المستعار

من صلاةِ البشر
وجمودِ الحجر
وسكوتِ القدر

ففجّرتِ الأرضُ بركانَها
ذاتَ مساء
تُريد الخلاصَ ولو في الفناء...

٢ – الزيارة

وفِـيٌّ سَقامٌ لستُ أُحسنُ وصفَهُ
عَلى أنّهُ ، ما كانَ ، فَهْوَ شَديدُ
تمرُّ بِــهِ الأيّـامُ تَسحبُ ذيلَهـا
فَتبلى بـهِ الأيّـامُ وَهْوَ جَـديـدُ

شاعر قديم

(الهيكل يغرق في نورٍ أحمر. موسيقى تعربد بعيدًا ، ثمّ تقترب شيئًا فشيئًا. تُسمع صيحات وقهقهات. يتّضح المشهد فجأة : رجال ونساء بين الخمور والفجور ، بعضهم جلوس إلى مائدة مثقلة بأطايب الطعام والشراب ، والأكثرون يتمرّغون على الأرض.

يدنو السائح بفضول وذهول ، ولكنّه يحرص على التزام مكان يرى فيه ولا يُرى. تخترق الحفل امرأة عارية في يدها سوط جلديّ طويل له ذؤابة من حبّات الفضّة. تصفق بالسوط وتبدأ به رقصة كلّها توجّع وتمزّق ، وهي تضرب بالسوط في كلّ ناحية كأنّها تلاحق شخصًا لها عليه ثأر. وربّما وثبت في الهواء ، أو أهوت تعضّ الأرض ، والقوم خلفها في شأنهم ، لا يتابع رقصها إلّا الأقلّون.

تنتهي الرقصة بلفّ السوط على العنق. وفي هذا الوضع تقتحم الراقصة المائدة وسط التصفيق والهتاف ، فتخطف الكأس الأولى التي تصل إليها وتجرعها دفعةً واحدة. ثمّ تطوف بها ، فارغة ، على عشرات الأفواه فيعبّها أصحابها قُبلًا ، والنور والموسيقى دفق ونقر مع القبل. ترفع الكأس بكلتا يديها ما استطاعت كأنّها تقدّمها قربانًا ، لتقذفها على الأثر بين الأقدام فتذهب شظايا... فيما يجنّ الجنون حولها ، وهي تتساقط على ظهرها عياء واستسلامًا ، وعيناها إلى السماء.

تسكت الموسيقى ، ومع سكوتها يسود ظلام دامس. تنقضي برهة. يعود النور أصفر ، هذه المرّة ، فيغمر السائح المسمّر وسط الهيكل. السائح يفرك عينيه باحثًا عن المشهد العجيب. يتمشّى برهبة. يطلع له من إحدى الزوايا شخص)

النحّات (رجل في الأربعين. مكشوف الرأس. كثّ الشعر ، مبعثره. يلبس بنطلونًا كاكيًّا وقميصًا بكمّين قصيرين. ينشقّ القميص عن صدرٍ عريض وساعدين مفتولين. يتقدّم بخطى ثابتة نحو السائح)

السائح (يلقي نظرة انزعاج على النحّات ، ثمّ يدور ببصره حواليه)

الآلهة؟ أين الآلهة؟

النحّات (يمدّ يده إلى جيبه فيخرج مطرقة وإزميلًا ويرميهما على الأرض)

في جيبي.

صوت الزمان :

هذهِ الأشلاءُ المبعثَرة
هذهِ الرؤوسُ المقطوعة
والأذرعُ المبتورة
والبطونُ المبقورة !

هذهِ العيونُ العمياء
من فرطِ ما حدّقت إلى الشمس :
حُفَرٌ جوفاء
يأسنُ فيها شتاءٌ على شتاء

هذهِ الآذانُ المصلومة
والأنوفُ المخطومة

هذهِ الأعناقُ
المدقوقةُ بالعواصف

والأضلاعُ المقصَّفةُ بالزلازل
والنهودُ المقلوعةُ من الصدور
يلعبُ بها الأطفال
أُكرًا على الرمال
أو يحشو بها الرعيانُ مقاليعَهم
ويقذفون بها السماء!

هذهِ الأسماء
المُخْفاةُ بأقدامِ الدهور

هذهِ الممالكُ المدكوكةُ تحت الرغام
والعوالمُ المغيَّبة في الظلام...

النحّات (يصرخ مستلقيًا على حجر)
أحلامي وآمالي!

السائح: والقوم الذين كانوا يقصفون ههنا؟

النحّات: سأريك إيّاهم، والمائدة والكؤوس أيضًا.

السائح: والمرأة التي رقصت رقصتها العجيبة؟

النحّات: في مخدعي.

السائح (يسكت بإعجاب ويلبث محدّقًا إلى النحّات كأنّه يغبطه)

النحّات: سيقدّمها إليك الترجمان في الزيارة التي خلف الوقار.

السائح: أين؟

النحّات (مفسّرًا)
خلف الجدار.

(يغرس عينيه في عينيه. يظهر على السائح الخجل. النحّات متابعًا)

ألم يعدك، عندما همس في أذنك، بإحدى عذارى الهيكل؟

السائح (يرتبك)
ولكنّك قلت إنّها في مخدعك.

النحّات: تركتها من قبلك لكثيرين.

السائح (فاتحًا عينيه)
كيف؟

النحّات: ملوكًا وصعاليك.

السائح: أهي التي تتركك أم أنت البادئ بتركها؟

النحّات: لا أحد منّا يذكر.

السائح: ولكنّي لا أفهم. هذه أشياء...

النحّات (مقاطعًا)
لا أهميّة لها. المهمّ أنّ كلًّا منّا يخون الآخر.

السائح: بمعرفة صاحبه؟

النحّات: وهذا أيضًا لا أهميّة له.

السائح: كيف؟

النحّات: ما دام كلّ منّا يعرف نفسه خائنًا.

(بعد توقّف)

هل رأيت النساء اللواتي كنّ هنا منذ هنيهة؟

السائح (بفضول)
تحبّ إحداهنّ؟

النحّات (باطمئنان)
كلّهنّ. والرجالُ الذين كانوا هنا منذ هنيهة...

السائح: ماذا؟

النحّات: تحبّهم هي كذلك.

السائح: كلّهم؟

النحّات: لا تفارقهم ولا يفارقونها.

السائح: وأنت؟

النحّات: كما لا أفارق أنا الأخريات ولا يفارقنني.

السائح: وأين، ومتى، وكيف؟ كلّ ذلك خلف الجدار؟

النحّات: في قلب الهيكل.

السائح: ألا تراكم العيون؟

النحّات: كلّ واحد يرى نفسه بعينَي نفسه.

السائح: ومع ذلك أما تزال تحبّها؟

النحّات: غريب! تسألني السؤال الذي لا تكلّ هي ولا تملّ من طرحه عليّ.

السائح: وبمَ تجيبها؟

النحّات: حتّى العبادة.

السائح: وكيف تصدّقك؟

النحّات : المهمّ أن أصدّق نفسي.

السائح (ساخرًا)

وأنت ، أتصدّق نفسك؟

النحّات : كلّ التصديق.

السائح : أتظنّني أبلهًا؟!

النحّات : أنا الأبله ، لأنّني أقول لها ذلك ببلاهة رائعة.

السائح (يظهر عليه الرضى)

النحّات (مكملاً)

وبروعة بلهاء.

السائح : كفاك تسخر منّي!

النحّات : أنا لا أسخر منك.

السائح : ولا منها؟

النحّات : ولا منها ، لأنّها تعرف إلى أيّ درجة أحبّها.

السائح (يضحك)

حتّى العبادة! أليس كذلك؟

النحّات : أو حتّى الخيانة.

السائح : أيّ حبّ هذا الذي لا يعرف الحياء ويعيش عمره في الخيانة؟

النحّات : كلّ الحبّ.

السائح : تبًّا لحبّ الفجّار! أو سقيًا له! فهو خير من هذا الحبّ الذي لم أسمع بمثله بشاعة.

النحّات : لا يعرف إلّا الجمال ولا يدين إلّا بدينه.

السائح : وأين الجمال في حبّك؟ إنّه في كلّ مكان عدا وجوه البغايا.

النحّات : من تعني؟

السائح (متحدّيًا)

أعني صاحباتك جميعًا. وأعنيها هي قبل الجميع.

النحّات (يبتسم بمرارة)

ستقابلها بعد قليل وترى أنّها...

السائح (مقاطعًا)

ماذا؟

النحّات : ما تزال عذراء.

السائح (يفتح فاه ويتراجع مشدوهًا)

النحّات (يبتعد عن السائح متوسّطًا الهيكل. تنطفئ الأنوار ناحية السائح حتّى يختفي. تغمر النحّات عتمة شفّافة يظهر خلالها كالشبح ، متابعًا بحركاته صوت الزمان)

صوت الزمان :

كلَّ يوم أدخلُ بها مخدَعَ حبّي
أقول لها :
من المهاوي السحيقةِ أتيتُ إليكِ
من جَوف الظُلماتِ العمياء
والكهوفِ الملأى بالبردِ والفزع
أحملُ غُربتي
وها أنا في أحضانكِ أُلقيها

دَعيها
تعانقْ غُربتَكِ الشقيقة
أيّتها الحبيبة!
أيّتها الغريبة!

نادي أبعاضي الموزَّعةَ في كلّ أُفق
إلى موعدِ لقاء
على عُريكِ

اِضطجعي تتكسّرْ كبرياءُ الشمسِ عليكِ!
تنسكبْ لانهايةُ السماء في عينَيكِ!
تستوِ هيبةَ الليلِ في فرعَيكِ
ينعقدْ قوسُ قُزَحٍ على راحتَيكِ!

أو انْهَدي تنسحقْ روعةُ الذُرى على نهدَيكِ!
أو موجي يتدفّقِ البحر في عِطفَيكِ!

أو ارقصي ترقصِ العطور
وتطلعِ الزهور
تحت قدمَيكِ!

وأُحبُّ قُولي يغرِّدِ العصفور

على شفتَيكِ

أو اطوي عليّ جناحَيكِ
وأطفئي السراج
أحملك أو تحمليني
عبرَ السرير
الوثير
في عاصفٍ مجنونٍ
يطوي بنا القفار
ويزرعُ الدمار
يُجفِّلُ الذئاب
في الغاب
يُنكِّسُ الصقور
صَرعى على الصخور
يُهدِّمُ القِباب
يُجرِّحُ السحاب
يُشرِّدُ النجوم
يُمزِّقُ السدوم !...

لعلَّ ما يهديني
إلى قرارِ حنيني
بالثلجِ يغمرُ شكّي
وبالشموسِ يقيني...

النّحات (يكون قد ارتمى أرضًا دون أن يعي. يدور ببصره – وقد عاد الضوء – إلى السائح ، ثمّ ينهض على مهل صوبه ويكمل مخاطبًا نفسه)
لعلّي أجد ذلك الشيء.

السائح : وما هو؟

النحّات : الشيء الذي حطّمت لعبتي بحثًا عنه ، فجاءت أمّي وضربتني. وللمرّة الأولى عرفت معنى الكفر.

السائح : ولكنّك كنت طفلاً ، وكانت لعبتك الأولى. واللُّعب الأخرى؟

النحّات : كلّها حطّمتها. اِسمع ، يا صديقي ، شيء مُضحك مبكٍ. الفيلسوف القذر حمل مصباحه في أسواق أثينا بوجوه الملوك ، وأنوف الفلاسفة ، وذقون الكهّان. وأنا أطوف بقبلاتي – مصباحَ ديوجين – بأعضاء امرأة. كلّ عضو من أعضائها وكلّ قنّة أو حنية. تظنّه هي عبثًا من عبث المحبّين. تتفلّت مغتبطة ، وتتهرّب مستسلمة. أتوقّف طويلًا وراء أذنها ، أو عند خصلة من شعرها ، أو عند الصغرى من أصابع قدمها. يُخيّل إليّ أنّ هذا الخنصر البضّ ، الطريء ، الحيي – من يدري؟ ربّما كان حُقًّا سحريًّا أجد فيه ذلك الشيء ، فأهوي عليه هويًّا.

السائح : ألم تجده؟

النحّات : لو وجدته لما كنت أُعيد الطواف من البداية.

السائح : كم تدلّل المرأة التي تحبّ !

النحّات : أجل ، لا أملّ تقبيلها.

السائح : ومع ذلك لم تجد ذلك الشيء؟

النحّات : لو وجدته لاكتفيت بقبلة واحدة.

السائح (ينظر إليه ساكتًا)

النحّات (مكملًا)
أما قلت لك إنّها ما تزال عذراء؟

السائح (يقطّب حاجبيه ، لا يفهم)

النحّات (مستأنفًا)
لذلك ما أزال أحمل مصباحي وقبلاتي ، متابعًا الطواف والبحث.

السائح : في البيت؟

النحّات : وفي كلّ مكان. أما قلت لك إنّني أحبّ حتّى الخيانة؟
(بعد فترة سكوت)
أنا أبارك الخيانة وألعن الأمانة. في الأمانة الخيانة ، وفي الخيانة الأمانة.

السائح : كيف؟

النحّات : ذلك الشيء... ذلك الشيء.

السائح : ما له؟
النحّات : من أجله سللت الضلع الأولى من صدري .
السائح : ولماذا سللتها؟
النحّات : كنت أعاني أعظم مآسي حياتي .
السائح : وما هذه المأساة التي دفعتك إلى تمزيق صدرك؟
أثروة لك ضيّعتها؟
النحّات (يهزّ برأسه سلبًا)
السائح : أبيت لك احترق؟
النحّات : لا !
السائح : أعرش تقوّض؟
النحّات : ولا هذا .
السائح : أعزيز فقدته؟
النحّات : لا . لا .
السائح : وما تلك المأساة التي يهون عندها كلّ ذلك؟
النحّات : هي كلّ ذلك معًا ولا شيء منه .
السائح : وما هي؟
النحّات : (يعقد يديه على المطرقة والإزميل فوق صدره ويحدّق في الغيب)
السائح (يتراجع بخشية)
النحّات (يصرخ بوجه السماء)
إنّه أوّل إله صنعته !
السائح : ولماذا صنعته؟
النحّات (لا يلتفت إليه. متابعًا صراخه)
لأتخلّص من وحدتي !

(يقع على الأرض. يتأمّله السائح هنيهة ، ثمّ ينحني إليه لامسًا كتفه برفق. يفتح النحّات عينيه ويسرّحها في أنحاء الهيكل)

السائح : بِمَ تفكّر؟
النحّات : بالآلهة التي صنعت .
السائح : آآلهة كثيرة صنعت؟
النحّات : عدد شهواتي وآمالي ، ومطامعي وأحلامي .
السائح : ما أروع ما كانت !
النحّات (يلتفت إلى السائح بفضول)
ماذا تقول؟
السائح : أريد أن أقول : ما أروع ما كانت قبل أن تتحطّم !
النحّات (يصرف وجهه عنه)
لو ترى روعتها قبل ذلك !
السائح : متى؟ لقد كانت قبل ذلك في المقلع .
النحّات (يخفض بصره إلى الأرض)
هو كما تقول .
السائح : يا لَجبروت مقلع تُقطع منه هذه الحجارة الهائلة !
النحّات : أعظم المقالع بين الأرض والسماء .
السائح : بنفسي أنا أشاهده . أبعيد هو من هنا؟
النحّات : أقرب ممّا قال لك الترجمان .
السائح (يبدو عليه السرور)
النحّات : وأبعد ممّا تظنّ .
السائح : وكلّ هذا الذي أراه...
النحّات : من مقلع واحد . كلّ يوم أقصد إليه فيولني . ما أدخل حتّى تنهال عليّ حجارته من كلّ صوب . كم من مرّة كادت تسحق يأفوخي وتطحن عظامي ! حجارة من كلّ حجم وشكل ولون . أرفع بصري فيُخيّل إليّ أنّ السماء تضرب بها الأرض ، وأخفضه فالأرض تقرع بها باب جهنّم . وأحار بينها ما أختار . دعني أضحك أو أبكي .
السائح : لِمَ الضحك؟ ولِمَ البكاء؟

(تعود العتمة إلى الهيكل . بروق ورعود ، خلالها أشباح تتوالى)

صوت الزمان :
أنظرُ إلى أُلوفِ النفوس
مُسرَجةً بأعناقها إلى هذهِ الحجارة
الجبّارة
تحت العواصفِ والشموس

وأسمعُ صفقَ السياط على الجسوم
ترتفعُ حتّى تلفُّ النجوم
وتهوي لترتدَّ بمِثلها شررًا يتطاير
ومِزَقًا تتناثر...

تتقطّع السلاسلُ في الصفوف
فتنعقدُ الأيدي بالكُتوف
أو تنزلُ الحتوف...
خلالَ الزئيرِ والسبابِ والعواء
والبكاء
ترتجُّ بها الأجواء
تُرجِّعها الأصداء
قهقهاتِ سماء

ونُصبَ عينيَّ العيونُ شظايا
في الأحداق
والزبدُ دمٌ في الأشداق
والجباه
تُعانقُ التراب
تُناطحُ السحاب

إلى الهيكل!
إلى الهيكل!
بين دقِّ الطبول
قد أذَعنا الخبَر
ونَفخنا النفير
في السحَر

كَفكِفي يا دموع
شَعشِعي يا شموع
ويا جوانبَ الهيكل
دوّي بالأناشيدِ والزمور
وموري بالبخور
قد حملَ إليكِ البرايا
وحطّوا عن الصدور
أثقالَ الخطايا!...

(سكوت. تُضاء الأنوار)

السائح: أيّ ملحمة تلك بين الملاحم!

النحّات (يلهث، يرفع كفّه إلى جبينه ويستأنف حديثه الأوّل)
ثمّ أنظر إلى نفسي وأنفض غبار الطريق.
(يضع سبّابته بين أسنانه مفكرًا)
ماذا أصنعُ من هذا الحجر؟
حجرَ الأساس أُثبتُ به الأرض فلا تميد؟
أم حجرَ الزاوية تنصبُّ عليه السماءُ فلا تحيد؟
أم قنطرةً يتّكئُ عليها قوسُ قُزَح؟
أم أُنمنمُه زهرةً؟
أم أُدلّيه عنقودًا؟
أم أُطلعُه من الغاب أسدًا مزمجرًا؟
أم ثعلبًا؟ أم نعجةً؟

أم أُحوِّمُه جناحًا في الفضاء؟
أم أُكوِّرُه ثديَ عذراء؟
أم أبسطُه فخذَ مومسٍ على الغبراء؟
أم أُصلتُه سيفَ جلّاد؟
أم أُجندلُه رأسَ ضحيّة؟
أم أنقرُه جرنًا لدموعِ التائبات؟
أم أفتحُه كتابًا للصلوات؟
أم أصوغُه درعَ بطلٍ في الوغى؟
أم أُجرجرُه صدرَ أسيرٍ على الحصى؟
أم أرفعُه صولجانَ مُلك؟
أم أنصبُه ميزانَ عدل؟
أم أُزركشُه مهدًا؟
أم أحفرُه قبرًا؟
أم أرصفُه درجًا إلى الشمس؟
أم أحطُّه دركًا إلى الجحيم؟

أم أتناولُه بذراعيَّ وأرمي به وجهَ الأُفُق؟
أم أستلُّ روحَه وأُسوّي منه إلهًا؟!...

السائح (يرافق أنظار النحّات في الأبعاد)
وأيٌّ هو الإله الحقيقيّ؟

النحّات: دائمًا هذا السؤال! لم أسمع غير هذا السؤال!

السائح: ما دمتَ أنت صانعَ الآلهة جميعًا، فلِمَ لا تُجيب؟

النحّات: كلّهم حقيقيّون.

السائح: عجيب!

النحّات: وكلّهم مزيّفون.

السائح: كيف يستقيم هذا؟ ولماذا لم تصنع إلهًا واحدًا؟

النحّات: والآخرون؟

السائح: تدعهم حيث كانوا.

النحّات: لو استطعت لفعلت.

السائح: وما منعك؟

النحّات: أما قلت لك إنّ الحجارة تنهال في المقلع انهيالًا؟ لو لم أُخرجها منه لاختنقتُ.

السائح: آمالك وأحلامك التي كنت ترثيها؟

النحّات: كلّ خطرات فكري ونزوات قلبي.
(يهزّ برأسه. وفجأة يضحك)

السائح: تضحك وتبكي، ولا أعرف سببًا لضحكك ولا لبكائك.

النحّات: ولا أنا أعرف... لقد سألتني أيّ آلهتي هو الحقيقيّ.

السائح: ولم تستطع الجواب.

النحّات: ولكنّي أقول لك من هو أحدثها.

السائح: أيّها؟

النحّات: مارد ذراعاه تسعان الأرض وتطالان السماء.

السائح: من أين جئت بالحجر الذي صنعته منه؟
ينبغي أن يكون هائلًا في حجمه!

النحّات: من المقلع نفسه. لكنّه أضألها جميعًا.

السائح (يفتح عينيه استغرابًا)

النحّات: ربّما تخفّى بالتراب، أو علق بالثياب، أو طار في السحاب.

السائح: عجيب!

النحّات: حتّى لا تمسّه يد، ولا تأخذه عين.

السائح: وكيف اهتديت إليه؟

النحّات: يتّفق لي، بعد نفض يدي من إله صنعته، أن أستلقي على الأرض مديرًا له ظهري وأحدّق إلى السماء طارحًا عليها سؤالي: أين ذلك الشيء؟ فلا تجيب. إنّ سكوتها يحفر في نفسي فراغًا هائلًا أدور فيه كالغريق في دوّامة، وكأنّ كلّ ما صنعته من آلهة قد شُدّ إلى عنقي أثقالًا، وكأنّ المقلع من حيث هو قد أُطبق عليّ. كم من مرّة هتفت: تُرى، لماذا وُجدت؟

السائح: هو التعب.

النحّات: بفضله أذوق الراحة.

السائح: الألم؟

النحّات: لولاه لما عرفت اللذّة.

السائح: الخيبة؟

النحّات: هي التي تبعث فيّ العزم.

السائح: العجز؟ لعلّك تفكّر بالحجر الذي وقعت تحته في الطريق وتخلّيت عنه.

النحّات: لا. وإن كان طيفه لا يفارقني.

السائح: وما ذلك الشيء الذي هو أثقل من التعب والعجز، وأمضّ من الألم والخيبة؟

النحّات (يرخي ذراعيه)
الضجر.

السائح: وكيف كنت تخرج منه؟

النحّات: في انهماكي بصنع الآلهة، أو يُخيّل إليّ، لأنّه وراءها جميعًا.

السائح (سائلًا)

وفي عبادتها؟

النحّات: العبادة تعيدها كلّها حجارة على صدري.

السائح (ناصحًا)

عليك أن تخرج منه بوسيلة ما. من الضجر إلى الضياع خطوة.

النحّات: هممت بها وأوشكت، لولا أنّني تعثّرت.

السائح: بماذا؟

النحّات (يرفع ذراعه صوب الأعمدة الستّة)

بكبريائي. قد يحطّم الدهر كلّ آلهتي، ولكنّه لن يقوى على هذا. ولو أنّني تمنّيت ذلك أحيانًا من كلّ قلبي.

السائح: اليأس؟

النحّات: ما أعانيه أشدّ وأدهى.

السائح: هل أشدّ من اليأس وأدهى؟

النحّات: أتعرف أين أعيش في هذا الهيكل؟ تعالَ وانظر.

(يأخذ بذراع السائح ويمشي به بين الخرائب، حتّى يواجهها عمود جبّار منحنٍ)

النحّات (مشيرًا إلى العمود)

هنا.

السائح (يقيس العمود بنظره علوًّا وسفلًا، ثمّ يتراجع كأنّه يخشى أن يسقط عليه)

أليس هو العمود الذي وضع عنه علماء الآثار كتابًا؟

النحّات: لم أقرأه.

السائح: منذ كم يقف وقفته العجيبة؟

النحّات: منذ الأزل.

السائح: وإلى متى؟

النحّات: إلى الأبد.

السائح: ألا يمكن تقويمه؟

النحّات: أحاول ذلك كلّ يوم.

السائح: ولكنّه يهدّد بالسقوط.

النحّات: أحاول كذلك إسقاطه كلّ يوم.

السائح: لماذا؟

النحّات: لو سقط لأراحني.

السائح: كأنّه يترجّح بين السماء والأرض.

النحّات: الأرض تفتح له ذراعيها، وتشدّ السماء بناصيته.

السائح: مِن هذا ما أرى فيه من تمزّق.

النحّات: ليتك ترى عذاب روحه، وتسمع حشرجة قلبه!

السائح: هل رأيت أنت وسمعت؟

النحّات: عندما تزمجر العواصف، وتقضقض الزلازل، ما أكثر ما رأيته يصارعها وسمعته! وعند كلّ تجربة كنت أقول: حانت النهاية.

السائح: ومع ذلك...

النحّات (متابعًا)

ملء عينيّ شبحه تحت الأهوال يميد ويتمطّى صوب الشمس يريد أن يعانقها عناقه الرهيب ويغيّبها معه. وملء أذنيّ أنّاته تتردّد في أحشاء الليل.

السائح: ومع ذلك صمد.

النحّات: يطلع الصباح، فتضحك له الشمس ويضاحكها. ويعود المساء فيلفّ عريه بأنسامه مداعبًا.

السائح (يتأمّل العمود مستغرقًا)

النحّات: لا أخاف عليه الزعازع والزلازل والبراكين بمقدار ما أخاف الهدوء.

السائح: كيف؟

النحّات: أكون مضطجعًا على قاعدته أحلم أحلام النهار، أو دائرًا حواليه على نفسي – وهذا معظم شأني معه – أو ملصقًا خدّي بخدّه البارد، فأُجفل فجأة.

السائح: ماذا؟

النحّات (متابعًا)

وكأنّ تكسّر عظامه في أضلاعي.

السائح (يتراجع بخوف)

حصاة تحت قدمه تزلّ.

النحّات : أو شقّ في روحه.

السائح : مهما يكن فالحكمة تقضي بأن تظلّ بعيدًا عنه.

النحّات : في ظلّه وُلدت.

السائح : عليك أن تهرب.

النحّات (متابعًا)

وفي ظلّه أموت.

السائح : أُهرب! أُهرب!

النحّات (يبتسم بمرارة ويتقدّم كاشفًا عن عنقه)

أُنظر.

السائح : جراح تنزف!

النحّات : حزّة الحبل الذي يربطني بهذا العمود.

السائح : اِقطعه!

النحّات : كلّت المطرقة في يدي، وحني الإزميل.

السائح (متابعًا)

بأسنانك!

النحّات : جرّبت كما جرّب صاحبي كديش البئر، ثمّ عدت أدور.

السائح : وكيف يكون خلاصك؟

النحّات : أشدّ به صعودًا لأنصبه بوجه السماء...

السائح : وإذا لم تستطع؟

النحّات (متابعًا)

... أو نزولًا فألقمه الأرض.

السائح : وإذا لم تقدر على هذا ولا ذاك؟

النحّات : بينهما كلّ شقائي!

السائح (كمن تذكّر شيئًا)

والإله المارد الذي حدّثتني عنه؟

النحّات (كالملسوع)

لماذا تعود لذكره؟

السائح : أريد أن أسألك : ألا يأتي لنجدتك؟ ألم تقل لي إنّه أعظم آلهتك؟

النحّات (يتلفّت إلى الفضاء في كلّ ناحية مذعورًا، وكأنّه يخاطب نفسه)

أجل!

السائح : لم تقل لي ما اسمه.

النحّات (يغطّي رأسه بذراعيه كأنّه يدرأ خطرًا داهمًا)

السائح : ما بك؟ للمرّة الأولى أراك هكذا. يُخيفك؟

النحّات : هو.

السائح : أما أنت صنعته بيديك؟

النحّات : وما يزال بين يديّ أقلّبه.

السائح : إذن؟

النحّات : كشأني مع سائر الآلهة التي صنعت. يحلو لي أن أطيل الوقوف بوجهها، متأمّلًا، فخورًا. ثمّ أدنو وأمرّ عليها بأطراف أصابعي كأنّما أنا أداعب روحًا.

السائح : روحك التي وضعتها في الآلهة جميعًا.

النحّات (متابعًا)

كأنّما أنا أداعب امرأة حيّ.

السائح : أجميل هو؟

النحّات (متابعًا)

أو كرسيّ حكمي.

السائح : إنّه إذن ذو سلطان؟

النحّات : أو كأنّما أدير دينار ثروتي بين السبّابة والإبهام مستعرضًا ما أطاله به في طول الدنيا وعرضها.

السائح : وذو مدى؟

النحّات : لا حدود له. ولذلك لا أجرؤ على إطلاقه. مرّة واحدة أطلقته، كالمارد من القمقم!

السائح : إلى أين؟

النحّات : أترى كلّ هذه الآلهة؟ لقد أريتك حزّة الحبل الذي يربطني إلى العمود. أنا أيضًا أربطها من أعناقها بحبال أطرافها في قبضتي. أمدّ لها، وهي تجرّني إلى وعودها. فإذا تعبتُ أو سئمت، شددت إلى صدري أعيدها وهي تتمنّع. تقول

لي : اِمشِ حيث أريك ذلك الشيء ، كنزك الذي تبحث عنه ، وأضعه في حضنك. ولكنّي أعرف كذبها. كلّها كذب عليّ ألف مرّة. فألوي عنقه.

السائح : وإلهك المارد حينما أطلقته ، هل كذب هو الآخر؟

النحّات : يا ليت! بل صدق ، وكان صدقه أفظع كذب رأيته في حياتي!

السائح : كيف؟

النحّات : أرسلته يزرع الموت والدمار في الأعداء ، ولمّا عاد إليّ بالبشرى أقمت لظفري أعيادًا وشربت أنخابًا. ثمّ نظرت فإذا أنا أشرب دمي... ومع ذلك ما يزال يُغريني.

السائح : إنّه مخاتل خائن. لن تقع في حبائله مرّة أخرى ، أليس كذلك؟

النحّات : ذات يوم حملني في نزهة إلى فوق. فوق! لقد كانت رائعة! رائعة!

السائح : وما رأيت فيها؟

النحّات : أوّل ما رأيت هذه الأرض التي كنت أعدّها أرحب مساكني.

السائح : كيف رأيتها؟

النحّات : كالكرة في كفّي وأنا طفل ، أو كالقفص الذي فيه روحي منذ وُجدتُ.

السائح : ثمّ ماذا؟

النحّات : النور بهر عينيّ من كثرة عوالم النور.

السائح (سائلًا)
القمر؟

النحّات : والكواكب التي لا عدّ لها ولا حصر.

السائح : وعدك بالوصول إليها؟

النحّات : كلّها. وإلى ما هو أبعد منها.

السائح : وماذا أبعد؟

النحّات : النجمة التي لمّا يصل نورها إليّ.
(يجمد ناظرًا إلى السماء)

السائح (يعلّق به بصره)

النحّات (يستأنف وهو ما يزال مأخوذًا)
ذلك النور أريد أن ألاقيه! لعلّي أجد فيه ذلك الشيء ، فأملأ الفراغ الآخر في نفسي.

السائح : الفراغ الآخر ، أأقوى من الضجر هو؟

النحّات : إنّه قاتله.

السائح : ومن اليأس؟

النحّات : لقد تغلّب عليه مرارًا.

السائح : ومن القلق الذي تعيش في ظلّه نهارك وليلك؟

النحّات : إنّه صديقه الأمين ورفيقه الملازم.

السائح : وما هو؟

النحّات : من هم الذين قالوا إنّني مخلوق على صورة الله؟ كذبوا!

السائح : كيف؟

النحّات : إنّما أنا مخلوق على صورة علامة الاستفهام.

السائح (يهمّ بالضحك)

النحّات (متابعًا)
أنا السؤال.

السائح : وما جوابك؟

النحّات : ذلك الشيء.

السائح : وكيف تصل إليه؟

النحّات : بالفضول. بالشوق والتوق.

السائح : الفضول؟ هو طريق لا نهاية له.

النحّات : طريق المعرفة.

السائح : وهو حافل بالمخاطر.

النحّات : الخطر هو الحبل الذي أمشي عليه في طريقي. بهلوان الكون أنا.

السائح : وأين أنت من هذا الطريق؟ أتعرف الخير والشرّ؟

النحّات (يأخذ بيد السائح ويقصد به إلى كومة من الحجارة. يشير إليها)
هنا كان الباب الأعظم.

السائح : الباب الذي يفصل الأرض المقدّسة عن

الأرض المدنّسة.

النحّات: الخير عن الشرّ.

السائح: أرى أنّه استحال خرابًا وضاعت معالمه!

النحّات: أنا هدمته بيدي.

السائح: لماذا؟

النحّات: لقد أقمت على هذا الباب حرّاسًا أمناء، وسلّحتهم بأمضى الأسلحة، ووضعت في أيديهم كتبًا مدوّنًا فيها، بأدقّ التفاصيل وأدلّ الأسماء، كلّ عمل من أعمال الخير والشرّ، وكلّ خطرة في فكر، أو نزوة في قلب. وقلت لهم: لا يدخل من هذا الباب إلّا الخير من الأعمال والنيّات والرغبات. أمّا الشرّ فيُطرد خارجًا.

السائح: وهل خان حرّاسك الأمانة؟

النحّات: لا.

السائح: إذن؟

النحّات: كنت أنظر داخل الهيكل فإذا الشرّ قد سبق الخير إليه.

السائح: كيف؟

النحّات: يتخفّى بثياب صاحبه.

السائح (يفتح عينيه مستغربًا)

ألا يحسّ به صاحبه؟

النحّات: سمعته ألف مرّة يقول له هازئًا بالحرّاس: دعهم وكتبهم وأسلحتهم. أنت تعلم أنّني لن أدخل إلّا وأنت معي. وسمعت الشرّ ألف مرّة يضحك في عبّ صاحبه.

السائح: يتآمران! وكيف يرضى الخير بذلك؟ وكيف يرضى الشرّ أيضًا؟

النحّات: هنا السرّ. لقد حاول كلّ منهما ألف مرّة أن يتخلّص من صاحبه ولكنّه كان يعود إليه كلّ مرّة نادمًا.

السائح: علامَ الندم؟

النحّات: كشفا ذات يوم فرأيا أنّهما أخوان سياميّان!

السائح: ولذلك هدمت الباب؟

النحّات: بعد أن اتّضح لي أنّه لا يفصل شيئًا عن شيء.

السائح: وحينئذٍ...

النحّات: تركت الهيكل بلا باب، يدخله من يشاء.

السائح: إنّني أتصوّر الفوضى زحامًا وقتالًا ووطءًا بالأقدام.

النحّات: حتّى لتحدّثني نفسي أن أطلق المارد، فيعيد الوجود عدمًا.

السائح (سائلًا بذعر)

تقتل نفسك بيدك، وتهدّم الهيكل على رأسك؟

النحّات (يدني يديه ويتأمّلها. تزيغ عيناه. يصرخ)

ولكن يديّ، هذه... وهذه، ليستا يديّ. مَن قطع يديّ الاثنتين وركّب مكانهما هذه الآلة... وهذه الآلة؟... آلات! آلات! لقد أكلت الآلات يديّ ورجليّ وأعضائي كلّها. سلسلة لا أوّل لها ولا آخر من الآلات! وكلّها، كلّها صنعتها بهذه المطرقة وهذا الإزميل.

(يضحك بمرارة مقلّبًا المطرقة والإزميل)

السائح: ولماذا صنعتها؟

النحّات: آلة صغيرة للخدمة.

السائح: وما هي الخدمات التي أدّتها؟

النحّات: هذه الأشياء التي تستمتع بها حواسّي والتي اسمها الحضارة... يُخيّل إليّ أحيانًا أنّ لتلك الآلات روحًا. فهذا الضجيج الذي لها أعرفه من داخلي.

السائح: أليست هي الروح التي أعطيتها إيّاها أنت؟

النحّات: وأنّني أنا بلا روح!

السائح: روحك، لماذا لا تستعيدها؟

النحّات: لقد توزّعت في ألوف الآلات التي تحوّم فوق رأسي وتسدّ عليّ منافذي. تطلّ من فوق الهواء ومن تحت الأرض ومن كلّ مكان، وكأنّها تحدّجني بألف عين وتسخر منّي.

السائح: أنت إذن تعيش...

النحّات (مقاطعًا)
كيف يعيش من لا يملك روحه؟
(يضحك طويلًا ساخرًا من نفسه. ثمّ يتابع)
كلّ يوم ينتصب المارد أمامي ويقول لي: اطلب ما تشاء. أنت تعلم أنّ ذراعيّ تسعان الأرض وتطالان السماء وأنّني قادر على كلّ شيء. وهو يكذب! يكذب! أنا أعلم أنّه يكذب عليّ كما كذب الآخرون... ذلك الشيء! ذلك الشيء! إنّما أريد أنا ذلكِ الشيء، ولا أريد شيئًا سواه.
(يركض ذهابًا وإيابًا كالمجنون. يتراجع السائح من خوفه تاركًا النحّات وحده وسط الهيكل. النحّات يصرخ بوجه السماء)
أين هو؟ سألتك أيّتها الآلهة للمرّة الأخيرة: أين هو؟ أين هو؟
(يتردّد صدى صراخه رعودًا في أنحاء الهيكل. تسود العتمة)

صوت الزمان:
لقد كفانا ما أطعمناها
حبّاتِ القلوب
فأتخمناها
وما سقيناها
دموعَ العيون
فأسكرناها
وأعميناها!

وما عفّرنا على أعتابِها الجباه
ومسحنا الشفاه
وقرعنا الصدور
ونحرنا الضحايا
وسفحنا النفوس
في الكؤوس
وأحرقناها
في مجامرِ البخور!...

والشمسُ والقمرُ يدوران
في الفلَك
ما يفتآن
يضحكان
ويسكبان
الحلَك!

والليلُ والنهار
يطويان
على الأوار
الأعمار!

والأقدار
خُرْسٌ لا تُجيب
بغيرِ الصواعقِ في الحوار
العجيب!...

النحّات (ما يفتأ يروح ويجيء كالشبح في الظلام)
أسمعُ وَطْءَ الأقدامِ الغليظةِ في قلبي.
في فمي الموتُ، ورائحةُ النتنِ تفورُ منّي!
ألا تصلُ إليكِ أيّتها السماء؟...
العاصفةُ تولولُ! تزغرد!
تلفُّ عمودَ الفَلَكِ وتميدُ به!
ها هو يعانقُ الشمسَ ويلوي بالنهار!
فليغبْ نهارٌ هو كابوسٌ على صدري،
ولينجلِ ليلٌ تعشّشُ خفافيشُه في أضلاعي!

صوت الزمان:
شاهدةٌ أنتِ أيّتها السماء:
في صدرِ الأرضِ أسرارٌ طالَ عليها الكتمان
فلتنطقْ بها الزلازل
ولتُفجِّرْ أحقادَها البراكين!

لتندكَّ الأركان
ولتأكلِ النيرانُ الشرائعَ والأديان
وتتمزّقِ الأقنعة!

لتنقلبِ المهودُ قبورًا
والقبورُ مهودًا
وإلى ينابيعها فلتعدِ الأنهار!

فلترتعدْ فرائصُ القُطبَين
ولتصطكَّ الكواكب
وتسّاقطِ الشهبُ فحمًا ودخانًا!

لتمتْ قبلاتُ المحبّينَ على شفاهِهِم
وتختنقْ أغرودةُ العصفور!

شاهدةٌ أنتِ أيّتها السماء:
طال ما اشتاقت الأوديةُ إلى لقاء الجبال
فلْترتمِ الجبالُ في أحضانها!
وطال ما تحرّقتِ القفار
عطشَ الأزَل
فلترحفْ إليها البحار
تُنبتْ أزهارًا ليس لها اسم
وثمارًا طعمُها العدم...
ولتصفعِ اللعنةُ وجهَ الصباح!...

النحّات:
أيعجبكِ هذا، أيّتها السماء؟
ويُكلّفني ماذا؟ أن أمدَّ يدي.
ولكنّكِ تعلمين أنّها ليست يدي - هذه - ولا أنا
أحسّها منّي. وشاهدةٌ أنت أنّني باليد الأُخرى
أُداعب طفلًا يناغيني وأُغنّي له أغنيةً حلوة...
بريءٌ أنا أيّتها السماء!
لا تتّهمي!
الخطيئة ليست خطيئتي! ليست خطيئتي!...
ماذا؟ أتضحكين أيضًا؟!
أثقالُك على رأسي وتضحكين؟!
اِرفعي اثقالَك عنّي. اِرفعيها!
أو أطبقي بها عليَّ، ما أُبالي!
ما أُبالي!
ليس الشيءُ أن أكونَ أو لا أكون.
الشيءُ - ذلك الشيءُ - أن أخرج من حدودِ
نفسي!
أيّها الإله المارد، أين أنت؟!
(سكوت... بروق تتوالى... تنفجر القنبلة النوويّة.)

٣- الرجوع

بربِّكَ أيُّها الفَلَكُ المُدارُ!

ابن الشبل البغداديّ

قد لا يكون الإنسان على شاكلة الأشياء. وقد لا يكون إطلاقًا. فما دام موضوع تساؤل وشكّ، وما دام في مهلة وتأجيل، فعليه أن يصنع نفسه أبدًا.

جان بول سارتر

(ينقشع الظلام شيئًا فشيئًا. يظهر الهيكل وقد خيّم عليه العدم. لا نرى إلّا الأنقاض التي فارقتها المعالم، ولا يُسمع صوت الحياة.

تمضي برهة طويلة.

فجأة تنبثق أنوار من الأعمدة الستّة، وهي تبدو من بُعد كأنّها معلّقة. تطلّ من خلالها امرأة في غلالة بلون الفجر، تصحبها موسيقى ناعمة. تداعب المرأة بيديها الأعمدة وترفع إليها أبصارها متابعة بإعجاب ذهابها في السماء. ثمّ تعانق أحدها ما استطاعت، وتجثو ممرّغة وجهها بقاعدته. تنهض وتعيد الكرّة موزّعة بين التضرّع والإغراء. تمدّ ذراعيها محاولة احتضان العمود وتشدّ بكلّ قواها. ثمّ تلصق شفتيها به، فيما تصحبها الموسيقى بأنغام الحبّ.

تطول القبلة. وعلى نغمة خافتة من الموسيقى ودفقة من النور ترفع المرأة برفق قدمًا حافية. ثمّ تُقبل راقصة بين الأعمدة، وكأنّها ترقص لها. يلحق بها على الأثر، متحلّقًا حولها، سرب من الراقصات يحملن سلالًا. يرقصن جميعًا على أنغام الموسيقى.)

صوت الزمان:

تبلّجَ الصباح
ومزّقَ الظُلَم
وشمخَت تختال
بعُريِها القِمَم

ونقّرَ العصفور
في كرّةِ النغَم
أحلامَ حبٍّ جديد
مِلءَ المدى
يردُّها الصدى
بطيّباتِ العيد
والمواعيد
في مُنحنى الجبل

وماجتِ المروج
بالوهجِ والعبير
تعانقُ النضوج
وتسبقُ الأمل

على فمِ العنقود
للطفاح
خمرُ الغدِ الموعود

وفي الذرى النجوم
قد طلعت تحوم
تبرعمت ورود

تفتّقت أقاح

وفي الغدير
النمير
تناثَر التفّاح
يوقّعُ القُبَل
ويُرقِصُ الأرواح
في رعشةِ الأزل.

(ينفرط عقد الراقصات متواريات بخفّة من كلّ صوب. يظهر السائح في أحد جوانب الهيكل يتبعهنّ بأبصاره وكأنّه يريد اللحاق بهنّ. ثمّ يرجع كالمستفيق من حلم، فإذا شخص قد انحنى على الأرض وفي يديه بيكار يرسم به. يدور السائح حوله متأمّلًا قيافته الغريبة)

رجل المرّيخ (عملاق ليس هو بالعاري ولا الكاسي. له جسم مصبوغ بلون الذهب وعلى حقويه زنّار أزرق مرقّش بنجوم. يحسّ بوجود السائح فيستدير إليه هاتفًا)
حيّاك الله!

السائح: حيّاك الله!

رجل المرّيخ: لعنك الله!

السائح: لعنك الله!

رجل المرّيخ (بهدوء)
أإنسان أنت أم صدى؟

السائح (غاضبًا)
النحّات! أين النحّات؟

رجل المرّيخ: في ثيابك، وتسألني عنه؟

السائح (يرتبك متلمّسًا نفسه. وبعد قليل)
وأنت، من أنت؟

رجل المرّيخ: سفير إلى كوكبك.

السائح: ومن أين أتيت؟

رجل المرّيخ: من كوكبي.

السائح: وما سبب مجيئك؟

رجل المرّيخ: الشوق إلى التعرّف إليك. وأنا أعرف أنّك تبادلني إيّاه. أفما وعدتني بالمجيء إليّ؟ وبينما أنا في الانتظار إذا بي أسمع على الأرض ضجّة تجاوبت أصداؤها بين الكواكب. فعقد جماعتي مؤتمرًا وقرّروا إيفادي إليك.

السائح: والنساء اللواتي رقصن منذ هنيهة؟

رجل المرّيخ: إنّهنّ في مخدعك.

السائح (باستغراب)
في مخدعي؟

رجل المرّيخ (يستأنف الرسم ببيكاره)
بعينيّ الاثنتين رأيتهنّ يخرجن منه وإليه يعدن.

السائح: وأين هو هذا المخدع الذي تزعم أنّه مخدعي؟

رجل المرّيخ: ستعرف أين هو عندما تعرف أين أنت.

السائح: وأين أنا؟

رجل المرّيخ: هذا هو السؤال الذي جئت أحمل إليك جوابه.

السائح: هاتِه.

رجل المرّيخ (يرسم ببيكاره بحركة جبّارة)

السائح (ينظر إلى الرسم)
دائرة؟

رجل المرّيخ: هيكلك الجديد.

السائح: ولكن، أين الباب؟

رجل المرّيخ: ليس لهيكلك الجديد باب.

السائح: من أين يدخل الناس ويخرجون؟!

رجل المرّيخ: هم فيه، فلا دخول ولا خروج.

السائح: وكيف يصلون إليه؟

رجل المرّيخ: وهو فيهم، فلا مجيء ولا ذهاب.

السائح: وما يصنعون؟

رجل المرّيخ: يدورون في الدائرة.

السائح: إلى نهايتها؟

رجل المرّيخ: ليس لها بداية ليكون لها نهاية.

السائح: وإلى متى؟

رجل المرّيخ: ما دارت الأكوان في الفلك.

السائح: حتّى يوافيهم الموت؟

رجل المرّيخ (يشيل بصدره كمن يهمّ بالضحك)

السائح: تضحك من الموت! أفي الموت ما يُضحك؟

رجل المرّيخ: بل من الإنسان.

السائح: ولكنّه يستحقّ الرثاء.

رجل المرّيخ: لأنّه يعتقد بالموت.

السائح: أليس كلّ ما وُلد مصيره الموت؟

رجل المرّيخ: إنّه لم يولد ليكون بالإمكان أن يموت.

السائح: ولكنّه موجود.

رجل المرّيخ: كلّ موجود كائن في الوجود منذ كان الوجود.

السائح: والولادة والموت؟

رجل المرّيخ: يحمل كلّ منهما صاحبه ويدوران في الدائرة.

السائح: منذ كم؟

رجل المرّيخ: منذ كانت الدائرة.

السائح: وإلى متى؟

رجل المرّيخ: ما دامت الدائرة.

السائح: والإنسان؟

رجل المرّيخ: يدور فيها من ولادة إلى موت، ومن موت إلى ولادة.

السائح: ألا يفنى؟

رجل المرّيخ: ليس مع الوجود فناء.

السائح: والبعث؟

رجل المرّيخ: إنّه فعل الوجود المستمرّ.

السائح: وكيف وُجدت الدائرة؟

رجل المرّيخ (يشير بإصبعه إلى وسط الدائرة) من هذه النقطة.

السائح: والنقطة؟

رجل المرّيخ: كانت في صميم الدائرة منذ الأزل.

السائح: والغاية من الوجود؟

رجل المرّيخ: ليس للوجود غاية خارجة عنه.

السائح: والموجود ما غايته؟

رجل المرّيخ: الدوران حول النقطة في نظام الوجود.

السائح: والخير والشرّ؟

رجل المرّيخ: الخير هو الخضوع لنظام الوجود. والشرّ هو التمرّد عليه.

السائح: وكيف يكون الخير. وكيف يكون الشرّ؟

رجل المرّيخ: الخير هو التوجّه إلى قلب الدائرة الذي منه نظامها. والشرّ هو التوجّه إلى خارجها. من هنا كان تمزّق الإنسان.

السائح: وكيف يفصل بينهما؟

رجل المرّيخ: بولادة جديدة.

السائح: أيعني ذلك أنّ على الإنسان أن يموت ويولد مرّة أخرى حتّى يفصل بينهما؟

رجل المرّيخ: ألف مرّة ومرّة.

السائح: في مدى كم من السنين؟

رجل المرّيخ: ليس في الدائرة تقويم للسنين ولا حساب للأعمار.

السائح: إذن هو لن يتوصّل إلى تخليص الخير من الشرّ أبدًا.

رجل المرّيخ: قادر هو على ذلك في كلّ لحظة.

السائح: كيف؟

رجل المرّيخ: كلّ توجّه إلى نقطة الدائرة موت بالخير وولادة جديدة. وكلّ توجّه إلى خارجها موت بالشرّ وولادة جديدة.

السائح: وما هذه النقطة العجيبة؟

رجل المرّيخ: هي ذلك الشيء. هي كلّ شيء. إنّها الفرح والراحة. الحبّ والحنان. الاطمئنان والأمل. الهناء والسلام. إنّها الخير كلّه لأنّها النور، والنور معرفة.

السائح: ومن أين يأتي الحزن والتعب، والبغض والقسوة، والقلق واليأس، والشرّ كلّه؟

رجل المرّيخ: من خارج الدائرة، لأنّ خارجها هو الظلمة، والظلمة جهل.

السائح: وكيف يستقرّ له الخير؟

رجل المرّيخ: باستقرار عينيه معلّقتين بتلك النقطة، لا يطرف له جفن.

السائح: إنّه جهد عظيم. أنا أتصوّر عذابه فيه.

رجل المرّيخ : في هذا العذاب وحده خلاصه .

السائح : وإذا عجز عن احتماله؟

رجل المرّيخ : قادر الإنسان على كلّ ما هو جدير به .

السائح : أهون من ذلك الصلب .

رجل المرّيخ : في سبيله كان الصلب أعظم غبطة المصلوب الأعظم . وفي سبيله واجه الأنبياء الاستشهاد مهلّلين .

السائح : لكنّه انفصال عن الحياة .

رجل المرّيخ : إنّه الاتّحاد بها ، في النقطة التي منها مصدر الحياة وإليها المآل .

السائح : أتريد من الناس كلّهم أن يكونوا شهداء؟

رجل المرّيخ : إنّهم يُستشهدون كلّ يوم في الضلال ، وأنا أطلب إليهم الاستشهاد في الحقّ .

السائح : إذا صحّ ما تقول بين الإنسان ونفسه ، فكيف يصحّ بينه وبين الآخرين؟

رجل المرّيخ : ليس للفرد وجود من دون المجتمع . وليس للمجتمع وجود من دون الفرد . الإنسان هو المجتمع . والمجتمع هو الإنسان .

السائح (سائلًا)

الأخَوان السياميّان؟

رجل المرّيخ : أجل ، في الخير والشرّ ، في الفرد والمجتمع . الأفراد فيما بينهم إخوة سياميّون ، والمجتمعات فيما بينها كذلك . قافلة تدور في الدائرة مربوطًا بعضها ببعض بنياط القلوب .

السائح : والحروب بين المجتمعات ، أي بين أمّة وأمّة؟

رجل المرّيخ : كالحرب بين الفرد والفرد . من قتل منهما الآخر فقد قتل نفسه أيضًا . لأنّ الإنسان واحد في الفرد وفي المجتمع .

السائح : والقتلى؟

رجل المرّيخ : يحملهم الأحياء جثثًا في أرواحهم .

السائح : ومصالح الأفراد فيما بينهم ، ومصالح الأمم فيما بينها؟

رجل المرّيخ : ليس للفرد مصلحة في غير مصلحة أمّته . وليس للأمّة مصالح في غير مصالح أخواتها . ولكنّ الأفراد يتوهّمون أنّ مصالحهم تختلف عن مصالح الآخرين ، والأمم تتوهّم أنّ مصالحها تختلف عن مصالح غيرها من الأمم . ولذلك تكون الحروب .

السائح : والحياد؟

رجل المرّيخ : وهْم الواهمين ، وخيانة تنقلب على أصحابها ، لأنّ كلّ موجود مسؤول عن نظام الوجود ، فإمّا أن يكون مع الخير ، وإمّا أن يكون مع الشرّ . وليس بين الخير والشرّ منطقة حرام .

السائح : وكيف السبيل الى وقف الحروب بين الأفراد ، والحروب بين الأمم؟

رجل المرّيخ : بوقف الحرب القائمة في داخل الإنسان ، فنها كلّ حرب .

السائح : السلام بين الإنسان ونفسه...

رجل المرّيخ : إنّه السلام الأوّل والأخير . ولذلك سيكون اسم هيكلك الجديد «السلام» .

السائح : ومن أين آتي بحجارته؟

(رعود وبروق . تعود العتمة . يختفي كلّ من السائح ورجل المرّيخ .)

صوت الزمان :

حجرُ العجزِ الذي بصقْنا عنده الدماء
وخلّيناه في الطريق
خلّينا عنده أمانينا
وتخلّينا عن ذلك الشيء وهو فينا .

«حجرَ الحبلى» سمّاه الجهل !
هل درى ما يتمخّضُ به الزمان؟
وأيّ مولودٍ سيضعُ في الأحضان؟

أعجوبةُ الأعاجيب
قدمٌ له على رأسِ الأهرام
والأخرى فوقَ طموحِ برجِ بابل !

قد أعددنا له أمراسًا لا تتقطّع
ضفرناها من أشعّةِ الشمس
من إرادةِ الإنسان!

ولنَعُدْ إلى المقلع
فصدرُه ملآن
بالحجارة
الجبّارة
لم تقعْ عليها العيون
ولا الظنون.

سنبني بها هيكلًا عاليًا
علوَّ النفوس!
يهزأُ بالعواصفِ والزلازل
وتنسحقُ فيه براكينُ الدهور
رمادَ بخور!

ونستلُّ أعمدةَ الحبِّ من الأحشاء
ترسو عليها السماء
وترفعُ أثقالَ البغضاء
عنِ الرؤوس!

ونحسو الكواكبَ والنجوم
حبابًا يحوم
ملءَ الكؤوس
في أيادينا!

نُديرها لنشوةٍ تدوم
بعد فناء الكروم
في أراضينا.

في وحدةٍ للوجود
لا تعرفُ السدود
ولا الحدود
موصولةِ الأجيال
مشدودةِ الآمال
مربوطةِ الآجال
بالخلود!

ونعبدُ فيه الإلهَ الجديد
منه انفطَرنا
ومنّا انفطَر
عنه انشطَرنا
وعنّا انشطَر.

عجولَنا المسمَّنة
من مراعينا!
خمورَنا المعتَّقة
من خوابينا!
وَلْتملإِ الأناشيد
أعالينا
بعَودِه السعيد!
فلا من حجَر
ولا من حديد
إلهُ البشَر.

رجل المرّيخ (يمشي بخطًى قويّة دافعًا السائح أمامه)

السائح (ممانعًا)

إلى أين؟

رجل المرّيخ: الحجر الذي تركتَه في الطريق...

السائح (يدير ظهره متهرّبًا)

رجل المرّيخ: والهيكل الجديد؟ والإله الجديد؟

السائح (ينظر إلى ساعته)

فيما بعد، فيما بعد. أنا على موعد هامّ الساعة.

رجل المرّيخ: مع عذراء الهيكل...

(يضحك بمرارة متابعًا)

... مومس الترجمان.

السائح: دعني! دعني!

(يشدّ بكلّ قواه حتّى يفلت من رجل المرّيخ ويقع على الأرض. يخرج رجل المرّيخ وحده يصحبه نورٌ باهر يضيء

له الطريق حتّى يتوارى. يبقى السائح فترة في ظلام يخفيه. يرتدّ النور إليه فإذا هو يحاول النهوض عن الأرض باحثًا عن آلة التصوير بيد، ومتفقّدًا جيوبه باليد الأخرى. يتناول محفظته فاحصًا ما فيها... يظهر الترجمان مقبلًا من أحد جوانب الهيكل وقد شكل عباءته بالعصا على كتفه. يثب السائح واقفًا، نافضًا ثيابه)

الترجمان: أرجو أن يكون سيّدي قد أصاب نصيبًا من الراحة في قيلولته. الطواف بالهيكل متعب مع هذا الحرّ. وقد أذنت لنفسي أن أترك سيّدي لمرافقة بعض الزائرين، وقلت أعود إليك بعد انصرافهم.

السائح (يفرك عينيه ناظرًا إلى المكان الذي خرج منه رجل المرّيخ. ثمّ ينظر إلى ساعته ويسأل الترجمان بلهفة)
نذهب إلى موعدنا؟

الترجمان (يبتسم ابتسامة ذات مغزى ويربّت على كتف السائح)
أجل. انتهت الزيارة داخل الهيكل.

(يمشي صوب الباب وخلفه السائح. يتراكض الصبيان أنفسهم، باعة الأشياء الشرقيّة والمصنوعات البعلبكيّة، وخلفهم جماعات المرتزقين. بعضهم إلى جانب جمال وحمير ألبسوها فاخر السجّاد والطنافس. وبعضهم يسوقون سعدانًا أو يلاعبون ثعبانًا، وآخرون يدقّون القهوة بالمهباج، وبصّارة برّاجة جلست تضرب بالودع... والجميع يسدّون الطريق على السائح متراحمين متصايحين... يرفع الترجمان يده مشيرًا إليهم بالابتعاد، فيتراجعون ويصطفّون منتظرين أوامره. تهدأ الجلبة)

الترجمان (يستعرض الجماعة بأنظاره. ثمّ، إلى السائح. منحنيًا باحترام)
اِنتهت الزيارة
فنحن رهن الإشارة!

(يتناوله من يده محاولًا الخروج به. يقف دونهما الباعة والمهرّجون)

جماعة الحمار:
•هل نركبُ الحمار
في نزهةٍ مختارة
نزورُ فيها الحارة؟

جماعة الجمل:
أم نعتلي الجمل
فنصعد الكثبان
ونهبط الوديان
نهدهد الأمل
ونلحق السراب؟...

جماعة السعدان:
أم نُرقص السعدان
فيفتل الذنَب
أحلى من الشنَب
ويعرض القفا
في حُمرةِ الخجل
يُعيرُها الخدود
لدى وفاء الوعود
وليس مِن وفا؟...

جماعة الثعبان:
أم نُخرجُ الثُعبان
من عبّنا المسحور
يُعانقُ الخصور
يُقبِّلُ الثغور
وينفثُ العسل؟...

جماعة القهوة:
أم نحتسي فنجانْ
من قهوةٍ عجَب
تدقُّ أيدي الجان
في جُرنها ألحان
فحبُّها مَرجان
وذَوبُها ذهَب؟...

السائح (يتناول فنجان قهوة فيجرعه دفعة واحدة ويهمّ بالخروج مع الترجمان)

البصّارة:
أم نكشفُ البخوت

في حضنِ بصّارة
بالخيرِ بشارة؟...

الجميع (يلتفّون حول البصّارة ، ينشد الواحد منهم تلو الآخر)

– هل تذهبُ الهموم؟
– هل تنجلي الغموم؟
– هل تحسنُ الأحوال؟
– هل يرجعُ المحبوب؟
– هل تدفقُ الأموال
وتملأُ الجيوب؟
– هل تعمرُ الديار
على خرابِ الجار؟
– هل تُحفَظ الأسرار
ويُنقَذ الوقار؟
– هل نقهرُ الأعداء
ونشربُ الدماء
في ألفِ خمّارة؟...

الجميع (بصوت واحد)

هل تنتهي الحروب؟
هل تنقضي الخطوب؟
هل تمّحي الذنوب؟
من غيرِ كفّارة؟...

(يتوارى الجميع لاحقين بالسائح والترجمان)

البصّارة (وحدها)

يا كاشفَ القلوب
يا عالمَ الغيوب
سيصدقُ المكتوب
في حضنِ بصّارة.

ستار

قوافِل الزّمَان

الى من فتحت لي آفاق هذه القوافل

رفيقتي في رحلة العمر

عواد [illegible]

بحرصاف في ٢٨ أيلول ١٩٧٣

أزاهير برّيّة

في ساحِ روحي أزاهيرٌ منوَّرةٌ
برّيّةُ الفوحِ كفُّ الريحِ تُذريها
مَن لي بقارورةٍ في الأرضِ مُسعفةٍ
أضمُّ فيها على ختّمٍ مَعانيها

الكلمة

وذاتِ سحرٍ على سرٍّ أعاشرُها
جنّيّةٌ من بناتِ الليلِ رقطاءُ
بغى بها القومُ تأتيهم على كَرَهٍ
حتّى أتتني ولانَتْ فَهْيَ عذراءُ

القصيدة الأولى

ولي دَفترٌ رثٌّ يضمُّ فراشةً
تعشّقتُ ألوانَها لها ابنَ ثَماني
فِدًى لكِ يا أُختَ الطفولةِ شاعرٌ
بياني وما أملاهُ شَيبُ زماني

في الحوار

تُقوّلني في الوَصْلِ ما لستُ قائِلاً
وأسمعُ منها ما يُحيّرُ ذاتي
أُصدّقُ ما تُملي عليَّ فهل تُرى
تُصدّقُ ما أُملي أنا كلماتي

وراء القول

يُسائِلُني ما الشِّعرُ قلتُ هو الذي
تململَ خلفَ القولِ في مُغلَقِ الصدرِ
وما أنا إلّا في ضلوعِكَ سالِكٌ
نحتُّ بصخرٍ أو غرفتُ منَ البحرِ

الخاطرة

تزورُ وما أكادُ بها فتمضي
فنحنُ على الصبابةِ في نِفارِ
وقد أنتاشُها فتعودُ كفّي
بجِلْدِ الليلِ أو قلبِ النهارِ

أسماؤه الحُسنى

ربّاهُ عَفْوَكَ حَسْبي ما كتبتُ سُدًى
إسمي على الرملِ منهارًا غداةَ غَدِ
فاصبعي في السماءِ اليومَ أنقبُها
أمحو وأكتبُ من أسمائكَ الجُدُدِ

وا لُغتاه !

مَرَّغوا في الهوانِ حُسنَكِ لمّـا
صدَّهُم منكِ في الهوى عِصيانُ
جرَّحوا شوَّهوا استباحوا وراحوا
وكـذا فِعْلُ عَجْزِها الخِصيانُ

القفص المعلّق

ومِن قوافيَّ قد شبَّكتُ لي قَفَصًا
علّقتُـهُ بسمـاء الرعـدِ والريحِ
أنقُرُ الشُّهْبَ إمّـا جعتُ مُزدرِدًا
وأورَدُ الغيثَ عَبًّـا في تباريحي

تأتأتهم ...

يا رُبَّ أطفالٍ لنا قد تأتأوا
ما قيلَ شيءٌ في الكلامِ وقالُوا
رُدّوا إليها الروحَ مِن أنفاسِكُم
ماتتْ لغاتُ الأرضِ يا أطفالُ

الكتاب والعاشقة

أنـا كتـابي إلى فـأرٍ يُخرِّمُني
في وحشةِ الليلِ أم أُلقى إلى النارِ
أم تستفيقُ عليَّ الصُّبحَ عاشقةٌ
ضمّتنِيَ الليـلَ إسرارًا لإسرارِ

لو أنّي عييّ

تمنّيتُ لو أنّي عَيِيٌّ وفي فمي
عزيفُ رياحٍ أو هديرُ بحورِ
فيَسمعَني بالقلبِ مَن هُوَ سامعي
وأُبلغَهُ ما شاء خلفَ قصوري

القلم

يا مِعولاً في عَمى المجهولِ أضربُهُ
حلفتُ أضربُ لا عَودٌ ولا خَوَرُ
إنْ كانَ سرٌّ كشفتُ السرَّ أنشُدُهُ
أو لا فحَسْبُكَ منهُ الرَّجْعُ والشَّرَرُ

أطيب ما فيها

غنَّيتُ أيّــامي بمـــا فيهــا
أفراحُهـــــا تعدو مـــــآسيها
يـــا رِحلـــةً ليسَ لها مقصدٌ
أطيبُ مـــا فيهـــا أغـــانيهـــا

تفّاحة آدم

مِن أجلِ تفّاحةٍ يا ربُّ تطردُني
تفّـاحُكَ المرُّ مِلْءَ الأرضِ ألوانا
إن كـانَ معصيـةً في كلِّ معرفةٍ
سآكـلُ الـدهرَ عِرفانًا وعِصيانا

أنا والأشياء

ضاحكٌ للربيعِ يطلعُ في قلبي
- وفيـــهِ ينهـــلُّ دمـــعُ الشتـــاء
أنا في موتِ كلِّ شيءٍ على الأرضِ
- أنــــا في ولادةِ الأشيـــــاء

السفينة المخدوعة

وأكْذِبُ أيّامي أحتوتني وما دريتْ
بأنّي أخوضُ العمرَ أركبُ أيّامي
أُجـذِّفُ فيهـا غُـدوةً وعَشيّـةً
إلى الشاطئِ المنظورِ من أرضِ أحلامي

أباريق الطين

وفي النفسِ أضدادٌ عفيفٌ وفاجرٌ
ضعيفٌ وجبّـــارٌ بريءٌ ومجرمُ
أنـا الطينُ والخزّافُ أقرعُ بعضَها
ببعضٍ أبـــاريقًـا أُسوّي وأحطمُ

المدينة البيضاء

مشيتُ ليلي على ضوءِ المحبّةِ في
مـدينةٍ مِن بناتِ الفجرِ بيضاء
على الـدروبِ وجوهٌ لي مسلِّمةٌ
مِن كلِّ صوبٍ وكلُّ الناسِ أسمائي

في البحث عن خبر كان

أنكتُ الجمرَ عن نضارةِ غصنٍ
مستحمٌّ بفجرِهِ ميّـــالِ
ويكفّي على جباهِ البغايا
أتقرّى براءةَ الأطفـــالِ

السندباد

سألتُ رداءه الممزوعَ قُـــلْ لي
بـأيِّ غنيمـةٍ كـانَ الايـابُ
فصفّقتِ الريـاحُ بـهِ وهمّتْ
وقـالتْ لي غنيمتُـهُ الـذهـابُ

دم ولظى

قـد أشمُّ الترابَ أنشقُ فيـه
ريحَ ما أمتصّ من دمِ الأبرياء
وأعبُّ الشموسَ غـذّتْ لظـاها
شاخصاتُ العيونِ نحوَ السمـاء

القفار والبحار

حتّـامَ تشقى هـذهِ –
الأرضُ على قُرْبِ الجوارِ
لِمَ لا تقولُ ريـاحُها
عَطَشَ القفـارِ إلى البحـارِ

عصفور وعصفورة

وعصفورةٍ في الجوِّ تتركُ سِرْبَها
ويلحقُ عصفورٌ بها ، غَرِدانِ
يُسِرُّ لها مـاذا ومـاذا تزقُّـهُ
أليفـانِ مـا كـادا ويفترقـانِ

السنونو المبكّرة

وأتيتُ لم يـأتِ الربيـعُ معي
وسبقتُ بِرْمَ الوعـدِ عن قَصدِ
وأعودُ عن قصدٍ لأُبلغَـهُ
خفَقـانَ قلبِ الأرضِ للوعـدِ

الغدران

ماذا جَنَتْ حتّى تعيشَ سجينةً
في عُقمِ عزلـةِ كبتِها الغُدرانُ
ربٌّ السماء دعتْ أما مِن رحمةٍ
زلزالُ هـذي الأرضِ أو بُركـانُ

الثلج والحبّ

أقولُ للثلجِ إذ طـافتْ أناملُهُ
بجبهةِ الفجرِ أنتَ الحُبُّ في العيدِ
غدًا جليدُك فاْغزلْ قبلَ وَطأتِهِ
بيضَ الأماني على زُرقِ المواعيدِ

على الشراب

ويا لكِ نفسًا إن شربتُ فما درتْ
كؤوسٌ تَوالى بعدهُنّ كؤوسُ
أأهربُ مِن نفسي إليها أم انبرتْ
إلى عونِها مِن غيبِهنّ نفوسُ

الأرض الموعودة

أسقِيني يا غُربتي بعناقِ
أنا وحدي في الزحمةِ الضوضاء
وأسأليهم عن اللقاء وقولي
إخوةَ الأرضِ أينَ أرضُ اللقاء

شيخ تحت الشمس

يُهوِّمُ الشيخُ تحتَ الشمسِ في فمِهِ
أفٌّ تطاردُ أسرابَ الذباباتِ
وفي الجفونِ تهاويلٌ مرفرفةٌ
عهدَ الطفولةِ مِن لونِ الفَراشاتِ

الرصاصات الأخيرة

ربَّ السماء غفوتَ خلفَ رعودِها
صرعى الحروبِ لهُم عيونٌ سُهَّدُ
وقَفوا رصاصاتٍ عليكَ أخيرةً
تفنى النجومُ ونارُها لا تخمُدُ

أمام المشنقة

أيهاذا الجلّادُ حبْلَكَ بالرّفقِ –
ومَهِّدْ لهُ بكفٍّ الحنانِ
بعضُ عُنْقي وبعضُ عُنْقِكَ فيهِ،
لو تحسّستَ، بعضُ عُنْقِ الجاني

الجمجمتان

وجُمجُمةٍ في القبرِ قالتْ لأختِها
ألا ليتَ أنّا ههُنا كُرَتانِ
فيلعبَ أولادٌ يحلّونَ بيننا
ونصدعَ حيطَ القبرِ بالقَذفانِ

عَود إلى الطفولة

أُطِلُّ مِن أعيُنِ الأطفالِ تبعثُني
طفلًا لو انَّ سِنيَّ العمرِ تُرْتَجَعُ
إذَنْ لعادتْ إلى الأشياء دَهشتُها
وعادَ يُسعِدُ في فقدانِها الوَجَعُ

على باب البلد

وقفتَ بالبابِ هيًّا قد مددتُ يدي
خُذْها وهاتِ وندخلْ ساحةَ البلدِ
ندعو إخاءً وإنصافًا ومرحمةً
لا بُدَّ في زحمةِ الأهواء من أحدِ

شغل في السماء

ما لِلسماء أعرسٌ في مَجرِّتِها
حتّى لَتُوشِكُ لألاءً بضوضاء
أم تلكَ شُورى بشأنِ الأرضِ يعقدُها
حلمٌ تحيّرَ في أجفانِ عذراء

ذنْب وغفران

لا جنّةً أرتجي يا ربُّ أو سَقَرًا
أخشى إذا أنتَ يومَ البعثِ ديّانُ
حَسْبي وحَسْبكَ أنّي إذْ تحاسِبُني
ذَنْبي الحياةُ وأنَّ الموتَ غفرانُ

الأفراس المجنونة

أفراسُ أشواقِكَ مجنونةٌ
يا نهرُ بينَ السهلِ والوعرِ
تَجري وتجهلُ ما تخبّئُهُ
خلفَ اعتناقِكَ قُبلةُ البحرِ

حبّة الرمل

ورَمْلةٍ علقتْ كفّي فأنفضُها
قالتْ رُوَيدَكَ لا تهزأْ بمقداري
وأْذَنْ فديتُكَ لي أحكي وتسمعُني
أُخبرْكَ أسرارَ أقفارٍ وأبحارِ

رجوع الحطّاب

أنا هذا الحطّابُ يرجعُ في الوادي
– وقد شدَّ عُنْقَهُ بالجبالِ
حملَ العمرَ في الجبينِ دروبًا
وعلى الظهرِ حزمةً مِن ظلالِ

الشبّاك الباكي

تمحو وتكتبُ ماذا للشتاء على
زجاجِها حارَ في مَن منهُما الشاكي
ودمعَها مسحتْ بالكفِّ أم مسحتْ
دمعَ الشتاء على شبّاكِها الباكي

إسمي

لقد كانَ لأسمي شكلُ ثغرٍ علِقتُهُ
تأنّقَ فيهِ العمرُ رَسْمًا على رَسْمِ
وضيّعتُ شكلَ أسمي وأُنكرُ جرْسَهُ
إذا أنا نادى الناسُ مِن دونِها بِاْسمي

إبن الرصيف أو الميلاد الآخر

أعَدّوا لهُ حضنَ النفاياتِ مِذودًا
. وينفخُهُ كلبٌ، وهرّانِ في الرّصْدِ
وحامتْ على ميلادِهِ أنجمٌ لهُ
تُرقّصُها الجرذانُ بالنظرِ الوَقْدِ

الدرب المفتوح

لم تَسْقِني كنتُ عَطشانًا وكنتُ أخا
جوعٍ وعُري وكانتْ تصرخُ الروحُ
إليكَ يا ربُّ أينَ الدربُ ما وجدتْ
إلّا إلى الموتِ أنَّ الدربَ مفتوحُ

في شتاء العمر

شاخصةٌ - اَلنَّــارُ تحكي لها
أم نــارُهــا تُصغي لِمـا تسردُ
ورُبَّ تـــذكـــارٍ طواهُ الحيـــا
فيلتظي بـــالشَّرَرِ الموقـــدُ

الصبيّ وسفينة الورق

بكَّرتَ في الأشواقِ تقـــذفُهـــا
في مــاء صحنِكَ جبهةَ الأُفُقِ
سافِرْ فـــأَبْعَــدُهــا وأَحْمَلُهـــا
لـو تستقيمُ سفينـــــةُ الوَرَقِ

عتّال الأرض

إن كنتُ حقًّـــا منكَ فـــاَغفرْ
لي فحقٌّ كِبريـــــــــائي
أنـــا حــامـلٌ في الأرضِ ، يــا
ربّـي أعـنْ ، عبءَ السمــــاء

في الانتظار

أنـــا في اَنتظـــارٍ يـــا زمـــانُ
- فقُـــلْ متى يـــأتي قِطـــاري
أمضي بـــــــهِ يمضي معي
نمضي إلى أنـــا في اَنتظـــارِ

بيتي الرياح

كحّلتُ أجفـــاني بشوقِ جوانحي
فَنَبـــا مكـــاني بي ولجَّ الآنَ
متجشّمٌ سفرًا لغيرِ محجّـــــةٍ
بيتي الريـــاحُ ومَسنـدي البُركـانُ

البيت المهجور

على التلّةِ القفراء مِن أرضٍ غابرٍ
مِنَ العمرِ ماتتْ فيكَ أسماءُ مَن كانوا
سوى هاتفاتِ الريحِ يسألُها الصدى
أعيدي أإنسٌ مَن تُنادينَ أم جانُ

الهيكل المحتضَر

صقيـــعٌ بـــلاطُكَ إلّا عجوزًا
وتجأرُ: يـــا ربُّ! أم تسعـــلُ
سراجَكَ واَنظرْ يغصُّ السراجُ
ويشهـقُ بـــالعتْمَـــةِ الهيكَـــلُ

حديث النفس

تحدِّثني نفسي عِشاءً وفي الضُحى
أأغدو تقولُ النفسُ أم هل تُرى أمسي
فيا ضجّةَ الدنيا خُذيني وأخرِسي
أحاديثَ نفسي إنْ خلوتُ إلى نفسي

تلك النُّطفة

سكنتُ قبلَ الأرضِ أمنيّةً
يا ليتَني بَعْدُ مُلاقيا
أذرُها في الريحِ أُغنيّةً
أو حسرةً في القلبِ أطويها

وجوه الأحبّة

أسألُ العينَ أينَ صارتْ وجوهٌ
كنتِ يا عينُ بيتَها في الزمانِ
رفَّ جفناكِ بالخيانةِ يا عينُ
– في البابِ سِحنةُ النسيانِ

مائدة اليأس

مدَّتْ ذراعَينِ دهرًا للسماءِ ولم
تأتِ السماءُ وقد شُلَّتْ ذراعاها
أرضُ البراءةِ من جوعٍ ومن عطشٍ
صارتْ بغيًّا تُغذّيها خطاياها

الأنشودة البلهاء

أُريدُ عندَ الموتِ أُنشودةً
تحارُ بينَ الآهِ والإيها
أنشدَها الموجُ على شطِّهِ
بَلْهاءَ ما يدري معانيها

قلَق

يقولُ الغصنُ للعصفورِ
– بَينَ الكَرِّ والفَرِّ
علامَ الحلُّ والترحالُ –
ما أدري فهلْ تدري

ويح نفسي

ويحَ نفسي تهوي معَ الطفلِ أرضًا
ومعَ النجمِ في سحيقِ الفضاء
أهْيَ نفسٌ توزّعتْ ألفَ نفسٍ
أم نفوسٌ تجمّعتْ في رِداء

عَشْتَروت الجديدة

أشتاقُها بالفجرِ مضفورةً
محرابُها بالوعدِ لألاءْ
وقد خلا ، وَهْيَ على بابهِ
واقفةٌ بالشوقِ عذراءْ

بنت الكتاب

طلعتْ لي بُنَيّــةٌ مِن كتــابِ
وجهُها الحلوُ قد علاهُ اكتئابُ
لا أُريدُ الرجوعَ قالتْ ، ومالتْ
تشتكي لي ما لا يقولُ الكتابُ

نحّات الحبّ

أتُراني خصرًا هصرتُ ونهدًا
إذ أنا الصبُّ في نواحيكِ جالا
أم تُراني في الشوقِ أغمسُ كفًّا
وأُسوّيكِ للهوى تمثـــــالا

قتلى المُنى

تشكو مُنى النفسِ جورَ النفسِ تقتلُها
فوجًا بفوجٍ وما رقّتْ لشكواها
عـدا دموعَكِ يا نفسي تشيّعُها
مـاذا جنيتِ سوى تكثيرِ قتلاها

شيخ في الحرب

وقالوا ألا تنجو بنفسِكَ؟ فارتمى
على الأرضِ بعضًا من ثراها إلى بعضِ
سأبقى لألقى وجهَ ربّي بوجهِهم
فيشهـدَ كلٌّ منهما أنّها أرضي

مع أحفادي على الشاطئ

تعرّوا وقالوا قمْ تعرَّ وكيفَ لي
قيـامي إلى شيخوختي ومُسوحي
ولكنّني عرّيتُ روحي وجئتُهم
أُمرّغُ في ضِحكِ الطفولةِ روحي

مدٌّ وجزْر

على قلَقٍ أنــا والبحرُ مــدٌّ
وجَزْرٌ شأنُــهُ أبــدًا وشاني
ومــا سافرتُ قَطُّ إلى مكــانٍ
إلى نفسي أُسافرُ في الزمــانِ

خلف الخمر

فلا الحلوُ أرواني على العطشِ الذي
حملتُ ولا مرُّ المذاقِ شفـــاني
وأشربُ خلفَ الخمرِ سرًّا كتمتُهُ
تحيّرَ فيـه الكـأسُ والشفتـانِ

من المسيح إلى توما

أنسى الصليبَ ويوضاسٌ غفرتُ لهُ
وبطرسٌ ديكُـهُ الـداوي يُسلّيني
وإصبعُ الشكِّ يا تـوما ملازمُني
غرْزَ القتادِ ليومِ الحشرِ يُدميني

الحكاية المقطوعة

اِحكي لنا يا جدّتي عن ماردٍ
في كهفِهِ خنقَ الصباحَ وراحا
ستُّ البدورِ تكادُ... هيّا فارسًا
مِن أمسِ قد ركبَ الرياحَ ولاحا

عاشقة الليل

ليلَ المحبّينَ نادتْ ليسَ لي أحدٌ
فهوّمَ الليلُ لم يسمعْ لشكواها
حتّى إذا أنستْ مِن ليلِها أرَقًا
شقّتْ عن النحرِ تلقاهُ ويلقاها

كشّاش الحمام

بِيضُ المَساحبِ في الآفاقِ جنَّحَها
مصفِّقُ الشوقِ يُدنيها ويُقصيها
غنّتْ وحطّتْ وطارتْ قُلْ فهل قفصٌ
أم أنتَ مِن ضاحكِ الأضلاعِ مُجريها

موعد

وذاتِ جَناحٍ حوّمتْ لم تجدْ لها
على القفرِ غصنًا قلتُ أنتِ ببالي
غدًا مِن ثراها تشرئبُّ سوامقٌ
أنامِلُ لي مُخضلّةٌ فتعالي

نسيج في الهواء

أنا هذا الغمامُ في الأُفْقِ
– ما ينسجُ إلّا من مقلتَيَّ الغمامُ
يا رياحًا تطوي بنا العمرَ طيًّا
أينَ تمضي من بَعْدِنا الأحلامُ

في الوادي المقدّس

أدونيسُ! عشتاروتُ! أينَ حفرتُما
على الصخرِ صكَّ الحُبِّ والموتِ دُلّاني
وفُكّا جُيوبَ الريحِ عن ختمِ قبلةٍ
مشى النهرُ منها الدهرَ في ثوبِهِ القاني

أمام صُوَر مشوَّهي الحرب

أشباهُ أنفسِهِمْ فليسَ لهمْ
شِبْهٌ وفيهِمْ لم أجدْ شِبْهي
أعرضتُ ثمّ مسحتُ أوجهَهُمْ
بيدِ الجبانِ تلمّستْ وجهي

العميان في الشارع

وعيونٍ كأنّما الليلُ فيها
مشرئبٌّ يصيحُ أينَ النهارُ
وهْيَ تمشي مِن ذعرِهِ في رُكامٍ
مِن سماءٍ جدرانُها تنهارُ

الأمم المتّحدة

رثّتِ الكُتُبُ والمواثيقُ في الأرضِ
– فيا أرضُ أطعميها النارا
وامشُقي يا سماءُ من مارجِ النارِ
– حروفًا وبلِّغيها الشارا

قبل وبعد

أذوقُ من وعدِها شيئًا وتمنحُني
في الوصلِ فوقَ الذي يُغري بهِ الوعدُ
وتهتفُ النفسُ ويلي مِن تحسُّرِها
يا قَبْلَ وصلِ المنى لا كانَ لي بَعْدُ

من كان منكم بلا خطيئة...

ألقَوا حجارتَهمْ في الأرضِ وانهزموا
بهِمْ تضيقُ وهادُ الأرضِ والبيدُ
تنهالُ منهمْ عليهِمْ في تطلُّعِهِمْ
لَغْمَ المَقالعِ مِن هارٍ جلاميدُ

حقوق الإنسان

أنتِ المناراتُ قالوا فالتفتُّ فما
وجدتُ إلّا صخورَ الشاطئِ الباكي
ثمَّ انثنيتُ فأنتِ السُّفْنُ لاهثةً
نَهْبَ المقسَّمِ في القُرصانِ غنّاكِ

نداء البركان

لو كنتُ في الأرضِ بركانًا لقلتُ لهمْ
هاتوا بأحقادِكمْ يا معشرَ الناسِ
ليَ الجحيمُ فداءً وليسُدْ أبدًا
صفوُ القلوبِ وقرعُ الكاسِ بالكاسِ

المجدليّة والمسيح

لفّتْ على قدمَيهِ فرعَيْ شعرِها
تسقيهما ماءَ الخطايا مَدْمَعا
خمرًا تَقَطَّرُ مِن عَرائشِ قلبِها
في كأسِ رحمتِهِ وقد شربا معا

قوس قزح

ويسألُني الأطفالُ ما قُزَحٌ وما
تُرى قوسُهُ، حاروا وحرتُ جوابا
تَحفَّوا بأبصارٍ لهُم وتَزحلقوا
ذهابًا على لألائِهِ وإيابا

بعد القطاف

يا رُبَّ منسيَّةٍ في الكَرْمِ مُؤْثرةٍ
شِقَّ الصخورِ على عرشِ الأسانيدِ
طابتْ أعضُّ بها طورًا وأعصرُها
سرَّ الدِّنانِ وأخبارَ العناقيدِ

اللاجئ الصغير

قالوا لهُ أنتِ أمٌّ ما صنعتِ بهِ
مـدينـةَ الكفرِ والحيّاتِ والشبَقِ
وسّدتِـــهِ عورةَ اللوطيِّ ليلتَـــهُ
وفي النهـارِ يبيعُ اللهَ في الخِرَقِ

ما أنتَ والسكْر

لحبّةِ القمحِ تحتَ الأرضِ ناظرةً
غنّى على الوعدِ في تهطالِهِ المطرُ
ما أنتَ والسكْرَ قد أتعبتَ عربدةً
عقّتكَ أمُّكَ فاسكتْ أيُّها الحجرُ

الرغيف

متعرِّجٌ في غـــابـــةٍ مُحلولكٌ
وعرٌ طريقُكَ يا رغيفُ إلى فمي
ماءُ السماء غذا ضميرَكَ في الثرى
وأغصُّ منكَ على الموائدِ بالدمِ

في رقاد الأطفال

ليـــلُ المدينـــةِ سهرانٌ محاجرُهُ
لونُ الجريمةِ طافتْ في نواحيها
ليتَ المدينةَ في أجفانِكمْ رقدتْ
حتّى الصباحِ ولا كانتْ لياليها

خلق جديد

ربّي أعرتُكَ مِن نقصي الكمالَ ومِن
موتي الخلودَ ومنّي كلَّ ما وَهَبا
فاْردُدْ معانيَّ وانفُخْ فيَّ مِن نَفَسي
ومِن أمانيَّ عمرٌ كونَكَ الخَرِبا

سماؤهم وسمائي

سمـاؤهم زحفتْ أرضًا تساحقُها
ومرّغتْ بالوحولِ الشمسَ والقمَرا
سماءُ أرضي أطلّي مِن كُوًى خطرتْ
زُرقٍ وهلّي عليَّ الدفءَ والسمَرا

أصحابي الذين راحوا

أُسائِلُ الريحَ هل أرواحُهُمْ رجعتْ
في الريحِ يُعولُ فيها الغارُ والشيحُ
وتطرقُ الريحُ بابي هل مُباكِرُهُمْ
قد بادرَ البابَ أم هل تسخرُ الريحُ

في ساحة المروءات

سقيتُ عِطاشَ الحُبِّ دمعي بدمعِهِمْ
مزيجَيْنِ في التسكابِ جفنًا إلى جفنِ
وأحنو على العذراء في رَوْعِ ليلِها
أُسيِّرُ فيه حلمَها تاهَ في الظنِّ

أنشودة الينبوع

مَهْلَ أهلِ الشحناء والشرِّ في الأرضِ
– وأصحابَ كلِّ قلبٍ أسوَدْ
طفحتْ بالسَّماحِ نفسي وبالحُبِّ
– فمَن يستقي ومَن يتزوَّدْ

الفنارات

على حبلِ المساء بألفِ لونٍ
وقد حارتْ فدمعٌ وٱبتسامُ
فناراتٌ تراوِحُ مرعِشاتٍ
لها قلبٌ وللقلبِ ٱضطرامُ

المراكب الغرقى

في ماء عيني على الشمسِ التي غربتْ
تطفو مراكبُ غرقى ثمَّ تصطفقُ
رفّتْ عليها منارات لها غُصَصٌ
لها ظلالٌ بها قد لوّحَ الأُفُقُ

العرس العائد

تحتَ المدينةِ بركانٌ يقولُ لها
نامي هنيًّا لقد نوّمتُ أشواقي
لنا إلى العُرسِ عَودٌ مِن بهارجِهِ
نثرُ المدائنِ أطباقًا لأطباقِ

خبز الحقّ

إلامَ يظلُّ الكِذْبُ ربّي خلاصَنا
ونهربُ من ظنِّ العيونِ إلى ظنِّ
وما بالُ هذا الخَلْقِ بالحقِّ تاجروا
فإن بعتُ خبزَ الحقِّ لم يشتروا منّي

أمثال الضيعة

للهِ شيخٌ حكاها ما لها نَسَبُ
إلّا الكريمَينِ محكاها ومغزاها
خمرٌ مَشاعٌ على الشُّرّابِ دائرةٌ
مِلكُ الذي حبَّها كأسًا وعاطاها

سكّين الصبر

أيّوبُ عونَكَ أشرفْ مِن علٍ ترَني
صُفرًا لزُرقٍ بلونِ الرُّعبِ عاهاتي
عاهاتُكَ الأمسِ ، فٱقذفْ لي محدّدَةً
سكّينَ صبرِكَ في خَرْقِ السماوات

الأسير

أُباعِدُ أشواقي وما طالَ بُعدُها
فأهتفُ عادَ الشوقُ مَيّةَ عودي
قيودٌ بكفّي قد حطَمتُ وأنحني
فأنظمُ بالدمعِ السخيِّ قيودي

راهبة

نقلتْ إليكَ الحبَّ تخفضُ طرْفَها
ويلفُّهـــا والأمسَ ظـــلٌّ أسودُ
جأرتْ وباحَ الدمعُ واحدُ عمرِها
كذبَ الوعودِ فهل تَني يا أوحدُ

الشيء والتفّاحة

يا مُنيةَ النفسِ ظلّي حيثُ أنتِ ولا
تُغري بقربكِ أو تُصغي لإغرائي
نُشداننا الشيءُ شيءٌ لستُ بائِعَهُ
بـألفِ تفّاحةٍ يا أختَ حوّاء

الرائد

على أديمِ اللهِ لي سَكَنٌ
وفي سديمِ اللهِ مُضطرَبي
إن قطّعتْ كفّـــاه لي سببًـــا
جـــدلتُ مِن أنسالِـــهِ سببي

الشعاع الكاذب

رُبَّ جُرحٍ ينسابُ في القلبِ سرًّا
طـافَ منـه على الشفـاهِ ابْتسامُ
كغمامٍ في الأفقِ تمسحُهُ الشمسُ
– خـداعًـا ثمَّ ٱستهلَّ الغمـامُ

حمامة نوح

عادتْ إلى الفُلْكِ بالبُشرى مرفرفةً
يا نوحُ فاهتفْ بهمْ أهلاً وخِلّانا
واَنسلْ على الدهرِ أفلاكًا معذَّبةً
لمجدِ ربِّكَ طوفـــانًـــا وقُربـــانـــا

هروب

نـادتْ عُصَيفيرةٌ في الحيِّ جارتَها
طيري نطيرُ إلى أجوائِنـــا طيري
لم يبقَ في الحيِّ مِن غصنٍ نلوذُ بهِ
ليسَ الحديـدُ لأعشاشِ العصافيرِ

صخرة الشلّال

تمنّتْ صخـرةُ الشـلّالِ
– لـو تمضي مـــــعَ النهرِ
مكـــــاني العمرَ لم أبرحْ
وأسفـــــارٌ على ظَهري

سكرة الموت

لصُّ الشمـالِ أنا سِيّانِ تذكُرني
أو لستَ تـذكُرني يا ربُّ سِيّانِ
دعْنا نذوقُ معًا في الموتِ سكرتَهُ
هل بَعْدَ سكرتِهِ في المجدِ من ثانِ

أسياف البحر

متى إلى اليأسِ تنجو مِن تشوّفِها
وتهدأُ النفسُ لا حربًا ولا ثارا
كالبحرِ يَشهرُ أسيافًا ليُغمدَها
في قلبِهِ ويعودُ البحرُ كرّارا

منهل العمر

يا يومَ تهتفُ عيناها إلى أربٍ
في النفسِ لاقاهُ في رَكْبٍ لهُ أربُ
رُدّتْ عليكَ وفودُ الشوقِ يزجرُها
عمرٌ إليكَ على عقْبَيهِ منقلبُ

حجر الحبلى

أيُّ لَعْنٍ عليكَ ألقتكَ طِرحًا
أمُّكَ الهَونُ في طريقِ الفَخارِ
أهلُكَ الصِّيدُ بَعْلَبَكٌّ وتقضي
عمرَكَ الدهرَ في شقاء الحِجارِ

بائعة الحبّ

وقفتْ تبيعُ الحُبَّ لا مَن يشتري
منها وأنجُمُ ليلِها تتغوّرُ
فمشتْ تردُّ على الجبينِ رداءَها
حَذَرَ العيونِ بشمسِها تتعثّرُ

في سكينة الليل

ليلَ السكينةِ هل شجاكَ
- مِنَ السكينةِ ما شجاني
خَبَبُ الأماني فيكَ ذا
أمْ وقعُ أقدامِ الزمانِ

يا موت

لا في النّهارِ ولا في الليلِ أثقلَني
عِبءُ النهارِ ومدُّ الليلُ آهاتي
لكنْ مع الفجرِ زُرْ يا موتُ وآمضِ بنا
إلى النهايةِ في بِشْرِ البداياتِ

أحفادي

يأخذُني منهُم إذا أقبلوا
أشمُّ رأسًا أو أضمُّ يدا
شيءٌ لهُم في أضلعي راعشٌ
حُبُّ المساءِ الذي يخافُ غدا

إلى الشمس

تُنيرينَ سُبْلَ البَغْيِ كالعدلِ ، والزنى
لديكِ وصكُّ الساجدينَ سواءُ
وتدحو مسوخُ الأرضِ منكِ ظلالَها
وتضحكُ مِن أرضِ الشقاءِ سماءُ

بابل

ربِّ السماءِ هدمتَ قالوا بابلًا
فأرتدَّ عنكَ السائِلُ المتطاوِلُ
هلّا ضربتَ على المدى أعناقَنا
في كلِّ عُنْقٍ مِن عبادِكَ بابلُ

الشاردة

وراءَ حضورِهــا أبــدًا غيــابٌ
وإن عــادتْ فمِن فجٍّ عميقِ
أما في الأرضِ مِن كتِفٍ رفيقٍ
تَقِرُّ إليــــهِ أو حجرٍ صديقِ

جاري البحر

وجارَيْنِ كنّا والهوى كانَ بينَنا
أقولُ ويُصغي البحرُ ما يُطربُ البحرا
وشِبتُ وشابَ البحرُ إلّا فُؤادَهُ
فــأُسمِعُــهُ صمتًــا ويُنشدُني شِعرا

الأظافر السود

أرى الليلَ ما أرخى سدولًا وإنّما
هِـيَ الأرضُ شقّتها أظافرُ سودُ
تناهتْ لعرشِ الحقِّ تفقأُ عينَهُ
عنِ الحقِّ مطعونًا فليسَ شهودُ

ناطحات السحاب

أقولُ لهُم في الحيِّ لمّا تفاخروا
نطحتُم سحابًا والنِّطاحُ لكُم فخرُ
ألا فأفتحوا للحُبِّ فيها نوافذًا
فحيطــانُها بغضٌ وأبوابُها غدرُ

أهل الكهف

ونَجَوْا فصُحْتُ رويـــــــدَكُم
أهلي فردٌ الصخرُ زنـــــــدي
راحوا وسدّوا بــــــابَـــــهُ
وبقيتُ رهنَ الكهفِ وحـــدي

المدينة

قدِ أشتجرتْ فيها النفوسُ وعرّشتْ
كغابةِ جِنٍّ لا سماءٌ ولا أرضُ
وزحمةُ عُرسِ الجنِّ أم ذاكَ مأتمٌ
فبعضي الذي قد ضاعَ يسألُهُ بعضُ

الدرهم القذر

وَجْهــانِ مهــدٌ ولحدٌ درهمٌ قــذِرٌ
هــذي الحياةُ وأمّا السوقُ فالزمنُ
يا درهمًا حارَ في كفّي أُقلّبُهُ
وأقلّبُ السوقَ حتّى لاحَ لي الكفنُ

الشيخ الطفل

تلعثمتُ بـالقـولِ الحلالِ أقولُـهُ
وصدّقتُ زورَ القولِ منهُم وقد أدري
ويطّرحُ النـاسُ الطفـولـةَ شأنُهمْ
وأحملُها معنى السماء مدى العمرِ

صراخ هابيل

بِـذنْبِ أخي يا ربُّ تقتلُني وفي
إزائكَ قربـــاني علا وإزائي
فهلّا على الأيّـامِ بيني وبينَـهُ
رددتَ صلاتي أو حقنتَ دمائي

منجيرة الراعي

تقـولُ منجيرةٌ في الحقلِ أخرسَها
مِن زحفِ عسكرِهِم رَيْبُ الأناشيدِ
مهلًا نفيرَ نحاسِ الأرضِ ينفخُه
ناسُ الرصاصِ غدًا تأتي مواعيدي

العاشق الشرس

قـالتْ وقلتُ ومـا صدّقتُ قولَتَها
فهل تصدّقُ قولَ العاشقِ الشرِسِ
أصغتْ إلى كلمـاتي وهْيَ كاذبةٌ
وأعرضتْ لا تعي ما قالَهُ خرَسي

اعتراف نحّات

ورُبَّ حِجارٍ قد سمعتُ يقلنَ لي
تُقـوّلُنـــا زورًا تُكلّفُنـــا نُكرا
وكانَ لنا مِن غفلةِ الدهرِ راحةٌ
فماذا بدا حتّى قذفتَ بنا الدّهرا

في مغارة جعيتا

رؤًى في لظى الحمّى أم الجانُ بوغِتوا
بعُرسٍ فهـذا عرسُهُمْ والمَخـادعُ
أمَ آنَّ جفونًا من صقيعٍ تقطّرتْ
بأرواحِ مَن ماتوا لتبقى المَدامعُ

جدّي

أقولُ لأحفـادي ومـا صدّقوا بلى
لقد كانَ جدّي طولُ شروالِهِ العَرضُ
لـهُ حـاجِبٌ سيفٌ وآخرُ خنجرٌ
ونسرانِ مِن نعلَيـهِ ثاوٍ ومُنقضٌ

سباق مع الليل

في سباقٍ أنـا معَ الليلِ إلى –
الفجرِ كِلانـا محرّقُ الأجفـانِ
يعرفُ الليلُ أنّهُ مُدركٌ فجرًا –
وأغفـو على أتمـــارِ الثّواني

وصيّة الشهيد

سألتُ شهيدَ الحقِّ مَن أنتَ قالَ لي
أنا أنتَ مِن بَعْدي وأنتَ هوَ الحقُّ
حَذارِ خداعَ الخادعينَ بَنَوا لهُ
مثالاً مِنَ الإبريزِ أو وثنًا دقّوا

إلى دودة الأرض

كُلي هنيئًا فملكُ الأرضِ مِن قِدَمٍ
يا دودةَ الأرضِ ما أبقتهُ أيّامي
رُدّي إليَّ متاعًا لا غَناءَ بهِ
شعاعَ عيني وما حاكتهُ أحلامي

لم نعدْ وحدنا

وزحمنَ الطريقَ بي كلَّ صوبٍ
أُمنياتٌ قد غرّهُنّ الأمانُ
لم نعدْ وحدَنا إليكُنَّ عنّي
صارَ بيني وبينكُنَّ الزمانُ

في السوق الرخيصة

وقنديلُها لونُ الدِّماءِ وحَيطُها
نزا برَصًا في العينِ من رَيبهِ ماءُ
وأغفتْ على الشُّبّاكِ تنفضُ عُنْقَها
تمشّتْ عليه مِن شفاهٍ رُتَيلاءُ

الظلال الهاربة

مِنَ الضفّتينِ ظلالٌ هوَتْ
إلى النهرِ قد شاقهُنَّ السِباقُ
يقلنَ لهُ خُذْ بنا خُذْ بنا
وهيهاتِ مِن أسرِهِنّ انعتاقُ

إلى أين؟

بعضُ غمامٍ أنا ويذهبُ بي
هذا الغمامُ الشاحبُ الذاهبُ
أقطرةٌ في الأرضِ تشتاقُها
أم في البراري ظلُّهُ الهاربُ

إلى المصلوب

ألم تتعبْ على الحيطانِ فانْزِلْ
تُناديكَ المجرّحةُ الجفونُ
صلبتَ إليكَ بؤبؤَها فكفكِفْ
مساميرًا تُفجّرُها العيونُ

الأصداء المعربدة

يا نداآتِ وحدتي أيُّ وادٍ
عربدتْ فيهِ طغمةُ الأصداءِ
عن يميني وعن شمالي فوَيلي
مَن أُلبّي وكلُّها أسمائي

بالباب طرْق

يا وجهَ خُبزي الضُحى يا دفءَ متكأي
لـــدى العشيّـــةِ والأسمارُ تنهمِرُ
بالبابِ طَرْقٌ أريحُ الجَهْمِ عائِدَةٌ
أم ذاكَ شوقُكِ خلفَ البابِ منتظِرُ

في الخزائن العتيقة

أُرقّمُ في الستّينَ ما آزدحمتْ بهِ
خزائنُ أيّــامِ الشبــابِ الغوابرِ
فيا كفُّ رِفقًا إذ تطوفينَ إنّني
أُحـاذِرُ تجريحَ الخـدودِ النواضرِ

مدينة الغد

في أخطبوطٍ مِنَ الفولاذِ عضٌّ بها
شرقًا ، وغربًا تمطّى في الأساطيرِ
أرواحُ أبنائِها فيها قدِ انصهرتْ
بعضَ الصفائحِ أو بعضَ المساميرِ

الذين سبقوا الصباح

أفدي الـذينَ على الفلاةِ تجندلوا
سبقـوا الصبــاحَ وفــاتَهمْ تهليلا
مـاتوا ووحـدَهُمُ شهودُ مهـابةٍ
عقــدتْ على هــامـاتِهمْ إكليلا

الشيخ والسنديانة

تعــالى إليهـا طَرْفُهُ قــالَ ليتَني
إذا متُّ أصلتْني تباريحَها النارُ
بمتكــإٍ ضمَّ المحبّينَ أو مضتْ
تشقُّ بصدري عارمَ البحرِ أسفارُ

المتشائمة

غرابُ بَيْنٍ على الشُبّاكِ! وآنتفضتْ
ما أدركتْ منه إلّا الظلَّ قد عبَرا
ثمَّ آنثنتْ فشعاعُ الشمسِ مُنخطفٌ
ألفٌّ بالأسودَينِ الشمسَ أم نَقَرا

مدينة تحت الثلج

حلمتْ هـذه الغبيّةُ تحتَ الثلجِ
– قــالتْ : يــا للعروسِ البتولِ
صَحوةٌ وآرتمى النهــارُ عليهــا
مومِسًا سالَ وجهُهــا بـالوحولِ

موت الثلوج

وشجــاني ثلجُ المدينــةِ نــادى
وا أُخيّــاهُ في أعــالي الجبــالِ
أن تموتَ الثلوجُ هلّا سُئلنـــا
قبلةُ الشمسِ أم هـوانُ النِعـالِ

شجرة الخير والشرّ

حطبًا صارَ جِذعُها وكسا
– الدهرُ غصونًا عُريانةً بالقارِ
أحرقوها مقهقهينَ وراحوا
رقصةَ الهَيْدَباء حولَ النارِ

البكارة الضائعة

أقولُ لهُم لمّا رأوني مُجانبًا
ندامايَ لا خمرٌ لديَّ ولا ساقي
أعيدوا إلى روحي جديدَ إهابها
ورُدّوا إنِ ٱسطَعْتُمْ بكارةَ أشواقي

مساقط الدم

أبيلاطسٌ عابوكَ تظلمُ غاسلاً
يديكَ بماء الأبرياء فلا نُكرُ
ألا إنَّ عدلَ الأرضِ طُرًّا مَساقطٌ
تُدفَّعُ فيها السيلَ أنمُلُكَ العَشْرُ

المنزل ذو الشرفات

وخلفَ صفيحِ القبرِ لي دفءُ منزلٍ
عمرتُ بأضلاعِ الذينَ رعَوا ذِكري
لهُ شرفاتٌ مِن جفونٍ قريحةٍ
تُطلُّ على الأشواقِ دهرًا على دهرِ

حصاد الصبر

في حقولِ الجياعِ نارٌ وأشباحٌ
– تَهاوى كانتْ لهُم أربابا
عبثًا تصرخُ السماواتُ صبرًا
أنبتَ الصبرُ للجياعِ حِرابا

أنا والخمر

شربتُ الخمرَ في العنقودِ وعدًا
وأصرفُها على سَكَبٍ تُدارُ
إذا ذُكرتْ فحَسْبي الذكرُ منها
وإن ولّتْ فحسرتُها الخُمارُ

هي

هِيَ في القلبِ نارُهُ تتلظّى
هِيَ في العينِ نورُها الشّعشاعُ
هُوَ بعضي هنا ولستُ مُطيقًا
هُوَ بعضي هنا وليسَ يُباعُ

إلى عطاش الأرض

دعوتُ عِطاشَ الأرضِ هلّا تفيّأوا
رشاشَ سباخٍ تَذرّيهِ الضفادعُ
فلا ريَّ إلّا في ترانيمِ دافقٍ
لهُ في الصفا مِن فيصلِ الحقِّ صادعُ

كرسيّ الحديقة

شاخَ هــذا الكرسيُّ في الشمسِ
- متروكًا وغطّاهُ طَيلسانُ الغبارِ
عرجتْ رِجْلُـهُ الشمــالُ ومالتْ
أُذُنــاهُ لطــارِقِ التــذكــارِ

تعب

هنــا وأَنزِلْ وحُطَّ الشوقَ عينًــا
ولا تنهــدْ إلى نجمٍ جــديــدِ
وراء القصدِ مِقصلــةُ الأمــاني
ودربُ المستحيــلِ إلى مَزيــدِ

وراء الحزن

إذا الريحُ صوّحتِ المرجَ قفرًا
نسجتُ لــــهُ طَيلسانَ مروجي
وإن سكتَ العيــدُ غنيّتُــهُ
مُعــادَ الهوى وقرعتُ صنوجي

الأجراس

لِمَن تُقرعُ الأجراسُ - ينفضُ أُذنَهُ
عجوزٌ - تُغنّي تــارةً وتنوحُ
تصدّتْ لها بينَ الضلوعِ ضَواربٌ
تجيءُ بــأعيــادِ الصِبــا وتروحُ

الشيخ والهرّ

أليفــانِ في هــذا الشّتــاء فغنِّني
على الدفء لحنًا مِن شجيِّ غنائي
ويا قصفاتِ الرعدِ خلّيهِ غافيًا
ولا تُقلقي رُحمــاكِ غفوَ شتــائي

كنتُ أغنى

قد كنتُ في الفقرِ أغنى كانَ لي أملٌ
كانتْ له دورةُ الأفلاكِ بركارا
واليومَ صرتُ وما لي مِن مراتِبِهِ
إلّا الذي صارَ بعدَ الجهدِ تذكارا

الأمنية العذراء

شاختْ أمانيَّ إلّا كاعبًا عَلِقتْ
جفني فناشرُهــا جفني وطــاويها
عذراء إلّا بحضنِ العينِ ما اضطَجعتْ
وليسَ إلّا شعــاعَ العينِ كــاسيها

ولا تُطبقوا عيني

ولا تُطبِقوا عيني إذا متُّ وارأفوا
بعيني ولا تُلقوا ترابًــا ولا سِترا
على موعدٍ عيني وراءَ الذي رأتْ
لــهُ وقفتْ عمرًا بهِ تَنزلُ القبرا

وداع السرير

يـا سريرَ الميلادِ والحُبِّ والموتِ
- اَقتبِلْني على الشموعِ الهَوامي
ليلتي بَعْــدَهـــا ضجيعُكَ كُثْرٌ
يـــا سريرَ الأوجـاعِ والأحلامِ

«اللباسُ رسميٌّ»

لبستُ ليومِ الحشرِ ثوبَ وقارِهِ
حيـاكـةُ أيّامي وتلوينُ أحلامي
على الصدرِ أزرارٌ لـهُ برقُها دمٌ
وأوسمةٌ بـالحُبِّ تبرقُ: آثـامي

الشعراء

وأسرابِ طيرٍ أهتــدي بضلالِهــا
وما دربُها دربي ولا دارُها داري
سوى أنّها حامتْ على الأُفقِ حومةً
فراحتْ بأسراري وعادتْ بأخباري

إلى امرئ القيس

حَنانَيْكَ هلّا يا امرأَ القيسِ رَجعةٌ
إلى الطللِ المُبْكِي فالقلبُ راجعُ
إلى قبسٍ من جمرِهِ لاحَ قُلْ لها
خُذي عنهُ إن رقّتْ لقلبٍ أصابعُ

إلى أبي الطيّب المتنبّي

أبا الطيّبِ أنظرْ أدركوها كواكبًا
فهل أدركتهُم مِن قصيدٍ زمازمُهْ
ألا نقّبوا فيهــا لعــلّ شظيّــةً
فقـد جرّحَتها في الزمانِ عزائمُـهْ

إلى أبي العلاء المعرّي

أُقبّــلُ في ليلي يَــدَيكَ علَيهمــا
تلبّـدَ مِن ليلَيْكَ قُفّازُكَ الدَّجْنُ
وأُخرسُ في قلبي أبي لا أقولُها
مخافةَ رعدٍ منكَ: مِن أينَ لي ابنُ

إلى أبي نؤاس

أبا نُـؤاسٍ وفي الكاساتِ متّسَعٌ
هل فضلةٌ عنكَ في كاسٍ تُخلّيها
لسائلِ الدهرِ في سُكْرَيكَ تقرعُها
والـدهرُ بَعْدَكَ مِـن سكرٍ يُغنّيها

إلى عمر بن أبي ربيعة

حلفتُ بصُبحِ الوَصْلِ والصبحُ أشقرٌ
وربِّكَ واللاتي بهنَّ تسيرُ
تلفّتْ تجدْني خامسَ الرَّكْبِ إنّني
عليمٌ بــــأشيــــاءِ السرورِ خبيرُ

إلى الصِّمّة القشيري

يـا شميمَ العَرارِ مِن أرضِ نجدٍ
أينَ نجدٌ وأرضُهـــــا والعَرارُ
والعَشيّـــاتُ... قــد تولّينَ إلّا
شهقـــاتٍ يردُّهـا التــذكـــارُ

إلى شكسبير

ألا كلُّ فجرٍ من قصيدِكَ مَطْلعٌ
إذا شئتَــهُ أو شئتَ ليلاً فـأليلُ
عوالمُ ألقتْ في يـدَيكَ زمامَها
وتسألُكَ الأقـدارُ قُلْ كيفَ ننزِلُ

إلى جبران خليل جبران

ذهبتَ بـهِ للهنـدِ قَرُبَ مزارُهُ
فـديتُكَ وأسفرْ فـالحيـاءُ ريـاءُ
نبيُّكَ يا جبرانُ أنتَ أنا وهل
تنبّـــــأ إلّا الزُمرةُ الشعراءُ

الأعمار الآتية

غـدًا أصيرُ كتـابًا يا هناءَ غدي
مقلّبًـــا بينَ أنفـــاسٍ وأبصارِ
مُحبّـةٍ سمحةِ الأكنافِ تُطعمُني
في كُـلِّ ثـانيـةٍ آلافَ أعمـارِ

إلى ميخائيل نعيمه

قلتُ للشمسِ في الغروبِ وقد -
مـــالتْ بعينيَّ مـــائلاتُ المساءِ
يـــا عزائي على الغروبَينِ رَكْبي
وصِلَ الأرضَ ظلُّــهُ بــالسمــاءِ

مِن خطبة لتمثال شاعر

ولي مِن صاحبي روحٌ ومنكمْ
مُعــذَّبـــةٌ يُقلِّبُهـــا الجمودُ
طواهُ الموتُ مِن دوني وأبقى
ويطويكُم ومـــأساتي الخلودُ

إلى صلاح لبكي

مررتَ كالظلِّ أو كالريحِ قد حملتْ
أصداءَ عيدٍ غريبِ اللحنِ والدارِ
حكايةٌ حولَ نارِ الشملِ في سَمَرٍ
أو هبّةٌ مِن بخورٍ فُتَّ في النارِ

شارعي

تمنّيتُ لأسمي شارعًـا في مَتاهةٍ
وراءَ حـدودِ الظـنِّ في الفَلَواتِ
أُرصِّعُــهُ للـــذاهبينَ إلى الرؤى
وأُركِبُهمْ خيــلَ الرؤى كَلِمـــاتي

القصيدة
أو
الشجرة الوحيدة

يتيمــةُ قفرٍ أيُّ رَحْمٍ رمتْ بها
سِفاحًا على الرمضاء مِن قاحلِ القفرِ
تردَّتْ قميصَ الليلِ حتّى إذا نَضَتْ
ترامتْ تُلاقي ظلَّها ، واحدَ العمرِ

فرسان الكلام

تعريف

تمنّيتُ لِاسمي شارعًا في متاهةٍ وراءَ حدودِ الظّنِّ في الفلواتِ
أرصّعُـــهُ للـــذاهبينَ إلى الرؤى وأُركبُهم خيـلَ الرؤى كلمـاتي

هذه الأمنية التي تمنّيتها في «قوافل الزمان» ما أحسبها إلّا أمنية كلّ كاتب وشاعر تحت السماء. وما أزهد الشعراء والكتّاب بالشوارع الأخرى – أو الأزقّة – التي يمنّ عليهم بها أولو الأمر، بعد الوفاة طبعًا، ويلصقون على جدرانها أسماءهم.

من هنا عنوان هذه الباقة من الفصول التي أهديها إلى إخواني الأدباء، سواء منهم الأحياء أو الذين سبقوني إلى دار البقاء، ومن ورائهم إلى جمهور القارئين الذين عرفوهم وأحبّوهم وركبوا، وما يزالون، «خيلهم» كلّما عنّ لهم الذهاب إلى الرؤى.

ربّ معترض بقول القائل:

«سوف ترى إذا انجلى الغبـــارُ أفَرسٌ تحتكَ أم حمــــــارُ»

يعني أنّ الذين أتحدّث عنهم ما يزال معظمهم في مضطرب الأحكام بسبب قرب العهد بهم. وأنّ الغبار لن ينجلي عن آثارهم ويكشف «هويّتها» إلّا مع الأيّام. فأبادر إلى القول – فيما خصّهم وفيما خصّني ما دمت أتكلّم كذلك عن نفسي – إنّني لا أتصدّى في «فرسان الكلام» إلى النقد الأدبيّ بمعناه. لا أبحث ولا أحلّل ولا أصدر أحكامًا. فالكتاب عبارة، كما أشرت، عن مجموعة فصول مختلفة، لا أنحي فيه على قضيّة محدّدة من قضايا الأدب، ولا أتناول شخصيّة أو طائفة من الشخصيّات الأدبيّة بالدرس المحيط الشامل. وإنّما هي تأمّلات عارضة في هذه الصناعة وفي كيفيّة التعاطي مع الكلمات التي هي أداتها ومادّتها. وأكثرها مقتطف من محاضرات ألقيتها في بعض الأندية والجامعات في مناسبات عدّة وأزمنة متباعدة. إلى ملامح رسمتها خطفًا، وانطباعات سجّلتها عفوًا، وذكريات وحكايات وتعليقات كنت أنشرها بين الحين والحين في الصحف التي عملت فيها... شتات يمتدّ سحابة نصف قرن من الزمان، موزّع على زملاء لي عاشرتهم وطبت في عشرتهم وطربت.

وبعد ، ليعذرني الناقدون – الباحثون – المحلّلون. إنّ «فرسان الكلام» هؤلاء إنّما هم أهلي. لحمي ودمي. فإذا غلبني الحبّ أحيانًا وشطّ بي إلى الحماسة والهتاف ، فما ذنبي والحبّ ديني ، ومقدار حبّة خردل من الحسنات يُذهب عندي قنطارًا من السيّئات.

وأنـــا إمّـــا تَغنّوا رفـــرفت روحـــي تُغنّي
أو بكَوا أترعتُ كـــأسي بـــالمراراتِ ودنّـــي
أو بنَوا مجدًا تطـــاولتُ على النـــاسِ كـــأنّي*

بيروت في ٢٥ آذار ١٩٨٥ ت . ي . ع .

* من قصيدة «الأصدقاء» في كتاب «حصاد العمر».

١ – فرسان الكلام

ناسك الشخروب

على أثر عودة ميخائيل نعيمه من أميركا إلى وطنه سنة ١٩٣٢ زاره المؤلّف في بلدته بسكنتا وكتب عن هذه الزيارة في جريدة «البرق» لصاحبها بشارة الخوري (الأخطل الصغير) – وكانت لسان حال الأدباء لذلك العهد – سلسلة من المقالات بعنوان «ناسك الشخروب». ومنذ ذلك الوقت غلب اللقب على ميخائيل نعيمه وأصبح يُعرف به. ويروي ميخائيل نعيمه في كتابه «سبعون»، الجزء الثالث، هذه القصّة في فصل خاصّ بعنوان «ناسك الشخروب».

– ميخائيل نعيمه في الشخروب.

هذا ما قاله لي شابّ استوقفته في ساحة بسكنتا وسألته عن الأديب الكبير العائد من نيويورك.

والشخروب رابية على سفح صنّين تطلّ على أصل وادي الجماجم الرهيب. قطعة من الأرض مكسوّة بالأخضر، ضمن إطار من الصخور عظيم الجنبات، أجرد، موحش إلّا من الله. وهي ملك لعائلة نعيمه، عالجها معول الأب منذ أكثر من خمسين سنة، وشاركه في توليد خيراتها محراث بقراته، لعلّها هذه البقرات التي ترعى الساعة في الحقل القريب.

هذا هو الشخروب. وهنا، على طيرة عصفور، ثلاثة أو أربعة بيوت، كأنّها نجمات انفرطت من عقدها في السماء وحطّت في تلك الناحية. وعن يميننا – ونحن مقبلون بالسيّارة على تلك الطريق الملتوية الوعرة – منحدر من الصخور يتّصل جانب منه بالوادي ويضيع منه الجانب الآخر. صخور دكناء تراكم بعضها فوق بعض بأشكال غريبة كأنّها بقايا مدينة طمس معالمها الدهر وغيّب أهلها. وعن شمالنا صنّين، جبّار يستريح. أجل، هذا هو، يلقي في روعك أنّك لو مددت يدك لبلغته وداعبت جبينه.

كانت الساعة الأولى بعد الظهر عندما وصلت. ترجّلت ومشيت في الجهة التي أشار إليها السائق. ليس من طريق، عليك أن تقفز فوق الأحجار والأشواك. وليس من المألوف أن تطأ المكان قدما غريب. لذلك رأيت عائلة نعيمه تطلّ على الباب نسوة ورجالًا وأطفالًا، وكلّهم عيون. حتّى الخروف المربوط إلى جدار الكوخ أدار وجهه يصعّد فيّ عينين مستفهمتين.

وتعارفنا. فإذا أنا أمام والد ميخائيل، شيخ يُشرف على الثمانين بشروال ولبّادة ووجه طلق، ونجيب شقيق ميخائيل، وزوجة شقيقه وأولادها. ثمّ أقبلت امرأة شقراء زرقاء العينين سلّمت عليّ بلغة عربيّة تخالطها عجمة. هي زوجة شقيق ميخائيل الآخر، نسيب، أحبّها عندما كان في فرنسا يدرس الهندسة ورافقته إلى مسقط رأسه.

جلسنا أمام الكوخ على مصطبة تمتدّ فوقها أغصان

سنديانة قديمة العهد وارفة الظلّ. على أحد هذه الأغصان الدانية منظار لميخائيل يتدلّى في حقيبته، وعلى آخر شبّابة لنجيب من صنع يديه.

هذه السنديانة رافقت طفولة الأب - وهو اليوم جدّ - وشبابه، وها هي ترافق شيخوخته. وفي ظلّها يستريح من عناء العمل في الحقل ويبترد من حرّ الشمس على البيدر. يجلس على حجر جعله كرسيًّا، يأكل لقمته التي انتزعها من الأرض بقوّة ساعديه وعرق جبينه، ويتنشّق النسيم الصاعد نقيًّا من الوادي، ثمّ يرجع إلى الأرض وإلى بقراته. ها هو ينهض كابن العشرين ويأخذ عصاه ويتوارى...

السيّدة الفرنسويّة تؤنسني لأنّ ميخائيل غائب. ذهب إلى صنّين شأنه كلّ يوم. وهو هنالك نهاره وهزيعًا من ليله.

أستفيد من هذه الفرصة لأنمّي شوقي إليه وأراقب الجوّ الذي يحيا فيه. على سطح الكوخ خيمة أقامها لنومه، في إحدى زواياها سريره وفي الأخرى سرير لضيف يأتي من بعيد مثلي. - هكذا قالت لي السيّدة - وعلى جدار الكوخ المبنيّ على صخرة، أوتاد معلّق بها المحراث والمعول والرفش والمنجل. ووتد فذّ يحمل قبّعة أميركيّة لميخائيل... كم هي مستوحشة!

وأخيرًا جاء ميخائيل.

طويل، نحيل، أسمر، له عينا نسر، في بنطلون أميركيّ، حاسر الرأس، في يده عصا هي، كما قال لي فيما بعد، ذكرى من جبر ضومط أهداها إليه ابنه بعد وفاته.

تلقّاني بابتسامة شعّت في عينيه، قال:

- أهلًا بك كائنًا من كنت!

ونهضتُ، ونهضت السيّدة الفرنسويّة وهي تقول لي:

- ها هو أمامك. إنّني أدَعك له.

وجعلنا نتكلّم في كلّ شيء. الحديث كلّه له. ولو سمعته لما أطاعتك شفتاك بكلمة، وإنّما أنت مأخوذ حتّى لتكاد تقطع أنفاسك. ويُخيّل إليك أنّك لست أمام ناطق من لحم ودم، فالصوت يأتيك من عالم آخر، من روح انعتقت من قيود المادّة وحلّقت فوق توافه الدنيا. وإذا سكت أرسل عينيه المتباعدتين، الجائلتين في وقبيهما، إلى ناحية صنّين أو إلى أعماق الوادي إرسالة طويلة، الله يعلم ما وراءها وأين يكون قرارها.

قيل لي في بسكنتا إنّ ميخائيل يحرث الأرض. ليكون كتلك المرأة التي أتت مسلّمة عليه واستحت منه إذ وضعت يدها في يده لأنّ العمل خشّن كفّها. فمددت يدي وأخذت يده، فإذا على كفّه بقع بعضها أحمر قانٍ وبعضها منفوخ مملوء، فقلت: ما هذا؟ قال: ما عدت أستحي بيدي بعد اليوم.

أليس هو القائل: «إنّ اليد التي يخشّنها العمل تصافح يد الله وتشاركه في توليد خيرات الأرض؟»

ثمّ استطرد:

- العمل خير ما في الحياة طهرًا وسموًّا. وما نظرت إلى أيّ من هؤلاء الفلّاحين إلّا وشعرت في الصميم بحقارتي. تقول لي: أنت كاتب تعمل بالقلم. ولكن من قال إنّ القلم أشرف من المعول؟

لا نزال قاعدَين على المصطبة وظهرنا إلى جذع السنديانة. وكانت الشمس قد خلعت وشاحها الأرجوانيّ على الجبال، وأخذ الليل يتصاعد من الوادي ويتكاثف. فإذا بميخائيل يقف ويناديني أن قِف. ففعلت ونظرت إلى الجهة التي كان ينظر إليها، إلى صنّين. فرأيت ضوءًا يشقّ طريقه بين قمّتين صغيرتين كأنّهما عن بعد نهدا صبيّة. ضوءًا لازورديًّا هادئًا يمشي على رأي العين. ورأيت ميخائيل قد بُهت لا يحرّك ساكنًا، وقد هرع أهل الشخروب جميعًا، كبيرهم والصغير، فوقفوا حواليه ينظرون. إنّ ميخائيل أدخلهم إلى الهيكل الذي يحيا فيه - هيكل الشعراء والفلاسفة - وجعلهم يتذوّقون ما فيه من لذاذات

الروح. وطلع القمر كأنّه بسمة على وجه صنّين – وكان في تلك الليلة بدرًا – ثمّ أخذ في الصعود ، وبعد أن استراح على القمّة هنيهة ، كما يقول ميخائيل ، تابع صعوده في الجلَد الأزرق الممتدّ ناشرًا أضواءه على الأرض وعلينا.

ودعاني ميخائيل إلى البيدر ، على خطوات منّا ، واستلقى على السنابل واستلقيت. فوخزتني إبرها وكادت تدميني ولكنّي ما تجاسرت أن أتفوّه بشكوى. وكانت رائحة القمح تملأ صدرينا وميخائيل يداعب السنابل بأصابعه:

–كيف يقولون إنّ هذه البلاد فقيرة؟ الفقر فقر العافية والعزيمة. يسألونني هل أنا عائد من نيويورك غنيًّا؟! لا يعلمون أنّني آتٍ إلى هنا أسعى وراء غناي. إنّ الإنسان الذي يبحث بين هذه الصخور عن حفنة من التراب فيحرثها فتعود عليه بمثل هذه السنابل ليس بالفقير. الفقير هو ابن المعمل في مدن الغرب. أُنظر إلى هذه السنبلة. الأرض التي أنبتتها طاهرة ، واليد التي زرعتها طاهرة ، والغمامة التي سقتها طاهرة. أمّا المسمار الصغير الذي يُخرجه المعمل في الغرب فكلّه فساد بفساد. صاحب المعمل مستثمِر جشع ، والعامل الذي يصنعه عبد مسخَّر ، والتاجر الذي يشتريه ويبيعه أكّال حقوق... حتّى الآلة التي يركّب أجزاءها هذا المسمار معدّة للتخريب والتقتيل. سبحانك اللهمّ! يبتعد عنك الإنسان أو هو يظنّ أنّه يبتعد –كالابن الشاطر– ولكنّك صوت في ضميره صارخ تدعوه فيرجع إليك مطيعًا بعد أن أكل طعام الخنازير.

هكذا كان يقول لي ميخائيل على البيدر في ضوء القمر. وينبغي أن تصغي إليه يحدّثك عن الله لتفهم كيف يكون الإيمان. الله الذي يعبده هو: «الذي يراه في الإنسان السويّ كما يراه في دودة الأرض ، والذي يسمعه في أفواه الفجّار كما يسمعه في أفواه النسّاك».

أين أنتم يا رهبان الكنائس ومشايخ التكايا؟

* * *

يريد الناس – أنا أعلم ذلك – أن يكون في الحديث رأي لنعيمه في الأدب والأدباء. ولو قلت إنّنا لم نمرّ بالأدب والأدباء في الشخروب إلّا لمامًا وإنّ حديثه وحديثهم لم يستغرق من نهارنا وليلنا إلّا دقائق معدودة لما صدّقوني. على أنّ هذه هي الحقيقة. ذلك لأنّ طبيعة المكان من جهة ، وهيبة الإنسان الذي كنت إلى جانبه من جهة أخرى ، قد ملكتا عليّ أمري فما فكّرت في أخذ ورقة وقلم في يدي.

الورقة والقلم؟ لم أكن بحضرة وزير لأطلب منه أن يشرح لي سياسته ، ولا في مكتب رئيس شركة لألتقط منه أرقام أرباحه وخسائره... لكنّي مجتهد أن أجمع ما استطعت من فتات المأدبة التي أدبها ميخائيل لنفسي في ذلك اليوم.

نعيمه رجل يقدّس الفكر. فالأدب ، شعرًا كان أم نثرًا ، يجب أن يحمل رسالة من الأديب إلى الناس. رسالة صادقة منزّهة عن البهرجة. فالألفاظ ليست لها قيمة بحدّ ذاتها. كلّا ولا اللغة من حيث هي. إذا استيقظ فكرك واستطعت أن تطلعني على ما رآه فكرك هذا على وضح هذه اليقظة من أسرار الحياة فأنت أديب. أمّا إذا كانت قصاراك أن تدهشني بتهاويل الألفاظ وتعاريج اللغة – وللغتنا تعاريج أعيذك منها – فلست جديرًا باسم الأديب. اِفتحْ عينيَّ على منظر بهيّ ، وأذنيَّ إلى نغم شجيّ. أُخرجْ بي من مظاهر هذه الدنيا وأدخلني إلى عالم الروح وأوقفني على ما فيه من كنوز ، وليس عليك من جناح إن عدّيت بني فعلًا يتعدّى بباء ، أو استعملت كلمة لم ترد على لسان البدويّ بين أطنابه منذ ألفَي عام!

الفكر تُذكيه العاطفة ويحدوه الخيال ، هذا هو الأدب عند نعيمه ، وكلّ ما عداه هراء. وعنده – وهو ينتقد عينا الأكبر– أنّ الأديب تُهيب به إلى القلم عوامل داخليّة لا خارجيّة. فلو زلزلت الأرض زلزالها وهبطت الزرقاء على الغبراء لما كان ذلك موضوعًا لقصيدة ، مثلًا ، كما يكونه موقف النفس أمام حيرة أو

حسرة أو رغبة. إنّ هذه الهنات لا تغيّر نظام الكون ولكنّها صميم الحياة، والزلزال قشر من قشورها. النفس هي موضوع الأدب. والجميل جميل على كلّ جيل وفي كلّ صقع، لأنّ النفس هي هي منذ الأزل وستبقى هي هي إلى الأبد.

على أنّ نعيمه لا ينكر البيان. وهذا أدبه – ونثره أدلّ على هذا القول من شعره – شاهد حيّ. إنّه أدب مشرق البيان، ولكلّ كلمة فيه سحر. ولكنّ الذي ينكره أن تكون –كما يقول– خالي الوفاض بادي الأنقاض وتمضي في الكلام تزويقًا.

هذا رأي نعيمه في الأدب، وهو خلاصة عشرين سنة قضاها في درس الآداب العربيّة والروسيّة والإنكليزيّة... أمّا رأيه في اللغة من حيث هي فأخشى، كما خشي هو في «غرباله»، أن يُغضب الفيروزباديّ وسيبويه وأضرابهما. تمنّى – ولكنّه لا يقدر وهو يقرّ بعجزه – أن ينزع من اللغة كلّ ما فيها من زوائد، وما أكثرها، أكثر من الهمّ على القلب! «كان» وأخواتها، «إنّ» وأخواتها، الممنوع من الصرف، أحرف النصب والجزم إلخ. ومعها كلّ تلك الألفاظ المحنّطة في القواميس. هي الزوائد، من الزائدة في أحشاء الإنسان، كانت تقتله وهو يحسب أنّها من تمام خلقه.

وأمّا رأيه في الأدباء فلا والله ما أحبّ أن أشتري عداوة جيش مؤلّف من العشرات والمئات، ولا أحبّ أن أسمع «نقيق ملايين الضفادع في المستنقعات».

اِسمحْ لي أن أعود مع ميخائيل إلى صنّين.

سبقنا الشمس في قيامنا من النوم. فبادر ميخائيل إلى عصاه وناولني عصا كانت مشكوكة في الخيمة. وقبل أن أخرج لمحت على طاولة، إلى جانب سريره، كتابين. فدنوت فإذا هما العهد القديم والعهد الجديد. إنّ ميخائيل يحبّ الأنبياء والناصريّ. أليس ناسك الشخروب أقرب الناس إليهم؟

ذهبنا بين الشوك والوزّال نقفز على الصخور. وكانت تغمر الوادي والجبال والسماء سكينة شاملة، وكأنّها نفذت إلى أعماقنا، فمشينا لا يسمع بعضنا لبعض كلامًا. وما قيمة الكلام في مثل هذه الغدوة؟ كلّ شيء كان ينطق حوالينا ويدعونا إلى الإصغاء، فما كان أبو الحنّ وحده يسبّح الله.

مررنا على عين تتفجّر تحت دغل، فتقدّمت وشربت وأنا واقف خشية أن أفسد كيّة ثوبي، فرماني ميخائيل من طرف عينيه بنظرة لم أفهم معناها إلّا عندما جاء دوره، فتقدّم وألقى عصاه وجثا على ركبتيه كالراهب يتهيّأ للصلاة وجمع كفّيه وانحنى يعبّ عبًّا، ثمّ نهض وعلى ركبتيه بلّتان، وقطرة على نحره كاللؤلؤة.

وتابعنا سيرنا.

تسلّقنا الصخور ثمّ اعتلينا أحدها وأدرنا الوجه إلى صنّين. كان في تلك اللحظة عاريًا إلّا من غلالة في القمّة شفّافة. ثمّ تعرّى منها على دفق وهّاج من النور. هي الشمس تصعد بجلال من وراء الجبل وتغدق على الدنيا الحياة الجديدة.

– العين تنكسر أمام الشمس كما تنكسر أمام الحقّ. أدعو الذين يعوزهم الإيمان بالله أن يأتوا إلى صنّين ولو إلى يوم واحد. هنالك تتجلّى لهم صغارتهم فيعلمون أيّ قصبة واهية هم –كما قال باسكال– أمام عظمة الله.

ثمّ هتف بي:

– أتعلم يا صديقي ما أتمنّاه في مثل هذه الساعة؟ أن يكون بيدي سكّين أشقّ به صدري وأقول للشمس: ادخلي إلى زواياه، إلى أعشاش رذائلي وخطاياي، وطهّريني.

يقضي ميخائيل أيّامه في الكتابة وفي النزهة بين الصخور. وهو يحبّ صخور صنّين حبًّا يقرب من العبادة أو هو العبادة نفسها. ولفرط ما علقت بها عيناه وأطال التأمّل أصبحت عنده ذات أشكال حيّة تبادله

شعوره وتشاركه في تسبيح الله. لن أنسى أبدًا وقوفه عليها وانحناءه فوق تعاريجها معجبًا بآثار الحياة فيما تأكل منها قرنًا بعد قرن وعامًا بعد عام وثانية بعد ثانية. كان يرى في هذه الآثار ناموس الطبيعة ويشرحه لي بعبارات إن أنا حاولت نقلها ذهبت بروعتها وعذوبتها. وكان يأخذني بيدي تارة، ويشير بعصاه تارة أخرى فيدلّني هنا على معبد نحتته العناصر، وهناك على إنسان يضحك أو يبكي، وهنالك على حوت أو نسر، ويقول:

– أين إزميل ميكالانج وروذان من إزميل الله!

بين هذه الصخور أقام ميخائيل مكتبه، في بقعة تسمى «القطّين». خيمة من الصفصاف مشدودة إلى صخرة عالية وعلى أرضها حصيرة، والمكتب من جذوع السنديان صنعه بيده، وصنع سطحه من خشب كان في زمانه قفيرًا للنحل. أين هذا المكتب من المكاتب التي عرفها في نيويورك! الدواة وحتّى ثقّالة الورق من حجارة التقطها من الساقية... لقد أبى أن يحتفظ من آلات المدنيّة إلّا بالطابعة يضرب عليها كتاباته في الإنكليزيّة. وهي هنا غريبة غربة قبّعته الأميركيّة على جدار الكوخ.

يهيّئ ميخائيل في هذا الجوّ كتابين: كتابًا في سيرة جبران، وهو أحقّ الناس به لأنّه عاش إلى جانب صاحب «النبيّ» قسطًا وافرًا من عمره، وسيدرس فيه حياته وآثاره، وكتابًا آخر في «ما يُرى وما لا يُرى» سيضمّنه خلاصة ما أدركه من عظات الطبيعة ويمزج فيه الأدب والفلسفة. الفلسفة الهنديّة التي تأثّر بها وكانت دليله إلى المبدع الأكبر. لم أسأله في أيّ لغة يضع كتابيه الحديثين. ولكن ماذا يهمّنا – وهو هو – أوضعها في لغة المتنبّي أم في لغة شكسبير أم في اللغة المسماريّة؟

على خطوتين من المكتب – يجب أن ندعوه كذلك! القطّين. والقطّين في صنّين اسم للصخرة المنقورة. على أرضها فيئة رطبة، وفي سقفها الحاني كالمظلّة وكر لأبي منقار، وهو وكر بارز في الصخرة إلى الأمام، وعلى جوانبه بعض الزَّغَب عالق بحفنة من التراب ذرّتها الريح في الشتاء، أو فتّتها العناصر من الصخرة.

لبثنا ننظر إلى هذا الوكر، في حين كانت السيّدة سوزان تعزف على الكمنجة قطعًا اختارها ميخائيل. وميخائيل قد جلس، كوعاه على ركبتيه، وبصره إلى الأرض، أو في الأفق... وقد وقف كلّ شيء حوالينا خاشعًا، إلّا عصفور ضاع اسمه، شاركها بأنشودته من وراء الأكمة.

ليس من يمتّون إلى ميخائيل بصلب أو رحم هم وحدهم أهله. جميع من في صنّين وما فيه، ومن في الكون من أقصاه إلى أقصاه وما فيه، أهله وأحبّاؤه: الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

كنّا على الغداء، فإذا عنكبوتة تطلّ من ثقب الحائط فوثبت إليها وفي يدي شيء التقطته لأقتلها به. فصاحت بي السيّدة سوزان أن: «لا! لا! لا تفعل هذا أمامه». فعدت إلى مجلسي وقد لبسني خجل أشبه بالعار. نسيت! نسيت أنّني في عالم اليقظة، لا في عالم السبات الذي أنا آتٍ منه، ذلك العالم الذي نصب فيه الإنسان نفسه سيّدًا على مخلوقات الله يفعل بها ما يطيب له أو يخطر بالبال قتلًا وتشويهًا. إنّ ميخائيل يحترم الحياة ويقدّسها أنّى تجلّت – «تجلّت بشُهبٍ أم تجلّت بديدانٍ» – كما يقول في إحدى قصائده. ليس من تفاوت بين المخلوقات أمام الحياة وكلّ منها يشغل وظيفة – الورد والعوسج سواء – وناموس الحياة عليها واحد منذ أوجدها الله وإلى أن يضمّها إليه. وما هذا التفاوت إلّا من أوهامنا ورغائبنا العمياء. أما خاطب ميخائيل دودة الأرض الحقيرة في تلك القصيدة بـ: «يا أختاه»! إنّ من يقول هذا القول بإخلاص ميخائيل لأقرب البشر إلى الله، وإنّ من يحاول محاولتي في حضرته ليخضّب أنامله بدم جريمة.

* * *

قيل لي في بسكنتا – في ما قيل – إنّ ميخائيل سيتزوّج عمّا قريب. تلقّيت هذا الخبر كما أتلقّى أمثاله. ألا يقضي المهاجر عشرات السنين في مهجره ثمّ يرجع آخر الأمر إلى وطنه يبحث في القرية عن شريكة حياة؟

وأفضيت بذلك إلى السيّدة سوزان مستوثقًا، ففتحت عينيها بدهشة عظيمة ثمّ أقبلت على ميخائيل تقرّعه مداعبة: «أهكذا تخفي عنّا؟ أجميلة عروسك؟ قُلْ، قُلْ لنهنّئك على الأقلّ».

كان مستلقيًا على كرسيّ في ظلّ السنديانة، فلم يلتفت ولم ينبس. ولكنّ ابتسامة انفرجت عنها شفتاه. الله من هذه الابتسامة وما كانت تقول!

لقد أراني ميخائيل بين أوراقه رسومًا – هل كان أحد يعلم أنّ نعيمه يجيد الرسم؟ – هي على قلّتها ذات دلالات. وإنّي أختار منها اثنين رأيتهما أبلغ ما يكون:

الأوّل يمثّل إنسانًا لا هو بذكَر فيُعرف ولا بأنثى فيوصف. له رأس رجل من جانب ورأس امرأة من جانب آخر. تناوله ميخائيل بيده وقال: «هذا مخلوق عجيب: الله. أو هكذا كان الإنسان في البدء. وهكذا سيعود يومًا». أمّا أنا فرأيت فيه ميخائيل نعيمه. وعندما رأيته تذكّرت قول تلك الساذجة – امرأة ولا ريب – التي أشاعت أنّه سيتزوّج... وهدأت عيناي على عينيه، وبدأت أفهم.

أمّا الرسم الثاني فيمثّل إنسانًا يصعد جبلًا صخريًّا عسيرًا وعلى كتفه حمل ينوء به فأوداجه وعضلاته تكاد تتقطّع. قال ميخائيل: «هذا هو الإنسان وهذه هي حياته كما أرادها. إنّه يحمل مشاكله كما في الكارنافال، يبكي جانب من وجهه ويضحك الجانب الآخر. ولو هو أدرك لرمى حمله الثقيل فوقع على الصخور محطّمًا، وعاش هو من بعده بينها كما تعيش هي...» لعاش الإنسان كما تعيش الصخور.

* * *

يا أخي، يا ميخائيل،

يوم قضيته عندك، نقلتني فيه من دنياي إلى دنيا أخرى.

أنت شاعر، أنت فيلسوف، وقد تكون نبيًّا.

أعرت هذه الروابي والوهاد نفسك، فإذا أُعجبت بموقع فإنّما بنفسك تُعجب، وإذا طربت للحن فإنّما لنفسك تطرب، وإذا أنطقت الصخور فإنّما هي أصداء نفسك تعود إليك.

هل لك أن تعيرنا بصرك وسمعك؟

هل لك أن تعطي نفوسنا بعض ما في نفسك، وتشركنا في ملكوت ما أنت فيه؟

«البرق» – ١٩٣٢

فيلسوف الفُرَيكة

كنت فتى في الرابعة عشرة، تلميذًا في كلّيّة القدّيس يوسف في بيروت، وكان لي أستاذ من الرهبان ينظم الشعر في مريم العذراء وأعاجيب القدّيسين، ويأخذني في نزهات إلى شاطئ البحر وضاحية المدينة فيتلو عليّ قصائده.

ولم تكن دروس أستاذي التطبيقيّة تنحصر بمنظوماته، بل كان يتعدّاها غالبًا إلى مقطوعات من أدب «الرابطة القلميّة» – وهي إذ ذاك في عزّها – وأعترف أنّ إعجابه بقصائده هو لم يكن يمنعه من الإعجاب بقصائد نعيمه وأبي ماضي وعريضه، وكان شديد التعصّب لهؤلاء ولإخوانهم ولكلّ مجدّد تحت الشمس، حتّى أدخل في روعي، وأنا في تلك السنّ، أنّ أدباء المهجر هم خير من أمسك قلمًا في العربيّة منذ كانت حتّى اليوم.

وكنت قد قرأت فصولاً لأمين الريحانيّ، فاستهواني أسلوبه وظرفه وتمرّده، فأحببت أن أفاتح أستاذي في أمره وأسأله رأيه فيه، ولكنّني لم أجرؤ لعلمي بما بين الريحانيّ والرهبان عمومًا... حتّى كان ذات يوم، فإذا بأستاذي نفسه يحمل كتابًا ويدعوني إلى نزهة من نزهاتنا، فيفتحه ويقرأ لي «وادي الفريكة».

كيف أصف سروري ودهشتي؟ هل أُتيح لك يومًا أن تحبّ امرأة وتحار كيف تبوح لها بحبّك؟ تصوّر هذه المرأة تطرق بابك وترتمي بين ذراعيك. كان شأني مع أستاذي شيئًا من هذا، مع الفارق طبعًا! وكنت، مذ أحببت الريحانيّ، أعاني له في ذهني علامة استفهام ترافقني في النهار وتقضّ مضجعي في الليل. وها أنّ الفرصة تسنح للتخلّص منها بجواب، فلم نكد نفرغ من «وادي الفريكة» (ولم أقل لأستاذي أنّي اهتديت إليه قبله بزمان)، حتّى سألته: «أليس الريحانيّ عضوًا في الرابطة القلميّة؟ عجب! أليس هو كاتبًا مجدّدًا؟ أليس هو من لبنان؟ أليس هو من المهاجرين إلى أميركا؟» وعبثًا حاول ذلك الأستاذ –وجّه الله إليه الخير– إقناعي بأنّه ليس من الضروريّ أن يكون الريحانيّ في الرابطة، وأنّه ربّما كانت له ولأعضائها أعذار، فلم أقتنع، ولم أشأ التعرّف إلى الأعذار، وقلت في نفسي: إنّ بين الريحانيّ والجماعة خلافًا، وهم جماعة وهو فرد، فهو إذن مسؤول عن هذا الخلاف المعيب.

وكان صيف ١٩٢٧، على ما أذكر، وصعدت من بيروت إلى قريتي بحرصاف للعطلة. كان ذلك بعد ثلاث سنين من صدور القرار (!)، وكانت آفاقي في الأدب قد اتّسعت بعض الاتّساع ولكن دون أن تؤثّر كبير تأثير في تعصّبي للرابطة القلميّة وعتبي على الريحانيّ لبعده عنها.

حينما عزم فيلسوف الفريكة على رحلته إلى جزيرة العرب كان في رأسه مشروع عظيم هو التوفيق بين ملوكها، وفي قلبه أمل نبيل بالقدرة على تحقيقه. وأشهد بالله، لقد رافقت المغامر الساذج من نقلة قدمه إلى الباخرة على شاطئ أميركا حتّى وقوفه بين يدي الملك

حسين في جدّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ الكثيرين من طيّبي النيّة أمثالي رافقوه أيضًا، وخفقت قلوبهم مع قلبي طوال مئات الصفحات. ولو لم يكن للريحانيّ غير هذا العزاء على خيبته لكان حسبه. ولكن من كان يرافقني أنا في رحلتي؟

أطللت من بحرصاف على الفريكة، وكان الصباح جميلًا رائقًا، فأغراني، فقلت لأمّي: أنا ذاهب إلى الكروم ولن أعود قبل المساء. فأرادت أن تزوّدني، فزعمت لها أنّني مدعوّ. ألم يكن من واجبات الريحانيّ أن يمدّ لي سفرة المفاوضات التقليديّة؟

كنت أعرف أنّه عاد إلى وطنه، ولكنّني كنت أجهل أهو في الفريكة في ذلك اليوم أم خارجها. لذلك انحصرت أفكاري طوال الطريق في: «إن شاء الله يكون في البيت!»

والطريق نزول من عندنا، سلكتها مشيًا على دروب المكارين من تلّة إلى وادٍ ومن وادٍ إلى تلّة، أقطع السواقي، وأقفز فوق الصخور، وأخدّش ساقيّ بالشوك والبلّان. ولمّا وصلت إلى الفريكة بعد ساعة، أو خُيّل إليّ، عرّجت على أوّل بيت، فطلع لي من خلف الحائط كاهن في جبّة بائخة ولحية مشعّثة، فقلت: يا بختي الأسود! ولكنّي اعتصمت بالصمت الجميل وسألته:

– بتعرف يا محترم وين بيت الريحاني؟

إنّ الكهنة يصنعون أنفسهم كهنة ليدلّوا على بيوت الله، فكيف يُقدم أحمق مثلي على سؤال أحدهم أن يدلّه على بيت شيطان؟ ألم يمثّل خصوم الريحانيّ صاحبهم بصورة إبليس؟ إبليس كما نعهده تمامًا: بقرون وذنَب وسائر الآلة!

ومرّت لحظة حاسمة من لحظات حياتي خلت فيها أنّ رجل الله متناول أقرب شيء وضارب به على رأسي. ودارت بي الدنيا ورقصت أمام عينيّ ألف شرارة وشرارة، وكدت أنقلب ناجيًا بنفسي لولا:

– أيش بدّك من الريحاني كصبي؟

أقول له «أيش بدّي»؟

ويظهر أنّه شعر بارتباكي فدنا وأخذني بيدي مشيرًا إلى جهة الشرق:

– هونيك يا ابني.

وأوصاني بالسلام عليه. فلم أصدّق أذنيّ.

هو إذن هنا! بين طرفة عين وأختها زال الخطر الذي توهّمته ولم يبقَ إلّا الفرحة بلقاء الريحانيّ. وقد كان من حقّي أن أفرح. أليست هي المرحلة الأولى من مراحل المفاوضات أجتازها بنجاح؟

وقبل أن أدخل على فيلسوف الفريكة يجدر بي أن أقول إنّ علاقاتي بالرابطة القلميّة كانت – في ظنّ الفتى الذي كنته على الأقلّ – وثيقة، وكلّه بفضل ذلك الأستاذ، وجّه الله إليه الخير مرّة ثانية أينما كان. لقد كانت بينه وبين ميخائيل نعيمه، مستشار الرابطة (وكان نعيمه ما يزال في نيويورك) مكاتبات أدبيّة، وكان ينتظر «السائح»، لسان حال الرابطة، بفروغ صبر ليطّلع فيه على ما ينثره نعيمه أو ينظمه. وكنت أستعير منه «السائح» وأنقل عنه قصائد نعيمه، بخطّ فيه كثير من الاجتهاد والتأنّق، على دفتر جميل له جلد قويّ كجلد الكتب، حتّى اجتمع لديّ جمهرة من أشعار ناسك الشخروب لا تقلّ عن مئة صفحة.

وأذكر من جملة ما أذكره أنّي أُعجبت يومًا بقصيدة بشارة الخوري التي مطلعها:

«المَها أهدت إليها المُقلتَيْن
والظِّبا أهدت إليها العُنُقا»

فنسختها على دفتري مقابل قصائد نعيمه، وكلّ الظنّ أنّ ما أعجبني فيها لم يُعجب تلميذ الشعر بل تلميذ الحبّ. وهذه من جملة الفروق بيني وبين أستاذي، إذ كانت كمّيّة الشعر عنده تفوق كمّيّة الحبّ، في حين أنّ كفّة الحبّ عندي كانت، بفضل جارة لي حسناء، هي الراجحة.

الخلاصة، ما كاد أستاذي يرى القصيدة حتّى هزّ

برأسه ، ولعلّه استفظع تعبه عليّ ، فأخذ يفنّد لي مخالفاتها لأصول الأدب ، ولم يفرغ حتّى ملأ قلبي حسرة. ثمّ تناول منّي الدفتر بنزوة عصبيّة ومزّق منه الورقة التي فيها القصيدة ، وما يزال الدفتر شاهدًا أحفظه بين تذكاراتي الغالية ، وكلّما عدت إليه وقفت عند المزقة وقفة طويلة.

إن غضبة أستاذي على قصيدة «الأخطل الصغير» تمثّل مرحلة حاسمة في حياة الأدب العربيّ الحديث. كان أدبنا قبل الحرب الكبرى تقليدًا أعمى للقدماء ، لا ابتكار في المعاني ، على الغالب ، ولا في الأساليب. حتّى جاء أدباء المهجر بعدها فطلعوا بألوان جديدة في المعنى والأسلوب معًا ، وخصوصًا في المواضيع التي طرقوها ، فجذبوا إليهم الناس. وأقبل النشء على ما ينثرون وينظمون إقبالًا كبيرًا لسببين :

الأوّل : لاتّصال أدبهم بالحياة وترجمته عن شؤونها وشجونها.

والثاني : لسهولة فهمه من حيث اللغة ، بابتعاده عن الألفاظ القاموسيّة ، والأحاجي البيانيّة.

إنّ أدباء المهجر أحدثوا ثورة في الأدب. والثورات لا بدّ لها من عنف. أمّا عنفهم فباطّراحهم القديم كلّيًّا. فكأنّ حبّهم للجديد قد دفع بهم من صحراء العرب القاحلة إلى أمّ العجائب أميركا دفعة تقطّعت بها الأمراس. وليست هلهلة اللغة بشيء مذكور أمام ضياع الروح القوميّة. هذه الروح تتمثّل في أدب كلّ أمّة من الأمم ، وتتطوّر معها على مرّ الأجيال تطوّرًا طبيعيًّا فتكتسب شتّى الأشكال والصور ، ولكنّها تظلّ في جوهرها هي هي ، لا تتغيّر ولا تتبدّل.

ولعلّ أمين الريحانيّ هو من القلائل الذين وُفّقوا إلى الاحتفاظ بذلك الحبل السحريّ بين أرض أجداده وموطن ثقافته. ولكنّ هذه الفوارق لم تكن تخطر لي ببال عندما انحدرت إلى بيته ، صباح ذلك النهار ، على تلك السلّم الحجريّة المظلّلة بالعرائش. والراجح أنّ ما كان يشغل ذهني أو حلقي هو العطش. كانت العناقيد الذهبيّة تتدلّى فوق رأسي ، آخذًا بعضها برقاب بعض. فاجتزت التجربة الأولى ظافرًا ، والثانية صابرًا ، ونطحني العنقود في الثالثة نطحًا ، فلم أتمالك أن مددت يدي.

لله تلك اللحظة ! أنا لن أنسى خيبتها ما حييت. وقفت على إحدى الدرجات أتناول الحبّة بعد الحبّة من العنقود –أتعرف المثل : حبّة حبّة أكل العنب؟– مترقّقًا ، متمهّلًا ، متدلّلًا ، أنظر إلى باب الدار مترقّبًا أن يخرج إليّ الريحانيّ ويراني. قلت : إنّني لم أكن أعرفه قطّ ، فلم يكن لي أن أطمع بمباغتة صداقة ، ولم أكن لصًّا لأطمع بأن يخرج عليّ بـ «إلى السارق ! » لم أكن هذا ولا ذاك. ولكنّه طبع كان لي وأنا صغير ، وقد فقدت الكثير منه اليوم ، وهو الصراحة ، والجرأة ، والإقدام. بلى ما لي أستحي فلا أقول الغرور؟ وكان من سوء حظّي أو حسنه ، لا أدري ، أنّ أهل المنزل لم يشعروا بي ، فاضطُررت أن آكل العنقود كلّه بلا مجد. ثمّ ملت إلى الباب أطرقه...

استرحت في البهو على مقعد وثير أنتظره. «سيأتي بعد قليل». هكذا قيل لي. أيكون عند الأدباء أيضًا غرفة انتظار؟

وأخيرًا أطلّ الريحانيّ. أوّل ما أخذني منه شعره المنبوش على ذلك الرأس المربّع الجبّار ، كأنّما هو جبل ، وكأنّما الشيب فيه بقايا الثلج على صنّين. يقول الريحانيّ في وادي الفريكة إنّه «مهيب أكثر منه جميل» وهو قول ينطبق على رأسه انطباقًا. ولكن ، أليس في المهابة ما هو أبعد من الجمال وأعمق؟

قضيت معظم نهاري عند أمين. شربنا وأكلنا وتنزّهنا ، وتحدّثنا عن كلّ شيء أحاديث لا تهمّ أحدًا من الناس لأنّها في نظرهم من التوافه، وإنّما هي تهمّ قلبي. أيهمّهم مثلًا ماذا قال لي الريحانيّ عن الراديو؟ وكان شيئًا عجيبًا في ذلك الوقت وكان هو قد تكلّم به في نيويورك وأسمع العالم صوته الحيّ... أتهمّهم الخيول العربيّة الأصيلة؟ وكان الملك عبد العزيز آل سعود قد

أهدى إليه فرسًا من إصطبله الخاصّ ، أكاد أسمع صهيلها الساعة ، وأداعب عنقها بيدي... أتهمّهم زراعة التفّاح؟ وقد أكلنا تفّاحة كخدّ العذراء من جنينته...

أجل ، أنا أعرف أنّ هذه الأشياء لا تهمّ الناس ، كما لا تهمّهم نتيجة المفاوضات التي قام بها ذلك الصبيّ بين أمين الريحانيّ والرابطة القلميّة. على أنّي لن أختم هذه التذكارات قبل أن أسجّل ما أخذته لنفسي من الريحانيّ في تلك الزيارة ، وما لا أزال أحتفظ به. أقول أخذت والحقّ أنّه هو الذي أعطاني.

فبعد المهابة التي طالعتني من رأسه لم ألبث أن تعرّفت إلى شفته السفلى ثمّ إلى يده اليسرى. الله من تلك الشفة السمينة المتدلّية! كم كانت تقطر هزءًا بخرافات الناس ، وخزعبلات الناس ، وتقاليد الناس! إذا تكلّم تدحرجت الألفاظ عليها كالحمم مشفوعة بصفير من صدر بركان. كأنّما الطبيعة لم تجعل ذلك النقص في لسانِ صاحبها إلّا لتكمل به الصورة الفنّيّة.

وتلك اليد يهدّئ بها خصره دائمًا ، ويحاول إثباتها عليه فتأبى إلّا الانتفاض ، فيجفل لها ويردّها إلى مكانها فتعود إلى شأنها الأوّل. هذه الانتفاضة التي يراها الطبّ شللًا كانت تُكمل فيه هي الأخرى الصورة الفنّيّة للثائر. كم مرّة رافقت يده بعينيّ وهو يتكلّم ، أنتظر انتفاضتها بفروغ صبر ، كأنّها هي القضيب الذي يؤلّف به مدير الفرقة الموسيقيّة بين مختلف الآلات ويدلّ على التوقيعات.

لقد أصبحتُ فيما بعد من أصدقاء الريحانيّ ، وارتفعت بيننا كلّ كلفة يتكلّفها الناس في علاقاتهم ، ولكنّي ظللت أشعر في قربه بالرغم من ذلك بالأشياء الثلاثة التي انطبعت في نفسي في الزيارة الأولى: أتفيّأ ظلال المهابة من شعره ، وأخشى السخرية من شفته ، وأترقّب الثورة من يده انخلاعات وانتفاضات. حتّى كان اليوم الذي ودّعته فيه الوداع الأخير. ينظر إليّ وإلى أصدقائه المتحلّقين حوله في «مستشفى ريز» ويبتسم لنا ويجأر: «إرحمني يا الله! إرحمني يا الله!» ولمّا صار جثّة هامدة انحنيت أبكي. ولكنّ ضعفي لم يستغرق إلّا دقيقة ، دقيقة واحدة من الزمن الذي لا نهاية له. وإذا بي أغمض عينيّ فأرى شفة الريحانيّ على أفق لبنان ، ويده تلوّح للنجوم ، وشعره منبوشًا فوق دنيانا إلى آخر الدهر.

«المكشوف» – ١٩٤٠

* * *

من خلال حلقات المهرجان الذي يُقام لأمين الريحانيّ بمناسبة مرور ربع قرن على وفاته ، أكاد أسمع صوته بتحيّته المعهودة: «مرحبًا يا رجل!»

وإذا أنت أمام وجه الرجل الذي كان رجلًا قبل أن يكون أديبًا ومؤرّخًا وفيلسوفًا ، يتناوب عليك بابتسامتين مختلفتين في المظهر متّحدتين في الجوهر.

إشراقتان من نفسه الكبيرة ، المؤمنة بكلّ شيء كبير ، الكافرة بكلّ شيء صغير ، سواء تعلّق بالسياسة أو بالدين أو بالفنّ. بالله وبالناس على السواء.

من الأشياء الكبيرة التي آمن بها: الحرّيّة بمعناها الكامل للأفراد والشعوب ، الكرامة الإنسانيّة بصرف النظر عن العرق والدين واللون ، التسامح والإخاء ، الرقيّ والتقدّم ، الصراحة والإخلاص ، الخير والجمال.

وقد كفر – وكان الكافر رقم ١ في عصره ، بكلّ شيء سوى ذلك أو ضدّ ذلك. حتّى اتّهمه المتّهمون بأنّه كفر بالله.

شهدته على سرير النزع في المستشفى طوال أيّام ، يعاني بلاهة القدر الذي شاء أن يودي به في حادث بسكليت! فلم تفارق الابتسامة وجهه ، ولا لفظت شفتاه إلّا هذه الكلمات التي ما تزال ترنّ في أذنيّ:

– إرحمني يا الله! إرحمني يا الله!

إله أمين الريحانيّ كان إله تلك الأشياء الكبيرة. به وحده آمن وبشّر. وكفر بسائر الآلهة ومنها سخر.

«الحياة» – ١٩٦٥

ميّ

في أواخر آذار ١٩٣٨ ألقت المرحومة ميّ خطابًا في الجامعة الأميركيّة في بيروت يصحّ عدّه، للظروف التي أحاطت به . من أعظم الأحداث الأدبيّة في العالم العربيّ. كانت ميّ قد اتُّهمت بالجنون ، وحُبس عليها ردحًا من الزمن في «العصفوريّة» ، وأثارت قضيّتها ضجّة كبيرة في لبنان وسائر الأقطار. ثمّ أُعيدت إليها حرّيّتها فأحبّت أن تواجه الناس فألقت فيهم خطابًا عن «رسالة الأديب إلى الحياة». وكان المؤلّف من الحاضرين فكتب المقال التالي :

ميّ صاحبة و«باحثة البادية» والمواقف الخطابيّة العالية والمقالات الرائعة ، نابغة نساء العرب والدرّة المتألّقة في تاج الأدب...

وميّ التي حُجر عليها ، وسيقت من مصر إلى لبنان سوق السجين ، وزُجّت في مستشفى المجانين ، وأُدخل في روع الناس أنّها أصبحت مخلوقة دون الناس بعد أن كانت فوق الناس...

أيّ واحدة من الاثنتين سنرى ونسمع ، في الساعة الثامنة من مساء الثلثاء في وست هول؟

كان السؤال العجيب على كلّ شفة وكلّ وجه وفي حبّة كلّ قلب. فاحتشد ، في أكبر جامعة في الشرق الأدنى ، أرقى جمهور في أرقى مدينة ، ليسمع ويرى ويضع إصبعه. فكان أمام ميّ – لحسن حظّها أو لسوئه ! – نيّف وألف توما !

أطلّت بثوبها الأسود ، وشعرها الأبيض ، وعنقها المشرئبّ ، وطوّفت عينين ضاع لونهما وراء غمامة لم يقف بين صفحة السماء وعيون البشر مثلها قطّ ! غمامة ليست الكآبة لأنّها أعظم من الكآبة ، وليست التحدّي لأنّ فيها الهدوء ، وليست الاستهزاء لأنّ فيها محبّة وتسامحًا وغفرانًا. وكلّ الظنّ أنّ ميّ نفسها لم تكن تدري ، فكيف أدري أنا ، وبأيّ حقّ أختار الأوصاف؟ بل بأيّ قحة أدّعي معرفة ما يجول في نفس تنبعث من الظلمة إلى النور. وتنفض عن أجفانها غبار السراديب لتواجه الحرّيّة؟

وانفتحت أذنا ميّ للتصفيق ! نغمة لم تسمعها ميّ طوال سنتين ، وكانت قبل ذلك ترافقها على أيّ منبر وقفت ، من القاهرة إلى بيروت ، ومن بيروت إلى دمشق ، ومن دمشق إلى بغداد. وإذا اتّكأت على وسادتها في المساء دغدغتها أصداء تلك النغمة ، متجاوبة مع النسائم من أقصى أقطار الضاد إلى أقصاها.

ولكنّ التصفيق هذه المرّة غيره في المرّات العديدات السابقات. كان ذاك إعجابًا محضًا ، وفي هذا شيء من الشفقة ، شيء من التشجيع ، شيء من ملاطفة الكبير للطفل ، أحسّت به ميّ ، وأكبر من الكبار ميّ ، فأضاءت الكهرباء المصفرّة على وجهها المصفرّ آثار

أضراس يشدّ بعضها على بعض وتدور وتطحن كالطاحون... كالطاحون يتلقّى القمح والزؤان والحصى فلا يفرّق بين ذلك كلّه ويردّ إليك ما دفعته إليه، لا يبالي.

ولم تبالِ ميّ، لأنّها ابتسمت وظلّت تبتسم طويلاً.

بعد النظرات الفاحصة، المصوّبة إلى ميّ من ألوف العيون، جاء دور الفحص بالآذان ألوفًا كذلك. فساد صمت حُبست فيه الأنفاس في الصدور. ميّ بَشر سويّ في الهيئة، بل امرأة أنيقة في اللباس، ساحرة في عطفات العنق ومدّ اليد بالشكر، رزينة في الحركة والجلسة، وقور في ابيضاض الشعر واتّساع الجبين...

ولكن هذا كلّه لا يكفي. قال جار:

– يجب الآن أن نسمعها! سأقول لك رأيي منذ الجملة الأولى.

فاعترضه آخر:

– بل من الثانية لنتبيّن رابطة الفكر بين الجمل.

وأراد ثالث أن يقدّم شرطًا آخر، فإذا بميّ تفتح فاها.

أنا لم يُتح لي الحظّ أن أسمع ميّ قبل الحديث الذي ختم على فمها الأدبيّ طوال عامين، فلم يكن لي فضول المقابلة بين الأمس واليوم.

ولكنّي قرأت لميّ كثيرًا ممّا نثرت ونظمت. فإذا هي هي. ميّ كما عرفها ظنّي يجدها حسّي على متناول اليد حقيقة من لحم ودم، أروع من تَصَوُّر المُتَصَوِّر وأحبّ من كلّ ما تزخرف الظنون. ميّ في أدبها السامي، للّفظ عندها معناه، وللمعنى لفظه، وللعبارة مدّها وجزرها، وللفكر صفاؤه، وللمنطق مداخله ومخارجه، وللعاطفة أتونها المضطرم ورمادها المذرور، وللمخيّلة أجنحتها الخفاف اللطاف، وأجواؤها البعيدة المترامية، والأغوار التي ليس لها قرار.

هذه هي ميّ كما عرفتها في ظنّي، بل هذه هي فوق ما أعرفها. مُتع منها حرمني إيّاها البعد، للعين منها نصيب، وللأذن نصيب، من حركات الخطيب وإشاراته، وثوراته وانعطافاته، وأصواته الصاعدة، الهابطة، السابحة، بين صيحة وأنّة، وبحّة وغنّة، مع فصاحة وبيان، ولسان رقبناه طوال ساعة فلم يتعثّر بكلمة ولم يلحن بحرف.

ولكنّ ذلك كلّه ربّما أعجب الناس وأدهشهم. أمّا الذي هزّ منّي النفس في أعماقها فليس ميّ الخطيبة، الأديبة، الشاعرة، المفكّرة، الفنّانة، بل ميّ الإنسان!

كانت ميّ تتكلّم عن رسالة الأديب إلى الحياة، فجعلت تعدّد وجوهها متنقّلة من وجه إلى وجه، حتّى وصلت إلى الوجه المقدّس من وجوه تلك الرسالة العظيمة، فقالت: «... وللأديب رسالة أخرى هي: مؤاساة الحزانى».

وأمسكت ميّ وهزّت برأسها هزًّا بطيئًا، فخُيّل إليّ أنّ أثقال الدنيا على ذلك العنق الهزيل. ثمّ اختلجت أجفانها واغرورقت عيناها بدمعة. ورأت ألوف العيون هذه الدمعة تتلألأ وتتردّد بين الإقدام والإحجام. وأحسّت ميّ بنارها، وأحسسنا نحن جميعًا باللهيب، وكانت دقيقة هائلة!

ميّ ساكتة، شاخصة إلى الغيب، والناس سكوت ينتظرون. تُرى، ماذا رأت ميّ خلال هذه الدمعة؟ أيّ مآسٍ آخذة برقاب مهازل، ومهازل آخذة برقاب مآسٍ! من كرامة منهوشة بمخالب الدناءة، وثقة مطعونة بخنجر الخيانة، ومن طهر في ثياب الدنس، ودنس في رداء الطهر، وظلم على عرش العدل، وعدل تحت أقدام الظلم، وجهل على منبر المعرفة، ومعرفة يستهزئ بها الجهل... أجل، كلّ ذلك رأته ميّ خلال دمعتها تلك. ورأت في تلك الدقيقة مواكب حياتها كلّها، بل مواكب الزمان، من باب جنّة عدن إلى يوم النشور، تتعاقب أمامها مشهدًا

مشهدًا. وكلّ ذلك من واجب الأديب، بل من رسالة الأديب الطبيعيّة إلى الحياة، أن يؤاسي ضحاياه ويعزّي حزاناه، لا يطلب جزاء، ولا يدع مجالًا لدعوة، ولا يُكسب أحدًا منّة. كالزهرة تأرج وتطيّب الأرجاء، لا تحفل بعين هنالك تراها أو أنف يشمّ.

فلترجع الدمعة إذن في عينيْ ميّ إلى محبسها. إنّ ميّ أديبة، ورسالتها أن تعزّي وتؤاسي.

ولم تفرغ ميّ من خطابها الساحر إلّا بعد أن ضيّعت عقول كثيرين... أسامعة يا ميّ؟ لقد قالوها وإن كنت لم تسمعي، قالوا: «والله جنّنتنا!» ألم تسمعي تصفيقهم في النهاية! بلى. ورأيتُ على وجهك فرق ما بين هذا التصفيق وتصفيقهم الأوّل. رأيتك هذه المرّة تتهلّلين وأنت مأخوذة بنشوة الظفر. رأيتك تحتضنين باقات الزهر المرفوعة إليك بيد ما يزال عليها عطر أخواتها السابقات نديًّا كما لو كانت السنتان دقيقتين. ورأيتك تنحدرين إلى الجمهور المحتشد على الأبواب ليحيّيك...

مئات جاؤوا كافرين، ومئات بين الشكّ واليقين، وقليل قليل من المؤمنين. ها هم كلّهم صفّ واحد يهتفون معجبين، ويصفّقون مسرورين:

لقد عدت إلى الناس، وعاد الناس إليك يا ميّ!

فليس إلّا فرحة اللقاء!

«النهار» — ١٩٣٨

الياس أبو شبكة

«أينتهي الحُبُّ كما تنتهينْ
يا شمعتي يا مَثَلَ العاشقينْ»

كأنّه الساعة يتلو عليّ أبياته ، وكأنّ وجهه الشاحب الغائم في وجهي ، وصوته البعيد القرار في أذني . وكأنّه يرى الشمعة تذوب ، بين الشرر المتطاير والدمع المتناثر ، فهو يرافق احتضارها بعينيه ينظر إليّ ولا يراني ، وتتشنّج أصابع يده في الفضاء ، كأنّه يتلمّس روح الشمعة ، ومعها روحه وأرواح العاشقين جميعًا . ولا يتركني إلّا أن أقول له رأيي ، وهو يأباه إلّا ثناء وإطنابًا ، فإذا سكتّ – والويل إذا انتقدت ! – كفى نفسه مؤونة الجميل فطرب لنفسه وطيّب . ثمّ راح يدقّ الأرض بعصاه السوداء ، لا يتركها ليل نهار ، على أرصفة المدينة أو في دروب القرية ، يتوكّأ عليها – وهو ، يشهد الله ، لم يتوكّأ في الدنيا على سواها – ويسوق بها موكب قوافيه وأحلامه .

لم ألتقِ الياس أبو شبكة – وكثيرًا ما كنّا نلتقي : في المقاهي يحلو له فيها تدخين النارجيلة وغمغمة الشعر ، وفي إدارات الصحف يتردّد عليها لإصلاح مسوّدات مقالاته ، وفي المكتبات يقف فيها على الجديد من الآثار الأدبيّة أو يتشمّم ، على حدّ قولنا ، رائحة الحبر والورق – لم ألتقِ الياس أبو شبكة إلّا تمثّلت لي فيه صورة الشاعر الرومانطيقيّ تُفلت من الكتب والأساطير وتدرج على الأرض لحمًا ودمًا . وكانت هذه الصورة تأخذنا نحن أصحابه بطرافتها فنقرب من صاحبنا بشيء من فضول وتهيّب . إلى ودّ خالص ، ومزاح ينبغي ، على أيّ حال ، أن نعرف حدّه ونقف عنده .

كان أبو شبكة فذًّا في الناس وفي الشعراء . تضافرت على تكوين شخصيّته عوامل من مزاجه ، وبيئته ، وثقافته ، ودفعته في السبيل الذي سلكه دفعًا لا اختيار فيه . إنسان نحيل . عصبيّ ، مريض المرض المبارك في لغة الرومانطيقيّين . ينصرف ، صبيًّا ، إلى العزلة والصمت في حين يلعب أترابه ويضجّون ، ويصرخ ، تلميذًا ، في وجه معلّم الرياضيّات : اثنان واثنان من الذهب لا يساويان قافية ! ويُقفل ، شابًّا ، باب غرفته على قنديل زيت ويكتب في مفكّراته : «صرفت مساء اليوم ساعتين في التأمّلات» .

كانت الحياة في نظره حلمًا لا صراعًا ، ونزهة لا عراكًا ، فأيّ غرابة إذا حفلت بالصعوبات والخيبات والمرارات؟ وأيّ عجب بعد ذلك إذا حفل شعره بالبكاء والنقمة واليأس؟

وكانت البيئة التي نشأ فيها وترعرع قد هيّأها الله تربة أصلح ما يكون لاختمار تلك البذرة ونموّها . فالزوق قرية لبنانيّة هادئة ، منثورة بيوتها على رابية ساحرة ، يتوسّطها بيته هو – أكبر منها جميعًا وأشمخ – تحيط به شجرات الصنوبر باقات باقات ، حتّى إذا جُنّ الليل تراءت له رؤوس جنّيات . إذا مشى ، فقدم في الشاطئ وقدم في الجبل . وإذا رنا ، فعين في الزرقة وعين في الخضرة . وسماء تتصاعد فيها قبب المعابد كأذرع ممدودة في صلاة ، وخلجان ومغاور ، وآكام وأودية ما يزال

يتردّد عليها طيف أدونيس وترنّ فيها قبلاته ، ودروب دميت عليها قدما عشتروت الحافيتان في السعي وراء حبيبها ، فما تزال شقائق النعمان تطلع على حافاتها كلّ ربيع .

ثمّ جاءت الثقافة فغذّته الغذاء المنشود . تناول منها ، أوّل ما تناول ، في مدرسة عينطوره حيث للّغة الفرنسيّة تقاليد ، وللشعر الفرنسيّ تقاليد ، وللأدباء الفرنسيّين تقاليد وذكريات حيّة . حتّى لقد خشي عليه بعضهم ، لو أكمل دراسته فيها ، أن يصبح شاعرًا بالفرنسيّة . زِدْ على ذلك أنّ الانتداب كان في بداية عهده ، فالثقافة ثقافة أصحابه ، وأصحابه في المدارس وفي غير المدارس رومانطيقيّون . فكيف إذا كان الفتى في مزاج الياس أبو شبكة . وكانت البيئة التي يعيش فيها هي بيئة الياس أبو شبكة . وهكذا راح يعبّ من أدب الرومانطيقيّين عبًّا ، لا يترك هوغو إلّا إلى لامارتين ، ولا ينفض يده منها إلّا إلى موسّيه وبرنردان دي سان بيير . يعايشهم في مظانّهم : عند الصخور تتكسّر عليها الأمواج ، وفي ضوء القمر ، وعلى ضفاف الغدران ، وفي الأودية العميقة الظليلة . يحبّ فيما يحبّون . ويكره فيما يكرهون ، ويعمّر على دنياهم دنيا حياته وفنّه . وربّما خرج منهم إلى فولتير وموليير وأضرابهما تمشّيًا مع ميل فيه للتهكّم المقذع على الناس وتقاليدهم وأكاذيبهم ، ولكنّه لا يلبث أن يرتدّ إلى فطرته ، فتبعث له مخيّلته الرؤى بألف شكل ولون فيُغرق بها كلّ شيء .

غدًا ، عندما يؤرّخ المؤرّخون هذه الحقبة الأدبيّة التي تمتدّ طوال النصف الأوّل من القرن العشرين سيقفون على أبو شبكة فيرون أنّه يمثّل دورًا فريدًا فيها . لا من حيث إنّه الشاعر الرومانطيقيّ الأمثل فقط ، بل لأنّه يشكّل صلة الوصل بين جيل وجيل ، على أنّه مستقلّ عنهما معًا . فقد أطلّ أبو شبكة على الشعر في لبنان وغير لبنان وهو لم يتحرّر بعد من قيود القديم ، فالشعراء يقتفون في الغالب آثار العرب منذ مئات السنين . يمدحون ويرثون ويهجون ، ويتغزّلون . إذ يتغزّلون ، مستعيرين لمحبوباتهم ، من الصحراء التي لا يعرفونها إلّا بالتوهّم ، عيون المها وأعناق الظباء وأرداف الكثبان . فإذا أبو شبكة يقطع معهم مرّة واحدة ، ويغمس قلمه في اثنين : قلبه وما كان أزخره ، وهذه الطبيعة المحيطة به أرضًا وبحرًا وسماء . ولونًا وعطرًا وظلًّا . موارد للوحي لم يردها الشعراء قبله على قربهم منها ووجودهم في زحمتها :

«كالعيسِ في البيداءِ يقتلُها الظما
والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ»

حتّى ليصحّ القول إنّ أبو شبكة طليعة الشعراء اللبنانيّين ، ولعلّه أوّل من استطاع أن ينقل نفسه من الأوراق الصفراء ويتخلّص من روائح عفنها ليتنفّس في جوّ بلاده الحرّ . وربّما أخذ عليه بعضهم تأثّره بشعراء الفرنجة ، ولكنّ هذا التأثّر لم يكن منه بدّ ، وقد آتى ثمارًا إذا كان اسمها غريبًا ، فما ضرّها إلّا بمقدار ما يضير «الغولدن» اسمها في حقول حراجل وجنائن بكفيّا ، وقد أصبحت تفّاحة لبنانيّة أصيلة ، من تربة لبنان غذاؤها ، وينابيع لبنان ماؤها ، وشموس لبنان وأنسام لبنان دسمها وعطرها وبهاؤها .

هذه الرومانطيقيّة اللبنانيّة تجدها في منظوماته كلّها : «القيثارة» ، «الألحان» ، «نداء القلب» ، «إلى الأبد» . وتجدها في «غلواء» ، البناء الموحّد بين أبنية الشعر الموحّدة التي أتحف بها اللبنانيّون الأدب العربيّ وبزّوا بها أقرانهم في سائر أقطار الضاد . وتجدها أخيرًا في «أفاعي الفردوس» ممزوجة بأنفاس التوراة ، مستعيرة كلّ ما في السماء من بركات وكلّ ما في جهنّم من لعنات . وسيظلّ أبو شبكة – بالرغم من إجادته سائر أنواع الشعر – معروفًا لدى الأجيال بـ «أفاعيه» لأنّها تحمل طابعه الذي ينفرد به ، ولأنّه وُفّق فيها خصوصًا ، من خلال ترجمة نفسه ، إلى ترجمة جيل بأمّه وأبيه ، هو هذا الجيل الذي انغمس بين الحربين في ملذّات الدنيا فصهر فيها جسده وروحه ، ولم يعد إلّا بما عاد به

آدم وحوّاء من فردوسها بعد حكايتها مع الأفعى.

ولقد كان يُرجى لشاعر كأبو شبكة أن ينطلق أكثر ممّا انطلق إلى آفاق تتناول لا جيلاً فحسب ، بل أمّة ، وعالمًا ، وكونًا. ولكنّه قصّر عن ذلك ولم يستطع أن يخرج من شبكة ذاته ، فتخبّط فيها كلّ حياته.

وبعد ، إنّ لبنان بلد عجيب حقًّا ، خصوصًا في سرعة أخذه بكلّ جديد وتعلّقه بكلّ طريف. وكما إنّ مدنه معرض فريد تتلاقى فيها قيافات البدو التقليديّة ، وأثواب القرون الإقطاعيّة ، وآخر أزياء الفصل الطالع في باريس ، فتمشي على رصيف واحد ، او تتبختر في ملهى ليليّ وتتراقص ، تزدحم فيه أفكار من عمر آدم وأفكار ما تزال في الأقماط. ربّما اعترض بعضها بعضًا فتتصادم وتتصارع ، وربّما مرّ الواحد منها بجانب خصمه هادئًا مطمئنًّا لا يلتفت إليه ولا يحسّ به على الأرجح. فبينما كان أبو شبكة ماضيًا في طريقته الشعريّة التي ارتضاها لنفسه إذا بأزياء وآراء ، وبدع ونظريّات ، تنبت في لبنان كالكمأ تحت الرعود ، وإذا بالشعر يندفع على يد فئة من الشبّان الطالعين في شعاب من الرمزيّة حينًا واللاوعي حينًا ، وإذا هؤلاء الشبّان – وفيهم الموهوب الشاعر والمقلّد الماكر – يُحدثون ضجّة ويثيرون غبارًا. وإذا الناس يُقبلون عليهم ويحتفون بهم ويصفّقون لأشعارهم ، وليس من الضروريّ أن يستسيغوها أو يفهموها. فشرع أبو شبكة ينظر إلى ذلك كلّه باستخفاف بادئ بدء ، فلا مبالاة ، فاهتمام! وقد سمعته غير مرّة يتحدّث عن هؤلاء فألحظ وراء تحفّظه ألمًا يكتمه ومرارة تأبى عليه كبرياؤه أن يبوح بها. ولكنّه لم يحاول قطّ ولم يخطر له ببال أن يحيد عن طريقته. لقد تقبّل نصيبه ، واحتمل ما كُتب له : أن يكون في بداية عهده سابقًا ، وما يكاد حتّى أصبح مسبوقًا. سرّ لا يد له فيه ، بل يجب أن نبحث عنه ، كما قلت ، في خزانة هذا البلد العجيب ، لبنان ، المملوءة بالأسرار والمتناقضات.

لقد عدت أبو شبكة في المستشفى الذي أغمض فيه عينيه الإغماضة الأخيرة. فرأيته كما عهدته طوال خمس عشرة سنة من صحبة لم تعكّر سماءها غمامة ، جَلودًا على الألم ، سكوتًا ، أنوفًا. وكان يعاني هذا الألم منذ زمن ويأبى أن يصدّق خطره. وكنّا نعرف نحن أصحابه أنّه مصاب بفقر الدم... يا للمصادفة بل يا للنبوءة! أليس هو القائل :

«اِجرحِ القلبَ واسقِ شِعْرَكَ منه
فـدمُ القلبِ خمرةُ الأقلامِ»

مِن جرح قلبه ، من دم قلبه ، سقى أشعاره كلّها. وكأنّه عقد بين الدم وقلبه ميثاقًا ، فلم تخلُ قصيدة من قصائده ، طالت أو قصرت ، من هذه اللفظة الرهيبة «الدم» ، وربّما ردّدها في القصيدة الواحدة مرارًا وفي البيت الواحد غير مرّة. ولو تصدّى متصدٍّ لإحصائها في كلّ ما خطّ قلمه لعاد من الإحصاء بما يكاد يوازي الكريّات الحمر التي وقف الطبيب يعلن في الساعة الرابعة من صباح السابع والعشرين من كانون الثاني السنة ١٩٤٧ أنّها نضبت في قلبه ، فلا حيلة ولا رجاء.

ولم يسعفني الحظّ بعزاء توديع الشاعر الوداع الأخير. ولكنّي إذ تبلّغت نعيّه عادت إلى ذهني صورته جالسًا إزائي ينشدني ، فردّدت عن فمه المُطبَق مستأذنًا في التحريف :

أينتهي «العمرُ» كما تنتهينْ
يـا شمعتي يـا مَثَلَ العـاشقينْ

كلّا! إنّ الشمعة التي تذيب مثل هذه الدموع النديّة ، وتُطلع مثل هذه الأضواء الصافية البهيّة ، وإن ماتت فهي حيّة بما أحبّت وشقيت وأعطت.

رحمك الله ، يا الياس أبو شبكة ، بقدر ما أحببت وشقيت وأعطيت.

«البيرق» – ١٩٥٠

سعيد تقيّ الدين

قالوا: مات سعيد تقيّ الدين في كولومبيا.

وكنت قد رأيته قبل أن يسافر إليها، ورأيت على وجهه الموت، فقلت له:

– يا سعيد، أنت لم تعد للأسفار والجهاد، ينبغي لك أن تستريح حيث أنت.

فأجابني وعيناه تنظران إلى الغيب:

– سأتابع طريقي إلى النهاية. أكثير علينا أن يتابع واحد منّا طريقه إلى النهاية؟

لغيري أن يؤرّخ سعيد تقيّ الدين، فيصف طوافه بين لبنان والفليبّين، والفليبّين ولبنان، ولبنان والمكسيك، والمكسيك وكولومبيا. ولغيري أن يعدّد المؤلّفات التي ألّفها، والسياسات التي سلكها، والتجارات التي تعاطاها، وأحكام الإعدام التي حصل عليها... وأن يناقش في كلّ ذلك.

أمّا أنا فأريد أن أودّع سعيد تقيّ الدين، وأدعو أصدقاءه إلى توديعه معي.

أدعو الأنفة وقد وُلدت معه في المهد، ورافقته في الغنى، ولم تتخلّ عنه، أو يتخلّ عنها، في أحرج ساعات فقره وأشدّها حرمانًا وإيلامًا.

أدعو الطموح الذي عصف به وتقاذفه من بلد إلى بلد، ومن عمل إلى عمل، ومن غاية إلى غاية، فبعثر قطرات من دمه على كلّ أرض، وخِصَلًا من روحه على كلّ كوكب.

أدعو السخرية التي مزّق بها عن الناس وجوههم المقنّعة، ثمّ لبس لهم قناع الفنّ، ليضحكوا جميعًا خلال الحياة المنهمرة بدموعها كالأمطار.

أدعو الأدب. أدعو الكلمة المقتضبة، المقلوعة من الجذور، الفائحة برائحة الأرض، المختلجة بالحياة، المجنّحة بالروح، الحبلى بالأسرار، يقول بها سعيد تقيّ الدين ما لا يقوله سواه بكتاب. وكم له من كتاب!

قولوا لديانا* : مات أبوك.

ولكن، أيّان كنت اطرحي منديل البكاء، واجلسي إلى البيانو. أنت تعلمين كم كان يحبّه من أجلك ويحبّك من أجله. واضربي بأصابعك – التي أودعها كلّ اختلاجات روحه – أضربي بكلّ قواك لحنًا من بيتهوفن يضيع معه العقل والحسّ، وتتمجّد فيه أعاصير الأرض وبراكينها.

* * *

نهاية سعيد تقيّ الدين في كولومبيا نهاية أروع قصّة ألّفها سعيد تقيّ الدين.

أما قال عن قصصه إنّه عاشها؟ قصصه كلّها قِطع من حياته. وحياته القصّة الكبرى.

من بعقلين انحدر. كجلمود صخر على أثر بارود في مقلع على شفير. وظلّ يتقلّب على السفوح والأودية، والقارّات والمحيطات، ولم يقف إلّا بعد أن حطّم في طريقه كلّ شيء، وتحطّم شعاعًا.

قصصه كقصّته. صخور يهيلها مارد من شاهق.

---

* ابنة سعيد تقيّ الدين، وهي فنّانة عازفة بيانو.

يقتلعها من الأرض بترابها ، ليس لديه صبر على نحتها ولا هو يهتمّ. كأنّها هي ، على اختلاف الأحجام والأثقال ، منسجمة أصلًا ، فهي تقع في قبضته على هواه ومبتغاه. وكثيرًا ما يطيب له أن ينقفها بأطراف أصابعه ويضرب بعضها ببعض فتقدح شررًا عجيبًا.

يبدأ مداعبًا أو مباغتًا بصخر يُحكمه على قيد شبر من أنفك ، فتُجفل ، تحبس الأنفاس متلفتًا من كلّ صوب : من أين؟ وما تكاد ، حتّى تنهال عليك الصخور متدافعة. وربّما ألهاك عن مكر فألقى منها بعيدًا فتشرد متفرّجًا عليه ، يهشّم بها دوحة هنا ، أو يفجّر غديرًا هناك ، أو يهدّم جدارًا . أو ينفّر عصفورًا. مخاتل. يهوّل عليك من ناحية ليرميك من أخرى ، ويبسط كفّيه فارغتين في الهواء على مرأى منك ، ثمّ يصفّق بهما مقهقهًا ، مُفلتًا من تحت إبطه الصخرة الكبرى على يافوخك ، الجملة الأخيرة في القصّة ، الكلمة الأخيرة التي تسحقك سحقًا.

كلّ قصصه من مقلع الحياة اللبنانيّة بشطريها المقيم والمهاجر.

الفلّاح الطيّب ابن الأرض الطيّبة المباركة. أخو الجهل والفقر. أبو المروءات البيضاء والشارات الحمراء. الفلّاح المتعبّد في هياكل حقوله ، المتعلّق بملكه تعلّقه بروحه. أيبيع الإنسان روحه؟ المتخلّي عن الاثنين ، الملك والروح ، راضيًا مختارًا في سبيل تعليم أولاده «لينشروا العلم على سطح الدنيا». حتّى إذا تعلّموا أنكروا أرضهم وآباءهم وضاق بهم سطح الدنيا ، ينشرون عليه العلم ويطوون بطونهم على الجوع.

والمهاجر المسافر على الظهرَين – الباخرة وطموحه – إلى أقاصي المعمور ، المثكل أمّه قهرًا وغمًّا ، المطرود بالشتيمة عن الأبواب ، الفاتح الأدغال ، المحتال المزوّر ، الباني القصور ، الباحث مع ملايينه أين يُباع كيلو البطاطا بثلاثة سنتات بدلًا من ثلاثة ونصف ، الطائف على الأجانب بالكشّة ، فإذا كبر عليها فعلى أولاد العرب بالمشيخة ، المضطجع إلى زنجيّة أجمل منها العنزة في مراح بيته في الضيعة ، المغيّر كلّ شيء حتّى اسمه ، ولكنّ القاف تضجّ في صميمه ، يظلّ تحت ثيابه فلّاحًا من لبنان ، ودرزيًّا من الشوف.

وبين هذا وذاك ابن المدينة الذي خنّثته الحضارة ، أو استعبدته الوظيفة ، أو علّمته التجارة بيع الدين والشرف فيما يبيع. وحتّى الوزير الخطير والنائب الكاذب...

أبطاله كلّهم ثائرون مغامرون ، يعيشون أحلامهم صدقًا إذا استطاعوا ، وتزويرًا على الناس وأنفسهم إذا جبنوا. وبطل الأبطال من ورائهم هو. ظلّه العريض منبسط على كلّ قصّة ، وهديره خلف كلّ صوت. وكثيرًا ما يحتلّ الساحة بلحمه وشحمه معترضًا الحوادث بعصاه ، كشرطيّ السير على المفارق ، يُرشد ويشتم وينظّم المخالفات. وقد يتّفق له أن يعرقل السير ، فلولاه لتابعت الحوادث طريق أقدارها... وقد يقف بوجهه شكس من شكسي الطباع – وما أكثرهم في قصصه – عنيد ، حرون ، فيركله ، فيقفز بالحادثة فوق جسور المستحيل... لعلّه يفعل ذلك عمدًا لإبراز ما يريد من فكرة ، وبلوغ ما يصبو إليه من غاية.

وغاية كلّ شيء عنده خيبة ومرارة. «أحقًّا أنّ عِذاب الأماني تبقى عِذابًا حتّى تتحقّق فتفسد؟» الحبّ ، الغنى ، الجاه ، السعادة... ويا ليت! إنّ تحقيقها يُفسد صاحبها أيضًا ويُفسد الحياة من حوله. كأنّما اللذّة كلّها في التطلّع واللهاث ، في الجهاد وبصق الدم على الطريق. وإذا سلك أحد غير هذا الطريق ، إذا طار على جناحَي الكذب والخداع ، أو ركب ضميره وشرفه كما تُركب الحمير والسيّارات ، فالويل له من كرباج سعيد تقيّ الدين! والويل له مرّتين إذا قعد وتقاعس.

الحياة مجموعة متناقضات ومفاجآت. وجوه

متداخلة، متغيّرة أبدًا. «الثلج الأسود» عنوان قصّة من قصصه يصلح، أو يكاد، عنوانًا لها جميعًا. تزرع ثلجًا ناصعًا فتحصد فحمًا. تفتّ المسك فيطالعك القذر. تقفز إلى العنقود المتدلّي من السماء فتقع في الهاوية عاضًا الأرض.

وهكذا ترى الطهر عند سعيد تقيّ الدين متوّجًا بأبشع العهر وأرخصه. الجهل يحصّل الثروة والسؤدد. العلم يتمرّغ جوعًا وذلًّا. المعروف يلقى جزاءه عند الناس أكلًا للدّين، وعند الله التيفوس! الثقة، الشهامة، الصدق، البطولة، التضحية، كلّ الفضائل، حتّى التحيّة بصباح الخير كلّها تنقلب على رؤوسها وتعرض أقفية مخزية. ومن هنا كانت أكثر قصص سعيد تقيّ الدين فاجعة. إلّا أنّها غير باكية. فعلى الدماء خمور تنصبّ على ميعاد، وقهقهة سكّير يعبّ ملء شفتيه.

على هذه الموائد الساديّة مرّ كلّ شيء: المبادئ الاجتماعيّة، القيم الأخلاقيّة، التعاليم السماويّة. وإذا لم يجد سعيد تقيّ الدين فريسة دار على نفسه جلدًا وهزءًا. سعيد تقيّ الدين المتكبّر الطموح، المسافر المغامر، الكاسب الخاسر، الودود الحسود، وحتّى سعيد تقيّ الدين الكاتب لم يسلم منه. سعيد تقيّ الدين أعظم ضحايا سعيد تقيّ الدين وأدعاها إلى الإعجاب بجبروته.

يا أخي، يا سعيد،

«إذا استمرّ اضطهاد الناس لك، فعريت إلّا من قميصك الممزّقة، فسُلَّ من عروقك حبرك واكتب به رسالتك على قميصك الممزّقة».

لقد رأيتك –آخر عهدي بك– في المكسيك، المحطّة التي ترجّلت فيها من القطار قبل أن يحملك إلى المحطّة الأخيرة. ورأيت عليك ظلّ كلماتك هذه.

وها أنا أستعيدها، وأستعيد معها حياتك وأسفارك وجهادك. فإذا أنت قد عشتها كلّها من أجل تلك الرسالة. وقد كتبتها بدم قلبك على قميص ممزّقة كلّنا يدثّرها تحت ثيابه المكويّة اللمّاعة. إنّها قميص أحلامنا وأمانينا الممزّقة ألف مرّة كلّ يوم.

هنيئًا لك! لم تخلعها عنك إلّا بعد أن جفّت آخر قطرة في عروقك.

فأدّيت رسالتك كاملة.

«الحياة» – ١٩٦٠

يوسف غصوب

كان جاري في حيّ الجمّيزة في بيروت ، من ١٩٤٠ إلى ١٩٦٠ ، بين منزلي ومنزله بضع خطوات. وكان يطيب لكلّ منّا أن يزور الآخر لجلسة شعر ، أو دقّ طاولة. وكان يوسف غصوب موزّعًا بين الهوايتين ، لا يترك الواحدة إلّا إلى الأخرى. والثانية أغلب.

لاعب أصوليّ ، يحذف الزهر بأناقة ، ينقل الحجارة بمهارة. لم أرَه يفرح لربح أو يحزن لخسارة. وأكثر ما كان يغيظني منه ، وأنا ألاعبه ، رباطة جأشه هذه ، أو بالحري برودة دمه. ولطالما تمنّيت عليه أن يوقع الزهر على الأرض ولو مرّة ، أو أن يغضب فيقذفه في الهواء. فيقول لي :

– أترك ذلك لك.

يوسف غصوب الشاعر هو يوسف غصوب اللاعب. لا يهزّك أبدًا بعنف. وقبل الشعر ، كتب يوسف غصوب كتابًا حلوًا في النثر بعنوان «أخلاق ومشاهد» صوّر فيه المجتمع اللبنانيّ في أوائل عهد الانتداب تصويرًا بارعًا. وأذكر أنّ هذا الكتاب كان من أحبّ الكتب التي انحنيت عليها في صباي. فلمّا أصدر ديوانه «القفص المهجور» لحقته من النثر إلى الشعر وطربت إلى الكثير من قصائده ، ما عدا ما كان منها في الغزل :

– أنت تبكي في الحبّ. وأنا لا أحبّ البكاء فيه ، وما عرفته.

فيجيبني ، بترداد هذا البيت :

«أُحبّكِ حتّى يسيلَ الدمُ
وحتّى يموتَ عليكِ الفمُ»

وهو من قصيدة لي قديمة. ثمّ يقلب شفته السفلى ويُردف :

– أنت ذئب. والمرأة في حبّك فريسة.

بعد «القفص المهجور» صدر له ديوانه الثاني «العوسجة الملتهبة». وبين «القفص المهجور» و«العوسجة الملتهبة» مرحلة من العمر قطعها يوسف غصوب – وهو يمشي دائمًا على الشوك – فرأى فيها أشياء جديدة لم يرَها في المراحل التي قطعها بينه وبين نفسه من قبل.

هو الزمان ، يفعل بالإنسان ما لا يظنّ أنّه فاعل به. فيوسف غصوب في «القفص المهجور» ولد يبكي لعبة الحياة التي تحطّمت بين يديه ، وعاشق حييّ لا يجسر على رفع عينيه في عيني من يحبّ ، ومتشائم يدور على نفسه.

أمّا يوسف غصوب في «العوسجة الملتهبة» فلم يتغيّر نظره إلى الحياة. ولكنّه استطال وبعُد. هو هنا لا يكتفي بالبكاء على الحياة ، بل يحاول أن يجد لها تفسيرًا – أي عزاء – ألا تسمعه يردّد «لذّاتنا في الشوق لا في الوصال»؟ وأصبح لا يرى في القبر «أثبت ما بناه الإنسان» بل يهتف : «دعوني فقد أضاء الموت نور الفؤاد». وهو قد خرج من ثوبه ودخل في ثياب الآخرين ومدّ أصابعه إلى نفوسهم يفتّش فيها عن اليقين والشكّ ، وعن الرغبة والرهبة ، كما فعل في «صلاة

راهب» وفي «العذارى». وإذا رجع إلى نفسه فلكي لا يقعد بها عند مستنقع اليأس بل ليُطلق لها الأمل وراء دنيوات أخرى ، كما في «نداء البواخر».

وأمّا يوسف غصوب العاشق فقد هزل وتضاءل ، وكأنّه انهزم طاويًا خيبته تحت إبطه.

هذا التحوّل يلمسه القارئ بين الديوانين ، ويتيسّر له ذلك لضمّ «القفص المهجور» إلى «العوسجة الملتهبة» بين دفّتين اثنتين.

يوسف غصوب من الذين يرون في الشعر بعض الألوهة ، ويمارسونه بشيء من التقديس. ويلوح لي أنّه يعاني من النظم ما ليس بالهيّن ، حتّى لأكاد أحسّ لهاثه على كلّ بيت ، وكلّ كلمة. وعالمه هو عالم الرومانطيقيّين: الصبح ، الغسق ، الزهر ، النسيم ، الأريج ، والطبيعة كلّها. تكاد لا تخلو قصيدة من ذلك حتّى لأخشى عليه أحيانًا أن يبهره النور ويخنقه العطر! وهو ماهر في الوصف ، ولكان مصوّرًا من الطراز الأوّل لو أنّه انصرف إلى الفرشاة. فهو يعرض عليك لوحات جميلة ، منسجمة ، دقيقة ، لا يقتصر فيها على مظهر الأشياء بل ينفذ إلى الجوهر.

ولكنّ لكلّ شيء آفة من جنسه. فقدرة يوسف غصوب على الوصف تطوّح به أحيانًا إلى وصف ما لا ينبغي. يستطرد استطرادًا فاحشًا ، مثال ذلك : عندما يشبّه فؤاده بالروضة الغنّاء في قصيدته «مرفأ السلام» ثمّ ينصرف طول بضعة عشر بيتًا إلى وصف هذه الروضة : مياهها ، ضفافها ، زنابقها ، ورودها – حمراء وبيضاء – طهرها ، رقّتها ، عبقها في الفضاء إلخ. والفنّ لا يقتضي كلّ هذا. الفنّ يريد من الشاعر أن يخلق الجوّ وأن يوحي فحسب. فإذا دخل في الجزئيّات وسلك في التعاريج ضيّع على القارئ الصورة التي يصنعها في ذهنه للروضة ، وهي فيه مطلقة أروع منها مقيّدة.

وبعد ، ليس يوسف غصوب من الشعراء الذين يحلّقون بك فوق القمم. قصاراه أن يمدّ يده ويأخذ بيدك في نزهة إلى الحقل أو على شاطئ البحر. نزهة هادئة رائقة ، فيميل بوجهه إليك وأنتما تمشيان الهوينا ، فيقصّ عليك آلامه وخيباته فترتاح إلى هذه الأحاديث ، وقد تضيق وتتذمّر كما في «مرفأ السلام». ولكنّه ما يلبث أن يعوّض عليك إذ يضع إصبعك على جرح سال في قلبه فإذا هو جرحك ، أو على خاطر في ذهنه فإذا هو خاطرك ، أو على غصّة تتحيّر في حلقه بين الحلاوة والمرارة ، فإذا هي غصّتك.

وشاعريّة يوسف غصوب تظهر خصوصًا في هذه المقاطع التي انفلت فيها من نطاق أنانيّته. وكفاه منها «صلاة راهب» :

أُغمضُ الطرفَ مكرهًا عن جَمالٍ
كان فيه على الطهارةِ أنسي...
وجيوشٍ مُلِحّةٍ من شكوكٍ
غـــاشياتٍ معشّشاتٍ برأسي
كـالحاتٍ تـدبُّ في كلِّ صوب
كدبيبِ الديدانِ في جوفِ رمسٍ
... أُشكلَ البغضُ والمحبّةُ عندي
وغـدا اليومُ في العنـاء كـأمسِ

أعود فأقول إنّ هذه القصائد التي خرج بها يوسف غصوب من ثيابه وأدخل نفسه في ثياب الآخرين تبعد بنا كثيرًا عن قصائده الغراميّة الخجولة ، المتردّدة ، الباكية ، ولن أنسى يومًا عاتبته فيها فصرخت :

– أُترك للمُرد أن يتلهّوا بهذا ، وتعالَ إلى دقّ طاولة !

«المكشوف» – ١٩٣٩

ساكت

في السنة ١٩٣٨ قصف الموت شابًّا كان يبسم له الغد عن آمال كبيرة ، هو المرحوم نجم أبو شرف حتّي من ضواحي زحلة. وكان الفقيد يكتب في «المكشوف» مقالات غاية في الطرافة بإمضاء «ساكت» أثارت حول هذا الاسم كثيرًا من المحبّة والإعجاب. وقد أقام له فريق من الأدباء في ١٨ أيلول ١٩٣٨ في قاعة سينما «الأمبير الجديدة» في زحلة حفلة تذكاريّة كان المؤلّف أحد خطبائها فألقى الكلمة التالية :

من التقاليد المتّبعة في حفلات الذكرى التي يقيمها الناس لأمواتهم السكوت دقيقة أو دقيقتين على قدر عظمة الميت إن كان من العظماء ، أو محبّته إذا كان من الأحبّاء. إنّ في أصل هذه العادة جمالًا ساميًا ، هو جمال الذكرى المجرّدة. تنفلت النفس من تكاليف الزمان والمكان وترجع القهقرى ، تعايش الفقيد عهد يدرج في الدنيا بلحمه ودمه ، وأحلامه وآلامه ، شاعرًا ينظم قصيدته ، أو حاكمًا يملي مشيئته ، أو أخًا مؤاكلًا ، أو صديقًا مسامرًا ، أو ابنًا على عتبة البيت ضاحكًا لاهيًا.

ولكنّ البشر أفسدوا على التكرار كلّ شيء صالح. وقد أفسدوا معنى السكوت بفرضه في الحفلات فرضًا ، فأصبح طلبه فضولًا ، والقيام به مملولًا. أمّا ونحن في ذكرى نجم أبو شرف حتّي فما أحرانا أن نعود إلى الأصل فنسكت السكوت البكر ، لمن وُلد ساكتًا ، وعاش ساكتًا ، ومات ساكتًا ، ولمّا أبى عليه الفنّ إلّا أن يتكلّم أكمل سلسلة سكوته بالحلقة العجيبة ، فتكلّم «ساكتًا» !

فقيدنا حبيب أكثر منه عظيم. وما أحوج العظمة إلى المحبّة ، وما أغنى هذه عن تلك ! ما عظمة العظيم إذا ملك كلّ شيء في الناس ولم يملك قلوبهم؟ وما مطمع الحبيب إذا ملك الناس وفقد كلّ ما يملكون؟ بل إنّ لكلّ عظمة حقيقيّة ركنًا من المحبّة خطيرًا ، وفي كلّ محبّة حقيقيّة سرًّا من العظمة كبيرًا. ولئن كان نجم أبو شرف حتّي لم يسعفه العمر بأن يصل إلى مصافّ العظماء فقد أُوتي أن يكون في مقدّمة الأحبّاء ، لخلال في حياته وفنّه ، أذكر منها السكوت ، وأسكت.

طيف من الأطياف مرّ بهذه الدنيا ساكتًا في أصله ، ساكتًا في فقره ، ساكتًا في مرضه ، لم يعرف عربدات الجاه الظافرة ، ولا صيحات الغنى الفاجرة ، ولا جلبات الصحّة كافرة ولا طاهرة. ولعلّه ، رغبة في الانسجام مع هذا كلّه ، أو نكاية بهذا كلّه ، أو ارتفاعًا فوق هذا كلّه ولا مبالاة به ، ألزم نفسه العزلة ، وابتعد عن الغرور ، واحتقر الصيت الضجّاج ، فأخذ يرسل شعره العاطر ، ونثره الساخر ، بتوقيع مستعار كاتمًا نفسه عن أقرب المقرّبين ، ملقيًا أمثولة رائعة على مسوّدي

الصحف بأسمائهم من نظّامين وكويتبين ، وأمثولة أروع وألصق بجوهر الأشياء ، هي تفاهة كلّ اسم من الأسماء تجاه الاسم الذي تتفرّع عنه الأسماء جميعًا ، وترتدّ إليه جميعًا : الإنسان. فإذا كان لا بدّ من اسم يرضي إلحاح القارئين ، فليكن لا شيء ، وكلّ شيء ، يزيد التساؤل . ويضاعف الإلحاح . وهكذا أسكت نجم أبو شرف حتّى اسمه ، وهي – لعمري – غاية السكوت التي ليست بعدها غاية.

ولو لم يسُقْه الفنّ إلى الكلام لما تكلّم قطّ . شاء الله أن يصطفيه ، وأن يسعده فيشقيه ، فمنحه أن يرى أبعد ما يرى الناس ، ويحسّ ما يدقّ عن حسّ الناس . لقد أعطاه من دون الكثيرين روح فنّان. يمرّون هم على سطح الحياة فما يظفرون بغير الرغوة ، ويغوص هو إلى أغوارها ، وينحني بأصابعه على كنوزها وأسرارها . تلك مرحلة الرؤيا ، وسمّوها الوحي والإلهام أنتم ، واللاوعي إذا شئتم ، ودعوني أسمّيها أنا مرحلة السكوت أمام ما تلمحه عيناه وينبض به قلبه . واهناءه لو وقف عندها واستأثر بما تبذل ! ولكنّه ، لشقائه ، يريد أن يوزّع على الآخرين ، فيجوز إلى مرحلة الكلام ، يحاول أن يُريهم ما رأى هو ، وأن يُشعرهم بما شعر هو ، وما طاقته أن يضع عينيه في أحداقهم ، ولا قلبه في أضلاعهم ، فيلجأ إلى الألفاظ يستودعها . والألفاظ ، مهما برعت ، منطقة محدودة ، وطينة معروكة مكدودة ، وودائعه أشعّة روح لا تقف عند حدّ ، ولطائف حسّ لا تُمسك بيد . حينئذ تنتصب له جلجلة الفنّ تفتيشًا عن لفظة ، وتبديلاً للفظة من لفظة ، ومزاوَجة بين الحروف والمقاطع ، ومقارَبة ومباعَدة وموازَنة . ثمّ هو يقابل ، بعد ذلك كلّه ، بين ما كان في نفسه وصار على طرسه ، فيهوله الفرق . فنفائسه الغاليات حجارة ، وحُقّه السحريّ فخّارة غرّارة . ولكنّ الناس ، لحرمانهم ، يتهافتون على الحجارة يسدّون بها جوعهم ، وعلى الفخّـارة يروون بها عطشهم ، شاكرين ، معجبين ، مهلّلين. فيتقبّل منهم ، مزهوًّا بينه وبينهم . فإذا خلا إلى نفسه صاح : واشقائي بما أعطيت في جانب ما أملك ! ليتني بقيت ساكتًا !

يا ساكت ،

ها أنت سكتّ سكوتك الأخير ، فقُلْ لي أتتفاهم الأرواح حيث أنت بما عانيت ونعاني من اللغات ، أم هي تخلّصت من مضطرب الألفاظ والعبارات ، وتحقّقت أمنية الأماني : أن تستوعب النظرة بلاغة البلغاء ، والإشارة فصاحة الفصحاء ، واللهثة كتابًا من كتب الحكماء ، فتخاطبت وصحبك كما اشتهيت ، وسكتّ غير ما سكتّ قبل حين ، وقعدوا مثلك ساكتين؟...

يا أخي ، يا ساكت . ما أدري ، أسكوتك من قبل أشجى ، أم هذا الذي انتهيت إليه . أترك لغيري أن يذرف الدمع ويلطم الخدّ. أمّا أنا فأسمح لأنانيّتي أن أستمدّ منها الرثاء لك ، بأنّك منعت نفسك من تلك التعزية الصغيرة ، في حياتك المستوحشة للتعزيات ، أن تسمع قولة القائلين : أحسنت ! لأنّهم قالوها . حقّك ضاع عليك ، وكنت أحبّ أن أردّه إليك لولا يقيني بأنّ زهدك فيه اليوم أعظم منه بالأمس ، بل لولا يقيني بأنّك تسخر حيث أنت من هذه الصغائر ، ومن كلّ ما نحسبه نحن في الكبائر.

فرصة لن تفوتك . فاسخر أيّها الوضيع ، من المحتد الشريف : ما الفرق بين الشرفِ والضعة؟ واسخر أيّها الفقير ، من الغنى : ما الفرق بين الذهب والتراب؟ واسخر أيّها المريض ، من الصحّة : ما الفرق بين قوّة الأصحّاء وضعف ذوي الأدواء؟ اِسخر أخيرًا من الفنّ ، منظومه ومنثوره ، ألحانه وتصاويره. اسخر من كلّ ما حُرمت ووُهبت ، وما حُرم الناس ووُهبوا ، وما ظنّوا أنّهم أخذوه وأعطوه...

أنت تعلم ، يا من كنت سيّدًا في الساخرين ، أنّ أبلغ السخر ما كان سكوتًا ، فكيف به أبدًا؟!

«المكشوف» – ١٩٣٨

ميشال طراد

«بكرا بفرّخ شمس عاشفاف العصور»

يعرف الناس ميشال طراد شاعرًا لبنانيًّا ، بل أوّل شاعر لبنانيّ سكب روح هذه البلاد في لغة جدودها وأطفالها. ويعرفونه السابق الذي ارتفع بالزجل إلى مقام الشعر كأكثر ما يكون الشعر أصالة وبلاغة وشفافيّة.

ولكن من منهم يعرف ميشال طراد الموظّف في الكوبراتيف؟

الحكاية حكاها لي هو يوم الأحد في وادي العرائش. كانت تنبعث من عينيه شرارات علويّة ، ومن شفتيه ضحكات تقرقع قرقعة الكؤوس. وكان يتكلّم على مدى صوته وذراعيه ، ويوقّع قراراته بضربات من قدميه وتحصل من شعره ، لا تسعه الدنيا لفرحه بأنّه تخلّص من الوظيفة.

أيّ شيطان هذا هو الذي وسوس في رأس ميشال طراد أن يكون موظّفًا؟ إنّه شيطان المال – لعنه الله! – أغرى شيطان الشعر بثماني عشرة ليرة لبنانيّة حقيرة في الشهر. حتّى لقد ركبه ذلك الشيطان إلى ضابط في الجيش يشرف على كوبراتيف ريّاق قيل لميشال طراد إنّه من هواة شعره ، فقصد إليه ، فلم يكن من الضابط إلّا أن أصدر أمره بالتعيين فورًا. وزاد في اللطف والسخاء فجعل للموظّف الجديد درّاجة من درّاجات الجنود المستعملة ، يستعين بها على المجيء كلّ صباح من زحلة إلى ريّاق ، وعلى العودة في المساء من ريّاق إلى زحلة.

ذات يوم ، والشمس تطلّ من وراء صنّين ، والريح تضرب الحور على طريق زحله – ريّاق ، كان فلّاح غاديًا إلى كرمه على ظهر حمار له ، فإذا بدرّاجة تنتقل فجأة من طرف إلى طرف وتدخل في قفا الحمار ، ويقع راكبها معفّرًا مجرّحًا بين الغبار والسباب واللبيط ... وينظر الفلّاح فتأخذه الشفقة على هذا الصبيّ المبعثر الشعر ، المشقوق القميص ، فيترجّل عن دابّته محاولًا أن يعينه على أمر البيسكلت وقد اعوجّ دولابها وتقوّس مقودها وأبت أن تعود إلى المشي. ولكنّ الصبيّ لا يلتفت إليه بل ينصرف إلى لملمة نفسه لاعنًا البيسكلت ومخترعها وبائعها وشاريها وراكبها ومن دلّه عليها ، ثمّ يتناولها بكلتا يديه ويحملها على كتفه ويستأنف الطريق.

لقد كان على الشاعر الموظّف أن يصل إلى عمله في الكوبراتيف قبل الساعة السادسة ، وإلّا ضاعت عليه ليراته الخمس في آخر الشهر. أنت تسأل كيف تكون خمسًا وهي ثماني عشرة؟ إنّ ميشال طراد ينبئك بأصابع يديه عدًّا لا يقبل السهو والغلط أنّ خمس عشرة ليرة ذهبت من أوّل الشهر إلى تاريخه أدناه : أربع منها لعلب الدخان ، وثماني لمدقّات العرق على البردونيّ ، وثلاث لجدّته في البيت ، وسيأتي ذكرها السعيد. مع العلم أنّه عاد وطلب منها ليرة على سبيل

القرض.

... القيام مع الفجر من زحله، والعودة مع النجر من ريّاق، في الشمس اللاهبة، وفي الثلج الصقيع، ركوبًا على هذه المخلّعة المفكّكة التي لا ترضى إلّا أن تركبه مرّتين كلّما ركبها مرّة! وأرقام طول النهار تتراقص جمعًا وطرحًا وضربًا. وربّما اختلط عليه الضرب بالطرح بالجمع، فيجمع كفّه ويضرب الطاولة ويطرح الأوراق أرضًا، فيأتي المدير ذو الشاربين فيفتلهما بوجه الشاعر مؤنّبًا متوعّدًا شاتمًا، ويعلق لبنان وفرنسا في قتال يخرجان منه مشوّهَي حرب، والمرأة الموكّلة بالبيع تضحك حتّى لقد زادت سمنتها عشرة كيلوغرامات في أقلّ من شهرين! هذا عدا عن علب اللحوم المقدّدة، وقد انفجرت ثلاث منها بين قدمَي ميشال طراد، ولا يزال ميشال طراد يطارد رائحتها بكلّ عطر زحله ومردكوشها وحبقها حتّى الآن...

وإذا كان هذا شأن ميشال طراد طوال نهاره، فمتى يكون له وقت للشعر؟ لقد عاش ميشال طراد قبل ذلك بلا ثماني عشرة ليرة في الشهر، ومع ذلك كان يجد نفسه كلّ يوم بين الأحياء حيًّا، وبشرًا سويًّا، بل شاعرًا ونبيًّا.

إذن، ما الحاجة إلى البيسكلت والدخول في أقفية الحمير؟ ما الحاجة إلى الحسابات والقتال مع المدير؟ أليس خيرًا أن تعود الحياة بميشال طراد إلى سابق عهده، يستقبل الشمس على فراشه، ويتمطّى على مخدّته، ويغمض عينيه على حلاوة الكسل، ثمّ يفتحها على ديوان شعر، أو ينادي قاموسه ليأتي ويجلس إليه ويستقي منه قوافيه؟

قاموس ميشال طراد، هل تعرفه؟ هو قاموس لا كالقواميس. قاموس الناس من ورق وحبر، وقاموسه من لحم ودم، بل من جلد وعظم. عجوز فوق الثمانين يستمع ميشال طراد إلى أحاديثها وحكاياتها ويأخذ من فمها الأدرد الكلمات اللبنانيّة المعتّقة، ويتسقّط كنوزًا من التعابير ضاعت خلال هذه اللهجات اللقيطة التي درجت عليها ألسنتنا. هي جدّته حفظها له الله.

ذات يوم استحقّ عليه دين من الديون، فجاء مأمورو الحجز إلى بيته ليحجزوا. فانتصب لهم ونبش شعره وصاح:

– تريدون الحجز على ما أملك؟ لست أملك إلّا قاموسي! تعالوا واحجزوا عليه إذا شئتم.

فلمّا دلّهم على القاموس الحيّ، نصف الميت، فضّلوا أن يتركوه له وذهبوا آمنين!

كاد حديث القاموس يلهيني عن حديث صاحبه ووظيفته. فلنعد إليه. إنّ ميشال طراد يطوف في وادي العرائش من مقهى إلى مقهى ويرفع يديه مناديًا:

– يا فلان! ويا فلان! ألا تعلم؟

– ؟!

– لقد تركت الوظيفة، وعدت حرًّا! إرفع كأسك!

إنّ اليوم الذي ترك فيه ميشال طراد وظيفته ورجع فيه إلى قصائده هو يوم صنعه الربّ. فيا هناءه!

يا هناء هذا الجدّ المتأخّر من جدودنا، والطفل الذي سيظلّ طفلًا!

ويا هناءنا به شاعر الجدود والأطفال.

«المكشوف» – ١٩٤١

سامية توتنجي

كتب المؤلّف إلى ابنته سامية ، زوجة السيّد روجيه توتنجي ، بعد أن اطّلع على ديوانها باللغة الفرنسيّة «الحضور المتعدّد» (Multiples Présences) الرسالة المفتوحة التالية :

سامية ،

قصائدك أقرأها وأعيد قراءتها ، فأطرب وأتهيّب .

النساء – شِعرهنّ ، في كلّ لغة ، تخريم وتخريج ، دانتلّا شغل الإبرة ، شرائط حرير ، ودموع محلّاة بالسكّر .

أنت – بالسكّين تصنعين الشعر . تقطّعين لحوم الأكتاف ، تقدّين الرياح ، وتجرّحين وجه السماء .

ومع ذلك ، من وعى الأنوثة كما وعيتها أنت ، ومن غنّى المرأة كما تغنّين؟

أيّ مارد من الجنّ اختطف طفلتي الحلوة إلى قصره المسحور؟ في أيّ ليل ؟ وكيف حبسها وراء الكوّة في العليّة التي جدرانها من ذهب ودماء ، وسقفها من فيروز وصواعق !

تلحقين بأبيك ؟

ولكنّ له – هو – مقصورة أخرى ، مفتاحها في جيبه ، مفتاح لصّ لا يمتنع عليه مُقفل من الأبواب . وبه يستعين ، بين الحين والحين ، فيغافل المارد ، يهجر سراديبه وتهاويله ويعود إلى دنيا الناس .

كيف لي ، بعد اليوم ، أن أتركك في ذلك القصر الملعون ؟ أم تصنعين لنفسك مثل مفتاحي .

ضعي أذنك الآن على الحائط ، فأنا مكلّمك .

أنا ابن جيلي . ابن المبادئ المكرّسة والقواعد المقرّرة . وابن المنطق ، في الشعر وفي سائر الفنون ، لأنّني كنت ابنها في الحياة .

من أجل هذا كنت أرفض في البداية شعر الجيل الجديد ، جيلك الذي حطّم كلّ ذلك وكفر به . ولكنّي مع التفكّر وجدت لكم عذركم . «جيل الضياع» جيلكم . أما كان من الطبيعيّ أن يهون عليه ما هو فاعله بالشعر بعد أن فعل بالحياة ما فعل وصنع ؟ وما دامت حياتكم غير حياتنا ، من الأساس ، فكيف تكون مقاييسكم إلّا غير ما عرفنا من مقاييس؟ عبّرنا عن أنفسنا بطريقتنا . ينبغي أن نقرّكم في التعبير عن أنفسكم كما تشاؤون .

اختلف بيننا وبينكم كلّ شيء : الجوهر فتبعه الشكل . حتم (منطقيّ !) لا ريب فيه .

أهو النزاع التقليديّ بين القدماء والمحدثين؟

ربّما . على أنّه هذه المرّة أعنف بكثير .

انقلاب بكلّ معنى الكلمة .

وضعت نفسي في جِلدك – أعترف أنّ الأمر لم يكن سهلًا – وحاولت ترجمة بعض قصائدك من

الفرنسيّة إلى العربيّة. ثمّ تصدّيت إلى تجربة بيني وبين نفسي: قارنتها ببعض ما أعرف من شعر في العربيّة والفرنسيّة على السواء، شعر جيلي وما سبقه من أجيال. شعر ما قبل الانقلاب. أعني الشعر الذي كنت أرتضيه وحده، وأعدّه وحده هو الشعر.

النتيجة؟ – عجيبة حقًّا. وفيَّ تمّت الأعجوبة. وشاهدها أنا كنت. وها أنا – بما أُعطيت من سلطان ولو على قدّي – مكرّسها ومباركها.

لكأنّي، وقد نفضت أذنيّ من الأوزان والقوافي، خارج من مظاهرة إلى بريّة، أو من طاحون إلى صومعة. ولكن، رويدًا، رويدًا، لم تلبث البريّة أن أطلعت المظاهرة، والصومعة أن دار فيها الطاحون. يعني حصلت النشوة وكان الشعر. لا بالوزن والقافية ولكن من الداخل... من روح الله العليّ. من مسّ المارد الجنّيّ. من الأنفاس المحترقة كلمات.

مع الوزن والقافية الأمر معكوس، أو هكذا يمارسه الأكثرون. يأخذون الكلمات، ينادونها من كلّ فجّ عميق، يستعرضونها، يختارون منها، يتركون بعضها مكرهين، يتقبّلون المتطفّل منها – يعطونه أحيانًا مكان ربّ البيت – ثمّ يحرقون الكلمات أنفاسًا، أو بالحري ينفخون فيها جهدهم لاهثين...

العباقرة، أمثال أبي نؤاس وشكسبير وبودلير، يجيدون وحدهم التعاطي بين الكلمات والأنفاس، لا ينخدعون ولا يخدعون. هؤلاء أكبر من القواعد، وإن التزموها أخضعوها وما أخضعتهم إلّا في النادر. وهم يقفزون فوق العصور والانقلابات.

الكلمة عندك، يا سامية، هي الأصفى من أنفاسك.

تنهلّ كالمطر، تهبّ كالريح، تنداح كالنور، تكرّ كالموجة، وتأتلف مع أخواتها كحبّة الرمل على الشاطئ.

ومتجرّدة، لا زخرف ولا ورق تين. وتمشي في سمتها لا تقديم ولا تأخير، لا انحراف ولا مداورة. طريّة كأنّها تخرج الآن إلى اللغة، فيها من فوح الأطفال، وشفّافة كأبدانهم.

ومع ذلك، مع هذه البساطة، أيّ جبل في الجبال هي الكلمة! (يا ما حبلت عند الكثيرين وولدت فأرًا). أنا، مثلًا، يتّفق لي أن أصاولها تمامًا كما كان هرقل يصاول الجبال في الأساطير، وغالبًا ما تسحقني. طوبى لك أنت. تقولين لها عفو الخاطر: اِنتقلي. فتنتقل بخفّة العصفور.

والانتقال عندك، في القصيدة الواحدة، عجيب من حيث هو. عدنا إلى المنطق! ولكن من يتبعك يجب أن يترك المنطق وأهله. رأس الانقلاب الذي قمتم به، في نظري، هو أنّكم قطعتم رأس المنطق في دولة الشعر.

لا لحمة في الظاهر – تحت مجهر المنطق – بين البيت وأخيه، بين فكرة وفكرة، بين عبارة وأخرى. وإنّما هو طفر ولمع، وانفجار من كلّ صوب واصطكاك، ودهشة ملء الجوارح.

لم أجد أزهد منك بالرباطات والأحزمة. إنّه منطق الشعر الجديد. بأيّ خيط تُربط خطرات النفس وخلجات القلوب؟ وأيّ شرطيّ يعيّن لها وجهة السير؟

وبعد، يا ابنتي، الكلام عن الشعر بحر. أو الشعر هو البحر. قديمًا كان أم حديثًا، بوزن وقافية أم عاطلًا منهما، على النواميس والمقاييس أم متمرّدًا عليها شاذًّا. وما همّه المنطق ما دام له منطق الحياة الذي ينكر كلّ منطق. مطلقة له حرّيّته، مغفورة له خطاياه شرط أن يكون شعرًا. شرط أن يصدر عن المخطوفين في القصر المسحور. وما أكثر الأدعياء أنّهم من ضيوفه!

* * *

مرة أخرى: لحقتِ بي؟

أمّك – هل تذكرين؟ – هي التي دفعتك وعارضت أنا. أعرف منذ زمان ائتمارها مع المارد. كلّما ظننت أنّني تخلّصت منه ردّتني إليه مغلوبًا. وها يدها ازدوجت علينا.

بل أنت في النهاية السابقة، وأنا اللاحق.
أنت الشاعرة.
«وإنّ أباكِ الضخم كونُك لي بنتًا».

«ملحق النهار» – ١٩٦٧

صلاح لبكي

يا لجلساتنا في العرعار – ملتقانا بين بعبدات وبحرصاف – على الأعشاب منبطحَين، أو على الصخور متكئَين، وصلاح يتلو عليّ آخر ما نظم.

كان يطلبني أيّان كنت لإجادتي الفنّ الآخر الذي يقول فيه إيليّا أبو ماضي:

«قـــد جعلتُ القولَ فنّـــا

فـــاجعـــلِ الإصغـــاءَ فنّـــا»

أمّا فنّ القول عند صلاح لبكي فقد كان، يشهد الله، كلّ الفنّ. يلقي شعره متمهّلاً، متأنّقًا، موقّعًا القافات ملء فيه، متلمّظًا كلّ قافية، ومعيدًا البيت مرّات.

صلاح لبكي شاعر الحبّ. ولكنّ حبّه يختلف عن حبّ الناس. لا هو حبّهم العذريّ ولا حبّهم الإباحيّ. وإنّما هو تعرّف إلى الجمال، وتلمّس له وتشمّم، واستمتاع به من دون تقشّف الزاهدين ولا عنف الفاسقين.

شاعر الليل، والمطر، والأرض، والنجوم، وأيّ شيء. عنده من الشعر نفَسه يغمر به كلّ موضوع فإذا هو شعر. ليس هناك مادّة شعريّة ومادّة نثريّة. الشعر من الشاعر لا من موضوعه. الشعر من العين التي تنظر إلى الوردة لا من الوردة. وقد يصنع الشاعر من لطخة قذر في الطريق ما لا يصنع ناظم الأوزان والقوافي من أجمل الورود.

صلاح لبكي هو الشاعر الحلو. سكّرة ذائبة في فم الحياة.

ولقد أراد مرّة – وأعاد الكرّة – أن يشتغل بالسياسة. ونسي أنّه سكّرة. فكان كمن ألقى بها في البحر، لا البحر حلا، ولا السكّرة بان لها أثر في عبابه.

الحمد لله! الحمد لله! كانت قد قطّرت لنا قبل ذلك أطايب باقٍ طعمها على الدهر.

«المكشوف» – ١٩٣٨

عمر الزعنّي

«حنين» سمّى نفسه في البداية. و«شاعر الشعب» سمّوه. ولكن، سرعان ما اتّضح أنّه أكبر من أن يستتر باسم مستعار، أو أن يتجلبب بلقب. فإذا هو عمر الزعنّي، وكفى.

لبنان، في المراحل السياسيّة والاجتماعيّة التي قطعها خلال نصف قرن، في الرجال الذين تقلّبوا فيه على الحكم، في تيّارات الحضارة الفرنجيّة التي اجتاحته، في تضعضع عاداته وتقاليده ومقاييسه... لبنان في أفراحه وأتراحه، وجدّه ومزاحه، من غنّاه كما غنّاه عمر الزعنّي؟ لو أراد مؤرّخ غدًا أن يؤرّخ هذا الجيل الذي يمضي من أجيال لبنان لما وجد له مرجعًا أصدق من عمر الزعنّي ولا أظرف.

على أنّ ما يجهله الناس أنّ الرجل الضاحك الذي كان يشيع البهجة في نفوسهم كان يخفي وراء ضحكه نفسًا تقطر دمًا، ليست نفس شاعر الشعب، بل نفس الشاعر وحسب.

لقيته ذات مساء في ساحة الشهداء يمشي على الرصيف حزينًا، فدعاني إلى زاوية في مقهى، وجعل ينشدني قصائد وجدانيّة يصوّر فيها مآسي تلك النفس... وكان صوته يتهدّج في الإنشاد حتّى لتغرورق عيناه. فسألته لِمَ لا يغنّي هذه القصائد الرائعة في جملة ما يغنّي للناس. فقال: لا حقّ للناس إلّا بما آخذه منهم. وهذا شيء آخذه من قرارة نفسي وأنتزعه من صميم فؤادي، فهو لي وحدي.

عمر الزعنّي كان فريدًا في لبنان وفي دنيا العرب، ومن القلائل في العالم. جمع في فنّه المزايا التي ترضي العامّة وترضي الخاصّة على السواء.

فهو العبقريّ حقًّا،

وهو العائش أبدًا وإن مات.

«الحياة» – ١٩٦١

عمر فاخوري

ماذا يبقى من عمر فاخوري؟

إنّ الضحكة تقفز إلى فمي ، على جلال الذكرى ، وهي ذكرى بكاء على كبير من أدبائنا فقدناه ، ومعلّم من معلّمي الجيل.

يبقى قبل كلّ شيء إيمانه بالكلمة ، وكفره بكهنتها الكاذبين وحلفائهم من الفرّيسيّين. عمر فاخوري من الأوائل الذين دخلوا هيكل العربيّة حاملين السوط.

لغيري أن يقابل بين عمر فاخوري «الباب المرصود» وعمر فاخوري الـ «أديب في السوق». أقدها لئلّا يضحك منّي ، وكان سيّدًا في الضاحكين الساخرين.

كان – رحمه الله – أظرف الناس. قال لي يومًا : اِسمع ، يا توفيق ، سأموت قبلك ، فإذا سُئلت ماذا صنع عمر؟ لا تقل كسلان كما تقرّعني كلّما التقينا. ثمّ أضاف : يُجمع مؤرّخو الأدب أنّ للجاحظ مئات من الكتب لم يصل إلينا منها إلّا عناوينها... أنا أيضًا – هكذا قُل عنّي – قد ألّفت كتبًا كثيرة ولكنّها ضاعت ولم يبقَ منها إلّا عناوينها. قلت : وما هي؟ قال : خُذ ورقة واكتب : «الكيت والكات في أخبار الأرتيستات» ، ثمّ اكتب أيضًا : وله كتاب آخر يعارض فيه الأوّل : «الكات والكيت في أخبار العفاريت» ، وكتاب جليل القدر بعنوان «أحلام الليل في سباق الخيل»... وكان عمر رحمه الله ، من المتردّدين على مربع الكيت الكات ، ومن المولعين باللعب في ميدان السباق يخسر فيه كلّ أسبوع ويُقسم إنّه لن يعود إليه ، ثمّ يعود.

الكتب التي لم يؤلّفها عمر فاخوري ينبغي أن نبحث عنها في كلّ حرف نكتبه اليوم.

«الحياة» – ١٩٦٤

مارون عبّود

بيت مارون عبّود في عين كفاع... لم أكن أعرف البيت من قبل ، ولم يسبق لي أن زرت تلك الضيعة الصغيرة ، الوادعة ، الحالمة حلمها الدهريّ بين الجبال والأودية.

ولكنّي دخلت عين كفاع مرارًا خلال ما قرأت عنها بقلم مارون عبّود ، فكان كلّ شيء فيها أليفًا. لقد ركّز صاحب «وجوه وحكايات» معالمها في نفوسنا ، وأبرز وجوهها ، وقصّ حكاياتها ، وأطعمنا وسقانا من حقولها وعيونها.

أمّا البيت فدخلته وكأنّني أدخل هيكلًا عجيبًا شيّده مارون عبّود على صورته ومثاله ، فمزج فيه الشرق والغرب ، والقديم والحديث ، وجمع أشتات ما أحبّ من جميل وثمين ونادر ، وزيّنه بألف صورة ، وطلاه بألف لون. ثمّ لم يرضَ بأنّه أعلى بيت في الضيعة ، حتّى علّق في رأسه علّيّة ، وعلّق في رأس العلّيّة حربة تتحدّى السماء!

مارون عبّود وضع كلّ حياته في هذا البيت. كلّ ماله ، وكلّ حبّه وكلّ طموحه. وأوصى أن يُدفن حيث رأى النور : في القبو العتيق الذي رفعه عليه ، والذي حوّله فيما بعد إلى مكتب يشعّ منه النور ، وإلى صومعة يخلو فيها إلى ربّه ويناجيه على طريقته ، ويمازحه برفع كلفة ، بالعربيّة الفصحى ، واللبنانيّة الدارجة ، وبالسريانيّة إذا كانت أقربُ إليه ، ولا يتورّع في سخريته أن يسحب الضبوة من جيبه ويتنشّق ويعطس ملء منخريه! ثمّ يحمده على الفرج...

لعلّ عظمة مارون عبّود في هذا : أنّه طاف العالم ، ومدّ يديه إلى كلّ أفق ، وقدماه راسختان في لبنان.

«الحياة» – ١٩٦٢

يوسف الخازن

مع نقل رفات الشيخ يوسف الخازن إلى وطنه تنبعث ذكريات عن حياته وأدبه ، سيتولّى الخطباء ولا شكّ تعدادها ، في سلسلة الحفلات التي تقرّرت إقامتها له.

أحبّ أن أسهم بواحدة عرفتها شخصيًّا عنه ، وأراني اليوم أبحث عن أثر لها عند حملة الأقلام ، فأعود في أكثر الأحيان بالخيبة.

تلك هي ما كان يسمّيه «قدسيّة الكلمة». فقد كان ، رحمه الله ، من الذين يعرفون أنّ لكلّ كلمة لا معنًى خاصًّا فقط ، بل نغمًا خاصًّا ، وعطرًا ، وشكلًا ، وحجمًا ، ووزنًا. كان يرى فيها جسمًا وروحًا ، وكائنًا حيًّا ، وعالمًا بأمّه وأبيه.

ولذلك كان الشيخ يوسف الخازن من الأدباء المقلّين. وكان يعاني في الكتابة ألمًا ولذّة لا يعرفها إلّا الفنّانون العظام. وربّما قضى الأسابيع ساهرًا لياليها حتّى الصباح في مقال لا يتجاوز الصفحتين ، أو خطاب لا يستغرق إلقاؤه ربع ساعة.

هذا الترفّق بالكلمة ، بل التهيّب بحضرة الكلمة ، كان يضفي على أدب الشيخ يوسف الخازن ، وعلى أمثاله من أبناء ذلك الجيل ، ما نفتقده في أدب الكثيرين في هذا العصر. إنّه عصر قد داس كلّ قيمة ، وعبث بكلّ حرمة ، وأرخص كلّ غالٍ. وأهون ما تعثّر به الكلمة...

رحم الله الشيخ يوسف الخازن بقدر الكثير الذي وضعه في كلامه القليل.

«الحياة» – ١٩٦٢

رئيف خوري

رفيق الصبا وعشيري على الكلمة ، وقد جمعنا حبّها ، أوّل ما جمعنا ، على نظم الشعر. وكنّا نتناشده عندي في بحرصاف أو عنده في نابَيه وكثيرًا ما كنّا نقطع المسافة بين القريتين مشيًا على الأقدام.

ولرئيف خوري قصائد جيّدة في بداية عهده بالكتابة ، ولكنّه انصرف فيما بعد إلى الأبحاث الأدبيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة وحتّى الفلسفيّة. كنّا نلتقي مرّات في الأسبوع في دار «المكشوف» وفي مكتب مجلّتي «الجديد» من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦. وكان طوال تلك المدّة محرّرًا فيها ، وعلى صفحاتها ظهرت بالتسلسل فصول كتابه «مع العرب في التاريخ والأسطورة» وغيرها كثير من المقالات والأبحاث والقصائد.

وكان رئيف خوري في كلّ مجلس من مجالسنا صاحب النبرة العالية ، والسخرية اللاذعة ، والرأي العنيد. يطيب له أن يدخل في المناقشات فلا يخرج منها إلّا وقد سحق خصمه سحقًا بما يسوق من قويّ حجّته وغنيّ ثقافته. وربّما جرّح وقبّح بجفوة الفلّاح الذي كان يفخر ، حتّى آخر أيّامه ، بأنّه في دمه.

فضله كبير معلّمًا ، وأثره بالغ ناقدًا ، وصورته في نفوس أصدقائه بارزة الخطوط لا تمحوها الأيّام. أغمض عينيّ فلا أراه إلّا مقبلاً بجثّته الضخمة ، قاحمًا الصفوف وكأنّه يفتّش عن مبارز. وأكاد أسمع صوته يهدر من وراء القبر ، تنديدًا بالظلم من أيّ جهة أتى ، وتفنيدًا وتقريعًا وهزءًا بكلّ جهالة وحماقة وسخافة ، في السياسة وفي الأدب على حدّ سواء.

من أوراقي – ١٩٧٥

رشدي معلوف

عرفته فتًى هادئًا ، طالعًا على الشعر في الثلاثينات ، ولوعًا بالفنون. وكان يأتيني في الأسبوع مرّة أو مرّتين بقصيدة ناعمة يتلوها عليّ متمهّلًا ، موقّعًا كلّ حرف من حروفها ، مرافقًا كلّ كلمة من كلماتها بإشارة من يديه أو رفّة من عينيه. فلمّا طال ذلك وامتدّ سنة وبعض السنة عرضت عليه صفقة مقايضة : أصغي إلى قصائده الرومانطيقيّة ، ويعلّمني اللغة الإنكليزيّة.

عمل إلى جانبي في مجلّتي «الجديد» بين ١٩٤١ و١٩٤٦ ، وفيها ظهرت فصول كتابه «البرلمان الأمثل» ومعها التعليقات التي علّقت بها على تلك الفصول مفتّحًا عينيه – البريئتين لذلك العهد – على ما خلف واجهة السياسة عندنا من مساومات وحقارات. وقد تولّت «الجديد» طبع ديوانه «أوّل الربيع». وعنها ، أي عن «الجديد» ، أخذ عنوان «مختصر مفيد» للمقالات التي كان يكتبها في «الأحرار» ومن بعدها في «الصفاء» ، فهاتان الكلمتان ظلّتا تتوّجان صفحة من صفحات المجلّة ، على مدى خمس سنين ، للمختصر المفيد من أخبار الأسبوع ، فاستعارهما لمقالاته. وكانت هذه المقالات ، والحقّ يقال ، تنضح بالطلاوة والرشاقة ، وبالنكتة الطيّبة كالكاتو وأشهى... إلّا أنّه خارج من برّاد!

عاش حائرًا بين الشعر والصحافة والسياسة ، وكان آخر عهدي به لقاء لنا في منزلي قبل وفاته – رحمه الله – بشهر واحد. جلسنا ساعة على ذكريات الشباب هي من ساعات العمر. دخل عليّ كالنسيم اللطيف ، وخرج كالنسيم اللطيف ، وسيبقى في نثره ونظمه ، وفي عشرته للناس ، نسيمًا لطيفًا معطّرًا بحدّة الذكاء ، ورهافة الحسّ ، وحلاوة الكلمة.

من أوراقي – ١٩٨٤

سعيد عقل

كنت في اليوم الثاني من شهر العسل صيف ١٩٣٣ – في فندق قادري في زحله – إذ دقّ عليّ الباب مع الفجر فتى مبعثر الغرّة ، في يده سيكارة يقضم عقبها ، قال :

– بتريد تسمع قصيده قدّ الله؟

الشعر؟ ذلك كان إبّانه ، فكيف إذا كان من سعيد عقل ، وشعره – من الأوّل إلى الآخر – شعر عرسان وعرائس وشهور عسل لا تنقضي؟

القصيدة عند سعيد عقل أغنية للجمال. والجمال هو الطريق والمحجّة. والكلمة عنده حجر تحت إزميل نحّات ، وكثيرًا ما تسفر عن كرة يلعب بها وبأخواتها كما يلعب الساحر فيبهر ، وربّما رفعها بوجه السماء عمودًا من أعمدة بعلبكّ.

سُئل مرّة في مجلس ضمّني كيف يؤمّن لـ «جائزة سعيد عقل» ألف ليرة عدًّا ونقدًا كلّ شهر ، فقال :

– يردّ عليّ قلمي كلّ سنة بين الثلاثة والأربعة ملايين ليرة! ماذا تريدون أن أفعل بها؟!...

اعتداد سعيد عقل بنفسه ، وبلبنان من وراء نفسه (أليس هو القائل بلبننة العالم؟) يُضحك الكثيرين... أنا لا أضحك ، بل أُعجب وأتهيّب. فالأعمال الكبيرة لا تصدر إلّا عن النفوس الكبيرة العامرة بمثل هذا الإيمان وهذا الهوَس.

سعيد عقل من المخطوفين – هنيئًا لهم ، وهنيئًا لنا بهم – إلى عالم غير عالم الناس. وله من شخصيّته ومن شعره معًا القدرة على أن ينقل الناس إلى عالمه في أيّ ساعة شاء ، وتعجز عن إنزاله إلى عالمهم قوّات الأرض والسماء.

وإذا كانت «الحبّة قبّة» عنده فهي ، كيفما قلّبتها ، حبّة عنبر ، تملأ على ضآلتها الفضاء ، وتطيّب الأرجاء.

من أوراقي – ١٩٦٥

٢ – في ميادينهم

تجربتي الأدبيّة

١

لماذا أكتب؟
كيف أكتب؟
لمن؟
من أين أتناول موضوعاتي؟
ومن هم أبطال قصصي ورواياتي؟
ما العلاقة بيني وبينهم؟
وما العلاقة، أخيرًا، بيني وبين الكلمة؟

سُئل الكاتب الفرنسيّ ليوتو قبيل وفاته: «ألا تكتب للخلود؟» فضحك الشيخ ملء سنّيه وقال: «الخلود! الخلود! وما يهمّني الخلود بعد أن أصير ترابًا في التراب؟ أنا أكتب لأنّي أجد لذّة في الكتابة».

حاجة أقرب ما يكون إلى الوصال. إلى المعرفة. المعرفة بمعناها التوراتيّ. وهل المعرفة في جوهرها إلّا إزالة الحواجز، وهل غايتها إلّا الاتّحاد.

مع كلّ صنيع فنّيّ، مع كلّ قصّة أو رواية أو قصيدة، حبّ جديد. الكاتب عائش في حبّ دائم، أي في انبهار دائم وعذاب مقيم. وهو معها في مناخ الحبّ لهاثًا وأرقًا وتحرّقًا، على تدلّل وتمنّع، ومخاتلة ومداورة. وما دام وراءها فهي ضالّته المنشودة. فإذا وصل إليها – إذا وصلها – فأشواقه إلى أخرى. أمانته ليست لواحدة. أمانته لحبّه، للفنّ. ودأبه مغامرة بعد مغامرة، سعي حثيث لا يعرف الهوادة وراء تلك المعرفة – إيّاها – في وسط هذا المجهول الأكبر، الكون، الذي يومئ إليه بألف يد، ويغمزه بألف عين.

أكثر من ذلك. أنا أكتب إذن أنا موجود. وراء اللذّة والألم إثبات للوجود وتحدٍّ له وتجاوز.

في القصّة والرواية أحيانًا كثيرة، وفي القصيدة دائمًا، من العزلة أنطلق. من شعوري بالعدم. والعزلة يجب أن تستحوذ عليّ. أن تبلغ غايتها في الأخذ بخناقي. وقد يتّفق لي ذلك في المحافل الحافلة، في المقاهي الصاخبة، في السهرات الراقصة – على اعترافي بأنّي لم أحسن الرقص عمري إلّا مع الكلمات – على العزلة أن تنتهي بي إلى الأزمة الحادّة، إلى الحدّ الفاصل بين عالمَي الواقع والخيال، أن تضعني في تلك المنطقة التي هي أشبه ما يكون بالغمر قبل الخليقة.

لمن أكتب؟

«لنفسي» يقول سان جون برس محدّثًا عن الشعر. مهلًا، يا سيّدي، مهلًا. طبعًا تكتب لنفسك. ولكنّك في عزلتك – عزلة الفنّان – لست وحدك.

لست أبدًا وحدك.

لا بدّ من الناس لا بدّ، وهم في ثيابك. وما الكلمة بكلمة إذا لم تقع في أذن أو تقع عليها عين. فأنا إذن لصيق القارئ. الكاتب والقارئ جزآن من كلّ. في لقائهما تتمّ رسالة الكتابة. وهي لا تتمّ في أيّ فنّ إلّا بلقاء صاحبه مع الناس.

إنّها رسالة عفويّة. مطلقة. حرّة من كلّ قيد. أنا لا أؤمن بالقلم مسدّسًا مصوّبًا إلى هدف، ولا حمارًا محمّلًا إلى طاحون. والأدب الملتزم بغير رسالته المجرّدة مكتوب له الزوال.

موضوعاتي؟

تنفجر من داخلي. ممّا هو فيّ وأنا فيه. بيتي، قريتي، مدينتي، مجتمعي، كوني. من تلقائها تنفجر. ثائرة؟ ثائرة كلّها على شيء. على أيّ شيء ما دامت ثائرة على نفسي، على الإنسان. بمعنى أنّها كلّها تشدّ إلى التغيير.

وسيلة الفنّ إلى التغيير هي المهمّة: الجمال. خلق عالم من الجمال، أو ما يدلّ على هذا العالم الآخر، المختلف. التأليف -كما يقول العرب- التأليف بين الأشتات والأضداد لتصير كلًّا. النظم -كما يقولون- نظم النفائس والأشعّة في سلك. وإذا كان من البديهيّات أن يكون الكاتب أو الشاعر ذا موهبة فالأمر من قبل ومن بعد -كما يقول العرب إيّاهم- صناعة. بطَلَ الوحي بعد الأنبياء. يبقى، والحمد لله، وحي القلم، أي ولادة كلمة من كلمة. والكلمات تحت القلم نساء يلدن كلّ عجيبة.

أبطالي؟

هم كذلك حواليّ ومنّي وفيّ. قد ينزع الفضوليّون طرف ثوب لهم ويدلّون بإصبعهم قائلين: أشخاص حقيقيّون أبدل المؤلّف بعض ملامحهم تمويهًا وتضليلًا. وقد يهتف آخرون: بل هم خرافيّون، لا يمكن هذا أو ذاك أن يكون في الواقع. كلاهما على خطأ وكلاهما على حقّ. من أين آخذ أبطالي إلّا من الواقع؟ من أحجار الطريق الذي أنا سالكه، من أعشابه، من وجوه الناس الذين أمرّ بهم أو يمرّون بي. وأيّ قيمة لهم إذا لم يكونوا منه؟ ولكنّهم ليسوا إيّاهم إلّا بالأحجام التي أعطيهم إيّاها، والأبعاد التي أطلقهم فيها. الفنّ غير الواقع، إنّه الواقع في الخيال. من لحم ودم يظلّون -شرطهم الأوّل والأخير- «يتحرّكون فيحرّكون الهواء لا الأفكار، ويعيشون معك بعد القراءة -طول العمر» كما يقول أنسي الحاجّ. بماذا؟ لا بالأحداث التي يزجّهم فيها الكاتب فقط بل بما يضعه خصوصًا في قلوبهم وعلى أفواههم من أشواق وأسئلة. بمقدار حجم الأسئلة، والمسائل، التي يطرحها الكاتب، يكون حجمه.

وهُم كلّهم، على اختلافهم، واختلافي عنهم، كلّهم أنا ولست واحدًا منهم. أنا الضدّ وضدّه مجتمعان. أنا «الصبيّ الأعرج» مقهورًا، وأنا عمّه «إبراهيم» جلّادًا. وكذلك شأني مع سائر أبطالي في سائر كتبي، قاتلًا ومقتولًا. بكلّ شرّ الإنسان الذي فيّ أرفع السكّين وأطعن، وبكلّ عذابه أتخبّط في دم البريء. وكثيرًا ما بكيت حقًّا...

إنّ القصّة (والرواية)، بمفهومها في الآداب العالميّة، قد انتهت هذه الأيّام إلى أن تحضن كلّ نوع، حتّى ليمكن القول إنّها صارت على يد الكثيرين نوعًا جديدًا لا يمتّ إلى مفهومها القديم إلّا بأسباب ضعيفة جدًّا. نوع جديد هو اللانوع، وشيء جديد هو اللاشيء وكلّ شيء. ما المانع؟ وهل المانع بالإمكان؟ الأدب -الفنّ- تجربة لا تنقطع. وما تسفر عنه هذه التجارب متروك إلى التاريخ. ولكن الحمد لله «إنّ في بيت أبي أمكنة كثيرة»، وما يزال هناك أمكنة كثيرة للّذين لا يزالون يكتبون على دين دستويوفسكي وستاندال ولورانس، أو يحرّكون الناس والأشياء بسحر

الأصفهانيّ ، أو يدفّئون القلوب بما كانت تتدفّأ به على حكايات الجدّات في شتاء الطفولات.

من القصّة (والرواية) إلى الشعر خطوة. بل إنّ في كلّ قصّة وكلّ رواية شعرًا. ليس من كاتب يستحقّ هذا الاسم ما لم يكن شاعرًا. أمن الضروريّ أن يقرض الشعر؟ أنا من الذين مارسوه بشكلَيه ، على إيثاري الموزون منه على الحرّ ، أي العاطل من وزن وقافية. يأتي كما يأتي. بالوزن والقافية يأتي فارضًا وقاره. ليست هذه الطقوس من جوهر الشعر؟ هَبْها من غير جوهره – وتاريخ الشعر لدى الأمم كلّها يثبت العكس – فهي على كلّ حال جديرة باسمه القدّوس.

ولكن ينبغي التسليم بأنّ نطاق الشعر قد ضاق جدًّا. بوزن وقافية كان أو كان حرًّا. مع هذه المفارقة العجيبة : عدد الشعراء في صعود ، وعدد القرّاء في هبوط. والهوّة بين الفريقين في اتّساع. الشاعر الإنكليزيّ سبندر لدى زيارته لبنان قبل بضعة عشر عامًا قال لي : «الشعراء؟ جمعيّة سرّيّة يتخاطبون فيما بينهم بلغة سرّيّة من صوب إلى صوب في العالم ، خلال العالم ، فوق العالم». أين نحن من حلم زميله الفرنسيّ لوترِيامون الذي كان يريد الشعر من الجميع وللجميع؟

ما أشبه القصيدة بـ «الشجرة الوحيدة» :

يتيمةُ قفرٍ أيُّ رَحْمٍ رَمَتْ بها
سفاحًا على الرمضاء من قاحلِ القفرِ
تردّت قميصَ الليلِ حتّى إذا نَضَتْ
ترامت تُلاقي ظلّها واحدَ العمرِ*

ليس للقصيدة إلّا هذه الصحراء : صفحتها البيضاء في كتاب ، تلقي عليها ظلّها ، ومن جهاتها الأربع الفراغ بلا حدود. من استطاع ، من اهتدى ، فهنا واحته وملجأه. وإلّا فهي مرتمية على ظلّها إلى ما شاء الله.

* من ديوان «قوافل الزمان» للمؤلّف.

وبعد ، ليس بالهيّن أن يكشف الكاتب ، وأيّ فنّان ، عن أسراره ومخبّآت روحه للناس. ليس بالهيّن أن يعرضها عليهم – تمامًا كما عرض الأخوان السياميّان شوهتهما على العالم – وأن يضع أصابعهم عليها ، وأن يُسمعهم أنّات تجرّح ليله وقهقهات يضرب بها حيطان نهاره ، وأن يقوم لهم ، معلّقًا بين الأرض والسماء ، وهم على مقاعدهم الوثيرة ، ببهلوانيّات بناء عالمه. ولكنّ عزاءه عن ذلك بل جزاءه العظيم أنّه في تعريته نفسه إنّما يعرّي نفوسهم ، وفي مناحاته وأغانيه إنّما ينتحب في مآتمهم ويزغرد في أعراسهم ، والعالم الذي يبنيه بالكلمات مفتوحة أبوابه للجميع.

من محاضرة ألقاها المؤلّف بدعوة من «اتّحاد الكتّاب اللبنانيّين» في قاعة وزارة التربية الوطنيّة ، بيروت ، ١٩٧٣.

٢

لقد طال ما قرأنا وسمعنا عن جدال المعنى والمبنى في الصنيع الأدبيّ. عن ماهيّة هذا وذاك وعلاقة بعضهما ببعض. الآراء أكثر من أن تُحصى في هذا الشأن أو أن يحيط بها نطاق. حسبي وحسبكم شيء – وفي هذا بعض الضوء ربّما كشف في هذا العالم السحريّ عن جوانب جديدة – ليس من معنى دون مبنى. ليس المبنى قالبًا لجسم غريب ، ولا كأسًا لسائل أجنبيّ عنه. وإنّما هما شيئان متّحدان. أقنومان لشخص واحد. روح وجسد يؤلّفان كائنًا حيًّا. لا يمكن فصل الروح عن الجسد أو فصل المعنى عن المبنى إلّا بموت الكائن الحيّ أو عدمه أصلًا. لذلك كان استعمال هذه الكلمة ، مثلًا ، بدلًا من تلك انتقالًا من فكر إلى فكر ، أو من حسّ إلى حسّ ، أو من خيال إلى آخر ، عَظُمَ أو لَطُفَ – لا فرق – جَمُلَ أو قَبُحَ...

الإنسان حيوان ناطق. وبمقدار بلاغته في النطق يكون سموّه عن الحيوان غير الناطق ، وبالتالي عن غيره من الحيوانات الناطقة ، أي مدى ما وصل إليه من فكر

وحسّ وخيال. وعلى هذا كانت اللغة، بحدّ ذاتها، ترجمانًا عن ثقافة وصورة لحضارة. واللغة العربيّة لا تشذّ عن القاعدة وإنّما هي مثال رائع عليها. كلّ كلمة من كلماتها تاريخ مكتوب وغير مكتوب، مشحون بالأنفاس التي تردّدت خلال حروفها، زاخر بأسرار الزمان والمكان اللذين تنقّلت فيها، مضطرب بملايين الأنغام والألوان... مَن ملك لغته ملك فكره وحسّه وخياله، وملك أو كان في متناوله ثقافة بأمّها وأبيها وحضارة. ومن فاتته عبقريّة لغته فاتته عبقريّته وعبقريّة أمّته، فصنيعه الأدبيّ طِرْح.

أجل، في البدء كانت الكلمة. بإمكاننا أن نقول: في البدء كانت الكلمات أو الألفاظ. وحالة الوحي والإلهام، أو اللاوعي والرؤيا، يمكن أن تشبّه – على فرق الحجم – بالحالة التي سبقت الخليقة. «وكانت روح الله ترفّ على وجه الغمر». هكذا جاء في سفر التكوين. وبالتصدّي للألفاظ أو الكلمات، لتلك الكائنات الحيّة والفلذ النابضة المبعثرة، تبدأ اللعبة. لعبة التكوين، أو الخلق روحًا وجسدًا. إنّها لعبة رائعة.

مع هذا الفرق الآخر – وهو كبير – أنّ الفنّان لا يستطيع أن يقول للشيء: كُن. فيكون. ثمّ يستريح. ولكنّه مضطرّ إلى دأب وصبر ومعاناة. خالق هو، صحيح، ولكنّه خالق صغير، قرد حقير مقلّد.

أمّا أنّ اللعبة مثيرة فلأنّها ملأى بالمفاجآت. فرُبّ كلمة نبحث عنها للتعبير عن شيء فإذا هي تحمل إلينا شيئًا آخر. تفتح صدرها عن محبّآت أو تنادي أختًا لها قريبة أو بعيدة، فيكون لنا في النتيجة ما لم يخطر في البداية لنا ببال. تداعي الكلمات كتداعي الأفكار، أو هو هو بالذات، وهذا ما يسمّونه وحي القلم.

ولكنّ اللعبة تظلّ إعطاء ما عندنا لا استعارة ما عند الغير. ومعجزة الكاتب أو الشاعر الشاعر أنّ الكلمة تحت قلمه – على تقادمها وتكرارها – تعود بكرًا تفوح بالطهر لأنّها تمرّ من خلاله، تتغذّى من دمه، تنضج على شموسه وأهوائه. يخلقها من جديد. وويل لصاحب قلم تنقلب الكلمة بين يديه إلى مومس أو حطبة. إنّه شقاء الخلق بالخالق.! شتّان بينه وبين الخالق بخلقه!

من محاضرة في الجامعة اللبنانيّة – ١٩٦٤

٣

إلى جانب التراث اللغويّ البحت، المتحدّر إلينا عبر الأجيال، تراث آخر: الأوزان والقوافي. أبادر إلى القول إنّني لست دائمًا من المحافظين عليها كما قعّد قواعدها الخليل. ولست دائمًا من أنصار الشعر المنثور أو قصيدة النثر.

وضع موليير على لسان شخص في إحدى مسرحيّاته هذه العبارة: «أصحيح أنّني أصنع نثرًا دون أن أدري؟»

الواقع أنّ كلًّا منّا يصنع النثر ويصنع الشعر أيضًا دون أن يدري. ينطق نثرًا في مواضع النثر، وشعرًا في مواضع الشعر، عفوًا، بلا قصد. يخضع في الأمرين للموقف الذي هو فيه أو الحالة. وواضح أنّ الحالات النثريّة هي الغالبة، في الظاهر على الأقلّ. ولا تتأتّى الحالات الشعريّة إلّا بين الحين والحين. مثلها كمثل الأنواء في البحر إذا أردنا التشبيه. إلّا أنّ للإنسان، كما للبحر، حالة شعريّة دائمة ولكنّها خفيّة. وربّما كان وراء النثر شعر لا ينقطع خيطه، ولكنّه خيط دقيق لا يُتاح للجميع أن يروه، فكيف بإمساكه؟

لغة الحبّ شعر، لغة الحنان والغفران شعر، لغة الغضب شعر، لغة التمزّق واليأس شعر، الصلاة شعر والتجديف شعر. أمّا الكلام عن المشي والقعود، والزرع والضرع، والبيع والشراء، والعمل والمكتب فهو نثر... أقول هذا لأقرّر شيئًا: إنّ التعبير الطبيعيّ بالنطق لا يمكن أن يكون نثرًا فقط أو شعرًا فقط. وإنّما هو

مزيج من الاثنين.

من المتّفق عليه في تاريخ الآداب أنّ الشعر سبق النثر. هذا خطأ. لم يسبق أحدهما الآخر. توأمين وُلدا. ولكنّ الشعر هو الذي بقي محفوظًا وضاع النثر. ثمّ إنّنا نخلط بين النظم والشعر. النظم نثر موزون مقفّى، والشعر شيء آخر. وعلينا أن نميّز في الشعر القديم، وفي الشعر الحديث أيضًا، بين الشعر الذي هو شعر والشعر الذي ليس له من الشعر إلّا الأوزان والقوافي.

حتّى في الشعر الصحيح، في القصيدة الواحدة منه، طبقات يتدنّى بعضها إلى النظم أي إلى النثر... سؤال: لِمَ لا تكون هذه الطبقات نثرًا لا أكثر ولا أقلّ، لا تعب ولا وجع رأس؟

هذا السؤال طرحه سواي تمرّدًا وتحطيمًا شاملًا، طرحه انقلابًا جذريًّا، ووجد جوابه في الشعر المنثور أو قصيدة النثر كما يقولون اليوم، فاستغنى بذلك عن الوزن والقافية. ولكنّه جهل أنّه يتنازل بذلك مجّانًا عن عنصر أساسيّ من عناصر الشعر: الموسيقى، وعن تراث لها في العربيّة يبلغ من الغنى ما لم يبلغه تراث في أيّ لغة من لغات الأرض. أمّا الطريقة المحافظة، الوزن الواحد والقافية الواحدة، ففيها جمود لا يتّفق مع تطوّر الشعر بصفته تعبيرًا عن الحياة. والحياة متطوّرة أبدًا جوهرًا ومظهرًا، وبالتالي تعبيرًا.

إنّ طريقتي في «السائح والترجمان» غير الطريقتين. وأُوضح – وهذا مهمّ – أنّها طريقة لاواعية، بمعنى أنّني لم أبحث عنها أو أسعَ وراءها. لم أرسم لها مخطّطًا. ليست عن سابق تصوّر وتصميم. كلّ ما كان أنّني كنت أعيش الحالة فتُملي عليّ وأنا أكتب. فإذا اقتضت نثرًا فالنثر أو شعرًا فالشعر. «السائح والترجمان» نثر وشعر معًا.

على أنّ الحالة نفسها – أيّة حالة – تنقسم بدورها إلى حالات، إلى مراحل، إلى مراتب تختلف حرارة وبرودة، سرعة وبطءًا. ومع هذه الانتقالات يتغيّر الوزن والقافية، دائمًا في القصيدة نفسها، ورُبَّ مقطع منها بلا وزن ولا قافية إطلاقًا...

من محاضرة في الجامعة الأميركيّة – ١٩٦٤
على أثر صدور «السائح والترجمان».

في السنوات العِجاف

وجّه الدكتور سهيل إدريس، على أثر إصداره مجلّة «الآداب»، إلى المؤلّف – وكان حينذاك في سفارة لبنان في طهران – كتابين يغريه فيهما بالعودة إلى الأدب بعد أن هجره دهرًا. وهذان هما الجوابان على الكتابين:

١

أخي الكريم،

تلقّيت كتابك المتوّج بـ «دار العلم للملايين»، والموقّع بـ «الدكتور سهيل إدريس». ولك أن تقدّر احترامي للتاج، وودّي وإخلاصي للتوقيع. أمّا ما بينهما من آمال معقودة على «الآداب» فشيء تعلق بنفسي منه أشياء تطفو وتغور. ربّما اختفت دهرًا، فخلتها زالت واضمحلّت، ثمّ إذا هي تعود فجأة وتُتلع أعناقها،

ليس لها سمت ولا ميعاد. قد تطالعني وأنا آكل أو أشرب فأغصّ باللقمة والماء القراح، وقد تتراءى لي في الحلم فتقضّ عليّ مضجعي. ولعلّ وقعها أشدّ ما يكون عليّ إذ أكون سائرًا في طريقي -كعهدي معك في بيروت بالأمس- فتبغتني في منعطف وتتناولني بيدين جبّارتين، على هزالها، وتخبطني بالحائط خبطًا وتصيح مجلجلة بي: «أنا هنا، يا خائن، فأين أنت!»

عجيب أمري مع هذه المخلوقة العجيبة! ولو سألتني أن أسمّيها أو أصفها لك لما استطعت. شيء -قلت لك- أو أشياء تتجسّد حينًا في كتاب جديد يعترضني في واجهة فأقف إزاءه مبهوتًا، أدفع أنني في الزجاج وأودّ لو أقتحمه لأشمّ رائحة الحبر بملء رئتيّ وأقضم الحروف بأسناني. وتتجسّد حينًا في ورقة خريف تتهاوى على رأسي في نزهة، أو في نجمة شاحبة تطلّ في أفق السماء. وبينما هي تخرج من أسمال فقير يزحف على الحضيض تارة، إذا هي تارة أخرى تتململ في «الفراك» الذي أتزمّل به في بعض أوقاتي، حتّى لقد ضاقت بي وضقت بها ذات يوم، وأنا أنحني أمام ملك من ملوك الدنيا، فوقفت دوني ودونه حيّة تفحّ، وما يزال لفح سمّها في وجهي.

تلك هي الآمال المعقودة على «الآداب». أو تلك هي رسالة الكاتب. أو ذلك هو مَثَل الفنّان الأعلى. هكذا يسمّيها الناس، وأنت منهم، وبهذه الألقاب يدلّون عليها. أمّا أنا فعذرك إذا لم أوفّق منذ البداية إلى هذه الألفاظ والنعوت. وعذرك، من بعد، إذا صارحتك بأنّني أكره الأخذ بها. تُرى، أهي -في الأصل- أقصر من أن تطال ما أريد، أم هي الكلمة تلوكها الألسن وتتداولها الأقلام فتفقد طعمها، فهي على الاستعمال بغيّ؟

كلّ ما أعرفه، يا أخي، أنّني طلّقت الكتابة منذ زمان، وأنّني منذ أن طلّقتها وكأنّني سلخت منّي شيئًا كان في وقت من الأوقات كلّ شيء. إذا قلت اللذّة قصّرت، وإذا قلت المجد جدّفت، وإذا قلت الهناء كلّه لم أقل شيئًا، لأنّه كان أعمق من اللذّة كلّها، وأبعد من المجد كلّه، وأبقى من الهناء. وأنا أذكر ذلك جيّدًا.

بل أنا أعرف ذلك جيّدًا، فما بالي أدور وأراوغ؟ كلّ الظنّ أنّني أتلمّس الأعذار بل الأستار لخيانة ارتكبتها وما أزال أرتكبها كلّ يوم وكلّ ساعة، دونها خيانة الحليل لحليلته، والجنديّ لوطنه، والمؤمن المتعبّد لربّه وخالقه.

كيف لا وهي خيانة النفس؟

أجل، خائن نفسي أنا. أجبرتني، يا أخي، على قولها بما سقتَ إليّ -وإلى أمثالي- من تعنيف، وما أزجيته من استثارة للعودة... تُرى، أفأنت قادر على حملي إليها؟ أتكون «الآداب» خليقة بأن تردّني إلى ضالّتي المنشودة أو تردّها إليّ، فأطوّقها من جديد بذراعيّ وأجعل ذراعيها طوقًا في عنقي إلى الأبد؟ أم تكون قصاراك أنّك ألقيت في المياه الراكدة حصاة وحرّكت في طمأنينتي توبة كاذبة تنقضي بكلمة حلاوتها من الشفاه وبقبلة لا حلاوة لها، وبعدها أعود إلى صحراء الحرمان وجهنّم الخيانة؟...

«الآداب» - ١٩٥٣

٢

أخي الكريم،

وددت لو كانت رسالتك الثانية أمامي لأجيبك عن بعض ما فيها. ولكنّي مزّقتها أو طرحتها - لا أذكر... هوّن عليك، لقد قرأتها قبل ذلك غير مرّة وذقت غير مرّة حلاوة ما قدّمت فيها من ثناء. فأنا ما زلت بالرغم من كلّ شيء إنسانًا. ولا تعتب على التمزيق أو الطرح خارجًا، فتلك عادة لزمتني منذ دهر، أي منذ زهدت بقيم الحبر والورق، وعزاؤك أنّني لا أحتفظ في بيتي بنسخة من كتاب لي، ولا من جريدة كتبت فيها أو

كتبتْ فيّ – والله يعلم المقادير – وأنّ مكتبتي ، وكانت تعدّ المئات من المجلّدات ، قد أكلها الفار والغبار ، وكلّما درج طفل من أطفالي تركته يجهز على نصيبه منها وعيناي تنظران .

لذّة ساديّة أعرفها في نفسي منذ الصغر ، ولكنّي ما حسبت يومًا أنّها ستمتدّ إلى هذه الأشياء... وربّما وقفت على المزق والبقايا فيأخذني ما أخذ امرأ القيس حينما وقف على الأطلال ، أتناولها بيديّ الاثنتين وأتلمّس بأصابعي الحيواتَ الموزّعة فيها ، فإذا هي تستعيد ، في طرفة عين ، حجمها وشكلها السابقين ، لحمها ودمها وأنفاسها ، وإذا هي أشخاص قريبة حبيبة تناجيني بذوات صدورها ، فأنحني عليها أمسح جراحاتها وأسألها عن أوجاعها ، وأكاد أبكي .

تقول لي في رسالتك – أذكر ذلك جيّدًا – « وددت لو أمزّق بأسناني من صرفك عن دنياك ودنيانا ودنيا الخلود » . لكأنّك خبطتني على رأسي بهذه الكلمات ، فصحوت كما يصحو السكران ، وانتقلت إلى دنيا أخرى لست أدري هل هي دنيا الخلود التي تشير إليها ، ولكنّها في كلّ حال وطني الذي هجرته والدنيا التي سلخت فيها أنضر أيّامي وعمّرتها بأمانيّ وأحلامي ... وكانت لحظة غمرتني فيها فرحة العائد . لحظة من لحظات العمر لك فيها عليّ اليد . ثمّ لم ألبث أن سمعت ضحكتي فتحسّست نفسي فإذا أنا حيث كنت وتعهد . فما كان أغناك وأغناني .

الخلود !

ما أهون ما تجري هذه الكلمة الضخمة ضخامة الأرض والسماء في شقّ القصبة ! ويقينًا ، لو وعت الأقلام ما تنطق به من كبائر لانشقّت وذهبت شعاعًا . ولكن ، تلك هي معجزتها التي لا تدانيها معجزة : إنّها قد تفجّر ، بمجرّد أنّها انغمست في الحبر ومسّت الورق ، قنبلة ذرّية قد تغيّر وجه العالم ، وهي أضعف ما تكون القصبات . وكلّ الظنّ أنّ هذا هو الخلود الذي تذكر ، والذي وصفه أبو الطيّب المتنبّي إذ وصف المجد ، وكأنّه يصف تلك القنبلة :

« وتركُك في الدنيا دويًّا كأنّما
تداولُ سمعَ المرء أنملُه العشرُ »

بيد أنّ ذلك ، على جلالة قدره ، دون الغاية . فالإيمان بالخلود نار تأجّجت في نفوس الملهَمين إطلاقًا . فإذا خبت تلك النار المقدّسة خبا الإلهام . والكافر بالخلود عاجز ، في الغالب ، عن الإبداع .

ولقد كان زمان كنت أؤمن فيه بالخلود وأعيش في دنياه . غرفة عارية وكسرة خبز ، وأحتقر أصحاب الملايين وأرباب القصور . هيكل رفعت عمده على ذراعيّ وطليت سقفه بدم القلب ونور العينين ، وأقمت فيه صنمي ربّما أعبده وأحرق له البخور . أمّا اليوم فقد انهار الهيكل وتحطّم الصنم . أيّ ريح أطاحت به ؟ في أيّ أرض استقرّ حطامه ؟ لست أدري . كلّ ما أدريه – وهذه هي مأساتي – أنّني انتقلت بعد ذلك إلى غير واحد من هياكل الناس لأعبد ما يعبدون من أصنام ، فلم يمسّ الإيمان بواحد منها وترًا في نفسي ، وحطّمتها كلّها على رأسي .

ترى ، يا أخي ، أنّني أعاني شقاء الملحدين . وإنّه لأعظم الشقاء .

وبعد ، هنيئًا لك نارك وربّك ، وهيكلك ودنياك ، دنيا الخلود كانت أم دنيا الوهم . وما همّك الخلود بعد أن تصير ترابًا في التراب ؟ لقد عشت الخلود كلّه في الإيمان به والعمل له .

« الآداب » – ١٩٥٣

القصّة عندنا

القصّة – بما فيها الرواية والحكاية – لم تصبح نوعًا من الأنواع الأدبيّة إلّا في الأزمنة المتأخّرة. وبالرغم من القَصص الرائع الذي نجده في كتب الأدب العربيّ – وخصوصًا في أغاني أبي الفرج – فإنّنا لا نستطيع أن نقول إنّ العرب عالجوا القصّة على أنّها نوع مستقلّ، وإنّما كانوا يتّخذونها وسيلة لتأريخ أيّامهم، ووصف مجالس خلفائهم، ورواية النوادر المتّصلة بالمغنّين والجواري إلخ. وربّما اتّخذها آخرون، كأصحاب المقامات، وسيلة للتدليل على براعتهم اللغويّة، فاتّفق لبعضهم، كالهمذانيّ، أن يترك لنا روائع كانت ولا تزال تحتلّ المقام الأوّل في الفنّ القصصيّ.

ولكن إذا كان العرب لم يعالجوا القصّة على أنّها نوع مستقلّ من الأنواع الأدبيّة له أغراضه الخاصّة ومقاييسه الخاصّة فلا يعني ذلك أنّهم لم يعرفوا القصّة، كما يدّعي بعض النقّاد. والواقع أنّ شأنهم في ذلك كان كشأن الأمم الأخرى سواء بسواء، بل إنّ شأنهم في القصّة كان كشأنهم في سائر الأنواع. فإنّ أوّل من نطق بالشعر منهم، مثلًا، لم يهتف: اسمعوا يا ناس، سأقول لكم شيئًا موزونًا مقفّى اسمه الشعر! ولكنّه قال هذا الشعر بالسليقة. ثمّ جاء من بعده جماعة قالوا أشياء موزونة مقفّاة. ثمّ جاء من بعدهم من تلمّس وجوه الشبه بين هذه الأشياء ووجوه الاختلاف بينها وبين غيرها، فاستنبط القواعد والمقاييس وسمّى الشعر شعرًا والنثر نثرًا. بعبارة أخرى إنّ الخلاف القائم بين الذين ينكرون القصّة على الأدب العربيّ والذين يقولون إنّ الأدب العربيّ قد عرف القصّة كالخلاف على لون الطعام: أنت تقول إنّ اسمه كذا وكذا وفلان يقول بل كذا وكذا. ولكنّكما متّفقان على أنّ هذا اللون موجود، وأنّه سائغ، مشبع.

ولعلّ منكري القصّة على الأدب العربيّ يقيمون حجّتهم الأولى على أنّ القصّة عبارة عن خلق فنّيّ يتناول الأشخاص والحوادث، ومعظم القَصص العربيّ يتناول أشخاصًا معروفين وحوادث جرت على التعيين، وإن تصرّف الكاتب في وصف أولئك الأشخاص وتتبّع هذه الحوادث تصرّفًا يختلف اتّساعًا وضيقًا باختلاف مزاجه والغرض الذي يرمي إليه. ولكنّها حجّة واهية. فالخلق الفنّيّ موجود، سواء أكان الأشخاص حقيقيّين أم خياليّين، وسواء أكانت الحوادث التي قاموا بها قد وقعت أم لم تقع. لأنّ الخلق الفنّيّ ليس معناه حتمًا إيجاد الأشياء من العدم، بل هو غالبًا التأليف بين أشياء موجودة وسَوقها نحو غرض معيّن. وآية ذلك أنّ من يسرد عليك فصلًا حقيقيًّا من معارك نابليون، مثلًا، «سردًا فنّيًّا»، ومن يقصّ عليك قصّة بطل خياليّ في معركة خياليّة سيّان في عين القصّة.

وهنالك حجّة أخرى عزيزة على منكري القصّة على الأدب العربيّ، هي أنّها لم تُكتب لنفسها، أي أنّها لم تكن يومًا غاية بل كانت دائمًا وسيلة. وهنا أيضًا يقع الجماعة في الخطأ نفسه. فسواء كانت القصّة قد

كتبها كاتبها لتأريخ حادث أو وصف مجلس أو رواية نادرة أو للتدليل على تضلّعه من اللغة أو كتبها لأجل أن يكتب قصّة، فالنتيجة واحدة. وليس للناقد أو القارئ أن يحاسب الكاتب على الدافع الذي حدا به إلى صنع الصنيع الفنّيّ بل على قيمة هذا الصنيع فقط ومقدار استكماله للشروط التي تجعل منه شيئًا جميلًا... هذا مع العلم أنّه لم يقم دليل قاطع على أنّ أبا الفرج، مثلًا، قد كتب الأغاني للغايات الظاهرة من كتابتها وليس لغاية فنّيّة بحت، هي الغاية التي وضعها بلزاك أمام عينيه عندما كتب رواياته، أي إعطاء صورة أصدق ما يكون عن عصر من العصور.

على أنّ القصّة قد تطوّرت في الأزمنة الأخيرة، كما قلت، وأصبحت نوعًا مستقلًّا له أغراضه ومقاييسه. حدث ذلك في غفلة عن الأدب العربيّ إذ كانت الشقّة بينه وبين آداب الأمم بعيدة والصلة معدومة. حتّى كانت النهضة في القرن التاسع عشر، وانفتحت على الناطقين بالضاد آفاق الثقافة الغربيّة، فكان من جملة ما طلع عليهم من ألوان الأدب القصّة. فترجموا من غثّها وسمينها وحاول بعضهم التأليف. ولكنّها ظلّت نوعًا مهملًا بالنسبة إلى الشعر والمقالة. وقد كان هذا طبيعيًّا لأسباب عديدة منها تعطّش الشعوب العربيّة للحرّيّة في الميدان السياسيّ، وللمعرفة في الميدان الثقافيّ، وكلا الشعر والمقالة أقصر وأيسر إلى هاتين الغايتين. ومنها كذلك أنّ الكتّاب لم يكونوا قد درسوا القصّة درسًا وافيًا وعرفوا الأغراض الجبّارة التي اتّسعت لها عند الغربيّين، بل كانوا ينظرون إليها في الغالب على أنّها وسيلة لقتل الوقت.

الواقع أنّ القصّة (وأنا أعني أيضًا الرواية) هي النوع الأدبيّ رقم واحد في آداب الأمم إطلاقًا. ذلك أنّ القصّة هي التعبير الأمثل عن الحياة مصدرًا وموردًا. أي أنّها بالنسبة إلى الكاتب أفضل وسيلة لأداء فكره، وأفضل وسيلة بالنسبة إلى القارئ لتلقّي هذا الفكر. وهي لم تبلغ هذا المفهوم إلّا بعد أن تطوّرت خلال العصور تطوّرًا كان للنظريّات الفلسفيّة والاكتشافات العلميّة أثر كبير فيه. ولو أنّ العرب لم ينقطعوا عن الحضارة طول هذه الحقبة المديدة من الزمن المعروفة بعصور الانحطاط لكان من المحتوم أن يتطوّر الأدب عندهم تطوّرًا للقصّة منه نصيب. ولكنّ التاريخ شاء أن يقعد بهم ما قعد، ثمّ شاء لهم أن يستيقظوا في عصر هو بحقّ عصر الثقافة العالميّة المشتركة، فلم يكن لهم بدّ من العبّ منها، وبالتالي الصبّ فيها ممّا عندهم على سبيل التفاعل.

ولقد قطعت القصّة العربيّة منذ ترجمات النهضة ومحاولاتها التأليفيّة مرحلة يصحّ أن ندعوها بمرحلة الانتقال. مرحلة تعرّف فيها الكتّاب والقارئون معًا إلى هذا النوع من الأدب ما هو وما هي مقاييسه وأغراضه. وهي تجتاز اليوم مرحلة إنشائيّة تبشّر بخير كثير. وإذا كانت القصّة في لبنان ومصر وسوريّا والعراق وأيّ قطر آخر من أقطار الضاد لم تبلغ بعد المستوى الذي يصحّ أن نقول معه إنّها تعبّر عن حياتنا أمثل تعبير، فهي – على كلّ حال – قد بدأت تنطق هنا وهناك وهنالك بكلمات حلوة، وجمل صحيحة، لا يعيبها سوى لثغة لا بدّ منها في البداية، وبعض عجمة نرجو أن تتوارى في القريب.

من مقدّمة لـ «صديقة الأحراج»
تأليف إميل يوسف عوّاد – ١٩٤٦

لا رأس ولا ذَنَب

يقع نظري ، من حين إلى آخر ، على بعض ما تكتبه فئة من أبناء الجبل في لبنان – شعرًا أو نثرًا لا فرق – فأتساءل بإخلاص : تُرى ، ماذا يريد الناثر أو الشاعر؟ ما هي المعايير التي في ميزانه؟ ما هو الدين الجديد الذي يبشّر به ؟ وأعترف أنّني أحاول الفهم فلا أفهم إلّا القليل. والقليل الذي أفهمه إنّما أفهمه على سبيل التوهّم ، أو الحياء.

ذلك أنّ للجماعة لغتهم. وهي عنوان الاستهتار باللغة ، بقواعدها من صرف ونحو ، وبالجملة المفيدة ، وما يهمّهم أن تكون مفيدة؟ بمعاني الألفاظ ، بالوزن ، بالقافية ، بحروف الجرّ – عفوًا – كلّ شيء ولا هذه! فإذا كان يفوتهم غالبًا أن يجرّوا بها المجرور فقد عوّضوا عليها بأن جعلوها أبياتًا كاملة من الشعر! في ، إلى ، مع ، على ، من ، إلخ. كلّ واحدة منها في سطر يؤلّف صدر البيت أو عجزه. فإذا سألتهم أجابوك : هذا شعر جديد لا صدر له ولا عجز ، أي لا رأس ولا ذَنَب!

ولكنّ هذا كلّه لا يعدو كونه مظهرًا. والجوهر أشدّ وأدهى. إنّه رفض ، وهدم ، وتشويه ، وهزء بالتراث الخلقيّ والأدبيّ والفلسفيّ والاجتماعيّ ، لا اللبنانيّ أو العربيّ وحده ، بل الإنسانيّ من أوّل التاريخ إلى يومنا هذا.

وآخر ما قرأته لأحدهم قوله : «المُثل العليا؟ إنّني أضنّ حتّى ببصاقي على هذه الجِيَف!»

إنّه مرض كغيره من الأمراض ، وأكثره مجلوب. والتمارض في الأدب أدهى.

«الحياة» – ١٩٦١

خشب وذهب

كان الزهاويّ يقول :

«سئمتُ كـــلَّ قـــديمِ
رأيتُـــهُ في حيـــاتي
إن كـــانَ عنـــدكَ شيءٌ
من الجديـــدِ فهـــاتِ»

ولكنّ الجديد الذي دعا إليها الزهاويّ وطالب به هو ، طبعًا ، غير هذا الجديد الذي يطالعنا به جيل آخر زمان خصوصًا في الشعر.

كنت أقلّب أمس مجموعة من الشعر الجاهليّ ، فوقع نظري على بيت لأبي صخر الهذليّ يخاطب فيه حبيبته ، قال :

«تكادُ يدي تندى إذا ما لمستُها
وينبتُ في أطرافها الورقُ النَضِرُ»

أيّ صدق! أيّ عمق! أيّ أناقة!

بأيّ فنّ كان البدويّ ساكن الخيام وعشير الشاة والبعير ، منذ ألفَي سنة ، يعبّر عن الحبّ... عن اللمسة التي تُتاح ليده... عن الأحاسيس التي تحدثها هذه اللمسة... عن الحياة المنبعثة في أطراف أصابعه حتّى لينبت فيها الورق النضر! بالله عليك قابل بين هذا التعبير وتعابير أصحاب قصائد التنك والخشب والباطون.

أنا على دين الزهاويّ من دعاة الجديد. ولكن شرط أن يكون هذا الجديد من معدن الذهب الذي صاغ منه أبو صخر الهذليّ بيته القديمَ الذي يتجدّد بريقه مع الجديدَين.

«الحياة» – ١٩٦٢

قطّ بين شعراء

حكى ضيفنا الشاعر التركيّ ناظم حكمت حكاية أوّل قصيدة نظمها في حياته. قال: كانت هذه القصيدة عن قطّ لأختي. ولقد وصفته بأنّه أبيض كالثلج، ناعم كالحرير، له عينان كأنّهما زمرّدتان. وحملت القصيدة إلى أستاذي مزهوًّا. فقال لي: أريد أن أرى القطّ قبل أن أحكم. فلمّا كان من غد جئته به، وكان قطًّا أعور قذرًا، فقال لي الأستاذ: إن كنت بارعًا في الكذب إلى هذه الدرجة فأبشر. ستكون شاعرًا عظيمًا.

ويختم ناظم حكمت حديثه الظريف بقوله إنّ تلك كانت الكذبة الأولى والأخيرة في شعره.

وقد تلقّيت من أحدهم كتابًا يشير فيه إلى هذه الحكاية ويسألني بوصفي شاعرًا (كذا): ترى، أوَ ينبغي للشاعر أن يكون صادقًا أمينًا. أم إنّ «أعذبه أكذبه»؟

يا سيّدي، شكرًا لك. من قال لك إنّني شاعر؟ أنا أكتفي من الشعر بقراءته، ومن الشعراء بأن أكلّفهم نظمه للذّتي. «هم يسهرون وراء القوافي» كما قال المتنبّي، وأنا «أنام ملء عينيّ» ولا أفتحها إلّا عندما ينتهون فأقول لهم: برافو! أحسنتم! كأنّني أمير المؤمنين.

تريد أن أكون مفتيًا أيضًا؟ الأستاذ لم يكن لديه حقّ في إصراره على مشاهدة القطّ. كاذب أو صادق، ليس هذا هو المهمّ. ليس المهمّ أن يكون القطّ قذرًا أو نظيفًا، أعور أو ذا عينين. المهمّ عندما أقرأ قصيدتك فيه أن تجعلني أعتقد أنّه أجمل وأنعم وأفتن قطّ في العالم.

تريد تحديدًا للشعر؟ الشعر دهشة وانفتاح فم.

«الحياة» – ١٩٦٠

معدتهم اللغويّة

قرأت خبرًا طريفًا عن المازة والكبّة والشورما. ينبغي أن أقول خبرًا لذيذًا. وهذا نصّه:

«هل فكّرت وأنت تتصفّح «الموسوعة العالميّة» أن تبحث عن كلمة مازة؟

أو كلمة كبّة؟

أو كلمة شاورما؟

لا تستغرب أبدًا إذا وجدت هذه الكلمات، ذلك أنّ هذه الألوان من الطبخ اللبنانيّ أصبحت ألوانًا عالميّة كأطباق المعكرونة في روما والهمبرغر في أميركا، والجيكو في فرنسا.»

الطريف اللذيذ في الخبر أنّه يفتح القابليّة – ما أقلّ الأخبار التي من هذا النوع؟ – والطريف اللذيذ فيه أيضًا أنّه يرفع الرأس، لأنّ المآكل اللبنانيّة قد احتلّت قواميس اللغات الأجنبيّة والموسوعات العالميّة بعد أن فتحت بطون الزائرين من الخارج فتحًا مبينًا...

على أنّ الغريب في الأمر أنّ علماء اللغة العربيّة وجهابذتها الأعلام الساهرين على قدسيّتها ما يزالون – بالرغم من ذلك – يرفضون أن يقرّوا للمازة والكبّة والشاورما برعويّة هذه اللغة. كما رفضوها بالأمس للسندويش فسمّوه «الشاطر والمشطور وبينهما الكامخ»! وآية ذلك أنّك إذا فتحت قاموسًا من قواميسنا العربيّة لا تجد أثرًا لاسم من تلك الأسماء الجميلة.

إذا كان الأجانب قد هضموا الكبّة والشاورما والمازة بلحمها وشحمها، أفما آن لشيوخنا أن يهضموا أسماءها على الأقلّ؟

«الحياة» – ١٩٦٢

بضاعة زمالك

الشاعر البحتريّ قال في الربيع قولًا يؤرّخ في نظري ميلاد البحتريّ :

«أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكًا

مِن البِشْرِ حتّى كادَ أن يتكلّما»

ومع ذلك ، في الخريف يريد المجلس الأعلى لرعاية الفنون والعلوم والآداب أن يحتفل بذكراه . شيء مؤسف .

المهمّ أنّ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم في مصر يعرف أنّ البحتريّ شاعر. إذن من الواجب أن يكون تكريمه شعرًا ! هكذا بقرار اتّخذه بالإجماع ، وأذاعه على الأقطار الناطقة بالضاد داعيًا الشعراء إلى الاشتراك في هذا المهرجان وإلى التفضّل بإرسال قصائدهم إلى «٩ شارع حسن باشا صبري بالزمالك بالقاهرة» .

لست أدري من يستحقّ الشفقة. شعراؤنا الذين سيطاردون القوافي من الآن إلى الخريف؟ أم عباد الله الذين سيُدعون إلى التقاط دررهم في المهرجان؟ أم البحتريّ الذي سيغرقونه ببحورهم ويقذفونه بقوافيهم؟ أم الشعر من حيث هو... ؟

يا جماعة ! إحتفلوا بذكريات الشعراء وكرّموهم كما تشاؤون. أُنشروا دواوينهم الخالدة. إحفظوا قصائدهم عن ظهر قلب. تغنّوا بها على السطوح. أُكتبوها على الجدران بماء الذهب. أُنصبوا لهم التماثيل في الساحات. أطلقوا أسماءهم على الشوارع. أنشئوا لهم الأندية والمعاهد. أقيموا المباريات الأدبيّة. إمنحوا الجوائز السنيّة. إلخ.

ولكن ، بالله عليكم ، اعفونا من بضاعة ٩ شارع حسن باشا صبري بالزمالك بالقاهرة...

«الحياة» – ١٩٦٢

شقاء التمثال

نشرت إحدى الصحف البيروتيّة خبرًا جاء فيه أنّ النحّات غرزوزي المقيم في مصر قد صنع تمثالًا لخليل مطران شاعر القطرين ، وتمنّت على لبنان حكومةً وشعبًا أن يسعى لنقل هذا التمثال إلى وطن الفقيد ونصبه في إحدى ساحات العاصمة .

وبهذه المناسبة أثبتت الجريدة أبياتًا رائعة لخليل مطران قالها في هذا التمثال ، أو في تمثال آخر له مصنوع في حياته .

منها قوله :

«مثـــالي راعني حقّـــا

فـــأنت أعـــدتني خلقـــا»

ثمّ يخاطب الشاعر التمثال – أو المثال على حدّ تعبيره – فيقول له إنّه سيموت وإنّ التمثال ربّما بقي من بعده .

ويختم بهذا البيت :

«أخـــافُ عليك أن تَحيـــا

ومَن يحيـــا ولا يشقى؟»

أنا ، على حبّي وإجلالي لخليل مطران ، لا أشاطر الجريدة رأيها في نقل تمثاله إلى بيروت ، لا ردًّا للفكرة من حيث هي ، بل حرصًا منّي على هذا الحبّ وهذا الإجلال اللذين يشاطرني إيّاهما الجميع .

ذلك لأنّني أخشى أن يحلّ بتمثال خليل مطران ما حلّ بتمثال أُستاذه وصديقه المرحوم إبراهيم اليازجيّ ، وكلّنا يذكر في أيّ زاوية حشروه. ثمّ أحرجوه وأخرجوه. والله يعلم أين طرحوه.

لا. لا ! فليبقَ تمثال خليل مطران في مصر ، في أيّ مكان... شرط أن يكون بعيدًا عن بلاد يشقى فيها حتّى الحجر.

«الحياة» – ١٩٥٠

أُكتب أو مُت!

في جامعة يال – الولايات المتّحدة – نظام لهيئة الأساتذة يفرض على كلّ منهم أن يكتب كلّ سنة كتابًا في المادّة التي يدرّس فيها. وقد اختُصر هذا النظام على الطريقة الأميركيّة بشعار «اكتُب أو مُت».

والأساتذة الجهابذة يفضّلون أن يكتبوا على أن يموتوا، لذلك خضعوا للنظام. إلّا واحدًا حكّ رأسه طول السنة فلم يطلع منه شيء. فالتأم مجلس الجامعة لمحاكمته. وكان الرجل ينتظر تطبيق النظام، غير أنّهم في النتيجة رحموه – لأسباب تخفيفيّة – فاكتفوا بطرده.

تقول البرقيّات: «وما كاد الطلّاب يطّلعون على القرار حتّى أعلنوا الإضراب عن الدروس أو يعود أستاذهم إلى كرسيّه.»

قد يكون من المفيد، بل الضروريّ، أن يتتبّع أستاذ الجامعة مادّته ويؤلّف فيها كلّ سنة أو سنتين أو خمس سنوات، لا فرق. ولكنّي أفكّر ببعض الأدباء الذين يلتزمون – مجّانًا لوجه الشيطان – الشعار الأميركيّ المشار إليه. يفرضون على أنفسهم أن يُخرجوا كتابًا كلّ كذا وكذا من الوقت. يرسمون لأنفسهم دوامًا كدوام الموظّفين ينصرفون فيه إلى القلم والورقة – من الساعة الفلانيّة إلى الساعة الفلانيّة – «ماذا يجب أن نكتب اليوم؟». المهمّ أن يكتبوا... وأن يمارسوا المهنة كما يمارس أيّ حدّاد أو نجّار مهنته.

ما أبعد هؤلاء وجماعة يال عن الذين إذا لم يكتبوا ماتوا حقًّا في أرواحهم.

«الحياة» – ١٩٦٤

فنّ الحياة

على سؤال وجّهه صحافيّ إلى الممثّلة السينمائيّة مارلين شميدت عندما زارت لبنان: «ماذا تحبّين؟» أجابت:

– أحبّ الكبّة النيّة والمؤلّفات الفلسفيّة.

رُبّ قائل: ما العلاقة بين الكبّة والفلسفة؟ الممثّلة أرادت أن تصرف الصحافيّ بنكتة...

كلّا، ليس هذا الكلام مزاحًا، وأنا أضعه في صفّ ما قلّ ودلّ، وبسط وجلّ، في وقت واحد.

كان شاعر القطرين خليل مطران – وقد عاش عمره في مصر – معتادًا أن يقضي كلّ سنة بعض الصيف في وطنه الأصليّ لبنان. واتّفق صيف ١٩٣٣ أن جاء وفد من العراقيّين المعجبين به يسألون عنه في جريدة «البرق» لصاحبها بشاره الخوري (الأخطل الصغير). فلم يجدوه ولا وجدوا الأخطل. وقيل لهم: خرجا معًا قبل ساعة. فألحّوا في معرفة المكان الذي قصدا إليه. فقال لهم الخادم:

– اِذهبوا وفتّشوا في المدينة عن المقهى الذي يقدّم كأس عرق مع أحسن رأس بندورة. خليل مطران يحبّ البندورة مثل الشعر وأكثر.

«إنّ لجسمك عليك حقًّا» لا يقلّ عن حقّ الروح. إنّ للحياة عليك حقوقًا، وهي حقوق شاملة، تضمّ الشعر إلى البندورة، والكبّة إلى الفلسفة. من فصل بينهما فصل بين الجسم والروح وهما لا ينفصلان. ومن ألّف بينهما كان هو الإنسان السويّ، والفنّان الحقيقيّ.

إنّ فنّ الحياة هو رأس الفنون.

«الحياة» – ١٩٦٦

شرارات

لست أعرف السيّدة المحترمة أولغا ليمانسكي ، ولكنّي أعرف لها كلمة – عثرت عليها في تصريح أدلت به إلى إحدى الصحف – لها ألف شرارة وشرارة.

صاحبتنا تجاوزت سنّ الحياء. هي في الستّين. ولذلك لا تجد حرجًا في استعمال الأسماء التي تدلّ على مسمّياتها. قالت :

«كنت على وشك الانتحار على أثر وفاة زوجي ، فنصحني صديق بأن أنصرف إلى الرسم. فأخذت أرسم بلا وعي ، وتحوّلت بين ليلة وضحاها من جدّة هادئة إلى شيطان رجيم. بل إلى مسخ يرى الأشياء على غير ما يراها الناس ، يجرّحها ، يحطّمها ، يفكّك أجزاءها ، ثمّ يسوّيها على هواه ، يخلقها من جديد».

وأضافت :

«المسألة مسألة شبق بكلّ معنى الكلمة. فالفنّ عندي عبارة عن نهم وافتراس ، عن لذائذ أقرب إلى لذائذ اللحم والدم. وأنا أرسم كلّ شيء : الأولاد ، الرجال ، النساء ، البقر ، الشجر ، الحجر إلخ».

السيّدة فنّانة مرعبة. ربّما كان في العمر الذي وصلت إليه بعض ما يبرّر مزاجها. ولكنّ الفنّ إطلاقًا هذا مزاجه ، سواء كان رسمًا أو شعرًا ، نحتًا أو موسيقى. مزاج الشبق ، مزاج الجنون ، مزاج الشياطين والمسوخ.

الفنّ لا يصدر عن الهدوء (عن الجدّات الهادئات) سواء كان رسمًا ، أو نحتًا ، أو أدبًا ، أو أيّ شيء.

الفنّ بيته البركان ، ومخدّته العاصفة.

«الحياة» – ١٩٦٦

لبنان والكتاب

القلم في لبنان دأب عنيد في سبيل المعرفة ، يطلبها أيّان كانت ، ويتلقّفها من أيّ ناحية أتت ، مشغوفًا بها لذاتها ، لا يقدّس فيها إلّا الجوهر. فهو يبادرها بالتجريد العقلانيّ الكامل مطّرحًا أيّ اعتبار من دين أو تقليد أو تقرير ، ولا يحابي في ذلك ولا يهاب. فإذا أُحرج فضّل صاحبه الانسلاخ عن أرضه وخرج يضرب في الآفاق قريبها والبعيد ، ينشدها حيث كانت حرّة ، وينشرها حرّة حيثما كان. وهو نزوع نهم في آن إلى الأخذ والعطاء. فالتبادل عنده تنمية لثروته. يقفز فوق المكان والزمان. ويتخطّى حدود اللغات والعصبيّات ، لا شرق ولا غرب ، بل عالَم واحد ، لا حواجز فيه لتجارب الناس ، ومحصّلها بينهم مشاع. إلى انفلات وانطلاق حتّى من اللغة إذا أزعجته. ويعلم الله كم أحبّها وما يزال ، وأيّ يد هي يده ، أندى أيادي أهلها عليها. فربّما أخلّ هنا ، أو خالف هناك ، لا يبالي. تمرُّد يعرفه مغامرو الفكر في كلّ لغة. ولأنّه يتذكّر دائمًا أنّه صنع الحرف فهو لا يعبد الحرف – صانع الصنم لا يعبد الصنم – وإنّما همّه الروح. أمّا الحرف فيُميت وأمّا الروح فتحيي.

من هنا كان الكتاب اللبنانيّ ثورة قبل كلّ شيء. من هنا إعراضه عن الأساليب المقرَّرة المركّة ، ونبذه القوالب الجاهزة المنمَّرة. من هنا مدارسه الأدبيّة الجريئة في النثر والشعر ، اقتباسًا وابتكارًا ، يبلغ بها مبالغ التحدّي أو يطيح إلى الزيغان. إنّه يعبّر عن الحياة. والحياة تطوّر دائم ، تقلُّب على ألف وجه وتفتّق عن ألف طرفة.

من خطبة في الاحتفال بأسبوع الكتاب – ١٩٦٣

الزجل أو الشعر العاميّ

نصّ محاضرة ألقاها المؤلّف في نادي جمعيّة مار مارون الخيريّة في بيروت سنة ١٩٢٨ ، ونشرتها مجلّة «المشرق» في السنة نفسها . فأصبحت منذ ذلك الوقت مرجعًا في الشرق والغرب للباحثين في الزجل أو الشعر العاميّ.

بعيدًا عن معاجم اللغة ومجموعات القوافي ، بعيدًا عن الأقلام والمحابر ، بين صفوة من الأصدقاء وأمام كأس من العرق ، يجلس الشاعر العاميّ ، واضعًا رأسه على كفّه ، يستوحي قصائده الفكر والعاطفة مجرّدين من المؤثّرات المصطنعة ، وينشدها بصوته الشجيّ على سامعيه ، وقد ارتسمت عليه ، في ذبول أجفانه ، وتجعّدات جبينه وكلّ حركة وسكنة من جوارحه ، القوّة الخفيّة التي تدفعه من داخل لإخراج ما يجيش في نفسه إلى عالم الوجود : ذِكر لمجالس الأنس ، عتاب للأيّام الغادرة ، مناجاة للحبيب النائي ، مداعبة للندماء. تلك هي المواضيع التي تبعثها الشاعريّة الفطريّة فيه ، فيندفع في معالجتها واحدًا فواحدًا ، أو يخلط بينها إذا شاء ، موقّعًا نبراته على تصفيق الأيدي ونقرات الدفّ ، حتّى إذا أكمل بيته رفع الكأس إلى شفتيه المرتعشتين ، يزيد نشوته نشوة ، في حين تردّ عليه الجوقة بملء الحناجر هازجين متهوّسين ، فيتجاوب صدى هتافهم بين جدران البيت الدافئ إن كانوا حول النار في ليلة من ليالي الشتاء ، أو يسير به النسيم من وادٍ إلى وادٍ إن كانوا على ربوة بين الكروم والصنوبر مساء يوم من أيّام الصيف.

نشأته وتاريخه

الشعر فطريّ في الإنسانيّة ، عرفَته منذ عهدها بالكلام الواضح . كلّ الأمم خلال العصور احتاجت أن تعبّر عن أفكار وعواطف خاصّة تعبيرًا جميلًا ، أجمل من الذي تستعمله في الأحاديث . وجمال هذا التعبير يتمّ بالإيقاع كما هو معلوم . فحيثما كان الفكر الحيّ ، والعاطفة الصادقة ، والنغمة العذبة ، كان الشعر ، مهما كانت أدوات التعبير.

إذا صحّ ما قلنا ، فتاريخ الشعر العاميّ يرجع إلى العصر الذي كانت فيه لغة عاميّة . وأريد باللغة العاميّة اللهجة التي يلفظ بها الشعب لغته في حياته اليوميّة . وقد برزت هذه الظاهرة في اللغة العربيّة قبيل العصر العبّاسيّ ، إذ تفرّق أبناؤها في شتّى الأقطار واحتكّوا بمختلف الشعوب ، فتعدّدت اللهجات فيها وكثر الدخيل من الألفاظ .

يقول ابن خلدون في مقدّمته[1] :

١) الفصل الحادي والخمسون : في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد.

«لأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفها أيضًا لغة أهل الأندلس وأمصاره... ثمّ لمّا كان الشعر موجودًا بالطبع في أهل كلّ لسان... لم يُهجر بفقدان لغة واحدة».

ثمّ يقول:

«أمّا العرب، أهل هذا الجيل، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطوّلات... فأهل أمصار المغرب من العرب يسمّون هذه القصائد بـ«الأصمعيّات» نسبة إلى الأصمعيّ راوية العرب في أشعارهم. وأهل المشرق من العرب يسمّون هذا النوع من الشعر بـ«البدويّ» وربّما يلحّنون فيه ألحانًا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقيّة، ثمّ يغنّون به ويسمّون الغناء به باسم «الحورانيّ» نسبة إلى حوران».

ويُردف قوله:

«لهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإنّ كلماتهم موقوفة الآخر».

ويقول في الفصل نفسه:

«لمّا شاع فنّ التوشيح في الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترجيع أجزائه، نسجت العامّة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا إعرابًا، واستحدثوه فنًّا سمّوه بالزجَل».

والحقّ أنّ الموشّحات الأندلسيّة كان لها تأثير عظيم بيِّن في نشأة الشعر العاميّ وانتشاره. ونحن ناقلون بعض أبيات يكاد لا يعرف سامعها أهي شعر فصيح أم شعر عاميّ. ولعلّها مثال صادق للدور الانتقاليّ الذي مرّ به الشعر من الفصيح إلى العاميّ:

ورذاذٍ دقّ ينزلْ
وشعاعُ الشمس يضرب
فترى الواحدْ يفضّضْ
وترى الآخرْ يذهّبْ
والنباتْ يشربْ ويسكرْ
والطيورْ ترقصْ وتطرَبْ
والغصونْ تعطفْ علينا
ثمّ تستَحْيي وتهربْ

إنّ في هذه الأبيات خطوة نحو الشعر العاميّ واسعة. ولكنّ الحال لم تبقَ كذلك طويلًا، بل تكوّن شعر عاميّ صرف يبعد البعد كلّه عن الشعر الفصيح، نجد منه شيئًا كثيرًا في مقدّمة ابن خلدون نفسها. نطالعه، ولكنّ الوزن لا يستقيم لنا في إنشاده ولا نحن نفهمه حقّ الفهم، لأنّ معظم كلماته تابعة للهجات أولئك القوم، ولا مرجع لدينا يوقفنا على معناها ولا على كيفيّة لفظها من حيث الحركة والسكون.

ولقد كان للشعر العاميّ في ذلك العهد انتشار وازدهار، ممّا يجعلنا نعتقد أنّه كان ظاهرة أدبيّة قويّة. ذكر ابن خلدون، من الذين نظموا فيه، أسماء عديدة وقال إنّ أصحابها أتوا منه بالبدائع. غير أنّه يفضّل عليهم جميعًا أبا بكر بن قزمان (حوالى ١١٦٠). قال أحدهم: رأيت أزجاله مرويّة في بغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. يريد أن يبيّن مكانة شعره وشهرته. وكان في عصره شاعر آخر كبير اسمه عبدالله بن الحاجّ المعروف بالمدغليس. كان الأندلسيّون يقولون: ابن قزمان في الزجّالين بمنزلة المتنبّي في الشعراء، والمدغليس بمنزلة أبي تمّام. يريدون بذلك أنّ الأوّل كان يُعنى بالمعاني أكثر من عنايته بالألفاظ، وأنّ الثاني يفعل العكس.

هذا ما يقوله ابن خلدون. وأمّا تاريخ الشعر العاميّ بعد ابن خلدون فما عُني أحد بتدوينه. ولكنّ عدم تدوينه لا ينفي وجوده فهو قد وُجد من دون شكّ.

وللأستاذ عيسى اسكندر المعلوف كتاب لا يزال مخطوطًا يقع في ٥٢٢ صفحة كبيرة اسمه «نيل المتمنّى في فنّ المعنّى». تناول فيه مؤلّفه تاريخ الشعر العاميّ، وقدّم له مقدّمة قيّمة درسه فيها درسًا ضافيًا أحاطه من

جميع نواحيه. ولقد تكرّم يومًا، أثناء زيارتنا له في منزله، بأن تلا علينا بعض نُبَذ من هذا الكتاب، فإذا هو أوفى ما كُتب في الشعر العاميّ حتّى عصرنا. قال لنا إنّه أخذ معلوماته الثمينة من بطون مخطوطات كثيرة محفوظة في مكتبته. وهذا الكتاب يحتوي على مختارات جميلة متنوّعة لأقدم الشعراء العاميّين في مصر وسوريا والعراق وسائر البلاد العربيّة. قال: من الذين اشتهروا في أوائل القرن التاسع عشر أبو الكبائر، والشريف حسين باشا عون، وناصيف نصّار الحاوي، ونمر العدوان البدويّ، وجبرائيل الشدياق، وبولس البكاسينيّ، وأبو علي طنّوش. ولديه أزجال من نظم ابن نباتة الشاعر المصريّ، ومن نظم صفيّ الدين الحلّي وغيرهما، ممّا يدلّنا دلالة واضحة أنّ الشعر العاميّ لم يُهجر قطّ بل ظلّ مرافقًا الأجيال واحدًا واحدًا حتّى جيلنا هذا.

رُوي عن فخر الدين المعنيّ الكبير أنّ يوسف باشا سيفا عيّره بقِصَره، فأنشد في ذلك أبياتًا وهو ذاهب للانتقام منه ومحاصرته في قلعة الحصن. ولعلّ الرواية أفسدت فيها قليلًا، وهذه هي:

نحنا قصارْ بعيون العدوّ كبارْ
إنتو خشب حورْ نحنا للخشب منشارْ
وحقّ طيبا وزمزم والنبي المختارْ
ما بعمّر الدير[1] إلّا من حجر عكّارْ

وفي مخطوطة للأستاذ المعلوف قصيدة لا يُعرف ناظمها يظهر أنّها من عهد الأمير بشير الكبير كما ينبئنا التاريخ المذكور في أوّل أبياتها وهو ١٢٠٦ للهجرة وكما تنبئنا أسماء العلَم المذكورة فيها. في هذه القصيدة يصف الشاعر مجاعة أصابت البلاد في تلك الأيّام، وكان له منها نصيب وافر دفعه إلى بثّ شكواه. وقد نشرها مع بعض الحواشي الأستاذ المعلوف في «المشرق» سنة ١٩٢٠ وهو يرى أنّ ناظمها لبنانيّ مسيحيّ من دير القمر أو من جوارها. وممّا جاء فيها:

سنة ميتين ألف وستّه
خدت مدّ الحنطه بستّه[2]
وكان زمان جدّي وستّي
باعو بزلطه سبع مداد

إلى أن يقول:

كان عندي حالوش[3] وفاسْ
وطنجرتين ودست نحاسْ
بعت الكلُّ من الإفلاسْ
حتّى الفرشه واللبّادْ
اشتريت لولادي رطل طحينْ
فول وكرسنّه ورزّينْ
بمصريّات خمسه وستّينْ
وعجنّاه، فشّي ما زادْ
وخبزناه على تنّورْ
وحطّينا علّباب ناطورْ
ما كفّانا نصّ فطورْ
وكان غاينا إبني عمادْ

وقال البدويّ في رثاء زوجته «واضحة»:

فاض الغرامْ وفاضت العين بدماعْ
من فوق صحن الخدّ سالت سواقيه
وأمسيت أنا على الشوق لدّاعْ
وصبّحت قلبي من الهمّ ماليه
قلبي حزين وعافراقهم لوّاعْ
والجمر ما يحرق إلّا رِجل واطيه

أنواعه وفنونه

قال الأبشيهيّ في «المستطرف»، أثناء كلامه عن الشعر العاميّ: «والفنون السبعة المذكورة عند الناس هي: الشعر القريض – ولعلّه يريد القرّادي – والموشّح، والدوبيت، والمواليّات، والزجل، والكان

١) دير القمر.

٢) أي بست مصريّات. ٣) الحالوش: منجل الحصاد.

كان ، والقوما. وبينهم من جعل الحماق من السبعة».
هذه هي الفنون التي نظم فيها القدماء ، وإننا لذاكرون أمثلة على البعض منها فيما يلي :

المواليّا – قيل إنّ أوّل من تكلّم بهذا النوع بعض أتباع البرامكة بعد نكبتهم. كانوا ينوحون عليهم بأبيات من الشعر ، ويردّدون في آخر كلّ بيت يا «مواليّا». فعُرف بهذا الاسم. وقيل أيضًا غير ذلك. من أقدم ما رُوي هذان البيتان :

يا دار أين ملوك الأرض أين الفُرُسْ
أين الذين حموها بالقنا والتُرُسْ
قالت نراهم رمم تحت الأراضي الدُّرُسْ
سكوت وبعد الفصاحة ألسنتهم خُرُسْ

القوما – وأصل تسميته بهذا الاسم من قول المغنّين بعضهم لبعض : «قوما نسحر قوما». في هذا الباب بيتان أيضًا يُرويان عن لسان ولد أنشدهما الخليفة ، فأعجب الخليفة بهما كلّ الإعجاب فأمر له بصِلة كبيرة :

يـــا سيّـــد الساداتْ
لك بـــالكرَم عـــاداتْ
أنـــا ابن بو نقطـــه
تعيش ، أبويـــا مـــاتْ

وهنا ننتقل إلى الشعر العاميّ اللبنانيّ فنقول :
يُطلق على الشعر العاميّ اللبنانيّ اسم «معنًى».
قال الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف : «والذي أراه في تسميته أنّه سُمّي باسم قائله لأنّه شكوى العاشق الحزين الذي يسمّونه المعنّى فيكون معناه لسان المعنّى» وهو قول لا يبعد عن الحقيقة. والمعنّى ينقسم إلى ثلاثة أقسام أوّليّة : المطلع ، والقصيد ، والقرّادي.

يُلتزم في المطلع رويّ واحد في كلّ من الأشطر الثلاثة الأولى ، وللرابع قافية تُردَّد في كلّ مقطع حتّى آخر القصيدة – والمقطع كناية عن أربعة أشطر – ما عدا المقطع الأوّل ، فإنّ للشطرين الأوّلين وللشطر الرابع رويًّا واحدًا هو الرويّ المردَّد بعد ذلك في كلّ مقطع ، والشطر الثالث بدون رويّ. كما يظهر ذلك في المثال الآتي. مطلع من نظم موريس بشاره :

بُعدك ضناني يا وليف وهدّني
وكلّ فرقةْ يوم أصعب من سني
قلّبي عْمِلْتا بقصد تاتجْلي الهمومْ
يمّا عملتا عن طريق الوَلْدني
قلّبي عملتا بقصد تاتجلي الهموم
تسكبْ بدال الخمر في كاسي سموم
ما دام عارف أن حبّك ما يدومْ
ما كان لازم بهواك شبكتني

القصيد – يُلتزم فيه عادة رويّ في الصدر ورويّ في العجز ، ويُتّبعان في القصيدة من أوّلها إلى آخرها كما يظهر ذلك في المثال الآتي. قصيد لمنصور شاهين الغريّب :

عندي أمانه ثابته طول الزمانْ
الله يشهـدْ والعوالم عالمينْ
لولا الأمل في نيل منديل الأمانْ
ما كنت للتنكيت أطلقت اليمينْ
كم غاليًا ينباع في أرخص ثمنْ
والرخيص يروح في سعر الثمينْ
لمّا رأينا النسر في وكرو كمنْ
خفنا الجنادب أن يطيرو هايصينْ

وقد يجيء كالقصيدة في اللغة الفصحى فيلتزم رويًّا واحدًا في آخر العجز ، كقول جرجس بشاره :

يا نسيم الشرق نحو الغرب سيرْ
وَدّي سلامي بالعَجَل ودّيهْ
سلّمْ على خلّانا وأصحابنا
واهدي سلامي للوليف هْديهْ
أشرق علينا بدر يا محلا ضياه
عَجّل غيابو وما فرحنا فيه

وهكذا إلى آخر القصيد. وقد يتصرّف فيه القوّالون على أنواع شتّى غير هذين النوعين.
أمّا القرّادي – ولعلّه مصحّف عن قرّاضي من

القريض وهو الشعر – فهو باب واسع جدًّا للتفنّن ، ذكر خليل سمعان الفغالي من فنونه اثنين وعشرين نوعًا . وذلك في فصل من ديوانه المسمّى «الكنز الخفيّ» أثناء محاورة بينه وبين ابنه أسعد إذ قال :

غير ممكن أعطي شهـــادي
وأشهر إسمك بين النـــــاس
مـــــــا لم تشرح قرّادي
تنين وعشرين موضه عـــالْ

فشرح له ابنه كلّ هذه الموض . منها المسجّع ، والمطبّق ، والموشّح ، والقلّاب ، والشلوقي ، وكرج الحجل ، والكناريّ وغيرها . مثال على الشلوقي :

خـودْ جوابْ ، صحيح مسرْ
وجـولْ وسباحْ ، بطيبْ وفلْ
وجـودْ بخطابْ ، مليحْ وقرْ
وقـولْ وشراحْ ، وغيبْ وهـلْ

وهو فنّ صعب المنال لكثرة قوافيه .

وهناك نوع آخر فيه الكثير من التحذلق اللفظيّ وهو العتابا ، ولكنّه ذائع الصيت ، كقول شديد غصن :

لمّـا زرت دار الغير شكّيت
كأنّك رمح ضمن القلب شكّيت
عليكم لإلـه العرش شكّيت
حتّى يعاقبك يوم الحساب

وللقوّالين باب يحبّ طرقه منهم المُلمّون بالقراءة والكتابة وهو ما يدعونه «الألفيّة» ، نسبة إلى الألف أوّل حرف من حروف الهجاء . يلتزمون فيه في كلّ كلمة من البيت الواحد أن يكون أوّلها ألفًا . وفي البيت الثاني أو المقطع الثاني الباء ، والثالث التاء وهلمّ جرًّا . وقد يلتزمون ذلك في أوّل وآخر كلمة فقط من كلّ شطر ، وقد ينحون أيضًا غير هذا النحو ممّا لا مجال لاستيعابه . كالذي جاء في ألفيّة خليل سمعان في الجزء الأوّل من ديوانه على حرف الباء وقد التزم فيها أن تكون الكلمة الأولى مبتدئة بباء والكلمة الأخيرة منتهية بباء ، من الشطر الأوّل والثاني ، قال فيما قال :

بولاد ماضي ما يهمّو نحر شَيب
البحر ما بتعوكرو بزرة تراب

المحاورة وآدابها

يسمّون الشاعر في لغة العامّة «قوّالًا» (من القول وهو اسم آخر للشعر العاميّ اللبنانيّ) وابن الفنّ ، وابن الكار ، وابن الذكا . وللقوّالين آداب في محاوراتهم بعضهم مع بعض يراعونها بدقائقها . ومن أخلّ بشيء منها عُدّ ذلك عيبًا فيه وعارًا له . وأكثر ما يجتمعون في السهرات ، والأفراح ، وأندية اللهو ، وبيوت الأغنياء . فإذا دُعوا إلى اجتماع تحرّش بهم بعض الحاضرين وأورى نار الفتنة – الفنيّة – بينهم فيبدأون بالمحاورة وكثيرًا ما تطول ، وقد يمنح صاحب الدعوة الفائز منهم صلة من مال أو حطام ، تقديرًا له .

والمحاورة نوع من البراز ، بل هي براز بمعنى الكلمة الصحيح ، ولكنّه براز كلاميّ . هي أكثر الشعر العاميّ تشويقًا ، فيها تظهر قوّة البديهة ، وتدفّق المعاني ، ونصاعة البرهان . فضلًا عن أنّ الإنسان ، بطبيعته الغريزيّة ، مولع بالبراز . وما ازدحام الألوف من الناس في إسبانيا وأميركا وغيرهما من بلاد العالم لمشاهدة ثورين يتناطحان أو ديكين يتناقران إلّا دليل واضح على ذلك .

وللقوّالين ادّعاء منتفخ ، ولكنّه بريء ساذج . وقد يقصد الواحد منهم زميله من قرية إلى قرية ومن بلد إلى بلد . ويأخذ كلّ قوّال من أنصاره جوقة يسمّونها «الردّادة» ، يحمّسونه أثناء الإنشاد فيصفّقون له ويهزجون . وللردّادة شأن كبير في غلبة زعيمهم أو انكساره إزاء خصمه .

أمّا إنشاد المعنّى فيكون على نوعين ، كما ذكره شهدان عوّاد في مقدّمة ديوانه :

أوّلًا : إذا كان المنشد يعرف مطلعًا أخذه من غيره فيجلس بين الجمهور ، ويتناول دفًّا أو دُربكّة أو ما إلى هاتين الآلتين ، ويضرب عليها بيديه بشرط أن يخرج

الصوت موافقًا للإنشاد فيهيّج عواطف السامعين ويطربهم.

وحين يبتدئ بالإنشاد يُخفض صوت الدفّ لئلّا تفوت الجمهور لذّة المعنى، والجمهور يصغي حتّى يتمّ الردّة أي اللازمة. ثمّ ينقر الدفّ، والجوقة يصفّقون ويردّدون ما قال على اللحن نفسه إلى أن ينتهي المطلع الذي ابتدأ به.

وإذا كان المنشد مطّلعًا على شيء من القرّادي أنشده بعد نهاية المطلع، فيكون ذلك داعيًا لزيادة الهوس والطرب.

ثانيًا: إذا كان في المجتمع قوّالان، ينقسم الجمهور إلى قسمين مع كلّ قوّال قسم. يبتدئ القوّال الأكبر سنًّا ويطلب الإذن أو «الدستور» من الحاضرين عند تناول الدفّ، ويأخذ في الإنشاد في موضوع يختاره موجّهًا كلامه إلى القوّال الآخر. ويجوز للبادئ في القول أن يضع المعنى كما يريد: في شكران أو ألغاز أو فراق أو وصف أو جفاء. ولكنّ الأفضل أن يبدأ بالمطايبة.

ثالثًا: على القوّال الموجّه إليه الكلام أن يجاوب بالمعنى ذاته مع «مسك الحرف»، إذا كانت العادة كذلك في محيطه. ففي بعض الجهات لا يُعنون بمسك الحرف بل يعتبرون الجواب على المعنى فحسب.

إذا لم يتوصّل القوّال، الذي يجب عليه أن يجاوب، إلى حلّ الألغاز، أو إذا لم يرصد الحرف، ينبغي له أن يعتذر، إنشادًا لا حديثًا، وإلّا يسقط.

لا يجوز للقوّال أن ينتحل أشعار غيره، أو أن يقول أشعارًا قالها من قبل. بل يجب أن تكون له، وبنت ساعتها.

رابعًا: هذا، ويقيمون أحيانًا حكَمًا بين القوّالَين، يكون عادة من الشيوخ العالمين بهذا الفنّ، فيفاضل بينهما بحسب ما سمع ويعلن الفوز لمن استحقّه.

ودونكم مثالًا على المحاورة، من ديوان خليل سمعان الفغالي – الجزء الثاني – والكلام بينه وبين جبّور أبي جابر البدادوني:

قال جبّور:

في مرّه خليلْ سمعانْ
شفتو نازل في ميدانْ
حاملْ في إيدو مسّاسْ
وراكب فوق حملة بلّانْ

فأجاب الفغالي:

بالوقت المرحوم خيّكْ
قصّه وكلّفني فيها
دلّلْ عسْلاحاتْ بيّك
وخيّل الكان مستقنيها

قال البدادوني:

يا بو أسعدْ فيكْ علّه
بتشوف السهلهْ تلّه
لو شفت الناقه باليلْ
بتحسّبها ترغلّه

فأجاب الفغالي:

أي من شافك ليلْ ونهار
بيتبشلْ وبيتحيّرْ
وهنكَكْ وهيارك بيغشّ
وفي أوقات بتتغيّرْ

قال البدادوني:

في لك ردّات مسمّين
شبه شْياش المحمّين
سلماني شرحكْ قتّال
بْيبيس منّو شجار التين

فأجاب الفغالي:

كروم التين ونواميها
ولو احترقت أراضيها
لازم يبقا لك تينه
تا تشنقْ حالك فيها!

والغالب يعدّ الغلبة على خصمه أمرًا كبيرًا ومفخرة له، وقد يشقّ على المكسور انكساره فيخجل وينسحب

أو يغضب ويقاتل. قال خليل سمعان الفغالي في وصف أحد خصومه المكسورين:

«وكان يرفع الدفّ في يده إلى فوق رأسه، ويثب عن الأرض، ويلبط برجليه على رفاقه».

ثمّ يقول: «فلمّا نظرت ذلك قلت له قصيدًا وبعده مطلعًا على حركاته التي ذكرناها».

أي أنّه لم يخطر بباله أن يسكّن حدّته، بل بالعكس استفاد من هذه الحدّة، ورأى فيها موضوعًا جديدًا للزراية به مرّة ثانية ونكايته أبلغ ما تكون النكاية.

وقد يؤدّي ذلك إلى نفور يتعدّى الجفاء إلى السباب والسفَه، والتراشق بالأقداح والكراسي، وتبادل الطعن والعبارات النارية، فيتفرّق الشمل وتعكس آية السرور بينهم، بعد أن يكونوا جميعًا أكلوا خبزًا واحدًا وشربوا خمرة واحدة على خوان واحد. ولكنّه نزق قلّما يصلون إليه، والحمد لله.

عروض الشعر العاميّ

في لغات العالم الراقية ثلاث أعاريض:

أوّلًا: العروض المقطعيّة، ويكون تقسيمها بحسب المقاطع. مستعملة خصوصًا في اللغة الفرنسيّة.

ثانيًا: العروض النبريّة، من نبرة، والنبرة هي رفع الصوت وتشديده على مقاطع معيّنة من الكلمات وفقًا لأصول تختلف باختلاف اللغات. ويكون أساسها على محلّ النبرات. مستعملة خصوصًا في اللغة الإنكليزيّة.

ثالثًا: العروض الوزنيّة. يُعتبر فيها طول المقاطع وقصرها. مستعملة في اللغة العربيّة وفي كلّ اللغات الساميّة.

عروض الشعر العاميّ وزنيّة، أعني تابعة لتفاعيل معلومة هي نفسها التي نراها في الشعر العربيّ الفصيح. لأنّ الشعر العاميّ في مجموعه مشتقّ منه. ولو رجعنا إلى المعنى نحلّل أجزاءه لوجدنا فيه الأبحر الآتية:

١ – الرجز: مستفعلن مستفعلن مستفعلن. ثلاث مرّات في الصدر، وثلاث مرّات في العجز، مثال ذلك قول رشيد نخله:

ودّع وأرمي القلب بعد أن ودّعو
وقلّي اصطفل قلبك رجع لموضعو
قرّبت من قلبي جفل منّي وهرب
قلّي معك ما بروح رجّعني معو

٢ – السريع: مستفعلن مستفعلن فعلن. كقول أحدهم:

ريح الصبا بحياة غصن البان
والورد والنسرين والريحان
من وَيْن جبتِ المسك بجيوبك
تخمين مرّيتِ على الخلّان

٣ – الوافر: مفاعيلن مفاعيلن فعولن. مثال ذلك:

وصار القبر أقرب من خيالي
وصار الصبر أبعد من منالك

أمّا القرّادي فلا سبيل إلى حصر بحوره فهي كثيرة تتنوّع بتنوّع فنونه. ولكنّنا نكتفي الآن بالمعتاد منه، وتفاعيله هي هذه: مفعولاتن مفعولن، كقول موريس بشاره:

صارت تشرب سيكـــارهْ
وتحمـــل بـــايـــدا بستونْ
ومـــا بتركب غير سيّـــاره
ومـــا بترقص غير شارلستون

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه التفاعيل لا يجوز فيها شيء. فلا يجوز مكان مستفعلن مفتعلن، ولا مكان مفاعيلن مفاعلتن (والتفاعيل معكوسة هنا كما هو ظاهر). هذا، وللإنشاد في هذه التفاعيل تأثير كثير أو قليل. وألحان الإنشاد في الشعر العاميّ اللبنانيّ مأخوذ معظمها عن الترانيم الكنسيّة السريانيّة، فنرى بعض الأحيان أنّ البحر لا يستقيم إذا نحن أردنا تطبيق تفاعيله على ألفاظه، يجيء هنا مقطع طويل مكان مقطع قصير أو مقطع قصير مكان مقطع طويل إلى غير ذلك. ولكنّ

المنشد هو الذي يتكفّل تسويتها فتستوي في إنشاده.

والقافية في المعنّى موسيقيّة جدًّا. لا يجيز القوّال لنفسه فيها ما يجيز الشاعر. يستطيع الشاعر أن يستعمل «ظافرون وعالمين» قافية واحدة، ولكنّ القوّال لا يستطيع ذلك. فإمّا ظافرون وعالمون وإمّا ظافرين وعالمين. غير أنّه مقابل ذلك يُشبع الحركة في القافية تارة وغير القافية تارة أخرى كقول يوسف بشير:

تركوا مدار الدار لأمر الجاريه

عشره تنعشر عبد تحت أمرا انوجِد

صبحتْ بأنعم بال تمرح بالدلال

تلبس وتشلح كل يوم فسطان جديد

«انوجِد» و«جديد» قافية واحدة، لأنّ الإنشاد يُذهب الفرق بينهما.

مزاياه وقيمته

لدينا من الزجل أو المعنّى مجموعات لأشهر القوّالين مثل منصور الغريّب، والياس الفرّان، وخليل سمعان الفغالي، وجرجس بشاره، وشديد غصن، وسعد الجلخ، وشهدان عوّاد، وغيرهم. وهم يدعون هذه المجموعات باسم قصص. فيقولون: «قصّة فلان» لا ديوانه. وإنّهم لمصيبون في ذلك لأنّ هذه المجموعات بمثابة سرد لحياتهم الخاصّة، بما يلاقون فيها من فرح وترح، وما بينهما من هوس زاهٍ، ولوعة دامية. فضلًا عن أنّهم يضمّنونها حوادث كثيرة جرت لهم، من مغامرات وأسفار ونوادر ومجالس أنس. ولقد طالعنا هذه القصص، وذقنا في مطالعتها لذّة من لذّات الفنّ لم نذقها في مطالعة شعراء كثيرين في اللغة الفصيحة. صحيح أنّه اتّفق لنا أن نرى أشياء فيها اضطراب في التركيب وسماجة في المعنى، ولكنّنا لم نرَ تكلّفًا إلّا في النادر، وإنّما هي الفطرة مرسَلة في مجراها حرّة من كلّ قيد. ذلك لأنّ معظم هؤلاء القوّالين يجهلون القراءة والكتابة، وهذا الجهل يحول دونهم ودون التنميقات اللغويّة الفارغة.

لا ينظم القوّال إلّا في ساعات وحيه. والوحي لا ينزل عليه إلّا في أوقات «الكَيف»، كما يقول هو. فتجول به أفكاره في شُعَب حياته وتهيج عاطفته ذاهبة في تعاريج شجونه، فينطلق معبّرًا عنها شاكيًا، في لغته البسيطة ونغمته العذبة.

الصدق هو إذن المزيّة الأولى للشعر العامّيّ. وإذا قلنا عن شعر إنّه صادق فقد اعترفنا له بالركن الأساسيّ الذي بدونه لا يقوم شعر في أيّة أمّة من الأمم.

* * *

فَكِه في محاوراته، طريف في ألغازه، لاذع في هجائه، عذب في غزله، شجيّ في مراثيه، تلك هي صفات الشاعر العامّيّ التي لا تفارقه. تطفو على كلّ ذلك مسحة من الكآبة صفراء يحاول القوّال أن يموّهها بالاخضرار الباسم، فتبين على الرغم منه حتّى في أشدّ مواقفه طربًا. تلك نفسيّة الشرقيّين عمومًا. وما نداء المغنّي في أغانيه، لا يفتأ يردّد: «يا ليل، يا ليل، يا ليل!» حتّى يكاد يبحّ صوته وينشقّ صدره، وزفرة المنشد في أشعاره بين البيت والبيت: «أوف، أوف، أوف!» ما تلك اللهجة الحزينة المؤثّرة إلّا صدى لفلسفته المتشائمة...

في كلّ مرّة ينطلق الشعر العامّيّ على طبيعته التي خُلق فيها، ولغته التي ربي عليها يأتينا بالرائع. ولكنّه قد يتيه بعض الأحيان ويأخذ في مبالغات فارغة لا يرتاح إليها إلّا الأطفال ومن هم في مرتبة الأطفال في الأفهام. كذكر البعض للحروب، وما لهم فيها من سيوف قاطعة وهامات تتساقط في الساحات تحت أقدام الخيل. ولعلّ للروايات التي هم مولعون بمطالعتها جدّ الولوع مثل سيرة عنترة، وبني هلال، والزير، وعلي الزيبق، وغيرها، تأثيرًا في ذلك لا يُستهان به.

والمصيبة الثانية هي في اعتقاد البعض أنّهم حسنًا يفعلون عندما يستعملون ألفاظًا فصيحة، وأكثر ما يستعملونها في غير مواضعها. أو عندما يُعربون بعض الكلمات، وأكثر ما يكون خطأً. وهم، لو عقلوا،

لأدركوا أنّهم يشوّهون جمال تعابيرهم تشويهًا فظيعًا. وقديمًا قال الأبشيهيّ في المستطرف: «لا يكون البيت بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة، فإنّ هذا أكبر العيوب التي لا تجوز». وقال منصور الغريّب:

قول المعنّى من النحو لا ينطلبْ
وإن كان عا هالحال يا ليلى انخلي
من وقت ما قرينا سوا فصل الخطاب
كتاب الحريري عندنا رتّ وبلي

أجل، يجب أن يفهم الشاعر العاميّ أنّ له لغة خاصّة، لها ألفاظها الرشيقة الطليّة، وتراكيبها الموجزة الجميلة، وموسيقاها الشجيّة العذبة. ومتى فهم ذلك جيّدًا أتانا بصورة لقوميّة وطنه ناطقة، بارزة الخطوط، زاهية الألوان، رائعة الجمال، سامية المعاني والرموز.

قال شهدان عوّاد في مقدّمة قصّته: «وفي بعض الأحيان حين يبتدئ القوّالون في الغناء يبدأ الحكَم يكتبون حتّى لا تضيع الحقيقة. وتُعطى الشهادة على هذه المبادئ: غرف من بحر، قطف من زهر، نقر في صخر، وكلام قطر».

«المشرق» – ١٩٢٨

غُبارُ الأيّام

تعـريف

لست أدّعي لهذه الخواطر شيئًا. كتبتها أصلًا للصحافة، للورقة الهشّة التي ترافق أيّام الحياة وهموم الناس العابرة مع كلّ يوم. وهي مختارة من جملة هوامش بلغت الألوف، كنت أعلّق فيها بين الجدّ والمزاح على حادث أو خبر أو رأي – من دنيانا أو من أقاصي الدنيا – تعليقًا أكشف به عن خيء لاح لي فيه، أو أقدح شررًا بضربه بأخ له، أو أسجّل شعورًا خامرني وأنا أتأمّل الأشياء.

إنّها من أدب الصحافة. هذا الأدب الذي يغمس قلمه في اللحم الحيّ، كثيرًا ما يفوته العمق والشمول اللذان يصاحبان الكاتب المنعزل بعيدًا عن زحمة الجريدة، ولكنّه قد يعوّض عنهما طراوة وحرارة. فهو لا يقتل موضوعه بحثًا بل يتناوله بمقدار ما تأخذ العين، خَطْفَ المسافر في القطار السريع.

لقد كُتبت أكثر هذه الهوامش بأسماء مستعارة، وفي جرائد متعدّدة، وفترات متقطّعة تمتدّ سحابة نصف قرن*، فهي تشمل عهودًا من عمر صاحبها والناس وعمر لبنان والعالم. وكان مقدّرًا لها أن تُطوى بطيّ الجريدة وأن تُطرح حيث تُطرح، لولا أنّ الأصدقاء الذين تتبّعوا قراءتها ألحّوا عليّ في ضمّ نخبة منها بين دفّتي كتاب، هي تلك النخبة المتمرّدة، الكاسرة طوق الظروف بمعناها المحدود، الشاردة مع شرود الفكر في آفاقه. وإذا كان أكثرها يقترن بتواريخ أحداث، وأسماء أشخاص ومؤسّسات، فحجّتها أنّ هذه التواريخ والأسماء جزء منها، عناوين لها وإطارات، معالم في دنيا التيه التي نعيش فيها، وهي مزيّة أخرى من مزايا أدب الصحافة.

وأعيذك أن تبحث فيها عن رابطة أو تتساءل عن غاية جامعة. فرُبَّ خاطرة هنا

---

* في «النهار» من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٠ بتوقيع «حمّاد» – في «الجديد» من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦ بتوقيع «حمّاد» – في «الحياة» من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٦ بتوقيع «عبده» – في «الأنوار» خلال ١٩٧٧ بالتوقيع الصريح.

تقابلها ضدّها هناك. تناثر قد يبلغ التنافر. ذلك أنّي كنت أخضع لدواعي الساعة ونوازع المزاج، للحياة تملي ما تشاء، وما أكثر ما فيها من أضداد! ولعلّ سحرها كلّه في هذا التناقض. وخدعها - وإنّما نفسه خدع - من التزم وجهًا واحدًا من وجوهها المتعدّدة، المتقلّبة أبدًا.

وبعد، ها أنا فاعل بمشيئة الأصدقاء ومعيد إليهم - وإلى نفسي - بعض ما كان... نزهات قصيرة في الماضي القريب والبعيد، في الشمس المشرقة وتحت وَكْف المطر. مادّة خليط من الحلو والمرّ، هي المادّة التي تؤلّف الذكريات ونأكلها مع خبزنا اليوميّ.

بيروت في ١٧ شباط ١٩٦٢* ت. ي. ع.

---

* زيد على الطبعات التالية من هذا الكتاب طائفة من الخواطر والتعليقات كتبها المؤلّف بعد التاريخ المذكور، أي بعد الطبعة الأولى.

صباح النور

هل هتف بي أحد: صباح الخير! لأردّ عليه التحيّة؟

أفتّش في كلّ صوب فلا أرى أحدًا. ومع ذلك تملأ الأصوات أذنيّ، آتية من كلّ صوب، نازلة من السماء، طالعة من الأرض، تناديني باسمي وتحيّيني.

أريد أن أردّ التحيّة بأحسن منها.

أريد أن أهتف: صباح النور! بالدنيا كلّها.

هذا الصحو الذي ينبثق من قِبل الشتاء وتدفقه السماء على الأرض، لكأنّه من نفسي ينبثق بعد شتائها الطويل، ويغمرها دفقه.

وقوس قزح، هذا الذي يتهادى في الأفق، بيني وبين الوعود ينعقد، وعليه سأمشي أخفّ من ذريراته.

من يصدّق أنّ شجرتي الكئيبة الجرداء قد غلبت العاصفة والصقيع؟ على شفتيّ منها يتفتّق ألف برعم. وفي فيّ يغرّد ألف عصفور.

بكلّ لغات الحبّ تغرّد عصافيري. تصفّق بأجنحتها وتقول:

لقد عاد الربيع، أيّها الناس، وكنتم ظننتموه لن يعود. وصدقت الحياة وكذبتم.

صباح النّور، أيّها الناس، صباح النور!

اِفتحوا صدوركم للنور!

هاتوا قلوبكم، كؤوسًا طال مكثها على الرفوف. وليصبّ الربيع في كؤوسكم صباحه! وخذوه من قلبي، فهو مليء حتّى الطفاح.

!!!

عافاك الله يا جرجوره!

كم من مرّة خطر لنا في ساعة من ساعات اليأس أن نتخلّص من الحياة. أن ننتحر. ثمّ نعدّ العشرة ونهزّ الأكتاف: «لا! بلا أكل هوا!» وننفض اليأس.

جرجوره م. هو ضيف سجن الرمل في بيروت بأحكام عديدة صدرت عليه، موضوعها كلّها سرقة المأكولات، فهو يسرق ليأكل.

وعندما ألقوا القبض عليه قال في نفسه: «حسنًا! سآكل بعد اليوم على حساب الحكومة.»

ولكنّ جرجوره كان واهمًا. فلم يأكل أحد قبله من الحكومة وشبع. بدليل أنّه قرّر الانتحار بعد أسبوع بحجّة أنّه يجوع في السجن.

والانتحار كألوان الطعام تمامًا: كلّ واحد وذوقه. ذوق صاحبنا جرجوره قاده إلى المرحاض. رفع ساقيه في الهواء ووضع رأسه في الفوّهة، وقال في نفسه:

– لعلّي هكذا أشبع، ولو «أكل هوا»!

كنت أحبّ أنا أن تنتهي الحكاية عند هذا الحدّ، وهو الحدّ الذي تنتهي عنده كلّ الحكايات، أي الموت. ولكنّ جرجوره لم يكد يشمّ رائحة الانتحار حتّى أخذ بالصياح طالبًا النجدة، فجاء زملاؤه وأنقذوه.

عافاك الله يا جرجوره!

لقد ألقيت على الراغبين في الانتحار، اليائسين من الخبز أو الحبّ أو الجاه، أمثولة رائعة.

فالجوع ألف مرّة ولا «أكل الهوا».

١٤ شباط ١٩٣٤

الوجوه القبيحة

لكلّ منّا في هذه الدنيا القبيحة وجه قبيح.

لا أعني وجوه اللحم والدم فقط.

وكثيرًا ما نكون مغرورين، أو جاهلين هذا الوجه أو هذه الوجوه القبيحة التي نحملها، وكثيرًا ما نعتب على الناس لأنّهم لا يبدون إعجابهم بنا...

كان ألفونسو الثالث عشر، ملك إسبانيا المخلوع، جالسًا ذات يوم إلى سكرتيره الخاصّ. وكان جلالته يخصّ هذا السكرتير بعطفه وعبثه. فقام الملك ونظر إلى المرآة في الحائط. ثمّ أشاح بوجهه عنها، وقد ظهرت عليه سحابة قاتمة. وما لبث أن طفرت الدموع من عينيه. فدُهش السكرتير:

– أتبكي يا مولاي؟

فأجاب الملك:

– وجهي! وجهي! كنت أحبّ أن يكون أجمل من هذا!

وعبثًا حاول السكرتير أن يرفّه عن سيّده وأن يقنعه بأنّ وجهه لا بأس به، فإنّ مساعيه ذهبت أدراج الرياح وظلّ الملك يبكي.

حينئذ دنا السكرتير من الملك وقال له:

– خفّف عنك يا مولاي. أنت ترى وجهك مرّة أو مرّتين في اليوم، أمّا أنا فهو في وجهي كلّ ساعة!

فضحك الملك وأمر له بجائزة.

ليت لنا مرآة – كمرآة ألفونسو الثالث عشر – ترينا ما نحمل في نفوسنا من وجوه قبيحة.

٢١ آذار ١٩٣٤

القيد المحبوب

أهل الكهف أشخاص من الأساطير، أمّا زميلهم الذي ظهر في القرن العشرين فشخص من لحم ودم.

هو ديمتري فانوشي، مجرم إيطاليّ حُكم عليه سنة ١٨٨٧ بالحبس مع الأشغال الشاقّة المؤبّدة لأنّه قتل امرأته. وقد بقي في سجن ليفورن منذ ذلك الوقت حتّى الأسبوع الماضي، إذ صدر عفو عامّ تناوله فيمن تناول، فخرج إلى الحرّيّة.

ولكنّه ما كاد يمشي في المدينة، ويرى الفرق بين القرن العشرين والقرن التاسع عشر حتّى جُنّ جنونه وعاد إلى السجن يطلب من حارسه أن يتفضّل ويفتح له الباب...

أجل، من حقّ ديمتري أن يطير عقله بعد نصف قرن قضاه بين أربعة جدران، بعيدًا عن العالم، جاهلًا ما جرى فيه من انقلابات.

ولكن، هل هي هذه الانقلابات وحدها ما أهاب بالسجين إلى نبذ الحرّيّة التي منحوه إيّاها؟

كلّا. هناك شيء آخر.

لقد تعوّد ديمتري قيده المُزمن. رآه في قدميه طوال عشرات السنين. أفاق عليه في الصباح ونام عليه في المساء. تلمّسه بيديه، داعبه وعاطاه وناجاه، حتّى انتهى إلى عدّه جزءًا من حياته لا يستطيع الانفصال عنه.

لديمتري زملاء في الناس لا يحصيهم عدّ. وأفظع القيود وأمكرها ما كان في الأرواح لا في الأقدام.

٤ تمّوز ١٩٣٥

فراشات الحياة

وقعت أمس إحدى السيّارات في حفرة ، فأُصيب راكباها بجروح جسيمة نُقلا على أثرها إلى المستشفى ، وتحطّمت السيّارة.

إذا كان هذا الحادث عاديًّا فأسبابه طريفة جديرة بالتأمّل.

كان في هذه السيّارة رجل وامرأة. وبينما كانت السيّارة تدرج مسرعة على الطريق إذا بفراشة جميلة لمّاعة ترفرف على زجاج السيّارة.

قالت المرأة للرجل الذي كان ممسكًا بالمقود :

– أنظر إلى هذه الفراشة الجميلة اللمّاعة.

فنظر الرجل معجبًا... ووقعت السيّارة في الحفرة!

كم لتلك الفراشة الجميلة اللمّاعة من أخوات في حياة الإنسان. أخوات جميلة لمّاعة أيضًا ، وحاملة وراء جمالها ولمعانها أشدّ الأخطار.

الحُبّ : فراشة. الغنى : فراشة. الأمل : فراشة. المجد : فراشة. إلخ.

فراشات ، فراشات ، فراشات جميلة لمّاعة. هي في الدنيا عن يميننا ويسارنا ، خلفنا وأمامنا ، فوقنا وتحتنا... هي في خارجنا وفي داخلنا. وكلّها يغري ، وكلّها ينتهي بالخيبة والوقوع في الحفر.

ولكن... ما أقسى الحياة وأفرغ الدنيا لولا هذه الفراشات ،

لولا هذه الأحلام المجنّحة!

٢ آب ١٩٣٥

الثور السكران

يظهر أنّ الثور يسكر كالإنسان.

على الأقلّ في يوغوسلافيا.

روت الصحف أنّ فلّاحًا من ضواحي مدينة جرميني تغيّب عن منزله ساعة لبعض الشؤون ، فلمّا عاد وجد ثوره في الصالون سكران يعربد.

وعربدة الثور كعربدة الإنسان ، مع هذا الفارق أنّ الإنسان يشتم ويجدّف ، والثور يتورّع عن ذلك. وفي الواقع أنّ ثور الفلّاح اكتفى بتهشيم أثاث المنزل نطحًا ورفسًا وضربًا بذنبه...

أمّا كيف سكر الثور فأمرٌ ساقه إليه القدر. خرج الفلّاح من منزله عندما خرج بعد أن ملأ المعلف لثوره بالتبن ، ولكنّه نسي أن يضع له الماء في راويته. فلمّا أكل الثور حتّى الشبع مدّ رأسه ليشرب فلم يجد ماء ، فثار ثائره وما زال يتخبّط حتّى قطع رباطه ودخل إلى البيت في غياب صاحبه ، فوجد في إحدى الغرف برميلًا من الخمر مفتوحًا ، فجعل يعبّ منه حتّى كان من أمره ما كان ، وجاء الفلّاح فأخرجه بالقوّة.

هل رأيت كيف يسكر الثور؟

وليس من العجب أن يصبح الثور ، عندما يسكر ، كالإنسان. فإنّ من الناس من إذا سكروا انقلبوا ثيرانًا ينطحون ويرفسون ويضربون بأذنابهم.

والخمر أنواع.

أهونها شرًّا ما وسعته البراميل.

٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٦

ماذا أعرف عن النساء

الأميركان أرباب الإعلان.

ولكنّ الأميركيّ الذي سأحدّثك عنه أراد أن يعمل إعلانًا فعمل حكمة. ولم يفته الإعلان من أجل ذلك، بل جمع الاثنين وضمّ المجد من الطرفين.

المستر جون كاميير فتح بارًا جديدًا ووزّع للإعلان عنه كرّاسات مذهّبة بعنوان:

«ماذا أعرف عن النساء»

«تأليف فلان الفلانيّ صاحب بار كذا وكذا في الشارع الفلانيّ».

كثيرون هم الذين اشتروا الكرّاس. ولكنّهم عندما فتحوه لم يجدوا فيه إلّا صفحتين بيضاوين!

وحدث ما كان الرجل يتوقّعه. فليس في المدينة إلّا من يتحدّث عن النكتة، وليس –بالتالي– إلّا من عرف البار الجديد.

أمّا «ماذا أعرف عن النساء» فطبعًا لا شيء!

ليس المستر جون كاميير، مؤلّف الصفحتين البيضاوين، هو وحده الذي لا يعرف. أستغفر الله! بل هو يعرف على الأقلّ أنّه لا يعرف ويعترف بأنّه لا يعرف. فضيلتان جليلتان. ما بالك بالذين يسوّدون الصفحات ويؤلّفون المجلّدات وهم لا يعرفون عن أختنا بالربّ شيئًا؟

إنّ حوّاء، منذ أن أكلت التفّاحة حتّى اليوم، لا تزال سرًّا من الأسرار على آدم. كلّما اعتقد أنّه ازداد معرفة بها ازداد جهلًا وعماء، وخبطًا وهراء.

وليس من مصلحة المرأة ولا من مصلحة الرجل أن ينكشف السرّ.

١٧ أيار ١٩٣٧

عندما يحكي الأخرس

الأخرس الذي مثُل أمس أمام محكمة الجنايات بتهمة سرقة أحد الحوانيت في بلدة قبّ الياس ظريف جدًّا.

ولو كنت رئيس المحكمة لوجدت له من ظرفه حجّة لتبرئته. ولكنّ القانون –يا للأسف– لا يفرّق بين الثقلاء والظرفاء.

سألوه: لماذا سرقت؟ فضحك وأشار بسبّابته إلى أسفل سافلين يريد أن يقول:

– هو صديقي الشيطان!

وسألوه عند ختام المرافعات عن طلبه الأخير فلم يجب: البراءة، كسائر المتّهمين المبتذلين، بل فتح فاه وأدخل فيه السبّابة والوسطى بشكل مقصّ يريد أن يقول:

– إذا عدت لمثلها اقطعوا لساني!

فضيلة نادرة يتحلّى بها الرجل، حبّذا لو تحلّى بها المجرمون جميعًا سواء منهم من يطوله القانون أو من هو فوق القانون. وهذه الفضيلة هي الصراحة.

الصراحة في الجواب الأوّل لأنّه اعترف أنّ الشيطان صديقه، والصراحة في الجواب الثاني التي بلغت حدّ التضحية.

لقد كان السيّد المسيح يقول: «إذا شكّكتك يدك فاقطعها، أو عينك فاقلعها». وقد شكّكت الأخرس الاثنتان معًا: العين واليد. ولكنّه لم يشأ أن يضحّي إلّا بالزائد المزعج الذي لا فائدة منه: لسانه.

أليست ٩٩ بالمئة من تضحياتنا التي نتبجّح بها من هذا النوع؟

٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٧

نادي لنمُت !

اكتشفت الحكومة الصينيّة ناديًا سرّيًّا اسمه : «نادي لِنَمُت». وشدّ ما كانت دهشتها عندما علمت أنّ عدد المنتمين إليه ستّة آلاف شخص.

وطُرق الانتحار مدوّنة في قائمة طويلة : الغرق ، الحريق ، الشنق ، السمّ ، السكّين ، المسدّس ، الخازوق ، إلخ... لكلّ واحد نصيبه ، والمسألة بينهم بالقرعة.

الواقع أنّ «نادي لِنَمُت» ليس مقصورًا على الصين بل هو منتشر في أنحاء العالم قاطبة. فهؤلاء اليائسون من الحياة الذين ينتحرون كلّ يوم تحت سمائنا وتحت كلّ سماء يستطيعون كلّهم أن يكونوا أعضاء فيه.

أنا شخصيًّا أكره الانتحار حتّى الموت ! ولو طلع ببالي يومًا أن أؤسّس ناديًا فسيكون اسمه «نادي لنحيَ» لأنّي أحبّ الحياة.

لنحيَ ! لنفرح ! لنرقص ! لنأكل ونشرب ! لنركض كالمجانين ! لنبطح كالتنابل ! لنحبّ ونكره ! لنضحك ونبكِ ! لنعمل كلّ شيء ما عدا الانتحار. علام نبحث عن الموت ؟ إنّ الموت آتٍ إلينا من دون ريب. فلماذا نستعجله ؟

المنتحرون يتّهمون الحياة بالقبح. إنّ نفوسهم هي القبيحة. ووجّه الله الخير لإيليا أبو ماضي القائل :

«والـذي نَفْسُه بغيرِ جَمـالٍ
لا يرى في الوجودِ شيئًا جميلا»

١١ آذار ١٩٣٧

الشتاء

هوذا الشتاء قد أقبل.

الله في شتاء بيروت ما أسخاه !

حبال تملأ الجوّ واصلة بين الأرض والسماء.

وعلى النافذة يدقّ المطر ، ويعلّق على زجاجها حبّات من لؤلؤ. والزجاج يرتعش. وفي كياني تتردّد القشعريرة حلوة ، تتمشّى في ظهري وصدري وكياني.

وفي الشارع سيول تجتاح ما كدّسه الصيف فيها من أقذار.

لقد كبرت رؤوس المارّة واسودّت. فالمظلّات رائحة غادية ، يقبع الناس تحتها ويقفزون من رصيف إلى رصيف.

وعلى الرصيف ناس ينتظرون. يحدّقون إلى المطر ، جامدين ، مشرّدي الأذهان ، حالمين.

وفجأة تجوز سيّارة ، في داخلها سيّد يلقي رِجلًا فوق رِجل ، واللفافة في فمه يلوكها... والسيّارة ترسل عن جانبيها لطخات من الماء الموحل ، كأنّها تنهر عباد الله الفقراء.

الشتاء نعمة السماء.

يد الله في الأرض تحيي مواتها وتبعث خيراتها.

أيّها الشتاء ، يا صاحب لذائذ الدفء والأنس والحبّ ، ما تدّخر في جيوبك للذين لا مأوى لهم ، ولا حجر يسندون إليه رؤوسهم ، إذا هبّت العواصف وقصفت الرعود ؟!...

٢٤ تشرين الأول ١٩٣٧

حبّ الحياة

المرأة التي مدّت إليّ يدها الهزيلة المرتجفة هذا الصباح، وأعطيتها قرشًا، لا أزال أفكّر فيها وفي القرش.

عجوز تجاوزت السبعين، عرجاء، عوراء، تستجدي على قارعة الطريق لا لتسدّ جوعًا، بل – وهذه كلمتها – «لتعمل عمليّة الزايدة».

«عمليّة الزايدة»!

أليست هي كلّها من الزوائد في هذه الدنيا؟ ألم أجنِ عليها أنا في إعطائي إيّاها قرشًا؟

يقول شوقي مخاطبًا أبا الهول:

«أبا الهولِ ماذا وراء الوجودِ
إذا ما تطاولَ غيرُ الضجر!»

هذه العجوز لماذا لا تشعر بالضجر، فضلًا عن اليأس؟

ولكنّ الإنسان أكثر ما يكون متعلّقًا بالحياة إذا أحسّ أنّها على وشك أن تفلت من يديه. الحياة جميلة، الحياة ينبغي أن تكون جميلة حتّى عند العجوز العرجاء العوراء المصابة بالزائدة.

يأتي جمالها من كلّ صوب، ويأخذنا سحرها بأظافره أخذ القادر. يأتي لنا من الداخل. من وراء العرج والعور والزائدة الدوديّة. ينبع من روح الله التي تنفخ فينا. من حبّ البقاء لمجرّد البقاء. من حرصنا على المشاركة في اللعبة الكبيرة ولو بصفة متفرّجين.

اللعبة العجيبة التي نعرف جيّدًا أنّنا لن نلعبها مرّتين.

ليتني أعطيت العجوز بدل القرش اثنين!

٦ تشرين الأول ١٩٣٧

القليل الكثير

نحن في عصر نتطلّب فيه كلّ شيء والكثير من كلّ شيء.

فماذا تكون النتيجة؟

تكون أنّ قلوبنا الصغيرة التي لا تسع كلّ شيء – فضلًا عن الكثير من كلّ شيء – تبقى فارغة. مثلنا في ذلك كمثَل الذي يريد أن يحمل في كفّ واحدة لا بطّيختين فحسب بل حِملًا من البطّيخ، فيلتفت فإذا هي لا تحمل إلّا الخيبة، وإذا البطّيخ يملأ الأرض...

أو كمثَل ربيعة بن غُسّل الذي دخل على معاوية يومًا فقال له الخليفة: ما حاجتك يا ربيعة؟

قال: مئة ألف جذع أزرعها في داري.

فدُهش معاوية وقال: مئة ألف جذع تزرعها في دارك! وأين دارك هذه؟

فقال ربيعة: في البصرة.

فضحك الخليفة وقال: دارك إذًا ليست في البصرة، بل البصرة في دارك!

إنّه لخليق بنا أن نتدبّر هذه النادرة في كلّ طمع يطرأ علينا. لعلّنا بعد التفكير نرتدّ إلى القناعة – القناعة العاملة النشيطة، لا القناعة العاطلة الكسلى – فنجتهد في أن نحرص على ما عندنا من خير، وأن نصونه من الأذى، وأن نغذّيه وننمّيه ونرعاه.

فإذا فعلنا رأينا أنّ القليل الذي حرصنا عليه هو الكثير في النتيجة، وأنّ الكثير الذي توهّمناه أقلّ من القليل.

١ كانون الأول ١٩٣٧

بين الكلب والإنسان

إذا أراد الناس تحقير أحد قالوا : فلان كلب ابن كلب !

ظلم وعدوان. ولو علم الكلاب ذلك لاحتجّوا عليه بكلّ ما في أشداقهم من نباح.

أنظر إلى هذا الخبر ، وقابل بين الكلب والإنسان.

باع جيمس نورفو ، مدرّب الكلاب المشهور في سوكس -إنكلترا- بيتًا له ، وأرسل إليه الشاري الثمن المتّفق عليه - ١٨٢٥ جنيهًا - شكًا بالبريد. واتّفق أن وصل الشك إلى جيمس في يوم عيد مع رسائل التهنئة التي وصلت إليه ، فألقى عليه نظرة ثمّ وضعه جانبًا ريثما يفرغ من قراءة الرسائل.

ثمّ كان أن نادته زوجته لأمر. فلمّا عاد لم يجد الشك حيث تركه. ونظر فإذا كلبه يُقبل وهو ينفض أذنيه غير راضٍ. فاتّجه إلى الناحية التي أقبل منها. فعرف أنّ الكلب انتهز فرصة غيابه فتناول الشك بأسنانه وراح يلوكه ، ولكنّه لم يستمرئه فبصقه في الزاوية.

مغزاه : الكلب حاول بلع الـ ١٨٢٥ جنيهًا فلم يقدر ، أو خاف من سوء الهضم ، وفي النتيجة عفّ عنها. ومن الناس من يبلعون الملايين ، ويهضمونها كأنّها قطع السكّر.

ومع ذلك لا نزال نقول في فصاحتنا الكاذبة : «فلان يتكالب على المال.»

أسامع يا كلب جيمس نورفو؟

١٨ آذار ١٩٣٧

عيد الكذب

اليوم أوّل نيسان : عيد الكذب.

لقد بلغ من حبّ الناس للكذب أنّهم جعلوا له عيدًا يحتفلون به ، على مثال من يعبدون ويقدّسون.

ولكن هل تقتصر أكاذيب الإنسان على أوّل نيسان؟

سؤال جدير بكلّ واحد منّا أن يطرحه على نفسه ، وأن يقوم - لأجل الجواب عليه - بفحص ضميره وتقليب أقواله وأفعاله.

كم مرّة كذب على الناس؟ وكذب على نفسه؟ وكذب على الله؟

يقول ڤولتير: «إكذبوا ، إكذبوا يا أصحابي ، فلا بدّ أن يعلق في الأذهان شيء».

ولكنّ الناس لم ينتظروا إرشادات ڤولتير حتّى يكذبوا. ولا ينتظرون كذلك أوّل نيسان.

إنّ الناس يختلقون في أوّل نيسان الأكاذيب من كلّ شكل ولون. ولكنّ الكاذبين والمكذوب عليهم على اتّفاق سابق عقدوه فيما بينهم بالتراضي وهو أنّ هذه الأكاذيب مداعبات بريئة.

هذا هو الكذب الأبيض ، وله من السنة يوم واحد هو أوّل نيسان.

أمّا الكذب الأسود ، الكذب الحقيقيّ ، الذي يلطّخ يديه بالجريمة ، فسلسلة متّصلة الحلقات طوال أيّام السنة الباقية...

يا أوّل نيسان ، لقد ظلموك !

١ نيسان ١٩٣٨

جعجعة بلا طحن

للخطابة قوّة عظيمة يلجأ إليها الزعماء والحكّام في إلهاب حماسة الجماهير وإثارة الرأي العامّ.

هذه القوّة هي قوّة معنويّة لا يختلف فيها اثنان.

ولكنّ للخطابة، أو بالحري لأصوات الخطباء بحدّ ذاتها، قوّة مادّيّة لا تقلّ نفعًا عن أختها المعنويّة.

فقد استند مهندس أميركيّ إلى نظريّة العالم الفرنسيّ جورج كلود بشأن حصره قوّة المدّ والجزر في البحر، واكتشف واسطة يستعمل بها القوّة الصادرة عن الخطب، هي عبارة عن آلة غريبة الصنع مكّنته من الوصول إلى نتائج مدهشة.

يقول – والعهدة عليه – إنّه جرّب تلك الآلة في بعض الاجتماعات فاستطاع أن يدير مطحنة طوال مدّة الخطابة، وطحن بها ما يوازي عشرة قناطير من القمح!

أتمنّى على المهندس الأميركيّ أن يسرع في تكملة تجربته والوصول بها إلى الحدّ الأقصى من الإتقان، لنرسل إليه ونشتري آلته العجيبة.

فنحن، في الأقطار العربيّة، قد حرمنا الله أشياء كثيرة، ولكنّه منّ علينا بحناجر قويّة، وألسنة طويلة، وأحناك من نحاس، لعلّنا نستعملها بفضل هذه الآلة لشيء ينفع.

فقد كفانا «نسمع جعجعة ولا نرى طحنًا»...

١٣ تشرين الثاني ١٩٣٨

كلّهنّ أنستازيا

بماذا تحلم العجوز في السنة السادسة بعد المئة؟

توفّيت في نيوبريتن – أميركا – امرأة في العمر المذكور أعلاه اسمها أنستازيا بركوسكي.

والمرأة بولنديّة الأصل قضت الشطر الأكبر من حياتها متنقّلة في الدنيا من بلد إلى بلد، ومعها صندوق كانت تحرص عليه حرصها على حياتها، حتّى اعتقد الناس أنّ فيه كنزًا ثمينًا أو سرًّا دفينًا.

وأخيرًا قعدت بها الشيخوخة في المستشفى وأقعدت صندوقها جنب السرير. فلمّا أحسّت بالموت قالت لمن حواليها:

– اِفتحوا لي الصندوق.

ففتحوه، فإذا فيه ثوب عرسها الذي يرجع إلى ثمانين سنة خلت. فطلبت أن تلبسه وتُدفن فيه. فعملوا بوصيّتها. وهكذا ذهبت عروسًا إلى الأبديّة.

خرف؟

جنون؟

شذوذ؟

قُل ما تشاء. فكلّ ذلك لا يغيّر من الجوهر شيئًا.

إنّ المرأة مهما كبرت في السنّ – أو في العلم والجاه، لا فرق – تبقى في قرارة نفسها امرأة، ويبقى أسعد أيّامها إطلاقًا يوم عرسها، أي اليوم الذي صنعه لها الربّ لتحقّق فيه أنوثتها.

٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٨

تهادوا تحابّوا

هل فكّرت بهديّتك إلى أحبّائك في موسم الأعياد المقبل؟

إنّ الأعياد محطّات في رحلة الحياة، يقف فيها قطار الأعمال والهموم، ينقطع هديره المزعج، وتُشرَع أبوابه المغلقة ليخرج منها الركّاب إلى الهواء الطلق، ويواجهوا السماء، ويزقزقوا مع العصافير.

وهميّة هي تلك المحطّات؟

ربّما.

ولكنّك حرّ أن تكون فيلسوفًا في الوقت الذي تريد. أمّا في الأعياد فيجب أن تطرح فلسفتك في البحر.

أن ترجع طفلًا ساذجًا يفرح باللعبة من تنك، أن تبني بيتًا من كرتون لا تدخله مشاغل عالمنا ولا أفكاره الكبيرة السخيفة...

وأن لا تنسى هديّتك إلى أحبّائك.

اِحمل قلبك بيد، وكيسك باليد الأخرى، وطُف في الأسواق وعبّئه. اِشترِ لأولادك وزوجتك وإخوتك وأصدقائك... ولا تستحِ بالقليل. ولا تنسَ الفقير واليتيم وابن السبيل.

لقد قال النبيّ العربيّ: «تهادوا تحابّوا». تذكّرت الحديث الشريف عندما سمعت أحدهم يقول لي أمس: «إنّ الهديّة ضريبة».

أجل، يا صاحبي، ولكنّها ضريبة المحبّة. ما أحلاها ضريبة ندفعها من الجيوب، ونستردّها من القلوب.

٢٣ كانون الأول ١٩٣٨

يويو جديد

نسينا لعبة اليويو. وما أكثر ما ينسى الإنسان! حتّى جاءت إحدى الصحف الإنكليزيّة تذكّرني به.

قرأت في «الديلي إكسبرس» أنّ مخترعًا أميركيًّا رأى أنّ اليويو زال سلطانه ومضى عهد طويل دون أن يظهر خلَفه السعيد. وفكّر المخترع الأميركيّ في نفسه وقال:

– لا بدّ للعالم من ملهاة يلهو بها في هذا العصر، عصر الأزمات والحروب، والهموم والغموم. ملهاة تنسي الناس طاحون حاضرهم، وتخفّف عنهم كابوس مستقبلهم. فأنا إذا وُفّقت إلى اختراعها فجزائي عظيم عند الله والناس.

وحقّق الأميركيّ أمنيته، واخترع لعبة تحلّ محلّ اليويو. وتقول الجريدة إنّ المخترع أبى أن يدلي ببيانات عن اختراعه ليفاجئ به العالم في رأس السنة.

والعالم اليوم ينتظر بفروغ صبر ميعاد إخراج اللعبة إلى أسواق البيع.

أمّا أنا فلست أهتمّ كثيرًا بهذه اللعبة. لأنّي أرى أنّ اليويو ما يزال موجودًا، بل إنّه كان موجودًا قبل أن يخترعه مخترعه، وسيظلّ موجودًا إلى آخر الدهر.

الحياة مملوءة باليويويات وإن اختلفت أشكالها وتعدّدت أسماؤها.

الكلّة يويو، والحبّ يويو، والغنى يويو، والمجد يويو. والإنسان يويو أخيه الإنسان يلعب به ويُصعده ويُهبطه. بل إنّ الإنسان يويو نفسه ما يزال يلهو بها طلوعًا ونزولًا حتّى ينقطع الخيط...

٢٧ كانون الأول ١٩٣٨

ساعة غزل في الراديو

بشرى للنساء المحرومات، صاحبات القلوب العطشى إلى الحبّ!

كلّ يوم، في وقت معيّن، تقدّم إليكنّ إحدى محطّات الإذاعة الأميركيّة ساعة غزَل طراز روميو وجولييت، أو المجنون وليلى، أو أيّ بطل وبطلة من أبطال السينما وبطلاتها.

وما عليكنّ إلّا إدارة المفتاح، ثمّ الانبطاح على مقعد وثير، وبعد إقفال باب البيت فتح باب الخيال على مصراعيه.

المرأة المحرومة رجلًا ينحني على أذنها بالوشوشات الحلوة، هذه المرأة قد أشفق عليها الأميركان فأقاموا لها خطيبًا من خطباء الراديو المختصّين في هذا الفنّ:

«يا حبيبتي، أنا أعبدك. أُنظري إلى هذا القمر الطالع. إنّه ليس أبهى منكِ. يا روحي! يا حياتي!...» إلى آخر موّال العاشقين.

لست أدري ما تكون النتيجة العمليّة لهذه البدعة الأميركيّة. إذا كان أصحابها يعتقدون أنّ بإمكانهم أن يحملوا بهذه الواسطة تعويضًا إلى المحرومات أو تسلية أو عزاء فقد ذهبوا في الضلال بعيدًا. وهذه طلائع تلك النتيجة لا تبشّر بالخير، إذ أقدمت امرأتان، في مدى أسبوع واحد، على الانتحار فور سماع الإذاعة المشار إليها، الأولى أرملة والأخرى عانس، وذلك عندما استفاقت كلّ منهما من الحلم وفتحت عينيها تبحث عن الحبيب فلم تجد إلّا الخيبة و... الشماتة!

من يُفهم الأميركان أنّ الحبّ لا يدخل في برنامج الإعارة والتأجير، ولا تخضع بضاعته لتجارة المعلّبات!

١٩ شباط ١٩٣٩

العقل زينة

في الأمثال الشعريّة «ما لذّة العيش إلّا للمجانين».

تذكّرت قول الشاعر ذلك المساء، عندما كنت جالسًا على حافة الطريق في قريتي العالية. رأيت رجلًا كنت أعرفه هادئًا، عاقلًا، رصينًا، فإذا الدهر قد جعل منه بين ليلة وضحاها مجنونًا. كنت مهمومًا أفكّر بأمور الدنيا، فمرّ من أمامي وتفرّس بوجهي وأخذ يقهقه ثمّ توارى.

توارى وقهقهته ما تزال تضجّ في داخلي حتّى الساعة.

هذا المخلوق كان –مثلي– مهمومًا يفكّر بأمور الدنيا، فانتابه ما أفقده عقله، وأفقده مع عقله همومه وأفكاره السود.

مسكين! يقول الناس كلّما رأوه وسمعوا قهقهته.

وهو يتعمّد إطلاقها في الوجوه متحدّيًا، كأنّه يريد تمزيق أقنعتها والنفاذ إلى ما تخفيه. ولا يكتفي بذلك حتّى يشفع قهقهته بحركة تفسيريّة يقوم بها ببراعة أصبحت مضرب المثل في القرية: ينفتل عنك على الأثر رافعًا كفّه في الهواء ثمّ يصفق بها على قفاه كأنّه ينفض الدنيا!

في الأمثال أيضًا: «العقل زينة». وكلّنا حريص على هذه الزينة نتباهى بها في المجالس، فإذا خلونا إلى أنفسنا حسدنا العاطلين منها، وتمنّينا لو كنّا مجانين.

قال سقراط: «أتحبّ أن ترى وجه المجنون؟ خُذ المرآة!»

من لي بمرآة تريني وجهي مقهقهًا كوجه ذلك المجنون الذي تفرّس بي ذلك المساء على حافة الطريق في تلك القرية العالية!...

٣٠ تمّوز ١٩٣٩

آدم وحوّاء الجديدان

«أنا ، رالف كارو ، شابٌ في العقد الثالث من عمري ، أرغب في أن أعتزل الدنيا معتصمًا في «الجزر الزرقاء» . ولكنّي أخشى أن أضجر وحدي ، لذلك أنشر هذا الإعلان في الصحف وأدعو بين الفتيات رفيقة لي أعيش معها في تلك الجزر عيشة آدم وحوّاء.»

ولم تكد الفتيات المتعشّقات لكلّ غريب في أميركا يقرأن هذا الإعلان حتّى ورد على رالف المذكور أكثر من ثمانمئة طلب... واستعرض رالف الحسان فوقع اختياره على واحدة اسمها فرجينيا للّيس فتأبّط ذراعها وودّع الناس وذهب معها إلى الفردوس الجديد.

وهناك عاشا كما في الحكايات تمامًا : أربعين يومًا وأربعين ليلة ذاقا فيها النعيم أشكالًا وألوانًا.

وفي اليوم الواحد والأربعين خفضت فرجينيا رأسها تبكي ، فقال لها رالف :

– ما بالك يا حبيبتي ، يا حمامتي؟

قالت :

– أحسّ بوجع في ضرسي.

فهبّ من فوره واتّصل بالمدينة فطلب لها طبيبًا للأسنان. ولم يكد الطبيب يصل وتقع عينا فرجينيا عليه حتّى طوّقته بذراعيها وهربت معه عائدة إلى الدنيا...

قصّة آدم وحوّاء تتجدّد. وكما يلبس الشيطان جلد ثعبان ، فلا مانع من أن يتقمّص في طبيب أسنان...

١٩ آذار ١٩٣٩

أمّة في طربوش

قاتل الله الطربوش ما أكثر مشاكله!

بالأمس أمر مصطفى كمال بنزع الطربوش فلم يستطع أن ينزعه عن بعض الرؤوس إلّا بنزع تلك الرؤوس عن أكتاف أصحابها.

وأصدر شاه إيران ، بعد مصطفى كمال ، مثل هذا الأمر فلاقى في سبيله ما لا يقلّ عنتًا.

واليوم جاء دور مصر.

على أنّ تركيا وإيران أرادتا محوه من أساسه ، في حين أنّ مصر تريد أن ينزل عن رؤوس رجال الطيران الحربيّ فقط وأن تحلّ محلّه القبّعة ذات الرباطات.

وما كاد الخبر يُذاع حتّى قامت قيامة المحافظين ، فكتبت إحدى جرائدهم بالخطّ العريض :

«الطربوش في خطر! الوطن في خطر!»

يلي ذلك صفحة كاملة نادت فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وصاحت : «هذا كفر!... وقد بتنا لا يفصل بيننا وبين الفناء إلّا بعض ما نحافظ عليه من ملابسنا ، فإذا بنا أمام محاولة لسلبنا حتّى هذا القليل».

لقد نزعت تركيا الطربوش عن رأسها فلم تمت ، ونزعت إيران الطربوش عن رأسها فجدّدت شبابها.

فلتجرّب مصر ما جرّبته قبلها تركيا وإيران ، فإذا نجحت كان خيرًا. وإلّا فلا أسف علينا إذا كان إيماننا ووطننا وحياتنا من حيث هي معلّقة كلّها بزرّ طربوشنا.

١٠ حزيران ١٩٣٩

في الصرف والتصريف

طريقة جديدة في الصرف والتصريف. وهذا بيانها:

أحمد محمود العديسي يلوّح بيده بليرة عثمانيّة ذهبًا – ما أشدّ شوقنا إلى وجهها الصبوح! – وينادي:

– من يصرف لي هذه الليرة؟

يراه شحّود محمّد طالب، والأرجح يرى الليرة ولا يكاد يصدّق عينيه فيفركهما ويركض إليه:

– أنا أصرفها لك، هاتِ أوّلًا لأفحصها.

وتناولها منه وأخذ يقلّبها. ومن التقليب إلى التقبيل! وما كاد حتّى سقطت الليرة – قاتل الله القضاء والقدر – في جوفه!

هذا هو الصرف على الطريقة الجديدة.

وعلى كثرة ما في هذا الصرف من ظرف فإنّ في طريقة التصريف ما هو أظرف.

ذلك أنّ الرجل، يعني أحمد العديسي، لم يرَ ما رآه حتّى طار عقله. واستغاث بالشرطة، فجاؤوا وقبضوا على البالع وأخذوه إلى المخفر. وهناك أعطوه مسهّلًا وقالوا له:

– أحسنت الصرف فعليك الآن بالتصريف...

وبعد ساعتين أو ثلاث بُعثت الليرة حيّة تُرزق، وتسلّمها أحمد محمود العديسي على قاعدة «ليس للمال رائحة».

١٣ حزيران ١٩٣٩

أمام أبي الهول

فرانسين ماسون امرأة فرنسيّة قصدت إلى مصر في سياحة ومعها زوجها. وكان في مقدّمة الآثار التي أحبّت مشاهدتها أبو الهول.

المساء، والشمس تعكس أشعّتها الأخيرة على الرمال... وقفت فرانسين أمام أبي الهول وأمام الشمس الغائبة فأثارها المشهد الرائع، فالتفتت إلى زوجها وقالت له:

– هيّئْ آلة التصوير!

فعمل بإشارتها. ولم يكد حتّى ضربت بيديها إلى ثيابها فنزعتها وجعلت ترقص عارية أمام أبي الهول وتناديه:

– يا حبيبي! يا حبيبي!

وكان أحد رجال الشرطة يراقب، فهجم على فرنسين وألقى القبض عليها وعلى زوجها وساقهما إلى المخفر. فقالت المرأة:

– المسألة مع أبي الهول تعنيني وزوجي، ولا تعني أحدًا سوانا.

فلم يفهم رئيس المخفر كلامها وحمله على الجنون، فاكتفى بمصادرة الفيلم وأطلق سراحها وسراح زوجها.

تعنيها وزوجها؟ لعلّها أحبّت أن تمتحن في جمالها الاثنين – زوجها وأبا الهول – من منهما يتحرّك!

١٥ حزيران ١٩٣٩

محمّد الإكسبرس

من سخرية الأسماء أنّها نادرًا ما تدلّ على صفات حامليها، وغالبًا ما تدلّ على العكس.

هذه الأسماء يطلقها الوالدون على أولادهم فور الولادة، وربّما خطر لبعضهم أن يفعلوا ذلك قبل الولادة، وحتّى قبل زواجهم. يختارون أبطالًا من التاريخ هم بهم معجبون، أو مكارم من الأخلاق هم لها مؤثرون...

ثمّ ينشأ الولد ويكبر، فإذا حساب البيدر يختلف عن حساب الحقل.

أقول هذا مقدّمة لخبر أنقله عن جريدة «الأهرام» بنصّه، قالت:

«أمضت قرويّة من سكّان أبو زعبل اسمها أمّ عليّ ساعات في زيارة أضرحة أولياء الله في شبين القناطر، ثمّ ركبت قطار السكّة الحديديّة عائدة إلى بلدتها. وكانت المرأة حاملًا في الشهر التاسع. وقد حدث قبيل سفر القطار أن جاءها المخاض وشعرت بآلام الوضع. وعُرف ذلك بين الركّاب فنقلوا الخبر إلى موظّفي المحطّة فاستدعوا إحدى القابلات من مركز رعاية الطفل، فجاءت رئيسته وقامت بمهمّة التوليد حتّى وضعت القرويّة طفلها، وقد أسمته محمّد الإكسبرس نسبة إلى القطار الذي حدث فيه الوضع...»

هذا هو الخبر.

أنت تقول: «هه! هذا على الأقلّ اسم يطابق مسمّاه»...

مهلًا يا صاحبي، فقد يطلع محمّد الإكسبرس أبلد خلق الله...

١٥ تمّوز ١٩٣٩

مملكة القلب

عثرت في جريدة «الاستقلال العربيّ» الصادرة في دمشق على أبيات من الشعر منشورة في زاوية متواضعة من الصفحة الأولى، وناظم هذه الأبيات هو وحيد عبّود من حماه، وقد وضعت الجريدة عنوانًا لها لا يخلو من السخرية هو: «الحبّ في الحرب»، ولم تكتفِ حتّى أتبعت العنوان بمقدّمة هذه هي بنصّها وفصّها:

«جاءتنا الكلمات الشعريّة التالية، وهي كما ترى تشكو هجر الحبيب، ننشرها لصاحبها لعدم اكتراثه بالأزمة العالميّة واقتراب الحرب».

والواقع أنّي قرأت هذه الكلمات الشعريّة – كما تسمّيها الجريدة – وشاطرت ناظمها شعوره: توسّلت معه إلى الحبيب الهاجر أن يرقّ له، واستغفرت معه عن ذنوبه، ورجوت منه أن يتذكّر عهود الوفاء، وطلبت معه في النهاية إلى الله أن يجمع شمل كلّ حبيب.

وبكلمة واحدة عشت مع الشاعر دقيقة من هذا الزمان بعيدة عن كلّ ما فيه وفي «الاستقلال العربيّ» وغيرها من الجرائد من أخبار الحرب. دقيقة أرجعتني إلى الحياة وذكّرتني أنّني إنسان، أي مخلوق أوجده الله لكي يحبّ وينشئ الحياة بالحبّ، لا لكي يبغض ويقتل ويدمّر...

أجل، الحبّ في الحرب. الحبّ في كلّ زمان ومكان. إنّ للقلب مملكة غير مملكة الجيوش والمدافع، وهي أوسع من الدنيا وأعظم من الموت، وستبقى بعد أن تزول الممالك وتندكّ العروش كلّها.

والقبلات في النتيجة هي التي ستُخرس القنابل إلى الأبد.

٩ أيلول ١٩٣٩

بزّاقة وعصفور

لي صديق من المصروفين من الخدمة جاء أمس يطلب رأيي في الانتحار. فتفرّست فيه وقلت :

– تعوّدت أن أحتفظ بآرائي ، ولكنّ الواجب يدعوني هذه المرّة أن أقول لك : اِنتحر!

وتركته يتدبّر أمره بين الحياة والموت.

ثمّ التقيت صديقًا آخر من أصدقائي ، وهو أيضًا من المصروفين ، فوثب إليّ ضاحكًا وقال :

– نفسي مفتوحة للدنيا. هل لك في كأس؟

وشبكني من ذراعي ودخلنا إلى المقهى...

مخلوقان من النقيض إلى النقيض.

قال الأوّل ما معناه :

«أنا موظّف سلخوني عن وظيفتي ، كسروا القالب الذي كنت فيه ، أنا لم أبقَ أنا».

فمات قبل أن ينتحر.

وقال الثاني ما معناه :

«أنا إنسان حيّ ، لم تكن الوظيفة إلّا مرحلة من مراحل حياتي ، قطعتها ولست آسفًا عليها. كانت الوظيفة تسدّ عليّ طرق السياحة في الدنيوات الواسعة التي ليس لها حدّ ، وفي مقدّمتها دنيا الأمل ، فزال السدّ وعدت حرًّا.»

الأوّل بزّاقة لا تستطيع أن تعيش إلّا في سجنها الضيّق.

والثاني عصفور كان في قفص فطار منه.

شتّان بين بزّاقة وعصفور!

٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٩

إنكار في محلّه

هل للقاضي أن يقرأ رسائل غرام المتقاضين في المحكمة؟

المدّعية فلورنس كامب ، والمدّعى عليه فريتز كوهن يمثلان أمام إحدى المحاكم الأميركيّة.

القاضي : هل كنت تحبّ فلورنس كامب؟

- المدّعى عليه : كلّا.

المدّعية : هذه رسائله التي كان يبعث بها إليّ وهي بخطّ يده.

وتقدّمت إلى القاضي ودفعت إليه رزمة رسائل ، فتناول منها واحدة وأخذ يقرأ بصوت عالٍ :

«حبيبتي فلورنس

لم أذق طعم النوم طوال ليلي. خرجت إلى الشرفة وأخذت أنظر إلى القمر وأقول له : لا تتهادَ في سمائك أيّها القمر ، فلي حبيبة أجمل منك. فلورنس! فلورنس! أنام وقدماك الصغيرتان الناعمتان على قلبي...»

وأخذ الحاضرون في الضحك. فضاق فريتز كوهن ذرعًا وصاح محتجًّا :

– أنا لم أكتب هذه الرسالة! أنا لم أكتبها!

وقد تبيّن فيما بعد – بواسطة الخبراء – أنّ الرسائل التي بيد فلورنس كامب هي بخط فريتز كوهن. ولكنّ المدّعى عليه شكا قاضيه إلى قاضي القضاة قائلًا : إنّ رسائل الغرام لا يجوز أن تُتلى علنًا ، وهي من نوع المخابرات السرّيّة ، ولها حرمة ينبغي أن تُصان ، وإلّا فسد الملح الذي به يملّح الحبّ.

يعني الكذب الحلو!

٦ كانون الأول ١٩٣٩

أجمل أنف

أُقيمت في باريس مباراة بين الأنوف – نسائيّة طبعًا – ففازت بالجائزة الأولى فتاة في العشرين اسمها ماريان أوبي.

قال الصحافيّون في وصف أنفها إنّه يشمخ بأرنبته إلى العلاء كأنّه عنوان الكبرياء.

الواقع أنّ الأنف قد أهمله الموكّلون بالجمال، وفي مقدّمتهم الشعراء، فلم نرَ واحدًا تغنّى بجمال أنف حبيبته. والقول في الأنف عند العرب مقسوط بين الهجاء والفخر. في الهجاء مثلاً:

«لك أنفٌ يا ابنَ حربٍ
أنِفَتْ منهُ الأنوفُ
أنت في القُدسِ تصلّي
وَهْوَ في البيتِ يطوفُ»

وأمّا في الفخر فيتلاقى العرب مع اللجنة المحكّمة في المباراة الباريسيّة، إذ يحسبون حساب الشموخ في الأنف. من ذلك قول حسّان بن ثابت في بني غسّان:

«شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأوّلِ».

بل ما لنا نذهب إلى بعيد، والعرب قد اشتقّوا الأنَفة – أي التعالي عن الدنيا – من الأنف. والأنوف هو المتنزّه عن الشيء الكاره له. وفي القاموس: الأنوف من النساء هي الطيّبة رائحة الأنف. أي الّتي لا تضع أنفها إلّا في المسك.

ولو لم يكن أنف الخنزير في المزابل – كما يقول المثل الصينيّ – لكان أجمل أنوف خلق الله.

١٥ كانون الأول ١٩٣٩

أنا أعرف نفسي

كان أفلاطون يقول: اِعرف نفسك.

لأنّ معرفة النفس هي بداية الحكمة.

ومن جملة الذين عملوا بهذه النصيحة السيّد سليمان عطا الله من قرية عين دارا، وقد مثل أمام محكمة الجنايات هذا الأسبوع بتهمة قتل اثنين من أفراد عائلته.

تفاصيل الجناية لا تهمّني.

المهمّ أنّ الرجل لم يكد ينفض يديه من جريمته المزدوجة حتّى نبش شعره ومزّق ثيابه وتلقّى الدرك الذين جاؤوا للقبض عليه بكلّ مظاهر الجنون، فأُحيل إلى «العصفوريّة» حيث مكث ثلاثة أشهر.

رئيس المحكمة: الأطبّاء أثبتوا أنّك لست مجنونًا، بل أنّك عاقل تمامًا.

سليمان – مبتسمًا –: وَلَو!... أنا مجنون ونصف، وأعرف نفسي أكثر من غيري.

على أنّ المحكمة لم ترَ بدًّا من تصديق الأطبّاء وتكذيبه، فحكمت عليه بالسجن خمس عشرة سنة وبما ترتّب عليه من دية القتيلين.

أصابتني خيبة عندما اطّلعت على الحكم، لا اعتراضًا على القضاء، فهو صاحب الكلمة العليا، بل على الحظّ الذي يأبى إلّا المعاكسة والمشاكسة.

فكم وكم في الدنيا من يدّعون العقل وهم مجانين، حتّى إذا قام واحد وقال: أنا والله مجنون! تصدّى له من يكذّبه!

٢١ كانون الأول ١٩٣٩

في آخر السنة

في آخر كلّ سنة أقف ساعة من الزمان ، أتأمّل في أمسي ويومي وغدي ، وأسأل الأرض والسماء : ما هذه الحياة؟

وفجأة تنقطع الحبال التي تربطني بالناس والأشياء ، وأنتهي إلى هذه النتيجة الحسابيّة التي لا تقبل الغلط :

عام يروح وعام يجيء ، من عام إلى عام ، إنّ الحياة ليست إلّا مشيًا إلى الموت ، وأنفاسنا خطوات إلى القبر.

ويخطر لي أن أموت. وأكاد أذوق راحة القبر وأتلفّع بمعطف العدم.

وفجأة تمرّ ذبابة وتحطّ على أنفي أو على ظاهر يدي.

يا للأعجوبة !... إنّ الذبابة ، في خفق جناحيها الدقيقين ، واضطراب رأسها الصغير ، ونقلات قوائمها ، وبقليل من طنينها ، قد بعثتني حيًّا. وعدت أرى وأسمع وأحسّ.

ثمّ أدور حواليّ فتُقبل عليّ الدنيا وأرى المرأة ، والولد ، والبيت ، والثروة ، والجاه ، كأنّي أراها لأوّل مرّة ، فأهتف ملء صدري :

عندي كلّ هذا ، وأنا أريد أن أقبضه بيدي ، وأضمّه إلى صدري.

كلّا. إنّ الحياة جميلة...

وأنتِ ، أيّتها السماء والأرض ، والشمس والنجوم ، والحجارة والتراب ، أنت يا دنيا أنا ، وأنا أنت. ولن أموت إلّا عندما تموتين على زندي !

٣١ كانون الأول ١٩٣٩

بين الحياة والفنّ

قصّة غليوم تلّ يعرفها الصغار في العالم كلّه. وهي قصّة تمثّل البطولة والوطنيّة والشهامة وفضائل أخرى كثيرة.

تناول الكاتب الفرنسيّ جورج دي بوهليه هذا الموضوع وألّف فيه رواية تمثيليّة ستعرض قريبًا في مسرح الأوديون.

وفي أثناء اجتماع المؤلّف بمدير المسرح سأل المدير:

– تُرى ، أغليوم تلّ شخصيّة خرافيّة ، أم إنّه وُجد حقًّا وعاش تلك الحياة التي تصفها قصّته وروايتك؟

قال المؤلّف :

– الأرجح أنّها أسطورة من الأساطير، وفي الأسطورة شيء من الحقيقة وشيء من الخرافة ، والجميل فيها أنّنا لا نعرف أين هي الحقيقة وأين هي الخرافة.

هذا صحيح. وهذا هو شأن الأساطير عند الأمم. خُذ لك مثلًا قصّة عنتر عند العرب. أليست أسطورة من الأساطير؟ إنّ الحياة لأعجز من أن تصنع مثل هؤلاء الأبطال الكاملين ، ولكن ما تقصّر عنه الحياة يحقّقه الفنّ بواسع خياله وعجيب قدرته.

غليوم تلّ وعنتر وغيرهما من الأبطال إذا لم يكونوا موجودين فعلًا فيجب أن نخلقهم.

تلك هي رسالة الفنّ وذلك هو فخره : إنّه يجسّد الفضائل والمثل العليا في بطل من الأبطال ، كأنّه يتحدّى الحياة بقوله :

هذا هو الإنسان كما كان عليك أن تصنعيه.

١٤ كانون الثاني ١٩٤٠

أورڤوار أفندم

زارني أمس رجل لغير مناسبة.

حيّا دون أن أنتبه له. وقعد دون أن أنتبه. وتكلّم دون أن أنتبه. ثمّ قام دون أن أنتبه...

ولكنّه قبل أن يدير ظهره ودّعني وداعًا انتبهت له جيّدًا، قال:

– أورڤوار أفندم!

وإذا لم يكن لهذا الزائر الكريم من رسالة يبلّغني إيّاها من وراء زيارته إلّا هذه الأورڤوار أفندم فقد كفى.

الرجل من الذين يصحّ فيهم نعت «المخضرَمين»، أي الذين أدركوا العهدين في هذه البلاد: التركيّ والفرنسيّ. وهو من المتأنّقين الذين يختارون ألفاظهم اختيارًا. وقد أراد أن يتأنّق في وداعي بأعذب ما في اللغة الفرنسيّة في هذا المقام وأعذب ما في اللغة التركيّة، فلم يجد خيرًا من:

– أورڤوار أفندم.

يتحدّث المتحدّثون عن لغة أهل مالطة بأشياء ظريفة جدًّا مثل: «أنطيني زلوميت» أي أعطني كبريتة، ولكنّ الأورڤوار أفندم تظلّ حائزة قصب السبق في هذا المضمار.

إنّ في اللغة المالطيّة صلة تصلها بالعربيّة مهما كانت ضعيفة. أمّا لغة صاحبي المخضرَم فقد قفز فيها من التركيّ إلى الفرنسيّ – أو بالعكس لا فرق – وترك اللغة العربيّة تمرّ من بين ساقيه...

إلى أين؟...

٢٠ كانون الثاني ١٩٤٠

هذا وقتك أيّتها الكنّة!

يظهر أنّ الحموات لا يكفيهنّ ما يثرنه من مشاكل بين الأزواج حتّى قمن اليوم يثرن مشكلة جديدة.

فقد بلغت بهنّ الفلسفة في الولايات المتّحدة أن عقدن المؤتمرات وأرسلن الاحتجاجات صائحات:

– إسمنا لا يعجبنا. نريد اسمًا سواه!

واسم الحماة في بلاد العمّ سام «الأمّ بموجب القانون» أي قانون الزواج، وهو اسم عليه من السنين غبار، وإن كان من حيث المعنى لا غبار عليه.

وقد اقترحت إحداهنّ – وهي نائبة في البرلمان – على زميلاتها أن يتّخذن الاسم الفرنسيّ وتعريبه بالحرف «الأمّ الجميلة». ولكنّ الحموات رفضنه رفضًا باتًّا لما فيه من بعض السخرية ببعضهنّ... فكيف تريد أن تُقال للستّينيّة أو السبعينيّة مثلًا «جميلة»؟

فكّرتُ بالمناسبة بالاسم العربيّ الذي نطلقه نحن على أمّ زوج المرأة وأمّ زوجة الرجل: الحماة. ولعلّك توافقني أنّه أصحّ من الجميع لأنّ القاموس يقول: حمي حميًا وحموًا صار حاميًا كالنار – وهذه هي بالتمام وظيفة الحماة – أو غضب الغضب الشديد الذي ما عليه من مزيد. ومنها حميًا الغضب أي غليانه وفورانه.

ولكنّ الحموات الأميركيّات اللواتي لم يقبلن بـ «الأمّ بموجب القانون» و «الأمّ الجميلة» لن يقبلن طبعًا بـ «الحماة».

أيّتها الكنّة، هذا وقتك أن تطلعي على السطوح وتنادي: حماتي لا يعجبها العجب!

١٦ شباط ١٩٤٠

كازوز آدم

أنواع الكازوز في البلاد كثيرة لا يحصيها عدّ. وهذا ما نحمد الله عليه. لأنّ الكازوز، كما تعلم، خير مهضّم، ونحن محتاجون إلى الكازوز في هذه الأيّام التي يتعسّر فيها كلّ شيء...

كنت في الترامواي صباح أمس فوقع نظري، في واجهة أحد الحوانيت، على إعلان:

«هنا يُباع كازوز آدم».

فظننت أنّ عينيّ تخدعانني، فقفزت من الترامواي – وكان ينهب الأرض نهبًا – وكدت أعضّ الأرض. ثمّ استويت واقفًا أنظر، فإذا الأمر صحيح: كازوز آدم.

كازوز آدم! كازوز آدم! أعجبتني الماركة. فتناولت من جيبي ما فيه النصيب وشربت قنّينة نزلت على قلبي حلالًا زلالًا، وأتبعت بها الثانية ثمّ الثالثة، والبائع يحملق بي، حتّى لم يتمالك من الهتاف:

– ألف صحّة. أآكِل سمكًا مع الفجر؟

فضحكت وانصرفت، وهو يشيّعني بالدهشة.

كلّا، يا صاحبي، لست آكلًا سمكًا... ويا ليت! ولكنّي قلت في نفسي: حوّاء أطعمت آدم تفّاحة ما تزال تنتقل في ذرّيّته من واحد إلى واحد حتّى اليوم. وهذا كازوز آدم، أعارف أيّها البائع قيمته؟ اِرفع الإعلانات عنه عاليًا، نادِ الأقربين والأبعدين، وزّع منه شرقًا وغربًا، وزّع على الناس وزّع، لعلّهم يهضمون تلك التفّاحة الملعونة...

٣ آذار ١٩٤٠

ما فوقها وما تحتها

جاء في تقرير الشرطة ما يلي:

«اِدّعى لويس كلينال – من سكان بيروت – أنّ ثلاثة من اللصوص دهموه في منزله بقصد السرقة، ولمّا لم يجدوا عنده مالًا سلبوا الفراش الذي كان ينام عليه. واللحافين، وفرّوا».

الحادث عجيب من الوجهتين:

المبدئيّة،

والعمليّة.

أوّلًا – لأنّ اللصوص كانوا في الماضي يسرقون ما خفّ حمله وغلا ثمنه، وقد أصبحوا اليوم يسرقون اللُّحف والفُرش. وهذا انحطاط في الكار.

ثانيًا – أتساءل: عندما سرق اللصوص من لويس كلينال فراشه ولحافيه (يظهر أنّ روزنامته واقفة عند شباط ليتغطّى باثنين بدل واحد) هل كان نائمًا أم واعيًا؟

إذا كان نائمًا ونزعوا عنه اللحاف الأوّل، فاللحاف الثاني، ثمّ سحبوا الفراش من تحته دون أن يحسّ، فهو يستحقّ أن يظلّ نائمًا على طول!... وإذا كان واعيًا فيا له من جبان! لقد كان عليه أن يدافع عن فراشه وأن يشدّ بأحد اللحافين على الأقلّ.

أنا لو كنت قاضيًا ورُفعت إليّ هذه الدعوى لحكمت على لويس كلينال قبل أن أحكم على اللصوص، لا لشيء إلّا لأجعله عبرة لبعض الشعوب: يأخذون ما فوقها وما تحتها وهي غارقة في النوم.

٤ نيسان ١٩٤٠

الأمطار الأولى

أحبّ الأمطار الأولى من الشتاء وأنتظرها على أحرّ من الجمر.

هل أحرّ من جمر الصيف في بيروت؟

الأمطار الأولى تقطع الملل وتبعث الأمل. ترضي حبّ الناس للتغيير: أفّ لهذا الصيف ألا ينتهي؟ غدًا في الشتاء سأعمل كذا وكذا...

الشتاء؟ هذا وجهه قد أقبل مع هذا الصباح المتجهّم. وبروق ورعود وسائر الآلة.

الأمطار الأولى، هذه السنة، تنهمر انهمارًا. كأنّ السماء تنقضّ على الأرض تقبيلًا بعد طول غياب واشتياق. والأرض تتفتّح لها، وتتهادى الأغصان كالأيدي الملوّحة بالترحيب يمينًا ويسارًا.

الأمطـار الأولى تغسل الأرصفـة والسطوح والأدراج، وتبغت الكراسيّ المنسيّة على الشرفات ضحايا بريئة. كما تبغت الفساطين الحريريّة والنحور العارية...

الأمطار الأولى، أنا أمشي في عرض الطريق وأتلقّاها ملء وجهي، وأفتح لحبّاتها فمي وأشربها وأرتعش نشوان من اثنين: طعمها وبردها.

إنّ فصلًا قديمًا يذهب ويأتي فصل جديد. عمر جديد. وما همّتني الوحول. سأتورّط بها وأتمرّغ عند اللزوم. إنّها أهون من غبار الصيف الذي أعماني.

الأمطار صفعات لخدود الصيف. إنّ الصيف لذو كبرياء وغلظة، وهو يستحقّ أكثر من هذا.

الأمطار الأولى بركات. بشائر الزهر والثمر، قواهر المتألّهين من الناس. هل رأيت أحدًا يمشي شامخ الأنف تحت المطر؟

١٥ تشرين الأول ١٩٤٠

جهنّم بين الأمس واليوم

نشرت جريدة «البشير» في أحد أعدادها الأخيرة نصّ منشور رعائيّ أذاعه المثلّث الرحمات المطران أنطونيوس الخازن على أبناء أبرشيّته في ١٨ نوّار ١٨١٨ أي منذ ١٢٣ سنة.

بعد أن وصف المنشور الأزياء الخلاعيّة - كما يسمّيها - التي تفشّت في تلك الأيّام، واستشهد بآيات الرسل والأنبياء في تقبيح التبرّج قال:

«أوّلًا - الشبّان يلزمهم تحت الختم المشدّد أن يغيّروا العادة الممقوتة بدهن شعور شقاطيهم (أي نواصيهم) وتطويلها، وتحويل طرابيشهم إلى جهة واحدة.

ثانيًا - الحاجة المتّسعة المسمّاة عند النساء شروالًا فلتتغيّر! ويجب أن يكون تفصيلها بمقدار عرض القطن من غير تطويل أو توسيع...»

وبعد أن يوجب سيادة المطران «تغطية الرأس حتّى لا يبين منه شعرة، ولفّ الوجه بالبشنوقة، وقطب القميص حتّى أعلى العنق، ومنع وضع الزهور (التشكيلة) على الصدور»، يوجّه إنذارًا إلى الجنسين ذكورًا وإناثًا مدّته عشرون يومًا فقط لا غير للعمل بهذه التعليمات. «وإذا مضت هذه المدّة فالمخالف يسقط حالًا في الحرم الكبير وتسري اللعنات والنقمات في أعضائه كالزيت، وليكن مقرّه في جهنّم حيث دودها لا يموت، ونارها لا تنطفئ!»

مسكين جدّ جدّي، ومسكينة جدّة جدّتي. من أجل انحرافة الطربوش إلى اليمين، أو ظهور شعرتين على الجبين، أرسلوهما هكذا إلى جهنّم.

ما كان أرخص جهنّم في ذلك العهد، وما أغلاها اليوم!

٢٠ شباط ١٩٤١

حساب في الآخرة

مررت على الدكّان الذي أتناول منه حوائج بيتي كلّ صباح، فإذا بصاحبه يضحك وحده ويناديني. فأقبلت عليه أسأله ما الخبر فقال:

– جاءني المير فلان، وأنت تعرفه وتعرف على أيّ جانب هو من الغنى والبخل والتقوى والطيبة معًا. وهو عندي – مثل فضلك! – من زبائن المشاهرة الذين أخسر بتجميد مالي في ذمّتهم أضعاف ما أربح على ما يشترون. وقد حدث في آخر الشهر الماضي أن أرسلت إليه لائحة بالحساب، فماطل. ثمّ أرسلتها ثانية وثالثة فكان الصبيّ يعود كلّ مرّة بالوعد. وفي الرابعة قال للصبيّ إنّه – أي المير – يتذكّر أنّه دفع المبلغ إليّ يدًا بيد! فتعجّبت وقصدت إليه أستوضحه، فلقيت عنده كاهنًا يتردّد عليه. وعلقنا في جدال طويل عريض حتّى كنت على وشك أن أخرج من ثيابي من شدّة الغيظ، فإذا بالمير يتناول عشر ليرات من محفظته، ولكن بدلًا من أن يعطيني إيّاها قرّبها من الخوري وقال موجّهًا الكلام إليّ:

– أنا أتذكّر أنّني دفعت، وأنت لا تتذكّر أنّك قبضت. قد يجوز الغلط منّي كما قد يجوز منك. أليس كذلك يا أبانا؟ (فخفض رجل الله رأسه بالموافقة، وعيناه ترافقان الورقات) ثمّ تابع المير: هذه الليرات العشر حسنة قداديس للمحترم، فليصلّ بها، فإذا كانت ذمّتي بريئة فالصلاة عن أرواح موتاي، وإلّا فعن أرواح موتاك أنت! أمليح هكذا؟

قلت للحانوتيّ مقاطعًا: وهل قبلت بالحلّ؟ قال: لقد غبت في الضحك طويلًا، ولمّا عدت إلى الوعي كان المحترم قد اختفى بالغنيمة بين الأرض والسماء.

٢٩ شباط ١٩٤١

في ذكرى الهدنة

أُحتُفل في ١١ تشرين الثاني الجاري بذكرى الهدنة.

وكانت هذه الذكرى تكتسي في الماضي حلّة من الزينة والفرح والزهو تعيد إلى الأذهان الشعور الذي غمر الناس سنة ١٩١٨، لا بأنّ الحرب انتهت وحسب، بل بأنّ تلك الحرب هي الأخيرة، فلن يقوم المدفع بعدها إلّا للعزاء:

«يخطبُ المدفعُ في محفلِها
طاهرَ الألفاظِ معسول التأسّي»

لك الله، أيّها الأخطل الصغير! أنظر الآن إلى البّر والبحر والجوّ واسمع بأيّ لغة يخطب المدفع في ذكرى الهدنة، ثمّ التمس لي الطهارة التي تخيّلتها، والعسل الذي تشهّيت عليه.

هذا مجال ترداد كلمة الريحانيّ لك ولجميع الذين ذهبوا مذهبك في حسن الظنّ بالإنسانيّة، يقولها لكم لا الريحانيّ وحده، بل فلاسفة التاريخ، بل الطبيعة نفسها: «أنتم الشعراء!»

أنتم الشعراء، نُظّامًا وساسة، تسلّوا بأوهامكم!

أُنظموا القصائد، ولوّحوا بالمبادئ. إنّ الحياة تضحك منكم. الحياة لا تعرف منذ أن كانت إلّا الصراع. تلك حقيقتها الرهيبة، بل ذلك جذعها الضخم، البشع، المتشابكة جذوره في أعماق الإنسان. أمّا غصن السلام فطفيليّ يطلع بين الحين والحين على أقدامها. وما يكاد، حتّى تهبّ عليه العاصفة فتخنقه.

أسفي عليه! لم يثمر مرّة قطّ إلّا القصائد والمبادئ.

١٥ تشرين الثاني ١٩٤١

قطط وفئران وبشر

فكّر أحدهم في نيويورك، من الطامحين إلى إحراز الملايين، بتأليف شركة غريبة في نوعها. وأرسل إلى كبار التجّار كتبًا يعرض عليهم فيها الفكرة. وقد جاء في الكتب أنّ الشركة ستتعاطى التجارة بجلود القطط السوداء – وهي جلود مرغوب فيها كثيرًا عند السيّدات – وعلى كلّ تاجر أن يساهم بقسط من رأس المال حسب مقدرته.

أمّا المشروع فهو عبارة عن:

أوّلًا – تشتري الشركة أرضًا في أفريقيا تجعلها مزرعة للقطط.

ثانيًا – تجمع الشركة مليون قطّ بين ذكر وأنثى. معدّل إنتاج القطّة في السنة ١٢ قطًّا أي ما يعادل ١٢ ألف جلد. فإذا حسبنا معدّل ثمن الجلد الواحد فرنكًا ونصفًا ضمنّا ربحًا قدره ٥٠ ألف فرنك في السنة.

ثالثًا – تقيم الشركة، إلى جانب مزرعة القطط، مزرعة ثانية للفئران. والفئران تتناسل أربعة أضعاف تناسل القطط. فإذ ابتدأنا بمليون بين ذكر وأنثى كان لكل قطّ أربع فارات في اليوم. وهو أكثر من اللزوم.

رابعًا – تطعم الشركة الفئران لحوم القطط التي نكون قد سلخنا جلودها. وهكذا يمشي الحال أوتوماتيكيًّا: القطط تأكل الفئران، والفئران تأكل القطط، والجلود لنا!

ولكنّي أرى – أنا الفقير الحقير – أن لا يعتزّ الأميركيّ بمشروعه كثيرًا، لأنّه مسبوق إليه.

أليس كذلك يفعل الأقوياء بالشعوب الضعيفة؟ يحرّضون فريقًا من أبنائها على فريق: هذا يأكل ذاك، وذاك يأكل هذا، ويربحون هم «الجلود»!...

٢٨ تشرين الثاني ١٩٤١

حيرة حمار

جمعني مجلس بصاحب وظيفة كبيرة، وتركّز الحديث على مشكلة من المشاكل التي تعالجها دائرة ذلك الموظّف منذ سنين دون أن تهتدي إلى حلّ لها.

وكان من الطبيعيّ أن أسأل الرجل عن السبب الذي من أجله يتأخّر الحلّ المنشود. وقلت في نفسي: هذه فرصة أطّلع فيها على السبب الحقيقيّ، فربّما كان هناك عذر ونحن نلوم.

أفتدري بماذا أجاب؟

قال: المشكلة جدّ عويصة. يأتيك الفريق الأوّل فتسمع إليه يدلي بحججه وبراهينه فما تلبث أن تقتنع وتقول: أي والله الحقّ معه. وتستدعي الفريق الآخر وفي نفسك أن تصيح به أن يخضع لذلك الحقّ. فيقول لك: ألا تسمع لي كما سمعت للآخر؟ فتسمع إليه يدلي بحججه وبراهينه فما تلبث أن تقتنع وتقول: كلّا. بل الحقّ مع هذا...»

– وأخيرًا؟

في الأمثال «الموت حلّال المشاكل». وكنت أعتقد أنّ الرجل يعتزم حلّ المشكلة عن هذا الطريق. ولكنّه بادر فأجابني بقوله:

– أخيرًا رفعت المسألة عن عاتقي إلى المراجع العليا. وقلت في نفسي: ما لي ولوجع الرأس.

هذا حديث له شهوده. أثبته هنا للدلالة على مقدار عدم الثقة بالنفس والخوف من المسؤوليّات عند البعض. وهو يذكّرني بذلك الحمار الذي كان عطشان وجوعان، فجاؤوا له بالشعير والماء، فظلّ حائرًا بأيّهما يبدأ. أبالأكل أم بالشرب؟ ومات في النهاية جوعًا وعطشًا بين المعلف والسطل!... لا رحمه الله.

١٦ نيسان ١٩٤٢

صوته وأصواتهم

رشّح محمّد عبد الوهّاب نفسه للنيابة في مصر.

الترشيح في الانتخابات يستدعي القيام بالدعاية. وأنا أتخيّل عبد الوهّاب واقفًا في جمهور من ناخبي منطقته وحوله تحت العازفين على العود والقانون والكمان يغنّيهم: يا دنيا يا غرامي! أو يا جارة الوادي مثلًا، وبالقرب منه مزاحمه يلقي على ذلك الجمهور خطبة سياسيّة خنفشاريّة، فأكاد أرى ذلك المزاحم المسكين يهرول تحت سيل من: «إخسَ عليك! سدّ بقّك!»

وشيء آخر مضحك. هو أنّ صاحب الصوت الذي سحر المصريّين يطلب الآن أصوات هؤلاء الذين سحرهم. وأنا أرى من العدل أن يعطوه مثلما أعطاهم، وهم الرابحون على كلّ حال. لأنّه إذا كانت أصواتهم سترفعه إلى كرسيّ النيابة فإنّ صوته هو قد رفعهم – ولا يزال – إلى السماء السابعة!

بقي علينا أن نتمثّل عبد الوهّاب في البرلمان، وهو مشهد لا يقلّ ظرفًا عن كلّ ما سبق. ذلك أنّ النوّاب عندما يصوّتون على مشروع من المشاريع يعطون أصواتهم «حاف». أمّا عبد الوهّاب فحسب الطلب: صبا إذا شاؤوا، أو نهاوند، وحجاز كار إذا أحبّوا، وإلّا فجاهر كاه... وإذا اضطُرّ يومًا أن يتغيّب عن جلسة من الجلسات أقام مقامه على الكرسيّ فونوغرافًا وإلى جانبه أسطواناته كلّها. وهكذا يكون عبد الوهّاب غائبًا كالحاضر. وهو أفضل – كما تعلم – من الحاضر كالغائب.

أمّا إذا اعترض معترض على الأسطوانات فأجيبه: ليست هذه بدعة، فإنّ في برلمانات مصر وغير مصر عددًا لا يُحصى من النوّاب الأسطوانات... إلّا أنّها غير مطربة!

١٧ نيسان ١٩٤٢

حكاية بلا مغزى

حدّث أحد الظرفاء قال:

كان رجلان من أهل الكاس صديقين لا يفترقان، يختصمان كلّ يوم ألف مرّة ويصطلحان ألفًا، وكان شرب الواحد على حساب الآخر بالتناوب، والاختلاف على تسديد الديون هو السبب في تلك الخصومة.

ذات يوم قصدا إلى زحلة في طلب العرق الجيّد الممتاز، فاشتريا تنكتين وعادا بهما مشيًا إلى القرية. فلمّا كانا في بعض الطريق جلسا يستريحان في الظلّ وخطر لها الشراب، فسحب الخبيث منهما خمسة قروش وأدناها من الآخر وقال له:

– بعني من تنكتك كأسًا بخمسة قروش.

فصبّ له وأخذ الخمسةَ القروش. ثم خطر للبائع أن يشتري بدوره، فقال لصاحبه:

– خذ هذه الخمسة القروش وأعطني بها كأسًا من تنكتك.

فأخذها وصبّ له. وما زالا يتداولان قطعة القروش الخمسة ويصبّ بعضهما لبعض – الشاري بائعًا والبائع شاريًا – حتّى طار ربع العرق من كلّ تنكة.

قال المحدّث: وكانت طريق العودة طويلة، ممّا اضطُرّ الرجلين إلى استراحات متعدّدة وصفقات معقودة على الشكل المبيّن أعلاه بلغت ما تسع تنكتا العرق من كؤوس... فلمّا وصلا إلى القرية ونظرا إلى التنكتين الفارغتين التفت كلّ منهما إلى الآخر وهتفا معًا:

– عجيب! تنكتا عرق طارتا بخمسة قروش! مع أنّنا لم نبع قطرة منها إلّا بثمنها عدًّا ونقدًا!...

٢ أيار ١٩٤٢

ميلاد وميلاد

أينما تطلّعت في الجرائد التي صدرت خلال الأسبوع الماضي ترَ الإعلانات المشوّقة عن الفندق أو المقهى أو المرقص الأصلح لقضاء ليلة عيد الميلاد.

إنّ ليلة الميلاد قد تحوّلت في هذا العصر إلى «ليلة حمراء» – على تعبير هذا العصر نفسه – أعني إلى سكر وعربدة، ورقص ومغازلة، وأشياء أخرى أقلّ ما يُقال فيها إنّها أبعد ما تكون عن الطفل الذي وُلد في مغارة، وكانت البقرة والخروف والحمار من سمّاره.

أنت تقول: كلّ شيء يتطوّر مع تطوّر العصر. وهذا صحيح. وتأييدًا لكلامك أقول: رأيت سيّدة محترمة في ميلاد السنة الماضية تحمل كأس الويسكي وتدنو من المغارة فتدقّ الكأس وتهتف: كأسك! وفي ظنّها أنّها تشرب نخب يسوع. ولكنّها، لشدّة التعتعة، لم تدرِ أنّها دقّت كأسها بالحمار!

إنّ الذين يقولون إنّ يسوع أصبح غريبًا في هذا العالم كثيرون. وهم يعنون الحرب والقنابل والقتل والدمار. وأنا أيضًا أقول قولهم، ولكنّي أعني أهون من هذا. أعني السيّدة المشار إليها بالذات.

إنّ يسوع أصبح غريبًا في لبنان، وأصبحت أنا غريبًا في ميلاده. مَن لي بميلاد في قريتي الجبليّة العالية، وبأجراس تتجاوب أصداؤها في الأودية البعيدة، وبأقدام المؤمنين والمؤمنات تخفق على الثلج، وبمصابيح الزيت تشقّ العتمة على الدروب المتعرّجة، وبكفّي طفل يجثو للصلاة أمام المغارة فيلهيه تألّق الأنوار وجمال الشخوص وألحان الأناشيد، ثمّ ينتبه إلى نفسه، فيعود إلى ضمّ كفّيه وخفض رأسه ليخفي حمرة الخجل على خدّيه...

٢٥ أيار ١٩٤٢

الحاجة إلى بوليس سير

أدلى معالي مكرم عبيد باشا، وزير الماليّة المصريّة، ببيان عن ميزانيّة الدولة أمام مجلس النوّاب عرض فيه لأزمة القمح التي يعانيها القطر الشقيق، وذكر الجهود التي تبذلها الحكومة لتأمين استهلاك البلاد إلى حين ظهور الموسم الجديد.

وقد كشف الوزير في بيانه عن غلطة وقعت في قيود القمح المخزون في البلاد. قال: عندما وصلنا إلى الحكم قيل لنا إنّ في البلاد خمسمئة ألف أردب من القمح مخزونة لحين الحاجة (أي ثمانين ألف طن) فسألنا عنها، وشدّ ما كانت دهشتنا عندما قيل لنا إنّ الخمسمئة ألف ليست إلّا خمسة آلاف، وأنّ الخطأ وقع من جرّاء صفرين أضيفا إلى الرقم من الأمام بدلًا من أن تُعبّأ بهما الخانة من الوراء.

يعني بصريح العبارة إنّ الفضيحة فضيحة خلف وقدّام!

وقد كنت أعتقد، أنا الساذج، أنّ فضائح خلف وقدّام مقصورة على أشياء في هذه الدنيا ولا تتعدّاها. أمّا أن تصل إلى ميزانيّات الدول وتتّخذ منها الحكومات سبيلًا لتغطية عجزها أمام الناس والضحك على ذقونهم فأمر يدعو إلى الدهشة وإلى الاستنكار، خصوصًا عندما نعلم أنّ فيه موتًا بالجوع لألوف وملايين من عباد الله المساكين.

لذلك، أنا أقترح على معالي وزير الماليّة المصريّة، تفاديًا للوقوع بهذه الغلطة في المستقبل، أن يضع على طاولة كلّ موظّف موكّل بكتابة مثل هذه الأرقام الخطيرة بوليسًا بعصا يعيّن له وجهة السير على الدفتر...

٤ حزيران ١٩٤٢

طاعون باحتكار

حدّثني صديق لي قال:

عندي في حديقة البيت دجاجات أقوم على العناية بها وأنتفع ببيضها. والبيضة اليوم بعشرين قرشًا كما تعلم. وقد لاحظت في المدّة الأخيرة أنّ البيض ينقص، فقلت: لا بدّ من أمر. لأنّ الدجاجات ما انفكّت تقوقي على مألوف عادتها كلّ يوم، ولم أتعوّد منها قطّ أن تمنّ عليّ كذبًا.

وبلغ بي أمس أن حملت بندقيّتي ووقفت بباب القنّ أترصّد. فلمّا قامت الدجاجة عن بيضتها إذا بجرذ يطلّ من زاوية القنّ ويدنو من البيضة يتشمّمها ويمرّغ شاربيه عليها علوًّا وخفضًا. ثمّ دار حولها دورة أو دورتين. ثمّ إذا أنا في مثل السحر، ما راعني إلّا والجرذ منطرح على ظهره يحتضن البيضة بيديه ورجليه. فراقني المشهد، ولبثت أترقّب ما يكون. فإذا بجرذ آخر يخرج من الزاوية، وإذا صاحب البيضة ينحرف له ويبصبص بذنبه وكأنّه يدعوه أن تعالَ! فأقبل وعضّه بذنَبه، وجرّه...

ولكن قبل أن يدخل القطار في النفق دوّى الطلق الناريّ، فوقع الخبيثان مصبوغين بدمها، وتطايرت البيضة شظايا.

قال الصديق: وحفرت في زاوية القنّ فإذا فيها ستّ وتسعون بيضة! فتأمّل.

قلت: ما من حاجة إلى التأمّل. إنّ الجرذان تنقل إلى بني آدم الطاعون. وأنا أرى أنّنا نحن البشر قد نقلنا إليها ما هو أشدّ وأدهى: الاحتكار.

٢٢ حزيران ١٩٤٢

بؤرة الحسّون!

علّمت هذه الحرب الناس الجغرافيا كما لا تستطيع أيّ مدرسة أن تعلّمهم إيّاها أبدًا.

وكان شأني أنا شأن غيري، أتلقّى الأمثولة بل الأمثولات كلّ يوم مرتاحًا إلى هذا الذخر الجديد أضيفه إلى معارفي وأجد فيه بعض العزاء عن الكوارث والويلات التي تجرّها الحرب.

حتّى كان أمس فقرأت في البرقيّات أنّ الطائرات أغارت على طرابلس الغرب وعلى «بؤرة الحسّون» (كذا) فاشتعل مستودع للوقود وانفجر مستودع للذخيرة إلخ، إلخ...

بؤرة الحسّون؟!

إنّ للحساسين، على حدّ علمي وعلم الناس كما أعلم، أعشاشًا حلوة تتعلّق بالأغصان الميّادة في الجنائن الغنّاء... أمّا البؤر فلم أسمع أنّها كانت يومًا للحساسين.

إنّني أتصوّر النيران تتأجّج، والذخائر تتفجّر في المكان – لا أستطيع أن أقول البؤرة، وأربأ بالعشّ – أتصوّر هذه الفظائع في المكان الذي كان يزيّنه الحسّون بريشه الفتّان، ويملأه بأغاريده في البكور والعشايا، وأهتف:

– اللهمّ إذا كان الحسّون قد حوّل عشّه إلى بؤرة فهو يستحقّ هذه الضربات. ولكن كم من الأعشاش قد تحوّلت إلى بؤر غصبًا عنها، فطغت عليها الخنافس وطردت منها الحساسين. اللهمّ بهؤلاء أنا أفكّر، وعودتهم أنتظر، رحمة بالأرض وإنصافًا للسماء...

٥ أيلول ١٩٤٢

عظة حمار

محمّد سليمان وأحمد الخضر رجلان من نواحي بعلبكّ ، مشهوران بتهريب الحشيش من لبنان إلى سوريّا .

مشهوران ! يعني أنّهما أفسدا المهنة . لأنّ الشهرة قد تنفع في كلّ شيء إلّا في تهريب الحشيش . الشهرة في تهريب الحشيش مثل رائحته تمامًا ، تدلّ عليه من بعيد .

ولكنّ الذي فضح الحكاية هذه المرّة ليست شهرة الرجلين ، بل هو حمار كان معهما .

وتفصيل ذلك أنّ محمّد سليمان وأحمد الخضر كانا يستعينان على أمرهما بحمار ألبساه بردعة خاصّة ذات جيوب . وقد حشواها حسب العادة بالحشيش وقصدا من بعلبكّ إلى دمشق على كفّ الشيطان ، ونزلا في خان اسمه خان السنانيّة .

وما كادا يصلان إلى الخان حتّى جاء رجال التحرّي يسألونهما عن سبب تشريفهما . وكان رجال التحرّي قد عرفوا أنّ معهما حمارًا فطلبوا أن يدلّاهم عليه ، فدلّا على غيره ، ففتّشوه فلم يجدوا شيئًا .

وبينما هم يهمّون بالرجوع خائبين إذا بحمار في الزاوية ينهق . فارتدّ رجال التحرّي فرأوا الحمار المذكور ينظر إلى محمّد سليمان وأحمد الخضر نظرات ملؤها المعرفة والصحبة القديمة ... ففتّشوا بردعته وصادروا الحشيش وساقوا الرجلين إلى الحبس .

أنا أعتقد أنّ الحمار عملها قصدًا مع الرجلين ، وأتصوّره يقول لهما ولغيرهما من الناس : تعلّموا بعد اليوم أن لا تسلّموا سرّكم للحمير...

٤ آذار ١٩٤٩

أسامع يا أبا نؤاس

للحرب قانونها ، وهو فوق كلّ قانون .

لذلك أنا لا أحتجّ على قرار منع شرب العرق في بعض أيّام الأسبوع وإباحته في البعض الآخر .

لست أذكر أيّها أيّام المنع وأيّها أيّام الإباحة . وما الفائدة من وجع الرأس ما دمت من غير أصحاب الكأس؟

ما أريد أن أقوله لك هو أنّ العرق قد غيّر لونه في هذه الأيّام التي تغيّر فيها حتّى لون البشر ، وتغيّر اسمه كذلك . حيلة يلجأ إليها أصحاب الخانات لتقديم العرق إلى زبائنهم في أيّام المنع ، وهي تقضي بصبغ العرق بالأحمر ، أو بالأصفر ، أو بالأزرق ، إلخ . فإذا أطلّ الشرطيّ رأى اللون فذهب مطمئنًّا .

من هو صاحب هذه البدعة ، أأصحاب الخانات أم الزبائن؟ أظنّ أنّها ليست غريبة عن هؤلاء ولا عن أولئك . وكلا الفريقين جدير بها ، لأنّ مصلحتهما مشتركة . والدليل على اتّفاقهما بل على تآمرهما أنّ الواحد يصل وينادي :

–كأس شراب الورد ، من فضلك .

أو ليموناضة ، أو توت ، لا فرق . ويرفق الطلب طبعًا بغمزة...

ألا رحم الله أبا نؤاس ، سيّد الندماء ، القائل :

«أثنِ على الخمرِ بآلائها
وسمّها أحسنَ أسمائها»

لو سمع أبو نؤاس البيروتيّين يسمّون الخمر في هذه الأيّام شراب التوت – مثلاً – لقام من قبره ليموت هذه المرّة قهرًا .

١٣ اذار ١٩٤٩

كرسيّ الاعتراف

أخبار فاجعة الزلزال التي نزلت بالإكوادور تقطّع نياط القلوب ، ومنها ما يسمو فيبلغ العِبرة ، ويتجاوز شعبًا معيّنًا ليضمّ البشر أجمعين.

مثال ذلك أنّ الناس عندما رأوا الجبال تندكّ ، والأرض تنشقّ ، والعمارات تتداعى كأنّها لُعب الكرتون ، جثوا على رُكبهم ورفعوا أيديهم إلى السماء وجعلوا يعترفون بخطاياهم علنًا أمام الأقارب والأباعد ، وقد دخل في روعهم أنّه يوم القيامة المنتظر.

في أيّام المسيحيّة الأولى كان الاعتراف بالخطايا مفروضًا على هذا الشكل ، في الساحات وأمام الملأ. وهنا ما هو أبلغ لأنّه يتمّ عفوًا بلا فرض ولا إكراه.

تصوّر أنقاض الزلزال تتحوّل إلى كرسيّ اعتراف عامّ شامل.

اللصّ يعترف بسرقته. والقاتل بجريمته. والزاني بفعلته. والمزوّر والكاذب والمحتال ، وكلّ أصحاب الذنوب والشنائع.

أيّ شيء في العظائم أعظم من هذا ، وأيّ مخيّلة في الشعراء ، بل الأنبياء ، يمكنها أن تتخيّل مشهدًا أروع منه؟

أنت تقول : مظهر من مظاهر الضعف.

أجل.

ولكن ، غريبة هي الطبيعة البشريّة ! كلّما ضعف الجسد فيها قويت الروح. ويظلّ الشرّ فيها سلطانًا متجبّرًا معربدًا. وفي لحظة ينهار تحت أقدام الخير ، ويذوب كالشمعة دموعًا.

١٣ آب ١٩٤٩

ضرب زيد عمروًا

فتح ولدي كتابه العربيّ ، ثمّ انتفض ودنا منّي سائلًا :

– في الكتاب الأوّل وفي الثاني وفي الثالث «ضرب زيد عمروًا». أما يزال زيد يضرب عمروًا منذ ثلاث سنين؟

– يا بنيّ ، إنّ زيدًا الأزعر يضرب عمروًا المسكين منذ كان أبوك في المدرسة ، بل منذ أن كان جدّك ، بل منذ كانت اللغة العربيّة.

هذا الحوار القصير ، البليغ ، أظنّه يجري بين كلّ ولد وأبيه ، وكلّ تلميذ وأستاذه ، وكلّ قارئ ونفسه عندما يتناول كتابًا من الكتب المدرسيّة التي نصرّ على تعليم الناشئة بها.

كتب أشبه ما يكون بالمومياء ، ليس فيها شيء من الحياة التي يحياها الجيل. فهي تصف البدويّ منذ ألوف السنين بين صحرائه وكثبانه ، وجماله وخيامه. والجيل ينظر حواليه فإذا هو في مدينة تعجّ بالقصور والسيّارات ، والمصانع والآلات ، فضلاً عن طبيعة تضحك بالأزهار ، وتزهو مثقلة بالأثمار... إنّ كلّ شيء يتطوّر ويمشي إلى الأمام ، ونحن حيث نحن ، نغذّي أدمغة أبنائنا بالكتب الصفراء نتوارثها جيلًا بعد جيل ، نكاد لا نبدّل فيها حرفًا ، وكلّ يوم تكتب الحياة ألف كتاب بالدم حينًا وبالنار حينًا ، فلا نلتفت ولا نحسّ.

لقد آن الأوان للإصلاح بين زيد وعمرو. بل لقد آن الأوان ، بعد ضرب مستمرّ منذ عصور ، أن تنكسر يد زيد ، أو تهترئ واو عمرو على الأقلّ.

٣١ آب ١٩٤٩

في عالم المرض

أقول للشكّاء البكّاء: عليك أن تمرض وتتألّم، أو أن تشاهد على الأقلّ عزيزًا لك يمرض ويتألّم.

تجربة أقوم بها الآن، وقد انقضى عليّ أسبوعان وأنا أتردّد على مستشفى انتقل إليه أحد أهلي للمعالجة.

في أثناء هذه الفترة تعرّفت على أنواع من التعاسات البشريّة تملأ غرف المستشفى، وتتوالى عليه كلّ يوم بزيّ. أمراض عضالة تذيب أصحابها كالشموع، وحوادث طارئة تُبتَر لها الأذرع والأرجل، وأطفال قد اختصرت العاهات أعمارهم فهم شيوخ دون العاشرة، وآباء وأمّهات يذوقون الموت لوعة وأسًى على أولادهم فهم جثث تروح وتجيء... وأشكال ليس فيها من هيئة البشر إلّا معالم باهتة كالآثار القديمة.

على أنّ أفجعها جميعًا هو صراخ تلك العجوز، طريحة الفراش في الطرف القصيّ من المستشفى، تنادي ليل نهار:

—ماما! ماما!

وكأنّها تطلب منها أن تعينها على القفزة الكبرى من الدنيا إلى الآخرة.

المستشفى هو عالم المرض. عالم مستقلّ، مختلف عن عالم الأصحّاء. وللحياة فيه مقاييس أضبط، ينبغي أن أقول أصحّ. وأنا أنصح من ليس مريضًا، وليس له عزيز مريض، أن يزور أحد المستشفيات مرّة في الأسبوع أو في الشهر على الأقلّ، ليعرف قيمة العافية ونعمة الحياة.

حقًّا إنّ الصحّة تاج على رؤوس الأصحّاء لا يراه إلّا المرضى.

٢٤ أيلول ١٩٤٤

عوَر وعمى

كتبت امرأة في أميركا، هي أمّ لخمسة أولاد، إلى الصحف تعرض إحدى عينيها للبيع بمبلغ عشرة آلاف دولار. قالت:

«كلّ ما أراه بعينيّ الاثنتين هو البؤس والشقاء. لذلك أرضى بالتخلّي عن إحداهما لعلّي أرى أثرًا للسعادة... ربّما اتّهمني البعض بالجنون. لا، فأنا أقدم على ما أقدم عليه بكامل عقلي. فإنّ أولادي ظلّوا يومين بلا طعام حتّى جاء رجل من جمعيّة خيريّة وأعطاني بطاقة لشراء ما يأكلون».

ولمّا أوفدت الصحف مندوبيها للتحقّق من حكاية هذه الأمّ وجدتها تسكن في حيّ من أفقر أحياء بروكلن. فسألوها كيف خطر لها أن تعرض إحدى عينيها للبيع، فقالت إنّها قرأت مرّة أنّ رجلًا باع إحدى عينيه بعشرة آلاف دولار.

هذا هو الخبر. لا أقلّ ولا أكثر. وهو يأتي من نيويورك أغنى مدينة في العالم. ثمّ إنّ الصحف تنشره هكذا كما هو، فيقرأه الناس ويتسلّون ثمّ ينسون.

حادثة صغيرة، بسيطة في حدّ ذاتها، ولكنّها تضع العالم مرّة أخرى أمام مشكلة من أعظم مشكلاته، وهي تتفاقم يومًا بعد يوم. فإحصاءات الأمم المتّحدة تدلّ على أنّ ثلث هذا العالم شبعان، والثلث جوعان، والثلث الباقي بين بين.

والحادثة المذكورة عنوان لهذه المشكلة.

إنّ المدنيّة التي تدفع بأمّ خمسة أولاد أن تصير عوراء، لتطعمهم خبزًا بثمن إحدى عينيها، لهي مدنيّة عمياء من الاثنتين.

٦ كانون الثاني ١٩٥٠

جرذان وندمان

منذ أيّام شاهد سكّان مرسيليا شيئًا عجيبًا.

خرجت مئات الجرذان إلى الشوارع وجعلت تتبختر ذات اليمين وذات الشمال، لا يداخلها خوف من المارّة ولا تحفل بالسيّارات. وربّما ثقلت رؤوسها واصطكّت رُكبها فارتمت وسط الشارع، لا هي بالحيّة فتُعرف ولا بالميتة فتوصف.

وقد تبيّن بعد الفحص والتدقيق أنّ الجرذان كانت سكرانة، لا أكثر ولا أقلّ... ذلك أنّ مقادير كبيرة من الخمور اندلقت من خزّان جوفيّ على أثر انفجاره، فمدّت الجرذان إليها أفواهها وشربت ما طاب لها ثمّ خرجت إلى الهواء الطلق تعربد.

الحكاية ظريفة حقًّا. ولكنّ وجهها الظريف في قراءتها وأنت في بيتك النظيف. أمّا الوجه الآخر المطلّ بالطاعون، والعياذ بالله، فقد تولّته بلديّة مرسيليا، إذ بادرت إلى إرسال حملة من كنّاسيها مع الشاحنات اللازمة، فنظّفت الشوارع من جثث الضحايا، وطاردت السكارى فعادت إلى أقنيتها تحت الأرض لتشرب ما اعتادت شربه فيها منذ أن خلقها الله.

وتنفّست المدينة الصعداء.

في الهيئة الاجتماعيّة أشباه هذه الجرذان. أناس عاشوا في السراديب، بين الأقذار، منذ أن كانوا. ثمّ أرادت الأقدار أن تضحك، فجاءهم – خطأً أو قصدًا – مال أو جاه. فإذا هم يسكرون ويخرجون إلى النور ويتصدّرون المجالس ويعربدون، وقد نسوا أنّهم جرذان لا ندمان!

٥ شباط ١٩٥٠

سور الصين

وقفت أمس أتأمّل الصورة التي نشرتها الصحف عن الفراغ من هدم سور الصين.

إنّ سور الصين من أعاجيب الدنيا، وقد بناه أهلها قبل قرنين ونيّف من الميلاد، وعاشوا ضمنه منذ ذلك التاريخ، حتّى جاءت السلطات الحاضرة فرأت أن تزيله.

لهذا الحادث معنى يتجاوز الصين... فكم من الأسوار التي أقامها البشر بين بعضهم وبعض: أسوار الدين، والعِرق، واللون إلخ، فوطّدوا أساسها، وسمّكوا جدرانها، ورفعوا عمادها. وعاشوا خلفها منذ عصور وعصور، يأبون أن يرَوا أبعد منها.

في الحياة السياسيّة بين الدول، وفي الحياة الاجتماعيّة، وفي الحياة الفرديّة بين المرء ونفسه، ضروب لا عدّ لها ولا حصر من الأسوار، حجارتها من مقلع الجهل والغرور، وطينها من مستنقع الطمع والفجور، نبنيها دائبين، ونتحصّن بها، ونطلق عليها بفخر واعتزاز أسماء الشرف والوطنيّة والسلام إلخ...

ويقينًا إنّ الصين، في هدمها سورها التقليديّ، لتدعو الناس في مشارق الأرض ومغاربها دعوة صارخة إلى هدم أسوارهم تلك. وإذا كان بناء السور أعجوبة، فهدمه في نظري هو الأعجوبة الكبرى.

«أطلبوا العلم ولو في الصين»... هكذا جاء في القول المأثور.

وقد يكون الهدم، عند بعض الشعوب، أبجديّة العلم.

٢٣ حزيران ١٩٥٠

الباحث عن رأسه

أتؤمن بالعفاريت والأشباح؟

أنا لا. ولولا العيب لشككت بالمحسوس الملموس.

نشرت الصحف الأميركيّة أنّ بالقرب من قرية رود هدلو (الولايات المتّحدة) عفريتًا أو شبحًا، لا فرق، يتجوّل في المنطقة باحثًا عن رأسه (كذا). ويقول أهل المنطقة إنّ هذا المخلوق الغريب هو رجل فرنسيّ قدم إلى البلاد منذ حوالى قرنين في سبيل الثروة. وبعد جهد عثر على كهف سرّيّ كان الهنود الحمر قد ملأوه بالفضّة فنقل منه ما استطاع، ولمّا عاد في طلب المزيد قطع الهنود رأسه. فهو يتجوّل منذ ذلك التاريخ باحثًا عنه.

الرجل الباحث عن رأسه! يا له عنوانًا لرواية لو كنت روائيًّا، أو لفيلم لو كنت مخرجًا سينمائيًّا... بل يا له من موضوع جليل خليق بأن ينحني عليه الفلاسفة!

لست – ويا للأسف – واحدًا من هؤلاء، وقد أسلفتك أنّني لا أؤمن بهذا الهراء. فليس من عفاريت ولا أشباح، برؤوس كانت أم بلا رؤوس. ولكن يوجد، لا في مجاهل أميركا ولا بين الهنود الحمر فقط، بل حواليّ وحواليك أناس كثيرون من لحم ودم، قد ضيّعوا رؤوسهم في السعي وراء الفضّة والذهب أو الجاه والسلطان. مع هذا الفارق بينهم وبين زميلهم الفرنسيّ: هو يعرف أنّه قد ضيّع رأسه فهو يبحث عنه، وهم يعتقدون أنّ رؤوسهم ما تزال بين أكتافهم، ولذلك يطلبون المزيد.

الأحرى بهم أن يبحثوا عن رؤوسهم.

٢١ أيلول ١٩٥٠

العبقريّة والبلاهة

الكاتب الفرنسيّ رينه فالي، ضيف لبنان، يوزّع حواليه كلمات جميلة، أحار ما أختار منها:

«أحبّ الناس والشوارع والمخازن، وأحبّ القطط. ينبغي لنا أن نحبّ القطط.»

«أنا أبحث في بيروت عن اثنين: صائد سمك بالصنّارة، وهاوٍ يجمع مسابح الطقطق.»

وعندما سألوه رأيه في القصّة الحديثة قال:

«ليس لي رأي. لماذا تريدون أن يكون لي رأي فيها أو في أيّ شيء؟»

الله الله على دنيا الأدب والأدباء كيف انقلبت!

أين نحن من أبراجهم العاجيّة التي كانوا فيها يقبعون؟ ومن وقارهم الذي كانوا به يتبرقعون؟ ومن تنميق ما كانوا ينمّقون ويزوّقون؟

أين نحن من الأحكام المبرمة التي كانوا يصدرونها على الناس والأشياء، والأرض والسماء؟ وكيف نزلوا إلى الساحة، إلى الشوارع والقطط، وفتحوا أفواههم – مثلنا تمامًا – بسذاجة، وتعرّوا هكذا دون حياء؟

تُرى، لمن الفضل في ذلك؟ طبعًا لهذا العصر الذي عاد بأهله إلى التعرّي. والأديب الأديب – الفنّان إطلاقًا – كان دائمًا يقول بينه وبين نفسه ما قاله رينه فالي للناس، ربّما على سبيل الدعاية لعبقريّته.

إنّ العبقريّة هي – من جملة ما هي – الإحساس ببلاهة الأشياء. وكلّ الفنّ هو في حيرة الحبّ أين يقع منها على شيء ذكيّ أو كيف يعبّر عنه بشيء من الذكاء.

٧ تشرين الأول ١٩٥٠

حمير وأوادم

روى لي أحد أصدقائي الحادثة التالية ، قال :

كنت راكبًا سيّارتي أمس لجولة في قلب المدينة . فلمّا وصلت إلى ساحة الشهداء اعترضني ماشٍ من أولئك المشاة الثقلاء البلداء ، فلم يسعني إلّا أن أزعق له بالزمّور ، والزمّور ممنوع . فلم يكن من شرطيّ السير إلّا أن ناداني وطلب أوراقي وشرع يكتب بي ضبطًا . فامتثلت راضيًا . وبينما هو ماضٍ بالكتابة إذا بزميل له يعرفني ، فتقدّم منه وأسرّ إليه بأنّني فلان الفلانيّ صاحب الوظيفة الفلانيّة . فما كان من صاحبي إلّا أن مدّ إليّ بالأوراق يعيدها ويعتذر ويرجو عدم المؤاخذة ! فقلت له :

– بل تكمّل كتابة الضبط .

فظنّ أنّني أمزح . فأفهمته بصريح العبارة أنّني واحد من الناس . فتعجّب زميله الذي يعرفني ولم يدرِ ما يقول ، ولكنّني أرسلت إليه نظرة جادّة ، فانكمش في خيبته قائلًا :

–كما تريد .

ولمّا فرغ الآخر من كتابة الضبط دفعه إليّ ، فوقّعته وأعدته وتهيّأت لمواصلة السير . ولكنّي قبل أن أبتعد سمعت الشرطيّ الأوّل يقول للشرطيّ الثاني :

– ملّلا حمار! (كذا) .

هذه هي الحادثة التي قصّها عليّ صديقي صاحب السيّارة .

فيا صديقي ، بارك الله فيك ! ويقينًا لن نصبح في هذه البلاد من الأوادم إلّا إذا صرنا كلّنا حميرًا من هذا النوع .

٢١ آذار ١٩٥٠

تنويم وتنويم

أقامت فتاة أميركيّة في ميامي تُدعى ماري كيسل الدعوى على المنوّم المغناطيسيّ رونالد بيلر طالبة الطلاق لأنّه أجبرها أن تتزوّجه بقوّة التنويم .

قالت : «كنت أذهب إلى رونالد لأستشيره في بعض الشؤون . وقد فاتحني بحبّه يومًا فأفهمته أنّني مخلصة لخطيبي ولا يمكنني أن أخونه ... وذات ليلة أفقت على نفسي فإذا أنا في بيته ، وفي سريره ! فكاد صوابي يطير وخرجت إلى الشارع أصرخ طالبة النجدة .»

هذه الاستشارة في بعض الشؤون لا تُعجبني كثيرًا . خصوصًا إذا كان المستشار منوّمًا مغناطيسيًّا ، والمستشير أو المستشيرة فتاة حلوة ، ناعمة ، بريئة ، يعني جاهلة ما فيها هي من مغناطيس .

هذه ملاحظة على الماشي . والعبرة ليست هنا .

لقد تبيّن من التحقيق أنّ رونالد انتهز فرصة من ماري فنوّمها وقصد بها وهي تحت تأثير التنويم إلى مأمور الزواج حيث قالت : «نعم» .

هذه القصّة الأميركيّة عليها طابع الشرق .

كم من فتاة تحت سمائه قد مشت إلى الزواج بمن تكره وخفضت رأسها بـ «نعم» تحت تأثير العبوديّة التي كانت تنوّم إرادتها والتقاليد التي تكبّل حرّيّتها . وبالألوف تُعَدّ الفتيات اللواتي كنّ يفقن على أنفسهنّ كما أفاقت ماري كيسل ولكنّهنّ لا يتجرّأن على فتح الأفواه .

الحمد الله ، ذلك عهد قد زال أو هو في طريق الزوال بعد أن تحرّرت المرأة وهبّت لممارسة حقوقها كاملة .

٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٢

الوجه الشكور

تصبّحت اليوم بوجه عليه سيماء الشكر.

كلّا. ليس هو وجه امرأة جميلة، ولا وجه رجل عملت معه معروفًا. وجه إنسان – ذكر؟ أنثى؟ لم أتبيّن ذلك إلّا فيما بعد – لم أكن أعرفه ولا سبق لي أن وقع نظري عليه. هكذا، في الطريق طلع وجهي لوجهه، وذهب كلّ منّا من ناحيته. وها أنا في مكتبي، وهو لا أدري أين. ولكنّ بسمة الشكر التي كانت على وجهه ترافقني، وأحسّ أنّ عدواها قد سرت إلى وجهي فهو يطفح بشرًا...

ما همّني أنّ الدنيا حولي مكفهرّة؟ في قلبي شمس ساطعة أضاءها ذلك الوجه العجيب.

غريبة الوجوه! منها وجوه عليها سيماء الحقد، ووجوه عليها سيماء اليأس، وأخرى التكبّر، وأخرى التحدّي، أو الاستسلام أو الذكاء أو البلاهة، أو التظاهر بذلك. ولكن بربّك، هل عرفت الوجوه التي عليها سيماء الشكر؟

أصحاب تلك الوجوه، تُرى يشكرون من؟

في تعابيرنا اللبنانيّة القديمة كنّا نقول: هذا وجه شكور. وقد انقطع هذا التعبير بانقطاع الوجوه الشكورة في هذا الزمان.

أجل، لم يكن الوجه الشكور الذي صادفته هذا الصباح وجه امرأة جميلة، ولا وجه رجل عملت معه معروفًا... الوجه الشكور فيه كلّ الجمال، وهو الذي يوزّع المعروف.

من المؤكّد أنّ صاحبه يشكر الله.

٨ كانون الأول ١٩٥٤

الأرجوحة الرائعة

من السهل جدًّا، بل لعلّه نوع من الرياضة، أن يتفلسف الإنسان عن الهزّة الأرضيّة بعد وقوعها وخروجه منها سالمًا. وهذا ما أنا محاوله اليوم.

كنت في البيت على تزكة عرق مع بعض الأصدقاء. الواقع أنّني لم أهتمّ كثيرًا. لا! لا!... لم نكن قد بدأنا الشرب... لماذا لم أهتمّ؟ لا أدري. ربّما لأنّني كنت أريد أن أهدّئ روع زوجتي وأولادي. وربّما لأنّني أؤمن بالقضاء والقدر، وبأنّ لكلّ نفس أجلها، فما الفائدة من الصراخ والهرب؟ وربّما لأنّني أعيش كالكثيرين في الهزّات والرعبات من الصباح إلى المساء – هزّات الحياة التي تسجّلها مراصد النفوس ولا يبوح بها إلّا الشكّاؤون البكّاؤون ولست منهم، أو الشعراء.... أقول لك كنّا على تزكة عرق. وكنت أرفع الكأس الأولى – قبل أن أذوقها – إلى شفتيّ، فإذا بها تندلق على ثيابي، ممّا جعلني أعتقد غصبًا عنّي أنّني سكران... ثمّ تبيّن لي أن الدنيا هي السكرى! وقد خرج الجميع – إلى أين؟ لست أدري، ولا هم يدرون – وبقيت وحدي أشرب نخب المارد!

خفت في اليوم التالي، عندما قرأت الصحف وسمعت تعليقات الناس. إنّ الخوف من الأمراض المعدية. ولكنّي رفضت أن أعترف بذلك وتابعت تمثيل دوري في البطولة والتفلسف على الخائفين...

كلّ عمري كنت أحبّ الأراجيح. ما أروعها أرجوحة بين العدم والوجود!

بشرط، طبعًا، أن لا ينقطع بنا الحبل...

١٨ آذار ١٩٥٦

سويداء

كنّا رفيقين.

أتذكر؟

كنّا نسير معًا إلى النجوم. نسمّيها بألف اسم ونلوّنها بآمالنا وأحلامنا.

في السهل حينًا، وفي الوعر أحيانًا.

كم تعثّرنا وكم تركنا على الطريق من دمائنا!

ولكنّنا كنّا نمشي دائمًا. خفيفين كنّا نمشي، جناحانا الحرمان والشوق، ونسابق الرياح.

ثمّ افترقنا. لم تسأل عنّي ولم أسأل عنك. قذفت بنا الرياح كلًّا في ناحية.

وها أنت تعود، ضاحكًا كما عهدتك. وتمدّ يدك إليّ لنستأنف الطريق معًا.

لا! لا! أيّها الصديق. أنا باقٍ هنا. ألا ترى القيود في رجليّ والسلاسل حول عنقي؟ تسألني من أين؟ من النجوم نفسها. حطام من تلك النجوم البعيدة التي كنّا نسعى إليها. آمال وأحلام تحقّقت لي. شأني معها شأن الأشجار الاستوائيّة ترتدّ أغصانها جذوعًا إلى الأرض وتحبك من نفسها لنفسها سجنًا.

ليس بنفسي أن أعود إلى مسابقة الرياح، ولو أردت لما استطعت.

أنت ما تزال خفيفًا بحرمانك وشوقك. ويثقلني ملل ما حصلتُ عليه وتخمه، ولو كان أقلّ من القليل...

بالله عليك، لا تسمِّ لي نجومًا جديدة!

١ أيلول ١٩٥٩

وجدنا نفوسنا

في حفلة الفنّ الشعبيّ اللبنانيّ – التي أُقيمت في بعلبكّ أربع مرّات ومرّة خامسة إضافيّة تلبية لرغبة الجمهور – لاحظتُ كما لاحظ غيري من دون شكّ أنّ التصفيق كان قليلاً، وكذلك الهتاف.

ذلك أنّنا كنّا كلّنا تحت تأثير غريب، فريد، جديد علينا. هو أعمق من الطرب وأكثر من الحماسة. هو الدهشة التي تسيطر على مكتشف الآثار إذا لقي كنزًا، والتي تغمر كيان الأمّ عندما تشاهد مولودها الطالع وتسمع صوته.

أصحيح أنّ هذا الغناء لنا؟ وهذا الرقص؟ وهذه الألوان؟ وهذه الأطياف والأصداء السحريّة التي تملأ روعة المكان وجلال الليل؟ وهذه الوجوه التي تطلّ من الماضي، على شرفة البيت العابقة بالحبق، على درب العين، في الحقل، في الكرم، في ساحة الضيعة إلخ؟

وجوه حبيبة نعرفها، كانت غائبة عنّا وها هي تعود إلينا... هي وجوه آبائنا وجدودنا. هي نحن.

تلك هي عبقريّة حفلة الفنّ الشعبيّ اللبنانيّ التي كنّا جميعًا تحت وقعها، وهو ما يزال يتردّد فينا، وسيبقى. لقد صرّح الوزير ريمون إدّه، بعد حضور الحفلة، أنّه سيطلب اعتمادًا يخصّص لطواف الفرقة على اللبنانيّين في العالم.

فلتذهب الفرقة ولتبشّر في الأرض: أنّنا وجدنا نفوسنا.

٢ أيلول ١٩٥٩

المليونير الزاهد

نشرت صحف العالم ، بكثير من الدهشة ، خبر المليونير الايطاليّ السنيور أنطونيو بولاسترو الذي ترك قصره وملايينه ليذهب إلى الحقل ويعيش في كوخ.

أقول بكثير من الدهشة ، لأنّ الناس لا يفهمون كيف يكون الإنسان غنيًّا ويحبّ الفقر ، صاحب جاه ويفضّل الضعة ، قادرًا على أن يأكل بملعقة من ذهب فيرميها ليأكل بأصابعه.

حتّى أولاد السنيور أنطونيو لم يفهموه واعتبروا عمله ماسًّا بكرامتهم وسمعتهم في الهيئة الاجتماعيّة ، فحملوا والدهم بالقوّة إلى القصر وأعطوه دوشًا باردًا – كما تقول الصحف – رجاء أن يشفى ، ولكنّه انتفض كما تنتفض الدجاجة ، ولمّا جفّ الماء عنه عاد إلى كوخه.

قد يكون الرجل مجنونًا. قد يكون فيلسوفًا ، لا فرق. إنّه – في الحالتين – يعبّر أحسن تعبير عن طبيعة هذا الذي حارت البريّة فيه وحار في نفسه : الإنسان.

يعتقد الإنسان أنّ سعادته في الغنى ، أو في الحبّ ، أو في المجد ، فإذا حصل عليها وجد أنّه يقبض الريح. فلا الغنى يملأ فراغ نفسه ، ولا الحبّ ولا المجد ، ولا أيّ شيء في هذه الدنيا.

إنّ فضيلة السنيور أنطونيو أنّه لم يشأ أن يكمل الطريق ، لأنّه عرف نهايتها من بدايتها ، فعاد وكأنّه يردّد المثل : «نصف الطريق ولا كلّها».

تُرى ، من هم المجانين حقًّا – أو الفلاسفة حقًّا – الماضون حتّى النهاية؟ أم الراجعون إلى البداية؟...

٢٣ أيلول ١٩٥٩

نحن والطبيعة

في أثناء تقليبي لكتاب عن سويسرا عثرت على فصل خاصّ بالجمعيّات ، منها «جمعيّة الربيع».

عندما يوشك الربيع أن يطلّ تكون مهمّة العضو في هذه الجمعيّة أن يفيق كلّ صباح مبكرًا ويطوف في حدائق المدينة أو القرية – قبل الذهاب إلى جامعته أو مقرّ عمله – باحثًا عن أوّل برعم تفتّق في أيّ شجرة أو زهرة. فإذا وجده هرول إلى مركز الجمعيّة وكتب في سجلّها : «إنّ الربيع قد جاء هذه السنة في اليوم الفلانيّ.» ثمّ يضع إمضاءه.

ويقف الكاتب من وصف الجمعيّة عند هذا الحدّ ، ولا يضيف إلّا أنّ عمرها في سويسرا تجاوز الخمسة قرون. يعني أنّ أعمال الجمعيّة تقتصر على هذا : السباق على مدى أيّام – أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في العام منذ خمسمائة عام – بحثًا عن الزهرة الأولى ، أو الثمرة الأولى التي فتحت أجفانها من الظلمة إلى النور. والفائز في النتيجة هو المبشّر بالربيع ، باللون والعطر ، والخير والبركة. هو المبشّر بأنّ الطبيعة صدقت وعدها وبأنّ الحياة تغلّبت على الموت ، وبأنّ الله عاد إلى وصل ما انقطع من مراحمه...

جمعيّة الربيع ،

ليتني كنت عضوًا من أعضائك! إذًا لأحرقت كلّ ما نظمت في زماني من شعر ، وصنّفت من فلسفة. أليس كلّ الفلسفة وكلّ الشعر تحت أقدام صبيّ وصبيّة يتراكضان مع الفجر لملاقاة الربيع؟

٣١ كانون الثاني ١٩٦٠

عظمة العظماء

شهدت أمس أحد العظماء يفقد عظَمته.

لقد كفى أن يترجّل من سيّارته وأن تزلّ به القدم فيقع بطوله على الشارع فيضحك منه من ضحك، ويرثي له من رثى، ويتردّد لإسعافه من تردّد... ولكنّ الجميع – في قرارة نفوسهم – قد غمرتهم غبطة نادرة، مجّانيّة، نزلت عليهم من السماء.

تسألني: من هو هذا العظيم؟ كأنّك تريد البلوغ بشماتتك الغاية. لن أبوح لك باسمه. اِفرض أنّه الإسكندر المقدونيّ، أو أبو الطيّب المتنبّي، أو أنشتَين هذا الزمان... أو أكثر... وطبعًا أقلّ.

الأمر لا يفيد.

المهمّ أنّ العظَمة قد فارقت صاحبها المسكين في تلك الفترة بالذات، ولن تعود إليه إلّا بعد أن يخرج من الحمّام...

هذا في نظر الناس الذين شاهدوه. وربّما – وهذا هو الراجح – في نظر نفسه أيضًا. وهنا المأساة المهزلة.

لذلك يحيط العظماء أنفسهم وأعمالهم، وخصوصًا السياسيّين، بستار برّاق يخفيها عن الناس أو يبهر عيونهم. والناس يحبّون، أكثر ما يحبّون، رؤية العظماء عارين – رؤية عوراتهم – يدفعون أيّ ثمن لتمزيق ذلك الستار. يريدون أن يعرفوا هل جاع أولئك العظماء مثلاً؟ وهل بكوا؟ وهل خافوا؟ وهل وقعوا في الوحل؟...

وتراهم أشدّ ما يكونون ارتياحًا إذا اكتشفوا في العظيم نقصًا، أو عثروا على خطأ. كأنّما هم يقولون له في وجهه:

– لست – إذًا – من غير طينتنا!

٥ شباط ١٩٦٠

تبارك الألم

لعلّك مثلي، إذا وخزتك شوكة أو أصابك زكام، أقمت حواليك الدنيا وأقعدتها. ولعلّك هتفت مثلي، في ساعات اللاوعي: يا الله لِمَ خلقت الألم؟

ولكن، هل جاءك خبر الفتاة الإنكليزيّة العجيبة أنجلا التي لا تحسّ بما نسمّيه ألمًا أو وجعًا؟

أنت تقول: أنجلا نموذج لشعبها المعروف بالتجلّد. ولكنّ الأمر ليس مجازًا بل هو الواقع. فقد حبا الله هذه الفتاة، وهي اليوم ابنة ١٤ سنة، أربع حواسّ ونسي أو تناسى الخامسة.

لقد جرحت أنجلا يديها مرارًا، وكسرت ساقيها، وفكشت أصابعها العشر، وأحرقت وجهها، وقطعت أذنيها، وأخيرًا قصّت لسانها... ولم تشعر بشيء.

إنّ هذه الفتاة تشكّل معضلة طبّيّة فذّة لم يستطع الاختصاصيّون تفسيرها، وهم ينتظرون لهذه المخلوقة موتًا محتّمًا في العاجل، لأنّها تلهو في تحطيم نفسها كما يلهو الطفل في تحطيم لعبة من لعبه.

قُل معي: الحمد لله! الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه. مكروه الألم والتعب، والجوع والعطش، والحزن والهمّ. وعلى أنّنا نحسّ هذه المكاره بملء جوارحنا. وإلّا فكيف نشعر بأضدادها غبطة وراحة، وشبعًا وريًّا، وكسلًا وتثاؤبًا؟...

مع هذا التحفّظ، طبعًا، أن تكون عطاياك يا الله بميزان. يعني لا أيّوب التوراة، مثلًا، ولا أنجلا الإنكليزيّة. ولكن بَين بَين...

وبعد ذلك، إذا شكونا لا تسمع لنا. فنحن أولاد مدلّلون!

٧ شباط ١٩٦٠

أمام المشانق

كلّما علّقوا أحدًا على المشنقة أحسّ باختناق يرافقني أيّامًا. وقد أتلمّس عنقي مرّات.

أعرف أنّك لا تحبّ مشهد المشانق، وتكره الحديث عن المحكوم عليهم بالإعدام. وأنا مثلك. ولكنّنا – كلانا – نبحث، بالرغم منّا، عن ذلك. نريد أن نعرف كيف تبلّغ المحكوم عليه الحكم؟ وماذا قال؟ وما كانت رغبته الأخيرة قبل أن يفارق الحياة؟ وهل كان جريئًا أو جبانًا؟ هل صلّى إلى ربّه واستغفر، أو جدّف وكفر؟ هل اضطرّ الجلّاد إلى شدّه من قدميه، أو فاضت روحه طوعًا؟ وفي أيّ مدى من الوقت؟...

تُرى، ما الذي يدفعنا إلى هذا الاهتمام؟ وأيّ خيط سحريّ يربط بيننا، نحن الأبرياء، وبين المجرمين المعلّقين على المشانق؟

يلوح لي أنّه خيط الحياة الذي ينتظم الناس أجمعين. إذا انقطع بأحدهم أحدث انقطاعه اضطرابًا من الطرف إلى الطرف الآخر.

واضطراب هذا الخيط يكون أعظم ما يكون عند نصب المشانق للمجرمين، لأنّه ينفذ إلى وجداننا حيث ترسب جرائمنا المكبوتة التي لا تعدّ ولا توصف. الجرائم التي منعنا تهذيبنا الاجتماعيّ، أو خوفنا من القوانين، أو مجرّد العجز أو الجبن عن التعبير عنها بالسكّين أو المسدّس.

فنحن، في قرارة نفوسنا، نتذوّق مع المحكوم عليهم بالإعدام، أو نشهدهم يتذوّقون عنّا، شيئًا من العقاب الذي نستحقّه.

١٣ شباط ١٩٦٠

قطار الحياة

ليس من الضروريّ أن يتعلّم المرء أوزان الخليل وقوافيه لكي يكون شاعرًا.

في بلدة بامبرغ الألمانيّة منع مدير محطّة السكّة قطار شحن من التحرّك من مكانه بعد أن تمّ ملؤه بالبضاعة لأنّ عصفورًا وعصفورة بنيا عشّهما في إحدى عجلاته وهما يتعهّدان فيه فراخًا لم يكتمل ريشها بعد. وقد رفض المدير أن يستمع إلى مراجعات رؤسائه واحتجاجات أصحاب البضاعة، وصرّح بأنّ القطار لن يتحرّك حتّى تكبر الفراخ وتطير. وإلّا فسيمرّ القطار على جثّته!

إنّ عشّ العصفور والعصفورة يمثّل في نظر مدير المحطّة قطار الحياة. وقطار الحياة في نظره هو الجدير بالتقدّم. هو الذي يجب أن يسير وأن تُزاح العقبات من وجهه، وأن يُبذل له العون حتّى يبلغ غايته. إنّه قطار مقدّس.

فلتقف الشاحنات حيث هي بما عليها من بضاعة ميتة! ولتفسد هذه البضاعة مهما كانت ثمينة تحت الشموس والأمطار! لتخرس محرّكات الحديد!...

إنّ كائنات جديدة تختلج بالروح... إنّ أجفانًا جديدة تتفتّق للنور... إنّ مناقير جديدة تطلّ لتملأ السماء بالزغردة.

سيقولون عن مدير محطّة بامبرغ: مجنون. وربّما لاقى جزاء جنونه العزل أو الغرامة والسجن.

ولكنّه وأمثاله من المجانين، أو الشعراء، أو الأنبياء هم الخيوط التي يتألّف منها حبل يربط الأرض بالسماء. اللهمّ لا تقطع هذا النسل، لئلّا ينقطع بنا الحبل.

٢٦ شباط ١٩٦٠

تأمّلات جدّ!

مجيء إنسان جديد إلى هذه الدنيا أعجوبة تتكرّر مليون مرّة في اليوم. ولكنّها لا تكتسي رداءها الأرجوانيّ إلّا إذا حدثت في بيتك.

بأعجوبة جديدة صرت أمس جدًّا للمرّة الثانية: صبيّ!

والمرّة الأولى كانت بنت... أخت هذا الصغير الذي أطلّ علينا أمس. أجمل ملائكة الله وألطفها. وأنا أعبدها عبادة.

المهمّ أنّني صرت جدًّا مرّتين. على سبيل التأكيد!

وأن تكون جدًّا ليس بالأمر الهيّن. إنّه فنّ عظيم. ألم تقرأ ديوان ڤيكتور هوغو حامل هذا العنوان؟ أنا قرأته عندما كنت تلميذًا، حفيدًا لجدّي الذي لم يقرأه قطّ، ولم يسمع به ولا بصاحبه. ومع ذلك يخيَّل إليّ أنّه كان يتقن هذا الفنّ أيّما إتقان خصوصًا عندما كان يُركبني على ظهره ويصيح بي أن أسوقه من أوّل البيت إلى آخره.

كيف صرت جدًّا... ومرّتين؟... لا أدري. عقلي يقول لي: أنت على عتبة الشيخوخة. يعني أنّني ودّعت الكهولة أو أكاد. أمّا الشباب فأصبح خبرًا لكان منذ زمان. ولكنّ العقل كذّاب، وأنا، والحمد لله، لا أصدّق شيئًا مما يكرزه عليّ. فأنا طفل وأريد أن أظلّ طفلًا، لا لشيء إلّا لألاعب أحفادي.

تباركت الحياة! لا تعطيني إيّاهم إلّا وتعطيني معهم الحبّ والحنان. الحياة وحدها تعطي عطاياها، وفوقها حبّة مسك.

وعلى ذكر المسك، بربّك هل تشمّمتَ الأحفاد الصغار؟...

٧ نيسان ١٩٦٠

لو استرحنا قليلًا!...

أمس قضيت نهاري كلّه مع الأرض، في ناحية من الجبل لي فيها بيت بنيته بعرق الجبين منذ عشرين ونيّف من السنين، أو بالحري شرعت في بنائه وما أزال أبني فيه ولمّا يكتمل، وما أظنّه مكتملًا أبدًا.

يُخيَّل إليّ أنّه في ريعان الشباب، وأنا على أبواب الشيخوخة. أنظر إليه فأنظر إلى مداميك عمري.

وحول البيت كرم عتيق، وحرج يرعاه ربّه ينقب الفعَلة في هذا الربيع جلًّا من جلاله تنبت فيه أزهار برّيّة من كلّ لون، وأعشاب أليفة تتوالد منذ كان، لا أعرف لها اسمًا. إلّا الصعتر، أبا الأوراق المخمليّة الخضراء والرائحة التي تشقّ القلب، على تعبير الضيعة.

والصعتر أنا أحبّه. أهملت زادي المدنيّ وطفت أقطف منه. فلمّا حان وقت الغداء تربّعت على الأرض مع الفعَلة، في فيء الحيط، إلى جانب إبريقهم الذي لا يفارق الزاوية.

هذه المائدة على التراب النديّ، بين الفعَلة يغمسون خبزهم في عرق العافية، وفي شمس الجبل وهوائه، أين منها الموائد المتأنّقة المترمّتة في القصور؟ ويشهد الله أنّني كلّما جلست إلى واحدة منها فكأنّما أنا أجلس على كرسيّ إعدام، أو في قفص اتّهام، على الأقلّ...

ترى، لماذا يسعى الإنسان وراء الحضارة، ويتهالك على الترف هذا التهالك؟

لا أريد أن أوقف الزمان. معاذ الله! إنّه يمشي بنا. إنّه يركض ركضًا. ولكن، إلى أين، وعلامَ هذا اللهاث؟ لو مسحنا عرقنا واسترحنا قليلًا في النيء على الأرض الطيّبة!

١٦ نيسان ١٩٦٠

يا ريت لي قلبين!

«يا ريت لي قلبين قلب بعيش فيه
وقلب تاني بِهواك بعذّبو!»

تذكّرت هذا البيت من الزجل لرشيد نخله لدى قراءتي خبر الآنسة كارميلا دي فاليس، الفتاة الباريسيّة ذات القلبين.

تقول البرقيّات إنّ الأطبّاء نقلوها إلى المستشفى.

لماذا، يا تُرى؟ ألِفحص وظيفة كلّ قلب من القلبين؟ من يدري؟ ربّما كانت كارميلا تعيش بقلب، وتعذّب القلب الآخر. وربّما كانت تعذّب القلب رقم ١ بهوى، والقلب رقم ٢ بهوى، وتعيش بلا قلب؟... حرّة. فعلام يتدخّل الأطبّاء بما لا يعنيهم؟

كلّ شيء ولا يخطر ببالهم أن يستأصلوا أحد القلبين. فظاعة! تصوّر أن تكون الآنسة قد خصّصت القلب الذي يقع عليه السكّين لمخلوق تفديه — من جملة ما تفديه به — بقلبها؟ تصوّره مطروحًا بمن فيه في سلّة المهملات التي تعبث فيها القطط في الليل...

حبّذا لو سألوا كارميلا قبل العمليّة: أيّ قلبيك تفضّلين الاستغناء عنه؟ فقد تفضّل الفتاة الاستغناء عن هذا دون ذاك من قلبيها لاعتبارات وجيهة. ترمي الملآن منهما بالهموم والأحزان مثلاً، وتحتفظ بالخالي المعافى... أو بالعكس إذا شاءت. إذ ما الفائدة من قلب لم يعرف الألم؟ إنّه إذًا ليس بقلب.

الخلاصة أنّ قلبي على الآنسة كارميلا فاليس ذات القلبين. ترفّقوا بها أيّها الأطبّاء. أتركوها وشأنها. إنّ قلبين اثنين أقلّ ما يكفي المرأة في أيّ بقعة من الدنيا، فكيف في باريس؟

٣٠ نيسان ١٩٦٠

في الشباب والشيخوخة

وقفت أنظر إليه يمشي... هل كان يمشي؟ هل كان يطير؟ قدماه تطأان الأرض وكأنّهما جناحان.

يلتفت ولكنّه لا يرى. تمرّ نظراته فوق الناس والأشياء كأنّما هو يدوسهم ويدوسها. أستغفر الله! أنا لم ألحظ عليه شيئًا من الكبرياء ولا من الرغبة في إهانة مخلوق أو الاستخفاف به. بل العكس. لقد اعتذر من امرأة مسّتها كتفه بين الحشد اعتذارًا كلّه لين وكلّه لطف.

من هو؟ إلى أين يقصد؟ بماذا يفكّر؟

لست أدري ولا يهمّني أن أدري.

من الأشخاص من يكونون لحمًا ودمًا. تجّارًا وصنّاعًا، محامين وأطبّاء، ملوكًا وحمّالين... بيضًا أو سودًا أو صفرًا. ولكنّ منهم من يتجرّدون — في نظري — عن أيّ صفة.

لقد رأيت في هذا الفتى المجهول صورة الشباب. الشباب في ثوب اللحم والدم، لا اسم له ولا نسب ولا عمل معيّن. إنّه الشباب وحسب. إنّه القوّة والاندفاع، والثقة والطموح، والرغبة تملأ العين والنفس.

ولبثت واقفًا على الرصيف مكاني مأخوذًا بما مرّ أمامي وتوارى... وأتساءل عن الفرق بين الشباب والشيخوخة.

الجواب تحت قدمَي ذلك الفتى الذي كان يمشي وكأنّ الدنيا مُلكه من القطب إلى القطب. أجل، إنّ عظَمتنا في الشباب أنّنا نملك الدنيا. وحقارتنا في الشيخوخة أنّنا لا نملك من هذه الدنيا إلّا ما حصلنا عليه... وما أقلّه!

٤ أيار ١٩٦٠

كأس البلاهة

من الناس مَن يعيشون حياتهم في عمل معيّن ، في زاوية ذات سياج ، يرتضون بها ولا يتطلّعون إلى سواها. هؤلاء هم الأكثريّة الساحقة.

أمّا علي خان فقد كان أكره شيء لديه أن يهدأ في مكان ، أو يركن إلى عمل ، أو يحبس فكره أو قلبه في قفص.

لقد أعطته الحياة بدون حساب : النبل والثراء ، والشباب والجمال. فقال لها : لست أكرم منّي. وراح يلبّيها : المرح ، الرياضة ، الحبّ ، السياسه ، إلخ. وعرف أنّها ماكرة ، فبادلها مكرًا بمكر. وكان حريصًا دائمًا أن يصبغ وقارها بالابتسام ، ويلقي على عبثها ظلّ وقاره.

مرّ ذات يوم أمام سيرك للألعاب ، فشاهد الأطفال يتسابقون على أحصنة خشبيّة. الكهل الذي أشرف على الخمسين ، الأمير ابن الأمير ، والسفير الخطير ، صاحب أكبر إصطبلات للخيل في العالم ، شاقه أن يشارك الأطفال ألعابهم ، فنزل إليهم وركب فرسًا من أفراسهم وظلّ يدور معهم في السيرك ساعة... هرع بعدها إلى الأمم المتّحدة ، بوصفه مندوب باكستان الدائم فيها ، يخطب في أمور يتوقّف عليها السلم والحرب بين بلاده والهند... وبعدها بادر الدرج ، فنزله قفزًا ليلاقي ، أمام سيّارته الواقفة بالباب ، الحسناء التي كانت في انتظاره للقيام بمغامرة جديدة.

كيف يجوز للحياة التي أحبّها علي خان هذا الحبّ أن تسلمه إلى الموت هكذا في حادث سيّارة؟

أجل ، إنّ مكرها هو الأعظم. لقد خُيّل إليه أنّه عاشها بذكاء فإذا بها تذيقه البلاهة كأسًا طافحة.

١٥ أيار ١٩٦٠

المحسن المجهول

من أصل التبرّعات التي جاد بها أهل النخوة لمعالجة طفل معاق مبلغ خمسة آلاف ليرة قدّمها محسن حرص على أن يبقى اسمه طيّ الكتمان.

المحسن المجهول أعظم فضلًا – في نظري – من الجنديّ المجهول ، لاقتران عمله بسابق التصوّر والتصميم. لقد كتم الرجل اسمه قصدًا. غطّى الشيء الذي يُعرف به بين الناس ، وأخرس أحبّ الأصوات إليه وألصقها بشغاف قلبه.

كانت مكرمته اثنتين : الأولى تنازله عن ماله ، والثانية تنازله عن ذاته.

وإذا كان التنازل عن المال كرمًا فالتنازل عن الذات بطولة بكلّ ما في الكلمة من شجاعة ، وكلّ ما فيها من نبل. فن المحسنين من يحسنون ليُقال إنّهم أحسنوا. هؤلاء هم الكثرة الساحقة. وقلّة يحسنون ويجدون في الإحسان متعة ، ولكنّهم يجدون المتعة أيضًا في أن يقال إنّهم أحسنوا. وهؤلاء يعطون باليمين ويأخذون بالشمال. وربّما أخذوا من الصيت والجاه أضعاف ما أعطوا من مال الدنيا ومتاعها. بشر هم ، لا يُلامون ، بل يستحقّون بالعكس كلّ شكر.

أمّا تلك الأيدي التي تنتهز غفلة المريض لتضع أمامه الدواء الذي عجز عن دفع ثمنه ، وتنتظر غياب الفقير عن بيته لتدسّ له الرغيف من النافذة ، وترتدي الليل قفّازًا لتلقي على بابك باقة من الأزهار... أمّا هذه الأيدي الناعمة ، الحييّة ، فإنّها موصولة – لا شكّ – بيد الله.

أيّها المحسن المجهول ، زاهد أنت بالشكر. لذلك لا أقول لك شكرًا ولكنّي أدلّ عليك وأهتف : شكرًا لله!

١٧ أيار ١٩٦٠

العواطف الملوّنة

نظريّة جديدة في إطالة العمر طلع بها الدكتور ڤيكتور روشه، وهو اختصاصيّ فرنسيّ بأمراض الجلد. أمّا كيف قفز من الجلد، أو بالحريّ كيف نفذ منه إلى القلب فأمر لا يوضحه لنا، ولكنّه يقول:

«عواطف الإنسان تنقسم إلى قسمين: زرقاء وحمراء. الأولى تطيل العمر، والثانية تقصّره.

«الحبّ، الحنان، الكرم، الشجاعة: عواطف زرقاء. الحسد، البغض، الغضب، الطمع: عواطف حمراء.

«إذًا، أكثروا ما استطعتم – يقول الدكتور روشه – من العواطف الزرقاء واجتنبوا العواطف الحمراء، إذا كنتم تريدون أن تحتفظوا بشباب دائم.»

ولكن، ما هو الجديد في هذه النظريّة؟ قبل أن يعتنقها الطبّ، أو العلم، أو... الشعر، نادت بها الأديان السماويّة والتعاليم الأخلاقيّة في كلّ عصر ومصر. ولعلّ جدّتها تنحصر في تقسيم العواطف إلى زرقاء وحمراء.

كيف يُثبت لنا الدكتور المحترم أن ليس هناك عواطف سوداء مثلًا، وأخرى بيضاء؟ ولماذا لم يختر هذين اللونين – الأبيض والأسود – وهما أدلّ على ما يريد؟ ألسنا نقول في أحاديثنا اليوميّة: فلان قلبه أسود، وفلان قلبه أبيض؟

أزرق أو أحمر، أبيض أو أسود، أصفر أو أخضر... لا فرق. المهمّ أن يضع الدكتور روشه تحت تصرّفنا الفرشاة التي نستطيع أن ندهن بها عواطفنا حسب الطلب... ويدلّنا على الدكّان الذي يبيع البويا!

٢٠ أيار ١٩٦٠

الحياة والموت

أفكّر بذلك الشابّ المغربيّ مصطفى هدري – ٢٤ سنة – الذي مات أمس في تطوان.

قبل اثنتي عشرة سنة سقط مصطفى، وكان تلميذًا، في امتحاناته المدرسيّة. وكأنّه سقط في امتحان الحياة.

أعلن لأهله أنّه سيموت في السنة الفلانيّة اليوم الفلانيّ الساعة كذا وكذا. ثمّ قبع في غرفته يصلّي ولم يخرج منها إلّا في الموعد المضروب فنادى أهله وتمدّد على سريره وقال:

– كلّ ما أطلب منكم أن لا تبكوا عليّ.

ثمّ أغمض عينيه وأسلم الروح.

في هذا الحادث أكثر من غرابة. الأولى اليأس في أعقاب خيبة هي السقوط في الامتحانات. والحياة ملأى بالصدمات والخيبات... ولكن هذا الأمر يهون أمام الأمر الآخر: أن يعرف مصطفى قبل اثنتي عشرة سنة الوقت الذي يموت فيه باليوم والساعة، ويعيش – ميتًا – طوال هذه المدّة.

كلّنا غلّة الموت. هذا صحيح. ولكنّ سحر الحياة يقوم على جهلنا موعد الحصاد متى يكون. تصوّر أنّ كلًّا منّا يعرف أنّه سيموت في التاريخ الفلانيّ، إذًا لبَطل معنى الحياة ووقف دولابها عن الدوران.

عظَمة الإنسان، وقيمته، وجوهره، في أنّه يحيا للحياة لا للموت، للبناء لا للخراب، للبقاء لا للفناء. وفي الحديث الشريف: «اِعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدًا.»

والعملان لا ينفصلان، وإلّا ضاعا معًا وذهبا في الهواء.

٢٤ أيار ١٩٦٠

في العيد

لي صديق هو عنوان الجدّ والوقار. هكذا كنت أعرفه منذ سنين. ولكنّه تكشّف لي خلال هذا العيد عن رجل آخر.

كان المجلس مجلس حرّيّة ورفع كلفة في الهواء الطلق.

وكان عنصر الأطفال هو الغالب. وشدّ ما كانت دهشتنا جميعًا عندما رأينا الصديق الوقور يترك وقاره ويشارك الأطفال ألعابهم وصياحهم ومعاركهم، ويدور في دنياهم ساعتين كاملتين، ولا يتركهم إلّا تأدّبًا عندما أرسلت ربّة البيت في طلبه لتناول القهوة.

سألته في ذلك فقال:

– للأعياد معانٍ يدركها الأطفال وحدهم. في قواميس اللغة شروح جافّة وألفاظ مرصوفة. وفي رؤوس الكبار صور فيها انحراف وفيها تشويه. الأعياد هي وجه الحياة السافر، العاري من كلّ برقع. شعورها الدافق المنطلق إلى غير حدود. الاستسلام إلى غبطة الوجود مجرّدًا عن كلّ تبعة وكلّ اعتبار أيًّا كان. لذلك قيل: الأعياد للأولاد. الرجال غير قادرين على ما يقدر عليه الأولاد. وشقاؤهم كلّه في هذا.

وجاء الخادم فقال للصديق إنّ فلانًا يطلبه على التلفون لأمرٍ هامّ. فضرب بكفّه وقال:

– قُل له فلان غير موجود.

ثمّ عاد إليّ بوجهه وأستأنف:

– أمر هامّ! أمر هامّ! أيّ أمر هامّ في العيد يمكن أن يكون أهمّ من العيد؟

٧ حزيران ١٩٦٠

بين طول الحياة وعرضها

أعرف كثيرًا من السكّيرين الذين يعربدون طوال الليل، والمقامرين الذين يسهرون حتّى الفجر، وأسمع بعض أهلهم وأصدقائهم ينصحونهم بالاعتدال فيجيبون: العمر؟ نترك لكم طوله، ونأخذه نحن بالعرض.

تذكّرت هذا «القول المأثور» لدى قراءتي خبر الطبيب الأميركيّ طوم دوليه. لقد خدم هذا الطبيب في اللاوس وتبيّن له أنّ البلاد المذكورة في حاجة إلى مستشفيات، فنذر نفسه لجمع التبرّعات حتّى وُفّق إلى بناء مستشفًى.

ثمّ تبيّن له أنّ الحاجة ملحّة إلى مستشفًى آخر. فاستأنف طوافه بأهل البرّ. وفجأة شعر بالتعب فرزح. فاجتمع زملاؤه الأطبّاء وقرّروا أنّه مصاب بالسرطان وأنّ هذا المرض الخبيث لن يمهله إلّا سنة. فصاح بهم: «سنة فقط! إذًا عليّ أن أضاعف جهودي، وأعمل في هذه السنة ما كنت أعتقد أنّ أمامي سنين لعمله.»

وقام من فوره وأردف قوله: «هذا من حظّ مرضى اللاوس. سيكون لهم مستشفاهم الثاني بأسرع ممّا كانوا يتوقّعون.»

هذا المفهوم لعرض الحياة يختلف عن مفهوم أصحابي السكّيرين والمقامرين وأضرابهم... فالدكتور طوم دوليه في الثانية والثلاثين من عمره. وسيموت – إن صحّ الصحيح – في الثالثة والثلاثين.

ولكنّه لا يعدّ عمره بالسنين، بل بما يعبّئ به هذا العمر من أعمال مفيدة، وآثار باقية.

٢٥ حزيران ١٩٦٠

قيصر الجميّل

حين تُوفّي قيصر الجميّل ظهرت فكرة جميلة لدى عارفي فنّه، هي تحويل بيته إلى متحف تُعرض فيه رسومه وآثاره ويكون محجّة للزائرين.

نحن، تحت هذه السماء، ليس أقدر منّا على بذر الأفكار الجميلة. ولكنّنا، يا للأسف، نلقيها مع الريح، ولا نلتفت أين تقع، ولا نسأل.

بيت قيصر الجميّل في ضيعته عين التفّاحة، هل تعرفه؟ إنّه، بحدّ ذاته، لوحة من لوحاته بل لعلّه أروعها جميعًا. إذا كنت لا تعرفه، إذا كنت لم تفتح صدرك لرياح قمّته الشمّاء، وعينيك لرهبة واديه المملوء بالأطياف والأسرار... إذا كنت لم تتفيّأ ظلال الأشجار التي زرعها قيصر الجميّل بيده، ولم تداعب أثمارها كما داعبها هو... إذا كنت لم تحنُ على الورود التي فرش بها طريقه وتتحدّث إليها كما كان يحدّثها هو صباح مساء... إذا كنت لا تعرف هذه الدنيا التي أبدعها لنفسه – بعيدًا عن دنيا الناس – ليعيش ويعمل فيها، ويموت ويُدفن فيها، فأنت لا تعرف عن قيصر الجميّل إلّا اسمه.

أقول ذلك بمناسبة العدد الخاصّ الذي أصدرته مجلّة «الحكمة» عن قيصر الجميّل. وقد كان، رحمه الله، كاتبًا في أوقاته. وأحبّت المجلّة أن تقدّم نموذجًا من كتاباته، فأعادت نشر مقال له في موضوع الجمال استهلّه بقوله: «سُئل أرسطو: ما هو الجمال؟ فأجاب: إطرحوا هذا السؤال على العميان.»

وأنا بدوري، أستعير هذا القول وأسأل:

«أين صارت فكرة تحويل بيت قيصر الجميّل إلى متحف؟»

آملًا أن لا أكون قد طرحت هذا السؤال على طرشان!

٧ تموز ١٩٦٠

فلسفة الحياة

ذلك الإنكليزيّ الذي طالعت خبره، وشاهدت صورته مطلًّا على شفير الانتحار، هو فيلسوف دون أن يعلم.

كلّ الناس يخطر لهم الانتحار ولو مرّة في العمر. والأسباب أكثر من أن تُحصى، وكلّها وجيه في نظر اليائسين الذين يفلتون الحبل من أيديهم.

هو حبل الحياة. تجرّنا به إلى مقاصدها المجهولة، ثمّ تقف بنا دون هذه المقاصد وتحرن: إلى هنا وبس! المهمّ أن لا نفلت نحن الحبل أو نقطعه.

وقد بدأ صاحبنا الإنكليزيّ بأن أرخى يديه، وهمّ بأن يلقي نفسه من السطح. ثمّ فطن فجأة إلى أنّ الساعة قد دقّت الخامسة – ساعة الشاي المقدّسة عند الإنكليز – فرجع القهقرى وصاح بالخادم أن يأتيه بالشاي قبل أن يبرد!

وقد فرجها الله. فبعد الشاي انتعشت نفس الرجل وعدل عن الانتحار.

للتغلّب على اليأس دواء وحيد: الحركة، العمل، قضاء الواجب. في ساعة الشاي مثلًا اشرب الشاي. في وقت الشغل اشتغل. في وقت اللهو والمرح الهُ وامرح. وإذا لم يكن عندك شيء تعمله ارفع كرسيًّا من مكان إلى مكان، أو احمل سلّمًا – بغير العرض طبعًا – أو ارقص في الغرفة، أو غنِّ في الحمّام!...

جاء كاهن إلى الفيلسوف الفرنسيّ الكافر ڤولتير وطلب منه أن يتوب عن كفره بمناسبة بلوغه الثمانين وقرب اليوم الذي يلاقي فيه ربّه. وكان ڤولتير مشهورًا بانصبابه على العمل. فأشار إلى الكتب والأوراق المكدّسة حواليه وصاح بالكاهن:

– أترى عندي وقتًا لكي أموت، يا محترم؟!...

١٢ تموز ١٩٦٠

الحرّيّة على الميلين

أكثر الناس حديثًا عن الصحّة المريض. وكذلك الشأن مع الحرّيّة.

أتعرف حكاية معمل الكبريت مع تمثال الحرّيّة؟

كان في أميركا صاحب معمل للكبريت. وكان قد صوّر على علب الكبريت التي ينتجها معمله تمثال الحرّيّة على مَيل، وترك المَيل الآخر أبيض. فجاءه يومًا ابن حرام وقال:

– عندي فكرة تضاعف أرباحك لا يكلّف تنفيذها شيئًا ولا أقولها لك إلّا إذا قبلتني شريكًا في النصف.

قال: قُل، فما هي؟

قال: تصوِّر تمثال الحرّيّة على المَيلين من علب الكبريت بدل المَيل الواحد.

وكانت الفكرة شيطانيّة بالفعل. فلمّا وضعها المعمل موضع التنفيذ أُشكل الأمر على الناس فأصبحوا يتناولون العلبة فلا يدرون من أين يفتحونها، من هذا المَيل أم من ذاك، وكلاهما يحمل الصورة نفسها. فإذا فتحوها بالمقلوب تناثرت منها العيدان وذهبت في الغالب ضياعًا. لأنّ التقاطها مجهود لا قِبَل لكلّ واحد به.

وهكذا تضاعفت أرباح المعمل المذكور بمضاعفة الاستهلاك.

الحرّيّة شيء جميل. أجل، ولكنّها مَيل واحد، والمَيل الآخر هو للحذر والاحتياط، للنظام والقانون، وبكلمة واحدة للواجب.

فإذا كانت على المَيلين انقلبت إلى فوضى، تمامًا كما تنقلب عيدان الكبريت في حكاية المعمل الأميركيّ مع تمثال الحرّيّة.

١٢ تموز ١٩٦٠

غالب نفسه

أُتيح لي نهار الأحد الماضي أن أمرّ بصيدا، فإذا هي قائمة قاعدة.

سألت عن هذه الحركة غير العاديّة فقيل لي: إنّ المحافظ السيّد غالب الترك تسلّم البلديّة منذ أيّام وهو يقوم بحملة لتنظيف المدينة مشرفًا على العمل بنفسه. وإنّه افتتح الحملة بأن استدعى إلى مكتبه عمّال التنظيفات، وعددهم نحو سبعين، ليبلّغهم تعليماته.

قال شاهد عيان: «فلمّا دخل العمّال عليه قام عن مكتبه وجعل يدور عليهم ويصافحهم فردًا فردًا مرحّبًا بهم في بيتهم (كذا) وهم لا يصدّقون ما ترى عيونهم وتسمع آذانهم. ووصل الدور إلى أحدهم، وهو شيخ في الستّين قضى حياته زبّالًا منبوذًا محتقرًا، فتملّكه الحياء وأجفل متراجعًا ساحبًا يده كأنّما هو يريد أن يقول إنّها لا تستحقّ أن تمسّ يد المحافظ... فما كان من السيّد غالب الترك إلّا أن شدّه إليه فصافحه باليدين بدل الواحدة، ثمّ ربّت على كتفه وأجلسه بجانبه، فأخذت دموع الشيخ تتساقط على الأرض...»

إنّ كلّ صيدا تتحدّث اليوم بذلك. ويُخيَّل إليّ أنّ أصداء هذا الحديث تتردّد القهقرى خلال تاريخها البعيد، وترنّ في جوانبه رنينًا فيه من المعاني الإنسانيّة ما استطاع ذلك العامل المسكين وحده أن يعبّر عنه في بكائه الصامت.

تذكّرت، لدى سماعي هذه الحكاية، قول سقراط: «من غلب نفسه غلب العالم»... فكيف لا يغلب الكسل والتهامل والتقصير؟

وسألت من فوري عن دار المحافظ. فدلّوني. فررت من تحت الشرفة ورفعت قبّعتي.

٥ آب ١٩٦٠

قصور الأحلام

روت الصحف أنّ الأستاذ عبد الله المشنوق وزير البلديّات والأرياف وقف بعد مأدبة أقامها أحد أصدقائه في برصاف وأخذ يتأمّل المنظر الطبيعيّ الخلّاب المنبسط أمامه.

وبعد قليل التفت إلى من حواليه وقال:

– لمّا كنت شابًّا كنت أقوم برحلات أسبوعيّة مع صديقي الأستاذ محيي الدين النصوليّ في طول لبنان وعرضه، وكلّما وقعت أعيننا على نقطة جميلة قلنا: هنا سنبني بيتنا. وقد بلغ ما اخترناه أكثر من مئة نقطة. ولكن لا أنا ولا هو بنينا شيئًا...

أي إنّ الأستاذين المشنوق والنصوليّ قضيا العمر يبنيان قصورًا في إسبانيا – على حدّ قول المثل الفرنسيّ – والقصور في إسبانيا معناها القصور في الأحلام.

لست أدري ما هي الموانع التي حالت دون الأستاذين المحترمين ودون بناء البيتين اللذين حلما بهما.

هل أعوزهما المال؟ هل شغلتهما السياسة؟

أم هي الحيرة في الاختيار بين نقطة ونقطة؟

أم الخشية على الحلم أن يفسده التحقيق، فخير له أن يبقى حلمًا، وأن يرفرف إلى الأبد من أكمة إلى أكمة؟

كان أحد الفلاسفة يقول: «القصور الوحيدة التي لا عيب فيها هي تلك التي يبنيها أصحابها في الأحلام.»

ورحم الله الشاعر صلاح لبكي القائل:

«أطيبُ ما في الشعرِ أنشودةٌ
تبقى بلا وزنٍ ولا قـافيـه»

٧ تشرين الأول ١٩٦٠

طعم النساء

الكاتب الأميركيّ جون فرانك لا يحبّ المرأة. سألوه لماذا؟ فأجاب:

– لأنّها أتفه شيء في هذه الدنيا. (كذا).

التفه معناه – إذا لم أكن مخطئًا – قلّة الطعم أو عدمه. الشراب التافه، مثلًا، هو الشراب الذي ليس حلوًا ولا حامضًا، ليس مالحًا ولا مرًّا، ليس طيّبًا ولا تستطيع أن تقول عنه غير طيّب.

وإذا كان للرجل أن يشكو شيئًا في المرأة – والله يعلم إذا كان عنده ما يشكوه – فهو يشكو عادة أنّها حلوة كثيرًا حتّى الغنج والدلال، أو مرّة كثيرًا حتّى الحقد والضغينة، أو حامضة كثيرًا حتّى الكيد – «إنّ كيدهنّ عظيم» – أو مالحة كثيرًا... والعياذ بالله! أمّا التفه فتهمة من النوع الفلسفيّ العالي الذي لا يصل إليه إدراك أمثالي من السذّج.

إلّا إذا كان جون فرانك يعني أنّ مستوى المرأة العقليّ دون مستوى الرجل. إذا كان ذلك كذلك فله زملاء كثيرون في الشرق وفي الغرب ما زالوا يصرّون على تفه المرأة بالرغم من ثورة المساواة بينها وبين الرجل، وقد عمّت العالم. تافهة بتفكيرها، وأعمالها، وأقوالها...

ولكن، لا! إنّه يلبط الأرض ويعلن بوجه السماء أنّها أتفه شيء في هذه الدنيا. المسألة إذًا مسألة طعم لا شكّ فيها.

وكلّ الظنّ أنّ صاحبنا لم يذق طعم المرأة، أو أنّه شرب وكسر مزراب العين لُيقال: فلان.

الحمد لله أنّ العين باقية، تسقي الغادين والرائحين ماء عذبًا، ولبنًا وعسلًا... وسمًّا عند اللزوم.

١١ تشرين الأول ١٩٦٠

بماذا تحلم الفتيات

من عجيب أمر الإنكليز أنّهم يجمعون بين النقيضين. فهم الشعب العلميّ رقم ١ والخرافيّ رقم ١ معًا. وهذا ما يميّزهم عن سائر الشعوب.

الخلاصة أنّ الإنكليز يؤمنون بالجانّ. ولديهم جمعيّة تعنى بدراسة شؤون الجانّ واستطلاع أحوالهم. وسكرتيرة الجمعيّة هي الآنسة مرغري جونسون، الدكتورة في العلوم الطبيعيّة.

تقول الدكتورة في كتاب لها عن الجانّ:

«الجانّ مخلوقات من نوع خاصّ، لا هي من الأرواح المجرَّدة ولا هي من ذوات اللحم والدم. والكون مليء بالملايين والمليارات من الجانّ، ولكنّها لا تُرى بالعين ولا تُلمس باليد، وتتجلّى لمن يطيل التفكير فيها ويتمنّى لقاءها، وربّما نامت إلى جانبه على مخدّة واحدة.»

وتضيف: «إنّ الجانّ يتناسلون بكثرة مدهشة. وليس فيهم ذكر ذكر، ولا أنثى أنثى. بل يجمع الواحد منهم الجنسين، فهو ذكر وأنثى معًا.»

وهذا معناه أن لا خناقات بين الرجل والمرأة في عالم الجانّ، ولا مناقشات على الحقوق السياسيّة، ولا جمعيّات للنهضة النسائيّة والحمد لله.

«أمّا الزواج فيتمّ -وكلّه حسب شهادة الآنسة الدكتورة- بقبلة طاهرة على الجبين، مع بعض المداعبات البريئة. ويصير الوضع بلا ألم» إلخ...

للشاعر الفرنسيّ «ألفريد دي موسّه» كتاب مشهور بعنوان: «بماذا تحلم الفتيات؟»

بهذا يا سيّدي، حتّى لو كنّ دكتورات في العلوم.

٢٠ تشرين الأول ١٩٦٠.

كيف نعيش قرونًا

يظهر أنّ إنسان المستقبل سيعيش ثلاثمئة أو أربعمئة سنة! هذا ما يؤكّده الدكتور هانز سلي، مؤسّس معهد الأبحاث الطبّيّة في جامعة مونتريال، حيث تعيش ضمن صندوق خاصّ مجموعة من خلايا الفئران منذ ثلاثين سنة، في حين أنّ عمرها العاديّ لا يزيد عن سنتين.

معنى ذلك أنّ العلم، عندما يتوصّل إلى وقاية خلايا الإنسان بالطريقة التي يقي بها الآن خلايا الفئران، سيصبح بإمكانه أن يمدّ بعمره أضعافًا.

والوقاية -كما يقول الدكتور- هي قبل كلّ شيء في التخلّص من الانفعالات، كالخوف، والغضب، والقلق، والهمّ، والحزن، والغرام الشديد (كذا) إلخ.

الحمد لله أنّ الدكتور المحترم سمح بالغرام الخفيف، ولو أنّه لم يحدّد الفرق الفاصل بين الاثنين. وهذا التحديد كان ضروريًّا في رأيي. فرُبَّ قبلة، مثلًا، بالزايد أو بالناقص تزيد في عمر الإنسان أو تنقص خمسين سنة من أصل المبلغ المرقوم...

بقي على العلم أن يعلّم الإنسان كيف يتخلّص من الخوف والغضب والهمّ وسائر القافلة التي يجرّها وراءه، كما يجرّ الحمار قافلة من البغال أو الجمال... ومعلوم أنّ الوعظ والإرشاد لا ينفعان في ذلك، فهل تنفع الإبر أو الحبوب؟

وعلى فرض نفعها، فما معنى الحياة بدون الانفعالات المشار إليها؟ ليس المهمّ أن تطول الحياة وهي فارغة كالقصبة. المهمّ أن يكون فيها زوم، لا فرق أحلوًا كان أم مرًّا.

٣ تشرين الثاني ١٩٦٠

الخطابة والخطباء

حضرت حفلة خطابيّة في أحد الأندية، فخرجت وأنا على يقين من أنّ الخطابة مرض من أمراضنا تجب معالجته كسائر الأمراض.

كان الموضوع الذي طرقه الجماعة بسيطًا في حدّ ذاته. لو تحدّثوا عنه في سهرة من السهرات، أو في أيّ اجتماع خاصّ، لقالوا أشياء يرضى عنها المنطق وتسوغ في الذوق، ولانتهوا حتمًا إلى نتيجة مفيدة.

أكثرهم – في عرف الناس – من الخطباء المفوّهين، أي من ذوي الأفواه الكبيرة التي تتّسع للكلمات الكبيرة... ما كادوا يعتلون المنبر حتّى أخذوا ينتفخون – وينفخون السامعين – بالمبادئ السامية، والمثل العليا، والوطن المفدّى، والإنسانيّة المعذّبة، وعظماء التاريخ، فضلًا عن الحِكم المأثورة، والأشعار المشهورة، حتّى ضاعوا وضعنا وضاع الموضوع.

واحد فقط، يجهل لحسن الحظّ أصول الخطابة، حكى لنا حوادث صغيرة شهدها بعينيه، وتجارب مرّ بها بنفسه، وأفكارًا خطرت له، وملاحظات تبادلها ورفاقه في العمل والبيت والشارع. هذا الخطيب لم يحظَ بأيّ تصفيق، ولكنّه نفذ بأقواله إلى صميم الموضوع وصميم قلوبنا.

من شروط الخطابة عند الإنكليز أن يتلعثم الخطيب من وقت إلى آخر في كلامه، ومن الأفضل أن يوأوئ. أمّا عندنا فالبراعة كلّ البراعة في رفع الأصوات وتفخيم العبارات.

نعم، مرضى خطباؤنا، مرضى. مصابون بورم الكلام.

٢٠ كانون الأول ١٩٦٠

الفلسفة القديمة

في فصل ممتع قرأته عن اللاوس لم يستوقفني أنّ تماثيل بوذا في تلك البلاد مصنوعة من الذهب بقدر ما استوقفتني أشياء ذهبيّة أخرى، منها فلسفة الحياة التي ما يزال أولئك القوم يحيونها منذ آلاف السنين.

اِحترام من هم أكبر سنًّا. طاعة الملك ورجال السلطة. تقديس الصلات العائليّة. حبّ الجار ونجدته. التعلّق بالبيت والقرية. مشاركة الناس أفراحهم وأتراحهم. المرح الدائم. القيلولة يوميًّا بعد الظهر... الخ.

ماذا يهمّني، أو ماذا يهمّ اللاوسيّين، بعد ذلك، إذا كانت بيوتهم أكواخًا، وشوارعهم ترابًا؟

ماذا يهمّ إذا كانوا يركبون الحمير والبغال بدل البويك والكاديلاك؟

ماذا يهمّ أن يتناولوا الأثمار عن الأشجار بدلًا من أن يتناولوها من الفريجيدير؟

وأيّ بأس إذا جهلوا الاختراعات الذرّيّة، ولم يحلموا باستعمار الكواكب؟

فلسفة الحياة القديمة، القائمة على المحبّة والاحترام، والمروءة والمرح، فلسفة الحياة القديمة التي تنشد الطمأنينة والراحة والهناء كانت هي فلسفتنا نحن أيضًا على ما يحكي الآباء والجدود، وكانت فلسفة العالم كلّه قبل أن تدهمه هذه الحضارة. أمن الضروريّ أن تكون جزية الحضارة على حساب تلك القيم التي ليس للحياة قيمة بدونها ولا معنى؟

إنّني أحلم بحضارة – وراء الذرّة – إذا أوصلتنا إلى المرّيخ، لم تمنعنا من القيلولة اللذيذة بعد الظهر.

٢١ كانون الأول ١٩٦٠

الأقلام السيوف

رحم الله أسعد عقل. إنّ الصحافة تودّع بتوديعه جيلًا من أبنائها.

أُتيح لي أن ألحق بذلك الجيل وأن أعمل إلى جانب أسعد عقل في جريدته «البيرق» فترة من الزمن. كانت الصحافة إذ ذاك – حوالى ١٩٣٠ – قلمًا يُغمس في الدم بكلّ معانيه.

من تلك المعاني الكريمة أنّه، أي القلم، كان أخًا للسيف بل بديلًا عنه. ولم يكن لنا في لبنان ولا في أيّ بلد عربيّ آخر سيوف غير الأقلام.

من يكتب لنا يومًا ملحمة هذه الأقلام؟ من يؤرّخ للأجيال جهادها؟

الصحافة من حيث هي صناعة؟ كلّا، ليست الصحافة ولا تقدّمها وانتشارها هي التي تهمّني بقدر ما يهمّني الاستقلال الذي حصلنا عليه، والحرّيّات التي بها ننعم، والحقوق التي نمتلكها ونلوّح بها بوجه الشمس.

هذه الأشياء كلّها جاءت على حدّ تلك الأقلام السيوف. وكان حاملوها أبطالًا بالفعل. وكانوا وحدهم في الميدان أمام العدوّ الشاكي بألف سلاح وسلاح. ولكنّه لم يستطع قهرهم.

أسعد عقل كان واحدًا من أولئك الأبطال.

إنّه يلاقي ربّه لاحقًا بهم. وعزاؤه أنّه أغمض عينيه على تحقيق الكثير من أحلامه، وحسبه منها – كما قال لي قبل أيّام – أنّه يموت في وطن حرّ.

على صحافيّي هذه الأيّام –وقد استحالت فيها الصحافة إلى صناعة – أن يتذكّروا من حين إلى آخر أنّ أسلافهم قد حملوها رسالة.

٢٤ كانون الأول ١٩٦٠

المحبّة البيضاء

في فصول ليونس بحري عن المغرب استوقفني قول ورد على لسان وليّ العهد، الذي أصبح اليوم الملك الحسن الثاني، يصف فيه سيرة أبيه المغفور له محمّد الخامس، والقول منقول عن «أحدهم»:

«إنّني تركتكم على المحبّة البيضاء ليلها كنهارها».

أحدهم هذا من هو؟

من هو هذا الأحدهم الذي نجد أقواله وأشعاره ترصّع كتب الأدب العربيّ القديم، كلّها فصاحة، وحكمة، وشرف، وروعة، وإيجاز هو الإعجاز؟ من يعرفه؟ من يدلّني عليه؟ من ينبش اسمه، وأصله وفصله، لأقيم له احتفالًا، وأنصب تمثالًا.

كلّ الظنّ أنّ أحدهم ليس أحدًا من الناس. وهو، من دون ريب، من غير طينة اللحم والدم. مخلوق أسطوريّ عجيب، هو العربيّ الكامل. ترجمان أمّة بأمّها وأبيها. قد أخذ على عاتقه جيلًا بعد جيل، أنّ يعبّر عن أسمى ما يخطر لها من أفكار، وأطيب ما يختلج فيها من أحاسيس، وأنبل ما تصبو إليه من مُثل عليا في الدنيا والآخرة...

المحبّة البيضاء. المحبّة التي ليلها كنهارها. ما هذا الكلام؟ إنّه أكثر من جميل. إنّه الجمال بالذات الذي هو بدوره من ذات الله. ومن أجله وأجل أمثاله قيل: «إنّ من البيان لسحرًا».

اللهمّ، بسحرك – لا بسحر البيان وحده – اجعل المحبّة بيننا بيضاء كلّها، ليلها كنهارها، ليس فيها من سواد الليل ولا من سواد القلوب. واجعلها تعمّ المغرب والمشرق في الأرض.

٢ آذار ١٩٦١

متحف الأشياء الفالصو

أنشأ متحف لندن – وهو من أعظم المتاحف في العالم وأكثرها وقارًا – جناحًا جديدًا أطلق عليه اسم «متحف الأشياء المزيّفة».

هذا المتحف هو الأوّل من نوعه في تاريخ المتاحف. إنّه يضمّ أطرف مجموعة من الآثار «الفالصو» في كلّ حقل من الحقول. الصور الزيتيّة التي كان الناس يعتقدون أنّها روائع خالدة من صنع فلان العبقريّ أو فلان... التماثيل التي كانوا يتناقلونها كما يتناقلون المقدّسات ويتحاشون لمسها من فرط الخشوع... النقود القديمة الفالصو... الكتب القديمة... الثياب القديمة... الصحون القديمة... حتّى الجماجم القديمة الفالصو...

من هذه الجماجم واحدة، مثلًا، كان العلماء الأعلام يحيطونها بهالة على أنّها أقدم جمجمة اكتُشفت لإنسان على وجه الأرض. وقد نشروا عنها الأبحاث بالمئات، وافترضوا الافتراضات، وأكّدوا التأكيدات... إلى أن تبيّن، بعد الفحص والتدقيق، أنّها جمجمة سعدان قطعها عالم فالصو، ومرّغها بالتراب ودهنها بالزفت، ثمّ شواها في فرن خاصّ، ثمّ دفعها إلى عباد الله ليفتحوا عيونهم وأفواههم ما شاؤوا!

ما رأيك في أن ننشئ، نحن أيضًا، متحفًا لأشيائنا الفالصو؟ وإذا لم يكن عندنا في الآثار والفنون ما فيه الكفاية (نحن ما نزال في مرحلة الأصليّ في كلّ ذلك، والحمد لله) فبإمكاننا أن نملأه بمبادئنا الفالصو، وقوانيننا، ومنظّماتنا، وأحزابنا، وحتّى ثوراتنا وكلّها فالصو بفالصو.

أراهنك أنّه سيكون أغنى متحف من نوعه في العالم.

٧ آذار ١٩٦١

متى تتجمّع الأسابيع؟

هذا الأسبوع هو أسبوع الطالب في لبنان.

وقبله بقليل كان أسبوع السير.

وبعد قليل أسبوع الطفل... وأسبوع الشجرة، وأسبوع الكتاب، وأسبوع السياحة، عفوًا شهر السياحة. إلخ. فضلًا عن الأيّام، كيوم الأمّ الذي كان أمس الذي عبر، ويوم الأب المنتظر، وغيره من الأيام والأسابيع والأشهر.

تلك مواسم طيّبة، مباركة، يشرف على إحيائها جماعة من أهل الخير في البلد. ينظرون إلى الناس كيف يعيشون، يقرأون في الصحف والكتب، يشاهدون خلال أسفارهم في أوروبّا وأميركا، وحتّى في أقاصي أفريقيا وبلاد الواق واق... ثمّ يؤلمهم أن لا يكون عندنا ما عند الناس، مع أنّنا نعتبر أنفسنا أذكى الناس. فيشمّرون عن سواعد الجدّ ويتجنّدون لضرب الأمثلة وإعطاء القدوة الحسنة. وهكذا يُقام الموسم في طول لبنان وعرضه يومًا، أو أسبوعًا، أو شهرًا، نشترك به حكومة وشعبًا، صغارًا وكبارًا، وننشر عنه المقالات، ونرفع اللافتات، ونطبّل ونزمّر كما نفعل في الأعياد تمامًا... ثمّ ينقضي الشهر أو الأسبوع أو اليوم، ونعود سيرتنا كأنّ شيئًا لم يكن.

أيعني ذلك أنّني أدعو إلى إلغاء هذه المواسم؟ معاذ الله!

ولكنّي أتساءل! تُرى، متى تتجمّع هذه الأيّام والأسابيع والأشهر فتصبح سنتنا التي نعيشها، كلّ شهر فيها هو ذلك الشهر، وكلّ أسبوع هو ذلك الأسبوع، وكلّ يوم هو ذلك اليوم؟

متى يصبح العمر عندنا من أوّله إلى آخره موسمًا للخير؟

٢٢ آذار ١٩٦١

الأمجاد البالونات

هذا العصر هو بلا ريب عصر الأمجاد القصيرة العمر.

عصر الأمجاد البالونات.

تكبر بنفخة وتنطلق في الأعالي بهجة للناظرين، ولكنّها ما تلبث أن تنفجر وتذهب هباء منثورًا.

بالونات خفيفة، ناعمة، مزوّقة، بألف لون ولون. تتهافت عليها الجماهير، وتعلّق بها أنظارها وقلوبها، وتجعل منها لعبًا تلهو بها.

أليست الجماهير كالأطفال أمام الكثير من أمور هذه الدنيا؟

خطرت لي هذه الخواطر بمناسبة مصرع الممثّلة الحسناء بلندا لي في حادث سيّارة. بلندا لي البالون الخفيف، الناعم، المزوّق، الزاهي الألوان، انفجر ولم يبقَ منه شيء...

في هذا المجال أحبّ الفاتيكان – وهو أكبر سلطة روحيّة في العالم المسيحيّ – أن يقول كلمته. فما كادت بلندا لي تلقى حتفها حتّى كتبت جريدة «الأبسرفاتوره رومانو» مقالًا يُعتبر أعنف رثاء رُثيت به ممثّلة منذ كانت الممثّلات وكانت السينما، وقد جاء فيه:

«إنّ شفقة عظيمة تغمر قلوبنا على فقاقيع الشهرة في هذا الزمان. على أنانيّتهنّ وغرورهنّ وأباطيلهنّ...»

هذا ما قالته جريدة الفاتيكان. وهو حريّ بالتأمّل العميق.

والشفقة، طبعًا، ليست على فقاقيع الشهرة، أو الأمجاد البالونات بقدر ما هي على هذه الحضارة العجيبة التي تنفخ فيها...

٢٣ آذار ١٩٦١

الشاعر المستشمس

صادفت أمس فتى على شاطئ البحر كان راكبًا درّاجة يسوقها لاهثًا في اتّجاهي حتّى خيِّل إليّ أنّه في سباق، أو أنّ عليه أمرًا هامًّا يستحثّه. على أنّه ما كاد يدنو من المكان الذي كنت فيه حتّى توقّف فجأة وترجّل عن درّاجته وأسند ظهره إليها وجعل يتأمّل البحر، هادئًا، حالمًا، سابحًا في جوّ من الألوان والأنغام، دقيقتين، خمس دقائق، عشر دقائق – وأنا أنظر إليه وأتأمّل بدوري – كأنّه الشاعر مجسّدًا في تمثال إغريقيّ.

فلمّا بلغ من ذلك مأربًا، يعني لمّا أكمل قصيدته، ركب درّاجته واستأنف طريقه.

مغزاه:

غريب أمركم، أيّها الشعراء! تعتقدون أنّ الشعر وقف عليكم، وأنّ من الواجب أن يكون مصنّفًا بين منظوم ومنثور، وأن يكون مغموسًا بالحبر، مطبوعًا على الورق.

هناك ألف طريقة لعمل الشعر. ولكلّ طريقته. فالشعر تحسُّس بالجمال واستمتاع بمباهج الحياة. العيون عندما تلتقي على الحبّ تعمل شعرًا. الكفّ عندما تمرّ بلطف على جبين المريض تعمل شعرًا. الأمّ عندما تناغي طفلها تعمل شعرًا. الصائغ عندما يتأمّل حليته بعد إتمامها يعمل شعرًا. العجوز التي تصلّي وحدها في زاوية معبد مظلم تعمل شعرًا... حتّى البقرة التي ترعى في الحقل وترفع رأسها لترافق القطار لدى مروره، إنّها تعمل الشعر.

وأروعه ما كان بدون خوار.

٦ أيار ١٩٦١

وحش يجب قتله

قمتُ أمس بزيارة صديق قضى زمانه يكدّ ويجدّ ويمسح العرق. وكثيرًا ما بصق الدم ، كما يقول ، حتّى ربّى أولاده أحسن تربية ومهّد لهم سبل العيش المنيء.

وأحبّ أولاده أن يكافئوه فأمّنوا له بيتًا فخمًا ومالًا وخدمًا وأجبروه على الراحة.

فماذا كانت النتيجة؟

لقد تولّى الرجل شرحها لي ، قال :

–كانت ، يا للأسف ، بعكس ما توقّعت. لأنّ الهموم التي كانت تزدحم على بابي قبل التقاعد ، ولا تجد دورًا للدخول عليّ لكثرة أشغالي ، انتهزت فرصة البطالة التي أنا فيها ، وانفتاح الباب على مصراعيه ، فتنادت وأقبلت من كلّ حدب وصوب وتجمهرت عليّ حتّى كادت تخمد أنفاسي. ومنها ما كنت قد نسيته منذ زمان ، أو اعتقدت أنّه مات إلى الأبد ، فإذا هو يعود ، فينطحني بقرنيه ، يلسعني كالحيّة ، يجثم على رأسي كالبوم.

ثمّ أردف :

– يخيّل إليّ أنّ أحكم الحكم هي القائلة بقتل الوقت. من الضروريّ أن نقتل الوقت ، من الضروريّ أن نقتله بأيّة آلة من الآلات. المهمّ أن نقتله ، هذا الوحش ، وإلّا قتلنا.

ثمّ انتفض واقفًا وقال لي :

– سأعود إلى العمل من غد – ولو عتّالًا – أحبّ أولادي أم كرهوا!

١٨ آب ١٩٦١

الرقصة الفضيحة

عملت الملكة إليزابيت في زيارتها لغانا فضيحة تاريخيّة! هذا رأي جريدة «داي أوسترلنغ» إحدى جرائد جنوبيّ أفريقيا المعروفة بتمسّكها بسياسة التمييز العنصريّ. والفضيحة المشار إليها هي أنّ الملكة إليزابيت قد راقصت الدكتور نكروما رئيس جمهوريّة غانا في حفلة الرقص الكبرى التي أقامها على شرفها...

قالت الجريدة : «إنّ الشخص الذي يحسّ إحساسًا عميقًا بقضيّة اللون لا يُلام إذا شعر بالاشمئزاز لدى رؤيته ملكة بريطانيا في حلبة الرقص مع ديكتاتور أفريقيا الأسود.» (كذا).

أنا – من ناحيتي – أعتقد أنّ الفضائح نوعان. فضائح شرّ ، وهو الذي من أجله وُجدت كلمة فضيحة في القاموس ، وفضائح خير ، وهو النوع الذي دشّنته ملكة إنكلترا.

ومن العناصر الأساسيّة للفضيحة لكي تكون فضيحة بالمعنى الصحيح المفاجأة والغرابة. الخروج عن المألوف ، وتحطيم أصنام العادات المرعيّة والتقاليد المتّبعة. وقد توفّرت كلّ هذه العناصر في العمل الذي قامت به الملكة إليزابيت بمراقصتها الرئيس نكروما.

وأنا – شخصيًّا – أرى أنّ هذا العمل يثير الاعتزاز لا الاشمئزاز. السبب بسيط هو أنّ إحساسي بكرامة الإنسان أعمق بكثير من إحساسي بقضيّة اللون.

فضيحة تاريخيّة؟ أجل. اِفتح أيّها التاريخ دفّتيك ، لتكتب الملكة إليزابيت – بقدميها – صفحة من أروع صفحاتك.

٢٦ تشرين الثاني ١٩٦١

البالونات المنفوخة

أمّا إنّنا جماعة كلام فشيء نعرفه عن أنفسنا ويعرفه الناس...

ولكن، إلى هذا الحدّ؟

كنت أقلّب إحدى مجلّاتنا «التي تُعنى بشؤون الفكر» (هذا ما تصف به نفسها) فوقعت على هذا العنوان بالخطّ الهمايوني العريض:

«معقل البطولة في أرض الخلود».

هكذا بالحرف الواحد، لا أكثر ولا أقلّ... وكان بجانبي صديق لي من الأجانب، فلمح على وجهي أنّني أهمّ بالضحك. ودخل في روعه أنّني أقرأ نكتة من النكات، فطلب منّي أن أترجمها له ليشاركني الضحك. فانقلبت إلى العبوس وزعمت له أنّني فكّرت بشيء خاصّ ليس له علاقة بما أقرأ.

تصوّر، رعاك الله، أنّني أترجم لهذا الأجنبيّ: «معقل البطولة في أرض الخلود»، فماذا تُراه يكون ردّ الفعل عنده حينما يسمع هذا الكلام الكبير؟ وهل لمثل هذا الكلام الكبير – إذا أردت ترجمته – أوعية تسعه في لغات العالم؟

الكلام الكبير يدلّ على الأمانيّ الكبار، ولا شكّ. ولكنّه إذا ظلّ كلامًا فهو أشبه ما يكون بالبالونات المنفوخة التي يتسلّى بها الأطفال، يعبّئونها هواء، لتطير في الهواء، وتفقع في الهواء.

نحن، يا للأسف، ما نزال نعيش في حديقة الأطفال، نقضي معظم أوقاتنا في نفخ البالونات، أمثال معقل البطولة وأرض الخلود...

٢١ كانون الأول ١٩٦١

عود إلى حياة الغاب

أحدث ما طلعت به الموضة في باريس البيجامات الرجاليّة المزيّنة بصور الحيوانات المفترسة.

في الفصل الطريف الذي قرأته عن هذا الموضوع أنّ البيجامات ينبغي أن تكون من الحرير، وأنّ صور الحيوانات يمكن أن تكون مطبوعة عليها، ولكنّ الأفضل أن تكون مشغولة باليد.

لا شكّ أنّ الحرير مقصود لإيجاد التناقض أو بالحريّ التصادم المطلوب بين النعومة فيه والقسوة المفروضة في ما تمثّله الصور. والتناقض أو التصادم من مميّزات هذا العصر في كلّ فنّ، فلماذا لا يشمل النوم؟

وهكذا أصبح للرجل أن يحقّق أحلامه فيلبس جلد ما يحبّ ويختار من حيوانات الغاب. وأصبح في إمكان المرأة – عندما يخلو لها الجوّ برجلها – أن تختار من تلك الحيوانات ما تحبّ. والمصلحة تقضي بأن يكون في البيت دزّينة. أو أكثر أو أقلّ. من البيجامات المنوّعة. يدخل الزوج كلّ ليلة في واحدة منها، حسب ما يريد أو تريد الزوجة.

– اليوم. يا عزيزي. أريد أن أنام مع الأسد!

وغدًا مع الدبّ، وبعد غد مع الثعلب، أو الخنزير البرّيّ أو الحمار الوحشيّ، وحتّى التمساح... فالمسألة مسألة ذوق ومزاج وإلهام.

وليس ما يمنع المرأة أن تجبر رجلها على خلع بيجاما ولبس أخرى، وهكذا دواليك حتّى يطلع الضوء. وحينئذ لا يبقى أمام الرجل إلّا أن يذهب إلى عمله... في جلد الأرنب!

٢٤ كانون الأول ١٩٦٢

شيطان له زملاء

من أظرف ما قرأت في حياتي البرقيّة التي وزّعتها «رويتر» أمس على صحف العالم. وهي تتعلّق بصديقنا العزيز وأخينا بالروح: الشيطان.

تطمّننا البرقيّة إلى أنّ الشيطان قد عاد إلى احتلال مركزه المرموق في الطبعة الجديدة للتعاليم الدينيّة التي أصدرتها كنيسة إنكلترا لتوضع قيد التداول خلال ١٩٦٢. وكانت الكنيسة قد جرّبت في السنة الماضية أن تتجاهله في التعاليم المشار إليها. ولكنّ التجربة لم تسفر عن النجاح المطلوب...

تعديل بسيط طرأ على الفقرة المتعلّقة بجنابه. فبدلًا من عبارة «إنّني أمقت الشرّ وجميع أعماله» سيردّد المؤمنون: «إنّني أمقت الشيطان وأقاوم جميع أعماله.»

لا يهمّني التعديل المذكور، فهو تبديل ألفاظ بألفاظ لها في النتيجة معنى واحد. إنّما يهمّني أمر التجربة الفذّة التي أقدمت عليها تلك الكنيسة.

فطوال سنة كاملة أحبّ الجماعة أن ينسوا الشيطان فحذفوا اسمه وأغمضوا عيونهم عنه. ومن السهل أن نتصوّر أنّ الشيطان قد ضحك في عبّه من هذه الغباوة وأنّه ضاعف جهوده وضرب، خلال تلك السنة، الرقم القياسيّ في أعمال الشرّ متنكّرًا بألف اسم واسم من الأسماء المستعارة...

هنالك شياطين كثيرة – في الدين، وفي الاجتماع، وفي السياسة – لا ينفع فيها النسيان ولا يكفي، طبعًا، شطب أسمائها من السجلّات. وما أجدرنا أن نتّعظ بما فعلته كنيسة إنكلترا فنواجه الحقائق ونسمّيها بأسمائها.

١٠ كانون الثاني ١٩٦٢

الهواء المعلّب

العصر عصر التعليب. أي وضع الأشياء في علب لحفظها واستعمالها عند اللزوم. فلماذا لا نعلّب الهواء من الجملة؟

ذلك ما فطن له أحد أرباب الصناعة في إنكلترا، فدفع إلى الأسواق علبًا تحتوي هواء نقيًّا من الريف، يستطيع أيّ واحد من العائشين في المدن المخنوقة بالغبار والدخان أن يشتري واحدة منها بستّة شلنات، ويفتحها ليتنشّق دفعة من الهواء المنعش، ثمّ يقفلها ليعود إلى تنشّق دفعة أخرى كلّما حنّ إلى هواء الريف النقيّ ومنعته ظروفه من مغادرة المدينة.

يحكي حنكش، سيّد الظرفاء في لبنان، أنّه عاد مرّة إلى البرازيل بسيّارة كان يستعملها في الوطن. فأقبل عليه أصدقاؤه من المغتربين يهنّئونه بالسلامة ويسألونه عن أحوال البلاد، وكلّ منهم يصف شوقه إلى ربوع الوطن العزيز. وكان فيهم زحلاويّ عتيق، فدنا من حنكش وقال له مشيرًا إلى سيّارته:

– قُل لي أين نفخت دواليبها؟

فقال:

– في لبنان.

فارتمى عليه هاتفًا:

– بعرضك، نفِّس لي دولابًا لأتنشّق هواء لبنان!

هذا باب جديد من التجارة بعواطف المغتربين. فغدًا سيتدفّق سيل المقيمين حاملي علب الهواء اللبنانيّ إلى أربعة أقطار المعمور...

لا بأس. كلّ عمرنا نبيعهم الهواء. الفرق هذه المرّة أنّه سيكون في علب مختومة.

١٣ كانون الثاني ١٩٦٢

سعرنا بالديناميت

يُقال في لغة الحياة : «فلان يساوي ثقله ذهبًا» ، للدلالة على قيمته المعنويّة. أو «لا يساوي قرشًا».

ولكن ما يساوي الواحد منّا ديناميتًا؟

نشر أحد علماء الإنكليز بحثًا جاء فيه : «إنّ الولايات المتّحدة تملك من القوى الذرّيّة المدمّرة ما يساوي ٣٦٠ طنًّا من الديناميت لكلّ فرد من سكّان العالم.»

بعبارة أخرى ، إنّ كلًّا منّا يساوي —هو نفسه— ٣٦٠ طنًّا من الديناميت...

ثمن بخس بالنسبة للذين يساوون ثقلهم ذهبًا ، وباهظ بالنسبة للذين لا يساوون قرشًا. أمّا بالنسبة للذين يساوون كذا وكذا من الملايين فهو مجهول ، لجهلنا ما تكلّف بالضبط القنابل الذرّيّة. ولا شكّ أنّ العالم الإنكليزيّ لم يشأ أن يدخل في هذه الحسابات المعقّدة ، فأعطى سعرًا موحّدًا للجميع ، وهو سعر ديموقراطيّ لا يفرّق الناس بين خيار وبطيخ بل يضعهم في كيس واحد.

هذا إذا اعتبرنا ما تملكه أميركا وحدها من القوى الذرّيّة. بقي أن نعرف ما يملكه الاتّحاد السوفياتيّ وسائر الدول.

الرجاء من العالم الإنكليزيّ أن يكمّل دراساته وحساباته ، ويعطينا السعر الأخير لأرواحنا المسكينة ، ليعرف الواحد منّا على الأقلّ كيف سيموت : رخيصًا أم غاليًا؟

١٦ كانون الثاني ١٩٦٢

نحن فئران الغد

كان المعروف حتّى اليوم أنّ الإنسان يتطوّر بموجب ناموس يتقدّم به إلى الأمام.

ويظهر أنّ هذا الناموس مهدّد بأن ينقلب رأسًا على عقب بعد اكتشاف الذرّة.

فقد صرّح الخبير البريطانيّ الدكتور جاكوب برونوفسكي أنّ العالم الحاضر سيتحوّل في نهاية حرب نوويّة إلى غابة تضمّ أناسًا يعيشون كالفئران. (كذا).

لماذا كالفئران ، وليس كالذئاب أو الأسود مثلًا؟

يقول الدكتور المذكور:

ذلك بأنّ الفزع سيستولي عليهم ، ويقتل فيهم أيّ شعور آخر ، فلا طموح ولا حبّ ، ولا سرور ولا طمأنينة ، حتّى ولا رغبة في العمل. لأنّ كلّ شيء سيتحوّل بغتة —وفي لحظة من الزمن— إلى مجرّد أكداس وأنقاض ، وخراب وسخام.

ما قاله الخبير البريطانيّ قاله ويقوله كلّ يوم زملاء له في أميركا وأوروبّا من العلماء. الأصوات تتعالى من كلّ صوب محذّرة من العاقبة الرهيبة.

الإنسان ، هذا الجبّار ، سيذهب ضحيّة جبروته. قضى ملايين السنين يحلم بالتفوّق على المخلوقات وإخضاع الكائنات ، فإذا هو ينتهي إلى فأر في غابة!

إنّها نهاية مزرية حقًّا.

هل يفكّر بها السياسيّون الذين يعوون اليوم كالذئاب ، ويزأرون كالأسود؟

١٣ شباط ١٩٦٢

مع شباط

شبط شباط ولبط هذه السنة ما شاء له اللبط والشبط.

لست أدري ما صنع الناس تحت عواصفه وثلوجه، وبروقه ورعوده. أمّا أنا فأحمد الله لم ينلني منه إلّا زخّة مطر غسلت وجهي، ولطخة وحل وسّخت طرف ثوبي. وما عدا ذلك لم ينغّص عليّ نعيم الدفء والكسل والحلم شيء من أشياء شباط.

قلت في نفسي: إذا كان للإجازات من وقت فهذا وقت الإجازة.

وألقيت العمل وراء ظهري، ومعه المسؤوليّات والهموم، وقبعت في البيت أحوك أحلامًا وأنظم أشعارًا!

وأجمل الأشعار والأحلام ما كان تعاطيًا مع الطبيعة، من وراء زجاج النافذة، أكتب على الزجاج بإصبعي، وشباط يمحو...

ونعمة أخرى من نعم شباط. لقد أعادني شباط بالذكرى إلى طفولتي وإلى بيتي القرويّ في الجبل، إلى التحلّق حول موقد الجمر، والنفخ في الرماد، وفرك الأكفّ والوحوحة. وعنّ جدّي - رحمه الله - في خاطري، فهتفت بيني وبين نفسي: وأنا أيضًا جدّ! وناديت أحفادي الصغار ورحنا نلعب في البيت...

صدّقوني. لكي تتذوّقوا شباط يجب أن تكونوا جدودًا. وطبعًا أن تستحصلوا على الإجازة في وقتها، وأخيرًا أن يكون عندكم مقدار حبّة خردل من الأحلام والأشعار.

وليشبط شباط بعد ذلك وليلبط ما شاء!...

٢١ شباط ١٩٦٢

أنا لا أصدّق

للشاعر أمين نخله قصيدة يصف فيها فتاة من أمّ رأسها إلى أخمص قدميها. وكان زمانه زمان الفم الصغير. وله في فم تلك الفتاة بيت مشهور يهتف فيه قائلًا:

«أنا لا أصدّق أنّ هذا الأحمرَ المشقوقَ فم».

كان مشقوقًا وكان أحمر - والأحمر هو اللون الفاقع رقم ١ بين الألوان - ولم يصدّق حضرته أنّه فم، فكيف إذا كان أزرق، أو أخضر، أو أسود؟

المسألة ليس فيها مزاح. ومتى كانت الموضة من الأشياء التي يصحّ معها المزاح؟ إنّ أحمر الشفاه يُباع منذ اليوم في أسواق بيروت بكلّ الألوان ما عدا الأحمر... هكذا تشاء باريس، أن تتلوّن الشفاه بألوان الفساطين وخصوصًا فساطين السهرة. ومعنى هذا أنّ أحمر الشفاه الذي سيطغى في هذا الموسم هو الأسود.

مع الاحتفاظ طبعًا باسمه: أحمر الشفاه الأسود!

رأيي أنّ المرأة هي الخاسرة في هذا السبيل. إنّها لا تخسر لونًا خلقه الله لشفتيها فأحسن خلقه، ولا تخسر لونًا يوهمها ويوهم الناظرين بأنّه دم الشباب المتدفّق حتّى في الستّين والسبعين، إنّها لا تخسر هذا وذاك فقط، بل ترمي في البحر بسلاح هو من الأدلّة الثبوتيّة التي تأخذ بها زوجها إذا عاد يومًا إلى البيت وعليه آثار الخيانة فتصيح مشيرة إلى شفتيه:

- من أين لك هذا؟!

من السهل بعد اليوم، أن يجيبها بكلّ برودة:

- من مستودع الفحم، يا عزيزتي!

٢٦ شباط ١٩٦٢

اليد الممدودة

اليد الممدودة بالتوسّل ، بالرجاء ، بالصلاة ، هل استطاع أحد أن يقيس مداها؟

فكيف إذا كانت يد الإنسانيّة المعذّبة !

عصبة الأمم بعد الحرب العالميّة الأولى ، والأمم المتّحدة بعد الثانية ، كلتاهما أقامت على الجماجم والأنقاض صرحًا لأمل الإنسانيّة في منع الحروب.

النتيجة هي ما ترى وتسمع : خيبة وراء خيبة.

وقد رأى النحّات بويفانو أن يرمز إلى تضرع الإنسانيّة أن تنقذها الأمم المتّحدة من حرب جديدة ، ساحقة هذه المرّة ، بتمثال فذّ ، فصنع يدًا جبّارة طولها عشرة أمتار لتُنصب بوجه المنظّمة الدوليّة. وتقول البرقيّات إنّ هذه اليد كلّفت النحّات عشرة أشهر من العمل المتواصل ، وفوقها عشرة آلاف دولار دفعها إلى المعمل الذي صبّها له نحاسًا. ولكنّ المعمل طالب بمبلغ مضاعف مدّعيًا أنّ النحّات أحدث في تمثاله تغييرات عديدة ، ورفع عليه دعوى أمام إحدى محاكم سان فرنسيسكو ، فحكمت لمصلحة المعمل.

المهمّ ما جاء في ذيل الحكم. فقد تمنّى القاضي أن تُقدم المنظّمة الدوليّة على شراء التمثال. وإلّا فليس أمام النحّات إلّا أن يدقّ أبواب المحسنين ليدفعوا عنه المبلغ.

ثمّ التفت إلى النحّات وقال له :

— هل كان من الضروريّ أن تكون اليد طويلة إلى هذا الحدّ؟

طويلة — عشرة أمتار — يد الإنسانيّة المعذّبة الممدودة برجائها الأخير؟ أكاد أراها طول ما يفصل هذه الأرض عن السماء السابعة !

٣ آذار ١٩٦٢

الحبّ والأسلاك الشائكة

وقفت أتأمّل في المغامرة التي قام بها الفتى برين ثيب ، من سكّان ألمانيا الشرقيّة ، كيف تمكّن من الوصول إلى ألمانيا الغربيّة. وحده شيء مألوف. ولكنّه كان حريصًا أن يأخذ معه خطيبته فوضعها في صندوق ثمّ حملها فيه واجتاز بها الجدار الفاصل بين القطاعين.

الحادث طريف يثير أكثر من تعليق :

الأوّل — أنّ الحبّ لا يعرف حدودًا وسدودًا. لا شرقًا ولا غربًا.

الثاني — أنّه ، أي الحبّ ، مفتّق الحيل ومجترح الأعاجيب.

الثالث — أنّ الحظّ مع المحبّين إذا أحبّوا... ولذلك لم تأمر سلطات الحدود بفتح الصندوق الذي كان مع برين ثيب. مع أنّها تأمر عادة بفتح كلّ شيء بحثًا عن الإبرة ، فكيف عن فتاة طولها متر وثمانية وخمسون سنتمترًا !

لقد هتفت الخطيبة فور خروجها من الصندوق السحريّ : «الآن باستطاعتنا أن نتزوّج».

وأطبقت على أميرها البطل توسعه ضمًّا وتقبيلًا وتبكي من شدّة الفرح. وكان مصيرها ومصيره — لو افتُضح الأمر — السجن مدى الحياة.

مع العلم أنّ صاحبنا برين ثيب وحبيبته لم ينجوَا من سجن إلّا ليقعا في سجن آخر. والصندوق الذي وضعها فيه سيبقى على ظهره طول العمر ، مع صندوق آخر على ظهرها تضعه فيه.

بالرفاء والبنين ، إن شاء الله ! وبالسلامة دائمًا عند اجتياز الجدران والأسلاك الشائكة في طريق الحياة.

٦ آذار ١٩٦٢

في أصل الخنفشار

مناسبة الخنفشار عندنا مناسبة كلّ يوم وساعة.

قرارات خنفشاريّة. وعود، مواعيد، وأعياد خنفشاريّة. أقوال خنفشاريّة. أعمال خنفشاريّة إلخ.

ولكن أتدري ما هو الخنفشار؟

قيل:

كان في إحدى التكايا شيخ جاهل إذا جلس إلى تلاميذه حدّثهم حديث العارف، الحكيم، البليغ، المحيط بعلوم الدنيا والآخرة. فتآمر عليه تلاميذه يومًا وطلب أحدهم إلى رفاقه أن يكتب كلّ منهم حرفًا يخطر له. فكتب الأوّل خاء، والثاني نون، والثالث فاء، وهكذا حتّى تألّفت كلمة الخنفشار. فنهض شيطانهم وسأل الشيخ: ما الخنفشار، يا أستاذ؟ فمشّط الشيخ لحيته وأجاب على الفور: هو نبات دقيق الساق، مبسوط الورق، طيّب الأريج، ينبت في مشارف اليمن. قال ابن البيطار: هو حارّ من الدرجة الرابعة، رطب من الدرجة الأولى، وقد جرّبه العرب في إدرار اللبن. وقال شاعرهم:

لقد جذبت محبّتكم فؤادي
كما جذب الحليبَ الخنفشارُ

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم...

فصاح به التلاميذ: كفى! لقد كذبت علينا وعلى اللغة والشعر والعرب. أمّا أن تكذب على رسول الله؟!

فسكت من خزيه...

ولكنّ الخنفشار الذي زرعه ما يزال ينبت في كلّ مكان، وتزدهر أنماط منه في لبنان.

٢٢ آذار ١٩٦٢

ملك السكّيرين

حتّى السكّيرون أصبح لهم ملك بتاج وصولجان.

ولِمَ لا؟ وإذا كان المُلك مرادفًا للعظمة والمجد والتعالي على عباد الله فمَن أحرى بهذه النشوة – يعني بالعربيّ الدارج السكرة – من جان لحّود بعد الكأس الخامسة والثلاثين؟

الحادث جرى، طبعًا، في زحله كما يليق ويجب، احترامًا لتقاليدها العريقة ولوادي العرائش فيها. وهو كناية عن مباراة في شرب العرق لانتخاب ملك الشاربين، اشترك فيها كلّ ابن امرأة ممّن يدّعي الصمود لبنت الكرمة ودموع العذراء.

قيل: الأوّل وقع عن كرسيّه عند الكأس السابعة، والثاني ترك في العاشرة، والثالث استعاذ بالله على حدود العشرين، والرابع عاد إلى بيته محمولًا... عدا الذين انطرحوا على الأرصفة، أو ناموا، أو خطر لهم الطعن والضرب فانتهوا في المخفر.

رحم الله الأخطل في قوله بعد الزجاجات الثلاث:

«ورحتُ أجرُّ الذيلَ تيهًا كأنّني
عليكَ أميرَ المؤمنينَ أميرُ»

وأبا نؤاس القائل:

«إسقني حتّى تراني أحسبُ الديكَ حمارا»

لقد سقوا جان لحّود في زحلة حتّى رأى نفسه ملكًا! وما أكثر ما تصنع الخمر، أو ما شابهها، من الصعاليك ملوكًا يجرّون الذيول تيهًا ويحسبون الديوك حميرًا والناس برغشًا... ولا يُضطرّون إلى شرب خمس وثلاثين من الكؤوس، وربّما سكروا من زبيبة.

٢٥ آذار ١٩٦٢

ثورة على الكراكيب

اختراعات المدنيّة الحاضرة التي أراد بها مخترعوها توفير أسباب الراحة – أو «الكونفور» على حدّ التعبير العالميّ – هل أوصلت الإنسان إلى ما ينشده من تلك الراحة؟

النحّات المستر تنكلي – من التكساس – يزعم العكس تمامًا. وهو متّفق في الرأي مع تلميذته نِكي. وقد صحّ عزمهما على الانتقام من تلك الاختراعات، فجمعا ما عندهما منها: سيّارته وسيّارتها، برّاد عدد ٢، آلة لتكييف الهواء عدد ٣، بوتغاز عدد ٢، برستو عدد ٢، جهاز تلفون عدد ٣ إلخ. ثمّ نقلا كلّ ذلك في كميون إلى ضاحية المدينة وطرحاه في حفرة وفجّراه بالديناميت.

قيل: وكانت الفراقيع تصل إلى مسافة ١٥٠ مترًا من كلّ ناحية. فتجمهر الناس سائلين عن الخبر، فهتف بهم تنكلي ونِكي:

– من أراد أن يعيش سعيدًا فليفعل مثلنا.

طبعًا، لم يفعل أحد مثل النحّات التكساسيّ وتلميذته. وأنا أراهن أنّ الذين شهدوا فعلتهما أو قرأوا عنها هزّوا الرؤوس وقالوا: مجنون ومجنونة!

ولكنّي أراهن أيضًا أنّهم، بينهم وبين أنفسهم، أعطوهما كلّ الحقّ. إنّ تنكلي ونِكي يعبّران بالديناميت – وهو أبلغ تعبير – عن نقمة أبناء العصر على هذه المدنيّة المادّيّة الطاغية التي تتفتّق كلّ يوم عن ألف اختراع واختراع، وقصاراها في النتيجة أن تزيد في كراكيب حياتهم... ولو لم يكن من تلك الكراكيب إلّا أقساط آخر الشهر لكفى.

١ نيسان ١٩٦٢

جون المجنون

لاحظ أهالي شروسبوري – إنكلترا – أنّ عقارب الساعة الدقّاقة المنصوبة في ساحة البلدة تختفي اختفاءً يدعو إلى التساؤل. وكان الأمر يتكرّر في اليوم التالي بالذات لوضع عقارب جديدة تحلّ محلّ العقارب القديمة. فكلّفت السلطات شرطيًّا خاصًّا مراقبة الساعة، فألقى القبض على رجل اسمه جون بالجرم المشهود.

في التحقيق قال جون:

– لقد أوقف يشوع بن نون الشمس عن الدوران: وأنا أريد أن أوقف الزمان عن السير.

وتبيّن أنّ الرجل مجنون، فسيق إلى المستشفى.

يخبرنا تاريخ ما لم يدوّنه التاريخ أنّ كثيرًا من الحكّام في الشرق والغرب – ومنهم وزراء لبنان الذين عملوها غير مرّة في الماضي – كانوا يوقفون الساعة لاضطرارهم أن ينهوا مسألة من المسائل في الموعد المضروب.

ويشاهد كلّ منّا بأمّ العين الألوف – رجالًا ونساءً – يصبغون شعورهم، أو «يصحّحون» تذاكر هويّـاتهم، مستريحين عند سنّ ارتضوها من أعمارهم... أيفعل هؤلاء جميعًا غير توقيف الزمان عن سيره؟

والشعوب في ذلك كالأفراد سواء بسواء.

الواقع أنّ الزمان لا يسير بنا، وإنّما نحن الذين نسير من خلاله. والمجنون المجنون، في الحياة الخاصّة والحياة العامّة، من يعتقد أنّ بإمكانه التوقّف ولو مقدار طرفة عين.

٤ نيسان ١٩٦٢

أفيلسوف أنت؟

الأخبار الصغيرة التي تنشرها الصحف عن تقرير الشرطة اليوميّ يسمّيها الفرنسيّون «الكلاب المهروسة» تدليلًا على تفاهتها.

في هذا الباب قرأت في إحدى صحف باريس خبر انتحار فتى في عمر الورود – ١٨ سنة – وذلك برمي نفسه، حسب التقاليد، في نهر السين.

الحادث بحدّ ذاته عاديّ، لولا أنّ الشرطة اكتشفت أنّ المنتحر ترك على البنك الذي كان جالسًا عليه بجانب النهر ورقة كتب فيها ما يلي:

«ليس في الفلسفة إلّا مسألة جدّيّة واحدة هي الانتحار. أيّها أفضل: أن نحيا أم أن نضع حدًّا لحياة لا معنى لها؟»

ويُضيف المنتحر: «هذه العبارة قالها الكاتب ألبير كامو، الحائز على جائزة نوبل. وها أنا أجيبه على السؤال في ما يخصّني.»

رحم الله الفتى ورحم ألبير كامو. وإذا كان الأوّل قد حلّ تلك المسألة العويصة بمحض إرادته واختياره -. فقد تولّى القضاء والقدر – كما هو معلوم – حلّها بالنسبة للثاني، إذ مات كامو بحادث سيّارة ميتة بلهاء ليس فيها شيء من الفلسفة.

المهمّ هو هذا السمّ الذي يقدّمه بعض أدباء هذا العصر – الكبار! – إلى الناشئة فتلعقه نفوسهم البريئة كما تلعق العسل.

اللهمّ، إذا كان لا بدّ من فلسفة فأبقِنا خارج مسائلها الجدّيّة التي تنتهي في السين، أو بين أمواج الروشة، وتحشرنا في تقرير الشرطة، يعني بين الكلاب المهروسة.

١٠ نيسان ١٩٦٢

القصائد والنساء

لا تزال الصحف تنقل أقلّ حركة وسكنة من حركات بريجيت باردو وسكناتها.

وآخر ما حملته الأخبار أنّ الحرس الخاصّ، الساهر على راحة بريجيت باردو ليل نهار، قد ألقى القبض على رجل في الثلاثين من العمر اندسّ في الغرفة المجاورة لغرفتها، وأخذ يراقب تلك الحركات والسكنات – إيّاها – يتلصّص من خصاص الباب، ويضع أذنه على الحائط إلخ... ولمّا سألوه عن قصده قال:

– أنا شاعر، وكنت أنوي قضاء ليلة بجانب ب. ب. لأنظم قصيدة فيها أضمّنها ما توحيه إليّ في تلك الليلة!

بقيّة الخبر ليس فيها ما يستحقّ الذكر، سوى أنّ الرجل – وقد ظلّ اسمه مكتومًا لحكمة مجهولة – أُصيب بانهيار في أعصابه على أثر القبض عليه وأخذ يبكي.

لِمَ البكاء، يا أستاذ؟

ليس في اللحاق ببريجيت باردو أيّ عيب. كما ليس في السعي إلى قضاء ليلة بجانبها، أو في غرفة بجانب غرفتها، أيّ غرابة. فهذا حلم يراود الملايين من المعجبين بالممثّلة الفاتنة أمثالك في أربعة أقطار العالم.

الغرابة والعيب في أن يصدر هذا الشيء عن شاعر. فقديمًا قيل إنّ أعذب الشعر أكذبه، فكيف إذا كان موضوعه المرأة؟

تريد أن تنظم قصيدة في بريجيت باردو؟ اِسمع منّي ابقَ بعيدًا عنها. وكلّما بعدتَ قربت القصيدة من الكمال.

١١ نيسان ١٩٦٢

ملاكنا الحارس

قرأت أمس فصلًا في إحدى المجلّات العلميّة -والعِلمو نورُن- فعدت منه وأنا أعمى! أعماني شعاع الموت، أو القنبلة النترونيّة على حدّ تعبير العلماء، أو السلاح المطلَق، كما يسمّيه خروتشوف.

وعلى سبيل تعميم الفائدة أنقل بعض فقرات هذا البحث الجليل:

«توصّلت روسيا وأميركا - وهما في الميدان فرسا رهان - إلى اختراع آلات تحدث تموّجات صوتيّة يمكن توجيهها بواسطة المرايا العاكسة إلى أيّ هدف من الأهداف، طائرة كانت في الجوّ، أو سفينة في البحر، أو قلعة أو مدينة في البرّ. ومن شأن هذه التموّجات، بعد انعكاسها على المرايا، أن تقضي على كلّ حياة في مدى دقائق معدودة، دون أن تترك أثرًا أو تحدث خدشًا. وجلّ ما هنالك أنّها توقف القلب البشريّ عن العمل.»

أنا، من ناحيتي، أعتقد أنّ القلب البشريّ قد توقفّ عن العمل منذ اللحظة التي بدأ فيها أصحابه يفكّرون بمثل هذه الاختراعات الجهنّميّة.

على أنّ المجلّة تطمّننا في النهاية أنّ كلًّا من روسيا وأميركا قد نصبت في المواضع الحسّاسة من حدودها محطّات لاستعمال السلاح المطلَق، أو تفجير القنبلة النترونيّة، أو إطلاق شعاع الموت - كما شئت سمّه - وهذا هو السرّ في استتباب السلام الذي ينعم به العالم. أي الخوف المتبادل من الحرب.

تبًّا لحياة نحياها، شعاع الموت أو الخوف منه - لا فرق - هو فيها ملاكنا الحارس.

٢٦ نيسان ١٩٦٢

في فلسفة الكذب

إذا قالت لنا التعاليم الدينيّة والخلقيّة إنّ الكذب رذيلة وخطيئة، فإنّ تجارب كلّ يوم تبرهن لنا أنّ الحياة مجبولة بالكذب جبلًا.

ولكن، هل كلّ الكذب رذيلة وخطيئة؟ هناك الكذب الأبيض والكذب الأسود، الكذب الجميل والكذب القبيح، الكذب الأبله والكذب العبقريّ، الكذب الإلهيّ - أستغفر الله! - كما يقول فولتير والكذب الشيطانيّ. وأخيرًا الكذب الرخيص يقابله الكذب الغالي، والضرب منه بملايين.

ساقني إلى فلسفة الكذب هذه ما قرأته لأحدهم عن الممثّلة السينمائيّة جان مورو في دور تقوم به في أحد أفلامها الجديدة وعنوانه «قشرة الموز». قال: «إنّه دور المرأة التي تكذب دائمًا، تكذب من غير كلفة، تكذب بغبطة ظاهرة، تكذب دون أن تشعر بعالم الحقيقة... وتكون النهاية، طبعًا، وبالًا عليها.» يعني أنّها لا بدّ أن تكون قد زلقت قدمها على قشرة الموز - على كذبة رمتها في الطريق بين الأقدام - فكانت من نصيبها.

وجّه الله الخير لصديق لي ظريف - أظرف الكذّابين وأكذب الظرفاء - كان يقول: الكذب فنّ الحياة. أصعب الفنون إطلاقًا. شعرة معاوية بينك وبين الناس. إيّاك أن تقطع الشعرة! أو هو ملح الطعام. إذا فسد الملح فباذا يملّح؟

مصيبتنا في هذه الأيّام أنّ الناس أفسدوا الكذب بسوء استعماله. الزائد أخو الناقص، كلاهما يفسد الطبخة.

٨ أيار ١٩٦٢

عيد البكاء

من يدري لماذا يبكي الأطفال؟ إذا كان الآباء والأمّهات يعرفون شيئًا فقد غابت عنهم أشياء. وكثيرًا ما حاروا في سبب بكاء أطفالهم، لا هو عن جوع، ولا عطش، ولا وجع، ولا أرق... كأنّما هو بكاء لوجه البكاء. كأنّما هو قضاء حقّ. حقّ الحياة على أبنائها أن يؤدّوا ضريبة الدمع.

فكّرت في ذلك وأنا أتأمّل صورة الطفل الإنكليزيّ شارلز روبرتسون التي نشرتها له الصحف وهو يذرف دموعه الأولى بعد انقضاء عام كامل على ميلاده. جاء في الخبر أنّ الطفل عندما وُلد كان تنفّسه صعبًا وكان بالتالي لا يستطيع البكاء. فنُقل إلى المستشفى حيث وُضع في خيمة أوكسجين، ثمّ أجرى له الأطبّاء عمليّة في قلبه، ووضعوا فيه صمّامات من البلاستيك، على أن تذوب بعد أن ينمو، وتصبح الصمّامات الطبيعيّة قادرة على العمل...

الخلاصة أنّ الأمر تمّ على ما يرام بعد عام، وانفجر الطفل بالبكاء.

وأقام الأهل للطفل عيدًا. عيد البكاء. أليس عند بعض الشعوب عيد للبكاء؟ هم يبكون، حزنًا طبعًا، وهو يبكي لا يدري لماذا، وحسبه أنّه قد عرف البكاء، فهو يبدأ بسبحة الدموع فرحًا وحزنًا، وبالعكس، وخليطًا من الاثنين...

قُل معي ومع الأهل: حمدًا لله وشكرًا على أنّنا جميعًا نتمتّع بالقدرة على البكاء.

الممسوخ وحدهم لا يبكون، والأموات.

٢ حزيران ١٩٦٢

الجنازة الراقصة

لا أجد في الأمر ما قد يجده سواي من غرابة.

إذا كان جون ماتيوس النمساويّ قد أوصى بأن يرقص الأهل والمعزّون حول نعشه رقصة الفالس، فكلّنا يذكر أنّ اللبنانيّين كانوا - وما يزالون في بعض المناطق - يرقصون حول نعوش أمواتهم.

الحزن الشديد أخو الفرح الشديد.

للمرحوم جون ماتيوس، إذن، أسبابه الوجيهة. وإذا لم يفصح عنها فبإمكاننا أن نتخيّلها بسهولة. منها:

أوّلًا - إنّه ضدّ الخبث والرياء. فبدلاً من التضجّر والنعاس والتفتيش عن الكلمات العويصة في قاموس الموت - بينما تكون الأفكار شاردة بعيدًا - أجبر الجماعة على قضاء ساعة لذيذة على قلوبهم. ومن أجلها، على الأقلّ، سيترحّمون عليه من صميم قلوبهم.

ثانيًا - إنّه من الذين يضربون هذه الدنيا بالعتيقة. فهو يحبّ أن يودّعها وأن يقطع الجسر بينها وبين الآخرة على أنغام مفرحة. وما دام لا بدّ من قطعه فليكن رقصًا وفرفشة، لا جرًّا وشرشحة.

ثالثًا - إنّه يبدي رأيه بصورة حاسمة في أنواع الرقص. ولا شكّ أنّه اختار الفالس - الرقصة السماويّة - عن سابق تصوّر وتصميم، ولم يشأ أن يترك الأمر لأهله والمعزّين، خشية أن يدقّوا على رأسه رقصة من رقصات هذا الزمان التي تتفتّح لها أبواب جهنّم.

٧ حزيران ١٩٦٢

من أيّ عضو هي؟

الحوار بين آدم وحوّاء يظلّ موضوع الساعة لأنّه موضوع كلّ ساعة.

طالعت في مجلّة بيروتيّة بحثًا طريفًا عن المرأة، وقد وقفت منه عند الفقرة الخاصّة بكيفيّة خلقها.

قال الكاتب: «أمّا لماذا خلق الله حوّاء من ضلع آدم فقد أوضح التلمود الجواب، قال: سأل الله نفسه من أيّ جهة من جسم الرجل أخلق المرأة؟ لن أخلقها من الرأس حتّى لا تشمخ برأسها، ولا من الفم كي لا تكون ثرثارة، ولا من القلب كي لا تملكها الغيرة، ولا من الكفّ كي لا تبذّر، ولا من الرِجْل كي لا تخرج دومًا من بيتها. سأخلقها من ناحية في الجسم مخبّأة لأجعلها متواضعة» (كذا).

قال صاحبي بعد أن قرأ معي ما قرأت:

– أتجد أنّ المرأة متواضعة، خصوصًا في هذا العصر؟ أتجد أنّها غير ثرثارة، غير فضوليّة، غير غيورة، غير راغبة في الخروج دومًا من بيتها؟ إلخ...

ألا ترى معي أنّ الله أتعب قلبه عبثًا؟... وأنّ المرأة في النتيجة قد حصلت على ما تريد من معاني رأس الرجل وعينيه وأذنيه وفمه وكفّه وسائر أعضاء جسمه؟

حتّى ذلك الضلع المسكين الذي لا يزال جرحه ينزف دمًا. فحوّاء ما تفتأ تمدّ يدها إلى عبّ آدم بحجّة تحسّس المكان الذي خرجت منه ومداعبة ذلك الجرح... وأصابعها في الواقع على محفظة النقود!

٨ حزيران ١٩٦٢

لا تحوّلوهم إلى صراصير

طالبة في عمر الورود – ١٥ سنة – تحاول الانتحار لأنّها سقطت في امتحانات الشهادة الابتدائيّة.

الخبر قرأته هذا الصباح في بعض صحف بيروت. لا أذكر اسم الجريدة ولا اسم الفتاة. ولكنّي أذكر جيّدًا الوسيلة التي استعملتها في محاولتها. لقد كان في بيتها صراصير، وكان أهلها يكافحون الصراصير بسمّ قاتل، فضربت يدها إلى هذا السمّ وابتلعت منه مقدارًا.

الحمد لله أنّ المحاولة فشلت. والفتاة الآن قيد المعالجة. فعسى أن تشفى من الاثنين: السمّ واليأس.

واليأس بسبب خيبة من خيبات الحياة سمّ كسمّ الصراصير. أريد أن أقول إنّه جدير أن لا يقتل إلّا النفوس الصغيرة. أمّا النفوس الكبيرة فإنّها تجد في الصعوبات حافزًا لتجديد الهمّة ومعاودة الجهد ومضاعفته. أمّا في مسألة هذه الطالبة الرخصة العود فأنا أميل إلى اتّهام أهلها. فمن الأهل مَن يهوّلون على أولادهم فيما خصّ النجاح والسقوط في الامتحانات تهويلًا يجعل من الشهادة غاية الغايات. وليست الشهادة العلميّة ولا العلم بأمّه وأبيه بشيء أمام شخصيّة الولد التي إليها ينبغي أن يصرفوا عنايتهم.

المطلوب من الآباء والأمّهات، بعبارة أخرى، أن لا يقصّوا أجنحة أولادهم ويحوّلوهم إلى صراصير. وعسى أن يعود إلى الفتاة جناحاها لتطير، وتزقزق مع العصافير...

١٠ حزيران ١٩٦٢

المرأة الـ ٩٩٩

دون جوان هو زير النساء المعروف في التاريخ وفي الأدب ، أي في ميداني الحقيقة والأسطورة. وقد لا يكون بين الميدانين كبير فرق ، لأنّ في الحقيقة ، في هذا الموضوع بالذات ، كثيرًا من الأساطير ، وفي الأسطورة كثيرًا من الحقائق. ومن الصعب التمييز.

الخلاصة أنّ الروائيّ الفرنسيّ مارسيل أشار يعتقد أنّ ما قيل عن دون جوان – والله أعلم كم قيل ! – غير كافٍ. لذلك اعتزم أن يؤلّف عنه رواية جديدة بعنوان «المرأة رقم ٩٩٩».

لست أدري هل بلغت فتوحات الرجل هذا الرقم العجيب. والأرجح أنّه هو نفسه لا يدري ، ولا المنجّم. فقد كان الحبّ بالنسبة لدون جوان مثل السكر للسكّير. ومن يسكر لا يعدّ الأقداح... فكيف اهتدى مارسيل أشار إلى الـ ٩٩٩ ، ولماذا لم يدركها إلى الألف ما دامت قد وصلت إلى هذا الحدّ؟

سُئل دون جوان مرّة :

ألا تشبع من النساء؟

قال :

– أرجو أن تشبعني التالية.

وهكذا كانت التالية تنتقل من ٢ إلى ٤ إلى ٩ إلى ٩٩ إلى ٩٩٩. ثمّ مات ، رحمه الله ، «وفي نفسه شيء من حتّى» !

هذا الشيء – على ذمّة العارفين – هو ما يجعل للمرأة إغراءها الدائم ، وللحبّ معناه المستجدّ. وكلّ الظنّ أنّ مارسيل أشار لن يجده في الـ ٩٩٩. بل يجب أن لا يجده. وإلّا انقطع الخيط السحريّ الذي يربط آدم بحوّاء.

١٩ حزيران ١٩٦٢

الحمد لله أنّنا فقراء

الموضة في كلّ شيء ، حتّى في السياسة. والموضة السياسيّة رقم ١ في هذه الأيّام هي الفقر أو التظاهر به. فكلّما دقّ الكوز بالجرّة – يعني بدعوة أو بغير دعوة من أحد – يرفع فلان رأسه ويردّد بكلّ فخر مع الشاعر: «الحمد لله أنّنا فقراء»...

الحمد لله ليس عندي بيت ، الحمد لله أنّني ولدت مستأجرًا وأموت مستأجرًا ، الحمد لله ليس لي رصيد في البنك ، الحمد لله ليس في جيبي قرش ، الحمد لله أنّني مديون ، الحمد لله ! الحمد لله ! وينتظر طبعًا على هذا التصريح المكافأة المعهودة : التصفيق لنزاهته والهتاف لتجرّده وإخلاصه وتضحيته في سبيل الوطن.

ولو أحصينا الفقراء الذين من هذا النوع في لبنان لدخل في الظنّ أنّ السياسة عندنا لا تنجب إلّا الفقراء ، ولم يبقَ إلّا أن نطلب من جمعيّة مار منصور دي بول أن تضمّ أسماءهم إلى لوائحها وتتفقّدهم في آخر كلّ شهر برطل طحين ، أو بطقم عتيق.

لقد تجاوز الأمر حدّ المعقول والمحمول ، وانقلبت معه آيات كثيرة. فأيّ عيب في أن يكون عند السياسيّ ، أو غير السياسيّ ، بيت ، أو مال ، أو مزرعة؟ إلّا إذا كان المفهوم أنّ البيت والمال والمزرعة لا يمكن الحصول عليها إلّا بالحرام.

أهذا هو المراد بإعلان الفقر؟ إذا كان ذلك فيا ألف سلام على الأخلاق في هذا البلد. لم يبقَ فيه مجال لحلال. وإذا كان من حلال فعليه أن يخفي رأسه ويتوارى تحت الأرض ، فالناس غير مستعدّين أن يعترفوا له بحقّ الوجود.

٢٤ حزيران ١٩٦٢

الجمال والحبّ والفنّ

صباح أمس زارني صديق ظريف. ولست أدري كيف وصل بنا الحديث إلى الرقص ، فعقد الرجل حاجبيه وقال : أنا ضدّ الرقص.

قلت : أنت متأخّر عن عصرك ، فهذا الموضوع صار الجدل فيه على زمن جدّك أو أبيك على الأقلّ ، وانتهينا منه. هل لك فيه رأي جديد؟

قال : كلّا. الرأي ليس لي ، ولكنّي قرأته فتبنّيته لأنّه وافق مزاجي. هو تحديد للرقص جاء على لسان أحد الراسخين في العلم.

قلت : وما هو؟

قال : «الرقص تعبير عموديّ عن رغبة هي في الأصل أفقيّة.»

قلبت شفتي استحساناً لهذا القول البارع ، ولكنّي مع ذلك أصررت على أنّ الرقص فنّ من الفنون. فصاح الصديق كالمجنون :

– وأيّ فنّ هذا؟

أجل يا صديقي ، الرقص كالموسيقى ، كالشعر ، كالرسم ، كالنحت وأيّ فنّ آخر. إنّه تعبير عن الجمال ، أو بالأحرى عن تأثّرنا بالجمال. يعني بصراحة عن الحبّ. لولا الحبّ – من أيّ نوع – لما كانت الفنون. قصارى الفنون أنّها تتناول الرغبة التي يسمّيها صاحبك رغبة أفقيّة فتخرجها من قالبها الحيوانيّ وتعطيها ألف قالب وقالب ، بألف شكل وشكل ، وألف لون ولون ، وألف لحن ولحن. وهكذا ترتفع بها إلى مستواها الإنسانيّ الحضاريّ ، الفنّيّ الإلهيّ...

فقاطعني الصديق صائحًا : ما معنى هذا كلّه؟

قلت : معناه رُح ارقص!

٢٢ حزيران ١٩٦٢

الفنّ المقلوب

عاب عليّ أحدهم رأيًا أبديته في الفنّ الحديث ، لمناسبة معرض أقامه فريق من رسّامي هذه الأيّام. فقال : كيف تزعم أنّ هذا الفنّ لا يُعرف له رأس من ذنب؟ اِكتفيت إذ ذاك من الجواب بهزّ الكتفين. ولم أكن أعلم أنّ الكلمة التي أطلقتها على سبيل المجاز إنّما كانت تنطبق على الحقيقة. أكثر من ذلك ، فالفنّ الحديث لا يخلط الذنب بالرأس ، بل هو يضع الذنب موضع الرأس عن سابق تصوّر وتصميم بعد أن اكتشف – صدفة – أنّ الذنب خير من الرأس ، والقفا خير من الوجه!

يقول الرسّام الفرنسيّ واسيلي كادينسكي إنّه استلقى على ظهره ذات ليلة ، ثمّ نظر إلى الحائط ففوجئ بنور باهر يشعّ منه. فهبّ على قدميه مأخوذًا بسحر ما يتدفّق مع هذا النور من ألوان وخطوط وأشباح غير مفهومة ولكنّها رائعة (كذا). ثمّ اكتشف ، حين أفاق ، أنّها إحدى لوحاته ، ولكنّها كانت مقلوبة! قال : «إنّني لم أرَ في اللوحة مستقيمة عشر معشار ما رأيته فيها وهي مقلوبة». ومنذ تلك اللحظة كان اللاشكل في الرسم.

كادينسكي ينطق بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن زملائه الذين يُعدّون بالألوف ، وهم في النتيجة لم يقلبوا الصور رأسًا على عقب ، ولا الفنّ من حيث هو ، بل الكون بأسره ، والحضارة بأمّها وأبيها. إنّهم عادوا إلى نقطة الصفر.

فليعذرونا ، نحن ما زلنا محافظين ، أي من الذين يمشون على أقدامهم ، ولسنا مستعدّين أن نمشي على رؤوسنا في سبيل فهمهم.

٢٤ تموز ١٩٦٢

المغيب في الضيعة

لي كلّ مساء، على شرفة بيتي في بحرصاف، وقفة رائعة أتأمّل فيها غروب الشمس.

والشمس في ضيعتي تطلع من وراء الجبل وتأخذ في الدوران حول بيوتها، تقبّل كلّ نافذة، تتمسّح بكلّ جدار، تتمدّد على كلّ سطيحة، ثمّ تنحدر صوب بيروت وتغطس في البحر.

سابحة ساحرة، ماهرة في الغطس. تتعرّى في الأفق البعيد خلف ستار شفّاف من الغمام أحيانًا، وعلى رأي العيون الناظرة أحيانًا. لا يُعوزها في الحالتين الخجل، ولا الدلال، ولا الفتنة.

ويطيب لها أن تلبس كلّ يوم زيًّا. فعلى رأسها برنيطة مرّة، وطرحة مرّة ثانية، وطربوش مرّة ثالثة، وعمامة مرّة رابعة. إلخ. ولا يندر أن يخطر لها المزاح فتدسّ رأسها في طنجرة! وهي، مع ذلك، لا تتخلّى عن تأنّيها، ولا عن شيء من وقارها. ثمّ تخلع كلّ شيء وفجأة تختفي. تفضحها ثيابها المعلّقة على حبل الأفق كثياب العاشقة المقبلة على وصال...

تُرى، إلى أيّ موعد تذهب الشمس، وبين ذراعَي مَن تقضي ليلها؟

هذه اللوحة الفنيّة المتجدّدة، هذه القصيدة العصماء الّتي تنظمها الطبيعة كلّ مساء، كيف يمرّ الناس في الشوارع، أو يجلسون في الصالونات فلا يتمتّعون بها؟

من أجلِ مغيبك، أيّتها الشمس، في ضيعتي أصبحت أحبّ كلّ مغيب. وفدى مغيبك عندنا ألف شروق في دنيوات الناس.

٢٦ تموز ١٩٦٢

مارلين مونرو

أنا مع جريدة الفاتيكان في رثاء مارلين مونرو. قالت:

«لا يسعنا أمام نهايتها التاعسة إلّا أن نشعر بشفقة عظيمة.»

الشفقة على مخلوقة يتيمة، نشأت وترعرعت في أكناف الحرمان والذلّ والبؤس. إشتهت لقمة العيش، ولبست الخرق، وتنقّلت مطرودة من بيت إلى بيت تطلب عملًا...

وفجأة تتنبّه هوليود إلى هذه الحيوانة الجميلة فتصطادها بشباكها، وتتداولها الشركات في أفلامها، تستغلّ جسدها وتعهد إليها بالأدوار الخلاعيّة إثارة للجماهير، وتغدق عليها الشهرة والثروة والمجد، وتكرّسها «ملكة الجنس»...

ملكة توزّع على رعاياها – وهم بمئات الملايين من أقصى الدنيا إلى أقصاها – المفاتن والمباهج. تفتح لهم – بالكشف عن نحر أو ساق – صناديق شهواتهم المغلقة... ثمّ إذا هي تتنبّه، بدورها، إلى أنّها تطعمهم جسدها! وأنّهم يلتهمون هذا الجسد، ويتناتشونه مزقًا، حتّى لم يبقَ لها إلّا الروح، عظمًا مجرّدًا لايسأل عنه أحد.

هذه هي مأساة مارلين مونرو وقد ملأت حياتها بالمرارة، وانتهت بها إلى اليأس، فإلى قذف هوليود والعالم بالشتيمة الكبرى. ألم يجدوها عارية في السرير الذي انتحرت فيه؟ كأنّما هي تقول لهم:

– لم تكونوا تريدون إلّا جسدي الجميل. هذا هو، خذوه كما أحببتموه، واتركوني أذهب!

٩ آب ١٩٦٢

بماذا تهتمّ حوّاء

تنقلب الدنيا رأسًا على عقب ، وتطبق السماوات السبع ، ولا يتغيّر حرف من ناموس حوّاء.

فحوّاء يهمّها جمالها وهو حسبها ونعم الوكيل ، في الشباب والشيخوخة ، وفي الحياة والموت سواء بسواء.

إمرأة من إيطاليا اسمها أتناسيا أنجلينو – أي الملائكيّة ! – أقدمت على قتل زوجها ضربًا بالفأس ففلقت رأسه فلقتين ، وقطعت ذراعيه وساقيه ، ثمّ لم تكتفِ بذلك حتّى شقّت صدره وطرحت قلبه للقطط .

وقد حُكم عليها بالإعدام رميًا بالرصاص.

بيت القصيد أنّ أتناسيا الملائكيّة البالغة من العمر خمسين سنة رفضت أن تستقبل الكاهن قبل سوقها إلى ساحة الإعدام . وحينما سئلت عن مشتهاها الأخير بكت وقالت :

– رحماكم ! صوّبوا الرصاص إلى ما تشاؤون من أعضاء جسمي ، ولكن لا تشوّهوا جمالي !

ولست أدري كيف خرج الجنود من هذا الحيص بيص الذي وضعتهم فيه أتناسيا . وأعترف بأنّني لو كنت محلّهم لما كان من السهل أن أختار. فأين يكمن ، يا ترى ، جمال حوّاء؟ ولماذا لم تعيّن أتناسيا الهدف في طول جسمها وعرضه؟

العبرة أنّ أختنا بالربّ قد أرسلت زوجها إلى السماء أشلاء مبعثرة ، وتحرص على الذهاب إلى جهنّم بالجمال والكمال.

فسبحان الله !

١٥ آب ١٩٦٢

الجدود الذاهبون

أمس ودّعت قريتي جدًّا آخر من جدودنا العتاق ، وكنت في جملة المودّعين الذين رافقوا الجثّة إلى المقبرة المتواضعة الجاثمة على السفح في طرف القرية...

هل خطر لك يومًا أن تقابل بين الجدود العتاق والجدود الجدد؟

بضع مئات ، بقايا الجيل السابق ، موزّعون في قرى لبنان كسنديانات‌ها الدهريّة ، أصولها في الأعماق وفروعها في الآفاق. والآخرون من حولهم قصبات هزيلة في مهبّ الريح.

في الجدود العتاق تتمثّل فضائل لبنان وتقاليده : الشرف ، المروءة ، الوفاء ، عفّة اليد واللسان والقلب ، الإيمان بالله وبالنفس وبالآخرين . وبكلمة واحدة : الخير.

أنا أعلم أنّ الدنيا تسير بنا ، وأنّ الحضارة تدفعنا في تيّارها ، ولا سبيل إلى الرجوع إلى الوراء. ثيابنا اليوم أجمل من ثياب الجدود ، وأيدينا أنعم من أيديهم ، وبيوتنا أفخم من بيوتهم ، ودروبنا أسهل من دروبهم الحافلة بالشوك والحصى. ولكنّ قلوبنا أصغر من قلوبهم . لقد كانت لهم قلوب تسع الأرض والسماء.

جدودنا العتاق يعيشون في عزلة . غرباء في قرى هجرها أهلها إلى المدينة . وكلّ يوم تطلع عليهم الحياة الجديدة بوحشة جديدة . إلى أن يوافيهم القدر المحتوم ، فيذهبوا في طريق المقابر المتواضعة الجاثمة على السفوح .

ويذهب معهم الكثير من لبنان.

٩ أيلول ١٩٦٢

لا في حلال ولا في حرام

قبضت الشرطة على عصابة لصوص في بيروت أحد أعضائها شابّ من حملة البكالوريا.

لا.أحبّ أن أذكر اسم الشابّ، لأنّني لا أريد التشهير به، وإنّما قصدي التشهير بالبكالوريا. ويظهر أنّ هذا أيضًا هو قصد الشرطة، وإلّا لما حرصت في تقريرها على ذكر هذا التفصيل الذي ليس في العير ولا النفير. وما علاقة المستوى الثقافيّ باللصوصيّة؟

لعلّ الشرطة تريد أن تقول: يا عيب! حامل بكالوريا يسطو ليلًا على المنازل، يسرق وينهب كالجهّال! يا ضيعة العلم! ويا خيبة الأمل في الشهادات!

على أنّ التجارب في بلدان العالم قاطبة قد أثبتت أنّ العلم شيء، والإجرام شيء آخر. عفوًا. أريد أن أقول إنّ التجارب قد أثبتت أن لا مانع من اجتماع العلم والإجرام في شخص واحد. هذا إذا اعتبرنا البكالوريا علمًا... وهناك مجرمون من الطراز الأوّل، سفّاكو دماء، وقطّاع طرق، ولصوص دوليّون إلخ. من حملة الليسانس والدكتوراه ومن كبار المؤلّفين والفلاسفة. وكلّ ما في الأمر أنّ عبقريّة الإجرام تطغى فيهم على عبقريّة العلم.

بناءً عليه يكون حامل البكالوريا قد استعمل ولا شكّ عبقريّة الإجرام عندما انخرط في عصابة اللصوص، ولو اتّكل على البكالوريا – خصوصًا اللبنانيّة – لسقط في الامتحان مئة بالمئة. إنّها ورقة لا تنفع في حلال ولا في حرام.

١١ أيلول ١٩٦٢

الحياد الشعريّ

تريد الصحيح؟ لا أحبّ من مهرجانات الشعر إلّا سوق عكاظ، تلك التي كانت تُقام في الجاهليّة، يوم كان الشاعر في الغالب خطيبًا وصحافيًّا ومحاميًا تليق به المهرجانات ويليق بها. أمّا في هذا العصر وقد أصبح الشعر مناجاة للكون، وهمسًا من النفس إلى النفس، وتعاطيًا مع الله – أو الشيطان – فلا أتصوّر كيف تُقام له المهرجانات وتُدقّ الطبول.

ومع ذلك نحن مقبلون على مهرجانين للشعر، بدل المهرجان الواحد. الأوّل في حلب – الجمهوريّة العربيّة السوريّة، والثاني في الإسكندريّة – الجمهوريّة العربيّة المتّحدة.

والأنكى أنّ الاثنين سيقامان في وقت واحد. وقد وجّهت كلّ من الدولتين المحترمتين الدعوة إلى الدول العربيّة الأخرى لتحضير القصائد وتأليف الوُفود.

قال لي الشاعر الإنكليزيّ ستيفان سبندر يوم زار لبنان (١٩٦١): «الشاعر عضو في جمعيّة سرّيّة – كالماسونيّة تمامًا – إلّا أنّ أعضاءها في اللغة الواحدة لا يتجاوزون الثلاثين». ثمّ أردف: «ثلاثون يفهم بعضهم من بعض. أهذا قليل؟»

حقًّا إنّ كلًّا من الجمهوريّتين لأفرغ بالًا من أختها. ومن ذا يطلب منها الاهتمام بالشعر؟ إلّا أن يكون على طريقة اليمن. المهمّ، على أيّ حال، أنّ لبنان كان وما يزال، مهما حمي الوطيس بين شقيقاته العربيّات، على الحياد في السياسة وغيرها. وهذا وقت الحياد الشعريّ.

١٥ أيلول ١٩٦٢

في نبع الصفا

في نزهة قمت بها إلى نبع الصفا انحدرت مع الصباح إلى ذلك الوادي الأخضر، أستمتع بالطبيعة يخلع عليها الخريف هدوءه ويمسح وجهها بكآبته.

وعند أحد المنعطفات طلع لي فلّاح. شيخ بشروال، محمرّ الخدّين بالعافية كتفّاحاته، فبادرني بـ «صباح الخير» ودعاني إلى الجلوس على حجر، وأبى إلّا أن أذوق من أثماره.

لقد حدّثني الرجل مدى ساعة عن كلّ شيء... حدّثني عن الزراعة والحكومة، عن القرية والمدينة، عن شبابه وأقرانه –وأكثرهم ماتوا– عن أسفاره ومغامراته، حدّثني عن السياسة والرئاسة... عن الأولاد والنساء، وعن الأرض والسماء. كان يتدفّق تدفّق الشلّال في الصفا، وكأنّه يوقّع كلماته على خريره.

كنت أحبّ أن أنقل حديث العمّ داود –وهو اسمه– من أوّل حرف إلى آخر حرف.

ولكن أين لي قافاته الشوفيّة الحلوة، وحرارة كلماته، وتألّق عينيه، وانتفاضات قلبه على شفتيه؟ نحن –المتعلّمين– ننطق بالمنقول المعار، والعمّ دواد وأمثاله ينطقون بتجارب حياة، وخلاصة عمر.

قال في مسك الختام وهو يهزّ رأسه:

– في الزمان يا صاحبي، لم يكن عندنا مال في جيوبنا، ولكن كان الله في قلوبنا.

... تُرى، متى أعود إلى الصفا وأشرب من النبعَين؟

٥ تشرين الأول ١٩٦٢

الصداقة والصديق

كثيرًا ما تساءلت، وأنا أستعرض المواضيع التي طرقها الكتّاب والشعراء في طول الدنيا وعرضها، منذ أقدم عصور التاريخ وبمختلف اللغات: تُرى، لماذا يكون لكلّ موضوع ألف كتاب وألف ديوان ولا يكون للصداقة منها شيء؟

مع أنّ الصداقة – بإجماع الرأي – أنبل عاطفة، وأقدس علاقة.

لعلّ فصل «الصداقة والصديق» لأبي حيّان التوحيديّ من الفصول الفريدة في العالم عن هذا الموضوع المنكود الحظّ.

ومن أحلى ما فيه مقارنة بين الوالد والوالدة والأخت وابن العمّ وبنت العمّ والعشيق من ناحية، والصديق من ناحية. نقل المؤلّف هذه المقارنة على لسان أعرابيّ. قال الأعرابيّ:

«وكلّ هؤلاء. مع شرف موقعهم منّي، وانتسابهم إليّ. كلّهم دون الصديق، الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينيه ويراها بعينيّ، إذا عززت له ذلّ لي، وإذا ذللت له عزّ بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودّة، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة. لا يتوارى عنّي إلّا حافظًا للغيب، ولا يتراءى لي إلّا ساترًا للعيب.»

وروى المؤلّف كذلك عن لسان أرسطو أنّ تلميذه الإسكندر سأله: مَن الصديق؟ فقال:

– إنسان هو أنت، إلّا أنّه بالشخص هو غيرك.

الصديق؟ ينبغي أن نفتّش عنه في أنفسنا.

٦ تشرين الأول ١٩٦٢

عروس من خشب

منذ أيّام تمّ في فورموزا زواج شابّ من فتاة ماتت قبل ١٨ سنة!

قبل شهر أوصى يان – وهو اسم الشابّ – على بدلة لدى أحد الخيّاطين. وفي الليلة نفسها جاءته ابنة الخيّاط في الحلم وفي يدها البدلة، فتعجّب ثلاثًا: الأولى لأنّه أوصى على بدلته في الصباح، والثانية لأنّه يعرف أنّ شينا ابنة الخيّاط الحلوة قد توفّيت منذ زمان وتخثّت عظامها. ولكنّ تعجّبه في المرّة الثالثة كاد يبلغ الجنون إذ سمع الفتاة تقول له: عليك أن تتزوّجني، وإلّا موتًا تموت!

وثابرت على ذلك طول شهر لم تخرم ليلة. فلم يَسع الشابّ إلّا أن يعملْ بمشيئة شينا. فقصد إلى والدها وقصّ عليه القصّة. وتمّ الاتّفاق على عقد زواج روحيّ، وأُقيمت حفلة العرس حسب الأصول: هو بالبدلة الجديدة – إيّاها – وهي بلوحة خشبيّة حُفر عليها اسمها الكريم بالصينيّ.

وقد أخذ العريس اللوحة ودوطة توازي ١٥٠ دولارًا... يعني، بالعربيّ الفصيح، أنّ العرس استوفى شروطه: الرضى المتبادَل، موافقة الوالدين، عقد الزواج، شرب الأنخاب، وحتّى الدوطة... ما عدا العروس التي كانت عبارة عن لوحة خشبيّة!

ولكن لصاحبنا الصينيّ أسوة بغيره من العرسان – في الصين وفي كلّ مكان – فالعرائس اللواتي هنّ لوحات خشبيّة أكثر من أن ينالهنّ عدّ أو حصر.

فليشكر ربّه على أنّ عروسه ستبقى معلّقة في الحائط ولن تنزل إلى فراشه.

١٠ تشرين الأول ١٩٦٢

يوسف الحويّك

لم يسعفني الحظّ بالتعرّف إلى وجهه، إلّا ما تعرّفت إليه خلال الوجوه الجميلة التي نحتها إزميله.

كان يوسف الحويّك في ذهني مثال الفنّان، ويؤكّد الذين عرفوه عن كثب أنّه مثال الإنسان. وإذا اجتمعت الصفتان لفرد من الناس فقد بلغ مرتبة العظماء.

لست أدري لماذا تعود إليّ – وأنا أرثي يوسف الحويّك – قصيدة ألفريد دي ڤينيي في موت الذئب:

«الأنين، البكاء، التوسّل، كلّها جبن على حدّ سواء.

قُم نشيطًا بعملك الطويل الشاقّ في السبيل الذي دعاك إليه القدر.

ثمّ – مثلي – تعذّبْ ومُتْ صامتًا...»

لم يعرف يوسف الحويّك في عمره الأنين ولا البكاء. كلّا ولا عرف التوسّل إلى أحد. لقد عمل من أجل الفنّ مضحّيًا في سبيله بكلّ شيء. وله في النحت فضل السابق الرائد. كان منقطعًا عن الناس إلى فنّه، زاهدًا بالمجد، يعيش في قرية صغيرة ضمن عالم له هو عالم التأمّل والمحبّة والتواضع الذي لا تعرفه إلّا النفوس الكبيرة.

رحم الله يوسف الحويّك. لقد عاش عيشة الحمل ومات ميتة الذئب. وكان في كلا حياته وموته فنّانًا أصيلًا، وإنسانًا نبيلًا.

ومن حقّ هذه النهضة الفنّيّة في لبنان أن تعرف له قدره. ومن حقّ الكثيرين أن يتعلّموا منه ويأخذوا عنه، في نحت الحجر ونحت النفس على السواء.

٢٦ تشرين الأول ١٩٦٢

كلام ملكة

من جملة الملكات اللواتي أطلعهنّ الموسم ملكة القطن في حلب. واحدة اسمها بنيتا. أعجبني من جلالتها حديث أدلت به على أثر تتويجها. وأعجبني من الحديث، خصوصًا، جوابها على سؤال: ما هدفك في الحياة؟ قالت: أن أعيش مع كلّ لحظة منها.

هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها الملكة من هؤلاء الملكات كلامًا يصحّ فيه القول المأثور: «كلام الملوك ملك الكلام».

لم تعيّن الملكة هدفًا خاصًّا. لم تقل مثلًا إنّها تريد أن تصبح ممثّلة سينما، أو أن تتزوّج أمير أحلامها، أو أن تسيح حول العالم، أو أن تركب صاروخًا إلى القمر... لم تقل شيئًا من ذلك، وقالت كلّ ذلك وأكثر منه.

أكثرنا – رجالًا ونساء، ملوكًا وصعاليك – نعيش إمّا في الماضي مع الذكريات الميتة المحنّطة، وإمّا في المستقبل مع الآمال والأوهام التي ننسجها، من الحرير طبعًا لا من القطن... وقليلون هم الذين يعيشون مع اللحظة التي هم فيها.

«ما مضى فاتَ والمؤمَّلُ غيبٌ
ولك الساعةُ التي أنت فيها»

لقد نثرت بنيتا هذا الشعر أجمل النثر وأبسطه وأبلغه في آن واحد، وبرهنت أنّها لا ملكة فقط، بل فيلسوفة أيضًا.

وبعد، فاسم بنيتا معناه بالعربيّ – إذا لم أكن مخطئًا – مباركة.

مباركة لك، يا بنيتا، جلالتك الفكريّة، ومباركة إن شاء الله كلّ لحظة من حياتك.

٨ تشرين الثاني ١٩٦٢

الفقر والغنى

كلّنا – نحن عباد الله الفقراء – يتمنّى أن يكون غنيًّا. لماذا؟ لكي يحقّق أحلامه، وإن كان العكس لا يصحّ.

في هذا المجال تعدّدت التمنّيات، والتصريحات. والتحقيقات الصحافيّة: لو هبط عليك من السماء مليون ليرة مثلًا ماذا تعمل بها؟

الملايين لا تهبط عادةً بمثل هذه الأعجوبة. على أنّ مئات من الألوف قد هبطت على صديق لي من حيث لا يدري – حلالًا زلالًا – فبادرت إليه أهنّئه وأغبطه وأسأله:

– ما أنت صانع بها؟

فقلب شفتيه وفتح كفّيه وقال:

– والله يا سيّدي، لا أعرف. المال مُربك.

بالمناسبة، قرأت لإحدى الراقصات حديثًا قالت فيه:

– أمنيّتي في الحياة أن أكون مليونيرة كي أتمكّن أن أعيش كما أشتهي. تارة حياة صاخبة جنونيّة، وأحيانًا أخرى حياة عاقلة هادئة.

يلوح لي أنّ الراقصة ماهرة في ترقيص الأفكار مهارتها في ترقيص قدميها. إنّها فيلسوفة بقدر ما هي فنّانة.

فامتياز الغنى على الفقر أنّ هذا يلزم صاحبه وضعًا معيّنًا يحبسه فيه. وأنّ ذلك يطلق حرّيّته في التنقّل. وما لذّة العيش، كما يقول الشاعر، إلّا في التنقّل بين الصخب والهدوء، والعقل والجنون، وبالعكس.

وللغنى امتيازات وامتيازات أكتفي بما ذكرت منها لئلّا أزيد الحسرات.

١١ تشرين الثاني ١٩٦٢

الأسدان الحارسان

البيوت القديمة التي تُهدم في بيروت، لكي يطلع مكانها بيوت حديثة، أكثر من أن تُعدّ. ومع زوال تلك البيوت يتوارى عهد ليحلّ محلّه عهد آخر.

لا أتصدّى إلى المقابلة بين العهدين. ولكنّي أحبّ أن أعبّر عمّا جال في خاطري هذا الصباح وأنا أمرّ أمام بيت من تلك البيوت.

كان كلّ شيء قد أصبح أنقاضًا على الحضيض، إلّا البوّابة والأسدان الرابضان من هنا ومن هنا على جانبَي العتبة، وقد كساهما التراب فضلًا عن الغبار المتراكم عليهما منذ عشرات السنين. وهما يحتفظان، مع ذلك، بوقارهما ونظراتهما المخيفة، وبتكشيرة هي التي عناها الشاعر في قوله:

«إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارزةً
فلا تظنّنّ أنّ الليثَ يبتسمُ»

وقفت أضحك وحدي... تمثّلت لي الحياة التي عرفها هذا البيت طوال ثلاثة أو أربعة أجيال – وهو من بيوت الأرستقراطيّة المهترئة – وتتابعت أمام مخيّلتي مواكب الثعالب والخنازير والأفاعي التي كانت تدخل إليه وتخرج منه وتعيث فيه فسادًا، على مرأى ومسمع من الأسدين الحارسين وتحت ذقنهما. وتذكّرت أنّني كنت أمرّ أمامها، كما أمرّ الآن، وكثيرًا ما خاطبتهما هكذا: إمّا أن تقوما بواجب الحراسة، وإمّا أن تتفضّلا بإزالة هذه التكشيرة!

ما أشبه بعض الحكّام بأسود البوّابات في البيوت القديمة التي تعمل فيها معاول الهدم!...

٢١ تشرين الثاني ١٩٦٢

من أعياد لبنان

شيء جديد في لبنان. الثمرة الأولى من نوعها من ثمار المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات. لقد انتُخبت السيّدة أو الآنسة، لا أعلم، على كلّ حال الأستاذة تيريز عيد رئيسة لبلديّة مزرعة الشوف.

حدث تجدر تحيّته والاحتفال به عيدًا من الأعياد، وقد شاء القدر العجيب أن يضفي عليه اسمه عندما شاء أن تكون الرئيسة نفسها حاملة هذا الاسم. فلا مناص إذن ولا نقاش.

وبانتظار أن تخطو المرأة اللبنانيّة من البلديّات إلى المجالس النيابيّة – والبلديّة مجلس نيابيّ مصغّر – أرجو أن يكون اشتراكها في الاضطلاع بأعباء الأمور العامّة بادرة خير.

فمجال العمل في البلديّات يتّسع لمواهبها ومؤهّلاتها، وهي مدعوّة فيه إلى إشاعة الفضائل البيتيّة من ترتيب ونظافة، ونظام ووئام. وقد كان هذا المجال حتّى اليوم وقفًا على الحزبيّات والعنعنات والنكايات بين الرجال.

قال المتنبّي مخاطبًا العيد:

«عيدٌ بأيّة حالٍ عدتَ يا عيدُ
بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ؟»

مع الأستاذة عيد وعيدها نهاية عهد مضى وبداية عهد يقبل فيه تجديد لأشياء كثيرة إن شاء الله، في البلديّات وغير البلديّات.

وألف مبروك للأستاذة عيد. فعيدها عيدنا جميعًا رجالًا ونساء على السواء، لأنّه من أعياد لبنان.

١٥ كانون الأول ١٩٦٢

بلاد الحلم والواقع

لبعض الكلمات سحر الأصابع المحبّة تقبض نهدًا.

منها الكلمة التي قالها ميشال شيحا: «لبنان بلاد الحلم والواقع مجتمعَين».

ميشال شيحا، كما يعرفه عارفوه، بدأ بتحقيق ذلك في نفسه، فكان سيّد من قبض النهود (شعرًا) والنقود (عدًّا) بأصابعه السحريّة المحبّة.

الحلم هو جمال هذه الطبيعة بين الأرض والسماء والبحر. هو هذه الروحانيّة الآتية من الشرق وما تحمل من مُثُل عليا. هو هذه التقاليد العريقة، وهذه الآثار الماثلة في بعلبكّ وجبيل وصور، وهذا التاريخ الذي نجوس خلاله عند كلّ خطوة. الحلم هو هذه المأذنة تعانق قبّة الجرس في فضائنا السمح، وتُلقي كلتاهما ظلًّا من المحبّة والرحمة على الناس. هو هذه الحياة الرحبة الموزّعة بين الجبل والشاطئ، وهذه الفرحة التي تطلع علينا مع شروق كلّ شمس، وهذه الطمأنينة التي يسكبها في القلوب قمر ليالينا...

أمّا الواقع فني هذه الحضارة العصريّة التي ننعم بها والتي تختصر المسافات في المجيء إلينا من أطراف الدنيا شرقًا وغربًا. فكأنّها إذ تنبت في أوروبا وأميركا، وحتّى في الصين، تنبت عندنا في أرضها وجوّها. في الفكر والصناعة، في الدكّان والبيت، في زيّ النساء كما في هندسة البناء...

على أنّ هذه البلاد هي بلاد الحلم والواقع مجتمعَين ليس في ذلك كلّه فحسب، بل قبل كلّ شيء في أنّها هي نفسها – من حيث هي أمّة ومن حيث هي دولة – حلم يتجسّد في واقع.

٢٩ كانون الأول ١٩٦٢

مع القطّة التي انتحرت...

لعلّك تلحظ في المآتم، كما ألحظ، هذه الغبطة الخبيثة التي تتلألأ خلال الدموع، وذلك الدفء الماكر الذي يدغدغ القلوب، وقوده – يا للغرابة – من صقيع الموت.

كأنّ أهل الفقيد وأحبّاءه وأصحابه ومعارفه جميعًا يقولون: الحمد لله، لسنا نحن.

والمعزّون يزيدون في هذا الشعور، ويرسّخونه ويمجّدونه. يردّدون «العوض بسلامتكم! تأخذوا عمره!...» إلى آخر اللازمة. ومنهم من يأبى إلّا العناق والتقبيل.

هذه العادات والتقاليد تبرّرها الطبيعة البشريّة القائمة على حبّ البقاء. أنا لا أنتقدها بل أكتفي بتسجيلها وأقابلها، مثلًا، بما روته الصحف عن قطّة تخصّ إحدى السيّدات. لقد ماتت السيّدة فبكاها الناس على طريقة العادات والتقاليد المشار إليها، أمّا القطّة فصعدت إلى السطح ورمت نفسها إلى الشارع هكذا، منتحرة، رافضة أن تعيش بعد سيّدتها.

لست أدري مقدار هذا الخبر العجيب من الصحّة. فربّما كانت القطّة لاحقة على السطح بفأرة فزلّت بها القدم. أو ربّما كانت على موعد مع قطّ من قطط الجيران فرمت نفسها إليه في الهواء... وربّما كان الخبر من نسج الخيال أصلًا. المهمّ أنّ هذا الدرس، مهما كان قاسيًا، لن ينفع البشر. فلن يرمي أحد منهم نفسه من السطح ليلحق بميته، إلّا من أفقده الحزن عقله، وهو الشاذّ. القاعدة أن يقعد للعزاء، ويستمتع بلذاذات البقاء.

٣١ كانون الثاني ١٩٦٣

بين الثريّا والثرى

علامَ ينظر بعضهم إلى إقدام إمبراطورة إيران السابقة على العمل في السينما هذه النظرة؟

«وا أسفاه على الثريّا تهبط إلى الثرى»! هكذا يقولون، أو شيء قريب منه. فإذا كانوا يعنون أنّ ثريّا نزلت عن مقامها فقد أخطأوا. فعرش الفنّ – وخصوصًا السينما – لا يقلّ شأنًا عن عرش الملك، والكثيرون من أصحاب العروش الحقيقيّة يحسدون ملوك السينما ويتمنّون لو كان لهم بعض ما لهم من جاه.

ويذهب آخرون إلى أنّ ثريّا لم تقدم على ما أقدمت عليه إلّا بدافع التحدّي. تحدّي الناس – كلّ الناس – وتحدّي القدر.

ويرى فريق ثالث، وهم الساخرون، أن لا كبير فرق بين حياة القصور وحياة المسرح. كلتاهما تقتضي موهبة في التمثيل. ولذلك يتوقّعون للإمبراطورة ثريّا مستقبلًا سينمائيًّا زاهرًا.

قال المخرج الذي تعهّدها: «طوال العشرين سنة التي قضيتها في العمل السينمائيّ لم أشاهد شخصًا يتحرّك أمام آلات التصوير للمرّة الأولى بمثل هذه الثقة.»

دعاية؟ ربّما.

ولكنّ هنالك حقيقة أعظم من الدعايات كلّها. هي أنّ ثريّا كانت تعيش منذ طلاقها على هامش الحياة، كأنّها متاع عتيق، شيء غير صالح، مادّة للتاريخ فقط. وهذا ما أرادت الخروج منه بأيّ ثمن.

إنّها الثقة بالقدرة على الحياة.

٢٣ آذار ١٩٦٣

الكيماويّ والفيتامين

قرأت في إحدى الصحف اللبنانيّة بحثًا مستفيضًا عن تقدّم الزراعة في هذا العصر.

لا أدخل في الموضوع من حيث معلوماته العلميّة، ولكنّي أحبّ التوقّف عند بعض الأرقام لأُفرغ بعض ما في قلبي وقلوب الناس من الغضب والحسرة.

من ذلك ما توصّلت إليه الزراعة في مضاعفة الإنتاج بفضل الأسمدة الكيماويّة والأطعمة الفيتامينيّة. فالدجاجة كانت تعطي في الماضي خمسين بيضة في السنة، فأصبحت تعطي مئتي بيضة. وقد نسي صاحب المقال أن يذكر أنّ بيضة هذه الأيّام أكبر من بيضة أيّام زمان. وكذلك الخسّة فهي بقدّ الإوزّة وأكبر، والخيارة – بلا قافية – طول ذراع. والدجاجة، ما شاء الله، أشبه ما تكون بحسّاد أبي الطيّب المتنبّي الذين قال فيهم متوجّهًا إلى سيف الدولة:

«أعيذها نظراتٍ منك صادقةً
أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُه ورمُ»

وقُل مثل هذا عمّا شئت من البقول والخضر والطيور واللحوم. وحتّى لقمة الخبز. كلّها هشّ، لا طعم ولا رائحة، تأكلها وكأنّك في المنام. مع هذا الفارق أنّك تُصاب بالتخمة وتظلّ جائعًا.

إنّه عصر الكيماويّ والفيتامين، عصر الأحجام الكبيرة الفارغة، في الحقول الزراعيّة... وفي حقول أُخرى كثيرة.

٢٨ آذار ١٩٦٣

الحصان الحمار

رحم الله المتنبّي القائل :

«ومَن جعلَ الضرغامَ في الصيدِ بازَه

تصيَّدَه الضرغامُ فيما تصيّدا»

تذكّرت هذا البيت بمناسبة الحادث الذي شهده سيرك موسكو في بروكسل. كان السيرك يعرض لعبة مثيرة : أسودًا تركب على ظهور أحصنة. ومعلوم أنّ العداوة بين الفريقين متأصّلة ، لا يطيق أحدهما الآخر. فكيف حلّت بينهما هذه الألفة العجيبة ، حتّى رضي الأسد أن يكون ذلك الفارس الهادئ ، ورضي الحصان أن يكون مطيّته دون خوف أو حرج؟

ذلك سرّ المدرِّب ولا شكّ ، أو بالحريّ سحره... على أنّ هذا السحر قد بطل فجأة خلال العرض الأخير. إذ اتّفق لأحد الأحصنة أن عثر وهو يخبّ بفارسه الرهيب ووقع أرضًا ، فكانت الكارثة.

تقول البرقيّات : وما كاد الأسد يقع عن الحصان حتّى غضب الغضب الشديد الذي ما عليه مزيد ، وتبعته الأسود الأخرى ، وأخذت تعمل في الأحصنة نهشًا وافتراسًا. وساد الهرج والمرج وأسفرت المعركة عن تمزيق الحصان العاثر إربًا إربًا وجرح سائر الأحصنة. وخلص المدرِّب بريشه...

مغزاه :

أنّ الأسد ظلّ صديق الحصان ما دام راكبًا على ظهره. فلمّا رماه رمى الصداقة وكشّر له عن أنيابه.

الحقّ على الحصان الذي سلّم ظهره للأسد ، فكان – من الأصل – حمارًا.

٦ نيسان ١٩٦٣

دراهم هذه الأيّام

قلت له : «تشرّفت كثيرًا يا سيّدي !» وذلك على أثر زيارة لبيته اقترحها عليّ وألحّ. والواقع أنّني انزعجت كثيرًا. والحمد لله أنّني لم أكن وحدي ، بل كان معي صديق ظريف خبيث. فلمّا خرجنا قال :

– الانزعاج ، يا صديقي ، لا يمنع التشرّف. ففي كلّ تشرّف شيء كثير أو قليل من الانزعاج. ومن أجل هذا دعانا الرجل لزيارته ، عني لكي ننزعج بقدر الإمكان.

وقد كان على الرجل ، لو كان عنده نظر ، أن يكتفي بما نعرفه من شخصه الكريم. من سيكاره الذي طوله شبر ونصف مثلًا ، يلوكه بين أسنانه جانبيًّا كأنّه عظمة قاسية ، أو يضرب به الفضاء كأنه الوقاحة قد تجسّدت صاروخًا... أو من ثيابه ذات الألوان الفاقعة يبدّل فيها طقمًا في الصباح ، وآخر بعد الظهر ، وآخر في السهرة ، وكلّما أتى طقم لعن ما قبله... أو من سيّارته ، ولكن أيّ واحدة؟ فهي عديدة ، الكاديلاك أم الكريسلر ، ناهيك بسيّارة الستّ وسيّارات الأولاد.

أجل ، كان من مصلحته أن يكتفي بذلك ، ولكنّه أبى إلّا أن نتعرّف إلى بيته أيضًا. فإذا هو معرض مشوّش ، وذوق مخمّش ، وتجديف على الحياء.

«أبت الدراهم إلّا أن تبرز أعناقها». هكذا كان يقول العرب. ولكنّ دراهم هذه الأيّام قد طلع لها قرون وأذناب. وهي فخورة بأن تُطلع قرونها وتلوّح بأذنابها في وجوه الناس.

٩ نيسان ١٩٦٣

هواية الشيطان

فركش يفركش فركشة...

لست أدري كيف تُقال بالعربيّ الفصيح ، ولكن هكذا نقولها نحن باللبنانيّ الدارج.

وهكذا تصرّفها المسز إديث. وما أدراك ما المسز إديث !

سيّدة إنكليزيّة ، جزيلة الاحترام - كما ينبغي للنساء أن يكنّ في عمرها : ٦٤ سنة عدا السهو والغلط - هجرها زوجها منذ سنوات. لماذا؟ لا أحد يعرف. المهمّ أنّها كانت تتسلّى به. فلمّا توارى حارت في أمرها. ماذا تعمل؟ وبمن تتسلّى خصوصًا عندما يهبط المساء على لندن وعلى شيخوختها بكآبته..؟

وأخيرًا خطر لها خاطر عبقريّ. ذهبت إلى زاوية أحد الشوارع ، فأسندت ظهرها إلى حائط واتّكأت على عصاها. وكلّما مرّ أحدهم مدّت له بالعصا بين قدميه فوقع عاضًّا الأرض ، فتبادر إلى الاعتذار بكلّ لطف بينما يقوم هو نافضًا ثيابه من الغبار ، لاعنًا مكرفتًا...

وتكرّرت الحكاية أيّامًا. ودائمًا مع الرجال دون النساء. حتّى افتُضح أمر السيّدة المحترمة فأُلقي عليها القبض وأُحيلت إلى المحاكمة. ولمّا سألها القاضي عن سبب فركشتها لعباد الله انفجرت بالبكاء ولم تجب.

فركش يفركش فركشة... إنّ زملاء المسز إديث في العالم أكثر من أن ينالهم عدّ ، وهم رابضون في كلّ زاوية من زوايا الحياة يلقون عصيّهم بين أقدام الناس. هواية من هوايات الشيطان الذي يعيش على الكيد والدسّ والشماتة.

١٢ نيسان ١٩٦٣

الحقوق غير المحفوظة

الحقوق محفوظة. للمؤلّف في التأليف ، وللملحّن في التلحين ، وللمخترع في اختراع أيّ شيء. وحذارِ من التقليد !

باسم هذه الحقوق المقدّسة رفعت الراقصة الأميركيّة المسّ فايت داين الدعوى على فرقة الأوبرا بتهمة أنّ إحدى الممثّلات فيها قد أخذت عنها مشهدًا من مشاهد الستربتيز - أي التعرّي أمام الجمهور - فقلّدت حركاتها الفنّيّة (كذا) تقليدًا لا يجيزه ، في زعمها ، عدل ولا يرضى عنه ضمير.

اِجتازت الدعوى عدّة مراحل حتّى وصلت أخيرًا إلى القاضي توماس بور ، عضو المحكمة العليا في ولاية نيويورك ، فأصدر فيها حكمًا معلّلًا مدلّلًا جاء فيه ما ترجمته :

«إنّ الستربتيز ، مهما رافقه من حركات واهتزازات ، وبراعات وإغراءات ، لا يمكن أن يشكّل لصاحبته حقوقًا محفوظة ، باعتبار أنّ كلّ ذلك ليس امتيازًا لامرأة دون أخرى ، ولا ملكًا لواحدة دون غيرها من النساء».

وردّ القاضي الدعوى من الأساس.

أنا طبعًا أوافقه على ذلك ، وأزيد أنّ المسّ داين يجب أن تكون فاقدة أحد اثنين : الذكاء أو الحياء. وقد كان عليها أن تتذكّر ، على الأقلّ ، أنّ جدّتها حوّاء كانت البادئة في فنّ التعرّي أمام جدّنا آدم وجمهور الحيوانات الذي كان يحتشد للفرجة في الجنّة. ومنذ ذلك التاريخ ضاعت كلّ الحقوق التي كانت محفوظة لها - وله - لا في الدنيا فقط ، بل في الآخرة أيضًا...

٢٠ نيسان ١٩٦٣

الملوك والناس

أسطورة ابن الملك الذي يتزوّج من راعية صارت في هذا العصر حقيقة. اِنتقلت من الكتب إلى الحياة. وربّما كان في ذلك مصلحة الملوك ومصلحة الرعاة معًا.

حادث اليوم زواج أحد أبناء الملوك السابقين من ابنة سائق سيّارة. وحديثه يجرّ إلى ما سبقه من حوادث. فالناس للملوك بالمرصاد، يتناولون أيًّا منهم ينزل إلى الساحة ويشكّونه في اللائحة بدبّوس.

أبادر إلى القول إنّني لست في صفّ الشامتين، مثلًا، ولا في عداد المتعجّبين. ولكنّي أتقدّم من العريس والعروس بالتهاني المألوفة وأردّد: بالرفاء والبنين.

رحم الله شاعرنا الشعبيّ عمر الزعنّي في قوله الرائع عن سلاطين بني عثمان: «كانوا ملوك صاروا ناس!»

كأنّما الملوك من غير الناس! وقد كانوا كذلك بالفعل، لا في نظر السذّج من الناس، ولا في نظر الزعنّي الداهية، بل في نظر أنفسهم. وفي هذا ألف كارثة وكارثة يحفل بها التاريخ.

على أنّ من عجائب هذا الزمان الذي نعيش فيه أنّه يغيّر الألوان في جملة ما يغيّر ويبدّل. وقد غيّر الدم الأزرق وبدّل منه الأحمر، ونزل الملوك إلى ساحة الناس يلعبون معًا اللعبة الواحدة.

وربّما وقف ملك ذو تاج وصولجان وهتف: «يا ناس، أنا واحد منكم!» وأقصى أمانيه أن يصدّقوه... ولكن هذا موضوع آخر.

٢١ نيسان ١٩٦٣

الأجداد والأحفاد

يظهر أنّ هذه الدنيا الدنيّة هي هي منذ كانت، ولا جديد تحت الشمس.

خصوصًا تحت الشمس المشرقة على بيروت.

الجديد القديم الذي أعنيه هو ما كشف عنه أحمد العريسي في الحديث الذي أدلى به إلى جريدة «الحياة» بمناسبة ذكرى الشهداء. فبعد أن وصف موكب المجد ذلك الوصف المؤثّر قال ما حرفيّته:

«ويؤسفني أن أذكر أنّ بعض القبضايات وزعماء الأحياء في تلك الأيّام احتشدوا أثناء الإعدام على شرفة ملهى الباريزيانا –وكان يحمل في ذلك الوقت اسم سينما الديك– وراحوا يشتمون كلّ شهيد وهو في طريقه إلى المشنقة بأشنع الألفاظ.»

معنى ذلك، بالعربيّ الفصيح، أنّ لهذا الصنف من المخلوقات تقاليد ترجع إلى العهد العثمانيّ البائد. وهم، طبعًا، لم يفعلوا ما فعلوه إكرامًا لعيون السلطان ولا وفاءً للدولة العليّة. ولكنّهم قاموا بوظيفة هي وظيفتهم الخسيسة التي منها يأكلون خبز العار.

أولئك هم الإمّعات والأزلام، الحاضرون في كلّ عرس، الناضرون في كلّ مأتم، النافخون في كلّ بوق، ومن سلالتهم عشرات القبضايات وزعماء الأحياء الذين تحفل بهم بيروت ويطلّون برؤوسهم في كلّ موسم.

الأجداد الأوغاد وقفوا على شرفة سينما الديك. والأحفاد الأنداد أمناء للخطّة: ديوك من شرفة إلى شرفة يقفزون، وفوق كلّ مزبلة يصيحون!

٨ أيار ١٩٦٣

سباق الكلاب

رفض مجلس الوزراء الترخيص بإنشاء نادٍ لسباق الكلاب في أحد مصايف الجبل. وقد قرأت قبلًا أنّ وزارة العدل أفتت بأن لا مانع من إنشاء مثل هذا النادي سواء في أحد مصايف الجبل أو إحدى مدن الساحل.

المسألة في الواقع أهون من أن يحصل عليها خلاف. ولكن ما دام الخلاف قد وقع – في الرأي طبعًا – فأنا أرفع إصبعي مع مجلس الوزراء.

وزارة العدل نظرت إلى المسألة من ناحية القانون. ونظر إليها مجلس الوزراء من ناحية المصلحة أو ما يسمّونه حكمة الدولة، وهي فوق كلّ قانون. ولا شكّ أنّ التعلّق برأس الحكمة في كلّ أمر يتعلّق بالكلاب أفضل وأسهل عاقبة من التعلّق بذنب القانون.

قد يعترض البعض بقوله: لِمَ لا يكون عندنا سباق للكلاب كسباق الخيل؟

وأيّ فرق بين هذا وذاك؟

الفرق، يا سيّدي، كالفرق بين الثريّا والثرى. فالخيل عنوان الشرف والشهامة، والأنفة والمروءة، إلخ. فالسباق بينها سباق بين هذه الفضائل، في حين أنّ الكلاب كلاب!

قد يحتجّ آخرون باسم الحرّيّة باعتبار أنّ لبنان كان ويجب أن يظلّ بلد الحرّيّة. وهذا صحيح بالنسبة للجميع حتّى الكلاب. ولكن ضمن اختصاصها. إنّ اختصاص الكلاب، منذ كان في الدنيا كلاب، النباح لا الركض. وهو – بحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه – ما احتاج يومًا إلى ترخيص.

١٠ أيار ١٩٦٣

بين بيروت وهونغ كونغ

الحديث الذي أدلت به الآنسة فيفيان جيرو إلى الصحف في ذمّ هونغ كونغ ومدح بيروت كلّه طرافة:

«صدّقني، كنت أعيش في عالم سخيف، غريب، انعدمت فيه الصداقات، والناس فيه يركضون كأنّهم خيول في سباق عامّ.»

الكلام للآنسة فيفيان عن هونغ كونغ. وقد قالت عن بيروت ضدّه تمامًا. الأمر الذي يُخجل تواضعنا حقًّا ويضع عيوننا في الأرض.

ولكن، حذار أن نقبض هذا الكلام على علّاته. فالفتاة الحلوة اللطيفة التي تفضّلت به علينا كانت، على ما يظهر، في أحسن حالاتها. خمار الشراب (لا يذكر الصحفيّ نوعه، ولكن ليس من الصعب أن نحزر) وانتظار الحبيب الذي يجب أن يصل بعد أيّام إلى بيروت.

أنا لا أعرف هونغ كونغ. ولكنّي أؤكّد للزائرة الكريمة أنّني لو زرت هونغ كونغ وكنت في الحالة التي هي فيها – شبابًا وشرابًا وعلى موعد حبّ – لما تردّدت لحظة في قلب الآية. فالدحّ هي هونغ كونغ وبيروت ألف كُخّ.

مغزاه: أنّ العالم السخيف الغريب، يا آنستي، هو هذا العالم كلّه من أوّله إلى آخره. بيروت كهونغ كونغ، وهونغ كونغ كبيروت، وكما انعدمت الصداقات هناك انعدمت هنا. وكلّنا نركض كخيول السباق نلهث ونبصق الدم،.. إلى أين؟ لا أحد يعرف.

هنيئًا لمن استطاع ترك هذا السباق المجنون بين الحين والحين، وعرّج يشرب على ذكر الحبيب.

١٩ حزيران ١٩٦٣

في الإجازة

الصيف موسم الإجازات. وهو مفضّل على سائر الفصول لأنّه موسم الحرّيّة. والإجازة حرّيّة قبل كلّ شيء. وأنا، هذه الأيّام، أستفيد من إجازتي. «أستفيد» هو التعبير القانونيّ، وكان ينبغي أن يُقابله في الواقع «أستمتع». ولكن هيهات! إنّ الاستمتاع امتياز الأطفال والمجانين.

في إجازتي تحرّرت من العمل. ألقيت الواجبات خلف ظهري. مزّقت دفتر المواعيد. أصبحت أفيق في الساعة التي أريد، وآكل متى أشتهي، وأتمدّد على الفراش أو على العشب. وأقرأ أو لا أقرأ. أتكلّم أو لا أتكلّم. أبتسم أو أعبس على هواي.

كان ذلك كلّ ما أبتغيه من إجازتي، وها قد حصلت عليه.

فما بالي لا أرضى؟

أنا ما زلت أحسّ نفسي سجينًا.

أريد أن أفتح أبواب البيت ونوافذه كلّها، لا ليدخل الهواء بل لأخرج منها في كلّ جهة! أن يُزاح هذا السقف الذي يثقل رأسي! أن تسقط هذه الثياب التي تعوقني! أن يُطرح عنّي كابوس أفكاري وهمومي ومطامحي...

أريد أن أسكن بيتًا بلا جدران ولا سقف. بلا أهل ولا ضيوف. بيتًا من الرياح. وأن أكون ذرّة راقصة في عين الشمس، أو حبّة رمل على شاطئ قصيّ.

تلك هي الإجازة التي أصبو إليها في إجازتي.

من يعطيني إيّاها؟

٣٠ تموز ١٩٦٣

حامل البكالوريا

الطلب الذي تقدّم به حامل البكالوريا من مدير وزارة الشؤون الاجتماعيّة: «أكون شاكرًا لو عيّنتموني عاملًا على أسانسور بناية الوزارة» طلب ليس فيه عجب.

فالشابّ – كما يقول – يريد متابعة تحصيله العلميّ. وزملاؤه في بلاد الناس، أوروبّا وأميركا، يُعَدّون بعشرات الألوف. طلّاب أهلهم فقراء، أو لا أهل لهم ولا معين، فهم لا يتردّدون في مزاولة أيّ عمل يمكّنهم من تأمين عيشهم. وغالبًا ما ينبع العظماء من هذه الطبقة من العصاميّين: رجال أعمال، ومفكّرون كبار، وأبطال حروب، ورؤساء جمهوريّات، إلخ.

ولكن، ما لي أذهب بعيدًا، والمرحوم إميل البستانيّ كان يقول دائمًا إنّه اضطُرّ في صباه إلى العمل خادمًا في مطعم ليتمكّن من متابعة تحصيله العلميّ. والجميع يذكرون حرصه، في أكثر المآدب التي كان يقيمها في قصره، على ارتداء الإزار الأبيض وعلى خدمة المدعوّين بيده، استعادةً لتلك الذكرى واعتدادًا بها.

هذا إذا كان حامل البكالوريا يريد السير على هذا الطريق... أمّا إذا كان قد يئس من الحصول على وظيفة تليق بمقامه وجاء يطرح شهادته على قدمَي مدير الوزارة غاضبًا، لاعنًا هذه البلاد التي لا تعرف قيمة العلم، فهذا طبعًا ما لا أوافقه عليه.

لقد مضى، يا صاحبي، الزمان الذي كانت فيه البكالوريا أسانسورًا إلى المعالي... مع احترامي لأسانسور الوزارة.

٤ آب ١٩٦٣

لكم قمركم ولي قمري

القمر الذي لنا نحن في الجبل، حيث نقضي الصيف، هو غير قمر الأبحاث العلميّة.

إنّه قمر العشّاق، والشعراء، والسُمّار، وقمر الحالمين في اليقظة، جلوسًا على سطيحة البيت، أو تمشّيًا على الدرب.

قال صاحبي معلّقًا على وصول الجرم الأميركيّ إلى القمر:

– أنا في حداد! في حداد على قمر أحلامنا وأسمارنا – في ساعات الأمل واليأس على السواء – لأنّ الجماعة أعدموه حين أعلنوا أنّ أرضه غبار أسود، وكلّ ما فيه سخام.

كيف أعزّي صاحبي؟

وكيف أعزّي نفسي؟

إنّها خيبة عظيمة، وضربة قاتلة، حقّ فيها البكاء وعزّ العزاء.

لقد ظلّ وجه القمر منذ كانت الدنيا حتّى اليوم يرمز إلى وجه الحبيبة. وها هو يصيبه ما يصيبها. فوجه الحبيبة هو السحر ما دام في النافذة، فوق. فإذا نزل – أو طلعنا إليه لا فرق – ذهب السحر وانقطعت أسبابه.

تلك جناية المعرفة. جناية الشيطان – هو هو – الذي أغرى آدم بالتفّاحة الشهيّة. ليته اكتفى بالنظر إليها وبـ«شُمّ ولا تَذُقْ». ولكنّه أبى إلّا أن يأكلها...

أنا وأنت، يا صاحبي، لن نذهب إلى القمر.

لهم قمرهم ذو الغبار والسخام، ولنا قمر سطيحة البيت ودرب الضيعة.

٨ آب ١٩٦٣

فلسفة السعادة

في حديث الدكتورة سنيّة حماده ألف شرارة وشرارة. شرارات تضيء وتُحرق. منها قولها، بعد تعداد الحقائق التي تكشّفت لها من سياحاتها في الأرض وفي الفكر: «في الوقت نفسه توصّلت إلى أنّ الهدف في الحياة لا يجب أن يكون السعادة. ليس للسعادة أساس علميّ، فهي كالسراب...»

لهذا القول القديم قدم الأنبياء طراوة جذّابة وطعم الفاكهة الغريبة. ولعلّ ذلك عائد إلى الإخلاص الذي تتكلّم به سنيّة حماده. يُضاف إليه هذه البراءة الأميركيّة التي اكتسبتها الدكتورة. وإذا كان «السراب» من الخيالات الشرقيّة التي حملتها معها إلى أميركا فإنّ هذا «الأساس العلميّ» للسعادة الذي بحثت عنه طويلًا ثمّ قرّرت عدم وجوده هو بضاعة أميركيّة مئة بالمئة.

على أنّ الجديد ليس نفي السعادة بل تخطئة من يجعلها هدفًا له. وقد عبّرت عن ذلك أحسن تعبير إذ أضافت: «الهدف في الحياة يجب أن يُبنى على خدمة قضيّة. والإنسان الذي يفكّر بنفسه فقط لا يكون سعيدًا.»

وهكذا تتلاقى الدكتورة مع الحكمة الأزليّة الأبديّة، وخلاصتها أنّ أضمن وسيلة للحصول على السعادة هو أن يسعى الإنسان لإسعاد غيره.

أجل، يا دكتورتي العزيزة، اتبعْها تهربْ منك. أُهرب منها تتبعْك... يظهر أنّ السعادة لم تخرج من جنّة عدن إلّا بعد أن أخذت معها الكثير من طباع حوّاء.

١٣ آب ١٩٦٣

قلب لبنان

إذا أردت أن تعرف حقيقة لبنان فعليك أن تخرج من المدينة إلى الجبال. وتوغّلْ بالسيّارة إذا كان من طريق، وإلّا فمشيًا على قدميك، واقصد إلى القرى النائية، المنقطعة، الضائعة بين الأرض والسماء.

ومهما كانت الأشغال التي تنتظرك في المدينة فألقِها وراء ظهرك.

سياحة في أرض الآثار الحيّة. اختطاف من عالمك إلى عالم آخر. وفجأة يغمرك الشعور بأنّ هذا هو عالمك لا ذاك. وبأنّ هؤلاء هم أهلك وعشيرتك لا أولئك. لذلك لن ترفض الضيافة المعروضة عليك. أبناء القرى لا يقبلون لك عذرًا، لأنّ الأمر يتعلّق بشرفهم. ولن تمسّهم فيه.

وأنت مأخوذ، ممدود على بساط الألفة. ينبغي أن تصغي إلى أحاديثهم المرصّعة بكلمات الأنبياء. ينبغي أن تنظر إلى وقار رجالهم، ووداعة نسائهم، وطاعة أولادهم. أن تدور حول البيت وتقطف بيديك من تفّاحهم وكرزهم وإجّاصهم، وتتأمّل كيف فتّتوا الصخور ليقيموا هذه الحدائق الغنّاء.

«قلب لبنان»؟

الآن أدركت معنى هاتين الكلمتين اللتين جعلها أمين الريحانيّ عنوانًا لكتابه الرائع.

قلب لبنان هنا، وهو ما يزال يتحدّى الزمان، ويخفق بالمروءة والحبّ والإيمان.

هل لك، يا صاحبي، برحلة إلى مجاهل العذوبة في أرض الآباء والأجداد؟

٢٢ آب ١٩٦٣

الدنيا لم تتغيّر

تقرير الأستاذ اللورد دينّنغ، الذي حقّق في فضيحة بروفيومو، لا يهمّ الحكومة البريطانيّة ولا الشعب البريطانيّ فقط، بل العالم بأسره.

خلاصة الخلاصات في هذا التقرير الطويل العريض الذي يعالج الفضيحة الأخلاقية رقم ١ في تاريخ بريطانيا العظمى، والذي يتضمّن استجواب أكثر من ١٥٠ شخصًا يتراوحون بين الوزراء واللوردات وبنات الشارع والعاهرات، ما معناه بالعربيّ الفصيح: أنّ صحّة إنكلترا جيّدة، والحمد لله، وأنّ مستوى الحياة العامّة لم ينخفض فيها عمّا كان من قبل. كلّ ما في الأمر – والكلام للأستاذ الكبير صاحب التقرير – أنّ الرجال الذين يعملون في الحياة العامّة أصبحوا أكثر عرضة للانتقاد، لأنّ أخبار الفضائح التي تتناول شخصيّات بارزة أصبحت سلعة رائجة.

هذا بيت القصيد في هذه القضيّة التي عملوا فيها من الحبّة قبّة. فماذا في الأمر من جديد لو كان لوزير في الدولة خليلة أو خليلات؟ فليطمئنّ إذن الغيارى على الفضيلة، المنادون بالويل والثبور وعظائم الأمور، الباكون على الماضي والسلف الصالح، النادبون حظّهم لأنّهم وُلدوا في هذا العصر الفاسد المفسد. ليطمئنّوا. إنّ الدنيا هي هي لم يتغيّر في جوهرها شيء... إنّما الذي تغيّر هو أنّ القال والقيل أصبح بضاعة لها أثمان فاحشة عند الذين يتاجرون بالكلام، لا يفرّقون فيه بين حلال وحرام...

٢٨ أيلول ١٩٦٣

علم وسحر وشرّ

كلّنا شهد في زمانه حفلة سحر. من أعجب ما أتذكّره، أنا شخصيًّا، وقوف الساحر بعيدًا عن بعض آلات وأشياء وضعها على طاولة وإصداره الأوامر إليها بالتحرّك. فإذا هي تتحرك دون أن يمسّها بيد.

ويظهر أنّ العلم يلاقي السحر، بدليل أنّ إحدى الشركات في الولايات المتّحدة الأميركيّة تدرس الآن صنع آلة سيكون اسمها، على الأرجح، «منفِّذة الفكر»، يكفي من يمتلكها أن يفكّر بالعمل الذي يريد القيام به، فينتقل فكره إليها فتقوم به عنه.

بفضل هذه الآلة سيكون بالإمكان لا إراحة الإنسان من تعب القيام بأعمال كثيرة فقط، بل مضاعفة طاقته إلى ما لا نهاية له. سيُتاح له – على حدّ قول الشركة – أن يرفع عن الحضيض أطنانًا من الأثقال بمجرّد التفكير بأنّه يعتزم رفعها، أو إطلاق صاروخ في الفضاء بمجرّد الإرادة لا أكثر ولا أقلّ.

في التعابير الدارجة بين الناس قولهم: «كنت على وشك أن أعمل كذا وكذا ولكنّ يدي لم تطاوعني».

وكم من الأعمال – خصوصًا في ميدان الشرّ – يفكّر بها الإنسان كلّ يوم وتبقى في نطاق الفكر. والفضل في ذلك لهذه الفترة التي تنقضي بين الفكر والتنفيذ، والتي تعود فيها كفّة الخير إلى الرجحان على كفّة الشرّ.

تصوّر أنّ العلم سيحذف هذه الفترة، ويقطع تلك اليد، ويُطلق المارد من عقاله!

١٨ كانون الأول ١٩٦٣

أقانيم ثلاثة

من نِعم العصر على الناس أنّ بإمكانهم أن يتعلّموا أمورًا كثيرة بمجرّد أن يفتحوا عيونهم أو آذانهم. فالصحف والإذاعات ملأى بالفوائد والعظات.

من ذلك الخبر الذي حملته إلينا البرقيّات من أميركا، وهذا هو:

كلوفر (كارولينا الجنوبيّة) – أجرى المستر ليروي أندلتون رئيس بلديّة كلوفر الذي يعمل أيضًا كقاضٍ محلّيّ محاكمة لنفسه في قاعة المحكمة في كلوفر ووجد نفسه مذنبًا. وكان رئيس البلديّة قد اشترك في حادث اصطدام بسيط ووُجّهت إليه تهمة عدم التزامه الجانب الأيمن من الطريق. وقد حكم القاضي على السائق بالسجن ١٥ يومًا أو بدفع غرامة قدرها ١٥ دولارًا.

ومعنى هذا ما يلي:

أوّلًا – إنّ ليروي أندلتون سائق السيّارة قد ارتكب مخالفة يعاقب عليها القانون.

ثانيًا – إنّ ليروي أندلتون رئيس البلديّة يخضع للقانون كغيره من عباد الله.

ثالثًا – إنّ ليروي أندلتون القاضي لا يهمّه إلّا تطبيق القانون.

والكلّ – أي الثلاثة – لا يؤلّفون طبعًا إلّا شخصًا واحدًا. ثلاثة أقانيم في مواطن واحد. أكاد أقول – أستغفر الله – في إله واحد.

وهو، على كلّ حال، من غير فصيلة المتألّهين الذين لم تدحد القوانين إلّا موطئًا لأقدامهم.

٣ كانون الثاني ١٩٦٤

غلاء الموت

نحن في عصر الآلة والسرعة والغلاء والتقسيط في كلّ شيء. فلماذا يشذّ الموت؟

لقد أصبح الموت في أميركا مشكلة لا بمعنى ما وراء الحياة، طبعًا، من نعيم أو جحيم. بل من حيث إنّه عبء اجتماعيّ باهظ بسبب تهالك الناس على المظاهر، وحرصهم على التباهي. كلّ منهم يريد أن يموت بأفخم ممّا مات فلان أو فلان من الأهل والأصدقاء والجيران.

تلبيةً لهذه الشهوة تألّفت في أميركا شركات للدفن تستثمر الموتى والأحياء على السواء. وهي تتسابق في تقديم عروضها، وتعلن عن توابيتها، وتتفنّن في زركشة عرباتها وأكاليلها... وقد ذهبت إلى حدّ بيع قطع الأرض في المقابر بالتقسيط، وبناء الأضرحة على ذوق أصحابها وبإشرافهم الشخصيّ ما داموا أحياء.

وبلغ بإحدى الشركات أن وزّعت على الناس ألوف الكتب بالبريد المضمون مع لوائح بتصنيف الجنازات درجات، وختمتها بقولها:

«وهكذا ترى، يا سيّدي، أنّنا مستعدّون للخدمة الكاملة. مُت وعلينا الباقي.»

تقول الصحف الأميركيّة: «كنّا في غلاء العيش، فأصبحنا في غلاء الموت.» وتزيد أنّ لجانًا تتألّف في الولايات المتّحدة للاحتجاج على هذا الغلاء الذي لا يُطاق.

فلنستعدّ لبرقيّة تحمل لنا نبأ إضراب الأميركيّين عن الموت!

٢٣ كانون الثاني ١٩٦٤

القلم الشنيع الخليع

هذه الأيّام هي أيّام قلم البيك، قلم الحبر الناشف. كلّ أربعة بربع. يا بلاش!

مع رخصه رخص النثر والشعر والصحافة، ورخصت العواطف والأخلاق والقوانين. في الزمان كانت الكتابة أقرب إلى الكهانة. من ريشة الطاووس – الملك في الطيور– ترافقها المحبرة المذهّبة أو المفضّضة أو المطعّمة آية من آيات الصناعة... إلى قصبة الغزّار لا تبريها إلّا يد معلّم في الكار... إلى الريشة الملّا تختال على رأس مسكة من العاج أو الأبنوس أو ضلع الورد... إلى قلم الحبر ذي الماركة المتأنّقة شكلًا ولونًا ولطافة، يُعلّق بعروة الصدر مزهوًّا به صاحبه بين الأقران... من كلّ ذلك انتهى بنا هذا الزمان الرديء الركيك إلى قلم الحبر الناشف أو البيك.

ولقد كان في نفسي ثأر دفين على هذا القلم حتّى طلعت الصحف بخبر أطفح لديّ الكيل. قالت ما نصّه:

«ضبط جمرك المرفأ في أحد البلدان العربيّة ألف دزّينة من أقلام الحبر الناشف – بيك – طُبع على كلّ قلم منها صورة خلاعيّة. وكانت قد جرت محاولة لتهريب هذه الأقلام بغية بيعها بأثمان فاحشة» (كذا).

يا الله، ما أعدل الأقدار! فأيّة نهاية كان يمكن أن ينتهي إليها هذا القلم الناشف، الذي جفّ الحياء من وجهه، أعدل من هذه النهاية؟ وأيّ فضيحة كان يمكن أن تلبسه ألصق به من هذه الفضيحة؟

إنّ القلم الشنيع الخليع قد كشف عن نفسه.

٢٦ شباط ١٩٦٤

فكرة جريئة

هذه الفكرة صدرت عن السيّدة ميرنا البستانيّ الخازن. لقد دُعيت إلى أحد الأندية، فطلبوا إليها أن تبدي رأيها في المرأة اللبنانيّة.

وفي الوقت الذي كان فيه الكثيرون، إن لم يكن الجميع، ينتظرون من ميرنا أن تقول ما يناسب المقام، يعني كلامًا لا طائل تحته، إذا بها تنطق كفرًا، وتدعو إلى إلغاء الجمعيّات النسائيّة.

السبب بسيط. وهو أنّ هذه الجمعيّات المبجّلة لم تعد ذات موضوع. لقد تأسّست للمطالبة بحقوق المرأة يوم لم يكن للمرأة حقوق إلّا الطبخ وإنجاب الذرّيّة والغندرة لمن استطاعت إليها سبيلًا...

أمّا اليوم وقد حصلت المرأة على حقوقها كاملة، في البيت والمجتمع، وأصبح بإمكانها أن تصبح نائبة – كما أصبحت ميرنا نفسها – فأيّ داعٍ لاستمرار تلك الجمعيّات في العمل؟

لقد رمت ميرنا بهذا التصريح حجرًا في بركة كانت حتّى اليوم هادئة. وإنّه لحجر كبير سيحدث ضجّة، ويقذف رشاشًا... أمّا أنّه سيصيب أو قد أصاب بعض الرؤوس فأمر لا مناص منه ولا ريب فيه.

تعليقي الخاصّ – ما دمنا بصدد البركة – أنّ ماءها الصافي النمير يهدّد منذ زمان بأن يستحيل إلى ماء آسن لركوده ودورانه على نفسه دون أن يكون له منفذ يجري فيه إلى الحقول ليروي زرعًا أو يُنبت زهرًا. وقد آن الأوان لتحطيم السدود وتفجير هذا الماء لكي يذهب فيلاقي الأنهر الدافقة.

بصريح العبارة: العصر يدعو النساء إلى الانضمام إلى الرجال في جمعيّات وأحزاب وهيئات مختلطة تتوحّد فيها الكلمة والجهود والغايات.

٢٨ شباط ١٩٦٤

زوجة ميكانيكيّة

لي صديق ظريف يحبّ مشاكسة المرأة. يقول دائمًا: «ستكون لنا عمّا قريب نساء من نايلون!» وهو يعني بذلك أشياء كثيرة، منها تذمّر الأكثريّة الساحقة منهنّ من الأعمال المنزليّة، بحجّة النعومة وسرعة العطب. في حين أنّهنّ، من جهة ثانية، يقمن بأعمال الرجال.

تُرى، هل كان يدري الصديق أنّه يتنبّأ؟

كتب البروفسور توبنغ في المجلّة الإنكليزيّة المعروفة باسم «اكتشاف» أنّه يعمل حاليًّا على تطوير زوجة مكانيكيّة تكون قادرة على القيام بجميع الأعمال المنزليّة. وقد وُفّق حتّى تاريخه إلى صنع عدّة أجزاء من الآلة – أو بالأحرى عدّة أعضاء من الزوجة – ولكن كلّ واحد منها على انفراد. والمشكلة التي يواجهها هي ضمّ هذه الأجزاء بعضها إلى بعض، أي ضمّ اليدين والرجلين والرأس وآلات الإرادة والذاكرة والذوق إلخ. في جسم واحد متماسك.

المرأة الجديدة إذن لن تكون من نايلون، بل من حديد وألمنيوم وبلاستيك. وفي هذا لم تصدق نبوءة الصديق.

ولكنّ الاختراع، من ناحية أخرى، يلاقي فكرة قديمة، أو بالحريّ واقعًا عاشته المرأة وعانته طوال عصور، وخصوصًا في الشرق. هي العصور التي كانت فيها تلك المخلوقة عبارة عن آلة ميكانيكيّة، تمامًا كهذه التي يجدّ البروفسور الإنكليزيّ المحترم في خلقها، وظيفتها – عدا الإنجاب طبعًا – محصورة في المطبخ، وغير مسموح أن يكون لها عقل ولا مطامح أو أحلام تتعدّى حدود المطبخ.

حقًّا، إنّ التاريخ يعيد نفسه. والطرفان يلتقيان.

٢٩ شباط ١٩٦٤

مطلوب ترجمان

من الناس من تكلّمهم في الشرق ، فيجيبونك في الغرب. يقفزون - كما يقول المثل الفرنسيّ - من الديك إلى الحمار وبالعكس.

أو يعاندون ، ولا يسمعون إلّا ما يروقهم.

من هذه الفئة الأخيرة بعض الرجال وكثير من النساء. ولذلك كان الحديث معهم - وخصوصًا معهنّ - فنًّا لا يتوفّر إلّا للراسخين في العلم.

على أنّ ما تشكوه الشعوب المتحضّرة في هذا الشأن قد وجد له بعض الشعوب التي نعدّها نحن متأخّرة حلًّا ممتازًا.

فقد قرأت أنّ إحدى البعثات العلميّة قامت بجولة استطلاع في أواسط بلاد المنغول فتعرّفت إلى قبيلة عجيبة اسمها تاجوست. وقد تبيّن لها أنّ لهذه القبيلة لغتين - مستقلّة إحداهما عن الأخرى كلّ الاستقلال - يستخدم إحداهما الرجال والأخرى النساء. ويتفاهم الرجال والنساء بواسطة ترجمان!

ويقول أعضاء البعثة إنّ العائلات هناك تعيش في ظلّ الوئام ولا يقع أيّ خلاف بين النساء والرجال...

هذا هو الخبر.

وأنا ، مع إعجابي به - فضلًا عن تعجّبي الذي يبلغ عدم التصديق - أنا أقول إنّ ما هو جارٍ في بلاد المنغول جارٍ أيضًا عندنا وعند غيرنا تحت كلّ سماء ، مع فارق بسيط. بمعنى أنّنا نحن الرجال نكلّم النساء بالعربيّ فيجبن بالتركيّ أو الصينيّ... المطلوب فقط تدبير الترجمان.

٦ أيار ١٩٦٤

الحبّ الذي انقرض

١٨ ألف رسالة حبّ!

هذا هو محصول التراث العاطفيّ الذي تركه الشاعر الفرنسيّ ڤيكتور هوغو ، وكلّها - كلّها - لحبيبة واحدة ، هي جولييت دروه.

الأمر كُشف - ينبغي أن أقول فُضح - في المدّة الأخيرة. فقد أوصى الشاعر في جملة ما أوصاه أن تسلّم هذه الرسائل إلى المكتبة الوطنيّة وتبقى في عهدتها وألّا يُسمح بنشرها إلّا بعد خمسين سنة من وفاته. وهكذا كان.

يتساءل الواحد منّا في هذا العصر الذي هو عصر السرعة والتخطّي - تخطّي الأشياء والقيم والأشخاص إلخ - ، يتساءل بكثير من الإعجاب والعجب:

كيف يمكن لعاشق أن يكون عنده هذا الإخلاص ، وهذا الثبات ، وهذا الصبر؟ بل كيف يكون عنده هذا الفيض - ما شاء الله - وهذا النفَس الطويل؟ وما عساه يقول ، حتّى ولو كان ڤيكتور هوغو ، في ١٨ ألف رسالة غرام ، غير حكاية إبريق الزيت ، يردّدها ويقلّبها على ١٨ ألف وجه؟

يجب أن نعترف أنّ هذا الصنف من جبابرة الحبّ قد ولّى عهده - ويا للأسف - وحلّ محلّه عشّاق هذا الزمان الذين ليس عندهم وقت ولا جلَد ، ولا عبقريّة ڤيكتور هوغو طبعًا... فضلًا عن الإخلاص والوفاء والثبات على العهود إلخ.

أقترح أن تُضمّ رسائل ڤيكتور هوغو إلى آثار السلالات المنقرضة.

١٣ أيار ١٩٦٤

مقبرة الضيعة

كنت أحبّ مقبرة الضيعة كما كانت. إلّا أنّها قد تغيّرت في هذا الزمن وطلعت فيها، كما تطلع البثور، مدافن خاصّة، فخمة كقصور أثرياء الحرب. فلمّا زرتها أمس أنكرتها، وأغمضت عينيّ عائدًا بالذكرى إلى عهد الطفولة.

كنّا في الماضي، أنا وأترابي ملوك الطيش، نلعب ألعابًا كثيرة لا يعرفها أطفال هذه الأيام، منها لعبة الموت. وما أدراك ما لعبة الموت!

ذلك أنّني لم أكن أفوّت أيّ مأتم يحصل في الضيعة. وكانت العادة عندنا أن يكشف المشيّعون عن الميت قبل دفنه ليتزوّد أهله منه بالنظرة الأخيرة. فإذا جاء موعد الجنازة سبقت الموكب إلى المقبرة فانبطحت على سطحها في الناحية المطلّة على الباب. والمقبرة في الضيعة مشتركة، أو كانت مشتركة لذلك العهد، مبنيّة في سفح أكمة، ظهرها إلى التراب ووجهها إلى الوادي. فإذا وصل النعش على أكتاف حامليه، وفتحوه قبل أن يدخلوه في ذلك الباب المصفّح الواطئ، انحنيت فوق الحائط أدفع أنني وأحملق لأرى الموت كيف يكون.

يشهد الله أنّني سعيت وراء هذا المشهد عشرات المرّات. وفي ذهني حتّى اليوم عيون مطبقة ما أزال أتساءل بلوعة كيف كانت بالأمس تشعّ بالنور، وأفواه يتحلّب على أطرافها الدم واللعاب ما أزال أتساءل كيف غادرتها البسمات والقبلات...

١٧ أيار ١٩٦٤

في الضوء الخافت

بدأت الاستعدادات في كازينو لبنان لسهرة انتخاب ملكة الجمال.

تقول الصحف إنّ الأضواء ستكون خافتة خلال السهرة، وسيتناول الساهرون عشاءهم على ضوء الشموع.

ضوء الشموع، أصلًا، هو غير الضوء الخافت الرائج هذه الأيّام في بعض المرابع الليليّة. فالشموع، قبل الزيت والبترول والكهرباء، كانت تعطي في السهرات أقصى ما يمكن من الضوء، ولم يكن ضوؤها إذ ذاك في حساب الأضواء الخافتة.

ولكن ما لنا وللتاريخ.

أريد أن أقول: ما رحّبت يومًا بالضوء الخافت كترحيبي به في سهرات ملكات الجمال. ذلك أنّ الجمال يكره تسليط الأنوار الساطعة، وهو أشدّ ما يكون محتاجًا إلى أن يبقى مغلّفًا بالسحر، فاسحًا للحدس مجاله، ومتيحًا للنجوى سبيل التعاطي مع الغيب.

الله الله على أيّام الحجاب، ولو كره أنصار السفور!

وها نحن بعد السفور نعود إلى الحجاب.

وهل الضوء الخافت إلّا منه؟

رحم الله بِشْر فارس في قوله:

«الجمال هو كالبريق الذي في الياقوت: ماء رعّاش في تعاريج الجوهرة، وهو لا يفعل فعله إلّا إذا رفّ وراء حجاب شفّاف.»

٢ حزيران ١٩٦٤

في جائزة الشجاعة

لست أدري ما يصنع الأعاجيب ، فيبدّل في الطبيعة ويخرق نواميسها ، ويفتح أفواه الناس.

أنا لا أحبّ الأعاجيب التي ليس لها تفسير.

ربّما لأنّني في عداد الذين يكرهون فتح أفواههم هكذا...

لكن هناك أعاجيب من نوع آخر. تلك هي التي تصنعها الإرادة. كأعجوبة هذه المرأة الفرنسيّة ، دنيز ليغري ، التي ليس لها يدان ولا رجلان. كيف فقدت يديها ورجليها؟ ليس هذا هو المهمّ. المهمّ أنّها تمكّنت بالرغم من ذلك من أن تصبح شاعرة ورسّامة (توصّلت إلى الرسم بإمساك الريشة بأسنانها) وقد نالت منذ يومين «جائزة الشجاعة» من الأكاديميّة الفرنسيّة ، بعد نيلها «صليب جوقة الشرف» وطائفة من الأوسمة والجوائز الأخرى.

تفسير هذا الضرب من الخوارق هو في طبيعة الإنسان ونواميس الحياة. ولذلك هو يدعو إلى المحبّة والإعجاب ، لا إلى الدهشة والبلَه. في قرارة كلّ واحد منّا مثل أعلى ، شيء من الله ، يشدّ بنا دائمًا ، يحفزنا على النضال ، يطرق لنا أبواب المستحيل ويقول لنا : كذب ! ليس في الدنيا ما يستعصي على الإرادة ، أو على الشجاعة على تعبير الأكاديميّة الفرنسيّة.

في الأعجوبة التي حقّقتها دنيز ليغري أمثولة للملايين من أصحاب الأيدي والأرجل الذين لا يعرفون ما يصنعون بها...

٥ حزيران ١٩٦٤

في سبيل الخلود

هل تُصبح أسطورة أهل الكهف حقيقة؟

ذلك ما يُبشّرنا – أو ينذرنا – به العالم الأميركيّ روبير إتنجر في كتاب نشره بعنوان «في سبيل الخلود».

والخلود الذي يعنيه حضرته هو غير الجنّة التي تجري من تحتها الأنهار ، بل هو الصقيع في البرّاد مع ٢٧٣ درجة تحت الصفر. فإنسان الغد – كما يقول العالم الأميركيّ– سيكون بإمكانه في أيّة سنّ أن يوصي بوضعه في البرّاد لمئة سنة أو مئتين أو ثلاثمائة. وهو ، طول هذه القرون ، ينام نومًا لا أحلام فيه... مع هذا الفارق أنّه يصحو عندما يصحو فإذا العالم قد تغيّر ، والحضارة تقدّمت ، والطبّ أصبح يعمل العجائب. فيبادر إلى تركيب أعضاء جديدة مكان أعضائه المهترئة من الألف إلى الياء – ويعيش عمرًا آخر.

ويقول روبير إتنجر إنّ المقابر ستتحوّل بفضل هذا الاختراع إلى مستودعات للبرّادات ، وستتحوّل الكتابات الكئيبة على جدرانها إلى تواريخ مفرحة تعيّن موعد الموت المزيّف وموعد البعث المنتظر. إلخ.

تصوّر ، رعاك الله ، أيّ انقلاب يمكن أن يحدثه مثل هذا الأمر العظيم في علاقات المحبّين ، والأهل ، والناس ، بل في علاقة الإنسان بدنياه من حيث هي. الأرجح أنّ هذا الإنسان سيخرج من البرّاد بعد مئة أو مئتين أو ثلاثمئة من السنين فيجد نفسه غريبًا في عالم ليس عالمه فيغمض عينيه ويهتف :

– أرجوكم ، أريد أن أموت هذه المرّة من جدّ.

١٩ حزيران ١٩٦٤

الكلام الفارغ

كنت لا أهتمّ كثيرًا ببريجيت باردو إلّا إذا وقع نظري عليها تخلع ثيابها في السينما.

ولكنّني قرأت لها في هذين اليومين كلمة بارعة. بارعة في عريها أي رائعة في صراحتها: «هل صدّقتموني، يا ناس، عندما قلت لكم إنّني سأترك السينما لأنخرط في سلك الراهبات؟ يا عيب! أمن الضروريّ أن تصدّقوا الكلام الفارغ الذي يصدر عن كلّ واحد منّا في بعض ساعاته؟»

بهذه العبارة تبرهن الممثّلة الفرنسيّة أنّها عارفة تمام المعرفة بالأسلاك السحريّة التي تربط بين الإرادة والكلام، أو بين العقل واللسان. وهي تعترف بكلّ بساطة أنّ هذه الأسلاك كثيرًا ما تنقطع، أو تختلّ، فينطلق اللسان بأشياء أشبه ما تكون بفقاقيع التشيكلس.

يحدث ذلك بين بريجيت باردو والسينما كما يحدث بين أيّ واحد من الناس وأيّ عمل من الأعمال. فالكلام الملقى على عواهنه، والكلام الذي لا طعم له، والكلام الفارغ، كلّها مترادفات تؤدّي معنى واحدًا.

ولكنّ الكلام الفارغ أنواع. فهناك الكلام الفارغ من العقل الفارغ وهو ما يسمّونه الثرثرة، والكلام الفارغ عن سابق تصوّر وتصميم وهو ما يسمّونه الكذب. والكلام الحائر المحيّر – الفارغ إذا شئت، الملآن إذا شئت – لأنّ فراغه أو ملاه يتوقّف على الاثنين: قائله وسامعه، كلاهما شريك في الحالين. إنّه كلام الشعراء والمجانين.

أمّا الكلام الملآن – حقًّا – فقد أوصانا به السيّد المسيح: نعم أو لا. وكلّ ما عداهما كلام فارغ.

٢٩ حزيران ١٩٦٤

بين الخرائب

أمس، عند غروب الشمس، قمت بنزهة فذّة، مشيًا في السفح الممتدّ تحت قريتي، ورجعت بجرحين أحدهما في جنبي والآخر في قلبي.

السفح يطلّ على بيروت والبحر إطلالة رائعة، وهو يحمل منذ القدم اسم «الخرايب» لبعض ما اكتُشف فيه من آثار رومانيّة... ولكن ليس هذا ما يعنيني.

لقد كانت منطقة الخرايب في الزمان كرومًا، تملك كلّ عائلة من عائلات القرية كرمًا منها يباهي جاره. وكانت القرية كلّها تلتقي كلّ صيف في الخرايب على موسم العنب والتين، والدبس والخمر، واللهو والطرب. وكانت العرازيل منصوبة على السنديان هنا، والصخور هناك، والتلال هنالك، تضجّ بالحياة والبهجة في النهار، وتبدو في الليل وكأنّها مصابيح معلّقة بين الأرض والسماء.

هنا كان كرمنا العتيق. وعلى هذه الصخرة المشرفة عليه كانت تُنصب الخيمة. بينما جدي بيديه في مطلع الموسم بالأغصان والأعشاب ونحن نعاونه في حملها إليه. وفي جانب الصخرة جرن الكبّة محفور في الصخرة نفسها، وقد استحال قبرًا للذكريات.

... ويبست الكروم ولم يبقَ منها إلّا كعوب بعض العرائش تطلع من الأرض كأنّها الرمم. وخيّم الموت على الخرايب فاستحقّت اسمها مرّة ثانية...

عهد مضى بمواسمه الخيّرة وأفراحه البريئة. جرفه تيّار الحضارة في جملة ما جرف من القرية. ولم يترك مكان عناقيد الذهب إلّا الأشواك تجرح الجنوب والقلوب.

٢٣ تموز ١٩٦٤

لم يبقَ إلّا «الخرّ برّ»

العناد باب مغلق في الرأس.

ولا يأتي العناد في الغالب إلّا من الجهل.

كثيرون هم الذين أغلقوا هذا الباب في رؤوسهم ثمّ ضيّعوا المفتاح. وربّما كان الأصحّ أنّهم وُلدوا برؤوس ليس لها باب.

أفكّر بهذه الأشياء بمناسبة ألف حادث تحفل بها حياتنا كلّ يوم. النظام يقول كذا وكذا. القانون، الدستور، المصلحة العامّة، الآداب الاجتماعيّة، الذوق، الإنسانيّة إلخ. فلا يدخل في رؤوسنا ما يقوله أيّ واحد من هذه القافلة.

أمس كنت أتصفّح بعض المجلّات الأجنبيّة التي تُعنى بجمع الأخبار الطريفة. وممّا قرأت فيها أنّ إحدى قبائل الزنوج في مجاهل البرازيل ما تزال على عبادة الأوثان، وأنّ من طقوسها الدينيّة المرعيّة الإجراء حتّى اليوم الاحتفال كلّ سنة في معبد إله المعرفة – وهو ربّ الأرباب عند الجماعة – بيوم فتح الأبواب في رؤوس الأطفال!

يوم عظيم يتصدّر فيه الكاهن الهيكل وإلى جانبه نار متأجّجة، وفي يمينه شيش يقلّبه على النار، والأهل يحملون إليه أطفالهم، وهو يتناول الشيش فيغرزه في يافوخ الطفل لفتح ذلك الباب لتدخل منه المعرفة... وكثيرًا ما تؤدّي هذه العمليّة إلى موت عدد عديد من الأطفال، ولكنّ من يسلم منهم يصبح – على ذمّة المجلّة – فيلسوف زمانه...

ما أحوج الكثير من رؤوسنا إلى هذا «الخرّ برّ»!

٣٠ تموز ١٩٦٤

البيادر القديمة

ألّفت الحكومة لجنة لدرس أوضاع البيادر القديمة العهد تمهيدًا لإلغائها لتحلّ محلّها بيادر جديدة.

غدًا تتوارى البيادر التي نعرفها من الحقول، وتتوارى معها أشياء كثيرة. أتذكُر ذلك العهد القديم؟ إنّه عهد الطفولة، عهد كانت دراسة القمح على بيدر الضيعة لعبة لنا مثيرة، ورياضة مفيدة. نتحلّق حول البيدر، وينتظر كلّ منّا دوره ليركب النورج ويدور دوراته – عشرًا لا أكثر ولا أقلّ – تحت عين الشمس، وتحت عين الفلّاح تعدّها لنا، وتراقب مبادرتنا البقرة بالمجرفة نتلقّى بها الروث إذا همّت به، فلا يقع شيء منه على السنابل. والأمر ليس بالهيّن. فكثيرًا ما أخطأه المبتدئون والمرتبكون، فانقلبوا – عدا انكساف الوجه – بعقوبتين: عاجلة وآجلة. أمّا الأولى فالخروج من دَورهم، وأمّا الثانية فبينهم وبين أمّهاتهم عندما يعودون في المساء بثياب ملطّخة. فإذا انتهى العمل وفكّ الفلّاح بقرته عن النورج تدافعنا إلى البيدر ذكورًا وإناثًا في عراك ما تزال منه ملء أضلاعي حتّى اليوم رائحة القمح الزكيّة، وملء ثيابي قشعريرة احتكاكها بثوبيات الصبايا الضاحكات.

كان ذلك عهد كان البيدر لنا، وأمثال البيدر، ما كانته من بعد لأولادنا السينما أو التنس أو المرقص.

لست ضدّ التطوّر والتقدّم. ولكنّي أقوم ببعض الواجب في توديع البيادر الذاهبة من حقول بلادي. ألسنا نودّع معها لقمة القمح الطيّبة، وعُمرًا من الطيّبات؟

٢٥ آب ١٩٦٤

نابليون والباشا

ظهرت في فرنسا وثائق جديدة عن نابليون ، هي عبارة عن وقاحات – كما ينعتها المعجبون بالإمبراطور – كان الكاتب شاتوبريان قد كتبها في مذكّراته ، ثمّ قرّر في اللحظة الأخيرة أن يحذفها من تلك المذكّرات وتركها بين أوراقه الخاصّة.

«كان يجهل قواعد اللغة الفرنسيّة ويرتكب فيها أخطاء معيبة... وكان كابن الشارع ، غليظًا مع النساء ، منافقًا ، ضيّق الصدر ، حقودًا...»

أكثر من ذلك . إنّ شاتوبريان يستطرد حتّى يدنّس قدس الأقداس في تلك العبقريّة فيقول : «إنّ بونابرت الذي سحق الملوك تحت قدميه لم يجد غضاضة على نفسه ، عندما كان يُساق أسيرًا إلى جزيرة إلبا ، أن ينطوي في زاوية العربة ويخفي رأسه كالكلب...» كذا.

أيّ خيبة في نفوس المعجبين الذين لا يرون في عظماء التاريخ إلّا الكمال ! مَثلهم مع نابليون كمثَل تلك القرويّة في عهد متصرّفيّة جبل لبنان عندما جاء الباشا لزيارة الضيعة . فلمّا وقع نظرها عليه انقلبت منكسرة وهي تقول : «خمّنّا الباشا باشا ، تاري الباشا زلمه» .

ولكنّ الناس في حاجة إلى باشوات ونابليونات . إن لم يوجدوا خلقوهم . والويل لمن يحطّم لهم أصنامهم !

حسنًا فعل شاتوبريان بحذف تلك القباحات من مذكّراته .

١٨ أيلول ١٩٦٤

من أيّ فريق أنت؟

في بحث عن السعادة للفيلسوف بيير دو شاردان – ذلك الراهب الذي كسر طوق الترمّت بأفكاره الجريئة حتّى أوشك على الفضيحة – أنّ الناس في هذه الدنيا شأنهم شأن جماعة اتّفقوا على تسلّق جبل .

تجهّزوا بجهازهم وحملوا زادهم وغادروا المدينة مع الفجر . فلمّا وصلوا إلى سفح الجبل انقسموا إلى ثلاثة :

فريق التفتوا إلى الجبل فهالهم وقالوا : «هذا جنون . ليتنا لم نأتِ !» ثمّ انكفأوا عائدين إلى بيوتهم .

وفريق قعدوا مكانهم وقالوا : «نبقى هنا على السفح المريح بين الخضرة والماء والشكل الحسن» .

أمّا الآخرون – وهم القلّة – فصعّدوا في الجبل ، غير حافلين بوعورة المسالك ، ولا بمخاطر المزالق ، عيونهم معلّقة بالقمّة ، وقلوبهم عامرة بالشوق لمعانقة الغاية .

الأوّلون هم الضعفاء المتشائمون والجبناء المنكسرون .

والثانون هم المستمتعون بالحياة على دين أبيقور .

بقي جماعة المتسلّقين إلى القمّة . أولئك هم المؤمنون المجاهدون في سبيل مَثل أعلى ، الصابرون على الشدائد ، المشدودون بنواصيهم إلى السماء ، الذين لولاهم لم يكن في الدنيا علوم ولا فنون ، ولا عمران ولا حضارة .

هل سألنا أنفسنا من أيّ فريق نحن؟

١٩ أيلول ١٩٦٤

الآلة الزانية

العلم يذهب في كلّ ناحية. إلى أقصى الخير وأقصى الشرّ. وربّما التبس عليه الأمر فلم يعرف يمينه من شماله.

ينعقد الآن في غلاسكو مؤتمر طبّيّ عجيب. والعجب ليس في المواضيع التي يبحث فيها، بل في الموضوع الذي قرّر المؤتمر بالإجماع شطبه من جدول أعماله.

لن يأذن المؤتمر للدكتور دانيال بتروتشي، العالم الايطاليّ، بالكلام عن تجاربه التي أنتج فيها – كما يقول – ٢٧ طفلًا في أنابيب الاختبار. ويتلخّص ذلك أنّه كان يجمع مقادير من لقاح الذكور ولقاح الإناث، ويضع الدفعة المزدوجة منها في آلة خاصّة اخترعها، هي عبارة عن رحم ميكانيكيّ إلخ...».

تُرى، هل منع المؤتمر الطبيب الايطاليّ من الكلام لأنّه لا يؤمن بكلامه؟

أيكون الأطفال الذين أنتجتهم الآلة المزعومة أشبه بالنحاس الذي يحوّله السحرة إلى ذهب؟

وأين هم أولئك الأطفال، مسوخ العلم في القرن العشرين ومخلوقاته الأسطوريّة؟

أم إنّ المؤتمر استيقظ في أعضائه ضمير الإنسانيّة، وغضبت فيهم روح الأبوّة والأمومة، فقاموا قومة واحدة يسدّون فم زميلهم ويطردونه إلى الظلمة البرّانيّة؟

أنا أقول معك: حسنًا فعلوا. ولكنّ السؤال يبقى قائمًا: إنّ في العلم شبقًا مخيفًا، فكيف نكبح جماحه ونمنعه من الخيانة؟

٢٧ أيلول ١٩٦٤

أغنّي كما أحبّ

الكلمة للمغنّية الإنكليزيّة شيرلي باسي التي جاءت تسمعنا صوتها الحلو في لبنان. سألها صحافيّ:

–كيف تغنّين؟

قالت:

– أغنّي كما أحبّ.

يشهد الله أنّني لست من أنصار الموجة الجديدة لا في الغناء ولا في غيره.

أنا من الذين لا يجرفهم الموج.

ولكنّي على ثقة أنّ شيرلي باسي فنّانة أصيلة.

بالأمس كان يُقال: شرط النجاح في أيّ عمل يقوم به المرء أن يكون محبًّا له. ضيفتنا ذهبت إلى أبعد، وكانت في تعبيرها أبلغ فقالت: أغنّي كما أحبّ.

معناه أنّها لا تحبّ الغناء فقط، بل أنّ الغناء يتفجّر منها كما تتفجّر العواطف. معناه أنّها تنساق إليه، فهو الآمر وهي المطيعة. إنّه القوّة الكامنة في الروح، مثلها كمثل السيل والعاصفة والزلزال.

لست أدري أشيرلي باسي مغنّية ممتهنة أم هاوية. الغناء وسواه من الفنون – الرسم والنحت والشعر – يكره التقولُب في مهنة، وهو في الغالب لا يكسب منها إلّا المران. وعدا ذلك لا ننسَ أنّ الهوان والامتهان والمهنة كلّها عائلة واحدة.

تمامًا كما يكرهها الحبّ. ومن جعل الحبّ مهنته فقد مَومسَه.

ولعلّ أروع أغاني شيرلي باسي هي تلك التي تغنّيها في الحمّام.

١٣ تشرين الأول ١٩٦٤

في يوم التذكار

اليوم – ٢ تشرين الثاني – يوم التذكار. عيد الموتى لدى المسيحيّين. العيد ذو الوشاح الأسود.

المسلمون كذلك لهم مواسمهم وتقاليدهم في زيارة الموتى والبكاء على القبور. الأديان كلّها، حتّى الوثنيّة، بل خصوصًا الوثنيّة منها، كانت وما تزال تحتفل بالموتى وتكرّمهم تكريمًا خاصًّا.

ومن الشعوب القديمة ما كانت تعبد موتاها فتقيم لهم في البيوت نفسها المدافن، وتقدّم القرابين، وتشعل نارًا لا تنطفئ. وحتّى الأمس كان اللبنانيّون في القرى يجعلون مقابرهم في أطراف أملاكهم – في آخر الجنينة، أو كعب الكرم الممتدّ تحت البيت...

أمس ذهبت مع الذاهبين من هذا العالم الضاجّ أزور الذين انتقلوا إلى عالم الصمت. زيارة اعتدت أن أقوم بها كلّ سنة لمن كانوا لحمًا ودمًا، وصحّة وجمالًا، وجهادًا وأملًا، فأصبحوا تحت التراب ترابًا. فرأيتهم – بالتوهّم – يعودون إلى الحياة لحمًا ودمًا كما كانوا. وعدت وقد أوشك لحمي ودمي أن يستحيلا في ثيابي ترابًا.

يوم للتذكار، بل ساعة، بل دقائق معدودات. ثمّ أنقلب إلى شأني مع المنقلبين. الضجيج أقوى من الصمت. ونداء اللحم والدم، والصحّة والجمال، والجهاد والأمل، يملأ هذا العالم.

حسبُ الحياة مجدًا ما تبذله في مقاومة الموت، وحسبُ الموت خزيًا أنّه ما أخمد نفَسًا وقصف زهرة إلّا فجّرت الحياة ألف نفَس وفتّقت ألف برعم.

٢ تشرين الثاني ١٩٦٤

في أصول التربية

كان الحديث أمس عند جار لنا على فضيحة في الحيّ بطلها فتى من أبناء العائلات.

الفضيحة بنت الدلال الذي عاش فيه الفتى في بيته. ومع الدلال، طبعًا، الإنفاق الذي ليس له حساب، والحرّيّة كما يفهمها أبناء الموجة الجديدة الآتية إلينا من وراء البحار.

يروي شارلي شابلن في مذكّراته أنّه كان في طفولته فقيرًا معدمًا، وأنّه لم يكن يملك هو وأخ له إلّا بنطلونًا واحدًا للآحاد والأعياد يتناوبان في ارتدائه الواحد قبل الظهر والآخر بعده. أمّا القمصان فقد عرف منها قميصًا ظلّ على صدره سنين، وكان يُضطرّ إلى غسله بيديه على ضفّة النهر وينتظره مرتعدًا من البرد حتّى ينشف. وعانى الجوع ونام على الأرصفة وتقلّب في الشقاء...

ومنذ أيّام نشرت الصحف أنّ التاجر الإنكليزيّ جوليان هودج قرّر حرمان أولاده من ميراثه البالغ ستة عشر مليونًا من الجنيهات وأوصى بهذه الثروة كلّها للجمعيّات الخيريّة.

جاء في وصيّته قوله: «سيأتي يوم يترحّم عليّ فيه جان وروبير وجوناثان (أولاده) ويشكرونني جزيل الشكر على القرار الذي اتّخذته. فبعد موتي سيُضطرّون أن يشتغلوا كي يعيشوا، ولن يواجهوا المتاعب التي يسبّبها المال، ولا المفاسد التي يغري بها، خصوصًا إذا كان هذا المال قد وصل إليهم دون أن يبذلوا في الحصول عليه أيّ مجهود».

أجل، إنّ الحياة أبرع منّا في تربية الأولاد.

١٧ تشرين الثاني ١٩٦٤

في سوق الحمير

من كلّ الأخبار المبكية المضحكة التي تنشرها الصحف ويتداولها الناس عن السيرك الذي وقع في الإفلاس أعجبني واحد عجيب.

أن يحتال صغار النفوس ويزوّروا ويسرقوا... أن تجوع الحيوانات فترقّ لها قلوب السيّدات ويحملن إليها الهدايا... أن يتنادى أصحاب المروءة والغيارى على سمعة لبنان لإنقاذ ما يمكن إنقاذه... كلّ ذلك وما إليه شيء طبيعيّ، ضروريّ، لا عجب فيه.

العجب العجاب الذي أعجبني أنّ هذه الكارثة، التي لا تخلو من الحمرنة من أساسها، قد أدّت إلى ارتفاع سعر الحمير في البلد، من أربعين ليرة إلى خمسين إلى ستّين، والحبل على الجرّار.

وبيان ذلك أنّ طعام الأسود المفضّل هو لحم الحمير، وقد ازداد الطلب على الحمير منذ وصل السيرك وانطلق أصحابه يبحثون عنها في كلّ مكان ويدفعون بها أغلى الأثمان.

ومصائب قوم عند قوم فوائد.

على أنّ العبرة ليست في هذا فقط – والحكاية سلسلة لا تنتهي من العبر والإبر – بل هي في رواج سوق الحمير، من حيث هو، بعد الكساد الذي سيطر عليها دهرًا.

فالحمير اليوم، في طول لبنان وعرضه، ترفع آذانها وتشمخ بأنوفها فخورة بارتفاع أسعارها. ولكنّها تجهل في حمرنتها أنّ كلّ قيمتها في إشباع جوع الأسود.

حقًّا، إنّ الحمير لأبسط قلبًا من الجماهير.

٢٨ شباط ١٩٦٥

في ضمائر الموظّفين

أعلنت حكومة الولايات المتّحدة أنّها قرّرت أن تلغي فحص ضمائر الموظّفين. وكانت تمارس هذا الحقّ بموجب نظام قديم – وضعه دون شكّ كاهن وصل إلى كرسيّ الحكم فجعله كرسيّ اعتراف! – فتجبر موظّفيها على الإجابة عن سلسلة من الأسئلة بلا أو نعم، مطروحة بالشكل التالي:

– هل كان أبي رجلًا صالحًا؟

– هل كنت أحبّ أمّي كما يجب؟

– هل أؤمن بالله وبالدينونة؟

والسلسلة لا تقف عند هذا الحدّ، بل تتعدّاه إلى مواضيع كانت، على ما يظهر، تشغل بال الحكومة الأميركيّة بنوع خاصّ. وهي من نوع الرؤى التي تعذّب نفوس القدّيسين:

– حياتي الجنسيّة هل أنا أرضي بها الله أم الشيطان؟ المرأة التي أعلن لها حبّي كلّ يوم هل أنا وفيّ لها أم أخونها في السرّ؟ إلخ.

«ما دخل حكومات الأرض بهذه السماويّات؟ وما معنى هذه السيوف الدونكيشوتيّة التي تسلّطها الحكومة فوق رؤوس الموظّفين؟...» هكذا صاح المستر كورنوليوس كالاغر، عضو مجلس الشيوخ، مطالبًا بإلغائها، وما زال حتّى أُلغيت.

قال السيّد المسيح: أُتركوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. والشيخ المحترم يريد أن يقول: أُتركوا لله أن يفتّش الناس في قلوبهم، وفتّشوا أنتم في جيوبهم. إنّ ضمائر الموظّفين تختبئ عادةً هناك.

٩ آذار ١٩٦٥

الطريقة الجديدة

العِرض – بمعنى الشرف الزوجيّ أو العائليّ من ناحية المرأة – عرباويّة ، أي من الكلمات الخاصّة باللغة العربيّة وليس لها مقابل في سائر اللغات.

وفي هذا ، ولا شكّ ، شرف لنا على الصعيدين القوميّ واللغويّ معًا. ولكنّنا – يا للأسف – قد أسأنا استعمال هذا الشرف. فبحجّة الدفاع عن الشرف نرتكب ما لا يشرّفنا أمام أنفسنا ولا أمام الناس. وفي تقارير الشرطة والدرك ، مرّة في الأسبوع على الأقلّ ، جريمة نكراء تتعلّق بالعِرض ، بطلها الزوج أو الأخ أو الابن أو ابن العمّ ، وأحيانًا ابن الحيّ.

على أنّ حادث هذا الأسبوع يشذّ عن القاعدة : تأكّلت الغيرة قلب زهير على زوجته أميّة ، وثار في رأسه بركان العِرض ، فدخل عليها شاهرًا موسى حلاقة ، من الفصيلة التي يطبّق بها الجماعة «لا يسلم الشرف الرفيع ...» فأيقنت بالنهاية المحتومة ذبحًا من الوريد إلى الوريد فجعلت تصرخ ! فبادرها بكمّ فمها ، ثمّ كبّلها من يديها ورجليها وأجلسها على كرسيّ ، ثمّ تناول الموسى فحلق لها شعرها على الزيرو وتوارى عن الأنظار... وكفى الله المؤمنين القتال.

تقول الصحف إنّ الزوجة قد أقامت الدعوى عليه مطالبةً بتعويض خمسة وعشرين ألف ليرة عن شعرها الجميل. ولو كنت القاضي لعكست الآية تمامًا ، وحكمت للسيّد زهير ، من أجل طريقته الجديدة في الثأر لعِرضه بمليون ! فضلًا عن وسام شرف من النوع الذي يُمنح إلى العظماء الذين يغيّرون وجه التاريخ ، أو يكتشفون القارّات المجهولة.

١٣ آذار ١٩٦٥

في دفء الفراش

في الصقيع الذي مرّ بنا في بيروت ، وما يزال يجرّ أذياله ، تعرّفت إلى وجه جديد للسعادة.

كان ذلك يوم الأحد الماضي.

اِجتمع عليّ في ذلك اليوم البردان : برد الجسم وبرد القلب.

وكانت العواصف والثلوج بين أضلاعي لا تقلّ عنها بين الجبال والأودية.

فلمّا كان الليل أويت إلى سريري مبكّرًا ، وأثقلت اللحاف ، فوضعت معطفي فوقه ، وفوق المعطف ما تيسّر من ثيابي ، ثمّ اندسست كاللصّ في الفراش وتجمّعت كالبزّاقة على نفسي وتغطّيت إلى ما فوق ، لم أدع إلّا فرجة يطلّ منها أنفي وكأنّه داخون إحدى الفبارك.

وبمثل السحر حدث الانقلاب. لقد غمرني فجأة شعور عجيب. خليط من الدفء والطمأنينة والحلاوة. بل أكثر من ذلك بكثير. فأنا لا أذكر أنّني ذقت السعادة بملء جوارحي كما ذقتها في تلك الليلة ، ولم يتّفق لي أن ملكتها وضببت عليها كما ضببت ، في عالم كان لي ولها وحدنا ، هو عالم الرضى الأبكم ، حدوده أطراف السرير ، وعلى تلك الحدود تتكسّر كلّ هموم العالم ومتاعبه ومشاكله.

قلت : تعرّفت يوم الأحد إلى وجه جديد للسعادة...

عفوًا.

لقد تعرّت السعادة في فراشي ، ونامت بين ذراعيّ حتّى الصباح.

٢٠ آذار ١٩٦٥

أرضنا إلى الأبد

يُقام في بيروت المهرجان الدوليّ للأزهار. أبهج المهرجانات يدخل في سنته الرابعة ويترسّخ في مواسمنا اللبنانيّة. وهو في ذلك لا ينشئ جديدًا، بل يبعث تقاليد عريقة في بلاد أحبّ أبناؤها الأزهار كالأثمار. غذاء الروح عندهم، كغذاء الجسد، خبز يوميّ.

الجديد هذه المرّة إشراك الأحداث، من الخامسة إلى الخامسة عشرة من العمر، في مباراة شعارها «أرضنا إلى الأبد» تتناول تنسيق الأزهار في آنية صغيرة كفنجان قهوة أو صحن، وزرع الأعشاب التي تصلح للطعام كالنعنع والصعتر...

ولكن، كلّ هذا أيضًا ليس جديدًا إلّا بالشكل. وأنا أذكر جيّدًا توزيع العمل في بيتنا القرويّ العتيق، كما يذكره أترابي من ذلك الجيل. مساكب البقل حول البيت من شأن أبي. وسطيحة الفلّ والمنتور من شأن أمّي، ولكلّ من الصغار حقل على قدّه.

حقلي أنا - كيف أنساه؟ - كان مرّة إبريقًا مكسورًا، ومرّة حجرًا مجوّفًا من الشحّار... ومرّة أسقط في يدي فلم أعثر إلّا على علبة تنك فارغة، وكان عليّ أن أنزع طبقتها العليا العالقة بأحد أطرافها، فجرحت إصبعي جرحًا عميقًا. وخفت من أمّي فبادرت إلى المردكوشة أنصبها في العلبة، وإلى التراب أهيله حواليها، مجبولًا بدم ذلك الطفل ومسقيًّا بدمعه.

أيّها الأحداث من أولادنا وأحفادنا، أرضنا كانت منذ الأزل وطن هذه الأزهار، وهكذا جبلنا ترابها وسقيناه. وهكذا ستبقى إلى الأبد.

٢٥ آذار ١٩٦٥

أنا والروزنامة والحائط

الحائط الذي بوجهي ظلّ يحمل روزنامة العام المنصرم طول ٣٦٥ يومًا، وكانت الأيّام تأكل ورقاتها وأنا أنظر وأعينها على ذلك.

وها هي اليوم قد استحالت جلدًا بلا لحم ولا دم، جذعًا يابسًا أجرد، تنتظرني أن أنزعها عن الحائط وأطرحها في الظلمة البرّانيّة.

مع طرحها هكذا كم أطرح من نفسي! بعض منّي يسقط من بعض، إلى أن تلحق الأبعاض كلّها إلى حيث الكلّ الذي لا أبعاض فيه...

لقد اشتريت اليوم روزنامة العام المقبل. إنّها جديدة، لمّاعة، ملأى. وها هي في يدي أقبضها وكأنّني أقبض دفعة أخرى على حساب العمر.

بين الروزنامة الميتة والروزنامة الطالعة على الحياة أتوقّف دقيقة. يبقى الحائط الذي بوجهي عاريًا دقيقة طويلة من الزمان. والزمان لا يعرف الدقائق - طويلة ولا قصيرة - ويجهل الساعات والأيّام والأعوام، ويهزأ بالروزنامات.

وأنا أنظر إلى الحائط عاريًا، أبكم، أصمّ، أعمى، لا معالم، ولا أرقام، فارغًا كالزمان، مرعبًا كاللحظة الفاصلة بين الحياة والموت.

فلأبادر إلى تعبئته بما أملك من حساباتي وأوهامي، وشهواتي وآمالي! ولتأخذ الروزنامة الجديدة مكانها على الحائط بوجهي.

مع ورقاتها سأحيا أيّامي يومًا بعد يوم. ومع ورقة سأموت يومًا ما. سأذهب مغلّفًا بورقة روزنامة...

أيّ ورقة، يا تُرى، من أيّ روزنامة؟!

١ كانون الثاني ١٩٦٦

حمار وحمار

للحمار في لغتنا وسائر اللغات معنى الحمرنة، أي الجهل والغباوة.

على أنّ الرحّالة الكولومبيانيّ لويس بيتانكور قد اكتشف في الحمار جانبًا آخر، وتحدّى الناس بأن وضع على صدره شارة تصوّر حمارًا! ولمّا سُئل في ذلك قال: إنّ الحمار هو مثلي الأعلى، وينبغي أن يكون المثل الأعلى لكلّ إنسان، لأنّ الحمار لا يفكّر بالشرّ أبدًا، فهو أفضل من الإنسان الذي يمتلئ رأسه بالأفكار السيّئة.

الخبر نشرته صحف العالم، الأمر الذي يشكّل إعادة اعتبار للحمار، وشارة على صدره – أي صدر الحمار– لم تحلم الحمير بمثلها منذ كانت الحمير حميرًا...

العبرة ليست هنا. العبرة في بقيّة الخبر، وقد جاء فيها: أنّ الرحّالة المذكور وصل إلى القدس يوم الثلاثاء الماضي في نطاق طواف حول العالم بدأه عام ١٩٦٠ زار فيه حتّى تاريخه أربعين بلدًا، وهو يحمل من كلّ بلد يزوره حفنة من التراب ليؤلّف من المجموع في النهاية «بستانًا دوليًّا» ينوي إقامته في وطنه، رمزًا إلى وحدانيّة العالم على إختلاف الأوطان والأجناس.

مغزاه – عدا عن أنّ الحمار آدميّ أي لا يفكّر بالشرّ– أنّ كلّ إنسان يجب أن يكون في بيته، أو أن يكون بيته بالذات، بستانًا دوليًّا. وكلّ من يعتقد أنّ بإمكانه أن يكون له بستان مستقلّ، وأنّ بالإمكان أن يزدهر هذا البستان بعزلة عن الآخرين، فهو حمار بأربع آذان.

١٥ كانون الثاني ١٩٦٦.

انقلبت الآية!...

وقع نظري في بعض الصحف على خبر طويل عريض مع صورة لأحدهم بعنوان على عمودين هكذا:

«سائق تكسي يعيد إلى إحدى السائحات محفظة ثمينة كانت قد ضيّعتها».

ويلي ذلك تفصيل الخبر، وتعليق جاء فيه أنّ المجلس الوطنيّ للسياحة قرّر مكافأة السائق على عمله الذي يشرّف لبنان... (كذا).

أبادر قبل كلّ شيء إلى تهنئة السائق من كلّ قلبي.

ولكنّ الموضوع أبعد من ذلك بكثير.

فالقاعدة أصلًا، في العالم كلّه، أنّ من يجد شيئًا ضائعًا فعليه أن يعيده إلى صاحبه. القاعدة أن يكون المرء آدميًّا، أي شريفًا، سواء أكان سائق تكسي أو خواجه أو عتّالًا لا فرق. والشاذّ أن يكون دنيئًا أو لصًّا أو كذّابًا.

عندنا تغيّر الكون من الأساس وانقلبت الآية، فأصبحت القاعدة هي الشذوذ، والشذوذ القاعدة.

لقد أخطأت الصحف ناشرة الخبر، وأخطأ المجلس الوطنيّ للسياحة –عن غير قصد طبعًا– وأعطى كلّ منهما عن لبنان، من حيث لا يدري، أسوأ شهادة يمكن أن تُعطى.

لم يبقَ إلّا أن نمنح من يعيد محفظة/ضائعة إلى صاحبها وسامًا ونشير إليه بأصابعنا كأنّنا نقول:

– أُنظروا! أُنظروا يا عالم! عندنا في لبنان واحد آدميّ!

٦ شباط ١٩٦٦

في أحد الشعانين

أحد الشعانين عيد الأطفال. بل عيدنا جميعًا. لا من أجل أطفالنا فقط. بل لأنّنا جميعًا كنّا أطفالًا ولأنّنا جميعًا نحبّ في قرارة نفوسنا أن نعود أطفالًا.

وعامًا بعد عام يكتسي العيد تحت سماء لبنان حلّة تزداد مع الأعوام بهاء. شوارع بيروت ومدن الساحل والجبل حتّى آخر قرية كانت صباح ذلك اليوم الربيعيّ الجميل تتدفّق بالنور والفرح. الشمس تدور فوق غابات من الشموع، وأناشيد الإيمان والمحبّة والرجاء ترتفع إلى الأعالي، ومن ثياب الأطفال الجديدة ووجوههم الطافحة تطلع دنيا جديدة بوجه طافح بالسعادة. كأنّ الموت نفسه قد انهزم ومعه قوّات الجحيم، واستوت الحياة على عرش مجدها.

عروشًا لمجد الحياة كانت أكتاف الآباء، يحملون عليها أطفالهم في أحد الشعانين ويمشون بهم في موكب الغبطة والزهو والأمل. في هذا العام مشيت وأنا أنظر إلى أولادي يحملون أطفالهم كما كنت أحملهم هم بالأمس إذ كانوا أطفالًا. السلسلة متواصلة آباء وأطفالًا وعروشًا. ومع الشمعة التي كانت تتهادى في يديّ المرتعشتين بكيت كما كانت تبكي...

«الحقّ الحقّ أقول لكم إن لم تعودوا مثل هؤلاء الأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات».

هكذا قال السيّد.

يجب أن نعود كلّنا أطفالًا في أحد الشعانين، وفي كلّ يوم، لا لندخل ملكوت السموات فقط بل ليدخل ملكوت السموات قلوبنا ونحن على الأرض.

٦ نيسان ١٩٦٦

القمر للجميع

اقترح الرئيس جونسون باسم الولايات المتّحدة على الاتّحاد السوفياتيّ وسائر الدول الفضائيّة – أي المتطلّعة إلى احتلال الكواكب – ميثاق شرف تتعهّد هذه الدول بموجبه بالامتناع عن أيّ نشاط عسكريّ في القمر وبالامتناع كذلك عن بسط سيادتها عليه...

يريد الرئيس جونسون، حفظه الله، أن يفتح في السماء سجلًّا يختلف عن السجلّ الذي عرفته الأرض.

كانت الدولة السابقة إلى الوصول إلى أيّ بقعة في الأرض تبادر إلى رفع علمها وتعلنها ملكًا حلالًا لها، وتبني على ذلك – أي على الوتد حامل الخرقة الملوّنة – ألف حجّة وحجّة لتأييد «حقوقها المقدّسة» على ما هبّ ودبّ فيها.

الاقتراح يعني الجبّارين المتنافسين على الأرض، المتنافسين كذلك على السماء: أميركا وروسيا. ولكنّه سيكون موضوع اهتمام لجنة خاصّة في الأمم المتّحدة هي اللجنة الفضائيّة بالذات. فهل توفّق اللجنة إلى حمل الجبّارين، ومَن وراءهما من الأقزام الدائرين في فلكيهما، إلى توقيع ميثاق الشرف المشار إليه؟

أتمنّى ذلك من كلّ قلبي ويتمنّاه معي الشعراء وأصحاب الأحلام، بل الناس جميعًا، باعتبار أنّ كلّ واحد منّا يحمل في قرارة نفسه شيئًا من الشعر والحلم. وهكذا، إذا تحقّقت الأمنيّة، يصبح القمر منطقة حرام هي ملك الجميع دون أن تكون ملك أحد، كلّما ضاقت بنا الدنيا ركبنا إليه الصاروخ، أبلغ أشعار هذا العصر وأروع أحلامه.

١١ أيار ١٩٦٦

على أُونا ! على دُوّه !...

شرعت الحكومة الفرنسيّة تبيع خطّ ماجينو بالمزاد العلنيّ.

وخطّ ماجينو سلسلة من الحصون والسدود والأبراج والأقبية انصرفت فرنسا بين ١٩٢٥ و ١٩٣٩ إلى إقامتها على طول الحدود بينها وألمانيا ، كلّفتها مبالغ خياليّة لا تعرفها إلّا ميزانيّات الحروب ، ونامت وراءها رخيّة البال. فإذا الحوادث تبرهن لها أنّها كانت مستسلمة إلى الوهم ، فقد زحفت ألمانيا عليها في الحرب الأخيرة عن طريق بلجيكا ، وارتدّت إلى خطّ ماجينو من الغرب فوقع في يدها غنيمة باردة ، وبقي منذ ذلك الوقت أطلالًا تنعى من بناها.

العبرة ليست في هذا فقط ، ولا في أنّ مثل هذه الخطوط لم يبقَ لها منفعة في العصر الذي نحن فيه. العبرة أبعد من ذلك بكثير ، وهي أنّ الدول – كبيرة كانت أم صغيرة ، صديقة أم عدوّة – لا يمكنها بعد اليوم أن تقيم أيّ سور أو فاصل بينها وبين سواها من الدول. إنّ كلّ الأسوار تسقط ، إنّ كلّ الفواصل تنهار كعمارات الكرتون أمام رياح الوحدة التي تلفّ العالم من أقصاه إلى أقصاه.

لقد مضى الزمان الذي كان فيه العالم عوالم مختلفة مستقلًّا بعضها عن بعض ، مختلفًا بعضها عن بعض ، مستغنيًا ، منعزلًا ، دائرًا ظهره ، مستلقيًا في ظلّ حيط ، سور الصين سُمّي أو خطّ ماجينو.

خطّ ماجينو بالمزاد العلنيّ... كلّ الحصون والسدود. كلّ الأسوار والفواصل. كلّ الحدود من حيث هي ، عسكريّة ، سياسيّة ، اجتماعيّة ، فكريّة ، فنّيّة إلخ – كلّها حدائد عتيقة للبيع ، على أُونا على دُوّه !...

٢٦ أيار ١٩٦٦

العلاج الوحيد

أمراض العصر آخذة في الانتشار ولها كلّ يوم أكثر من ضحيّة. وفي مقدّمة تلك الأمراض المرض الخنفسانيّ ، نسبةً إلى الخنافس المعروفين بالبيتلز.

الضحيّة الأخيرة هي : كارول بريدان – ١٢ سنة لا غير – فتاة من سيدرلاند (إنكلترا) خطر ببالها أن تشاهد الخنافس ، ومقابلة الملوك والسلاطين أهون من مقابلتهم. فأدخلت نفسها في صندوق من الصناديق الفارغة وكتبت عليه عبارة «هديّة إلى البيتلز» وطلبت من صديق لها دفع نفقات شحنها بالقطار إلى لندن.

واتّفق أنّ حمّال القطار انتبه إلى أن الصندوق يتحرّك ، فرفع الأمر إلى المفتّش ففتحه. وقد تبيّن أنّ كارول نسيت ثقب الصندوق لإدخال الهواء إليه ، فكادت تختنق وأخذت تتخبّط...

المغامرة ، لولا هذا الحمّال ، كان مقدّرًا لها إحدى نهايتين :

الأولى أن يصل الصندوق إلى الخنافس وتطلع منه كارول هاتفة : بقّوسه ! ثمّ تنهال عليهم تقبيلًا ! والثانية أن يفتح الخنافس الصندوق فيجدوا الهديّة عبارة عن جثّة هامدة ، والعياذ بالله.

ولكنّ الأقدار شاءت أن لا يكون هذا ولا ذاك. وأنا أتصوّر الفتاة وقد أمسك بها الشرطيّ من أذنها وأعادها إلى أبويها حيث ينبغي أن تلاقي جزاءها صفقًا بالقضيب حيث ينفع ولا يضرّ ، عسى أن لا تعيدها.

المرض الخنفسانيّ له علاج وحيد من أقصى العالم إلى أقصاه : حِزم من القضبان على أقفية الفتيات والفتيان ، لطرد ما في رؤوسهنّ ورؤوسهم من وساوس الشيطان.

١٧ حزيران ١٩٦٦

أيّ الثلاثة أنت؟

همومنا في هذه الأيّام أكبر، طبعًا، من مخالفات السير. ولكن، هل من الضروريّ أن نحطّم ما بقي لنا من أعصاب بسبب مخالفات السير؟

أطرح السؤال بمناسبة ما قرأته عن الأميرة آن، ابنة ملكة إنكلترا.

خلاصة الخبر أنّها شوهدت تسوق سيّارتها بسرعة ٩٦ ميلًا في طريق غير مسموح فيه بأن تتجاوز السرعة ٧٠ ميلًا في الساعة. فنظّم بها البوليس محضر ضبط، وحكمت عليها المحكمة بغرامة قدرها أربعون جنيهًا.

العبرة مزدوجة:

الأولى أنّ البوليس كان – بفضل القانون – فوق ابنة الملكة، فلم يخَف منها ولا راعى خاطرها وعاملها كأيّ سائق سيّارة.

الثانية أنّ الأميرة لم تعمل بمنطقنا نحن. لم تعزل البوليس الذي تجرّأ على تنظيم المحضر بها، بل أرسلت شِكًّا بالغرامة وأعلنت أنّها تعتذر عن انتهاكها القانون.

ومن العبرتين تصنيف للمواطنين عندنا وعند الناس:

مواطن مواطن. ومواطن نصف مواطن. ومواطن لا مواطن.

الأوّل من صنف الإنكليز، الأميرة وبوليسها معًا.

الثاني من صنف الذين يدفعون الغرامة، ولكن غصبًا عنهم ودون أن ينسوا سبّ البوليس والحكومة والقانون.

الثالث لا يحتاج إلى شرح في بلاد ما نزال فيها نعتقد أنّ القانون عدوّنا.

في الواقع نحن أعداء أنفسنا.

٥ شباط ١٩٧٧

حسناء القفار

اِمرأة في ربيع العمر، لا يعرف الناس عنها سوى أنّها رائعة الجمال في ضوء القمر، تقوم برحلة عجيبة في أوستراليا وقد قطعت حتّى اليوم مسافة ألف ميل وسط القفار... وحدها مع أربعة جِمال.

لا أحد يعرف من هي، ولا من أين تأتي، ولا أيّ قصد لها من هذه الرحلة. كلّ ما في الأمر أنّ رجلًا اسمه دنيس بارتل قال للصحافيّين:

– كنت مارًّا بسيّارتي في الليل والقمر بدر. يا الله، هذه حسناء القفار! كانت مستلقية على الأرض وعيناها إلى السماء. لم تمانع في أن أدنو منها وأتأمّل مفاتنها. ولكنّها لم تكلّمني وأبت أن تجيبني على أيّ سؤال، في حين كان القمر يلقي على وجهها هالة من السحر، وأجراس الجِمال ترنّ رنينها في سكون الليل...

الرجل لا شكّ شاعر حتّى يفوه بمثل هذه الكلمات. ولكنّ القصيدة الحقيقيّة هي تلك المرأة بالذات. قصيدة من لحم ودم. وما دقّات الأجراس المعلّقة في أعناق الجِمال إلّا قوافيها الموقّعة.

أيّ مغامرة تقوم بها تلك المرأة وسط القفار، ولماذا اختارت الجِمال؟ ذلك ما يحيّر الناس، حتّى ذهب البعض إلى الاعتقاد بأنّها جنّيّة، والقصص تتوالى عنها بما يذكّر بأساطير ألف ليلة وليلة.

أنا لا تهمّني حسناء القفار بمقدار ما يهمّني ما تثيره من هذه القصص والأساطير. لذلك أرجو أن تظلّ مغلّفة بالمجهول، يرافقها القمر، وتدقّ أجراس جِمالها آناء الليل وأطراف النهار، ولا تنتهي رحلتها أبدًا... رحمة بهذا العالم الشقيّ الذي ضيّع أحلامه.

١١ شباط ١٩٧٧

كيف تفسد الطبخة

لو خلا مسرح السياسة من رجال كعيدي أمين لكان شيئًا حزينًا ومملًا حقًّا.

هذه المرّة أعلن أنّه غير راضٍ عن ألقابه: «الرئيس مدى الحياة الحاجّ المارشال الدكتور عيدي أمين دادا» وأنّه عازم على اتّخاذ لقبين آخرين: الأوّل لقب إمبراطور والثاني لقب ابن الله!

الأوّل لا يحتاج إلّا إلى توقيع صاحب العلاقة. المشكل في الثاني. فقد عملها الله سبحانه وتعالى مرّة في الزمان حينما ظهر بين الغيوم فوق رأس يسوع أثناء معموديّته في نهر الأردنّ وهتف: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت». فهل هو مستعدّ أن يعملها ثانية؟

عيدي أمين واثق من ذلك. أكّده له رجال الدين. هل سبق لرجال الدين أن خيّبوا أملًا لصاحب سلطان؟ لم يبقَ إذن إلّا صدور البيان.

ولكن لا نظلم الرجل. فعيدي أمين كان شاويشًا، ولو رضيت السياسة أن تجعل من الشاويش مارشالًا ومن المارشال رئيس جمهوريّة، ومن رئيس الجمهوريّة إمبراطورًا، لما كان في ذلك إلّا ما يسرّ الخاطر ويفرح القلب. ولكنّها تأبى إلّا أن تجعل من أصحاب السلطان أربابًا، ولو غصبًا عنهم.

فالشعب – كما تقول البرقيّات – هو الذي يتظاهر في شوارع أوغندا: يعيش عيدي أمين ابن الله! يعيش! يعيش! يا! يا!...

وهكذا يتصاعد غبار الشوارع إلى بخار الرؤوس، فتفسد الطبخة. تتحوّل السياسة من دواء إلى مخدّر. وهو أدهى ما تُبتلى به الشعوب.

٢٢ شباط ١٩٧٧

عناق على المتراس

جاءنا الربيع هذه السنة مبكرًا.

أم هي، يا تُرى، خدعة من خدع الطبيعة؟

ولكن علامَ سوء الظنّ ومن السماء يتدفّق هذا النور، ومن الأرض تطلع ألف زهرة وزهرة بألف لون ولون وكلّها تقول: جاء الربيع.

أروع ما في الربيع هذه السنة إطلالة له على متراس من المتاريس لا يزال قائمًا على جانب الطريق الذي أسلكه كلّ يوم بين الجبل والمدينة. كيف نسيه الناسون حينما نفّذوا الأوامر بإزالة المظاهر المسلّحة؟

الربيع عربش على المتراس. زنّره بزنّار أخضر. كلّله بأكليل من أقحوان. ومن الثقوب الّتي أحدثها فيه الرصاص أطلّت عيون تضحك، هي عيون الربيع.

وما همّه دخان تركته المعارك على تلك الثقوب، فقد كحّل به أجفانه.

تمنّيت على الذين حاربوا وراء المتراس أن يأتوا ويروا ماذا نبت عليه مكان البنادق والحراب.

ناشدتكم الله أيّها الموكّلون بإزالة المظاهر المسلّحة اعفوا عنه.

اِنسوه كما نسيتموه حتّى اليوم.

ولا يقل أحد إنّها خدعة من الطبيعة.

وحده الإنسان يخدع.

كلّ ما في الأمر أنّ الربيع اشتاق إلى الأرض فسبق الروزنامة. واشتاقت الأرض إليه بعد أن شبعت من القنابل والجيف.

أما ترون عناقها على المتراس هناك، إلى جانب الطريق بين الجبل والمدينة؟

٢٥ شباط ١٩٧٧

بين جيمي وبيلي

بيلي كارتر ، شقيق رئيس الولايات المتّحدة ، كان يقول عن جيمي : مسكين جيمي ! أنا أشفق عليه وأشفق على هذه الدزّينة من الرجال وراءه ، شغلهم ليل نهار التزاحم على بوس قفاه !

كان ذلك قبل فوز جيمي بالرئاسة. اليوم من الصعب الحساب.

ولمّا دخل جيمي البيت الأبيض رفع بيلي قنّينة البيرة عن فمه وهتف :

– البيت الأبيض ؟ لا يساوي عندي ستّ قناني بيرة !

أنت تقول : الرجل يجب أن يكون في السادسة من قنانيه عندما صرّح بذلك ، وفي أختها عندما صرّح بما سبق ذكره. الواقع أنّ بيلي من النوع الذي لا يعدّ الأقداح ولا القناني.

أمّا أنّ البيت الأبيض لا يساوي ستّ قناني بيرة ، فأنا مع بيلي إذا كان المراد الهموم والمسؤوليّات التي ستركب رأس جيمي في البيت الأبيض. وإذا كان جيمي رئيس جمهوريّة بهمومه ومسؤوليّاته التي لا تُعدّ ، فبيلي بقنانيه الستّ سلطان.

على أنّ بيلي في هذه المقارنة بينه وبين شقيقه لم يقل شيئًا جديدًا. سبقه الأخطل في عهد بني أميّة بقوله :

«إذا ما نديمي علّني ثمّ علّني
ثلاثَ زجاجاتٍ لهنّ هديرُ
خرجتُ أجرّ الذيلَ تيهًا كأنّني
عليك أميرَ المؤمنينَ أميرُ

مع هذا الفارق أنّ الأخطل كانت تكفيه ثلاث.

بقيت شفقة بيلي على هؤلاء الذين يتزاحمون على بوس قفا شقيقه.

الشفقة في غير محلّها بعد أن أصبحت تلك القفا عبارة عن نصف الكرة الأرضيّة ، وأصبح بوسها الحلّ الوحيد لمشاكل العالم.

٢٦ شباط ١٩٧٧

ديك الشرف

في باب أخبار الكلاب المهروسة ، كما يقول الفرنسيّون ، أي الأخبار الصغيرة الّتي لا أهمّيّة لها ، عثرت في إحدى صحف البلدان العربيّة على خبر ذبح فتاة ابنة ١٤ سنة بيد أبيها لأنّها تجرّأت أن تحبّ.

الأمر إلى هنا تافه. فكلّ يوم تُهرس «كلبة» من هذا النوع. على قارعة الطريق. على عتبة البيت. في السرير إلخ. ويطلع أبوها ، أخوها ، ابن عمّها على السطوح رافعًا يده الملطّخة بالدم ويصيح : أنا البطل !

جاء في الخبر على لسان أخت الضحيّة :

«بعد أن سلّم والدي نفسه إلى القضاء معترفًا بكلّ شيء تسلّمت عائلتنا جثّة أختي. فلم يكتفوا بما فعله الوالد. لم يحترموا رهبة الموت. بل أقدموا على تقطيع أوصالها ففصلوا رأسها وساقيها وشقّوا صدرها ووضعوا هذه الأشلاء على لوح من الخشب وراحوا يدورون به في أنحاء البلدة حتّى لا تقدم فتاة أخرى على ما أقدمت عليه أختي ، وفي اعتقادهم أنّ العاطفة البشريّة ستموت في قلوبنا»...

الوالد؟ سيبادر المجتمع إلى لفّه بالعباءة الأرجوانيّة المنسوجة خيوطها من أحكام القانون الذي يحمي هذه الجريمة. وتحت هذه العباءة كذلك سيضع أفراد العائلة ، وأهالي البلدة الذين نظّموا هذا الكرنفال ، رؤوسهم.

إنّ للشرف عند الشعوب مواضعه. وحضارتها تُقاس قبل كلّ شيء بأين تضع شرفها.

فإلى متى تستمرّ هذه الفواجع على مسرح مجتمعنا العربيّ ، وإلى متى تظلّ الأرض عندنا تصفّق لها ، والسماء تتفرّج؟

أما آن الأوان أن نُنزل عن سطوحنا ديك الشرف الذي ينادي بعارنا أمام الناس؟

١ آذار ١٩٧٧

كم تساوي اللبطة؟

كنت في صباي مولعًا بلعبة كرة القدم. وكان عندي كرة أتمرّن بها على اللعب، أحيانًا في الطريق مع بعض أترابي، وأحيانًا أخرى في البيت مع الحيطان والسقف والكراسيّ.

وأذكر أنّ أمّي كانت تكره هذه اللعبة، لا لأنّي كنت أقيم البيت بها وأقعده فقط، بل لأنّي كثيرًا ما كنت أعود – إذا كانت اللعبة في الخارج – مسلوخ الركبتين، ممزّق الثياب، فضلًا عن الغبار في الصيف والوحل في الشتاء. ومازالت بي، رحمها الله، حتّى زهّدتني بها، وأقنعتني بتركها للزعران. (كذا)

عادت إليّ هذه الذكرى وأنا أقرأ خبر لاعب الكرة الهولنديّ يوهان كرويف، وهذا نصّه بالحرف:

«أخيرًا جدّد يوهان كرويف اللاعب الهولنديّ الشهير عقده مع نادي برشلونة الإسبانيّ موسمًا آخر بعد أن دفع له النادي ٢٥٠ ألف دولار زيادة على مرتّبه السنويّ. أي أنّه سيحصل على ٩٠٠ ألف دولار بالإضافة إلى مليون دولار عند توقيع العقد فضلًا عن مكافآت الفوز».

هذا هو الخبر بملايينه التي في الجيب، بانتظار الملايين التي في الغيب. وهو يشكّل ظاهرة عجيبة من ظواهر العصر الذي تساوي فيه اللبطة الواحدة عشرة آلاف دولار على الأقلّ!

ومن فضلك لا تنسَ «أخيرًا» يعني الغنج والدلال من جانب اللاعب، والتوسّل والاستعطاف من جانب النادي حتّى تمّ الرضى والاتّفاق بين الفريقين على المبلغ المرقوم.

عتبي على أمّي في قبرها...

٥ آذار ١٩٧٧

كرايمر وسائر الهررة

تصوّر أنّك متكئ، تستمع إلى لحن من ألحان موزار يخطفك به من دنياك، وفجأة يقتحم عليك الباب غليظ ويصرخ:

– هل تعرف أنّ موزار كان مقامرًا غشّاشًا، واستغلاليًّا جشعًا، وسفيهًا وكذّابًا؟!

كلّ ما كنت أعرفه أنا، وتعرفه أنت، أنّ موزار عبقريّ من عباقرة الموسيقى. ينبوع من الينابيع الخالدة التي تصبّ في الأرواح جمالًا وحبًّا وحنانًا. حتّى جاء الهر كرايمر، الكاتب الألمانيّ، فحكش ونبش في حياة موزار الخاصّة وفضحه على هذا الشكل.

لعن الله النقّاد ومؤرّخي السيَر! دينهم وديدنهم أن يكتشفوا عورات القادرين على ما لم يقدروا هم عليه، يجدون في تمزيق ثيابهم وتجريحهم لذّة ساديّة هي لذّة العاجزين.

إنّهم آفة كلّ عبقريّة وكلّ عظمة. وهم في الواقع لا يفسدون على العظماء والعباقرة شيئًا بمقدار ما يفسدون على عباد الله الصورة الرائعة التي ينسجونها في أذهانهم لكلّ عظيم وكلّ عبقريّ.

نحن نعرف أنّنا كلّنا من طينة واحدة. مزيج من قدسيّة السماء وقذارة الأرض. ولكنّ قيمة كلّ واحد منّا بما يترك للإنسانيّة من هذه أو تلك.

فبالله عليك يا هر كرايمر رُح من وجهي، ومن فضلك أغلق الباب وراءك!

أنا حينما أجلس مع موزار لا أجلس معه إلى مائدة قمار، بل إلى مائدة حافلة بأطايب السماء.

أمّا نفايات الأرض، يا هر كرايمر، فمبروكة عليك وعلى كلّ هررة الأرض!

١٤ آذار ١٩٧٧

أمر الشيطان مختلف

المرّة الأولى التي شاهدت فيها فِلمًا عن السيّد المسيح كانت صدمة لا أنساها. فالمسيح أكبر من السينما. لأنّه أكبر من البشر وما يمثّلون.

وانطلاقًا من هذه القاعدة أنا أفهم جيّدًا غضبة الغاضبين على فِلم رسول الله والمطالبة بمنعه.

ولكن قاتَل الله السينما! فهي تأبى إلّا أن تحشر أنفها في كلّ مكان. في السماء كما على الأرض وحتّى في جهنّم.

وها هو الڤاتيكان يحتجّ على إظهار الشيطان في السينما. فقد كتبت جريدة «الأوبسرڤاتوري رومانو» الناطقة بلسانه تقول: إنّ الكنيسة لا يمكنها القبول بإظهار الشيطان كنجم سينمائيّ. كغاري كوبر مثلاً، أو كلارك غيبل...

ذلك لأنّ للشيطان هو الآخر حرمته. حرمة ملعونة، صحيح، ولكنّها حرمة. والإيمان – إيّاه – هو راعي تلك الحرمة في جملة ما يرعاه.

هذا رأي الڤاتيكان، وهو في النتيجة رأي صاحب القداسة البابا.

على أنّي، مع احترامي الكلّيّ لأبي الكنيسة، أسمح لنفسي أن أخالفه فيه.

ذلك أنّ الأمر مع الشيطان مختلف جدًّا. فإذا كان الناس لا يطالون – ولو بالتوهّم – أذيال السيّد المسيح أو النبيّ محمّد، فإنّ الشيطان منهم وفيهم، وفي جلد كلّ واحد منهم ألف شيطان وشيطان.

الشيطان في السينما؟

أترك لنا، يا صاحب القداسة، الدور الوحيد الذي نتقنه.

١٨ آذار ١٩٧٧

البحث ما يزال جاريًا

أنا مواظب، كسواي من المدمنين على التدخين، على تتبّع أخبار السيكارة، كما يتتبّع كلّ واحد منّا أخبار هذا العدوّ الذي ما من صداقته بدّ.

وقد جاءني عنها، في المدّة الأخيرة، خبران:

الأوّل – توصّل العلماء الألمان إلى أنّ تدخين سيكارة واحدة يُنقص عمر المدخّن ١٥ دقيقة كلّ يوم، وذلك لوجود ٦٠٠ مادّة ضارّة في التبغ!

الثاني – قامت الجمعيّة الطبّيّة الأميركيّة بتجربة على الكلاب، نظرًا لشبه أجهزتها الرئويّة بالأجهزة عند البشر، وحملتها على التدخين بواسطة أبزاز خاصّة.

في البداية ظهرت على الكلاب الأعراض التي تظهر على الأولاد لدى تدخينهم سيكارتهم الأولى: سعال، دموع، واشمئزاز.

ولكن لم تمضِ أيّام حتّى اعتادت الكلاب التدخين وأصبحت تتزاحم على «الفوموار»، تتشمّم وتلوص ملوّحة بأذنابها. وبعد عشرة أيّام مات خمسة كلاب من أصل عشرة بالذبحة القلبيّة!

خبران أضمّها إلى ملفّ السيكارة الحافل بالمئات والألوف من أمثال هذه المواعظ. ثمّ أولّع سيكارة...

يُحكى أنّ اللورد راليغ هو الذي جلب التبغ ممّا وراء البحار في القرن السابع عشر. وقد دخل عليه خادمه بعد عودته من السفر، وما كاد يرى الدخان يخرج من فمه حتّى جعل يدور في البيت كالمجنون ويصيح: سيّدي اللورد يحترق! سيّدي اللورد يحترق!

وما يزال البحث جاريًا منذ ذلك الوقت عن الإطفائيّة.

٢٨ آذار ١٩٧٧

الزواج الوصيّة

يدخل الزوّار إلى مكتبي هذه الأيام فيجدون أنني أعلّق على الحائط قصاصة من جريدة وتحتها التاريخ : ٨ نيسان ١٩٧٧.

في القصاصة خبر عظيم. هو زواج عليّ الصلح وآدال البستانيّ. وقد قرّرا أن يعقداه للتأكيد ، كما قالا ، على أنّها ضدّ الطائفيّة والتعصّب الدينيّ. ومع الخبر صورة حلوة تمثّل العريس المسلم يضع يديه على كتفي العروس المسيحيّة ، ملء يمينه الحبّ وملء يساره الحنان ، ممّا يشكّل لوحة مؤثّرة حقًّا.

أقول لزائريّ الأعزّاء : أُنظروا. لبنان الموحّد هو هذا. لن يتوحّد لبنان إلّا بهذا.

وبما يقابله ، طبعًا ، من الناحية الأخرى. أي أن نفرح كذلك ببطرس وفاطمة كما فرحنا بعليّ وآدال ، قريبًا إن شاء الله.

تبقى بعض النقاط التي يجب وضعها على الحروف. منها أنّ عليّ الصلح في الثالثة والثمانين من العمر. ففي إقدامه على الزواج شجاعة نسجّلها له ، وتضحية في سبيل الوطن سيحفظها له التاريخ ! أمّا آدال البستانيّ الحائرة في الصورة بين الأربعين والستّين فاللياقة تقضي – كما هو معلوم – بعدم السؤال عن عمرها بالضبط.

ولكن ما علينا؟ وبأيّ شيء نحشر أنوفنا؟ أليس للمرأة العمر الذي تريده ، وللرجل العمر الذي يقدر عليه؟

وفي هذا ما فيه من التطمين بأنّ زواج عليّ الصلح وآدال البستانيّ ليس وصيّة سياسيّة وبس...

فبالرفاء والبنين والمواطنين الصالحين !

١٣ نيسان ١٩٧٧

تذهبون وتبقى أحذيتكم !

من منّا لم يتمتم بهذه الكلمات بعد فقد عزيز له؟ أنا أعرف أمًّا تنام مع حذاء وحيدها الذي قُتل في الحرب...

ولكنّ الموضوع مختلف جدًّا. وهو يدعو إلى الضحك أكثر ممّا يدعو إلى البكاء.

وخلاصته أنّ الشاعر أسعد جوان – حسبما نشرت جريدة «العمل» – قرّر أن يقيم معرضًا لأحذية الخالدين في لبنان أو المرشّحين للخلود. وهو يسعى في هذه الأيّام للحصول ولو على حذاء على الأقلّ لكلّ واحد منهم. وسيكون شعار المعرض : «تذهبون وتبقى أحذيتكم !»

«تلك آثارُنا تدلُّ علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثارِ»

ألف شكر لصاحب الفكرة.

جارحة فكرته كالسكّين. وهو طبعًا يتوجّه بها إلى رجال السياسة . ومَن الخالد سواهم بعد أن عملوا لنا هذه الحرب التي لن ينساها التاريخ؟

بناءً عليه فليتنظر أسعد جوان أن تنهال عليه طلبات الاشتراك في المعرض (مع مرفقاتها) من كلّ صوب.

أمّا إذا كان رجال السياسة لا يهمّونه ، وكان يفكّر بنوع آخر من الخالدين الذين هم من طينته ، أي الشعراء والعلماء والفنّانين ، فأنا أخشى أن يبقى معرضه فارغًا. لأنّ هؤلاء – إذا كان عندنا منهم – يعيشون عادةً حفاة.

إلّا إذا أحبّ أن يجمع الأحذية العتيقة التي يرجمهم بها الناس. حتّى إذا ماتوا أقاموا لهم التماثيل.

١٨ نيسان ١٩٧٧

الأبقار السياسيّة

«إذا وقعت البقرة كثر السلّاخون».

الشاهد ما يعانيه ريتشارد نيكسون الرئيس السابق للولايات المتّحدة. فبعد ثلاث سنوات من استقالته بسبب فضيحة ووترغيت تعب السلّاخون وهم يعملون فيه سلخًا، فرفعوا أيديهم وقالوا له: «الآن دعنا نستريح وتفضّل اسلخ نفسك!» ووضعوا تحت تصرّفه أمضى سكاكينهم: التلفزيون.

– نعم كذبت. نعم خذلت الشعب. نعم خنت الأمانة... إلخ.

وبكى الرئيس على مرأى ومسمع من عشرات الملايين.

وبين الحين والحين، يسمحون له أن يأخذ نفَسًا، وينتهزونها فرصة للإعلان: مئة وستّون ألف دولار للدقيقة الواحدة.

الخلاصة أنّ الديموقراطيّة الأميركيّة قد برهنت أنّها جزّار لا يرحم، تتلذّذ بتعذيب من يخونها على طريقة الكونت دي ساد، ولا تكتفي بسلخه حتّى تطلب منه أن يسلخ نفسه، ثمّ تبيع جلده بالمزاد العلنيّ.

إذا كانت الولايات المتّحدة قد عرفت في تاريخها الحديث فضيحة اسمها ووترغيت، فقد عرفت بلدان كثيرة ألف فضيحة أعظم منها بكثير. وإذا كان للأميركيّين أبقار سياسيّة فللناس كذلك أبقار، وعجول وثيران وجواميس أيضًا.

مع هذا الفارق أنّ أبقارهم تقع. وأبقار الآخرين واقفة على أرجلها تسرح وتمرح ولا تتعثّر بالفضائح.

وإذا وقعت – لا سمح الله – فشتّان بين شعوب تنهال عليها بالسلخ والتشهير، وأخرى اختصاصها التجبير، وهوايتها المفضّلة التصبير.

١٠ أيار ١٩٧٧

إذا مات الله...

بعد جماعة الهيبي تطلع علينا جماعة البونك.

ولفظة البونك كانت تُطلق في القرن الخامس عشر على المومسات، وتحوّلت مع الأيّام فأصبحت تُطلق على كلّ منحطّ قذر سواء كان ذكرًا أم أنثى.

المهمّ أنّ بعض الشباب في إنكلترا قد رأوا في هذه التسمية ما يعجبهم فتسمّوا بها واتّخذوا الانحطاط والقذارة شعارًا لهم، وهم يطوفون في الشوارع ممزّقي الثياب، مبعثري الشعور، يدقّون على الغيتار ويغنّون:

«أنا بونك! أنا بلا دين! أنا لا أعترف بالحكومة! أنا فوضويّ!»

وقد قطعت هذه الموجة الجديدة بحر المانش ووصلت إلى فرنسا حيث صار لها أتباع يردّدون:

«أنا بونك! أنا لا أحتاج إلى الله! أنا أحتاج إلى البيرة! صبّ لي وغنّ بأعلى صوتك، ودقّ على الغيتار حتّى تطبق السماء على الأرض!...»

وهم يقضون نهارهم على الأرصفة، ظهورهم إلى الحيطان، وعيونهم تحدّق إلى الغيب. وفي الليل يلجأون إلى مداخل العمارات، ينامون على الأدراج بعضهم فوق بعض، ويتناسلون كالحيوانات.

في لندن أرادت الصحافة أن تتعرّف إلى شباب البونك عن كثب، فبصق الشباب في وجوه الصحافيّين. أمّا في باريس فقد تنازل أحدهم وصرّح لمندوبي صاحبة الجلالة بقوله: «اِذهب وقُل للعالم إنّه لا يعلّق على قفانا!»...

إنّها ظاهرة رهيبة من ظواهر الانحلال. ورحم الله جدّي، كان يقول:

– إذا مات الله في قلب إنسان فحطّه مع الخنازير.

يعني مع البونك.

١٣ حزيران ١٩٧٧

وجه السحّارة

السحّارة كلمة لبنانيّة مجهولة الأصل ، وهي عبارة عن صندوقة من الخشب تُعبّأ فيها الفاكهة لعرضها ، أو لشحنها ، أو لوضعها في البرّادات.

وليس في السحّارة ما يميّزها عن غيرها من الأوعية إلّا وجهها ، وهو دائمًا عنوان الجمال والفتنة والإغراء. وضحاياه كلّ يوم بعشرات الألوف.

مرّة أخرى وقعت أمس في شباكه. كنت في الطريق إلى البيت فاستوقفني دكّان فاكهة ، وعلقت عيناي بسحّارة برتقال ولا خدود الصبايا إذا ملنَ من بعض على بعض في تهامس عن الحبّ. قلت : أشتري.

ولكنّي لم أكد أصل إلى البيت وأُفرغ السحّارة حتّى طلعت لي منها كلّ سِحَن العجائز من المجعّد إلى المهترئ مرورًا بكلّ مبعجر وكريه...

على أنّي لم أعرف غضبة على وجه السحّارة كغضبة الصديق الدكتور توفيق رزق.

روى لي أنّ أخاه المرحوم عبد الله بك كان معتادًا أن يرسل إليه في الصيف كلّ أسبوع سحّارة عنب من كرومه في البقاع. وفوجئ عبد الله بك ذات يوم بالسحّارة على بابه مع بطاقة من الدكتور كتب عليها : مرتجعة مع الشكر! فدهش وهرول من ساعته إلى بيروت يسأل ما الخبر.

ورقصت شفتا الدكتور في الهواء وهدر بصوته :

– حتّى أخوك ، وهو يريد تكريمك ، لا يستطيع إلّا أن يكذب ، يغشّ ، يخدع. نحن بلاد وجه السحّارة في المعاملة ، في السياسة ، في كلّ شيء. نتوهّم أنّ في وجه السحّارة مصلحتنا. في قفاها ما هو أهمّ : شرفنا.

٢١ حزيران ١٩٧٧

زارع القلوب بلا قلب

البروفسور كريستيان برنارد ، زارع القلوب المشهور ، ولوع على ما يظهر بالتطبيل والتزمير لنفسه.

آخر ما حملته البرقيّات المحاولة التي قام بها في مدينة الكاب لزرع قلب قرد في صدر إحدى الفتيات. وقد فشلت العمليّة فشلًا ذريعًا ، إمّا لأنّ الفتاة – وهي في ريعان الصبا – رفضت أن تستقبل قلب قرد في القفص الذي تعدّه لاستقبال قلب حبيبها ، وإمّا لأنّ القرد كان متعاهدًا مع قردة يحبّها ونذر لها قلبه. الخلاصة أنّ المحاولة أسفرت عن فاجعة مزدوجة : ذبح القرد لاستخراج قلبه ، والتعجيل في موت الفتاة المسكينة.

قبل ذلك بأيّام ظهر في إحدى المجلّات الفرنسيّة حديث للبروفسور برنارد أثناء زيارته الأخيرة لباريس. وهو حديث سياسيّ بحت لا يمتّ إلى الطبّ بصلة. ومنه يتبيّن أنّ زارع القلوب من أنصار التّميز العنصريّ ومن الذين يرفضون الاعتراف للسود بالمساواة مع البيض ، وله في ذلك عدّة كتب منها كتاب عن وطنه بالذات عنوانه : «أفريقيا الجنوبيّة ذات الأربعة ملايين أبيض والعشرين مليون أسود» ، يتولّى فيه – على مدى نيّف ومئتي صفحة – الدفاع عن امتيازات البيض ، ويصرّ على اعتبار السود أدنى منهم بمراتب.

ويلي ذلك سلسلة لها أوّل وليس لها آخر من الحجج الخنفشاريّة في تفضيل البيض على السود ، إن دلّت على شيء فعلى أنّ حضرة البروفسور المحترم بلا قلب ، وأنّ ما يحمله بين ضلوعه عبارة عن حجر أو قطعة فحم.

مطلوب واحد من زملائه النطاسيّين يزرع له ولو قلب قرد ليصير إنسانًا.

٢٥ حزيران ١٩٧٧

في دولة المرحوم جدّي

كان لي جدّ أدركته في آخر أيّامه، وما تزال صورته ملء خيالي.

ذات يوم جاءه كبار الضيعة يسألونه في أمر تعيين ناطور جديد. وكانوا قد رشّحوا لهذه الوظيفة شابًّا لم يسبق له أن مارس عملًا. وكان الجماعة قد اصطحبوه ليقدّموه إلى جدّي. وكان جدّي يعرفه جيّدًا فالتفت إليه قائلًا:

– يا بطرس، خُذ هذه الجرّة واملأها من العين ليشرب الشباب ماءً باردًا.

فوثب بطرس إلى الزاوية وتناول الجرّة فرِحًا وقد رأى في ذلك علامة على رضى جدّي بتعيينه. ولكنّه قبل أن يتخطّى العتبة ناداه جدّي:

– بطرس! بطرس! تعالَ أقُل لك شيئًا.

فلمّا صار على مقربة منه رفع كفّه وناوله ملء خدّه صفعة مدوّية وهو يقول:

– أوعا تكسر الجرّة! رُح نحنا ناطرينك.

فلمّا أدار ظهره في طريقه إلى العين نظر القوم إلى جدّي مستغربين:

– ولكن، يا شيخنا، ألم يكن من الواجب أن تنتظره يعود من العين لترى هل كسر الجرّة!

فضحك ساخرًا وأجابهم:

– ضربته لكي لا يكسرها. ما نفع الضرب بعد كسرها؟

وما هي حتّى عاد بطرس بجرّته من العين، سليمة طبعًا، فهتف به جدّي:

– عافاك يا بطرس! خُذ الإبريق وصبّ للشباب. ومبروكة عليك المنطرة.

٢٩ حزيران ١٩٧٧

الشعر أو حقل البطاطا

قرأت أنّ جمعيّة أصدقاء الكتاب الفرنسيّة انتخبت الرئيس السنغاليّ ليوبولد سنغور أميرًا للشعراء.

نحن العرب أوّل من ابتدع للشعر إمارة ونصّب على الشعراء أميرًا. حصل ذلك مزاحًا وتحبّبًا في البداية ثمّ انقلب إلى جدّ وحرب. وبيان ذلك أنّ المرحوم أحمد شوقي كان شاعر الخديويّ في مصر، على عادة الشعراء القدامى في التحاقهم بأصحاب السلطان للمدح والتكسّب. فلُقّب من أجل ذلك بشاعر الأمير. ثمّ كان أن أُعجب الناس بشعره – وهو رائع حقًّا – فلعبوا بالألفاظ لعبة الثلاث ورقات تقديمًا وتأخيرًا. وهكذا من شاعر الأمير أصبح شوقي أمير الشعراء.

وبعد وفاة شوقي قامت القيامة. نوديَ بالأخطل الصغير أميرًا للشعراء، فتصدّى له أمين نخله مدّعيًا الإمارة لنفسه بصكّ نشره على الناس هو عبارة عن قصيدة قال إنّ شوقي نظمها لمّا أحسّ بالموت وعيّنه فيها أميرًا من بعده... وهاتِ من يسأل شوقي في قبره عن صحّتها.

الخلاصة، غفر الله لجمعيّة أصدقاء الكتاب الفرنسيّة، فقد كنّا نعتقد أنّ إمارة الشعر انقرضت واسترحنا من متاعبها. فإذا هي تطلّ علينا من جديد ولكن بوجه سنغاليّ.

أنا مستعدّ أن أحني رأسي باحترام للدكتور ليوبولد سنغور مرّتين: الأولى، طبعًا، لأنّه رئيس جمهوريّة، والثانية لأنّه بالفعل شاعر عظيم. ولكنّي أرفض أن أحني له رأسي بصفته أميرًا للشعراء. دولة الشعر هي الفوضى، وأروع ما في هذه الدولة أنّها حقل بطاطا – كلّه رؤوس.

٤ تموز ١٩٧٧

الجمع بين القلوب

أذكر جيّدًا ، كما يذكر أبناء جيلي ، سمسارات الزواج. تلك الفئة من النساء الساعيات بالخير بين العرسان والعرائس ، في زمن لم يكن فيه الاختلاط بين الجنسين مباحًا أو ميسورًا.

الحرفة كانت في كلّ بلد من بلدان العالم من جملتها روسيًا. حتّى جاءت الثورة قبل خمسين سنة فمنعتها باعتبار أنّ الزواج في ظلّ النظام الشيوعيّ لا يجوز أن يخضع للسمسرة البورجوازيّة. واليوم ، بعد مضيّ نصف قرن ، تعود روسيًا إلى التفكير جدّيًّا بإحيائها.

أمّا في البلدان الرأسماليّة فقد تولّت المهمّة -كما هو معلوم- جرائد ومجلّات اختصاصيّة لا عدّ لها ولا حصر ، تنشر عروض الفريقين من الراغبين في الزواج ، مع سعرهم وصورهم ، وحاجاتهم وشروطهم ، ممّا يشكّل بازارًا حافلًا بالغرائب والعجائب!

المهمّ أنّ روسيًا -كما تقول صحيفة «ليترانورنايا» - ستسمح لسمسارات الزواج بالعودة إلى ممارسة حرفتهنّ كالسابق ، مع تزويدهنّ بعدّة جديدة للشغل ، هي عبارة عن كومبيوتر لحساب دقّات القلوب وفرز ما فيها من عواطف (كذا)...

لست أدري هل يكون هذا الكومبيوتر أبرع في تأدية وظيفته من آذان عجائز أيّام زمان. ولكنّي ، على كلّ حال ، أنتظره بفروغ صبر. وأنتظر خصوصًا أن تبادر أميركا إلى اختراع كومبيوتر تتفوّق به على روسيًا - كما هي العادة - لنسجّل للجبّارين أوّل منافسة بينهما في الجمع بين القلوب ، بدل الاستعداد للحروب.

١٨ تموز ١٩٧٧

نادي الصمت

يظهر أنّ الإنسان أفرط في الكلام حتّى صار الكلام مرضًا من أمراضه. أو هذا ، على الأقلّ ، ما يعتقده جماعة من الألمان الذين أنشأوا ناديًا جديدًا اسمه «نادي الصمت» يقوم نظامه على الانقطاع عن الكلام ، ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات كلّ يوم.

الأسباب الموجبة - كما يقول الجماعة - صحّيّة أصلًا. فقد تبيّن للدكتور فريتز جورمان ، صاحب فكرة النادي ، أنّ شقشقة الألسنة تؤدّي إلى أمراض كثيرة وأنّ بالإمكان شفاءها أو الوقاية منها بالصمت.

كنت أحبّ لو ذكر حضرة النطاسيّ المحترم لائحة هذه الأمراض لأعرف مدى خطرها علينا في البلدان العربيّة. فالأمر يعنينا كما يعني الألمان.

على أنّ الأمر يتجاوز النطاق الجسمانيّ البحت إلى نطاق الأخلاقيّات والمعنويّات والاجتماعيّات والسياسيّات. ولذلك قيل:

«الصمتُ زينٌ والسكوت سلامةٌ
فإذا نطقتَ فلا تكن مكثارًا»

والعجيب أنّ هذا القول الذي يتّخذه النادي الألمانيّ شعارًا له إنّما هو من أقوالنا نحن ، وقد قاله شاعرنا منذ ألف سنة وأكثر ونحن ما نزال نردّده ، ولكن دون أن نعمل به ، فكأنّنا لا نردّده إلّا لنزيد في الثرثرة.

عندهم نادي الصمت؟

عندنا نادي طقّ الحنك ، وكلّنا فيه أعضاء عاملون من المحيط إلى الخليج.

١٩ تموز ١٩٧٧

حديث مع مذيعة

اِقتحمتني في بيتي ، على غير موعد ، آنسة إذاعيّة تحمل آلة التسجيل وطلبت منّي حديثًا. فسألتها عن أيّ شيء؟ قالت :

– عن كلّ شيء ولا شيء. ماذا تعني لك ، مثلًا ، لفظة الله؟

– أنتِ قلت. كلّ شيء ولا شيء. كلّ شيء بمعنى أنّ كلّ شيء من الله ، وفي الله ، وإلى الله. ولا شيء بمعنى أنّني لا أفهم من الله شيئًا.

– هل أنت مؤمن؟

– على طريقتي الخاصّة. ولكن قد يتّفق لي أحيانًا كثيرة أن أكفر.

– بوجود الله؟

– معاذ الله ! كفري عبارة عن عتب لا أكثر.

– إذن العلاقة بينكما علاقة صداقة؟

– شيء من ذلك. علاقة تفاهم بالأضواء. هل سمعت بمسرحيّة «البهلوانات» التي تُعرض الآن في لندن بنجاح كبير؟ مؤلّفها هو توم ستوبارد – وهي أعظم أعماله – وموضوعها الفلسفة حول الله بالذات. يقول أحد أبطالها الفيلسوف مور ما نصّه : «هنالك إشارات متبادلة بيني وبين الله على هذه الطريق المظلمة التي هي الحياة. كأنّنا نحن سائقا شاحنتين يتبادلان في الليل الأضواء الكشّافة».

قالت : ما رأيك في الشعر الحديث؟

– إلى هنا وبس. لا تدعيني أكفر.

– لماذا؟

– لأنّ جماعة الشعر الحديث يحطّمون أضواء شاحنتي.

٢٨ تموز ١٩٧٧

الحفيد الأزعر

حينما وُلد التلفزيون تنبّأ علماء الصناعة بموت الراديو. ولكنّ الراديو لم يمت. إنّه يتناسل.

من الراديو الموبل ذي الطول والعرض الذي كان يتصدّر الصالونات ، إلى الترانزيستور الذي يُعلّق اليوم على الأكتاف ، إلى «الـ ٢٧» الواصل إلينا من أميركا بعد سنتين أو ثلاث على الأكثر. وهو – كما سترى – حفيد أزعر بكلّ معنى الكلمة.

الـ ٢٧ يعني – للراسخين في العلم – ٢٧ ميكاهرتز. وهو عبارة عن آلة لاقطة ومرسلة معًا ، تعمل على موجة طولها ١١ مترًا ، ولا يتجاوز حجمها حجم القدّاحة أو علبة الكبريت.

يقول أحدهم في جريدة «لوموند» – وأنا أنقل عنه هذه المعلومات – أنّ الـ ٢٧ ، بالرغم من أنّ استعماله لا يزال محصورًا حتّى اليوم بين الهواة في أميركا وبعض بلدان أوروبّا ، فإنّه يشغل حكومات العالم تحت كلّ سماء. لأنّه لا يؤمّن لصاحبه الاتّصال بالمكتب ، بالبيت ، بالصديق ، بالعشيقة ، وبأيّ شخص آخر فقط ، بل هو يؤمّن له كذلك على أحسن وجه الاستماع إلى حديث الجيران ، وحتّى إلى الغزل بين الجار والجارة في سريرهما ... وغير ذلك ممّا تمنعه القوانين.

الخلاصة أنّ الـ ٢٧ آلة عجيبة ، نافعة ضارّة معًا. آلة للأعمال ، للمواعيد ، للتجسّس إلخ... تملأ الفراغ بـ ٢٧ شيطانًا.

العلم يمشي ولن يتوقّف. وما على القوانين إلّا أن تعمل وظيفتها.

أيّ أن تلحق بالشياطين وتوقفهم عند حدّهم.

٢٤ تموز ١٩٧٧

العملة التي لا تكسد

تعوّدنا أن نرى مقلّدين لكلّ عملات الأرض قديمًا وحديثًا.

وكنت، كلّما سمعت بمقلّد عملة، أفتح فمي إعجابًا بذكائه. ولكنّي هذه المرّة، أمام مقلّدي الجنيه الإسترلينيّ، قد تجاوزت الإعجاب والتعجّب إلى شعور آخر هو المتعة الخالصة. فقد ضمّ الجماعة الظرف إلى الذكاء، واستطاعوا أن يجعلوا من التقليد ابتكارًا.

الخبر نشرته الجرائد وقد جاء فيه ما نصّه:

«ظهرت في دنكستر، شمال شرقيّ إنكلترا، أوراق بنكنوت تحمل صورًا جنسيّة. وقد جاءت هذه الأوراق نسخة متقنة تمامًا عن الجنيه الإسترلينيّ، لكن مع شيء من التغيير، إذ حلّت محلّ صورة الملكة صورة فتاة في وضع يسيل له لعاب الرجال، وعلى الوجه الآخر حلّت صورة فتاتين عاريتين محلّ تمثال بريطانيا رمز البلاد».

وقد صادرت السلطات المختصّة، طبعًا، هذه الأوراق ومنعت تداولها، والتحقيق جارٍ عن الفاعلين، وسيكون عقابهم مضاعفًا لتعرّضهم لصاحبة الجلالة بما لا يليق.

ما عدا ذلك، لا أرى من ناحيتي شيئًا يؤاخَذ عليه المقلّدون. فالجنيه الإسترلينيّ في هبوط مستمرّ، وهو يفقد كلّ مدّة بعضًا من قيمته. وكذلك الأكثريّة الساحقة من عملات الأرض، وفي مقدّمتها ليرتنا اللبنانيّة التي أصبحت كدسة منها لا تشتري كيلو خضرة.

من يدري؟ لعلّ الجماعة ربطوا العملة بالمرأة لسبب غاب عن بال علماء المال والاقتصاد. أليست المرأة هي العملة الوحيدة التي لا تعرف الكساد؟

١٦ آب ١٩٧٧

الله مع من؟

عندما تنشب حرب بين شعب وشعب فمع مَن يكون الله وملائكته؟

الشعوب القديمة كان لها آلهتها - أصنام في الغالب - وكانت تحمل هذه الآلهة إلى ساحات القتال لتحارب معها وتساعدها على النصر.

وكنت أعتقد أنّ هذه الخرافات قد زالت في هذا العصر الذي هو عصر العلم، حتّى طلع العلّامة المستر روبير باري، مدير «مكتب الصحون الطائرة» في بنسلفانيا بتصريح يقول فيه: إنّ الله وملائكته مع إسرائيل ضدّ العرب!

وهو يقدّم على ذلك براهينه فيقول: إنّ الله، سبحانه وتعالى، قد أرسل ملائكته في الحروب الأربع التي وقعت بين الفريقين في ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ وذلك بواسطة هذه الصحون الطائرة بالذات التي كثر ظهورها في السنوات المذكورة بشكل حيّر العلماء، ولم تكن في الواقع إلّا أساطيل الجيوش السماويّة التي هبطت لنجدة إسرائيل والتنكيل بالعرب!

وجّه الله الخير للشاعر القرويّ القائل:

«أتذكرُ كيف كان إلهُ موسى
إلهًا قاسيًا يلتذُّ بالدم»

أنا، في سذاجتي، كنت ولا أزال من المؤمنين بأنّ الله جلّ جلاله على الحياد في أيّ حرب. ولكنّي أؤمن كذلك بالمثل القائل: «ساعد نفسك يساعدك الله». ومعنى هذا، بالعربيّ الفصيح، أنّ الله مع اليهود لأنّهم مع أنفسهم. فليتّحد العرب وأنا الكفيل بأنّ الله سيرسل إليهم النصر على تلك الصحون الطائرة - إيّاها - مع الفرق أنّها ستكون من فضّة إكرامًا للمقام.

١٨ آب ١٩٧٧

إلفيس برسلي

سواء استجابت حكومة الولايات المتّحدة لطلب الملايين بإعلان الحداد الرسميّ على موت إلفيس برسلي أم لم تستجب ، فإنّ الحداد في قلوب هؤلاء الملايين بل عشرات الملايين في أميركا وفي العالم. والله يعلم متى يفكّونه.

الأرجح أنّهم سينتظرون من يأخذ مكانه خلفًا لسلف ، أو مسمارًا يطرد مسمارًا. تمامًا كما جاء هو ليقوم بدور البيتلز بعد أن تخلّوا عنه ، ولكن بطريقته.

مات ملك الروك بالسكتة القلبيّة على قول بعضهم. وبغيبوبة مورفين على قول آخرين. وكان مدمنًا على المخدّرات على أنواعها حقنًا وشمًّا ، زلعًا وبلعًا. منها حبوب كان يزعم أنّها تكسبه السمرة ، وأخرى تطرد عنه الروائح الكريهة في مواجهة الجماهير.

فريق ثالث يؤكّد: بل مات من ضيق النفَس مبحوحًا... بعد أن ملأ الدنيا بصراخه. أي أنّه ظلّ يصرخ ، ويصرخ ، ويصرخ حتّى انشقّ.

أنا من رأي هؤلاء.

ذلك أنّ إلفيس برسلي لم يكن يصرخ بلوعته وثورته وعذابه ويأسه ، بمقدار ما كان يصرخ بمأساة جيل. جيل ما بعد الحرب ، جيل الكفر والعنف والرعب. جيل الخيبة والمرارة والانسحاق. وهو جيل أشبه ما يكون بالحيوان الجريح.

أغانيه كانت صراخًا. وصراخه كان خوارًا ، كالثور في ساحة الكوريدا. وكالثور كانت نهايته. فيها كلّ العظمة ، وكلّ الحقارة.

٢٠ آب ١٩٧٧

بين الأرض والكواكب

ما زلت أفكّر بهذه الرسائل العجيبة التي أطلقتها محطّة الفضاء الأميركيّة إلى الكواكب.

شرائط تحمل خطابًا من الرئيس كارتر ، وآخر من السيّد فالدهايم أمين عامّ الأمم المتّحدة ، وأصواتًا مأخوذة من كوكبنا ، منها صراخ طفل وهو يطلّ على النور ، وزقزقة عصافير ، وهطول أمطار إلخ. مع بعض المقطوعات المختارة من موسيقى الروك.

والرسائل المشار إليها موجّهة إلى عطارد وزحل والمشتري وغيرها ، عسى أن يكون فيها من يسمع ويفهم ويردّ الجواب.

تقول البرقيّات إنّ اللغات التي استُعملت في هذه الرسائل قد اختيرت بين أكثر لغات الأرض شيوعًا – ٦٠ لغة بينها العربيّة – ولكن من يضمن لنا أنّ سكّان الكواكب يتكلّمون واحدة منها؟ لذلك أتوقّع أنا أن يذهب خطاب كارتر وخطاب فالدهايم أدراج الرّياح.

أمّا الأصوات الأخرى ، الحلوة ، البريئة ، الخالية من الزغل – أصوات الأطفال والعصافير والأمطار – فهي عبارة عن خدعة كبيرة. ولو أرادت المحطّة أن تكون صادقة لشفعتها بصراخ المعذّبين وفحيح الأفاعي وقصف الصواعق والقنابل.

بقيت مقطوعات الروك.

كلّ الظنّ أنّ سكّان الكواكب سيسدّون آذانهم دونها ويهربون إلى ملاجئهم ، أي إلى النجوم التي لم يصل نورها بعد إلى الأرض.

٢٤ آب ١٩٧٧

عودة الابنة الشاطرة

تقوم في الولايات المتّحدة حركة تصحّ تسميتها بالثورة النسائيّة المضادّة، أو بعودة الابنة الشاطرة.

زعيمة هذه الحركة هي السيّدة مارابل مورغان وهي تتوجّه إلى بنات جنسها بقول بولس الرسول:

– أيّتها النساء، اخضعن لرجالكنّ.

وتزيد: على المرأة أن تتفانى في الاهتمام بكلّ ما يروق زوجها ويحلو له، سواء في الطبخ أو الجنس أو المعاملة إلخ.

هذه الإرشادات، وغيرها كثير، موجودة بالتفصيل في كتابين ألّفتهما السيّدة المذكورة. الأوّل «المرأة الكاملة»، والثاني «السعادة الكاملة». وهما يباعان كالخبز. ستّة ملايين نسخة حتّى الآن. فضلًا عن دروس تتولّى خمس وسبعون تلميذة لمارابل مورغان إلقاءها في الأندية الموزّعة في مختلف الولايات، مقابل ١٥ دولارًا لكلّ ٤ دروس. وخلاصة هذه الدروس أنّ على المرأة أن تحرق كلّ ما عندها من حطب لكيّ تولّع زوجها.

طبيعيّ أن تقوم قيامة الجمعيّات النسائيّة على هذه الحركة. ولكنّ الغلبة لها، بدليل أنّ الناخبين في ولاية نيويورك ردّوا مشروع قانون بالمساواة في الحقوق بين النساء والرجال بأكثريّة ساحقة...

الابنة الشاطرة في أميركا تعود إلى البيت بعد أن تحرّرت. أي بعد أن أكلت طعام الخنازير.

عقبال أن تعود الشاطرات في لبنان لنذبح لهنّ العجل المسمّن.

٢٥ آب ١٩٧٧

لبنان تلك الخميرة

قال لي صاحبي: إذن، أنت لا تزال، بالرغم من كلّ شيء، مؤمنًا بالمعجزة.

قلت: إذا كان زمن المعجزات قد ولّى فهو بالنسبة إلى لبنان حاضر. لأنّ لبنان معجزة دائمة.

وأنا أؤمن بالمعجزة لأنّني أؤمن بلبنان، وإيماني بها من إيماني بالحبّ الذي بدونه لست إنسانًا.

بالحبّ وحده خلاصي أنا المسيحيّ. وبالحبّ وحده خلاصك يا أخي المسلم. ويكون لبنان حبّنا الواحد أو لا يكون.

إذا تعثّرت مسيرة التعايش بيننا في الأمس القريب كما تعثّرت في الماضي البعيد، وكما لا بدّ لها أن تتعثّر في ليالي الزمان المقبلة – الحبالى هي الأخرى – فأمر لا يزعزع إيماني. وحريّ به أن يقوّيه بفضل ما يحمل من عظة.

المهمّ أن ننهض.

أن نلملم أنفسنا ونتنادى من جديد من حيث بعثرتنا أيدي الشرّ. أن يمشي بعضنا إلى بعض من هناك وهنالك إلى هنا. فهنا الطريق والحقّ والحياة.

وما عداه غلط، وعمى، ومعاندة للقدر الذي هو قدر لبنان. وقدر لبنان المضيّ في طريقه مهما كانت الصعاب ومهما بلغت التضحيات.

لبنان المعجزة الدائمة التي تصنع نفسها غصبًا عن العالم، وأحيانًا غصبًا عن اللبنانيّين.

لبنان، الخميرة الحضاريّة التي لا تموت، لأنّ فيها كلّ الماضي وكلّ المستقبل.

٢ أيلول ١٩٧٧

امتحان وعلامات

الكاتب الأرجنتينيّ بورجس يزور باريس في هذه الأيّام ويتنقّل في أنديتها موزّعًا كلماته الحلوة.

ويُعتبر بورجس أكبر أديب في بلاده ومن أكابر أدباء العصر في العالم، وهو في التاسعة والسبعين من العمر، وقد فقد بصره منذ عشرين سنة ولكنّه لم يفقد شيئًا من نور الحياة «المشرقة شمسها في قلبه مع شروق كلّ شمس»، على حدّ تعبيره.

وفي باريس انهالت عليه الأسئلة. منها هذا السؤال الأزليّ الأبديّ طرحته عليه إحدى الفتيات:

– ما رأيك في الحياة؟

– جيّدة، يا ابنتي، جيّدة.

هكذا بالحرف. كأنّها علامة من علامات الامتحان. وهي في الواقع كذلك بالنسبة إليه بعد أن امتحن الحياة في كلّ الموادّ.

والعلامات في الامتحان معروفة. من جيّد جدًّا إلى رديء جدًّا. أمّا علامة الجيّد جدًّا فليس من المعقول أن تنالها حياة مع العمى. مع العلم أنّ بورجس لم يكن يفكّر في حياته هو بل في حياة الناس، وكلّهم يشكو إن لم يكن من العمى فمن مصيبة من المصائب، أكبر أو أصغر لا فرق، ولكنّها على كلّ حال لا تجيز الارتفاع بالعلامة إلى جيّد جدًّا.

ومع ذلك فبورجس من المتفائلين وهم الأقلّيّة. أمّا الباقون، يعني أنا وأنت وسائر عباد الله، فنهتف بملء أفواهنا ونردّد صباح مساء: رديئة هذه الحياة، رديئة جدًّا. وفي النتيجة نعمل مثل فاحصي البكالوريا مع بعض التلميذات: نتساهل وندعها تمرّ...

٢٨ أيلول ١٩٧٧

كلّنا دستي!

الحادث الطريف الذي وقع في مدينة الكاب للمغنّية الإنكليزيّة دستي سبرنغفيلد له أكثر من مغزى.

وصلت دستي إلى الكاب وغنّت أغنيتها «ليس عندي ما أقوله، والأمر كلّه سخيف للغاية!» وفي اليوم التالي تلقّت أمرًا من السلطات بطردها خارج الحدود.

هذا هو الحادث. يُضاف إليه أنّ المغنّية استغربت هذا التدبير وقالت: لا أعلم لماذا طردوني. إنّ موضوع الأغنية طريف، ولم يسبق للمغنّين أن غنّوا فيه.

وهذا صحيح. فالمغنّون – وفيهم المغنّيات طبعًا – اعتادوا أن يغنّوا في الحبّ، شوقًا ووصالًا، وفراقًا وأرقًا، وبكاء وصريف أسنان... أفإلى ذلك تلمّح دستي في أغنيتها: «ليس لديّ ما أقوله، والأمر كلّه سخيف جدًّا»؟

أهو التعبير الجديد عن الحبّ في لغة العصر يا تُرى؟ أم إنّ دستي تذهب إلى أبعد من الحبّ ومشاكله، لتتناول كلّ ما يفكّر فيه الإنسان وكلّ ما يحسّ به وكلّ ما يقوله حزمة واحدة من السخافات تلقيها بوجوه الناس؟

الواقع أنّنا كلّنا، في قرارة نفوسنا وغور ضمائرنا، «ليس عندنا ما نقوله، والأمر سخيف للغاية».

ومع ذلك، نقول ونقول ونقول... الفرق بيننا وبين دستي أنّها تقول أنّ لا شيء لديها تقوله وتطربنا قولًا ولحنًا. ونحن نقول أشياء كثيرة ولا نقول شيئًا... ولا نطرب أحدًا.

!!!

حصادُ العمر

أو

سيرة شقٍّ وسطيح

إلى الذين أحببتهم

عواد

لو كنتُ أنطق بألسنة الناس والملائكة ، ولم تكن فيّ المحبة ، فإنما أنا نحاسٌ يطنّ أو صنج يرنّ . ولو كانت لي النبوّة وكنت أعلم جميع الأسرار والعلم كله ، ولم تكن فيّ المحبة ، فلستُ بشيء .

المحبةُ تتأنّى وترفق . المحبة لا تحسد . المحبة لا تتباهى ولا تنتفخ . لا تأتي قباحة ولا تطلب ما لنفسها . لا تحتدّ ولا تظنّ السوء . لا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق .

بولس الرسول

سين – جيم

سَطيح : عجيب أمرك يا شِقّ ! أتذكر السهرات الخاصّة التي كنت أدعوك إليها في بعض عواصم أوروبّا وأميركا والشرق الأقصى؟

شِقّ : أيّها؟ فهي كثيرة. وما تعني بقولك الخاصّة؟

سَطيح : سهرات الستربتيز. هذه الصرعة العجيبة التي طلع بها علينا العصر : تعرّي المرأة على المسرح. المعطف، فالفسطان، فالقميص، فالحميم من الدثار، مع فنون من الإغراء في النظرات والحركات....

شِقّ : (مقاطعًا) : والغمزات والانعطافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

سَطيح : أجل كنّا على خلاف بشأنها. أُحبّها أنا ولا تطيقها أنت. وما يكاد يستقرّ بنا المقام في تلك القاعات المعتمة وتُسلّط الأضواء على المشهد الأوّل، أو الثاني على الأكثر، حتّى تأخذني بكمّي غاضبًا وتشدّني صوب الباب هربًا من شيء، كنت تقول، يشوّه الصورة التي في ذهنك عن المرأة. وها أنت تدعوني اليوم، في هذا الكتاب، إلى مثل هذا أو أدهى منه. أليس ما أنت مقدم عليه ضربًا من الستربتيز؟

شِقّ : الكلمة في حدّ ذاتها هي التعرّي. الكاتب لا يفعل شيئًا غير ذلك حتّى عندما يتكلّم عن الآخرين. يظنّ أنّه يعرّيهم، وهو في الواقع لا يعرّي إلّا نفسه. والعكس صحيح.

سَطيح : وما الداعي إلى كلّ هذا؟

شِقّ : بالكلمة أحيا الحياة مرّتين. أسوّيها من جديد. أخلقها خلقًا ثانيًا. أثبت الزمان في المكان. ألحق باللحظة الهاربة فأكمشها وأعلّقها على الحائط كالمرآة وأنظر إلى نفسي فيها. أُبَروِز فيها نفسي وأتحدّى الفناء. تمامًا كما أتحدّاه في علاقتي مع المرأة. هل الحبّ في النتيجة إلّا تحدٍّ للفناء؟

سَطيح : الحبّ. أنت تحبّ الكلمة كالمرأة، ولكنّك تكذب عليها كما تكذب على المرأة سواء بسواء.

شِقّ : وتكذب عليّ هي كما تكذب المرأة. تكاذُب الحبّ هو هو بين الرجل والمرأة، وبين الكاتب والكلمة. وما دامت الكلمة عندي امرأة بكلّ ما في المرأة من سحر، وما دامت علاقتي بها بالتالي وَصلًا، فسأظلّ أكذب عليها وتكذب عليّ.

«تقوِّلني في الوَصلِ ما لستُ قائلاً
وأسمعُ منهـــا مـــا يحيِّرُ ذاتي
أُصدِّقُ ما تُملي عليَّ فهل ترى
تُصدِّقُ مـــا أُملي أنـــا كلماتي»*

---

* من ديوان «قوافل الزمان» للمؤلّف.

سَطيح : وعلامَ هذا الكذب المتبادل؟
شِقّ : الحبّ يتجاوز الوصل إلى ما وراءه . ينشد مثله الأعلى ، وهكذا يكذب على نفسه .
سَطيح : أيعني ذلك أنّ ما ستقصّه على الناس في هذا الكتاب كذب في كذب؟
شِقّ : معاذ الله ! إنّها حوادث حدثت وأقوال قيلت . صحيحة كلّها من حيث إنّها حدثت بالفعل وقيلت بالفعل ، وأنت الشاهد . ولكنّها قسمان : التأريخ والأدب . أمّا ما كان منها تأريخًا فهو حقيقة المتّهَم الذي يُطلب منه ، ويده على الكتاب المقدّس ، «الحقيقة كلّ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة» . وأمّا ما كان منها أدبًا ، نثرًا وشعرًا ، فهو حقيقة الكاتب التي يتجاوز بها الواقع إلى الفنّ .
سَطيح : إنّك تعود في هذا الكتاب إلى أشياء قديمة ، إلى أنقاض تصفر فيها الرياح .
شِقّ : بيتي أعود إليه . إلّا إذا كان من كنز خبّأته في زاوية ، فأنت تخشى أن أنبشه .
سَطيح : ليس في الزوايا إلّا الغبار ، يلاقيه العنكبوت من السقوف متدلّيًا ذات اليمين وذات اليسار . أرجوحة العمر التي تحمل أفراحنا وأتراحنا ، وآمالنا وخيباتنا .
شِقّ : (يهزّ برأسه موافقًا) : وبعض الدم المتجمّد : قصائدي .
سَطيح : ولكن لماذا تُدخل قصائدك في هذا الكتاب ، وعلامَ لا تضمّها في ديوان على حدة كما يفعل الشعراء؟
شِقّ : لأنّ قصائدي ليست منفصلة عن حياتي . وإذا كانت حياتي الماضية –حياتنا يا سَطيح– بيتًا متداعيًا تصفر فيه الرياح ، كما تقول ، فالشمس ما تزال تطلّ عليه كلّ صباح وتعكس أشعّتها على ذلك الدم المشرور . وربّما لاقاها بمثل أشعّتها فامتزجت هذه وتلك ، تتخاصر وتتراقص ، متسلّلة بين الفتحات ومتمسّحة بالذكريات ...
سَطيح : اِسمع منّي يا شِقّ ، اهدم القديم وأعد الأرض بكرًا وابنِ عليها بيتًا حديثًا من ألفك إلى يائك .
شِقّ : ليس من حديث إلّا الشكل ، ولا جديد تحت الشمس . الحجارة نفسها سأستعين بها لإعادة البناء . وربّما استعرت من محاضراتي بعض فقراتها بالحرف ، ومن كتبي مقاطع كاملة . أقول لهذه الحجارة : «هنا مطرحك لا هناك ، تفضّلي خذي مطرحك» . وما تبقّى فالمقلع في الصدر لا ينفد . وسأقطع منه ما أريد ، وأنحته كما أشتهي ، وأرصفه حيث يطيب لي . ولكن حذارِ ! حذارِ ! إنّ من الكلمات لصخورًا . وقد يخطر لي أن أضرب قلمي مِعولًا وأهيل من المقلع ما أهيل بلا وعي ، وأنا فوق وأنت تحت ، فيسقط الصخر على يافوخك !
سَطيح : تقتلني؟ إذن تقتل نفسك . ألسنا اثنين في واحد؟ ولكن ، ما دامت يدك هي التي تعمل ، فقُصاراي رجاء : أُرفق بي وبنفسك .

ولادة شِقّ وسَطيح

في أساطير الجاهليّة مخلوقان عجيبان لا يُذكر أحدهما إلّا بذكر الآخر، هما شِقّ وسَطيح. كان شِقّ بعين واحدة، ويد واحدة، ورِجل واحدة. وكان سَطيح بلا عظام، يندرج كالثوب، وينتفخ كالجراب، ولا يقف إلّا إذا غضب.

على أنّ في الطبيعة أحيانًا ما هو أعجب من الخيال. من ذلك الظاهرة التي شغلت الناس في القرن التاسع عشر وذهبت في العالم مثلًا: الأخَوان السياميّان. مسخ مزدوج، توأمان وُلدا مرتبطين بخاصرتيهما، وعاشا أربعًا وستّين سنة طافا خلالها بعواصم أوروبّا وأميركا في سِرك فرجة لمن يتفرّج، وماتا بعد ذلك ميتة لم يعرف تاريخ الموت أفظع منها، إذ مات أحدهما قبل الآخر وظلّ الحيّ ينظر إلى الجثّة العالقة به أربع ساعات – وسعت الدهر – إلى أن لحق بأخيه.

ومن ذلك أيضًا خبر ذو دلالة أعجب وأعجب نشرته الصحف في صيف ١٩٧٧ عن حادث تافه: فتى أوغنديّ يروح ويجيء في شوارع نيويورك وهو يردّد بإنكليزيّة الزنوج الإفريقيّين ما ترجمته بالحرف:

– أنا يُريد قتل أنا!

ولدى التحقيق اعترف بأنّه هرب من بلاده على ظهر سفينة، وقال إنّه يكره نيويورك أكثر من كرهه لأوغندا، وكرّر رغبته في الانتحار.

بيت القصيد في هذا الخبر ليس الانتحار من حيث هو. فالمنتحرون يُعَدّون بالمئات والألوف كلّ يوم في العالم. ولكنّه في الطريقة التي عبّر بها الفتى عن رغبته تلك. بالغلطة اللغويّة التي وقع فيها. هذه الغلطة قد كشفت عن جهله ولكنّها كشفت من حيث لا يدري عن شيء عظيم.

هو لم يقل: أريد الانتحار. ولا: أريد أن أقتل نفسي. بل قال: أنا يريد قتل أنا. وهكذا ببساطة، بدون فلسفة، وعن غير قصد، أعطانا صورة لم يسبقه إليها أحد عن الصراع بين هذين العدوّين اللدودين، بين الأنا والأنا في داخلنا، هذين الجبّارين اللذين يأكلان معًا في صحن واحد وينامان معًا في فراش واحد.

لم تذكر لنا الصحف اسم الفتى الأوغنديّ صاحب الأنا القاتل والأنا القتيل. ونسيت من ناحيتي اسمَي الأخوين السياميّين، وهما على كلّ حال من الأسماء الأعجميّة الأعجبيّة التي لا تدور بسهولة على لساننا العربيّ. فأيّ بأس في أن نستعير لكلّ من المسخ المزدوج والأنا المزدوجة اسمَي شِقّ وسَطيح؟

وأسطورتنا تعيننا على ذلك أحسن العون من ناحية الازدواج بالذات، فنحن لا نعرف شِقّ إلّا بسَطيح،

ولا نعثر على اسم سَطيح إلّا مقرونًا باسم شِقّ ، فهما اثنان في واحد وواحد في اثنين. فضلًا عمّا ينبغي أن يُغرينا من أوصافهما الفريدة. مع العلم أنّ شِقّ هو الذي يعنينا في الدرجة الأولى. وما عابته عين واحدة إذا كان يرى بها ما لا تراه العيون ، ولا رِجل واحدة إذا حلج بها على القمم ، ولا يد واحدة إذا كانت تقطف النجوم...

* * *

ولعلّ شِقّ من شِقّ القلم. منه وُلد. وكانت ولادته صعبة.

قبل ذلك ، وحتّى العاشرة ، لم يكن الصبيّ الذي كنتُه في هذا العمر يشعر بأنّ في داخله بدل الواحد اثنين.

ذات صباح من شتاء ١٩٢١ خرج الصبيّ من بيته في بحرصاف بغمبازه الديما وبحقيبة كتبه التي خاطتها له أمّه ، من الديما كذلك ، وتحت إبطه حطبة من السنديان ، ووجهته ساقية المسك ، الضيعة القريبة الكائنة بين بحرصاف وبكفيّا* . كان بونا أنطون الحاجّ بطرس قد فتح مدرسة في قبو بيت ملحق بكنيسة سيّدة المعونات ، لا يفصله عنها إلّا ساحة تظلّلها مَيسة دهريّة. وكان يتوسّط القبو في الشتاء صندوق من الحديد الصدئ ، مخلّع ، ملحّم ، مربّط ، يقال له في لغة ذلك الزمان البابور. وكان على التلاميذ أن يُعدّوا له الوقود اللازم من عندهم ويتعهّدوا ناره ، فمن لم يحمل منهم حطبته قبل كتابه لا يدخل الصفّ وتعرّض للبقاء تحت المطر والزمهرير. وكان للبابور داخون يذهب في الحائط ، وظيفته ككلّ داخون أن يطرد الدخان إلى الخارج ، ولكنّ الرياح كانت تتغلّب عليه فتُعيد الدخان إلينا ، فتصطبغ وجوهنا ، ويعبق جوّ القبو ، ويختلط أزيز النار بعطاسنا بصياح المعلّم بالرعد القاصف بشهيق التلميذ الراكع في الزاوية قصاصًا له.

ذلك اليوم كانت نوبة الصبيّ في إشعال النار. وما كاد يرفع أنفه من أشداق البابور وينفض الرماد عنه ، حتّى وصل بونا أنطون بوجهه الأسحم ، لونه من الدخان إذا انبعث من حطبة مبلولة ، وعيناه من لهب اليابسة. فساد صمت تُسمع فيه رنّة الإبرة لولا خوار البابور.

رفع بونا أنطون طرف جبّته وصعد إلى المنبر وأجال فينا أنظاره. كانت تلوح عليه في ذلك الصباح فرحة لم نعهدها فيه. ثمّ إذا هو يفتح أمامه دفترًا ، وبتؤدة وأناقة يُدخل يده في عبّه ويُخرج منه مخلوقًا غريبًا. قزمًا طوله شبر ، له طربوش بذؤابة من ذهب ، وقامة بحزام من ذهب ، ثمّ إذا هو يتناول الطربوش من الرأس فيضعه على العقب أو بالعكس ، والصبيّ يدوّر عينيه ولا يصدّق ما تقعان عليه ، فكيف وقد كرج القزم العفريت على الدفتر وكأنّه يمشي على لسانه.

كان ذلك أوّل عهد الصبيّ بأقلام الحبر ، فلم يتمالك نفسه من الوقوف والتطاول إلى المنبر. فلم يكن الأمر إلّا ليزيد المعلّم زهوًا ، فأشار إلى الصبيّ وأترابه أن : تعالوا وانظروا ! فأقبلوا وتحلّقوا حول المنبر لمشاهدة الكونكلان جدّ الباركِر. وجعل بونا أنطون يقوم لهم بمناورات على دفتره يمينًا ويسارًا ، فإذا القلم العجيب يخطّ الحروف من زرقة البحر في توهّجه تحت الشمس ، لا كالغزّارة غمسًا في دواة حبرها وحل ، وفي المواسم عصير كبوش التوت. ثمّ أعاد الطربوش إلى رأس الكونكلان وعلّقه من ذؤابته بثنية الجبّة على صدره العامر ، يبهر ذهبها الناظرين ويفقأ حصرمًا في أعين الحاسدين. فلمّا رأى الصبيّ ذلك تولّع قلبه ، ومن المساء ارتمى في حضن أبيه :

— متى ، يا أبي ، تنزل إلى بيروت؟

---

* بحرصاف وساقية المسك وبكفيّا ، وكذلك الهيدلة التي سيرد ذكرها فيما بعد ، بلدات متلاصقة في قضاء المتن الشماليّ من لبنان.

ضارعًا إليه لا يريد هديّة العيد في رأس السنة مشمّعًا بقبّعة كما سبق وطلب منه ، ولا كرنيطة كما تشهّى عليه مرارًا ، ولا بنطلونًا إفرنجيًّا ، بل قلم الحبر إيّاه أبا الذهب وأخا البحر. وظلّ أيّامًا يلاحقه ويذكّره ويحلم في لياليه. حتّى كان العيد الذي كان مأتمًا لذلك الحلم. كان ثمن الكونكلان –كما هتف أبي بأمّي وهي تعاتبه على كسر خاطر الصبيّ– ليرة عثمانيّة. وقد فضّل أن يشتري بها للأولاد هدايا تنفعهم ، كان نصيب الصبيّ منها حذاء جديدًا لمّاعًا. صحيح أنّ سَطيح أضجعه تلك الليلة إلى جانبه في الفراش ، ولكنّ شِقّ نامها أشقى ليلة في حياته ، وظلّ اللحاف يعلو ويهبط بجهشه حتّى الفجر...

* * *

منذ ذلك الوقت بدأ الصراع بين شِقّ وسَطيح. سَطيح يعيش بين الناس ، يأكل ويشرب ، وينام ويقوم. وشِقّ لا يحلم إلّا بالأقلام ، ولا يعاشر إلّا الكتب ، ولا يريد أن يكون إلّا كاتبًا وشاعرًا.

المنجل الأكبر

قبل الصراع بين القلم والحذاء، قبل انفصال شِقّ عن سَطيح بميوله وأفكاره، كان الوفاق على أتمّه بين الاثنين. كانا متّحدين ولم يكن أحدهما يشعر بوجود الآخر في عماية الطفولة.

طفولة أبناء اليوم موسومة بالرعب في الحرب التي يعيشها لبنان منذ ١٩٧٥. طفولة أبناء جيلي اتّسمت بالجوع الذي خيّم على البلاد في الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، إذ احتلّ الأتراك جبلنا الآمن وضربوا عليه الحصار برًّا وبحرًا بغية أن يخنقوه. وقد وصفت في روايتي «الرغيف» أهوال تلك الحرب، وحرصت أن أُهدي الكتاب إلى أبي اعترافًا بالأرغفة التي جبلها بعرق جبينه ودم قلبه حتّى أنقذنا من الجوع.

كان الجوع ماردًا يحصد بمنجله الرهيب الشيوخ والأطفال والرجال والنساء، وخصوصًا بعدما زحف الجراد على لبنان سنة ١٩١٦ وأكل ما أبقاه العسكر التركيّ من أخضر ويابس. أرتال متراصّة متلاحقة تغطّي الحقول، تسدّ الطرق، تحطّ على السطوح فتقرض عنب العرائش وتلتهم التين المجفّف – مؤونة الشتاء – ومعه أطباقه القصبيّة، والناس يدقّون لها على التنك بالعصيّ، بالحدائد، بالحجارة، ينفّرونها من هنا فتنقضّ من ههنا، تضرب الوجوه وتفقأ العيون.

جاع الناس فأكلوا ما لا تأكله الحيوانات. أكلوا الحيوانات، أكلوا القطط والكلاب. أكلوا الخيول والحمير التي كانت تموت بدورها جوعًا. وقد رأيت بعينيّ عشرات الجائعين على الطرق وفي الأقنية يتورّمون ثمّ يُسلمون الروح. منهم أترابي الذين كنت ألعب معهم، أعود بعد أيّام أبحث عنهم في بيوتهم، فأجدهم عند العتبات جثثًا كالحة.

ضاقت المقابر بضيوفها يتكدّسون بعضهم فوق بعض، لا جنازة ولا تشييع في الغالب، حتّى لم يبقَ في النهاية من يحمل الجثث إليها، فعيّنت البلديّات جماعة ينقلونها على محامل خشبيّة ويطرحونها في حفر عامّة.

أعود إلى «الرغيف» وإلى بطلها الصغير طام. لم يكن طام في الحادثة التي سأذكره بها هنا إلّا أنا. وذلك عندما كان يمشي في الشارع واستوقفه وصول المحمل مع رجلين يطوفان به، حتّى وصلا إلى قنطرة وحطّاه عندها. كانت تحت القنطرة امرأة بلا حراك، منكمشة في الزاوية في أسمال لها يسرح عليها القمل، وعلى صدرها طفل عالق بثديها الميت.

يقترب أحد الرجلين وينكت المرأة بقدمه، ثمّ يلتفت إلى صاحبه قائلًا:

– شبعت موتًا.

– والطفل؟

– سيموت إن لم يكن اليوم فغدًا.

– هاتِه! قال الآخر.

وقذفاه فوق أمّه على المحمل.

كان طام ينظر إليهما ويسمع ما يقولان، فاستدارا إليه فأطلق ساقيه للريح صائحًا:

– أنا ما متّ! أنا ما متّ! *

كنت في نعومة أظفاري، ولست أشكّ الآن أنّ شيئًا قد نبت فيّ فجأة في تلك اللحظة الرهيبة. أظافر أخرى طفرت في روحي، قاسية، محدّدة، هي الأظافر الزرق التي أمسكت بها فيما بعد بالقلم وشرعت بالكتابة.

ركضت إلى البيت ودفنت وجهي في حضن أبي...

كان أبي مقاولًا أي متعهّد بناء. ولكنّ البناء توقّف، فجعل يبحث عن عمل آخر. كان أصحاب البيوت يبيعون كلّ ما يملكون، يبدأون ببيع حليّ نسائهم، ثمّ يبيعون أثاث تلك البيوت، ثمّ شبابيكها وأبوابها فبلاطها. فجعل يشتري منهم، وينقل هذه الأشياء إلى البقاع في قافلة ألّفها من مكاريّين وبغلين وحمار، فيقايض بها حنطة وذرة وعدسًا، ويعود فيدفع إلى أصحابها الثمن من الحبوب. وكثيرًا ما كان يتصدّى له قطّاع الطرق فيتوسّل بحكمته إلى إرضائهم بالتي هي أحسن. حتّى تعرّف أخيرًا إلى ملحم قاسم، الزعيم الشعبيّ المشهور ببأسه في تلك الأيّام، فقصد إليه بهديّة: ثياب حريريّة مزركشة لحريمه. فانعقدت بينهما صداقة، وأصبح ملحم قاسم حامي القافلة الصغيرة المتردّدة بين بحرصاف والبقاع لا يتعرّض لها أحد.

ولمّا كانت البقاع في الحرب أهراء لبنان فقد رأى أبي أن ينتقل بالعائلة إلى عاصمتها زحلة. زاد على قافلته بغلين فصارت أربعة بغال وحمارًا، حمّلها فُرشًا وآنية وثيابًا ومشى بها مع المكاريّين، إيّاهما، من بحرصاف تصعيدًا في الجبل حتّى زحلة. وقد احتاط لنا نحن الصغار – وكنّا أربعة – بسحّارتين ربطهما المكاريّان على ظهر أحد البغال بشكل خُرْج مزدوج. فإذا شكونا التعب من المشي تناوبنا اثنين اثنين في الصعود إلى ظهر البغل والنزول في السحّارتين. درجة أولى كنّا نتزاحم عليها أشدّ التزاحم. فيما ركبت أمّي وراءنا بغلًا اختير لها معروفًا بهدوئه ولين عريكته.

أقمنا في زحلة في حارة الراسيّة، وفتح الوالد بالمال الذي رهن به البيت متجرًا للحبوب. وجاء صاحب دكّان فأقنعه بتحويل دكّانه إلى مطعم لمعرفته، قال، بطهي الفول والحمّص، على أن يكونا شريكين. كلّ ما أذكر عن الرجل شارباه الأبرصان وأنّه فرّ بهما، بعد أن أكل المطعم، إلى جهة مجهولة. كما أذكر إلحاح أمّي في العودة إلى بحرصاف هربًا من زحلة التي تحوّلت إلى بؤرة قذارة بسبب ازدحامها باللاجئين، ومن حمّى التيفوس التي انتشرت فيها انتشارًا مريعًا. فعدنا بعد ثلاثة أشهر إلى ضيعتنا في مثل القافلة التي تركناها فيها محمّلة بما تبقّى في المتجر من حبوب. مؤونة، قالت أمّي، كافية للشتاء الذي كان على الأبواب. وبعدها يفرجها الله.

من بحرصاف جعلت أرافق والدي إلى قرنة شهوان، الضيعة القريبة، نزولًا وطلوعًا كلّ صباح ومساء. وكان أحد وجهائها، رشيد جباره، يبني، إكرامًا لعينَي زوجته الفرنسيّة – وبمالها كما عرفت فيما بعد – قصرًا على تلّة من الصنوبر أعجبتها، وهو ما يزال إلى اليوم على تلك التلّة بهجةً للناظرين. وكان أبي، إلى كونه متعهّد بناء، معلّمًا في الكار، وله فيه إزميل نحّات، وقد ذهبت له شهرة في ذلك، مع آثار تدلّ عليه منها قبّة سيّدة المعونات في ساقية المسك

---

* راجع «الرغيف» الفصل المعنون بـ «الغيث».

وبوّابة دير مار ميخائيل بحرصاف (وهذا الدير كائن في ساقية المسك ولكنّه منسوب إلى بحرصاف) كما أنّه نحت عتبات كثيرة لبيوت المتأنّقين في المنطقة، مع تصاوير طيور وزهور، وحفر في زواياها اسمه.

عهد إليّ رشيد جباره بوزارة الإعاشة في مملكته. وبيان ذلك أنّ أبي المعلّم يوسف، ونجّارًا من بكفيّا هو المعلّم سمعان، كانا وحدهما اللذين يتقاضيان مالًا على عملهما. أمّا العمّال الآخرون فكانوا يقبضون أجورهم اليوميّ خبزًا. وكان رشيد جباره يضع الخبز في غرفة من أقبية القصر أعطاني مفتاحها، فأدفع كلّ يوم إلى العمّال أجورهم، كلّ حسب ما حُدّد له، رغيفين أو ثلاثة أو أربعة أرغفة.

لماذا عهد إليّ رشيد جباره بهذه الوظيفة الخطيرة؟ ألأنّني كنت ابن المعلّم يوسف رئيس ورشته وموضع ثقته؟ أم لأنّني كنت صغيرًا، والصغير يأكل على قدّه ويقف عند حدّه؟ المهمّ أنّني قمت بوظيفتي على أحسن ما يُرام، بدليل أنّ الستّ زوجة الخواجة كانت راضية عنّي، لا تنسى أن تمرّ بكفّها الناعمة على خدّي كلّما جاءت لتفقّد الورشة.

وينتهي العمل في قرنة شهوان ليبتدئ في برمّانا، بناء على طلب من الدكتور دراي رئيس بعثة الفرندز الإنكليزيّة فيها (مات رحمه الله بعد الحرب ميتة مأساويّة، ذبحه في الليل من الوريد إلى الوريد رجل أسود كان في خدمته). وهكذا انتقل أبي بالعائلة إلى برمّانا وجعل يشرف على بناء جناح اعتزم الدكتور دراي ضمّه إلى مدرسة الفرندز. وكانت هذه المدرسة ميتمًا في الوقت نفسه لعشرات من الأولاد الذين فقدوا آباءهم، فهم يأكلون فيها وينامون. أمّا أنا وإخوتي فكنّا نذهب إليها للتعلّم فقط ونعود إلى منزلنا. ماذا تعلّمت فيها؟ لا أذكر. كلّ ما أذكره: «الشبّاكُ مصنوعٌ من الخشبِ»! ويشهد الله أنّني نلت في سبيل تهجئة هذه الجملة وقراءتها قراءة صحيحة عشرات القضبان من معلّم قاسٍ رأيت وجهه بعد الحرب مرارًا، فكانت النقمة عليه تستيقظ في نفسي، وأودّ لو أضربه على رأسه بذلك الشبّاك، على أن يكون من الحديد لا من الخشب.

من برمّانا تطلع لي صورة أخرى بل صورتان: الأولى أمّي تناديني في إحدى الفرص من وراء درابزين ساحة اللعب، وتمدّ يدها إليّ بشيء. عروس تين مطبوخ. وما كدت أتناول منها حتّى هجم عليّ رفاقي ونتشوا العروس منّي، فاندفعت إليهم في عراك شرس، ووقع فتات العروس على الأرض، فانكبّوا يكمشون ويلتهمون الفتات والتراب معًا، وأمّي خلف الدرابزين تصرخ بهم وهم يركضون هاربين.

الصورة الثانية هي المظاهرة التي قامت بها نساء برمّانا عند انتهاء الحرب. طبخن الرزّ الذي جاء على أيدي الحلفاء ووزّع منه الدكتور دراي على الأهالي – وكان مفقودًا طول الحرب – وحملنه في الطناجر وطفن بالطرق هاتفات:

– «خلصت الحرب! خلصت الحرب!»

أمّي ركعت على الأرض تشكر الله. ثمّ قامت إلى المعجن فتناولت كلّ ما فيه من الخبز الأبيض – الكماج كانوا يسمّونه وكان يأتينا كلّ أسبوع مرّتين من عند الدكتور دراي – أعطتني الأرغفة ملء حضني وقالت لي:

– اِنزل إلى الطريق ووزّعها على الأولاد.

فنزلت ووزّعتها عليهم، ومشينا في المظاهرة خلف طناجر الرزّ. بينما كان الرجال يتنادون على السطوح متناقلين البشرى. وبلغت الحماسة بأحدهم أن قذف المحدلة عن سطح بيته إلى الأرض، مشيّعًا معها العسكر التركيّ بأقذع الألفاظ!...

* * *

بعد ذلك بأسبوع عدنا إلى بحرصاف.

من حقل الضيعة

١

كلّما خطر لي أن أتمشّى من بيتيَ الجبليّ إلى دير مار يوسف في بحرصاف أقصد مباشرة إلى السنديانة في الزاوية الغربيّة من ساحة الدير. ما تزال حتّى اليوم قائمة على منصّتها، على علوّ متر من الأرض من صوب الجبل ومترين من صوب البحر. إلّا أن المنصّة – وكانت تحضن السنديانة بشكل دائرة – قد سقط بعض حيطانها، وتخرّب الدرج الذي كنّا نصعد إليه فنصطفّ تحت السنديانة ويقف المعلّم على حجر رافعًا قضيبه.

في مدرسة تحت السنديانة هذه – وهي المدرسة الثانية التي دخلتها بعد رجوعنا من برمّانا حاملًا من مدرسة الفرينـدز شبّـاكي المصنوع من الخشب – تعلّمت مع أترابي قانون الإيمان، أو «النومن» في لغة ذلك الزمان. نردّد ساعة، ساعتين، وراء المعلّم: «نؤمن بإله واحد إلخ». فقرة بعد فقرة، تجتمع فيها أصواتنا على نبرات متنافرة وأنغام متناكرة. ولكنّ الله كان راضيًا عنها كلّها، سبحانه وتعالى، ما دامت تنادي كلّها بأنّه الإله الواحد.

كان المعلّم يدير جوقته بقضيب ولا قضيب بيتهوفن. مع امتياز عليه، هو أنّه، أي القضيب، مستعدّ دائمًا لأن يترك الفنّ ويعود عند أوّل بادرة إلى وظيفته الأساسيّة. أمّا الفلَق – وكان معلّقًا دائمًا بجذع السنديانة – فللضرورات القصوى. للجرائم العظمى. منها، مثلًا، التصدّي أثناء تلاوة النومن إلى دسّ ما ليس منها، للمشاغبة أو التشويش أو رغبة في النشاز لا أكثر ولا أقلّ.

لن أنسى يومًا انتهز فيه أزعر المدرسة فرصة، فزجّ في النومن مسبّة للمعلّم وكان مديرًا ظهره. فتخابث المعلّم ومشى لوجهه. فتمادى الأزعر وألحق به أباه وأمّه. فإذا بالمعلّم يدور حول السنديانة ثمّ يرتدّ إلى الأزعر ويطرحه أرضًا ويأمرنا أن نساعده على وضع رجليه في الفلَق...

خلة من الفولكلور المدرسيّ يعرفها أبناء ذلك الجيل الذي كان يعمل بالآية: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب».

أسند رأسي إلى جذع السنديانة وأغمض عينيّ، وأقابل بين الماضي والحاضر، فتنقلب السنديانة إلى أرزة، وأهتف بوجه السماء: لماذا لا نصطفّ تحتها صغارًا وكبارًا، من أيّ طائفة كنّا وإلى أيّ فئة انتمينا، ونردّد من الأعماق: «نؤمن بلبنان واحد، ضابط الكلّ، مساوٍ للأوطان في الجوهر...» وليُهَيّئ معلّمونا الفلَق، إذا كانوا يريدون لنا الحياة.

وما دمنا قد انزلقنا إلى السياسة فحادثة أخرى، سياسيّة هذه لحمًا ودمًا، لا رمزًا ولا استعارة. فتحت هذه السنديانة بالذات استقبلنا في صيف ١٩٢٠ الجنرال غورو، أوّل حاكم عسكريّ فرنسيّ للبنان وسوريا قبل إعلان الانتداب عليها. أقمنا لنياشينه وسيفه وعرجته احتفالًا منقطع النظير – السنديانة شاهدة – انتصبنا تحتها بثياب العيد ورفعنا أصواتنا ننشد باللغة الفرنسيّة:

Je suis français voilà ma gloire
Et mon amour et mon soutien

وأصله النشيد الدينيّ المعروف الذي كنّا ننشده في كنيسة الدير:

Je suis chrétien voilà ma gloire

كانت فرنسا لذلك العهد «الأمّ الحنون»، فلم يجد مايسترو جوقتنا، للترحيب بممثّلها العظيم، أبلغ ولا أسهل من شيل كلمة وحطّ كلمة مطرحها، فصار النشيد بالعربيّ الفصيح من: «أنا مسيحيّ وهذا مجدي». إلى: «أنا فرنسيّ وهذا مجدي. وهذا حبّي وهذا سندي».

فسُرّ الجنرال غورو كلّ السرور، وتقدّم بنياشينه وعرجته (أورثته العرجة رصاصة أُصيب بها في الحرب) وسيفه البرّاق يوقّع خطاه على العرجة، فصافح المايسترو بحرارة، ثمّ دار علينا وربّت، من الجملة، على كتفي تربيتة يقشعرّ لها بدني كلّما عادت إليّ الذكرى، وتنفر العصافير هاربة من السنديانة هربها مذعورة من أصواتنا في ذلك اليوم التاريخيّ.

٢

بعد مدرسة تحت السنديانة في مار يوسف بحرصاف، فمدرسة قبو سيّدة المعونات حيث التقيت القلم وحملت همّه مذ ذاك، انتقلت إلى مدرسة سيّدة النجاة في بكفيّا حيث عرفت الحبّ الأوّل في حياتي بفضل القدّيسة جان دارك عليها السلام.

قبل الحبّ، وتمهيدًا له، الدرس على المعلّم الياس نصّار. على يديه، ينبغي أن أقول على قضيبه – وكان يُرهب به أكثر ممّا يضرب – وعلى شعاع عينيه الذكيّتين أتقنت قواعد اللغتين العربيّة والفرنسيّة. أمّا القضيب فكان من نصيب سواي. ولا أزال أذكر حدبه علينا في الصفّ فردًا فردًا، واشتراكه معنا بالألعاب في الساحة. وكيف لي أن أنسى قالب السكّر الهرميّ، المغلّف بورقه الأزرق، الذي كنت أتأبّطه في الأعياد وأحمله إليه تسلّفًا على ذلك الدرب الوعر إلى بيته في رأس بحرصاف، فيما كانت هدايا تلاميذه الآخرين دجاجة، أو دزّينة بيض، أو سلّة عنب.

كنت نابهًا في دروسي، وكان جدّي لأبي قد أعطاني، مكافأة لي، ساعة فضّيّة ضخمة، بمفتاح لها مربوط بخيط حريريّ، مربوط هو الآخر بسلسلة كستك، فأشبك السلسلة بعروة قميصي وأضع الساعة تحت زنّاري. وكانت، لضخامتها وثقلها، تعوقني في اللعب فتحول دوني ودون التفوّق على أقراني في هذا الميدان تفوّقي عليهم في ميدان العلم. ولكنّي كنت أغفر لها ذلك بأنّها الساعة الوحيدة التي يحملها تلميذ في المدرسة، فهي فخر لي بل امتياز رفعني من مرتبة التلاميذ إلى مرتبة، إن لم تكن مرتبة النظّار، فهي بين بين. فبسببها، وبسبب من نباهتي طبعًا، عهد إليّ مدير المدرسة الأب كاندلّا، بمهمّة الديك الصيّاح – اللقب أطلقه عليّ جدّي – وكان عليّ بموجبها أن أعلن مواعيد الدروس والفرص بواسطة جرس بحجم الديك الكبير كان مُثبتًا بأعلى الحائط في زاوية من زوايا الساحة. أسحب ساعتي من تحت الزنّار وأرافق عقاربها حتّى تومئ إليّ فأمضي إلى الجرس أقرعه. وظيفة كان رفاقي يحسدونني عليها، وكثيرًا ما طلب إليّ بعضهم التقديم أو التأخير دقيقتين... دقيقة...! تقصيرًا لدرس أو تمديدًا لفرصة، فأرفض بضمير المسؤول.

حتّى كان ذلك اليوم الذي شاءت الأقدار فيه أن

أؤخّر فتح صفوف الصباح لا دقيقة لا دقيقتين ، بل ستّ دقائق كاملة. عدّها أبونا كاندلّا على ساعته التي لا تخطئ ، وأكّدها على ساعة قبّة سيّدة النجاة ، عليها السلام. أمّا ساعتي ، وكنت قد أرجعت عقاربها إلى الوراء تلمّسًا لعذر ، فلم يشأ أن يؤمن بها. كان الذنب يقفز من عينيّ ويصبغ خدّيّ حتّى الأذنين.

سبب تأخّري؟ لم أعترف به للأب كاندلّا في جملة ما كنت أعترف به له وراء كرسيّ الاعتراف في الكنيسة. ولم يطّلع عليه أحد لأنّه كان سرًّا بيني وبين نفسي. وكيف أبوح بحبّي لمخلوق تحت السماء؟

وبيان ذلك أنّ المدرسة كانت معتادة أن تقيم في المواسم احتفالات ومسرحيّات. وكانت تعهد إليّ في المسرحيّات بدور البطل. على عيد الفصح من تلك السنة قمت بدور جان دارك في مسرحيّة بالفرنسيّة (لم يكن مسموحًا للبنات في تلك الأيّام أن يطلعن على المسارح ولم يكن في مدرستنا بنات) فلمّا كان اليوم المشهود احتشد في قبو المدرسة الكبير ، تحت عقوده الثلاثة الحانية كالأجنحة ، أهل التلاميذ وفي مقدّمتهم كبار القوم ، وفي المقاعد الأماميّة صفّ من الرهبان يحاذيه صفّ من الراهبات. واحدة منهنّ من المبتدئات – ولهنّ في بكفيّا دير مشهور يحمل اسمهنّ – يتحيّر عمرها بين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، لها وجه من تفّاح بكفيّا متحيّر هو الآخر بين الستارْكِن والغولْدِن ، كانت تعلّق أنظارها بي وتتابع فصول الرواية مشدودة إلى جان دارك بخيوط القداسة والبطولة والشهادة. فلمّا جاء دور الحريق ، وكان من اختراع قيصر عامر ملك الألعاب لذلك العهد ، صعدت إلى المنصّة وثنيت عنقي ، وعيناي خلال اللهيب لا إلى فوق ، أي إلى السماء حسب الأصول ، بل إلى تحت ، إلى المبتدئة التي كانت ترافق حركاتي وتشرب كلماتي. ثمّ ما راعني إلّا دموعها تكرّ على الخدّين ، وأنا أنظر موزّعًا بين الرثاء لحالها والرثاء لحالي تأكلني النيران. وما إن أُسدل الستار حتّى شقّت القوم وهجمت عليّ خلف الكواليس تضمّني في عناق عظيم ، وأنا أبادلها مِثلًا بمِثلين ، على حرارة إذا كانت عندها حرارة الإيمان فقد كانت عندي شرارة الحبّ الأوّل الذي عرفته في حياتي.

منذ اليوم التالي جعلت أمرّ ، في ذهابي إلى المدرسة وعودتي منها ، بدير المبتدئات. أغافل رفاقي وأسلك طريقًا غير طريقهم ، فأمسح كتفي بحائط الدير. ولكنّي ما ألبث حتّى أبتعد فألتمس لي مكانًا أرى فيه ولا أُرى. لصّ حبّ لعلّي أحظى ، بشفاعة جان دارك ، مرّة أو مرّتين في الأسبوع ، بنظرة حييّة ترفع بها مبتدئتي عينيها عن كتاب الصلاة وهي تتمشّى مع رفيقاتها في الحديقة ، وتبتسم لي.

وألحّ بي الشوق ذلك الصباح ، وأنا في مخبأي أتحرّق ، أنتظر خروج المبتدئات إلى الحديقة فلا يخرجن. والساعة بين يدي وزنّاري طالعة نازلة أعدّ عليها الدقائق والثواني. ماذا أقول لأبونا كاندلّا إذا تأخّرت عن دقّ الجرس في وقته؟ وأخيرًا لم يبقَ من رجاء فلم يكن بدّ ممّا لا بدّ منه. حملت لوعتي وهرولت ، ورأسًا إلى الجرس أهوي بكلتا يديّ على حبله بجنون العاشق الخائب شدًّا ومدًّا ، وقد اختلطت دقّاته بدقّات قلبي ، ما أدري أيّ الدويّين هو الذي غلب الآخر متجاوبًا في الساحة داعيًا التلاميذ إلى دخول الصفوف.

لا أذكر اسم الحبيبة ، ولم أعرفه قطّ ، وأجهل مصيرها من بعد. هل رُسمت راهبة؟ هل تركت الابتداء وتزوّجت أمير أحلام لها غيري؟ هل هي حيّة تُرزق حتّى اليوم ، أم صارت إلى جانب صاحبتها جان دارك في دار النعيم؟

رحم الله صلاح لبكي ، وسقى يومًا أنشدني فيه قصيدته في مجهولة مرّت أمامه في الطريق ، وكأنّه يُنشدها في مجهولتي :

«مَن أنتِ؟ لا أدري وما همّني
جهلي ، وجهلي اللذّةُ الباقيه

أطيبُ مــــا في الشعرِ أُنشودةٌ
تبقى بلا وزنٍ ولا قــافيــه
فــإن تكونيــا تمنّيتُ أن
لا نتلاقى مرّةً ثــانيــه »

في آخر تلك السنة المدرسيّة حصلت على الشهادة الابتدائيّة : السرتيفيكا. رافقنا الأب كاندلّا إلى بيروت لتأدية الامتحان ، ونزلنا ضيوفًا على الآباء اليسوعيّين في بيت النزهة الذي كان لهم في محلّة الأشرفيّة.

السرتيفيكا تاريخ في حياة الضيعة. كنت أوّل من نالها بين تلاميذ بحرصاف ، فكافأني عليها والدي بقلم الكونكلان – إيّاه – عن جدارة واستحقاق هذه المرّة. فشكّله شيقٌ من ذؤابته الذهبيّة على صدره ، وأخذ يذرع الطريق ذهابًا وإيابًا ، ناظرًا إلى الناس –كلّهم سطحاء حواليه– مزهوًّا ، متعجّبًا كيف لا يقفون له على الصفّين.

٣

في عطلة الصيف ، قبل أن أنزل إلى بيروت لمتابعة دروسي في كلّيّة القدّيس يوسف ، أدخلني والدي متدرّجًا –ستاجيير– عند الأبوكاتو رشيد أفندي الحاجّ. كان مستعجلًا لتحقيق حلمه : أن يجعل من ولده محاميًا. يشجّعه على ذلك تفوّقي على أقراني في المدرسة ، وبراعتي في تمثيل الروايات على مسرحها ، وحسن تلاوتي للرسائل في القداديس أيّام الآحاد والأعياد. بالكرشوني كنت أقرأها ، أي العربيّ مكتوبًا بالحروف السريانيّة. ولا غلطة ! ولا أيّ وأوأة ، أو فأفأة ، أو لفلفة للكلمات من لفلفات القندلفت الذي كان يتلوها في أيّام الأسبوع العاديّة. ولا شكّ أنّ مار بولس ، في سمائه ، كان راضيًا عنّي بقدر غضبه على القندلفت ، وأنّه كان ينتظر نوبتي في تلاوة رسائله ليتنفّس الصعداء.

كلّ شيء إذن كان معدًّا للصبيّ لكي يقف في مستقبله أمام قضاة الأرض مدافعًا عن الحقّ ومطالبًا بالعدل. وكانت محكمة الصلح في العشرينات تشتّي وتصيّف. الشتاء في جُدَيدة المتن والصيف في ساقية المسك. وكانت المحاماة ، أو الشريعة ، تؤخذ في ذلك العهد من أربابها مباشرة ، لا درسًا في معاهد الحقوق ، إلّا من كانت له القدرة أو أسعفته الظروف على تعلّمها في الخارج ، وهو النادر. وجرى الأمر على ذلك حتّى جاءت سلطات الانتداب فسنّت للحرفة نظامها.

ويقينًا ، لقد كان رشيد أفندي من أرباب الشريعة. على أنّ الراسخين في العلم ، إذا كانوا يفهمون بهذه الكلمة القانون ، فإنّ عامّة الناس لم يكونوا يفهمون بها إلّا المجادلة أو المماحكة ، ومنها قولهم حتّى اليوم «حاجي تشارع !».

أربعون يومًا وأربعون ليلة ، كما في حكايات جدّي ، في الشريعة. صباحًا مع رشيد أفندي تحت خيمته على باب المحكمة ، أسند طاولته العرجاء بأضلاع صدري ، وهو يملي عليّ وأنا أكتب –كان خطّي يعجبه– وفي المساء مع والدي أطلع على الكرسيّ في البيت وأخطب ، لا تقليدًا لرشيد أفندي في مرافعاته التي كان يوأوئ فيها كالقندلفت ، بل رغبة في اللعب بالكلمات كالطابات لا أكثر ولا أقلّ.

في صباح اليوم الواحد والأربعين صاح شيقٌ رافعًا يده في الفضاء :

– العرضحالات ، الشريعة ، الخُطب ، ومعها حلم الوالد الذهبيّ ، هذه كلّها حطّها يا سَطيح في جرابك وتعالَ نهرب !

في الهرب كان سَطيح هو السبّاق دائمًا ، فكيف إذا كان إلى اللعب. والحقّ أنّ الوفاق كان على أتمّه بينه وبين شيقٍ في هذا المجال. لا سيّما وأنّ العطلة تكاد تطير ، لم يبقَ منها إلّا شهر وبضعة أيّام. وهكذا قطعت تدرّجي عند رشيد أفندي من منتصف الطريق ، مع المغامرة بأمل والدي بي أن ينقطع بقطعه ، وخرجت إلى الهواء ألعب.

٤

ألعابنا في تلك الأيّام؟ الكلّة ، الطابة ، البلبل أي الخذروف ، وفي المواسم الإغارة على عشوش العصافير ، ركوب النورج على البيادر ، والمفاقسة بالبيض على عيد الفصح وقبله طول مدّة الصيام.

على سيرة المفاقسة كان عندنا في الطبقة السفلى من البيت قِنّ للدجاج. وكان لي دجاجة شقرآء لها بيض كأنّما أوصي عليه للمفاقسة. صغير ، مروّس ، صلب. وكنت أنبطح على باب القنّ وأدفع أنني فيه أنتظرها حتّى تبيض ، فأمدّ يدي وأتناول البيضة ملء كفّي ، حرارتها تدفّئ الذكرى حتّى اليوم. ولكنّي لا أفاقس بها حتّى تبرد.

تفقّدت دجاجتي ذات صباح فلم أجدها في القنّ. وراعني أن رأيت الديك – الباشا كان يسمّيه أبي – يروح ويجيء ويتنزّى ضاربًا الحيطان بجناحيه. ففتحت الباب له وللدجاجات ، فسبقها واثبًا إلى الخارج وصاح صيحة أشبه بسؤال الملهوف ، فردّت عليه الدجاجة من صوب الجيران. فرفع رأسه ملوّحًا بعرفه ، وأتبعها بصيحة ثانية فثالثة وهي تردّ عليه كالمستغيثة ، وهو ما يفتأ يصيح ، ويجول ويصول ، باحثًا عن مصدر الاستغاثة. حتّى اهتدى إليه في الجلّ خلف بيت الجيران. كان طانيوس ، خصمي في المفاقسة ، قد أخذ الدجاجة وربطها عنده إلى جذع توتة لتبيض له البيضات الثمينة ، وهي تتخبّط في قيدها وتحاول الإفلات فلا تقدر. وكان الديك قد وصل إليها فأخذ يضرب الخيط بمنقاره ويلتفت إليّ بغضب كأنّه يقول لي : ماذا تنتظر؟ وكنت في الواقع أنتظر خروج طانيوس ، وأنا أرفع صوتي باسمه : يا طانيوس ! يا واطي ! يا حرامي ! فيختلط صياحي بصياح الديك بصياح الدجاجة ، في مشهد خرجت له أمّي وخرج الجيران ، ما عدا طانيوس ، يسألون ما الخبر.

وفككت رباط الدجاجة. فرجع بها الباشا مظفرًا وضمّها إلى حريمه ، ترحّب الضرائر بعودة المخطوفة سالمة ويحمن حولها مرفرفات. وكنت قد بادرت كيس الزؤان ، فأبى إلّا أن يختار السمينة من حبّاته ، فأخذها بمنقاره وحطّها أمام دجاجتي – دجاجته. فانحنت تلقط ، فدار وعلاها ، مصفّقًا بجناحيه الذهبيّين ، مع قبلة على عرفها أودعها كلّ حبّه ، وأنا أنظر لا أدري والله من منّا ، نحن الثلاثة ، هو صاحب العيد...

ولا أنسى من ألعابنا المفضّلة لذلك العهد الطيّارات. كنّا نصنع طيّاراتنا من ورق «البشير» التي كانت تصدر عن المطبعة الكاثوليكيّة في بيروت ، وهي الجريدة الوحيدة التي كانت تعرفها المنطقة. وظلّ أبناء المنطقة يقولون البشير عن كلّ الجرائد التي ظهرت فيما بعد ، فكانت كلمة بشير عندهم تعني جريدة. لم يكن الورق الملوّن معروفًا في الضيعة وجوارها ولا الصمغ الجاهز ، فنلصق البشير بالعجين ثنيًا على القصب من أطرافه ، ونطلقها ، أي البشير ، إلى السماء ، من حيث كانت تمطر علينا مواعظها ، مع ذنَب يتراوح طوله بين الثلاثة والستّة أمتار حسب حجم الطيّارة. كانت طيّارتي أكبر الطيّارات وأبعدها ذهابًا في الجوّ ، كما كانت أبرعها في شبك طيّارات الآخرين وإسقاطها ، فيما هي تواصل تحويمها وتصعيدها حتّى تغيب عن الأنظار.

هل كان لبنان يحلم في ذلك الوقت بغير هذه المعارك البريئة في سمائه؟

والمواتيت. وما أدراك ما المواتيت ! أُنبش في قاموس أطفال ذلك الزمان تجد أنّ المواتيت جمع ماتوت. وهو القضيب. أخضر ، يابس ، لا فرق. من التوت أو الحور ، من العفص أو الزنزلخت ، لا فرق لا فرق. نقصّ القضبان طول ذراع ونقصد إلى أيّ مكان فيه وحل ، فيرفع كلّ منّا ماتوته على بعد ذراعين ، أو

أكثر أو أقلّ حسب الاتّفاق ، ويقذف به على أن يغرسه في الوحل غرسًا . والرابح لا من ينتصب له أكبر عدد من المواتيت فقط ، بل من يُسقط كذلك أكبر عدد من مواتيت الرفاق . تمامًا كما في لعبة الطيّارات إذا جدّ جدّها . حرب برّيّة بعد الحرب الجوّيّة . ولكلّ حرب فصلها .

والسباحة في المحقان . والمحقان هو البركة التي يُحقن فيها الماء في رأس الضيعة لريّ البساتين في النوبات المعيّنة لأصحابها ، لكلٍّ نوبته بناء على تقليد محفوظ في سجلّ المختار ، وفي صدر الناطور . ولكنّ السباحة في المحقان ممنوعة ، فنغافل الناطور ونتزبّ فيه . وبينما نحن ذات يوم نطبّش في مائه العكر ونتراشق ونتصايح غافلين إذ فاجأنا الناطور بعصاه . لم يضربنا هذه المرّة ، لم يرمِنا بحجر ، لم يفُه بكلمة . جمع ثيابنا من على حافّة المحقان فشكّها بالعصا ومضى .

–كيف نعود إلى بيوتنا بالزلط ؟

قلت لرفاق الطيش :

– ننتظر حتّى تغيب الشمس وننسلّ في العتمة كلّ إلى بيته .

وهكذا صار .

أمّا الناطور فأعاد الثياب إلى أهل الأولاد بعد أن أخذ منهم وعدًا بتأديبهم كما يجب . الواقع أنّهم لم ينتظروه ، فقد نال كلّ منّا نصيبه من هذا التأديب صفقًا بالقضيب على الأقفية قبل أن تصل الثياب إليها .

ولكنّ الحكاية لم تنتهِ . فمن غد ، وطوال أيّام وليالٍ ظلّت العجائز تلغط بظهور الشياطين في الضيعة . ستّة ، سبعة شياطين – نجّنا يا ربّ ! – شقّوا الأرض وطلعوا منها ! جهنّم وانفتحت ! حتّى اضطُرّت جارتنا صفصف ، كما قالت ، أن تسدّ مناخيرها من رائحة الزفت والكبريت ! وحلفت لأمّي ، وأمّي تضحك ، أنّها ، أي صفصف ، رأت بعينيها هاتين اللتين سيأكلهما البلى واحدًا منهم يركض صوب بيتنا ، ورأت – بالعلامة – ذنَبه أيضًا .

– اِسمعي منّي ، يا أمّ توفيق ، قولي للخوري يبخّر لك البيت !

٥

وأخيرًا ، أخيرًا ، لعبتي الرهيبة .

كيف لي أن أنسى لعبتي الرهيبة ، يوم كنت أتزعّم رفاقي ونسوق كلبًا من الكلاب الشاردة إلى ساحة الإعدام . نربطه بحبل إلى جذع شجرة وننهال عليه ضربًا بقضباننا . أنا البادئ بالضرب ، ولكلّ دوره . يكشّر الكلب عن أنيابه ويهجم على ضاربه من اليمين فالشمال ، من الأمام فالوراء ، والدم يسيل من فكّيه ومن هذه الأثلام البيضاء الحمراء على ظهره وبطنه ، يلتقي بعضها ببعض ويقطع بعضها بعضًا بالطول والعرض ، وهو يتخبّط ويعوي بالمقلوب ... إنّه يتمرّغ الآن في بركة من الدم . يتمطّى ولا يقاوم . يمدّ لسانه ويرخيه ويلهث صاغرًا . ما هذا اللسان الممدود المرخى هكذا؟ يسحب الزعيم سكّينه ويمشي باطمئنان فيقطع اللسان ويرميه في الوادي . ولكنّ صاحبه لن يلحق به إلّا بعد الجنّاز . لأنّ الصبيّ كان عارفًا بأصول الدين ، ينقل عن خوري الضيعة ورهبانها حركاتهم والكثير من صلواتهم بالسريانيّة . ثمّ يحني رأسه أمام الضحيّة ... قبل أن يرفسها إلى قعر الوادي* .

تمّ كلّ شيء . حينئذ يشير الصبيّ إلى الرفاق أن : انصرفوا إلى بيوتكم ! ويعود هو إلى البيت وحده ، يمسح بكمّه دمعة لا ينبغي للأولاد أن يروها .

يا شِقّ ، يا سَطيح ، قولا لي . قولا لي أنتما الاثنان ، ما نصيب كلّ منكما في كلّ هذا؟...

إلى أن كان يوم ، بعد ذلك بمدّة ، انتقم فيه حمار جدّي للكلب انتقامًا كاد يودي بحياتي .

---

* راجع «شهوة الدم» في كتاب «الصبيّ الأعرج» للمؤلّف.

قلت لجدّي – هو بالذات الذي أهدى إليّ الساعة – وكان معتادًا أن يُركبني أمامه على الحمار لمشوار في الضيعة :

– وحياتك يا جدّي ! خلّني أركب وحدي . أذهب به إلى العين أسقيه وأرجع .

كانت الدوابّ في ذلك الزمان كسيّارات اليوم . الحمير منها للوجهاء ورؤساء الأديرة ، والأفراس للأغنياء وتجّار الغنم الكبار . وكان حمار جدّي ضاهر قبرصيًّا أصيلًا ، أشهب اللون كحيلًا ، له أذنان ، لا كالحمير ، مرفوعتان دائمًا بعلامة النصر قبل أن يكتشفها تشرشل ، وعينان تشعّان بالفرح في حين يبكي سائر الحمير – من يعرف لماذا تبكي الحمير؟ – الخلاصة ما زلت بجدّي حتّى أقنعته ، فحملني ووضعني على ظهر الحمار وشبك الرسن بيديّ الاثنتين ، ووقف ينظر .

وكان جدّي ، رحمه الله ، لا يكتفي بالمهاز لحثّ حماره ، بل يحتاط له بمسلّة يخزه بها عند اللزوم في قفاه ، مرّة بعد مرّة ، وخزًا لطيفًا فيمضي به في خبب هو متعة للراكب وبهجة للناظر . والمسلّة مشكوكة دائمًا في كتف البرذعة على متناول اليد . وكان جدّي قد أوصاني ألف وصيّة عندما أرسلني على حماره ونسي أهمّها : المسلّة . فما كدت أبتعد عنه حتّى ضربت بيدي إليها ، وطعنت الحمار في قفاه عن اليمين فوثب ، ثمّ عن اليسار فطار . وشاقني الأمر ، فجعلت أناوب الطعن من هنا وهنا باللذّة الساديّة – نفسها – التي كنت أنهال بها على الكلب بالقضبان ، فلم يكن من الحمار إلّا أن دار دورة ورفع قوائمه في الفضاء ورماني على بعد مترين على حجر شكًّا على رأسي . فغبت عن الوعي وتجمهر عليّ الجيران وهرع جدّي ملهوفًا . فلمّا رأى الدم يسيل من الاثنين ، رأس حفيده وقفا حماره ، فهم كلّ شيء ، وتولّاه الارتباك . ماذا يقول لأمّي خصوصًا عندما سمع الطبيب يهدّئ روعها وهو يخيط الجرح : «اِحمدي الله . كان بالإمكان أن يغرز الحجر في الدماغ ويموت الصبيّ ! »

ثأر أخذه الحمار منّي بالنيابة عن الكلب . ما يزال أثره في رأسي حتّى اليوم ، أتحسّسه وأتذكّر .

٦

سَطيح : هذه الصورة التي تزوّقها عن ألعابنا ونحن صغار ، بما فيها من دم ، ليست مطابقة للحقيقة تمامًا .

شِقّ : أعترف بأنّها ليست صورة فتوغرافيّة . إنّها صورة فنّيّة ، والفنّ – نحن متّفقان – كذّاب بعض الشيء .

سَطيح : على سيرة الاعتراف ، لماذا لا نعود إلى كرسيّ الاعتراف في كنيسة مار يوسف . أو كنيسة سيّدة المعونات ، أو كنيسة سيّدة النجاة ...

شِقّ : (مقاطعًا) سرّ الاعتراف لا يجوز البوح به .

سَطيح : على الكاهن أن لا يبوح به . أنت وأنا ما يمنعنا من إعلانه؟ قل لي أمسيحيّ أنت؟

شِقّ : نعم بنعمة الله أنا مسيحيّ .

سَطيح : مسيحيّ عتيق؟

شِقّ : جدًّا جدًّا !

سَطيح : برافو ! المسيحيّون القدامى كانوا يعترفون بخطاياهم علنًا في الساحات ، بعضهم على مسمع من بعض وعلى مرأى .

شِقّ : كان ذلك في الزمان . اليوم ، الثياب الحميمة ، حتّى بعد غسلها ، لا تُنشر على السطوح .

سَطيح : اِسمع يا شِقّ . أتذكر الشيخ غندور وحكايته؟ كان الشيخ غندور أظرف الناس . وكان يجلس كلّ يوم بباب أحد الدكاكين في ساقية المسك ويلعب المنقلة* . وكان رفيقه المفضّل في اللعب رجلًا اسمه

* اللعبة تأخذ اسمها من دحوات صغيرة ينقلها اللاعبان بموجب نظام خاصّ من فجوة إلى فجوة في خشبة مستطيلة .

بوزيّون من المحيدثة. واتّفق أن انقطع بوزيّون أيّامًا عن المجيء إلى ساقية المسك، فلمّا عاد بعدها تلقّاه الشيخ غندور معاتبًا:

– «شو بالك يا بوزيّون صاير قليل الشوفه متل شنتيان الراهبة؟»

شِقّ: (ضاحكًا): الخطيئة أو الخطايا التي تريدني أن أكشف عنها هي تمامًا كما تقول.

سَطيح: ولكن هل شنتيان الراهبة يختلف عن شناتين سائر النساء؟

شِقّ: لم يرَه أحد يومًا ليستطيع الحكم.

سَطيح: أريد أن أقول هل خطايانا ونحن صغار تختلف عن خطايا أترابنا لكي نخفيها عن الناس؟

شِقّ: لا أظنّ. كنّا نشترك أحيانًا كثيرة في ارتكاب هذه الخطايا، كلّ ستّة أو ثمانية معًا، صبيانًا وبنات، وكلّهم دون العاشرة.

سَطيح: أنت كنت أكثرنا فضولًا، أو بالحري أكثرنا دهاء. كنت تصفّ البنات وتقوم بدور الدكتور حكمت، طبيب المنطقة، باعتبار أن ليس على الطبيب من محبًا.

شِقّ: (ضاحكًا): الدكتور حكمت، بعينيه الزرقاوين وطربوشه المنحني إلى اليمين انحناءة التأنّق، كان موضع إعجاب النساء من بحرصاف إلى ساقية المسك إلى بكفيّا إلى المحيدثة، وطلوعًا حتّى الجرد فنزولًا حتّى آخر المزارع.

سَطيح: وشرّابة طربوشه؟ كنت لا تنسى حتّى شرّابة طربوشه. أمّا الطربوش فواحد عتيق كان الوالد قد رماه على التتخيتة. ضاعت شرّابته، فقالت لك إحدى البنات: «إنتظر أنا أعمل لك شرّابة». كنّا في الحقل. راحت فقطفت زهرة من شقائق النعمان وأركزتها على الطربوش مكان الشرّابة.

شِقّ: (متذكّرًا): صحيح. العيادة كانت في الحقول دائمًا.

سَطيح: (ضاحكًا): في الهواء الطلق. بعيدًا عن رائحة الأدوية الكريهة.

شِقّ: (عابسًا): المشكل أنّنا كنّا نذهب صباح الأحد، قبل القدّاس، فنخبر الكاهن في كرسيّ الاعتراف كلّ ذلك.

سَطيح: مرّةً كان الكاهن لا يعرف العربيّة. أبونا بوفّا في كنيسة سيّدة النجاة. وكانت معلوماتنا بالفرنسيّة على قدّنا. فلمّا وصلنا إلى الشرّابة تلعثمنا ولم نعرف كيف نترجمها إلى الفرنسيّة. حينئذ أزاح أبونا بوفّا الستارة بيننا وبينه وأعاد السؤال، فرفعت أنت إصبعك...

شِقّ: (مقاطعًا): بل أنت الذي رفعت إصبعك. وبالعلامة سبّابتك اليمنى.

سَطيح: لا فرق أنا أم أنت. كنّا على وفاق تامّ في ذلك العهد. نعمل الخطيئة معًا، ونعترف بها معًا، ونندم عليها ونقرع صدرنا معًا ندامة حقيقيّة. المهمّ أنّنا لوّحنا بإصبعنا في وجه أبونا بوفّا تلويحة الشرّابة ونحن نشير إلى رأسنا. فلم يفهم. هو يفتّش عن الخطيئة، وآلة الخطيئة ليست في الرأس. قال لك...

شِقّ: (مقاطعًا) بل لك.

سَطيح: لا فرق. قال لنا بصيغة الجمع على كلّ حال: إيّاكم بعد اليوم أن تمسكوا الشرّابة! خمس مرّات «أبانا الذي» وخمس مرّات «السلام عليكِ». وبعد أن أخذ منّا وعدًا بأن لا نمسكها أعطانا غفرانًا كاملًا.

من حقل الطموح

١

من مدرسة سيّدة النجاة في بكفيّا إلى كلّيّة القدّيس يوسف في بيروت حمل شِقِيّ شهادة السرتيفيكا وأقام مع صاحبه سَطيح عند ابنة خالة له سنة كاملة في حيّ فرن الحايك التحتانيّ القريب من الكلّيّة. كانت مريم عروسًا تسكن مع عريسها يوسف عازوري وبعض أهله في غرف موزّعة في حوش، أي قطعة أرض مهملة، مبهمة، والغرف مبنيّة بعضها بالحجر الرمليّ وبعضها الآخر بالخشب، ولها مطبخ مشترك وحمّام واحد في العراء. لم أعرف في حياتي جماعة أطيب خلقًا وأكرم ضيافة من العوازرة، نسبة إلى مسقط رأسهم عازور في قضاء جزّين. غمروني بعطفهم وعدّني كلّ منهم ابنًا له وأخًا صغيرًا. وأبت ابنة الخالة إلّا أن تتنازل لي عن سرير عرسها - الوحيد في الغرفة - وتنام هي وعريسها في فراش على الأرض.

أبهج ما أذكر عن كلّيّة القدّيس يوسف أعيادها وألعابها. وفي مخيّلتي حتّى اليوم صورة كأنّها من صور بولوك، الرسّام الأميركيّ المشهور بلوحاته الكبيرة، لكنّ صورتي أكبر لأنّها تشمل ساحة لعب الكبار في الكلّيّة. يطلع منها ماردان هما الشيخ بيار الجميّل وشقيقه الشيخ غابريال، ودرّاجتان من درّاجات السباق كأنّهما فرَسان من أفراس الجان، يقومان عليهما ببهلوانيّات تنفتح عليها عيوننا بالدهشة. يتشابكان بالأذرع ويدوران. يغرسان الدواليب في الأرض ويجمدان. يعتلي أحدهما كتفَي الآخر ويصفّقان. يتبادلان الدرّاجتين فهما طائران من غصن إلى غصن يتنقّلان. والبراعة كلّ البراعة هي في استلقاء غابريال على صدر الدرّاجة بالمقلوب يدير الدوّاستين باليدين بدل القدمين، ثمّ يترجّل عنها فينطّ بيار عن درّاجته - يتركها تذهب إلى الحائط، أو تضرب بشجرة، أو تقع حيث تقع - وبوثبة من وثباته يعتلي درّاجة غابريال، ينتصب كالرمح على مقعدها، ورأسًا إلى منصّة الشرف يرفع يده بالتحيّة... على الطريقة التي ما يزال عليها حتّى اليوم.

وفي لعبة كرة القدم كان الشيخ بيار هو الحكَم دون منازع، لا في الكلّيّة فقط، بل في بيروت كلّها، لم يحد مرّة عن الحقّ ولم يغفر للاعب شذوذًا، عيناه باثنتين وعشرين عينًا - عدد أعضاء الفريقين - وصفّارته في عنقه يصدر بها من علياته أوامره كأنّها الرعود.

أمّا خارج الكلّيّة فلعب في حيّ فرن الشبّاك قامت

مكانه فيما بعد سينما سكالا. وكنت أذهب مع بعض الرفاق بعد ظهر الآحاد والأعياد للتفرّج على اللعبة فيه بين فرق من الكلّيّات وغير الكلّيّات. أتسلّق شجرة متمسّكًا بغصن منها، أو أركب حائطًا عاليًا، وأرافق الكرة تتقاذفها الأقدام، أكثر ما يروعني شوطة لها من قدم جبّارة تطيح بها في الجوّ، أو اندفاعها كالسهم على ضربة خبير إلى المرمى، فيلاقيها حارسه الياس مبارك -كيف أنسى اسمه وكسمه؟- انبطاحًا على الأرض، يضمّها إلى صدره العامر، وبكلّ هدوء، أكاد أقول بكلّ حنان، يعيدها إلى أحد أعضاء فريقه، أو يتحفّز ويقذفها تصعيدًا.

ذات مرّة خرج اللاعبون عن أصول اللعبة فتماسكوا يتباطحون وساد الهرج والمرج في الساحة. فزعق الشيخ بيار بصفّارته وأوقف اللعبة، فتفرّق الناس وذهب كلّ إلى بيته...

أفكّر، وأنا أتذكّر، في ما نحن فيه على ساحة الوطن منذ ١٩٧٥. تُرى، من يوقف لنا هذه اللعبة الجهنّميّة؟ جرّبنا الصفّارة اللبنانيّة فلم يسمعها أحد. واستنجدنا بالعرب فنفخوا فينا بصفّاراتهم المتنافرة، وأبواقهم المتناكرة، فزادوا الساحة خلافًا ونقارًا، والنار أجيجًا واستعارًا. فهل تنجح اليوم الصفّارة الأميركيّة ومن ينفخ فيها من النافخين في طول الدنيا وعرضها؟

إنّ في الساحة لا كرة محشوّة بالهواء، بل رأس لبنان تتقاذفه الأقدام.

إنّها لعبة حياة أو موت.

* * *

لم أولع بكرة القدم وحدها. فقد كان للدرّاجة منذ رأيت عليها بيار وغابريال غصّة في قلبي. فجعلت أركبها بالأجرة من عند مؤجّر بسيكليتات في زاوية شارع الكلّيّة. أركبها، أقول، وأقع فتركبني. وفي العطلة صعدت إلى بحرصاف -وكان أهلي ما يزالون مقيمين فيها- وذهبت إلى مؤجّر بسيكليتات في ساقية المسك واستأجرت من عنده واحدة على قدّي. كان دكّان الرجل بالقرب من ساقية. والبلدات الأربع عندنا - بحرصاف، ساقية المسك، بكفيّا، المحيدثة - تفصلها السواقي حدودًا مسحتها الطبيعة منذ الأزل. وأنا إلى اليوم أُعجب بساقية المسك اسمًا يرنّ هذا الرنين الحلو وتفوح منه تلك الرائحة الزكيّة. وكثيرًا ما سألت، وما أزال، عن أصله فلا يُفيدني أحد. قصدي أن أعرف من أين أخذت تلك الساقية مسكها: من صوب بكفيّا، أم من صوب بحرصاف!

الخلاصة، لم أكد أطلع على الدرّاجة حتّى فاجأتني من الخلف سيّارة من سيّارات فورد أبو دعسه، فأردت أن أتّقيها فضعت في ارتباكي بين يديّ ورجليّ، أي بين الفرام والبيدال، وراحت بي درّاجتي إلى الهاوية. لطف الله أن كانت البلديّة قد تولّت في اليوم السابق تقليم أشجار الزنزلخت القائمة على جانبَي الطريق، وكدّست أغصانها في الساقية ريثما يأتي من أصحاب الأفران مَن يدفع بها أحسن ثمن ويحملها، فوقعت على فراش رقّاص بخدش بسيط في جبيني. بعدها بأسبوع، وكانت الأغصان قد نُقلت، وقع زميل لي في الثالثة عشرة من العمر وقعتي، فجئنا نتفرّج على نخاعه -نخاعي!- منثورًا على صخور الساقية.

مذ ذاك تركت البيسكليت للشيخ بيار. وبعد سنة ألحقت بها الفوتبول.

٢

بيار الجميّل؟

كنت أراه فيما بعد -في أواخر الثلاثينات- يمرّ في شارع الجمّيزة الذي كنت أسكنه، على رأس بضعة عشر فتى من الكتائب اللبنانيّة يلبسون الكاكي ويحملون العصيّ. فأطلّ على البلكون وأتساءل: إلى أين يذهب

بيار الجميّل بهؤلاء الفتيان؟ وماذا يريد بهم؟

وكان أن انتقلت بعد الجمّيزة إلى رأس بيروت حيث نشأ الحزب القوميّ السوريّ ومنه انطلق إلى سائر المناطق. وكان منزل زعيمه أنطون سعاده غير بعيد عن منزلي. وبحكم اشتغالي بالصحافة كنت أتابع نشاطه ونشاط الكتائب اللبنانيّة، وأجتمع بين الحين والآخر إلى زعيمه وإلى الرئيس الأعلى للكتائب. وعلى أثر محاضرة ألقيتها عام ١٩٣٨ في جمعيّة «العروة الوثقى» في الجامعة الأميركيّة في موضوع «الأحزاب اللبنانيّة» (ينبغي أن أضمّ إليها عصبة العمل القوميّ ذات اللون الباهت بالنسبة إلى الكتائب والحزب القوميّ) كثر المتردّدون عليّ من مختلف الانتماءات يدعونني إلى الدخول في أحزابهم فأعتذر. لا لأنّي لم أكن مقتنعًا بأيّ واحد منها فقط بل لأنّي كنت وما أزال من الذين يأبون الانخراط، وعمري ما انضممت إلى حزب أو منظّمة أو جمعيّة إطلاقًا.

أحفظ عن أنطون سعاده جلسته الوقور على الكرسيّ، ونظراته الفاحصة إلى من حواليه، وكلمات له خلال الحديث قليلة، يريدها دائمًا فصل الخطاب، لا يعلّق على أقوال سواه، ويتعالى عن المناقشات، رافعًا بوجوه أصحابها جبينه العريض كأنّه الصخرة المطلّة على شفير... ولمّا أتاني خبر إعدامه عادت إليّ هذه الصورة تضرب جبيني مع وجع يحثّه هذا الهتاف: تلك الصخرة لو كانت مديرة وجهها إلى لبنان – وحده – لما تدحرجت (ربّما) إلى الهاوية، ولكانت حريّة بأن تصبح حجر زاوية في بناء وطن حديث يرتفع فوق الفوارق الدينيّة والعنعنات الطائفيّة.

أمّا بيار الجميّل، الصخرة كلّ الصخرة، فقد برهنت الحوادث طول نصف قرن أنّها في قلب ورشة البناء، للأساس الذي يقوم عليه، ولحجر الزاوية، واستطرادًا مع قامته لعمود من أعمدة بعلبكّ.

رافقت بيار الجميّل في جهاده الطويل. وعندما انضمّت الكتائب والنجّادة صفًّا واحدًا، وخاضتا معًا معركة الاستقلال عام ١٩٤٣ ونزلتا كتفًا إلى كتف إلى ساحة الشهداء تطالبان بإزاحة نير الانتداب، كنت على شرفة مقهى الباريزيانا المطلّة على الساحة، ورأيت بعينيّ الحراب السنغاليّة تنقضّ على الشيخ بيار وسط تلك المظاهرة، محاولة أن تعمّق الجرح الذي طالته به في المظاهرة التي قادها على تلك الساحة نفسها عام ١٩٣٦ ضدّ الانتداب إيّاه. ومن غد امتدّت يدي في مقال لي في «الجديد» – مجلّتي الأسبوعيّة – تمسح جرحه القديم الجديد بالتحيّة، من جملة أيدي المحبّين والمعجبين، مسلمين ومسيحيّين على السواء.

على أثر تلك الأحداث، وبعد أن عاد الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وصحبهما من راشيّا باستقلال لبنان، قمت في «الجديد» بحملة في سبيل الشباب أسأل النابهين منهم في شتّى الحقول السياسيّة، والثقافيّة، والاقتصاديّة إلخ. وأتعرّف إلى ميولهم وأفكارهم وتطلّعاتهم. ووصلت إلى جميل مكّاويّ رئيس النجّادة، وكان المجلس في منزله على حديث الوقفة الرائعة التي وقفتها النجّادة والكتائب مجتمعتين، فانبرى أحد الحضور وقال متوجّهًا إلى المكّاويّ:

– لن ينسى لكم التاريخ هذه الوقفة.

فأجابه المكّاويّ:

– ولن ينسى لنا هذه العثرة التي تلتها. فقد حاولنا ضمّ الكتائب والنجّادة في حزب وطنيّ جامع فلم نُوفّق.

تُرى، متى يطلع هذا الحزب تحت سماء بلادي؟

٣

يُطلّ على شارع لبنان، القريب من الكلّيّة، بلكون رخاميّ لبيت قديم ما يزال قائمًا إلى اليوم. كلّما مررت بذلك الشارع أرفع عينيّ فتتزاحم الذكريات

على البلكون، تومئ إليّ بألف يد وتغمزني بألف عين.

كان على باب البيت فيما مضى لوحة مكتوب عليها «غرف برسم الإيجار»، فاستأجرت في السنة الثانية لالتحاقي بالكلّيّة غرفة منها، هي هذه أمّ البلكون. زالت اللوحة اليوم وأصبح البيت، كما قيل لي، برسم الهدم لتطلع مكانه بناية باطونيّة ذات عشر طبقات. ينبغي لأصحاب المشروع أن يرأفوا بي، فيخبروني قبل رفع معاولهم للهدم، كي أحمل ذكرياتي الرخاميّة وأهرب بها من الباطون.

من الغرفة إلى الكلّيّة خمس دقائق مشيًا على الأقدام. وبين الكلّيّة والغرفة قضيت بين ١٩٢٤ و١٩٢٧ أنضر سنيّ العمر وأزخرها بالآمال والمطامح.

لم أعرف طوال تلك المرحلة إلّا الدرس، إذا استثنيت جارة لي، في غرفة ملاصقة، علّمتني الحبّ على أصوله. ولكنّها لم تستطع إلهائي عن الدرس، ولا استطاع سَطيح التغلّب على شِقّ على كثرة إغراآته له. أمّا الحبّ بيني وبين الجارة فكان على قاعدة المقايضة: تعلّمني الحبّ – على أصوله، قلت، لأنّها كانت في الثلاثين وطلّقت ثلاثًا لتعيش مع صديق لها – وأعلّمها القراءة. كان في قلبها غصّة وفي رأسها اعتقاد راسخ بأنّها لو كانت متعلّمة لما تزوّجت أصلًا مَن تزوّجتهم ولما تزحلقت من بعد هذا التزحلق. وكان صديقها رجلًا ظريفًا يضرب على العود ويغنّي ويشرب كأسًا. وكثيرًا ما كان يدعوني إلى السهرة فأسهر إلى أن يؤون الأوان، فتودّعني المرأة حتّى الباب بغمزة من عينيها معناها: الصباح لنا.

ذات صباح فاجأنا الصديق مفاجأة ولا أزعج. كان من عادته أن يذهب كلّ يوم مبكّرًا إلى عمله. ولكنّه ذلك الصباح لم يكد يخرج حتّى عاد لأنّه نسي، كما قال، شيئًا. الواقع أنّه جاء ليفتّش عن شيء فوجد شيئًا آخر.

سَطيح: بماذا شعرت، يا شِقّ، عندما شهر عليك الرجل البارابلّو؟*

شِقّ: (قالبًا شفته): لا شيء. أذكر جيّدًا أنّني لم أشعر بشيء. أنت الذي خفت وارتخت ركبتاك، ولولا أن شددتُ بك لوقعت على الأرض.

سَطيح: كانت عيناك في عينَي الرجل، وعيناي في بوز البارابلّو.

شِقّ: ولذلك خفت أنت ولم أخف أنا. الرصاص لا يطلع فقط من أبواز البارابلّوات. العيون تطلق رصاصًا أقوى.

سَطيح: يعني؟

شِقّ: يعني أنّ الرصاصتين اللتين أطلقتهما على الرجل من عينيّ أسكتتا رصاص البارابلّو. فأعاده صاحبنا إلى زنّاره ولم يفه بكلمة، ولا أنا.

سَطيح: ولا أنا.

شِقّ: (بين الجدّ والمزاح): أنت كنت على وشك أن تبقّها لو لم أبادر إلى سدّ فمك.

سَطيح: الواقع، ماذا كنت أريد أن أقول له؟

شِقّ: بلاهة من بلاهاتك، الحمد لله أنّك بلعتها.

سَطيح: (فاتحًا عينيه): كان بإمكانه أن يقتلنا. ولكنّه تحوّل فجأة إلى المرأة.

شِقّ: برصاص عينيه. البارابلّو كان قد صار في زنّاره.

سَطيح: لم يقتلنا ولم يقتلها. عجيب!

شِقّ: بل قتلها. نحن شفع بنا صغرنا.

سَطيح: كيف وهي حيّة تُرزق إلى اليوم؟

شِقّ: قتلها قلت لك. لم تشفع أكاذيبها ولا دموعها. وظلّ مصوّبًا عينيه إليها زخًّا برصاصها حتّى أسلمت الروح. رصاصة الرحمة أطلقها عليها من عينه اليسرى. كانت عينه اليسرى محشوّة برصاص الاحتقار. وبرصاصة من هذا العيار شيّعها حتّى الدرج وألحق بها ثيابها رميًا في الشارع.

سَطيح: تريد أن تقول قتل الحبيبة فيها.

---

* مسدّس ضخم كان مشهورًا في تلك الأيّام.

شِقّ: طبعًا. وراح يفتّش عن حبيبة أخرى.
سَطيح: (ساخرًا): في غير البيت الذي كنّا فيه.
شِقّ: النساء كثار. وهنّ في كلّ بيت.
سَطيح: (ضاحكًا): تذكر؟ تذكر؟ بعد تدحرج المرأة على الدرج وهي تلمّ ثيابها، وبعد انصراف الرجل وهو يبصق على النساء، كلّ النساء على وجه الأرض – بانتظار أن يقع على إحداهنّ – عدنا أنا وأنت إلى غرفتنا كأنْ شيئًا لم يكن.

٤

كان والدي يعطيني مرتّب الشهر بانتظام وينزل إلى بيروت أحيانًا لزيارتي والاطمئنان عليّ. وكنت أُحبّ الشوكولاتا – توبلر ماركتي المفضّلة – فما تكاد الليرات العشر تستقرّ في جيبي حتّى يبدأ الصراع. الجولة الأولى لسَطيح. يُسرع إلى الدكّان المواجه للبيت ويمضي في التهام ألواح التوبلر، وشِقّ يهتف به: «بس بقا!» بالعربيّ الفصيح: كفاك يا سَطيح، الكتاب خير من الشوكولاتا. ويضبّ شِقّ على ليراته – ولم تنقص إلّا قروشًا معدودة لأنّ لوح الشوكولاتا كان بقرشين – وينطلق إلى مكتبات المدينة، يقلّب الكتب ويُنفق على اقتنائها كلّ ثروته. منها مكتبتان في سوق البازركان لذلك الزمان. وكانت تعبق في هذه السوق روائح السمن والزيت والصابون، ترفدها روائح اللحم والسمك والكروش من سوق النوريّة، والسوقان متّصلتان مرج البحر بالبحر. ولكنّ شِقّ لم يكن يحسّ بذلك، فأنفه في الكتب يتشمّم منها رائحة عبقر وأنفاس الخالدين.

المعلّقات السبع من هنا، والمعلّقات العشر من هناك. حار شِقّ بين المكتبتين: أيًّا منها يصدّق؟ أسبع هي المعلّقات أم عشر؟ اشترى السبع في الشهر السابق. لا بأس. لن يأكل سَطيح توبلرًا طول هذا الشهر، ولا بدّ من اقتناء العشر.

أبو العلاء المعرّي. أبو الطيّب المتنبّي. يلاقيهما جبران خليل جبران وتلحق به ميّ. في حين ينتظر أبو الفرج الأصفهانيّ بخَيْله ورَجْله على الرفّ الكبير هناك، يرمقه شِقّ كلّ مرّة بعينَي الشوق الشديد الذي ما عليه من مزيد، وقد يمدّ يده إليه ويقلّب في أوراقه الصفراء ويناجيه: اِنتظر، اِنتظر. الفرج قريب يا أبا الفرج. وسَطيح يثنيه فلا ينثني، وقد يغضب ويثور ويشتم، وهو لا يغفر لشِقّ حتّى اليوم. لأنّ «الأغاني» بمجلّداته الواحد والعشرين – ما شاء الله ملأت سلّ العتّال – كلّفته الصيام عن الشوكولاتا، وعن الطعام أحيانًا، شهرين كاملين قبل الشراء، ومثلها بعده على حساب ما تبقّى للمكتبة في الذمّة.

ويحشر المنفلوطيّ نفسه – يا ضيعان الفلوس عليه! ألم يكن خيرًا أن يأكل بها سَطيح توبلرًا؟ – ومع هؤلاء روسّو وهيغو ولامارتين وأضرابهم من «مكتبة البيت» على ساحة الشهداء. أنا أترجم اسمها إلى العربيّة. صاحبها كان يعلّق على بابها **Librairie du Foyer** ولا يكلّمك إلّا بالفرنسيّة: «وي مونشير. نو مونشير».

٥

إذا كانت جارتي في البيت قد علّمتني أصول الحبّ فقد رزقني الله في الكلّيّة من علّمني أصول الأدب.

كاهن قدّيس، وعالم جليل، ورائد من حقّه أن يُكتب عنه كتاب، هو الأب روفائيل نخله اليسوعيّ، مدير الدروس العربيّة لذلك الوقت. وكان قد أنشأ لنا «نادي اللغة العربيّة» – حدث في تاريخ الكلّيّة – اختار أعضاءه من التلاميذ النابهين في هذه اللغة. وكان من دعاة التجديد في الأدب، ولعلّه أوّل من خلع على المقلّدين من الكتّاب والشعراء لقب «المحنّطين». ولا غرابة فأصله من مصر أمّ التحنيط منذ الفراعنة. لا يوصينا بشوقي وكان أمير الشعراء، ولا بحافظ، ولا حتّى بمطران إلّا في بعض قصائده. أصحابه كانوا كلّهم

من «الرابطة القلميّة»، ويقدّم عليهم ميخائيل نعيمه ويتلو علينا قصائده وفصولاً من «الغربال». مع ترجمات يقوم بها إلى العربيّة عن كبار الأدباء في اللغات الأجنبيّة، وكان يعرف منها إذ ذاك عشرين لغة. ومات، رحمه الله، وقد ضرب الرقم القياسيّ فيما أعلم: خمسين لغة، أكثرها طبعًا للقراءة لا للمخاطبة.

ذات يوم طرح الأب نخله على نادينا مباراة في الشعر. وكان هو نفسه يدبّج القصائد في مريم العذراء والطفل يسوع وسانت تيريز دي لانفان جيزو. سهر أعضاء النادي أيّامًا جرّاء القوافي –كما يقول أبو الطيّب– وما كنّا ندري ما الأب نخله صانع بها، حتّى جاءنا بعد أسبوعين يعلن نتيجة المباراة باسم ميخائيل نعيمه. كان بينه وبين مستشار «الرابطة القلميّة» في نيويورك مراسلات، فبعث بالقصائد إليه طالبًا رأيه فيها. نعيمه يروي في مذكّراته «سبعون»، الجزء الثالث، تحت عنوان «ناسك الشخروب» هذه الحادثة بالتفصيل. ولو لم يذكّرني في فصله المشار إليه بموضوع قصيدتي – الأمّ – لراح في النسيان. على أنّي لم أنسَ قطّ ما قاله عنّي: «هذا فيه شرارة الشعر» إلخ. فنقلت الفقرة على دفتر لي وظللت أحتفظ به حتّى ضاع مع ما ضاع لي في حرب السنتين. وما لا أنساه، بالتالي، هو الصداقة الحميمة التي انعقدت بيني وبين نعيمه منذ ذلك التاريخ. كالخيط السحريّ لا يُمسَك ولا يوصف. إلى أن أُتيح لي أن أجدله وأبرزه للناس لدى زيارتي له على أثر عودته إلى الوطن، وقد نعتّه، في سلسلة مقالات عن تلك الزيارة، باللقب الذي غلب عليه*.

* * *

في السنة المدرسيّة التالية، ١٩٢٤ – ١٩٢٥، أعلنت الكلّيّة عن مباراة أدبيّة عامّة، ضمّت لها الصفوف المتقاربة، فالصفّ الأوّل مع الثاني، والثالث مع الرابع، وهكذا دواليك. فاحتجّ شِقّ رافضًا الاشتراك فيها.

سَطيح: ما سبب رفضك، يا شِقّي العزيز، وأنت الأوّل بين تلاميذ صفّك، الثالث؟ أتُراك تخشى منافسًا لك في الصفّ الرابع؟!

شِقّ: ما فضلي، يا سَطيح السطحاء، وأنا الأوّل في الثالث، أن أطلع الأوّل إذا انضمّ الرابع إليه وهو دونه؟

سَطيح: إذن لا تشترك في المباراة؟

شِقّ: أو ترضى الكلّيّة باشتراك الصفّ الثالث الذي أنا فيه مع الصفّ الثاني والصفّ الأوّل.

سَطيح: غرور! غرور! أعرف غرورك من زمان.

شِقّ: بل ثقة بالنفس.

سَطيح: قُل اعتداد بالنفس.

شِقّ: لا فرق، لا فرق.

سَطيح: أتظنّ أنّ الكلّيّة ستخرق نظامًا أقرّته والتزمته إكرامًا لطموح أرعن يركب رأسك؟

شِقّ: اِخرس! وسترى ما ستراه.

فانطوى سَطيح في جرابه ساخرًا من صاحبه، فيما انطلق شِقّ إلى مكتب مدير الدروس العربيّة: «أريد مقابلة المدير لأمر هامّ». هكذا قال للسكرتير في مقصورته المجاورة لمكتب المدير. ثمّ دخل على الأب آجيّا الذي خلف الأب نخله، وعرض عليه طلبه. فمدّ إليه الأب آجيّا بأذنه الصحيحة – الأذن الثانية كانت مشرومة بحادث أو مرض – ثمّ صرفه منتهرًا:

– رُح، يا صبيّ، إلى صفّك!

أيكون المدير من رأي سَطيح؟ ولكنّ شِقّ استدار إليه من الباب وأكّد له بالصوت العالي:

– يا أبتي المحترم، اعمل كما أقول لك، ولن يفوز بالجائزة إلّا ابنك المطيع.

* راجع فصل «ناسك الشخروب» في كتاب «فرسان الكلام» للمؤلّف.

ويظهر أنّ صوت «الصبيّ» خرق الأذن المشرومة، فسمع الأب آجيًا بالاثنتين، فابتسم ووعد بالنظر في الأمر...

في صباح ذلك اليوم الذي أُعلنت فيه نتائج المباراة - وقد أُجريت كما أراد شِقِ - اعتلى المنصّة في قاعة الأعياد الخوري مارون غصن، معلّم الصفّ الأوّل، بقامته المديدة ورأسه المرفوع، فمهّد للإعلان بخفض رأسه، مداعبًا بكفّ عصبيّة الجائزة الكبرى التي كانت تتصدّر المنبر: إلياذة هوميروس، ترجمة سليمان البستانيّ، مجلّدة في المطبعة الكاثوليكيّة تجليدًا فخمًا مذهّبًا، ومكتوبًا عليها بالذهب أيضًا موضوع المباراة - السجين - وتاريخها واسم الفائز بجائزتها. وقبل أن يلفظ هذا الاسم كان شِقِ قد مشى إلى المنصّة ليتناولها من يديه.

* * *

قبل أن أترك الكلام عن كلّيّة القدّيس يوسف لا بدّ من ذكر واحدة أبعد دلالة من هذه.

كانت المطبعة الكاثوليكيّة قد نشطت في أواخر العشرينات إلى القيام بهجوم معاكس على الروايات «الخلاعيّة» في البلد، فأخذت تصدر بالعربيّة سلسلة روايات «محتشمة» لبعض الأدباء الفرنسيّين تعهد بترجمتها إلى كتّاب يجيدون اللغتين. وإذا بمدير المطبعة يستدعيني ذات يوم من صفّي -كنت قد أصبحت في الثاني- ويعهد إليّ بترجمة روايتين. وكانت العطلة الصيفيّة على الأبواب، فانصببت على الروايتين وترجمتها قبل انتهاء العطلة، ونلت على أتعابي قرشين ذهبيّين للصفحة الواحدة، البدل الذي كان يُدفع إلى الكتّاب المشار إليهم. المجموع عشرون ليرة عثمانيّة ذهبًا رنّانًا.

ولكن إذا كان والدي قد قال لي: عفارم! مغتبطًا بتأمين القسم الأكبر من أقساط المدرسة، فالمشكل كان بين شِقِ ومدير المطبعة قُبيل نشر الكتابين. قال شِقِ:

- تنشرهما دون أن يحملا اسم المترجِم.

قال المدير:

-كيف؟ هذا فخر عظيم لك.

وأخرج سَطيح رأسه من جرابه ودعم المدير من الوراء. ولكنّ شِقِ أصرّ على رأيه:

- أو أُعيد إليك المبلغ، يا محترم.

وأخيرًا تمّ الاتّفاق على ذكر الحرفين الأوّلين: ت.ع.

ورضي الجميع.

لست أذكر الروايتين. لا عنوان هذه ولا عنوان تلك. لا اسم المؤلّف هنا ولا اسمه هناك. ولم تدخل نسخة من الترجمتين بيتي. ولكنّ كلّ ذلك محفوظ ولا شكّ في ملفّات المطبعة الكاثوليكيّة ومكتبتها.

لقد كبر على شِقِ أن يكون أوّل ما يظهر له في الناس من غير إبداعه.

- اِذهب عنّي، يا سَطيح، أنت ومدير المطبعة! لم يأتِ يومي بعد.

٦

في لبنان اليوم لغط كثير حول الكتابة باللغة العاميّة، ودعوة إلى الاكتفاء بها في التعبير باعتبار أنّها لغة الحياة، ويسمّيها الداعون اللغة اللبنانيّة. والمفارقة هي أنّ هؤلاء النفر من الذين سبق لهم أن كتبوا بالعربيّة الفصحى، وعليها قام ما قام لهم من صيت. وقد حاول الكثيرون منهم تطبيق الدعوة - النظريّة فنشروا باللغة العاميّة، وما يزالون ينشرون، قصائد وأبحاثًا وكتبًا.

على أنّ من الضرورة أن نميّز في هذا المجال بين المخضرمين المشار إليهم والجاهليّين الذين سبقوهم إلى اللغة العاميّة عفوًا من تلقاء أنفسهم وقبل أن تذرّ الدعوة قرونها ويسمعوا بنظريّتها، ولم يكونوا في الواقع يفكّرون بصراع ينشب يومًا من الأيّام بين العاميّة والفصحى وتذهب له في المحافل هذه الضجّة.

من واجب التاريخ أن يعترف للناس بأشيائهم.
فالدعوة قديمة، ترجع إلى عهد دراستي في كلّيّة القدّيس يوسف، أي إلى أكثر من نصف قرن. والسابق إليها، وطارح نظريّتها، والمحاول الأوّل لتطبيقها هو الأب روفائيل نخله بالذات، نافخ النهضة في اللغة العربيّة الفصحى. وكنت من المقرّبين إلى الرجل وكان معلّمي الخاصّ على هامش الصفوف، وأنا ابنه الأدبيّ – إن صحّ التعبير – ورافقت عن كثب حماسته للعامّيّة، وكنت شاهدًا للمعركة الأولى التي شنّها في هذا السبيل.

كان الأب نخله عارفًا باللهجات المتعدّدة الموزّعة بين لبنان والبلدان العربيّة، ومتتبّعًا لها ولمظاهر اختلافها لا بين بلد وبلد فقط، بل في البلد الواحد بين منطقة منه ومنطقة. وكان واعظًا بليغًا. والبلاغة عنده شرطها الأوّل الإفهام، أي مخاطبة الناس باللغة التي يفهمونها. فإذا وعظ في بيروت تكلّم بلهجة البيروتيّين، وإذا وعظ في زحلة أو زغرتا فبلهجة الزحلاويّين والزغرتاويّين. وهكذا في دمشق والقاهرة وبغداد إلخ. وكان ولوعًا بتاريخ اللغات وتطوّرها والمقارنة بينها، فانتهت به أبحاثه إلى أنّ اللهجات العامّيّة بنات اللغة العربيّة الفصحى، وأنّها ستنتهي يومًا – وهذا اليوم لا بدّ منه – إلى الوقوف على أقدامها لغات مستقلّة، كما حصل للفرنسيّة والإسبانيّة والإيطاليّة مع أمّها اللاتينيّة. ماتت هذه وعاشت تلك.

ويردف مؤكّدًا لي:

– وستموت اللغة العربيّة الفصحى بدورها وتبقى لغة صلاة فقط كما بقيت اللاتينيّة.

وفي عام ١٩٢٧ أراد الأب نخله أن ينشر في الناس فكرته. ولكنّه خشي غضب رؤسائه عليه، فلليسوعيّين في لبنان وفي الأقطار العربيّة والإسلاميّة رسالات ومصالح. والعرب، والمسلمون إطلاقًا، غير مستعدّين لتقبّل هذه الفكرة. فلجأ إلى التستّر بثوب الخوري مارون غصن وأعاره فكرته. وقد ظهر بالفعل في السنة نفسها باسم الخوري غصن كتابان باللغة العامّيّة. الأوّل بعنوان «في متلو هالكتاب»، والثاني – نسيت عنوانه – في محاولة وضع قواعد لهذه اللغة. ويشهد الله أن ليس للخوري المارونيّ فيهما حرف، بل هما من نصّ الراهب اليسوعيّ من الدفّة إلى الدفّة.

أكثر من ذلك. كاد الأب نخله أن يقنعني، فقمت بتأثير منه ببعض التجاوب في اللغة العامّيّة، نثرًا وشعرًا، ولكن دونما حماسة. وظلّ، رحمه الله، يلاحقني بعد تخرّجي، حتّى السنة ١٩٢٩، فجمعني بصديق له صاحب مطبعة في بيروت وعرض علينا إصدار مجلّة بـ «اللغة اللبنانيّة».

اللغة اللبنانيّة؟ تلك هي المرّة الأولى التي خرجت فيها هاتان الكلمتان إلى الأفواه والأقلام مضمومًا بعضها إلى بعض، لتؤلّفا بعد نصف قرن أو يزيد هذه الجوقة من الدعاة الذين يزمّرون اليوم بالنظريّة ويطبّلون.

العامّيّة؟ لقد نثر فيها الكاتبون ونظموا قبل البشارة وبعدها، وما يزالون. ولكنّ العامّيّة لن تحلّ محلّ الفصحى في لبنان ولا في أيّ بلد عربيّ. فللفصحى قبضتها الجامعة – القرآن – من المحيط إلى الخليج. وإذا كان من تطوّر في كتابتها فهو حاصل مع الزمن عن طريق الصحافة وسائر وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفزيون، يرافقه التطوّر الآخر الأكثر أصالة على أيدي الأدباء، وهم ينثرون اليوم وينظمون بلغة، صحيح أنّها من لغة الجاهليّين والأمويّين، ولكنّها يسرت وساغت وقربت من الأذهان والأذواق، فانخفضت بعض الشيء إلى العامّيّة، فيما ارتفعت العامّيّة بفعل شيوع التعليم، وتلاقت الاثنتان على ألسن المثقّفين حتّى في مجالسهم الخاصّة.

فضلًا – وهو أمر مهمّ جدًّا – عن أنّنا، أنا وكثيرين غيري، لن نتخلّى عن لغة نتعاطى بها مع عشرات ومئات الملايين إلى لغة أو بالحري لهجة نضرب بها على أنفسنا نطاقًا محدودًا، ويتخلّى بها لبنان،

بتخلّينا، عن رسالته الثقافيّة العظيمة ومداه الفكريّ الذي لا حدّ له.

أيعني ذلك أنّني أكره العامّيّة؟ معاذ الله. ولكن شرط أن تكون في نصابها. وقد تفتّحت عيناي على جماليّتها منذ صباي، فألقيت سنة ١٩٢٨ في «الزجل أو الشعر العاميّ»* محاضرة درست فيها أصوله وقواعده وبيّنت خصائصه ومزاياه، وانتهيت إلى تفضيل الكثير منه على الكثير من شعر الفصحى. وقد أُعجبت وما أزال بالموهوبين في العامّيّة، المالكين عبقريّتها. فكلّ لغة، ولو عامّيّة، لها سرّها، وهي لا تبوح به إلّا للمختارين من أبنائها: شكري الخوري في قصّة «فنيانوس»، حنّا الفغالي في «رسائل شموني»، الدكتور يوسف شرابيّه في أزجاله، ميشال طراد في قصائده، وكذلك موريس عوّاد من بعده. وقد استطاع طراد وعوّاد أن يرتفعا بالشعر في العامّيّة إلى أعلى ما يحتلّه الشعر من مراتب الحلاوة والشفافية والأخذ بالقلوب. ويعرف صديق لي، عندنا في الضيعة، أبو فيصل عبّاس، كم أنا مولع بما ينظم بالعامّيّة من قصص وكم أتلهّف لسماعه، فألقي بسلاحي بين يديه مستسلمًا إلى ما يقول ويصف ويحاور. أشهى المازات التي يمكن لذوّاقة أن يتناولها في ضهر الباز، المقهى – المطعم – النادي الذي هو صاحبه ونديمه وشاعره في آن واحد.

سؤال: لماذا اخترت الفصحى لا العامّيّة؟ لسبب بسيط: لا أملك عبقريّة العامّيّة. وقد تملكها عجوز تحكي حكاية لأحفادها حول الموقد، أو صاحب دكّان في زاوية هذا الشارع أو ذاك. ولأنّي، من بعد، لن أنزل منازل بعض الزملاء. كانوا كتّابًا وشعراء بالفصحى، فلمّا انقلبوا إلى العامّيّة، وهم ليسوا من جماليّتها على شيء، فقدوا كلّ شيء وأضحكوا منهم الناس.

أضف إلى كلّ هذا أنّ العامّيّة لم تبلغ ولن تبلغ المستوى الفنّيّ الذي بلغته الفصحى. فالكلمة في الفصحى ذات تاريخ عريق، وصاحبة سيرة مجيدة، تنقّلت على أقلام الكتّاب والشعراء على قرون متطاولة، وعبّرت عن حضارة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم. وقد ألفتُها منذ الصغر فخالطتها وخالطتني، حتّى لأصبحت في الكبر لا أفكّر – أدبيًّا – إلّا بها. والتفكير بلغة هو التعبير بها. لأنّ التفكير لا يكون في الهواء بل بواسطة الكلمات.

وبعد، فليطمئنّ الغيارى على «اللغة اللبنانيّة». إنّها في عافية. وستعيش وتنمو وتزدهر في مواطنها. أقصد مواطنها المكانيّة والفنّيّة على السواء. أمّا أن تنفي الفصحى وتحلّ محلّها فلا. ولا الفصحى قادرة بدورها على نفيها وغصب مواطنها. توأمان، ما المانع أن يتعايشا متوافقين؟

* راجع الفصل حامل هذا العنوان في كتاب «فرسان الكلام» للمؤلّف.

من حقل القلم

١

بعد إنهاء دروسي الثانويّة في كلّيّة القدّيس يوسف ، اشتغلت بالتعليم سنة في مدرسة مار مارون الخيريّة وبضعة أشهر من السنة التالية في مدرسة الإخوة المريميّين (الفرير) . ولست أدري كيف انتصب سَطيح ذات يوم ونفخ من جوفه بوجه شِقّ ، وما زال به حتّى حمله على ترك بيروت وفتح متجر في ساقية المسك ، ببابين على الطريق عريضين ، ولافتة فوقها متران طولًا كُتب عليها بالخطّ الفارسيّ الجميل – حصّة شِقّ الوحيدة في رأس المال – «فلان الفلانيّ : ترابة وحديد وخشب وجميع لوازم البناء» . أمّا رأس المال نقدًا فمن والدي استأجر لي به المحلّ وزوّده بالبضاعة اللازمة .

ولكن بينما كان سَطيح ، في تلك الفترة التي استغرقت ستّة أشهر ، مشغولًا بأتربته وحدائده وأخشابه كان شِقّ ينصرف إلى الكتابة في مجلّة «العرائس» لصاحبها عبد الله حشيمه – وكان يصدرها في بكفيّا ويطبعها في بيت شباب ، الضيعة المجاورة – فيرافقه مشيًا على الأقدام نزولًا وطلوعًا بين الضيعتين ، ويوافيه في آخر الأسبوع فيقضي الليالي في مساعدته على طيّ المجلّة وكتابة عناوين المشتركين . وربّما نظم الشعر فأرسله إلى «البرق» لصاحبها بشارة الخوري ، الأخطل الصغير . ثمّ لم يلبث أن تخطّى حدود الضيعة والبلاد فجازف بمقال أوّل إلى «السياسة الأسبوعيّة» في القاهرة لصاحبها محمد حسين هيكل فتنشره له في مكان بارز ، فيُتبعه بثانٍ وثالث...

حتّى كان ما لم يكن منه بدّ : أفلس المتجر . فدعا شِقّ بسَطيح أن يضبّ على دفاتر حساباته ، بينما كان هو يتسلّق السلّم إلى اللافتة ويحطّها إلى الأرض ، فحملها سَطيح إلى قبو البيت حيث لا تزال ، وحمل شِقّ اسمه بعد أن نفض الغبار عنه ، مجرجرًا سَطيح وراءه ، وعاد إلى الساحة في بيروت بما بقي له ، القلم ، تاركًا الوالد في حيرة كبيرة .

* * *

كان أبي بهيّ الطلعة ، قويّ البنية ، أزرق العينين ، له أنف رومانيّ أورثني إيّاه مع الفائدة . وليتني ورثت عنه ، أو تعلّمت منه وهو حيّ ، كيف يستطيع أن يكون دائمًا جميل الهندام ، ناصع القميص ، على ربطة عنق لا يرضى إلّا أن يسوّيها في نصابها ، وأمّي تنظر من ورائه في المرآة ثمّ تلحق به إلى الباب ، وقد خُيّل إليها أن غبرة أو شعرة علقت بكتفه فتنفضها ، ثمّ تقف معجبة ولا تغادر الباب إلّا بعد أن يغيب .

وكان ، إلى وقاره ، سريع الغضب سريع

الرضى ، أمّارًا ، عالي النبرة لاعتياده إدارة ورش البناء – وقد ترك هذا العمل في كهولته إلى مهمّة خبير محلّف لدى القضاء في الشؤون العقاريّة – حادّ الذكاء ، نافذ النظر ، على ابتسامة لا تفارق شفتيه . وكان يعلوهما في شبابه شاربان أشقران يطيب له بين الحين والآخر أن يمرّ عليهما من هنا ومن هنا بأصابعه مرّ التأنّق . ثمّ أخذ يقصّرهما سنة بعد سنة حتّى أحفاهما في النتيجة . وكنت أعاتبه في ذلك فيقول إنّه يمشي مع الزمان . والحقيقة أنّه كان يودّ لو استطاع أن يوقف الزمان ليظلّ شابًّا ويستمتع بالحياة .

كانت ثقافته ثقافة أترابه من أبناء الطبقة الوسطى في المنطقة : القراءة والكتابة باللغة العربيّة . ولم يكن يقرأ إلّا الصحف وبعض كتب التاريخ والمذكّرات السياسيّة . إلّا أنّ المعلومات التي كان يخزنها كانت شاملة وعميقة ، يغذّيها بالتجارب التي عاشها ، وبمعاشرته لكبار القوم ، وبالملاحظة الدقيقة للناس والأشياء . ومن هنا حكمه الصائب ورأيه الصحيح ، لا يبديهما اعتباطًا ولا يتطفّل بهما على أحد ، ولكنّه لا يبخل بهما على طالب .

وكانت مجالسه ، في بيته وعند الآخرين ، محلّاة دائمًا بحديث يستقطب الاهتمام ، فالعيون كلّها إليه والآذان مشدودة إلى سماعه . إذا روى خبرًا ، أو نادرة ، أو نكتة ، فحفر وتنزيل في الموضوع الذي يعالجه المجلس . متدفّق في السرد ، صائغ في اختيار الكلمات ، خبير في توزيع الأضواء والظلال على شخصيّاته ، لمّاح في الوصف ، لذّاع في التعليق ، يسوق الحادثة حثًّا ويحبس لها الأنفاس في الصدور ، حتّى إذا انتهت أضاء مغزاها ، على شرر عينيه ، إضاءة الأسهم الناريّة .

لم يتدخّل يومًا في شؤون عملي تاجرًا ولا صحافيًّا ولا دبلوماسيًّا . لا لثقة له بي في تسيير أموري ، في الراجح ، بل لتعالٍ كان عنده يحول دونه ودون هذا التدخّل . وعندما أفلس متجر الترابة والحديد والخشب لم يتوجّه إليّ بكلمة عتاب ، واكتفى بالانقطاع عن مخاطبتي أو الالتفات إليّ أسبوعًا كاملًا . وفي نهاية الأسبوع ذهب إلى خزانته في الزاوية ، والله وحده يعرف ما كان في تلك الخزانة . كلّ ما نعرف أنّه كان يفتحها لكلّ حاجة تطرأ . خزانة الحكمة التي يدير بها بيته ، مفتاحها في جيبه لا يمسّه أحد ، ولا تجرؤ حتّى أمّي على سؤاله عمّا فيها . مدّ يده فأخرج ليرتين عثمانيّتين ودفعهما إليّ :

– تريد أن تنزل إلى بيروت ؟ خُذ إلى أن تجد عملًا .

فانحنيت لتقبيل يده ، فسحبها وأدار وجهه .

٢

شِقّ : إذا كان الوالد ، من كرم أخلاقه ، لم يسألنا عن أسباب إفلاس المحلّ – وقد عرفها طبعًا – أفلا ترى من واجبك أنت ، إراحة لضميرك ، أن تقول الحقيقة ؟

سَطيح : الحقيقة ؟ قلتها أنت : القصائد والمقالات ، والحياة مع الكلمات والقوافي بدل الأرقام والحسابات .

شِقّ : ولياليك الملاح في بيروت ؟ مرّتين في الأسبوع على الأقلّ ، ولا ترجع إلّا مع الفجر . أسباب إفلاس المحلّ يجب أن تبحث عنها في الكيت الكات* . في الكاسات التي كانت تكرعها كيكي وفيفي وميمي ، وأنت مسطّح تفتح جرابك وتدفع .

سَطيح : أنا سَطيح أصلًا ولا عتب عليّ . يهمّني من المرأة ، سواء كانت أرتيستًا أم ملكة أم خادمة ، ما يهمّني . وأدفع ثمن ما يهمّني . ولكن ما بالك تذكر كيكي وفيفي وميمي ولا تذكر نانا . كنت تقول لي : «نانا شيء آخر . أُنظر إلى رقصتها

* مربع ليليّ كان مشهورًا في زمانه .

المحتشمة! إلى جلستها الرصينة! إلى عينيها الطاهرتين»! ... وأنا أضحك.

شِقّ: كنت أعتقد بالفعل أنّها تختلف عنهنّ. كنت أرى فيها ملامح من مبتدئتي، تلك التي كان لها حبّي الأوّل في المدرسة، خلف الكواليس، بعد تمثيلنا مسرحيّة جان دارك.

سَطيح: مبتدئة؟ راهبة؟ يا ليت! هل نسيت أنّك قلت لي يومًا: «نانا قدّيسة»؟ جان دارك أحرقتك بنار فالصو من شغل قيصر عامر، أمّا هي فأحرقتك بنار من جهنّم.

شِقّ: بل من السماء. لأنّني أحببتها.

سَطيح: وتوّجت هذا الحبّ بقصيدة من قصائدك الرنّانة نشرتها لك «البرق». وما جاء المساء حتّى حملتها إليها في الكيت كات تدلّها بإصبعك على الإهداء: «إلى ذات النونين» وتترجم إلى الفرنسيّة وتغرّب عينيك، ملقيًا وراء ظهرك كلّ ما في الأرض من حديد وخشب وترابة. حتّى كانت ليلة الوعد الأكبر. قالت لك – أتذكر؟– «إنتظرني على الباب الساعة كذا والدقيقة كيت». وعلى الباب وضعت نظّارتيها وانسلّت إلى سيّارة الكركدّن الذي كان ينتظرها وراحت.

شِقّ: (متنفضًا): وسهرات القمار التي كنت تحييها أنت في بكفيّا مع الزعران؟

سَطيح: أتسمّي لعبة السبعة ونصف قمارًا؟ أنا، من جهتي، كنت أحبّ أن أتعلّم البوكر. منعتني أنت. صحت بي: السبعة ونصف وبس!

شِقّ: ومع ذلك قعدت مرّة على طاولة السبعة ونصف ستًّا وثلاثين ساعة متواصلة، وأنا أقول لك: قُم! قُم! وأنت لا تتزحزح.

سَطيح: مرّة. وكانت الأخيرة.

شِقّ: والشافية.

سَطيح: (فاتحًا عينيه): ستّ وثلاثون ساعة! أنا قلت – بيني وبينك – شِقّ سيمشي معي بعدها إلى البوكر، ومنه إلى الروليت والبكارا...

شِقّ: بماذا يشعر المقامر يا سَطيح؟

سَطيح: المقامر، في قرارة نفسه، لا يهمّه الربح بحدّ ذاته ولا الخسارة. وليس قصده التسلية وقتل الوقت فقط.

شِقّ: إذًا؟ لماذا يطرح المقامر كلّ شيء جانبًا؟ كلّ الواجبات، وكلّ الاعتبارات، وحتّى عقله وشرفه، وينزل إلى ساحة الصراع مع الحظّ؟

سَطيح: أنت قلت. لكي يصارع الحظّ. كلّ لذّته في هذا الصراع.

شِقّ: ولكنّ الحظّ إله أعمى.

سَطيح: في صراع المقامر لهذا الإله الأعمى كلّ عظمة المقامرين.

شِقّ: وكلّ انحطاطهم. لأنّهم يعصبون عيونهم ليصيروا مثله عميانًا.

٣

عملت – أوّل ما عملت في الصحافة – إلى جانب بشارة الخوري، الأخطل الصغير، في جريدته «البرق»، أصوغ الأخبار المحلّيّة التي كان يوافينا بها المخبرون بلغتهم الركيكة صياغة جديدة، وأصحّح بروفات الجريدة، وأساعد في كتابة عناوين المشتركين. وإنّي أحفظ عن هذه أسوأ الذكريات لأنّها كانت من عمل سَطيح. وحتّى سَطيح كان يتبرّم بها ويتأفّف لاعنًا شاتمًا أصحاب «جناب الأجلّ الأمجد دام بقاه». أمّا شِقّ فما يكاد يفرغ من كلّ ذلك حتّى يعكف على أكداس من قصاصات صحف، مبعثرة في أدراج مكتب بشارة الخوري، فيقوم سعيدًا بجمع قصائد الشاعر، قديمها وحديثها، وينسخها بخطّه الجميل على دفتر، هو بالذات الذي اعتمده الأخطل الصغير بعد سنين لدى نشر ديوانه.

كنت أتوقّف طويلًا عند قصائده القصصيّة

— وكلّها في الغزل — لما فيها من رشاقة وحلاوة في السرد والحوار على السواء، فأحفظ أكثرها عن ظهر قلب. ولكنّي كنت أمتعض من بعض المبالغات فيها وبعض التشابيه، وقد أهمّ بلفت نظره إليها فيمنعني الحياء. كقوله مثلاً:

«المَهـا أهـدت إليهـا المُقلتَين
والظِبـا أهـدت إليهـا العُنُقـا»

كان سَطيح يعجبه ذلك ويُغضب شِقّ. فأين رأى بشارة الخوري البقر الوحشيّة وغزلان الصحراء ليشبّه بها حبيبته، هو الذي قضى عمره بين ساحة البرج وبرج حمّود* ؟!

شِقّ: تقليد للشعراء الأقدمين. تقليد أعمى.

سَطيح: أتذكر الخلاف الآخر الذي نشب بيننا على البيت الذي يصف فيه الشاعر نهدَي هذه الحبيبة؟ سكتّ أنت. أمّا أنا فاستعذت بالله. قال:

«فهما في صدرهـا كـالموجتَين
أيُّ صبٍّ مـا تمنّى الغرقـا»

فلو قال رمّانتين أو إجّاصتين أو تفّاحتين لكان أشهى. أمّا الـ«موجتَين» فلا والله ما أُحبّ الغرق فيهما لأنّهما تكونان للعجائز!

شِقّ: (وقد استهواه الحديث): النهود في النساء شيء عظيم، يا سَطيح. أنا موافق. أتريد أن تعرف ما قالت إحدى شاعرات العصر في نهدها؟ وهي لم تقل نهدان. اكتفت بواحد.

سَطيح: (يطلع رأسه): وماذا قالت؟

شِقّ: لا موج ولا رمّان ولا بطيخ!

سَطيح: هاتِ. هاتِ.

شِقّ: قالت: «نهدي هذا الذي ينبح...»

سَطيح يقفز من جرابه متحفزًا، فيردّه شِقّ...

* ساحة البرج هي الساحة التي عُرفت بعد ذلك بساحة الشهداء، وبرج حمّود ضاحية كانت في ذلك الوقت حقلاً لزراعة الخضر، وفيها بيت بشارة الخوري.

أبرز ما أذكر عن الأخطل الصغير الأزمات التي كانت تنتابه إذا أراد النظم. يروح ويجيء في المكتب بمشيته الحجليّة وعيناه تبرقان، وشفتاه تتمتمان. حتّى إذا جاءه البيت الأوّل أو بعض منه جلس إلى مكتبه يدخّن السيكارة إثر السيكارة، ويضرب بقلمه على السطر تلو السطر، يمزّق الورقة بعد أن يكون قد قتلها تشطيبًا. كان بشارة الخوري ينظم بشرارات من روحه تتّصل بأطراف أصابعه وتكاد تحرقها.

وقد أُتيح لي، وأنا أقرأ وأنسخ، أن أرافقه في حياته وشعره — وما شعره إلّا مرآة لتلك الحياة — وأن أرى إليه، وأردّد بعده، كيف غنّى الجمال والحبّ، والحقّ والحرّيّة، ولبنان والعروبة. فديوانه ليس سجلًّا لأفراحه وأتراحه فقط، بل لآمال جيل كامل وآلامه. فترة من الزمان تمتدّ سحابة شباب بشارة الخوري وكهولته، كان الكلام فيها في لبنان وسائر البلدان العربيّة للعاطفة وحدها. يقظة القلب والروح التي تسبق سائر اليقظات بما فيها السياسيّة وتمهّد لها جميعًا، ولولاها لما كانت يقظة.

* * *

ذات يوم من صيف ١٩٢٧ دخل إلى مكتب «البرق» رجل بين الخمسين والخامسة والخمسين من العمر، نحيف القوام، أنيق الهندام، على عينيه نظّارتان سوداوان، وله أنف لا يخطئ في الدلالة عليه* — وكان قد سبق لي أن رأيت صورته في الصحف — هذا خليل مطران شاعر القطرين، ما في ذلك شكّ. ولم أكن في حاجة إلى تأكيد الأخطل يناديه باسمه: أهلًا خليل بك! وهممت وكدت... ثمّ يدعوه إلى الجلوس فيعتذر ويجيبه باللهجة المصريّة:

— بلاش، يا بشارة. هيّا بنا!

وخرجا معًا على الأثر، يلحق بهما صبيّ المكتب

* كان لخليل مطران أنف فيه بعض الاعوجاج مع فجوة ظاهرة في أحد جانبيه.

حاملاً سلّة صغيرة ، ثمّ يسبقها ركضًا . فأطلَلت من الشبّاك فرأيت الصبيّ يشير إلى عربة من عربات الخيل كانت على ما يبدو في الانتظار ، ويناول سائقها السلّة . وجاء الشاعران فصعدا إلى العربة فمضت بهما .

شِبْليّ لم يغفر للأخطل الصغير إهمال تقديمه إلى شاعر القطرين ، بالرغم من محاولة سَطيح – عبثًا – إقناعَ صاحبه بأنّه ، أي شِبْليّ ، لا يزال دون هذا الشرف الرفيع .

ولكنّ الأقدار شاءت أن تسعف شِبْليّ بأحسن من هذا بكثير. فبعد أربعة أو خمسة أيّام – وكان يوم أحد وكنت أقضيه دائمًا في الجبل – خطر لي أن أتمشّى مساء من بحرصاف إلى المحيدثة . وفي طرف المحيدثة عين ماء وغابة من الدلب كان فيها لذلك العهد مقهى صغير هو عبارة عن خيمة من الحصير. فما راعني إلّا خليل مطران جالسًا وحده على كرسيّ من كراسيّها القشّ يسند عرجتها بعصاه شمالاً وباليمنى يحتسي فنجانًا من القهوة . فدنوت منه وحيّيته وقدّمت إليه نفسي بأنّني واحد من المعجبين ، ورحت أتلو قصيدته «المساء» عن ظهر قلب . وعلى فنجان القهوة الذي طلبه لي أتبعتها بمقاطع من قصيدته الملحميّة «نيرون» . فلمّا وصلت إلى قوله :

«كُـــلُّ قـومٍ خــالقـو نيرونِهم
قيصرٌ قيـلَ لـهُ أم قيـل كسرى»

أنشدته بلهجة خطابيّة أعجبت خليل مطران فانحنى وقبّلني في جبيني .

ومنذ ذلك الأحد جعلت ألتقيه كلّ أحد في مقهى الدلب ، على مدى شهر أو يزيد ، وأستمتع بحديثه الطليّ عن الشعر وغيره ، يرصّعه من حين إلى آخر ببعض التعابير من اللغة الفرنسيّة التي كان يجيدها . وهو ، إلى ذلك ، يميل إليّ بتواضعه الجمّ ويبتسم ويهزّ رأسه لأبيات كنت أنظمها وأطلب رأيه فيها . وقد علمت منه أنّه كان ضيفًا على آل شحاده الذين كانوا يأتون من القاهرة لقضاء الصيف في المحيدثة ، وكان صديقًا لهم وراعيًا لابنهم جورج* في خطواته الشعريّة الأولى .

تبقى حكاية السلّة التي حملها صبيّ «البرق» إلى العربة . وقد أخبرني بشارة الخوري فيما بعد أنّها كانت ملأى بنخبة من رؤوس البنادورى جاء بها من بستانه في برج حمّود ، مازة لكأس العرق الذي تناولاه ذلك اليوم على البحر . وأنّه ، أي خليل مطران ، لا يلذّ له على الكأس غيرها منذ أن ذاقها في زيارته الأولى لبيت صديقه قبل خمس سنين .

ومن الشعراء الذين تعرّفت إليهم في «البرق» إبراهيم طوقان . فيها نشر قصيدته «الفدائيّ» وما تزال أبياتها ترنّ في أذنيّ حتّى اليوم :

«هـوَ بــــالبـــــابِ واقـفُ
والردى منــــــهُ خــــائـفُ
فــــاهــــدأي يـــا عـواصفُ
خجـــلًا من جراءتِـــــه»

وأذكر أنّ الأخطل الصغير لم يهمل هذه المرّة تعريفي بصاحبها . وكان طوقان في ذلك الوقت أستاذًا للأدب العربيّ في الجامعة الأميركيّة ، وله في هذا الموضوع بالذات ، أي التدريس ، قصيدة ظريفة يرثي فيها لحاله مع طلّابه البلداء ، وقد أسمعني إيّاها في مقهى شقير على ساحة الشهداء ، مع حركات يقلّد فيها أولئك الطلّاب مُرسلًا إليهم بين البيت والبيت أقذع تحيّاته ...

والياس أبو شبكة .

كان يقبل بعصاه السوداء ، وقامته المديدة ، وعينيه الحالمتين الغائمتين ، وعلى شفتيه آخر قصيدة له ، يغمغم بها ويوقّع قوافيها على دقّ عصاه وهو ماشٍ . ثمّ يجلس إلى الأخطل الصغير ، وأنضمّ إليهما ، ويمضي في الإلقاء مغرّدًا تغريدًا . وكان ذلك في مرحلة ما انطوت

* هو جورج شحاده الشاعر باللغة الفرنسيّة وصاحب المسرحيّات الشهيرة فيها .

عليه بمجموعة «أفاعي الفردوس». فأُصغي إليه يقذف بغضباته ولعناته، وتعود إليّ عفوًا بواكيرها في «القيثارة»:

«عندما اصطادت فؤادي غادتي ما رحمتْهُ
بل رمتْهُ فوق كانون هواها وشوتْهُ
وانثنت تلحسُ صِنّارتَها مُذ أكلتْهُ»

فيهولني الفرق بين هذه الأبيات الفجّة وما أسمع من شعر ناضج يقطر سمًّا أشهى من العسل. حتّى لقد بلغ بي ذات يوم أن فاتحته بالأمر وطلبت منه أن يعود إلى «القيثارة» بالتنقيح اللازم. فنظر إليّ من عليائه وقال:

– فيكتور هيغو طلبوا منه، بعد أن أصبح شاعرًا كبيرًا، أن يعود إلى ديوانه Odes et Balades، الذي نظمه في الثامنة عشرة من العمر، بمثل التنقيح الذي تطلبه منّي بشأن «القيثارة»، فأجابهم: قد فعلت. فقيل له: وكيف؟ قال: دواويني التي تعاقبت بعده. لقد تكفّلت بذلك بما فيه الكفاية.

وحليم دمّوس!

كان حليم دمّوس يقتحم مجالس الشعر بجثّته الضخمة وصوته الجهوريّ ويقصد «البرق» بعشرات القصائد. وكثيرًا ما كان يترجّى الأخطل الصغير مستأذنًا في إنشاده شيئًا منها، فيعتذر الأخطل بعصبيّة ظاهرة:

– أنا مشغول الآن. أُتركها هنا على الطاولة.

حليم دمّوس في الشعر أخو رأس مصطفى لطفي المنفلوطيّ في النثر. كلاهما كان أقدر الناس على ملء الفراغ بمثله، كما كان يقول عبد العزيز البشري في بعض زملائه. ولكن إذا كان من حسن حظّ المنفلوطيّ وسوء حظّ القارئين أن رزقته الظروف العمياء مَن نشر له، فإنّ من سوء حظّ دمّوس وحسن حظّ القارئين أنّه لم يجد له – إلّا في النادر – من ينشر له. فانتقم أخيرًا بأن أصدر مجلّة باسم «الأقلام» وقفها على شعره وشعر أمثاله. ولكنّها لم تلبث أن ماتت والحمد لله.

وفي مكتب «البرق» تعرّفت أيضًا إلى صلاح لبابيدي، وكان ينشر قصائده بتوقيع «أبو ليلى».

ويمرّ الزمان فلا أعود أرى صلاح إلّا نادرًا جدًّا. حتّى كان ذات يوم من ١٩٨٠ فالتقيته على ندوة عقدناها في الإذاعة اللبنانيّة. وردًّا على سؤال «إلى ماذا كنت تطمح في طفولتك؟» قال:

–كنت كلّ يوم، في الصباح وفي المساء، أحمل المساند على ظهري وأدور في البيت. في طفولتي كنت أحلم بأن أصير عتّالًا!

كلّنا، يا أخي صلاح، ذلك العتّال. نعتّل مأجورين، ونعتّل مسخّرين. نعتّل لأنفسنا وللآخرين. وغالبًا ما نقع تحت أحمالنا ونبصق الدم. المهمّ أن نعرف كيف ننهض ونتابع الطريق حتّى النهاية.

النهاية؟

بعد ذلك اللقاء في الإذاعة رأيت صلاح لبابيدي يطلّ عليّ وعلى الناس في جريدة «لوريفاي» ينطح الأرض برأسه ويرفع رجليه إلى السماء في وضع من أوضاع الدربل، رياضته المفضّلة، فصحت به: مرحبًا صلاح! ولكنّه كان مديرًا قفاه – في الصورة – ولم يلتفت. كما يدير قفاه للسنين مفتّشًا عن عروس!... ثمّ دعاني بعد ذلك إلى معرض لرسومه في خريف ١٩٨١. لقد تقمّص الشاعر رسّامًا. يركب الموجات الجديدة في الفنّ. يفرشخ فوقها. يرسم كلّ يوم. يركض كلّ يوم. ينطح الأرض. يتحدّى السماء. ينشد الشعر ويضحك للحياة.

يا صلاح، أنا وراءك على الدرب. علّمني من أفانينك، وخذ بيدي إلى ثمانينك.

٤

في يوم البركة من ١٩٢٩ ، تناولت أوّل أجر على مقال أدبيّ أكتبه. كان ذلك في مجلّة «البيان» لصاحبها بطرس البستانيّ ، وكان مكتبها بجانب مكتب «البرق» في الطبقة نفسها من البناية ، غربيّ سوق الخُضَر. كان المقال في سلق «رسول العري» لمؤلّفه الشيخ فؤاد حبيش بعظة أرادها صاحب المجلّة من كعب الدست. وكان الشيخ ، ظريف الظرفاء ، يزاول العري فعلاً مع بعض أخصّائه على شاطئ المعاملتَين ، ورأى أن يدعو إليه في كتابه المشار إليه ، ومنه إلى الاستهانة بالبكارة ، «تلك الغشاوة التي خيوطها أوهى من خيوط العنكبوت» (كذا).

ويشهد الله أنّ وراء ذلك المقال بطرس البستانيّ. ولولا الليرة ، الليرة اللبنانيّة السوريّة – وكانت وقتذاك تحمل شرف البلدين الشقيقين – التي كان شِقِيّ وسَطيح في أشدّ الحاجة إليها لما كتب شِقِيّ مقاله. سَطيح كان يحاول إقناع شِقِيّ بالعودة إلى تجارة الترابة والحديد والخشب ، أو البحث عن أيّ عمل آخر يطعم خبزًا. لذلك عندما تناول شِقِيّ الليرة من يد بطرس البستانيّ – وكان القرش لا يطلع منها إلّا بالكلّابة – نتشه سَطيح مستهزئًا ، وانقلب الهزء إلى شماتة لمّا جاء أوّل الشهر وحان دفع إيجار الغرفة.

على أنّ شِقِيّ لم يعتّم أن أخذ بثأره. فقد دعتني في الشهر التالي جمعيّة مار مارون إلى إلقاء محاضرة ، فقبلت شرط أن أعيّن الموضوع : «الزجل أو الشعر العاميّ» – وهي المحاضرة التي سبق ذكرها عند الكلام على «اللغة اللبنانيّة» – وقبلت الجمعيّة على مضض ، استهانة على الأرجح بهذا الموضوع. وفي الموعد المضروب لبس شِقِيّ ثيابه وتأبّط أوراقه وهمّ بالخروج من غرفته ، فحانت منه على العتبة التفاتة إلى قدميه فجمد. كان صبّاطه للصيف ، أبيض ، والدنيا في عزّ الشتاء ، وليس له سواه. فعاد من الباب ونادى :

– سَطيح ، نخّ اصبغ لي صبّاطي !

فصدع سَطيح بأمر سيّده ، وما زال حتّى صبغ له صبّاطه بما يوهم بالأسود. وهكذا استطاع شِقِيّ أن يدخل بين الناس مرفوع الرأس ، وأن يجلس بعد محاضرته جلوس السلاطين ، وبين يديه أمير الزجل أسعد الخوري الفغالي المعروف بـ «شحرور الوادي» يرتجل في مدحه قصيدة من أروع أزجاله ، ثمّ يتبعه الحكيم أمين الجميّل ، والد الشيخ بيار ، بخطبة في الفصحى ، ثمّ يتقدّم فؤاد أفرام البستانيّ إلى تلميذه القديم فيأخذ منه المحاضرة وينشرها في مجلّة «المشرق».

٥

ثمّ لم ألبث أن التحقت بجريدة «النداء» لمنشئها كاظم الصلح ، وفيها شرعت بخرطشة القصص ، كلّ يوم واحدة ، أتناول موضوعها من الشارع ، من المقهى ، من البيت ، ومن كلّ ما هبّ ودبّ بين الأرض والسماء ، وأوقّعها بالحرفين من اسمي ت.ع. مرّة كانت قصّتي صلاة ، ومرّة على ما يظهر كفرًا وإلحادًا ، في فتاة وظيفتها جمع الزبالة ، ومن جماعة ترى في الحبّ شيئًا من ذلك مقذوفًا بوجه السماء. فما كاد عدد الجريدة يصدر حتّى زحفت إلى دارها جموع هائجة على رأسها رجال دين أجلّاء :

– أين هو هذا التع ؟

– يا عادل ، يا تقيّ الدين ، يا عماد ، عليك الاعتماد ، هرّب فلانًا من الدرب !

وهرب ت.ع. طُرِد – أكّد كاظم لوفد المتظاهرين – ولكنّه لم يخرج من باب إلّا ليدخل من باب آخر ويواصل الكتابة بتوقيع «حمّاد».

في «النداء» تعرّفت عن كثب إلى كاظم وتقيّ الدين الصلح. كان مكتبي ومكتب تقيّ الدين في

غرفة واحدة. وكان يدخل عليّ دائمًا وهو يغنّي شعر شوقي بصوت أمّ كلثوم:

«أنـــا أنطونيو وأنطونيو أنـــا
مـا لروحَينـا عن الحبُّ غِنى»

وكان دولة الرئيس -كما يُحبّ أن يناديه الناس حتّى قبل أن يدخل نادي رؤساء الوزارات في لبنان- يخلع طربوشه الذي لم يفارقه حتّى اليوم فيضعه إلى جانبه على الطاولة، ثمّ يبسط عليها كدسة من الورق ويأخذ القلم فيديره في الهواء، ثمّ يدقّ به على الطاولة دقًّا عنيفًا موقّعًا، وكأنّه يدقّ على رأس الانتداب الفرنسيّ منبّهًا إيّاه إلى حقوق البلاد، في سلسلة من الحملات شنّها عليه بالتناوب بينه وبين كاظم. وقد أدّت هذه الحملات إلى تعطيل «النداء»، مرارًا وتكرارًا، تعطيلًا إداريًّا استبداديًّا لا استئناف فيه ولا تمييز. شهرًا حينًا، وشهرين حينًا آخر، وثلاثة أشهر بعد ثلاثة. تتوالى الضربات حتّى الإجهاز...

وأنا على الطاولة المقابلة أكتب بلا وعي. أكتب في السياسة. أكتب في الأخبار. في الأدب. في الطرائف. إلخ... عليّ أن أملأ كلّ يوم صفحتين من الجريدة. ويكون تقيّ الدين في هذه الأثناء قد خطّ سطرين أو ثلاثة أسطر. فإذا بلغت الخمسة أو الستّة هتف بي:

- اِسمع، يا توفيق!

وكثيرًا ما كان يدخل علينا أحد الأصحاب - ما كان أظرفهم! - فينسى تقيّ الدين ما كان فيه وينقلب إلى الضحك والتنكيت، ولا سيّما في تقليده المشاهير عندنا في حركاتهم ولهجاتهم. وكان أبرع أدواره في هذا المجال الدور الذي يقلّد فيه المطران السياسيّ، أغناطيوس مبارك، رئيس أبرشيّة بيروت المارونيّة، وكان يقذف الحكّام في عظاته بحمم من جهنّم وصواعق من السماء، مع كرش له وصوت راعد. ويشهد الله ما قلّد مقلّد كرشًا من كروش الوجاهة والوقار، ولا صوتًا من أصوات الإنس أو الجان، كما كان تقيّ الدين يقلّد كرشه وصوته.

كان تقيّ الدين شحيحًا في الكتابة، حريصًا على تقليب كلّ كلمة وكلّ حرف. وكان كاظم أشحّ وأحرص منه. فإذا كان الأسبوع أو الأسبوعان وطلع لأحدهما مقال في الجريدة فنعمة كريم، وذهب خالص.

* * *

على أنّ الذهب كلّ الذهب كان فيما بعد. في الميثاق الوطنيّ. فالفكرة أصلًا لكاظم منذ هتف في مؤتمر الساحل عام ١٩٣٦: «أمّنوا المسيحيّين يسبقوكم إلى العروبة». ونصّ البيان الوزاريّ لتقيّ الدين. والتنفيذ لرياض. ولم يكن أحد غير رياض الصلح قادرًا على ذلك، لا لأنّه كان في موقع التنفيذ رئيسًا للحكومة فقط، بل لزعامته في لبنان وفي دنيا العرب، ولجهاد طويل انتهى به إلى القول: «الاستقلال في قريـــة خير من الاستعمار في إمبراطوريّة». وهكذا وضع يده في يد الشيخ بشارة الخوري وكان الاستقلال.

كان رياض يعرّج على «النداء» من وقت إلى آخر، يتمشّى بين غرفة كاظم والغرفة التي كنت فيها مع تقيّ الدين ويُملي عليّ بعض ما عزم أن يطلقه في الناس من شراراته. ونجتمع كلّنا: عادل بظرفه الدائم، كاظم بسكوته الدائم، وتقيّ الدين بتنكيته الدائم، ومن فوقنا رياض. نبقى على الفقرة ساعة حتّى يُؤذن لها بالنزول إلى المطبعة.

كاظم الصلح مات في أواخر حرب السنتين.

قالوا لي لم يمرض. لم ينزل به داء عرفه الطبّ. كلّا ولم يُصَب برصاصة طائشة ولا أودت به شظيّة قنبلة.

لقد اجتمعت عليه كلّها. كلّ الرصاصات في هذه الحرب، وكلّ القنابل، وكلّ الكلمات الفاجرة،

كلّها كانت تنفجر في قلبه.

بدأ بأن انقطع عن القراءة. ثمّ انقطع عن الكلام. ثمّ عن النوم والطعام.

مات كاظم الصلح باسمه. من شدّة ما كظم من غيظ. مات قهرًا عندما رأى العاصفة المجنونة تقصف الشجرة التي ألقى بذارها في هذه الأرض من حبّات قلبه. تمامًا كما مات أكثر من صاحب مصنع أو متجر في هذه الحرب عندما التفت فرأى جنى حياته رمادًا.

رياض الصلح نسفوا تمثاله في الحرب. عثرت لجنة التحقيق في التمثال على ٧٥٠ رصاصة. ومعنى ذلك أنّ رياض الصلح، من رأسه إلى أخمص قدميه، تحوّل إلى غربال تبارى المتحاربون في إحداث ثقوبه من الميلين. إنّ الـ ٧٥٠ رصاصة كانت موجّهة وراء رياض الصلح إلى هذا الوطن بالذات. إلى قلب الوحدة اللبنانيّة التي كرّسها رياض الصلح بميثاقه مع بشارة الخوري. إلى كلّ مسلم ومسيحيّ تحت هذه السماء.

يُقال، وأنا أكتب هذه الكلمات، إنّ الهمّة مبذولة لإعادة نصب التمثال في مكانه. إن شاء الله! على أثر نصبه أصلًا مرّ بالساحة في ذلك الزمان ساذج ظريف من المعجبين بصاحبه فهتف:

– حسرتي عليك يا رياض بك!. كنت رئيس وزارة، صرت بوليس إشارة!

أهلًا برياض الصلح يعود بوليس إشارة إلى اللبنانيّين على هذا المفرق المصيريّ من تاريخهم. أهلًا بابتسامته موزّعة الحبّ وجامعة الشمل. وألف مرحبًا بشرّابة طربوشه تلوّح في سماء لبنان، وتبعث الأمل من الأكفان.

زهرة الحقول

١

من «النداء»، بعد احتجابها، انتقلت إلى «البيرق» لصاحبها أسعد عقل شقيق الشهيد سعيد. كان أسعد عقل لبنانيًّا صافيًا، دمث الخلق، طيّب المعشر. وقد اشتغلت عنده في «التحرير والتحبير» –كما كان يقول– بضعة أشهر. وفي جريدته نشرت سلسلة مقالات عن الضيعة وصفت فيها العادات والتقاليد اللبنانيّة، ودعوت إلى إحياء تراثنا الشعبيّ، وقدّمت عن الضيعة، بحرصاف، نماذج من رجالها ونسائها وأطفالها، ورافقتهم في أعمالهم وبيوتهم وألعابهم. ليتني احتفظت بتلك المقالات. ولكنّي لم أكن أحتفظ بشيء، وما زال هذا شأني حتّى اليوم. «قُل كلمتك وامشِ» كان شعار أمين الريحانيّ وكان شعاري «أكتب كلمتك وارمِ».

وكان أسعد عقل، بالإضافة إلى «البيرق»، مراسلًا لـ«الأهرام»، كبرى الجرائد العربيّة لذلك العهد، تشمل صلاحيّاته لبنان وسوريّا على السواء. وكان الصراع بين فرنسا وسوريّا على أشدّه، والكتلة الوطنيّة بزعامة إبراهيم هنانو تقارع المفوّضيّة العليا، والمظاهرات الدامية لا تهدأ في دمشق حتّى تهبّ في حلب، ولا تسكت أصواتها في حمص حتّى ترتفع في حماه، فالأخبار المهمّة من سوريّا، ومراسل «الأهرام» بعيد عنها. واشتدّت الأزمة سنة ١٩٣١ وتلاحقت الأحداث، فرأى أسعد عقل أن يوفدني لمدّة شهر أو شهرين إلى الشام، ومنها أوافيه بالأخبار فيوافي بها «الأهرام» وينشر منها في «البيرق» ما يشاء.

ولكنّ الشام لم تلبث أن جذبتني لسببين: الأوّل ارتباطي، إلى جانب «البيرق»، بعمل دعاني إليه نجيب الريّس صاحب «القبس» إذ عهد إليَّ بسكرتيرية التحرير في جريدته. والثاني انتهازي فرصة إقامتي فيها لدرس الحقوق استكمالًا لثقافتي الصحفيّة وإرضاء لرغبة الوالد.

كان لنجيب الريّس قلم ينفث نارًا، والناس ينتظرون «القبس» كلّ صباح ليوقدوا بافتتاحيّاته حماستهم الوطنيّة وأحقادهم على الانتداب الفرنسيّ. وكان صاحب «القبس» يختم مقاله الرئيسيّ دائمًا ببيت من المتنبّي، كالرصاصة تختم الخرطوشة، يختاره على قدّ بوز المقال المحشوّ بالبارود. وكان يحرص قبل دفع المقال إلى المطبعة أن يتلوه عليّ بصوته العريض الأجشّ، وعيناه تقدحان الشرر. «القبس»، بناره المحرقة، كان في صدره.

اِنصرفت في الوقت نفسه إلى الدرس في معهد الحقوق (الجامعة السوريّة). وكان المشكل في التوفيق بين عملي ودروسي. فالمعهد يفرض على طلّابه أن

يحضروا على مدار السنة عددًا أدنى منها ، وإلّا حُرموا حقّهم في تقديم الامتحانات. وكانت علامة الحضور هي «م». ولعلّ واضع النظام أخذ الميم من موجود بدل الحاء من حاضر ، وهو الأصحّ ، خشية الانزلاق بالحاء إلى ما يتبعها عادة على الألسنة ، وليس من العدل ولا اللياقة سَوق الطلّاب بها ، على كثرة الحمير في المعهد.

يشهد الله أنّني طبّقت أساتذتي واحدًا بعد آخر على مدى ثلاث سنين ، فزوّدوني ، وجّه الله لهم الخير ، بميمات عديدة كان لا بدّ لي منها في كلّ موسم لسدّ النقص. ما عدا فارس الخوري أستاذنا في أصول المحاكمات المدنيّة ، فقد ظللت ، بالرغم من عطفه عليّ ، أتهيّب الوقار من طلعته ولا أجرؤ على مفاتحته بالأمر.

كان قصير القامة ، عريض المنكبين ، نصفه الأعلى من الأسد ، والأسفل من الأرنب على تمهّله في المشي. وكان يطيب لنا أن نردّد ، إذ يطلّ برأسه الكبير ، حكاية له مشهورة :

طاف ذات يوم بباعة الطرابيش في طلب طربوش ، فلم يجد طربوشًا بقياس رأسه. حتّى اهتدى أخيرًا إلى ضالّته عند أحدهم. وحصلت مساومة على الثمن ، فقال البائع :

– نصيحتي لك أن تأخذه بالثمن الذي أطلب ، فلن تجد في السوق طربوشًا بهذا الحجم.

فقال فارس الخوري :

– بل نصيحتي لك أن تعطيه بالثمن الذي أعرض ، فلن تجد في البلاد رأسًا بهذا الحجم.

فارس الخوري كان رأسًا كبيرًا في كلّ شيء. والله يعلم ما كان يحمل ذلك الرأس من علوم الدنيا ومعارفها ، وما يتّصف به من حكمة في التدبير وصلابة في الحقّ. وحسبه بين رؤوس الكتلة الوطنيّة ، وقد كانوا رأس الأمّة ، أنّه كان المرجع في كلّ مشكل ، والحكَم في كلّ خلاف.

في ميدان القانون أستاذًا ، وفي ميدان التأليف كاتبًا ، وفي ميدان السياسة مجاهدًا ، وفي ميدان الحُكم رئيسًا لمجلس النوّاب فرئيسًا لمجلس الوزراء ، وفي الميدان الدوليّ رئيسًا لمجلس الأمن ، فارس الخوري كان بحقّ رأسًا كبيرًا.

٢

كان فارس الخوري يسكن باب توما ، الحيّ الذي كنت أسكنه. وكثيرًا ما كان يتّفق لنا أن نلتقي في الترامواي من باب توما إلى ساحة المرجة ، فأسأله عن الأخبار زادًا لعملي في الصحافة ، وعن الدروس أحيانًا ، فيزوّدني ويرشدني.

ذات صباح ونحن في الترامواي ، ما كدنا نصعد ونأخذ مكاننا في الدرجة الأولى –كان للصحافيّين بطاقة دائمة للدرجة الأولى مجّانًا من قِبَل الشركة– حتّى صعدت وراءنا صبيّة في السادسة عشرة ، في شعر لها هو الذهب المشغول وعينين تبرقان ، فحيّت بالفرنسيّة : «بونجور» ، وجلست قبالتنا وخفضت أجفانها فلم يعد يظهر إلّا الأنف – منقار عصفور– وخدّان يملأهما النمش حبّات متناثرة ، لها على ذينك الخدّين ألق النجوم. ما أدري أيّ صاعقة نزلت عليّ فزعزعت كياني ، فما أفهم من حديث أستاذي شيئًا ولا أُعير سمعي إلّا لخفقان قلبي يضرب أضلاعي ، يريد شقّها والارتماء على قدمَي الصبيّة ، أحملها وأذهب بها إلى أيّ أين.

على أنّها لم تلبث ، بعد أربع محطّات أو خمس ، أن ترجّلت من الترامواي ملقية في الذهاب مثل تحيّتها في المجيء. فمال إليّ فارس الخوري برأسه وقال بلغته الفصحى :

– من تكون الآنسة؟

قلت : لا أعرفها. لا أعرفها.

ردّدت ذلك لارتباكي فقال : ولكنّها سلّمت عليك.

– بل عليك يا أستاذي.
– وأنا كذلك لا أعرفها.
– لا يمكنك ، يا فارس بك ، أن تعرف كلّ الناس. ولكنّ الناس كلّهم يعرفون فارس بك الخوري.

مَن الصبيّة؟ أين بيتها؟ من أين أتت ، وإلى أين هي ذاهبة؟

ليتني تركت أستاذي بعذر من الأعذار ولحقت بها! وهممت بذلك والتراموای ماشٍ. ولكن لا. لا. لا يبدو عليها شيء من اللواتي يصحّ اللحاق بهنّ على الطرق.

طارت روحي تبحث عنها. أناديها بألف اسم ولا اسم. أطوف بأزقّة باب توما صباح مساء. أعود إلى محطّة التراموای التي صعدت منها من قبل ، فإلى المحطّة التي نزلت فيها منه. والتراموای يمرّ بعد التراموای ساحبًا أزيزه على الحديد وكأنّه يحزّ في عظامي.

خمسة عشر يومًا دامت لوعتي بلياليها الطوال... حتّى كان ذلك اليوم الذي دعاني فيه أحد الأصدقاء ، زميل لي في معهد الحقوق ، إلى زيارة عائلة يعرفها. «عائلة كريمة ، قال ، أعرّفك إليها».

أفهمته زهدي بالزيارات العائليّة ، مفضّلًا قضاء سهرتي في بار من البارات. ولكنّه ألحّ. فسايرته.

كانت الصبيّة هناك.

ومنذ ذلك اليوم جعلت أذهب كلّ يوم. كيف أحبّتني؟ كيف حملت إليّ مجموعة القصائد – بالفرنسيّة – التي كان يبعث بها إليها صبيّ في مثل عمرها أو يزيدها بقليل؟ ماذا كان في تلك القصائد المربوطة بشريطها الحريريّ الأزرق؟... قالت:

– اِفتحها واقرأ.

كان ذلك في العشيّة ، على سطح بيتها المطلّ على مقهى جنينة العائلات ، والقمر بدر. قلت:

– بل تحطّينها هناك. تعالي.

وأخذتها من ذراعها إلى زاوية السطح وهي لا تفهم. تحطّ القصائد في الزاوية وهي لا تفهم. كنت قد أخرجت من جيبي علبة السيكارات ووضعت في في سيكارة ، وعيناي وعيناها إلى القصائد. بعود الكبريت الواحد أشعلت فيها النار وأشعلت سيكارتي.

قصّتي التي هي بعنوان «الرسائل المحروقة» في كتاب «الصبيّ الأعرج» من هنا.

* * *

تكرّرت زياراتي للعائلة ، وكان لا بدّ أن أخطب يد صبيّتي.

سَطيح: قُل ماذا أنت فاعل يا شِقّ؟ أين تسكن مع عروسك؟ أفي هذه الغرفة الحقيرة التي نحن فيها؟ وماذا تطعمها؟ أتذهب بها إلى حيث ذهبت بي أمس ، عند أبو دياب ، تحت الدرج ، في ذلك الزقاق المعتم خلف ساحة المرجة ، تغدّيني بخمسة قروش صحن فاصوليا بفرمة لحم مع رغيف يابس؟ وماذا تقول لأبيها إذا سألك ، وأنت تخطب يد ابنته ، ما عندك؟

شِقّ: ما عليك. هذا شغلي. اِبقَ خلف ظهري وأنا أتكلّم.

كان عمّي بشارة خديج ، والد أُورطنس التي كان مكتوبًا لها ولي الحياة المشتركة ، تاجر جوخ في سوق الحميديّة منذ أن انتقل من بيروت حيث وُلد إلى دمشق قبل عشرين سنة. في الخامسة والخمسين وقتذاك. بشوش الوجه ، طيّب الحديث ، إلى فراسة عنده حادّة ، فهو يعرف الناس من لفتة لهم أو نأمة ، وقليلًا ما يخطئ.

الوقت صباحًا. أُورطنس في مدرستها. أمّها ماري في بهو المنزل. امرأة حلوة ، ساكتة ، قدّيسة. وحدها. تهبّ لاستقبالي بحرارة. واضح أنّها حليفة شِقّ.

– أين عمّي بشارة؟
– ينتظرك في الصالون.

يرفع شِقّ رأسه ويدخل. سَطيح خلف ظهره ،

كما أوصاه ، وقد وضع رأسه في جرابه . يأتي دور السؤال والجواب . ينهض شِقّ عن كرسيّه ويتوسّط الصالون . يمدّ يديه إلى الجبيين ، من هنا ومن هنا ، ويقلبهما :

شِقّ : هو كما ترى ، يا عمّي ، ليس معي قرش .

(يرفع يديه معًا واحدة إلى رأسه والأخرى إلى صدره متابعًا) رأسمالي هنا وهنا .

تطفر إلى وجه العمّ ابتسامة . يردّها لوقار الموقف . يجيب بهدوء :

– أُكتب لأبيك في لبنان لتعيين موعد الخطبة . هذا الشهر إذا أمكن .

على الخطبة – بفضل دفعة من نجيب الريّس على الحساب – خاتمان ذهبيّان ، الواحد بثلاث ليرات ! ولكلّ من إخوة الخطيبة وأخواتها هديّة لائقة . سَطيح أبى إلّا أن يأخذ ما تبقّى من نفقات الخطبة فاشترى بها قالب كاتو .

شِقّ : أخجلتنا بهذا الكاتو الذي لم يكن له لزوم . ألا ترى الكاتو العظيم الذي أعدّته العائلة ؟

في المساء ، بعد انصراف القوم ، كان من حقّ شِقّ أن يجتمع بخطيبته على حدة . قال لها :

– نطلع على السطح . إلى الزاوية التي أحرقنا فيها قصائده . عملت لك واحدة بألف .

الكوخ والقصر

أنتِ ما أنتِ على دربي سوى
واحةٍ طابت على لَفحِ الهجيرْ
نجميَ الهادي وقد طالَ السُّرى
واكفهرَّ الليلُ فالساري ضرير
مُنيــةٌ تمثـلُ لحمًـا ودمًـا
وتجرُّ الـذيلَ من وَشْيِ الحرير
رقصت في القلبِ آمـالي لها
كجَوارٍ حمنَ من حولِ أمير

* * *

من سماء الشرقِ في صحوتها
أم أديم البحرِ والبحرُ قرير
صاغَ عينَيكِ الـذي صاغها
زرقـةً ظلّلَها الهُـدبُ الكسير
مـا تقولانِ وقـد حـدّقتـا
في العشيّاتِ إلى البـدرِ المُنير
جزعٌ هزَّهما أم أمَـلٌ
أم هي الحيرةُ في أمرٍ خطير

* * *

إنّني أدعوكِ في الليـلِ إلى
جنّـةٍ طـافت بـأنحاء السرير
فتعـالَي إنَّ كوخي هـانئٌ
رُبَّ قصرٍ حسدَ الكـوخَ الحقير
طيّبـاتُ الله فيـه فخُـذي
يُصبحِ النزرُ الـذي فيـهِ كثير
وضعي كفَّكِ في كفٍّ وَهَت
ولنسرْ حيثُ بنـا الحبُّ يسير
بسمـةٌ منكِ ومنّي عزمـةٌ
نقطعُ العمر إلى اليومِ الأخير

دمشق – ١٩٣٣

٣

بعد الخطبة بشهر سافرت إلى لبنان في زيارة لأهلي. وكان وديع عقل صاحب «الراصد» قد تُوفّي، فعرض عليّ أخوه يوسف أن أتولّى رئاسة التحرير في الجريدة. رضيت. وكتبت إلى خطيبتي مبيّنًا لها ضرورة انتقالنا بعد الزواج إلى بيروت للإقامة فيها، واعدًا إيّاها بانتظار ذلك بأن أذهب إلى دمشق كلّ أسبوع فأقضي عندها يوم الأحد.

وهكذا كان.

ولكنّ عملي في «الراصد» لم يستغرق إلّا بضعة أسابيع. كان جبران تويني قد عقد العزم على إنشاء «النهار»، فدعاني لتولّي سكرتيرية التحرير فيها. فلم أتردّد لمكانة الرجل في الصحافة اللبنانيّة، وكانت هي الأولى دون منازع. وبقيت أمينًا خلال الخطبة على وعدي. أركب القطار الحديديّ من بيروت يوم السبت مساء – طق! طق! طق! – كالسلحفاة يدبّ دبيبه البطيء، يلهث طوال الليل، ولا يعرف أن يوصلني إلى الحبيبة إلّا وقد صارت شمس الأحد في قبّة الخلد.

ثمّ ضاق ذرعي بالقطار فجعلت أسافر إلى الشام بالسيّارة.

أقول الشام بلغة الأغاني اللبنانيّة المحمّلة بين البلدين عنبًا وتفّاحًا، وحبًّا وحنينًا.

وبلغة المنادين الذين كانوا ينادون تحت ساحة الشهداء قرب أوتيل ريفولي:

«عالشام! عالشام! راكب واحد عالشام!»

فأكون أنا ذلك الراكب.

دمشق فصيحة، رسميّة.

أمّا الشام فأليفة، سهلة على اللسان، قريبة من القلب، مرحة، مضيافة.

هكذا أعرفها. وصورتها الحلوة ما تزال ماثلة أمام عينيّ، تختلط ملامحها بصورة الحبيبة.

المعاملات على الحدود؟ كاس عرق في شتورا، أو عروس لبنة للمستعجل مثلي أكدشها في الطريق.

كلّ ذلك راح... تُرى هل يعود؟

أشياء كثيرة لن تعود. منها الشباب.

ولكنّ الحبّ باقٍ، والذكريات تملأ الطريق بين بيروت والشام، ترفرف بأجنحتها على ساحة المرجة وفي باب توما. تحوّم فوق السطوح، تتمسّح بالجدران، وتتهافت على الشبابيك بمناقيرها.

إنّ الذكريات هي الطيور الوحيدة التي يعجز الصيّادون عن رميها بالرصاص، أو حبسها في الأقفاص.

بنفسي زيارة أقوم بها للشام، متى فُتحت الحدود وعادت العهود...

٤

كانت صحافة تلك الأيّام تمشي في الغالب على أقدام الأدب والشعر. الكاتب، أو الشاعر، يصدر جريدة أو مجلّة للتعبير عن نفسه. بشارة الخوري الأخطل الصغير: «البرق». وديع عقل الشاعر هو الآخر: «الراصد». بطرس البستانيّ اللغويّ ومعلّم الأدب: «البيان» إلخ. ومع الانتداب الفرنسيّ والأحداث التي أثارها، والصراعات المتوالية بينه وبين اللبنانيّين المطالبين بإزاحة كابوسه، أخذت الصحف تخوض في السياسة، وإلّا لبقيت كما كانت في العهد العثمانيّ تنشر القصائد وتكتفي من السياسة بمدح السلطان وتعميم البلاغات الرسميّة.

ولعلّ جبران تويني في «الأحرار»، ثمّ في «النهار»، هو أوّل من فصل الأدب – على ولوعه به – عن الصحافة، فوجّهها توجيه الرائد لا في طريق الخبر من حيث هو مادّتها الرئيسيّة وغايتها الأولى فحسب، بل في طريق صيرورتها إلى ما صارت إليه، أي الصناعة الإعلاميّة التي أخذت حجمها على يد نجله

غسّان. وكان قد سبق لجبران تويني أن عمل في مصر مدّة من الزمن، فأخذ عن صحافتها وتأثّر. وكانت الصحافة المصريّة لذلك العهد هي السبّاقة في البلدان العربيّة، والصحف اللبنانيّة نفسها كانت تنتظر «الأهرام» و«المقطّم» كلّ يوم وتنقل عنهما أشياء كثيرة خصوصًا ما تعلّق منها بالأخبار العالميّة. فكان لا بدّ لكل صحافيّ أن يكون على مكتبه، إلى جانب القلم والدواة، مقصّ ودبّوس. يُعمل المقصّ في ما شاقه وراقه من الجريدتين المذكورتين، ثمّ يشكّه على ورقة بالدبّوس ويدفعه إلى المطبعة دون أيّ إشارة إلى مصدره، مكتفيًا بتغيير العنوان، وربّما نقله بنصّه وفصّه.

بلى، كان لنا في مجال الأخبار مصدران آخرانَ: الأوّل نشرة «هافاس»، وهو الاسم الذي كانت تحمله وكالة الصحافة الفرنسيّة، وكانت تحت إشراف المفوّضيّة العليا – دائرة المطبوعات – والدائرة توزّعها على الصحف كلّ يوم صفحة واحدة مطبوعة على الستنسل فيها موجز لا يغني من جوع عن كلّ ما يجري في الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، مطبوخًا في قِدر الانتداب ومتبّلًا بتوابله. والمصدر الثاني هو الراديو، من محطّات باريس ولندن وبرلين إلخ. الله من الراديو في الثلاثينات! من لم يستمع إليه لا يعرف شيئًا عن الأزيز والصفير، والهدير والزئير، الذي كان يحفل به. ومن يعرف يعذر المجمع اللغويّ المصريّ عندما اتّخذ له في ذلك الزمان اسم الطرطران. يلتقط منه المستمع جملة أو كلمة – أحيانًا كثيرة بالظنّ والتوهّم – مقابل عشر تضيع بين الضجيج والعجيج. والشاطر من يستطيع الربط بين الجمل والكلمات. فإذا عجز لجأ إلى التأليف والتصنيف. وقد برع في المهمّة بشقّيها كامل مروّة رحمه الله، وذهبت لأخباره الخارجيّة في «النهار»، ومن بعدها في جريدته «الحياة»، شهرة كبيرة.

* * *

عملت في «النهار» منذ العدد الأوّل من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١، وقد حمل العدد المذكور في صدره، تلميحًا لانفصال جبران تويني عن شريكيه في «الأحرار» سعيد صبّاغة وخليل كسيب، قصيدة طانيوس عبده التي مطلعها:

«الحمـــدُ لله لا شريكَ لـــه
والحمـــدُ لله ليس لي شُرَكـــا»

على أنّ هذا التعريض البسيط ليس شيئًا أمام المساجلات – المسبّات التي كان الصحافيّون يتبادلونها على صفحات جرائدهم. يفرّجون بذلك عن أنفسهم ويسلّون القرّاء. أذكر منها ما جرى بين «الأحرار» و«النهار» في أوّل عهدهما، ثمّ بين «النهار» و«بيروت» لصاحبيها محيي الدين النصوليّ وعبدالله المشنوق. وأنا وعبد الله تراشقنا من وراء المتاريس – هو بتوقيع مستعار نسيته، وأنا بتوقيعي المستعار «حمّاد» – بأقذع الكلام، وتقاذفنا، دائمًا من وراء المتاريس، بحذاء أبي القاسم الطنبوري طوال أشهر...

عداوة كار لم تكن تمنعنا من الاجتماع في أمسيّات قهوة النجّار على ساحة الشهداء، أو أحد مرابع الزيتونة الليليّة على أحلى ما يكون التندّر والتنكيت.

ولم يكن الهجاء مقصورًا على الجرائد العربيّة. بين «أوريان» جورج نقّاش و«لوجور» ميشال شيحا جرى ما لا يقلّ أذى. ولكنّ العداوة هنا كانت أكبر. كان وراءها التطاحن السياسيّ بين الشيخ بشارة الخوري (اللوجور) والأستاذ إميل إدّه (الأوريان). وربّما طلع الهجاء بالعربيّة من هنا فجاءه الردّ بالفرنسيّة من هناك. والعكس بالعكس. بل ربّما تصدّى لهذا الصحافيّ أو ذاك زميل له بعيد. نجيب الريّس صاحب «القبس» الدمشقيّة، مثلًا، كان يضرب جورج نقّاش إيّاه، أو جورج فيسيه صاحب «لاسيري» البيروتيّة، من فوق الحدود، بالمقلاع.

كنت موكّلًا في «النهار» بعصبة من إخوان الطليعة، منهم: عفيف الطيبي أبو الابتسامة، لفترة

قصيرة. فؤاد حبيش أبو التسابيح، لفترة أطول. ثمّ على مدى سنين: لويس الحاجّ أبو العناوين الخبيثة، كامل مروّة أبو المروءات والشرارات، حنّا غصن أبو المشاكل والمسالك الوعرة. وكنت، بوصفي سكرتير التحرير، وراء كلّ مقال وخبر، وكلّ عنوان وصورة، وخصوصًا وراء الكلمة الجميلة، همّي الأكبر، فأكتب الكثير من الأخبار كتابة جديدة، وأُعنى بالجرائم فأقدّمها في قصص مثيرة. إلى «نهاريّات» لي أكتب فيها كلّ يوم خواطر أدبيّة، اجتماعيّة، سياسيّة، بتوقيع «حمّاد». وهي النقدات التي ضمّنت نخبة منها كتابي «غبار الأيّام»، مضيفًا إليها بعض ما نشرته في «الجديد» بالتوقيع نفسه، وفي «الحياة» بتوقيع «عبده»، وفي «الأنوار» بتوقيعي الصريح.



إلى جانب ذلك كانت مجلّة «المعرض» وقتئذٍ لسان حال الجيل الجديد من أدباء لبنان عمومًا، ولـ«عصبة العشرة» خصوصًا. وإذا تصدّى تاريخ الأدب يومًا لتسمية أعضاء العصبة فسيقف ولا شكّ حيران يفتّش عنهم فلا يجد منهم إلّا أربعة هم: ميشال أبو شهلا أحد صاحبَي «المعرض»، خليل تقيّ الدين، فؤاد حبيش، والياس أبو شبكه. وفي ذلك يقول أبو شبكه من قصيدة له:

«أربعةٌ لكنّهم عندَ الحسابِ عَشَره»

وهو حساب الزحلاويّين. الواحد منهم في الحرب – وفي رواية في الشرب – بعشرة.

أمّا الستّة الباقون لاستكمال عدد العصبة ففي ذلك قولان: الأوّل أنّ الأربعة لم يجدوا لهم طول عمر عصبتهم خامسًا ولا سادسًا ولا إلخ يستحقّ شرف الانضمام إليهم. الثاني أنّ بعض الأدباء كانوا يضعون أنفسهم إمّا خارج الجمعيّات لطبع فيهم يأنف الانخراط، وإمّا فوق هذه الجمعيّات. ومن هؤلاء أمين نخله.

وبالرغم من ذلك كان أمين نخله كثيرًا ما يتردّد على «المعرض» فيتصدّر مجالس العصبة تصدّر الأمير. والحقّ أنّه كان أمير كلام يتصرّف به، نثرًا وشعرًا، جدًّا وهزلًا، تصرّفًا لا يجاريه فيه أحد.

ذات يوم قصدت «المعرض» حاملًا قصيدة بعنوان «زورق الأحلام». فتناولها أمين بصفته أمير المجلس، وألقى عليها نظرة. وما كاد حتّى استوى على كرسيّه وأخذ يتلوها بصوته الأبحّ الرطب، وبين البيت والبيت يضرب بيده على الطاولة مطيّبًا. فلمّا فرغ من تلاوتها التفت إلى الجماعة وقال:

– لا تظهر هذه القصيدة إلّا مع تقديم منّي. اُتركوها معي إلى غد.

كنت في ذلك العهد مولعًا بلعبة البلياردو، أزاولها مع أتراب لي في قهوة الربوبليك على ساحة الشهداء. وفي مساء اليوم نفسه ذهبت إلى القهوة لِلّعب، فإذا بأمين نخله هناك، وقد جلس على طاولة في الزاوية. فدنوت منه فإذا القصيدة بين يديه وكدسة من أوراق يكتب فيها بالقلم الرصاص ويمحو ويمزّق، على قرقعة كرى البلياردو، وضرب حجارة النرد حواليه، فضلًا عن صياح الخدم في مجيئهم وذهابهم بين الزبائن حاملين الفناجين والكؤوس.

فلمّا رأيته منحنيًا على قصيدتي هذا الانحناء، بعد سماعي منه ما سمعت في «المعرض»، امتلأ صدري زهوًا، وامتلكتني من الاعتزاز بنفسي نشوة إن لم تشوّش ذهني فقد بلبلت على كلّ حال أصابعي، فلعبت ذلك المساء أسوأ لعبة لعبتها في حياتي بالبلياردو وخسرت ثلاثًا.

كانت الساعة قد قاربت الأولى بعد منتصف الليل، وأمين يكتب ويمحو ويمزّق، ويأبى أن يقرأ عليّ شيئًا أو يدعني أنظر. قال:

– بل تقرأ المقال مع قصيدتك في «المعرض» مع سائر الناس. رُح الآن نَم ودعني.

ويعلم أصدقاء صاحب «الديوان الجديد» و«المفكّرة الريفيّة» ما كان عليه من حرص في تخيّر كلماته وتنميق عباراته ، وما كان يبذل ، في شعره ونثره على السواء ، من جهد وجلد دونهما جهد الصائغ وجلده وسهره. وبالفعل أخبرني خدم الربوبليك في مساء اليوم التالي أنّهم اضطُرّوا إلى تنبيهه إلى الانصراف مرّتين فلم ينتبه. وفي المرّة الثالثة أخذوا بإقفال الأبواب ، فلم يكن بدّ...

أمّا المقدّمة فأكتفي بإثبات بعض فقراتها ، مأخوذة من صفحة من صفحات «المعرض» لذلك العهد ، أكل الزمان منها رقم العدد وتاريخ اليوم والشهر إلّا السنة ، وصبغتها الأيّام والليالي بالصفرة. ولكنّ في ورقها البالي رائحة من الشباب الذي راح ، وخلال حروفها المغبرّة ذكريات لا يخبو لها شعاع.

إلى صاحب زورق الأحلام

«أهلاً بزورقك ينزل البحر ، من صوبنا ، على كفّ الحقّ وكفّ الجمال ، ويتهادى بين زرقة الماء وزرقة السماء في الطريق إلى المستقبل ، ويبلغ الميناء عمّا قريب.

ولسوف تهتاج الريح في السفر ، ويغضب البحر من حواليك ، بل ربّما تقاذفك إلى حيث النوتيّة الغِلاظ ، فلا تجزع. أمّا البحر فله فورة وتقرّ ، وأمّا أولئك ففي الغرق. ولا يسلم عند الميناء ويدخل في الأمان إلّا الزورق الذي باسم الحقّ مجراه وباسم الجمال...

أقرأ في الأحايين سخفًا كثيرًا ، فيُقال عنكم أن لا أدب لكم ذا علامة في الأدب ، وأنّكم تُعنون عناء كبيرًا بالصناعة. ولقد فات أولئك المطنطنين أنّ التعامي من العمى في معجم اللغة وفي عُرف الإنصاف. فأيّة راية للحقّ والجمال رُفعت في أدب العرب فوق رايتكم؟ وأيّة علامة أجلّ في العيون منها بعد أن جمعت لونَي الدنيا هذين؟

أمّا أنّكم تُعنون عناءكم بالأوضاع وبالديباجة التي لا غبار عليها ، فيا صدق التهمة ، ويا نِعم السُّبّة.

ولقد كان قولهم على شيء لو أنّكم انصرفتم إلى المبنى دون المعنى ، كما كان يفعل غيركم في جيل اللفظيّة الذي أمسى على أعقابه. فأمّا وقد حقّقتم ملكوتًا رحبًا لخوالج النفس ، وخطرات البال ، وسبحات البديهة ، ما بُريت عليه من قبل في العربيّة قصبة قلم ، فالله يسامحهم.

وأنتم تعرفون أنّهم ، هم أنفسهم ، يموتون جوعًا إلى فُتات موائدكم في الصناعة ، ويلتقطون من لهجاتكم ما يكون عليه ألف رشاش من ريقكم ، فيملأون بطونهم من فضلكم ، ويملأون أفواههم من الكيد لكم... وليس هذا بدعًا جديدًا في الدنيا. فكلّ زورق نزل البحر أكلته النوتيّة الهلكى بأعينهم من الحسد ، وألقوا في طريقه بمجاذيفهم. ولكن عند الميناء تُحمد المغبّة. ولينظر واحدكم إلى البحر ، من ورائه ، فإذا مرآة تتضاحك ، وتلمع ، وتزدهي بحمد الله.

«المعرض» – ١٩٣٣

أمين نخله

زورق الأحلام

وقفتُ على الشطِّ ذاتَ مساء
أُفتّشُ عن زورقي الضائــــعِ
وكــــانَ المساءُ يُسِرُّ بنجوايَ
– في أُذُنِ القمرِ الطــالــعِ
فيُصغي ويبسمُ والبحرُ يُصغي
ويضحكُ في موجِـهِ الراجــعِ

* * *

أُفتّشُ عن زورقي فتُفيقُ
رُؤاه على جفنيَ الــدامــعِ
شِراعٌ لــــه الأمرُ لا للهواءِ
على هبّتي جــاذبٍ دافــعِ
يرفُّ على الأفقِ رفَّ جناحِ
– الحمامِ بــأبيضِهِ اللامــعِ
لعـلَّ جنـاحًـا مهيضًا تساقطَ
– من سربِها الذاهبِ الساجعِ
بهمْ فتمشي النجومُ وتمشي
– اللآلئُ في رملِها الهاجـعِ
مُرافقــةً رَكبَــهُ في الطَّوافِ
على الأزرقِ النــاعمِ الواسعِ
وغــازلــةً حولَـه في المياهِ
خيوطًـا على مِغزلٍ جــامـعِ
خيوطًـا تَشابكُ ضوءًا وفَيْئًـا
وترجفُ في لولبٍ جـــازعِ
تَسلَّقَـــه كــلُّ سرٍّ فليس
لدى الغورِ ما ليس بالشائعِ
ورُبَّ سماءٍ تــدلّت عليـــهِ
إلى الأرضِ من أوجِها السابعِ

أُفتّشُ عن زورقي فيُطـــلُّ
وراءَ سرابِ المُنى الخــادعِ
عــذارى يغنّينَ فيـــه عَوارٍ
ويبحثْنَ عن نــاظرٍ سامــعِ
وينفرنَ منـه إلى البحرِ مشيًـا
على وجهِـــه الهادئِ الوادعِ
فلولا الحوافي اللِّطـافُ البراعمِ
من زنبقٍ عــاطرٍ نــاصعِ
لقلتُ شددنَ خِفـافَ المسيحِ
بــأمراسِ إيمانِـــه الرافــعِ
ويغطسنَ ثمّ يعمنَ نحورًا
تَقطّرُ بــاللؤلؤِ الساطـــعِ
أيــاديَ ملأى بكــلِّ نفيسٍ
حرونٍ على الصائــدِ البــارعِ
يُعبّئنَ زورقهنَّ فنونًــــــا
جواهرَ لا عهــدَ للصانــعِ
ولا عهـدَ للحُورِ يومَ الزِّفافِ
بهنَّ ولا الخــاطرِ الطــامــعِ
ويــأخــذنَ بمجذافِـه خشخشاتِ
– الحصيدِ على المنجلِ القاطعِ
ويذهبنَ دنيا من الحسنِ والعريِ
– والوهجِ والنَّسَمِ الطــائـعِ

* * *

أُفتّشُ عن زورقي وأمــــدُّ
إليــه يــدَيَ والـــهٍ ضارعِ
وأُرسلُ روحي على راحتيَّ
تُتمتِمُ تمتمــةَ الشافــــعِ

فترتــدُّ فوقَ العبــابِ صريعًــا
إلى الشطِّ في موجِـه الصارعِ
وتزحفُ تبكي على حضن صبٍّ
حزينٍ على حجرٍ قــابــعِ

أُفتِّشُ عن زورقي فـــأراهُ
يغيبُ على الأُفُقِ الشاسعِ
ويسحبُ ذيلاً تلألأ بــالنّور
– والــدمِ في قلبيَ الواجــعِ

بيروت – ١٩٣٣

٦

أعود إلى «النهار». إلى ذكريات لا تُحصى، أتناول منها اثنتين، بل ثلاثًا. أعانني الله على الأخيرة منها.

كانت «النهار»، في مكتبها فوق مطعم العجميّ، ملتقى لفريق من رجال السياسة أكثرهم من حزب «الدستوريّين» الذين كانوا بزعامة الشيخ بشارة الخوري، منهم الشيخ نفسه، ويوسف سالم مدير شركة مياه بيروت فالنائب فالوزير فأوّل سفير للبنان بعد الاستقلال إلى القاهرة. كما كان يتردّد عليها بعض تجّار سوق الطويلة كيوسف الصدّي وجورج عاقوري، وبعض القضاة والمحامين. فيضع جبران قلمه ويستقبلهم بالأركيلة وحدها –كان لا يكتب إلّا ممسكًا بالاثنين معًا– ونحن والمحرّرون في الغرف الأخرى. وكان بين غرفتي وغرفته شبّاك زجاجيّ أرى منه ما يجري وقد أسمع. وبوصفي طاهي الجريدة الذي تُحمل إليه الموادّ لتنقيتها وتنسيقها ووضع عناوينها، بكلمة واحدة لتهيئة طبخة العدد مع الملح والبهار اللازمين، كان جبران تويني يستدعيني كلّ ساعة أو يفتح الشبّاك بينه وبيني ويسألني.

– ما عندكم؟ ما الأخبار؟

ينبغي أن أزيد على زوّار «النهار» زائرة كريمة كانت تأتي مرّة أو مرّتين في الأسبوع، فيبادر يوسف، قهوجيّ الجريدة، إلى إجلاسها في زاوية البهو فتدير وجهها إلى الحائط، لا تلتفت يمينًا ولا شمالًا. ولو التفتت أو التفت إليها أحد لما استطاع أن يتبيّن من ملامحها شيئًا، لطرحة كانت تضعها على رأسها وتخفضها إلى عينيها متّقية بها سهام الناظرين. كنّا نقدّر عمرها أنا والزملاء بين الأربعين والخمسين. جميلة؟ قبيحة؟ لا نعرف. المهمّ أنّنا عرفنا منذ الزيارة رقم ٢ أو رقم ٣ أنّها وسيطة خير.

ذات يوم حصل في السراي الصغير –وكان مقرّ الحكومة والمجلس معًا– خلاف بين الوزراء على شأن خطير، فتدخّلت المفوّضيّة العليا –وكانت تتدخّل في الكبير والصغير– وشاع أنّ الحكومة ستستقيل. لا بل سُوّي الأمر وتباوس الجماعة باللحى! بل استقالت!... وحنّا غصن وسائر المخبرين المحلّيّين يجيئون ويروحون، وجبران على نار، يريد أن يعرف كيف يكتب افتتاحيّته، فالأخبار متناقضة.

في تلك الحشرة شرّفت وسيطة الخير وحاملة البشائر، فقام جبران عن مكتبه فدقّ الشبّاك عليّ، وقال:

– أنا رايح جيب لكم الخبر اليقين.

ودلف مسرعًا.

«الخبر اليقين» دار في اليوم التالي شعرًا موزونًا مقفّى بين يوسف سالم ويوسف الصدّي وشلّة الأصحاب، وظلّوا يتندّرون شهورًا بالخبر اليقين. ذلك أنّي انصرفت، فور انصراف جبران، إلى القلم والورقة

فدبّجت قصيدة – عشرة أبيات مُحكمة – في وصف واقع الحال الذي كنّا نتخبّط فيه ، ومن ورائنا الحكومة والمفوّضيّة العليا والبلد ، والمخرج الذي فتق لجبران أن ينشلنا منه بفضل وسيطة الخير...

القصيدة حفظها كامل مروّه عن ظهر قلب من القراءة الثانية ولحّنها. لويس الحاجّ نقلها بخطّه دون أن ينسى – نفطويه كنت أسمّيه – أن يصحّح لي تعدية بإلى كنت عدّيتها أنا بعلى عن قصد رعاية للمناسبة. حنّا غصن اكتفى بأخذ نسخة ودسّها في جيبه ، ومن جيبه إلى جيوب أعضاء الشلّة مقابل ما كان يأخذ من جيوبهم.

لم يبقَ في الذاكرة إلّا البيت الأخير من القصيدة ، أُثبته مع تحريف لا بدّ منه ، وللقارئ اللبيب أن يزيل هذا التحريف ويعيد الأمور إلى نصابها في المواضع المشار إليها بين قوسين مزدوجين:

في «صدرِ» أمْ «جهينـــــةٍ»
أو «حضنِهـــــا» الخبرُ اليقينْ!

جبران لم يفتح لي سيرة القصيدة إلّا في الأرجنتين بعد سنين. وبالتحديد في شتاء ١٩٤٧. بعد أن دخلنا معًا السلك الدبلوماسيّ وذهبنا معًا إلى بوانس ايرس ، هو وزيرًا مفوّضًا وأنا قنصلًا. أمّا طوال صحبتنا في بيروت فقد كان يكتفي كلّما التقينا بعقدة حلوة من حاجبيه الكثيفين.

الثانية : خلال الحرب بين الفيشيّين والديغوليّين عام ١٩٤١ على حدودنا الجنوبيّة. كانت المفوّضيّة العليا تابعة لحكومة فيشي ، والوطنيّون في لبنان مع الجنرال دي غول والحلفاء الذين كانوا يعدوننا بالاستقلال. وعنّ لسلطات الانتداب ، عندما احتدمت المعارك بين جيشها وجيش الديغوليّين ومن ورائه إنكلترا ، أن تعتقل الصحافيّين المؤيّدين للحلفاء ومعهم بعض الرعايا الإنكليز. جبران تويني تسرّب إليه الخبر من صديق له في المفوّضيّة العليا في الليلة السابقة ليوم الاعتقال ، فهرب تحت جنح الظلام واختبأ في دير مار الياس شويّا ، ولبس الجبّة وأرخى اللحية ، هو الذي بدأ حياته الصحافيّة في «الأحرار» ماسونيًّا وشنّ على الرهبان تلك الحملات الشعواء.

في الصباح اقتحم ثلاثة من الجنود السنغاليّين مكتب «النهار» ، على رأسهم ضابط فرنسيّ ، فوضعوا حرابهم في صدري وساقوني إلى المعتقل. ألم يكن فلان الفلانيّ سكرتير التحرير؟ وفي غياب جبران كاتب افتتاحيّات «النهار» بقلم لا يقلّ عن قلمه عنفًا؟

كان هناك معتقلان: الأوّل في قرية الميّة وميّة للمسلمين من الصحافيّين ، والثاني للمسيحيّين منهم في قرية عشقوت ، في دير للرهبان فيها. ولست أدري هل كان في الميّة وميّة شيوخ دين. ولكنّ الفرنسيّين كانوا حريصين على خطّتهم – «فرّق تسد» – ومع ذلك يجب الاعتراف بأنّهم أحسنوا معاملتنا. لا ضرب ولا تعذيب ، وإنّما هو حجز لحرّيّتنا وتوقيفنا عن الكتابة. وما عدا ذلك فجلسات أنيسة ، وسهرات طيّبة ، وطرائف ، منها هذه:

كان بيننا إبراهيم النجّار صاحب «اللواء» ، والياس حرفوش صاحب «الحديث». وكنّا نتام اثنين اثنين أو أكثر في غرف الدير. وكان إبراهيم والياس في غرفة واحدة على فراشين على الأرض متوازيين. أهي مصادفة جاءت على أيدي المشرفين على توزيع المعتقلين في غرف الدير؟ هل اختار صاحب «الحديث» – الحديث كذلك في الصحافة – شيخًا في الكار هو صاحب «اللواء» ليتدرّب على يده في الحرفة؟ الله أعلم. المهمّ أنّنا استفقنا ذات يوم مع الفجر على صراخ الياس حرفوش وانهياله على إبراهيم النجّار بالسباب: «أمّه! أبوه! ومن حطّه معه في الغرفة!» فتراكضنا في الأروقة صوبهما والياس يرفع إبريق فخّار في الهواء ويدفع بقدميه إبراهيم إلى الخارج صارخًا:

– بالإبريق يا كذا وكيت؟ بالإبريق؟!

ويرميه به يريد رأسه. ولكنّ إبراهيم اتّقى الضربة ،

فجاء الإبريق على حائط الرواق وتحطّم شرّ تحطّم.
دخلنا للصلح بين الاثنين، ونحن نسأل ما سبب الخناقة وما دخل الإبريق. الياس رفض الصلح ومضى يقصّ علينا ما حدث. كان إبريق الفخّار يوضع بين الفراشين كلّ ليلة بعد أن يُملأ بماء نبع العسل الذي يستقي منه الدير. وكان إبراهيم النجّار مصابًا بالبروستات. وجاءه البول في الليل، فلم يرَ أن يحمّل شيخوخته عناء الذهاب إلى الحمّام في آخر الرواق، على بعد أربعين مترًا، فتناول الإبريق، وتحت اللحاف فرّج عن نفسه، ثمّ أعاده إلى مكانه كما كان، والياس حرفوش يشخر بعد قنّينة عرق – وَدَن شرّيًّا – شربها على العشاء قبل النوم. فلمّا كان ما قبل الفجر بقليل اشتدّ به العطش على العرق، فضرب بيده إلى الإبريق وكرع...

الثالثة... أحكيها؟ لا أحكيها؟ بل أحكيها. وأي بأس؟ فهي جليلة بمغزاها وإن كانت في واقعها لا تمتّ إلى الجلال بشيء.

ذات يوم دخلت علينا في «النهار» الآنسة «أمّ الصنوج» تسأل حسب العادة عن أخ لها يشتغل في الجريدة. كانت تأتي لهذا الغرض مرّة أو مرّتين في الأسبوع. رائعة، مجدولة، على بعض سمنة، ولها ردفان يضرب بعضهما ببعض ضربًا عجيبًا. من هنا كنية أمّ الصنوج التي أطلقتها عليها منذ أن أدارت لنا قفاها مودّعة بعد الزيارة الأولى. ومذ ذاك وأنا أمجّد الخالق كلّما وقع عليها نظري.

طال انتظارها لأخيها هذه المرّة، وحرن القلم في يدي يأبى الكتابة إلّا في تمجيد الخالق. وهممت بشيء من ذلك لو لم تنهض أمّ الصنوج وتودّعنا توديعها المعهود، فقد كان أخوها جاهزًا للخروج معها.

فلمّا غابت اندفعت أتغزّل بها، لا بالقلم بل بالصوت العالي ارتجالًا، ولويس الحاجّ قبالتي في الغرفة المجاورة يصغي بإحدى أذنيه والأخرى يحكّها بإصبعه متخابثًا. لا يطيّب لأشعاري، لا يفوه بكلمة، لا يلتفت إليّ. مَن لا يعرف الرجل الذي ارتقى فيما بعد إلى رئاسة تحرير «النهار» لا يعرف شيئًا عن عبقريّته في إفساد الأجواء، هكذا لوجه شيطانه الرجيم. وكنت أعلم أنّ إعجابه بأمّ الصنوج لا يقلّ عن إعجابي، ومع ذلك رأى أن يقطع عليّ تلمّظي بقوافيّ فيُخرج يده من أذنه، ولسانه من حنكه، ويقول لي ما معناه إنّني لم أرَ أنا من مكتبي ما رآه هو من مكتبه عندما جلست أمّ الصنوج بين المكتبين ورفعت ساقًا على ساق. وأنّه – أي هو – قد رأى بعينيه الاثنتين... ماذا؟ أربعًا من الطفيليّات – وسمّاها – التي تعشّش في البطون، خطر لها أن تطلع إلى الهواء الطلق، فجعلت تسرح وتمرح – «على صنوجك» (كذا)... وكان ذلك، طبعًا، من اختراعه ودسّ شيطانه، نكاية بي لا أكثر ولا أقلّ.

كنّا لذلك الوقت نغمس أقلامنا في محابر كبيرة من البورسلين. محبرتي كانت مزدوجة، للأسود من الحبر أكتب به كتاباتي، وللأحمر أصحّح به كتابات الآخرين وأضع لها العناوين. ناولته بها بالعيتين على بعد ستّة أمتار، فجاءت ملء صدره، وصبغه الحبران مختلطين – كرسوم أرباب الفنّ الحديث – من أمّ رأسه إلى أخمص قدميه.

لويس الحاجّ يذكّرني بذلك كلّما التقينا فنضحك طويلًا...

على أنّ للمسألة، بعد التفكّر، جانبًا غير ضاحك. عابس هو، وفاجع، ومثير لأعظم النقمة. أكاد أقول وحامل على الكفر.

لماذا؟ لماذا جعلت الطبيعة العين من أعضائنا للنظر فقط، والأذن للسمع فقط، واللسان للكلام فقط – لا بأس باشتراكه في الطعام – وأعطت عضو الحبّ، أعظم أدوات الحياة وأرفعها جمالًا وجلالًا، ذينك الشيئين المجتمعين المتنافرين، أحدهما ما أفرغه إبراهيم النجّار في إبريقه. ولماذا تفرز الصنوج المشار إليها

ما كلّف الزميل لويس الحاجّ ثمن طقم جديد؟ ولماذا ، استطرادًا ، هذا الحوار بين العضوين الذي أسعف شيطان لويس الحاجّ... وقد يحدث بغياب الشياطين ، فيُفسد على الناس أروع أجواء الحلم ، وأمتع الأسباب التي تصل بين الأرض والسماء؟

غلط ، أيّتها الطبيعة . غلط مرّتين.

* * *

على هامش عملي في «النهار» كنت أكتب في بعض لياليّ بعض ما يطلبه منّي إسكندر الرياشيّ لجريدته «الصحافيّ التائه» . لا يريد إلّا جرائم الحبّ التي تنظر فيها محكمة الجنايات أو الفضائح الزوجيّة التي تحدث في بيوت الطبقة العليا من المجتمع ، فيخصّص لها في كلّ عدد صفحتين كاملتين ، ويرشّ عليها من توابله إذا أنا بخلت أو خجلت.

لعلّ الرياشيّ أظرف صحافيّ عرفه جيله . وكانت له دالّة على رجال السياسة ، ولا سيّما على الرئيس إميل إدّه الذي جعله نديم سهراته ينكّت فيها على الناس ، وعلى نفسه عند اللزوم.

كانَ يروي ، من الجملة ، كيف أنّ الفرنسيّين كلّفوه على أثر دخولهم البلاد أن يُقنع زعماء البقاع – وكان ما يزال مقيمًا في زحلة – بتأييد سياسة الانتداب لقاء مبالغ من المال فيأخذ ، في كلّ مرّة ، من رأس عرمة نصفها :

– «أليس من الواجب أوّلًا أن أقنع نفسي؟»

وقام في أحد المواسم الانتخابيّة بحملة دعاية لمصلحة مرشّح للنيابة هوجاك ثابت ، اختاره عن قصد لثرائه ، فجعل ينشر أخباره ويعدّد مزاياه ، والرجل يحار كيف يشكره . حتّى ضاق إسكندر ذرعًا بهذه الحيرة فصاح به :

– والَو ! بعد أن اخترع «هاك الابن كذا وكذا» العملة أيمكن أحد أن يحار في شكر أحد؟

على أنّ براعته الكبرى كانت وتبقى في تأليفه «جمعيّة عدم الإمكان» ، ينشر في جريدته أخبارها ، مع أسماء أعضائها من الوزراء والنوّاب ممّن بلغوا أرذل العمر . فإذا سُئل عن رئيسها قال :

– أنا رئيسها الفخريّ . «خوش» كلّهم فخريّون ليس فيهم ولا عضو عامل !

٧

كنّا قد انتقلنا بعد العرس من دمشق إلى بيروت . أقمنا أوّلًا في غرفة للإيجار أسبوعين . بعدهما لم تجد العروس بدًّا من الانتقال إلى منزل لائق ، فاستأجرنا في حيّ الكراوية شقّة حلوة جديدة لم يسكنها قبلنا أحد ، واستعنّا على فرشها بما جاءنا من هدايا الزملاء والأصدقاء : جبران تويني ، يوسف سالم ، عارف الغريّب إلخ . وبما تيسّر ممّا يستغني عنه الأهل.

كنت سعيدًا . وكانت رفيقة العمر سعيدة . وكانت الدنيا تبتسم لنا عن سعادات آتية : الأولاد . أذهب إلى عملي في «النهار» وأعود مشيًا على الأقدام . في الذهاب قبلة وفي العودة على الشوق قبلتان.

وكانت الطريق مزروعة ، من الكراوية إلى ساحة الشهداء فالأسواق حتّى باب «النهار» في آخر سوق الطويلة ، بالشحّادين شيوخًا ونساء وأطفالًا ، بعاهات حقيقيّة لهم وأخرى مزيّفة لاستدرار الشفقة.

والشفقة أنا من أعدائها منذ نعومة أظفاري . وجاهل أو مُراء من يحسبها بديلًا عن العدالة . ولذلك كنت وما أزال أنفر من الجمعيّات الخيريّة ومن يتبرّع لها من الأغنياء – خصوصًا الأغنياء – متوهّمين أنّهم يبرّئون ذمّتهم بذلك ويريحون ضميرهم ، ثمّ يمشون في الناس وعلى جبينهم لصيقة مكتوب عليها «محسنون» . بطاقة تخوّلهم المرور فوق الرؤوس في الشوارع ، وتصدّر المجالس في المجتمعات ، فضلًا عن احتلال الصفوف الأماميّة في المعابد ، يواجهون ربّهم بالمنّة والتحدّي.

وكانت نقمتي أشدّ على الفقراء أنفسهم ، أصحاب

عاهات كانوا أم أصحّاء. أليس ضعف النفوس عاهة ؟ أوَليست أدرانها في الداخل أبشع من أدرانها في الخارج ؟

كنت في الوقت نفسه أقوم في « النهار » بسلسلة من الريبورتاجات أو التحقيقات عن الملاعين في الأرض : الحشّاشين الذين كانت لهم غرزاتهم ، أي مجالسهم الخفيّة ، في خرائب سوق الدرْكة ، وقد صار اليوم شارع المصارف ، فقضيت في ضيافتهم سهرتين وشاركتهم في التحشيش لكي أتعرّف إلى النعيم الذي ينقلهم إليه. المجانين الذين عشت معهم في العصفوريّة نهارين كاملين ، أحاور الهادئين منهم وأشرف من البلكونات على الهائجين كالوحوش. المجرمين في حبس الرمل. المومسات في شارع المتنّبي. وكنت أخرج من عند المومسات ، والقنديل الأحمر ، الذي كانت البيوت في ذلك الشارع تعلّقه على أبوابها ، يلحق بي قافزًا في الفضاء ، يلوّح فوق ساحات المدينة وشوارعها ، ويحطّ على أبواب القصور والأكواخ.

كانت تسيل في نفسي أنهار من المرارة ، وتهبّ بين ضلوعي عواصف من الغضب ، لا على الهيئة الاجتماعيّة الظالمة فقط ، بل على الكون من حيث هو.

ذات يوم من تلك الأيّام ، في شتاء ١٩٣٤ ، ضربت بيروت عاصفة هوجاء ، فأقفرت الطرق ، ولجأ الناس إلى منازلهم ، وتغطّوا باللُّحف إلى ما فوق رؤوسهم.

وأنا ساهر بالاثنتين ، عيني وأذني ، مشدود بهما إلى العاصفة.

العاصفة

أنــا أهـواكِ لستُ أدري لماذا
أنــا أهـواكِ فـاسمعي تمداحي
أنتِ أفعى شوهـــاءُ زنّرتِ
– الليلَ وفاعت بسمِّها الفحّاحِ
أنتِ مجنونةٌ أفاقت على رؤيا
وطافت في الأرضِ كلَّ براحِ
وزّعت شعرَهـا على كـلِّ نجمٍ
خصلــةً في غــدوِّها والرواحِ
ومشت خلفَهـا على كـلِّ وادٍ
زغرداتُ النيـاعِهـا والمِزاحِ

أنتِ، ما أنتِ؟ ثورةٌ تتنزّى
يُطبقُ الجوَّ حقُّهـا بـالصيـاحِ
أنتِ أصداءُ بوقِها في المرامي
أنتِ تصهالُ خيلِها في الساحِ
أنتِ خفقُ البنودِ بين وغاها
ولظــاهـا وأنتِ هزُّ الرمــاحِ
أنــا أهواكِ حرّةً مثـلَ نفسي
ونفوسُ الأحرارِ بعضُ الرياحِ

أُدخلي حطّمي نوافـــذَ بيتي
واملأيـــهِ وأطفئي مِصبــاحي
وامسحي بالظلامِ عيني وأرخي
لي جنــاحًــا مصفّقًــا بجنـاحِ
واحمليني عليهما أينما شئتِ
– وطيري مَـدَّ الرُبـى والبِطـاحِ
وَلْأَكُنْ ذرّةً تسوح وترضى
بــأمــانيَّ سِرْبِهـا السُيّــاحِ
اِقْــذِفي بي مبعثَرَ الشعرِ مغبرًّا
– طليقًا من كـلِّ قيدٍ جماحي
فخيـالُ المجهولِ يكحـلُ جفني
واقتحـامُ الأخطـارِ ملءُ وشاحي
واجعليني إذا جـــددتِ لأمرٍ
في الفريـقِ المقـــدَّمِ الفتّـــاحِ
إنّ جــذعًـــا مُسَوَّسًا لاقتلاعٍ
إنّ سقفًـــــا مقلقَلاً لاطّراحِ
إنَّ حيًّـــا يعيشُ من قلّـــةٍ
– الموتِ وميتًا محنَّطًا لاكتساحِ
أيُّ بأسٍ في نزعِ كلِّ ضعيفٍ
وسقيمٍ فيهـــا وأيُّ جُنــاحِ
هي دنيــا كـانت وتبقى كما
– كانت قديمًا للأقوياءِ الصِحاحِ
إنّما الظلمُ والعـــدالـــةُ فيهـــا
من لغاتِ المستضعَفين الفِصاحِ
سُنّــةُ الكـونِ ليس فيهـا مُباحٌ
لو تبيّنتِهــــا وغيرُ مُبـــاحِ
فـدعينـا نمضي ونقضي حقوقًا
فوقَ لغوِ الأفراحِ والأتراحِ

اِعصِفي واملأي الـوجـودَ زئيرًا
وهــــديرًا وقهقهـــاتِ نواحِ
قبلَ أن يطلعَ الصباحُ هدوءًا
لا أرتني عيناي وجهَ الصباحِ

بيروت – ١٩٣٤

٨

كنّا في الصحافة ، أنا وزملاء لي ، نقوم بحملة نطالب بها الحكومة بتنظيف المدينة من المتسوّلين ، بوضع أصحاب العاهات الحقيقيّة في المستشفيات ، وأصحاب العاهات المزوّرة في السجون. أمّا الأطفال فتُنشأ لهم إصلاحيّات خاصّة على غرار ما هو جارٍ في العالم المتحضّر.

وكان بين هؤلاء الأطفال واحد ، صبيّ في العاشرة ، يلحق بي كلّما رآني أمرّ بساحة الشهداء. صحيح الجسم ، لا أعرج ولا أعور ولا أكتع. حافي القدمين في غمباز ممزّق قذر ، ولكنّ له عينين ذكيّتين منكسرتين.

وكنت في ذلك الوقت إذا عدت إلى المنزل ، ولو في ساعة متأخّرة من الليل بسبب عملي في الجريدة ، أرى رفيقة العمر تنتظرني وهي منحنية على كتاب تقرأ فيه. كانت تحبّ الكتب وتضع الكتّاب في أعلى المراتب – ظنّي أنّها غيّرت رأيها بعد أن عاشرت واحدًا منهم – فلمّا عدت ذلك المساء وجدتها متعلّقة بقصّة تلتهم سطورها وأنا أناديها «قومي ناكل!» ، وهي تؤجّلني : «بعد هالسطرين». فهتفت بها :

– تريدين أن أعمل لك قصّة؟

وقبل أن أكمل عشائي – اللقمتان الأخيرتان أطعمتني أيّاهما هي –كنت وراء مكتبي ، وفي مدى ساعتين خلقت الصبيّ ، كسرت له رِجله ، درت به شحّادًا ، خلقت له عمّه إبراهيم ، حمّلته صندوقة الكاتو ، عشت مأساته حتّى خرج منها ، ولم أتركه إلّا وقد تخلّص من عمّه ومن الظلم ، واستقامت رِجله العوجاء باستقامة عزمه وطال خيالها النجوم.

لم تظهر «الصبيّ الأعرج» مع أخواتها في الكتاب الحامل هذا الاسم إلّا في ١٩٣٦ ، حلقة أولى من سلسلة منشورات «المكشوف».

* * *

كانت «المكشوف» لذلك العهد خليّة في مكتبها القديم ، حيّ عالسور ، في أنترسول من بناية عالية ، كما تكون خلايا الدبابير. حتّى إنّ الشيخ خليل تقيّ الدين الذي لم يحطّها واطئة في حياته كان مضطرًّا لدى دخوله الباب أن يحني هامته ، وما يكاد حتّى يصيح الشيخ فؤاد حبيش :

– الأركيلة يا ولد!

وعلى قرقرة أركيلة الشيخ خليل ، وتسابيح الشيخ فؤاد القادحة السقف ، يتعاقب : الياس أبو شبكة بعصاه السوداء يهشّ بها على قوافيه ويطارد «أفاعي فردوسه». عمر فاخوري بآخر جرائد سباق الخيل يدفع أنفه في أذنابها وبريق عينيه إلى الكتب حواليه. رئيف خوري يرفع إصبعه بالمعارضة ويهدر بالاحتجاج. صلاح لبكي يقرع قافاته القرويّة العتيقة على سكّرة هي أحدث قصائده. بطرس البستانيّ يضع وقاره ملء كرسيّ رقّاصة الفيروزابادي فالويل لمن أخطأ أو لحَن. يوسف غصوب بشفته السفلى مقلوبة لأنّه لم يعثر على من يلاعبه المحبوسة في المقهى فعاد إلى «القفص المهجور». وكثيرًا ما يهبط علينا مارون عبّود فتكتمل الجوقة على نشوق يقذفه في منخريه ، مع عطسات له ذات عصف ودويّ ، وقد تطيح بجمر الأركيلة فتقوم القيامة ، ويزغرد الأدب ، وتحلولي الحياة.

في هذا الجوّ صدرت لي ، بعد «الصبيّ الأعرج» ، مجموعة «قميص الصوف» ، فرواية «الرغيف». وكان بعضنا يقرأ في الغالب لبعض قبل النشر. «الرغيف» ، مثلًا ، تلوت مخطوطتها تباعًا على فؤاد حبيش ، وقرأها عمر فاخوري وميخائيل نعيمه.

ميخائيل نعيمه كان لا يطلّ علينا من شخروبه* إلّا في النادر. وكذلك أمين الريحانيّ من فريكته* ، إلّا إبّان الحملة التي شنّها الريحانيّ – وعاونّاه بها في

* الشخروب مزرعة نعيمه في صنّين ، والفريكة ضيعة الريحانيّ.

«المكشوف» وفي «النهار» – على الذين اتّهموا ميّ ، أديبة العرب ، بالجنون. وقد أسفرت الحملة عن إجبارهم على إطلاق حرّيّتها وعودتها إلى الناس في مهرجان أقيم لها في الجامعة الأميركيّة ألقت فيه ميّ من روائعها ما أبكى وأدهش وجنّن الكثيرين.

كان نعيمه والريحانيّ من الكهّان. ويجمعها في ذاكرتي رسالتان نقديّتان وتعليق على الرسالتين. لمّا ظهر «الصبيّ الأعرج» كتب إليّ نعيمه : «عزيزي توفيق ، يخيّل إليّ أنّك ما تعلّمت الكتابة إلّا لتكتب القصّة... إلخ». فامتعض عمر فاخوري لدى قراءته الرسالة في «المكشوف». علامَ هذه العزيزي؟ وما هي إلّا أيّام حتّى أتبعها الريحانيّ برسالة : عزيزي توفيق ، في كتابتك بيان رائع ... إلخ. فطفح الكيل لدى عمر : عزيزي من هنا وعزيزي من هنا. وهل يحتاج «الصبيّ الأعرج» ، ولو صبيًّا ولو أعرج ، إلى من يمسك به ويتشتشه ليدخل دنيا أدبنا العربيّ؟ وبدل الواحد اثنان ، من هنا ومن هنا على الميلين؟... وشمّر عمر عن ساعده وكتب من أجل العزيزي والعزيزي مكرّر ما يظلّ من أقذع ما كتبه في الناس والأشياء.

أعمل دعاية لنفسي؟

ولِمَ لا؟ لقد كانت لنا في «المكشوف» خطّة رسمناها. تلك كانت الضجيج ما أمكننا الضجيج. المديح في موضعه مليح ، فإن لم يكن فالطعن والتجريح. المهمّ أن نوقظ القارئ من سباته. وما كان أشدّ حاجته إلى من يضرب على رأسه هذا الضرب!

أكثر من هذا ، أنا قارئ نفسي قبل القارئين. ربّما كتبت القصّة أو نظمت البيتين من الشعر في ساعة أو ساعات. وربّما قتلت الأيّام وأحييت الليالي على فقرة أو قافية – «الرغيف» كتبتها أربع مرّات ، و«طواحين بيروت» كذلك – فإذا ارتحت في النهاية إلى صنيعي حملته في الناس مناديًا عليه ، وإلّا «شربتها وحدي» على دين أبي نؤاس ، ورحت أتلو على نفسي وأطرب. الفنّان صاحب رسالة ، صاحب بضاعة على الأقلّ ، إذا لم يكن أوّل المؤمنين برسالته أو بضاعته فكيف يؤمن الآخرون؟

لقد أرّخت «المكشوف» بين الثلاثينات والأربعينات مرحلة هامّة في انتقال الأدب ، شعرًا ونثرًا ، من مستنقعات الجمود والتقليد إلى آفاق الانطلاق والإبداع. أنشأها الشيخ فؤاد حبيش أصلًا لتعني معناها ، أي للصحافة المكشوفة – العارية – التي تهتم بأخبار الجنس. وصدرت أعدادها الأولى بالفعل في هذا النطاق. إلى أن كان يوم اجتمعنا فيه ، أنا والياس أبو شبكة والشيخ خليل تقيّ الدين والشيخ فؤاد ، وقرّ الرأي بناء على اقتراح خليل على قلبها إلى مجلّة أدبيّة. فوافق فؤاد بشرطين: الأوّل أن نمدّ المجلّة بانتظام بما تجود به قرائحنا – التعبير له – والثاني أن يُعاد تأليف «عصبة العشرة» وتُفتح أبوابها لأعضاء جدد تغطية للعدد. فلا يجوز أن يبقى العشرة أربعة. وصدرت أعداد «المكشوف» الأدبيّ على الأثر تحمل لنا مقالات وقصائد بتوقيع صاحب كلّ منها مشفوعًا بـ «من عصبة العشرة».

على أنّ بعث العصبة على هذا الشكل أغضب رئيسها السابق ميشال أبو شهلا. كيف لا يُستشار في الأمر؟ والحقيقة أنّه لم يكن معقولًا أن ينظر بعين الرضى إلى انتقال العصبة من «المعرض» – وهو أحد صاحبيها – إلى «المكشوف» ومعها الحركة الأدبيّة. وبعد أخذ وردّ طويلين تمّ الاتّفاق على صرف النظر عن العصبة واعتبارها دخلت في التاريخ. ولم يكن ذلك بالشيء الذي يستحقّ الندم. فقد عوّض الشيخ فؤاد بحماسته وبشاشته وانفتاحه ، وبالجوّ الذي كان قادرًا وحده أن يضفيه حواليه ، عن ألف عصبة وعصبة.

* * *

من جملة ما نشرته في «المكشوف» لذلك العهد قصيدتي «وراء الحبّ».

وراء الحبّ

أُحبُّكِ حتى يسيلَ الدمُ
وحتّى يموتَ عليكِ الفمُ
أُحبُّكِ حتّى تجفَّ عروقي
ويُسلمَني التعبُ الأعظمُ
وحتّى تميلي بوجهكِ عنّي
ووجهُكِ من هولِه مأتمُ
فنُمسي كلانا على هدنةِ
– العجزِ لا تصرخينَ ولا أُجرمُ

تريدين أيضًا؟ تعالَي وذوقي
وصالًا هو الشهدُ والعلقمُ
فإنَّ أفاعيَّ عادت تفحُّ
وعادَ لعابٌ لها مُضرَمُ
خذي قُبَلًا لسعاتٍ وأُخرى
مواسيةً فوقَها تندمُ
فمنّي العذابُ ومنّي الهناءُ
ومنّي الجراحاتُ والبلسمُ

* * *

أوانٌ هو السكرُ أو هو أشهى
هو الحلمُ لم يرَهُ النُّوَّمُ
هو الغوصُ في الماءِ والماءُ ثرٌّ
هو العريُ للشمسِ يستسلمُ
هو الحومُ فوق شعورِ
– الوجودِ فلا نحنُ نجهلُ أو نعلمُ
هو الغفوُ فوق الوسادِ الوثيرِ
– المعطَّرِ وهو الرضَى الأبكمُ

* * *

أُحبّكِ حبًّا غريبًا كما لم
يُحبَّ الأناسيُّ أو يحلموا
أُحبّكِ حتّى أراكِ بناءً
يُهدَّم أو وثنًا يُرجَمُ
وحتّى أعافَكِ شيئًا حقيرًا
فما فيكِ حُسنٌ ولا مغنمُ
ويبقى لروحي فمٌ يتلمّسُ
– ما لا يُمَلُّ ولا يُتخِمُ

* * *

بيروت – ١٩٣٦

شِقّ : (رافعًا رأسه) : أترى إلى قصيدتي؟ لم تكد تظهر في «المكشوف» حتّى أصبحت على كلّ شفة ولسان.

سَطيح : (عابسًا) لا تُعجبني.

شِقّ : أعرف.

سَطيح : ومع ذلك ما تفتأ تتلوها بصوتك الجهوريّ على الناس ، ورفيقة العمر تسمع بحياء خفيّ وزهو ظاهر. كيف ترضى بذلك؟

شِقّ : أبلغ ما قلت في الحبّ.

سَطيح : بل أوقح. بل أفظع. دم ، وتهديم ، ورجم ... مع أفاعٍ تفحّ وتلسع. أهكذا يكون الغزل؟

شِقّ : لم يخطر لي الغزل ببال. الغزل طريق إلى الحبّ. والحبّ طريق إلى ما وراءه. أردت أن أقول لها كم أنا أُحبّها وراء الحبّ.

سَطيح : (بغيظ) : حتّى الرجم ، وحتّى لا يبقى فيها لحم ولا عظم.

شِقّ : (بوقار يردّد البيت الأخير) :

ويبقى لروحي فمٌ يتلّمسُ
– مـــا لا يُمَـــلّ ولا يُتخمُ

سَطيح : ما هو الذي تتلمّسه روحك؟

شِقّ : شيء ضائع أبحث عنه. وتبحث هي كذلك. كنز مدفون. والحبّ بيننا تنقيب عنه. حبّك غير حبّي.

سَطيح : (بانشراح وسخرية) : الحمد لله. الحمد لله.

شِقّ : لم تُعجبك قصيدتي؟ طبعًا. عيناك ولو اثنتين لا تريان ما وراء الحبّ. ويداك ولو اثنتين لا تطالان ما وراءه ، ورِجلاك لا توصلانك.

سَطيح : أنا ، يا صاحبي ، لا أفتّش في الحبّ عن أيّ شيء وراءه. لك دينك ولي ديني.

شِقّ : (جادًّا) : إذًا إيّاك أن تغريني مرّة أخرى!

سَطيح : (متحدّيًا) : بماذا؟

شِقّ : باللحاق بنسائك. يومًا هذه ويومًا تلك. أمس ، أمس بالذات. أتنكر؟

سَطيح : (بغضب) : أأنا أغريتك أم أنت الذي أغريتني؟

شِقّ : بل أنت.

سَطيح : بعدها دعوتك إلى جلسة في البار على كاس. رفضت. قلت لي بالحرف : بل أعود إلى البيت. ورحت توًّا إلى السرير. إذن هي كنزك. هي.

شِقّ : في وجهها شيء من ملامحه ، وفي جدائلها عطر من ريحه. تعالَ. هي أيضًا في انتظاري لنتابع البحث معًا ، فالكنز كنزي وكنزها.

من حقلي «الجديد»

١

«الجديد» كانت تحقيقًا لحلم – حلم كلّ كاتب – أقلّب فيها قلمي بين الأدب والسياسة على هواي ، مع نخبة من الكتّاب المختصّين.

العدد الأوّل يحمل تاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٤١ ، وهو تاريخ في حياتي.

سهرت الليالي في درس الحجم طولًا وعرضًا ، وتحديد عدد الصفحات ، وتوزيع أبواب المجلّة. الأبواب الكبيرة لأخبار الحرب التي كانت في عزّها بين ألمانيا والحلفاء. وأبواب في الصفحات الأولى للشؤون الوطنيّة ، أشرع فيها قلمي ، مع أقلام الزملاء في الصحف المناوئة لسلطات الانتداب ، مطالبين بالاستقلال. مع نوافذ على التاريخ اللبنانيّ وعلى الأدب نثرًا وشعرًا –ومنه الزجل أي الشعر باللغة العاميّة– وعلى القصّة أو الأقصوصة.

لم يكن في بيروت المطابع الحديثة التي نعرفها اليوم. وما تزال في أذنيّ قرقعة تلك الآلة المخلّعة ، في سوق أيّاس جنب البركة ، التي كان اسمها مطبعة منيمنة. «النهار» تطبع فيها ، وصاحبها رجل طيّب ، فلتطبع فيها «الجديد» ، على الأقلّ في المرحلة الأولى. كانت تدور ساعة وتتعطّل ساعتين ، وبانتظار تصليح ما تخرّب ، وربط ما تفكّك ، يغلي دمنا فنبرّده بكاسة جلّاب يحملها إلينا أبو إبراهيم العتبلي سيّد البركة. وإذا طال الانتظار وجُعنا فصحن فول أو حمّص من عند العجميّ ، تحت القنطرة في آخر السوق. بربع ليرة مع البصل والفجل والصعتر والزيتون ، ومع المزيتة يرفعها الغرسون إلى فوق ويصبّ لك من خيطها الذهبيّ ما تشاء ، ويكرّر عند الطلب.

النسخة من الجريدة اليوميّة بقرشين ونصف. ومن المجلّة – «الجديد» مثلًا – بعشرة قروش. على أنّ اعتماد الصحف في تلك الأيّام كان على اشتراكاتها. وللحصول على أكبر عدد من الاشتراكات كان أصحاب الصحف يرسلونها إلى الناس بدون طلب منهم ولا معرفة بأشخاصهم في الغالب. عرض يفاجئ هذا الوجيه ، أو ذاك التاجر ، أو ذلك الموظّف الكبير ، مع «حضرة الأجلّ الأمجد فلان الفلانيّ دام بقاه» ، يدقّ البوسطجيّ على الباب ويدفع النعوت في وجهه. فينترها الرجل ويكتب تحت ألقابه «مرتجع مع الشكر» ويوقّع ، وفي قلبه : «أمّ الجرائد والمجلّات واللي بزرها ! ». وكثيرًا ما كان موزّع البريد يرجع بأكداسه ولم يعلق بالاشتراك أحد ، وعلقت به الشتائم إلى مسافة بعيدة.

شقّ ، الذي كان صاحب «الجديد» ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول معًا ، لم يرضَ بسلوك هذه الطريقة في الحصول على الاشتراكات ، بالرغم من إلحاح سَطيح وإرشاداته إلى أسماء فلان وفليتان وعلتان من الأصدقاء والمعارف وكبار القوم. كان يأبى إلّا أن يشرّف الجماعة بأنفسهم ويطلعوا – أو تطلع طلباتهم – حتّى الطابق الخامس من بناية وقف الموارنة على ساحة البرلمان ، حيث مكتب المجلّة.

كان الشيخ فؤاد حبيش قد أنشأ «المكشوف» قبل أن أنشأت أنا «الجديد». وكنت أتردّد عليه ويتردّد عليّ. دخلت عليه مرّة فرأيت وجهه يطفح بشرًا. وقبل السلام بادرني :

–كم صارت الاشتراكات عندك؟

قلت :

– بل تقول كم صارت عندك؟

فلوّح بيده برسالة وهتف :

– لقد فتحتُ المملكة الفلانيّة ! (وسمّاها) آخر اشتراك جاءني منها.

يريد ، طبعًا ، الأوّل. ولست أدري هل كان الأخير... لو عاش ، رحمه الله ، ليرى إلى الفتوحات كيف انقلبت ، وكيف أصبحت الممالك والجمهوريّات هي التي تفتح عندنا الجرائد والمجلّات بالعشرات...

٢

صحافة تلك الأيّام – أتكلّم هنا عن ميولها السياسيّة وأهدافها – كانت واضحة مفهومة : مع «الأمّ الحنون» أو ضدّها. مع فرنسا المنتدبة أو مع الاستقلال. واستطرادًا مع الاستاذ إميل إدّه أو مع الشيخ بشارة الخوري. وكفى الله المؤمنين القتال.

ماذا أقول؟ بل لقد كان القتال على أشدّه ، بالحملات الصحافيّة والمناورات السياسيّة ، بين الكتلويّين جماعة إدّه والدستوريّين جماعة الخوري ، خصوصًا قبيل الانتخابات النيابيّة التي أدّت إلى فوز الشيخ بشارة برئاسة الجمهوريّة. انقسمت البلاد من أوّلها إلى آخرها إلى قسمين لا ثالث لهما. وفي الصحافة لم تبقَ جريدة أو مجلّة إلّا نفخت ببوق هذا أو ببوق ذاك. ما عدا «الجديد». قامت بحملة شعواء على الاثنين. وفسحت المجال لرشدي معلوف أن يكتب على صفحاتها سلسلة بعنوان «البرلمان الأمثل» ، وهو الكتاب الذي جمع فيه فصولها وتعليقاتي على تلك الفصول ، وقد كشفت فيها عن نبل كاتبها وعلوّ همّته ، وفي الوقت نفسه عن براءته أو سذاجته في الخلط بين المبادئ والمثل العليا وبين واقع زعامات الإقطاع وعصابات المصالح التي تصنع للبنان برلماناته.

كان همّي في «الجديد» منصرفًا إلى الجوهر. إلى الدعوة لتأليف الأحزاب الوطنيّة الصحيحة ذات المناهج والأهداف الصريحة. إلى إلغاء الطائفيّة على مراحل مدروسة وبأساليب تتجنّب الصدام ، فلا طفرة ولا تهوّر. إلى لمّ شعث الشباب والتقريب بين انتماءاتهم وعصبيّاتهم ، والتنسيق بين ثقافاتهم المتعدّدة المتنافرة. إلى دعوة موازية ، على الصعيد الاجتماعيّ البحت ، لرفع مستوى الفلّاحين والعمّال بإعطائهم ما لهم من حقوق. وكنت أُشرك أصحاب الرأي من كلّ قطاع في هذه الدعوات ، واعتمدت في الدعوة الاجتماعيّة على الأساس الذي انطلق منه اللورد بيفردج في إنكلترا ، وقد صدر لي في ذلك ، بالاشتراك مع سكرتير تحرير «الجديد» ميشال بشارة خديج ، كتاب بعنوان «في سبيل بيفردج لبنانيّ».

من أجل ذلك وغيره لم تلبث «الجديد» أن احتلّت مكانها في الصفّ الأوّل من المجلّات الأسبوعيّة في لبنان ، وحافظت عليه طوال خمس سنوات.

* * *

حتّى كانت السنة ١٩٤٥ فجاء من يعرض عليّ طربشتها أو برنطتها بشركة تتولّاها ، يكون أعضاءها

أصحاب «لوجور»: ميشال شيحا، هنري فرعون، موسى دي فريج، وأنا - على أن أبقى رئيساً للتحرير. وعهد الفريقان إلى الرئيس شارل حلو - وكان رئيس تحرير «لوجور» لذلك العهد - بكتابة عقد الشركة، فصاغه بقلمه الأنيق، بالفرنسيّة، قفصًا ذهبيًّا. وعيّنّا أنا والجماعة الأستاذ يوسف السودا حَكَمًا في حال الخلاف على تفسير بنود العقد.

في الشهر الأوّل نفخ سَطيح جرابه سرورًا بالطعام الذي تأمّن له في القفص.

في الشهر الثاني تململ شِقّ وأخذ ينظر إلى سَطيح بغضب.

في الثالث ضاقت أنفاس شِقّ في القفص وكاد يختنق.

في الرابع أخذ يضرب قضبانه بمنقاره.

في الخامس علّق عينه - الوحيدة - بين شقوق القضبان ينظر إلى الأفق البعيد ويتحفّز.

وفي الشهر السادس، قبل انتهائه بيوم، حطّم القفص وخرج إلى الهواء الطلق.

سَطيح: مجنون أنت يا شِقّ. كيف تفلت فرصة العمر؟

شِقّ: أفلتّ من القفص.

سَطيح: أفلتّ فرصة العمر، أقول لك. الجماعة أصحاب الكلمة في البلاد. وقد اختاروك بين عشرات الصحافيّين لتكون «الجديد» لسانهم الناطق بالعربيّة إلى جانب لسانهم الفرنسيّ «لوجور». وهم قادرون أن يصلوا بك إلى أعلى المراتب.

شِقّ: تعني أن يُعلوا بي القفص.

سَطيح: هل عمل لك الجماعة شيئًا؟ هل جرحوك بكلمة؟

شِقّ: كلّا.

سَطيح: ولماذا تتركهم؟ لماذا تهرب منهم؟

شِقّ: سَلِ العصفور لماذا يهرب من قفصه، ولو ذهبيًّا؟

سَطيح: الحرّيّة! الحرّيّة! وإلى أين توصلك حرّيّتك؟

شِقّ: المهمّ أنّني وراءها. وأنا عائد إليها لأنّني لا أستطيع الحياة بدونها.

سَطيح: إلى أين؟ أكرّر: إلى أين تروح مع الحرّيّة؟

شِقّ: إلى نفسي. الحرّيّة معناها أنا. وأنا معناه، بالعربيّ الفصيح، الحرّيّة.

سَطيح: تعالَ نسأل أستاذنا السودا. أليس هو الحَكَم؟ ألا ترى من الواجب، من اللائق على الأقلّ، استشارته في الأمر قبل الإقدام عليه؟

شِقّ: السودا من رأيك. أعرف ذلك سلفًا.

سَطيح: ما يُدريك؟ الرجل يقدّس الحرّيّة مثلك. لعلّ لها عنده تفسيرًا آخر.

شِقّ: نذهب إليه إذا أحببت. وهبْ أنّ له تفسيره فلن أتخلّى أنا عن تفسيري.

الخلاصة، أصررت على فسخ الشركة. أعطاني ميشال شيحا - وكان التعامل بشأن «الجديد» بيني وبينه دون سائر الشركاء - مهلة خمسة عشر يومًا للتفكير. أجبته أنّني أفكّر منذ ستّة أشهر، أي منذ البداية، ولا رجوع عن قراري.

فلم يسعه إلّا أن ينهض ويصافحني داعيًا لي بالتوفيق. وأنا أحفظ عنه، خصوصًا عن ثقته العمياء بي، كاتبًا ومديرًا ومحاسبًا، أحسن الذكريات.

* * *

كان ميشال شيحا رجلًا مثاليًّا وعمليًّا في وقت معًا. وعبقريّته هي في إقامة الجسور بين عبقريّة الحلم وعبقريّة الواقع. أليس هو القائل: «لبنان بلاد الحلم والواقع مجتمعين»؟ حياته كلّها تشهد بسعيه لتحقيق ذلك أوّلًا في نفسه. فهو في نهاره على رأس مصرفه - بنك فرعون وشيحا - وفي الليل وراء قصائده في «بيت الريف» La Maison des Champs.

لم يدخل ميشال شيحا ميدان السياسة إلّا إلى حين ، وهو لم يغادره إلّا بعد أن ترك فيه علامة منه : الدستور* . وكأنّه لم يغادره إلّا ليأخذ مكانه مع القادة ، يرون من بعيد ما لا يراه الجنود خلل الغبار ، فيرسمون الخطّة ويوجّهون المعركة . وفي الصرخة التي أطلقها في محاضرة له في « الندوة اللبنانيّة » ما في الصرخة التي أطلقها السيّد المسيح على ممتهني الهيكل : « إنّ ما نبنيه وما نطمح إليه في النهاية ليس فندقًا لسائح ، أو دكّانًا لتاجر ، أو مكتبًا لجوازات المهاجرين واللاجئين . نحن نطمح لبناء وطن وإنشاء دولة » .

أمّا في مجال تجهيز لبنان ، بعد إبراز شخصيّته وتحديد رسالته ، فمعرفة بأوضاع هذه البلاد وتقاليدها وطبائع أهلها ومؤهّلاتهم ، مع وعي فريد لمعطيات العصر . وقد التزم في ذلك كلّه خطّ الحرّيّة ولم يحد عنه ، وهو القائل : « إنّ الديموقراطيّة هي شكل الحكم الوحيد الذي يصلح للبنان ، مع مجلس تلتقي فيه الطوائف على مراقبة الحياة السياسيّة ، فإذا حذفتم المجلس نقلتم النقاش حتمًا إلى المعبد أو إلى ظلّه ، وأخّرتم بذلك التربية المدنيّة » . هكذا كان يقول منذ سنة ١٩٤٣ ، وقد زاد فيما بعد قوله بل نبوءته المنذرة : « لبنان لا توائمه الثورات والانقلابات ، وعليه أن يتحاشى الاستبداد ، والتسلّط ، وتحكّم فئة بفئة ، وضروب العنف جميعًا ، تحاشيه حكم إعدام » .

فضلًا عن صيحاته المتكرّرة التي كان يطلقها بإلحاح منبّهًا إلى خطر إسرائيل على لبنان والمنطقة والعالم .

٣

سَطيح : عندما أتعثّر بمجموعة « الجديد » – هذه التي يقرضها الفأر على تتخيتة بيتنا في بحرصاف – يلذّ لي أن أعود القهقرى ، بلغتك ، وأقلّب فيها . لفت نظري عنوان باب من أبواب المجلّة هو هذا : « من نافذتي أتفرّج على الناس وأضحك – مثل صينيّ – » ومعه صورة كاريكاتوريّة لأنفك هذا الذي هو من سلالة أنف ابن حرب . أسندت هذا القول إلى الصين . من قاله من التسعمائة مليون صينيّ ؟

شِقّ : (ضاحكًا) : كانوا في ذلك الوقت سبعمائة . رُح اسألهم .

سَطيح : كذّاب ! إنّما هو اختراع منك ، وأنا الشاهد . بالعلامة قلت لي يومذاك : ما رأيك يا سَطيح ؟ فوافقت على العمياني ، وراح الناس يعتقدون أنّه مثل صينيّ . وأمس بالذات استشهد به كاتب كبير في إحدى المجلّات .

شِقّ : أيّ مجلّة ؟

سَطيح : مجلّة من هذه المجلّات التي تقرأها أنت وتطرحها جنب السرير . كنت ألفّ بها حذائي لأبعث به إلى البويجي فطلع مثلك بوجهي . قُل لي ، علامَ هذا التزوير ؟ ألم يكن القول كافيًا بحدّ ذاته بدون الصين ؟

شِقّ : لو كان كافيًا لما أسندته إلى الصين . هذا الإسناد يضفي عليه هالة الآتي من بعيد ، من وطن الحكمة ، فيكون وقعه أعظم .

سَطيح : هذه واحدة . وثانية في قصّتك « الهاوية » من كتاب « الصبيّ الأعرج » . جاء فيها بعد العنوان : « أمّنا الأرض » . ونسبت ذلك إلى أغنية إيطاليّة .

شِقّ : أمّنا الأرض . أمّنا الأرض . صحيح أنّ في هذا القول على إيجازه كلّ البلاغة . ولكنّك توافقني على أنّني لم أكتشف به أميركا ولا اخترعت البارود . وربّما سبقني إليه كثيرون أو قالوا شيئًا مشابهًا . ولا غرابة ، فالأرض أمّ الجميع . البراعة ...

سَطيح : (مقاطعًا) : في الكذب .

شِقّ : (جادًّا) : كذبُ الفنّ . وأنا نسبت القول إلى

---

* كان ميشال شيحا مقرّر اللجنة التي وضعت دستور ١٩٢٦ .

أغنية إيطاليّة ، أو غير إيطاليّة لا يهمّ ، المهمّ أنّني فعلت ذلك عن قصد. تصوّرت الفلّاح يغنّيها في حقله. بل جمهورًا من الفلّاحين يغنّونها في الحقول : «أمّنا الأرض ! أمّنا الأرض !» بأصواتهم العريضة مع ضرب المعاول ونجاوب الأصداء بين الجبال والأودية. فأعجبني ذلك. ولم يمكنّي أن أتصوّر هاتين الكلمتين العظيمتين على لسان عظيم أو حكيم ، ولا على قلم كاتب أو شاعر. هما مطلع أغنية. إذا التقتا فيجب أن يغنّي بهما المغنّون.

سَطيح : (مقتنعًا بعض الشيء) : طيّب. والأقوال الأخرى التي اخترعتها بالعشرات؟

شِقّ : بالمئات. خصوصًا في الصحافة. الصحافة ، كما تعلم ، بالوعة كذب. وبالكاد تجد فيها الأكذوبة البريئة مكانًا لها بين الأكاذيب المجرمة.

٤

بعد فسخ الشركة بيني وبين أصحاب «لوجور» حوّلت «الجديد» من مجلّة أسبوعيّة إلى جريدة يوميّة.

وكنت على رأسها عندما جاءت الدعوة من وزارة الإعلام في لندن إلى جماعة من أصحاب الصحف في لبنان وسوريّا لزيارة إنكلترا. أبلغتنا إيّاها السفارة البريطانيّة في بيروت بواسطة الأستاذ فريد مدوّر الملحق بدائرة الصحافة فيها. وقد تناولت :

من لبنان : جبران تويني صاحب «النهار» ، محيي الدين النصولي أحد صاحبَي «بيروت» ، الياس حرفوش صاحب «الحديث» ، حنّا غصن صاحب «الديار» ، وتوفيق يوسف عوّاد صاحب «الجديد».

ومن سوريّا : نجيب الريّس صاحب «القبس» ، معروف الأرناؤوط صاحب «فتى العرب» ، ووديع صيداوي صاحب «ألفباء».

لا أنسى اعتزاز فريد مدوّر بالبشرى عندما حملها إلينا في مكاتبنا ، وخوضه في عجائب ما سنلقاه في زيارتنا. ولا عجب فقد كنّا أوّل وفد صحافيّ عربيّ يتلقّى مثل هذه الدعوة ، فكيف إذا كانت الداعية هي بريطانيا العظمى – هكذا كان يردّد علينا مدوّر – الإمبراطوريّة التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها والتي أصبح انتصارها على ألمانيا قاب قوسين أو أدنى – الكلمة له أيضًا – وسننزل ، قال ، ضيوفًا على حكومة صاحب الجلالة ، لا يومًا أو يومين ، ولا أسبوعًا أو أسبوعين ، بل شهرًا كاملًا.

ركبنا في أوّل تموز ١٩٤٥ من بيروت طائرة أشبه بالقبّوط إلى القاهرة. وفي القاهرة لاقتنا طائرة حربيّة آتية من الهند ، لها في جوفها بنكان حديديّان متقابلان ، وبقيّة أقسامها للآلات والأسلحة. وما هدر المحرّك حتّى اصفرّ معروف الأرناؤوط واصطكّت ركبتاه وهبّ يطلب النزول. فردّه نجيب الريّس من كتفه. ولمّا انطلقت الطائرة في الجوّ وأخذت تهبط في جيوب الهواء كان قلبه يهبط بين قدميه مع ارتفاع صوته بالفاتحة ، أو انبطاحه على الأرض –كان الأرناؤوط معروفًا ببراعته في الأنكلة ، أي المزاح في لغة الشوام ، فكنّا لا نميّز الجدّ عنده من الأنكلة – الياس حرفوش تسلّم حنّا غصن من الاسم الفرنسيّ النبيل الذي كنّا نطلقه عليه ، جان دي لا برانش ، وخصوصًا من سمعة الشوْم التي كانت له ، فيلتفت إلى جبران تويني ويقول :

–كيف تريد ، يا أستاذ جبران ، أن نصل سالمين ومعنا حنّا؟!

حنّا ما أحسّ بشيء. كان يروح ويجيء بيننا وبين قائد الطائرة ومعاونيه فخورًا بإتقانه ، دون أكثرنا ، اللغة الإنكليزيّة ويترجم لنا على هواه.

محيي الدين النصولي كان يقرأ في تاريخ إنكلترا المطوّل.

جبران تويني يلازم وقاره وعقدة حاجبيه ، لا ينسى أنّه إن لم يكن رئيسًا للوفد ، لأنّ إنكلترا لم تعيّن

رئيسًا ، فهو رأسه دون منازع .

وديع صيداوي يشرح أشياء وأشياء لنجيب الريّس شرح المعلّم البليد لتلميذه النابه .

وأنا أتفرّج وأضحك .

على سيرة الترجمة التي ظلّ حنّا غصن يروح بها ويجيء انضمّ إلينا في لندن إميل البستانيّ بوظيفة ترجمان – محلّف أو غير محلّف الله أعلم – كان يحلم ، قبل «الكات» ، شركة الأعمال الكبيرة التي أنشأها ، بأن يكون على رأس مؤسّسة صحافيّة على غرار مؤسّسة طومبسون. وكانت وزارة الإعلام قد عيّنت لنا مرافقًا هو الجنتلمان الإنكليزيّ الذي نسمع به ، فإذا هو في خدمتنا واسمه الجنرال بولوك. فكان إميل البستاني ظلّه في جميع الزيارات والتنقّلات التي قمنا بها طول تلك المدّة بين وسط إنكلترا وجنوبها .



كانت لندن خرابًا بعد الضربات التي أنزلها بها هتلر ، ما بقي فيها سليمًا إلّا صلابة أمّة بيوت أبنائها من طوب ، وأرض شوارعها من خشب ، وأعصاب رجالها ونسائها من فولاذ. الأمّة – حكومة وجيشًا وشعبًا – انصهرت عن بكرة أبيها في بوتقة النار وهبّت هبّة واحدة ، يطلب منها تشرشل بذل الدموع والدماء فتعطي الوطن بسخاء ، وإصبعاه مرفوعتان إلى السماء بعلامة النصر ، حتّى كان النصر.

أمّا نحن فزيارات للأحياء المتهدّمة في النهار ومقابلات . وفي الليل – ونصفه في لندن نهار إذ لا تغيب الشمس في تموز إلّا بين التاسعة والنصف والعاشرة – روحات وجيئات على الأرصفة ونزهات في الحدائق كنّا نتفرّج فيها على العشّاق...

يا الله من لندن في الحرب ! حسنًا فعل مرافقنا الجنرال عندما قال لنا : «لندن السلم غير لندن الحرب». يريد إنقاذ سمعة عاصمته. فالأرصفة والحدائق تعجّ بالألوف من الأزواج ، جنودًا – أميركيّين في الغالب – ونساء. يسندون الحيطان ، ينبطحون على الحشيش. في السيّارات والتراموايات ، في الممرّات والمحطّات ، لا تقع العيون كيفما مالت إلّا على عناقيد الوصال . وكلّ مشغول بشأنه عن الآخر ، لا يلتفت إليه .

هتف نجيب الريّس وكأنّه يهتف بوجه السماء :

– أخي ! كيف يستطيع الجماعة أن يربحوا الحرب ؟

فأجابه جبران تويني :

– بهذه الطريقة بالذات. الجماعة يُحسنون الموت لأنّهم يُحسنون الحياة.

ثمّ عاد جبران يتمشّى ويردّد ، وهو ينظر حواليه :

– «أيا عطشي والماء يجري...»

فأسأله عن البقيّة فيجيب :

– قصيدة لشاعر قديم يكفينا منها هذا الشطر المبتور وفيه كلّ البلاغة .

وفجأة اقتحمتنا ثلاث نساء. تعلّقت الأولى بعنق نجيب الريّس ، وقبّلت الثانية جبران تويني في فمه ، وتناولتني الثالثة من ذراعي ومضت في أصناف من الغزل باللغة الإنكليزيّة. وفتقت القريحة لنجيب ، فصاح معارضًا :

– «أيا خرسي والحبّ يدعو...».

وهو ما يزال مطوّقًا بالمرأة. يريد أن يقول إنّه هو الآخر ، كمثل جبران ، كمثلي ، لا يعرف الإنكليزيّة . ولكنّي أقسمت لها ، بعد أن افرنقعت البغايا عنّا ، وأعيد القسم هنا ، أنّني ما حمدت الله على مكروه في حياتي كحمدي إيّاه في ذلك اليوم على جهلي الإنكليزيّة .

بلى. مرّة واحدة تحسّرت . في لندن نفسها ، وفي الرحلة إيّاها. خرجت ذات صباح من الفندق ، فإذا على بابه امرأة – سيّدة؟ آنسة ؟ لست أدري – على رأسها قبّعة وفي يدها مظلّة. من رأى الإنكليزيّة

الأصيلة تتكئ على مظلّتها؟ ماذا كانت ترتدي؟ ما لون بشرتها؟ ما لون عينيها؟ ما عمرها؟ ما كانت تريد؟... جمدت في مكاني أنظر. وظلّت هي جامدة تنظر. وفجأة خيّل إليّ أنّ قوس قزح قد انعقد بيني وبينها، وأنّ بعضنا يمشي عليه إلى بعض في ابتسامتين. وخطوت خطوة، واختلجت شفتاي تهمّان... ولكن بأيّ شيء؟

وداعًا، أيّتها اللادي، وعذرًا، فأنا لا أعرف الإنكليزيّة. قلتها لنفسي، وكسرت طرفي وقلبي، وانصرفت بصورة لندن السلم، وأنا ما أزال أحملها إلى اليوم.

إلى اللقاء أيّتها اللادي، يا أميرة المجهول، يومًا ما، بعد أن أتعلّم الإنكليزيّة، على باب فندقي في لندن، الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين. ولا تنسي المظلّة!

٦

في الكتابة لم يكن أسخى من الرفاق: محيي الدين النصولي صفحة كاملة كلّ يوم وأحيانًا صفحتان في «بيروت» عن الرحلة الميمونة. ينافسه وديع صيداوي في «ألفباء» دمشق. جبران تويني كان مقتصدًا. وكذلك نجيب الرّيس.

سَطيح: وأنت؟

شِقّ: أنا بعثت إلى «الجديد» باللازم.

سَطيح: يعني؟

شِقّ: ستّ أو سبع مقالات، لا أذكر. ولكنّي عوّضت بعد عودتي. كتبت سلسلة مقالات بعنوان «أنا عائد من لندن».

ولكن، قبل العودة، هاتان الحادثتان: الأولى عنوان الرحلة والثانية خاتمتها.

١ – كان الجنرال بولوك قد أفهمنا منذ البداية، – ومن لم يفهم أفهمه إميل البستانيّ بالعربيّ الفصيح – أنّ الإنكليز يلتزمون في الحرب نظام التقنين في الموادّ الاستهلاكيّة مع التقشّف فيه، ابتداء من أفراد الأسرة المالكة إلى آخر عامل في مناجم الفحم مرورًا بالوزراء واللوردات. لكلّ حصّته المحدّدة من المأكولات والملبوسات، والمحروقات والأدوات إلخ. تعطيه وزارة التموين دفترًا ذا قسائم –كوبونات– معادلة بقيمتها الماليّة لما يمكنه أن يشتريه في حدود حصّته.

أعطانا الجنرال بولوك، على سبيل الهديّة من وزارة الإعلام، دفترًا لكلّ واحد فيه ٢٥٠ كوبونًا. وللتدليل على تطبيق النظام قال:

– الكرافات، مثلًا، بخمسة شلنات. تدفعون مع الخمسة شلنات خمسة كوبونات. وهكذا دواليك.

كان ذلك في الفندق صباح اليوم الذي تلا وصولنا. وأضاف:

– تفضّلوا للغداء. على الطعام نلتزم نظام الصحن الواحد.

فاستعاذ نجيب الريّس بالله:

– صحن واحد!

حنّا غصن شدّ الحزام على كرشه. ومعروف الأرناؤوط قلب شفته السفلى:

– شرط أن لا ندفع ثمن الطعام. أنا راجع إلى الشام...

فبادر إميل البستانيّ إلى التصحيح:

– لا. ثمن الطعام عليهم، فأنتم ضيوف. عليكم فقط ما يعادل هذا الثمن من الكوبونات.

على الغداء اختار كلّ منّا صحنه على ذوقه مع الفروتّو – الفروتّو يلحق الصحن الواحد ولا يصير به اثنين – وشاء لي الحظّ أن يكون صحني من المآكل التي يهيّئها الإنكليز على طريقتهم الخاصّة، فما ذقت منه لقمتين حتّى عفته. وجعلت أشير إلى الخادمة وأناديها: مس! مسز! مس! وأنقذ من الفروتّو، الذي كان قد جاء ملحقًا بصحني، ما أتسلّى به حتّى تأتي فأطلب

قطعة جبن أسدّ بها جوعي.

هزّت برأسها ما معناه: نو! نو! فطلبت إلى حنّا أن يترجم، فجعلت تحملق. لا شكّ أنّ حنّا عملها معي فهو يترجم لها، مثلاً، أنّني أطلب منها موعدًا. وإلّا فعلامَ هذا الغضب الشديد، وما معنى هذا الكرز تكرزه عليّ بالإنكليزيّة وترفع إصبعها في وجهي!

ولكنّ إميل البستانيّ لم يلبث أن ضحك ضحكته الكرّارة وفسّر لي:

– كان عليك أن تختار: إمّا الفروتّو، وإمّا الجبن. الصحن الواحد لا يلحق به إلّا واحد من الاثنين، لا الاثنان معًا.

٢ – قبل أسبوع من عودتنا إلى الأوطان انطلقنا في الأسواق نشتري لزوجاتنا وأولادنا بعض الهدايا والتذكارات. وما هي حتّى نفدت كوبوناتنا في يومين. ولا أذكر من منّا فتق له – لعلّه وديع صيداوي – أن نفاتح الجنرال پولوك بالأمر. فاعترض إميل البستانيّ. وقرّ الرأي، بناء على اقتراح الياس حرفوش، «أن نذهب إلى رأس العين» (كذا). إلى وزير الإعلام بالذات.

– ألا تذكرون بأيّ لطف استقبلنا لدى وصولنا؟

وكان تمام الرأي أن لا نُطلع مرافقنا الجنرال پولوك على ما بيّتناه. قلنا له إنّنا نريد أن نودّع معالي الوزير ونشكره. ويا ليتنا فاتحنا الجنرال بالأمر، إذن لكنّا وفّرنا علينا الخزي الذي خرجنا به من عند الوزير. قال معاليه:

– أعطينا الواحد منكم ٢٥٠ كوبونًا لشهر، أي ما يناله الإنكليزيّ لسنة. «صُري!».

ونهض نهضة واحدة عن كرسيّه، وودّعنا باللطف ذاته الذي لم ينسَه الياس حرفوش.

ولكنّ الحكاية لم تنتهِ. خرجنا بعد ظهر ذلك اليوم إلى ضاحية من ضواحي لندن، ودخلنا في قرية صغيرة ذات سوق واحدة، وفي السوق واجهة معروض فيها كلسات صوف من الجنس الذي لا يجيده إلّا الإنكليز.

قال معروف الأرناؤوط:

– أنا رجل برّيد، والشتاء على الأبواب، والشام – على أنّها أمّ الدنيا – ليس فيها مثل هذه البضاعة. تعالَ معي، يا حنّا، وترجم. أنا سأتغافل عن كلّ شيء. ومن دفتر الكوبونات، كما تعلم، لم يبقَ إلّا الجلد الذي رميته على باب مكتب الوزير.

إختار معروف زوجين. ولحق به نجيب، فقلّب وجسّ وفرك، واختار ثلاثة. وأنا وجبران ننظر وننتظر. وسحب معروف محفظته، وسحب نجيب. فجعل البائع يعدّ، ومعروف يغمز حنّا بما معناه: «مشي الحال». ونجيب نطق بها عاليًا:

– إي شو بدّو يوصّل النظام لهون أخي!

ولكنّ البائع التفت إليه فإلى معروف قائلاً:

– والكوبونات؟

حينئذ جاء دور حنّا بالترجمة، فأخذ يشرح للبائع أنّنا نحن كلّنا – وكنّا كلّنا قد تجمّعنا في داخل المحلّ – كلّنا غرباء. وأضاف بإنكليزيّته التي لا غبار عليها:

– ندفع بدل الكوبونات شلنات، ونعوّض بالثمن ما شئت من زيادة.

ولكنّ البائع اعتذر باللطف الإنكليزيّ – إيّاه – وردّ الكلسات إلى الواجهة...

بمثل هذا ربحت بريطانيا العظمى الحرب.

٧

سَطيح: قلت إنّك كتبت في «الجديد» بعد العودة إلى بيروت سلسلة مقالات بعنوان «أنا عائد من لندن».

شِقّ: صحيح. مقالات وصفت فيها انطباعاتي عن الزيارة وصفًا يعجبك كما أعجب الناس.

سَطيح: ولكنّه لم يعجب الإنكليز.

شِقّ: أفتّش حتّى اليوم في ذاكرتي – ضاعت مجموعة

«الجديد» اليوميّة في ما ضاع لنا في حرب السنتَين – فلا أجد إلّا التكريم والتعظيم لإنكلترا حكومة وجيشًا وشعبًا. أتذكر أنت؟

سَطيح : كلّ ما أذكره أنّ حسابات الجريدة التي كنت تكلّفني القيام بها قد نقصت في آخر الشهر – خانة الواردات – خمسين ليرة. وبيان ذلك أنّ السفارة البريطانيّة في بيروت كانت ترسل إلينا برنامج محطّة لندن الـ B.B.C. ننشره لها في «الجديد» مقابل خمسين ليرة كأيّ إعلان من حجمه. بعد الحلقة الأخيرة من السلسلة قطعوا عنّا الإعلان.

شِقّ : لماذا؟

سَطيح : لماذا! لماذا! لا تتغافل، أرجوك. كان الجنود الإنكليز، بعد طردهم الفيشيّين من لبنان، يسرحون عندنا ويمرحون بقاماتهم الفارعة وأزرارهم البرّاقة، فعلقت بحبّهم العشرات من بناتنا المصونات وتزوّجن منهم، ولم يكن الزواج موفّقًا في الغالب. جنابك لم تجد أخطر من هذا الموضوع فتناولته في إحدى مقالاتك بما فسّره الجماعة بأنّ الإنكليز ليسوا من مزاويجنا.

شِقّ : لا أنكر ذلك.

سَطيح : (شامتًا) : وتدّعي أنّك صحافيّ؟! الصحافيّ، يا صاحبي، يجب أن ينتهز الفرص. فرصة أخرى أفلتّها من يديك بعد فرصة الشركة مع أصحاب «لوجور». الصحافيّ، يا شِقّي العزيز، يجب أن يعرف من أين تُؤكل الكتف.

شِقّ : (هامًّا بأن يطعم سَطيح شيئًا آخر) : رُح عنّي! يجرد سَطيح. يعود إلى دفاتر حساباته، يقلّب فيها كاظمًا غيظه. يفتح دُرج مكتبه بغضب.

سَطيح : علينا أن نشتري ورقًا للعدد. المطبعة تلحّ في طلب الورق. يجب أن يحضر الورق بعد ساعة على الأكثر.

شِقّ : أعطِني ما في دُرجك من مال.

سَطيح : ليس في الدُرج إلّا معاشات المحرّرين والمستخدمين. وهذه أوصيتني أنت أن لا أمسّها. لم يبقَ إلّا استعارة الورق من الزملاء.

شِقّ : (يبادر الباب) : قُم ندور على الزملاء.

– شارع المعرض، تحت القناطر، وأنا أركض لاهثًا، قافزًا بين البنادورى والخسّ والبطاطا والليمون وناطحًا أقراط الموز، ينادي عليها الباعة ويقلّبونها بوجوه الشارين. تقف عجوز عند بائع موز. تفحص قرط الموز. لا تشتري، قالت، قبل أن تذوق واحدة. وترمي قشرتها على الرصيف. في عماي أدعس على القشرة وأقع على طولي.

وإذا بذراعين تنهضانني من كتفيّ من الوراء وبصوت يناديني باسمي. هذا الصوت أعرفه. فاستدرت:

– أبي!

وهممت بمواصلة طريقي وأنا أُفهمه أنّني مستعجل:

– الجريدة تحت الطبع. وأنا أفتّش لها عن الورق اللازم. أُتركني. كيف أمّي؟ أُتركني.

لم يتركني. صاح بي:

– إسمع. هذا الركض إلى أين؟ ورق أو غير ورق. جريدة. مطبعة. أنت تركض دائمًا. إسمع هذه الحكاية.

– فيما بعد. أزوركم في البيت وتحكيها لي.

ولكنّه أبى. قال وقد عاد إلى الانبساط:

– أنت مثل جحا. أتعرف حكاية جحا مع النشادر؟

كان لجحا حمار حمّله كيس قمح ونزل به إلى الطاحون. وكان بيت جحا في رأس الضيعة، والطاحون في كعبها. في العودة قصّر الحمار، فجعل جحا يستحثّه بالسباب حينًا وبالعصا حينًا، ولكن دون جدوى. فمرّ به أحدهم وقال له: خُذ، يا جحا، هذه الحفنة من النشادر (وهو نوع من الفلفل الحارّ) إمسح به قفا حمارك، وأعطني من أخبارك. ففعل جحا كما قال

له. فنطّ الحمار ينهب الطريق. فعجز جحا عن اللحاق به وحار في ما يفعل. أخيرًا كشف، وأجرى على نفسه ما أجراه على الحمار، فكان أثر العلاج فيه أثره في الحمار: قفزًا عجيبًا ووثبًا وطيرانًا. وتجاوز الحمار البيت، ووراءه جحا، فأطلّت خالته على الباب ونادته:

– يا جحا البيت هنا، إلى أين؟

فأخرج من جيبه ورمى إليها صائحًا:

– حطّي، يا خالتي، والحقينا!

٨

سَطيح: بعد ظهر اليوم التالي –كان يوم خميس والمدارس تعطّل بعد ظهر الخميس– زارنا في المكتب بكرنا ربيع. كان في الثامنة من عمره. وكنت أنت منهمكًا بكتابة افتتاحيّتك. تكتب وتشطب على عادتك، والسيكارة بظهر السيكارة. فنهرته لأنّه حكّ بطاولتك: «أبعد عنّي يا صبيّ! رُح عند عمّو قيصر».

شِقّ: بربّك لا تذكّرني هذه الحادثة. لا تذكّرني.

سَطيح: ربيع لا ينساها وهو يذكّرك إيّاها دائمًا وتطفر الدمعة إلى عينه.

شِقّ: ألا ترى مثلها الآن في عيني؟

سَطيح: كان محترَف الشيخ قيصر الجميّل لِصق مكتب «الجديد» في البناية نفسها. إستقبله عمّو قيصر بحرارة التأهيل التي كانت له: «يا هلا! يا هلا بربيع!». وسمعنا صوته...

كان الجميّل أحد ثلاثة من الروّاد في جيله. الآخران هما عمر أنسي ومصطفى فرّوخ. وكان صديقًا حميمًا لي، على عِشرة هي النبل والبشاشة وحسن الظنّ بالناس، مع إيمان برسالة الفنّ وصَون له عن التبذّل مهما اشتدّت المغريات أو ألحّت الضرورات. وستظلّ لوحاته تنطق باثنين: حبّه للمرأة وحبّه لهذه الطبيعة الفاتنة التي كانت تنبسط أمام عينيه الزرقاوين الحالمتين وهو يطلّ عليها من بيته في عينِ التفّاحة. شاعر النضارة، يغمس ريشته في سمرة هذه الأرض وفي زرقة هذه السماء، ويلقط بها أنسام لبنان بين جبله وشاطئه، ويستنزل ذهب شمسه فيعجنه مع ألوانه، وينفخ فيه من روحه عطرًا على عطر. أمّا المرأة فأكثر ما حطّت عليها ريشته عارية. ولعلّه أوّل فنّان لبنانيّ اتّخذ لنفسه موديلًا: فتاة حييّة كانت تتردّد عليه في محترَفه، فتمكث ساعة أو ساعتين ثمّ تنصرف بالحياء كما جاءت.

وكان قيصر يدعوني كلّما أنجز رسمًا فأقف أتأمّل وهو يشرح لي. فإذا فرغ من الشرح والتفسير وسألني رأيي هتفت به:

– ما يزال هذا «الغافي بالربّ» هو المفضّل عندي.

والغافي بالربّ لقب أطلقته على رسم له يمثّل راهبًا يغمض أجفانه إغماضة تتحيّر بين النعاس والصلاة، ما أدري ما كانت توحي إليّ كلّما نظرت، وأيّ دنيا كانت تنقلني إليها من لبناننا العتيق، الفائح برائحة القداسة.

سَطيح: ما كدت أنت تفرغ من افتتاحيّتك – وكانت سمًّا زعافًا ذلك اليوم – حتّى دخل علينا الشيخ قيصر وبيديه ورقة يبسطها: «أُنظر يا أبا ربيع! أُنظر ما رسم ربيع! أنا مشغول، قلت له، خذ هذا القلم وهذه الورقة واقعد هناك على الطاولة وارسم هذا الراهب المعلّق على الحائط. أبوك يحبّه. وانصرفت أنا إلى فرشاتي. ثمّ تذكّرت الصبيّ فدنوت منه وانحنيت أريد أن ألاطفه فجمدت. كان ربيع قد نقل الغافي بالربّ طبق الأصل: الخطوط والتعاريج، الظلال والأضواء، وحتّى حرارة الإيمان! ربيع سيكون فنّانًا عظيمًا. أُتركوه لي!».... أتذكر ما فعلت أنت يا ظالم؟

شِقّ: (يخفض رأسه ولا يجيب).

سَطيح: نترت الورقة بعنفك المعهود ومزّقتها صارخًا

بالصبيّ: «إيّاك أن تعيدها!» ورحت تسبّ الرسم والنحت والأدب والشعر والفنون جميعًا. «لا شيء من هذا كلّه لا شيء. تعلّم مهنة تطعمك خبزًا».

شِقّ: لا تنسَ أنّ فنّاني ذلك الزمان: قيصر الجميّل، مصطفى فرّوخ، عمر أنسي، ومن قبلهم سرور والصليبي والقرم، كانوا لا يكسبون من فنّهم إلّا القليل الذي لا يغنيهم من جوع.

سَطيح: لو عاشوا إلى هذه الأيّام ليروا إلى السطحاء حاملي سطول الدهان، تُباع لوحتهم بعشرة آلاف، بعشرين، بثلاثين ألف ليرة. أو لو عاشوا ليروا على الأقلّ إلى أثمان لوحاتهم كم ارتفعت وترتفع عامًا بعد عام.

شِقّ: بعد موتهم. بعد موتهم (يضحك بمرارة). الفنّانون يعيشون بعد موتهم.

سَطيح: بعد يومين أهدى إلينا قيصر الجميّل الغافي بالربّ، هذا المعلّق في غرفتنا هنا، أُنظر. أنظر. سيبقى أمام عينيك ليضربهما صباح مساء بالذكرى الرهيبة.

يسألني ربيع مرارًا: «ماذا تعمل يا أبي؟» فإذا قلت له «أكتب» هتف: «نيّالك يا بابا!» بالغصّة التي أورثه إيّاها الحادث. ويطلب منّي دائمًا أن أقرأ له. وأسجّل هنا أنّه، بين جميع الذين أبدوا رأيًا في ما نثرت ونظمت، ناقدي المخيف.

من حقل الدبلوماسيّة

١

ذات صباح من خريف ١٩٤٦ ، حوالى الساعة العاشرة ، رنّ التلفون على مكتبي في «الجديد».

– آلو! آلو! آلو.

لا أحد.

كانت المخابرات في ذلك الزمان تتمّ بواسطة السنترال ، ولم نعرف التلفون الأوتوماتيكيّ إلّا بعد سنين عديدة. كانت المدموازيل في السنترال تتلقّى الطلبات وتسجّلها على دفتر لها بالدور. وربّما تأخّر دور الطالب ربع ساعة أو أكثر ، فإذا كان مستعجلًا أو عصبيًّا قامت القيامة بينه وبين المدموازيل تذكيرًا وتجديفًا وتكسيرًا للتلفون.

وكان تلفوني قد قام بالخدمة في نيويورك طوال عشرين سنة ، قبل أن يحمله المرحوم إبراهيم حتّي ، صاحب شركة السفريّات ، تذكارًا لإقامته في أميركا. أهداه إليّ بعد أن عجزت عن الحصول على آلة في السوق. أنتيكا! له عنق كعنق البجعة تتعلّق به سمّاعتان ، واحدة ببوق للمتكلّم ، والأخرى مع شريط طويل لمن يريد أن يرافق الحديث بين المتكلّم والمخاطب. شيء يذكّر بما يسمّونه بالفرنسيّة الزواج الثلاثيّ ménage à trois وقد يصبح رباعيًّا إذا أمسك رابع على الطرف الآخر.

– آلو! آلو! من فضلك الأستاذ عوّاد.

كنت منصرفًا إلى الكتابة ، فأزعجني الأمر في المرّة الثانية أضعاف ما أزعجني في الأولى. ولكنّي لم أعرف من يطلبني حتّى هدأت أعصابي. فقد كان على الخطّ فؤاد عمّون ، الأمين العامّ لوزارة الخارجيّة والمغتربين ، ورئيس محكمة الجنايات قبل ذلك ، وقبلها الكاتب الأوّل في ديوان الملك فيصل على أثر دخوله دمشق بعد انهزام تركيا في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨.

كنت أعرف الأستاذ عمّون منذ عهده بقصر العدل. أحضر بعض جلساته لمتابعة الجرائم الكبرى والكتابة عنها في «النهار» وغيرها من الجرائد التي عملت فيها. ولمّا أنشأت «الجديد» كان في طليعة المشتركين فيها. فإذا التقيته في الشارع بوجهه الجميل ، وقامته المديدة ، وبحقيبته الجلديّة الأنيقة يشدّها تحت إبطه ، وقفنا للسلام والكلام ، فلا يفوته أن يُثني على هذا المقال أو ذاك من افتتاحيّات «الجديد» ثمّ يتابع جريه. كان دائمًا مستعجلًا في الوصول إلى مكتبه والانكباب على أوراقه ، وكأنّه كان يحمل ضميره في تلك الحقيبة ولا يستريح به إلّا على تلك الأوراق. وتشهد الطريق من منزله في حيّ المصيطبة إلى قصر العدل ، فإلى قصر بسترس (مقرّ وزارة الخارجيّة والمغتربين) – وكان يحلو له أن يقطع المسافتين على قدميه – بأنّه لم يعرف المشي

على الطرق إلّا خطفًا ، وصعود الأدراج إلّا قفزًا وطيرانًا .

قلت إنّ فؤاد عمّون كان يومذاك الأمين العامّ للوزارة المذكورة . ويقينًا لم تنطبق معاني الأمانة العامّة على أحد في لبنان ، ونادرًا ما انطبقت على أحد تحت السماء ، كما انطبقت عليه . كان حجر الزاوية في الوزارة وكان عينها الساهرة وعقلها المفكّر . وكان خصوصًا وقبل كلّ شيء خزانتها الزاخرة بكلّ تراث لبنان وهمومه ومطامحه .

دعاني الأستاذ عمّون بذلك التلفون إلى فنجان قهوة عنده في الوزارة ، أو عندي في الجريدة إذا أحببت . فقلت :

– بل عندك يا فؤاد بك . وبكلّ سرور . ولكن ما الأمر؟

قال : نتحدّث على القهوة .

* * *

كانت وزارة الخارجيّة والمغتربين في مرحلة التأسيس . وكانت منصرفة ، بهمّة الأستاذ عمّون ، ومن ورائه الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهوريّة ، إلى تعبئة ملاكاتها بعناصر تختارهم من رجال السياسة والصحافة وبعض الشباب الطالع ، وأنظار الاثنين : الشيخ والأستاذ ، مصوَّبة إلى الذين عملوا منهم في سبيل استقلال لبنان ، فهم أحقّ من غيرهم في قطف الثمار وأجدر في مواصلة العمل في الخارج ، تعريفًا بالدولة الجديدة ورفعًا لعلَمها بين أعلام الدول .

الخلاصة ، كاد فنجان القهوة يقع من يدي للمفاجأة التي واجهني بها الأستاذ عمّون . «موظّف ! (صاح شِقّ في داخلي) هل عمّرت في صباي وشبابي كلّ تلك القصور والعلالي لأصير في النتيجة موظّفًا ! »

– لا . لا . يا فؤاد بك . لست في هذا الوارد . وألف شكر على فنجان القهوة .

وتهيّأت للانصراف . فدعاني إلى التريّث وجعل يشرح لي أنّ الوظيفة التي تنتظرني :

– قنصل ! (قال ذلك وفتح عينيه الحلوتين بشعاع مغرٍ) . تبدأ بقنصل وتصبح بعده وزيرًا مفوّضًا .

وكانت بعثات لبنان الدبلوماسيّة على مستوى المفوّضيّات ولم ترتقِ إلى مستوى السفارات إلّا فيما بعد . ثمّ تابع خطابه :

– والعرض ليس منّي وحدي . بل هو من الشيخ بشارة كذلك . المرسوم بتأليف البعثة إلى الأرجنتين جاهز . وستذهب بصحبة صديقك وزميلك جبران تويني . ومعكما محمود حافظ وسعيد المبري . أمهلك أسبوعًا للتفكير .

في المساء أخبرت شريكة حياتي بما حصل . واتّفق أن كان عندنا في البيت بعض الأهل والأصدقاء . الواقع أنّ سَطيح كان فخورًا بالعرض ، وتركه شِقّ يملّح فيه ويبهّر . هذا يوم سَطيح . أليس من اللياقة أن يترك له صاحبه يومًا يخرج فيه من جرابه ويتصدّر المجلس ؟

وقعت كلمة قنصل على رؤوس الجماعة وقوع المنّ من السماء . وكانت ذكريات قناصل الدول الأوروبيّة تحت الحكم التركيّ ما تزال ماثلة للأذهان . كان قنصل فرنسا وقنصل إنكلترا وقنصل روسيا ، وغيرهم من قناصل الدول الموقّعة على بروتوكول ١٨٦٤ والضامنة لامتيازات لبنان «مرقد العنزة» ، ذوي مكانة أين منها مكانة سفراء هذه الأيّام ! وكانت دورهم مقصدًا مشرّفًا لكبار القوم ، فيما يرسمون سياسة لبنان ويتقاسمون نفوذهم على طوائفه ، متزاحمين في ذلك تزاحم الدول العربيّة اليوم في رعايتها لأحزابه ومنظّماته ، ومدّها بما يلزم .

– قنصل؟ كيف ترفض ، يا شِقّ ، أن تكون قنصلًا؟

في نهاية الأسبوع رنّ جرس التلفون في مكتب «الجديد» ، وكان الأستاذ عمّون مرّة ثانية على الخطّ . قال :

– يجب أن يصدر المرسوم يوم الاثنين (كنّا في يوم السبت) وسينزل فيه اسمك. فما تقول؟

٢

في تشرين الأوّل ١٩٤٦ بعت امتياز «الجديد» للمحامي الأستاذ محسن سليم. بعد التوقيع على العقد دعاني إلى الغداء فاعتذرت. قصدت إلى منزلي. أخبرت زوجتي. ولمّا عاد ربيع من المدرسة أخبرته فلم يصدّق. لم يكن يتصوّر حياتنا بدون «الجديد». كان ينتظرها كلّ صباح ليقرأ فيها ما يكتب أبوه. فلمّا كان الليل غطّى رأسه باللحاف وجعل يشهق.

الليل، أنا كذلك لم أنمه. كانت عيناي في السقف، وزوجتي إلى جانبي تحاول أن تفتح بيننا حديثًا عن الاستعدادات للسفر فأردّ عليها بلا أو نعم، ثمّ أنظر إلى سرير ابني فأرى اللحاف ما يزال يصعد بصدره ويهبط.

سَطيح: المال نشتري ببعضه ما نجهّز به أنفسنا من ثياب لائقة بالقنصل. أمّا ما بقي فلشراء سيّارة القنصل.

شِقّ: لا تهمّني الثياب ولا السيّارات.

سَطيح: شيء لا يعجبك في الصفقة؟

شِقّ: لا تعجبني من حيث هي. أحسّ أنّني...

سَطيح: أتشهق مثل ربيع؟ ربيع طفل.

شِقّ: سأظلّ طفلًا. سأظلّ هذا الطفل الذي يشهق تحت اللحاف مهما طال بي العمر.

سَطيح (بشيء من الحسم): بعنا وانتهينا. دعنا ننم.

شِقّ: أحسّ أنّني بعت شيئًا من روحي.

سَطيح: عدنا إلى الكلمات الكبيرة!

شِقّ: الكلمات الكبيرة للأشياء الكبيرة.

سَطيح: أنا لا أحبّ الأشياء الكبيرة ولا الكلمات الكبيرة.

شِقّ: أخشى على قلمي الخشب أن يزحمه قلم العاج على مكتب القنصل ويطرحه في الظلمة البرّانيّة.

سَطيح: يا ما طرحت أقلامك ومزّقت أوراقك ودعوتني إلى الاشتراك في دوسها بالأقدام.

شِقّ: كانت ساعات غضب.

سَطيح: كلّ يوم برأي. كلّ ساعة بنغمة جديدة. الأخيرة ردّدتها عليّ ألف مرّة: الصحافة! الصحافة! متى أتخلّص من مهنة المتاعب؟ ثمّ تشرح لي وتفسّر.

شِقّ: لا يغرّنّك اهتمامي بالصحافة. أنا لا يهمّني إلّا ما اتّصل منها بالكلمة الجميلة. الكلمة الكريمة.

سَطيح: ولذلك تراكمت علينا الديون. لو أبقيت، يا شِقّ يا شقّي، على أتربتنا وأخشابنا وحدائدنا... الصحافة ترابة وحديد وخشب. أمّا الدبلوماسيّة فشيء آخر. تخشى على قلمك الخشب من قلم العاج على مكتب القنصل؟ أنا أخشى أن تنازعني يومًا ما على السموكنغ والبونجور والفراك، وفوقها الهودي فورم، فتلبسها متبخترًا في محافل العظماء ومجالس الملوك والرؤساء، وتضعني خلف ظهرك.

شِقّ: لن أستغني عنك. لن أستغني عنك، يا عزيزي سَطيح، خصوصًا في تلك المحافل والمجالس الجليلة لأنّها تحتاج إلى الكثير ممّا هو عندك وليس عندي منه شيء.

سَطيح: ماذا؟

شِقّ: حركاتك وكلماتك المسطّحة.

سَطيح: ترى إذًا أنّ الواحد منّا يكمّل الآخر.

شِقّ: شرط أن تتركني أكتب في أوقاتي. أتعدني، يا سَطيح؟

سَطيح: اتّفقنا على هذا قبل التوقيع على العقد. وعد شرف.

شِقّ وسَطيح معًا: على الله الاتّكال.

سَطيح: يجب أن نودّع حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهوريّة المعظّم الشيخ...

شِقّ (مقاطعًا): قلت لك لن أستغني عنك.

سَطيح: ألم يقل لنا صاحب السعادة الأمين العامّ فؤاد

بك عمّون إن فكرة تعييننا جاءت من فوق؟
شيق : على رأسي.
سطيح : رأسي ، من الآن وصاعدًا ، إلى رأسك.

٣

كنت أعرف بشارة الخوري عن كثب بسبب «الجديد» ، ومن قبله بسبب «النهار» التي كان يتردّد عليها مع بعض السياسيّين. وقد قدّرت له التفاتته بصدد التعيين المشار إليه بالرغم من الحملة الشعواء التي قمت بها في «الجديد» عليه وعلى إميل إدّه. وكان القصد من تلك الحملة – كما يتبيّن من مراجعة مقالاتي – لا الطعن في الرجلين من حيث هما ، بل التنديد بحزبين متناحرين لم يكن لهما من الأحزاب إلّا الاسم ، والدعوة إلى إنشاء أحزاب على مبادئ ومناهج.

ولمّا خاض بشارة الخوري معركة الاستقلال ، بالاتّفاق مع رياض الصلح ، كانت «الجديد» في طليعة الصحف التي نفخت في بوق تلك المعركة. ثمّ إنّ الرجل قد حملته البلاد إلى رئاستها وجعلت منه راشيًا بطل الاستقلال ، وأنا مدعوّ قنصلًا فوزيرًا مفوّضًا – فسفيرًا في المرحلة الأخيرة من المطاف – أن أمثّل البلاد ورئيسها وأنطق باسمها ، فأقلّ واجباتي شكره ووداعه ، وأخذ البركة من يديه. وكان ، رحمه الله ، ما يفتأ يفرك بهما وهو يتحدّث إلى جليسه فكأنّه يفرك حبّة البركة إيّاها. وقد يحلّ محلّها أشياء أخرى يعرفها عارفوه ، لا ينطق بها ، فينقلب الفرك إلى تكسير وهصر ، وتفتيت وعصر...

عرفته في بيته وصحبه ، ورافقته بقلم الصحافيّ في لبنان وفي دنيا العرب ، فلم أعرف لبنانيًّا كان عنوان جيل كما كان ، ولا فردًا اختصر عبقريّة شعب وتاريخه وتقاليده وثقافته ورسالته جميعًا كما اختصرها في شخصه.

فذّ بين أجيال لبنان هو الجيل الذي ينتمي إليه. لقد كُتب له أن يشهد نهاية عهد وبداية عهد ، انهيار عالم قديم وقيام عالم جديد. في الحقبة الممتدّة بين أواخر عهد المتصرفيّة وأوائل عهد الاستقلال ، مرورًا بالانتداب سحابة ظلّه على هذه الأرض ، اشتدّت المنازعات السياسيّة وعصفت الأهواء والمطامع ، ونشبت خلال ذلك حربان عالميّتان كانت كلّ واحدة منهما تضع خرائط الدول على موائد التقسيم وتلعب بمصائر الشعوب. وإذا الجماعات التي يضمّها لبنان تستيقظ فجأة على أسئلة ضخمة قلّ أن واجهها شعب بمثل هذا العنف وهذا الإلحاح ، فكيف إذا كان في صغر رقعته وتمزّق مِلله ونِحله. أسئلة مصيريّة تعاون بشارة الخوري ورياض الصلح في البحث عن جواب لها ، فكان الميثاق الوطنيّ. وما زال الميثاق في جوهره ، بالرغم ممّا يقال عنه ، الجواب الوحيد على الأسئلة المصيريّة التي تُطرح علينا اليوم. وإنّ من يحمّله تبعة المحنة التي نعانيها منذ ١٩٧٥ لجاهل أو متجاهل لمأرب في نفسه. فليس الميثاق الوطنيّ إلّا دستورًا غير مكتوب ارتضاه اللبنانيّون ، مسيحيّين ومسلمين ، قاعدة للعيش المشترك في وطن حرّ سيّد مستقلّ. وإذا كان الميثاق قد أنشأ وطنًا فما ذنبه إذا كانت السياسات المتعاقبة من بعده لم تعرف أن تنشئ لهذا الوطن دولة تصون حرمته.

وكان الشيخ الرئيس – أوّل المسؤولين عن الميثاق – هو أوّل الموفّين به ، يفديه بالمنصب والجاه ، ويتقبّل النفي والسجن ، وإذا هو في راشيًا لا يهاب قوّة ولا يفلّ عزمه وعد أو وعيد. يغريه الجنرال كاترو باسم فرنسا بالعودة إلى سدّة الرئاسة إذا تخلّى عن رياض الصلح وعن بعض مطالبه فيجيبه : «إمّا كلّنا وكلّ شيء أو لا شيء».

يغمرني من جوّه ، وأنا أتذكّر ، وقار للنفس يحيط به كالهالة ، إلى مرح في ساعاته ، وثقة لا تتزعزع بالله. وكان ، إلى ثقافته الشاملة ، ذا تضلّع من اللغة العربيّة ، مجيدًا لبيانها ، غوّاصًا على ما فيها من حِكم

وأشعار يرصّع بها أحاديثه وخطبه. وفي يقيني أنّ وراء وعيه لقدر لبنان حوافز من هذه اللغة، وهي التي مكّنته من الاطّلاع على تاريخ العرب وتراثهم الثقافيّ والانفتاح على أهمّيّة الدور الذي سيكون لهم في المستقبل. ولذلك كان حبّه لها وحرصه على تكريسها اللغة الرسميّة الوحيدة في لبنان، بعد أن كانت تزاحمها وتغلبها في ظلّ الانتداب لغة أصحابه الحاكمين.

في الجمهوريّة الفضّيّة

١

سافرنا إلى بوانس أيرس بالطائرة ثمّ بالباخرة سفرة سندباديّة حافلة بالمخاطر. كيف أصف الاستقبال الذي استقبل به مغتربونا أوّل بعثة للبنان الحرّ، السيّد، المستقلّ؟ جموع بالآلاف شيبًا وشبّانًا، ونساء وأطفالًا، يحملون علَم لبنانهم ويلوّحون به، يتدفّقون على الباخرة، يعانقوننا، يحملوننا على الأكتاف، يهتفون ويصفّقون ويرقصون. زالت عنهم وصمة «توركو». سقطت لوحة «سيروليبانيز». هم لبنانيّون، والأرزة علامتهم، مكينة جذورها في الأرض، وأغصانها في السماء.

دشّنت حياتي الدبلوماسيّة بغلطة كبيرة.

واكبتنا جماهير المستقبلين في مظاهرة من المرفأ إلى النادي اللبنانيّ في العاصمة. وكان قد هيّأ لنا أصحابه حفلة للترحيب والابتهاج، فغصّت قاعته وغرفه وأروقته وأدراجه بالخلق، وظلّ الكثيرون في الشارع يستمعون إلى الخطب بالميكروفون.

فلمّا جاء دور «رسول لبنان سعادة الوزير المفوّض الأستاذ الكبير جبران بك تويني صاحب جريدة «النهار» الغرّاء ووزير المعارف وعضو مجلس النوّاب سابقًا» – هكذا قدّمه رئيس النادي – اعتلى جبران المنبر وألقى خطابًا حيّا فيه المغتربين، وعرض لمراحل النضال الوطنيّ الذي أدّى إلى استقلال لبنان، ثمّ عطف على الأرجنتين وأثنى على ضيافتها لأبنائه ورعايتها لهم في ظلّ قوانينها السمحاء، وختم متمنّيًا أن يوفّقه الله في خدمتهم ولمّ شعثهم وفي توثيق عرى المودّة والتعاون بين البلدين. ولم ينسَ، قبل أن يغادر المنبر، فنادى أعضاء البعثة وقدّمهم إلى الحاضرين مسمّيًا كلّ واحد منّا بوظيفته.

الخلاصة أنّ خطاب جبران كان ممتازًا، وقد صفّق له الناس طويلًا وعاليًا. وفيما كان رئيس النادي لذلك الوقت، الياس ريشا، وأعضاء النادي يهمّون بدعوتنا إلى المائدة العامرة التي أعدّوها لنا إذا بأصوات تتعالى:

– Que habla el senôr consul! Que habla el senôr consul!

أي «ليتكلّم السيّد القنصل!» وأعادوها مرارًا، مع دقّ على الطاولات، حتّى ثقبوا السقف وآذان شِقّ وسَطيح. ورأيت من واجبي أن ألبّي، وتعاون على حملي على القيام بذلك جهل سَطيح بالأصول واعتداد شِقّ بنفسه. فاعتليت المنبر، هكذا، دون أيّ استئذان من رئيسي، وألقيت خطابًا من كعب

الدّست! فهاجت القاعة وماجت، وهجم الناس عليّ يشقّون الصفوف ويحذفون الكراسيّ، حتّى كادت البعثة بأمّها وأبيها تروح تحت الدعس.

ربّما كان الذين طلبوا منّي الكلام من سامعي اسمي في السابق عن طريق الصحافة أو عن طريق الأدب. والمغتربون مولعون بسماع الخطب من وقت الخطيب الأكبر حبيب اسطفان الذي سحرهم وسحر الأجانب بذلاقة لسانه وتلاعبه بالأفكار والعواطف.

ربّما، قلت، ولست واثقًا. الراجح أنّهم من رأي السنيور آمادو دولسه، أي حبيب الحلو، الذي يملك أوستانسيا، أي مزرعة، بمساحة نصف لبنان، فيها نصف مليون رأس بقر ما عدا الأغنام والخيول والطيور. لم يستطع السنيور آمادو دولسه، لأشغاله، أن يأتي من ولايته البعيدة مندوسا للاشتراك في استقبال البعثة، فجاء بعد أسبوع لاهثًا يزورنا في فندق ألفيار حيث نزلنا في البداية، ويعتذر إلينا واحدًا واحدًا عن تأخّره. ولمّا ودّع الوزير المفوّض شدّ على يده بيديه الاثنتين وقال له:

– إنشا لله عن قريب نشوفك قنصل!...

* * *

القنصل. ولكن كيف يكون القنصل؟ ماذا يعمل القنصل؟ ما هي واجباته وصلاحيّاته – وحدوده – وكيف يقوم بالمعاملات التي تراكمت عليه منذ تربّع على كرسيّ القنصليّة ووضع قلم العاج على مكتبه؟ وماذا يقول لهذه الوفود من المغتربين يملأون مكتبه كلّ يوم، جلوسًا، وقوفًا، تحلّقًا فوق رأسه، ولكلّ قضيّة يطلبون لها حلًّا؟

سَطيح: لماذا لا نسأل قنصل فرنسا؟

شِقّ: معاذ الله!

لم يسبق لأحد من أعضاء البعثة أن كان في زمانه ديبلوماسيًّا. والدبلوماسيّة كلّها في ديار الاغتراب – إذا كانت هذه دبلوماسيّة – هي رعاية مصالح مغتربينا وتصريف معاملاتهم بين سلطات تلك الديار والسلطات اللبنانيّة. لذلك كان العبد الفقير يتحمّل عبء العمل وحده – والعمل كلّه قنصليّ – والوزارة لم تزوّدنا بأيّة تعليمات أو توجيهات.

بلى، أوصانا الشيخ بشارة الخوري والأستاذ فؤاد عمّون بالاستفادة من مهلة الاختيار الممنوحة للّبنانيّين، الذين كانوا خارج الوطن، من أحكام معاهدة لوزان ١٩٣٧ وحمل المغتربين على استعادة جنسيّتهم بموجبها. وكانت المهمّة تقع بالتحديد عليّ، فنشطت للقيام بالحملة في أندية الجالية بواسطة الخطب والمحاضرات، وفي الكتب بواسطة المراجع السياسيّة والدبلوماسيّة والقانونيّة – بالعربيّة والفرنسيّة – أنحني عليها وأتعلّم.

والجدير بالذكر أنّ مكاتب المفوّضيّة أصبحت محجّة أصحاب الصحف اللبنانيّة في بوانس أيرس. وكانوا يدخلون برفع كلفة على زميليهما بالأمس: «الأستاذ تويني والأستاذ عوّاد»، فيطيب لشِقّ سماع لقب أستاذ ويمتعض سَطيح... يا للقدر كيف سخر اللبنانيّين تحت كلّ سماء لخدمة اللغة العربيّة فحملوا علمها في إستانبول، في القاهرة، في نيويورك، في ريو دي جانيرو، في بوانس أيرس... إلخ. في الأرجنتين وحدها أنشأ اللبنانيّون ٨٥ صحيفة بين جريدة ومجلّة. أكثرها مات. ما كان عائشًا منها فيه الكفاية –١٢– بين يوميّة وأسبوعيّة وشهريّة... سياسيّة، اجتماعيّة، أدبيّة، إقليميّة، طائفيّة، عروبيّة من الخليج إلى المحيط، ولبنانيّة توحّد الأرزة. والخناقات بينها قائمة قاعدة.

٢

الأرجنتين هي، بلا مراء، أرقى بلدان أميركا الجنوبيّة، وعاصمتها هي باريس الصغيرة بحقّ. ولكن

إذا كانت بوانس أيرس قطعة من أوروبّا في انتظام عمرانها وفي ثقافة أهلها على السواء، ففي الولايات، في تلك المساحات التي لا تُقاس إلّا بالتوهّم، حيث لا يصيح الديك إلّا مرّة واحدة – كما قيل فيها – لأنّه لا يلقى زميلًا يحاوبه إلّا على عشرات الكيلومترات، في تلك الأراضي ذات التربة السوداء الدائمة الاخضرار، التي تبحث فيها عن حصاة لتدقّ جوزة فلا تجد، وتشكّ عصاك فتنبت من غد، في هذا العالم الذي لا نهاية له يجب أن تبحث عن روح الأرجنتين وتقاليدها، وعن مَرَدتها وأقزامها.

فإلى جانب الفلّاح الفقير، الذي يرتضي من دهره بقليل من خبز الذرة وكثير من الماتّه*، نخبة من ملوك الزراعة أين منهم ملوك الصناعة في أميركا الشماليّة مالًا وترفًا وجاهًا. ولست أغالي إذا قلت إنّ هناك عشرات من المزارع تبلغ مساحة الواحدة منها مساحة لبنان بأمّه وأبيه.

لم يُتح لنا الحظّ أن نزور مزرعة أمادو دولسه، بالرغم من إلحاحه في ذلك، لبعدها عن العاصمة. ولكن من يزور الأرجنتين ولا يتعرّف إلى مزارعها العجيبة – يسمّونها إستانسيا أو رانتشو – فقد فاته من وجوهها المتعدّدة أعرقها وأروعها على السواء.

وقد تمّ لنا ذلك في يوم شامس، بفضل زميل لأمادو دولسه يملك رانتشو بين بوانس أيرس وكوردبا، إذا لم يبلغ مساحة لبنان فليس دون البقاع أو عكّار طولاً وعرضًا. والرجل فرنسيّ الأصل له صداقات مع اللبنانيّين، في مقدّمتهم السيد خوسه نعمه رئيس النادي اللبنانيّ لذلك الوقت، ووسيط الخير بيننا وبينه في زيارة الرانتشو. وكان له من الجملة، ما عدا الرانتشو وهذه الصداقات، بنت وحيدة في الخامسة والعشرين من العمر، عزباء، رشيقة القوام، تتلاحق في عينيها العسليّتين مواكب من الأحلام. ومع أنّها دائمة الابتسام فاسمها – يا للعجب! – دولورس أي آلام. ووالله لم أقصد في وصفها السجع قصدًا، وإنّما جاءني طوعًا من مشيتها الموقّعة توقيعه. ولا عجب فهي – كما علمت فيما بعد – أستاذة بيانو في كلّيّة الفنون. يبقى العجب الأوّل، ولكنّه لم يلبث أن زال بمجرّد السؤال، إذ جاء جوابه أنّ أمّها الإسبانيّة الأصل هي التي سمّتها كذلك تذكيرًا بما عانته لدى وضعها من آلام المخاض.

بعد بوانس أيرس بساعة انحرفنا عن الطريق الرئيسيّة العريضة، المتوهّجة بزفتها تحت شمس الصباح، ودخلنا في طريق ترابيّة ما عابها ضيقها، ولا الحُفَر التي كنّا نرتقص فيها نزولًا وطلوعًا، بمقدار ما أزعجنا ذلك الغبار الطحينيّ الناعم، تثيره السيّارات فينعقد في الجوّ ضبابًا وينسلّ من خروم السيّارة، فيسدّ خياشيمنا وينسج علينا نسيجه من أمّ الرأس إلى أخمص القدمين، مع دانتلّا يحبكها على الأهداب والجفون، فكأنّنا في طاحون يمشي. ودولورس إلى جانبي تمسح وجهي بمنديلها وتؤنسني بحديثها عن الرانتشو الذي سينسينا، قالت، متاعب الطريق.

وفيما نحن خائضون في تلك المفازة، إذ طلع لنا برنيطة ذات رفاريف تقفز في الفضاء على بعد مئة أو مئة وخمسين مترًا، وتثب في جريها أمامنا كأنّها في سباق مع الطاحون. فضاعفت من سرعة سيّارتي ألحق بالبرنيطة العجيبة وأسأل بالصوت العالي: كيف تطير هذه البرنيطة هكذا بين الأرض والسماء، وأين هو صاحبها إذا كان لها صاحب؟ – أكله الغبار، قالت جارتي. فلمّا دنونا إذا وقع حوافر، فألححنا في الدنوّ فإذا خلال الغبار فارس على حصانه، وكأنّه غضب للحاقنا به فهمز مطيّته وطاح في البامبا.

صورة رائعة، بقيّة من بقايا سلالة الغاوتشو ملك

---

* شراب كالشاي يُؤخذ مصًّا من إبريق صغير.

الپامپا ، أي البرّ الأرجنتينيّ. وكان يعيش في الزمان على البداوة ، يسعى نهاره وراء الخيول والأبقار السارحة بالألوف في ذلك البرّ ، بعيدًا عن المجتمع ، زاهدًا بالحضارة ، ويأوي في ليله إلى كوخ من طين وقشّ يقيم فيه وحده. فإذا احتاج إلى النساء أغار على أقرب قرية فخطف إحداهنّ وراح بها على حصانه.

وقد كان الغاوتشو وما يزال – ياما أُلّف عنه الناس من حكايات وصنّف الكتّاب من روايات ! – عنوان الشجاعة والسخاء ، والشهامة والوفاء. فهو البطل الصنديد ، والفارس المغوار الذي لا يُشقّ له غبار – وقد برهن لنا على ذلك – وهو الحرّ الأبيّ السيّد أبو المروءات. قانونه شرفه ، ووطنه هذه المملكة التي لا تحدّها آفاق. مجموعة خصال وملامح تجعل منه مخلوقًا أشبه ما يكون بعنتر قصصنا الشعبيّة في العهود الغابرة.

في الرانتشو ، وقد وصلنا إليه أخيرًا ، قضينا يومًا من العمر. نفضنا عنّا الغبار. نعمنا بالظلال الوارفة. ركضنا ولعبنا. ركبنا أحصنة الرانتشو. شربنا من حليب أبقاره وداعبنا نعاجه وقراقيره. وحمنا حول نار الأكلة الفريدة ، الأسّادو ، وهو عجل مسمّن يشكّونه بسفافيد حديديّة ضخمة ويقلّبونه على النار حتّى ينضج. وقد أمسكنا بالسفافيد واشتركنا في التقليب ، وانتشينا بالرائحة ، ثمّ تربّعنا على الأرض ، وهاتِ يا لحم !

كان ذابح العجل ومهيّئ النار قزمًا ، نافر العينين ، له كتف تنخفض عن الأخرى وفكّ أعوج ، هو أحد رعاة الرانتشو وحرّاسه ، كما ذكرت لي دولورس. وأضافت أنّ الغاوتشو قد استحال مع الأيّام إلى هذا وأمثاله من الرعاة والحرّاس ، وليسوا كلّهم ، طبعًا ، عوجًا ولا عرجًا.

سَطيح : والغاوتشو الذي حدّثتني عنه !

شِقّ : غاوتشو الجمال والكمال ، يا سَطيح ، مثل عنتر. يجب أن تغمض عينيك لكي تراه. أو أن يعميك الغبار.

٣

ليس في الأرجنتين ، كما قلت ، مصالح للبنان إلّا مغتربوه – لحمنا ودمنا المنسلخان عنّا – ولذلك كانت علاقاتنا كلّها مع الجالية الكريمة ، وهمومنا كلّها منصرفة إلى التوفيق بين طوائفها وعنعناتها. وقد حملها المغتربون على ظهورهم من الوطن ينوءون بها أكثر ما ناء بـ «الكشّة» حاملوها ساعين وراء الرزق في أدغال البلاد ومجاهلها. والمؤلم أنّ تلك المنازعات تنمو وتشتدّ ببُعد أصحابها عن الوطن. والصورة التي أخذوها عنه من عهد العثمانيّين هي هي ، ماثلة أمام عيونهم ، ما زادها الزمان إلّا غباره وعنكبوته.

الوطنيّة عندهم الكبّة النيّة وأبو الزلف ، وبعض ما يحسنون به إلى مبعوثي الجمعيّات الخيريّة والمشاريع الخنفشاريّة من لبنان – وما أكثرهم –. أمّا أن ينهضوا إلى تحقيق شيء في وطنهم له قيمة وأثر ، أو يهبّوا إلى نصرته في المحن كما يفعل اليهود مع إسرائيل ، فهيهات هيهات !

بالمناسبة حادث كنت من شهوده.

ذات يوم قصدت مع رئيس النادي اللبنانيّ لتلك السنة ، خوسه نعمه ، لإلقاء خطاب أو محاضرة – عدنا إلى المحاضرات والخطب ! – في النادي اللبنانيّ الآخر في ولاية لابلاتا ومعنا بعض الأصحاب. فلمّا كنّا في بعض الطريق ، على مسافة ثلاثين كيلومترًا من بوانس أيرس ، إذا بالسير يتوقّف وأمامنا عشرات السيّارات جامدة لا تتحرّك. وطال بنا الانتظار فنزل السيّد نعمه يسأل ما الخبر.

– ما الخبر؟! (قال بعد عودته) الجماعة يهود. والمقبرة التي تشاهدونها هنا إلى اليمين مقبرة لليهود. والميت يهوديّ. ولكنّ ممثّلي الوكالة اليهوديّة يرفضون دفنه قبل أن يدفع أهله المتأخّر ممّا عليه للوكالة.

ضريبة كان يُقبل اليهود على دفعها بطيبة خاطرٍ لوكالتهم تحت كلّ سماء. وهي الوكالة التي جمعتهم قبل

قيام دولتهم وكانت تمهيدًا لها. ولست أدري من برّأ عن المرحوم حاييم أو عزرا أو موشي ذمّته وهو في نعشه ينتظر على باب المقبرة. المهمّ أنّنا، بعد ربع ساعة، استأنفنا السير ترافقنا الحكاية ونضحك، ريثما جاء بعدها – ولم يتأخّر – دور البكاء من الخليج إلى المحيط...

* * *

على ذكر الكبّة النيّة، والمآدب العامرة التي كانت الجالية تقيمها لنا، دعاني أحد وجهائها ذات يوم أنا والعائلة إلى عشاء في بيته. أكرمنا الرجل غاية الإكرام وزاد في إكرامه أنّ أصله من ضيعة شنّوره وهي غير بعيدة عن بحرصاف – وكان من أعضاء جوقة «ليتكلّم السنيور قنصل!» – فلمّا عدنا إلى منزلنا إذا بسيّارته تلحق بنا، وسائقها يحطّ بين أيدينا علبة كبيرة من الكرتون، ويدير ظهره.

المواطن الكريم، صاحب الدعوة، صاحب معمل حرير. و«الهدية لا يرفضها إلّا لئيم». هكذا تعلّمت في مجموعة الأمثال والأقوال المأثورة. فتعاونّا أنا وزوجتي على فتح العلبة. فإذا فيها – ماذا! – بقايا المائدة من لحم وحلوى وفاكهة، وقد اختلط بعضها ببعض ولصق أكثره بالكرتون بأشكال وألوان ما أنزل الله بها من سلطان... هل دخل في روع الرجل أنّ السنيور-قنصله جاء من الوطن جائعًا كما جاء هو قبل ربع قرن حاملًا ذكريات الحرب الكبرى؟

فار دمنا. كيف نعيد العلبة إلى الرجل بعد انصراف سائقه؟ هممت بركوب سيّارتي، لا أستطيع النوم قبل التخلّص من هذه الهديّة المهينة. ولكنّ زوجتي ردّتني إلى الهدوء، فرمينا العلبة في تنكة الزبالة، ولبثت بعد ذلك أدير وجهي للرجل كلّما التقينا في حفل.

حملت حنقي عشرين عامًا بالضبط، ولم أحطّه إلّا في اليابان أثناء قيامي فيها بمهمّة سفير. ففي أحد الأعياد أقام الإمبراطور هيروهيتو في قصره مأدبة لكبار رجال الدولة وسفراء الدول الأجنبيّة. فلفت نظرنا أنا وزوجتي علب من الكرتون فارغة، بحجم علبة الشوكولاتا، لكلّ من المدعوّين علبة إلى يمينه، مع منديل حريريّ معقود بأناقة اليابانيّين فوق العلبة.

السفراء الجدد – وكنت منهم – الذين كانوا يحضرون هذه المأدبة للمرّة الأولى لم يفهموا، حتّى فرغنا من الطعام فأقبل الخدم يعاونوننا على وضع بقاياه في علبنا ولفّها بالمناديل المشار إليها. وعينك ترى إلى أصحاب السعادة، فضلًا عن أصحاب المعالي الذين كانوا عارفين طبعًا بتقاليد بلادهم، يعودون إلى دورهم وتحت آباطهم تلك الزوّادة العجيبة.

يا ابن شنّوره، عذرك. كان يجب أن تقول لي إنّ أصلك من اليابان!

* * *

في الأرجنتين قامت زوجتي بحملة تبرّعات للصليب الأحمر اللبنانيّ. ويمينًا لم تصدق كلمة حملة صدقها على ما بذلت في سبيل ذلك من جهد وتضحية. تركت بيتها في العاصمة مدى شهر ويزيد، وطافت بولايات الجمهوريّة من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية. بالطائرة حينًا وبالسيّارة أحيانًا، ومشيًا على الأقدام في الطرق الوعرة الموحلة. وكانت تتّصل بي تلفونيًّا كلّ يوم، وتوافيني مرّتين في الأسبوع برسائل مطوّلة تسرد لي فيها ما تلاقي من متاعب، ومن طرائف وغرائب. وكان لها، إذا كتبت، قلم الملاحظ الدقيق والواصف المحيط. إلى فراسة ما خانتها يومًا في الحكم على الناس والأشياء. وتشكّل تلك الرسائل كتابًا عن طبائع مغتربينا وتقاليدهم، ومعايشهم وعنعناتهم، فضلًا عن كرم الكرماء منهم وبخل البخلاء.

وكانت ترافقها في تلك الرحلة سيّدة من سيّدات الصليب الأحمر عهد كان الصليب الأحمر وقفًا على العجائز والعوانس. قالت إنّها جاءت من لبنان خصّيصًا لهذه الغاية، وأبرزت شهادة بذلك ممهورة بختم المؤسّسة

المذكورة. وكانت تحمل شنطة لا تفارقها ، حقيبة جلديّة كبيرة ذات تجاعيد وطبقات كأنّها مقدودة من سحنتها ، تتدلّى من كتفها بحزام ، فتشدّها بيسراها إلى إبطها ، وباليمنى تحطّ فيها ما يجود به الخيّرون. أمّا شريكة الحياة فاكتفت بلائحة تسجّل فيها الأسماء والأرقام ، وبصباحة وجه أنعم الله عليها بها ، وبها أعان الصليب الأحمر على نجاح الحملة.

في مندوسا ، الولاية المشهورة بأعنابها وخمورها ، دلّها العارفون على مغترب ، أصله من زحلة ، فقصدت إليه. فقيل لها إنّه في كرمه على بعد ساعتين بالسيّارة ، فلحقت به ومعها رفيقتها إلى الكرم. والكرم الواحد في مندوسا يسع زحلة بأمّها وأبيها فضلاً عن كرومها. أقول ذلك مستعيذاً بالله من غضب الزحلاويّين ، مع العلم أنّ ما يهمّني من الرجل لا حجم كرْمه ، بل حجم كرَمه. ولي من حرصي على الإشادة به خير شفيع.

كانت زوجتي تكتب إليّ بالفرنسيّة. قالت ما مفاده :

استقبلنا الرجل بشاربيه المعقوفين اللذين حملهما من زحلة وباللهجة الزحلاويّة :

– يا هلا! يا هلا!

وعلى عنقود عنب – جواهر! – يزن كيلوين قال :

– هاتو لنشوف ، ماين دفع أكثر من الكلّ؟

فلمّا عرف أنّ فلانًا الفلانيّ تبرّع بخمسة عشر ألف بيسو* أبى – وحياة الصليب! – أن يغلب مورانيّ جزّين كثلوكيّ زحلة في الكرم ، فهو يتبرّع بمثل هذا المبلغ وحبّة مسك. ووثب من فوره إلى طاولة ففتح دُرجًا فيها وأخذ يعدّ. فقصّر ما كان في الدُرج عن المبلغ المذكور ، فانكسف لحظة ثمّ رفع رأسه ورجا منّي – وكان يتوجّه إليّ في الحديث – أن نمرّ به بعد يومين في مكتبه في المدينة لقبض البقيّة. فاعتذرت باضطرارنا إلى السفر قبل ذلك. فكظم غيظه ومدّ يده ثانية إلى الدُرج حالفًا بالصليب ، وفوقه هذه المرّة مريم العذراء ، لا نسافر قبل أن يبرّئ ذمّته (كذا). ثم لوّح في الهواء بأوراق وصاح :

– عندي شقفة أرض ، هادا صكّها ، خدوها تقدمة منّي للصليب الأحمر!

فقاطعته مشيرة إلى ما يتدلّى من كتف صاحبتي :

– على مهلك. نرى أوّلًا إذا كانت تروح في الشنطة!

فضحك. وضحكت أغالب دموعًا اغرورقت بها عيناي لهذه الأريحيّة.

ووجدنا الحلّ في النتيجة بشِكّ يرسله الرجل عندما يعود إلى مكتبه في المدينة ، شرط أن أسجّل له المبلغ كاملًا ويراه على اللائحة بعينيه قبل أن نودّعه.

* * *

كان جبران تويني معتمدًا وزيرًا مفوّضًا لدى حكومة التشيلي إضافة إلى منصبه في الأرجنتين. فسافر مع محمود حافظ إلى سنتياغو وقدّم أوراق اعتماده. وفي أثناء المأدبة التي أقامها المغتربون ترحيبًا به واحتفالًا بالحدث – علَم لبنان يرتفع في التشيلي ليُظلّلهم كما أظلّ إخوانهم في الأرجنتين – أصيب جبران بنوبة صدريّة وتوفّي على الأثر.

بكيت في جبران تويني رئيسًا لي في البعثة ، ومعلّمًا في الصحافة ، وصديقًا كريمًا. وقد ألقت عليّ وزارة الخارجيّة والمغتربين مهمّة حزينة ، فأبرقت تطلب منّي السفر إلى سنتياغو ومرافقة جثمانه إلى بوانس أيرس بالرغم من وجود محمود حافظ إلى جانبه. فقمت بذلك ونقلنا الجثمان بالقطار إلى العاصمة الأرجنتينيّة حيث أقامت له حكومتها مأتمًا رسميًّا ، ومنها إلى بيروت حيث أُقيم له مثله من قبل حكومته.

بعد وفاة جبران أصبح محمود حافظ قائمًا بالأعمال بالوكالة ، حسب الأصول ، إلى أن يعيّن لبنان وزيرًا مفوّضًا جديدًا. وأبى محمود إلّا أن يتأثّر خطاي حذو

---

* ما يساوي خمسة آلاف ليرة لبنانيّة في ذلك الوقت.

النعل بالنعل ، فألّف لمعارضة جوقتي جوقة له من الأنصار لا يخاطبونه ولا يذكرون اسمه في المجالس إلّا بـ «السنيور إمباخّادور». وساعدت بعض الظروف الأخرى – يطول شرحها – فاشتدّ التنافس بين «السنيور إمباخّادور» و«السنيور كنصل» ، وعلت الضجّة ، ووصلت إلى وزارة الخارجيّة والمغتربين ، فلم تجد خيرًا من نقلنا نحن الاثنين إلى الإدارة المركزيّة في بيروت.

وهكذا انتهت مهمّتنا في بوانس أيرس ، فضببنا على أمتعتنا وعدنا.

٤

سَطيح (متخابثًا) : ماذا حملت يا شِقّ من الجمهوريّة الفضّيّة لدى العودة بالسلامة؟

شِقّ : لا فضّة ولا ذهبًا. لا قصّة ولا قصيدة. وهكذا فأنا أسجّل عليك أوّل نكث لك بالوعد. لم تدعني أكتب في الأدب حرفًا.

سَطيح : دعنا من القصائد والقصص. سؤالي يتعلّق بما هو أهمّ.

شِقّ : ليس شيء أهمّ عندي من ذلك.

سَطيح : والرانتشو. هل نسيت الرانتشو؟

شِقّ (ضاحكًا) : الرانتشو كذلك تركناه وراءنا.

سَطيح (يضحك هو الآخر) : دولورس لاحقتنا به إلى بيروت ، ومن بيروت إلى طهران ، ومن طهران إلى مدريد ، ومن مدريد إلى القاهرة ، ومنها إلى مكسيكو ، إلى طوكيو ، إلى تايبه في آخر ما عمّر ربّنا... تذكر ، دعانا أبوها يومًا من الأيّام إلى مزرعة له في ضواحي بوانس أيرس ، وفي المزرعة بيت من اللبن ، فأحبّت أن تعرّفنا إلى ما فيه ، وما كدنا ندخل حتّى هجمتَ عليها وقبّلتها في فمها.

شِقّ : بل أنت الذي فعلت.

سَطيح : بل أنت. الدليل أنّها ، منذ ذلك الوقت ، أصبحت لا تخرم خطابًا من خطبك ولا محاضرة من محاضراتك ، فتأخذ لها كرسيًّا في زاوية وتعلّق عينيها وأذنيها بك ، مع أنّها أرجنتينيّة من أصل فرنسيّ ولا تعرف في العربيّة الألف من العصا.

شِقّ : وأنت ، كلّ أسبوع مرّة على الأقلّ تحملنا على زيارتها في منزلها ويكون بينكما ما يكون.

سَطيح : وبعده تتّكئ هي على صدرك وتحلم بأن تعيش معك هكذا طول الحياة في الرانتشو.

شِقّ : معك. والدليل أنّني لم أردّ عليها ولا مرّة.

سَطيح : المهمّ أنّها ظلّت تبعث إلينا حيث نحن من البلدان المذكورة أعلاه كارت بوستال عليه صورة الرانتشو بحجّة معايدتك في الميلاد من كلّ سنة ، وأحيانًا بأيّ وقت. مرّة وصل كارتها يوم الجمعة الحزينة ، مع التهاني المعهودة!

شِقّ : ما مضى مضى ولن يعود. كان عليها أن تفهم من امتناعي عن الردّ عليها.

سَطيح : الرانتشو! الرانتشو! هناك. هناك. حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع. هناك حيث يخلو العشّاق بعيدًا عن ضوضاء المدينة ، ليس إلّا زغردات العصافير ، والنعاج تسرح وتمرح وتميل علينا بأعينها الوديعة... أين كارتات البوستال حاملة الرانتشو؟ وحياتك أعطني واحدًا منها.

شِقّ : تعرف أنّني كنت أمزّقها فور وصولها وأطرحها في سلّة المهملات.

سَطيح (غاضبًا) : كلّ عمرك تمزّق وتطرح ولا تحتفظ بشيء.

٥

مع عودتي إلى لبنان عاد إليّ شيطان الشعر مع شيطان حبّ جديد. ساقها إليّ شاعر ، رحمه الله ، من وراء قبره على مصادفة عجيبة. وبيان ذلك أنّني قصدت ، بعد وصولي إلى بيروت بأيّام ، إلى بعض أهل المغتربين من أبناء إحدى القرى القريبة ، أحمل

إليهم أخبار عمّ لهم يقيم في الأرجنتين ولا يكتب إلّا نادرًا. فالتقيت في البيت، في من التقيت، سيّدة رائعة الحسن يطلع وجهها في بياض الحليب* بين شعر فاحم وثوب حداد تتّشح به حتّى القدمين. فسألت عنها فانحنى جاري وهمس في أذني:

– ملهمة الشاعر الكبير فلان الفلانيّ. وحدادها الذي تراه هو عليه.

وكان الشاعر قد توفّي قبل ذلك بنيّف وثلاثة أعوام، وهي تعرض حدادها المذكور عليه وتلزمه وتلزم العزلة، تقرأ قصائده، وتبكي بالدموع السخان.

بعد أسبوع جئتها بقصيدة لي فيها، بعنوان «ذات الوشاح الأسود»، كتبتها بخطّ يدي وتلوتها عليها بحضور زوجتي. ولن أنسى رجاء شريكة الحياة بأن تبقى القصيدة بلا توقيع منّي، ولكنّي أصررت عليه.

وكان أن انعقد بيني وبين المرأة خيط سحريّ نسجناه معًا، هي بيد وأنا بيد، من ذكرياتنا عن الشاعر – وكان، رحمه الله مرّة أخرى، صديقًا لي – وجعلت أتردّد عليها في بيتها العتيق ذي الشبابيك المقنطرة الحلوة التي تطلّ على بيت شاعرها، والتي منها كانت تخاطبه في لياليها بواسطة قنديل الكاز، ترفع فتيلته بالضوء وتخفضها على نسق اتّفقا عليه في التناجي وبثّ الأشواق. وكانت تفتح ديوانه وتطلب إليّ أن أنشدها بصوتي قصائده. فأتّكئ على ذلك المقعد العريض المريح وأنشد ما شاء لي الله، وأنا أسألها بين الحين والحين، بمكر ظاهر، متى تخلع عنها الحداد فتجيبني:

– حتّى ألحق به إلى القبر.

فأقول:

– الحياة أغلب. الحياة أغلب. يا عزيزتي، أنت في ميعة العمر وستحبّين كثيرًا بعد.

ثمّ أستأنف الإنشاد بصوتي، أضع في كلّ حرف ما أظنّ أنّ الشاعر واضعه فيه من عصارة قلبه، وهي تعلّق عينيها المتّقدتين بي وتشرب حبّ شاعرها من فمي... ثمّ لا تلبث أن تهتف بي:

– هاتِ قصيدتك. أحبّ أن أسمع قصيدتك مرّة أخرى.

* الاستعارة للشاعر في إحدى قصائده فيها.

ذات الوشاح الأسود

وشاحُهـــا الأسودُ يـــا ليلـــةً
غـــارت على الأُفقِ دراريها

تمرُّ بـــالنـــاسِ ودنيـــاهُمُ
غريبـــةَ الـــدنيـــا وأهليهـــا
قد أسدلَت دونَ الورى جفنَها
وختَمَ الصمتُ على فيهـــا
تمشي وئيـــدًا في دروبٍ لها
تؤنِسُهـــا وحشةُ واديها
تستطلـــعُ الجدولَ والمُنحنى
والصخرَ والعُشبَ وبـــاريها
غـــارسةً في الأرضِ أنظـارَهـا
كـــأَنَّ كنزًا ضيّعت فيهـــا
رفيقـــةَ الخَطْوِ ومن حولِهـا
حفيـفُ أرواحٍ تُنـــاجيهـــا

على محيّـــاهـــا هـــدوءٌ وفي
أحشائها نـــارٌ تُعـــانيهـــا
خرساءُ في أضلُعِهـــا عـــاصفٌ
تطويـــهِ من قهرٍ ويطـويها

ضاحكـــةٌ تبكي وتبكي إذا
تضاحكَت مِـلءَ مـــآقيهـــا
وتُزعِجُ النـــأمـــةُ أحلامَهـــا
ويخطرُ الظـــــلُّ فيُؤذيها
يهمُّ رائيهـــــا إذا أقبلَت
وينثني... يـــا ويحَ رائيهـــا
أيُّ نـــداءٍ ساكتٍ فيهـــا
حيرانُ يُـــدنيهـــا ويُقصيها

فيا شموسَ الأرضِ غيبي ويا
طيورَهـــا لا تصدَحي تِيهـــا
ويـــا ورودَ الأرضِ لا تأرَجي
ويـــا خمورَ الأرضِ خلّيهـــا
سكرى بمَـا تعصرُ من قلبِها
في أكؤسٍ من عهدِ ماضيها
صمّاءُ تُصغي بـانخطـافٍ إلى
أغنيـــةٍ مـــاتَ مُغنّيهـــا

وشاحُهـــا - يـا ليلةً لألأت
وضمّـــخَ الحـبُّ حـــواشيهـا

بيروت - ١٩٤٩

سَطيح: العلاقة بينك وبين «ذات الوشاح الأسود» هل اقتصرت على الشعر؟

شِقّ (ضاحكًا): أنت أدرى بذلك.

سَطيح: في علمي أنّك نظمت فيها غير قصيدة. فأين هي القصائد الأخرى؟ وهي في غير التغنّي بذكرى الشاعر والرثاء للمرأة التي تبكيه. قصيدتك الأولى مناورة، أمّا القصائد التي تلتها فقصف مركّز. علامَ لا تنشرها على الناس؟

شِقّ: لا أملك ذلك، فقد ضاعت في ما ضاع لي من أوراق، وأنت الشاهد.

سَطيح: ولكنّ أصولها ينبغي أن تكون محفوظة عند صاحبتها بخطّ يدك وتوقيعك الكريم، وهي ما تزال حيّة تُرزَق، فلماذا لا تطلبها منها؟

شِقّ: أحرقتها، هكذا قالت، في جملة ما أحرقت من قصائد الشعراء – وهم كثر – الذين تعاقبوا عليها بعد شاعرها الأوّل. أضافت أنّها لا تريد أن تحتفظ منهم أمام الأجيال الآتية إلّا بالميت.

سَطيح: العمر كلّه لك!

شِقّ: وللقائل.

سَطيح: ولكن لماذا الميت وحده؟

شِقّ: لأنّه وحده الذي سيبقى حيًّا بين سائر شعرائها.

سَطيح: بمن فيهم أنت؟

شِقّ: بمن فيهم أنا. على الأقلّ فيما خصّ شعري فيها. تمامًا كما حصل لسيف الدولة مع المتنبّي – مع الفارق طبعًا – سقطت قوافي عشرات الشعراء الذين حاموا حواليه وبقيت قوافي أبي الطيّب. ألم أقل لك إنّ شاعرها كان شاعرًا كبيرًا؟

في بلاد الشاهنشاه

١

بعد سنة من العمل في الإدارة المركزيّة عيّنتني حكومتي مستشارًا للمفوّضيّة اللبنانيّة في طهران.

ركبت الطائرة في الثاني من كانون الثاني ١٩٥١ ، وقد تعرّفت فيها إلى زميل إيرانيّ كان عائدًا إلى بلاده في إجازة فقال لي:

– أهلاً بك في إيران. تذكّر قول القائل: الغريب يدخل إيران باكيًا ويخرج منها باكيًا.

في طهران كان سليم حيدر، الوزير المفوّض، ينتظرني على أحرّ من الجمر ليقرأ عليّ قصائده. وكانت تربطني به صداقة منذ كان قاضيًا. ما يكاد يترك قصر العدل حتّى يوافينا إلى دار «المكشوف» حاملاً تحت إبطه ما كتب من شعر أو نثر.

وكان ينتظرني كذلك بكثير من اللهفة عبد المنعم الرفاعيّ، وزير الأردنّ المفوّض – وقد أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجيّة فرئيسًا لمجلس الوزراء – زميل الأستاذ حيدر ونديمه كلّ ليلة على لعب الورق وعلى الشعر معًا. فقد كان هو الآخر شاعرًا من جملة ما كان.

وأيّ شيء لم يكنه الرفاعيّ؟

مناضل سابق يحفظ من المظاهرات الصاخبة التي اشترك فيها، زمن الدراسة بين بيروت ودمشق، عرجة لرصاصة أصابته. وكانت تذكّرني كلّما شاهدته عرجة الجنرال غورو تحت سنديانة دير مار يوسف بجرصاف.

صديق مقرّب –عن طريق أخيه الأكبر الذي تولّى رئاسة حكومات متعدّدة في الأردن– للملك عبد الله ومن بعده للملك حسين.

شاعر جيّد.

خطيب جيّد.

راوية جيّد جدًّا.

والأجود من كلّ هذا لاعب لا يُجارى، لا في الورق وحسب، بل في كلّ الألعاب: سياسيّة، اجتماعيّة، غراميّة، وعدّ والحقه يسبقك ولو أعرج.

اللعبة الوحيدة التي غُلب فيها، على حدّ علمي، هي الأخيرة. غلبه محمّد عبد الوهّاب، الموسيقار الكبير وصاحب الصوت الذي سحر النساء. منهنّ نهلة القدسيّ زوجة عبد المنعم، فتركته في نهاية الشوط الذي وُلد لهما فيه ابنهما عمر، لتبدأ شوطها الآخر مع عبد الوهّاب.

لدى وصولي تلقّاني عبد المنعم بشمعة على طولي. أقام سليم حيدر في دار المفوّضيّة مأدبة عشاء ترحيبًا بي دعا إليها رؤساء البعثات العربيّة ومستشاريها وبعض وجوه الجالية اللبنانيّة في طهران. وكان الطقس باردًا جدًّا.

وخشي عليّ سليم من البرد ، فطمأنته أنّني ألبس كلسون صوف ، فهتف عبد المنعم :

– إذن أنت يا أستاذ عوّاد صاحب «قميص الصوف» وكلسون» الصوف !

٢

أقمت لدى وصولي إلى طهران عند جهار خانم ، في خيابان بهار ، أي شارع الربيع ، بالقرب من دار المفوّضيّة. وكان لجهار خانم بيت تؤجّر بعض غرفه لبعض أعضاء السلك الديبلوماسيّ ، عربًا وغير عرب ، بانتظار أن يجدوا لأنفسهم مسكنًا دائمًا ، وتقوم بكثير من الغيرة على العناية بهم وتدبير أمورهم في البداية. والبداية صعبة كما هو معروف. الصعوبة بالنسبة إليّ كانت مضاعفة : إيجاد المسكن المشار إليه ، واضطراري إلى العيش وحيدًا فترة من الزمن. ذلك أنّ زوجتي تخلّفت في بيروت ريثما تلد – وكانت في شهرها التاسع – على أن تلحق بي بعد الوضع مع الأولاد.

وبالفعل ، انصرفت جهار خانم إلى تذليل الصعوبتين : ساعدتني على اختيار منزل ، وآنستني دون سائر زبائنها طول شهرين. على أنّ زوجتي لم تكد تصل إلى إيران وأعرّفها إلى السيّدة الكريمة وعلى المنزل الذي استأجرتُه بفضل مساعيها حتّى أبدت عدم رضاها عن الاثنين معًا ، فاستأجرنا منزلًا آخر ، وأقفلنا بابه على جهار خانم.

شِقّ : الأمانة التاريخيّة تقضي علينا بقول الحقّ يا سَطيح. إذا كنت أنت مشغولًا بجهار خانم طول تلك الفترة فقد كنت أنا في دنيا أخرى.

سَطيح : أيّ دنيا؟

شِقّ : كانت شريكة الحياة تملأ خيالي وقلبي وروحي جميعًا. وكنت أوافيها كلّ أسبوع برسالة أطلعها فيها على الترتيبات التي أقوم بها استعدادًا لاستقبالها ، وأحمّل رسائلي الكثير من الشوق.

سَطيح (يهزّ برأسه) : كانت جهار خانم من اللواتي يُجدن فنّهنّ ، ولها من الجملة رِدفان متداعيان – توأما رِدفَي أمّ الصنوج التي كانت تتردّد على «النهار» – إلى سمرة جذّابة وطواعية في التعاطي.

شِقّ : كفاك غزلًا بها. أنا ، قلت لك ، لم تكن تشغل أيّ حيّز في قلبي ولا في رأسي. لماذا لا تقول إنّها كانت غبيّة أيضًا؟

سَطيح : بعض الغباء يُستحسن في النساء. أنا أكره المرأة الفيلسوفة.

شِقّ : ولذلك ، وبفضل هذا الغباء الذي كان لها ، كانت توافينا في السهرة ، وزوجها في البيت ، فأصرفها مدّعيًا بأنّ لديّ عملًا هامًّا. فأتناول قلمًا وورقًا وأكتب رسالة أخرى إلى رفيقة العمر.

سَطيح : والليلة التي قضتها عندنا حتّى منتصف الليل ، ألم يكن لديك شيء؟

شِقّ : أعظم شيء. أنت تذكر ذلك جيّدًا.

سَطيح : الواقع أنّ الليلة كانت عامرة. كأس عرق ومازات من تحضيرها ، وهي تلقمنا بأناملها وتناجينا بأعذب الألحان. حتّى إذا آن الأوان كان لنا معها وصال هو من أعنف ما عرفت.

شِقّ : تتكلّم عن نفسك. أنا ، بعد انصرافها ، سهرت حتّى الصباح ، ولم تطلع الشمس حتّى كانت قصيدتي قد اكتملت.

سَطيح : العجيب أنّك ناديت جهار خانم بعد إتمامك القصيدة ، أيقظتَها من النوم – وكانت تشخر – وتلوتها عليها بيتًا بيتًا ، وهي لا تعرف حرفًا في العربيّة.

شِقّ : كنت أنت الترجمان. والحقّ أنّك كنت أمينًا بقدر ما تُستطاع الأمانة في ترجمة الشعر.

سَطيح : بلغت بك الجرأة ، أو القحة ، أن صارحتها بأنّ القصيدة هي لشريكة الحياة. فظاعة !...

ضلع الله

سألتُ عنها الفجرَ في عُريهِ
والشَّفقَ الكاسيَ ثوبَ العقيقْ
والوردَ مبثوثًا عليهِ الندى
والمِسكَ مشبوبَ الحنايا فتيق
أقول: يا غفوُ اشتمِلْ جفنَها
ورُفَّ يا حلمُ جناحًا طليق
طوِّفْ بها في دنيواتِ الهنا
ورشَّها بالطيبِ حتّى تُفيق

* * *

أهيمُ والدّنيا ازدحامُ المُنى
فينثني بيَّ إليها الطريق
في القُربِ في البُعدِ وخلفَ المدى
يشدُّ روحَينا وتينٌ وثيق
عشرونَ أو تُوشكُ أن تنقضي
وكلُّ يومٍ لي جديدٌ عتيق
أُمسي على الشوقِ وأغدو كأنْ
لم يرتشفْ ثغرٌ ولا ابتلَّ ريق
فأعجبْ لظمآن مدى دهرِه
والماءُ في كفَّيه ثرٌّ دفيق

* * *

ورُبَّ عمرٍ لي تقضّى وما
سبرتُ فيه بعضَ سرٍّ عميق
في أيِّ دنيا قبلَ هذي التقَت
أعيُننا في أيِّ وادٍ سحيق
فأنتِ وجهٌ لجَّ بي طيفُه
من أزلٍ ورَجْعُ صوتٍ شقيق
وأنتِ طعمُ الحلوِ قبلَ الجنى
وأنتِ معنى السُكرِ خلفَ الرحيق
وأنتِ أدنى ما تكونُ المُنى
بُعدًا فما في الكفِّ غيرُ البريق
أم أنتِ ضلعُ الله من أضلعي
أعشقُني فيكِ وفيَّ العشيق
نظلُّ يُفني بعضُنا بعضَنا
تَبقى الشراراتُ ويَبلى الحريق

طهران – ١٩٥١

٣

في يوم من الأيّام ، بل في ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة ، كان عرس الشاه وثريّا. نسجت السماء للأرض تلك الليلة بساطًا ناصعًا من الثلج ، وانعقدت حبّاته عناقيد بلّوريّة على أغصان الأشجار في الشوارع المؤدّية إلى قصر غولستان ، يحار الناظر في لألائها ، أهي من الأضواء الكهربائيّة الموزّعة فيها ، أم من انعكاس أشعّة القمر عليها وكان بدرًا ، أم هي الثريّا قد هبطت من عليائها تلاقي سميّتها على الغبراء ، وتعانقها في اليوم الذي كتبه الله لكلّ عذراء.

قاعة القصر تحوّلت إلى قطعة من الجنان أو حلم من أحلام الأطفال. من فخامة الرياش ، وفسيفساء السجّاد ، وتَنادي التحف ، واشرئباب المزهريّات مزهوّة بالاثنين نقوشها وورودها. إلى الأوسمة على صدور الرجال تمزج ألقها بألق الحليّ في أعناق النساء وآذانهنّ ومعاصمهنّ. إلى أنغام أوركسترا أُوصي عليها من أوروبّا للمناسبة العظيمة... يتقدّم العريس بقامته الرشيقة –كان الشاه في السادسة والثلاثين– يطوّق العروس بذراعيه –كانت ثريّا في الثامنة عشرة– فترخي أجفانها بحياء على عينين عسليّتين ساحرتين. يخطوان على ضرب الأوركسترا وتصفيق الأيدي ، ويفتتحان الرقص. وما هي حتّى تحوّلت الساحة إلى عشرات من المغازل البشريّة المزدوجة دورانًا على الفالس ، وطيرانًا لحرير التنانير المزركشة ، ونشرًا وطيًّا ، فنشرًا مرّة أخرى وطيرانًا ، والعيون كلّها على ثريّا بين ذراعَي الشاه تدور وتدور وتدور ، مرحة سعيدة نشوانة... وفجأة ، هكذا فجأة ، كأنّما الخيط انقطع بالمغزل ، تُدلي رأسها وتقع بطولها على الأرض.

ما الأمر؟ ماذا حدث؟!

خرست الأوركسترا وتحوّل الفالس إلى تراكض صوب ثريّا وتزاحم. ولكنّ الشاه ، بنترة من ذراعيه ، فرّق الحشد وانحنى فحملها أخذًا براحتيه ، يحاول المحاولون معاونته فيدفعهم بكتفيه من هنا وههنا ويقتحم بابًا لجناح مجاور ، وتبادر الحاشية الباب فتغلقه لردّ الفضوليّين... ونحن ننتظر. دقيقة. دقيقتين. خمس دقائق. عشر دقائق. وسرت الهمهمة بين الرجال ، وكبرت عيون النساء وكثر اللغط بينهنّ... فإذا باب الجناح ينفتح من مصراع ، فمن المصراع الآخر ، وأطلّ العريس والعروس يوزّعان الابتسام ويدعوان إلى استئناف الرقص ، بعد استعادة ثريّا لوعيها الكامل من إغماءة عابرة –كما قيل لنا– حكم الأطبّاء أنّها نتيجة التأثّر.

* * *

الشاه وثريّا ، أُتيح لنا أن نجتمع بهما مرّات بعد العرس. أذكر منها :

الأولى – في عيد النوروز. وكان للعيد تقاليد في الزمان : أن يوزّع الشاه على كبار مهنّئيه ليرات ذهبيّة باعتبار الذهب فأل خير. إلّا أنّ البلاط قطع هذه التقاليد منذ تولّت الأسرة البهلويّة العرش ، حتّى جاءت المسز هندرسون ، زوجة السفير الأميركيّ ، فطلبت من ثريّا إحياءها.

فلمّا جاء دور رؤساء البعثات الدبلوماسيّة – وكان سليم حيدر قد انتقل إلى لبنان وزيرًا للتربية الوطنيّة وانتهت رئاسة البعثة بالوكالة إليّ – صفّنا مدير مراسم القصر في قاعة الاستقبال كلًّا إلى جانب زوجته. ثمّ دخل الشاه وثريّا وخلفهما كبير الأمناء يحمل طبقًا فيه عرمة من الليرات الذهبيّة. فإذا تقدّمنا من صاحبَي الجلالة ، وصافحناهما مع الانحناءة مهنّئين بالعيد ، مدّت ثريّا بكفّها إلى الطبق وأعطت كلًّا منّا ، رجالًا ونساء ، ليرة. وقد كان عندي حتّى الأمس أربع ليرات – دفعتين في عيدين متواليين – عليها عطر من أنامل ثريّا ، صرفتها في حرب السنتين خلال الفترة التي توقّفت فيها المصارف عن الدفع.

الثانية – يوم هبط عليّ سليم اللوزيّ ، رحمه الله ، وكان في ذلك العهد مراسلاً لمجلّة «الاثنين» المصريّة ، ومنها انطلقت له أولى الأشعّة التي أحاطت باسمه بعد إنشائه «الحوادث» ، قال :

– أريد مقابلة مع ثريّا .

فقمت له بالمسعى وتمّت المقابلة ، وكتب عنها سليم أكثر من مقال مع صور لثريّا حملتها إليها زوجتي فأعجبتها جدًّا .

وبعد ثريّا قال :

– أريد مقابلة مع الشاه .

لم يكن أجرأ من سليم اللوزيّ في الدخول على الملوك والأمراء .. ولكنّ مدير مراسم القصر طلب منّي ، بصفتي ممثّل لبنان ، أن أرافق الصحافيّ في مقابلة الشاه . فأخبرت سليم ، واتّفقنا أن يوافيني إلى المفوّضيّة قبل الموعد بنصف ساعة ، ومنها نذهب بسيّارتي – مع العلَم المرفوف ! – إلى القصر . فسُرّ سليم . وأخذنا في تحضير الأسئلة التي ينبغي طرحها على الشاه ، وهو يأبى ، كما قال ، إلّا أن يأخذ فيها رأي زميله القديم . وفيما نحن في ذلك لحظ – وكان أذكى الناس – أنّ عينيّ تتردّدان بين الحائط وصبّاطه وأنّ ذهني شرد فهتف بي :

– أين أنت وبماذا تفكّر؟

قلت :

– بصبّاطك هذا . إنّه أخو رأس صبّاطي عندما دُعيت ، قبل عشرين سنة ، إلى إلقاء محاضرتي في جمعيّة مار مارون الخيريّة في بيروت !

وحكيت له الحكاية فضحك ، وقمنا من فورنا إلى السوق نختار صبّاطًا يليق .

الثالثة – في القصر على سهرة حميمة من السهرات التي كان الشاه وثريّا يقيمانها لرؤساء البعثات وغيرهم ، فريقًا بعد فريق ، فلا يكون في السهرة أكثر من ٢٥ إلى ٣٠ شخصًا بما فيهم السيّدات .

نقعد على الأرض متربّعين على السجّاد العجميّ الفاخر لبعض الألعاب ، وبعد العشاء نرقص . رقصنا تلك الليلة ، من الجملة ، الهورسي هورسي ، نتزاحم نحن الرجال من منّا يكون وراء ثريّا ويحطّ يديه على كتفيها ، وهي تضحك بحياء كثير وتلملم أطراف ثوبها .

كان وجهها ، على الصبا الذي كانت فيه ، رائعًا . إلى صدر مكتنز وساقين ما عابهما إلّا بعض تقوّس ، فالطويل من الثياب من أجل ذلك هو المفضّل لديها .

والرابعة – على أثر توقيعي باسم لبنان معاهدة الصداقة بينه وبين إيران بعد مفاوضات قمت بها في غياب سليم حيدر . استقبلني الشاه في مكتبه يومذاك وجرى الحديث مطوّلًا بيننا بالفرنسيّة ، عن العلاقات بين البلدين ، وأمر جلالته فأخذ لنا مصوّر القصر صورة للتذكار .

توفّي سليم حيدر خلال الأحداث في لبنان ، ولم أتمكّن من وداعه . ولكنّي أحفظ عن عشرته الطيّبة وعن شعره الجزل – وكان يحلم دائمًا بنظم الملاحم – نكهة المتضلّع من لغته ، مع قدرة على التعبير بها ببلاغة . أتساءل ، وأنا أترحّم عليه ، عن المقدّمة التي أصرّ عليّ بأن أكتبها لديوانه ، فكتبتها كلمات من أحسن ما كتبت وأسخاها .

ليت الديوان يُنشر إحياءً لذكراه ومعه تلك المقدّمة .

٤

على ذكر الشعر ، دعاني الشيخ حمزة الغوث سفير المملكة العربيّة السعوديّة ذات يوم إلى «سليق»* شهيّ ، وقال إنّ سموّ الأمير سعود – وكان لذلك الوقت وليًّا للعهد ومحاطًا بهالة الفروسيّة – سيزور إيران تلبية لدعوة الشاه . وأضاف :

* طعام معروف في المملكة مع اللحم والأرزّ.

– أريد لك أن ترحّب بسموّه باسم ممثّلي الدول العربيّة في طهران.

وغمس كفّه في السليق وناولني منه لحم الكتف، فقلت:

– على الرأس والعين.

فكّر شِقّ أوّل الأمر في خطبة ينمّقها. ثمّ لم يلبث سَطيح أن رأى شِقّ يطير به في رحلة بالخيال إلى حلب الشهباء، وراح يسأل فيها عن قصر سيف الدولة وعن الباب الذي كان يدخل منه أبو الطيّب عليه.

شِقّ: ما رأيك، يا سَطيح. في قصيدة رنّانة طنّانة ننشدها بين يدَي الأمير سعود على غرار قصائد المتنبّي في سيف الدولة؟

سَطيح (حالمًا بما سيخلع الأمير على شاعره): عظيم!

عدت إلى مقرّ المفوّضيّة الصيفيّ في نياباران. وتحت ظلال تلك الحديقة. مع تدفّق الشلّال الذي يشقّها، تدفّقت القوافي...

على أنّ سعود لم يطأ أرض الفُرس لعودة العلاقات بين البلدين إلى التعكّر بسبب الحجّ، فطوى شِقّ وسَطيح قصيدتهما (!) الواقع أنّهما اشتركا في نظمها، وتعاونا تعاونًا نزيهًا، ولا يمكن أحد منهما أن ينكر على الآخر فضله، ولو أراد لما استطاع، فكلّ بيت من أبياتها يدلّ على صاحبه بالإصبع ويسمّيه.

ولكن إذا كانت القصيدة لم تُلقَ في طهران بين يدَي سعود وليًّا للعهد، فقد كان مكتوبًا لها أن تُلقى فيما بعد في جدّة بين يديه ملكًا.

وسيأتي تفصيل ذلك في حينه.



من الضيوف الكرام الذين نزلوا عليّ في طهران الرئيس صائب سلام، وكانت زوجته السيّدة تميمة ترافقه.

خففت إلى الفندق أرحّب بصائب بك وأدعوه إلى النزول مع زوجته في دار المفوّضيّة – «بيت لبنان بيتك» – وبكلّ البساطة التي يتحلّى بها الرجل انعطف سائلًا:

– ما قولك يا تميمة؟

وانصرفا إلى حزم حقائبهما.

بعد إكليل الزهر الذي حملناه معًا، ووضعه صائب بك بيده على قبر مؤسّس الأسرة البهلويّة، كان لا بدّ من مقابلة الدكتور محمّد مصدّق، رئيس الوزراء لذلك العهد، ومالئ الدنيا وشاغل الناس.

ألم يكن مصدّق أوّل صوت ارتفع في الشرق مطالبًا بتأميم البترول؟

كنت قد شاهدته غير مرّة في جلسات البرلمان يحمل على شركات الاستثمار، وعلى بريطانيا وأميركا معًا، حملاته الشعواء. ولكن، ما معنى هذه الشعواء في وصف ما وضعه مصدّق في تلك الحملات من إيمان في العقيدة، وشجاعة في المجابهة، ومطاولة على العرش – أو يحيد من دربه – إلى براعات ومناورات في القول والعمل شاع له بسببها لقب المشعوذ، حين كان الآخرون يرون فيه قدّيسًا.

يُهدي إلى الشاه مصحفًا ويُقسم في الإهداء على أمانته للعرش حتّى الموت، وفي الوقت نفسه يجرّد العرش من صلاحيّاته ويدفع بصاحبه إلى الهرب من البلاد – ولولا الدولارات الأميركيّة لما استطاع العودة – يرغي ويزبد في مجلس النوّاب. يبكي ويشهق، ثمّ يهبّ صائحًا:

– صوت من فوق جاءني. من السماء جاءني الصوت: «يا مصدّق، أمّم البترول!» أتريدون أن أسمع نهي المعارضين الأرضيّين وأسدّ أذنيّ عن أمر السماء؟

أيّ الرجلين، يا تُرى، القدّيس أم المشعوذ، هو الذي استقبلنا أنا وصائب بك ذلك اليوم الأدكن، في ذلك البيت الحقير، في تلك الغرفة العارية، على

ذلك السرير الحديديّ المخلّع ، في تلك البيجاما الخشنة التي لم تعرف المكواة في زمانها؟

أيّ لطف مع ذلك! وأيّ سحر في الحديث! أيّ توقّد في النظر! وأيّ زهد في الظهور... على الأقلّ في الظاهر!

– أعدائي في الخارج الإنكليز والأميركان ، وفي الداخل المصوّرون.

هكذا كان يقول. ومع ذلك يخصّص لجمهور المصوّرين مقاعد على الباب مع أكواب الشاي جائية رائحة في خدمتهم. لا يريد أن تُؤخذ له الصور على سريره ، ولكنّه حريص كلّ صباح على طلب الجرائد للاستمتاع بما ظهر له فيها على ذلك السرير...

كنت أوافي حكومتي بأخبار معركة التأميم يومًا فيومًا بتفاصيلها وخفاياها ، وذلك بفضل ثلاثة : الوزير كاظمي ، والمستر هندرسون سفير الولايات المتّحدة ، والمستر ميدلتون القائم بأعمال بريطانيا بالوكالة. الأوّل أعدموه ، والثاني تولّى فيما بعد دائرة شؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجيّة الأميركيّة ، والثالث سفارة بريطانيا في بيروت.

كانت دار المفوّضيّة اللبنانيّة ، في طهران شتاء وفي نياباران صيفًا ، ملتقى لهؤلاء السادة وزملاء لهم كثيرين ، نجتمع على المازات اللبنانيّة ، على المآدب العامرة بالقوزي ، وأحيانًا فوق العشب على أصناف من السندويش تهيّئها لنا نواعم الأيدي. وعلى كلّ ذلك يطفو وجه شريكة الحياة المشعّ.

من شمس لبنان كان.

٦

ذات يوم خطر لنا أن نقوم مع العائلة بزيارة لمدينة قُم. وقُم من المدن المقدّسة ، فيها من المساجد أروع ما تعاونت عليه بيكارات المهندسين ونذورات المؤمنين : قباب رشيقة تلاقي بذهبها الشمس ، وقناطر من القيشاني الأزرق – الأبيض ، ظليلة ، مضيافة ، مع جدران تتعلّق بها وتتدلّى مئات النذورات المشار إليها حليًّا بألف شكل ، وجواهر بألف شعاع وشعاع ، يقدّمها مقدّموها إلى ربّهم شكرًا على نعمة أو تفريجًا لكربة.

وقُم هي مصدر السجّاد العجميّ المعروف باسمها ، وأنا من عشّاقه. طلبت من علي أكبر ، سائق سيّارتنا ، أن يسأل عن مصنع من مصانع السجّاد نذهب إليه ونشاهد أنواله وأيدي سَحَرة الخيوط والألوان التي تنحني عليها حبكًا ومزجًا ، يفقد أصحابها نور العيون في النتيجة فيصابون بالعمى ، أو يبصقون الدم فيموتون بالسلّ ، وتبقى من بعدهم تلك القطع من السجّاد الفاخر تحفًا تتوزّع في العالم بهجة للناظرين ، وموطئًا رخيمًا لأقدامهم.

ولكن إذا كانت قُم مثال العظمة والبذخ في مساجدها فهي مثال الحقارة والفقر في أزقّتها الضيّقة القذرة ، وفي تلك الأشباح من لابسات الشادور الغاديات فيها والرائحات ، وهذه القطعان من الأطفال المشرّدين حفاة ، أنصاف عراة ، مع متسوّلين لا عدّ لهم ينبطحون على الأرض مادّين أيديهم وأعينهم للحسنة ، أو يلحقون بك واضعين في أنفك أفظع ما أنزل الله على خلقه من عاهات.

وفيما نحن في أحد الأزقّة إذا في ظهورنا همهمة مريبة ، أشبه بهمهمة الذئاب تمشي في ليل إلى فريسة شمّت لها ريحًا. كانت بنتنا سامية ، وهي «الحركة الدائمة» منذ نعومة أظفارها ، قد تخلّفت عنّا بعض الشيء ووقفت تتأمّل في محتويات دكّان من دكاكين القرون الوسطى – وأكثر الدكاكين في قُم من جيله – أثار فضولها ما يغطّي حيطانه وسقفه من الحليّ القديمة عقودًا وأساور. وهو عبارة عن علبة بمتر طولاً ، بمثله عرضًا ، بمثليه أو أقلّ علوًّا ، مع دكّة يتربّع عليها صاحب الدكّان ، أصابعه في قدميه الحافيتين الكاسيتين وحل السنين ، وعيناه البرّاقتان في المارّة.

كانت سامية في الثانية عشرة ، وكان الطقس حارًّا خانقًا ، فرأت أمّها أن تُلبسها لذلك اليوم قميصًا بكمّين قصيرين يكشفان ذراعيها . فما أن وقعت عيون الرجال على هذا العري حتّى ثارت حفيظتهم وتنادوا إلى تلمّس خناجرهم ! لولا أن بادر علي أكبر – وقد أوصيناه بالتزام «الحركة الدائمة» – فاحتملها بيديه الجبّارتين ودفعنا بها دفعًا إلى السيّارة وقذفًا ، وراح يشقّ بها القوم هربًا بنا من قُم ...

من قُم لم أشترِ سجّادًا . ولكنّي أخذت منها تذكارًا : خنجرًا من الأنتيكا التي أحبّها .

الخنجر

من دُكّان الأشياء القديمة
اشتريتُ خنجرًا
علّقته في صدرِ الدار

لخنجري قبضةٌ من ذهب
أمسكتها أصابعُ أتيلا
وحمّالةٌ من حرير
تمنطقَ بها جنكيز خان

خنجري من عُمرِ الزمان
على حدّه لَمَعان
من غدرِ عينِ قايين
ودماء الملايين
معقوفٌ قوسَ قُزَح
يحضُن الأرض

حلمتُ بفجرٍ يطلعُ على خناجرِ الارض
كلُّها على الحيطان
مشنوقة !

طهران – ١٩٥٢

٧

إيران هي وطن آيات الله . وقبل آية الله الخمينيّ في هذا الزمان آية الله الكاشانيّ في زماني ، وكان الزعيم الدينيّ – السياسيّ دون منازع ، والرجل رقم ٢ في البلاد . وكان يشغل منصب رئيس مجلس النوّاب ، ولكنّ هذا المنصب لم يكن في نظره شيئًا ، فهو لم يحضر اجتماعًا من اجتماعات المجلس –كان يترك ذلك لنائب الرئيس – ولم يُقسم اليمين الدستوريّة التي يُقسمها رؤساء المجالس . ولم يزر الشاه ، ولا وطأت قدماه البلاط في عهد محمّد رضا ولا في عهد أبيه . بل كان يلزم بيته وزاويته . حاذيًا في ذلك حذو العلماء الأقدمين ، حرمة للعلم وإعزازًا لمقامه .

ذات يومٍ من نيسان ١٩٥٣ تُوفّيت إحدى زوجات الكاشانيّ . وقد رأيت في اليوم التالي أن أقصد مع بعض زملائي رؤساء البعثات العربيّة إلى «مسجد شاه» حيث كان الكاشانيّ يتقبّل التعازي . وحدث أن تأخّرنا بعض الشيء فقيل لنا إنّ الكاشانيّ عاد إلى منزله . فلحقنا به إليه . وكنّا ثلاثة : وزير سوريّا المفوّض الدكتور شكيب الجابريّ ، ووزير الأردنّ المفوّض الأستاذ عبد المنعم الرفاعيّ ، وأنا .

استقبلنا بعض الحاشية وقادونا في دهاليز ضيّقة ، متعرّجة ، معتمة ، رطبة ، ثمّ في سلّم لولبيّ ذي سقف واطئ إلى الطبقة العليا من بيت قديم . وأدخلنا كبيرهم إلى غرفة صغيرة ، عارية إلّا من سجّادة تغطّي أرضها وبعض لوحات على الجدران عليها آيات قرآنيّة . وكنّا نشاهد من النافذة شيوخًا يتنقّلون في صحن الدار ، أو يغسلون وجوههم في البركة ، وربّما مرّت بينهم نساء بالشادور لبعض حاجات المنزل ، دون أن يتوجهن إليهم أو يتوجّهوا إليهنّ بكلمة أو لفتة .

إعتقدنا بادئ ذي بدء أنّنا في قاعة انتظار . ولكنّ رائدنا – وهو رجل يتكلّم العربيّة جيّدًا – لم يلبث أن قال :

– تفضّلوا ، سيأتي سماحة السيّد عمّا قليل.

وأشار إلى الأرض. ثمّ أردف :

– أنا عندليب (يعني اسمه) صهر آية الله. تلقّيت دروسي في بيروت ، وأنا أعرف لبنان وسوريّا والأردنّ.

وكنّا خلال ذلك قد عملنا بالإشارة فتربّعنا على الأرض. وحضر الشاي فجعلنا نتناوله ونحن نصغي إلى عندليب يغرّد لنا ذكرياته عن برّ الشام.

وما هي إلّا دقائق حتّى أقبل الكاشانيّ. كان قد سبق لي أن عرفته في مناسبات عدّة : قصير، هزيل ، مقوقس ، تشعّ من عينيه شرارات لها انعكاس على لحيته البيضاء ، ضحّاك ، حاضر البديهة ، كثير الحركة. رحّب بنا وأبى إلّا أن يعانقنا ، ثمّ تربّع في الزاوية وأشعل سيكارة بعد أن قصفها نصفين. وكنّا قد لبسنا قبل دخوله وجوه الحزن ، ومضينا في أحاديث جاء فيها آية الله على ذكر المرحومة بكثير من الثناء ، ولخّص رأيه فيها أنّها كانت جوهرة نادرة – كذا بالعربيّة التي هو متضلّع منها كلّ التضلّع – وأخبرنا أنّها كانت قبل يوم من وفاتها بألف خير ، ولكنّها رأت في الليل فيما يرى النائم – والتعبير له – حصانًا أبيض يقف بالباب ، وكأنّه في انتظارها ، وأنّها استأذنته في ركوبه ، فقال لها : أبشري واركبي. إنّ هذا الحصان سيحملك إلى الجنّة.

وسألنا سماحته أهو راضٍ عن الحالة في البلاد – وكانت المظاهرات تملأ العاصمة في ذلك اليوم ، والمتظاهرون فريقان ، فريق يهتف : مصدّق أو الموت ! وفريق : الشاه أو الموت ! – فهزّ رأسه هزًّا عنيفًا وأجاب بقول المتنبّي :

– «تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ».

قلنا :

– أنتم أحد ربابنتها المهرة ، فإن شاء الله تصلون بها إلى الشاطئ الأمين.

قال :

– أنا خلقت (كذا) النهضة الوطنيّة ، وأنا أعلنت الحرب على الإنكليز (فجأر الشيوخ : لعنة الله عليهم !) وأنا رفعت مصدّق إلى الحكم ، وأنا أردّه إلى الحضيض.

وفيما نحن نتهيّأ للقيام جاء من يقول : حضر الغداء. فأبى الكاشانيّ إلّا أن نبقى له. ومُدّ سماط في الغرفة نفسها ، وهو عبارة عن شرشف تحيّر لونه على الاستعمال ، أمسكنا جميعًا بأطرافه وسوّيناه على الأرض. ثمّ أقبل خادم حافي القدمين يحمل الصحون والأواني ويوزّعها علينا ، ثمّ وضع ألوان الطعام في الوسط ، وظلّ يقوم على خدمتنا طول الغداء منقّلًا قدميه بين الصحاف والأيدي المتشابكة بخفّة عجيبة.

وكان الحديث قد تطرّق خلال ذلك إلى شتّى الموضوعات ، وركّز الكاشانيّ على المؤتمر الإسلاميّ الذي كان يدعو إلى عقده ، وعلى واجب الإسلام والمسلمين في مقارعة الاستعمار والمستعمرين. فإذا وزير سوريّا المفوّض يربّت على كتفي ويقول :

– إنّ المسيحيّين إخوان لنا ، وهذا صديقنا فلان مسيحيّ ، ومع ذلك فهو وطنيّ أكثر منّي.

أمر لم يخجل تواضعي فقط بل خشيت معه أن يكون زجّني وزجّ القوم في مأزق. وتذكّرت أنّ الكاشانيّ كان أدلى قبل أيّام بحديث إلى البروفسور شارل صموئيل براون ، أستاذ تاريخ الأديان في جامعة «نورث وسترن» ، – وكان يقوم برحلة في الشرق في سبيل تأليف كتاب عن الأديان – فقال له من الجملة : «أنا مجتهد ، أو أنا ، حسب درجاتكم العلميّة ، دكتور في العلوم اللاهوتيّة الإسلاميّة. وقد تحدّثت حتّى اليوم إلى العديد من رؤساء الدين المسيحيّ ، فلم أجدهم على شيء إلخ...» وتطلّعت حواليّ : فإذا حيرة على الوجوه وعلامات تعجّب. ولكنّ الكاشانيّ بادر إلى براعة من براعاته ، فذكر الكبّة اللبنانيّة – وكان قد زار لبنان – وتلمّظ خلال لحيته. فأعلنت استعدادي لتحضيرها في المفوّضيّة ،

نيئة على ما يشتهي ، وإرسالها إليه. قلت إرسالها إليه لأنّ آية الله لم يكن يلبّي الدعوات عند أحد. فزادت الحيرة أضعافًا حواليّ وضرب الجماعة علامات التعجّب بألف.

وأبت المصادفة إلّا أن تجعلنا نلتقي على الباب ونحن منصرفون السيّد محمّد ذو الفقاريّ، نائب رئيس مجلس النوّاب. وهو رجل في الخامسة والأربعين. وسيم الطلعة، باريسيّ الهندام والثقافة. أنيق الحركة والكلمة، عليه وقار وبشاشة مجتمعان. فبادلناه التحيّة ونظرنا إليه وكأنّما نحن ننظر إلى القرن العشرين يدخل لزيارة القرون الوسطى.

«إنّ الكثير من مشاكل إيران ومشاكل بلدان الشرق هي هنا. وقد تنقلب المشكلة إلى مأساة عندما يُضطرّ القرن العشرون أن يتعاون مع القرون الوسطى وأن يأتمر أحيانًا بأمرها ويسير في ركابها»* .

٨

وكان أن جاء الصيف، ولا بدّ من قضاء بعضه في بحرصاف. وطاب لي أن أسافر مع العائلة بالسيّارة، فركبناها وخضنا في الصحراء على طريق «نرن» التي يذكرها الذاكرون، وهي الطريق اللاطريق إلّا بالظنّ والتوهّم، كانت تسلكها باصات تلك الشركة وكميوناتها ناقلة الركّاب والبضائع بين بيروت ودمشق وعمّان وبغداد وطهران، طردًا وعكسًا، وظلّت على ذلك سنين.

تولّيت قيادة السيّارة لولوعي بذلك، والسائق إلى جانبي يدلّني كيف أتوجّه يمينًا، يسارًا، بين كثبان الرمل وأخاديد الشتاء. فلمّا اقتربنا من بغداد أخذني التعب، مع نعاس أثقل أجفاني فأفتحها بالقوّة، وزوجتي تلحّ عليّ مع السائق أن أتخلّى له عن المقود فلا أقبل.

كان قد مضى عليّ، والدنيا ليل، ثماني ساعات متواصلة وأنا وراء المقود، بسرعة مئة كيلومتر في الساعة أو تزيد. وإذا بجمل شارد في تلك الصحراء يطلع لي قاطعًا من مَيل إلى مَيل على عشرين أو ثلاثين مترًا، فأنا ضاربه وهو ضاربي، لا شكّ ولا مهرب. فدعست الفرام دعسة صببت فيها كلّ حبّي لحياتي وحياة عائلتي، وثنيت المقود في محاولة لتحاشيه ما استطعت، فجاءت ضربتي له بمقدّم السيّارة على صدره، وضربته لي بالغارب على زجاجها، مع استدارة على الأثر لهيكله العظيم وصكّه بابَي السيّارة من اليسار، على صراخ الأولاد هابّين من النوم ذعرًا، فيما كان الجمل يثب في الصحراء ويصرخ هو الآخر صراخه العظيم. ولعلّه كان يحمل نزعه «إلى حيثُ ألقت رَحْلَها أمُّ قشعم» – يأتيني الشعر الآن على مكتبي الوثير– وكانت السيّارة قد جمدت وجمدنا كلّنا. هل أنا أوقفت المحرّك؟ هل توقّف هو من عطل؟ جاء السائق وراء المقود يحقّق في الأمر بعد أن ترجّلت وأفراد العائلة نتعانق ونحمد الله على السلامة.

قال السائق: ليس إلّا الزجاج الأماميّ، صار طحينًا. والبابان هنا على اليسار معطّلان.

قلت: والمحرّك؟

قال: ماشٍ.

قلت: قُم أعطني المقود. لا يسوق أحد غيري حتّى بيروت.

---

* الفقرة الأخيرة الواردة بين قوسين مزدوجين مأخوذة بنصّها من تقرير رفعه المؤلّف إلى وزارة الخارجيّة والمغتربين بتاريخ ١٩٥٣/٤/١٧ .

في ظلال الأندلس

١

لم يلبث صائب سلام ، بعد عودته إلى لبنان ، أن عاد رئيسًا للحكومة. فعيّنتني حكومته رئيسًا لبعثتنا الجديدة في مدريد – قائمًا بالأعمال أصيلًا – وسبق هذا التعيين قرار بإنشاء علاقات دبلوماسيّة بين لبنان وإسبانيا. وقد لاقيت عنتًا كبيرًا في إزاحة القنصل الفخريّ عن كرسيّ مجده. أبى أن يتعرّف إلى مرسوم الاستغناء عن خدماته وإلغاء قنصليّته ، ولم أتمكّن من إنزال لوحتها عن باب داره إلّا بواسطة الشرطة.

استغرقت مهمّتي في إسبانيا مدّة ثلاث سنوات – من أوائل ١٩٥٤ إلى أواخر ١٩٥٦ – وكانت زيارتي الأولى فيها لمكتبة «الإسكوريال» التي تضمّ كنوزًا من المخطوطات العربيّة تُعدّ بالألوف. والمكتبة مبذولة للدارسين في العالم وموضوعة في تصرّف قسم المخطوطات في جامعة الدول العربيّة يختار منها ما يشاء وينشر. ولكنّ الجامعة لم تكن لذلك الوقت قد نشطت إلى شيء في هذا الباب. هل نشطت إلى شيء في أيّ باب؟ ورافقني في تلك الزيارة المستشرق إميليو غارسيا غوميز ، وكان مديرًا للدروس العربيّة في جامعة مدريد ، وجاءنا فيما بعد سفيرًا لبلاده في لبنان ، وانحنى على ترجمة طائفة من قصصي إلى لغة سرفنتس.

* * *

كان الجنرال فرنكو في الثانية والستّين من العمر يوم حضرت العرض العسكريّ الذي أُقيم بإشرافه في أوّل نيسان ١٩٥٤ لمناسبة الذكرى السادسة عشرة لانتصار الحركة الوطنيّة ، وكنت في منصّة الدبلوماسيّين الملاصقة لمنصّته. وقد استغرق الاستعراض ساعة ونصف الساعة ، فظلّ طول هذه الفترة منتصبًا على قدميه ، لم يمِل له رأس ولم تتحرّك يد إلّا بالتحيّة الرسميّة.

قويّ ، جلد ، مهاب ، على غير حبّ من الشعب بالمعنى الذي نعرفه من بعض الملوك والرؤساء. شهدته في هذا الاحتفال كما لقيته عن كثب من بَعد. له ، فوق قامته البدينة المائلة إلى القِصر ، وجه نحاسيّ تضيئه ابتسامة تبعدك منه أكثر ممّا تقرّبك. يحكي المتّصلون به أنّه ربّما طوى يومًا كاملًا أو يومين دون طعام ولا رقاد. وهو يرئس اجتماعات مجلس الوزراء كلّ يوم جمعة ، فتمتدّ عشر ساعات وأحيانًا إلى ما بعد انتصاف الليل ، وأصحاب المعالي يتناوبون في الخروج لطعام خفيف أو لضرورة ، وهو قاعد مكانه لا يحتاج إلى شيء.

أصدق ما قيل فيه كلمة سمعتها من بعض وزرائه : «ليس فيه شيء من فضائل الإسبان ، ولكن ليس فيه شيء من نقائصهم». قريب بعيد ، يعرف ما يريد ويسلك طريقه إليه. ذو ذكاء كبير ولكنّه لا يبهر. كتوم إذا تحدّث ، مكثار إذا كتب – كان يكتب غالبًا

بإمضاءات مستعارة ولا يقلّ مقاله عن الأربعة أعمدة من جريدة – طاغية يبشّر بالحرّيّات... إلخ. ولو أردت له وصفًا جامعًا لقلت إنّه «الحاضر». ولعلّي قد ذكرت مزايا الحاكم كأحسن ما تُذكر – هل الحكم إلّا الحضور؟ – لم يغب له يومًا فكر ولا تدبير عن كلّ ما يؤول إلى تدعيم نظامه. وحاضر أخيرًا بلا انصراف... فالناس في إسبانيا وغير إسبانيا لم يكونوا يتساءلون – إذا تساءلوا – إلّا عمّا يحدث بعد فرنكو. أمّا في حياته فلا يفكّرون بحدث أو تغيير. وقد كفاه أنّه أشاع هذا الاقتناع، وما هو بالقليل.

«وسيظلّ فضله الأكبر إشاعة السلام في البلاد بعد ثورة أهليّة راح فيها نيّف ومليون ضحيّة، وتركيز الدولة على أسس تتّفق مع أخلاق الإسبان وتقاليدهم. دون أن ننسى، طبعًا، أنّ النظام نظام طغيان. فالحرّيّات مقنّنة، والآفاق بوجه الانطلاق والإبداع مرسومة ببركار»*

٢

والأندلس: غرناطة، وإشبيلية، وقرطبة إلخ.

لن أنسى يوم ذهبت إليها – كانت المرّة الثالثة أو الرابعة – بصحبة الرئيس عبد الله اليافي والدكتور الياس الخوري. فلمّا رأى عبد الله بك آثار هذه الحضارة العظيمة التي خلّفها العرب – على التحديد في قصر غرناطة – هتف بقول الشاعر:

«تِلكَ آثارُنا تدلُّ علينا
فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ»

فبادره الدكتور بقول الشاعر الآخر:

«أُعطيتَ مُلكًا فلم تُحسِنْ سياستَه
وكلُّ مَن لا يسوسُ المُلْكَ يُخلَعهُ»

واصلنا طوافنا بأقسام القصر نتذكّر ونتندّر حتّى انتهت الزيارة، فمشيت إلى حيث كانت السيّارة تنتظرنا للعودة، ومشى الدكتور الخوري معي. وكنت قد أفهمت السائق من هما ضيفاي، فدولة الرئيس اليافي على اليمين، ومعالي الدكتور الخوري على اليسار، وأنا إلى جانبه أي إلى جانب السائق. وخفّ السائق وفتح الباب اليمين لصاحب الدولة منتظرًا. وأنا وصاحب المعالي ننتظر أيضًا، وعبد الله اليافي مدير ظهره لنا ووجهه إلى القصر. دقيقة. دقيقتين. ثلاث دقائق. ثمّ أقبل إلينا يعتذر مبتسمًا وخلال ابتسامته دمعتان كبيرتان...

في زيارة أخرى لتوليدو، طليطلة العرب، رافقت فيها الأمير الدكتور رئيف أبي اللمع، كرّت الدموع بلا حساب.

وتفصيل ذلك أنّ في هذه المدينة قصرًا يُعرف باسمها حوّلته حكومة فرنكو بعد انتصارها على الجمهوريّين إلى مزار وطنيّ تخليدًا للحادثة التي كان مسرحًا لها خلال الحرب الأهليّة.

كان القصر بأيدي الوطنيّين جماعة فرنكو، وعلى رأسهم الكولونيل موسكاردو قائد الحامية، والجمهوريّون يحاصرونه في هجوم معاكس ويطلبون من قائده الاستسلام تجنّبًا لإراقة الدماء في معركة هم كاسبوها، قالوا، لتفوّقهم في العدد والعدّة. ولكنّ الكولونيل قائد الحامية أبى أن يستسلم. فإذا بقائد الحملة، كانديو كابلّو، يتناول التلفون ويخاطب موسكاردو بقوله:

– إذا لم تسلّم القصر بحاميته، وتستسلم أنت على رأسها في مهلة عشر دقائق، فسنقتل رميًا بالرصاص ابنك لويس الذي أسرناه هذا الصباح. ولكي تتأكّد من الأمر فأنا أعطي التلفون لابنك، وهو بجانبي، ليكلّمك بنفسه.

وفي الواقع تكلّم لويس:

* الفقرة الأخيرة الواردة بين قوسين مزدوجين مأخوذة من تقرير رفعه المؤلّف إلى وزارة الخارجيّة والمغتربين بتاريخ ١٩٥٥/٤/١٢.

– أبي.

– ما الحكاية يا بنيّ؟

– لا شيء. يقولون إنّهم سيقتلونني رميًا بالرصاص إذا لم يستسلم القصر.

– إذا كان الأمر كذلك فضع روحك في يد الله واهتف: فيفا إسبانيا! ومُت بطلًا. الوداع يا ولدي. وقبلة أخيرة.

– الوداع يا أبي. أعانقك بكلّ قوّتي.

استعاد كابلّو التلفون، فأبلغه الكولونيل أن لا حاجة إلى مهلة. القصر لن يستسلم.

وقُتل لويس موسكاردو رميًا بالرصاص في ٢٣ آب ١٩٣٦.

هذه الحادثة، بتاريخها ونصّ المخابرات التي جرت فيها بالتلفون، محفورة على لوحات رخاميّة في قصر توليدو، وأنا أترجمها بالحرف الواحد.

ظلّ الأمير الدكتور يحدّق إلى اللوحات، وأنا أترجم له، والدموع تكرّ على خدّيه. ومن يعرفه، رحمه الله، يعرف ما كان عليه من رقّة قلب وشدّة انفعال. أناوله منديل الكلينكس بعد المنديل وهو لا يكفّ عن البكاء...

إذا كانت دمعتا عبد الله اليافي تحسّرًا على المجد الضائع، فدموع رئيف أبي اللمع التي بلا حساب كفر بالإنسان وكلّ أمجاده.

٣

والكورّيدا!

من زار إسبانيا ولم يحضر مصارعة الثيران فاته الوجه الآخر لذلك الشعب، بل لكلّ شعب. أريد أن أقول: فاته الوجه الآخر للإنسان.

وجه سَطيح – إيّاه – ذلك الذي كان يتزعّم رفاقه، أبالسة الطيش، يسوقهم إلى حقول بجرصاف مع كلب شارد، فيربط الكلب إلى جذع شجرة وينهال عليه وإيّاهم ضربًا بالقضبان حتّى الموت. وقد عادت إليّ الذكرى في المرّة الأولى التي حضرت فيها الكورّيدا، وطفرت من عينيّ دموع نادت الدمعة التي كان ذلك الصبيّ يخنقها بعد قتل الكلب، فامتزجت بها مَرَجَ البحر بالبحر.

زوجتي أحبّت الكورّيدا فحملتني على حضورها مرارًا فيما بعد فتعوّدت.

حتّى كانت حفلة الحفلات في أحد الأعياد الإسبانيّة، وكانت برعاية الجنرال فرنكو متصدّرًا منصّة الشرف، وفي صحبتي إميل البستانيّ.

كان إميل يعرف – وأيّ شيء لم يكن يعرفه؟ – أنّ الإسبان يتحمّسون في الكورّيدا إلى أقصى الحدود. يهتفون لكلّ براعة يقوم بها المصارع ويقذفون بقبّعاتهم في الهواء. أمّا إذا رأوا منه خوفًا وارتباكًا، أو خروجًا على أصول اللعبة، فإنّهم ينهالون عليه بالشتائم، وربّما قذفوه بقناني الكوكاكولا مطالبين بطرده من الساحة. وقد احتاط إميل للأمرين، فاعتمر لذلك اليوم بقلنسوة – بيره – كقلنسوة الرهبان، إلّا أنّها حمراء للمناسبة، وطلب فور وصولنا إلى مقاعدنا، قبالة منصّة الشرف، دزّينة كوكاكولا. قال:

– نحطّم بها رأس المصارع الجبان، وإلّا فنشربها مع هذا الحرّ الذي لا يُطاق.

ثمّ أردف:

– الفارغة أبلغ تعبيرًا. هاتِ نشرب!

وكرع قنّينتين وأعطاني واحدة.

من أحبّ الحياة كما أحبّها إميل البستانيّ؟ من ضحك لها كما ضحك؟ ومن غامر بها كما غامر؟ حتّى طار بها إخيرًا خلال العواصف وأهوى بها إلى الأعماق، لم يُعثر له على أثر ولا للطائرة التي كانت تقلّه من بيروت إلى عمّان، وراحت تلك الكرة من الذكاء والطموح والظرف طعامًا لحيتان البحر.

في عصر ذلك النهار اللاهب كان لنا ولمن حوالينا

مشهدان: واحد تحت في ساحة المصارعة. وآخر فوق في الصفّ الذي كنّا فيه. كان إميل يهتف مع الهاتفين: «هولِه! هولِه!» ويشفعها بمقاطع من اختراعه على أنغام اللغة الإسبانيّة، خالطًا معها العربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة. يقوم، يقعد، يقذف بقلنسوته في الهواء. يتلقّاها برأسه، فإذا وقعت في حضن آنسة أو سيّدة ضرب بيده ما طالت معتذرًا، أو شقّ الصفوف إلى حيث هي، لاقطًا الإسكربينات التي أخذها في طريقه، ومُقسمًا – أدبًا منه – لا تلبسها صاحباتها إلّا على يديه!

وتتوالى الجولات واحدة بعد أخرى، هذه حامية مثيرة، وتلك باردة مملّة. والعيون عند ابتداء كلّ جولة إلى الباب الذي سيخرج منه الثور. ينبغي أن نقول الفحل. وفحل الكورّيدا سليل نوع خاصّ من البقر الوحشيّ، يحرص الجماعة على نقاء دمه في التناسل، ويربّونه في مزارع بعيدة عن العمران، ولا يدفعونه للكورّيدا إلّا بين الرابعة والخامسة من سنّيه، على أن يكون خاليًا من كلّ عيب.

إنّ أروع ما يُمكن أن تقع عليه العين ليس الاستعراض الذي يقوم به اللاعبون بأثوابهم المزركشة، ولا الفرسان رافعو الحراب على أعناق خيلهم، ولا ضاربو السهام في كرّهم وفرّهم، ولا حتّى «المتّادور» في الذهب المتلألئ على صدره والعنفوان الذي يرفع رأسه. وإنّما الروعة كلّ الروعة في نزول الفحل إلى الساحة. الجبروت في فخامة هيكله، والعزم في مجدول عضلاته، والجمال في اتّساق أعضائه، والشباب في غليان دمه، والتحدّي في نظرات عينيه، كأنّما هو الحياة بكلّ ما فيها من فرح ودهشة وتطلّع. إلى قرنين معقوفين – شاربَي مروءة وشهامة – ينطح بهما جدران الحواجز من هنا وهنا. وقوائم يفحص بها الأرض قرعًا، وعينين له – من قرأ أشعار العرب في عيون المها؟ – يصوّبهما حواليه، يوزّع أشعّتهما على الناس، يصبّها في عينيك، ينتقل إلى آخر، يجول في الساحة ويصول، يقف فجأة وظهره إلى منصّة الشرف، يرفع ذَنَبه بوجوه العظماء. «أنا العظيم» – يقول – «أنا الرئيس! أنا الملك! ماذا تريدون منّي، وعلامَ هذه العيون والحراب الموجّهة إليّ من كلّ صوب؟»

للاستمتاع بغرس الحراب في عنقك، وشكّ السهام بين أضلاعك، وتهويل المتّادور بستارته عليك، تنطحها عوض أن تنطحه، تقتحمه فينفتل لك، مرّة، اثنتين، ثلاثًا، عشرًا حتّى يأخذك الدوار. وتكاد تنكر قرنيك هذين كيف يخونانك، كيف يحكّان بفخذَي خصمك، بكتفيه، بصدره، وهو لا يبالي إلّا بالهتافات تنهال عليه: هولِه! هولِه! هولِه!

وقد يدير ظهره لك بازدراء لردّ التحيّات والانحناء بها للمتربّع الجليل على المنصّة، أو لهذه المرأة أو تلك من المعجبات به.

وتُحبَس الأنفاس للمرحلة الأخيرة. الفحل الآن يقف على قوائمه الأربع حاملًا سهامه القاطرة بالدم، ومعها جراحاته العميقة. لا يحرّك قرنيه. عيناه فقط تبرقان بريقًا مريبًا. يتقدّم المتّادور حتّى يصبح على أربعة أو خمسة أمتار منه، الوجه بالوجه والعين بالعين. سلاح الفحل قرناه: سلمان قويّان متربّصان. وسلاح المتّادور الستارة في شماله والسيف في يمينه يباغت به الفحل منقضًّا بين قرنيه للضربة القاضية. فإذا لم تكن الضربة محكمة فقد طار المتّادور على قرني الفحل إلى العلاء فإلى المستشفى أو القبر. أمّا إذا جاءت في أحشاء الفحل فالفحل ينهار دفعة واحدة، ترتجّ له أرض الساحة ويرتجّ جوّها بالهتافات تحيّة للقاتل، وترشقه مئات الأيدي بالزهور مع قبلات من النساء تنهال عليه من كلّ صوب محمّلة ما لم تعرفه قبلات جوليات ولا كليوباترا في زمانهما...

... مع هذا الفارق أنّ صبيّ الضيعة كان يقطع لسان الكلب ويرميه في الوادي، والبطل المظفّر هنا

يقطع من الفحل أذنيه ويرفعها تقدمة إلى من يحبّ من الحاضرين أو الحاضرات، أو يحتفظ بهما ذخرًا.

يقول إرنست هيمنغواي في كتابه «موت بعد الظهر» – وهو عبارة عن ريبورتاجات موسوعيّة عن الكورّيدا – ما ترجمته:

«ينبغي للمتّادور الكبير أن يكون عنده معنى حقيقيّ للشرف ومعنى حقيقيّ للمجد. بعبارة أخرى ينبغي له أن يحبّ القتل. أن يتذوّق في القتل متعة روحيّة. وقد كان القتل وما يزال من أعظم المتع عند كثير من الشعوب».

٤

ذات يوم من خريف ١٩٥٦ عدت من مدريد إلى بيروت بإجازة، فاتّصل بي الرئيس سلام:

– أين قصيدتك في سعود؟

وكنت قد أطلعته عليها لدى زيارته طهران، فقلت:

– مطويّة من جملة ما أطوي من قصائدي. فكيف بهذه؟

قال:

– إذا كانت الظروف قد حالت دون إلقائها في طهران بين يديه وليًّا للعهد، فينبغي أن تُحمل إليه وهو في بلاطه ملكًا، وتنشده إيّاها بنفسك.

وكان الرئيس سلام قد اعتزم الذهاب على رأس وفد من لبنان إلى جدّة لتهنئة سعود بتنصيبه بعد وفاة عبد العزيز، فضمّني إلى وفده واتّفقنا على التقديم للقصيدة بحكايتها.

في اليوم المشهود وقفت بين يدَي صاحب الجلالة وقفة لا والله لا أنساها ما حييت.

الديوان في قصر جدّة يغصّ بالأمراء والوزراء، وفي الزوايا مقرفصون بعباءاتهم السود كأنّهم العقبان الجاثمة، خليط من علماء الدين ومشرّدي الدنيا العربيّة، فيهم اللاجئ والطامع والشاعر، وكلّهم عيون عليّ وآذان. وأنا أفتّش في ممدوحي العظيم عن عينيه لأرى أثر قوافيّ في مائهما – أذناه تغطّيهما الكوفيّة – فتريغ عيناي، ولكنّي أمضي في الإنشاد، وشِقّ وسَطيح يضع كلّ منهما نبرته الخاصّة على كلّ كلمة. فقد كانت القصيدة من نظمهما معًا، كما قلت سابقًا، ولا يمكن أحدهما أن ينكر على الآخر فضله.

كان سعود، غفر الله له، يطرب لأشياء كثيرة ما عدا الشعر. ولكنّ جريدة «أمّ القرى» نشرت القصيدة في اليوم التالي على صدرها، وطلع من تحت العباءات في الديوان وفد من الذين سمعوها، بينهم عبد الله بلخير، وخير الدين الزركليّ، ومنير العجلانيّ، فزاروني في الفندق واستعادوها على أطيب ما يكون السماع.

وبعد فهذه هي القصيدة بنصّها وفصّها:

يا ابن عبد العزيز

أمِنَ الروضِ عنـدَ لِينكَ وَرْدُ
ومِنَ السيفِ عندَ بأسِكَ حدُّ
يـا ابنَ عبدِ العزيزِ سرُّ أبيه
ومُنـاه والسرُّ كـالشمسِ يبـدو
عزَّ عبدُ العزيزِ باللهِ وبالسيفِ
– فعبـدٌ للهِ والسيفُ عبـدُ
يومَ آلى : اَلمُلْكُ أو مستطـابٌ
دونَه الموتُ هل من الموتِ بدُّ
جيشُه الضخمُ همّـةٌ في الثريّا
وعلى الأرضِ أربعون تُعَـدُّ
من رعيلِ الإخوانِ إن جَنَّ ليلٌ
دلَّ برقٌ لهم عليهم ورعـدُ
اِسأل البيدَ هل طوَوها طِرادًا
والعوالي هل أشرعوها وخدّوا
وحصونًـا ممنَّعـاتٍ تَهـاوى
وعروشًا كما تنـاثرَ عِقـدُ
والأساطيرَ هـل رَوت مـا رواه
صارمٌ في يَـديْ أبيك فِرنـدُ

* * *

شرعةُ العاهلِ العظيمِ ومسؤولٌ
– عن الشرعِ في يدَيك العهدُ
فتلفَّتْ ترَ القبيـلَ شتيتًـا
شيبُـه تعلكُ القيودَ ، ومُرْدُ
تتلهّـى عن العُلى همُّها الهزلُ
– ويـذلُّ الحيـاءِ والدهرُ جِدُّ
يـا لَأحلامِنا تُسمَّنُ في الذلِّ
– وتُمسي على الحضيضِ وتغدو
يـا لَشاراتِنا جراحٌ على الأُفقِ
– وأُفقٌ رأدَ الضُحى مسودُّ
بوركَ الحِلمِ في النفوسِ كرامًا
فـإذا أوذيت تبـاركَ حقـدُ

* * *

حَمحَمت في الحِمى الصوافنُ فاركبْ
وأدِرْهـا حيثُ البطولـةُ وِردُ
واقدحِ المجدَ بـالسنابكِ حُمرًا
تصدعِ النيِّراتِ فـالمجدُ زنـدُ
بين عينَيك من لظاها شُعاعٌ
عبقريٌّ وبين جنبَيْك وَقْـدُ
وامضِ والريحَ في إهابك عزمٌ
صادقٌ يملأُ الفضاءَ أشدُّ
شرفُ الحرب ، نحن أعرف بل أكرم ،
– حقٌّ على الظُبـى مُستَرَدُّ
لا افتئاتٌ على الشعوبِ ولا بغيٌ
– عليـه من الأكـاذيبِ بُرْدُ

* * *

يا سعودٌ! أغرّد الطير في الدوح
– ومـادت بها أفـانينُ مُلْـدُ
يا سعودٌ! أُفْتٌ في الأرض مِسكٌ
واحتواها من فوح خُلقِك نَدُّ
زحمَ الـدينَ عندَ يومِك والدنيا
– أبٌ ضمَّ ما ضممتَ وجدُّ
النواقيسُ صُدَّحٌ يلتقيهـــــا
في الأعـــالي مِنَ المآذنِ ردُّ
ضجّ لبنــــانُ والشآمُ ومصرٌ
والعراقـــانِ والحجـــازُ ونجدُ
ومشَت فــــارسٌ تحيّيك يمشي
في خُطاها التاريخُ والمجدُ يحدُو
عزُّ كسرى وديـنُ أحمدَ والفقهُ
– وفـنٌّ من عبقرٍ مُستمَـــــدُّ
بوّأتك الشعوبُ عرشَ هـواها
والملوكُ ابتغوا هـواك وجــدّوا

* * *

أيّها الطالبونَ عمرًا طويلَ العمرِ
– شهمٌ يسترخصُ الموتَ جَلْـدُ
أيّهـا الكـاسبونَ قلّـلَ كسبٌ
قــد جهـدتُم لـهُ وكثّرَ زُهـدُ
رُبَّ وادٍ في الأرضِ ليس بذي زرعٍ
– جناه من فضلِ ربِّكَ شَهْدُ
يُرزَقُ العبدُ ما وَعَت كفٌّ رزّاقٍ
– البرايا وما وعى منه حمدُ
فجزاءٌ مــا راعَنـــا لا رفـاءٌ
وبساطٌ من رحمــــةٍ ممتــدُّ
حوّمت فوقه المكارمُ واصطفٌّ
– من العُصبة الأكـارمِ حشدُ
أخذوا ما اقتضَوا حسابًا وأعطَوا
مثلما يــــأخــــذونَ واللهُ قصدُ

* * *

سيّــدي ، هــذه تحيّـةُ صدقٍ
فـاقتبلْهـا حسنـاءَ ليست تُرَدُّ
بــاقــةٌ غضّةٌ بقيّــةُ فردوسٍ
– هـذي الرياضِ لا وَرْدَ بَعدُ
صاغهـا شاعرٌ تمرّس في لبنانَ
– بـالعطرِ مـذ حواه المهـدُ
فعليهـا من شمسِ فارسَ وهجٌ
وعليهـــا مـن أرزِ لبنـــانَ بَرْدُ
حَلِيت بـالنّدى ووشّى ذُراهـا
من جراحٍ سالت على المجد نِدُّ

طهران – ١٩٥٢ ، جدّة – ١٩٥٦

في وادي النيل

١

كان من المقرّر أن أنتقل من إسبانيا إلى المكسيك رئيسًا للبعثة وزيرًا مفوّضًا فيها. ولكنّ الرياح السياسيّة شاءت أن تُرجئ الأمر. وكانت بعثاتنا الكبرى في الخارج قد ارتقت إلى مرتبة سفارات، ومنها بعثتنا في القاهرة، فعيّنتني الحكومة مستشارًا فيها بلقب وزير مفوّض، تعويضًا عن الإخلاف بالوعد، أو في الأقلّ عن إرجاء الوفاء به. وكان السفير هو الزميل مرّتين. في الأدب وفي الوظيفة. الشيخ خليل تقيّ الدين.

عشت حرب السويس عام ١٩٥٦، ورأيت كيف كان الرئيس جمال عبد الناصر يتأرجح بين الهزيمة والنصر، حاملًا في قبضته حرّيّة مصر بعد تأميم القناة ومعها آمال العرب، يشدّ بنواصيهم إلى السماء، ويرفع أنوفهم لأوّل مرّة بعد صلاح الدين في وجه الاستعمار فيخاطب أربابه مخاطبة الندّ للندّ، وتتلاحق خطبه الناريّة – وكان يخلط فيها الفصحى والعاميّة عفو الخاطر – شررًا متطايرًا يسقط على الرؤوس من الخليج إلى المحيط فيولعها، ومعها راء الاستعمار «رّ»، يشدّدها – يضع عليها شدّة كرّارة – فتسقط هي الأخرى في الأسماع أصداء مدوّية، كأنّ الاستعمار بأمّه وأبيه دعسًا تحت قدميه ومعسًا.

كان أكثر ما يروعك منه جبروت قامته. وتوقّد عينيه السوداوين الواسعتين، وسحر في ابتسامته يأخذك به أخذ القادر. إلى حديث طليّ ونكتة بارعة يسبقك في الضحك لها، ويطلب منك أن تبادله بمثلها ولو كانت عليه. وما أكثر ما كان عليه من نكات في الدواوين والحارات، والمقاهي والبارات! فيأمر بحملها إليه ويعقد لها حلقات السمر في لياليه.

خصال له ومواهب ألّفت حوله القلوب وبوّأته الزعامة، وأدخلت شعائر الحبّ له والإعجاب به إلى البيوت والدكاكين، من القاهرة حتّى آخر قرية في الريف، ومن وادي النيل إلى أقصى أقطار العرب. ولم ينل من هذه الزعامة في عيون الجماهير ما آلت إليه حروبه ولا مغامراته.

* * *

كانت حرب السويس لدى وصولي إلى القاهرة في مرحلتها الحاسمة. وكنّا، نحن أعضاء البعثة وعائلاتنا، نتّقي القنابل المتساقطة على المدينة بلجوئنا إلى مقرّ السفارة – منزل السفير بغرفه وأروقته والمكاتب الملحقة به – وكنت أنصرف أنا والشيخ خليل إلى العمل كلّما توقّف القصف.

تعود إليّ من تلك الأيّام ذكريات منها:

الأولى، الخفيفة الظريفة، أنّ الملحق الأستاذ

محمّد البرجاويّ ، الذي ترك السلك فيما بعد وأصبح نائبًا في المجلس ، كان يلزم زاوية محصّنة في السفارة لا يتزحزح عنها. فإذا جاع أو عطش حمل إليه الخادم طعامه أو شرابه ، وإذا خرج لحاجة فحكًّا بالحائط في الذهاب والإياب. وكنّا أنا والقنصل خليل حدّاد ، الذي أصبح فيما بعد سفيرًا ومديرًا لبروتوكول الرئاسة في القصر الجمهوريّ ، ومعنا الأمير شكيب شهاب رئيس المكتب السياحيّ الملحق بالسفارة ، نتندّر في خوف البرجاويّ ونلاحقه بمداعبات من السخرية البريئة ، وبأخبار نلفّقها عليه لهربه من القنابل. حتّى لم يتردّد حدّاد ذات يوم في الدخول عليه ومناداته بين الجدّ والمزاح بالجبان. فأطلع محمّد رأسه من الزاوية وأجابه بالصوت العالي :

– ألف مرّة جبان ، ولا مرّة الله يرحمه !

وعاد إلى الانكماش في زاويته.

الثانية ، قنطار هذه بوزنها ، وحاسمة.

كان السفير تقيّ الدين ، بما له من دالّة على الكبار منذ الشيخ محمّد الجسر* – كان سكرتيرًا له عهدَ مجلس الشيوخ في لبنان – وبسبب من الحرب الدائرة وما يتوقّف على نتائجها من مصير وادي النيل والبلدان العربيّة كافّة ، أقول كان السفير يتّصل كلّ يوم تلفونيًّا بالقصر الجمهوريّ في بيروت ، وينقل إلى الرئيس كميل شمعون مباشرة أخبار المعارك الحربيّة ، والسياسيّة من ورائها ، وأنا إلى جانبه أصغي إلى المخابرة ، فأسمع كلّ ما يقوله السفير وبعض ما يجيب به الرئيس شمعون عندما يرفع صوته. والحقّ أنّ معظم الكلام كان للشيخ لا يعلّق عليه الرئيس إلّا بـ : أوم. أوم. أوم.

حتّى كان ذلك اليوم الذي بلغت فيه الحرب ذروتها ، فغلت الحماسة في قلب الشيخ خليل فضرب بيده إلى التلفون ، وأنا دائمًا إلى جانبه ، وهتف بمخاطبه :

– يا فخامة الرئيس ، يجب أن يعلن لبنان الحرب على فرنسا وإنكلترا !

فدوّت القاعة بصوت الرئيس حتّى كاد التلفون ينفجر :

– «كو... ول هوا !»

وانقطع الخطّ.

٢

لم يعتّم خليل تقيّ الدين أن نُقل من مصر سفيرًا في إنكلترا – إيّاها – في تشكيلات للسلك وفت فيها الحكومة بوعدها لي فعيّنتني رئيسًا لبعثتنا في المكسيك. ولكنّ الأوامر جاءتني أن أتريّث في تسلّم مركزي الجديد ، وأن أبقى مؤقّتًا على رأس بعثتنا في مصر. فـ «المصلحة – كما جاء في البرقيّة الرمزيّة – تقضي بذلك». فصدعت بالأوامر. وألحقوا بالسفارة بموجب تلك التشكيلات مستشارًا هو الأستاذ غالب الترك الذي أصبح فيما بعد محافظًا للجنوب ثمّ للجبل. وقد عمل غالب الترك إلى جانبي كأذكى وأنشط وأخلص ما يكون العمل في أشدّ الأوقات حرجًا بين لبنان ومصر ، وتوثّقت عرى الصداقة بيننا مذ ذاك.

ذات يوم وصل الرئيس صائب سلام إلى القاهرة فاستقبلته على المطار ، وفي سيّارة السفارة التي يرفرف عليها العلَم رافقته إلى الفندق ، ومن غد ركب إلى جانبي في تلك السيّارة مع العلَم أيضًا وحضرنا معًا اجتماعًا لمجلس الأمّة كتفي إلى كتفه ، وفي المساء أقمت له مأدبة عشاء إلخ. فما راعني بعد يومين من عودته إلى بيروت إلّا برقيّة «خطيرة» وصلت إلى السفارة. وكنت وقتذاك في أسوان للترويح عن النفس في زيارة لآثارها ، وغالب الترك في غيابي يصرّف الأعمال بما أعهده فيه. وإذا هو يتّصل بي من القاهرة إلى أسوان بالتلفون وينقل إليّ نبأ البرقيّة. قال :

---

* من رجال السياسة في لبنان ، كان رئيسًا لمجلس الشيوخ.

– رمزيّة وشخصيّة ، موجّهة من الوزارة إليك .

قلت : اقرأها لي .

– قال : ما بيصير ! شيفرا مع «سرّيّ جدًّا» تتعلّق بك وبصائب بك .

وكان صائب سلام ، كما هو معلوم ، على رأس المعارضة في لبنان ، وبينه وبين الحكومة «ما صنع الحدّاد» ...

الخلاصة ، ألححت على غالب أن يتلو عليّ البرقيّة بالتلفون – والتلفون مراقَب – فلم يسعه إلّا تلاوتها . فإذا فيها سلسلة من الأسئلة : أصحيح أنّك استقبلت صائب سلام ؟... أصحيح في سيّارة السفارة ومع العلَم ؟... أصحيح ؟... أصحيح (راجع القائمة أعلاه) . نرجو الجواب فورًا .

قلت لغالب :

– أجب فورًا . بالشيفرا إذا أحببت ، وبالعربيّ الفصيح المفتوح إذا شئت . «صحيح . صحيح . كلّ ذلك صحيح . وأنا أعتبر نفسي هنا ممثّلًا للبنان ولا أفرّق بين موالٍ ومعارض» .

إنصافًا للوزارة : لم يأتِني منها على جوابي أيّ تعليق .

أكثر رجال السياسة اللبنانيّين الذين كانوا يتدفّقون إلى القاهرة للحظوة بمقابلة عبد الناصر كانوا يقفزون فوق السفارة . والقليل منهم من كانت لهم الكرامة الوطنيّة والمعرفة بالأصول ، وهؤلاء وحدهم كانوا يتّصلون بي لبحث العلاقات بين لبنان ومصر وتبادل الرأي في تطوّر الأحداث .

وعندما أستعرض مواكبهم أقف بالاحترام أمام صائب سلام ، على خلافي الصارخ معه تلك الأيّام . فالرجل لبنانيّ كبير . وستظلّ الشعارات التي أطلقها : «لا غالب ولا مغلوب» و«التفهّم والتفاهم» و«لبنان واحد لا لبنانان» هي المشاعل الهادية التي يعمل على ضوئها العاملون إذا كانوا يريدون للبنان الحياة .

امتدّت مهمّتي في القاهرة حتّى أواخر ١٩٥٨ . كان الحريق قد شبّ في لبنان . وهو الذي أُطفئ باعتلاء اللواء فؤاد شهاب سدّة الرئاسة ، ليعود فيشتعل في ١٩٧٥ وما تلاها ويأكل الأخضر واليابس .

كانت المهمّة شاقّة . وكانت اتّصالاتي محصورة أو تكاد بالأمين العامّ لوزارة الخارجيّة ، حسين عزيز ، وقد سبق أن كان زميلًا لي في مدريد بوصفه سفيرًا لمصر . وكان رجلًا نبيلًا وصديقًا طيّبًا ، وبين زوجته وزوجتي زيارات حميمة . فكنت أنقل إليه وجهة نظر لبنان في الأحداث المتفاعلة بين البلدين ، فينقلها إلى «فوق» بأمانة ، ويلبّي دعواتي إلى المآدب وغيرها بما فيها الحفلات التي كان رهبان الرسالة اللبنانيّة يقيمونها في بعض المناسبات . وكنت بحكم منصبي مدعوًّا إلى الخطابة في أكثرها ، فأعوّض في ما ألقيه عن تعتيم السلطات المصريّة على كلّ ما يمتّ إلى سفارة لبنان بسبب ...

وكانت لي ، إلى جانب حسين عزيز ، علاقات مودّة بوزير الماليّة عبد المنعم القيسونيّ . وقد تمكّنت بفضل هذه العلاقات أن أُبعد عن بعض رؤوس الجالية اللبنانيّة بعض ضربات التأميم . أمّا التنفّس الذي يشرح الصدر فكان في المساء على جلسات مع كريم ثابت – نديم الملك فاروق في العهد البائد ، والصحافيّ المتخصّص بأخذ الأحاديث من الملوك والرؤساء والزعماء في العالم قبل أن يعيّنه الملك فاروق وزيرًا – ومع حبيب جاماتي ، المحرّر الأوّل في صحف دار «الهلال» الذي كان لا يفارقني بمودّته وظرفه ، ومع صاحبَي الدار : إميل وشكري زيدان . ينضمّ إلينا أحيانًا كثيرة الأمير رئيف أبي اللمع ، الأمين العامّ المعاون لجامعة الدول العربيّة في ذلك الوقت ، فيلتئم الشمل وتحلو السهرات .

٣

في هذا الوقت كان وطيس العروبة يرغي ويزبد على يد هذا الفتى الأسمر، الطالع من أعماق التاريخ عنتر سياسة، تجيئه وفود العرب من كلّ فجّ فتطرح همومها وأوجاعها في حضنه، وتكدّس على كتفيه قضاياها ومشاكلها، وتسلّم إليه مفاتيح مصائرها راضية، مغتبطة على الأرجح بتخلّصها من المسؤوليّة، معترفة على رؤوس الأشهاد بعجزها وانقضاء دورها. وسيبقى قيام الجمهوريّة العربيّة المتّحدة بين مصر وسوريّا شاهدًا على ذلك أمام التاريخ.

من كلّ ما ألقيت من خطب في حياتي الدبلوماسيّة لم أحتفظ إلّا بالقليل. ومن هذا القليل الخطاب الذي ألقيته في الاحتفال الذي أقامته مدارس القدّيس يوسف المارونيّة في القاهرة يوم الأربعاء الموافق ١٣ آذار ١٩٥٨، ابتهاجًا بقيام تلك الجمهوريّة وانتخاب جمال عبد الناصر أوّل رئيس لها.

وإنّي أثبته بنصّه فيما يلي:

«ما أكثر المعاني التي يوحيها اجتماعنا اليوم في هذه الدار وما أحبّها! معانٍ مارونيّة، ولبنانيّة، وعربيّة، تلتقي كلّها في باقة واحدة في مناسبة من أكرم المناسبات، ألا وهي قيام الجمهوريّة العربيّة المتّحدة وانتخاب سيادة الرئيس جمال عبد الناصر أوّل رئيس لها.

من هذه المعاني يجدر بي أن أشير أوّلًا إلى ألصقها بهذا المعهد وبالقائمين عليه. لقد كان موارنة لبنان والمسيحيّون عمومًا السبّاقين إلى بعث المعرفة في الشرق، ولن ينسى لهم التاريخ أنّهم أوّل من أدخل الطباعة إليه منذ القرن السابع عشر في دير من أديرتهم المعلّقة بقمم الجبال، فوصلوا بذلك حبل تقليد عريق ضائع في القدم يبتدئ بالأبجديّة التي ابتدعها الفينيقيّون. إفتتحوا عهدهم بالكتب الدينيّة، ومنها توسّعوا إلى الأدب والعلم والتاريخ وسائر الفنون. وإنّ احتضانهم للّغة العربيّة وحمايتهم لها في الوقت الذي نسيها القوم غارقين في العُجمة والجهل، إنّ إحياءهم لصرفها ونحوها وتأسيسهم المدارس التي تخرّج منها جمهور من الكتّاب والمفكّرين والمصلحين، أمثال اليازجيّ والبستانيّ والشدياق وغيرهم، إنّ هذه الجهود الجبّارة التي قام بها أولئك الزهّاد المتقشّفون لتؤلّف ملحمة رائعة. ونحن، إذ ننظر معجبين إلى هذا الوعي في مختلف أقطارنا، ينبغي لنا أن نذكر بالخير أولئك الرُوّاد ونعرف ما لهم علينا من فضل امتدّ من نطاق اللغة إلى النطاق القوميّ امتدادًا طبيعيًّا، يقينًا بأنّ هذه اللغة كانت ولا تزال من أقوى الروابط التي تشدّ الشعوب العربيّة بعضها إلى بعض وتبعث حضارتهم وتذكي منهم الهمم.

إنّ الموارنة من صميم العرب، وقد كانت الفكرة اللبنانيّة دائمًا ملازمة للفكرة العربيّة ومتعاونة معها. وكثيرًا ما وحّد بينهما العدوّ المشترك وجمع بينهما الهدف الواحد. لم تقف الفكرة اللبنانيّة يومًا في وجه الفكرة العربيّة، بل تثبت لنا حوادث التاريخ أنّها، على العكس من ذلك، قد امتزجت بها أحيانًا كثيرة وتردّت برداءها تأكيدًا للإخاء والتضامن. وهكذا كان اللبنانيّون أوّل من نادوا بانسلاخ الولايات العربيّة عن السلطنة العثمانيّة، وأوّل من رسم للعرب خطوط قوميّتهم مفرّقين بين معالم القوميّة ومعالم الدين الذي كان الأتراك يستخدمونه لأغراضهم في إخضاع الشعوب، وهكذا قدّم اللبنانيّون نخبة من زين شبابهم شهداء على أعواد المشانق خلال الحرب العالميّة الأولى، فاستعذبوا الموت وهم يهتفون بحياة لبنان والعرب، وهكذا جاهد اللبنانيّون طوال عهدَي الانتداب والاحتلال بالتعاون مع إخوانهم في سوريّا والعراق ومصر على خلع نير الأجانب، حتّى تمكّنوا بفضل هذا التعاون من تحقيق أمانيّهم وأصبحوا ينعمون بما ينعمون به اليوم.

هذا هو لبنان وهذا هو ماضيه القريب ما يزال ماثلًا للعيون. فطبيعيّ أن يبتهج لبنان ويهلّل لكلّ تقارب أو اتّحاد أو وحدة يحقّقها إخوانه لأنفسهم ويرون فيها قوّتهم ومجال تقدّمهم وازدهارهم. فقوّتهم قوّة له وخيرهم في النتيجة خيره. وهو يتلفّت حواليه في هذه الآونة فلا يسعه إلّا أن يبارك كلّ خطوة في هذا السبيل. ولكنّه في الوقت نفسه حريص أن يؤكّد، أمام هذه الأحداث، بعض المبادئ الأساسيّة التي يقوم عليها كيانه في الداخل وسياسته في الخارج.

إنّ لبنان وطن حرّ مستقلّ سيّد. وقد تمتّع منذ قرون عدّة باستقلال كان يختلف باختلاف العهود، فيمتدّ أو يتقلّص، ولكنّه لم يفقد هذا الاستقلال يومًا. حتّى كان الميثاق الوطنيّ سنة ١٩٤٣، فاطمأنّت جميع العناصر اللبنانيّة إليه وانسجمت وتساوت، وأعلنت ولاءها لدولة هي لبنان. ولبنان متمسّك بهذا الميثاق، متمسّك باستقلاله، لن يتنازل عن شيء من حرّيّته ولن يفرّط بذرّة من سيادته.

واستقلال لبنان ليس موجّهًا ضدّ أحد، وإنّما هو غاية في ذاته. إنّه محصّل الاتّفاق بين أبنائه على أن يعيشوا بوئام وسلام فيما بينهم، على طراز من العيش خاصّ بهم ونظام من الحكم ارتضوه لأنفسهم. وهذا معناه أن لا مطامع للبنان في أرض، ولا رغبة عنده في السيطرة على أحد. ومعناه أيضًا أنّ لبنان إذا كان يأبى التدخّل في شؤون سواه، فهوّ يحبّ أن لا يتدخّل سواه في شؤونه.

إنّ لبنان عضو في الأسرة العربيّة يتعاون مع سائر الأعضاء على كلّ ما فيه مصلحة مشتركة لهذه الأسرة. وقد ساهم في الجامعة منذ إنشائها حتّى اليوم أصدق المساهمة وأكثرها نفعًا، وارتبط مع إخوانه بطائفة من المعاهدات والاتّفاقات السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، فكان فيها كلّها وفيًّا لتعهّداته، وبرًّا بإخوانه.

وبعد، فالدول لا تُقاس بسعة الرقعة وضخامة عدد السكّان. إنّ لبنان – على صغره – ذو رسالة حضاريّة عظيمة في هذا الشرق يقوم بها منذ أقدم العصور، ولن يستطيع مواصلة القيام بها إلّا متمتّعًا بحرّيّته الكاملة. ومن مصلحة العرب العليا، أيًّا كان اتّجاههم، وإلى أيّ دولة متّحدة أو اتّحاديّة انتموا، أن يبقى لبنان كما هو. وإنّ كلمة أحد زعمائهم الكبار فيه هي اليوم أصدق منها في أيّ يوم، قال: «لو لم يكن لبنان موجودًا لكان على العرب أن يوجدوه».

لقد كان من الواجب التذكير بهذه المبادئ الأساسيّة في الوقت الذي ترتفع فيه أصوات من كلّ ناحية ومن كلّ نغمة. إنّ لبنان يتجاوز عن الناشز منها ليسجّل للزعماء الحقيقيّين والقادة المسؤولين، وفي مقدّمتهم الرئيسان شكري القوّتلي وجمال عبد الناصر، اعترافهم للبنان بفضله، وتفهّمهم لوضعه، وتأكيدهم لكيانه. وقد زادوا فأعلنوا على رؤوس الأشهاد أنّ الجمهوريّة العربيّة المتّحدة ستكون عضدًا للبنان وسندًا.

إنّ في هذه التصريحات الرسميّة أبلغ ردّ على المشاغبين والمفسدين، وخير صدى لتهاني الزعماء والقادة اللبنانيّين، وفي مقدّمتهم فخامة رئيس الجمهورية الأستاذ كميل شمعون الذي لا تزال كلماته ترنّ في الآذان عندما أعلن في برقيّته لسيادة الرئيس جمال عبد الناصر اغتباطه بقيام الدولة الجديدة، وتصميم لبنان على أن يظلّ، كما كان دائمًا، في الطليعة من العاملين المخلصين في الميادين العربيّة، آخذًا على نفسه أن يواصل السعي إلى كلّ ما من شأنه توثيق روابط الإخاء بينه وبين الجمهوريّة العربيّة المتّحدة لخيرهما معًا، وخير العرب.» اه.

٤

اعتدت، منذ وُلد لي بكري ربيع، أن أحيي لأولادي تقاليد عيد الميلاد على أروع ما يكون،

تساعدني زوجتي في شراء لوازم المغارة، وفي الليلة المنوّرة تأتيني من المطبخ بالطبليّة، فأقعد عليها في زاوية البهو وأمضي في بناء المغارة وتزيينها، فيما تروح هي إلى الألعاب تخفيها عن الصغير من الأولاد بانتظار بابا نويل، وتوصيه – وما كان في حاجة إلى توصية – أن يضع فردة حذائه تحت الشبّاك، هناك في الزاوية، قرب المغارة.

كبرت ابنتي جمانة هذا العام ١٩٥٨ – وكانت قد بلغت الثامنة – عن الإيمان ببابا نويل. وعبثًا طلبت منها، بعد أمّها، أن تضع فردة حذائها تحت الشبّاك بانتظار مجيئه عند منتصف الليل بهديّته، كما كان يفعل كلّ عام.

انتصبت بوجهي وأعلنت لي بتأكيد سرت برودته كالصقيع في دماغي أنّ بابا نويل غير موجود! ودخلت معي في مساومة طويلة عريضة عن هديّتها: نوعها، وحجمها، ولونها، وحتّى ثمنها إلخ.

يا ابنتي، يا صغيرتي الحلوة، غلطانة أنت. كيف أفهمك أنّك غلطانة؟

مَن جنى عليك هذه الجناية فقال لك إنّ بابا نويل غير موجود؟ هو العقل بلا شكّ. هذا الشيطان دينه وديدنه أن يُفسد على الناس أشياءهم. طوبى لمن عرف أن يوقفه عند حدّه. لأنّ هنالك حرمًا للنفس لا يجوز أن يطأه بقدم أو يمسّه بيد. هو حرم الأحلام والأمانيّ.

يا ابنتي، يا ابنتي، اسمعي من أبيك: إنّ أشقى الأشقياء من لم يبقَ له ستار يخفي وراءه شيئًا، أو زاوية يخبّئ فيها كنزًا، أو نافذة يطلّ منها نجم جديد. فهو يمشي في الحياة بلا مفاجأة ولا دهشة ولا أمل، حاملًا بين يديه لعبة ممزّقة، مبقورة، مفقوءة العينين اسمها الحقيقة.

سترين غدًا، يا ابنتي، يا حلوتي الصغيرة، سترين عندما تكبرين أنّ كلّ حقائق الدنيا لا تساوي ما كان يضعه بابا نويل من وَهْم في فردة حذائك المنتظرة تحت الشبّاك في ليلة الميلاد.

* * *

ولقد كبرت جمانة بعد ذلك حتّى صارت صديقة لي ثمّ أمًّا حنونًا، إليها أرتاح في تقليب أموري وتفريج همومي، فألقى عندها حسن التفهّم وسداد الرأي. وكثيرًا ما انبرت في مجالسي الدبلوماسيّة إلى الإدلاء بدلوها في السياسة وهي ولوعة بها، فتناقش في الأحداث ببصيرة نافذة.

أمّا الأمّ – الصغيرة الكبيرة – فقد كانتها لي جمانة أثناء إصابتي بـ «الديسك» أي وجع الظهر. وخصوصًا عندما اشتدّ عليّ الوجع بعد إجراء العمليّة سنة ١٩٧٩، فاضطُررت لملازمة الفراش عدّة أشهر لنكسة لحقتني، إذ التهب الجرح بين اللحم والعظم عند الفقرات التي تناولها المبضع. ومن لم يذق ما يعني هذا الالتهاب في المشي، بل في القيام والقعود، بل في مجرّد التحرّك في السرير من ميل إلى ميل أو رفع الرأس لتناول الدواء أو شربة الماء، لا يعرف شيئًا عن عذاب أيّوب في زمانه. ويقينًا لقد طلبت إلى الله في تلك الأيّام السود والليالي البيض، وصلّيت من كلّ قلبي ضارعًا إليه أن يرحمني ويأخذني إليه مرّة واحدة بدلًا من إذاقتي الموت مرّات في الساعة الواحدة.

أجل، كان سائر أولادي وأهلي وأصحابي لا يفارقونني مواسين مؤنسين. ولكنّهم ما يكادون ينصرفون حتّى أعود طفلًا وتعود جمانتي أمًّا، في تعاطٍ انقلب مع الوقت إلى لعبة حلوة – على مرارتها – دوري فيها التدلّل ودورها التدليل، على مكر بريء متبادل. ويا ما تشكّيت وتأفّفت، وتغضّبت وجدّفت، ويا ما عفت الطعام ولعنت الشراب لمذاقها الفاسد بسبب الحبوب سفًّا وزلعًا، والشرابات كرعًا وبلعًا، والإبر غرسًا ووخزًا ودعاءً بالشفاء! وهي مع ذلك لا ينفد لها صبر، ولا يزمّ ثغر، تداريني من هنا

ومن ههنا وتحوم فوق سريري حوم الطائر فوق عشّه ، ثمّ تنحني وتأخذني بذراعيها فأدفن رأسي في شعرها ، ونظلّ هكذا متعانقين ، ساكتين لا ننبس. فإذا دعانا داعٍ انقلب كلّ منّا بوجهه عن الآخر يخفي دمعته.

جهانة ، بعد أن منّ الله عليّ بالعافية ، تذكّرني دائمًا بما كان منّي خلال تلك الفترة. وربّما انبرت في سهرات المرح إلى التّمثيل ، فقامت بدوري وبدورها مع توابل من سخريتها المقذعة ، فنضحك طويلًا.

في أرجوحة المكسيك

١

لم أكن أدري ما ينتظرني في المكسيك من مفاجآت. وما أدراك!

أمّا السارّ منها فحرارة الاستقبال الذي استقبلتني به الجالية بعد طول انتظار. وفد من كبارها على رأسهم الشيخ بطرس الشيخة – بدرو تشيكا – وهم يلقّبونه بالبطرك لإجماعهم على زعامته، لا في المكسيك وحدها بل في سائر الأميركتين الوسطى والجنوبيّة. وكان بالفعل لذلك العهد رئيسًا لاتّحاد جمعيّات اللبنانيّين المغتربين في الأميركتين، يضفي عليها شيبته وهيبته، ويرعاها بحسن تدبيره.

ومن أعضاء الوفد أنطونيو ضومط صديق رؤساء الجمهوريّات في المكسيك كابرًا عن كابر، ووارث الثائر المخيف بانتشو ڤِلّا الذي أخرجت عنه هوليود فيلمًا عالميًّا، لم يظهر أنطونيو فيه طبعًا ولبث في زوايا قاعات السينما يتفرّج ويضحك.

وكان مدير المراسم قد سبق له أن وقف تحت سلّم الطائرة، فرحّب بي باسم حكومته وأخبرني أنّ اسمي نائم (كذا) على لائحة السلك الدبلوماسيّ المعتمد في المكسيك منذ نحو ثلاث سنين بانتظار أن أصل وأوقظه. والتقاليد تقضي بأن يرافق مدير المراسم رئيس البعثة إلى مقرّها الرسميّ فيتناولان معًا كأس شمبانيا. فسرنا في الموكب إلى المفوّضيّة اللبنانيّة، وهي كائنة في «كامبوس اليسيوس»، أعظم شوارع العاصمة. فإذا هي أحقر وأفقر وأقذر ما تقع عليه العيون. لا من الخارج فقد كانت عبارة عن ڤيلّلا صغيرة أنيقة، بل من الداخل، حتّى ليصحّ فيها القول العاميّ المأثور: «من برّا رخام ومن جوّا سخام».

تعاون أصحاب المروءة من أبناء الجالية على سدّ الأبواب بأجسامهم اتّقاء أن يخطر ببال مدير المراسم أن يقوم بدورة في أقسام الدار على سبيل التبريك، وتوزيع الصفير يمينًا وشمالًا، إعجابًا بالستائر الممزّقة والمقاعد المزقّتة، وافتنانًا بالزيت والفحم يرسمان على الحيطان أشكالًا وألوانًا لم يكتشفها بيكاسو في زمانه.

أمّا المطبخ والسفرة والأروقة والحمّامات فما لنا ولها. نريد أن ننام. كيف ننام على هذه الفُرش المبقورة، والمخدّات المشلوعة، والشراشف التي تنادي الحيطان: «هنا الفنّ أحدث»؟!

• أخيرًا تطوّع ابن بحرصاف كنعان كنعان، وابن بكفيّا أنطونيو كامل، فأسعفانا بالضروريّ من عندهما حتّى تمكنّا من قضاء تلك الليلة. وفي الصباح يفرجها الله.

كان على رأس البعثة بالوكالة، في الفترة التي خلت

فيها من وزير مفوّض، موظّف أصله من الإسكندرونة، فلمّا تترّكت تلبنن. ويظهر أنّه ترك عند الأتراك رأسه. وله زوجة – طلّقها فيا بعد – طلّقت النظافة منذ غسلتها القابلة.

٢

أكثر من ذلك.

كانت الدار صغيرة كما قلت. وكان فيها صالون واحد لا يتّسع إلّا لعشرة كراسيّ، وأقسام السكن والعمل فيها متداخلة. فاستيقظ فيّ ابن المعلّم يوسف ضاهر عوّاد، سليل الأسرة المعماريّة، وعزمت أمرًا.

دعوت بيدرو تشيكا وأنطونيو ضومط وأنطونيو كامل وكنعان كنعان إلى كأس، وهيّأنا للأمر عدّته. وفي اليوم المحدّد لبّى أربعون أو خمسة وأربعون من أغنياء الجالية دعوة الوزير المفوّض إلى مأدبة عمرت بطيّبات الطعام والكلام. قلت للجماعة ما خلاصته:

– ليس بين لبنان والمكسيك قضايا سياسيّة، ولا علاقات اقتصاديّة، ولا مصالح حيويّة إلّا أنتم، أهلنا، لحمنا ودمنا. فالمفوّضيّة لكم، ودارها أصلًا هديّة منكم إلى الوطن. وهي لا تليق بكم وتضيق عن جلوسكم إذا جئتموها في زيارة، فنصفكم على الأقلّ، كما ترون، وقوف. سلَفاي: الشيخ خليل تقيّ الدين والأستاذ جوزيف أبو خاطر – وهما بالمناسبة يسلّمان عليكم – كتبا إلى الحكومة مرارًا بطلب المال اللازم لتوسيع الدار، فكان الجواب واحدًا مدى سنين: «لا مال في موازنة هذه السنة. ننظر في موازنة السنة التالية». وإذا كان للموازنات حدود فللصبر حدود أيضًا. أريد منكم أن تكملوا معروفكم مع لبنان، مع أنفسكم، وتوسّعوا داره – داركم – داري على حسابكم.

ما كدت حتّى انهالت التبرّعات نقدًا وبالشِكّات على الطاولة فغطّتها. وتقدّم بطرس الشيخة يعدّها ويضعها أمامي، يعاونه وارث بانتشو فيلّلا في كتابة أسماء المتبرّعين وأرقام التبرّعات. ثمّ تناولا الأوراق وقدّماها إليّ، فباركتها وأزحتها إلى طرف الطاولة. ووقفت خطيبًا مرّة أخرى أطلب معروفًا إضافيًّا: أن تتألّف على الفور لجنة من المتبرّعين الكرام – من أحقّ من البطرك برئاستها؟ – فتتسلّم المال والحسابات. ولا شغل لي إلّا مع المهندس.

تمّ كلّ شيء على ما يُرام، وبدأنا العمل من غد. أحد عشر شهرًا بالضبط بين الغبار والعفار، أنا الخوليّ على الورشة، وشريكة الحياة رئيسة الطبّاخات تهيّئ الطعام للعمّال – عيب يكونون في بيت لبنان ولا يأكلون منه – حتّى ارتفعت للبنان في مكسيكو دار من أفخم دور بعثاتنا في الخارج: أربعة صالونات يفتح بعضها على بعض، مكتب لرئيس البعثة ومعاونيه، ومكتب للقنصل ومعاونيه، مع جناح للضيوف فوق. وقاعة تحت تتّسع لمئة وخمسين كرسيًّا كان في البال جعلها مركزًا ثقافيًّا...

عندما انتهى البناء حملت اللجنة باسم الجالية لوحة رخاميّة حُفر عليها بالذهب، بالعربيّة والإسبانيّة، ما معناه أنّ الدار قد تمّ توسيعها في عهد فلان الفلانيّ. وأركزتها في غيابي على جبهة المفوّضيّة. فلمّا عدت أمرت بنزعها. وعاتبني أنطونيو ضومط وغيره في ذلك فقلت:

– أنزعها أنا شاكرًا، قبل أن أدير ظهري وينزعها غيري بما تعلمون من الكلام المباح.

واكتفيت بنسخة من قائمة التبرّعات، وبقرارين من مجلس الوزراء: الأوّل بشكري على مساعيّ في حمل الجالية على التبرّع بالنفقات، والثاني بتهنئتي بعد الفراغ من العمل.

* * *

على ذكر توسيع دار المفوّضيّة، كيف لي أن أنسى بابلو رئيس الطرّاشين بقامته القصيرة وجسمه النحيل؟

كأنّه ، وهو على السلّم يطرش ، عصفور عالق بالدبق. كان في فرص الطعام ينتحي زاوية في الجنينة ، ويمضي في الكتابة على كيس فارغ من أكياس الطرش ويهزّ برأسه. قلت في نفسي : يعمل الرجل حساباته ، ولعلّه خسران فهو يهزّ برأسه. ثمّ ألفيته بعد ذلك لا يكتب إلّا وهو يدندن مع هزّة الرأس نفسها. ولكنّ هذه الهزّة لنشوان لا لخسران!

فأثار فضولي ودنوت منه أسأله :

– ماذا تكتب يا بابلو؟

فرفع إليّ عينيه الحلوتين :

– شعر. شعر. أنا طرّاش ، وفي ساعاتي شاعر.

– أين تنشر قصائدك؟

– قصائدي لا أنشرها. قصائدي لي. أكتبها لأقرأها أنا ، وأنشدها لتسمعها أذناي. كلّ يوم قصيدة.

وتناول الكيس. طواه برفق ثلاثًا. وبالرفق نفسه مزّقه ثلاثًا. وهمّ بالقيام ، فسألته في ذلك متعجّبًا فقال :

– الناس لا يفهمون الشعر.

وضرب بيده على فرشاة الطرش وقفز إلى الحائط.

وإذا كان بابلو ينظم الشعر ويمزّق ، فالمكسيكيّون من أبناء الشعب ينظمون الشعر، أو بالحري يعيشونه كلّ يوم. ولهم في ذلك طريقتهم : يقفون في الشوارع جماعات جماعات ، ظهورهم إلى الحائط ، وأكتافهم بعضها إلى بعض في سلاسل قد تمتدّ الواحدة منها عشرة أمتار. يغرسون أنظارهم في الأرض أو يسدّدونها إلى السماء كأنّهم يبحثون عن شيء ، ولا شيء. صامتين لا ينبسون ، جامدين لا يتحرّكون ، ولا يخاطب الواحد منهم الآخر ولا يلتفت إليه. ساعة. ساعتين. نهارًا كاملًا... تنابل؟ ولكن ربّما كان للتنابل أحلام كأحلام الشعراء وأروع. مع هذا الفارق أنّها خرساء ، وأحلام أصحابها ناطقة بفصاحات لا طائل تحتها في أغلب الأحيان.

٣

من الناس مَن إذا صافحوك مسلّمين شدّوا على كفّك حتّى لتحسّ أصابعك تتقصف في كفّهم ترحيبًا وتأهيلًا. وقد كان سلام مكسيكو علينا من هذا النوع. ولكنّه شدّ على أعناقنا ، ومنها على أقدامنا ، في حادثة عجيبة جمعت بين الاثنين.

فبعد وصولنا بشهر تقريبًا دعانا أحد الوجهاء إلى مأدبة عشاء في منزل له فخم يحتلّ الطبقة الخامسة عشرة من بناية حديثة. واحدة من ناطحات السحاب التي تطلع في المدينة مزيجًا من الحديد والباطون والزجاج. ويقينًا ما عرفت قومًا أحسنوا التوفيق بين هذه الموادّ كالمكسيكيّين ، فناطحات السحاب عندهم عنوان الرشاقة والانسجام والحلاوة. وفيما نحن نتبادل الأنخاب إذا بالكأس تقع فجأة من يدي وتصبغ الخمرة – حمراء! – ثوب السيّدة المبجّلة صاحبة الدار وجارتي على المائدة. فارتبكت لا أدري كيف أعتذر ، وانحنيت لالتقاط الكأس فإذا رأسي يسبقني إلى الوقوع على صدر السيّدة العاري بـ «ديكولتيه» السهرة. فزاد الخجل من ارتباكي ، ورفعت بصري فإذا الثريّا في السقف تروح وتجيء ، والجدران تميد بنا ، والسيّدة – أهي تخفّف من خجلي أم تهدّئ من روعي؟ – تكرّر عليّ بإسبانيّتها العذبة ما معناه : «لا شيء. لا شيء». ويسعفها زوجها الكريم من الجهة المقابلة بالتفسير: «هزّة ، هزّة خفيفة» قال مشيرًا إلى النافذة. فنظرت فإذا ناطحات السحاب في الخارج تميد هي الأخرى يمينًا وشمالًا كأنّها من حيوانات ما قبل التاريخ ، لها من أضوائها المشعّة عيون هائلة في الليل.

قالت السيّدة وقد عاد الهدوء :

– مكسيكو ترحّب بكم وتتأهّل على طريقتها. وستتعوّدون هذه الأرجوحة.

شريكة الحياة ظلّت ، والحقّ يقال ، رابطة

الجأش، على عادتها حتّى في أشدّ الخطوب وأكثر المواقف خطرًا. وزادتها فضحكت وضحك الآخرون.

لم تستغرق الهزّة إلّا بضع ثوانٍ. وقد تعوّدنا بالفعل مثيلات لها فيما بعد تتكرّر في الشهر، وأحيانًا في الأسبوع، مرّتين أو ثلاثًا، لا يعيرها الناس اهتمامًا ويمضون في شأنهم. وربّما وجد فيها أبناء البلاد الأصليّون متعة الذكرى رجوعًا إلى تاريخهم القديم واعتقادات أجدادهم.

ذلك بأنّ العاصمة تقوم على أرض سبخة كانت في الزمان عبارة عن بحيرة. وقد جاءتها قبائل الآزتك في القرن الرابع عشر من الشمال هاربة من عدوّ أو قحط ومفتّشة عن مكان صالح تقيم فيه. فلمّا كانت في بعض الطريق ظهر الإله ويتزيلوبُتشتْلي للكاهن الأعظم وقال له:

– تمشي بشعبي ووجهك صوب الجنوب إلى أن تلقى نسرًا جاثمًا على شجرة صبّار وممسكًا ببراثنه ومنقاره حيّة ذات ريش. هناك يكون مقامكم.

ومشى الكاهن ومن معه حتّى وصلوا إلى البحيرة ورأوا النسر مع الحيّة –شعار المكسيك إلى اليوم– فحطّوا رحالهم.

بدأوا بتعمير مدينتهم بالأكواخ القصبيّة، ثمّ طمروا المياه ووصلوا بين الجزر الصغيرة، ثمّ تجاوزوا شواطئ البحيرة إلى البرّ يبنون هذه المرّة بالحجر ويرفعون الهياكل والأهرام والقصور. وما تزال آثار حضارة الآزتك هذه مع آثار أختها الكبرى حضارة المايا ماثلة للعيون في المكسيك وفي سائر أميركا الوسطى: نيكاراغوا، والهندوراس، وغواتيمالا، والسلفادور الخ، يرتادها السيّاح من أقصى العالم إلى أقصاه ويقفون معجبين أمام عظمة البناء، وجمال الهندسة، واتّساق الخطوط والألوان. ويطغى على هذه الألوان، في النقوش والكتابات على السواء، اللون الأحمر مذكّرًا بدماء القرابين البشريّة التي كان الكهنة يقدّمونها إلى آلهتهم في الأعياد والمواسم... مع العلم أنّ الفاتحين الإسبان لم يكونوا أقلّ عطشًا إلى الدماء من تلك الآلهة يوم زحفوا على صهيل خيولهم فداسوا بحوافرها تلك الشعوب، هياكلها وآلهتها وشعوبها، وأعملوا السيوف في أعناق ملوكها وصعاليكها، ثمّ تربّعوا على صدرها تربّع المعلّمين الممدّنين والرسل الداعين إلى الرحمة وغفران الخطايا، غار النصر يكلّل رؤوسهم وهالة القداسة تحيط بجباههم. ولم يرجع الراجعون منهم إلّا وقد حمّلوا خيولهم، إيّاها، كنوزًا ليس لها اسم، وأنعلوها بذهب الآلهة.

مكسيكو اليوم معرض رائع لهذه التراكمات، فيها الماضي البعيد بسحره، والأمس القريب بترفه، والحاضر المدلّ بحداثته. ولكنّه حاضر مشرئبّ أبدًا إلى المستقبل بتطلّعاته. يلتقي كلّ ذلك على وجوه الناس كما يلتقي في معايشهم مأكلًا ومشربًا ومسكنًا، وفي شوارعهم وحدائقهم، وفي فنونهم وعباداتهم جميعًا وهي خليط عجيب من التقاليد الوثنيّة والطقوس المسيحيّة. ينظرون إلى صورة قلب يسوع فيرون من ورائه القلب الذي كان يستلّه كاهنهم الأعظم في الزمان من أضلاع الضحيّة ويقدّمه على مذبح الآلهة قربانًا. ويقضم أطفالهم في عيد جميع القدّيسين جماجم من السكّر...

سَطيح: مالك تنبش في بطون التاريخ، تروي الأساطير، تسترسل وتستطرد، ولا تذكر أهمّ ما حدث لنا في تلك المأدبة العامرة؟!

شِقّ: هل أهمّ من الزلزال الذي نجونا منه، ومن الورطة التي وقعنا فيها مع السيّدة المبجّلة مضيفتنا؟

سَطيح: لم تكن المأدبة عامرة بما كان عليها من أطايب الطعام والشراب فقط، بل بما كان تحتها ممّا هو أطيب وأعجب.

شِقّ (ماضيًا في التغافل): ماذا تعني؟

سَطيح: ما عناه صديقنا سعيد فريحه في إحدى

حكاياته الظريفة.

شِقّ: أيّها، فكلّ حكاية منها أظرف من أختها. سعيد فريحه كان أظرف وأذكى صحافيّ عرفه جيله. وكان يكتب في مجلّته «الصيّاد» ومن بعدها في جريدته «الأنوار» فصولاً عن مغامراته هي مزيج ولا أحلى من السياسة والأدب. سعيد فريحه كان...

سَطيح: عدنا إلى التاريخ؟

شِقّ: في آخر أيّامه، رحمه الله، زهد بالدنيا وانقطع عن أباطيلها منصرفًا إلى شيخوخة كان يتعبّد فيها إلى البراعم وحدها دون سائر خلق الله. أتدري ما البراعم؟

سَطيح: والَوْ! فسّرها ألف مرّة وشرحها ألف مرّة ومرّة في ما ألّف وصنّف عن غراميّاته. البراعم هي الصبايا في «التعش». والتعش – وهي من مبتكراته أيضًا – هي الصبيّة الغضّة البضّة التي يتراوح عمرها بين الثانية عشرة والتاسعة عشرة. ويكفر بمن بلغت العشرين فما فوق. ولكن ما لنا ولهذا، حكايات سعيد فريحه في هذا المجال ليس لها آخر. وإنّما تعنيني منها واحدة كان يطيب لي أن يردّدها علينا. قال: دُعي ذات يوم إلى مأدبة كهذه المأدبة التي نحن بصددها. وكان الداعي يعرف ولعه بالبراعم فأجلس إلى جانبه، تكريمًا له، «برعمة» منهنّ، فراح سعيد ينحني عليها ويتشمّم مسبّحًا الله، وهي ماضية في الحديث عن كتاباته تقول إنّها معجبة بها كلّ الإعجاب، وأن لا أحد يجاريه في الكلام عن النساء. فاعترض مدوّرًا بها عينيه الزرقاوين: أدلّك على من هو أعظم. قالت: من؟ قال: صاحب «الساق على الساق في ما هو الفارياق» وأنا أوصيك به. قالت: اسم غريب. دعني أكتبه. وأخرجت من محفظتها دفترًا وقلمًا وقالت: أعِد من فضلك. غريب هذا الاسم وطويل. قال: يكفيك منه الشقّ الأوّل: الساق على الساق. قالت: وأين أجده؟ قال: تحت الطاولة!

شِقّ (بين العبوس والابتسام): ولكنّ جارتنا على المائدة لم تكن من البراعم، بل كانت سيّدة ناضجة محترمة. ولذلك دعوتك إلى الحشمة والوقار فأبيت، ورحت وراء سعيد فريحه تدعم خطّته بالأدلّة الساطعة والحجج الدامغة، مؤكّدًا أنّ تبجيل المرأة وإكرامها وما يعلي مقامها إنّما هو في إظهار التولّه بها والسعي إلى التمتّع بمحاسنها الظاهرة والخفيّة. وما زلت بي حتّى أقنعتني. ومع ذلك لم أطمح إلى ما طمح إليه صاحبنا، وبالكاد أذنت لصبّاطنا أن يغازل، تحت الطاولة، إسكربينة السيّدة مغازلة ناعمة.

سَطيح: عهدي بك تتغزّل شعرًا، ممّا لا أفهمه أنا ولا شأن لي به. فما رأيك بغزل القدمين بعد أن جرّبته تعاطيًا بين الصبّاط والإسكربينة؟ ولا تحسب أنّ الأمر من الهيّنات. إنّه السهل الممتنع بالذات. وأنا أرى أنّه أبلغ الغزل وأطيبه، على صمته الرائع وبُعده عن الكلام المائع.

شِقّ: إنّه، على كلّ حال، خير من غزل الكثير من شعراء هذا العصر أصحاب الكلام المفكّك أو قصيدة النثر. ورُبّ حذاء قال تحت الطاولة لجاره الحذاء، في ساعة وحي بعيدًا عن الرقباء، ما يدخل في الفهم، ويسوغ في الطعم، ويزري بكلّ ما تحشو به تلك الطغمة أقفية الصحف وبطون الدواوين.

٤

كنّا في ١٩٥٩، وكان للبطريرك مار بولس بطرس المعوشيّ، بسبب مواقفه السياسيّة إلى جانب المعارضة في حوادث السنة السابقة، ما للرئيس فؤاد شهاب بسبب إحجامه عن إنزال الجيش إلى الساحة.

يندّد بهما رجال الجالية علنًا ولا يتورّعون عن نعتهما بأقذع النعوت. وكثيرًا ما اضطُررت إلى إسكات المتطاولين في المحافل العامّة، وفي دار المفوّضيّة نفسها، ولم أتردّد مرّة في طرد أحدهم. وفي كلّ مرّة أقوم وأخطب مدافعًا عن صاحبَي الغبطة والفخامة، مشيدًا بوطنيّتهما ومفسّرًا الخطّة التي سلكاها إبّان تلك الأحداث بالرغبة في تجنّب الفتنة. فيسكت الجماعة على غير اقتناع.

وقد بلغ من نقمة الموارنة على بطريركهم أن كان رعاعهمْ يتعرّضون لشقيقه يوسف المعوشيّ، المقيم في مكسيكو منذ مدّة طويلة، ولأفراد عائلته. والرجل رصين وله مكانة. فكانوا يلاحقونهم في الشوارع بالكلام المؤذي، ويقذفون منازلهم بالحجارة. حتّى حملوه أخيرًا على الضبّ على أمتعته وأولاده والانتقال بها وبهم إلى قرية في الريف.

حتّى كان عيد مار مارون من تلك السنة – ١٩٦٠ – فانتهزتها فرصة وألقيت في الموارنة، في كنيسة مار مارون بالذات، خطابًا بيّنت فيه ما خفي عليهم من موقف البطريرك، وحيّيت غبطته معدّدًا مزاياه ومآثر كرسيّه منذ القديم في سبيل لبنان، ودعوت بالصوت العالي للتضرّع إلى الله أن يمدّ بعمره، وأن يرفّ علينا ظلّ من البركة التي يرفع بها ذراعيه في ذلك اليوم وفي تلك الساعة ويوزّعها على رعاياه تحت كلّ سماء...

في اليوم التالي كان عيد آخر لآل المعوشيّ. جاء يوسف وأولاده إلى المفوّضيّة، وانحنى شقيق البطريرك يريد أن يقبّل يدي، فرددته، فدمعت عيناه وقال:

– كيف ننسى لك ما عملت؟ كيف ينسى البطريرك؟ الآن أصبحنا قادرين على الرجوع إلى بيوتنا في مكسيكو.

٥

يطول بي تعداد الأسباب التي تضافرت على تقصير مدّة مهمّتي في المكسيك، فلم تستغرق إلّا سنة أو أقلّ استُدعيتُ بعدها إلى الإدارة المركزيّة في بيروت.

من هذه الأسباب رفضي القاطع لسيّدة جليلة من سيّدات المجتمع البيروتيّ قصدت إليّ في جمع تبرّعات من الجالية لمشروع خيريّ، وطلبت أن أفتح لها أبواب المفوّضيّة لهذه التبرّعات وأن أقوم بالدعاية لمشروعها في خطاب ألقيه. ولم أتردّد، لدى إصرارها الوقح، أن ألحق مشروعها بالمشاريع الخنفشاريّة (كذا) التي يعرفها المغتربون من إخوانهم المقيمين. فانقلبت مهدّدة متوعّدة. وقد علمت فيما بعد أنّها كانت مقرّبة إلى الرئيس شهاب، كلمتها عنده لا تصير اثنتين، كما يُقال... ومنها أنّ زميلًا لي في السلك، من أنسباء الرئيس، كان يطمح إلى الحلول مكاني، وكان يشغل لذلك الوقت مركزًا في وزارة الخارجيّة. فكان ينقل إليه، أي إلى الرئيس، أخبارًا عنّي يلفّقها، منها أنّني من جملة الذين يسبّونه (كذا) في الجالية، فيصدّقها. وكان، غفر له الله، من الذين إذا سمعوا صدّقوا، وإذا حقدوا فحتّى الموت.

أعتذر من ذكر هذه السفاسف التي ما أعرتها اهتمامًا لا في حياتي العامّة ولا في حياتي الخاصّة. وأكتفي بالقول إنّني قمت في المكسيك بما أملاه عليّ ضميري الوطنيّ. لقد كان الذين استقبلوني لدى وصولي إلى مطارها ثلاثين أو أربعين شخصًا، هم عادةً الذين يستقبلون كلّ رئيس جديد للبعثة، مع فارق الحرارة طبعًا لطول الانتظار. في الوداع، على المطار نفسه، كانوا بين الثلاثمائة والأربعمائة.

في الإدارة المركزيّة

١

أمضيت ستّ سنين في الإدارة المركزيّة مديرًا للشؤون الثقافيّة والاجتماعيّة ، أي طوال عهد فؤاد شهاب. وكان الزملاء يتنقّلون سفراء بين عواصم العالم ، وأنا في مكتبي لا تأتي حركة ديلوماسيّة على ذكر اسمي. وكان الحاجّ حسين العويني رئيسًا لمجلس الوزراء والأستاذ فيليب تقلا وزيرًا للخارجيّة والمغتربين – وكلاهما صديق لي منذ اشتغالي بالصحافة – فأسألهما عن سبب تجميدي في الإدارة المركزيّة فيجيبان : فؤاد شهاب ! فؤاد شهاب !

فور عودتي من مكسيكو قصدت ، كما تقضي الأصول ، إلى القصر الجمهوريّ – وكان مقرّه في الزوق – لزيارة فخامته. ربع ساعة وأنا أنقل إليه أخبار المكسيك وهموم مغتربينا فيها ، وهو يضع رأسه في المكتب لا يسأل ولا يعلّق ولا يلتفت إليّ.

وحدث بعد أشهر أن صدر مرسوم ، بتوقيعه الكريم ، يقضي بإنشاء مجالس ثقافيّة في البلاد ، ومنها واحد ، لعلّه الأوّل ، في المتن الشماليّ. ولا غرابة في ذلك ، فالمتن الشماليّ منبت النخبة من الأدباء والمفكّرين اللبنانيّين. فشرّفني الإخوان بانتخابي رئيسًا. فجاءني محافظ جبل لبنان ، الأستاذ فوزي بردويل ، يعرض عليّ زيارة فخامة الرئيس بوفد يتألّف من أعضاء المجلس ، على أن يرافقنا هو وقائمقام القضاء الأستاذ فاضل حمويّه في هذه الزيارة. فعرضت الأمر على أعضاء المجلس فلم يجدوا مانعًا. إلّا ميخائيل نعيمه ، عارض بتعاليه المعهود وأعلن أنّه لن يشترك في الوفد ، إلّا أنّه قبل أخيرًا إكرامًا لي.

وفي الموعد المضروب قصدنا إلى القصر ، بصحبة المحافظ عن اليمين ، والقائمقام عن الشمال ، وفدًا يضمّ النخبة المشار إليها ، أذكر منهم : الدكتورة سلوى نصّار ، ميخائيل نعيمه ، يوسف غصوب ، رئيف خوري ، أسد رستم ، جورج شحادة ، عبد الله النجّار ، المونسنيور يوحنا مارون ، وغيرهم. وكان عليّ بوصفي رئيس المجلس أن أتكلّم باسمهم في حضرة ربّ القصر ، فقمت وألقيت كلمة عن وظيفة المجلس الثقافيّ ، أو المجالس الثقافيّة التي ستعمّ المناطق بفضل رعاية فخامته ، واقترحت تتويجها بمجلس أعلى تتمثّل فيه كلّها ، بانتظار أن يتحقّق لنا حلم إنشاء وزارة للثقافة.

أصغى فخامته إليّ؟ لم يصغ؟ لا أعلم. كلّ ما أعلم أنّه لم يتفضّل عليّ طوال وقوفي بين يديه ولا بنظرة. كان واضعًا رأسه في الأرض ، شأنه لدى مقابلتي له في مكتبه من قبل. والتزامًا للشأن ذاته لم

يردّ على خطابي بكلمة ، ولم يفتح فه بترحيب ولا توديع . فلمّا صرنا إلى الباب منصرفين هدر رئيف خوري بالغضب بي وبالمحافظ :

– شو جبتونا لهون حتّى نتبهدل ؟!

ميخائيل نعيمه اكتفى بمعاتبتي ومعاتبة نفسه . فهزّ رأسه وقال :

– ما لنا ، نحن أصحاب الأقلام ، وأصحاب السلطان ؟ فكيف إذا كانوا أمراء وقوّاد جيوش !

في الوظيفة

جرّبتَني يـــا دهرُ لا تعَبـــا
لاقيتُ من أمري ولا عجَبـــا
في شاهقٍ من كِبْرِها اعتصمت
نفسي وشدَّت بـالسُّهى سبَبـا
سهـــلُ الجنى مرٌّ على شفتي
إنّي حـدوتُ لصعبِـه طلَبـا
خلفَ الجزاء الـدونِ منبتُـه
لا شارةً حجرًا ولا رُتَبـــا

* * *

يـــا دهرُ حسبي أنّني رجـــلٌ
سيّـانِ أعطى الأمرُ أو حجبـا
أرضيتُ دونَ الخلقِ كلّهمِ
اَللهَ والأوطـــانَ والأدَبـــا

بيروت – ١٩٦٠

٢

أثناء عملي في الإدارة المركزيّة وضعت بالتعاون مع الوزير فيليب تقلا والأمين العامّ فؤاد عمّون «برنامج المساعدات الثقافيّة والاجتماعيّة للبلدان الأفريقيّة». إكرامًا طبعًا لعيون مغتربينا في تلك البلدان ، عسى ولعلّ أن توفّرهم العواصف السوداء التي كانت نُذُرها تطلّ هنا وهناك على البيض ومؤسّساتهم في طول القارّة وعرضها ، ثأرًا – بعد الاستقلالات التي طلعت فيها كالكمأ – لماضٍ طويل من الاستعباد والقهر.

كنّا نفتح المدارس والمستوصفات في السنغال ونيجيريا وفي غامبيا وزامبيا إلخ . وننتدب لها المعلّمين من لبنان مع الكتب ، والممرّضات مع الأدوية والشاش اللازم . وبين الحين والحين ندعو إلى بيروت نخبة من تلاميذ أفريقيا النجباء لدورات تدريبيّة على اللغة العربيّة تستغرق أسابيع . وقد عهدتُ إلى الصديق رئيف خوري ، رحمه الله ، أن ينظّم هذه الدورات ويديرها بما كان له من خبرة في التعليم . وأسهمت فيها شاعرتنا باسمة بطولي.

باسمة ؟

كانت باسمة لذلك العهد في عزّها : قامة فارعة ، وجسد مجدول ، وعينان ساحرتان . وكنت أتفقّد ، بوصفي المشرف على كلّ ذلك ، سير الدروس في تلك الدورات ، فأرى إلى التلاميذ في صفّ باسمة ، وكلّهم في عزّهم هم الآخرون – بين العشرين والثانية والعشرين من العمر – تطلع عيونهم كالشموس من ليل سوادهم ، فالأشعّة تلفح باسمة من كلّ صوب ، وهي تحور وتدور لا تعرف كيف تتّقيها .

أنتِ القصيدة!

إلى باسمة بطولي

بعد ١٨ سنة

تقولُ في الحبِّ أشعارًا وتسألُني
رأيي تحيّرَ بين الآهِ والإيها
أوزانُها تلك أم وَقْعُ القلوبِ على
دربِ اللقاء وواحاتٌ قوافيها
تمدُّ من صوتِها للشوقِ بُحّتَه
وللتباريحِ قِسطٌ من تثنّيها
ما قصّرَ اللفظُ عن معنى وأسعفَه
لحظٌ تكشّفَ عن خافي معانيها
وربّما انعقدت واواتُها قُبَلًا
عفوَ الشفاهِ تُنادي مَن يلاقيها
فبينَ أُذني وعيني من مفاتِنها
ما يُكسِبُ القولَ تأويلًا وتمويها
رأيي تريدينَ؟ يا سبحانَ ناظمَها
ونافخَ السحرِ من أنفاسِهِ فيها
أنتِ القصيدة أقضي العمرَ تهجئةً
لحرفِها – هل أنا يومًا مُغنّيها

بيروت – ١٩٨٠

٣

في شهر أيّار ١٩٦١ انعقد في أديس أبابا، بناء على دعوة من الأونيسكو، مؤتمر للإنماء الثقافيّ في أفريقيا اشتركت فيه كلّ دول القارّة ممثّلة بوزراء التربية والتعليم فيها. ورأى لبنان أن لا يغيب عن هذا المؤتمر فعيّن وفدًا كان لي شرف رئاسته. فألقيت في الجلسة العموميّة التي عقدها المؤتمر بتاريخ ١٨ منه خطابًا أقتطف منه الفقرة التالية:

«في نطاق المشروع الضخم الذي تنشطون لتحقيقه في حقل التربية والتعليم لا تتعدّى مساهمتنا حتّى اليوم حدّ الرمز. لقد تيسّر لنا هذه السنة أن نخصّ البلدان الأفريقيّة بثلاثين منحة جامعيّة، وأن نرسل إلى بعضها طائفة من المعلّمين، ونستضيف فريقًا من الطلّاب لدورات تدريبيّة على اللغة العربيّة. خطوة متواضعة نرجو أن تتلوها خطوات أوسع في السنوات المقبلة، بفضل مخطّط هو رهن الدرس بين السلطات اللبنانيّة من ناحية وهيئات المغتربين من ناحية أخرى، من شأنه أن يتيح لفئة ممتازة من الشباب الأفريقيّ أن تتلقّى العلوم في معاهد لبنان العالية، وأن تتهيّأ فيها لخدمة أوطانها في مختلف الحقول.

لقد اتّخذت اللجنة الوطنيّة اللبنانيّة للأونيسكو* في جلستها الأخيرة التي عقدتها في شهر نيسان الماضي القرار التالي:

نظرًا للاهتمام الكبير الذي أولاه مؤتمر الأونيسكو العامّ في دورته الحادية عشرة للمساعدات الأفريقيّة، تحرص اللجنة الوطنيّة اللبنانيّة أن تلفت الحكومة اللبنانيّة والمدير العامّ للأونيسكو إلى الإمكانات الكبيرة، المنوّعة، المتوفّرة في لبنان على صعيد التعليم الجامعيّ بواسطة الثقافات الثلاث: العربيّة، واللاتينيّة، والأنكلوسكسونيّة الممثّلة في المعاهد العليا العاملة فيه، وإلى الوسائل المبذولة في هذه المعاهد لإعداد الطلّاب إعدادًا يتّفق مع مصلحة قارّة تنهل، هي نفسها، في مرحلتها التاريخيّة الحاضرة، من هذه الينابيع الحضاريّة الثلاثة. إنّ تجهيز هذه الجامعات بالجهاز المادّيّ والتقنيّ اللازم كفيل بأن يفسح المجال أمام الدول الأفريقيّة الناشئة أن تتوجّه إليها بعدد من الطلّاب تستعين بهم في المستقبل على تعبئة الملاكات التي تحتاج إليها، وذلك في جوّ من الصداقة، والتسامح، والحرّيّة، هو من النعم التي منّت بها الأقدار على هذا البلد».

* كان المؤلّف عضوًا في اللجنة المذكورة.

٤

المكان: الكرم في بحرصاف. الزمان: أيلول مع صباح دافئ وشمس باهرة. زوجتي تروح وتجيء في الكرم تقطف العنب وتضعه في السلّة. تناديني لألحق بها. أطلّ من علّيّة البيت.

شِقّ (هاتفًا): دعيني، حان القطاف الآخر!

(يشدّ به سَطيح ليتناول عنقودًا – ذهبًا خالصًا – تمتدّ به يد شريكة الحياة، ولكنّ شِقّ يجذبه إلى الوراء، فينفرط العنقود على الأرض. يعودان إلى داخل العلّيّة).

سَطيح: لِمَ هذا الاضطراب؟

شِقّ: اِنزل إلى مكتبة الأولاد. فتّش لي عن قلم مع كدسة أوراق.

سَطيح (يعود بالقلم والأوراق ويضعها على طاولة صغيرة، كما أمر شِقّ، الطاولة الوحيدة في العلّيّة): وماذا بعد؟

شِقّ (بغضب): اِذهب ولا أرى وجهك! بلى. هاتِ أيضًا السيكارات. كروز كامل.

سَطيح (متعجبًا): عدنا إلى الكتابة؟ أما كنت نسيتها وأدرت لها ظهرك منذ عشرين من السنين؟

شِقّ: كنت خائن نفسي. قلتها بالحرف عام ١٩٥٢ في رسالة إلى سهيل إدريس نشرتها مجلّة «الآداب» في حينها جوابًا على دعوته إيّاي لاستئناف الكتابة.

سَطيح: ثمّ عدتَ وأكّدتها في ١٩٦٠ لسعيد فريحه في «الأنوار». فتجاوزت الخيانة إلى ما هو أعظم. قلت له: ما زلت تسألني عن المرحوم! (كذا) لقد مات فلان الكاتب منذ زمان.

شِقّ: أنت الذي تولّيت إذاعة النعيّ. أنت الذي كنت تريد موتي. الخيانة منك جاءت تمهيدًا للقتل. ألم تُقسم لي، عندما دخلنا الوظيفة، بأنّك ستُقسِط حياتنا: لك الحفلات والسموكنغ والنباشين، ولي زاويتي في الليل وقلمي وأوراقي؟

سَطيح (يكاد ينفجر غيظًا): وماذا بعد؟

شِقّ (صارخًا بوجه السماء): أنا ما مُتّ! أنا ما مُتّ! (ثمّ يغمض عينيه ويخاطب مجهولة):

«لا أعرف. لا أعرف. كلّ ما أعرف أنّك قد عدتِ. فانشري جدائلك أستروح شذًا عالقًا بالنفس منذ صباي. ومُرّي بكفّك على جبهتي تمسح الغربة والزمان»*.

(ثمّ يُشعل سيكارة وينكبّ على الكتابة...)

في مدى أسبوع نفضت يدي من «السائح والترجمان».

٥

ومع العودة إلى الأدب عودة في الخفاء إلى الصحافة.

كان كامل مروّه يصدر جريدته «الحياة»، فطلب منّي أن أكتب فيها قطعة كلّ يوم، على غرار تلك القطع الصغيرة التي كنت أكتبها في «النهار» وفي «الجديد» بتوقيع «حمّاد». فاستعرت لنفسي هذه المرّة اسم «عبده» وليوميّاتي «فنجان قهوة» عنوانًا دائمًا.

ذات يوم من ١٩٦٢ ذهبت إلى مكاتب «الحياة»، فوجدت «بدويّ الجبل»** غارقًا بجسمه الضئيل في كرسيّ إزاء كامل مروّه، فتألّقت عيناه لدى وقوعها عليّ وهبّ يعانقني. وكان من عادتنا إذا التقينا، في بيروت أو في دمشق، أن نتناشد الشعر. وكنت لم أرَه منذ شهور فسألني عن الجديد لديّ، فقلت:

– تعلم، يا بدويّ، أنّ الشعر هواية لديّ لا

---

* الفقرة الواردة بين قوسين مزدوجين مأخوذة من مقدّمة «السائح والترجمان».

** محمّد سليمان الأحمد.

أنحني عليه إلّا في العام مرّة ، ويا ليت ! ولكن إذا أنت أنشدتني أوّلاً أنشدتك أبياتًا بعدد أصابع اليد أو تزيد قليلاً.

فاستوى في جلسته وجعل يتلو من قصائده ، الواحدة أبلغ من أختها ، وهو يكبر مع كلّ بيت فيملأ الأذن والعين معًا. وكنت أدعوه من أجل ذلك بـ«القزم الجبّار». أكثر ما يعجبني منه هذه الديباجة الرقراقة ، والألفاظ له يصوغها صوغ الحليّ ، إلى نفَس طويل لا يلهث.

ثمّ هتف : هاتِ أبياتك.

قلت : إنّها للمناسبة السعيدة بهذا اللقاء بعد هذا الانقطاع الطويل. فهي لك ، كما سترى ، ولأمثالك.

ثمّ هززت برأسي معاتبًا :

– لكم الله أيّها الشعراء ، ما أقلّ نصيب الصداقة من شعركم !

وعيل صبره فكرّر بالصوت العالي :

– هاتِ أبياتك. هاتِ.

وكان البدويّ قد بدأ يستعيدني البيت مرّة ومرّتين منذ البيت الثالث ، فلمّا وصل إلى الأخير أخذ عنّي وجعل يردّده بإلقائه الرائع ، ثمّ التفت إلى كامل وقال :

– والله إنّني أبيع نصف ديواني بهذا البيت.

فتلقّاه كامل :

– تنسى أنّك تتكلّم أمام صحافيّ. غدًا سأنشر القصيدة مع قولك هذا في صدر «الحياة».

قال :

– ولن تظهر القصيدة إلّا ومعها قصيدة لي أعارضها بها ، وإنّني منصرف إلى نظمها الساعة.

فلمّا كان من غد ظهرت «الأصدقاء» مع قصيدته في «الحياة» مع مقدّمة بقلم كامل يحكي فيها الحكاية. ولكنّ قصيدة بدويّ الجبل لم تظهر في الطبعات المُفردة من «حصاد العمر» لفقدانها من أوراقي. حتّى كان أن أخرجها من محفوظاته وبعث إليّ بها من عمّان الصديق الأستاذ أكرم زعيتر. وهو في طليعة من أعنيهم في قصيدتي.

الأصدقاء

عُصبةٌ من خُلصاء هُم على الدهرِ مِجنّي
نلتقي يومًا ، وعامًا لا تسلْ عنهم وعنّي
ففلانٌ قلتُ عنه وفلانٌ قالَ أنّي
وأنا إمّا تغنّوا رَفرفَت روحي تُغنّي
أو بكَوا أترعتُ كأسي بالمرارات ودنّي
أو بَنوا مجدًا تطاولتُ –على الناسِ كأنّي

* * *

لستُ أدري منهمُ شيئًا – ولا يدرونَ منّي
قد جَعلْنا البُعدَ فنَّ –الشوقِ أو عِلمَ التمنّي

بيروت – ١٩٤٥

قصيدة بدويّ الجبل

أيُّها المُعرِضُ عنّي ما الّذي رابَكَ منّي
ألمُنى ضاعت فهبْني منكَ نعماء التمنّي
تعدلُ الدنيا طيوفٌ علقتْ منكَ بجفني
وأنا البلبلُ في الأيكِ –وفي الأسرِ يغنّي
لم يضقْ حُبّي بما ألقاهُ من هجرٍ وغبنِ
لي كنوزُ الحبِّ –يستغني بها قلبي ويُغني

* * *

يظمأُ العقلُ فأسقي –العقلَ أُسطورةَ جنِّ
أنا إن أَذنُ من اللهِ –فإنّ الشوقَ يُدني

بيروت – ١٩٦٢

ولكنّها ، أي الحكاية ، لم تنتهِ عند هذا الحدّ. فقد انبرى في لبنان وسوريّا والعراق ومصر إلخ نفر من الشعراء فعارضوا القصيدة كذلك ، ونشرت لهم «الحياة» قصائدهم : ستّ عشرة قصيدة بستّة عشر شاعرًا.

ثأر لك أيّتها الصداقة. ولعينَي كلّ صديق !...

بموت كامل مرّوه – اغتيالًا برصاصة ساكتة وراء مكتبه – مات شيء منّي. فكان «فنجان قهوتي» في صباح ذلك اليوم المشؤوم مرًّا :

«بكيته كما لم أبكِ زميلًا أو صديقًا أو أخًا.

وناحت عليه العذارى نواحها على أدونيس.

لننطلق الآن في مطاردة الخنزير البرّيّ.

دم كامل مروّه نحن مطالبون به كلّنا. كلّ من حمل قلمًا وأبدى رأيًا.

فأمّا إذا سكتنا فلنتوقّع أن يفترسنا الخنزير البرّيّ جماعات.

دم كامل مروّه ، لن ندعه يُطلع أزهارًا على ضفاف الأنهر وسفوح الجبال.

حرابًا يجب أن يُنبت في ساحات الثأر»...

أفكّر اليوم ، بعد أن سبق إلى الشهادة فؤاد حدّاد (أبو الحنّ) ولحق إدوار صعب ، ورياض طه نقيب الصحافة ، وسليم اللوزيّ صاحب «الحوادث» وغيرهم ، أفكّر اليوم وكلّ يوم ، وأنتظر اليوم الذي تنبت فيه تلك الحراب.

من الموت برصاصة إلى الموت من حيث هو.

لماذا قضيت ليلي أمس سهران وعيناي إلى السقف أفكّر في الموت؟ تعاقبت عليّ وجوه الأصدقاء الذين ماتوا في عرض عجيب. بعضهم كان يختبئ في زوايا النسيان ، فأناديه : وأنت؟ فيقوم ويأخذ مكانه في الصفّ ويمشي معهم.

سَطيح : الصديق الذي مات قبل أيّام كان يقول : أنا لا أهتمّ للموت ، الموت شيء لا يعنيني ، إنّه يعني الآخرين.

شِقّ : الموت بحدّ ذاته لا معنى له. الموت أبله. هل استطعت أن تأخذ من الموت جوابًا على سؤال؟ يحيلك دائمًا على الحياة. يشير إليك بإصبعه الأسود ، ودون أن يتكلّم – لأنّه أخرس – يحيلك على الحياة.

سَطيح : ولكنّ الحياة بلهاء أكثر منه ، تناقض نفسها ألف مرّة فلا تفهم منها شيئًا. قلت لك لا تسأل عن ذكاء المرأة بل عن جهالها. الفلسفة لا تنفع مع المرأة ولا مع الحياة. بالله عليك يا شِقّ ، دعنا من كلّ هذا أنا نعسان. نَمْ ، غدًا تطلع الشمس...

صحّ كلام سَطيح. في الصباح طلعت الشمس. دخلت إلى مكتبي في الوزارة من الشبّاك. ودخلت معها من الباب شمس أخرى : صبيّة في العشرين كانت تتردّد عليّ ، مولعة بكتبي ، ومولع أنا بعينيها.

أسطورة الصدَفة

تسكنينَ لياليَّ عاريةً كالشمس
وكالعاصفةِ تثيرينَ رمادَ أيّامي

مسافرٌ أنا في عينَيكِ إلى أين
زورقَين يمخرانِ بي العُباب
إلى جُزُرِ المستحيل

تُرى ، هل نبلغُ يومًا أرضَ الشوق
حيثُ العناقُ لا يتعبُ بين الموج والشطّ
ويُصلّي الحبُّ سُبحةَ الرمال

هناك حيثُ الكلماتُ تمشي حافية
سننتعلُ براءةَ الأطفال
ووقارَ الفلاسفة
ونحقّقُ في كلِّ قبلة
أُسطورةَ الصَدَفةِ ناقلةِ المُحيط

هناك حيثُ لا عيونَ تثقبُ الظلال
ستنبتُ أذرعُنا المشتجرةُ جنانًا معلّقة
ويسّاقط مِلءَ أحضانِنا
تفّاحٌ بلا خطيئة

هناك حيثُ يرسُم الحدودَ بركارُ الأزلِ والأبد
سَنبني في نقطةِ الدائرةِ بيتَنا
ونتوسّدُ أمانينا
ويغفو على زندِنا الزمان

وكالفينيقِ الذي منه بلادُنا القديمة
سيرفُّ علينا طائرُ الحبّ
كم مرّةٍ احترقَ بريشِهِ الناريّ
ومن الرمادِ انبعث
يطوي بجناحَيه الأرض
ويصدعُ الشمسَ بمنقارِهِ !

بيروت – ١٩٦٤

٦

لم يلبث العهد الشهابيّ أن انتهى. ولو قبِل الرئيس بالتجديد – وقد ألحّوا عليه به فرفض – لجدّدتُ في ظلّه التزامي الإدارة المركزيّة ستّ سنوات أخرى.

ولم يكد خلَفه في الرئاسة، الأستاذ شارل حلو، يتربّع على كرسيّه حتّى هبّت رياح «الإصلاح والتطهير»، تطيح بالرؤوس في القضاء والإدارة والسلك الدبلوماسيّ جميعًا، قطعانًا تسوقها لجنة من الموظّفين إلى النطع، لا محاكمة، لا اعتراض أمام مرجع قانونيّ، ولا تمييز بين الصديق والعدوّ – أو هكذا كان الرئيس الجديد يعلن على الملأ – بل سمعًا وطاعة لأعضاء لجنة التحقيق الذين أولاهم ثقة عمياء.

القاضي المهيب الذي يحكم باسم الشعب اللبنانيّ في أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم،

المدير العامّ الذي يخضع له مئات الموظّفين ويرعى مصالح الدولة متوّجًا بهالة من الاحترام،

السفير الذي يحمل علَم لبنان في الخارج وحقّ النطق باسمه أمام دول العالم في الشرق والغرب،

كلّ هؤلاء سنّت اللجنة سكّينتها فوق رقابهم وذبحت منهم العشرات. مجزرة فاحت لها في البلاد روائح كريهة من الحسد والحقد، والنميمة والدسّ، وكلّ ما يعشّش في النفوس الصغيرة من أدران. وكم هدرت من كرامات، وخرّبت من بيوت! وكم وضعت في الأرض أعين أطفال ما عادوا يجسرون على رفعها إلى أبيهم بعد أن ألصق «الإصلاح والتطهير» على جبينه لوحة «مجرم».

والناس – الموظّفون منهم وغير الموظّفين – جبلهم الله كلّهم من طينة واحدة، ولكنّه قسمهم إلى ثلاثة:

١ – الأخيار الذين يولدون من بطون أمّهاتهم أوادم ويموتون أوادم، ولو من الجوع. هؤلاء يقول الناس عنهم حمير. وهم يشكّلون واحدًا بالمئة أو اثنين.

٢ – الأشرار الذين يولدون من بطون أمّهاتهم فاسدين مفسدين، لا تفعل في تغيير طبعهم وسلوكهم عصا من عقاب، وقد يذهبون إلى المشنقة ولا يرتدعون عن غيّهم الذي فيه يعمهون. هؤلاء هم الزعران، وهم يشكّلون كذلك واحدًا بالمئة أو اثنين.

٣ – الباقون الذين يشكّلون الستّة والتسعين أو الثمانية والتسعين من البشر هم بين بين. لا هم أخيار فيُعرَفون، ولا هم أشرار فيُوصَفون. يتأرجحون بين هذا الصفّ وذاك. فهم أخيار إذا جعلت عليهم رقيبًا، وأشرار إذا تركتهم يسرحون على هواهم ويمرحون.

فلو مارست الدولة الرقابة – أولى مسؤوليّاتها – إذًا فأيّ حاجة إلى الإصلاح والتطهير؟ وما نفع الرياح إذا هبّت شهرًا وهدأت دهرًا، ولم يبقَ وراءها إلّا صرير الأسنان؟

«خطيئتي عظيمة! خطيئتي عظيمة! خطيئتي عظيمة جدًّا!» اعترف بها تلميذ اليسوعيّين، الرئيس، علنًا، ولكن بعد فوات الأوان.

* * *

لا حاجة إلى القول: ليس كلّ الذين نالهم الإصلاح والتطهير أشرارًا، ولا كلّ الذين لم ينلهم أخيارًا.

ذات يوم من تلك الأيّام دخل عليّ في المكتب رُسل اللجنة، لهم انسلال الحيّة من غرفة إلى غرفة، ومدّ رأسها إلى كلّ دُرج. لم أكن أعرف وجهًا من وجوههم، ولم يسبق لي أن سمعت باسم من أسمائهم. ضبّوا على أوراق اختاروها، ثمّ دنا كبيرهم منّي – طلبت له فنجان قهوة فرفض بإباء – وسألني:

– ماذا طلع لك من صفقة الكتب المدرسيّة التي

أرسلتها ، بوصفك مشرفًا على تنفيذ برنامج المساعدات الثقافيّة ، إلى أفريقيا؟

– كدت أفقد صداقة صديق عزيز.

– مَن . وكيف؟

– الشيخ فؤاد حبيش. أمّا كيف فاذهب إليه في دار «المكشوف» واسأله.

كنت قد أجريت – بإشراف الوزير والأمين العامّ وبتوقيعها – اتّفاقًا مع الشيخ فؤاد ، بوصفه رئيسًا لـ «جمعيّة الناشرين» ، لطبع تلك الكتب. وكان الشيخ فؤاد قد حمل إليّ بعد الفراغ من طبعها نسخًا منها ، فأثنيت على جودة الطبع وشكرت له لطفه في حمل النسخ بيده إليّ. قلت :

– كان بإمكانك أن تكلّف بها الساعي.

– حرصت أن أزورك باسمي واسم الناشرين لأحمل إليك هديّة صغيرة منهم.

وأدخل يده في جيبه فأخرج مغلّفًا ووضعه على الطاولة. فتناولت قلمي وكتبت على المغلّف : «مرتجع مع الشكر». وتحتها توقيعي الصريح.

كان وجهي مغلّفًا هو الآخر بابتسامة لم يفت فؤاد حبيش أنّني أكظم بها غيظي فأعاد مغلّفه إلى جيبه.

ولكنّ المسألة لم تقف عند هذا الحدّ.

كان لدى الجماعة –كما تبيّن لي فيما بعد– أشياء عنّي وأشياء. من جملتها أنّني صاحب ملايين في البنوك ! ولوّحوا في الجوّ بالسؤال الرهيب : «من أين لك هذا؟»

لم يطرحوه عليّ ، ولا وقع نظري على أحد منهم بعد تلك الزيارة. ولكنّهم وجدوا الجواب عند ثلاثة :

الأوّل : الكرّاس الذي أصدرته لجنة توسيع دار المفوّضيّة اللبنانيّة في مكسيكو بالعربيّة والإسبانيّة ، وفيه تسجيل لكلّ سنتافو مع اسم صاحبه من المتبرّعين . وتسجيل لكلّ سنتافو دفعته اللجنة على البناء من الأساس إلى الطرش.

الثاني : كتاب من وزيرنا المفوّض في الكويت ، حسيب العبد الله (اغتالته ، رحمه الله ، أمام بيته في الجنوب ، يد أثيمة خلال الأحداث) بعث به إلى وزارة الخارجيّة والمغتربين ، وللكتاب حكاية.

كانت جامعة الدول العربيّة قد عقدت في الكويت قبل ذلك – لست أذكر التاريخ – مؤتمرًا للإعلام. وكنت رئيسًا لوفد لبنان في المؤتمر. أكرمنا الإخوان في الكويت ، وأنزلوا رؤساء الوفود في أفخم فنادقهم كلًّا في جناح خاصّ ، مع حاجب على الباب ، وسيّارة في تصرّفه.

في صباح اليوم الذي تلا ارفضاض المؤتمر استيقظت على حاجبي يدخل وفي يده مغلّف معنوَن باسمي مع «شخصيّ ومعجّل». قال إنّ رسولًا من عند الأمير صباح الأحمد الصباح – وكان رئيسًا للوزراء قبل أن يصبح رئيس الدولة – جاء به إليّ.

عدنا إلى المغلّفات !

سَطيح : نفتح المغلّف.

شِقّ : إيّاك ! دعني أرى أنا.

سَطيح : ما لك تغيّر لونك؟

شِقّ : يجب أن يُعاد هذا المغلّف إلى مرسله فورًا.

سَطيح : نرى ما فيه قبل إعادته. ربّما كان فيه شيء هامّ.

شِقّ : أيّ شيء هامّ؟ اِرفضّ المؤتمر ، وودّعنا الأمير وانتهى كلّ شيء. هاتِ المغلّف.

سَطيح (متريّثًا ، يمسك بطرف المغلّف ، ويهمّ) : ما رأيك؟

شِقّ : أسمح لك بفتح زاوية منه.

سَطيح : مِن هنا.

شِقّ : بل من هنا حيث الصمغ لم يلقط ثنية الزاوية كما يجب.

سَطيح (يدني الفتحة هاتفًا) : ماذا؟ أوراق ماليّة؟!

شِقّ : قلت لك إنّ للمغلّف وسوسة عجيبة. مدّ لسانك وبلّ الصمغ الجافّ وأطبق الزاوية ،

وهاتِ المغلّف وتعالَ.

سَطيح : إلى أين؟

شِقّ : إلى قصر الأمير.

سَطيح : ولكنّه أمير عرب. والهديّة لا تُرفض. فكيف نصنع؟

شِقّ : اُتركها عليّ. الشغل شغلي، وابقَ أنت في حضرة الأمير وراء ظهري حسب العادة. وعجّل من فضلك في الحلاقة، فبعد ساعتين يجب أن نكون في المطار.

لست أدري كيف استطعت أن أقنع الأمير بردّ الهديّة. ولا أذكر بالتفصيل فصاحة المحامي الذي كان في ثيابي، ولا بلاغة الكاتب الذي كنته دائمًا، ولكنّي أذكر أنّني جمعتهما معًا وضممت إليهما كلّ ما تعلّمته في حياتي الدبلوماسيّة من براعة المفاوض. والأمير يحمرّ ويصفرّ محاولًا إقناعي بأنّ الهديّة للأولاد، وأنّها تقليد من تقاليد البلاد، وأنّها شملت رؤساء الوفود وأعضاءها إلخ... ولكنّي ما زلت به حتّى أقنعته. قلت:

– آخذ هذا القلم عن مكتبك تذكارًا. وهو حسبي.

ومددت يدي للوداع. ولكنّ الأمير أخذني من ذراعي إلى الباب. إلى الساحة. إلى السيّارة. فمدّ السائق يده لفتح بابها، فضرب الأمير بيده وسبقه إلى فتحه وقال:

– شرّفتنا، أستاذ عوّاد.

هذا الحادث لم أذكره لأحد ما عدا زوجتي وأوصيتها أن تدفنه في صدرها. حتّى كان ذلك اليوم – بعد سنة – وأنا في مكتبي فيدقّ التلفون ويخاطبني الوزير فيليب تقلا طالبًا منّي المجيء إليه. وإذا هو يتلقّاني بابتسامة عريضة ويدفع إليّ أوراقًا. قال:

– تقرير من وزيرنا المفوّض في الكويت، حسيب العبد الله، اِقرأه.

يظهر أنّ الأمير صباح حكى الحكاية، فشاعت في القصر وفي دور البعثات العربيّة وأوساط الجالية. فرأى حسيب العبد الله – وكنت بالكاد أعرفه – أن ينقلها إلى الوزارة مع التعليق الذي أملاه نبله.

قال فيليب تقلا:

– كيف أخفيت عنّي الحادثة وأنا الذي عيّنتك رئيسًا لوفد لبنان في المؤتمر؟

قلت:

– لم أجد لزومًا. عملت واجبي.

أعود إلى ثالث المصادر التي وجد فيها المحقّقون جوابهم على السؤال الرهيب.

أهو القضاء والقدر؟ أم هو، سبحانه وتعالى، لم يشأ لي أن أرتكب جريمة في حال إلحاقي بالقطيع؟

لست أعلم. كلّ ما أعلم أنّ وزارة الخارجيّة والمغتربين تلقّت ذات يوم من تلك الأيّام كتابًا مضمونًا من محامي «البنك اللبنانيّ للتجارة» يطلب فيه حجز رواتبي ابتداء من تاريخ التبليغ، تنفيذًا لحكم القضاء بسبب تأخّري في وفاء دين عليّ للبنك، تراكم بالفوائد المتراكبة حتّى بلغ سبعة وخمسين ألفًا وخمسمائة ليرة.

أُحيلت إلى اللجنة نسخة من كرّاس لجنة توسيع دار المفوّضيّة اللبنانيّة في مكسيكو، ونسخة من تقرير وزيرنا المفوّض في الكويت، وكتاب محامي البنك بنصّه وفصّه.

وانتهى الأمر.

レバノン国特命全権大使
トウーフィック・アウアド閣下

في بلاد الشمس المشرقة

١

«ما تَرونه إلى يمين هذه الصفحة هو اسم أبيكم ولقبه في بلاد الشمس المشرقة».

هكذا كتبت إلى أولادي في الرسالة الأولى التي بعثت بها من طوكيو إلى بيروت.

في السنة ١٩٦٦ صدر مرسوم بنقلي من الإدارة المركزيّة وتعييني سفيرًا للبنان في اليابان. أبعد رحلة، وأطول مهمّة، وأروع مغامرة في حياتي الدبلوماسيّة.

لدى وصولي إلى طوكيو علمت أنّ السفراء فيها يقدّمون أوراق اعتمادهم إلى الميكادو في احتفال مهيب ينتقلون فيه من مقرّهم إلى قصره بإحدى وسيلتين: عربة الخيل التقليديّة، أو السيّارة الكاديلاك. والأمر متروك لاختيارهم.

قلت لمدير البروتوكول:

– بل عربة الخيل.

فابتسم وقال:

– نرى في الأمر.

ولمّا ودّعته أكّدت اختياري فابتسم ثانية وانحنى هذه المرّة حتّى كاد رأسه يلامس الأرض، وقال نعم وكأنّه يقول لا، فبقيت في شكّ من ذلك. وسألت بعض الزملاء فأفادوا: لا هي نعم ولا هي لا. وإنّما هي بين الاثنتين. وقد كان بإمكانه أن يقول لا وتكون أقرب إلى النعم نفسها. وزادوا مفسّرين أنّ النيّات اليابانيّة تبقى في القلب، والكلام رياضة. ولمّا رويت الحديث لزميل قديم قال: الإبهام مقصود، فاليابانيّون يمهّدون في وعودهم سبل الاعتذار عن الإخلاف بها عند اللزوم.

بارك الله فيك، يا هيرادا صن، يا سيّد مراسم القصر، وأستاذ الأساتيذ. لقد كذّبت فلسفة الذين تفلسفوا وكنت عند حدّ قول الفرزدق:

«ما قالَ لا قطُّ إلّا في تشهّدِهِ
لولا التشهّـدُ كـانت لاءَه نعمُ»

وهكذا عاد الرجل فاتّصل بي مبكرًا في اليوم التالي لينقل إليّ – هذه المرّة خلال ضحكاته اليابانيّة الكريمة – «خبرًا سارًّا جدًّا جدًّا». هو الخبر المعلوم والوعد المكتوم. وهكذا بالتالي قضينا نحن في السفارة ليلة ١٣–١٤ أيلول في نفض غبار الأيّام عن طقم البونجور وطرد رائحة النفتالين منه، وقضاها سوّاس القصر في نفض الغبار عن العربة وشدّ براغيها وتحضير الخيل.

لم ينطلق الموكب من دار السفارة. صعب على عربة الخيل أن تجتاز المسافة بينها وبين القصر، فشوارع

طوكيو ضيّقة وزحمة السير فيها شديدة. وإذا كانت السيّارة لا تقطعها بأقلّ من نصف ساعة في فترات الصباح المبكّرة أو المساء المتأخّرة فكيف بعربة الخيل في عزّ النهار. لذلك صار الاتّفاق بعد الحرب الأخيرة على أن ينتقل السفير بالسيّارة من داره إلى دار مُلحقة بوزارة الخارجيّة اليابانيّة تبعد نحوًا من كيلومترين عن القصر، وفيها تنتظره العربة.

في هذه الدار التي يخيّم عليها السكون استقبلني واحد من أساتذة المراسم، هو الثاني بعد كبيرهم. كان بانتظاري على الباب. اِنحنى مغمضًا عينيه ودعاني إلى الدخول، فدخلت بين صفّين من الحرس ببزّاتهم وخوذهم اللمّاعة عن اليمين وعن الشمال. حتّى وصلنا إلى قاعة فجلسنا وجاءنا الخدم بفنجانين من الشاي اليابانيّ، وهو أقرب إلى الزهورات التي نتناولها في لبنان للمنفعة منه إلى ما نعرف من شاي. وكأنّ صاحبي لاحظ أنّي لا أستسيغه فأخذ يرشّ عليه من لطائفه، منتهزًا الفرصة ليعيد عليّ الأمثولة التي كان قد سبق له أن لقّنني إيّاها في زيارة خاصّة قام بها إلى مكتبي في السفارة، مع رزمة من التعليمات المطبوعة والخرائط: كيف أدخل إلى القصر، من يستقبلني على الباب، أين يكون الإمبراطور، من يكون معه، كيف أنحني له مرّة أولى، كيف أمشي بضع خطوات وأنحني مرّة ثانية - والثانية أكثر من الأولى - بأيّ يد أقدّم أوراقي إليه، كيف أنتظره حتّى يفتح الحديث... لا جلوس، لا خطب، لا أنخاب... كيف أنتظره حتّى ينهي الحديث، حتّى يمدّ يده لمصافحتي، حتّى يأذن لي بالانصراف إلخ...

صهلت الخيل. جاءت العربة.

سَطيح: كيف أنت، يا شِقّ، في هذه العربة الملوكيّة؟

شِقّ (يكتم ضحكة): أتدري بماذا أفكّر؟

سَطيح: بصورة. عدّة صور لنا في هذه العربة، تجمّدنا في هذا الوضع، للأجيال الآتية!

شِقّ: أفكّر بحمار جدّي عندما كان يُركبني عليه فأختال غاديًا رائحًا في دروب الضيعة وأسقيه من العين.

سَطيح: من حمار جدّك إلى عربة الملكة إليزابيت؟

شِقّ: كنت بالأمس أسعد بالحمار في برذعته المزركشة وأجراسه المرنّة منّي بهذه العربة الملوكيّة.

سَطيح (ساخرًا): أين أولاد الضيعة يلحقون بك وبحمارك بالحجارة من هذه الجماهير من الخلق تصطفّ على الميلين في شوارع أكبر عاصمة في العالم ويرفعون إليك أيديهم بالتحيّة. ألا تردّ عليهم التحيّة بأحسن منها؟

شِقّ: اِرفع يدك أنت وردّ بما تشاء.

سَطيح: تصوّر أنّنا ذاهبون إلى الإمبراطور الذي كان إلهًا. خسارة أنّ الأميركيّين أنزلوه من سمائه بعد انتصارهم على اليابان.

شِقّ: قبل ذلك لم يكن لليابانيّين أنفسهم الحقّ في رؤية وجهه.

سَطيح: المسيح نزل إلى الأرض ولم يخبّئ وجهه. أليس أنّ المسيح كان إلهًا أعظم من الميكادو؟

شِقّ: تعرف نتيجة المغامرة. هزئ به البشر، وضعوا على رأسه إكليل شوك، وصلبوه على خشبة. لا. لا. الآلهة يجب أن تبقى فوق، فوق.

سَطيح: لا بدّ أن يكون على وجهه بعض ملامح الألوهة.

شِقّ: ملامح الألوهة هي على كلّ الوجوه. حتّى وجهك يا سَطيح.

سَطيح: كيف نقابله؟ ماذا نقول له؟

شِقّ: ألم تحفظ الأمثولة؟ علّمنا إيّاها مدير البروتوكول وأعادها وكرّرها.

سَطيح: حفظتها، حفظتها جيّدًا. وأنت؟

شِقّ: أنا ما همّني حفظتها أم لا، ما دمت سأقابل إنسانًا لا إلهًا.

٢

... هو حفيد مايجي العظيم ، ولكنّ أباه كان ضعيف العقل ، وقد خلفه في سنة ١٩٢٧ ، واسمه هيروهيتو. الناس يدعونه بصاحب الجلالة منذ الحرب الأخيرة ، وقد يضيفون إليه اللقب الذي لقّبوه به في بداية عهده : شووا ، أي السلام المنير. وكان مقدّرًا لحرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ أن تطيح به لولا أن اليابانيّين ، لدى استسلامهم بعد قنبلة هيروشيا ، اشترطوا على الحلفاء شيئًا واحدًا : سلامة رأسه. يقول يافين في كتابه «اليابان» الصادر عن مجلّة «بتيت بلانيت» الفرنسيّة ، إنّه ، أي الميكادو ، ألقى في حياته خطابًا واحدًا هو الذي أعلن فيه ذلك الاستسلام. وهو ، أي الإله على الأرض ، الذي لم يكن بالإمكان إلّا رؤية قدميه من تحت البارافان الذي يحجبه حتّى عن الأدنين في القصر ، هو هو قصد إلى ماك آرثر مترمّلًا ، وراء البونجور الذي أجبروه على ارتدائه ، بخجل الانكسار ، فاستقبله القائد المظفّر بقميص بكمّين قصيرين. وللمرّة الأولى في السلالة التي تتربّع على عرش بلاد الشمس المشرقة منذ ألفَي سنة طرح الإمبراطور ألوهته ليعود بشرًا ، ويبقى فقط «رمزًا للدولة ووحدة شعبها» ، ملكًا بين الملوك الذين أرخصتهم الديمقراطيّة.

وجدته أمامي منتصبًا كالصنم. ولولا أنّ كبير أساتذة المراسم – صاحب الفضل العميم – لم يقدني إلى القاعة قبل المقابلة بعشر دقائق ليعيّن لي ، بالحسّ هذه المرّة ، أين يكون موقف صاحب الجلالة ، وأين يكون موقفي بحضرته ، ومواقف كلّ من وزير الخارجيّة وقائد الحرس الإمبراطوريّ ورئيس الحاشية الخاصّة والترجمان وسائر الآلة ، فضلًا عن موقفه هو ومعاونيه ، لولا ذلك لدخل في روعي أنّني أمام بوذا في هيكل من هياكله...

لم يتقمّص بي ماك آرثر ، أستغفر الله. وما أنسى أنّني أمثّل بلدًا صغيرًا مطمحه من الدنيا أن يسلم جلده عليه. ولكنّي لست أدري ، وأنا بحضرة الميكادو أقدّم إليه أوراق اعتمادي يدًا بيد ، وأحاول جاهدًا أن أنفذ بعينيّ إلى عينيه المبطّنتين ، مفتّشًا عن خرم بين الأجفان أسلك فيه ولو سلوك الخيط في خرم الإبرة ، مستعينًا على ذلك كلّه بالحديث أخرج به عن برودة المجاملات التقليديّة إلى حرارة الحياة وصدق المودّة بين بلدين كفى أن تقرّب بينهما هذه الأبعاد... أقول لست أدري وأنا بحضرته كيف كرّ في مخيّلتي فِلم الملوك والسلاطين الذين سبق لي أن عرفتهم ، فوقفوا بيننا في تلك القاعة وآنسونا بوجودهم.

أباطرة النمسا ، وقياصرة ألمانيا ، وسلاطين بني عثمان... في دكّان الضيعة ، بحرصاف ، عهد كنت صبيًّا دون العاشرة. وكان الدكّان الوحيد عندنا ، وكان صاحبه حلّاقًا. وبهذه الصفة كان من أدواته الضروريّة صور الملوك يعلّقها على الحائط المواجه للكرسيّ إطارًا لمرآة عرجاء. مصقولة كانت تلك الصور ، لمّاعة ذهبًا وأرجوانًا ، كما ينبغي لصور الملوك. وكنت أرفع عينيّ إليها وأنا تحت المقصّ ، فيلوي الحلّاق رقبتي فأسترق النظر استراقًا ، وتملأ نفسي هيبة أصحاب الجلالة ، فألبث بين الرهبة منهم من ناحية ، ومن الحلّاق من ناحية وكأنّه الجلّاد في مملكتهم. عظيم فيهم ، هو غليوم الثاني صاحب الشنبات ، كان أهل الضيعة يجتمعون في الدكّان أيّام الآحاد والأعياد ليتمتّعوا ببهاء طلعته والتندّر بأساطير بطولاته. هم يفتلون شنباتهم وأنا في حضن أبي أسمع وأعي...

إبتسم لي الميكادو ، ولا أدري لماذا ابتسم. فانقطع الفِلم الذي كان يكرّ أمامي وفيه الكثير بعدُ من الملوك والطغاة والحكّام الذين قابلتهم في حياتي ، فضلًا عن رؤساء الجمهوريّات فهؤلاء لا يُحسب لهم حساب... لو يُسمح لي فقط أن أتوقّف لحظة عند

واحد منهم : الجنرال بيرون. وأن أحيّي زوجته الفاجرة الطاهرة ، القدّيسة الإبليسة إفيتا ، التي أصبحت الخادمات في بوانس أيرس على عهدها ملكات! ولكنّ المقام لا يسمح إلّا بالصلاة والترحّم عليها ، فالميكادو يلحّ في ابتسامته ، ولأجفانه في مصاحبتها رفيف أليف ، إنّه يسألني عن صحّة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة.

– أوه! بألف خير والحمد لله. كلّفني بتقديم عواطفه الأخويّة إليكم ، يا صاحب الجلالة. وأنا لي الشرف أن أقدّمها إليكم مشفوعة بمودّة شعب لبنان وإعجابه باليابان وشعبها العظيم. . يا صاحب الجلالة (قلتها دون أن يفوتني أنّ الخطب ممنوعة) نحن في الشرق ، أدناه وأوسطه وأقصاه ، ننظر إلى اليابان على أنّها القدوة والمثال لشعوبنا جميعًا. وحدها اليابان استطاعت أن تحقّق الأعجوبة. إحتفظت من الشرق بأحسن قيمه وتقاليده : الشرف ، العائلة ، الوطن. وأخذت عن الغرب أحسن ما عنده : العلم والتقنيّة والحضارة.

عند ذاك ، عند ذاك فقط سقط القناع. انفتحت عينا الميكادو وانفرجت أساريره ، ومدّ إليّ يده مصافحًا وهو يقول :

– أرجو أن أراك مرارًا فيما بعد.

إنّه إنسان طيّب.

– ٣ –

أسرة السفارة فريقان : فريق المكتب وفريق البيت. وإذا كانت سفارات العالم تتألّف عادة من الأولاد الشرعيّين ، مستشارين وسكرتيرين وملحقين إلخ. المنضوين تحت جناح أبيهم السفير ، فأسرة السفارة اللبنانيّة في بلاد الشمس المشرقة – شأنها شأن معظم أخواتها تحت كلّ شمس – لا تضمّ إلى الأب إلّا ابنًا وحيدًا – قد لا يُسَرّ به دائمًا – يكون برتبة سكرتير أو ملحق. ومع الأب والابن الروح القدس ، أيّ العبقريّة اللبنانيّة التي تتّكل عليها وزارة الخارجيّة والمغتربين في اجتراح العجائب.

وبقيّة أعضاء الأسرة من أولاد الحلال الذين يتبنّاهم محلّيًا السفراء المتعاقبون ويمعنون فيهم تعيينًا وعزلًا ، ورفعًا وخفضًا ، لا فرق بين من هم في الخدمة الرسميّة ومن هم في الخدمة الشخصيّة. وها أنا أقدّمهم كلًّا بلسان حاله :

١ – أنا **كيكوصن*** الطبّاخة النفّاخة ، سيّدة هذا المكان منذ قديم الزمان. أنا الأساس الذي بُنيت عليه السفارة وحجر الزاوية وعتبة الباب. تعاقب عليّ الكثيرون قبلك ، سفراء وأنصاف سفراء ، وذهبوا وبقيت. وبين الواحد والآخر يا ما رأيتني وحدي لا حسيب ولا رقيب! أنبطح على كرسيّ السفير لأتذوّق سعادته ، وأتزيّن على المرآة التي تعتقد زوجته أنّها لا تعكس إلّا وجوه السفيرات الخطيرات. صحيح أنّني عانس شمطاء ، ولكنّني أجيد الطبخ على نوعيه : اليابانيّ الذي هو على دين آبائي وأجدادي ، واللبنانيّ الذي لا يعرف دينًا ويعبد كلّ ربّ في الشرق والغرب. وأنا في الحالَين مَن يشتري من السوق ، عندي سيّارتي أتبضّع بواسطتها ، ولي بها مآرب أخرى...

ماذا؟ لا يعجبكم ذلك؟ ولكنّكم أنتم لا تعرفون السوق ، وإذا عرفتم السوق لا تعرفون اللغة. خير لكم إذًا أن تسلّموا إليّ تسليمًا. وحذارِ! فأيّ تشكيك في أمانتي حريّ بأن ينقلني إلى وظيفتي الثانية : النفخ. وأنا أجيده كالطبخ وأحسن. أنفخ لكم في الطعام إفسادًا ، وفي الخدم ائتمارًا ، وفي البيت تشويشًا ، وفي أقفيتكم ضحكًا ولعنات. وفي هذا المجال إيّاكم

* صن تلحق بأسماء الأشخاص ذكورًا وإناثًا ومعناها السيّد والسيّدة معًا.

وقفـاي! فـإذا كنت لا أفهم لغتكم البربريّة – تتحدّثون بها كلّما أردتم أن لا نفهمكم – فاعلموا أنّي أسهم منها بالمقدار الذي يكفيني إن خطر لكم الهمس بشيء إلى بني قومكم حول سحنتي.

ويلوح أنّ سحنتي هذه لم ترقكم منذ البداية، فأنتم تنظرون إليّ شزرًا. النظر الشزر، يا سيّدي، خِلقتنا وامتيازنا على العالمين. اليابان من حيث هي – ألا تراها على الخريطة؟ – عين ترمقكم بازورار. ولكن هذا شرح يطول. دعني الآن أستكمل شروطي.

أدنُ، يا بيلي، وسلّم على سعادة السفير.

عجبًا! أرى أنّكم لا تحبّون الكلاب.

ولكن لا داعي لإظهار عواطفكم، أنا أكفي بيلي في هذا المجال وهو يكفيني... وليكن معلومًا لديكم أنّ بيلي مثلي من مؤسّسي السفارة وأعمدتها السبعة. ولا أنا ولا هو نأكل من بقايا مائدتكم. لكم طعامكم ولنا طعامنا. وأنا موكّلة به قبل أن أكون موكّلة بكم، أرعى مأكله ومشربه، وأسهر على منامه ومزاجه، وأرافقه في نزهاته. وأجل، أنا تحت أمركم ورهن إشارتكم في أيّ ساعة من ساعات النهار والليل، إلّا أن أكون مع بيلي لشأن من شؤونه.

شؤون بيلي؟ تعـذرونني، يا سيّـدي، إذا صارحتكم بالأهمّ منها. بيلي ذو شهرة في الأوساط الدبلوماسيّة في طوكيو، اكتسبها لأصله النبيل وشكله الجميل ولطفه. وستنتهي، يا سعادة السفير، كما انتهى الجميع إلى الانحناء له ومداعبته. أؤكّد لك أنّه لا يؤذي، أنا وحدي من يؤذي عند اللزوم... ولكن ليس هذا ما أريد أن أقوله. سيأتيكم غدًا السفير الفلانيّ أو زوجته فيعجبه أو يعجبها بيلي. بصريح العبارة سيطلبون منكم نسلًا منه. بيلي له شجرة عائلة، من الجدّ الأعلى إلى الحفيد الأدنى، أحفظها عندي في سجلّ خاصّ، فالطامحة إلى الإنجاب منه لا يمكن أن تكون إلّا من طبقته. وغدًا ستعود إليكم فلانة زوجة السفير الفلانيّ – وهي تملك كلبة ابنة كلب لا أحد يعرف أصله من فصله – وتكرّر عليكم العرض الذي سبق لها أن عرضته على سلفكم، فأرجو منكم أن تبلغوها للمرّة الأخيرة أنّ بيلي يعتذر.

تعالَ الآن، يا بيلي، وافسح المجال لسواك.

٢ – أنا **تاكانوصن**. (ينحني ثلاثًا حتّى الأرض)

أنا عبدكم المطيع الكاتب رقم ١ في السفارة. لا تؤاخذوني إذا لم أقف لكم أو أحيّكم أو ألتفت إليكم إذا دخلتم عليّ في مكتبي. الواقع أنّني لا أحسّ بوجودكم لأنّني لا أعيش معكم وإن كنت أوّل القادمين إلى العمل في الصباح وآخر تاركيه في المساء. واعلموا أنّني أحتقر هذا الموظّف الذي ليس له من تاكانوصن إلّا الجسم. أمّا الروح ففي عالم آخر، هو عالم اليابان التي تتأهّب للثأر.

ولا تغرّنّكم وداعة وجهي ولا عذوبة كلامي! كلّا ولا قناع الشيخوخة الذي أعارتني إيّاه السنون. فأنا أنهض كلّ يوم في الرابعة لأكون في الخامسة على رأس «الزانـدكاي» في «السوكاكاي»*. لعلّكم تعلمون، يا سعادة السفير، أنّ اليابانيّين يتحدّرون من نسل ياماتو الإله الذي بارز سائر الآلهة فغلبهم ودانت له الأرض. وهكذا غلب اليابانيّون سائر الشعوب، ولم يعرفوا خلال ثلاثة آلاف سنة إلّا الانتصار تلو الانتصار، حتّى كان انكسارهم في الحرب المشؤومة مع الأميركيّين. الأوّل والأخير. وبعده سيعودون سيرتهم، وكلّ آتٍ قريب.

بانتظار ذلك أنا مواظب على العمل عندكم، وعلى الضحك في عبّي – كما اليابانيّ وحده يعرف أن

---

* الزاندكاي: المناقشة في الأمور العامّة ضمن حلقة محدودة من الأعضاء سواء انتموا إلى حزب سياسيّ أو طائفة دينيّة. والسوكاكاي: حزب سياسيّ يقوم على أساس من الدين البوذيّ. ولعلّه أصلب الأحزاب اليابانيّة عقيدة وأقواها شكيمة، وله مطامح عالميّة.

يضحك – كلّما رفعتم إلى حكومتكم تقريرًا عن اليابان أو أبديتم في شؤونها رأيًا... ومرّة أخرى ينحني لكم تاكانوصن بجسمه ثلاثًا، وتأذنون لروحه أن تلعنكم وسائر المتوحّشين أصحاب الأنوف الكبيرة!...

٣– أنا **متسووكاصن**. متسووكا صن. أقولها مرّتين لا لأنّكم لم تسمعوا جيّدًا، بل لأشنّف أذنيكم بالنغمة الحلوة، بالواوين الرقيقتين الناعمتين رقّة جسمي ونعومة أناملي. فاسمي لا يستقيم لفظه إلّا على الألسنة اليابانيّة أو في مناقير العصافير. لذلك أرجوكم، يا سعادة السفير، أن تكفوا نفسكم وتكفوني مؤونة مناداتي به. لكم أن تقولوا لي مدموازيل أو مس أزاكي – اسم عائلتي – وأنا لي، كما ترون، كأيّ مدموازيل أو مس أوروبّيّة أو أميركيّة، ثوبها الذي على الموضة مكان الكيمونو، وأنفها الدقيق مكان منخريّ اللذين جرمتهما بعمليّة تجميل، وعيناها المنفرجتان بعمليّة مماثلة بدل عينيّ المزمومتين، بانتظار عمليّة ثالثة أبدّل بها أسناني.

ترون، يا سعادة السفير، أنّني باذلة جهدي لأكون على الصورة والمثال اللذين فرضهما علينا ماك آرثر في ما فرضه بالقنبلة الذرّيّة باليمين وبالسينما باليسار، والثانية أبلغ تأثيرًا... عفوًا، يا سيّدي. أنا هنا لوظيفة مزدوجة: التلفون عن يميني والآلة الكاتبة عن يساري. على التلفون لنعم أو لا مع بعض ما يتّصل بهما من اللغة الإنكليزيّة التي لست فيها فيلسوفة. وعلى الآلة الكاتبة لأضرب رسائل السفارة، أنسخ الكلمات التي تخطّونها بيدكم الكريمة لا أخرم منها حرفًا. بل لا لزوم أن تتعبوا أنفسكم بالتحبير والتحرير. حسبكم أن تعطوني الأسماء. فإنّ ٩٩ بالمئة من هذه الرسائل المتبادلة بينكم وبين السفارات الأخرى وحتّى بينكم وبين وزارة الخارجيّة اليابانيّة تدور في الحلقة نفسها، وأنا أعرف الخطابات منها والجوابات عن ظهر قلب. عبارات مزوّقة باخت أصباغها، ونصوص محنّطة تفوح منها رائحة كانت أصلًا طيّبة ولا شكّ، ولكنّها استحالت مع الزمن عفنًا. وإذا شممتَ يومًا على ورقة من هذه الأوراق عطرًا فهو منّي، ولست أدسّه عن قصد، كُن على ثقة.

وبعد، يا سعادة السفير، لا لزوم أن تسألوني عن المدّة التي انقضت عليّ في هذه السفارة. سلفكم عيّنني مكان زميلة لي عيّنها سلفه. ولست أدري هل تحتفظون بي أم تعزلونني لتختاروا سواي كما فعل سواكم. المسألة مسألة مزاج، وأنا أعرف ذلك جيّدًا وعاذِرتكم مُسبقًا.

٤– أنا **أوتسبو صن**. أنا السائق والحاجب والبستانيّ والساعي وقاطع تذاكر السينما لسعادتكم ولأفراد العائلة الكريمة.

وأنا أجيد كلّ ذلك، وأعرف قبل كلّ شيء أن أنصب علَم لبنان خفّاقًا على مقدّم سيّارتكم، وأداعبه بأصابعي على الهواء بفخر واعتزاز يذهبان مع نظرات عينيّ إلى سعادتكم، ومع خفقات قلبي إلى علَم الشمس المشرقة.

وأنا الحاجب بالباب أُدخل من أشاء وأطرد من لا تعجبني سحنته. هذا في مكاتب السفارة طبعًا، فوظيفتي هذه لا تتناول داركم العامرة لأنّ الأمر والنهي على بابها لبيلي ولكيكوصن، وهي لا تفتح لأحد إلّا بعد استشارته. في مكاتب السفارة أنا الآمر وحدي والناهي لا أستشير إلّا وجوه القادمين. وأختار من القادمات أجملهنّ وجهًا وأرشقهنّ قامةً فأدقّ على بابكم وبدون سؤال أو جواب أنحني وأقدّم سعادتكم إليها، بعدها أقدّمها إلى سعادتكم، ثمّ أذهب لتحضير القهوة، لأنّني –نسيت–-قهوجيّ السفارة أيضًا.

وعلى سيرة القهوجيّ فأنا، كذلك، سفرجيّ عند اللزوم، أي في المآدب الكبرى التي تقيمونها سعادتكم لأمراء الأسرة الإمبراطوريّة وللسفراء زملائكم ولسائر العظماء في البلاد، أو لمن يأتيكم إليها من الخارج.

أرتدي الجاكيت البيضاء وأخدم على السفرة كأحسن ما تكون الخدمة... إلّا إذا كنتم سعادتكم أو سعادة الستّ قد أغضبتموني أو جرحتم إحساسي بكلمة أو لفتة. حينئذ أختار من بين ضيوفكم السيّدة الأنيقة، المهفهفة، الموسوسة، وأوقع عليها صحن الشورباء، مع انحناءة الاعتذار السائلة أدبًا ولطفًا وانكسارًا.

وأنا البستانيّ أعرف بالأشجار والأزهار ما لا تعرفون. قُل لسعادة الستّ أن لا تتدخّل في أمور وظيفتي هذه التي نحن أربابها في العالم. وإلّا فأنا أسقي الوردة بالشمال وأقصفها باليمين.

ولا أنسى أنّ وظيفتي الأولى السائق. فإذا كنتم على موعد رسميّ مع وزير أو سفير، وركبتم سعادتكم في سيّارتكم المرسيدس – هذه التي تتيهون بها على سيّاراتنا اليابانيّة، بانتظار أن نصنع أحسن منها لكم وللعالم – ثمّ حدث أن توقّفت السيّارة في زقاق معتم موحش بين عمود من هنا وعمود من هنا، وخشيتم أن تتأخّروا عن الموعد المضروب، فلا تضطربوا ولا تبربروا بلغتكم التي لا أفهمها. أنا أقرأ على وجه سعادتكم. إنتظروني بهدوء... ماذا؟ تشيرون بيدكم إشارة مريبة معناها أنّني لا أعجبكم؟ حذارِ! إذن يخرج من ثيابي المجاز في الآداب الذي أعلّق شهادته –طولي– على حائط بيتي، فأستغني عن السائق وبظهره الحاجب والبستانيّ والقهوجيّ والسفرجيّ، وأدعكم هنا في الطريق... ولكن لا. ها أنتم تترجّلون من السيّارة وترون بأمّ العين أنّني أنفخ دولابًا لها انفخت، وتتفضّلون بوضع يدكم إلى يدي في إعادته إلى مكانه. شكرًا. شكرًا. شكرًا. مع الانحناءات الثلاث. وهذه رابعة من زخم المطّاط!...

حاجات، بيّاع ابتسامات حلوة وكلمات هي السحر الحلال. كلّ ذلك وأنا راضٍ براتبي القليل. تتساءلون سعادتكم من أين لي هذا الثوب الأنيق، وهذه الكرافات العظيمة؟ أنا أعرف لا يعجبكم لونها الفاقع، ولا يعجبكم كذلك شذوذي عن الآخرين. فأنا، لا تؤاخذوني، على دين بني قومي في كلّ شيء مع عدا الانحناء. وأكره استجداء البخشيش وأرفضه بإباء. أنا عائش من نعمة ربّي في بحبوحة الثقة. وأريدها من فضلكم عمياء، كما أولاني إيّاها أسلافكم كابرًا عن كابر، وكما أولتني إيّاها خصوصًا صاحبات السعادة زوجاتهم.

ألقوا بين يديّ مشاكلكم، إجعلوني أمسك بطرف الخيط، وأعطوني قائمة بحاجاتكم واستريحوا. هذا الصنف غير موجود في السوق؟ أجلبه لكم من تحت الأرض. السائق لا يجيد سوق المرسيدس؟ غدًا يكون عندكم أحسن منه. السكرتيرة بطيئة في دقّ الدكتيلو؟ أعرف واحدة تدقّ في الدقيقة مئة كلمة وليس لها مثل هاتين الساقين المقوّستين. تريدون أن أتلفن لها لتأتي وترونها بنفسكم؟...

الآن تأمرون بشيء؟ سعادة الستّ أرسلت في طلبي. أرجوكم، تسمحون لي على الباب بكلمة. مختصر مفيد: أنا الدردوح الدوليّ الذي تعهدونه في كلّ سفارة، فالدنيا شطارة، وفهمكم كفاية.



٤

استغرقت مهمّتي في بلاد الشمس المشرقة خمس سنين. بلاد فريدة، وحضارة عريقة، وشعب عظيم. الشعب – وكلّ شيء منه – كيف أصفه؟ يابانيّ واحد؟ تخاله غبيًّا لانكماشه وسكوته وتدويره فيك عينيه الزيتونيّتين. يابانيّان اثنان؟ فضول واهتمام. ثلاثة يابانيّين فما فوق؟ أعجوبة.

أعني عكسنا نحن في سائر أصقاع الشرق، أدناه

٥– أنا كيمورا صن. وظيفتي لا شيء وكلّ شيء، ومعارفي لا حدود لها. أفهم الإنكليزيّة والفرنسيّة والعربيّة عند اللزوم. بالإشارة أفهم وباللفتة، وكالطير أطير. حلّال مشاكل، شرّاء

وأوسطه وأقصاه.

عندنا نحن، الأعجوبة لا تتمّ إلّا على يد واحد فرد. اثنان يعملان خناقة. ثلاثة وما فوق فضيحة.

من طوكيو ذكريات لا تُحصى.

هبوط الملك فيصل علينا ضيفًا على الميكادو ووقوفي بين يديه خطيبًا باسم رؤساء البعثات العربيّة.

زيارة أنقاض هيروشيما والآثار التي خلّفتها الضربة الجهنّميّة فيها. ويعجز القلم عن الإحاطة ببشاعة هذه الآثار. أريد أن أقول ببشاعة الإنسان الذي أحدثها، فهي باقية من بعده لتجدّف عليه مدى الأجيال. ولن تنسى اليابان هيروشيما على تعاقب أجيالها، لا لأنّها كانت الضربة القاضية التي أنزلتها بها أميركا في نهاية الحرب، بل لاختيارها اليابان، دون غيرها في تلك الحرب، لتجربة القنبلة الذرّيّة، تمامًا كما يجرّب العلماء أدويتهم الجديدة في القرود والجرذان...!

الضربة الأخرى التي نزلت على رؤوسنا، نحن سفراء الدول العربيّة، بهزيمة ١٩٦٧ أمام إسرائيل. وبين يديّ الكتاب الذي أرسلته إلى أولادي – وهم يحتفظون به حتّى اليوم – بتاريخ ٢٧ أيّار من تلك السنة. قلت فيه:

«أفكارنا كلّها في هذه الأيّام متّجهة إليكم. نعيش متابعين أخبار الأزمة التي تهدّد بالحرب في المنطقة – وربّما في العالم لا سمح الله – معتزّين كلّ الاعتزاز بالموقف المشرّف الذي تقفه الدول العربيّة، وفي مقدّمتها لبنان. وأنا أكتب إليكم هذه الرسالة على أثر اطّلاعي على الخطب والبيانات التي أُلقيت في مجلس النوّاب، واختُتمت بنشيد «كلّنا للوطن».

سبق لكم، يا أولادي، أن اجتزتم حربًا. وسبق لأبيكم وأمّكم أن عرفا حربين. ولكنّ الأمر يختلف هذه المرّة، فهو يعنينا مباشرة، ونحن مدعوّون لمواجهة تضحيات وتجارب قاسية – على الصعيدين العامّ والخاصّ – لم يسبق لنا مثلها في تاريخنا. وكلّ الدلائل تدلّ على أنّ الانفجار الذي كان يتأجّل سنة بعد سنة وشهرًا بعد شهر منذ ١٩٤٨ قد دقّت ساعته.

أقول لكم ذلك لأبصّركم بما نحن مقبلون عليه، ولأدعوكم إلى التسلّح بالشجاعة اللازمة، وتحكيم الواجب في نطاق الوطن ونطاق العائلة على السواء...».

في ٧ حزيران، كنت في مأدبة عشاء عند سفير فرنسا لويس دي غيرنغو* وكان الحديث كلّه عن الحرب العربيّة – الإسرائيليّة، فقال لي: إنّها وشيكة الانتهاء. وستنتهي بهزيمة العرب.

لم أصدّق. وبقينا أنا وزملائي العرب بعد ذلك أشهرًا أنوفنا في التراب ولا نجسر أن نظهر في الشوارع.

* * *

اليابان بلاد التقاليد.

قد يفهم الغريب، مثلًا، حفلة الشاي التي تستغرق أربع ساعات بآنية خاصّة وأدوات، وقيام وقعود وركوع، ومراسم هي من الطقوس الدينيّة.

وقد يفهم – معجبًا إلى حدّ التعجّب – حفلة الشعر، أو يوم الشعر. ينصرف اليابانيّون بملايينهم، وفي طليعتهم الإمبراطور وأفراد أسرته، إلى نظم الشعر في ذلك اليوم ويتناشدونه في مجالسهم، ليس من الضرورة أن يُنشر في كتاب أو صحيفة.

ولكنّ هذا الغريب يصعب عليه أن يفهم الهاراكيري. فالهاراكيري ليس انتحارًا بالمعنى الذي له عندنا وعند سوانا من شعوب الأرض. ليس هو علامة الانهزام، بل بالعكس علامة الانتصار. بالموت ينتصر اليابانيّ على نفسه في احتفال يشترك فيه المنتحر وأقرب المقرّبين إليه من أهله أو أصدقائه أو معاونيه. لذلك انتحر كبار قوّاد الجيش وكبار حكّام البلاد بالهاراكيري

---

* أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجيّة ومات في باريس عام ١٩٨١ منتحرًا.

على أثر الاستسلام الذي اضطرّتهم إليه القنبلة الذرّيّة. إنهزموا أمام أميركا، إذن ينتصرون على أنفسهم. ولم يكن انتحارهم يأسًا بقدر ما كان غضبًا على الإمبراطور الذي دعاهم إلى إلقاء السلاح ورفع الأيدي – هل يمكن أن يعصوا إلههم؟ – فرفعوها يمسكوا بها سلاحهم الأخير في سلسلة الهاراكيري التي حيّرت الناس بعد الحرب.

شهدت بنفسي على التلفزيون الهاراكيري كيف يكون. الكاتب والشاعر الكبير يوكيو ميشيما كان من أكثر الغاضبين على السياسة التي تتّبعها بلاده بالتعاون مع أميركا صاحبة الضربة. وكان يحتقر المسؤولين بمن فيهم الإمبراطور. يعيشون، يسرحون ويمرحون وينسلون، واليابان شمسها المشرقة تحت الأقدام!

رأيت، يا ميشيما، ملحمة انتحارك ثأرًا لشمسك المهانة. عرضوا على الملأ في التلفزيون رأسك المقطوع بعد أن أجهز عليك الصديق، ورأيت إلى جانب رأسك المقطوع سيفك العتيق تغسل بدمك صداه وتصرخ بالسياسيّين:

يا مُرائين!
أبصق عليكم أمعائي!...

٥

من زار اليابان وفاتته الحمّامات اليابانيّة فقد ذهبت زيارته في الهواء.

يُقال لها عند الجماعة «تُركيش باث» أي الحمّامات التركيّة. في البداية لم أتعرّف إلّا على العاميّ منها المبذول لكلّ من يريد. حتّى رزقني الله ميهاراصن مالك الدار التي كانت تشغلها السفارة. إبتسم ابتسامته اليابانيّة المتحيّرة بين الضحك والبكاء وقال:

– بل تعالَ معي.

وأخذني إلى الحمّامات الرفيعة الشأن، على مقربة من ميدان سباق الخيل.

تستقبلك صبيّتان بالمايو منحنيتين برأسيهما حتّى الأرض، وعينك من عنق هذه إلى عنق تلك تمجيدًا للمبدع الأعظم كيف خصّ اليابانيّات بهذه البشرة الرقيقة، الناعمة، الشفّافة، المشعّة، اللاهبة بالشرر.

تأخذ بطاقتك من سيّدة جليلة وراء الكونتوار. تجلس على مقعدك في صالون الانتظار. – بيرا؟ – ويسكي؟ – فودكا؟ – شامبانيا؟ أم تريد شرابك في الحمّام؟ السعر طبعًا مختلف، وهو في الحمّام أضعاف. تنتظر دورك. ها واحدة تطلّ، تنزل الدرج بصحبة مَن استحمّ على كفّيها العاجيّتين، تودّعه إلى الباب بانحناءة إلى الأرض – دائمًا إلى الأرض – تنكفئ إلى الكونتوار لأخذ بطاقة. جاء دورك؟ لا بل هو دور جارك. غضّة، بضّة، شهيّة، لا يهمّك. الثانية والثالثة إلخ. كلّهنّ أروع وأفتن.

أنت الآن في الحمّام – دورك بحقّ وحقيق – ولكن أحمّام هذا؟ أم قطعة من جنان الخلد؟ قاعة بستّة أمتار عرضًا، باثني عشر طولًا، يركض فيها الخيّال لو شاء أن يترك السباق. والجنّة تجري من تحتها الأنهار. بالتحديد نهران، حارّ وبارد، يلتقيان في حوض تحيط به نباتات سامقة ذات ورقات منوّعة الحجم والشكل. مع عارشات على الحيطان، وأزهار في باقتين اثنتين منسّقتين على أصول «الايكيبانا»، واحدة على طاولة الشراب قبالة الحوض، والأخرى بجانب السرير. وقزمة من الصنوبر في زاوية هناك. اليابانيّون يقزّمون الأشجار ولا سيّما الصنوبر منه. ولهم في ذلك طريقة أخذوها على الأرجح عن جيرانهم الصينيّين الذين كانوا يقزّمون أقدام نسائهم في الزمان.

ولنعُد إلى السرير. لا، لم يأتِ دور السرير بعد. اليابانيّة، في المايو دائمًا، تساعدك على خلع ثيابك. لا تزعج نفسك، هي هنا لتقوم عنك بالمهمّة. تأخذ يدك بيدها وتمتحنان الماء في الحوض – نار! – اليابانيّون يحبّون الماء حارًّا جدًّا في الاستحمام. تفتح على الحوض الماء البارد. تُنزل يدك بيدها مرّة ثانية وثالثة.

– أوكه؟

أنت الآن ربّي كما خلقتني. وهي تبتسم لك وتسألك مشيرة إلى المايو الذي تلبسه: «أخلعه أم أحتفظ به؟ الأمر لك».

تدفعك إلى الحوض وتندفع وراءك. تشهق أنت رافعًا يديك، فيما تنصرف هي إلى عملها بوقار الكاهنات. لا يخطر لك أن تمدّ يدًا أو تجازف بكلمة خارج الصحن – عفوًا خارج الحوض بعد أن تحوّل إلى هيكل – وتمرّ بكفّيها عليك مع الليفة. على ظهرك وبطنك وفخذيك. وبدون الليفة على الأجزاء الحميمة رفعًا وخفضًا وعصرًا. كلّ ذاك برفق لا تعرفه إلّا الأمّهات في تحميم أطفالهنّ.

بعد الاستحمام يأتي دور التدليك. وصلنا إلى السرير. تُضجعك على البطن وتعلو ظهرك، ثمّ تقلّبك على الظهر فالجنب اليمين فاليسار. وفي كلّ وضع تمنعك من الحركة، من الكلام، تملي عليك كيف تتنفّس، وبأناملها البرعميّة تتلمّس مواطن من جسدك – بعيدة كلّ البعد عن مظانّك – فإذا أنت تذوب ذوبانًا حلوًا، حلوًا، حلوًا، ويتقطّر كيانك كلّه تقطّر الندى، في نشوة هي نشوة المتصوّفين في لحظات انخطافهم.

تفيق، فإذا هي قد غادرتك إلى خزانتها، تفتحتها وتختار: هذا «البوكاتا»* ؟ بل ذاك. مع غمزة إليك: ما تفضّل أنت؟ وتتناوله بغنج، تفرده بحنان، تنعطف له بحبّ، تُدخل ذراعيها في كمّيه الواسعين يمينًا فيسارًا. حرير بألوان قوس قزح يغطّي عريها من الكتفين إلى القدمين. تتناول زنّاره فتُثبت طرفه بيد، وبالأخرى تلفّه دائرة على نفسها مرّتين، ثلاثًا، أربعًا، والمرايا على الجدران تعكسها جوقة من الحوريّات الراقصات المرفرفات. ثمّ تدنو منك بابتسامة فيها كلّ إغراء المرأة وكلّ كيدها، فكيف إذا كانت يابانيّة؟ تأخذك من ذراعك إلى مائدة الشراب.

* قميص فضفاض يُلبس في البيت.

فإذا كنت لم تشرب في الصالون، أو تحبّ الاستزادة وجيبك عامر، فلا يفتك الجلوس إلى مائدة «اللاكِه»، الواطئة، الأليفة، بإزاء المزهريّة الرشيقة – فيها وردتان فقط مع عِرق أخضر يجمع بينهما – أمّا هي فتجثو على «التامي»* ، لا يبين منها إلّا قدماها الحافيتان، ويدان تطلّان بحياء من كمّي البوكاتا، تصبّ بهما لك الشراب متطاولة إليك بعينين تقولان:

– أنت الأمير وأنا جاريتك.

تشرب أنت مريئًا. تكرع هي هنيئًا. كأسين لها بكأس منك.

– نفتح قنّينة ثانية؟

يُلحّ بك الشوق... ولكنّ الدوار يأخذ برأسك. وهي تنهض، تدفعك بيديها الاثنتين – بلطف الفولاذ هذه المرّة – فقد مضت ساعتك. ستّون دقيقة لا تقبل السهو ولا الغلط.

تنتر البوكاتا عنها نترة واحدة لتبقى في المايو. ترافقك بكلّ احترام نزولًا على الدرج حتّى الباب. وتعيدك إلى دنياك.

٦

اِنصرفت في ١٩٦٨ إلى التأليف. كانت الحركة الطلّابية التي قامت في بيروت في ذلك الوقت تهدّد بالتحوّل إلى ثورة، وكنت أتتبّع أخبارها يومًا بعد يوم بواسطة الصحف والإذاعات. ومنها، أي من تلك الحركة، انطلقت في كتابة «طواحين بيروت». ولعلّ بُعدي هو الذي أتاح لي أن أرى الأمور كما هي وأستكشف مراميها في رواية اتّفق النقّاد على أنّي توقّعت فيها ما حصل في حرب السنتين وما تلاها من أحداث.

بعد فراغي من كتابة «طواحين بيروت» – ١٩٦٩ – تلكّأت في دفعها إلى الطبع وجمّدتها في

* الحصير. ويفرشونه في اليابان بدل السجّاد.

دُرج من مكتبي ، لخشيتي إذا ظهرت للناس أن تؤثّر على وظيفتي : فأنا موظّف ، والموظّف مطالَب بالدفاع عن دولته . فكيف إذا كان سفيرًا يمثّلها وينطق باسمها واسم رئيسها . وأنا في روايتي أضع المسؤولين كبيرهم والصغير في قفص الاتّهام وأصدر عليهم الأحكام ...

حتّى كان ذات يوم ، بعد أربع سنوات ، دعوت فيه العائلة – زوجتي وأولادي الأربعة – إلى اجتماع للتداول في الأمر واتّخاذ قرار فيه : إمّا أن تُنشر «الطواحين» فورًا ما دام الوقت وقتها ، وإمّا أن تبقى في الدُرج إلى ما بعد خروجي من الوظيفة بالتقاعد.

– وماذا تخشى إذا نشرتها اليوم؟

– مصادرتها من قبل الحكومة ، وإقالتي من منصبي ، وإحالتي إلى مجلس التأديب . وهو أقلّ ما يجب ...

قالوا بالصوت الواحد :

– بل تدفعها إلى الطبع من غد. يهمّنا منك الكاتب ، وليفعلوا بالسفير ما شاؤوا.

ظهرت «طواحين بيروت» في ١٩٧٣ ، وأنا سفير في روما . وجاءتني الأخبار أنّ المسؤولين همّوا بما كنت أخشاه فقيل لهم : خير لكم السكوت ، وإلّا انقلبت عليكم الفضيحة فضيحتين ، وخدمتم الكاتب أحسن خدمة.

* * *

ولنعُد إلى طوكيو. إلى الطحن.

كنت أنحني على الكتابة كلّ يوم ، وألزمها حتّى منتصف الليل. وفيما أنا منهمك في ذلك إذ أتاني من ابنتي سامية . أرملة المرحوم روجه تونتجي ، ديوانها بالفرنسيّة «الحضور المتعدّد» Multiples Présences ومعه رسالة غاضبة. فالديوان حافل بالأخطاء المطبعيّة ، وقد صحّحتْها بالقلم . ولكنّها ترجو أن يلاقي عند أبيها استحسانًا.

فأوقفت دوران «الطواحين» وانعطفت إلى الديوان باثنتين :

الأولى : بحثت عن أحسن مطبعة للفرنسيّة في طوكيو وطبعته مجدّدًا طبعًا أنيقًا على ورق شاموا ، مع خمسين نسخة منه على ورق الأرزّ الفاخر «نيشي أو إيشي» المعروف في اليابان فقط . وأرسلت الديوان إليها هديّة مفاجئة على عيد ميلادها . فلمّا فتحت الصندوق في بيروت لم تصدّق عينيها وظنّت أنّها في حلم.

الثانية : ترجمت قصائد الديوان كلّها إلى العربيّة وأرسلتها إليها بخطّي على دفتر جميل ، مع كاسيت سجّلت عليها بصوتي بعض تلك القصائد.

الكاسيت لا تزال محفوظة عندها . أمّا الدفتر حاوي الترجمة ، وقد مزجت فيها أنفاسي بأنفاسها ، فأين هو يا سامية؟

وكيف ضاع؟...

إلى ابنتي الشاعرة

كلماتُكِ يا شاعرة دَحَواتٌ تُقلقُ سكونَ الغدران
تُعلِّمُها الارتعاش

كلماتُكِ يا شاعرة قواريرُ مختَّمة على شَهَقاتِها
قناديلُ معلَّقة بقناطرِ الانتظار
مناديلُ ملوِّحة للمراكبِ الرائحة

كلماتُكِ يا شاعرة فراشاتٌ منفَّرة مرتدَّة من سياجٍ
لسياج
منتَّفة الأجنحة

كيف يغيمُ وجهُ الحبيب
وتموتُ في مطارحِها الأشواق
ما ثأرُ العاصفةِ على أعشاشِ العصافير
لِمَ لا تُطلق المدافعُ أقمارًا
وتتكوَّرُ الجراحُ قُبُلات
لماذا تمحو الأيّام خُطانا على الدروب
وكيف ترضى الشموسُ بانطفاء عيونِنا

كلماتُكِ يا شاعرة سكاكين
تُجرِّحُ السماء!

طوكيو - ١٩٦٨

على ضفاف بحيرة الشمس والقمر

١

نسيت. ينبغي أن أعود بعض الشيء إلى الوراء. إلى السنة السابقة أي ١٩٦٧. فبعد وصولي إلى اليابان ببضعة أشهر قالت حكومتي: ما دمنا قد وصلنا إلى اليابان فكيف لا نعرّج على الصين؟

وإذا فاتتنا صين البرّ – وفاتت أسيادها قبلنا – فلا بأس أن نلحق بصين البحر: الصين الوطنيّة أو الجمهوريّة الصينيّة، فرموزا أو تايوان. تعدّدت الأسماء، فاختر منها ما تشاء.

الحكمة في ذلك سياسيّة طبعًا، هي اللحاق بنظام الحكم. وهي في الوقت نفسه تقليديّة مكرّسة. فأنا طول عمري لم أسمع باليابان إلّا مقرونة بالصين. بناء عليه لم تلبث حكومتي أن أتبعتني بمرسوم عيّنتني به سفيرًا لدى شان كاي شك بالإضافة إلى سفارتي لدى هيروهيتو. وهكذا اجتمع لي من الشرق الأقصى – ومن المجد الأقصى – الطرفان.

كان عليّ أن أقفز قفزة إلى تايبه فأقدّم أوراق اعتمادي وأعود على الأثر إلى طوكيو حيث سفارتي المقيمة. أمّا سفارة تايبه فعبارة عن رمز وإثبات وجود. مشوار، وكفى الله المؤمنين، المجاهدين ضدّ الشيوعيّة، القتال.

على أنّه مشوار من العمر.

بعد أخذ وردّ، وتبادل المذكّرات بين السفارة اللبنانيّة والسفارة الصينيّة في العاصمة اليابانيّة، تمّ الرضا والاتّفاق أن أسافر إلى تايبه في ٢٢ شباط ١٩٦٧ على أن تجري حفلة تقديم الأوراق خلال أسبوع.

وقبل أن أسافر تلطّف السفير الصينيّ فسألني عن اسم الفندق الذي أحبّ النزول فيه، ووضع تحت نظري لائحة بأسماء الفنادق في تايبه، فوضعت إصبعي على «الأمباسادور» لظنّي أنّه حفر وتنزيل. ولكنّي لم أطأ تايوان حتّى أخبرني زميلي الأستاذ أنور النشاشيبيّ سفير الأردنّ – من جملة أخباره الحلوة – أنّ في المدينة فندقًا اسمه «فندق الغمامة البيضاء». ويقينًا لو كان اسمه على اللائحة لاخترته، ولما تعلّق قلبي بسواه، لغلبة الكرويّات الشعريّة في دمي على الكرويّات الدبلوماسيّة. وستظلّ الغصّة تزحمني كلّما ذكرته.

كان الجماعة قد أبلغوني بالصينيّ الفصيح أنّ المراسم التي ترافق تقديم أوراق الاعتماد في جمهوريّتهم لا تعلو عليها مراسم، وأكّد لي الزملاء الذين سبقوني هذا القول: اِستعدّ! أعلام الدولتين خفّاقة عن الجانبين، وحرس شرف من مئتي جنديّ بأسلحتهم لتأدية التحيّة، فضلًا عن وقف حركة السير وعن التجهمر والهتاف والتصفيق، وعن حومان كبار رجال الدولة حول الطائر النادر بانحناءاتهم وابتساماتهم.

عجبًا للناس! كلّما هزلوا في باطنهم تضخّم

ظاهرهم وتورّم. الدول في ذلك كالأفراد. والجمهوريّة الصينيّة إنّما تحيط هذه الحفلات ومثيلاتها بهذا التعظيم للتدليل على صمودها. ذرّ رماد في عيون العالم، وحصرمة في عين شقيقتها الكبرى، الحيوان الأسطوريّ المهول الرابض على البرّ، وحفنة من الملبّس للاستهلاك المحلّيّ في تايوان.

وأميركا من ورائها، تزوّدها مع الرماد والحصرم والملبّس بالدبّابات والطائرات والصواريخ، وتغذّي موازنتها، وتطعم أبناءها خبز يومهم. فالجزيرة ليست ملجأ للصينيّين أنصار شان كاي شك بقدر ما هي قاعدة ورقبة جسر لجيوش الولايات المتّحدة في حرب مقبلة تخشاها، يزحف فيها الحيوان الأسطوريّ ويكشّر عن أنياب تقطر بالسمَّين: الأصفر والأحمر.

والدول الممثّلة في تايبه ليست هناك في الغالب إكرامًا للصين الوطنيّة بل مسايرة لأميركا واستدرارًا لألطافها.

٢

على أنّ الجزيرة، كما لاح لي، ليست مأوى النظام الصينيّ السابق فقط، ولكنّها أيضًا بالنسبة للدبلوماسيّين مأوًى للعجزة ومنفى للمغضوب عليهم. هؤلاء لإبعاد شرّهم، وأولئك لتأمين جراية لهم في مركز لا يضرّ ولا ينفع.

المثال الحيّ الباقي لهذه الزمرة الأخيرة هو السيّد السند، الذي لا يجاريه أحد، السنيور خوليو دي لاراكوتشيا سفير إسبانيا وعميد السلك، وكان قد مضى عليه في تايبه لذلك الوقت أربع عشرة سنة. شيخ متهدّم، أعرج، أدرد، سائل العينين، أجمع أعضاء السلك الذين تحدّثت إليهم أنّه يمثّلهم على مثاله، ويخبط في تصرّفاته وخطاباته باسمهم بما يعيب ويُضحك. ولمّا قصدت إليه في الزيارة الأصوليّة رأى من الأصول أن ينقعني في غرفة الانتظار خمس دقائق... ستّ دقائق... سبع دقائق... فلمّا كانت الدقيقة الثامنة تذكّرت ما سمعت عنه من الزملاء المحترمين، وكان أحدهم قد زاد فأفاد أنّه لا يعرف من اللغات إلّا الإسبانيّة. فقضمت أسناني وجعلت أفتح خزائن الذاكرة على ما تعيه من لغة سرفنتس، وهو ليس بالقليل، ونويت به أمرًا.

وأخيرًا إذا بباب يُفتح ببطء، له صرير كئيب. وأطلّ السفير الخطير يرفع بسعادته رِجلًا ويخفض أخرى. فقمت إليه أعاونه على الجلوس. وبعد السلام والكلام بادرته – هكذا من الباب إلى الطاقة – بقول موليير في رواية «البخيل»:

Que diable allait-il faire dans cette galère?!

يعني: «أيّ شيطان رجيم أركبَه هذا المركب؟!

قلتها هكذا بنصّها الفرنسيّ، وباللهجة التمثيليّة ذاتها التي قلتها بها قبل أربعين سنة على مسرح المدرسة يوم عرضنا الرواية المذكورة، ولا أنسى النجاح الذي أحرزتُه على دوري فيها... ولعلمي أنّ الرجل يجهل الفرنسيّة أتبعتها بالترجمة الإسبانيّة، ودخلت معه على الأثر في مغزى وجودنا في تايبه وجدواه فقلت:

– طبعًا تأييدًا للحرّيّة.

فزاد مغتبطًا:

– ونكاية بالشيوعيّة.

حينئذ رحت – عن سابق تصوّر وتصميم – أجول في التاريخ والجغرافيا، وأستعرض مراحل الصراع بين الرأسماليّة والشيوعيّة، وأعدّ على أصابعي انتصارات هذه على تلك. ولم أكتفِ بذلك بل تجاوزته، إتقانًا لدوري، إلى الاستشهاد بتعاليم الأديان السماويّة، ثمّ انحنيت على العمّال والفلّاحين، واستنفرت المحرومين والمظلومين، ولبست قميص الملايين من صعاليك العالم، أولئك الذين كانوا حتّى الأمس لا شيء في ظلّ الرأسماليّة، وهم في ظلّ الشيوعيّة كلّ شيء. وأنا مع ذلك لا أنفكّ تلويحًا بيديّ وتهويلًا بعينيّ حتّى ملأت المكان بأشباح الثورة الحمراء، وصحت في إمّعة فرنكو:

– هؤلاء من يقدر على الوقوف بوجههم؟!

فتراجع عن مقعده وتضاءل ، واشتدّ سيلان عينيه حتّى لكأنّهما تدمعان والله رأفة بـ «ملاعين الأرض» ، أو رثاء ، على الأرجح ، لفرنكو وشان كاي شك ونفسه جميعًا في يوم الدينونة القريب! ولم أتركه إلّا وقد وافقني مئة بالمئة على أنّ الشيوعيّة ، أو الاشتراكيّة على الأقلّ ، ستعمّ العالم بوجه أو بآخر ، وأنّ أيّامنا في الجمهوريّة الصينيّة السعيدة أصبحت معدودة... وتلك ، على ما بدا لي ، الوسيلة الوحيدة لتخليص السلك الدبلوماسيّ في تايبه من عميده الذي شيّعني حتّى الشارع مودّعًا بتهذيب كامل ، والحقّ يُقال ، ولكن بساقين مشلولتين بدل الواحدة...

... بينما كنت أعود سالمًا إلى قواعدي الرأسماليّة.

٣

كان وزير الخارجيّة قد أكّد لي ، أثناء المقابلة التي تلطّف بها غداة وصولي ، أنّ حفلة تقديم أوراقي ستتمّ في أقرب وقت ، قبل آخر الأسبوع في الغالب – الجماعة مستعجلون أكثر منّي – وأنّه يرجو أن يبلغني الموعد خلال أربع وعشرين ساعة. وقبل أن أشكره على هذا الاهتمام شال بحاجبه وأردف:

– فخامة الرئيس خارج العاصمة في جولة يقوم بها على بعض المناطق. إذا استطاع أن يأتي إلينا كان به وإلّا ذهبنا إليه.

ذهبنا إليه! كيف؟ ولماذا؟ لقد نقل شان كاي شك دولته على ظهره من البرّ إلى الجزيرة ، فإلى أين يريد أن ينقلها بعد؟ سؤال اكتفيت أن أشيل له حاجبي على طريقة الوزير ، دون أن أتلفّظ به لئلّا أحرج معاليه.

كنّا في الخميس. انقضت الأربع والعشرون ساعة دون أن يتّصل بي الوزير ولا أحد من قِبله. وتلتها أربع وعشرون. أيّ بأس في ذلك؟ فلنتفرّج على المدينة ، ولنتنزّه في ضواحيها ، ولنأخذ بعض الزاد للذكريات.

الشعور الأوّل الذي يغمر من يزور تايبه آتيًا من طوكيو هو الانشراح والتنفّس ملء الرئتين بعد التزمّت والاختناق. فعاصمة تايوان أشبه ما يكون بدمشق في الزمان. الناس فيها يعيشون على مهلهم ، لا ركض ولا زحام. وبينهم وبين الحمير التي تكثر في الشوارع أُلفة ، كما أنّ بين الفريقين من ناحية ، والسيّارات والشرطة وإشارات المرور من ناحية أخرى ، طيب عِشرة ورفع كلفة. أبناء عمومتنا وخؤولتنا نحن العرب في دمشق كنّا أم في بغداد أم في بيروت. اِرمِ عقب سيكارتك على الرصيف. اِطرح قشرة الموز بين الأقدام. اُنثر الورقة في الهواء. الضوء أزرق ، أحمر ، لا فرق. بوليس يشير أو ينذر بالصفير لا تهتمّ. اِجتَز عرضًا ، اِجتَز طولًا ، يمينًا أو شمالًا لا حرَج ، وإذا طلبت الفرَج فدونك أقرب حائط.

وأكثر ما يلفت النظر في تايبه «التاكسي موتورجل» كما يدعوه الزميل النشاشيبيّ. مئات من العربات أو الدرّاجات الهوائيّة المثلّثة الدواليب يمتطيها في المقدّمة سائق عتلّ ، ذو ساقين عاريتين مجدولتين يدير بهما الدوّاستين بقوّة خمسين حصانًا ، وفي مؤخّرتها خيمة من قماش تهلهل وضاع لونه ، تتّسع لعجوز وزوجها من السيّاح الأميركيّين ، ولعائلة كاملة من الصينيّين. شيء مخضرم بين «البوس بوس» الذي كان يجرّه الإنسان وما تزال منه بقايا رمزيّة في هونغ كونغ وبين الكاديلاك الذي يتربّع عليه شان كاي شك.

ووجوه يطالعك بها المارّة منفرجة الأسارير ، وحرارة في الأحاديث. هنا الحيوان الناطق إنسان مثلك ولو كذب. وأنت محمول عفوًا على مقارنته بأخيه في طوكيو. فاليابانيّ قد يكون إلهًا وقد يكون شيطانًا ، ولكنّ المؤكّد أنّه ليس بشرًا. وهو يحتقر الكذب ، متجاوزًا إيّاه ، لأنّ الكذب من طين مائع وهو من فولاذ قاطع.

في الصباح نزهات رائقة بين التلال الخضراء على كتف المدينة ، وفي العشيّات ذرع للأرصفة حول الفندق. ولكن كيف التخلّص عند كلّ مفرق من جيش المصطادين في الماء العكر؟ هم هم تحت كلّ سماء في الشرق والغرب ، أصحاب المشية المريبة ، والعين الواحدة غالبًا ، والعشرة الألسنة دائمًا وأبدًا ، يعرضون عليك بضاعة الحبّ أشكالًا وألوانًا : بارات ليليّة ، وحمّامات تركيّة ، ومشاهد سينمائيّة...

* * *

انقضى اليوم الرابع ونحن حيث نحن. وقبل ظهر اليوم الخامس ، الاثنين ، تلفن لي مدير البروتوكول في وزارة الخارجيّة ، السيّد كن صن شا ، ليبلغني أسفه قال :

– نحن وراء فخامة الرئيس من منطقة إلى منطقة نسعى إلى كمشه (كذا) في مكان ما. والراجح أنّنا سنذهب إليه.

وبانتظار يوم ، أو يومين على أبعد حدّ ، اقترح عليّ زيارة المتحف الوطنيّ بعد الظهر – عظيم! وفي اليوم التالي زيارة القصر الذي تمّ بناؤه على أكمة بالقرب من المدينة تذكارًا للزعيم صن يات صن – رائع! وفي الثالث اتّفق معي على مأدبة يقيمها لي ، بصورة خاصّة ، في فندق يُشرف على «جسر العاشقَين السماويَّين» كما قال ، ويدعو إليها كبار موظّفي الخارجيّة – دائمًا بصورة خاصّة – وبعض رؤساء البعثات الدبلوماسيّة.

لم يكن أمامي إلّا أن أشكر وأصبر. وأنا خلال ذلك أقلّب الصحف صباح مساء ، وأدير الراديو في غرفتي على كلّ محطّة وموجة ، وأجلس إلى التلفزيون في صالون الفندق ، وأسأل عباد الله : أين رئيس الجمهوريّة؟ وكيف يُعقل أن يتنقّل فخامته في أنحاء البلاد ولا أحد من الناس يعرف شيئًا عنه ، ولا الحكومة تهتمّ بأن يعرفوا؟

طلسم صينيّ تولّى أحدهم أخيرًا حلّه لي ، قال :

– المارشال شان كاي شك شيخ في الثمانين. وهو لا شكّ مريض ، طريح الفراش في العاصمة أو خارجها ، لا فرق. وقد تعوّد الجماعة هنا أن يكتموا أخبار مرضه لحكمة. فالرجل ليس رئيس جمهوريّتهم فقط ، بل هو فوق ذلك وقبل كلّ شيء زعيمهم وقائدهم ورمز نظامهم الهارب ، اللاجئ إلى الجزيرة في عرض المحيط. وهم يحرصون عليه حرصهم على ذخيرة مقدّسة.

في المأدبة التي أُقيمت على شرفي في فندق «البريزيدان» – وهو من جملة ما تملكه مدام شان كاي شك من مؤسّسات – كان لي الشرف أن أتعرّف إلى دزّينة على الأقلّ من ألوان الطعام الصينيّ ، لا والله ما ذقت في حياتي أغرب منها ولا أطيب. ومن الشرفة أطللت على «جسر العاشقَين السماويَّين» ، وهو يقوم فوق نهر صغير أشبه بساقية ، ويحاذي حديقة الفندق ويروي أنهارها. وحكى لي كن صن شا الحكاية التي كنت أتشوّق إليها ، وهيهات لي في نقلها حلاوة كلماته وإشاراته :

في أساطير الصين المتطاولة في القِدَم أنّ كوكبًا في طرف من المجرّة اسمه الراعي أحبّ كوكبة في الطرف الآخر اسمها الحائكة. وكان العاشقان السماويّان يتحرّقان على اللقاء فلا يستطيعان ، للهوّة السحقية التي تفصل بينهما. حتّى برّح بهما الشوق وأضناهما السهر. وأخيرًا أدركت العقاعقة – وهي نوع من الطيور تشبه الغربان – رأفة عليهما ، فتنادت أسرابها واصطفّ بعضها لِصق بعض حتّى صنعت من نفسها جسرًا من أقصى المجرّة إلى أقصاها ، فمشى عليه الراعي من هنا ولاقته الحائكة من هناك وتعانقا... كان ذلك في اليوم السابع من الشهر السابع من سنة الصين الفلكيّة الضائعة في أزل الأساطير.

وفي اليوم السابع من الشهر السابع من كلّ سنة

يجتمع الراعي والحائكة لقبلتهما العجيبة ، ويجتمع الملايين من الشبّان والعذارى على طواف بالشموع في المدن والبراري ابتهاجًا بهذا اللقاء وتيمّنًا. عيد يلفّ الأرض والسماء ، لا يشذّ عنه أبناء البرّ الحمر ولا أبناء الجزيرة البيض ، فهم يحتفلون به سواء بسواء.

تبارك الحبّ الذي يتجاوز الحدود ويخرق السدود.

* * *

صرنا في اليوم العاشر والجماعة يعيّنون لي كلّ يوم موعدًا ثمّ يتلفنون في آخر لحظة بالتأجيل آسفين. لقد برمتُ حقًّا بهذا الانتظار. شبعت وعودًا ونزهات ومآدب ، وانقلبت نفسي من عروض اللحم البشريّ على الأرصفة ، وفرغت من تأليف قصّة وأنا محبوس في ساعات الصباح الأولى وساعات الليل الأخيرة في غرفتي من الفندق – هي «المنارة والزورق». – وتعبت من النزول والطلوع في الأسانسور ومن تهذيب عاملته المفرط تسألني طالعًا نازلًا : كيف حالك اليوم مستر أمباسادور؟

كيف حالي اليوم يا آنستي؟ أنحس من البارح . «أيّ شيطان رجيم أركبه هذا المركب؟!» قلتها هذه المرّة مخاطبًا نفسي ولا مزاح . وما كادت الساعة تدقّ التاسعة صباحًا ، وهو موعد ابتداء العمل في الدوائر الرسميّة ، حتّى قمت إلى التلفون :

– أعطوني مدير البروتوكول .

– لم يأتِ .

– أنا فلان وأريده الساعة. أعطوني إيّاه في بيته .

وفي بيته – قبل الحمّام أو بعده لست أدري – عملت لصاحبي الصينيّ دوشًا كلّ الظنّ أنّه لن ينساه . لست أعرف ما قلت له وما كِلْتُ من جامات العتب والغضب . أقلّها : «أنتم ، يا سيّدي ، المحتاجون إلينا لا نحن . وإنّني منصرف إلى الضبّ على أمتعتي والعودة بأوّل طائرة إذا لم أتلقّ منك من الآن إلى الظهر – عندك ثلاث ساعات – موعد تقديم أوراقي غدًا . قُل لفخامة الرئيس عن لساني إنّني لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ...» .

ألف عذر يا كن صن شا ! يا أطيب مدير بروتوكول عرفته في حياتي من شرق الأرض إلى غربها ، ويا أبرع وأسرع وألمع . لقد أُخبرتُ فيما بعد أنّ الرجل ، فضلًا عن كونه مديرًا للبروتوكول ، هو المرافق الخاصّ لفخامة الرئيس ، وطيّار من أبطال الجوّ في الحرب ، ورياضيّ من الطبقة الأولى حائز على عدّة مداليّات في الركض على المسافات الطويلة والقفز على الحواجز ، وشاعر في أوقاته... ولست أدري أيّة مزاياه واختصاصاته هي التي أسعفته عليّ في تلك الساعة ، ولعلّها تنادت جميعًا ، وكلّ ما أدريه أنّ الساعة لم تبلغ العاشرة حتّى رنّ التلفون :

– هالو مستر أمباسادور. هنا كن صن شا. لديّ خبر سارّ. تقديم أوراقك غدًا في مقرّ الرئيس الريفيّ ، الساعة الرابعة بعد الظهر.

– السرور مشترك يا سيّدي. أين من فضلك؟

– على ضفاف بحيرة الشمس والقمر.

– أين هي؟ وكيف الوصول إليها؟

– شيء عظيم ! لأوّل مرّة في تاريخنا يحدث هذا . يسبقنا اليوم وزير الخارجيّة بالقطار ، وأنا آتيك في الساعة السابعة من صباح غد لنركب القطار إلى تيشون ، ومنها بالسيّارة إلى البحيرة. الكلّ ثلاث ساعات .

الطريق بالقطار بين تايبه وتيشون رائعة حقًّا . ولكنّ القطار لا يقطع أكثر من عشرين كيلومترًا في الساعة . يزفر ويطحر كقطار بيروت – دمشق . إلّا إذا كان يتمهّل عن قصد بأمر مدير البروتوكول كي أتملّى من المناظر الطبيعيّة .

هضاب خضراء ، وسهول دكناء ملساء عائمة بالماء . وعشرات من الفلّاحين ينصرفون وراء جواميسهم إلى حراثة الأرض على الطريقة البدائيّة : سكّة

الجدود ومسّاسهم. وهم لا يدَعون شبرًا من تلك الأرض، ويغتنمون الجزر القريبة من الشواطئ فيزرعون فيها الأرزّ لموسم من مواسمه ثمّ يحصدونه قبل أن يأتيها المدّ. والأرض عندهم موزّعة أملاكًا صغيرة –عائليّة– قال لي كن صن شا إنّ هذا من أعظم المشاكل التي تواجهها السلطات. فالصينيّ يحبّ أرضه، ولكلّ صينيّ أرض، وهي تصغر بالتوارث جيلًا بعد جيل، حتّى لتجد حقولًا لا يزيد الواحد منها على عشرين مترًا بعشرين.

وبيوت هؤلاء الفلّاحين – المتناثرة هنا والمتجمّعة هناك – مبنيّة في الغالب من 'الآجرّ'، حلوة، ولا شكّ أنّها هنيئة، فعلى وجوه الجميع رجالًا ونساء، شيوخًا وأطفالًا، إمارات العافية والاطمئنان. قال مرافقي:

– مشكلة هجرة الريف إلى المدينة لا نعرفها نحن. الريف عندنا أربح وأريح.

ثمّ زاد:

– الحكمة الصينيّة هي عِشرة الأرض. الساسة والفلاسفة والقادة كلّهم يعاشرون الأرض. كان رئيس الوزراء في الزمان إذا أراد الاستقالة من منصبه قال للإمبراطور: تأذن لي، يا صاحب الجلالة، أن أعود إلى حقلي.

يا لحديث كن صن شا ما أعذبه! ولكن كيف لي أن أتذوّقه، وأتلمّظه كما أشتهي، وهذا الصبيّ على ظهر أمّه في المقعد الذي أمامي لا يكفّ له صراخ، وهذا الشيخ من ورائي ما يبرح منذ ركبنا القطار يسعل ويتفل، ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات، في نوبة تكاد تقطّع شرايين صدره وتأبى أن تنقطع. وكأنّما كلّ ذلك لم يكفِ حتّى جاءت خادمات القطار بالشاي الأخضر، فكرع الشيخ كوبه مرّة واحدة، ثمّ ردّه رشاشًا على عنقي وأذنيّ وشعري ناطحًا رأسه بي، فانتفضت ولم أتمالك من الصراخ:

– «أي شيطان رجيم أركبه هذا المركب؟!»

كان مدير البروتوكول يجهل الفرنسيّة. لُطف من الله، سبحانه وتعالى، أنقذني من التورّط في مشكلة دبلوماسيّة، وأنقذ البلدَين من سحب السفراء عند ثلاثة أرباع الطريق.

٤

لا ينسى الصينيّون أنّهم أبناء السماء. إذا لم يطلعوا إليها أنزلوها إليهم. وأقلّ ما يرتضون أن يكونوا بين بين: «فندق الغمامة البيضاء»...

بعد استراحة قصيرة في تيشون ركبنا واحدة من سيّارات الرئاسة الكاديلاك ذات الطول والعرض إلى بحيرة الشمس والقمر، فوصلنا إليها بعد ساعتين. ولكن لا شمس ولا قمر ولا بحيرة. فقد كان المساء ممطرًا كئيبًا، وليس إلّا بعض الشرطة نُصّبوا على مفارق الطرق لتأدية التحيّة، فهم كالدجاجات المبلولة.

قضينا ليلتنا في فندق حديث، مهفهف، مزخرف بالتماثيل والتصاوير الصينيّة الفاقعة الألوان، وهو يشرف –كما قيل لي– على البحيرة، وقد بُني لروّادها في مواسم الاستحمام والاستجمام. ولم نكن في موسم منها على ما يظهر، فاحتللنا الفندق: كن صن شا وزوجته في شقّة، وأنا وسعادتي في شقّة. ونمت كالقتيل.

مع الفجر صحوت وخرجت إلى الشرفة فلم أرَ شيئًا. وعبثًا كان عصفور يزغرد بأعلى صوته، على أعلى غصن في شجرة قريبة، داعيًا الشمس إلى النهوض. فقد كانت ملتحفة بالضباب يغطّيها ويغطّي البحيرة وما حواليها. ولعلّ القمر كان يستأخرها لقبلة، أو لعلّها نؤوم الضحى ككلّ عشيقة. وبيان ذلك، أي حكاية العرس بين الشمس والقمر، سيأتيك على فم مدير البروتوكول بعد قليل عندما نقوم بنزهتنا في البحيرة. أمّا الآن فينبغي لنا أن نستعجل، ففخامة الرئيس وكبار رجال الدولة في انتظارنا لحفلة تقديم

أوراق الاعتماد.

لا حرس، ولا سلامات «سنكي طق»، ولا لباس رسميّ. خاي! أيّ نعمة هذه التي تهبط عليّ من سماء أبناء السماء! ولكنّ كن صن شا رأى من واجبه بصفته مدير بروتوكول أن يعتذر إليّ عن ذلك، ونسي، عافاه الله، صفة أخرى لنا عظيمة. فقاطعته بقولي:

– على بحيرة الشمس والقمر، يا شاعري، تُقدَّم أوراق الاعتماد قصائد. وأنا لها.

من لا يعرف شان كاي شك وملحمته؟ إذا كان هناك من لا يعرف فليسأل الذي يعرف. اِستقبلني مالئ الدنيا وشاغل الناس بلباس الميدان. فالحرب ما تزال قائمة. وبالرغم من الشيخوخة والمتاعب فقامته منتصبة كالبامبو، ووجهه طريء كوجه الطفل، وعيناه تشعّان بالحياة. إلى عذوبة في اللفتة والحركة والكلمة جميعًا، تخالطها نقاهة، على آخرها، من الوعكة التي ألزمته السرير أيّامًا فلم تزده إلّا رقّة ولطفًا. وبعد أن قدّمت أوراقي إليه في تلك القاعة العارية المواجهة للصالون مدّ يده فصافحني بحرارة. ثمّ انتقلنا إلى الصالون، ومعنا وزير الخارجيّة والترجمان، لكأس الشمبانيا التقليديّة وبعض الحديث.

جال المارشال شان كاي شك في شؤون الشرق الأوسط وفي شؤوننا العربيّة خاصّة جولة العارف المتتبّع، وأبرز الدور العظيم الذي يمكن أن تقوم به الأديان السماويّة في محاربة المبادئ الهدّامة، وأبدى إعجابه بالتجربة اللبنانيّة الفذّة التي يعدّها قدوة ومثالًا، وبما يؤدّيه لبنان بثقافته وحياده من رسالة داخل الجامعة العربيّة وخارجها. ولم يتركني إلّا بعد أن تفضّل فأبلغني أنّني ضيفه لنهاري. نزهة في البحيرة على يخته الخاصّ، فغداء مع فخامته ومدام شان كاي شك، فاستراحة في جناح ضيوف الشرف من القصر، وقيلولة عند اللزوم.

يقوم القصر على هضبة يمتدّ سفح منها إلى الوادي وينحدر سفح إلى ضفّة البحيرة. الأوّل فيه متنزّهات خاصّة بالرئيس وأسرته، والآخر عبارة عن حديقة مدرّجة اسمها حديقة الدُرّاق والإجّاص، فريدة من نوعها في العالم، ولا شكّ، لأنّ الثمر فيها رؤوس بشر! وسيأتيك الخبر.

في وسط هذه الحديقة العجيبة بناية ضخمة أشبه بفندق، وقد توزّع فيها عشرات من الرجال، بعضهم بلحى طويلة، يتمشّون ذهابًا وإيابًا أو يقرأون على مقاعد تحت الأشجار. لا نساء ولا أطفال. وكان علينا في النزول إلى البحيرة أن نمرّ بالبناية المذكورة، فلفتني عند بابها نُصُب يحمل كتابة صينيّة، فسألت كن صن شا فترجمها لي وشرح:

النُصُب مرفوع للفيلسوفين الصينيّين ليبو وتوفو اللذين عاشا في القرن العاشر عهد سلالة تان. وكانا من مدينتين مختلفتين. وقد دعاهما يومًا صديق للطرفين فاجتمعا للمرّة الأولى في حديقة بيته، وهي مزروعة دُرّاقًا وإجّاصًا. وكان كلّ من توفو وليبو معلّمًا وشاعرًا كما ينبغي لكلّ فيلسوف في الصين. فقطف ليبو دُرّاقة، وقطف توفو إجّاصة، ورفع كلّ منهما الثمرة إلى فمه.

قال مرافقي الظريف:

– التاريخ لا يقول هل حدث ذلك قبل أن يأكلا الدُرّاقة والإجّاصة أو بعد أن ذاقاهما، ولكنّه يقول إنّهما نطقا معًا بقولهما: «تربية البشر خير من تربية الشجر». ومنذ ذلك الوقت اعتاد معلّمو المدارس أن يتبادلوا التحيّة إذا تلاقوا بقول أحدهم: كيف دُرّاقاتك؟ فيجيبه الآخر: وكيف إجّاصاتك؟ يعنيان تلاميذهما. والأمر جارٍ إلى اليوم.

إحياءً لذكرى هذا اللقاء العظيم أُقيم هذا النُصُب، وهذه الحديقة، وهذا الفندق الفخم. إنّه وقف على المعلّمين دون سواهم، يؤمّونه أفواجًا في العطلات للاستراحة من عناء التدريس. ويدفع المعلّم

لمدى أسبوع ، آكلًا شاربًا نائمًا ، دولارًا واحدًا فقط لا غير ، والباقي على الحكومة بأمر شان كاي شك ، وقد حرص على أن يكون الفندق إلى جانب قصره وجعله جزءًا منه ، وهو يزور نزلاءه كلّما قصد إلى البحيرة ، ويسبقهم بالتحيّة انحناء إلى الأرض ، إعزازًا للعلم وإجلالًا.

أجل ، يا شوقي : «كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا»...

... في الصين.

* * *

وأخيرًا في البحيرة – وكان الطقس قد أسعفنا فصحا – سألت الحبر الفهّامة ، والبحر العلّامة ، السيّد كن صن شا عن الشمس والقمر كيف أعارا البحيرة اسميهما. فأمسكني من كتفي بيسراه وجعل يشير بيمناه ، وأخبرني أنّ البحيرة كانت في الأصل بحيرتين ، هنا ، وهنا. واحدة بشكل الشمس والأخرى بشكل القمر وهو هلال. وكان يفصل بينهما ذراع من الأرض ، في هذا المكان بالضبط ، بعرض يتراوح بين العشرين والثلاثين مترًا. ولكنّ الحكومة – عجيب ولوع الصينيّين بالجمع بين العشّاق – رأت أن تبني سدًّا ، هناك ، على أحد أطراف إحدى البحيرتين. ولم تكد حتّى علت المياه من الجانبين فغطّت ذراع الأرض وأزيل الحاجز بين الشمس والقمر ، فتعانقا... «روحانِ خافقتانِ في جسدِ». صدق الأخطل الصغير.

على الغداء الذي تحلّقنا فيه حول مائدة مستديرة كان الحديث جلّه على لسان مدام شان كاي شك. بالإنكليزيّة من النوافذ التي أستطيع الإطلال منها في هذه اللغة – وهي ضيّقة – وبالفرنسيّة المريحة ، مع نزر يسير من الصينيّة يرشّه فخامة الرئيس كالبهار على الطعام. وأكثني من جولات مدام شان كاي شك خلال التاريخ والفنون والآداب بتحسّرها على عدم تمكّنها حتّى يومها من مشاهدة بعلبكّ ، فدعوتها إلى المهرجانات في زيارة صيفيّة ، فأشارت إلى زوجها وقالت لي :

– أُطلب لي الإذن.

ثمّ رفعت بأناملها زيتونة خضراء كبيرة بحجم الزيتون الشاميّ وأكبر ، ودعتني إلى قضم زيتونتي كما كانت تفعل ففعلت ، وكان أمام كلّ من المدعوّين زيتونة فتناولها وقضم.

هذه الزيتونة ذهبت بي إلى لبنان ، وإلى بلدان البحر الأبيض المتوسّط ، إلى حضارة الزيتون ، أقدم حضارات العالم وأزكاها طعمًا ، إلى الأخضر منه والأسود ، إلى المسبّح والمرصوص ، إلى خوابي الفخّار في بيتنا العتيق.

كان الوقت قد تقدّم ، فنهض الرئيس الشيخ والكأس في يده ونهض الجميع ، فشرب وشربوا نخب لبنان وقوفًا. فأتبعته بنخب الصين.

وعلى الأثر قادني تشريفاتيّ القصر إلى جناحي (!) الجناح المخصّص لرؤساء الدول ، فهالتني سعة الصالونات والرواقات والحمّامات ، فضلًا عن عظمة غرفة النوم. فوقفت أتأمّل في كلّ ذلك ، ثمّ دنوت كما أنا – بثيابي وحذائي – فنمت على سرير الملوك وأنا أحلم بعرزالي في بحرصاف...

٥

سَطيح : أثناء وجودنا في تايبه حدث ما لا تُحمد عقباه. فلماذا لم تذكره؟

شِقّ (متغافلًا) : لا أفهم. كلّ شيء تمّ على ما يُرام في النتيجة ، وعادت العلاقات إلى مجراها الطبيعيّ بين لبنان وتايوان.

سَطيح : الأمر أقرب من ذلك وأهمّ. أنا أعني العلاقات بيننا وبين شريكة الحياة. صفت هناك

وتعكّرت هنا. في غيابنا عن طوكيو أرادت أن تضع بعض النظام في أوراقك المبعثرة، فعثرت على قصائد لا علم لها بها موقّعة باسم «الشاعر المنسيّ». فتناولت التلفون وطلبتنا عند منتصف الليل وانهالت علينا، لأوّل مرّة، بكلام غير مباح.

شِقّ: سكتّ جنابك وفتحت جرابك ووضعت رأسك فيه.

سَطيح: طبعًا. فأنا لا شأن لي في قصائدك. وبالعلامة لوّحت بوجهك –سمعنا على التلفون عصيص الورقة في كفّها– بقصيدة «أسطورة الصدَفة» التي نشرتها، كما تذكر، في ملحق «النهار» في حينها بالتوقيع المستعار إيّاه، مع رسم طويل عريض بريشة بول غيراغوسيان، كأنّ القصيدة ليس فيها الكفاية فراح الفنّان يزيدها شرحًا وتفسيرًا بخطوطه وألوانه... ولا شأن لي بها ليس فقط لأنّي لا أنظم القصائد، بل لأنّك لم تشأ جنابك أن أمدّ يدي إلى صاحبتها –صبيّة في العشرين– أو أن أرفع إليها نظرة مريبة.

شِقّ: هذا شيء قلته لك عند نظم القصيدة وأكّدته.

سَطيح: المهمّ أنّك علّقتنا في خلاف مع شريكة الحياة فدحرجت علينا من طوكيو إلى تايبه صخرة سحقت دماغنا!

شِقّ (مطبقًا أجفانه وهازًّا برأسه): النساء! النساء! كلّهنّ نساء.

سَطيح: ما معنى هذا؟

شِقّ: معناه أنّ النساء لا يأذنّ لرجالهنّ بالتنفّس روحيًّا! قصيدتي «أسطورة الصدَفة» تنفّس روحيّ.

سَطيح: يعني حبّ في الهواء.

شِقّ: هو كما تقول. (بعد تفكير) أتذكر قصيدتي «وراء الحبّ»؟

سَطيح: ولكنّها في الطرف الآخر.

شِقّ: الطرفان يلتقيان.

سَطيح: قُل لي الآن، كيف نعود إلى طوكيو، وبأيّ وجه ندخل عتبة البيت؟

شِقّ: بقصيدة.

سَطيح: وأفدني من فضلك. القصائد الأخرى التي نظمتها قبل «أسطورة الصدَفة» وبعدها، لمن قيلت تلك القصائد؟

شِقّ: لست أذكر. لكثيرات.

سَطيح: تنتقل بالقصيدة ذاتها من فلانة إلى فلانة إلى علتانة قائلًا: هذه القصيدة لكِ. ثوب تخلعه على واحدة ثمّ تنزعه لتخلعه على أخرى.

شِقّ: ما المانع؟

سَطيح: تصوّر، رعاك الله، الأوانس والسيّدات المشار إليهنّ مجتمعات في مجلس، وأنت تدخل وتلقي فيهنّ قصيدة من هذا الطراز.

شِقّ (يضحك): مضحك.

سَطيح: ومبكٍ.

شِقّ: هو كما تقول. مضحك ومبكٍ معًا.

سَطيح: ومخجل.

شِقّ (معترضًا): أمّا هذه فلا.

سَطيح: كيف؟

شِقّ: الغزل بفلانة وفلانة وعلتانة ليس ثوبًا أخلعه عليهنّ وأنزعه كما قلت أنت. وليس هو إسوارة أو خاتمًا أو عقدًا ولا قنّينة عطر.

سَطيح: نسائي لا يتعرّفن إلى غير هذه الهدايا.

شِقّ (متابعًا): إنّه التغنّي بجمال المرأة إطلاقًا، والتوق إلى الاتّحاد بها بصرف النظر عمّن هي. وأنا أنتقل بقصيدتي إلى حيث يدعوني الجمال ويقودني التوق. ألست تردّد أنت غزلك المسطّح بالكلمات ذاتها من واحدة إلى أخرى؟... إلّا القصائد التي قلتها في شريكة الحياة.

سَطيح: وما الفارق؟

شِقّ: تلك غمست لها قلمي في الحبر. أمّا هذه فبالدم.

أقانيم

تقولُ أما أُوحي إليكَ قصيدةً
فمالكَ دوني تُرسلُ الشِعرَ في الناسِ
كوارِدِ ماءٍ فاض بالماءِ حلقُه
وعيناه من طاسٍ فَراغٍ إلى طاسِ

* * *

أُقضّي نهاري لا يغرّنْكِ أُنسُه
ولا بسماتٌ لي عبرنَ بجُلّاسي
فبينَ ضلوعي في العشيِّ وفي الضُحى
وحقِّك ما دقّت لغيرِكِ أجراسي
أردُّ إليكِ الحبَّ حبّين واحدًا
عرفتِ بتولَ الوحيِ يندى بإحساسي
وآخرَ في سرّي أُحمّلُه الذي
أعودُ به بعد الصباباتِ من ياسِ
وحبُّ الورى شيءٌ وحبُّكِ جامعٌ
شتاتًا من الأشياء شُدَّت بأمراسِ
مشى في عزيفِ الريحِ وانقضَّ صاعقًا
وعاد نسيمًا مرَّ بالوردِ والآسِ
وصفّق في الماء المُسلسِلِ واستوى
جلالًا يردُّ الطَرْفَ في الجبلِ الراسي
وفي كلِّ حبٍّ من وصالِك غصّةٌ
تذكّرني حبّي وما أنا بالناسي

* * *

مزجتُكِ بالدنيا ونفسي وخالقي
أقانيمَ مزجَ الخمرِ والماء في كاسِ
فرُبَّ جمالٍ لاحَ في الأرضِ ظلُّه
فحرّكَ أشواقي وأيقظَ وسواسي
دعوتُ له عينَيكِ أن تريا معي
وأنفاسَكِ الحرّى فتزحمَ أنفاسي
جمعتِ إليّ العهرَ للطهرِ توأمًا
فدنّستِ أقدامي وقدّستِ أدناسي

* * *

لعينَيكِ ما غنّيتُ معنى قصائدي
وعيناي والكاساتُ والخمرُ والحاسي

تايه – ١٩٦٧

٦

اِنصرفت زوجتي في طوكيو إلى هوايتين : الإيكيبانا أي تنسيق الزهور ، والسوميه أي الرسم على الطريقة اليابانيّة التقليديّة. وكانت الكثيرات من سيّدات السلك الدبلوماسيّ موزَّعات بين الفنَّين. على أنّ شريكة الحياة لم تلبث أن أُولعت بالفنّ الثاني ، فانصرفت إلى الرسم على يد أستاذة يابانيّة ، ثمّ جعلت ترسم وحدها ليلَ نهار.

ولم تصدق كلمتا ليل نهار – أي استباق الليل للنهار مع اتّصالها – صدقهما معها. تنحني في الليل على اللوحة بعد اللوحة حتّى يطلع النهار ، واجدة في ذلك غبطة ما بعدها غبطة. وقد أُجريت في طوكيو مباريات في السوميه بين سيّدات السلك ، بإشراف لجان محكّمة ، فكانت هي الفائزة فيها دائمًا.

وفي أثناء إجازة لنا في بيروت أقامت معرضًا لأعمالها هذه في «دار الفنّ والأدب» ، فأبدى الكثيرون رغبتهم في شراء بعض اللوحات. ولكنّها اعتذرت وأعلنت لهم أنّها ليست للبيع ، قالت :

– هي لأولادي تبقى عندهم وعند الأحفاد تذكارًا.

وبالفعل ، توزّعت اللوحات – وعددها نحو من أربعين – بين أفراد العائلة. وعندي منها في منزلي طائفة تزيّن جدرانه ، وأنا أتأمّلها كلّ يوم وأفكّر بالأشعّة التي أخذتها هذه اللوحات من نور عينَي الحبيبة ، وأمدّ أناملي متلمّسًا عليها آثار تلك الأنامل. باقية هي مع العطر الذي كان لها ، والذي سأحمله مع أنفاسي ما حييت.

* * *

خلال تلك الفترة سافرت إلى مانِلّا لخمسة عشر يومًا فقدّمت أوراق اعتمادي سفيرًا غير مقيم في الفيليبّين ، وإلى كامبرا عاصمة أوستراليا لمثل هذه الغاية – رحلتان صاروخيّتان لا أحتفظ عنهما بشيء يُذكر – وخلال تلك الفترة أيضًا حصلت لنا أفراح عائليّة شاملة :

١ – جاءت ابنتنا سامية إلى طوكيو ووضعت النواة الأولى للتبادل الثقافيّ بين لبنان واليابان ، فأقامت في مدرسة «الأثينيه» الفرنسيّة سلسلة حفلات ، مسرحيّة وشعريّة ، ومعرضًا لآثار بعض الرسّامين والنحّاتين اللبنانيّين منهم : پول غيراغوسيان ، إيلي كنعان ، ميشال المير ، إيفيت أشقر ، عـارف الريّس ، أسادور بزديكيان ، والإخوة بصبوص إلخ.

كانت حفلة الافتتاح برعايتي. وقد حضرها ممثّلو الدول العربيّة وفريق من السفراء الأجانب بينهم لويس دي غيرنغو سفير فرنسا. فلمّا فرغت من إلقاء كلمتي إذا به ينهض ويدنو منّي :

– أتأذن ، يا زميلي العزيز ، بإلقاء كلمة؟

وهكذا – بعد ترحيبي طبعًا – اعتلى دي غيرنغو المنبر ، وبحماسة الفرنسيّين وما عندهم من حبّ للبنان ، ألقى بدل الكلمة خطابًا رائعًا حيّا فيه هذه التظاهرة الثقافيّة ، ثمّ انعطف على لبنان تاريخًا وشعبًا ورسالة ، وأعطاه مثلًا للتعايش بين الطوائف ، داعيًا إلى الاقتداء به تحت كلّ سماء.

ولدى زيارته لبنان عام ١٩٧٨ وزيرًا للخارجيّة الفرنسيّة ، حيّيته على صفحات «الأنوار» بهذه الذكرى ، وعلّقت عليها بقولي : هذا وقت العمل بها.

٢ – نال ابننا هاني ، المهندس الكهربائيّ من الجامعـة الأميركيّـة ، شهـادة الاختصاص في الإلكترونيك من طوكيو بعد أن عمل سنة في مؤسّسة فوجيتسو. وقد وضع في نهاية عمله دراسة عن مستقبل الإلكترونيك بـاللغة الإنكليزيّة ، تولّت المؤسّسة ترجمتها إلى اليابانيّة وتوزيعها على الشركات والمهتمّين بالأمر. وفي نهاية السنة سافر إلى الولايات المتّحدة والتحق بجامعة واشنطن حيث نال بعد سنتين شهادته في إدارة الأعمال.

٣– أنهت ابنتنا جمانة دروسها الثانويّة في «الليسه الفرنسيّة» في طوكيو بفوزها في امتحانات البكالوريا بعلامة جيّد – الأولى في الدورة – وبهذه الصفة قدّم إليها السفير دي غيرنغو بيده ، خلال حفلة توزيع الشهادات ، كتابًا نفيسًا.

٤– زارنا بكرنا ربيع صاحب وكالة «تلب» للعلاقات العامّة والإعلانات ، فاتّصل بالمصانع الكبرى في طوكيو وأقام لها في الصحافة اللبنانيّة – العربيّة والفرنسيّة – حملة دعاية بعنوان : «الأسبوع اليابانيّ».

* * *

ولكنّ هذه الأشياء السارّة لم يلبث أن تلاها خبر نزل عليّ كالصاعقة. كتب إليّ أبي من لبنان أنّ أمّي دهمها عارض صاعق. قال : الحمد لله نجت من الموت ، ولكنّها أُصيبت بالشلل والخرس.

أمّي

مهداة إلى أخي إميل*

لمن تدقُّ أجراسكِ يا سيّدة المعونات
على التلّة المُشرفة على ساقية المسك
ضيعةِ أُمّي؟
خلا دربكِ يا سيّدة المعونات من ذاتِ منديل الحياء
وغابت عن أعيادكِ ذاتُ جبين الحسن
سميّتُكِ أُمّي.
ذوى الحبق على بابنا ولوى المردكوش عنقه
مات العطر واختنق الصباح
مَن يفتح لشمس جبلنا شبّاكَ البيت
مَن يملأ بالبركة معجَنَنا
ويزقّ تحت سقفنا طيورَ السرور
مَن يمسح بالشفاء جباهنا ويرسم لنا في غربتنا إلى أقاصي المعمور إشارةَ الصليب؟

قالوا يهوّنون عليّ يا أُمّي إنّكِ في الثمانين
في الستّين أنا ولا أُصدّق إلّا أنّني طفلكِ
ومع الأطفال أحفادي سأقفز درجات البيت
أصحيح أنّكِ لن تلاقيني
ولن يسبقكِ هتافُكِ باسمي
كلّا ولن يلحق؟
مات اسمي على شفتَيكِ يا أُمّي؟
ماتت الصلاة؟
إذن كيف تُقبل المواسم
ويأتي الليل بنوم الهناء؟

وقالوا
جاءت سيّدة المعونات تعودكِ فهي معلّقة فوق رأسكِ
أنا أعرف
لها وحدها بين السيّدات كنتِ تتعبّدين
وحدها سيّدتكِ شفيعة ضيعتكِ
ويعرف مار يوحنّا بحرصاف ضيعة أبي إيثاركِ لها منذ زمان
تُرى، ما يقول مار يوحنّا المعمدان
وهل يغار القدّيسون؟

ومار مطانيوس
قيّم أرزاقكِ وسادن مملكتكِ
من أيّ ضيعة هو عليه السلام؟
لم تذكري لنا ولا قصدتِ يومًا لزيارته
لم يكلّفكِ. كان يسكن في البيت.
قولي يا أُمّي
إلى من يسلّم، إذ يجدها، مفاتيحكِ الضائعة
وما نقول له إذ تعجز يدكِ عن أخذها؟

ويا أُمّي
هلّا وزّعت مفاتيحكِ على ملوك الخافقَين

* سهر أخي إميل على أمّنا تسع سنوات وقام عنّا جميعًا نحوها بواجب البنوّة فاستحقّ وحده الجزاء.

ليملأوا مثلكِ ممالكهم بالخيرات
ويُشرعوا بينها أبواب المحبّة
بالكلمة الطيّبة يحسمون الخصام
وبالابتسام
يُطلقون السلام أسرابَ حمام
في العالم.

نذرًا نذرتُ يا أُمّي
لسيّدة المعونات نذرت: حافيًا أزورها
مع الفجر قبل المصلّين وفي العتمة بعد أن ينصرفوا
وحدنا في الكنيسة مع سراج الزيت
وعلى البلاط البارد شحذته ركعاتُكِ العمر
وبكلّ حرارة قلبي...
لا باسمي – مُثقلٌ بالخطايا أنا يا أُمّي –
بل باسم الطفل الذي كنتُه
وباسم الأطفال أحفادي الذين أُطلّ من عيونهم إذ يُطلّون
وكما كنتِ تضعين في أحضانها هموم ليلكِ ومتاعب نهاركِ...

ولكن بحقّكِ يا أُمّي
ماذا كنت تقولين لها
وماذا كانت تقول لكِ مريم العذراء
أُمّ الطفل المكلّل بالنجوم؟
أشياء كانت بينكما وأشياء...
تكون المرأة أُمًّا أو لا كانت النساء!
ومثلها ومثلكِ يا أُمّي تبقى الأُمّهات عذراوات!

يا ما صنعتِ العجائب من أجلنا
واحدة سأطلب إليها من أجلكِ
ببراءتكِ أنت وإيمانكِ سأطلبها من سيّدة المعونات شفيعتكِ
سميرةِ أحلامكِ وآمالكِ
عشيرةِ الأوجاع والهموم
سميّتِكِ أمّ الطفل المكلّل بالنجوم
سأستحلفها به وأطلب وأقرع أجراس صدري
حتّى تسمع السماء!
وركضًا إلى البيت بأشواقي أرتمي في حضن أشواقكِ
وأغمر يدكِ
لن تقدري على سحبها منّي كما كنتِ تفعلين في السابق
سأغمرها يدكِ بالقبلات
سأسقيها يدكِ بالدموع
ومن روحي
أنفخُ فيها حياة جديدة

كذبت الحقيقة التي نزلت بكِ يا أُمّي
جبينكِ سيطلع مع كلّ صباح
منديلكِ قوسُ قزح فوق الضيعتَين
إشارة الصليب التي دُرتِ بها الأُفق من جهاته الأربع
تحضن الأرض
ومع السنونو العائدة التي تنتظرها شرفتنا كلّ ربيع
سيسبّح اللهَ صوتُكِ يا أُمّي
وبأحلى أسمائنا يُنادينا

يفنى الحبّ كلّه ويبقى حبّكِ يا أُمّي
أمسُه عطر مكنوز من ورود مصطبتنا
ويومُه عيد كفرحة لقائنا
وغدُه طفولة دائمة.

طوكيو– ١٩٦٨

في عاصمة الفنون

١

في خريف ١٩٧١ صدر مرسوم بنقلي إلى سفارتنا في روما. وبين أواخر مهمّتي في طوكيو وأوائل مهمّتي في روما نظمت ديوان «قوافل الزمان» أو قصائد البيتين.

عاد الشعر إليّ فجأة بين خريف ١٩٧١ وشتاء ١٩٧٢ بشكل هذه الأسهم الناريّة التي انحنيت على فتائلها أطلق في السماء، واحدة كلّ يوم، اثنتين، ثلاثًا أو أكثر. وقد أخذني منها ما كان يأخذني وأنا صغير من هوس. فلم أترك القلم – سحابة أربعة أشهر – حتّى فرغت جعبة الأسهم.

كنت قد هجرت الشعر الموزون المقفّى – إلّا لمامًا – منذ مدّة طويلة. وأنا لم أنظمه قطّ إلّا بداعٍ من حدث يطرأ ويهزّ كياني فأفرّج عن نفسي ببضعة أبيات تبقى في دفترها، أو أنشرها بتوقيع «الشاعر المنسيّ» الذي أخفيت اسمي وراءه منـذ انخراطي في السلك الدبلوماسيّ.

وكان بعض الشبّان اللبنانيّين يدرسون الرسم في معاهد روما، وربّما أقاموا فيها بعد الدراسة إقامة دائمة. وكان من بين هؤلاء حسين ماضي، فقرّبته من السفارة وفتحت له بابها وباب قلبي، أتلو عليه قصائدي وأطلب منه رسومًا أزيّن بها الديوان لدى نشره.

حسين ماضي، في سكوته وانحناءة عنقه وتلعثمه، رأس الفنّانين اللبنانيّين المعاصرين – وما أكثرهم – الذين تملأ لوحاتهم المعارض في الداخل والخارج. بيكاسو الشرق، مع التمسّك بالخيط الذي يربط الشرق والغرب. وإذا كانت التقنيّة عنده من روما فالروح من شبعا*، من لبنان وتقاليده، ومن التراث العربيّ الذي ينحني عليه في «صبح الأعشى» وفي غيره من الكتب الصفراء.

وقد رسم ماضي للديوان بضع عشرة لوحة، انطلق فيها من عنوان القصيدة، أو من كلمة فيها، وأحيانًا من حرف واحد. يلعب بهذا الحرف مدًّا وتقليصًا، طيًّا وتليينًا، وقد يكسره بضربة تحت وقع الفاجعة، وريشته غادية رائحة بين ألوانه، يغمسها في أخضر الحياة، وأزرق الفرح، وأحمر شمس تغيب، أو جرح ينزف.

وفي بيروت وضع الموسيقار وليد غلميّة سيمفونيّة خاصّة لـ «قوافل الزمان» ترجم فيها إلى لغة الألحان خفق أقدام الخائضين في الصحراء، وأسئلة عيونهم عن النجم الهادي، وعصف الرياح بالرمال والآجال. وقد ضممت إلى النسخ الممتازة من الديوان أُسطوانتين سجّلت فيهما بعض قصائده بصوتي على ألحان السيمفونيّة.

* مسقط رأس الفنّان في جنوبيّ لبنان.

تبقى «قوافل الزمان»، بقصائدها ورسومها وألحانها، وقفًا على النخبة. في الستّين – على تلك القمّة – نظمتها خلاصة عمر، وعصارة قلب. فيها الأصفى من خواطري والمقطّر من مشاعري، وفيها أخيرًا وصيّتان:

الأولى برسم البلديّات التي تسمّي الشوارع:

«تمنّيتُ لاسمي شارعًا في متاهةٍ
وراءَ حدودِ الظنِّ في الفَلَواتِ
أُرصِّعُهُ للذاهبينَ إلى الرُّؤى
وأُركِبُهُم خيلَ الرؤى كلماتي»

والثانية برسم الموت دعاءً ورجاءً:

«لا في النهارِ ولا في الليلِ أثقلَني
عبءُ النهار ومدَّ الليلُ آهاتي
لكنْ مع الفجر زُرْ يا موتُ وامضِ بنا
إلى النهايةِ في بِشْرِ البداياتِ»

٢

ولكن يا للأقدار! كان الموت يرصدني في روما على غير ما تشهّيت، وقد نجوت منه بأعجوبة.

ليل أليل بعد نهار مشحون بالاجتماعات والمذكّرات الدبلوماسيّة، نتشاور لوضعها نحن سفراء الدول العربيّة في مكتب جامعتها في روما، منفردة حينًا وجماعيّة أحيانًا، وكلّها في الاحتجاج لدى وزارة الخارجيّة الايطاليّة على اعتداآت إسرائيل المتكرّرة على جنوب لبنان. وكان المتفهّم الأوّل لوجهات نظرنا هو الوزير بالذات، المرحوم ألدو مورو، الذي اغتيل فيما بعد على أيدي الإرهابيّين المعروفين بـ «الفصائل الحمراء». وكنت أعرف الرجل عن كثب، وانبسطت بيني وبينه إلفة منذ زار لبنان فرافقته، كما تقضي الأصول، طول مدّة الزيارة، وأكبرت فيه الخصال التي حملته مرّتين إلى رئاسة مجلس الوزراء، ثمّ إلى رئاسة الحزب الديمقراطيّ الكاثوليكيّ.

لا تُعدّ ولا تُحصى المقابلات مع وزير الخارجيّة الايطاليّة ومعاونيه، ولا المذكّرات التي رفعناها إلى الوزارة تنديدًا بسياسة إسرائيل. وأسجّل هنا – للتاريخ – أنّ تسعين بالمئة من أعمال سفراء لبنان في الخارج كانت من أجل القضيّة الفلسطينيّة، والباقي للقضايا ذات العلاقة المباشرة بين لبنان والدول التي نحن معتمَدون لديها. وكنا نصبّ كلّ ذلك في قناة المطالبة بحقوق الفلسطينيّين والاعتراف بدولة لهم على أرض وطنهم السليب. فيصغي إلينا ألدو مورو ويقول:

– ثقوا أنّ إيطاليا تعمل ما بإمكانها، ولكنّ الحلّ ليس في أيدينا كما تعلمون. نحن عضو في الأسرة الأوروبيّة، وفي نطاق صلاحيّاتها نبذل أقصى الجهود للتوصّل إلى إحلال السلام في الشرق الأوسط.

وفيما كان سفراء الدول العربيّة في إيطاليا يطلقون صرخاتهم، ويعضّون على جراحاتهم، كان اليهود يعملون عملهم، بما لهم من وسائل وأساليب، في الأوساط الحكوميّة والبرلمانيّة، وفي الصحافة والإذاعات. وكانت لسفاراتهم حماية عسكريّة بالأسلحة الكاملة، وليس لسفارة من سفاراتنا شرطيّ على باب. وكثرت الاعتداآت على السفارات من قِبل اليهود وغيرهم، فطلبنا حماية. وبعد مراجعات كثيرة استُجبنا إلى الطلب بشرطيّ لكلّ سفارة. ولكنّ شرطيّ سفارة لبنان، مثلاً، لم نكن نرى له وجهًا إلّا في النادر. يتمشّى أمام الدار في الشمس، ويتلطّى عند الجيران من المطر، ساعة أو ساعتين ثمّ يغيب، فنسأل عنه فيعود بعد أيّام إلى شأنه الأوّل.

حتّى كان ليل ١٦–١٧ نيسان ١٩٧٤، وكانت إسرائيل قد هاجت وماجت على أثر حادثة معالوت بحجّة أنّ الفلسطينيّين الذي ضربوا هذه القرية جاؤوا من لبنان. لا أذكر الثأر الذي قسطته إسرائيل بين الفلسطينيّين المعسكرين في الجنوب واللبنانيّين الذين يسكنون قراهم فيه. ولكنّ الذي لن أنساه أنّنا

هبينا مذعورين ، في الساعة التاسعة ليلاً ، على حجارة من الطوب تنهال على دار السفارة ، تحطّم الأبواب والشبابيك ، تبقر المقاعد والسجّاد ، وتنفذ إلى غرف نومنا متساقطة على الرؤوس. مع هرج ومرج في الشارع الذي تطلّ عليه الدار ، وعشرات من المسلّحين بالأخشاب الغليظة يدفعون بها البّوابة الرئيسيّة محاولين خلعها ، وهتافات بسقوط لبنان وموت سفيره.

اِنسللت أنا وزوجتي والخادمة – الحمد لله أنّ الأولاد كانوا غائبين – إلى الأقسام الداخليّة من الدار ، والحجارة تلاحقنا والأصوات تقترب وتعلو. وتحيّلت أسترق النظر من إحدى الكوى إلى الشارع فإذا شاحنة معبّأة بالطوب والأخشاب ، يناول راكبوها المترجّلين ، والمترجّلون يناولون الضاربين ، تمامًا كما في تفريغ البطّيخ – المقصود في النتيجة فلق رؤوسنا كرؤوس البطّيخ – وقد شبّت النار في حديقة السفارة ، وخلع المهاجمون البوّابة وهم الآن على باب الدار يحطّمونه بالمطارق.

بادرت التلفون فإذا هو مقطوع. ولكنّ لي خطًّا آخر – شخصيًّا – في غرفتي أرجو أن يكون الجماعة لم يهتدوا إليه :

– آلو! آلو! آلو!

أخبرت الشرطة أوّلًا ، فعاونيّ ثانيًا ، فبعض الزملاء العرب ثالثًا ، ونحن ننتظر الموت بين لحظة وأخرى.

كان أوّل القادمين الجنرال جورج خوري الملحق العسكريّ بالسفارة ، في بزّته الرسميّة ونياشينه ، ولكنّه كان آخر القادمين كذلك. – سائر معاونيّ اختبأوا في تنانير نسائهم – فطمّنني أنّ الشرطة وصلت معه ، وردّت المهاجمين.

على ضوء الشموع – انقطعت الكهرباء بفعل التخريب – أخذنا نطوف بأقسام الدار بين الأنقاض والزجاج المكسّر الذي كان يعكس على الجدران أخيلة مرعبة. لم يسلم من الأثاث إلّا القليل المحتمي بالزوايا. ثمّ خرجنا إلى الحديقة نطفىء النار بمعاونة الشرطة. وقد سألتهم عن رئيسهم ، أو المسؤول فيهم ، فقالوا لي إنّه ذهب لا يعلمون إلى أين في الشاحنة التي كانت تقلّ المهاجمين (!) ومن الحديقة إلى الشارع نستعرض ما كتبه الجماعة على الحيطان بالفحم من سباب وتهديد.

في الصباح تقاطر الصحافيّون والمصوّرون ، والأصدقاء والفضوليّون. تركتهم إلى زوجتي. أمّا أنا فإلى مكتب السفارة أدعو الزملاء العرب بالتلفون أنّ يوافوني إلى مكتب الجامعة لتهيئة مذكّرة مشتركة إلى وزارة الخارجيّة الإيطاليّة ، مع طلب لمقابلة مشتركة كذلك مع الوزير. وكان قد اتّضح في أثناء ذلك أن يهود روما عقدوا في المساء اجتماعًا صاخبًا في كنيسهم الكائن في وسط العاصمة ، وقرّ قرارهم في النتيجة أنّ معالوت مسؤوليّة لبنانيّة : والحكومة اللبنانيّة ممثّلها هو مع عائلته ، إذًا :

– عليهم !

السلطات الايطاليّة أسفت كلّ الأسف (!) وقالت لي وللزملاء بلسان وزير الخارجيّة : «التحقيق جار». وأحالني الوزير على معاونيه لمتابعة هذا التحقيق. فقابلت الأمين العامّ للوزارة في اليوم التالي فأطلعني على قائمة تحمل سبعة أسماء يهوديّة. قال إنّ الشرطة قبضت على أصحابها والتحقيق جارٍ. وظللت ألاحقه أسبوعًا بعد أسبوع فيكرّر عليّ لازمته حتّى يئست وطويت الصفحة...

إلى أن كان يوم فتحها رئيس الجمهوريّة الايطاليّة جيوفاني ليوني. كان ذلك بعد أن نسيت الحادث. وكان الرئيس يرعى احتفالًا بعيد جمهوريّته دُعي إليه رؤساء البعثات الدبلوماسيّة وزوجاتهم ، وقد توزّع الضيوف في الحديقة حول طاولات عليها أزهار مخنوقة بشرائط الحرير. والرئيس على منصّة عالية ، عن يمينه وزير الخارجيّة ، وعن يساره مدير البروتوكول منتصبًا

يشرف على القوم ، ويروح ويجيء هامسًا في أذن الرئيس بأسماء كبار السفراء ثمّ يدعوهم إلى شرف الصعود إلى المنصّة ومسامرة فخامته لبضع دقائق.

كان الأوّل سفير الولايات المتّحدة الأميركيّة ، والثاني سفير الاتّحاد السوفياتيّ ، والثالث سفير بريطانيا العظمى. والرابع ... ما راعني إلّا ومدير البروتوكول يبعث بمعاونه إليّ ويدعوني – قبل العشرات من السفراء الآخرين الذين هم أعظم منّي وأقدم– ثمّ يقدّمني إلى فخامة الرئيس ، والرئيس يفسح لي ويبتسم ويرحّب ويغمرني بألطافه.

بدل الثلاث أو الأربع دقائق ستّ أوسبع ، وجيوفاني ليوني لا يكلّمني إلّا عن لبنان ، وحضارة لبنان ، ومزايا لبنان الفريدة في العالم ، وكم علينا أن نحافظ عليه ليبقى منارة مشعّة بين الشرق والغرب... باقة أخرى من أزهار البلاغة ، لم يشأ محدّثي الجليل إلّا أن يخنقها بشريط الحرير ، فاعتذر من القلب عن حادث السفارة وهنّأني على نجاتي وعائلتي بالسلامة.

وفي الختام طلب أن أوصل أحسن تحيّاته وأحرّ تمنّياته إلى أخيه (كذا) صاحب الفخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة.

... من جملة التحيّات والتمنّيات التي كانت دول أوروبا ترسلها إلينا ، وهي تتفرّج على المأساة.

٣

ويزور الملك فيصل آل سعود روما ، ويُجمع الرأي بين سفراء العرب ، مرّة أخرى ، على أن أكون الناطق باسمهم في الترحيب بجلالته.

رأيت فيصل عهد كان وزيرًا للخارجيّة لدى مروره يومًا في بيروت خلال الأربعينات ، وكنت ما أزال في الصحافة ، فتحلّقنا حواليه مساء ذلك اليوم نطرح عليه الأسئلة في شؤون الساعة. فراعني منه تلك القامة المديدة النحيلة مع رأس طائر إلّا أنّه صقر ، على اصفرار في خدّيه ونظرات فيها من نظرات الصقر إذا كان يشكو نعاسًا. أيغفي في حلم؟ – الطيور بما فيها العصافير والصقور لها أحلامها – ولبثت معجبًا بهذا البدوي يردّ علينا بأناقة اللوردات مع البساطة التي كانت له ، والهدوء الذي لم يفارقه فيما بعد حتّى في أشدّ الأزمات وأخطرها.

ولقيته بعد ذلك في طوكيو ملكًا ينزل ضيفًا على الميكادو عهد كنت سفيرًا فيها ، فجعلت أقابل بين ملك اليوم وأمير الأمس ، فإذا المارد هو هو ، مع وقار ازداد مع السنين والسلطان. ولكنّ عينَي الصقر قد شابهما ما هو أبعد ممّا رأيته فيهما للمرّة الأولى. غمامة تخفي حزنًا كبيرًا ، بل جرحًا عميقًا يطلّ هنا وههنا من طرف الحدقتين. ولا عجب ، فقد كانت الزيارة على أثر هزيمة ١٩٦٧ ، وفينا جميعًا كانت تسيل الجراح.

في روما كانت العينان قد استعادتا عزم الصقر ، والصفرة في الوجه تغطّيها غلالة نسْجها عجيب ولونها أعجب. أيريد جلالته أن يبتسم أم أن يدمع؟ أمّا أن يضحك فلا ، ولعلّه يناجي ربّه في انخطاف المصلّين.

وفي روما ، كما في طوكيو من قبل ، امتدّ حديث الملك فيصل فتناول قضايانا كلّها وتركّز همّه على أخطار الشيوعيّة ، السياسيّة والاجتماعيّة على السواء ، عاطفًا دائمًا على تعاليم الدين ومستشهدًا بالآيات القرآنيّة. يزيده تأثيرًا فينا ما نعرفه جميعًا من تعلّقه بأهداب الشريعة ، ومن زهد بمغريات الدنيا.

وقفت في روما أخطب في الحفل.

سَطيح: هل قلت فيه غير ما قلت في طوكيو من قبل؟ في طوكيو كذلك انتدبك السفراء العرب للترحيب باسمهم بجلالته وقلت فيه قصيدة استعرت فيها أبياتًا من وحي إيران ، من القصيدة التي نظمتها استعدادًا لإلقائها بين يدي الأمير

سعود ثمّ ألقيتها بين يديه ملكًا في جدّة. وها أنت اليوم تعود إلى القصيدة نفسها. من الأمير سعود وليًّا للعهد وملكًا، فإلى الملك فيصل في طوكيو وروما...

شِقّ (مع بعض الارتباك): كلّا. في طوكيو غيّرت وبدّلت، وهنا في روما تزيّدت ورصّعت. (بحنق) اُتركني ألقِ أبياتي، فجلالته والحضور كلّهم آذان وعيون.

سَطيح: في نفسك شيء تلاحق به الأسرة السعوديّة من طهران إلى جدّة إلى طوكيو إلى روما.

شِقّ: اُسكت! أنا الآن في نشوة الإنشاد، في سماء الشعر، ولا أفكّر بأرضيّات هداياك حتّى لو كانت بئرًا من آبار البترول.

سَطيح: الحقيقة....

شِقّ (مقاطعًا): لا تشوّش عليّ إلقائي. ودعني من حقيقتك. فكلّ الحقائق لا تساوي بيتًا من الشعر. الشعر وحده هو الحقيقة.

سَطيح: (ملحًّا): ما قولك في شيء لا يجرح كبرياءك؟

شِقّ (ينخز سَطيح بكوعه): بل لماذا لا تفكّر بما يداعب كبريائي وينفخ في زهوي واعتزازي؟ هل نسيت قصّة الشاعر الذي قصد بأبيات له إلى أمير عرب في الزمان؟ الأمير تحت خيمته يسند ظهره إلى عمود الخيمة، والشاعر بالباب ينشد، والأمير يطيّب له ويصفّق. حتّى إذا وصل الشاعر إلى بيت القصيد لم يعد الأمير يتمالك نفسه فجعل يدقّ رأسه بالعمود هاتفًا: «إنّي أنطح العمود من حسن هذا!»

سَطيح: أتريد مثلها من صاحب الجلالة؟ ولكن، ألا ترى إلى وقاره وهو يصغي إليك، ورأسه إلى طنافس الحرير في هذا القصر الفخم؟

شِقّ: لا أريد شيئًا. لا أريد شيئًا. إنتهت القصيدة وجلالته يمدّ إليّ بيديه الاثنتين مصافحًا. هذا يكفينا يا سَطيح.

سَطيح (من ورائه): تتكلّم باسمك عندما تريد، وباسمَينا عندما يطيب لك. إذا كان هذا يكفيك فهو لا يكفيني أنا.

ومضى سَطيح من فوره – وشِقّ وراءه هذه المرّة – إلى السفير السعوديّ، وكان صديقًا وأديبًا وظريفًا. على أنّه لم يلبث أن تلعثم في الردّ على تهانيّ الزميل فقفز سَطيح فوق ظهره وقال:

– إذا كان لا بدّ من هديّة فسيفٌ من هذه الصوارم الفرانيد التي يهديها جلالته إلى أصدقائه.

بعد أسبوع من رجوع الملك فيصل إلى الرياض تلقّيت من السفير السعوديّ حقيبة طويلة مع بطاقة من سعادته يقول فيها: «الهديّة وصلت. مبروك» الإمضاء: أخوك أحمد عبد الجبّار.

٤

في أوائل صيف ١٩٧٥ سافر ابننا هاني إلى كندا. فاجأنا بالخبر. قال بالتلفون من بيروت إلى روما:

– أكون عندكم غدًا، أودّعكم ثمّ أطير إلى مونتريال.

زارته أمّه في مونتريال مرّة، وزرته أنا حتّى اليوم خمسًا. لم أقضِ في المدينة كلّ مرّة إلّا يومًا أو يومين، والباقي – أسبوعين أو ثلاثة – في مزرعته في «نامور» Namur، إحدى ضياع الريف الحافل بالغابات والبحيرات.

المزرعة تحمل اسم البحيرة Lac des colibris أي بحيرة الكوليبري. والكوليبري صنف من العصافير الصغيرة أشبه ما يكون بالفسّيكة التي نعرفها في لبنان أو بقرد الهيش. إلّا أنّه يتميّز عنها بطيرانه الدائم ودورانه على نفسه حتّى ليستطيع التوقّف في الهواء، مع رفيف له لا ينقطع كأنّه الهليكوبتر مقزّمًا – هل اخترع الإنسان شيئًا إلّا تقليدًا للطبيعة؟

أمّا المزرعة نفسها فبحجم بحرصاف أو تكاد ، والبحيرة في وسطها تحيط بها الأشجار من كلّ نوع ملقية عليها ظلالها المتراقصة ، ولها شطّ رمليّ في جانب منها بشكل هلال ، للاستحمام في الصيف والتمتّع بالشمس.

– قطعة من الجنّة !

هكذا هتفت عندما وطأتها قدماي في المرّة الأولى. ولكنّ الغصّة أخذت بخناقي. فهاني يعبد الطبيعة منذ صغره ، وكثيرًا ما كان يطوف بالشير خلف بيتنا في بحرصاف ويجرّح وجهه ويديه وساقيه سعيدًا ، ثمّ يقف على شرفة العرزال في الكرم فيتأمّل مغيب الشمس ويهتف :

– هنا الجنّة يا أبي !

مَن جعله يترك جنّة بحرصاف إلى جنّة نامور؟

قاتل الله الشنفرى وأصحاب المعلّقات ! كلّ المسؤوليّة في رقابهم وكلّ اللعنات على قبورهم. أو بالحري على رؤوس معلّمي ذلك الوقت الذي عاد فيه هاني إلى لبنان ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، بعد طوافه مع العائلة في أنحاء العالم عهدَ كنت دبلوماسيًّا. حتّى تلك السنّ لم يتعلّم من العربيّة إلّا الألفباء وبعض الكلمات البسيطة لعدم وجود من يدرّس هذه اللغة في البلدان التي تنقّلنا فيها. فلمّا عدنا إلى لبنان أدخلته المدرسة في الصفّ الثاني ، الصفّ المناسب لمستواه بالفرنسيّة. وكان للمدرسة نظامها : لا يدخل التلميذ فيها صفًّا بالفرنسيّة وصفًّا أدنى منه بالعربيّة ، والعكس بالعكس. فكان هاني يأتيني كلّ يوم بمثل هذا :

«دعستُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحبتي
سُعَــارٌ وإِرْزيزٌ ووَجْرٌ وأفكــلُ»

أو

«وراحَ كَتَيسِ الرَّبلِ ينفضُ رأسَه
أنـاةً بـه مـن صائكٍ متحلِّبِ»

ويطلب إليّ مساعدته على الفهم والحفظ ، وأطلب منه بعدها أن يسمّع لي ويشرح. فإذا أخطأ – وكثيرًا ما كان يُخطىء – ضرب الأرض بالشنفرى وأصحابه وصرخ :

– أنا أريد أن أكون مهندسًا إلكترونيًّا. هل الشباب دكاترة في الإلكترونيك !

ثم يضرب الكتاب بالحائط.

الشنفرى وأصحابه هم المسؤولون عن نقل الجنّة من لبنان إلى كندا ، ومن بحرصاف إلى نامور في آخر الدنيا.

ولكن قبل الوصول إلى هذه الجنّة الكنديّة قضى هاني على أثر وصوله إلى مونتريال ستّة أشهر يبحث فيها عن عمل يتّفق مع مستواه العلميّ وما يطمح إليه. أخبر أمّه ، وأخبرتني فيما بعد ، أنّه كان يصلّي كلّ يوم طالبًا من الله أن يعينه على ذلك قبل أن ينفد المال الذي حمله معه من لبنان. وذات يوم علم أنّ في ضاحية المدينة مزارًا للعذراء – وهو متعبّد لها – يقوم على رابية ، وأنّ المؤمنين الذين يقصدون إلى هذه العذراء العجائبيّة يسلكون سلّمًا حجريًّا طويلاً يلفّ الرابية. فقصد إليها وصعد السلّم – مئة درجة ودرجة – على ركبتيه. فلمّا كان من غد قرأ في الصحف إعلانًا هذه ترجمته : «شركة كبرى تطلب شابًّا قادرًا على التحدّي حائزًا كذا وكذا من الشهادات». فذهب إليها ، فإذا هي شركة «كونترول داتا» أكبر شركات المعلوماتيّة بعد «الأي. بي. إم». ومردّ التحدّي المشار إليه أنّها تنشئ فرعًا جديدًا لها في مونتريال وتريد له أن يزاحم فرع زميلتها العريق فيها بالقدم. فعيّنته مسوّقًا. وقد استطاع هاني في بلد لا يعرف فيه أحدًا أن يكون في آخر السنة المسوّق رقم ١ في الشركة. ممّا خوّله الارتقاء إلى وظيفة مدير التسويق ، ولا يزال يشغلها حتّى اليوم.

جنّتك ، يا هاني ، تنتظرك. وشرفة العرزال مع طلوع كلّ شمس ومغيبها تناديك :

– متى تعود؟

٥

غادرت روما بغصّة كبيرة: لن أرعى إزاحة الستار عن تمثال جبران خليل جبران فيها.

تمثال لجبران في روما؟ – خاطر بالبال، حلم راودني وأنا أطوف بمعالم المدينة الخالدة، عاصمة الفنون، ومكرّمة أربابها سواء كانوا من إيطاليا أو من أيّ بلد تحت السماء. ففي ساحاتها العامّة وحدائقها وشوارعها ترتفع أنصاب وتماثيل وإشارات للعديد من العباقرة غربًا وشرقًا* إلى جانب ما يرتفع فيها من ذلك لعظمائها في التاريخ القديم والحديث.

وفكّرت بشيء من هذا القبيل يمثّل وجه لبنان الثقافيّ – وبين إيطاليا ولبنان من العلاقات الحضاريّة منذ فخر الدين الثاني الكبير ما ليست الثقافيّة منها بأقلّها شأنًا – فذهب فكري، أوّل ما ذهب، إلى الورقة الرابحة – أصرّ – التي لنا على رقعة العالم، جبران خليل جبران، وأنّ علينا أن نُحسن اللعب بها.

شرعت باتّصالات ومساعٍ تناولت مراجع عدّة، من وزارة الخارجيّة الإيطاليّة بشخص الوزير ألدو مورو، إلى بلديّة روما، إلى المشرفين على المتاحف، مرورًا بمركز العلاقات الثقافيّة الإيطاليّة العربيّة، فضلاً عن معارفي في أوساط الأدب والصحافة. وكنت ألتزم في هذه المراجعات، بقدر الإمكان، صفة الكاتب لا صفة السفير، تجنّبًا لزجّ حكومتي، في حالة الإخفاق، فيما ينبغي ألّا أزجّها فيه من حرج.

وكان أن حالفني التوفيق، فجاءني بتاريخ ١٩٧٢/١١/٣٠ من مركز العلاقات الثقافيّة الإيطاليّة العربيّة المذكور أنّ بلديّة روما وافقت على الفكرة، وأنّ الاهتمام منصرف إلى اختيار المكان الذي يُنصب فيه التمثال.

وبناء على اقتراح السيّد جوزبي بوري بوريني مدير المركز قابلت البروفسور كارلو بيتر انجلي المراقب العامّ للمتاحف والمعارض، وتباحثنا في الأمر. فوقع الاختيار على إقامة التمثال في الحديقة المواجهة لشارع أو بالحريّ لجادّة لبنان Viale del Libano في المنطقة الجديدة من العاصمة، المعروفة بـ «أور».

ويرجع إنشاء هذه المنطقة إلى عهد موسوليني إذ بني فيها أجنحة معرض روما الدوليّ – ومنه اسمها مؤلّفًا من الأحرف الأولى – وتحوّلت مذ ذاك إلى منطقة عمرانيّة فخمة ووسَط حكوميّ هامّ، فانتقلت إليها معظم الوزارات، وارتفعت فيها ناطحات السحاب لكبريات الشركات، وأُنشئت طائفة من المتاحف والمعارض الدائمة، وساحات الألعاب الأولمبيّة بما فيها قصر الرياضة العالميّ، مع بحيرة اصطناعيّة في وسط المنطقة وحدائق منسّقة بشكل هندسيّ بديع.

وجادّة لبنان من أجمل شوارع المنطقة وأوجهها، وهي محاذية لأوتوستراد كريستوف كولومبوس الذي يصل قلب المدينة بالبحر وجنوب إيطاليا. وقد رُؤي، كما قلت، أن يُقام تمثال جبران في الحديقة المقابلة لجادّة لبنان من ناحية وللأوتوستراد من ناحية أخرى، على ربوة تطلّ عليهما معًا ومن ورائهما على المدينة والأفق لغير حدود. نطاق مثاليّ لإبراز اسم لبنان وإيحاء جوّ جبران، فضلاً عن مزاياه السياحيّة لوقوعه في طريق الملايين القاصدين طول السنة إلى الشواطئ والمدن الأثريّة.

أمّا تحقيق الفكرة فقد تمّ الاتّفاق على أن يكون بالتعاون بين الجانبين. أي أنّ الجانب الإيطاليّ الممثّل ببلديّة روما يقدّم الأرض، والجانب اللبنانيّ يقدّم التمثال بما فيه تكاليف صنعه ونصبه.

وأثناء زيارة قام بها الأستاذ كامل الأسعد رئيس مجلس النوّاب لروما فاتحته بالأمر، فرحّب به بحماسة، وقال إنّه يأخذ على عاتقه موافقة المجلس على أيّ اعتماد يتطلّبه تنفيذ المشروع...

---

* للعرب تمثال واحد في روما هو تمثال أحمد شوقي.

خرجت من روما نهائيًّا ، ومن الوظيفة ، دون أن يتحقّق حلمي بإقامة التمثال.

هل يأتي من بعدي من يحقّقه يا تُرى؟

ولكن ، قبل ذلك ، هل لجبران تمثال في وطنه؟

٦

جبران خليل جبران ، الأصّ الذي وضعته الأقدار في يدنا ، قد جعلت منه هذه الأقدار في الوقت نفسه أسطورة.

أذكر أنّ تأثّري به كان في عهد الصبا كبيرًا. «الأجنحة المتكسّرة» ، «الأرواح المتمرّدة» ، و... «لكم لبنانكم ولي لبناني» إلخ. ما عدا «المواكب» ، فلم أحبّ فيها إلّا رسومها. وعلى صغر سنّي حينما قرأتها للمرّة الأولى (١٩٢٦) أجفلت من لغتها الركيكة ، ومن أوزانها المقلقلة ، ومن هذه الرتابة في : «أعطني الناي وغنِّ!»

كان تأثّري بميخائيل نعيمه أكبر ، وإليه كان يذهب إعجابي فوق أعضاء «الرابطة القلميّة» إطلاقًا ، في نثره وشعره على السواء. ولا سيّما في شعره. وأنا إلى اليوم ما زلت أحفظ «أوراق الخريف» عن ظهر قلب وأردّد مع تناثر أيّامي : «تناثري ، تناثري ، يا بهجة النظر!»

إلى أن أصدر جبران بالإنكليزيّة «النبيّ». تلك كانت القفزة العجيبة ، لا من لغة لم يكن جبران يملك منها إلّا القدرة على تطويع الأسلوب إلى لغة يقول العارفون إنّه يملك عبقريّتها كأحسن كتّابها فقط ، بل إلى أوج موهبته ، إلى حيث الكلمة الضالّة التي قضى حياته من قبل يبحث عنها خلال كتبه الكثيرة ، كما قال لميّ في إحدى رسائله ، حتّى وجدها أخيرًا في «النبيّ».

ومع ذلك ، مع ذلك ، كم من نبيّ ورسول تتردّد أنفاسه - وأحيانًا كلماته بالحرف - في نبيّ جبران! أيعني أنّني أعيب ذلك عليه؟ ولكنّ جبران قادر أن ينضمّ في ذلك إلى شكسبير وموليير من قبله ، وقد أخذ عليهما الكثيرون ما أنا آخذه عليه ، فأجاب كلّ منهما : «أتناول مُلكي حيث أجده». قول يصحّ على كلّ كاتب. فالأفكار مشاع ، وهي مُلك من يحسن التعبير عنها ، به يوقّع صكّ ملكيّته أمام الأجيال.

ولأعد إلى تمثال جبران.

على أثر حصولي على موافقة السلطات الإيطاليّة على إقامته جئت من روما إلى بيروت ، وعقدت في قاعة وزارة الإعلام في صيف ١٩٧٣ مؤتمرًا صحفيًّا أعلنت فيه الأمر. وكان من الطبيعيّ أن يتحلّق الصحافيّون حواليّ ويسألون ويستطردون. واحد منهم جرّني إلى المقارنة بين جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه. تهرّبت من الجواب. قلت له : نعيمه يقول ، في مكان ما يتكلّم فيه عن جبران : جبران ليس في حاجة إلى تمثال يقيمه له الناس في الساحات ما دام قد أقام لنفسه تمثالًا في قلوبهم.

تُرى ، هل التمثال الذي في قلوب الناس لنعيمه أقلّ من تمثال جبران؟

لست أدري.

ولكن الذي لا شكّ فيه أنّ الأسطورة قائمة هنا دون هناك. هل تبقى على طول أم تتبخّر مع الأيّام ، ويأخذ كلّ من جبران ونعيمه حجمه الحقيقيّ؟

المقارنة التي تهرّبت منها بالأمس لا بدّ أن أعود إليها اليوم أمام ضميري فأقول :

جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه فارسا رهان.

نعيمه يركب فرسًا لها سرج من حرير ، ولجام من فضّة ، ومهماز من ذهب ، وهو مجلٍّ في كلّ ميدان.

جبران ركب فرسًا بلا سرج ، ولا لجام ، ولا مهماز ، وطاح في البرّيّة.

٧

في ١٥ تموز ١٩٧٥ بلغت سنّ التقاعد بعد أن أمضيت في الوظيفة ٢٩ سنة طفت فيها بعلَم لبنان بلدانًا كثيرة في الشرق والغرب.

إِشتاق شقّ وسَطيح إلى الوطن. آن للسندباد أن يعود.

عودة السندباد

في صدرِ الدار
جلسَ السندبادُ يقصُّ على الوافدين عجائبَ القارّاتِ البعيدة
وأسرارَ المُحيطات
ثمّ فتح كيسَه يوزّعُ هداياه الثمينة
قواريرَ العِطر من الهند
صناديقَ الصينِ المرصّعة بالفيروز والمرجان
حُللَ اليابان من خيوطِ شمسِها المُشرقة
وعقودَ اللؤلؤِ من جِرارِ الجان.

على عتبةِ الدار
قعد السندبادُ بعد أن حمل الوفودُ دهشتَهم وذهبوا بكنوزِهم
قال السندبادُ للسندباد:
شبع سندبادُ البرِّ من الأسفار
عاد السندبادُ وملءُ فيه غُبار

تعب سندبادُ البحر من الأسفار
عاد السندبادُ بصدَفةٍ فارغة.

برصاف – ١٩٧٥

من حقل الوطن

١

كان اليوم الذي عدت فيه إلى لبنان – ١٨ تموز ١٩٧٥ – مشحونًا جوّه بالبارود، ورصاص القنص فوق الرؤوس في أحياء كثيرة من بيروت، فلم أستطع الوصول إلى منزلي في حيّ القنطاري، ولم يكن بالإمكان الإقامة فيه، فقصدت رأسًا إلى بحرصاف، عزائي أنّنا في عزّ الصيف، والعزّ كلّه في الجبل.

ذات ليلة وقفت على شرفة البيت أنظر إلى بيروت تلتهمها النيران، ويرتفع الدخان في جوّها أشكالًا من حيوانات أسطوريّة تتمطّى بأذرع كالأفاعي، وينبت لها رؤوس كالبراكين، وتنتفخ بطون كالجبال، والجبال تلد فأرًا، ما يلبث أن يكبر ويتحوّل هو الآخر إلى حيوان أغرب وأعجب وينضمّ إلى أخيه، والحيوانات تتعانق ثمّ تنفصل ثمّ تعود إلى العناق والتناسل. عرس من أعراس جهنّم تدقّ له طبولها بالمدافع وتزغرد بالصواريخ. وما هي إلّا دقائق حتّى امتدّ الدخان فغطّى ما بين الجبل والساحل وخنق الهواء، فالسماء عمياء، كأنّما القنابل والقذائف قد فقأت عيونها فلا كوكب يضيء ولا نجم يطلّ...

بلادي ! بلادي !

على رؤوسِ الجبال
ناديتُ يا بلادي
ناديتُ في الدروب
ناديتُ في البرّيّة
سألتُ في الصباح
صلّيتُ في العشيّة
صرختُ في الرياح
بلادي ! بلادي !

مَن مرّغ جبينَكِ بالتراب
يا بلادي
مَن زرع في حقولكِ الحِراب
مَن أطفأ المنائِر
وداس بالحوافِر
مَن هدّم القِباب
وشتّت الأحباب
بلادي ! بلادي !

يا موطنَ الإخاء
يا مرتعَ الحرّيّة
يا مرقدَ الهناء
يا أرضَ أجدادي
أنكركِ الأبناء
أذلّك الأعداء
ثاراتُك الحمراء
على رؤوسِ الجبال
تُنادي :
بلادي ! بلادي ! بلادي !

بحرصاف – ١٩٧٥

٢

في ١٦ تشرين الأوّل ١٩٧٥ نشرت في صدر «النهار» مقالاً ما يزال كلّ حرف فيه على ما أعتقد – بالرغم من انقضاء هذه السنوات الطويلة على الحرب – صحيحًا، وأنا أثبته فيما يلي بنصّه مع العنوان:

سيولد لنا في الآلام
لبنان جديد

«بعد عشرات وقف إطلاق النار، أصبح من الواضح أنّنا مدعوّون جميعًا، مسيحيّين ومسلمين وفلسطينيّين، إلى هدنة من نوع آخر. هدنة مع أنفسنا.

ذلك لأنّ ما يجري في لبنان لم يعد قتالاً بين فريق وفريق وإنّما هو انتحار جماعيّ.

فكلّ رصاصة أطلقها أنا المسيحيّ، أنا المسلم، أنا الفلسطينيّ، مرتدّة إلى صدري.

كلّنا القاتل والقتيل في حرب عمياء.

والهدنة التي نحن مدعوّون إليها ليس مطلوبًا لها إلقاء السلاح بقدر ما هو مطلوب لها تمزيق الأقنعة في هذا الكرنفال الجهنّميّ، لا ليعرف كلّ واحد منّا خصمه فحسب بل ليعرف نفسه.

من أنا؟ ماذا أريد؟ ماذا يُراد بي، وبنا جميعًا؟

* * *

أنا المسيحيّ في لبنان، من أنا فيه، وما لبنان بالنسبة إليّ؟

أقلّيّة أنا في هذا الشرق.

ولكن إذا كان للأقلّيّات قدَرها فقدَري أنا تحت هذه السماء مختلف جدًّا.

أنا لي أرضي. ولي تاريخي. ولي رسالتي.

فلبنان لحمي ودمي. وحرّيّتي وكرامتي. ولبنان انطلاقي الإنسانيّ والحضاريّ. يكون لبنان فأكون، وأزول بزواله، ومعنا الرسالة.

كنت فيه ومعه وله، على مختلف الأزمنة والتجارب. وسأبقى متمسّكًا به تمسّكي بروحي.

رقعته اتّسعت في التاريخ حينًا وضاقت حينًا ولكنّني بقيت أمينًا له. حتّى كانت السنة ١٩٢٠ فاستوى في حدوده الحاضرة، ولكن مع غصّة في قلبي. فقد أبى أخي في بيروت والأقضية الأربعة – وهو يشكّل فيها أكثريّة مسلمة – أن يعترف بلبنان الكبير، وظلّ متنكّرًا له حتّى السنة ١٩٤٣. إذ ذاك فقط تمّت الفرحة، لأنّ الاستقلال حقّق طموحي وطموحه معًا.

وفي الميثاق استكمل الوطن عناصره بعد حدوده، فأصبح لبنان لجميع أبنائه بعدما عاش سنين لفئة من دون فئة.

* * *

من لبنان الوطن انصرفنا كلانا، المسلم والمسيحيّ، إلى إنشاء لبنان الدولة.

ولكن إذا كانت الخطوة إلى إنشاء الوطن قد وُفّقت بفضل قادة واعين وظروف دوليّة مؤاتية، فالخطوات التي تلتها في سبيل إنشاء الدولة، خصوصًا في ممارسة سلطاتها وتوزيع خدماتها، كانت في معظمها، على مدى العهود، تعثّرًا وخبط عشواء.

مَن المسؤول عن الأخطاء المتراكمة التي أوصلتنا – في جملة ما أوصلَنا – إلى ما نحن فيه؟

كلّنا.

على أنّ حصّتي من المسؤوليّة، أنا المسيحيّ، هي الحصّة الكبرى. لا لشيء إلّا لأنّ لبنان يعني لي كلّ شيء. في حين أنّه بالنسبة إلى المسلم «وطن ارتضاه»، على حدّ قوله. وكأنّه في هذا القول يريد أن يجرّب.

كان عليّ إذًا، أنا المسيحيّ، أن أعاونه على نجاح التجربة حتّى يقتنع أنّها لخيره – سياسيًّا وعمرانيًّا، اقتصاديًّا واجتماعيًّا – كما هي لخيري. ومن الاقتناع إلى

الإيمان خطوة.

فهل عاونته من أجل ذلك بالقدر الكافي؟ هل شاركته على أساس المساواة؟

وهل عرفنا كلانا أن نماشي العصر ونخطّط للمستقبل؟

من هنا كان الغبن الذي ينادي به أخي المسلم. ومن هنا مطالبته بالمشاركة، يتحالف للوصول إليها مع الفلسطينيّ، وينتهز اليساريّ الفرصة فينزل إلى الساحة. وهكذا اتّخذت المشاركة مع تفاعل الحوادث هذا الشكل المأساويّ، وانقلبت بفعل النيّات المبيّتة لنا خارج حدودنا، والصراعات الظاهرة والخفيّة – فلسطينيّة وعربيّة ودوليّة – إلى اقتتال طائفيّ.

* * *

الواقع أنّه لم يجتمع على بلد من البلدان ما اجتمع على هذا البلد الصغير الآمن، داخلاً وخارجًا، من قوى التآمر والتهديم والشرّ. ومع ذلك ترتفع أصوات من على منابر، لها مقامها المحترم، لتؤكّد أنّ المسألة بين اللبنانيّين وحدهم، «لا أقارب ولا أباعد»، وأنّ عليهم أن يحلّوها في ما بينهم.

«إذا كنتَ لا تدري فتلكَ مصيبةٌ
وإن كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ».

من يمكنه إقناع من بمثل هذا؟ من يمكنه إقناعنا بأنّ تلك القوى الجهنّميّة وما تحرّك من أسلحة وأموال، وما تزرع من قتل ورعب وخراب وتفظيع، وما تعطّل من إرادات الوفاق الكرّة بعد الكرّة، من يقنعنا أنّها ترتكب ما ترتكبه لخلاف على شيء اسمه المشاركة؟

المشاركة؟ بأهون من هذا تُنال. وليس هذا طريقها. والخوف الكبير أن يؤدّي بنا إلى العكس.

* * *

منذ أن وقف ياسر عرفات رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة في الأمم المتّحدة حاملاً غصن الزيتون بيد والبندقيّة باليد الأخرى، وأعلن للعالم أنّه مستعدّ أن يُلقي البندقيّة ويرفع غصن الزيتون علَمًا لدولة ديموقراطيّة في فلسطين يتعايش فيها المسلم واليهوديّ والمسيحيّ على قدم المساواة، وتلاه سليمان فرنجيّه رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة باسم الدول العربيّة مقدّمًا لبنان مثالاً لهذا التعايش، منذ ذلك الحين أخذ العالم يفتح عينيه على حقائق ونيّات كانت تطمسها له الدعاية الصهيونيّة. ذلك بأنّ العرض والمثال كانا صارخَين، وقد توجّها إلى ضمير العالم فهزّاه بعنف لا يعادله إلّا عنف الهزّة التي أصابت إسرائيل في الصميم. فالفكرة قنبلة موقوتة في كيانها، وهي مع الزمن قاضية عليها. ومع أنّ مخطّط التقسيم الموضوع برسم الشرق الأوسط قديم، ولم تنفكّ إسرائيل يومًا عن العمل له، إلّا أنّها تنبّهت إلى ضرورة الضرب بسرعة لقطع الطريق على الفكرة القنبلة.

من هنا يجب النظر إلى الحوادث في لبنان. وقد حسبت إسرائيل – ومن ورائها الإمبرياليّة الضالعة معها – حساب رأسين تضربهما ضربة واحدة، أو تضرب بعضهما ببعض، فيتكسّران كالفخّار: الكيان اللبنانيّ والمقاومة الفلسطينيّة.

فهل يدرك اللبنانيّون، مسيحيّين ومسلمين، من زرع الفتنة ومن يغذّيها؟

وهل يدرك الفلسطينيّون الغاية من زجّهم في هذا المغطس الدمويّ الذي يغرقون فيه ويُغرقون معهم القضيّة من حيث هي؟

* * *

عندما يكتب التاريخ غدًا مأساة الشعب الفلسطينيّ وسيرة المقاومة الفلسطينيّة سيكتبها بدل الحبر بدمَين ممتزجَين: دم لبنان ودم فلسطين.

لم يكن لبنان ملجأ لشعب مشرّد فقط، فليس هذا غريبًا ولا كثيرًا بين شعبين شقيقين، فضلاً عن

أنّ لبنان بلد الضيف منذ القديم. ولكنّ لبنان أبو المقاومة الفلسطينيّة وأمّها.

على أرضه وُلدت. وتحت سمائه نمت وترعرعت.

في بيوته وأنديته وجامعاته نطقت بكلماتها الأولى.

على صفحات جرائده كانت منابرها، وضمن جدرانه أركزت قواعدها ومؤسّساتها.

في مناخ حرّيّاته – الفريد في المنطقة – كانت ولا تزال تتنفّس وتتحرّك.

ومن شمس هذه الحرّيّات أخذت كلّ هذا الوهج الذي لها في العالم العربيّ وفي العالم بأسره.

فضلًا عمّا يعانيه لبنان من أجلها على يد إسرائيل نهشًا لسيادته ولحوم أبنائه.

حتّى اتّحد في النتيجة المصيران: مصير لبنان ومصير المقاومة.

أجل، تعترف المقاومة لنا بذلك وتعلنه. وسيسجّل التاريخ طبعًا شهادتها بنا. لكن هل هذا فقط كلّ ما سيقوله؟

كلّا، لن يكتفي التاريخ بهذه الشهادة، لكنّه سيسأل المقاومة سؤاله العدل: كيف استطاعت أو كيف تستطيع أن تفي لبنان ما له في عنقها من دَين؟

كلّ الظنّ أنّ حوادث لبنان التي تجري على أرضه وتحت سمائه في هذه الأيّام بالذات هي التي تهيّئ للمقاومة – وهي في قلب هذه الحوادث – الجواب المطلوب. والقلم السيف بيدها.

ولكن عليها أن لا تنسى أنّه ذو حدّين. على الحدّ الآخر منه مصيرها*.

* * *

فراغ في الدولة. فراغ. فراغ.

. تملأه هنا المقاومة الفلسطينيّة، وهناك الكتائب اللبنانيّة، وهنالك القوى اليساريّة. وبين الثلاث دويلات ما أنزل الله بها من سلطان، بمئة اسم واسم، تنبت كالكمأ أو البثور، على عدّ الزعامات السياسيّة والطائفيّة والعشائريّة، وحتّى قبضايات الأحياء وقطّاع الطرق.

فضلاً عن العملاء الغرباء، أقربين وأبعدين، ناقلي التعليمات والمخطّطات من الخارج ومعها الأسلحة والأموال.

وفوق هؤلاء جميعًا، على السطوح، القنّاصة يصطادون المارّة الأبرياء ورجال الأمن أنفسهم، ويطلقون النار حتّى على رجال الإسعاف والإطفاء، ولا يكتفون بذلك بل يترصّدون ابن الحيّ الملاقي أخاه من الحيّ الآخر فاتحًا ذراعيه لمعانقته فيُردونه قتيلاً ليعانق التراب.

والدولة كالطبل الفارغ...

تُرى، أيكون الفراغ في الوطن أيضًا؟

وهل انقلب لبنان كلّه إلى شعب عميان؟ وهل تحوّل من أقصاه إلى أقصاه إلى مسلخ بشريّ؟

ليس معقولًا أن لا يكون في لبنان آباء وأمّهات، شيوخ وأطفال، يفضّلون الحياة على الموت، والتحيّات والمواويل على الصواريخ والانفجارات.

ليس معقولًا أن لا يكون في لبنان أناس طيّبون: مفكّرون، محامون، أطبّاء، مهندسون، تجّار، صناعيّون، مستخدمون، عمّال، معلّمون، طلّاب جامعات، تلاميذ مدارس، باعة خضر، باعة تشيكلس إلخ. كلّ مرادهم أن يخرجوا بالسلامة من بيوتهم ويعودوا إليها سالمين، وإذا جاء الليل استطاعوا أن يناموا على غير دويّ القنابل.

ليس من المعقول أنْ لا يكون في لبنان شعب.

بلى.

وهو الأكثريّة الساحقة.

بل الأكثريّة المسحوقة الصامتة.

* * *

* تحقّق ذلك باجتياح إسرائيل للبنان في صيف ١٩٨٢.

هذه الأكثريّة ، منها مطلوب إنقاذ البلاد.

منها وحدها.

من كومة المسحوقين الصامتين يجب أن يطلع صوت ينادي في البرّيّة.

ووسط الهيكل يجب أن يشقّ المخلّص طريقه بين المتدافعين ويضرب بسوطه راعدًا :

– «بيتي بيت الصلاة وقد جعلتموه مغارة للّصوص !»

«أيّها الفرّيسيّون تحمّلون الناس أحمالاً ثقيلة وأنتم لا تمسّونها بأطراف أصابعكم !»

وحدتنا؟ كانت حتّى الأمس قائمة . نحن أبناء هذا الشعب العريق في التعايش.

كانت في القلب والفكر ، في البيت والسوق ، في الجبل والساحل. كانت على مقاعد الدرس كتفًا إلى كتف . وفي ساحات اللعب زغردة إلى زغردة.

كانت في أشغالنا اليوميّة وموارد رزقنا المشتركة . في أفراحنا وأتراحنا كانت . وفي طموحنا وعرق جباهنا وعبقريّتنا التي صنعت الأعجوبة اللبنانيّة.

في أيّ ليلة سوداء ضربتموها فصدّعتموها ، وقد كانت ، في اليوم الواحد مرّتين على الأقلّ ، تهتف على الميلين صباح النور ومساء الخير وتصافح المحبّة.

الشقاق والنفاق بضاعتكم أنتم ، أيّها الزعماء الزائفون والسياسيّون المراؤون.

تدعوننا إلى نبذ الطائفيّة البغيضة وعلى كراسيّها تتربّعون. إلى الأخوّة وأنتم كالذئاب تتناهشون. إلى إزالة الحواجز في ما بيننا وأنتم بأيديكم أعليتم سياجها لحماية إقطاعاتكم في دولة حوّلتموها إلى مزرعة. وإلى الخضوع للقانون وقد جعلتموه قلعة لامتيازاتكم وستيريو معتمًا لقضاء مآربكم وممارسة شهواتكم.

وتدعوننا إلى لبنان جديد!

ثقوا أنّه سيكون لنا لبناننا الجديد.

ولكنّه سيقوم على أنقاض لبنانكم هذا الذي انهار بمؤسّساته جميعًا وبأباطيله.

من بين الأنقاض المتساقطة ، ومن خلف المتاريس إيّاها ، ومن الجروح نفسها التي تثخن أجسادنا وأرواحنا ، سيولد لنا في الآلام –كما هو مكتوب– لبناننا الجديد.

ستحضنه ، بدل ميليشياتكم وانتماءاتكم ، أحزاب لبنانيّة ، وتعلّمه النطق بلغة لبنانيّة.

لبنان الجديد دولة غير دولتكم . سنبنيها على الوطن القديم إيّاه ، ولن نتخلّى عن صيغتنا الفريدة مهما كلّف الأمر.

لا تقسيم ولا تهجير. لا عزل ولا انعزال . بل دولة الجميع لوطن الجميع.

دولة الإنسان في لبنان.

ورسالتنا الإنسانيّة الخالدة سنعلي مشعالها . ونشبك أيدينا حوله مسلمين ومسيحيّين ، ومن ورائها أيدي إخواننا الفلسطينيّين ، وهم يعرفون أنّهم على ضوئه يسيرون.

ومن ورائنا وورائهم ، السوريّون والمصريّون ، العراقيّون والسعوديّون ، الجزائريّون والمغربيّون ، الكويتيّون والتونسيّون ، إلى أبعد فرع من فروع الدوحة العربيّة من الخليج إلى المحيط فإلى أقاصي الأرض.

فلبنان لنا ولهم وللعالم.

ولن تقوى عليه قوّات الجحيم.» إه.*

٣

راح الصيف ثمّ راح الخريف ولم تنتهِ الحرب ! كانت تشتدّ يومًا بعد يوم. فلا بدّ من قضاء الشتاء في الضيعة.

---

* ينبغي أن أضيف هنا أنّني انصرفت – في مجال الصحافة – إلى كتابة يوميّات في «الأنوار» بين ١٩٧٧ و١٩٧٨ بعنوان «صباح النور» ، وكلّها بالروح نفسها.

اِحتطت لبرده بكلّ ما تيسّر: مدافئ على المازوت، على الكاز، على الكهرباء. وواحدة على الحطب، في العليّة، هي ستّ الكلّ.

إنّها صديقتي الخاصّة وعشيرتي المفضّلة. وأنا إلى جانبها في الصباح، في المساء، وفي كلّ وقت من أوقات فراغي. وقد أفرغها قصدًا لتملأها هي بما تشاء. بذكريات الطفولة قبل كلّ شيء وحكايات جدّتي. بالحديث الذي نتبادله.

بماذا نتحدّث؟ بهموم الحياة أقلّبها على الجمر، أدفنها في الرماد... وبشؤون الناس ومشاكل الدنيا. أسألها فيها وتسألني على حوار لا ينقطع.

أكبر مشكلة، أتناول رأسها بطرفَي الملقط – هكذا – وأرقّصها بيننا. أقول لها: تعالَي هنا! فتضحك النار. للنار بشاشة لا يعرفها المتحاورون. من لونها، سيّد الألوان، قد تعالى عن التحديد والتقليد، فهو لون النار وحسب.

أحبّ المواضيع إليها – بعد الطفولة وذكرياتها – الحبّ والحنين. أليس الحبّ منها وهي منه؟ الشعوب القديمة كلّها ألّهت النار رمزًا للحبّ مصدر الحياة. وكما كانت أوّل شرارة باحتكاك حطبتين، هكذا كانت أوّل نطفة مع آدم وحوّاء. لولا ذلك لظلّا حطبًا.

ولكنّ النار قد تغضب. والويل من غضباتها!

تمدّ لي بألسنتها، ترميني بشراراتها، تحرقني وتهدّد بإحراق البيت. كشأننا أمس في السهرة إذ هرولت زوجتي على الضجّة تسأل ما الخبر.

قلت: اختلفنا أنا والنار على السياسة.

قالت: كيف؟ قلت: ضربت بيديّ الاثنتين إلى هذه السياسة، سياستنا، رفعتها إلى فوق، ثمّ قذفتها حطبًا للنار.

قالت زوجتي: تعالَ إلى مدفأة المازوت. قلت: تعرفين كرهي للمازوت – إلى الغاز. قلت: أخاف الاختناق بالغاز – إلى الكهرباء. قلت: وإذا انقطع التيّار؟ – ماذا تريد إذًا؟ قلت: لا شيء. لا شيء. لا حاجة بي إلى أيّ مدفأة من المدافئ.

وانكمشت في الزاوية أفكّر ببيروت. بيتي في بيروت وأصحابي في بيروت.

كان البرد في قلبي...

* * *

آذار الهدّار هدر في الجبل تلك الليلة محقّقًا القول المأثور فيه. كان ينقضّ على البيت، يشقّ الأبواب والشبابيك ببروقه ويصفقها برعوده، كأنّه يريد أن أفتح له بالقوّة.

لم أفتح إلّا في الصباح. وعلى عادتي خرجت إلى الشرفة فانبهرت من النور الذي يملأ الدنيا. من زرقة السماء وزرقة البحر. من الأرض المغسولة بمثل النيل الذي كانت أمّهاتنا في الزمان يغسلن ثيابنا به. من هذه الجبال والأودية الفائحة لا برائحة الصيف المخبّأة في عبّ آذار فقط، بل بفرحة عامرة، ودهشة عجيبة، هي فرحة الرجوع ودهشة البعث.

ومن أعماق صدري جعلت أتنفّس وأهتف: الله يا لبنان ما أجملك! الله يا لبنان ما أطيب الحياة فيك!

وفجأة غصصت بهتافي، وأغمضت عينيّ. عادت إليّ قباحاتنا وقذاراتنا وعاهاتنا، تلك التي دنّسنا بها هذه الأرض، وقذفناها – بصقات كفر – في وجه هذه السماء... نصف ساعة وأصل إلى المدينة وتطلع كلّها في وجهي.

تُرى، هل أمطرت السماء في بيروت مطرها في الجبل؟ هل غسلت دنيانا هناك كما غسلت هنا؟

ولكنّ بيروت والجبل، لكنّ لبنان كلّه محتاج إلى أكثر من أمطار آذار مهما تدفّقت ميازيبه. رحم الله أبا العلاء المعرّيّ، كأنّه عنانا بقوله:

«الأرضُ للطوفانِ مُشتاقةٌ
لعلّها من دَرَنٍ تُغسَلُ».

فاللّهمّ طوفانك يغسل أرضنا من أدرانها!
وغفرانك، طوفانًا آخر يغسل القلوب.

والبرد لا يؤذيني بمقدار ما تؤذيني الغربة. فأنا غريب في الضيعة، والضيعة غريبة عنّي.

مع أنّي حملت الضيعة في قلبي. وأيّان كنت كانت تأكل من صحني وتنام على مخدّتي.

ولكنّي غبت عنها ربع قرن، ولم أكن أراها طول تلك المدّة إلّا لمامًا في الصيف. والضيعة في الصيف تلبس وجهًا آخر.

خلال فراقنا تغيّرت الضيعة وتغيّرت أنا.

يطول بي الشرح إذا تكلّمت عن التغيّر الذي طرأ عليّ. يكفي القول إنّني صرت في الشيخوخة.

ولعلّ في ذلك ما يفسّر التغيّر الذي طرأ على الضيعة. فأنا أفتّش فيها عن طفولتي، وأنسى أنّني أفتّش في الوقت نفسه عن طفولتها، فلا أجد هذه ولا تلك.

أيّة طفلة مدلّلة كانت الضيعة في ذلك الزمان! كانت تتكئ في أحضان الجدود – الذين لم يبقَ منهم أحد – وتداعب شواربهم المعقوفة، وكانوا ينحنون عليها بالحبّ والحنان، يحكون لها حكايات البطولة، ويعلّمونها الشرف والمروءات.

كانت فقيرة، فصارت غنيّة. كانت بسيطة، فصارت فيلسوفة. كانت ضاحكة، فصارت عابسة جافية. وصار لدربها، بعد أن وسّعوه وزفّتوه، أذنان كأذنَي الحمار: رصيف من هنا ورصيف من هناك، لكي لا يتواجه الناس ولا يسلّم أحدهم على الآخر.

حتّى المقبرة الترابيّة المشتركة، التي كانت عنوان ديمقراطيّة الضيعة، استحالت إلى حيّ أريستوقراطيّ تتبارى العائلات فيه على إعلاء مدافنها المنحوتة وتزويقها بالكتابات المذهّبة...

من جيلي في الضيعة عجوز كانت غرامي وأنا ابن عشر. إذا التقت أعيننا في الطريق بادلتها سلامًا أبرد من الشتاء، ثمّ أغمض عينيّ لأراها كما كانت وكما كنت.

وكما كانت ضيعتي عهد الطفولة...

٤

ذات يوم من ربيع ١٩٧٦ جاءني من يقول:

– هل سمعت الإذاعة؟

– أيّ شيء في الإذاعة؟

– يطلبون منك أن تتّصل بالتلفون على رقم ذكروه.

في اليوم التالي رنّ التلفون عندي مع الفجر:

– الأستاذ عوّاد؟

– نعم.

– أنا خلدون بن كاظم الصلح. أنت لا تعرفني. ولكنّي أنا أعرف من أنت. وقد أذنت لنفسي أن أتلفن لك بعد أن طلبت منك مرارًا بواسطة الإذاعة أن تتّصل بي، حتّى اهتديت إلى رقم تلفونك في بحرصاف. هل بالإمكان أن تنزل إلى بيروت غدًا لأمر يهمّك؟ أكون في انتظارك بباب منزلك بين الساعة الثامنة والثامنة والنصف صباحًا.

في الموعد المضروب وافيت نجل الصديق إلى الشقّة التي أملكها في حيّ القنطاري، شارع الأمير عمر، إزاء فندق هوليدي إن.

كنت أعرفه طفلًا ثمّ لم ألقَه بعد ذلك سنين لغيابي عن لبنان بحكم وظيفتي الديبلوماسيّة. وإذا هو اليوم شابّ قد تغيّرت عليّ ملامحه إلّا وداعة في عينيه النجلاوين لم يزدها النضوج إلّا حلاوة. بادرني بالعناق مع قبلتين، واحدة –قال– بالأصالة عن نفسه، والأخرى بالنيابة عن والده. ثم أخبرني أنّ الجوّ مشحون – مرّة أخرى – وأنّ منطقة القنطاري قد تتحوّل إلى ساحة قتال في القريب، وأنّه كان يزور هذه المنطقة فوقع نظره على اسمي، هنا على الباب، فرأى أن يتّصل بي لانقاذ ما ينبغي إنقاذه من الأثاث والمتاع تحسّبًا لأيّ طارئ.

في مدى ساعة حمّلنا شاحنة بما تيسّر تحميله، وهو يشكّل ثلث العفش أو ربعه. ولبُعد ظنّي عن

تصوّر ما يمكن حدوثه رحت أقفل الخزائن على أشياء وأخبّىء أشياء وأشياء في زوايا التتخيتات ... وأبى خلدون عندما هممت بالعودة إلّا أن يرافقني إلى الحدود (!) أي إلى الخطّ الأحمر الذي رسمته المؤامرة بين الشرقيّة والغربيّة من بيروت.

الشوارع مقفرة، بما فيها الأزقّة التي اضطُررنا أن نمرّ بها متحاشين المفارق الخطرة، تطلّ علينا رؤوس من بعض الشبابيك، وتحدّجنا من خلف الحيطان قطط بأعينها المريبة، لا أدري كيف خطر لواحدة منها أن تقطع من مَيل إلى مَيل فهرستها سيّارتي وكأنّها تهرس لحمي وتطحن عظامي. ولكنّي تابعت سيري ولم ألتفت. حتّى وصلنا إلى المتحف الوطنيّ – «تُرى، هل يُصبح الميثاق يومًا من الآثار التي يحتويها؟!» قلتُها وحدي في الصمت الذي كان مخيّمًا حوالينا، لم يقطعه إلّا وداع خلدون فهدير الشاحنة التي أشرت إلى سائقها أن يتبعني بها إلى بحرصاف.

لم تنتظر الواقعة الكبرى طويلًا. في مساء اليوم نفسه أذاع الراديو خبرها.

* * *

منزلي في بيروت لم يُتَح لى أن أطأ عتبته إلّا بعد سنة أو يزيد. على التحديد في صيف ١٩٧٧، بعد أن دخلت قوّات الردع العربيّة. ولم أكن أدري أنّني سأقف عند العتبة ولن أتخطّاها. ذلك أنّ العاصفة لم تلبث أن عادت أشدّ ممّا كانت عليه وأدهى. المهمّ أن الناس استبشروا وقتئذٍ وأخذوا يؤرّخون لـ «حرب السنتين» باعتبار أنّها لسنتين ولن تمتدّ إلى ثلاث أو ستّ أو تسع إلخ. ونشطت الحكومة إلى معاونتهم في ترميم المنازل التي أضرّت بها الأحداث. وكان منزلي قد نُهب وخُرّب، من الجملة، لا أثاث ولا متاع، لا أبواب ولا نوافذ، لا حمّام ولا مطبخ، ولا ماء ولا كهرباء. فعقدت العزم على إصلاحه.

سَطيح: تريد أن نعود إلى السكنى في هذا الحيّ؟ أليس من الأفضل أن نأخذ برأي الناصحين فنؤجّر هذه الشقّة أو نبيعها وننتقل إلى الشرقيّة؟

شِقّ: القنطاري كان حيّ التعايش رقم ١ في بيروت بين المسيحيّين والمسلمين، ويجب أن يعود كما كان. لن أتخلّى عنه مهما نصح السطحاء.

سَطيح: زملاؤنا في البناية يتريّثون. علامَ الاستعجال؟

شِقّ: لأنّني أريد أن أكون أوّل حجر في إعادة بناء الثقة بين أبناء الحيّ. ونشرع في العمل من غد.

ولكنّ صباح ذلك الغد لم يطلع عليّ إلّا بعد ليلة حلمت فيها حلمًا غريبًا. ينبغي أن أقول قبل سرده إنّني كنت وما أزال من عشّاق أحلام اليقظة، وعمري ما أحببت أحلام النوم لأنّني ما عرفت منها إلّا البشع والمرعب طوال حياتي، وخصوصًا تلك التي كانت تتراءى لي في الطفولة.

كنّا نؤمن في ذلك العهد بـ «القرينة»، أي الجنّيّة الخبيثة التي تلاحق الأطفال، وما يزال شعرها القنفذيّ نصب عينيّ وأظافرها الزرق في عنقي.

البارحة عادت القرينة إليّ بعد غياب ستّين عامًا أو يزيد. رأيتُني أمشي في الشارع، في حيّ القنطاري بالذات. والتفتّ فإذا على الرصيف الآخر صديقي وجاري القديم، وكنّا قد افترقنا منذ بداية الحرب ولم يرَ أحدنا وجهًا للآخر خلال هذه المدّة، فهفّ له قلبي فناديته:

– محمّد توفيق! محمّد توفيق!

لم يكن اسمه محمّد توفيق. كان اسمه محمّد فقط. كيف ألحقت اسمي باسمه؟ يا لَلأحلام ويا لَتداعي الأشياء فيها من كلّ فجّ عميق! محمّد توفيق هو الاسم المزدوج الذي كان يحلو لكاظم الصلح، والد خلدون، أن يناديني به. يرجع ذلك إلى عهد اشتغالي معه في «النداء». وقد درج عليه منذ نصف قرن فهو لا يخاطبني إذا التقينا إلّا به. فأردّ إليه التحيّة بمثلها وأخاطبه بمارون الكاظميّ. ويتعانق مارون ومحمّد خلف

كاظم وتوفيق.

وأراني – في الحلم دائمًا – ألحق بالجار وأكرّر ملحًّا:

– محمّد توفيق! يا محمّد توفيق!

فلا يلتفت إليّ.

قلت: لعلّه يفكّر بشيء فهو مشغول عن الدنيا وأهلها. ووثبت أقطع الشارع إليه وأواصل مناداته، ثمّ ضربت بيديّ الاثنتين على كتفيه أبشّره بأنّني عائد إلى الحيّ وإلى سيرتنا السابقة، فقد طال الغياب واشتدّ الشوق. فإذا هو يدور على عقبيه ويواجهني. وما كاد حتّى انتصبت القرينة، إيّاها، بيني وبينه. شقّت الأرض وطلعت منها. يا الله! هذه هي بشعرها القنفذيّ وأظافرها الزرق. كلّما حاول أحدنا عناق الآخر هجمت عليه تضرب جبينه بشعرها وتغرز في عنقه أظافرها، حتّى صبغت دماؤنا الرصيف. والمعركة حامية بيننا والناس حولنا ينظرون ويقهقهون – كانت قهقهتهم قصف قنابل – ومنهم من يصفّق ملء كفّيه ويهتف: برافو! برافو!

بعد الطفل الذي كنته في الزمان، الله وحده يعلم رعب الموت الذي ذقته في هذا الحلم الذي أقضّ مضجعي طوال الليل.

في الصباح الذي نزلت فيه إلى بيروت ذهبت لزيارة الصديق الجار، أقصّ عليه القصّة ونتذاكر على القهوة خرافات الطفولة.

قلت:

– كانت جدّتنا توصينا بالمأكل الخفيف قبل النوم إذا أردنا طرد القرينة. تُرى، أيّ جاموس بلّعونا في هذه الحرب؟!...

أكتب هذا في شباط ١٩٨٣ وأنا ما أزال بعيدًا عن منزلي. لقد توالت الأحداث مذ ذاك، وتوالى النهب والخراب، وجاء فوقها احتلال المهجّرين للبيوت الخالية. والشقّة التي لي يحتلّها فلسطينيّون في غرفتين، وسوريّون في غرفتين، وأكراد وجنوبيّون وبقاعيّون في الغرف الأخرى. قد اقتطعوها فيما بينهم وأقاموا حيطانًا وحواجز. وفعلوا مثل ذلك في سائر شقق البناية...

بيتي واحد من بيوت كثيرة حلّ بها ما حلّ به. وما كنت لأذكره لولا أنّه صورة لوطني.

٥

وتمتدّ بنا الإقامة في بحرصاف عامًا بعد عام، حتّى كان الثامن والعشرون من تشرين الثاني ١٩٧٩، اليوم الذي تُوفّيت فيه شريكة حياتي وأمّ أولادي بمرض القلب، فتوقّف عن الخفقان قلب لها كان يسع الدنيا ويخفق بكلّ ما فيها.

كانت في بيتنا الجبليّ الذي أشرفت معي طوال عمر على بنائه مدماكًا بعد مدماك، وفي يومها المفضّل – الأحد – اليوم الذي تجتمع فيه العائلة.

الموائد التي كنّا نمدّها في دور بعثاتنا للأمراء والوزراء والسفراء في أربعة أقطار الدنيا والتي طار لها صيت فيه من أنفاس لبنان وأنفاسها، والأخرى العامرة التي كنّا نُدعى إليها في قصور الملوك والرؤساء وعظماء الأرض، أيّ شيء هي من طاولة البينغ بونغ تحت الخيمة في الجانب الغربيّ من الحديقة، تتحوّل في أوقاتها إلى مائدة وتجمع عليها الأمّ الجدّة أولادها وأحفادها، هي من هنا والأب الجدّ من هناك – كاسك تيتا! كاسك جدّو! – نزغرد جوقة واحدة، والعصافير فوقنا تغلّ في عبّ الصنوبرات، تروح وتجيء، تردّ لنا جوقتها التحيّة، وتصفّق معنا بفرحة الحياة.

– نضج الطعام. حضرت المائدة. يا كبار، يا صغار، تعالوا!

هكذا هتف بنا خادمنا عزمي ونحن في الجانب الآخر من الحديقة، يتصايح صغارنا على لعبة الطابة، ويتمشّى كبارنا مستمتعين بهذه الشمس التشرينيّة

الدافئة. وكانت العائلة بكاملها، ما غاب عنها إلّا ابننا هاني المقيم في كندا، ولكنّه حاضر في القلوب، وسنشرب نخبه وقوفًا حسب العادة.

وعاد عزمي صوبنا يرفع يديه إلى السماء. لعلّه استبطأنا.

ولكن لا. إنّه يصرخ صراخ المستغيث:

– الستّ أورطنس! الستّ أورطنس!

شهقنا كلّنا وراء عزمي إلى المطبخ: «وقعت، قال، وهي تحمل الحلوى إلى الطاولة».

كانت ممدّدة على الأرض، غائبة عن الوعي. وبعد نقلها إلى «مستشفى رزق» في بيروت بثلاثة أيّام أسلمت الروح.

الكيس الفارغ

طيفُها يسدّ عليّ طرقي. ينتصب عمودًا، سؤالًا موجّهًا إلى السماء. والسماء خرساء خرَس القبر الذي صارت إليه.

أمسِ حملت العمود السؤال. بذراعيّ الاثنتين حملته مشدودًا إلى صدري، وعلى ظهري الكيس الذي لا يفارقني. وعند باب القبر ألقيت كيسي وناديتها: وحدكِ كنتِ تملأينه.

أنظري إنّه فارغ.

أتذكرين، قلت لها، ما كنت أردّده عليك؟ كنت أوصيك: إذا متّ فلا تدعيني أموت. غافلي الناس وقبّليني حيث تعلمين أبعَث حيًّا.

جئت اليوم لأقبّلك حيث أعلم ولا ناس حوالينا. وحدنا نحن والقبر كلّه لنا. وها أنا أضع خدّي على بابه وأتمسّح به. تمامًا كما كنت أضعه على باب غرفتك عندما كنت تحردين وتقفلينه من الداخل.

كان بالأمس دافئًا بأنفاس شوقي الصارخ، وأنفاس شوقك المكبوت. بارد بابك اليوم.

ماذا تصنعين وراءه؟ لماذا لا تصرخين؟ لماذا لا تضربينه بجمع كفّيك الاثنتين؟ كنت أحبّ منك ذلك، وكان العناق بعده طيّبًا، وكان عنيفًا بعنف الريح التي تُسقط الثمرة الناضجة وطيّبًا مثلها.

وما أكثر ثمارك المتساقطة في حضني! لم أكن أشبع، أتذكرين؟ كنت أمدّ ذراعيّ وأفرط منها بلا وعي، كالسارق الذي يخاف أن يُبغَت، وأعبّئ منها.

ماذا حلّ بشجرة العمر، أيّ عاصفة قصفتها؟ أيّ فأس أطاحت بها؟

الصنوبرات التي زرعناها حول بيتنا، من عمر الأولاد، تشمخ. تثمر كلّ عام. الخوخة ما تزال تُعطي. السنديانة تُلقي ظلّها وتنثر حبّاتها على رأسي.

قلتِ لها يومًا: لو سقطتِ على أُذنيّ لكنتِ لي حَلَقًا. وجرّبتِ من حبّاتها حلقتَين. وأنا أضحك... أضحك؟...

خلال الدموع أفتح كيسي مدّ ذراعيّ. كنتِ وحدكِ تملأينه حبًّا وفرحًا وطموحًا. أين أطوف به؟ فارغ. فارغ كيس الحياة الذي أحمله على ظهري. فارغ من بعدكِ يا شجرة العمر. يا شجرة الدرّ.

أين أذهب به؟ طفت من بعدكِ على أبوابهنّ كالشحّاد يطلب حسنة. كسرة حبّ، فلذة حنان، قبسًا أشعل به ناري في شتاء العمر.

أعطتني كلّ واحدة. لم ترفضني ولا واحدة. ولكنّ كيسي ظلّ فارغًا.

«هل بإمكان أجمل امرأة في العالم أن تُعطي إلّا ما عندها؟»

ما عندهنّ هو غير ما عندك.

ولذلك أعود إليك...

موعدنا قريب أيّتها الحبيبة، موعدنا قريب. وكما كنت تنتظرينني على شرفة بيتنا كلّ يوم، انتظريني حيث أنت.

وكما كنت تمهّدين مضجعنا كلّ يوم لليل نستأخر

صباحه ، قولي ليدَيك : ما لكما لا تتحرّكان؟ ألا تقومان لتهيئة المضجع ؟ الحبيب آتٍ إلى لقاء لا يعرف هذه المرّة فراقًا.

وهذه المرّة – الأخيرة – ككلّ مرّة سبقت لنا ، سأهتف هتافي الذي تعرفين. قولي لأذنَيك تنفتحا ، وللقبر أن تنشقّ حيطانه وتعي :

«من المهاوي السحيقة أتيت إليكِ ، من جوف الظُلمات العمياء ، والكهوف الملأى بالبرد والفزع ، أحمل غربتي.

وها أنا في أحضانك ألقيها. دعيها تعانق غربتك الشقيقة ، أيّتها الحبيبة ، أيّتها الغريبة ، عناق الحياة والموت الذي لا عناق بعده...

لعلّ ما يهدينا إلى قرار حنيننا ، إلى ذلك الشيء الذي قضينا العمر نبحث عنه ، إلى كنزنا المفقود* »...

لا ! لا ! أيكون هذه الحفنة من التراب يُلقمنا إيّاها القبر ، يسدّ بها أفواهنا ، ويُخرس أشواقنا إلى الأبد؟

إذًا أيّ كذبة هي الحياة في أملها ، وأيّ كذبة أكبر هو الموت في وعده !

وأين هي الحقيقة؟...

---

* الفقرات الواردة بين قوسين مزدوجين هي من كتاب «السائح والترجمان» للمؤلّف.

بعد الحصاد

١

بعد الحصاد – وكانت الضيعة في ماضيها تزرع قمحًا... الله! الله! على ركوبنا النورج على البيدر ونحن صغار! – كانت اللاقطات يحملن أكياسهنّ وينطلقن إلى الحقول، فيجمعن منها ما عافه الحصّادون لضآلته. وقد يقعن على سنابل لم يدركها المنجل واقفة هنا وهناك، أو على غمر منها بأمّه وأبيه نسيه ناسيهم خلف دغَل أو صخرة.

ذلك ما كان معروفًا بالتعفير.

كانت الدنيا في ذلك الزمان على فقر. وكانت اللاقطات يحملن ما غنمنه إلى بيوتهنّ، ويجرشن القمح على طاحونة صغيرة من الحجر يُقال لها بالضبط الجاروشة، لها مكانها على المصطبة بالقرب من باب البيت. ومن تلك الحبّات الثمينة يصنعن البرغل، ومنه الكِشك أغلى مؤونتهنّ للشتاء.

أنا، كجارتنا صفصف رحمها الله – وكانت أبرع اللاقطات – فقير شعرًا. وقصائدي، ما عدا قصائد البيتين في «قوافل الزمان»، لا تؤلّف ديوانًا.

سَطيح: لماذا لا تعود إلى حقولك، يا شِقّ، فتلتقط بعض ما تركته فيها من تلك القصائد وتجعل له فصلاً يكون مسك الختام أو... كِشكه؟ من يدري. ربّما كان هذا آخر كتاب لك. أليس أنّ الكتاب يُقرأ من عنوانه؟

شِقّ: أفضّل تركها للدارسينَ المؤرّخين، والنقّاد المنقّبين رحمة بهم. إنّهم، يا سَطيح، أعظم اللاقطين وأكثرهم التذاذًا وافتخارًا بما يعثرون عليه من آثار الأدباء بعد موتهم ولو كان زؤانًا كلّه وخنفشارًا. صفصف إزاءهم ليست شيئًا في براعتها، ولا في فقرها. (يعبس ثمّ يرفع رأسه) ولكنّ ما أتركه ليس خنفشارًا. ربّما كنتَ على حقّ. ربّما. أقول ربّما، يا سَطيح. ولكن بشرط أن أختار من تلك الآثار «التي تدلّ علينا» ما أشاء. ثلاث قصائد بالعدد: قصيدتي في صاحبنا نعيمه، وقصيدتي في بوذا، وقصيدتي في أبي نؤاس. إنّها من السنابل الواقفة على أقدامها بوجه الشمس.

سَطيح: لماذا هؤلاء الكبار وحدهم؟

شِقّ: لأنّني أريد أن أطرح عليهم بعض الأسئلة الكبيرة.

سَطيح: أكبرهم، تذكر، بوذا في اليابان وفي الصين. بعشرات الأمتار طولاً وعرضًا، وكرشًا! ولكن، ما تصنع بقصائدك الأخرى تلك الموجّهة إلى الصبايا؟ إلى الصبايا الصغار. أتكون خجِاً

بها؟ أتخشى أن يُقال عنك الشيخ المتصابي ، في السبعين وما فوق وتلحق بالصبايا؟

شِقّ : أمّا هذه فلا. فيكتور هيغو كان يلحق – في الثمانين – ببنات المدارس ، يحشر نفسه بينهنّ في العربات المزدحمة لعلّه يحكّ بثوبياتهنّ... أترى إلى هذه الثوبيات ما ألطفها. اِسمع ...

سَطيح (مقاطعًا) : أنت تهمّك الكلمة اللطيفة الظريفة بحدّ ذاتها. أمّا أنا...

شِقّ : اِسمع . اِسمع . قبل كلّ شيء ليس صحيحًا أنّني انتظرت السبعين. أنا وراءهنّ كلّ عمري. وكنّا في شرخ الشباب ، تذكر، حينما نظمت في إحداهنّ قصيدة. أقول في تلك الثوبيات بالذات مخاطبًا الصبيّة :

«وتمشينَ إلى شأنكِ من لهوٍ وألعابِ
فيمشي الجوُّ من فوحكِ في موكبِ أطيابِ
وقد رفّت ثوبياتُكِ أو حفّت بأثوابي
فلا تدرينَ ما تصنعُ من تنفيرِ أسرابِ
ومـــن تكسيــرِ أكـــوابِ...»

سَطيح : اِسمع منّي يا شِق ، نصغّر عمرنا ، كما يفعل سوانا من الشيوخ ، ونصبغ شعرنا.

شِقّ : بلا نصائحك المسطّحة ! تعرفني أكره الكذب والخداع.

سَطيح : صاحبك أراغون ، وارث فيكتور هيغو ، طلبوا منه بالأمس مقابلة على التلفزيون ، فأبى أن يظهر أمام المشاهدين إلّا بعد أن وضع قناعًا على وجهه أوصى بصنعه بناء على صورة تمثّله في الثلاثين.

شِقّ : صرعة كاراكوزيّة.

سَطيح : الأنكى أنّك تنادي بعمرنا على السطوح. تذكره حتّى للصبايا إيّاهنّ. تبدأ غزَلك به.

شِقّ : ما دام لا يهمّني منهنّ إلّا الغزَل.

سَطيح : وبعد الغزَل؟

شِقّ : شغلك إذا قدرت عليه !

سَطيح : صدّقني يا شقّ ، أنا أفضّل أن نموت قبل العجز. الكاتب الفرنسيّ الآخر، مونترلان ، عندما أحسّ به حطّ المسدّس في صدغه وانتحر.

شِقّ : مُت وحدك إذا شئت. أنا أرفض الموت. أنا لن أموت !

إلى ميخائيل نعيمه

ألقيت في المهرجان الذي أقيم
له بمناسبة بلوغه التسعين

أتاني أنّ قلمَك الذي يأبى الموت
تأباه قَصَباتٌ أدركتها رياحُه
فيُسراك تُسندُ يُمناك
على قرطاسٍ هارب.

بعد أن أطلع شخروبُك أزهارَه ذاتَ ساقٍ ناطحاتِ
سحابِ نيويورك
وفوحِ المكنوزِ من عطورِ الهند
في شتاء التسعين المنهَمِر
أيُّ عجيبة تُريدُ أن تحكيَ لنا
من حكايات الزمان؟

أم هي الشاردةُ من كلماتِك
أختُ صاحبةِ أخيك جبران
الجنّيّةُ السوداءُ جِلْدَ الليل
البيضاءُ قلبَ النهار
معشوقةُ العمر
عصماءُ الدهر
حبستَهنّ بين دفّاتِ العشراتِ من كُتُبك الممنّعات
ووراءها على دربِ المستحيل
تلفظُ أنفاسَك!

أتذكر
عهدَ أنت النسرُ العائدُ من غُربتِه
الواقفُ في صِنّين على قمّتِه
وأنا الفرخُ تحتَ جناحِك
تنحني تعلّمني ألفباءها في مخطوطاتِ صخورِه
تومئُ تُنصِتُني إلى إملاءِ عصفورِه
وتدلُّني على الله في دودةِ الأرض...

يا جارَ الدارِ والروح
على الكلمةِ ائتلفنا
واختلفنا.

أُولعتَ بها أنت منذُ البداية
وتُريدها حتّى النهاية
جوابًا على سؤال البداياتِ والنهايات
وقلّبتَها ألوفَ المرّات
ونفسَك تجهدُ أن تُقنعَ قبل الآخرين.

أنا ما عرفتُها إلّا سؤالًا
غَرْزُ الشوكِ هي في قلبي
وما تَني لَمْعَ السراب

عذراء عَشِقْتُها
وفي شغافِ رُوحي أسكنتُها
فإذا هي زانيةٌ على قارعةِ الطريق
وبباب الدينونةِ شاهدُ زورٍ عليّ.

شتّانَ كما ترى بين الاثنَين
هل يجمعُ الله الشتيتَين؟

أنت تعانقُ الكونَ أنت
ما همَّك الأنا أنت
تتّحدُ الأبعاضُ كُلًّا لدَيك
ويحلو في عينَيك
أن تُبْعَثَ ذرّةً بلا اسم
وتنبتَ قَصَباتُك أقلامًا شائعة.

همّي على الضدِّ منك ذاتي
وعناقُ ظِلّي مُبتغاي
على خُطاي أُريد أن أمشي
وبكفّي أمسحَ الأنا في أشواقي:
جبينَ الحبيب
وجبينَك أيُّها الصديق
وأُسندَ إليهما خلفَ صقيعِ بلاطِ اللحد
جبيني...

تُرى؟
مع أيٍّ منّا يصدقُ الوعد؟

بيروت – ١٩٧٩

في حضرة بوذا

مُتربِّعٌ على صدرِ الأفُق
تستقبلُ في حِضنِكَ الشموس
وتُسدِلُ من أهدابكِ الليالي

من جدولِ السحابِ ذِراعاك
ومُزرَّدِ الأنهرِ أناملُك
تعزفُ بها على رُكبتيْكَ خلفَ الأعاصير
ألحانَ الطُمأنينة

مُتربِّعٌ على صدرِ المدينة
عيدُك اليومَ يزعقُ الكُهّان
وبالطبول والزمور
يُنفِّرون الطيورَ المعشِّشة في أُذنيك
والنمالُ أرتالٌ لديك تلوَ أرتال :
الأعيانُ والصيارفةُ والمومسات
يحطّون عند قدَميك خطاياهم مغلَّفةً بالقرابين
تأخذُها بطرَفِ ابتسامةِ حدقَتيك
وتبتلعُ الأجيال ...

مُتربِّعٌ على صدرِ الشرق
تُقطِعُ أبناءه في سمائِك منازل
يضمّون الأكفَّ على صكوكِها بالشُكران
وقلوبُهم تضحكُ للصفقة !

هذا الصبيُّ المُرتَعِدُ في خروقه على قصبتَين تشنقان عورتَه
ترك أُمَّه تبيعُ جسدَها في الأسواق
وأباه يحكُّ جرَبَه على بابِك
أعطاك نُحاستَه
– كلَّ ما يملك –
ما تُعطيه والسماءُ كلُّها في عينَيه ؟

مُتربِّعٌ على صدرِ الزمان
بهاؤك يُعمي
وأطنانُ مراحمِك ساحقةٌ يا ربّ
وتغفو ؟ ...
هنيئًا لك نومُ الحجر الذي أنت منه !

طوكيو – ١٩٧١

إلى أبي نؤاس

مهداة إلى أمين نخله وعمر أبو ريشه

كأسُكَ بعد ألفٍ من السنين مُشعشِعةٌ تكسفُ الشمس
ولدِنانِك على الزمانِ أخاديد
أسحبُها وأعبّ
شِعرُك خمري.

نديمُك أنا عمري وأنت الساقي
أعرتُك روحي ذاتَ أجراسِ الحزن فلقّنْها ألحانَ السرور
بريحانةٍ ناديك زيّنّي
وفي عصابتِك الفتّاكِ وطِّئْ لي
مُتّكاي ظِلَّك
بين مُجديةِ السُّكْرَين
والأخرى الموفيةِ بالوعدَين
وادعُ إبليسك الشيخ يُفتي في أطايبِ حرامِك
ويمرّغ وقاري على البساطَين بمجونك وجنوني
فإذا صاح في صَرعاك ديكُ الصباح
على الحجرِ الذي صرتُ فيهم فَليقفْ!

ثُمّ برفقٍ لك نبِّهْني
بل من ناصيتي خذْني
وقُل لي وللذينَ يصنعونَ الفنون:
أنا الحياةُ فنّي!
ويمينًا، بالتي سمّيتَها أحسنَ الأسماء،
غنّيتُها لتسمعَ أُذني.

نديمُك أنا عمري وأنت الساقي
وكمثلِك تكثّرتُ خطاياي
ولكن أنت قلتَها يا سيّدَ القائلين
ما ارتددتُ بلذّةٍ إلّا وشيءٌ منّي قد مات
فقُل لي يا منفّرَ الليل باللذّات
ما صنعتَ بليلك الأخير؟

أُناديك
فتُقبلُ في زِيِّك من الرياح زنّارُك معقودًا على عطش القفر
وقبضُ كاسِك حفنةٌ من ترابِ القبر
تسفُّني بها ملءَ عينيّ!
فَمِلْ إذًا أقُل لك:
بعد أن يتفرّق الشملُ وتخرسَ المزاهرُ والقلوب
إذا كانت كلماتُنا هي وحدها الباقية أشواقًا في القبور
فاصرخْ بربِّك الغفور: تغفر لي ماذا؟
«ربّي أعرتُك من نقصي الكمالَ ومن
موتي الخلودَ ومنّي كلَّ ما وهبا
فاردُدْ معانيَّ وانفُخْ فيَّ من نَفَسي
ومن أمانيَّ عمرًا كونَك الخَرِبا»*

طوكيو – ١٩٧٠

---

* البيتان من ديوان «قوافل الزمان» للمؤلّف.

٢

وبعد ،

كنت أودّ أن أُواصل سيرتي ، فأنا – بالرغم من كلّ شيء – ما أزال حيًّا. وقد جاءني قبل يومين واحد من هؤلاء الصحافيّين الذين يلاحقونني ، وسألني بمناسبة بلوغي الثانية والسبعين :

– ماذا تعمل في هذه الأيّام؟

قلت : أحيا.

قال ملحًّا : ألا تعمل شيئًا؟

قلت : أحيا. أحيا. أنا امرؤ صنعتي الحياة. «وأنا الحياة فنّي» كما قلتها بلسان أبي نوّاس.

ردّدتها بالصوت العالي ، مؤكّدًا ذلك لنفسي على الأرجح ، ومحاولاً جهدي التمسّك بهذه الحياة التي تهرب من بين أناملي.

قال : والأدب؟ والكلمة؟ والكتابة؟

قلت : هوايتي. أمارسها عندما يخطر بالبال.

ما لم أقله للرجل هو أنّ الصنعة والهواية تداخلتا فيّ منذ الصبا وامتزجتا امتزاج الماء بالخمر – الهواية كانت الخمر ، والصنعة الماء – فقد أتيت الحياة منذ أن وعيت عليها من قِبل الكلمة. وبالرغم من انقطاعي عن الكتابة واطّراحي الأدب سحابة عشرين سنة* فلم تبرح الكلمات تغلّف دنياي ، من خلالها أرى الناس والأشياء ، ومن حروفها تتألّف أشكالهم وأشكالها. وكذا الحركات والأفعال ، والقيم والمبادئ. صورة للحياة مزوّقة – مزيّفة – إذا كان الكتّاب يفخرون بصنعها ، وكان البعض يحسدونهم على قدرتهم العجيبة في ذلك فيدعونهم عباقرة ، فغالبًا ما أحسد الجهّال ، وحتّى الأمّيّين ، لمباشرتهم الحياة ببساطة ، بسلاحهم الفطريّ. يعاشرونها عارية ، عاطلة من الأوهام. يعرفونها على حقيقتها ، ويحتاطون لمكرها بما ملكت أيديهم.

ذلك أنّ هذا الغلاف الذي نسجته بيدي من الكلمات ، والذي كان يزداد مع الأيّام سمكًا ، إليه ترجع مثاليّتي ، وبسببه كانت لي على مدى العمر هذه الخيبات التي لا تُعَدّ. يؤذيني الناس ، تصدمني الأشياء ، تطعنني الأحداث بحرابها ممزّقة غلافي ونافذة إلى الصميم ، فأعود – يا للمفارقة ! – إلى الكلمات ، إيّاها ، أرفأ بها الخروق وأضمّد الجراح.

أنادمٌ أنا على ذلك؟

ولكن هل كان بالإمكان غير ما كان؟ قدَري الذي كُتب لي ، ولم يكن لي خيار.

واستطرادًا ، هل كان لي الأدب عزاء عن الحياة أو ملجأ أهرب منها إليه؟

لا. لا. إذن أظلمه وأظلمها معًا.

قلتها في فاتحة هذا الكتاب وأكرّرها في خاتمته : لقد أحببت الكلمة حبّي للمرأة أي للحياة. وتعاطيت معها تعاطيّ مع المرأة. وما دمت لا أتصوّر الحياة إلّا مع الضرّتين مغفورة للكلمة خطاياها ، بقدر ما أغفر للمرأة مقابل ما تعطيني.

ولأنّ الكلمة ، منذ البداية ، قد تجسّدت بين يديّ كائنًا سويًّا في ما أقرأ وفي ما أكتب ، فهي بالتالي كالمرأة في أوصافها وأطوارها. لها نضرتها ورشاقتها ، وحسنها ودلالها ، وعطرها وسرّها. كما لها رضاها وغضبها ، وانبساطها وحردها – يا ما تصاولنا وقام بيننا التناتش والشدّ بالشعور! – وفي الكلمات ، كما في النساء ، الفاتنات والمنفّرات ، والأبكار والعجائز ، والدعيّات وبنات الأصل. وكالمهاجر العائد من أميركا إلى مسقط رأسه ليبحث عن عروس له ، يطيب لي أحيانًا كثيرة أن أستعرض الكلمات. هو يطرق البيوت واضعًا أنفه فيها ، وأضع أنا أنفي في القاموس أقلّب صفحاته وأسرّح أنظاري في الكلمات ، أتعرّف إليها في أخدارها ، أصغي إليها تحكي لي أصلها

* هي الفترة الفاصلة بين صدور «العذارى» وصدور «السائح والترجمان».

وفصلها ، وأسجّل صوتها على لوح صدري. أكثر ما يروعني منها أنّها قد تعني الشيء وضدّه معًا... يا لَعِشْرَةِ الكلمات ، يا سَطيح ، ويا لكذبها حتّى وهي في القاموس!

* * *

أحيا ، قلت لصاحبي الصحافيّ؟

ولكنّي لا أستطيع أن أتصوّر حياتي منفصلة عن حياة وطني. أنا حفنة من ترابه ، ونسمة من هوائه. وأنا قطرة من هذا النهر من الدماء الذي يتدفّق بلا أيّ هوادة أو رحمة أو وعي.

أمس أوقفني جنديّ من القوّات المتمركزة في بعض شوارع بيروت للتفتيش. كنت في سيّارتي. لم يفتّشها ولم يفتّشني. لم يطلب أوراقها ولا أوراقي. اِنحنى عليّ وسألني :

– لوَين رايح يا ختيار؟

غصصت بالجواب. فلم ينتظر جوابي. لعلّ شيبي كان الجواب. فأشار عليّ بمتابعة الطريق.

وطول الطريق جعلت أفكّر بهذا الختيار الذي صرتُه وأسمع دقّات قلبي. فقد وقعت كلمة الرجل فيه – يريد توقيري أم تعييري؟ – كما تُقذَف البئر بحجر. وكمثل موجات البئر راحت تتكسّر على أضلاعي الأيّام والليالي ، ما عبر منها وما هو في الانتظار ، بكلّ ما حملت وما قد تحمل.

ويشهد الله ، لقد قرأت للشعراء مئات القصائد في الشيخوخة – وفي الرثاء – فلم أجد أروع من هذه القصيدة : «لوَين رايح يا ختيار؟» مختصرة مفيدة. على بساطة هي البلاغة كلّها ، وابتسامة من الرجل غلّف بها شيبي كأنّها العزاء.

«لوَين رايح؟» أشكر الله يا صاحبي ، أنّك لم تنتظر الجواب. ولو انتظرته لما جاء ، وما حاجتك إليه؟

سأتابع طريقي كما أشرت عليّ. إلى البيت. إلى المكتب. إلى السوق.

إلى أيّ مكان.

لماذا لم تفتّشني وتفتّش سيّارتي؟

في السيّارة ما كنتَ وجدتَ شيئًا. ولكنّك لو فتّشتني جيّدًا لرأيت أنّني أخبّئ في عبّي شيئًا عظيمًا. لا مسدّسًا طبعًا ، ولا رزمة ديناميت ، بل العمر كلّه. من الطفولة ، إلى الصبا ، فالشباب ، فالكهولة ، حتّى هذا الشيب الذي ناديتني بعلامته. ومع العمر الوطنَ الحلو الذي قضيت هذا العمر فيه. أحاول تهريب الاثنين ، أشدّ بهما على صدري وأمضي.

تسألني إلى أين؟

إلى موعد حبّ جديد.

بيروت في ١٠ أيلول ١٩٨٣

منسيّات

لعوّاد - إلى جانب «قوافل الزمان» أو قصائد البيتين ، والقصائد التي ضمّنها «حصاد العمر» - قصائد أُخرى مُبعثرة ، منظومة وحرّة ، منها ما كان ينشره بتوقيع «الشاعر المنسيّ» ومنها ما لم يُنشر. وقد رأى أن يضمّها هنا بعنوان «منسيّات» ، ويقدّم لها بعض ذكرياته .

مع الخليل وبعده

كنت في الزاوية من البنك الأخير من الصفّ ، في كلّيّة القدّيس يوسف في بيروت سنة ١٩٢٦ ، فتى قلقًا لا يطمئنّ إلّا إلى أحلام له ينسجها خلال الشبّاك من أشعّة الشمس وغيوم السماء ، ويصرف سمعه عن شروح أستاذ العروض إلى ترانيم أسراب الدوري المرفرفة في الخارج بين السطح وساحة اللعب ، ولا يرتدّ إلّا إلى ديوان شعر يفتحه في حضنه تحت الطاولة.

وكان أستاذنا ، الخوري مارون غصن ، من العارفين بأوزان الخليل. وكان قد خصّني في بداية السنة بالمقعد الأوّل من البنك الأوّل المواجه لمنبره ، لمَخايِلَ لاحت له فيّ ، منها معرفتي الصرف والنحو وإلقاء الشعر. حتّى كان ذات يوم فخطر له أن يتلو علينا قصيدة لأحدهم ، قال ، في وصف أرز الربّ. فسألتُه بالدالّة – إيّاها – أن يقول لنا من هو هذا الأحدهم ، فنحن في القرن العشرين لا في عهود ما قبل التاريخ. فحدّجني خلال لحيته بابتسامة ذات مغزى واسترسل في تلاوة أبياته. فلمّا كان في بعضها إذا صوت يقدح السقف :

– مونبير (يعني يا أبتِ) هذا البيت مكسور.

كنت أنا المعترض. وكانت القصيدة ، على ما أفصحت الابتسامة ، من نظمه. فسألني وقد تحوّلت ابتسامته إلى غمامة من التأنيب : ما بحرها؟ فقلت : فعولن مفاعيلن إلخ. قال : سمِّه. قلت : لا أعرف اسمه. قال : أجهلٌ ووقاحة؟ إلى الزاوية ! ولزمتُها من وقتي.

أعترف ، إنصافًا للرجل في قبره ، أنّ البيت كان في اجتهادات الخليل صحيحًا ، وإنّما أجاز فيه رحمه الله إشباعا أبته أذني ... وأعترف ، من قبل ومن بعد بأنّني لا أعرف أسماء بحور الشعر ، ولم أتعلّمها عليه ولا على أحد وإن كنت أُجيد فيها السباحة منذ صغري.

وأذكر أنّ القصيدة الأولى التي نظمتها ترجع إلى سنّ الرّابعة عشرة. موضوعها «الشتاء» ، ومطلعها :

أنا قرب ناري أدفّئ كفّيّ...

وقد ضاعت بقيّة البيت من الذاكرة ، ولم يبقَ إلّا البيتان الأخيران من القصيدة ، وهما :

ألا ليتَ هـذي الغيومَ تصبُّ -- الغيوثَ على قلبيَ الماحـــلِ
فقلبيَ روضٌ بــدون زهُورٍ يحنُّ إلى المطرِ الهاطـــلِ

وأنا ما أزال أردّدهما إلى اليوم ، مستعيدًا معهما ذكريات تحلّقنا حول الموقد ونحن صغار ، ومتسائلاً عن ذلك المَحْل الذي كان يشكوه قلب ذلك الصغير ، وعن ذلك الحنين لأيّ شيء كان.

تُرى ، هل استطاعت الغيوث المنهمرة طوال العمر أن تُعطي عن ذلك جوابًا؟...

وعلى ذكر الخليل ، هل من حاجة إلى القول إنّنا لم نكن نتصوّر الشعر في ذلك الزمان إلّا موزونًا مقفّى؟

حتّى جاء جبران خليل جبران ، فكان الشعر المنثور. ثمّ كانت بعده قصيدة النثر.

وفي هذه «المنسيّات» –كما يرى القارئ– بعض نماذج عليها علامات هذا التطوّر.

بيروت في ٢٥ شباط ١٩٨٥

ت. ي. ع.

حبّ مستحيل

إلى ج. خ.

يمرُّ النّاسُ لا أدري
وتمشين على سرّي

ألا امشي ما تُبالينَ فرشتُ الدربَ ريحانا
ونسرينًا زكا بالدمعِ والأشواقِ أزمانا
هنا بوحًا هنا حلمًا قضى من قبل ما كانا
لكِ الله تجوزينَ فما تدرينَ ريّانا
ولا تدرينَ عطشانا

يمرُّ النّاس لا أدري
وتمشينَ على سرّي

وتمشينَ إلى شأنكِ من لهوٍ وألعابِ
فيمشي الجوُّ من فَوحِك في موكبِ أطيابِ
وقد رفّت ثُوَيباتُكِ أو حفّت بأثوابي
فلا تدرينَ ما تصنعُ من ترويعِ أسرابِ
ومن تكسيرِ أكوابِ

يمرُّ النّاسُ لا أدري
وتمشينَ على سرّي

وتمشينَ فيا فتنةَ إفشاءٍ وإخفاء
يحومُ الحبُّ حولَيكِ وقد همَّ بأشياء
فلا تدرينَ ما لفَّكِ من همسٍ وإيماء
قواريرُكِ في الختْمِ وفي النيرانِ أحشائي
على قطرة صهباء

يمرُّ النّاس لا أدري
وتمشينَ على سرّي

وتمشينَ ولا تدرين أيّامًا وأعواما
تجرّينَ جراحاتيَ من خلفِك أثلاما
وما أدري إلى أينَ ولا أسألُ حتّاما
وفي الموت أنا أحيا شبابَ العمرِ آلاما
وعمرَ الحبِّ أوهاما

يمرُّ النّاس لا أدري
وتمشينَ على سرّي

وتمشينَ وما دربُك في الأيّام من دربي
وتطوينَ من الآفاقِ ما ضاعتْ أساميها
ويحويكِ الكرى فيها
وتمشينَ على سرّي

بيروت – ١٩٣٧

من أيّام لبنان

من قصيدة ملحميّة ضاعت في ما ضاع لصاحبها من أوراق في حرب الستين. وهنا ما بقي منها في الذاكرة.

يومَ أبدعتَ بدعةَ الحرفِ
–فأنطقتَ جمادًا بألفِ ألفِ خطابِ
وتعاطيتَه فخلّدتَ فكرًا
كان من قبلُ طعمةً للترابِ
فمشى الصوتُ في الزمانِ فلا
–أمسٌ تقضّى ولا غدٌ في حسابِ
وطوى سحرُه المكانَ فدنيا
بعد دنيا مرصوفةٌ في كتابِ

يومَ أطلقتَ في الخضمِّ سفينًا
فشققتَ الحجابَ تِلوَ الحجابِ
حاملاً مشعلَ الهدايةِ في الناسِ
– رِغابًا مفضّيّةً برِغابِ
تزرعُ المُدْنَ والمعارفَ في أرضٍ
– وتمضي لغيرِها في طِلابِ
خَجِلَ السيفُ فاتحًا من شراعٍ
أبيضٍ خافقٍ على أخشابِ

يومَ صيدونَ قد تجبّرَ آشورُ
– وآلى: تكونُ في الأسلابِ
جهلَ الفاتحُ المظفّرُ صيدونَ
– وما أنفُها على الأحقابِ

إذ دَعتها الحرّيّةُ البِكرُ: أُختاه
فدوّى التاريخُ رَجْعَ جوابِ
ساعةُ الهولِ مصرعُ الذُلِّ من
– نحرٍ ونارٍ وشاهقٍ وعُبابِ
تخنقُ الأمُّ طِفلَها بين ثديَيها
– ويقضي الأبطالُ عضَّ حِرابِ
وإذا زينةُ العوالمِ لحدٌ
ورمادٌ وكومةٌ من خرابِ
لم تسلّم حتّى رضيتَ وحتّى
وقفَ المجدُ خاشِعًا بالبابِ

....

يومَ أرضعتَ رومةَ الفِقهَ من
– بيروتَ ثديَ العلومِ والآدابِ
يومَ تاهت يتيمةً لغةُ الضادِ
– فآويتَها لدى رهّابِ
قَسَطوا نُسكَهم فللّهِ وللحرفِ
– ليالٍ بيضٌ وسودُ ثيابِ
يسكبونَ العيونَ إن جفّتِ السُّرجُ
– وذوبُ البيانِ في التسكابِ
من جلابيبِهم كَسَتْ عُرْيَها نورًا
– ورُدّت من عزِّها في إهابِ

يومَ تشرينَ هل بتشرينَ إلّا تَبَعٌ سالكٌ على الأعقابِ
يا لَداودَ عصرِه رامَ جولياتَ – وجولياتُ في الحديدِ المُذابِ
إذ مشى الحقُّ أعزلًا ومشى – البُطلُ كميًّا إليه أزرقَ نابِ
جولةٌ جُدِّدَت وجُدِّد في – الناس حديثُ الجبّار والغلّابِ

بوانس ايرس – ١٩٤٨

إلى ربيع

نظمها لبكر أولاده

ذكرتُــه إمّــا ذكرتُ اسمَـه
غرقتُ بــالوردِ وبــاليــاسمينْ
وغرّدَ البلبــــلُ في أضلعي
واصطفقَ الشوقُ وهـاجَ الحنين
ربيعُ يا ابني! ما أحيلى وما
أنـــدى إذا نُوديَ بين البنين

آمنتُ بــاللهِ وأحكــامِـه
هـذا قضاءُ اللهِ في الوالـدِين
أولادُنـا أكبـادُنـا هـل لنا
من هـذه الأكبادِ غيرُ الأنين
لنـا وللـدنيـا بهم مـأربٌ
مختلفُ الهمّـــةِ قسوًا ولين
ورُبَّ صمّـاء جفـاهـا الحيا
تفجّرتْ بـالسلسبيــلِ المَعين

فيـا جنـاحَ الحبِّ يـا أمَّـه
لا تجزعي واستمسكي بـاليقين
من حضنِكِ السمحِ وعُشِّ الحِمى
إلى فضاء الخُوِّضِ السابقين
نُطلقُهم زُغبًـا قصارَ الخُطى
وتُنبتُ الأيّـامُ مـا تشتهين
قولي على اسمِ اللهِ واستشرفي
وكلِّلي بـالفخرِ منكِ الجبين

وفي غـدٍ حينَ تشيبُ المُنى
وننحني تحت رُكـامِ السنين
سنقهرُ الموتَ ونمضي إلى
لقـائـه في روعـةِ الخـالـدين
على جبينِ الـدهرِ منّـا نـدى
وفي ضميرِ الـدهرِ منّـا رنين

طهران – ١٩٥١

كَذَبَ الظنّ !

كَـذَبَ الظـنُّ فلم يبرحْ هـوانـا
مثلما كنّـا على العهـد وكـانـا
هـذهِ الكـأسُ وهـذي خمرُنـا
قـد عرفنـاهـا وهـذا مُتّكـانـا

كَـذَبَ الظـنُّ فلم يبرحْ هـوانـا
مثلما كنّـا على العهـدِ وكـانـا
صُنعُ كفّي أنتِ من وجدٍ وأحلامٍ وسُهدِ
دُميةٌ زوّقتُ وحدي
مِن غِواياتِ فؤادي وضَلالاتِ رشادي
ومِنَ الزهرِ شَذاهُ ومِنَ الفجرِ سنـاهُ
بُرجُ عاجٍ من خيالٍ وخيـالٌ مِـن مُحـالِ
مثلما سُوِّيَ مِن طينٍ إلهُ
بنتُ وهمي أنتِ

لا عظمٌ ولحمُ
أنتِ وهمُ
أيُّ طيفٍ مسَّه إنسًا وجانا
كـذبَ الظـنُّ فلم يبرحْ هـوانـا
مثلما كنّـا على العهـدِ وكـانـا

كـذبَ الظـنُّ فلم يبرحْ هـوانـا
مثلما كنّـا على العهـدِ وكـانـا
قرِّبـي عينَيـكِ فـي مـائِهمـا
ترتقصْ كـالأمسِ أبكـارًا مُنـانا
وجبينًـا كـوكبًـا طـافَ النـدى
بحواشيـه حيـاءً وافتنـانـا
وانشري فرعَيكِ أستروحْ شَذى
عـالقًا بالنَفْسِ من عهدِ صبانا

مدريد – ١٩٥٤

مدينة تحت الثلج

في «قوافل الزمان» أو قصائد البيتين قصيدة موزونة بهذا العنوان نفسه ، ذات بيتين فقط كأخواتها. وفي القصيدة المنثورة هُنا يُعالج الشاعر الموضوع نفسه على مدى أبيات أو أسطر تتجاوز العشرين. تجربة قام بها بين الطريقتين: المنبسطة المهلهلة من ناحية ، والموجزة المكثّفة من ناحية. فاختار في النتيجة هذه دون تلك والتزمها في ديوانه المذكور من أوّله إلى آخره.
وللقارئ أن يقارن بين الطريقتين.

الثلجُ يتساقطُ على المدينة
المدينةُ صامتةٌ تحت الثلج
سمعتُ المدينةَ تقولُ في قلبها
أنا عروسٌ والبياض ثَوبي

الثلجُ يتساقطُ على المدينة
المدينةُ تُخفي وجهَها تحت الثلج
تقولُ المدينةُ بحياء
بكبرياء
أنا عذراء
والسماء
عمياء
تنثرُ فضّةَ الأعراسِ بلا حساب
نقودًا يلتقطُها الأطفال

رفضها صيارفةُ المدينة لأنّها بلا رائحة

في عرسِ المدينةِ الجليل
كالمأتم
حوّمَ غراب
حطّ على ناطحةِ سحاب
لفّ بمنقارِه المدينة

تخدعين مَن أيّتها المدينةُ الغبيّة
ها هُم اصطفّوا على العتباتِ وتهيّأوا
أُنظريهم أيّتها الغبيّة الشقيّة
بالأحذية الضخامِ يدوسون ثوبَك
وبالرفوشِ يمزّقونه
عن وجهِ مومسٍ سائلٍ بالوحول

طوكيو – ١٩٧١

عصفورة الحبّ

إلى ف. ج.

عصفورةَ الحبِّ هل أغراكِ شبّاكي
أم هِيضَ من طولِ تجوالٍ جناحاكِ
هيّجتِ في القلبِ جرحًا غيرَ مُلتئمٍ
لولاكِ طابَ على الأيّامِ لولاكِ
عصفورةَ الحبِّ عادَ الحبُّ من سفرٍ
وعادَ شَرخُ الصِّبا طوعًا فوافاكِ
غنّي بدِفْءِ الحنايا قد فديتُ بها
بعضَ الذي بعثَت منهُ حناياكِ
وسلسِلي اللحنَ تحنانًا وتذكرةً
ونقّري أينما طالت قُصاراكِ
حبّاتِ قلبي ودمعي جالَ يسألُني
ما بعدُ ما بعدُ من غالٍ فأرضاكِ

نامي على الصدرِ نامي أنتِ ذاهبةٌ
إلى جزيرةِ أحلامٍ لمُضناكِ
تُضيء كالفرحِ المسفوحِ مِن دَهَشٍ
على مُحيّا الطفالى أو مُحيّاكِ
خلفَ البحارِ على مرمى الظنونِ لها
خُلجانُ ماسٍ وفيروزٍ لمرساكِ
حدودُها الحبُّ طوقًا والحنانُ بها
كلٌّ الهواءِ إذا ما هبَّ يلقاكِ
يزقُّها الموجُ من أطرافِها قُبَلًا
عَدَّ الرمالِ وجَهْشَ الضاحكِ الباكي

عصفورةَ الحبِّ دنيا الحبِّ مُغريةٌ
أخشى عليكِ إذا نادتكِ دنياكِ
فلو بسِلكٍ من الأهدابِ أنسجُه
أوثقتُ حبّي إلى أعناقِ أسلاكي
ماذا؟ تطيرينَ رُغمَ القيدِ؟ —أقطعُه
قد قُلتِ؟— طيري فعينُ الله ترعاكِ
حَسْبي جَناحانِ حتّى الموتِ خفقُها
بين الضلوعِ وحَسْبي المَلْمسُ الحاكي

بيروت — ١٩٨١

إلى هذا الحدّ!

إلى أ. ل.

إلى هذا الحدِّ أنتِ جميلةٌ يا صبيّتي
إلى هذا الحدِّ أنتِ نقيّةٌ وشفّافةٌ وعَذْبة
منسكبةٌ كالمطَرةِ في نيسان
كالنبعةِ من صخورِ لبنان

إلى هذا الحدّ أنتِ مَرِحَةٌ يا صبيّتي
من انبثاقِ الفجرِ وتفتّحِ الوردة
من طَيرةِ العُصفور
من كرّةِ الموجِ على الشاطئْ
من هبوبِ المسكِ وفوحِ قارورةِ الطيبِ
ومن ضحكةِ الطفل

إلى هذا الحدّ أنتِ رشيقةٌ يا صبيّتي
مُهرةٌ تلعبُ في حقلِها معَ الدهشة
تركضُ مع الريحِ على صهيلِ صِباها
تلحقُ بصداها
إلى الشفيرِ
تقفُ فجأةً وعينُها إلى الأُفق
تسألُ عن معنى الوجود

إلى هذا الحدّ أنتِ مَهيبةٌ يا صبيّتي
طالعةٌ من صُوَرِ الملوك في متاحفِ روما وبطرسبورج
وباريس
بِكرُ مَلِكِ الزمان أنتِ
إلى جانبهِ تنتصبين قُبالةَ الرّمح المنتصبِ في الجانبِ
الآخر
يبارقُ النَصرِ في عينَيكِ
وجبينُكِ صَفحةُ مجد

إلى هذا الحدّ أنتِ حاضرةٌ يا صبيّتي
في الزمانِ أنتِ وفي المكان
لا أمسِ ولا غد
بل اللحظةُ التي تسَعُ الأزلَ والأبد
ولا قُربَ ولا بُعد
بل هنا أنتِ
وتحت قدمَيكِ الأرضُ من أطرافِها

بيروت – ١٩٨١

أغنية لترقيص لعبة

إلى ص.ف.

لعبةٌ فتنةُ النظَر
دميةٌ أنتِ أم بشَر
صفّقي باليَدَين
وأغمِضي العينَين
دعوةٌ أنتِ للسفَر
إلى أين...

من شبّاك عينَيكِ قطعتُ تذكرةً
إلى الطفولة.

كان لي يا لُعبتي الصغيرة
في صِغري لُعَبٌ كثيرة
كان بابا نويل صديقي
هل أتاكِ الخبَر؟
يحملُ إليّ في العيد
اللعبةَ التي أريد
كرةً تنطحُ السماء
زرقاء صفراء حمراء
تنطُّ إلى شبّاكِ الجيران
تحطُّ بشهقات الفَرح
في الأحضان
قطارًا يمشي على قوس قُزَح
له صفّارة
تُطوشُ الحارة
سفينةً أمخر بها في بِركةِ الدار
كلَّ ما في كتبي من بحار
حصانًا أركبه إلى القمر
مدفعًا له بوزٌ دوّار
على أقفيةِ الصبايا الصغار
هل أتاكِ الخبَر؟

في صِغَري يا لُعبتي الصغيرة
بعد زوالِ العيد
ووَهَجِ الجديد
كنت أشقُّ لُعبتي بسكّين
أدقُّها بحَجر
أُمزّقُها بأظافري
لأكشفَ سرَّها قال...
أظافري ما تزال
وراء سرِّ الجَمال
في الكِبَر
هل أتاكِ الخبَر؟

لو يعودُ الصِغَر
يا لُعبةَ اللُّعَب
لكتبتُ إلى بابا نويل:

غلط ! غلط !
إيّاكِ أريد فقط

يا لُعبةً في الخيال
يا دعوةً للسفَر
إلى المُحال
صفّقي باليَدَين
وسرِّحي الأحلام
أسرابَ بِيضِ الحَمام
وأغمضي العينَين
يَهْنيكِ طيبُ المنام
أنا رضيتُ السهَر
وما أتيتُ بشيء
ولا أتاكِ خبَر...

بيروت – ١٩٨٥

شهرزاد الجديدة

إلى م. ز.

الحكاياتُ التي تحكينها لي ، من أين؟
هاتي من حكاياتِك ولا تتوقّفي يا شهرزاد
وصِلي ليلي بنهاري

أخبارُ الحبِّ والمحبّين
من قديمِ الزمان
إلى هذا العَصرِ والأوان
لها على شفتَيكِ طعمُ القُبُلات
ولحنُ ترقيصِ القلوب

البريئةُ في عُري الأطفال
والخبيثةُ لابسةً أقنعةِ الكرنفال
الصحيحةُ والكاذبة
المُضحكةُ والمُبكية
والحائرةُ بين الاثنتَين
على غمزةٍ من عينَيكِ مُسعِفة
بارعةٍ في مزجِ الخمور
وخلطِ البهارِ بالسُكَّر

– أتعرف قصّةَ الشيخ المتصابي؟
– لا.
– وقصّةَ العروسِ المغفّلة؟
– اِحكيها لي.

– والراهبة والأُوتوستوب؟
– نسيتُها.
– والموظّف الذي ركب الترامواي في حشرة وزاد معاشه من محطّة إلى محطّة؟
– لا. لا أعرفها.
أقول لا ، لكي أسمعها مرّةً ثانية. وثالثة. وعاشرة...
تُرى ،
كيف لا تشيخُ الكلمةُ عندكِ
وكيف تكتسي عجوزُها جِلدَ العذراء؟

حكاياتُكِ سبحةٌ عجيبة
تتعانقُ فيها الحكمةُ والبلاهة
تكشفُ فيها الحياةُ عن وجوهِها
تعرض أقفيتها عارية وتضحك...
ودائمًا في الحبِّ دائمًا
أليس الحبُّ هو الحياة؟
فيا هناء المحبّين في حكاياتِك
ويا شقاءهم تحت سياطِك!

حكاياتُك الحلوة
وددتُ لو جمعتُها في كتاب
أضعُه على مِخدّتي
يكون في كلِّ بيت

ماذا نسمّيه؟ – هنا المشكل.
تأليف فلانة ، على كلٍّ حال ، ابنة فليتان ، صاحبة
الألفِ لسانٍ ولسان ،
عفا الله عنها.

ولكن لا!

أنا لا أُريدُ كتابًا
كتابي أنتِ يا شهرزاد
وأنا شهريارُك
وحياتك احكي لي
اُقعدي هنا
ولْنبدأ من جديد!

بيروت – ١٩٨٥

المنارة والزورق

تعالَوا ، يا أولادي وأحفادي ، أحكي لكم حكاية . حكاية المنارة والزورق . هل تعرفون حكاية الزورق والمنارة؟
جدّي ، رحمه الله ، كان يحكي لنا حكاياته . وقد صرت جدًّا وهذه حكايتي لكم .
إِحفظوها في قلوبكم . وتحكونها من بعدي لأولادكم وأحفادكم .

كان في الزمان منارةٌ على شاطئ البحر وزورق .

وكانت المنارة تعتلي صخرةً ذاتَ شماريخ ، جعل الزورق متّكأه في فجوة منها منذ نزل البحر .

هناك ، عند أقدام المنارة ، كان يستريح من الأسفار ، ويتّقي القيظ والأمطار .

وكان الزورق يُحبّ المنارة ويذهب كلَّ يوم إلى البحر لصيد اللآلئ ويعود في المساء فيضع في حضنها لؤلؤة .

ربّما تأخّر في العودة . ولكنّ المنارة تعرف أشواقه . من أجل هذا كانت تنتصب على الشاطئ الموحش ، وتسهر الليلَ في انتظاره .

مَن مثلها في الجلالِ والبهاء على العرش المعلّق بين الأرض والسماء !

ملكةُ البحر المتوَّجة ، بذراعٍ من ضياء ترعاه ، وبجبينه يعفّر أقدامها .

والبحر يعلم ، ويعلم البرّ ، أنّها عاشقة الزورق .

من أجله تسهر الليل ، وتتلقّى سِياط الرياح ، وشماتة الشموس الوقِحة .

ذاتَ يوم طلعت جنّيّة البحر من أعماق البحر ، ونظرت إلى المنارة ثمّ نظرت إلى الزورق وقالت :

– لولاه لم تكن ملكة !

فسمعها مارد البرّ من مجاهل البرّ فأقبل يقول :

– ولولاها لما استطاع أن يعود كلَّ يوم بلؤلؤة .

وتلاقت عينُ المارد وعينُ الجنّيّة .

ثمّ مال عليها حتّى ألهبتها أنفاسه وأسرّ في أذنها :

– سبعة أيّام بلياليها مضت على غيبته – رحلته الكبرى إلى ما وراء الأفق – وهو يعود اليوم بلؤلؤة عجيبة تُزري بكنوز الأرض .

كانت الشمس في المغيب والشاطئ ليس بالقريب .

ولكن ، ما همّ الزورق العتيق والمنارةُ في قلبه منذ ركب البحر غِرًّا .

ألف سفرة له سلفت بألف عودة إلى حضن الضياء ، مُثقَلًا بأحماله عاد ، أم تصطكّ أضلاعه من فراغ وخيبة .

فليعقد مجذافَيه على إغفاءة

وليُهدهِد البحر أحلامه .

كم ضربَ في الآفاق ، وغاص في الأعماق ، لم يعرف ليله من نهاره .

كان يسبق الشروق ويطوي المغيب تحت مجذافه ،
راكبًا أفراس الأمواج في سباق مع الريح إلى جزر المستحيل
إلى أغوار الظنون
إلى رؤى الأنبياء وأحلام الأطفال
حيثُ اللؤلؤة العجيبة.

بأيّ همسٍ غريب تروح الأمواج وتجيء بين البحر والبرّ؟
بأيّ نبأ مُريب!
عهدها تغنّي للزورق العائد زغردات الفرح ، وبساطَ اللقاء تمدُّ له
بأنامل الأنسام تنسجه ، وبالنفناف تُزركش أطرافه ، والأقمار في عليائها تتنادى لتصنع أصباغه.
ما بالها تُقبل بالحذر وتُدبر بالشكّ؟
قلِقة ، معذّبة ، مُلتاعة ، كالحُبلَى في يومها.
وبنزوةٍ تنطحُ السماء وترتدّ على المنارة بعناق مُنكَر.

لم يَرَ الزورق المهوّم في عرض البحر الأظافرَ الزُرق تداعب في انزلاقها عُري المنارة ، ولم يسمع قهقهة الأمواج الراجعة.
ثم استفاق فإذا المساء قد تجهّم ، وفي السماء صفوفٌ من غيوم مجيّشة ، وفي الأفق بروق خُرس.
فاقشعرّ – كأنّما هو ينفض الغفلة – واستأنف مسيرته حثيثًا نحو الشاطئ.
ليس الشاطئ ببعيد.

ولكنّه ليس بالقريب.
أين الشاطئ؟
أين المنارة؟
بل أين الزورق؟
تتلاعب به الأمواج
تدفعه يمينًا ويسارًا ، تعلو به وتهبط
تحذفه كُرة
تفتلُه خذروفًا.
جولةُ المكر – يعرفها الزورق العتيق من البحر.

البحر يضحك وما هو بالضاحك.
ها هو قد شال بذراعَيه
يضربُ الضربة تقصف مجذافًا
وأختَها تكسر أضلاعًا
يَفغَر الأشداق
ويقرعُ في الأعماق طبول جهنّم!
جولة البأس؟ – هي الأخرى يعرفها الزورق العتيق من صاحبه
وهو لها!
عيناه إلى المنارة تشدّ من عزمه إذا خار وتمدّ له حبالَ الرجاء...
ولكن أين المنارة؟
– «أين أنتِ يا منارةَ العمر؟»

كان النداء يضيع بين قهقهات مارد البرّ وزعقات جنّيّة البحر.
ومن البرّ إلى البحر مدّ المارد بإصبعه هاتفًا:
– أنظري!
فنظرت الجنّيّة وبرقت عينها في الليل.
وإذا المارد قد أخذ الغيوم بذراعَيه الاثنتَين.
ثمّ أرعد ثلاثًا
وبميلةٍ واحدة مال على المنارة فعصب عَينَيها بجلبابه الأسود
فهي عمود أسود في الليل الأسود البهيم.

حينئذ انصرفت الجنّيّة إلى شأنها ، تُفرغ الزورقَ من وَسْقه نهبًا وتُلقي إلى أخواتها الطافرات من كلّ صوب وهنٌّ يتلقّفن منها ويغطسن في اللجّة: أصنافًا من الصناديق لا عدّ لها ولا وصف ، مرصّعة بالماس

والياقوت، معقودة بشرائطَ من حرير، وهي تقهقه مُخرِسة عويلَ الليل، ودقّاتُ قلبها الرجيم تغالب الصواعق، ثمّ تنحني وتمرّ بأظافرها فحصًا في جوانب الزورق وزواياه لعلّ شيئًا مخبوءًا.

ولم تتركه إلّا بعد أن جرّحت أضلاعه.

إنتصفَ الليل

وقلق على الصيّاد أولادُه وكانوا ينتظرون عودته في ذلك اليوم فخرجوا إلى الشاطئ يبحثون عنه.

كانت العاصفة على الشاطىء تضرب البحر بالبرّ، وهم يدفعون رؤوسهم فيها وهي تتقاذفُهم بعثرةً لبعضهم عن بعض، وردًّا لبعضهم على بعض، وعضًّا للأرض.

حتّى تشقّقت أقدامهم ودميت عيونُهم.

ولمّا وصلوا إلى الصخرة انحَنوا على فجواتها حيثُ متّكأ الزورق فلم يجدوا إلّا الأمواج تدور فيها وتُولول ثمّ رفعوا أنظارهم إلى المنارة فإذا هي عمياء!

صفع واحدهُم بكفّيه وجه الليل وصاح:

– أبي!

وانبرى الثاني يبادر الأمواج الصاخبة:

– أقذفُ بنفسي في البحر وأُنقذ أبي.

ودار الثالث في الشاطئ ثمّ عاد وفي يده شيء:

– أنقل البحر بهذه الصدَفة إلى البرّ وأُلاقي أبي.

ولكنّ صُغراهم كانت قد ركعت على الرمال وضمّت يدَيها إلى صدرها:

– تعالوا نصلّي.

فجثَوا على رُكَبِهم ورفعوا قلوبهم إلى السماء.

كانت السماء تعلم أنّ الصلاة أقوى من العاصفة وكانت العاصفة تعلم أنّها لا تقوى على إطفاء مشاعل القلوب.

وهكذا انهزم المارد

وبانهزامه انجلت العصابة عن عينَي المنارة وسقط عنها الجلباب الأسود، فعادت إلى عريها البكر تشمخُ بتاجها المُشعّ ملكةً على البحر، والبحر يجثو ويقبّل أقدامها.

ولمّا وصل الزورق إلى الشاطئ ترامى الأولاد على أبيهم يمرّغون وجوههم بصدره، فضمّهم إليه ناظرًا إلى المنارة

وطفرت من أجفانه – بدل الواحدة – لؤلؤتان عجيبتان...

تابيه – ١٩٦٧

فهرس

حصاد العمر

منسيّات